المكتوبات للإمام الرباني

تأليف

الإمامِ الربّاني المجدِّدِ للألفِ الثاني

أحمد الفاروقي السرهندي

قدس الله سره العزيز

الجزء الأول • الجزء الثاني • الجزء الثالث

دار السراج

المكتوبات للإمام الرباني

تأليف

الإمامِ الربّانيّ المجدِّدِ للألفِ الثّاني

أحمد الفاروقيّ السّرهندي

قدس الله سره العزيز

الجزء الأول

دار السراج

جَمِيعُ الحُقُوقِ مَحفُوظَةٌ لِدَارِ السِّرَاجِ

الكتاب: المكتوبات للإمام الرباني

المؤلف: الإمام الرباني أحمد الفاروقي السرهندي

الطبعة الأولى: ١٤٤٢هـ/ ٢٠٢١م

الطبعة الثانية: ١٤٤٢هـ/ ٢٠٢١م

ISBN: 978-625-7284-03-5

Siraç Yayınevi

Balat Mah. Murat Molla Sok. No: 10/1, Fatih/İstanbul

حي بلاط، زقاق مراد ملا، رقم: ١/١٠، الفاتح . إستانبول

0 (212) 521 72 45 | 0 (212) 635 10 10

bilgi@ismailagayayinevi.com | www.siracpazarlama.com

Baskı-Cilt

Sistem Matbaacılık

Yılanlı Ayazma Yolu, No: 8 Davutpaşa,

Zeytinburnu/İstanbul

0 (212) 482 11 01

المكتوبات للإمام الرباني

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

معرب المكتوبات الشريفة الموسوم بالدرر المكنونات النفيسة للفقير المحتاج
إلى لطف رب العباد محمد مراد المنزلوي تولداً المكي توطناً عرَّبتُها رجاء
أن ينتفع بها إخوان طريقتنا الذين لا معرفة لهم باللغة الفارسية
التي هي أصلها والتركية التي هي ترجمتها وأسأل
الله سبحانه أن يجعل خالصاً لوجهه الكريم
وأن يجيرني به من العذاب
الأليم إنه رؤوف
رحيم حليم

للمؤلف المعرِّب اللاشي:

أَمُوتُ وَيَبْلَى أَعْظُمِي فِي المَقَابِرِ ❊ وَسَوْفَ أَرَى مَا قَدْ حَوَتْهُ دَفَاتِرِي

فَرُمْتُ ادِّخَاراً بَعْدَ مَوْتِي مِنَ الدُّعَا ❊ فَأَبْقَيْتُ تَذْكَاراً نَتَاجَ خَوَاطِرِي

المكتوبات للإمام الرباني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي عَجَزَت العقولُ عن إدراك كُنْهِ ذاته، وتحيَّرتْ فهومُ الفحول في معرفة صفاته، أَبْدَعَ العالَمَ وأَجْلَى عجائبَ صُنْعه في مجالي مصنوعاته، وخَلَقَ نوعَ الإنسان وأَوْدَعَ فيه جميعَ ما في مكوناته، وشرَّفهُ وكرَّمهُ بخلافته، وفضَّلهُ على سائر بريَّاته، وصَيَّرها سبباً لنجاتهِ وإنجاح حاجاتهِ، ورَفْعِ درجاته وسُلَّماً لعروجاته، إلى أَوْجِ القُرْب وأقصى غاياته.

ولَآلِي الصَّلواتِ، وجواهرُ التَّسليمات، وفرائدُ التحياتِ، على أشرفِ مخلوقاته، وأكرمِ موجوداته، والمظهرِ الأتمِّ لظهوراته، سيِّدنا ومولانا محمدٍ المرادِ من خلق الكونين، والعلَّةِ الغائيَّةِ لإفاضة فيوضاتهِ وبثِّ بركاتهِ، وعلى آله وأصحابه الذين حازوا نعمةَ صُحْباته، وفازوا بالتَّطفُّل في سائر كمالاته، وعلى جميع أولياء أُمَّته الذين بَذَلوا جُهْدَهم في إحياء مِلَّتهِ، واتِّباع سُنَّتهِ، واقتفاءِ سيرته، في جميع حالاتهِ، فأباح اللهُ لهم موائدَ نعمهِ، وقَلَّدهم لطائفَ مننه، وزيَّن ظواهرَهم وبواطنهم بمكارم شِيَمه، ونوَّر قلوبَهم من لَوَاقحِ الأنوار، وملأ أسرارَهم بفُصُوص الحِكَم وجواهر الأسرار، وكحَّلَ أبصارَ بصائرهم بكُحْل العناية والاستبصار، وأشمَّهم عوارفَ المعارف، ومَنَحَهم قُوتَ القلوب، وأَطْلَعَهم من العلم على مكنوناته.

أَمَّا بَعْدُ: فهذه دُرَرٌ مكنوناتٌ مُنيفةٌ، برزتْ من أصداف عبارات المكتوبات الشَّريفة، للإمام الرَّبَّانِيِّ، والغَوْث الصَّمدانِيِّ، والقُطْب السُّبحانِيِّ، والعارف الرَّحمانِيِّ، نُقطةِ دائرة الإرشاد، رُحلةِ الأبدال والأوتاد، قُدوةِ الكُمَلاء الأفراد، واقفِ الأسرار الإلهيَّة، كاشفِ دقائق المتشابهات القرآنيَّة، برهانِ الولاية الخاصَّة المحمديَّة، سَمِيِّ سيِّد المرسلين وأفضل البريَّة، بالاسمِ الذي بشَّر به المسيحُ على نبيِّنا وعليه الصَّلاةُ والسَّلامُ والتَّحيَّة، سيِّدِنا وسندِنا ومولانا ووسيلتِنا إلى الله القديمِ الكريمِ الأحدِ الأبديِّ، الشيخِ أحمدَ بنِ الشَّيخ عبدِ الأحد..........................

السَّرهندي مَحتِداً، الفاروقيّ نَسَباً، النَّقشبنديّ مشرباً، الحنفيّ مذهباً، الشَّهيرِ عند الأقاصي والأداني، بمجدِّد الألف الثَّاني، قدَّس اللهُ سِرَّه، وروَّحَ روحَه، ونوَّر ضريحَه، وأفاض علينا من بركاته، وجعل لنا نصيباً وافراً من جميع مقاماته، بحُرْمَة أشرف العباد، وآله الأمجاد.

وكانت تلك الجواهرُ تَصْدُرُ من لُجَج مكشوفاته ومعلوماته قدس سره شيئاً فشيئاً على مرور الأوقات والحِجَج مُدَّةَ حياته، من بداية كمالِه إلى حين مماتِه، على مقدار استعداد كلٍّ من أَرْسَلَ إليه حسبَ ما يظهر من عالم الغيب لديه، بعضُها في ذمِّ الدُّنيا الدَّنيَّة، وبعضُها في الحثِّ والتَّحريض على ما ينفعُ في الآخرة ودرجاتِها العليَّة، وبعضُها في النَّصائح والمواعظ البهيَّة، وللقبول حَرِيَّة، وبعضُها في التَّرغيب في ترويج أحكام الشَّريعة المصطفويَّة، وأكثرُها في بيان أسرار الشَّريعة المحمديَّة وتحقيق حقائقها، وحلِّ رموز الطَّريقة النَّقشبنديَّة الأحمديَّة وكَشْفِ دقائقها، مقتبسةً من أنوار متابعة السُّنَّة السَّنيَّة، مقتطفةً من أشجار اقتفاء السِّيرة المصطفويَّة، وملتقطةً من موائد فوائد التَّأدُّب بالآداب النبويَّة، مصداق قوله ﷺ: «**إِنَّ مِنَ الْعِلْمِ كَهَيْئَةِ الْمَكْنُونِ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِاللهِ** -وفي روايةٍ: **إِلَّا الْعُلَمَاءُ بِاللهِ**-، **فَإِذَا قَالُوهُ** -وفي روايةٍ: **تَكَلَّمُوا**، وفي رواية: **نَطَقُوا بِهِ**- **لَا يُنْكِرُهُ إِلَّا أَهْلُ الْغِرَّةِ بِاللهِ**»[1]، وقوله ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ؛ وَرَّثَهُ اللهُ تَعَالَى عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**»[2]، يعني: من غير تعلُّم من أحدٍ، ولا أخذٍ من الكتاب، بل بمجرَّد فتح الباب، من طرفِ حكيمٍ عليمٍ وهَّابٍ، وهو علمُ الوراثة المحمديَّة الذي وَرِثَه الأولياءُ من باطنيَّة محمدٍ ﷺ بأسانيد الإلهام، ونقله الكشفُ التامّ، وصفاءُ السَّريرة، وصدقُ المعاملة مع الله تعالى دون غيرهم؛ لحديثٍ رواه القَسْطَلَّانيُّ في «المواهب اللدنيَّة» وغيره في كتب الأحاديث النبويَّة من قوله ﷺ: «**وَسَأَلَنِي رَبِّي، فَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أُجِيبَهُ، فَوَضَعَ يَدَهُ بَيْنَ كَتِفِي بِلَا تَكْيِيفٍ وَلَا تَحْدِيدٍ، فَوَجَدْتُ بَرْدَهَا، فَأَوْرَثَنِي عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَعَلَّمَنِي عُلُوماً شَتَّى، فَعِلْمٌ أَخَذَ عَلَيَّ كِتْمَانَهُ؛ إِذْ عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى حَمْلِهِ أَحَدٌ غَيْرِي، وَعِلْمٌ خَيَّرَنِي فِيهِ، وَعَلَّمَنِي الْقُرْآنَ، فَكَانَ جِبْرِيلُ يُذَكِّرُنِي بِهِ، وَعِلْمٌ أَمَرَنِي بِتَبْلِيغِهِ إِلَى الْخَاصِّ وَالْعَامِّ**»[3]. انتهى. فتبيَّن من هذا الحديث: أنَّ وراءَ العلم الذي أُمِرَ بتبليغه إلى الخاصِّ والعامّ الذي هو علمُ الشَّرائع والأحكام عِلْمَين آخرين -بل علوماً شتّى- كما قال ﷺ، كلُّها حقٌّ. أمَّا العلمُ المأمورُ بكتمانه؛ فهو عِلْمُ النبوَّة؛ إذ لا يعلمه ولا يَقْدِرُ على حَمْله غيرُ النبيّ، ولا نبيَّ بعده. وأما العلمُ الذي خُيِّرَ فيه ﷺ؛ فهو عِلْمُ الولاية، وهو علمُ باطن الشَّريعة وحقيقتِها وأسرارِها المخزونةِ المكنونةِ التي أَسَرَّها النبيُّ ﷺ لخواصِّ أصحابه، كما خَصَّ بأعلام المنافقين حذيفةَ رضي الله عنه، وهم أَسَرُّوها إلى خواصِّ أصحابهم، وهَلُمَّ جرّاً؛ لأنَّها إنَّما تُؤخذُ وتُتلقَّى بالأحوال الصَّادقة، والعقيدة الرَّاسخة، والأعمال الصَّالحة المصحوبةِ بالإخلاص والنيَّة الخالصة، وملازمة الذِّكر، ومداومة الفِكْر، ومراقبة الحضور مع الله تعالى. كذا قال خاتمةُ المحقِّقين العارفُ بالله الشيخ عبد الغني النَّابُلُسِيُّ قدس سره. وقال أبو هريرة رضي الله عنه -فيما رواه البخاريُّ في صحيحه-: حَفِظْتُ عن رسول الله ﷺ وعاءَيْن: أمَّا أحدهما فبَثَثْتُه، وأما الآخرُ؛ فلو بَثَثْتُه قُطِعَ هذا البلعومُ. يعني: لقتلوني لحكمهم بكفري حيث لم يفهموا ما أشيرُ إليه في كلامي من حقائق المعاني وأسرار الشَّريعة المطهَّرة، كما وقع للإمام حُجَّة الإسلام أبي حامد الغَزَّاليِّ حين أَظْهَرَ بعض أسرار معاملة الدِّين، حيث رَمَوْه بالزَّندقة. ....

---

(1) أخرجه أبو عبد الرحمن السلمي في «أربعينه» في التصوف: (ص١٣)، والديلميُّ في «مسند الفردوس»: (٨٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء»: ١٠/ ١٥ من حديث أنس رضي الله عنه.

(3) انظر: «المواهب اللدنية»: ٢/ ٤٨٢- ٤٨٣. وأخرج الترمذيُّ بعضَه (٣٢٣٣) وصححه بلفظ: «أتاني ربي في أحسن صورةٍ، فقال لي: يا محمد، قلتُ: لبيك ربي وسعديك، قال: هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أعلم، قال: فوضع يده بين كتفيَّ حتى وجدتُ بردها بين ثدييَّ أو في نحري، فعلمتُ ما في السموات وما في الأرض أو ما بين المشرق والمغرب... » الحديث.

والخروج من الدِّين، فلا بُدَّ من كتمانه من غير أهله إلى أن يجيءَ وقتُ ظهوره بإذن الله تعالى، فإنَّ الأمورَ مرهونةٌ بأوقاتها: (شعر)

وَلِلْمَرْءِ أَحْوَالٌ وَلِلْحَالِ فُرْصَةٌ ... وَلِلدَّهْرِ أَوْقَاتٌ وَلِلْوَقْتِ حَادِثُ

كما قال ﷺ لعائشة رضي الله عنها ـ على ما رواه الشَّيخان ـ: «**لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُوا عَهْدٍ بِشِرْكٍ؛ لَهَدَمْتُ الْكَعْبَةَ، فَأَلْزَقْتُهَا بِالْأَرْضِ، وَجَعَلْتُ لَهَا بَابًا شَرْقِيًّا وَبَابًا غَرْبِيًّا، وَزِدْتُ فِيهَا سِتَّةَ أَذْرُعٍ مِنَ الْحِجَرِ، فَإِنَّ قُرَيْشًا اسْتَقْصَرَتْهَا حِينَ بَنَتِ الْكَعْبَةَ، فَإِنْ بَدَا لِقَوْمِكِ مِنْ بَعْدِي أَنْ يَبْنُوهُ؛ فَهَلُمِّي لِأُرِيَكِ مَا تَرَكُوا مِنْهُ**» الحديث[1]، فانظر كيف ترك النبيُّ ﷺ أمراً مشروعاً مخافةَ الفتنة في زمنه، وأشار إلى جواز فِعْلِ غيره ذلك الأمرَ في وقتٍ آخر؛ لعدم توقُّع الفتنة.

فلاح من هذا وجهُ بثِّ المتأخِّرين علومَ الأسرار بالتَّآليف والتَّصانيف، مع سَتْر المتقدمين وكَتْمِهم إيَّاها، على أنَّ قصدَهم في ذلك إفادةُ أهلها دون غيرهم، ولهم في ذلك مقاصدُ أخرى حسنةٌ يُعلمُ بعضُها من بعض هذه المكتوبات:

(ع) فَيَا لَهَا قِصَّةٌ فِي شَرْحِهَا طُولُ

ولَمّا كَثُرَتْ تلك المكاتيبُ وانتشرتْ، وفي أقطار الأرض انتثرتْ، قام بجمعها ثلاثةٌ من كبار أصحابه حسب الإشارة والأمر، فجمعوها في ثلاثة مجلَّدات، وأَوْدَعُوها في دُولاب الدَّهْر، فبَقِيَتْ على ما كانت عليه من العبارة الفارسيَّة زماناً طويلاً، فأما الذين هم من أهل لسانها؛ فكانوا يشربون من يَدِ خرائدها شراباً سلسبيلاً، ويُزَيِّنون بفرائدها تيجاناً وأكاليلاً، ويُدَاوُون بعقاقيرها من سَقَطَ مريضاً وعليلاً، وأما الذين خالفَتْها لغاتُهم؛ فلم يكادوا يهتدون إليه سبيلاً، ولم يجدوا في وصالها عليهم دليلاً، ولا مَنْ يكون عليه عويلاً، فطالما امتدَّتْ إليه أعناقُ الأشواق، واشتدَّ صدودُها على العُشَّاق، وهي مُحَجَّبةٌ بأَسِنَّة أبطال العبارات الفارسيَّة، والإقدامُ عليها أشدُّ وأصعبُ من اقتحام وقعة القادسيَّة.

ولَمّا رأيتُ كثرةَ تَطْلَاب المشتاقين إيَّاها، وتَطَوُّفَ العاشقين حول حِمَاها، وسقوطَ الهائمين بها صَرْعَى ما بين رُباها، ورأيتُ الميدانَ عن فرسان هذا الشَّأن خالياً، والزَّمانَ ماضياً، وهي على صُدُودها كما هِيَ، اختلج في صدري أن أُلْقِيَ لإصلاح ذات البَيْن في حدود بحرها الفارسيّ المراسيَ، وأقطعَ في جزيرة العرب مهامَةَ ورواسياً، لِمَا بيني وبينها من المعرفة والأُلفة من صِغَر السنّ، إلى أن ناهز العمر الآن الثّلاثين، ولكن امتنعتُ عن ذلك؛ لعدم الاستطاعة وقلَّة البضاعة في العلوم العربيَّة، وقصورِ الباع وقلَّةِ الاطِّلاع على الفنون الأدبيَّة، وعيَّرتُ نفسي أشدَّ تعيير، قائلاً: أنَّى لك هذا فإنَّك لَسْت في العير ولا في النَّفير؟ وهَبْ أنَّ بينك وبينها معرفةً ما ولكن أين فيك حلاوةُ التَّعبير؟ فإنَّك لم تَلِدْكَ يَعْرُب وإِيَاد، ولم تنشأْ في كوفةٍ ولا بغداد، مع أنَّ رجالَ هذا الشَّأن قد لَعِبَتْ بهم أيدي النَّوائب، فركبوا غاربَ الاغتراب، وصاح على أوطانهم البومُ والغراب، وتوجَّهوا نحوَ إقليم الزَّوال والأُفُول، وسحب الذلُّ والمهانةُ على بقاياهم الذُّيول، فحملوا حمولَهم على زوايا الاستتار والخمول، فكلُّ من جاء حول خيامهم يجول، يقوم راهبُ دَيْرهم ويقول: (شعر)

إِنَّ الْخِيَامَ الَّتِي قَدْ جِئْتَ تَطْلُبُهَا ... بِالْأَمْسِ كَانُوا هُنَا وَالْآنَ قَدْ رَحَلُوا

فيرجع باكياً مشبِّكاً عُشْرَه على رأسه ومنشداً: (شعر)

لَا وَالَّذِي حَجَّتْ قُرَيْشٌ بَيْتَهُ ... مُسْتَقْبِلِينَ الرُّكْنَ مِنْ بَطْحَائِهَا

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٦)، ومسلم (١٣٣٣)، وهذا لفظ مسلم.

مَا أَبْصَـرَتْ عَيْنِي خِيَامَ قَبِيلَةٍ ... إِلَّا بَكَيْتُ أَحِبَّتِي بِفِنَائِهَا

أَمَّا الْخِيَامُ فَإِنَّهَا كَخِيَامِهِمْ ... وَأَرَى نِسَاءَ الْحَيِّ غَيْرَ نِسَائِهَا

ثم بعد مُدَّةٍ من ذلك تأكَّدَ ما هجس في الخاطر الفاتر هنالك بوقوع الإشارة، ممن إشارتُهُ مشتملةٌ على أنواع اللُّطف والبِشَارة، فاستخرتُ الله سبحانه بعد هذه الإشارة، وكرَّرتُ الاستخارة، فانشرح صدري لِمَا قَصَدْتُه من أمري، وعلمتُ أنَّ الله إذا أراد شيئاً فلا بُدَّ وأن يقع حسبما أراد، ولكنَّ مرورَ الأزمان من شروط ظهور المراد، فتوجَّهْتُ مترجِّلاً تلقاءَ مَدْيَن المآرب، راجياً من الله سبحانه أن أكون رابِعَهم[1] كلبهم بتطفُّلهم في تلك الأذواق والمشارب، وسلكتُ في النَّقل من طريقَي التَّرجمة المسلكَ الثَّاني، أعني: رعايةَ جانب المعاني، لكونه أجودَ، مع رعاية الأوَّل، أعني: رعاية جانب اللَّفظ مهما أمكن، فإنَّه أبعدُ عن الشُّبهة وأحمد، فإن أتيتُ ببعض ألفاظٍ ليس في المنقول عنه ما يرادِفُها من نحو إظهار المضمر، وتفسير المجمل، وتبديل الجمع بالمفرد وعكسه، وتغيير الغيبة إلى الخطاب والتكلّم وعكسه، وأمثال ذلك؛ فهو من لوازم هذا المسلك، فإنَّ تغايُرَ اللُّغتين وتبايُنَ الاصطلاحين مقتضيان لذلك، وما أظنُّك تَجِدُه إلا قليلاً، فيما لم أَجِدْ إلى العدول عنه سبيلاً، ومع ذلك هو أيضاً مقتبَسٌ من ذلك النِّبراس، لإزاحة الالتباس، ودفع الوسواس، لا أخذٌ بالتَّخمين والقياس، والتزمتُ إيرادَ جميعها وإن وقع مكرَّراً، فإنَّ ذلك أسلمُ وأفيدُ.

والمرجوُّ من النَّاظرين أهلِ الإنصاف، المتباعدين عن الاعتساف، إغضاؤهم عما وقع فيه من الزَّلَل، وإصلاحُهم ما ظَهَرَ لهم فيه من الخَلَل، فإنَّ الله سبحانه أبى أن يصحَّ إلا كتابُه: (شعر)

وَمَنْ ذَا الذِي يُرْضَى سَجَايَاهُ كُلُّهَا ... كَفَى الْمَرْءَ نُبْلاً أَنْ تُعَدَّ مَعَائِبُهْ

وعدمُ الاستعجال، بإطلاق سِهَام الملام ونِبَال المقال، فإنَّ الاشتغالَ برؤيةِ عيوب الرجال، من عادة السَّفلة ودَيْدن الأرذال: (شعر)

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلاً صَحِيحاً ... وَمَنْشَؤُهُ مِنَ الْفَهْمِ السَّقِيمِ

خصوصاً إذا انجرَّ ذلك إلى طعن الأكابر وسوء الظنِّ فيهم، الحذرَ الحذرَ من ذلك، فإنَّ سهمَهم صائبٌ، ولحمَهم مسمومٌ، ومُعَارِضَهم مشؤومٌ، وقتيلَهم لا يحيى، وصريعَهم لا يقومُ: (شعر)

دَخَلْتَ غَابَ أُسُودٍ غَابَ عَنْكَ حِجىً ... وَأَنْتَ تَحْسَبُهَا دَهْنَاءَ غِزْلَانِ

فإن حصلتْ لك القناعةُ بما فيه، وانتفعتَ به؛ فيُبَارَكُ فيك، وإلا؛ فدَعْ ما يَريبك إلى ما لا يَريبك، وسلِّم الأمرَ إلى أهله، فإنَّ الله يأمركم أن تؤدُّوا الأمانات إلى أهلها: (شعر)

إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ أَمْراً فَدَعْهُ ... وَجَانِبْهُ إِلَى مَا تَسْتَطِيعُ

فإنَّ لكلِّ ميدانٍ رجالاً، ولكلِّ رجالٍ مقالاً وأحوالاً، (السَّيفُ للضَّارب) مَثَلٌ مشهورٌ، ولله درُّ القائل: (شعر)

وَمَنْ سَمِعَ الْغِنَاءَ بِغَيْرِ قَلْبٍ ... وَلَمْ يَطْرَبْ فَلَا يَلُمِ الْمُغَنِّي

وعليك الاتِّعاظُ بما وَعَظك به الشَّيخُ عبدُ الغني النَّابلسيُّ روَّح الله روحَه ونوَّر ضريحَه، حيث قال: واحذرْ من الطَّعن في أحدٍ منهم، واعتقادِ مخالفته لِمَا عَلِمْتَ من الكتاب والسُّنَّة، فإنَّهم أعلمُ منك بهما، وأكثرُ فهماً منك ومن أمثالك لمعانيهما؛ لتَنَوُّر عقولهم...

---

(١) يعني: رابع الذين جمعوا هذه المكتوبات كما مرَّ بقوله: (قام بجمعها ثلاثة من كبار أصحابه). (المعرِّب)

بنور معرفة الله، وزيادةِ الاطِّلاع على سُنَّة رسول الله، واتِّصافِهم بالإخلاص واليقين، وأنت أيُّها الفقيهُ المسكينُ تعرفُ حصَّةً من كيفية الأعمال الشَّرعيَّة، استخلصتَ معرفتها من بين يدي اشتغالك بشهوات بطنك وفرجك، فأنت فرحان بها تظنُّ أنَّك بسببها صرتَ من العلماء الكبار، وساوَيْتَ المتقدِّمين أولي الأبصار والاستبصار، فاعملْ بما بَدَا لك إن أردت النَّصيحةَ، ولا تدخلْ في أعمال مَنْ هو أعلى منك من أولي الهِمَم الصَّحيحة، ومن أين للعُصْفور أن يأكل من مأكل النُّسور، فإنَّ حوصلَتَه المعتادةَ على الحبَّات الصِّغار، لا تشابِهُ حوصلةَ النُّسور التي لا يقيتها غيرُ اللُّقَم الكبار؟ ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ يعني: عذوبةً وأجاجاً، و﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾. انتهى ملخصاً.

وجُلُّ المقصود من ارتكاب هذا الأمر الجسيم، والخَطْب العظيم، أداءُ بعض خدمة عَتَبة مَنْ طوَّقني قلائدَ مِنَح جزيلةٍ، وأنْعَمَ عليَّ بجلائل نِعَمٍ جميلةٍ، مرشدِ السَّالكين، ومربِّي الطَّالبين، وقدوةِ الواصلين، وزُبْدةِ العارفين، شيخِ الحرمين الشَّريفين، وإمامِ المقامين المنيفين، حامي مُهْجَة الطَّريقة النَّقشبنديَّة، وحافظِ النِّسبة الأحمديَّة المجدِّديَّة، سيِّدِنا ومولانا ومرشدِنا ووسيلتِنا إلى الله، سيدي الشيخِ الجليل، والسيِّدِ النبيل، أبي عبد الله محمد صالح بن عبد الرحمن الزّواويّ، عامله الله تعالى بفضله العميم ولطفه الحاوي، آمين بحرمة جدِّه الذي نزل إليه الروحُ الأمينُ.

وليكن هذا أوانَ الشُّروع في المقصود، مستعيناً بمفيض الخير والجود. قال جامعُ المكاتيب رحمه الله بعدما تيمَّن بِبِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: الحمدُ لله ربِّ العالمين أضعافَ ما حَمِدَه جميعُ خلقه كما يحبُّ ربُّنا ويرضى، والصَّلاةُ والسَّلامُ على من أرسله رحمةً للعالمين، كلَّما ذكره الذَّاكرون، وكلَّما غَفَلَ عن ذكره الغافلون، كما ينبغي له ويحرى، وعلى آله وأصحابه البَرَرَة النُّقى التُّقَى.

أمَّا بَعْدُ: فإنَّ هذا الجلدَ الأوَّلَ من المكتوبات القدسيَّة لحضرة غَوْث المحقِّقين، قطبِ العارفين، برهانِ الولاية المحمديَّة، حجَّةِ الشَّريعة المصطفويَّة، شيخِ الإسلام والمسلمين، شيخِنا وإمامِنا الشَّيخ أحمد الفاروقيِّ النَّقشبنديّ، سلَّمه الله سبحانه وأبقاه، جمعه هذا الحقيرُ قليلُ البضاعة، أقلُّ القاعدين على تراب أعتاب تلك الخيمة المقدَّسة، يار محمد الجديد البَدَخْشِيِّ الطَّالقانِيّ، وأوْرَدَه في قَيْد التَّحرير، رجاءَ وصول النَّفع منه إلى طالبي الحقّ جلَّ وعلا، والمسؤولُ من الله سبحانه العصمةُ والتَّوفيقُ.

المكتوبُ الأوَّلُ

في بيان الأحوالِ التي لها مناسَبةٌ بالِاسمِ الظَّاهر، وبيان ظُهور القِسم الخاصِّ منَ التَّوحيد، وبيانِ العُروجاتِ الواقعة فوقَ المُحدَّد، وانكِشافِ درجاتِ الجنَّة، وظُهور مراتبِ بعض أهل الله، كَتَبَه إلى شَيخِه المُعظَّم، وهو الشَّيخ الكامل المكمِّل الواصلُ إلى درجاتِ الولاية، الهادي إلى طريقِ اندِراجِ النِّهاية في البداية، مُؤيِّد الدِّين الرَّضيُّ، شيخُنا وإمامُنا الشَّيخُ محمَّد الباقي النَّقشبنديُّ الأحراريُّ، قدَّس الله سرَّه الأقدسَ، وبلَّغه إلى أقصى مَا يَتَمَنَّاهُ.

عريضةُ أقلِّ العبيد أحمد، إلى ذِرْوَة العَرْض، يعرِضُ أحوالَه المتفرِّقةَ اجتراءً منه حسب الأمر الشَّريف.

قد تشرَّفتُ في أثناء الطَّريق بتجلِّي الاسم الظَّاهر تجلِّياً كُلِّيّاً، بحيث ظهر لي في جميع الأشياء بتجلٍّ خاصٍّ على حدةٍ على حدةٍ، وعلى الخصوص في كِسْوَة النِّساء -بل في أجزائهنَّ- على حدةٍ على حدةٍ، فصِرْتُ منقاداً لتلك الطَّائفة على وجهٍ لا أقدرُ على عرضه، وكنتُ مضطرّاً في ذلك الانقيادِ وهذا الظُّهورِ الذي حصل ....

في هذا المحلِّ لم يكن في محلٍّ آخرَ، وما أُرِيتُ من خصوصيّات اللّطائف ومحسّنات العجائب في هذا اللِّباس لم يظهرْ في مظهرٍ ما أصلاً، قد ذُبْتُ بالتَّمام، وجَرَيْتُ كالماء بين أيديهنَّ، وكذلك تجلَّى لي في كلِّ طعامٍ وشرابٍ وكسوةٍ على حدةٍ على حدةٍ، وما كان من اللَّطافة والحُسْن في الطَّعام اللّذيذ المتكلَّف فيه لم يكن في غيره، وكان ذلك التَّفاوُتُ بين الماء العذب والمِلْح، بل كان في كلِّ شيءٍ حُلْوٍ شيءٌ من خصوصيَّات الكمال على تفاوت الدَّرجات على حدة على حدةٍ، ولا يمكن عرضُ خصوصيَّات هذا التَّجلِّي بالتَّحرير، فإن كنتُ في الملازمة العليَّة لعَرَضْتُها، ولكن كنتُ في أثناء هذه التجلِّيات مشتاقـاً إلى الرَّفيق الأعلى، ولم أَلْتَفِتْ إلى ما سواه مهما أمكنَ، بَيْدَ أنِّي لَمّا صِرْتُ مغلوباً؛ لم أجدْ بُدًّا من الالتفات، وفي ذلك الأثناء صار معلومـاً لي أنَّ هذا التَّجلِّي لا ينافي تلك النِّسبةَ التنزيهيَّة، فإنَّ الباطنَ متعلِّقٌ بتلك النِّسبةِ، لا التفاتَ له إلى الظَّاهر أصلاً، وإنَّما المتشرِّفُ بهذا التجلِّي: هو الظَّاهرُ الذي هو خالٍ ومعطَّلٌ عن تلك النِّسبة، والحقُّ أنِّي وجدتُ الباطنَ غيرَ مبتلىً بزَيْغ البصر، بل هو مُعْرِضٌ عن جميع المعلومات والظُّهورات، ولَمَّا كان الظَّاهرُ متوجِّهـاً إلى الكثرة والاثنينيَّة؛ استسعد بهذا التَّجلِّي.

ثم أخذتْ هذه التجلِّياتُ في الاختفاء والاستتار بعد زمانٍ، وبقيتْ نسبةُ الحَيْرَة والجهالة بحالها، وصارت تلك التجلِّياتُ كأن لم يكن شيئـاً مذكوراً، ثم عَرَضَ بعد ذلك شيءٌ من الفناء الخاصِّ، وكان ذلك التَّعيُّنُ العلميُّ الذي ظهر بعد عود التعيُّن انعدم في هذا الفنا، ولم يَبْقَ أثرٌ من مظانّ (أنا)، وفي هذا الوقت شرع آثارُ الإسلام وعلامةُ انهدام معالم الشِّرك الخفيِّ في الظُّهور، وكذلك رؤيةُ القصور في الأعمال والفتور، واتِّهامُ النيّات والخواطر والخطور.

وبالجملة: ظهر بعضُ أَمَارات العبوديَّة والاضمحلال، بلَّغنا الله سبحانه وتعالى ببركة توجُّهكم مقامَ حقيقة العبوديَّة. والعروجاتُ إلى ما فوق المحدَّد تقع كثيراً.

ولَمّا وقع العروجُ في المرتبة الأولى، ووصلتُ إلى ما فوق المحدَّد بعد طَيِّ المسافة، وصار الخلد مع ما تحته مشهوداً؛ خطر في ذلك الوقت في الخاطر أن أشاهِدَ هنالك مقاماتِ بعض الرِّجال، ولَمّا توجَّهْتُ وقع النَّظرُ على مقاماتهم، ورأيتُ هؤلاء الأشخاصَ في تلك المحالِّ على تفاوت درجاتهم مكانـاً ومكانةً وذوقـاً وشوقـاً.

ثم وقع العروجُ في مرتبةٍ ثانيةٍ، وصارت مقاماتُ المشائخ العظام، وأئمَّةِ أهل البيت الكرام، والخلفاءِ الراشدين المرشدين للأنام، والمقامُ الخاصُّ بنبينا عليه الصلاة والسلام، وكذلك مقاماتُ سائر الأنبياء والرسل الفخام على التَّفاوت، ومقاماتُ الملائكة الملأ الأعلى مشهودةً فوق المحدَّد، ووقع من العروج فوق المحدَّد مقدارُ ما بين مركز الأرض والمحدَّد أو أقلُّ من ذلك بيسيرٍ، إلى أن انتهى إلى مقام حضرة الخواجه بهاء الدين النّقشبند قدَّس الله سرَّه، وكان فوق ذلك المقام عدَّةٌ من المشائخ العظام، بل في نفس ذلك المقام بفوقيَّةٍ يسيرةٍ مثلَ الشيخ معروفٍ الكرخيِّ والشَّيخ أبي سعيد الخَرّاز، ومقاماتُ المشائخ الباقين بعضُها فيما تحته، وبعضُها في نفس ذلك المقام. فأما الذين في المقام التحتانيِّ؛ فمثلُ الشيخ علاء الدّولة السُّمنانيِّ والشيخ نجم الدين الكُبرى، والذين هم في المقام الفوقانيِّ؛ فأئمَّةُ أهل البيت، وما فوقه الخلفاءُ الرَّاشدون رضوان الله عليهم أجمعين، ومقاماتُ سائر الأنبياء عليهم الصَّلاة والسلام كانت على طرفٍ من مقام نبينا ﷺ، وكذلك مقاماتُ الملائكة العُلْوِيِّين كانت على طرفٍ آخر من ذلك.......................

المقام، وكان لمقام نبيِّنا عليه الصلاة والسلام فوقيَّةٌ وأصالةٌ بالنِّسبة على جميع المقامات، والله سبحانه أعلم بحقائق الأمور كلِّها.

ويقع العروجُ بعناية الله سبحانه كلما أَرَدْتُه، ويقع في بعض الأوقات من غير إرادةٍ، ويُشاهَد أشياءُ أُخَرُ، وتترتَّبُ الآثارُ أيضاً في بعض العروجات، ويكون أكثرُها منسيّاً، وكلَّما أريد أن أكتبَ بعضَ الحالات لأتذكَّرَ وقت العَرْض لا يتيسَّرُ ذلك، فإنَّه يُرَى حقيراً في النَّظر، بل هو حقيقٌ بأن يُستغفرَ منه، فضلاً عن أن أكتبه، وكان بعضٌ منها في الخاطر في أثناء إملاء العريضة، ولكنَّه ما وفى أخيراً أن أكتبه، والزِّيادةُ على ذلك إساءةُ الأدب.

وحالُ ملا قاسم على أحسن [حالٍ] قد غلب عليه الاستهلاكُ والاستغراقُ، وجاوَزَ جميعَ مقامات الجذبة، ووضع قدمه فوقها، وكان أوّلاً يرى الصِّفاتِ من الأصل، والآن يرى تلك الصفاتِ مع وجودها مباينةً لنفسه، ويجد نفسَه خالياً محضاً، بل يرى النورَ الذي قامت به الصِّفاتُ مبايناً لنفسه أيضاً، ويجد نفسَه في طرفٍ من ذلك النُّور. وأحوالُ الأصحاب الباقين في الترقِّي يوماً فيوماً أريد أن أعرِضَها بالتَّفصيل في عريضةٍ أخرى إن شاء الله العزيزُ.

المَكْتُوبُ الثَّانِي

في بيان حصولِ التَّرقِّيات والمباهاةِ بعِناياتِ الحقِّ جلَّ سلطانه، كَتبَه إلى شَيخِه المُعظَّم قدِّس سِرُّه.

عريضةُ أقلّ العبيد أحمد على ذروة العرض. إنَّ مولانا شاه محمد بلَّغ الأمرَ بالاستخارة متَّصلاً بشهر رمضان المبارك، فلم أَجِدْ فرصةَ أن أتشرَّفَ باستلام العَتَبَة العليَّة إلى شهر رمضان، فلا جرم سلَّيْتُ نفسي بمُضِيِّ الشَّهر المذكور بالضَّرورة، وماذا أعرضُ على حضرتكم من عنايات الحقّ جلَّ وعلا التي تُفاضُ وتُصبُّ على التَّواتر والتَّوالي ببركة توجُّهاتكم العليَّة: (شعر)

كَـأَنِّي رَوْضَــةٌ فِيهَـا سَـحَـابُ الــ ـــرَّبِـيــعِ مُـمْـطِـرٌ مَـاءً زُلَالَا
فَـلَـوْ لِـي أَلْـفُ أَلْسِـنَـةٍ وَأُثْـنِـي بِـهَـا مَـا ازْدَدْتُ إِلَّا انْـفِـعَـالَا

وإن كان إظهارُ هذا القسم من الأحوال موهماً للجراءة وترك الأدب، ومُشْعِراً بالافتخار والمباهاة: (شعر)

وَلَـكِـنَّ سَـيِّـدِي أَعْـلَـى مَـقَـامِـي فَـفُـقْـتُ بِـهِ نُـجُـومـاً وَالْـهِـلَالَا

أبتَدِأُ الشُّروعَ في عالم الصَّحْو والبقاء من أواخر ربيع الآخر، وأتشرَّفُ إلى الآن في كلِّ مدَّةٍ ببقاءٍ خاصٍّ، يُجاءُ بي أوّلاً من التَّجلِّي الذَّاتيِّ المنسوب إلى الشَّيخ محيي الدين قدس سره إلى الصَّحو، ثم يُذْهَبُ بي إلى السُّكر، ويحصل وقت العروج والنُّزول علومٌ غريبةٌ، ومعارفُ عجيبةٌ، وأتشرَّفُ من الإحسان والشُّهود الخاصّ في كلِّ مرتبةٍ بما يناسب لبَقاءِ ذلك المقام، وقد شُرِّفْتُ في سادس شهر رمضان ببقاءٍ وإحسانٍ لا أقدرُ على عرضه، وأظنُّ أنَّ نهايةَ الاستعداد لا تتجاوَزُ ذلك، وتيسَّرَ هنا الوصلُ المناسبُ للحال، وتمَّت الآن جهةُ الجذبة بالتَّمام، ووقع الشُّروعُ في السَّير في الله الذي هو مناسبٌ لمقام الجذبة، وكلَّما كان الفناءُ أتمَّ؛ يكون البقاءُ المترتِّبُ عليه أكملَ، وكلَّما كان البقاءُ أكملَ؛ كان الصَّحوُ أكثرَ، وكلَّما كان الصَّحوُ أكثرَ؛ تقع العلومُ موافقةً للشَّريعة الغرَّاء، فإنَّ كمالَ الصَّحْو للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والمعارفُ التي ظهرت منهم هي الشَّرائعُ والعقائدُ التي بيَّنوها في الذّات والصِّفات، ومخالفةُ ظاهرها إنَّما هي من بقيَّة سُكْر الحال، والمعارفُ التي تُفاضُ على هذا الفقير أكثرُها تفصيلُ المعارف الشرعيَّة، وبيانُها يُصَيِّرُ العلمَ الاستدلاليَّ كشفيّاً وضروريّاً، والمجملَ مفصَّلاً:

(ع) يَـطُولُ إِذَا حَـرَّرْتُ تَـفْـصِـيـلَ شَـرْحِـهِ

وإنِّي خائفٌ ووَجِلٌ من أن ينجرَّ الأمرُ إلى إساءة الأدب.

المكتوب الثالث

في بيان توقُّف الأصحابِ في مقامٍ مخصوصٍ، وما يتعلَّق بذلك، كَتَبَه إلى شَيخِه المعظَّم.

المعروضُ أنَّ الأصحابَ الكائنينَ هنا -وكذلك الأصحابُ السَّاكنون هناك- كلٌّ منهم محبوسٌ في مقامٍ، وإخراجُهم من ذلك المقام متعسِّرٌ، ولا أرى في نفسي من القدرة ما يناسبُ لذلك المقام ويوافيه، رزقنا الله سبحانه الترقِّيَ ببركة توجُّهاتكم العليَّة، وقد جاوَزَ واحدٌ من أقربائي ذلك المقامَ، ووصل إلى مقدِّمات التجلِّيات الذاتيَّة، وحالُه حَسَنٌ جداً، يضع قدمه على قدم الفقير، وأرجو ذلك في حقِّ الآخرين أيضاً. وبعضُ الإخوان ليس لهم مناسبةٌ بطريق المقرَّبين، بل الموافقُ لحالهم طريقُ الأبرار، وما حصَّلوه من اليقين في الجملة؛ فهو أيضاً غنيمةٌ ينبغي أن نأمُرَهم بذلك الطَّريق:

(ع) لِكُـلِّ مِـنَ الإِنْسَــانِ شَــأْنٌ يَـخُـصُّــهُ

ولم أجترئْ بتفصيل أساميهم، فإنَّهم لا يخفون عليكم، والزِّيادةُ على ذلك خروجٌ عن طَوْر الأدب. ورأى الميرُ السيد شاه حسين يوم تحرير العرض في مشغوليَّته كأنَّه وصل إلى بابٍ عظيمٍ، ويقال له: إنَّ هذا بابُ الحيرة، وقال: لَمّا نظرتُ إلى داخله؛ رأيتُ فيه حضرةَ الشَّيخ وأنت معه، وكلَّما أردتُ أن أرميَ نفسي هناك لا يساعدنِي رِجْلي.

المكتوب الرابع

في بيان فضائِل شهرِ رمضانَ المبارَك، وبيانِ الحقيقة المحمَّديَّة، عليه وعلى آله الصَّلاة والسَّلام والتَّحيَّة، كَتَبَه أيضاً إلى شيخه المعظَّم.

عريضةُ أحقر الخُدَّام. إنَّه قد طالت المدَّةُ، ولم أطَّلعْ على أحوال خَدَمَة العتبة العليَّة من طريق المفاوضة الشَّريفة، والمراسلة المنيفة، وننتظرُ الآنَ قدومَ شهر رمضان المبارك، ولهذا الشَّهر مناسبةٌ تامَّةٌ بالقرآن المجيد، الحاوي لجميع الكمالات الذَّاتيَّة والشُّؤونيَّة، الدَّاخل في دائرة الأصل، بحيث لم يتطرَّقْ إليه الظِلِّيَّةُ أصلاً، والقابليَّةُ الأولى ظلُّه، وبهذه المناسبة وقع نزولُه في هذا الشَّهر، قولُه تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥] مصدِّقٌ لهذا القول، وبهذه المناسبة كان هذا الشَّهرُ جامعاً لجميع الخيرات والبركات، وكلُّ بركةٍ وخيرٍ يصل إلى كلِّ أحدٍ من أيِّ وجهٍ كان في تمام السَّنَة إنَّما هو قطرةٌ من بحر بركات هذا الشَّهر العظيم القَدْرِ الذي لا نهايةَ له، والجمعيَّةُ في هذا الشَّهر سببٌ للجمعيَّة في جميع السَّنَة، والتَّفرقةُ فيه سببٌ للتَّفرقة في كلِّ السَّنة، فطُوبى لِمَن مضى عليه هذا الشَّهرُ المباركُ وهو راضٍ عنه، وويلٌ لمن هو ساخطٌ عليه، فمُنِعَ من البركات، وحُرِمَ المبرَّات والخيرات وأيضاً يمكن أن يكون وجهُ سُنِّيَة[1] ختم القرآن بواسطة تحصيل جميع الكمالات الأصليَّة والبركات الظلِّيَّة، فمن جَمَعَ بينهما يُرْجَى أن لا يُحرمَ بركاته، ولا يُمنعَ من خيراته، وإنَّ البركاتِ المتعلِّقةَ بأيَّام هذا الشَّهر لا تشابِهُ غيرَها، والخيراتِ المتعلِّقةَ بلَياليه لا يُقَاسُ عليها غيرُها، ولعلَّ سرَّ الحُكْم بأولويَّة تعجيل الإفطار وتأخير السَّحور من هذه الجهة؛ ليحصلَ تمامُ الامتياز بين أجزاء الوقتين، والقابليَّةُ الأولى التي ذُكرت آنفاً -والحقيقةُ المحمديَّةُ على مظهرها الصَّلاةُ والسلامُ والتحيَّةُ عبارةٌ عنها-، ليست هي قابليَّةَ الذَّات للاتِّصاف بجميع الصِّفات كما حكم بها البعضُ، بل هي قابليَّةُ الذَّات عزَّ سلطانها للاعتبار العلميِّ الذي هو متعلِّقٌ بجميع الكمالات الذاتيَّة والشُّؤونيَّة، وهو حاصلُ حقيقة القرآن المجيد، وقابليَّةُ الاتِّصاف التي هي مناسبةٌ لموطن الصِّفات وبرزخٌ بين الذَّات والصِّفات هي حقائقُ سائر الأنبياء على نبينا وعليهم الصَّلواتُ والتَّسليماتُ، وتلك القابليَّةُ مع ملاحظة.........

(١) في النسخ: (سنيته)، ولعل الصواب ما أثبتناه.

الاعتبارات المندرجة فيها صارتْ حقائقَ متعدِّدةً، والقابليَّةُ التي هي الحقيقةُ المحمديَّةُ وإن كانت فيها ظليَّةٌ، لكن لم يمتزج بها لونُ الصِّفات، ولم يحصلْ في البَيْن حائلٌ أصلاً، وحقائقُ جماعة محمَّديي المشرب قابليَّاتُ الذَّات للاعتبار العلميِّ الذي يتعلَّقُ ببعض تلك الكمالات، والقابليَّةُ المحمديَّة برزخٌ بين الذَّات وبين هذه القابليَّات المتعدِّدة.

وإنَّما حكم ذلك البعضُ بما ذكر بواسطة أنَّ لها موضعَ قدمٍ فقط في موطن الصِّفات، ونهايةُ عروج ذلك الموطن إلى تلك القابليَّة، فلا جرم نَسَبَها إليه ﷺ، ولَمَّا كانت قابليَّةُ الاتِّصاف غيرَ مرتفعةٍ أصلاً؛ حَكَمَ ذلك البعضُ بالضَّرورة بأنَّ الحقيقةَ المحمديَّةَ حائلةٌ دائماً، وإلا؛ فالحقيقةُ المحمديَّةُ على مظهرها الصَّلاةُ والتحيَّةُ التي هي مجرَّدُ اعتبارٍ في الذَّات يمكن ارتفاعُها عن النَّظَر، بل هو واقعٌ، وقابليَّةُ الاتِّصاف وإن كانت اعتباريَّةً أيضاً، لكنَّها أخذتْ لونَ الصِّفات ووَصْفَها بواسطة البرزخيَّة، والصِّفاتُ موجودةٌ في الخارج بوجودٍ زائدٍ، وارتفاعُها خارجٌ عن دائرة الإمكان، فلا جَرَمَ حَكَمَ بوجود ذلك الحائل دائماً.

وأمثالُ هذه العلوم التي منشؤها الجامعيَّةُ بين الأصالة والظِّلِّيَّة واردةٌ كثيراً، وأكثرُها أكتبُهُ في الأوراق، ومقامُ القُطْبيَّة منشأُ دقائق علوم مقام الظليَّة، ومرتبةُ الفرديَّة واسطةُ ورود معارف دائرة الأصل، والامتيازُ بين الظلّ والأصل لا يتيسَّرُ بدون اجتماع هاتين الدَّولتين، ولهذا لم يقل بعضُ المشائخ بزيادة القابليَّة الأولى التي يقال لها: التَّعيُّن الأوَّل على الذَّات، وزعموا شهودَ تلك القابليَّة تجليّاً ذاتيّاً، والحقُّ ما حقَّقتُ، والأمرُ ما أوضحتُ، والله سبحانه يحقُّ الحقَّ، وهو يهدي السبيلَ.

والرِّسالةُ التي كنتُ مأموراً بتسويدها لم أُوَفَّقْ إلى الآن لإتمامها، بل بقيتْ مسودّةً كما هي، ولم أَدْرِ في هذا التوقُّف ما الحكمةُ الإلهيَّةُ وزيادةُ الجراءة بعيدةٌ عن الأدب.

المَكتُوبُ الخَامِسُ

في تفويضِ الخواجه بُرهان الذي هو واحدٌ منَ المُخلِصينَ مع بيان بعض أحوالِه، كَتَبَه إلى شَيخِه المعظَّم.

عريضةُ أحقر الخُدَّام. إنِّي قد كتبتُ رسالةً في بيان طريقة خواجكان قدَّس اللهُ أسرارهم، وأرسَلْتُها نحوَ الجناب العالي، لعلَّها تكون منظورةً بالنَّظر المبارك، ولكنَّها مسودَّةٌ فقط، لم أَجِدْ فرصةً لنقلها إلى البياض بسبب عجلة الخواجه برهان في التَّوجُّه، ولاحتمال أن يلحق بها علومٌ أُخَرُ، ولَمّا وقع نظري يوماً من الأيَّام على رسالة «سلسلة الأحرار»؛ خطر في الخاطر الفاتر أن أعرض عليكم لتكتبوا شيئاً في بيان بعض علومها، أو تأمروا الفقيرَ لأكتبَ شيئاً فيها، وقَوِيَ هذا الخاطرُ.

وبَيْنَا أنا في هذا الخاطر إذ فاضتْ علومُ هذه المسودة، فكتَبْتُها، وبيَّنتُ بعضَ علوم تلك الرِّسالة في ضمن ما كتبتُ في هذه المسودّة في الجملة، فإن جعلتُ هذه المسودة تكملةً لتلك الرِّسالة؛ فَبِها، وإلا، فإن انتُخِبَ بعضُ العلوم المناسبة لها منها وأُلْحِقَ بها؛ فله وجهٌ، وزيادةُ الانبساط خروجٌ من الأدب.

والخواجه برهان فعل في هذه المدّة فعلاً حسناً، وأمراً مستحسناً، ونال نصيباً من السَّيْر الثَّالث الذي هو مناسبٌ لمقام الجذبة، وصار الآن بواسطة مهمّ مددِ معاشٍ صوبةَ المألوه مشوَّش الحال، ومشتَّتَ البال، وقد توجَّه نحو الجناب المعلّى، وكلُّ شيءٍ أمروه به يكون مباركاً.

المَكتُوبُ السَّادِسُ

في بيان حُصول الجَذبةِ والسُّلوك، وتَحصيلِ التَّربية بصفتَي الجَلالِ والجَمالِ، وبيان الفَناء والبَقاءِ، وبيان علوِّ نسبة النَّقشبنديَّة، كَتبَه إلى شَيخِه المُحترَم.

عريضةُ أقلّ العبيد أحمد. إنَّه قد أكرمني المرشدُ على الإطلاق جلّ شأنُه ببركة التَّوجُّه العالي بتربية طريق الجذبة والسُّلوك، وربَّانِي بصفتي الجمال والجلال، والآن صار الجلالُ عينَ الجمال، والجمالُ عينَ الجلال، وقد حرَّفوا هذه العبارةَ في بعض حواشي «الرسالة القدسيّة» عن مفهومها الصَّريح، وحملوها على المفهوم الموهوم، والحالُ أنَّ العبارةَ محمولةٌ على ظاهرها غيرُ قابلةٍ للتَّحريف والتَّأويل، وعلامةُ هذه التَّربية: التَّحقُّقُ بالمحبَّة الذاتيَّة، ولا إمكانَ لحصولها بدون التَّحقُّق بها، والمحبَّةُ الذاتيَّةُ علامةُ الفناء، والفناءُ عبارةٌ عن نسيان ما سوى الله تعالى، فمتى لم يُزِلِ العلومَ عن ساحة الصَّدر بالتَّمام، ولم يحصِّلِ التَّحقُّقَ بالجهل المطلق؛ لا نصيبَ من الفناء أصلاً، وهذا الجهلُ دائميٌّ لا إمكانَ لزواله، لا أنَّه يحصل أحياناً ويزول أخرى.

غَايةُ ما فِي البابِ: أنَّه قبل البقاء جهالةٌ محضةٌ، وبعد البقاء يجتمع الجهالةُ والعلمُ معاً، ففي عين الجهالة شعورٌ، وفي عين الحَيْرة حضورٌ، وهذا موطنُ حقِّ اليقين الذي لا يكون فيه كلٌّ من العلم والعَيْن حجاباً للآخر.

والعلمُ الحاصلُ قبل مثل هذه الجهالة خارجٌ من حيّز الاعتبار، مع أنَّه إن كان هناك علمٌ؛ ففي النَّفس، وإن كان شهودٌ؛ ففي النَّفس، وإنْ معرفةٌ أو حيرةٌ؛ ففي النَّفْس أيضاً، وما دام النَّظرُ في النفس لا حاصلَ فيه، وإن كان النَّظرُ في النَّفْس، يعني: في الجملة، بل اللَّائقُ أن ينقطع النَّظرُ عن الخارج بالكليَّة.

قال الخواجه النقشبند قدس سره: وكلُّما يراه أهلُ الله بعد الفناء والبقاء يرونه في أنفسهم، وكلُّما يعرفون يعرفونه في أنفسهم، وحيرتُهم تكون في وجود أنفسهم. وفُهِمَ من ذلك أيضاً صريحاً أنَّ الشُّهودَ والمعرفةَ والحيرةَ في النَّفس فحسب، ليس في الخارج شيءٌ منها، وما دام واحدٌ منها في الخارج لا حَظَّ من الفناء ولا نصيبَ، وإن كان بعضٌ منها في الخارج؛ فأين البقاءُ بعدُ؟ ونهايةُ المراتب في الفناء والبقاء هي هذه، وهذا هو الفناءُ المطلقُ، ومطلقُ الفناء أعمُّ منه ومن غيره، والبقاءُ إنَّما هو على مقدار الفناء، ولهذا يكون لبعض أهل الله شهودٌ في الخارج بعد التَّحقُّق بالفناء والبقاء، ولكنَّ نسبةَ هؤلاء الأعزَّة - يعني: النَّقشبنديّين - فوق جميع النِّسَب: (شعر)

وَهَيْهَاتَ مَا كُلُّ النَّسِيمِ حِجَازِيًا وَمَا كُلُّ مَصْقُولُ الْحَدِيدِ يَمَانِيًا

فإذا تشرَّف واحدٌ أو اثنان من أكابر هذه السِّلسلة بعد قرونٍ كثيرةٍ بهذه النِّسبة؛ فماذا يقولون في سلاسلَ أُخَرَ؟ وهذه هي نسبةُ خواجه عبد الخالق الغُجْدوانِيّ قدس سره، ومتمِّمُها ومكمِّلُها شيخ الشُّيوخ - أعني: حضرةَ الخواجه بهاء الدين المعروف بالنقشبند قدس سره -، وتشرَّف بهذه الدَّولة من خلفائه: الخواجه علاءُ الدين العطَّار قدس سره:

(ع) وَتِلْكَ سَعَادَاتٌ تَكُونُ نَصِيبَ [مَنْ]

والعجبُ من هذا الأمر حيث كان كلُّ بلاءٍ ومصيبةٍ واقعةٍ باعثةً على السُّرور والفرح أوَّلاً، وكنت أقول: هل من مزيد، وكلَّما فاتني شيءٌ من متاع الدُّنيا؛ كان يطيب به قلبي، وكنت أتمنَّى مثلَه، ولما أُنزلتُ الآن إلى عالم الأسباب، ووقع نظري على عجزي وافتقاري؛ صار يحصل لي نوعُ حزنٍ بحصول ضررٍ يسيرٍ في أوّل وهلةٍ، وإن زال بسرعةٍ ولم يبقَ أصلاً، وكذا إذا دعوتُ الله سبحانه لدفع بلاءٍ أو مصيبةٍ ما؛ كان المقصودُ منه رفعَ تلك المصيبة، بل لأجل الامتثال لأمر: ادْعُوا، والآن صار المقصودُ من الدُّعاء: رفعَ المصائب والبلاء، وقد رجع الخوفُ والحزنُ اللَّذان قد زالا من قبلُ، وصار معلوماً لي أنَّ ذلك كان من..

السَّكر، وأما في الصَّحو؛ فكلُّما هو موجودٌ في عوامّ النَّاس من العجز والافتقار والخوف والحزن والغمّ والفرح موجودٌ في صاحب الصَّحو، وفي الابتداء وإن لم يكن المقصودُ من الدعاء رفعَ البلاء، ولكن ما كان قلبي يطيبُ بهذا المعنى، إلا أنَّ الحالَ كان غالباً عليّ، وكان أوَّلاً يخطر في البال أنَّ دعواتِ الأنبياء عليهم الصلوات والتسليمات ليستْ من قبيل استدعاء حصول المراد، ولَمّا شُرِّفْتُ الآن بتلك الحالة؛ صارتْ حقيقةُ الأمر واضحةً، وعلمتُ أنَّ دعواتِ الأنبياء عليهم الصلواتُ والتحياتُ كانت على وجه العجز والافتقار، والخوف والانكسار، لا لمجرَّد امتثال الأمر. وتَصْدُرُ الجراءةُ أحياناً بعرض بعض الأمور الواقعة حسب الأمر.

المكتوب السابع

في بيان بعض أحوالِه الغَريبَة، مع بعض استِفساراتِه الضَّروريَّة، كَتَبَه إلى شَيخِه المكرَّم.

عريضةُ أقلّ العبيد أحمد. إنَّ المقامَ الذي كان فوق المحدَّد وجدتُ روحي هناك بطريق العروج، وكان لهذا المقام اختصاصٌ بحضرة الخواجه النّقشبند قُدِّس سِرُّه الأقدس، ثم وجدتُ بدنِيَ العنصريَّ هناك بعد زمانٍ، وخُيِّلَ لي في ذلك الوقت أنَّ هذا العالَمَ بتمامه من العنصريَّات والفلكيَّات نازلٌ إلى التَّحت، ولم يَبْقَ منه اسمٌ ولا رسمٌ، ولَمّا لم يكن في ذلك المقام إلا بعضُ الأولياء الكبار، والآن أجدُ تمامَ العالم شريكاً لي في المحلِّ والمقام؛ حصلت الحيرةُ بأنَّه مع وجود الأجنبيَّة التامَّة أرى نفسي معهم.

والحاصلُ: تظهر أحياناً حالةٌ لا أبقى فيها أنا ولا العالمُ، ولا يظهر شيءٌ لا في النَّظر ولا في العلم، وتلك الحالةُ مستمرَّةٌ إلى الآن، ووجودُ العالم محتجبٌ عن النَّظَر والعلم، ثم ظهر في ذلك المقام قصرٌ عالٍ قد وضع فيه سلالمُ، فطلعتُ فيه، ثم تنزَّلَ ذلك المقامُ أيضاً بالتَّدريج مثلَ العالم، ووَجَدْتُني صاعداً ساعةً فساعةً، فصلَّيتُ اتِّفاقاً ركعتي شكر الوضوء، فظهر مقامٌ عالٍ جدّاً، فرأيت فيه الأكابرَ الأربعةَ[1] النَّقشبنديين قدَّس الله أسرارهم، وكان فيه أيضاً مشائخُ آخرون، مثلُ سيّد الطَّائفة وغيره، وكان بعضٌ من المشائخ فوق ذلك المقام، ولكن كانوا قاعدين آخذين بقوائمه، وكان بعضهم تحته على تفاوت درجاتهم، ووجدتُ نفسي بعيداً عن ذلك المقام جدّاً، بل لم أَرَ في نفسي مناسبةً بهذا المقام، فحصل لي من هذه الواقعة اضطرابٌ تامٌّ، حتى كِدْتُ أكون مجنوناً، ويخرج روحي من بدني من فرط الحزن والأسف، فمرَّت على هذه النَّهج أوقاتٌ، ثم رأيتُ نفسي أخيراً مناسباً لذلك المقام بتوجُّهاتكم العليَّة، ووجدتُ رأسي أوَّلاً محاذياً لذلك المقام، ثم صعدتُ تدريجاً، وقعدتُ فوقه، ثم خطر في بالي بعد التوجُّه أنَّ ذلك المقامَ مقامُ التَّكميل التامّ يوصَلُ إليه بعد تمام السُّلوك، ولا حَظَّ من ذلك المقام لمجذوبٍ لم يُتمّ السُّلوكَ، وخيِّلَ لي في ذلك الوقت أنَّ الوصولَ إلى ذلك المقام من نتائج تلك الواقعة التي كنت رَأَيْتُها حين كوني في ملازمتكم، وهي أنّي رأيتُ سيدنا عليّاً كرم الله وجهه قد جاء، وقال: جئتك لأعلِّمك علمَ السموات... إلخ، ولَمّا أمعنتُ النَّظرَ؛ وجدتُ ذلك المقامَ مخصوصاً بسيدنا عليّ كرم الله وجهه من بين سائر الخلفاء الرَّاشدين رضي الله عنهم أجمعين والله سبحانه وتعالى أعلم.

والمعروضُ ثانياً: أنَّه يظهر لي أنَّ الأخلاقَ السَّيِّئةَ ترتفعُ ساعةً فساعةً، بعضُها يخرج من البدن مثلَ الخيط، وبعضها مثلَ الدُّود، ويُخيَّلُ في بعض الأوقات أنَّ كلَّها قد زالتْ، ثم يظهر في وقتٍ آخر.

وثالثاً: أنَّ التَّوجُّهَ لدفع بعض الأمراض والشَّدائد هل هو مشروطٌ بأن يُعلمَ رضا الحقّ سبحانه أوَّلاً أو لا؟ والظاهرُ من عبارة

(١) لعله أراد بهم: الخواجه عبد الخالق الغجدواني، والخواجه محمد بهاء الدين النَّقشبندي، والخواجه علاء الدين العطار، والخواجه عبيد الله الأحرار. (المعرِّب)

«الرشحات» المنقولة عن حضرة الخواجه - يعني: عبيد الله أحرار قدّس الله سره الأقدس - أنَّ هذا ليس بشرطٍ، فبماذا تحكمون في هذا الباب، مع أنَّ التوجُّهَ غيرُ مستحسنٍ - يعني: عنده -؟

ورابعاً: إنَّ بعد تحقُّق الحضور في الطَّالبين: هل يلزم المنعُ من الذِّكر والأمرُ بالمحافظة على الحضور أو لا؟ ثم أيُّ مرتبةٍ من الحضور لا ذِكْرَ فيها؟ مع أنَّ البعضَ لم يترك الذِّكْرَ من الأوَّل إلى الآخر، ولم يمتنع من الذِّكر أصلاً، حتى أنهى الأمرَ إلى النِّهاية، فما حقيقةُ الأمر فيه؟ وبماذا تأمرون؟

وخامساً: إنَّ حضرة الخواجه - يعني: عبيد الله أحرار - قال في «الفقرات»: ويأمرون أخيراً بالذِّكر، فإنَّ بعض المقاصد لا يتيسَّر إلا به، وما هذه المقاصد؟ فعيِّنوه.

سادساً: إنَّ بعضَ الطَّالبين يطلبون تعليمَ الطَّريقة إيَّاهم، ولكنَّهم لا يحتاطون في اللُّقمة، ومع عدم الاحتياط قد حصَّلوا حضوراً ونحواً من الاستغراق، فإن أكَّدْنا عليهم بالاحتياط في اللُّقمة؛ يتركون الكلّ - يعني: يختارون تركَ الطريقة بالكليَّة - من ضعف الطَّلَب، فما الحكمُ في هذا الباب؟ والبعضُ الآخر يطلبون مجرَّدَ الاتِّصال بهذه السِّلسلة الشَّريفة بطريق الإرادة من غير طلب تعليم الذِّكْر، وهل يجوز ذلك أو لا؟ فإن كان يجوز؛ فما طريقُه؟ وزيادةُ الانبساط خروجٌ من الأدب.

المكتوب الثامن

في بيان الأحوالِ المتعلِّقة بمرتبة البَقاءِ والصَّحوِ، كَتَبَه أيضاً إلى شَيخِه المعظَّم.

عريضةُ أقلِّ العبيد أحمد. إنِّي لَمّا أُخرجتُ إلى الصَّحْو، وشرِّفتُ بالبقاء؛ أخذ تظهرُ العلومُ الغريبةُ والمعارفُ غير المتعارفة، وتفاضُ على التَّواتر والتَّوالي، وأكثرها لا يوافِقُ بيانَ القوم واصطلاحَهم المتداوَل، وكلُّما بينَّوه في مسألة وحدة الوجود وقالوا به؛ قد شُرِّفْتُ به في أوائل الحال، وتيسَّرَ شهودُ الوحدة في الكثرة، ثم ترقَّيْتُ من ذلك المقام بعناية الملك العلَّام إلى ما فوقه بدرجاتٍ كثيرةٍ، وفاض عليَّ في ضمن ذلك أنواعُ العلوم، ولكن لا يوجد في كلام القوم مصداقُ تلك المقامات ومصداقُ هاتيك المعارف والمقالات صريحاً، وفي كلام بعض الأكابر إشاراتٌ ورموزٌ إجماليَّةٌ فيها، ولكنَّ الشَّاهدَ العدلَ لصحَّتها: موافقَتُها لظاهر الشَّريعة وإجماعِ علماء أهل السنَّة، بحيث لا تخالفُ ظاهرَ الشَّريعة الغرَّاء في شيءٍ، ولا توافِقُ أقوالَ الفلاسفة وأصولَهم المعقولةَ، بل لا توافقُ أصولَ طائفة من العلماء الإسلاميين لهم مخالفةٌ لأهل السنَّة، وقد انكشف أنَّ الاستطاعةَ مع الفعل، وأن لا قدرةَ قبل الفعل، بل تحصل القدرةُ مقارناً بالفعل، والتَّكليفُ مستندٌ إلى سلامة الأسباب والأعضاء كما قرَّره علماءُ أهل السنَّة، وأجِدُنِي في هذا المقام على قدم الخواجه بهاء الدين النقشبند قدس سره، فإنَّه كان في هذا المقام، وكان لحضرة الخواجه علاء الدين العطار نصيبٌ أيضاً من هذا المقام، ومن أكابر هذه السِّلسلة العلية: حضرةُ الخواجه عبد الخالق الغُجْدُوانِيّ قدس الله تعالى سرَّه الأقدس، ومن المتقدمين: الشيخُ معروفٌ الكرخيُّ وداود الطائيُّ والحسن البصريُّ وحبيبٌ العجميّ قدّس الله أسرارهم المقدَّسة، وحاصلُ هذه كلِّها: كمالُ البُعْد والوحشة، وقد جاوز الأمرُ المعالجةَ، وما دامت الحجبُ مسدولةً؛ كان للسَّعي والاهتمام لرفعها مجالٌ، والآن كانت عظمةُ الأمر حجاباً له:

(ع) فَـلَا طَـبِـيـبَ لَـهَـا وَلَا رَاقِ

وكأنَّهم سَمَّوا كمالَ الوحشة وعدمَ المناسبة: وصلاً واتصالاً، ....

هيهات هيهات، وهذا البيتُ موافقٌ للحال: (شعر)

إِيَّاكَ يَا صَاحِ وَدَعْوَى وِصَالِهِ أَيْنَ الْحَضِيضُ مِنَ السِّمَاكِ الْأَعْزَلِ

أين الشُّهودُ؟ ومَنِ الشاهدُ؟ وما المشهودُ؟

(ع) وَمَتَى يُرَى لِلْخَلْقِ نُورُ جَمَالِهِ

ما للتُّراب وربّ الأرباب، وإنَّما للعبد أن يعلم نفسه مخلوقاً غير قادرٍ، وكذلك له أن يعتقد جميع العالم كذلك، وأن يُذْعِنَ أنَّ الخالقَ والقادرَ هو الحقُّ عزَّ وجل، لا يُثْبِتُ نسبةً غيرَ هذا أصلاً، فأين العينيَّةُ والمرآتيَّةُ؟

(ع) وَبِأَيِّ مِرْآةٍ غَدَا مُتَصَوَّرَا

وعلماءُ الظَّاهر من أهل السنَّة والجماعة وإن كانوا مقصِّرين في بعض الأعمال، ولكن يظهر في النَّظر أنَّ لجمال صحَّة عقائدهم من النُّورانيَّة ما يضمحلُّ فيه تقصيراتُهم وتتلاشى، ولا يوجد ذلك في بعض المتصوِّفة؛ لعدم كمال صحَّة عقيدتهم في الذَّات والصِّفات مع وجود الرِّياضات والمجاهدات، وقد حصلتْ لي محبَّةٌ كثيرةٌ في حقِّ العلماء وطلبة العلوم، وتستحسن لي سيرتُهم، وأتمنَّى أن أكون في زمرتهم، ونتذاكر مع طلبة العلوم «التوضيح» و«التلويح» من المقدمات الأربع، ونباحث معهم، ونقرأ «الهداية» أيضاً من الفقه، وأشارك العلماء أيضاً في القول بالإحاطة والمعيَّة العلميتين، وكذلك أعلم أنَّ الحقَّ سبحانه ليس عينَ العالم، ولا متَّصلاً به، ولا منفصلاً عنه، ولا مع العالم، ولا مفارقاً عنه، ولا محيطاً به، ولا سارياً فيه، وأعلم أنَّ الذَّوات والصفات كلَّها مخلوقةٌ له تعالى، لا أنَّ صفاتِ المخلوقات صفاتٌ له تعالى، وأفعالَها أفعالُه سبحانه، بل أعلم أنَّ المؤثِّرَ في الأفعال إنَّما هو قدرتُه تعالى، لا تأثيرَ لقدرة المخلوق كما هو مذهب علماء المتكلّمين، وكذلك أعلم أنّ الصفاتِ السَّبعَ موجودةٌ، وأعلم أنَّ الحقَّ سبحانه مريدٌ، وأتصوَّرُ القدرةَ بمعنى صحَّة الفعل والترك بيقينٍ، لا بمعنى: إن شاء فعلَ، وإن لم يشأ لم يفعل، ولا أقول: إنَّ الشَّرطيَّةَ الثَّانيةَ ممتنعةُ الوقوع كما قال به الحكماءُ - يعني: الفلاسفةَ السُّفهاءَ وبعضَ الصوفية -، فإنَّ هذا ينجرُّ إلى القول بالإيجاب، ويوافق أصولَ الحكماء. وأعتقد مسألةَ القضاء والقدر على طَوْر العلماء، فإنَّ للمالك أن يتصرَّف في ملكه كيف يشاء، ولا أرى للقابليَّة والاستعداد دخلاً أصلاً، فإنَّه ينجرُّ إلى الإيجاب، وهو سبحانه مختارٌ فعَّالٌ لِمَا يريدُ، وعلى هذا القياس. ولما كان عرضُ الأحوال من جملة الضروريات؛ اجترأنا بعرضها بالضَّرورة:

(ع) عَلَى الْمَرْءِ أَنْ لَا يَجْهَلَ الدَّهْرَ طَوْرَهُ

المكتوب التاسع

في بيان الأحوالِ المُناسبةِ لِمَقامِ النُّزولِ، كَتَبَه أيضاً إلى شَيخِه المكرَّم.

عريضةُ المدبَّر الأسود الوجه المقصّر، سيِّئِ الخلق، مغرورِ الوقت والحال، الكاملِ الاجتهاد في مخالفة المولى، العاملِ بترك العزيمة والأَوْلى، مزيِّنِ موقع نظر الخلق، ومخرِّبِ محلّ نظر الحقّ تعالى وتَقَدَّس، مقصورِ الهمَّة في تزيين الظَّاهر، منحرفِ الباطن من هذه الجهة نحوَ الأغيار، قالُه منافٍ لحاله، وحالُه مبنيٌّ على خياله، فماذا يحصلُ من هذا المنام والخيال؟ وماذا ينكشف من هذا القال والحال؟ نقدُ الوقت الإدبارُ والخسارةُ، والبضاعةُ الغباوةُ والضَّلالةُ، ونفسُه مبدأُ الشرّ والفساد، ومنشأُ الظُّلم ومعصية ربّ العباد؟ وبالجملة: إنّه ذنوبٌ مجسَّمةٌ، وعيوبٌ مجتمعةٌ، خيراتُه لائقةٌ باللَّعْن والردّ، وحسناتُه مستحقَّةٌ للطّعن والطرد، «**رُبَّ قَارِئِ الْقُرْآنِ وَالْقُرْآنُ يَلْعَنُهُ**»(١) شاهدُ عدلٍ في حقّه، و«**كَمْ مِنْ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الظَّمَأُ وَالْجُوعُ**»(٢) شاهدُ صدقٍ في شأنه، فويلٌ لمن كان هذا حاله ومنزلته وكماله ودرجته، استغفاره ذنبٌ كسائر الذنوب..

(١) ذكره الغزالي في «إحياء علوم الدين» (١/ ٢٧٤) عن أنس بن مالك ﷺ من كلامه موقوفاً.

(٢) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (٣٢٣٦)، وابن ماجه (١٦٩٠) من حديث أبي هريرة ﷺ بدون قوله: «الظمأ»، وأخرجه الدارمي (٢٧٦٢) بلفظ: «إلا الظمأ». قال البوصيري في «مصباح الزجاجة»: ٢/ ٦٩: هذا إسناد صحيحٌ رجاله ثقاتٌ. وقد أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٨٨٥٦) بلفظ: «رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش».

بل أشدُّ، وتوبتُه معصيةٌ كسائر المعاصي بل أقبحُ، (كلُّما يفعله القبيحُ قبيحٌ) مصداقُ هذا القول:

(ع) مَنْ يَزْرَعِ الشَّوْكَ لَمْ يَحْصِدْ بِهِ عِنَبَا

مرضُه ذاتِيٌّ لا يقبل العلاجَ، ودائُه أصليٌّ لا ينفعه الدواءُ، كفاسد المزاج، ما بالذَّات لا ينفك عن الذَّات: (شعر)

أَنَّى يَزُولُ مِنَ الْحُبُوشِ سَوَادُهَا ... إِنَّ السَّوَادَ بِأَصْلِهِ هُوَ لَوْنُهَا

ماذا نصنع؟ ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَٰكِنْ كَانُوٓا اَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ٣٣]. نعم، الخيرُ المحضُ يستدعي شريراً محضاً؛ لتظهر حقيقةُ الخيريَّة، الأشياءُ إنَّما تتبيَّنُ بضدّها، فالخيرُ والكمالُ إذا كانا مهيَّأين يلزمهما الشرُّ والنقصُ، فإنَّ الحسنَ والجمالَ لا بدَّ لهما من المرآة، والمرآةُ لا تكون إلا في مقابلة شيءٍ، فلا جرم كان الشرُّ مرآةً للخير، والنَّقصُ مرآةً للكمال، فما زاد فيه النَّقصُ والشَّرُّ؛ يكون الكمالُ فيه أزيدَ، والخيرُ أوفرَ، والعجبُ أنَّ هذا الذمَّ كشف عن وجه معنى المدح، وصار الشرُّ والنُّقصانُ محلّاً للخير والكمال، فلا جرم يكون مقامُ العبديَّة فوق جميع المقامات، فإنَّ هذا المعنى أتمُّ وأكملُ في مقام العبديَّة، وإنَّما يتشرَّفُ بهذا المقام المحبوبون، وتلذُّذُ المحبِّين إنَّما هو بذَوْق الشُّهود، والالتذاذُ بالعبديَّة والأنسُ بها مختصّان بالمحبوبين، أنسُ المحبِّين في مشاهدة المحبوب، وأنسُ المحبوبين في عبوديَّة المحبوب، فهم يتشرَّفون في هذا الأُنس بتلك الدَّولة والنِّعمة، وفارسُ هذا الميدان على الإطلاق هو سندُ الدنيا والدين، وسيِّدُ الأولين والآخرين، وحبيبُ ربِّ العالمين، عليه من الصلوات أتمُّها، ومن التحيات أكملها، فإن أريد إيصالُ شخصٍ إلى هذه الدَّولة بمحض الفضل؛ يُجْعَلُ أوَّلاً متحقِّقاً بكمال متابعته عليه الصلاة والسلام، ثم يُرفعُ بتلك المتابعة إلى ذِرْوَة العُلا، ﴿ذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَآءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

والمراد من الشرّ والنَّقْص: العلمُ الذوقيُّ بهما، لا الاتِّصافُ بهما، وصاحبُ هذا العلم متخلِّقٌ بأخلاق الله تعالى شأنه وتقدس، وهذا العلمُ من جملة ثمرات ذلك التَّخلُّق، فكيف يكون للشرِّ والنَّقص مجالٌ في ذلك الموطن سوى تعلُّقِ العلم بهما؟ وهذا العلمُ إنَّما هو بواسطة الشُّهود التامِّ للخير المحض الذي يُرى الكلُّ في جنبه شرّاً، وهذا الشُّهودُ بعد نزول النَّفس المطمئنَّة إلى مقامها، ولذلك ما دام العبدُ لم يُسْقِطْ حظَّ نفسه، ولم يضربْ به الأرضَ، ولم يبلغْ أمرُه هذه المرتبةَ؛ لا نصيبَ له من كمال مولاه جلّ شأنه، فكيف إذا اعتقد نفسه أنَّه عينُ مولاه، وصفاتِه صفاتُه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً؟

وهذا الاعتقادُ إلحادٌ في الأسماء والصِّفات، وأربابُه داخلون في زمرة مصداق قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ اَسْمَآئِهٖ﴾، وليس كلُّ من تقدَّمت جذبتُه على سلوكه من المحبوبين، ولكن تقدُّم الجذبة شرطٌ في المحبوبيَّة. نعم، في كلِّ جذبةٍ نوعٌ من معنى المحبوبيَّة، فإنَّ الجذبَ لا يكون بدونه، وذلك المعنى حصل فيهم بسبب عارض من العوارض لا ذاتِيّ، والذاتِيُّ غيرُ معلَّلٍ بشيءٍ من الأشياء، ألا ترى أنَّ كلَّ منتهٍ تتيسَّرُ له الجذبةُ أخيراً مع كونه داخلاً في زمرة المحبِّين، ظهر فيه معنى المحبوبيَّة بواسطة عارضٍ؟

وهو لا يكفي فيه، يعني: حصول هذا المعنى لا يكفي في كون السَّالك محبوباً، وذلك العارضُ هو التَّزكيةُ والتَّصفيةُ، ويكون الباعثُ على حصول هذا المعنى لبعض المبتدئين في الجملة: اتِّباعَ النبيّ ﷺ ولو في الجملة، بل الباعثُ عليه في المنتهي أيضاً: هو الاتِّباعُ فقط، وظهورُ ذلك المعنى الذاتِيّ والفضليّ في المحبوبين أيضاً مَنُوطٌ باتِّباعه ﷺ، بل أقول: إنَّ ذلك المعنى الذاتِيَّ بواسطة المناسبة الذاتيَّة للنبي ﷺ، والاسمُ الذي هو ربّه واقعٌ مناسباً للاسم الذي هو ربّه..........

ﷺ في حقِّ تلك الخصوصيَّة، وبهذا السَّبب اكتسب هذه السَّعادةَ. والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآبُ، والله يحقُّ الحقّ وهو يهدي السبيل.

المَكتُوبُ العَاشِرُ

في حصولِ القُربِ والبُعدِ والفَرقِ والوَصلِ بمَعانٍ غيرِ مُتعارَفةٍ، مع بعض العُلومِ المُناسِبِ لذلك المَقام، كَتَبَه أيضـًا إلى شَيخِه المعظَّم.

عريضةُ أحقر الخدمة. إنَّه قد طالت المدَّةُ، ولا اطِّلاعَ لي على أحوال خدمة تلك العتبة العلية مع كثرة الانتظار: (شعر)

وَلَا عَجَـبَ إِنْ عَـادَ رُوحِـي إِذَا أَتَـى ... سَـلَامٌ مِـنَ الْخِـلِّ الْـوَفِيِّ الْمُفَـارِقِ

غيره: عَلِمْـتُ بِـأَنِّي غَيْـرُ لَاحِـقِ رَكْبِـهُ ... فَيَكْفِـي سَـمَاعِي مِـنْ وَرَاهُ نِـدَاءَهُ

وأعجب بأمر، حيث سمّوا نهايةَ البعد قرباً، وغايةَ الفراق وصلاً، وكأنَّهم أشاروا في ضمن ذلك إلى نفي القرب والوصال: (شعر)

كَيْـفَ الْوُصُـولُ إِلَى سُعَـادَ وَدُونَهَا ... قُـلَـلُ الْـجِبَـالِ وَدُونَـهُـنَّ حُـيُـوفُ

فلا جرم كان الحزنُ الأبديُّ والفكرُ الدائميُّ ممدّاً ومُعيناً، ولا بدَّ أن يكون المرادُ في آخر الأمر مريداً أيضـًا بإرادته، والمحبوبُ محبّاً ومبتلىً بمحبَّة المحبوب، وهذا النبيُّ ﷺ - مع وجود مقام المراديَّة والمحبوبيَّة - صار مريداً ومحبّاً، فلا جرم أخبروا عن حاله بأنَّه كان رسول الله ﷺ متواصلَ الحزن دائم الفكر(1)، وقال النبي ﷺ: «**مَا أُوذِيَ نَبِيٌّ مِثْلَ مَا أُوذِيتُ**»(2)، والمحبُّون هم المتحمِّلون لِثِقَل المحبَّة، وحملُ هذا الثِّقل عسيرٌ على المحبوبين:

(ع) فَيَـا لَـهَا قِصَّـةً فِـي شَـرْحِـهَا طُـولُ

(ع) وَقِصَّـةُ الْعِشْـقِ مِـمَّا لَا انْفِصَـامَ لَـهُ

وحاملُ العريضة الشَّيخ إله بخش قد حصل له نوعٌ من الجذب والمحبَّة، وقد صار باعثاً على كتابة كلماتٍ إلى خدمتكم بالإبرام، وحاصلُ المرام: أنَّه أظهر شوقَ الملازمة، وتوجَّه نحو تلك الحدود، وقد كان أوَّلاً أظهر بعض الإرادات، ولَمّا فهم من هذا الفقير تقاعداً فيه وتأخراً عن إنجاحه؛ رضي بمجرَّد الملاقاة، فكتبنا لأجل ذلك هذه الكلمات. وزيادةُ الانبساط بعيدةٌ عن طور الأدب.

المَكتُوبُ الحَادِي عَشَرَ

في بيان بعض الكُشوفِ، وحصولِ مَقامِ رؤية قُصورِ نفسِه، واتِّهامِها في جميعِ الأحوال، وظُهورِ معنى الكلماتِ الثَّلاثِ للشَّيخ أبي سعيدِ أبي الخَيرِ، وسِرِّها، وبيانِ أحوالِ بعض أصحابِه، كَتَبَه إلى شَيخِه المكرَّم أيضـًا.

عريضةُ أقلّ العبيد أحمد. إنَّ المقامَ الذي كنت رَأَيْتُني فيه سابقاً وقع النَّظرُ على عبور الخلفاء الثلاثة منه بعد الملاحظة حسب الأمر الشَّريف، ولَمّا لم يكن لي فيه مقامٌ واستقرارٌ؛ لم أَرَهُم فيه في أوّل وهلةٍ، كما أنَّه لا استقرارَ فيه ولا ثباتَ لأحدٍ من أئمّة أهل البيت غير الإمامين والإمام زين العابدين رضي الله عنهم أجمعين، ولكن وَقَعَ لهم العبورُ منه، ويمكن إدراكُه بدقَّة النَّظَر، وأمَّا وجهُ رؤية نفسي أوّلاً غيرَ مناسبٍ لهذا المقام؛ فعدمُ المناسبة على نوعين: أحدُهما: عدمُ ظهور طريقٍ من الطُّرُق، فلو أُريتُ الطَّريقَ؛ لزال عدمُ المناسبة. وثانيهما: عدمُ مناسبةٍ مطلقاً، وهذا لا يقبل الزَّوالَ بوجهٍ من الوجوه. والطريقُ الموصلُ لذلك المقام اثنان لا ثالثَ لهما - أعني: أنَّه لا يظهر في النَّظر طريقٌ غيرُ هذين الطَّريقين -: أحدُهما: رؤيةُ النَّقْص والقصور، واتّهامُ النِّيَّات في الخيرات مع قوَّة الجَذْب. وثانيهما: صحبةُ مكمِّلٍ مجذوبٍ قد أتمَّ السُّلوكَ، وقد رزقني اللهُ سبحانه الطَّريقَ الأوَّلَ على قدر الاستعداد بيُمْن عنايتكم العليَّة، فإنَّه لا يصدر عنّي......

---

(1) أخرجه الترمذي في «الشمائل» (٢٢٦)، والطبراني في «الكبير» (٢٢/ ١٥٥)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (١/ ٢٨٥- ٢٨٧) من حديث هند بن أبي هالة رضي الله عنه ضمن حديث طويل في صفته ﷺ، وفيه عندهم: (دائم الفكرة).

(2) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٣٣) من حديث أنس رضي الله عنه. وأخرجه الترمذي وصححه (٢٤٧٢)، وابن ماجه (١٥١)، والإمام أحمد (١٢٢١٢) من حديث أنس رضي الله عنه بلفظ: «لقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد».

من أعمال الخير إلا أتَّهِمُ فيه نفسي، بل لا أستريحُ ولا يستقرُّ قلبي إلى أن أتَّهِمَ فيه نفسي، وأراني كأنَّه لم يَصْدُرْ عنِّي عملٌ قابلٌ لكتابة ملك اليمين، وأعتقدُ أنَّ صحيفةَ يميني خاليةٌ عن أعمال الخير، كَتَبَتُها معطَّلون من الكتابة، فكيف أكون مستحقّاً لقبول الحقّ جلَّ وعلا؟ وأعلمُ أنَّ جميعَ مَنْ في العالم من كفار الإفرنج والزَّنادقة والملاحدة أفضلُ منِّي بوجوهٍ، وشرُّ الجميع أنا. وجهةُ الجذبة وإن تمَّتْ بتمام السَّيْر إلى الله، ولكن كان بعضُ لوازمه وتوابعه باقياً، وتمَّ الآن ذلك الباقي أيضاً في ضمن الفناء الذي وقع في مركز مقام السَّير في الله، وكنتُ كتبتُ أحوالَ ذلك الفناء في العريضة السَّابقة بالتَّمام، ولعلَّ المرادَ بالفناء الواقع في كلام الخواجه عُبَيْد الله أحرارٍ قدِّس سرُّه حيث قال: قال الأكابرُ: نهايةُ هذا الأمر الفناءُ: هو ذلك الفناءُ الذي يتحقَّقُ بعد التَّجلّي الذَّاتيِّ، والتَّحقُّق بالسَّيْر في الله، وفناءُ الإرادة من جملة شُعَب ذلك الفناء: (شعر)

وَمَنْ لَمْ يَكُنْ فِي حُبِّ مَوْلَاهُ فَانِيـًا فَـلَـيْـسَ لَـهُ فِـي كِـبْـرِيَـاهُ سَـبِـيـلُ

والذين لا مناسبةَ لهم بهذا المقام؛ فهم في النَّظر طائفتان: طائفةٌ متوجِّهون إليه وطالبون لطريق الوصول إليه، وطائفةٌ أخرى لا التفاتَ لهم إليه، ولا توجُّهَ فيهم نحوه، وتوجُّهُ الحضرة - يعني: شيخَه - أشدُّ ظهوراً من الطَّريق الثَّاني من طريقي الوصول إليه، وتظهر مناسبتُه لهذا الطَّريق، وحيث كنت مأموراً من جانب حضرتكم نتجاسرُ بأمثال هذه الأمور امتثالاً للأمر، وإلا؛ فأنا ذاك أحمدُ الأمس لم أتغيَّرْ أصلاً.

والمعروضُ ثانياً: أنَّه قد ظهر في أثناء ملاحظة ذلك المقام مرَّةً ثانيةً مقاماتٌ أخرُ بعضُها فوق بعضٍ، ولَمَّا وصلتُ إلى المقام الذي فوق المقام السَّابق بعد التَّوجُّه بالانكسار وإظهار الافتقار؛ تبيَّن لي أنَّه مقامُ حضرة ذي النُّورين ﷺ، وللخلفاء الباقين عبورٌ من ذلك المقام، وهذا المقامُ مقامُ التَّكميل والإرشاد أيضاً في هذه المرتبة، وكذلك المقامان اللذان يُذْكَران بعدُ. ثمَّ وقع النَّظرُ على مقامٍ فوقه، ولَمّا وصلتُ إليه؛ تبيَّنَ لي أنَّه مقامُ حضرة الفاروق ﷺ، وللخلفاء الباقين عبورٌ من ذلك المقام، ثم ظهر فوقَه مقامُ الصِّدِّيق الأكبر ﷺ، ووصلتُ إليه أيضاً، ووجدتُ الخواجه بهاء الدين النَّقشبند قدّس سرُّه رفيقاً لي من بين المشائخ في جميع المقامات، ولسائر الخلفاء عبورٌ من هذا المقام، لا تفاوُتَ إلا في العبور والمقام والمرور والثَّبات، ولا يرى فوقَهُ مقامٌ أصلاً إلا مقامَ خاتم النَّبيِّين والمرسلين عليه من الصَّلوات أكملها ومن التَّحيات أتمُّها. وظهر في محاذاة مقام الصّديق الأكبر ﷺ مقامٌ آخرُ نورانِيٌّ عالٍ جدّاً لم أرَ مثلَه قطُّ، وكان له ارتفاعٌ يسيرٌ من ذلك المقام كما إذا رفعوا اللَّوحَ من الأرض، وتبيَّنَ لي أنَّه مقامُ المحبوبيَّة، وكان ذلك المقامُ مزيَّناً ومنقَّشاً، فوجدتُ نفسي أيضاً مزيَّناً ومنقَّشاً من انعكاسه، ثم وجدتُ نفسي بعد ذلك لطيفاً في تلك الكيفيَّة، ورأيتني منتشراً في الآفاق مثل الهواء وقطعة السَّحاب حتى استوعبتُ بعضَ الأطراف، وحضرةُ الخواجه النَّقشبند في مقام الصِّدِّيق، وأجِدُني في المقام المحاذي له بكيفيَّةٍ معروضةٍ.

والمعروضُ ثالثاً: أنَّه لا يُرَى تركُ الاشتغال بهذا العمل مرضيّاً، كيف والعالَمُ على شَرَف الغَرَق في لُجَّة الضَّلالة؟ ومن وَجَدَ في نفسه قوَّةَ الإخراج من تلك اللُّجَّة؛ كيف يسوغُ له أن يسامحَ نفسه وان كان له أمرٌ آخرُ أمامَه؟ ولكنَّ الاشتغالَ بهذا العمل ضروريٌّ ومرضيٌّ، بشرط التزام الاستغفار من بعض الوساوس والهواجس الذي يحصل في.........................

أثناء هذا العمل، وبهذا الشَّرْط يكون داخلاً تحت الرِّضا، وأما بدون ملاحظة هذا الشَّرط؛ فلا، بل يبقى أَدْوَنَ. وأما الخواجه النقشبند والخواجه علاء الدين العَطَّار قدس سرُّهما؛ فهذا العملُ مرضيٌّ منهما من غير ملاحظةِ هذا الشَّرط، وأما عملُ هذا الفقير؛ فأحياناً داخلٌ في الرِّضا من غير ملاحظة هذا الشَّرط، وأحياناً يبقى أدونَ.

ورابعاً: أنَّه ذكر في «النَّفحات»: أنَّ الشيخ أبا سعيد أبا الخير قال: إذا لم يَبْقَ العينُ؛ فأين يبقى الأثرُ؟ ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ [المدثر: ٢٨]، وقد أشكل عليَّ هذا الكلامُ في أوَّل النَّظر، فإنَّ الشَّيخَ محيي الدِّين وأتباعَه ذاهبون إلى أنَّ زوالَ العين الذي هو معلومٌ من معلومات الله تعالى محالٌ، وإلا؛ لانقلب العلم جهلاً، فإذا لم يَزُلِ العينُ؛ أين يذهب الأثرُ؟

وقد كان هذا الكلامُ متمكِّناً في الذِّهن بهذا الوجه، فلم ينحلَّ كلامُ الشَّيخ أبي سعيد قطّ. ثم كشف اللهُ سبحانه عن وجه سرِّ هذا الكلام بعد التَّوجُّه التَّامّ، وتحقَّقَ أنَّه لا يبقى العينُ ولا الأثرُ، ووجدتُ هذا المعنى في نفسي أيضاً، فلم يَبْقَ الإشكالُ أصلاً، وقد وقع النَّظَرُ على مقام هذه المعرفة أيضاً، رأيتُه عالياً جدّاً فوق المقام الذي بيَّنه الشَّيخُ وأتباعُه، ولا تنافي بين هذين المبحثين، فإنَّ أحدهما من مقامٍ والآخرَ من مقامٍ آخرَ، وتفصيلُه في العريضة موجبٌ للتَّطويل والمَلَال.

وقد ظهر أيضاً ما قاله الشَّيخُ - يعني: أبا سعيد أبا الخير - من دوام هذا الحديث، وأنَّ الحديثَ عبارةٌ عن ماذا؟ ودوامُه ماذا؟ ووجدتُ هذا الحديثَ في نفسي دائماً ولو كان من النَّوادر. وأيضاً لا يميل قلبي إلى مطالعة الكُتُب ولا يطيب به إلا ما كان فيه ذكرُ مناقب المشائخ الكبار العالية، وأحوالهم السَّامية الواقعة في المقامات، فيستحسن لي مطالعةُ أمثال ذلك، وأحوالُ المشائخ المتقدمين أكثرُ رغبةً فيها، ولا أقدرُ على مطالعة كتب الحقائق والمعارف، خصوصاً كلمات توحيد الوجود وتنزُّلات المراتب، وأراني في هذا الباب كثيرَ المناسبة للشَّيخ علاء الدولة، ومتَّفقاً معه في الذَّوق والحال في هذه المسألة، ولكن العلم السَّابقَ لا يتركني لإنكارها، والتَّشديد على أربابها، يعني: كما صدر من الشَّيخ علاء الدولة.

وأيضاً قد وقع التَّوجُّهُ لدفع بعض الأمراض مرَّاتٍ، وظهر أثرُه، وكذلك ظهرت أحوالُ بعض الموتى التي هي من عالم البرزخ، ووقع التوجُّه أيضاً لدفع الآلام والشدائد عنهم، ولكن لم تبقَ الآن قدرةُ التوجُّه، فإني لا أقدرُ أن أجمع نفسي بشيءٍ من الأشياء بسبب أنَّه قد صدر بعضُ المصادرات والظُّلم والجور في حقّ الفقير من بعض الناس، وحملوا عليّ الشَّدائد، وظلموا جمعاً كثيراً من متعلّقي هذا الجانب، وجَلَوهم عن الوطن بغير حقّ، ومع ذلك لم يقع الغبارُ على الخاطر، ولم يتطرَّق الكلفةُ والتَّضجُّرُ إلى القلب أصلاً، فضلاً عن صدور قصد الإساءة إليهم، واكتسب بعض الأصحاب شهوداً ومعرفةً في مقام الجذبة، ولم يضعوا إلى الآن قَدَماً في منازل السُّلوك، وأنا أذكر نبذةً من أحوالهم، وأعرضها على حضرتكم، عسى الله سبحانه أن يشرّفهم بدولة السلوك بعد تمام جهة الجذبة، فأقول:

إنَّ الشيخَ نوراً مربوطٌ ومحبوسٌ في ذلك المقام، ولم يصلْ بعدُ إلى نقطةٍ فوقانيَّةٍ من مقام الجذبة، فإنَّه يؤذى في الحركات والسَّكنات، ولا يميِّزُ الطيِّبات من القبائح، فوقع أمرُه في التَّوقُّف بلا اختيارٍ، وكذلك وقع التوقُّفُ في أمور أكثر الأصحاب بواسطة عدم رعاية الآداب، وأنا حيران في هذا الباب، فإنه لا إرادةَ للتَّوقُّف من هذا الطرف، بل الإرادةُ لترقيهم، ويقع المكثُ في أمورهم بلا اختيارٍ، وإلا؛ فالطّريق أقربُ، ونزل مولانا المعهود إلى النقطة الأخيرة، وأتمَّ أمرَ الجذبة، ووصل إلى برزخية ذلك المقام، وأوصل ....

الفرقَ من وجهه إلى النِّهاية، قد رأى الصِّفات أولاً - بل النّور القائمة به الصِّفات - مفارقاً عن نفسه، ووجد نفسه شبحاً خالياً، ثم رأى الصِّفات منفكَّةً عن الذَّات، ووصل بهذه الرُّؤية من مقام الجذبة إلى الأحديَّة، والآن قد ذَهِلَ عن العالم وعن نفسه بحيث لا يقول بالإحاطة ولا بالمعيَّة، وتوجُّهُه إلى أبطن البطون، بحيث لا حاصلَ له غيرُ الحيرة والجهالة.

ووصل السيدُ شاه حسين أيضاً إلى قرب النُّقطة الأخيرة من مقام الجذبة على وجهٍ وصل رأسُه إلى النُّقطة، وكذلك وجد الصِّفاتِ منفكَّةً عن الذَّات، ولكنْ يَجِدُ الذَّاتَ الأحدَ في كلِّ محلٍّ، ويحتظّ بالظَّاهر، وكذلك ميان جعفر وصل إلى قرب النُّقطة الأخيرة، وكثيراً ما يظهر بالشَّوق والوَلَه، وقريبٌ من الشّاه حسين، ويظهر التَّفاوُتُ أيضاً في بقية الأصحاب. وقد وصل ميان شيخن والشيخ عيسى والشيخ كمال إلى النُّقطة الفوقانيَّة من مقام الجذبة، والشيخُ كمال أيضاً متوجِّهٌ إلى النُّزول، ووصل الشّيخ ناكوري تحت النُّقطة الفوقانيَّة، ولكن أمامَه مسافةٌ كثيرةٌ، وبلغ من الأصحاب الكائنين هنا ثمانيةٌ أو تسعةٌ - بل عشرةُ أشخاصٍ - تحت النُّقطة الفوقانيَّة، وبلغ بعضُهم النُّقطةَ، وبعضهم تهيَّأ للنُّزول، وبعضهم قريبٌ منها، وبعضهم بعيدٌ عنها. ويجد الشّيخ ميان مزمّل نفسه معدوماً، ويرى الصِّفات من الأصل، ويجد المطلقَ في كلِّ محلٍّ، ويرى الأشياءَ كالسَّراب عديم الاعتبار، بل لا يرى شيئاً، ويظهر مولانا المعهود في هذا الباب على وجهٍ يكون إجازتُه لتعليم الطَّالبين من المرضيَّات، لكن إجازةً مناسبةً للجذبة، وإن بَقِيَ بعضُ الأمور اللّازمة الاستفادة، ولكنَّه استعجل في الذَّهاب ولم يتوقَّفْ، فإذا وصل إلى الحضور الأقدس؛ تأمرونه بما فيه صلاحُ أمره، وما هو في علم الفقير؛ فقد عَرَضْتُهُ عليكم، والحكمُ عندكم.

وكان الخواجه ضياء الدين محمد هنا أيّاماً، واكتسب الحضورَ والجمعيَّةَ في الجملة، ثم لم يقدرْ آخرَ الأمر أن يجمع خاطرَه من قلَّة أسباب المعيشة، فتوجَّه نحو العسكر. وولدُ مولانا شير محمد متوجِّهٌ نحوكم للملازمة، وله حضورٌ وجمعيَّةٌ في الجملة، ولم يترقَّ كما ينبغي بواسطة بعض الموانع. وزيادةُ الانبساط بعيدةٌ عن الأدب:

(ع) عَلَى الْمَرْءِ أَنْ لَا يَجْهَلَ الدَّهْرَ طَوْرَهُ

ثم عرضتُ بعد تحرير العريضة كيفيَّةٌ وحالةٌ لا يمكن بيانُها بالتَّحرير، وتحقَّقَ في هذا المحلِّ فناءُ الإرادة، كما أنّ تعلُّقَ الإرادة بالمرادات انعدم سابقاً، وبَقِيَ أصلُ الإرادة كما عرضْتُه في العريضة، والآن انقطع عِرْقُ الإرادة بالكليَّة، فحينئذٍ لا مرادَ ولا إرادةَ، وظهرت صورةُ هذا الفناء أيضاً في النَّظر، وفاض بعضُ العلوم المناسب لهذا المقام، ولَمّا كان في تحرير تلك العلوم تعسُّرٌ بواسطة ضيق الوقت وغموض العلوم لا جَرَمَ صَرَفْنا عَنانَ القلم عن تحريرها، وحين التَّحقُّق بهذا الفناء وفيضان العلوم؛ وقع نظرٌ خاصٌّ على ما وراء الوحدة، وإن كان عدمُ النَّظَر إلى ما وراء الوحدة أمراً مقرَّراً، بل لا نسبةَ فيه أصلاً، لكن كلَّما أجده أعرضُه، ولا أتجاسَرُ بكتابته إلى أن يبلغَ مرتبةَ اليقين، وأرى صورةَ ذلك المقام فيما وراء الوحدة كآكرة وراء دهلي، ولم يتطرَّقْ إليه شبهةٌ قطّ، وإن لم تكن في النَّظر وحدةٌ، ولا ما وراءها، ولا مقام آخر أعرفه بعنوان الحقيقة، أو أعرف أنَّ الحقّ وراءه، والحيرةُ والجهالةُ على صرافتهما، ولم تتفاوتا بسبب هذه الرّؤية، فلا أدري ماذا أعرضُ، فإنَّ الكلَّ تناقضٌ في تناقضٍ، لا يمكن أن يوردَ في قَيْد القال، وإن كان الحالُ متحقِّقاً بلا شبهةٍ. أستغفرُ الله وأتوبُ إلى الله من جميع ما كَرِهَ اللهُ قولاً وفعلاً، خاطراً وناظراً.

وأيضاً تبيَّن في هذا الوقت أنَّ ما ظَنَنْتُه سابقاً من فناء الصِّفات كان في الحقيقة فناءَ خصوصيات الصِّفات وما به امتيازُها، لَمّا اندرجت الصِّفاتُ في ضمن الوحدة؛..........................

ارتفعت الخصوصيَّاتُ، وتوهَّم من ذلك فناؤُها، والآن قد اضمحلَّ أصلُ الصِّفات وانمحى، ولم يَبْقَ منها شيءٌ ولو على سبيل الاندماج والاندراج، ولم يتركْ قهرُ الأحديَّة شيئاً قطّ، ولم يُبْقِ التَّمييزَ الذي حصل من مرتبة العلم الإجماليّ أو التَّفصيليّ، وصار النَّظَرُ إلى الخارج بالتَّمام «**كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ شَيْءٌ، وَهُوَ الْآنَ كَمَا كَانَ**»(١) مطابقٌ للحال في هذا الوقت، وكان سابقاً العلمُ بمضمون هذا الحديث دون الحال. والمرجوُّ حصولُ التَّنبيه على الصحَّة والسّقَم، وقد يرى لمولانا القاسم على نصيبٍ من مقام التَّكميل، وكذلك يرى من هذا المقام نصيبٌ لبعض الأصحاب، والله سبحانه أعلمُ بحقيقة الحال.

المكتوب الثاني عشر

في بيان حُصولِ الفناءِ والبقاءِ، وظُهورِ الوَجه الخاصِّ في كلِّ شيءٍ، وحقيقَة السَّير في الله، والتَّجلِّي الذَّاتيِّ البَرقيِّ، وغيرِ ذلك، كَتبَه إلى شَيخِه المعظَّم أيضاً.

عريضةُ أقلّ العبيد أحمد. يُنْهِي إلى ذِرْوة العرض أنَّه ما يدري ماذا يعرض من تقصيراته، ما شاء الله كانَ، وما لم يشأ لم يَكُنْ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا بالله العليِّ العظيم. العلومُ التي تتعلَّقُ بمقام الفناء في الله والبقاء بالله كَشَفَ عنها الحقُّ سبحانه بعنايته، وتبيَّن أنَّه ما الوجهُ الخاصُّ في كلِّ شيءٍ، وما معنى السَّير في الله، وما التَّجلِّي الذَّاتيُّ البرقيُّ، ومَن محمديُّ المَشْرَب، وما أشبهَ ذلك، يقع الاطِّلاعُ في كلِّ مقامٍ على لوازم ذلك المقام وضروريَّاته، ثم يقع العبورُ عنه، ولم يَبْقَ شيءٌ مما أَخْبَرَ عنه أولياءُ الله تعالى غيرَ نبذةٍ يسيرةٍ إلا وقد أُرِيتُه وأُعْلِمْتُه قبل من قبل بلا عِلَّةٍ، وكذلك أرى ذواتِ الأشياء مجعولةً، وأرى أصلَ القابليَّات والاستعدادات مجعولةً ومصنوعةً، واللهُ سبحانه ليس بمحكومِ القابليَّات(٢)، فإنَّه لا ينبغي أن يُحْكَمَ عليه بشيءٍ، ولنتركْ زيادةَ الانبساط: (ع) عَلَى الْمَرْءِ أَنْ لَا يَجْهَلَ الدَّهْرَ طَوْرَهُ

المكتوب الثالث عشر

في بيان عدمِ نهايةِ الطَّريق، ومُطابقةِ عُلومِ الحَقيقةِ بعُلومِ الشَّريعَة، كَتبَه إلى شَيخِه المعظَّم.

المعروضُ من أقلِّ العبيد أحمد. آه ألف آهٍ من عدم نهايةِ هذا الطَّريق مع هذه السُّرعة في السَّيْر، وكثرةِ الإرادات والعنايات، ومن ههنا قال المشائخ: إنَّ السَّيرَ إلى الله مسافةُ خمسين ألفَ سنةٍ، وكأنَّ في قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَٰٓئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] إيماء إلى هذا المعنى، ولَمّا انجرَّ الأمرُ إلى اليأس، وانقطع الرَّجاءُ؛ لزم الاستمساكُ بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الشورى: ٢٨]، وكان قد وقع السَّيْرُ في الأشياء منذ أيَّام، ولَمّا غال المسترشدون وألَحّوا ثانياً؛ شرعتُ في أمورهم في الجملة، ولكن لا أَجِدُ نفسي قابلاً لذلك المقام، ولكنْ أُعَلِّمهم شيئاً على مقتضى المروءة والحياء؛ لإكثارهم في الإلحاح والإبرام، وقد كنتُ في مسألة توحيد الوجود متوقِّفاً سابقاً كما حرَّرْتُه مكرَّراً، وكنت أَنْسُبُ الأفعالَ والصِّفاتِ إلى الأصل، ولَمَّا صار حقيقةُ الأمر معلوماً؛ تركتُ التوقُّفَ، ووجدتُ القولَ بأنَّ الكلَّ منه أحسن، ورأيتُ الكمالَ فيه أزيد منه في القول بأنّ الكلَّ هو، وعلمتُ الأفعالَ والصِّفاتِ بلونٍ آخرَ - يعني: بوجهٍ آخرَ -، وأُريتُ الكلَّ واحداً واحداً، وجُوزِيَ بي إلى الفوق، ولم يَبْقَ ريبٌ ولا شُبْهةٌ أصلاً، وجاءت الكشفيَّاتُ كلُّها مطابقةً للشَّريعة، لا مخالَفَةَ فيها لظاهر الشَّريعة مقدارَ شعرةٍ، وما بيَّنه بعضُ الصُّوفيَّة من الكشفيَّات المخالفة لظاهر الشَّريعة؛..........................

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٩١) من حديث عمران بن حصين ﷺ بلفظ: «كان الله ولم يكن شيء غيره»، وفي روايةٍ له (٧٤١٨): «ولم يكن شيء قبله».
قال ابن حجر في «فتح الباري»: ٦/ ٢٨٩: (وفي رواية غير البخاري: «ولم يكن شيء معه»).

(٢) كذا في النسخ، ولعل الصواب: (بمحكوم للقابليات).

فهو إمَّا من السَّهْوِ، أو من السُّكْر، وإلا؛ فلا مخالفةَ بين الباطن والظَّاهر، والمخالفةُ إنَّما تَعرِضُ للنَّظَر في أثناء الطَّريق، فيحتاج إلى التَّوجُّه والجمع، وأما المنتهي الحقيقيُّ؛ فإنَّه يجد الباطنَ موافقاً لظاهر الشَّريعة، والفرقُ بين معرفة العلماء ومعرفة المشائخ الكرام: هو أنَّ العلماءَ يعرفون بالاستدلال والعلم، والمشائخَ بالكشف والذَّوْق، وأيُّ دليلٍ أدلُّ على صحَّة حالهم من هذه المطابقة؟ ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِى﴾ [الشعراء: ١٣] نقدُ الوقت، ولا أدري ماذا أَعْرِضُ؟ وقد كنت موفَّقاً لتسويد بعض الأحوال، ولا يمكن تحريرُه في العرائض، ولعلَّ في ذلك حكمة.

والمسؤولُ أن لا تَحْرِموا هذا المحرومَ المهجورَ من التَّوجُّه الذي هو للغرباء مبذولٌ، وأن لا تتركوه في الطَّريق: (شعر)

وَأَنْتَ لِهَذَا الْقَوْلِ قَدْ كُنْتَ مَبْدَأً   فَإِنْ فِيهِ إِطْنَابٌ فَمِنْكَ مُسَبَّبُ

وزيادةُ الانبساط جراءةٌ:   (ع)   عَلَى الْمَرْءِ أَنْ لَا يَجْهَلَ الدَّهْرَ طَوْرَهُ

المكتوب الرابع عشر

في بيان حصولِ الوقائعِ التي عَرَضت في أثناءِ الطَّريق، وبيان أحوالِ بعضِ المسترشدينَ، كَتَبَه إلى شَيخِه المُعظَّم أيضاً.

عريضةُ أقلّ العبيد أحمد. إنَّ التَّجلِّيات التي ظهرتْ في مراتب الأكوان - وقد كنت عرضتُ بعضها في العريضة السَّابقة -؛ ظهرتْ بعدها مرتبةُ الوجوب التي هي جامعةٌ للصِّفات الكليَّة، وتمثَّلتْ في صورةِ امرأةٍ دميمة مسودّة اللَّوْن، ثم تجلَّتْ بعد ذلك مرتبةُ الأحديَّة في صورةِ رجلٍ طويلٍ قائمٍ على جدارٍ رقيقٍ غيرِ مرتفعٍ، وظهر كلُّ واحدٍ من هذين التَّجلِّيين بعنوان الحقَّانيَّة، بخلاف التجليَّات السَّابقة، فإنَّها ما كانت بهذا العنوان، وعرض لي في ذلك الأثناء تمنِّي الموت، وخُيِّلَ لي كأنِّي قائمٌ على ساحل البحر المحيط لأرمي فيه نفسي، ولكنِّي مربوطٌ بالحبل على ورائي، فلا يمكن الدُّخولُ في البحر، وصار معلوماً لي أنَّ ذلك الحبلَ عبارةٌ عن التَّعلُّق بالبدن، فتمنَّيتُ انقطاعَ ذلك التَّعلُّق، ثم عَرَضَتْ كيفيَّةٌ خاصَّةٌ، فوجدتُ في ذلك الوقت بطريق الذَّوق أنَّه لم يبقَ في القلب مقتضىً غيرُ الحقِّ سبحانه، ثم وقع النَّظَرُ على الصِّفات الكليَّة الوجوبيَّة التي اكتسبت الخصوصيَّات باعتبار المحالّ والمظاهر، ثم سقطت الخصوصيَّاتُ عنها بعد ذلك بالتَّمام، ولم تَبْقَ الصِّفاتُ إلا بعنوان الكلِّيَّة الوجوديَّة، ووقع النَّظرُ أيضاً على صورةِ تجرُّدها عن الخصوصيَّات، وحينئذٍ صار معلوماً أنَّ الصِّفاتِ قد أُعْطِيَتِ الآن للأصل حقيقةً، وقبل تجرُّدها عن الخصوصيَّات لم يكن معنىً لإعطائها الأصل، اللهم إلا إن كان على طريق التَّجوُّز كما هو حالُ أرباب التَّجلِّي الصُّوريِّ، وتحقَّقَ الفناءُ الحقيقيُّ في هذا الوقت، وبعد التَّحقُّق بهذه الحالة؛ وُجِدَت الصِّفاتُ التي فيَّ وفي غيري على نهجٍ واحدٍ، وارتفع امتيازُ المحالِّ، وتيسَّرَ في ذلك الوقت التَّخلُّصُ عن بعض دقائق أنواع الشِّرك الخفيِّ، فلم يَبْقَ حينئذٍ العرشُ، ولا الفرشُ، ولا المكان، ولا الزَّمانُ، ولا الجهاتُ، ولا الحدودُ، فإن تفكَّرتُ - فرضاً - سنينَ لا يحصل العلمُ بأنَّ ذرَّةً من العالم مخلوقةٌ، ثم وقع النَّظَرُ على تعيُّن نفسي والوجهِ الخاصِّ الذي فِيَّ، وكان التَّعيُّنُ في صورة ثوبٍ بالٍ متمزِّقٍ ملبوسٍ لشخصٍ، وعلمتُ أنَّ هذا الشَّخْصَ هو الوجهُ الخاصُّ، لكن لم يتصوَّرْ ذلك بعنوان الحقانيَّة، ثم تعلَّقَ النَّظَرُ بعد ذلك بجلدٍ رقيقٍ فوق ذلك الشَّخص متَّصلاً به، ثم وجدتُ نفسي عينَ ذلك الجلد، ورأيت ذلك الثَّوبَ - الذي هو التَّعيُّنُ- أجنبيّاً لنفسي، يعني: مفارقاً ومنفكّاً عنه، ووقع..

النَّظرُ على نورٍ في الجلد، ثم غاب ذلك النُّورُ بعد ساعةٍ عن النَّظر، وارتفع الجلدُ والثَّوبُ أيضـًا عن النَّظر، وبَقِيَتْ تلك الجهالةُ السَّابقةُ.

ولنَعْرِضْ تعبيرَ صورة هذه الواقعة المذكورة على ما بلغه علمي ليُعْلَمَ صحَّتُه وسَقَمُه، وهو أنَّ الصُّورةَ المذكورةَ عبارةٌ عن العين الثَّابت كالبرزخ بين الوجوب والإمكان، حيث افترق كلٌّ واحدٍ من طرفيه عن الآخر، وتحقَّقَ بكمال الفرق، والجلدُ الذي وقع بين الثَّوب والنُّور برزخٌ بين الوجود والعدم، ووجدانُ نفسي عينَ ذلك الجلد أخيراً إشارةٌ إلى وصولي إلى البرزخيَّة، وقد كنت وجدْتُني سابقـًا في الوقائع برزخـًا بين الوجود والعدم، والظَّاهرُ أنَّ ذلك كان بالنِّسبة إلى الآفاق، وهذا بالنَّظَر إلى النَّفْس، وقد ظهر في ذلك فرقٌ آخرُ أيضـًا، ولكنِّي نسيتُه وقتَ الكتابة.

هذا، وما هو الحاصلُ دائمـًا هو النَّكارة والجهالةُ، ويظهر أحيانـًا مثلُ هذه الشَّعبذة، ثم ينعدمُ، وتبقى معرفتُهُ، وأعجزُ عن تعبير بعض الوقائع، والذي يقع في الخاطر من تعبيره لا أعتمدُ عليه، وبهذا السَّبب أتجاسَرُ في العرائض رجاءَ حصول اليقين بتنبيه الحضرة، والمرجوُّ تيسُّرُ النَّجاة عن التَّعلُّقات الدَّنيَّة بتوجُّهاتكم العليَّة، وإلا؛ فالأمرُ مشكلٌ جدّاً: (شعر)

مَـنْ لَـمْ يُـعِـنْـهُ مُـهَـيْـمِـنٌ وَخَـوَاصُّـــهُ   لَاسْــوَدَّ صَــفْـحَـتُـهُ وَلَـوْ هُـوَ مِـنْ مَـلَـكْ

والشيخ طه بنُ الشيخ عبد الله النيازيّ الذي هو من مشاهير مشائخ سرهند، وبينه وبين الحاجّ عبد العزيز مودَّةٌ تامَّةٌ، استدعى تقبيلَ الأقدام المباركة، وفيه داعيةُ الإنابة والدُّخولِ في هذه الطَّريقة العليَّة الشَّريفة، والتجأ إليَّ بالصِّدْق والانكسار، فأمرْتُه بالاستخارة، وله مناسبةٌ في الظَّاهر.

والأصحابُ الذين أخذوا الذِّكْرَ هنا مشتغلون بطريق الرَّابطة في الأكثر، يجيءُ بعضُهم بأخذ الرَّابطة بالرُّؤية في الواقعات، وكان لبعضهم رابطةٌ قبل المجيء من دهلي، يذهبون أوَّلاً بالحضور والاستغراق، وبعضٌ منهم يُعْطِي الصِّفاتِ الأصلَ، يعني: يراها منه، وبعضهم لا، ولكن لا يذهبُ منهم أحدٌ على طريق توحيد الوجود والأنوار والكشوف. ووصل المنلا قاسم علي والمنلا مودود محمد وعبد المؤمن ظاهراً إلى نقطةٍ فوقانيَّةٍ من مقام الجذبة، ولكنَّ المنلا قاسم متوجِّهٌ إلى النُّزول، ونزولُ الباقين ليس بمعلومٍ، والشيخ نور أيضـًا قريبٌ من النُّقطة، ولم يَصِلْ إليها بعدُ، والمنلا عبد الرحمن أيضـًا قريبٌ من النُّقطة، ولكن في البين مسافةٌ قليلةٌ، وحصل للمنلا عبد الهادي فيه حضورٌ مع الاستغراق، وهو يقول: أشاهِدُ المطلقَ المنزَّهَ جلَّ شأنه في الأشياء بصفة التَّنزيه، وأرى الأفعالَ أيضـًا منه تعالى، وما يُفاضُ على الطَّالبين والمستعدِّين؛ فإنَّما هو من دولتكم، وليس لهذا الفقير نصيبٌ في إفاضته:

(ع) أَنَـا ذَاكَ أَحْـمَـدُ لَـمْ أَكُـنْ مُـتَـغَـيِّـرَا

وقد قلتم يومـًا فيما بين واقعةٍ من الوقائـع: إنَّه لو لم يكن فيه معنى المحبوبيَّة؛ لوقع توقُّفُ كثيرٍ في الوصول إلى المقصد، وبيَّنْتُم المحبوبيَّةَ أيضـًا بعنايتكم، ولي من ذلك الكلام رجاءٌ تامٌّ، وهذه الجراءةُ كلُّها من ذلك.

المَكتُوبُ الخَامِسَ عَشَرَ

في بيان الأحوالِ التي لها مُناسبةٌ لمقام الهبوطِ والنُّزولِ، مع بعضِ الأسرارِ المكنونَة، كَتبَه إلى شَيخِه المعظَّم أيضـًا.

عريضةُ الحاضر الغائب، الواجد الفاقد، المقبل المعرض. إنَّه طلبه مدَّةً مديدةً، فوجد نفسه، ثم انجرَّ أمرُهُ إلى مرتبةٍ لو طلب نفسه وجده، والآن فَقَدَه ووجدَ نفسَه، ومع فقدانه ....

وغيبته لا يطلُبُه ولا يستخبرُ عنه، فمن حيث العلم حاضرٌ وواجدٌ ومقبلٌ، ومن جهة الذَّوق غائبٌ وفاقدٌ ومعرضٌ، ظاهرُه بقاءٌ، وباطنُه فناءٌ، ففي عين البقاء فانٍ، وفي عين الفناء باقٍ، ولكنَّ الفناءَ علميٌّ، والبقاءَ ذوقيٌّ، وتقرَّرَ أمرُه على الهبوط والنُّزول، وامتنع عن الصُّعود والعروج، فكما رفعوه عن القلب إلى مقلِّب القلب؛ كذلك أنزلوه من مقلِّب القلب إلى مقام القلب، ومع تخلُّص الرُّوح عن النَّفس، وخروج النَّفْس بعد الاطمئنان من غَلَبَات أنوار الروح؛ جعلوه جامعاً لِجهتَيِ الروح والنَّفْس، وشرَّفوه ببرزخيَّة هاتين الجهتين، وأعطَوْه الاستفادةَ من فوق والإفادةَ إلى سفلٍ معاً بسبب هذه البرزخيَّة، ففي عين الاستفادة مفيدٌ، وفي عين الإفادة مستفيدٌ: (شعر)

فَيَا لَهَا قِصَّةً فِي شَرْحِهَا طُولُ ... وَكَمْ يَرَاعٍ إِذَا حَرَّرْتَ يَنْكَسِرُ

ثم المعروضُ أنَّ اليدَ اليسرى عبارةٌ عن مقام القلب الحاصل قبل العروج إلى مقلِّب القلوب، وأما مقامُ القلب الذي يكون النُّزولُ إليه بعد الهبوط من فوق؛ فهو مقامٌ آخرُ، فإنَّه برزخٌ بين الشِّمال واليمين كما هو الظَّاهرُ لأربابه، والمجذوبون الذين ليس لهم سلوكٌ من أرباب القلوب، والوصولُ إلى مقلِّب القلوب مربوطٌ بالسلوك، وتعلُّقُ مقامٍ بشخصٍ كنايةٌ عن حصول شأنٍ خاصٍّ له في ذلك المقام، وله امتيازٌ على حِدَةٍ من أرباب ذلك المقام، ومن جملة ذلك الامتياز: سبقةُ الانجذاب فيما نحن فيه، والبقاءُ الخاصُّ الذي كان منشأً للعلوم والمعارف المناسبة لذلك المقام. وتحقيقُ علوم مقام القلب وحقيقة الجذبة والسُّلوك والفناء والبقاء وأمثال ذلك مكتوبةٌ في الرِّسالة الموعودة بالتَّفصيل.

وتوجَّه السيِّدُ شاه حسين بالاضطراب والعجلة، فلم تكن فرصةٌ لنقلها إلى البياض، وتتشرَّفُ إن شاء الله تعالى على الفور بمطالعتكم.

والعزيزُ المتوقِّفُ نزل من فوق من مقام الجذبة، ولكن ليس وجهُه إلى العالم، بل توجُّهُه إلى جهة الفوق، ولَمَّا كان عروجُه إلى الجهة الفوقانيَّة بالقَسْر؛ كانت له مناسبةٌ بالطَّبْع للجذبة، واستصحبَ معه شيئاً يسيراً وقت نزوله من فوق، وبضاعةُ نسبتِهِ التي كانت من توجُّه القاسر، وكان العروجُ إِثْرَ ذلك التوجُّه باقيةً إلى الآن في نسبة الجذبة، كالرُّوح في الجسد، وكالنُّور في الظُّلمة، ولكن هذه الجذبة غير جذبةِ خواجكان قدَّس الله أسرارهم، بل هي جذبةٌ وصلتْ إلى خواجه عبيد الله أحرار قدس سره من آبائه[1] الكرام، وكان الشَّأنُ الخاصُّ لهم في ذلك المقام، وقد رأى بعضُ الطَّالبين في الواقعة: أنَّ ذلك العزيزَ المتوقِّفَ أكل الخواجه - يعني: المذكور آنفاً - بالتَّمام، وظهورُ أثر هذه الواقعة إنَّما يكون في هذا المقام، وليس لهذه الجذبة مناسبة لمقام الإفادة، فإنَّ التَّوجُّهَ في مقام هذه الجذبة إلى جهة الفوق دائماً، والسُّكرُ الدَّائميُّ لازِمُه، وبعضُ مقامات الجذبة منافيةٌ للسُّلوك بعد الدُّخول فيه، وبعضٌ آخرُ ليس بمنافٍ له، بل يتوجَّهون لأجل السُّلوك بعد الدُّخول فيه، وهذه الجذبةُ منافيةٌ للسُّلوك بعد الدُّخول فيه، وقد توجَّهتُ إلى ذلك المقام وقتَ تحرير العريضة، وظهر بعضُ دقائقه، ولا يتيسَّرُ التَّوجُّهُ من غير باعثٍ، والله سبحانه أعلم بحقيقة الحال.

وقد نزل ذلك العزيزُ منذ أشهرٍ، ولكنَّه لم يكن داخلاً في مقام الجذبة المذكورة بالتَّمام، والمانعُ عدمُ العلم بشأن ذلك المقام مع التوجُّهات الواجبة[2] للتَّفرقة وتشتُّت البال، وعسى أن يتيسَّر الدُّخولُ فيه بالتَّمام وقتَ........

---

(١) يعني: أجدادَه من طرف أمه، كالشيخ عمر الداغستاني وأولاده وأقربائه، كما هو مذكور في «الرشحات». (المعرِّب)

(٢) كذا في النسخ، ولعل الصواب (الموجبة).

مطالعة هذه الكلمات غير المرتبطة، ولعلَّه ينزل بعد ذلك حضرةُ الخواجه بالتَّمام.

المكتوب السادس عشر

في بيان أحوالِ العروج والنُّزولِ وغيرِها، كَتبَه إلى شَيخِه المعظَّم أيضـًا.

عريضةُ أحقر الطلبة. إنَّ مولانا علاءَ الدين قد بَلَّغَ المكتوبَ المشتملَ للالتفات، وقد جعلتُ في كشف كلِّ من المقدمات المذكورة مُسْوَدَّةً على مقتضى الوقت، وكان بعضُ متمّمات تلك العلوم المسطورة ومكملاتها مخطوراً أيضـًا، ولكن لم توجدْ فرصةٌ لتحريره؛ لتَوَجُّه حامل العريضة، نُرْسِلُه إن شاء الله تعالى إلى خدمتكم سريعـًا، وقد أرسلتُ الآن رسالةً أخرى قد نُقلتْ إلى البياض، وكنت جَمَعْتُها بالتماس بعض الأصحاب، فإنَّهم التمسوا منِّي أن أكتبَ لهم نصائحَ تكون نافعةً في الطَّريقة، ويعملون بمضمونها، والحقُّ أنَّها رسالةٌ عديمةُ النَّظير، كثيرةُ البركة، وكان بعد تحريره معلومـًا أنَّ النبيَّ ﷺ قد حضر مع جمعٍ كثيرٍ من مشائخ أمَّته وفي يده المباركة هذه الرِّسالةُ، وهو عليه الصلاة والسلام يُقَبِّلُها من كمال كرمه، ويريها المشائخَ، ويقول: ينبغي أن يحصل مثلُ هذه المعتقدات، والجماعةُ الذين استعدوا بهذه العلوم نورانيُّون وممتازون وعزيزوا الوجود، قائمون في مقابلته عليه الصلاة والسلام. **والحاصلُ**: إنَّ النبي ﷺ أمر هذا الفقيرَ بإشاعة هذه الواقعة وإظهارها في ذلك المجلس:

(ع) لَا عُسْـرَ فِـي أَمْـرٍ مَـعَ الْـكِـرَامِ

وحين جئتُ من الملازمة؛ لم تكن في مناسبةٍ كثيرةٍ لمقام الإرشاد بواسطة وجود المَيْل إلى جهة الفوق، فأردتُ أن أقعدَ في زاويةٍ أوقاتـًا، وظهر النَّاسُ في النَّظَر مثلَ النمِر والأسد، وكان عزمُ العُزْلة والانزواء مُصَمَّمـًا، ولكن لم تقع الاستخارةُ موافقةً للمطلوب، والعروجُ إلى غاية غايات مدارج القرب - وإن لم تكن لها غايةٌ - قد تيسّر، ولا يزال يتيسّرُ، والأحوالُ في التَّقلُّب دائمـًا، ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، وجُوزِيَ بي مقاماتُ جميع المشائخ إلا ما شاء الله: (شعر)

وَتَـدَاوَلَـتْ أَيْـدِي الْـكِـرَامِ وَرْدَةً ... حَـتَّـى إِلَـى الْـعَـالِي الْـجَـنَـابِ تَـرَقَّـتِ

فإن عدَّدْتُ توسُّطَ روحانيَّة المشائخ في ذلك؛ ينجرُّ إلى الإطناب والتَّطويل، وبالجملة: قد جوزي بي من جميع مقامات الأصل، كمجاوزتي مقامات الظلِّ، فماذا أبيِّنُ من العنايات العديمة الغايات قبلُ من قبلُ بلا علّةٍ؟ وعرض عليَّ من وجوه الولاياتِ وكمالاتِها ما لا يمكن تحريرُه، وأُنزلتُ في ذي الحجَّة إلى مقام القلب من مدارج النُّزول، وهذا المقامُ مقامُ التَّكميل والإرشاد، ولكن لا بُدَّ من أشياء؛ لتتميم هذا المقام وتكميله، ومتى يتيسَّرُ ذلك؟ والأمرُ ليس بسهلٍ، ومع وجود المراديَّة يقطعُ من المنازل ما لو أُعْطِيَ المريدون عُمُرَ نوحٍ لا يُعْلَمُ تيسُّرُه، بل هذه الوجوهُ مخصوصةٌ للمرادين، ولا محلَّ هنا للمريدين، ونهايةُ عروج الأفراد إلى بداية مقام الأصل فحسب، ولا مجاوزةَ للأفراد منها، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]. وهذا هو وجهُ التَّوقُّف في مراتب التَّكميل والإرشاد، وعدمُ النُّورانيَّة إنَّما هو بواسطة ظهور نور ظلمة الغيب لا شيء آخر، وقد يعجن النَّاسُ في متخيَّلاتهم أشياءَ لا ينبغي اعتبارُها: (شعر)

كَـيْـفَ يَـدْرِي الْأَغْـبِـيَـا حَـالَ الْـكِـرَامْ ... فَـاقْـصُـرِ الْأَقْـوَالَ وَاسْـكُـتْ وَالسَّـلَامْ

واحتمالُ الضَّرر غالبٌ في تخيُّل مثل هذه الظُّنون، فينبغي أمرُ هؤلاء الجماعة بإغماض نظر خيالاتهم عن أحوال هذا المكسور البال، فإنَّ مثلَ هذا النَّظر له مجالٌ في محالٍّ أخرى كثيرةٍ:

(شعر) من گُم شُده ام مرا مَـجوييـد ... بـا گـم شُدِگـان سخن مَگوييـد

(ترجمة): كُفُّوا الْمَلَامَ عَنِ الذِي أَفْنَى وُجُو دَهُ فِي الْإِلَهِ وَاحْذَرُوا مِنْ بَأْسِهِ

ينبغي التَّفكُّرُ في غَيْرة الحقِّ جلَّ سلطانُه، فإنَّ التَّكلُّم والتَّقوُّلَ في تنقيص أمرٍ يريد الحقُّ سبحانه كمالَهُ غيرُ مناسبٍ جدّاً، بل هو في الحقيقة معارضتُهُ تعالى، والنُّزولُ في مقام القلب المارّ ذكره آنفاً نزولٌ في مقام الفرق في الحقيقة الذي هو مقامُ الإرشاد، والفرقُ في هذا الموطن عبارةٌ عن امتياز النَّفس عن الرُّوح، والرُّوح عن النَّفس بعد دخول النَّفْس في نور الرُّوح الذي هو الجمعُ، وما فُهِمَ من الجمع والفرق قبل ذلك؛ فهو من السُّكر، فإنَّ رؤيةَ الحقِّ مفارقاً ومنفكّاً عن الخلق - التي يزعمونها مقامَ الفرق - لا حقيقةَ لها، بل يزعمون الرُّوحَ المذكورةَ حقّاً، ويزعمون رؤيةَ مفارقتها وامتيازها عن النَّفس رؤيةَ مفارقة الحقِّ وامتيازِه تعالى وتقدّس عن الخلق، وعلى هذا القياس أكثرُ علوم أرباب السُّكر، فإنَّ حقيقةَ الأمر مفقودةٌ ثمّةَ، والأمرُ عند الله سبحانه. وقد حرَّرتُ علومَ أرباب الجذبة والسُّلوك، وحقيقةَ كلٍّ من هذين المقامين بالتَّفصيل في رسالةٍ أخرى، وستَشْرُفُ بوقوع النَّظَر الشَّريف عليها إن شاء الله تعالى.

المَكْتُوبُ السَّابِعَ عَشَرَ

في الأحوالِ المُتعلِّقة بالعُروج والنُّزولِ، كَتبَه إلى شَيخِه المكرَّمِ أيضاً.

عريضةُ أحقر الخدمة. إنَّ العزيزَ الذي كان متوقِّفاً منذ أوقاتٍ ظهر يوم التَّحرير أنَّه عرج من ذلك المقام بنحوٍ من العروج، ونزل التَّحت، ولكنَّه ما نزل بالتَّمام، والبقايا الذين كانوا تحت هذا المقام عرجوا أيضاً، وتوجَّهوا نحو النُّزول من طريق ذلك المقام الفوقانيّ، وكلُّ كيفيّةٍ تظهرُ بعد هذا نَعْرِضُها، فإن كتب صاحبُ المعاملة شيئاً بعد انكشاف حاله؛ لكان أقربَ إلى الصَّواب، ولَمّا كان حدوثُ قضيَّةِ هذا النزول قويّاً ودفعيّاً، وقد طرأ على الفقير ضعفٌ بواسطة تناول الجُلّاب؛ لم أشتغلْ بأمر هذا النُّزول، ولم أَنْظُرْ إلى مآله، وسيظهر إن شاء الله تعالى.

المَكْتُوبُ الثَّامِنَ عَشَرَ

في التَّمكين الذي يَحصُل بَعدَ التَّلوينِ، وبيانِ مراتِب الولاياتِ الثَّلاثِ، وبيان أنَّ وجودَ الواجبِ تعالى زائدٌ على ذاتِه تعالى، وغيرِ ذلك، كَتبَه إلى شَيخِه المكرَّم أيضاً.

عريضةُ أقلِّ العبيد ذي التقصير أحمد بن عبد الأحد. إنَّه ما دامت الأحوالُ واردةً كنا نتجاسَرُ بعرضها، ولَمّا حَرَّرَ الحقُّ سبحانه من رِقِّيَّة الأحوال ببركة توجُّهاتكم العليّة، وشَرَّفَ بالتَّمكين بعد التَّخليص من التَّلوين؛ ما بَقِيَ في اليد حاصلُ الأمر غير الحيرة والعجز، وما حصل من الوصل سوى الهجر والفصل، ومن القُرْب غير البُعْد، ولم يَزِدْ من المعرفة غير النَّكِرة، ومن العلم غيرَ الجهل، فلا جَرَمَ وقع التَّوقُّفُ في تقديم العرائض، ولم أتجاسَرْ بمجرَّد عرض أحوال أيام الفراق، ومع ذلك قد استولت البرودةُ على القلب على نهجٍ لا مَيْلَ فِيَّ إلى أمرٍ ما أصلاً ولا شوقَ، ولا أقدرُ على الاشتغال بعملٍ كما هو دَيْدَنُ أرباب البطالة: (شعر)

وَإِنِّي لَا شَيْءٌ وَمِنْ ذَاكَ أَنْقَصُ وَمَنْ هُوَ لَا شَيْءٌ يَكُونُ مُعَطَّلَا

ولنرجعْ إلى أصل المقصود ونقول: والعَجَبُ أنّ الحقَّ سبحانه قد شرَّفني الآن بمقام حقِّ اليقين الذي ليس العلمُ والعينُ فيه بعضُه حجاباً عن بعضٍ، والفناءُ والبقاءُ مجتمعان فيه، وفي..........................

عين الحَيْرَة وفقدان الأمارة علمٌ وشعورٌ، وفي نفس الغيبة أنسٌ وحضورٌ، ومع وجود العلم والمعرفة لا يحصل سوى ازدياد الجهل والنَّكرة: (ع) أَلَا فَـاعْـجَبُوا مِنْ وَاصِـلٍ مُتَحَيِّرِ

وقد رزق اللهُ تعالى - بمحض عنايته التي ليست لها نهايةٌ في مدارج القرب والكمالات - ترقِّياتٍ بلا نهايةٍ، ففوق مقام الولاية مقامُ الشَّهادة، ونسبةُ الولاية إلى الشَّهادة كنسبة التَّجلِّي الصُّوريِّ إلى التَّجلِّي الذَّاتِيِّ، بل بُعْدُ ما بينهما أكثرُ من بُعْدِ ما بين هذين التَّجلِّيين كذا مرّة، وفوق مقام الشَّهادة مقامُ الصِّدِّيقية، والتَّفاوتُ فيما بين هذين المقامين أجلُّ من أن يُعَبَّرَ عنه بعبارةٍ، وأعظمُ من أن يُشارَ إليه بإشارةٍ، وليس فوقه مقامٌ إلا مقامُ النبوَّة على أهلها الصلاة والسلام والتحية، ولا ينبغي أن يكون مقامٌ بين الصِّدِّيقيَّة والنبوَّة، بل هو محالٌ، وهذا الحكمُ - أعني: الحكمَ بالاستحالة - علمٌ بكشفٍ صريحٍ صحيحٍ، وما أثبته بعضُ أهلِ الله من الواسطة بين هذين المقامين، وسمّوها بمقام القرب؛ قد شُرِّفْتُ به أيضاً، واطَّلعتُ على حقيقته بعد توجُّهٍ كثيرٍ، وتضرُّعٍ غزيرٍ، ظهر أوَّلاً على طورٍ بيَّنه بعضُ الأكابر، ثم صارت حقيقةُ الأمر معلومةً. نعم، إنَّ حصولَ هذا المقام إنَّما هو بعد حصول مقام الصِّدِّيقيَّة وقت العروج، ولكنْ كونُه واسطةً محلُّ تأمُّلٍ، وسنعرضُ حقيقةَ الأمر بالتَّفصيل بعد حصول الملازمة الصُّوريَّة إن شاء الله تعالى، وذلك المقامُ عالٍ جداً، ولا يعلم في منازل العروج مقامٌ فوقه، ويظهر في هذا المقام زيادةُ الوجود على ذات الله عزّ وجلّ كما هو المقرَّرُ عند علماء أهل الحقّ شكر الله تعالى سَعْيَهم، ويبقى الوجودُ هنا أيضاً في الطَّريق، ويقع العروجُ فوقَه كما قال الشيخ أبو المكارم رُكْنُ الدين علاء الدَّولة في بعض مصنَّفاته وفوق عالم الوجود عالمُ الملك الودود، ومقامُ الصِّدِّيقيَّة من مقامات البقاء التي هي ناظرةٌ إلى العالم، وأسفل[1] منه مقامُ النبوَّة، وفي الحقيقة هو أعلى منه، وهو مقامُ كمال الصَّحو والبقاء، وليس لمقام القُرْب لياقةُ البرزخيَّة بين هذين المقامين، فإنَّه ناظرٌ إلى التَّنزيه الصِّرْف وتمام العروج، شتَّان ما بينهما: (شعر)

قَـدْ أَمْسَـكُونِي وَرَاءَ الْمَرْأَى كَدُرَّتِهِمْ   أَقُـولُ مَـا قَـالَ لِـي أُسْـتَـاذِي الْأَزَلِـي

وقد صارت العلومُ الشرعيَّةُ النظريَّةُ الاستدلاليَّةُ ضروريَّةً كشفيَّةً، لا مخالفةَ بينها وبين أصول علماء الشَّريعة مقدارَ شعرةٍ، وإنَّما جُعِلَتْ تلك العلومُ الإجماليَّةُ تفصيليَّةً، وأُخرجتْ من النَّظرية إلى الضَّروريَّة سئل الخواجه الأعظم - يعني: بهاء الدين النقشبند قدس سره -: إنَّه ما المقصودُ من السُّلوك؟ فقال: المقصودُ منه: كونُ المعرفة الإجماليَّة تفصيليَّةً، والاستدلاليَّةِ كشفيَّةً، ولم يقل: حصولُ علومٍ سواها. نعم، يظهر في الطَّريق علومٌ كثيرةٌ، ومعارفُ غزيرةٌ، ولكن ينبغي أن يُجاوِزَها، وما دام السَّالكُ لم يصل إلى نهاية النِّهايات التي هي مقامُ الصِّدِّيقيَّة؛ لا يكون له نصيبٌ من هذه العلوم الحقيقيَّة، والمعارف اليقينيَّة، فيا ليت شعري إنَّ من أهل الله القائلين بحصول هذا المقام الشَّريف لأنفسهم وليس لهم مناسبةٌ بعلوم هذا المقام ومعارفه؛ فما وجهُه؟ ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

واطَّلعتُ أيضاً على سرِّ مسألة القضاء والقدر، وعَلِمْتُها على نهجٍ لا تقع المخالفةُ بينها وبين أصول ظاهر الشَّريعة الغرَّاء بوجهٍ من الوجوه، مبرّاةً ومنزَّهةً عن نقص الإيجاب وشائبة الجبر، وفي الظُّهور كالقمر ليلة البدر، والعجبُ ما وجهُ إخفائها مع عدم مخالفتها أصولَ الشَّريعة؟ فلو كانت فيها شائبةُ المخالفة؛ لكان للسَّتر والإخفاء شيءٌ من المناسبة، .....

(١) يعني: في مراتب النزول والبقاء، ولهذا قال: (وهو في الحقيقة أعلى منه). (المعرِّب)

﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣]: (شعر)

وَمَـنِ الـذِي فِـي فِـعْـلِـهِ يَـتَـكَـلَّـمُ ... دُونَ الرِّضَـا يَا صَـاحِ وَالتَّسْـلِـيـمِ

وتُفاضُ العلومُ والمعارفُ مثل فَيَضان المطر من سحاب الرَّبيع، بحيث تعجز القوَّةُ المدركةُ عن تحمُّلها، وإطلاقُ القوَّة المدركة مجرَّدُ تعبيرٍ، وإلا؛ فلا يحمل عطايا الملك إلا مطاياه، وقد كان في الأوائل شوقٌ قيدِ هذه العلوم الغريبة بالكتابة، ولكنِّي لم أوفَّقْ لذلك، وكان لي تحرُّجٌ وثقلٌ من هذه الجهة، فسَلَّيْتُ آخرَ الأمر بأنَّ المقصودَ من إفاضة هذه العلوم حصولُ المَلَكة، لا حفظُها، كما أنَّ طلبةَ العلوم يحصِّلون العلوم لينالوا مَلَكة المولويَّة، لا أنَّهم يُحَصِّلونها لأجل حفظ أصول الصَّرْف والنَّحْو وغيرهما، ولنَعْرِضْ بعضَ العلوم المذكورة:

قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، أوَّلُ هذا الكلام إثباتُ التَّنزيه المحض كما هو الظَّاهرُ، وقولُه سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] متمِّمٌ ومكمِّلٌ للتَّنزيه، وبيانُه: إنَّ ثبوتَ السَّمع والبصر للمخلوق لَمَّا كان مُوهِماً لثبوت المماثلة ولو في الجملة؛ نفى الله سبحانه عنهم السَّمعَ والبصرَ؛ لدفع هذا الوهم، يعني: أنَّ السميعَ والبصيرَ هو تعالى ليس إلا، والسَّمْعُ والبصرُ الموجودتان في المخلوقات ليس لهما مدخلٌ في السَّماع والرُّؤية، فكما أنَّ الحقَّ سبحانه خلق السَّمعَ والبصرَ؛ كذلك يخلق السَّماعَ والرُّؤيةَ بعد خلق هاتين الصِّفتين بطريق جَرْيِ العادة من غير تأثيرٍ لصفاتهم، ولو قلنا بالتَّأثير؛ فالتَّأثيرُ فيها أيضاً مخلوقٌ، فكما أنَّ ذواتهم جمادٌ ومحضٌ؛ كذلك صفاتُهم أيضاً جمادٌ محضٌ. مثلاً: إذا خلق القادرُ بمحض قدرته كلاماً في الحجر؛ لا يقال: إنَّ الحجرَ متكلِّمٌ في الحقيقة، وإنَّ له صفةَ الكلام، وفي هذه الصُّورة كما أنَّ الحجرَ جمادٌ؛ كذلك هذه الصِّفةُ لو فُرِضَ أنَّها موجودةٌ فيه أيضاً جمادٌ لا مدخلَ له أصلاً في ظهور الحرف والصَّوْت، وجميعُ الصِّفات من هذا القبيل.

غايةُ ما فِي البابِ: أنَّ هاتين الصِّفتين لَمَّا كانت أظهرَ من غيرهما؛ خصَّهما الله تعالى بنفيهما، ويكون لزومُ نفي البواقي منها بالطَّريق الأَوْلى، وخلق الله سبحانه - يعني: في المخلوق - أوَّلاً صفةَ العلم، ثم خلق توجُّهَه نحوَ المعلوم، ثم خلق تعلُّقَها به، ثم جعل ذلك المعلومَ منكشفاً له، ثم خلق الانكشافَ فيه بعد خلق صفة العلم بمجرَّد جري العادة، فعُلِمَ أن لا مدخلَ للعلم في الانكشاف، وكذلك خَلَقَ فيه أوَّلاً صفةَ السَّمْع، ثم خلق الإصغاءَ والتَّوجُّهَ إلى المسموع، ثم خلق السَّماعَ، ثم خلق إدراكَ المسموع، وكذلك خلق فيه البصرَ أوَّلاً، ثم تقليبَ الحدقة والتَّوجُّه نحو المرئيِّ، ثم الرُّؤيةَ، ثم إدراكَ المرئيِّ، وعلى هذا القياس سائرُ الصفات.

والسَّميعُ والبصيرُ إنَّما هو من يكون مبدأُ سماعه ورؤيته هاتين الصِّفتين، ومن ليس كذلك؛ فليس بسميعٍ ولا بصيرٍ، فتحقَّقَ أنَّ صفاتِ المخلوقين جماداتٌ كذواتهم، فالمقصودُ من آخر الكلام: نفيُ الصِّفات عنهم رأساً، لا أنَّ لهم صفاتٍ، وتلك الصِّفاتُ ثابتةٌ له سبحانه حتى يكون جمعاً بين التَّنزيه والتَّشبيه، بل تمامُ الآية الكريمة لإثبات التَّنزيه ونفي المماثلة رأساً، والعلمُ الأوَّلُ - أعني: إثباتَ صفات هؤلاء للحقِّ سبحانه، واعتقادَ ذواتهم جماداً محضاً، وزعمَها في ظهور هذه الصِّفات منهم - مثلُ الدَّنِّ والكوز في ظهور الماء منهما من العلوم المناسبة لمقام الولاية، والعلم الثانِي - أعني: وجدانَ صفات هؤلاء مثل الجمادات، واعتقاداتهم لا شعورَ لهم كالأموات، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]-من العلوم المناسبة لمقام الشَّهادة، ومن هنا أيضاً يُعْلَمُ التَّفاوُتُ بين هذين المقامين، .....

القليلُ يدلُّ على الكثير، والقطرةُ تنبئُ عن الغدير:

(ع) وَعَامُ الرُّخْصِ يُعْلَمُ مِنْ رَبِيعِ

وكذلك يجدُ أربابُ هذا المقام العالي أفعالَ المخلوقات كالميت والجماد، لا أنّهم ينسبون أفعالَهم إلى الحقّ سبحانه، ويقولون: إنَّ فاعلَ هذه الأفعال هو الله، تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً. مثلاً: إذا حَرَّكَ شخصٌ حجراً لا يقال: إنَّ هذا الشَّخصَ متحرِّكٌ، بل هو مُوجِدٌ للحركة في الحجر، والمتحرِّكُ إنَّما هو الحجرُ، وكما أنَّ الحجرَ جمادٌ محضٌ؛ كذلك حركتُهُ جمادٌ صِرْفٌ، فإن هلك بتلك الحركة فرضاً شخصٌ لا يقال: إنَّه قتله حجرٌ، بل يقال: قتله ذلك الشَّخصُ الذي حرَّكَ الحجرَ. وقولُ علماء الشريعة شكر الله تعالى سعيهم موافِقٌ لهذا العلم، فإنَّهم يقولون: إنَّ مفعولَ المخلوقات مصنوعُ الحقِّ سبحانه مع وجود صدور الأفعال عنهم بالإرادة والاختيار، ولا مدخلَ لأفعالهم في مصنوعيَّته، وأفعالُهم عبارةٌ عن حركاتٍ شتّى من غير أن يكون لها تأثيرٌ في مجعوليّة المعمول.

فإن قيل: فعلى هذا يكون جعلُ أفعالهم مناطاً للثَّواب والعقاب غيرَ معقولٍ، ويكون كتكليف حجرٍ بأمرٍ، وترتيبِ ذمٍّ ومدحٍ على فعله، قلت: فرقٌ بين الحجر والمكلَّفين، فإنَّ مناطَ التَّكليف: القدرةُ والإرادةُ، والحجرُ لا قدرةَ فيه ولا إرادةَ، بخلاف المكلَّفين، فإنَّ فيهم إرادةً، ولكن لَمَّا كانت إرادتُهم أيضاً مخلوقةً للحقِّ سبحانه من غير تأثيرٍ لها في حصول المراد؛ كانت تلك الإرادةُ أيضاً كالميّت، وفائدتُها إنَّما هي كونُ المراد مخلوقاً بعد تحقُّقها بطريق جَرْيِ العادة.

ولو قيل: إنَّ قدرةَ المخلوق مؤثِّرةٌ ولو في الجملة - كما ذهب إليه علماءُ ما وراء النَّهر -؛ فذلك التَّأثيرُ أيضاً مخلوقٌ فيها كما هي مخلوقةٌ بنفسها، ففي تأثيرها لا اختيارَ له أصلاً، فيكون تأثيرُها أيضاً كالجماد. مثلاً: إذا رأى شخصٌ حجراً نازلاً من فوق بتحريك محرِّكٍ وأهلك حيواناً؛ فكما أنَّ ذلك الشَّخصَ يعتقد أنَّ هذا الحجرَ جمادٌ؛ كذلك يعتقد أنَّ فعله - الذي هو حركتُه - جمادٌ، ويعتقد أنَّ الأثرَ المترتِّبَ لذلك الفعل - أعني: الهلاكَ - أيضاً جمادٌ، فالذَّواتُ والصِّفاتُ والأفعالُ كلُّها جماداتٌ محضةٌ، وأمواتٌ صرفةٌ، فهو الحيُّ القيومُ، وهو السَّميعُ البصيرُ، وهو العليمُ الخبيرُ، وهو الفعَّالُ لِمَا يريد، ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ اَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]. وقد كثُرت إساءةُ الأدب، وجاوز الانبساطُ الحدَّ، فماذا أصنع؟ فإنَّ جمالَ الكلام الذي هو من الجميل المطلق أوردني موردَ أن يُظَنَّ أنَّ الكلام كلَّما يطولُ يزداد حسناً، وكلّما يُقالُ حاكياً عنه يكون من اللَّذَّة والحلاوة في المقام الأسنى، مع أنّي لا أجد في نفسي مناسبةً لأن أتكلّم من ذلك الجناب أو أتفوَّه باسمه: (شعر)

غَسَلْتُ بِمَاءِ الْوَرْدِ وَالْمِسْكِ أَلْفَ مَـ ـــرَّةٍ فِي بُعْدٍ لَسْتُ أَهْلاً لِذِكْرِهِ

(ع) عَلَى الْمَرْءِ أَنْ لَا يَجْهَلَ الدَّهْرَ طَوْرَهُ

والمرجوُّ بذلُ التَّوجُّه والعناية، وماذا أعرضُ من سوء أحوالي؟ وكلَّما أجد في نفسي؛ فهو من عنايات مبدأ ذلك التَّوجُّه العالي، وإلا: (ع) أَنَا ذَاكَ أَحْمَدُ لَمْ أَكُنْ مُتَغَيِّرَا

وظهر للميان شاه حسين طريقُ التَّوحيد، فهو الآن محظوظٌ به، ويخطر في البال إخراجُهُ منه ليبلغ الحيرةَ، فإنَّها مقصودةٌ ومحمد صادقٌ لا يقدر أن يضبط نفسه لِصِغَره، فإن كان رفيقاً في السَّفر ينال ترقِّياتٍ كثيرةً، وقد كان في سير سفح الجبل رفيقاً، فنال ترقِّياً كثيراً، وتجرَّعَ من بحر الحيرة، فله مناسبةٌ تامَّةٌ للفقير في الحيرة. والشيخ نور أيضاً في ذلك المقام، وقد ترقّى ترقِّياً كثيراً. ومن أقرباء هذا الفقير ....

غلامٌ له حال عال جداً قريبٌ من التَّجلِّيات البرقيَّة، بل مستعدٌ بها.

المَكْتُوبُ التَّاسِعَ عَشَرَ

في تفويضِ بعض أربابِ الحوائج، كَتَبَه إلى شَيخِه المكرَّم أيضـًا.

عريضةُ أحقر الخدمة. إنَّه جاء شخصٌ من العسكر، وأخبر أن مبلَّغَ أرباب وظائف فقراء دهلي وسرهند - يعني: وظائفهم - قد منع، وأحيل على ملازمي العتبة العليّة من أجل مادَّة فصل الخريف المارّ ليوصلوا إلى المستحقِّين بعد التّحقيق الحقيق، فبناءً على ذلك صدر الجراءةُ، فإن كان هذا الخبرُ صدقـًا؛ يحالُ على حامل العريضة ألفُ درهمٍ فصلانة باسم الشيخ الحافظ أبي الحسن، وهو من أهل العلم، وألفُ درهمٍ فصلانة باسم الشيخ الحافظ شاه محمد من وكلاء الشيخ نواب المقرَّرة، وهما حيَّان قائمان ليس فيهما شائبةُ الاشتباه، وقد أرسل كلٌّ منهما وكيلَه المعتمدَ والمشارَ إليهما في سرهند.

المَكْتُوبُ العِشْرُونَ

في تفويضِ بعض أربابِ الحوائجِ، كَتَبَه إلى شَيخِه المعظَّم أيضـًا.

عريضةُ أحقر الخدمة. إنَّه قد صدر منا تشويشُ أوقات خادمي العتبة العليَّة مكرَّراً في باب وظائف والدة حبيب الله السَّرهنديِّ ومنكوحته ومخاديمَ أخرى ممن ذُكِروا في ضمن العريضة، فإن كان مبلغُ وظائف المشار إليهم في دهلي؛ فأمروا مولانا عليّـًا بتسليمه إليهم، وقد جاء بعضُهم بطريق الوكالة، وبعضُهم بطريق الأصالة، فإن لم يكن مَبْلَغُهم في دهلي؛ فالمشارُ إليهم أحياءُ قائمون يلتمسون تصحيحَ حصصهم. والزِّيادةُ على ذلك انبساطٌ.

المَكْتُوبُ الحَادِي وَالعِشْرُونَ

في بيان درجاتِ الولايَة، لا سِيَّما الولايةُ المحمَّديَّة، على صاحبها الصَّلاة والسَّلام والتَّحيَّة، ومدحِ الطَّريقة النَّقشبنديَّة العليَّة قدَّس الله أسرار أهلها، وعلوِّ نسبتِهم، وفضلِها على نسَب سائِر الطُّرق. أرسلَه إلى الشَّيخ محمَّد المكِّيِّ بن الحاجِّ موسى القاري اللَّاهوريِّ.

وصل المكتوبُ الشَّريفُ اللَّطيفُ إلى العبد الضَّعيف النَّحيف عظَّم الله سبحانه أَجْرَكم، ويسَّر أَمْرَكم، وتقبَّل عُذْرَكم، بحرمة سيِّد البشر، المطهَّر عن زيغ البصر، عليه وعلى آله من الصَّلوات أفضلُها، ومن التَّسليمات أكملُها.

اعلموا - إخواني - أنَّ الموتَ الذي قبل الموت المعبَّر عنه بالفناء عند أهل الله ما لم يتحقَّقْ؛ لم يتيسَّر الوصولُ إلى جناب القُدْس، بل لم يمكن النَّجاةُ عن عبادة المعبودات الباطلة الآفاقيَّة، والآلهة الهوائيَّة الأنفسيَّة، فلم يتحقَّقْ حقيقةُ الإسلام، ولم يتيسَّرْ كمالُ الإيمان، فكيف يحصل الدُّخولُ في زمرة العباد، والوصولُ إلى درجة الأوتاد، مع أنَّ هذا الفناءَ قَدَمٌ أَوَّلُ يوضَعُ في أطوار الولاية، وكمالٌ أسبقُ يحصل في البداية؟ فينبغي أن يُقاسَ من أوَّلِ الولاية حالُ آخرها، ومن بدايتها درجةُ نهايتها، ولنِعْمَ ما قيل:

(ع) وَقِسْ مِنْ حَالِ بُسْتَانِي رَبِيعِي

وغيره: وَعَامُ الرُّخصِ يُعْلَمُ مِنْ رَبِيعِ

وللولاية درجاتٌ بعضُها فوق بعضٍ؛ إذ على قَدَمِ كلِّ نبيٍّ ولايةٌ خاصَّةٌ به، وأقصى درجاتها: هي التي على قَدَم نبيِّنا عليه وعلى جميع إخوانه من الصَّلوات أتمُّها ومن التَّحيات أيمَنُها؛ إذ التَّجلِّي الذاتيُّ الذي لا اعتبارَ فيه للأسماء والصِّفات والشُّؤون والاعتبارات لا بالإيجاب ولا بالسَّلْب مخصوصٌ بولايته ﷺ، وخرقُ جميع الحُجُب الوجوديَّة والاعتباريَّة عِلْمـًا وعَيْنـًا يتحقَّقُ في هذا المقام، فحينئذٍ يحصل الوَصْلُ عُرْيانـًا، ويتحقَّقُ الوجدُ حقيقةً لا حُسْبانـًا، وللكُمَّل من متابعيه عليه الصَّلاة والتَّحيَّةُ نصيبٌ كاملٌ وحظٌّ وافرٌ من هذا المقام العزيز وجودُه، فعليكم باتِّباعه ﷺ إن كنتم متوجِّهين إلى تحصيل هذه الولاية القصوى، وتكميلِ هذه.........

الدَّرَجَة العُلْيا. وهذا التَّجلّي الذَّاتِيُّ بَرْقِيٌّ عند أكثر المشائخ رحمهم الله تعالى، يعني: أنَّ خرقَ الحُجُب عن حضرة الذَّات جلَّ سلطانُه يكون في زمانٍ يسيرٍ كالبرق، ثم تُسْدَلُ حُجُبُ الأسماء والصِّفات، ويُسْتَرُ سطواتُ أنوار الذَّات تعالى، فيكون الحضورُ الذاتِيُّ لمحةً كالبرق، والغيبةُ الذَّاتيةُ كثيرة جدّاً، وعند أكابر المشائخ النَّقشبنديَّة قدَّس الله أسرارهم هذا الحضورُ الذَّاتِيُّ دائميٌّ، ولا عبرةَ عندهم للحضور الزَّائل المتبدِّل بالغيبة، فيكون كمالُ هؤلاء الأكابر فوق جميع الكمالات، ونسبَتُهم فوق جميع النِّسَب، كما وقع في عباراتهم: إنَّ نسبَتَنا فوقَ جميع النِّسَب، وأرادوا بالنِّسبة: الحضورَ الذاتِيَّ الدائميَّ، وأعجبُ من ذلك: أنَّ النِّهايةَ في طريقة هؤلاء الكُمَّل مندرجةٌ في البداية، واقتداؤهم في ذلك بصحابة رسول الله ﷺ وبارَكَ وكرَّمَ، فإنَّهم في أوَّل صحبة النبيّ عليه الصَّلاةُ والسلامُ نالوا ما يتيسَّرُ في النِّهاية، وذلك باندراج النِّهاية في البداية، فكما كانت ولايةُ محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فوق ولايات جميع الأنبياء والرُّسل عليهم الصَّلواتُ والتسليماتُ؛ كذلك كانت ولايةُ هؤلاء الأكابر فوق جميع ولايات الأولياء قدَّس الله تعالى أسرارهم، كيف وإنَّ ولايَتَهم منسوبةٌ إلى الصِّدِّيق الأكبر؟ نعم، لأفرادٍ من كُمَّل المشائخ قد حصلتْ هذه النِّسبةُ، لكن باقتباسٍ من الصِّدِّيق الأكبر رضي الله تعالى عنه كما أخبر أبو سعيدٍ عن دوام هذا الحديث، وقد وصلتْ جُبَّةُ الصِّدِّيق الأكبر ﷺ إلى هذا الشَّيخ أبي سعيد كما نقل صاحبُ «النفحات».

والغرضُ من إظهار بعض كمالات هذه الطَّريقة العليَّة النقشبنديَّة: ترغيبُ الطُّلاب في هذه الطَّريقة، وإلا؛ فما لي ولشرح كمالاتها؟ قال المولويّ في «المثنوي»: (شعر)

لَمْ يُنَاسِبْ شَرْحَهُ لِلْخَلْقِ بَلْ ... حُقَّ أَنْ يَخْفَى كَعِشْقٍ فِي الْمَثَلْ
غَيْرَ أَنِّي صِفْتُهُ كَيْ يَرْغَبُوا ... فِيهِ قَبْلَ الْفَوْتِ كَيْلَا يَحْزَنُوا

والسَّلامُ عليكم وعلى جميع من اتَّبع الهدى.

المَكْتُوبُ الثَّانِي وَالعِشْرُونَ

أرسِل إلى الشَّيخ عبد المجيد بن الشَّيخِ محمَّد المُفتي اللَّاهوريِّ في بيان وجه التَّعلُّقِ بين الرُّوحِ والنَّفس، وبيان عروجِهما ونُزولِهما، وبَيان الفَناءِ الجسديِّ والرُّوحيِّ وبقائِهما، وبيان مقام الدَّعوةِ، والفَرقِ بين المستهلَكِين من الأولياء والرَّاجعينَ إلى الدَّعوة.

سبحان من جمع بين النّور والظُّلمة، وقرن اللَّامكانِيَّ المتبرئ عن الجهة مع المكانِيِّ الحاصل في الجهة، فحُبِّبت الظُّلمةُ إلى النُّور، فعَشِقَ بها، وامتزج معها بكمال المحبَّة ليزداد بهذا التَّعلُّق جِلاؤه، ويَكْمُلَ بمجاورة الظُّلمة صفاؤُه، كالمرآة إذا أريد صقالَتُها، وقُصِدَ ظهورُ لطافتها؛ تُرِّبَتْ أوَّلاً ليظهرَ بمجاورة الظُّلمة التَّرابيَّة صفاؤُها، ويزدادَ بتعلُّق الكثافة الطِّينيَّة بهاؤها، فنَسِيَ ذلك النُّورُ ما حصل له أوَّلاً من شهوده القدسيِّ، بل جهل نفسَه وتوابعَهُ الوجوديَّةَ؛ لاستغراقه في شهود معشوقه الظّلمانِيّ، وتعلُّقِه بالهيكل الهَيُولانِيّ، فصار من أصحاب المشأمة في مصاحبته، وضاع من كرامات الميمنة في مجاوَرَته، فإن بَقِيَ في مَضِيقِ هذا الاستغراق، ولم يتخلَّصْ إلى فضاء الإطلاق؛ فالويلُ له كلَّ الويل، لَمّا لم يتيسَّر له ما هو المقصودُ منه، وضاع جوهرُ استعداده، فضلَّ ضلالاً بعيداً. وإن سبقتْ له الحسنى، وأَدْرَكَتْه العنايةُ القصوى؛ رفع رأسَه، وتذكَّر ما ضلَّ عنه، ....

فرجع القهقرى قائلاً: (شعر)

إِلَيْكَ يَا مُنْيَتِي حَجِّي وَمُعْتَمَرِي إِنْ حَجَّ قَوْمٌ عَلَى تُرْبٍ وَأَحْجَارِ

وإن حصل له الاستغراقُ ثانياً في شهود المطلوب الأقدس على أحسن طرقٍ، وتيسَّرَ له التَّوجُّهُ إلى الجناب المقدَّس بأكمل وجوهٍ؛ تَبِعَه الظُّلمةُ حينئذٍ، واندرجتْ في غَلَبات أنواره، فإذا بلغ هذا الاستغراقُ إلى أن نَسِيَ المتعلِّقَ الظلمانيَّ رأساً، وجَهِلَ نفسَهُ وتوابعَ وجوده كليَّةً، فاستهلك في مشاهدة نور الأنوار، وحصل له حضورُ المطلوب وراء الأستار؛ شُرِّفَ بالفناء الجسديِّ والروحيِّ. وإن حصل له البقاءُ بذلك المشهود أيضاً بعد الفناء فيه؛ فقد تَمَّتْ له جِهَتا الفناء والبقاء، وصحَّ حينئذٍ إطلاقُ اسم الولاية عليه، فحينئذٍ لا يَخْلُو حالُه من أمرين: إمَّا الاستغراقُ في المشهود بالكُلِّيَّة والاستهلاكُ فيه على الدَّوام، وإمَّا الرُّجوعُ إلى دعوة الخلق إلى الحقِّ عزَّ سلطانُه، بأن يصير باطنُه مع الله سبحانه، وظاهرُه مع الخلق، فيتخلَّص النُّورُ حينئذٍ من الظُّلمة المندرجة فيه المتوجِّهة إلى المطلوب، ويصير بهذا التَّخلُّص من أصحاب اليمين، وهو وإن لم يكن له في الحقيقة يمينٌ ولا شمالٌ، لكنَّ اليمينَ أَوْلى بحاله، وأنسبُ لكماله؛ لجامعيَّته الجهة الخيريَّة، مع اشتراكهما في اليُمْن والبركة، كما وقع في شأنه عزّ شأنُه: «**كِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ**»[1]، وتَنْزِلُ تلك الظُّلمةُ من ذلك النُّور في مقام العبادة وأداء الطَّاعة، ونعني بالنُّور اللامكانِيِّ: الرُّوحَ، بل خلاصَتَهُ، وبالظُّلمة المقيَّدة بالجهة: النَّفسَ، وكذا المرادُ بالظَّاهر والباطن.

فإن قال قائلٌ: إنَّ للأولياء المستهلكين أيضاً شعوراً بالعالم، وتوجُّهاً إليه، واختلاطاً مع بني نوعهم، فما معنى الاستهلاك والتَّوجُّه على الدَّوام؟ وما الفرقُ بينهم وبين المرجوعين إلى العالم للدَّعوة؟

قلنا: إنَّ الاستهلاكَ والتَّوجُّه بالكليَّة عبارةٌ عن توجُّه الرُّوح والنَّفْس معاً بعد اندراج النَّفْس في أنوار الرُّوح كما مرّت الإشارةُ إليه، والشُّعورُ بالعالم ونحوه إنَّما يكون بالحواسِّ والقوَى والجوارح التي هي كالتَّفاصيل للنَّفْس، فالمجملُ الملخَّصُ مستهلَكٌ في ضمن أنوار الرُّوح في مطالعة المشهود، وتفصيلُه باقٍ على الشُّعور السَّابق من غير تطرُّقِ فتورٍ إليه، بخلاف المرجوع إلى العالم، فإنَّ نفسَه بعد كونها مطمئنَّةً تخرج من تلك الأنوار للدَّعوة، وتحصل له المناسبةُ حينئذٍ مع العالم، فتقع الدَّعوةُ بتلك المناسبة في مَعْرِضِ الإجابة.

وأمَّا بيانُ أنَّ النفسَ مجملةٌ، والحواسَّ ونحوها تفاصيلُها؛ فلأنَّ النَّفْسَ لها تعلُّقٌ بالقلب الصَّنوبريِّ، وهو له تعلُّقٌ بالرُّوح بتوسُّط الحقيقة الجامعية[2] القلبيَّة، والفيوضُ الواردةُ من الرُّوح تَرِدُ إجمالاً أوَّلاً عليها، ثم بتوسُّطها إلى سائر القوى والجوارح تفصيلاً، فخلاصَتُها موجودةٌ في النَّفْس إجمالاً، فظهر الفرقُ بين الفريقين.

وممّا ينبغي أن يُعْلَمَ: أنَّ الطَّائفةَ الأولى من أرباب السُّكر، والثَّانيةَ من أرباب الصَّحو، والشَّرافةُ للأولى، والفضيلةُ للأخرى، والمقامُ الأوَّلُ مناسبٌ للولاية، والثَّاني للنبوَّة، شرَّفنا الله تعالى بكرامات الأولياء، وثبَّتنا على كمال متابعة الأنبياء، صلوات الله تعالى وسلامه على نبينا وعليهم وعلى جميع إخوانه من الملائكة المقرَّبين والعباد الصالحين إلى يوم الدين. آمين.

المحرِّرُ الدَّاعي وإن لم يُحْسِنِ العربيَّةَ لعجميَّته، لكن لَمّا كان مكتوبُهم الشَّريفُ مُحَرَّراً بالكلمات العربيَّة؛ أملى القرطاسَ على نحو إملائهم، والسَّلامُ خِتامُ الكلام.

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٢٧) من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) كذا في النسخ، ولعل الصواب (حقيقة الجامعيَّة).

المَكتُوبُ الثَّالِثُ وَالعِشْرُونَ

أرسِلَ إلى عبد الرَّحيم المشتهرِ بخان خانان في جوابِ كِتابِه في المَنع عن أخذ الطَّريق منَ النَّاقص، وبيان مضرَّتِه، والمَنع عنِ الألقابِ الشَّبيهَة بأهلِ الكُفر.

نجّانا الله سبحانه وإيّاكم عن المقال، الخالي عن الحال، والعلم المُعَرّى عن الأعمال، بحرمة سيِّد البشر، المبعوث إلى الأسود والأحمر، عليه وعلى آله من الصَّلوات أفضلُها، ومن التَّسليمات أكملُها، ويرحم الله عبداً قال: آمينا.

بلَّغ رسالتكم الأخُ الصَّالحُ الصَّادقُ تبليغاً، وحكى عن جنابكم بلسان التَّرجمان ما حكى، فأنشدتُ: (شعر)

أَهْلاً لِسُعْدَى وَالرَّسُولِ وَحَبَّذَا　　　وَجْهُ الرَّسُولِ لِحُبِّ وَجْهِ الْمُرْسِلِ

اعلم أيُّها الأخُ القابلُ لظهور الكمالات - أظهر الله سبحانه فِعْلَكم من القوَّة - أنَّ الدُّنيا مزرعةُ الآخرة، فويلٌ لمن لم يَزْرَعْ فيها، وعطَّل أرضَ الاستعداد، وأضاع بَذْرَ الأعمال. ومما ينبغي أن يُعْلَمَ أنَّ إضاعةَ الأرض وتعطيلَها: إمَّا بأن لا يزرعَ فيها شيئاً، أو أن يُلْقِيَ فيها بذْراً خبيثاً فاسداً، وهذا القسمُ من الإضاعة أشدُّ مضرَّةً وأكثرُ فساداً من القسم الأوَّل كما لا يخفى، وخُبْثُ البَذْر وفسادُه بأن يأخذَ الطَّريقَ من السَّالك النَّاقص، ويسلُكَ مَسْلَكَهُ؛ لأنَّ النَّاقصَ صاحبُ هوىً متَبَعٍ، وما يشوبُ بالهوى لا يؤثِّرُ، وإن أثَّرَ أعان على الهوى، فيحصل ظلمةٌ على ظلمةٍ؛ لأنَّ النَّاقصَ لا يميِّزُ بين الطُّرُق الموصلة إلى الله سبحانه وبين الطُّرُق التي لا توصل إليه سبحانه؛ إذ هو غيرُ واصلٍ قطُّ، وكذا لا يُمَيِّزُ بين الاستعدادات المختلفة للطَّلبة، وإذا لم يميِّزْ طُرُقَ الجذبة عن طُرُق السُّلوك؛ فربَّما يكون استعدادُ الطَّالب مناسباً لطريق الجذبة غيرَ مناسبٍ لطريق السُّلوك ابتداءً، والنَّاقصُ - لعدم تمييزه بين الطُّرق وبين الاستعدادات المختلفة - يُسَلِّكُه طريقَ السُّلوك ابتداءً، فأضلَّ عن الطَّريق كما ضلَّ، فالشَّيخُ الكاملُ المكمّلُ إذا أراد تربيةَ هذا الطَّالب وتسليكَه؛ احتاج أوّلاً إلى إزالة ما أصاب من السَّالك النَّاقص، وإصلاحِ ما فَسَدَ بسببه، ثم ألقى البَذْرَ الصَّالحَ المناسِبَ لاستعداده في أرض الاستعداد، فينبت نباتاً حسناً، ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦]، ومثل كلمةٍ طيِّبةٍ ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ اَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى السَّمَاۤءِۙ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، فصحبةُ الشَّيخ الكامل المكمّل كبريتٌ أحمرُ، نظرُه دواءٌ، وكلمتُه شفاءٌ، وبدونها خَرْطُ القتاد، وثبَّتنا الله سبحانه وإيّاكم على جادّة الشَّريعة المصطفويَّة، على صاحبها أفضلُ الصلاة والسلام والتحية؛ إذ هو مِلاكُ الأمر، ومدارُ النَّجاة، ومناطُ السَّعادة، ولنِعْم ما قيل بالفارسيَّة:

(شعر)　مُحمّدِ عربى كه آبروىِ هر دو سراست　　كسيكه خاكِ درش نيست خاك بر سرِ او

(ترجمة):　مُحَمَّدٌ سَيِّدُ الْكَوْنَيْنِ مِنْ عَرَبِ　　تَعْساً لِمَنْ لَمْ يَكُنْ فِي بَابِهِ التُّرَبَا

ولنختم المقالةَ على صلوات سيد المرسلين وتسليماته وتحياته وبركاته.

التَّتمَّةُ: والعجبُ كلُّ العجب أنَّ الأخَ الصَّادقَ قد نقل أنَّ من جلسائهم من الشُّعراء الفُضَلاء من يُلَقَّبُ في الشِّعر بالكفري، والحالُ أنَّه من السَّادات العِظام والنُّقَباء الكرام، فيا ليت شعري ما حَمَلَه على اختيار هذا الاسم الشَّنيع البيِّن شناعتُه؟ والمسلمُ ينبغي له أن يفرَّ من هذا الاسم زيادةَ ما يَفِرُّ من..

الأسد المهلك، ويكرَهُ كلَّ الكراهة؛ لأنَّ هذا الاسمَ ومسمَّاه مبغوضان على الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام، والمسلمون مأمورون بعداوة أهل الكفر والغِلْظَة عليهم، فالتَّحاشي عن مثل هذا الاسم القبيح واجبٌ، وما وقع في عبارات بعض المشائخ قدس سرهم في غَلَبات السُّكر من مدح الكفر والتَّرغيب في شدِّ الزِّنَّار وأمثال ذلك؛ فمصروفٌ عن الظَّاهر، ومحمولٌ على التَّأويل، فإنَّ كلامَ السُّكارى يُحملُ ويُصْرَفُ عن الظَّاهر المتبادر، فإنَّهم معذرون بغَلَبَة السُّكر في ارتكاب هذه المحظورات، مع أنَّ كُفْرَ الحقيقة أنقصُ بالنِّسبة إلى إسلام الحقيقة عند أكابر هؤلاء القوم، وغيرُ السُّكارى غيرُ معذورٍ في تقليدهم، لا عندهم ولا عند أهل الشَّرْع؛ لأنَّ لكلِّ شيءٍ مَوْسماً ووقتاً خاصّاً، صَلُحَ ذلك الشَّيءُ في ذلك الموسم، وقَبُحَ في موسم آخر، والعاقلُ لا يقيس أَحَدَهما على الآخر. فالتمسوه من قِبَلي أن يُغَيِّرَ هذا الاسمَ، ويبدِّلَه باسمِ خيرٍ منه، ويلقَّبَ بالإسلاميّ، فإنَّه موافقٌ لحال المسلم ومقاله، وانتسابٌ إلى الإسلام الذي هو الدينُ المرضيُّ عند الله سبحانه وعند الرسول عليه الصلاة والسلام، واجتنابٌ عن التُّهمة التي أمرنا باتِّقائها، «**اتَّقُوا مَوَاضِعَ التُّهَمِ**»[1] كلامٌ صادقٌ لا غُبارَ عليه، قال سبحانه: ﴿**وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ**﴾ [البقرة: ٢٢١]. والسلامُ على من اتَّبع الهدى.

المَكتُوبُ الرَّابِعُ وَالعِشرُونَ

أرسِلَ إلى محمَّد قِلِيج خان في بيان أنَّ الصُّوفيَّ كائنٌ بائنٌ، وأنَّ تعلُّق القلب لا يكونُ بأكثر من واحدٍ، وأنَّ ظهور المحبَّة الذَّاتيَّة يَستلزِم استِواء الإيلامِ والإنعامِ منَ المحبوبِ، والفرقِ بين عبادة المقرَّبينَ وعِبادة الأبرارِ، وكذا بين الأولياء المستهلكين وبين الأولياء المَرجوعينَ إلى دعوةِ الخلقِ.

سلَّمكم الله سبحانه وعافاكم بحرمة سيِّد المرسلين عليه وعلى آله الصلواتُ والتسليماتُ، «**الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**»[2]، فطوبى لمن لم يُبْقِ لقلبه حبّاً إلا مع الله سبحانه، ولم يُرِدْ إلا وجهَه تعالى وتقدَّس، فيكون هو مع الله جلَّ سلطانه، وإن كان في ظاهره مع الخلق، واشتغل بهم صورةً، وهو شأنُ الصُّوفيِّ الكائن البائن، أي: الكائنُ مع الله سبحانه، والبائنُ من الخلق حقيقةً، أو المراد: الكائنُ مع الخلق صورةً، والبائنُ منهم حقيقةً. والقلبُ لا تتعلَّق محبَّتُه بأكثَرَ من واحدٍ، فما لم يَزَلِ التَّعلُّق الحُبِّيُّ بذلك الواحد؛ لم يتعلَّق بما سواه محبَّتُه، وما يرى من كثرة مراداته وتعلُّق محبَّته بالأشياء المتكثِّرة كالمال والولد والرِّياسة والمدح والرِّفعة عند النَّاس؛ فثمَّة أيضاً لا يكون محبوبُهُ إلا واحداً، وهو نفسُه، ومحبَّةُ هؤلاء فرعُ محبَّته لنفسه، فإنَّ هذه الأشياءَ لا يريدها إلا لنفسه، لا لأنفسهم، فإذا زالت محبَّتُه لنفسه؛ زالت محبَّتُهم بالتَّبعيَّة أيضاً، فلهذا قيل: إنَّ الحجابَ بين العبد والربِّ هو نفسُ العبد لا العالَمُ، فإنَّ العالمَ في نفسه غيرُ مرادٍ للعبد حتى يكون حجاباً، وإنَّما مرادُ العبد هو نفسُهُ، فلا جرم يكون الحجابُ هو العبد لا غير، فما لم يَخْلُ العبدُ عن مراد نفسه كليَّةً؛ لا يكون الربُّ مرادَه، ولا يَسَعُ قلبُهُ محبَّتَه سبحانه وتعالى، وهذه الدَّولةُ القُصوى لا تتحقَّقُ إلا بعد الفناء المطلق المنوط بالتَّجلِّي الذَّاتِيِّ، فإنَّ رفعَ الظُّلمات رأساً لا يُتصوَّرُ إلا بطلوع الشَّمْس بازغةً، فإذا حصلتْ تلك المحبَّةُ المعبَّرُ عنها بالمحبَّة الذَّاتيَّة؛ استوى عند المُحِبِّ إنعامُ المحبوب وإيلامُه، فحينئذٍ حصل الإخلاصُ، فلا يعبد ربَّه إلا له، لا لأجل نفسه من طلب الإنعام ودفع الإيلام؛ لأنَّهما عنده سواءٌ، وهذه مرتبةُ المقرَّبين، ....

(١) وقد أخرج البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٩٩٢) عن سعيد بن المسيب قال: كتب إلي بعض إخواني من أصحاب رسول الله ﷺ... ومن عرَّض نفسه للتُّهم فلا يلومنَّ إلا نفسه.

(٢) أخرجه البخاري (٦١٦٨)، ومسلم (٢٦٤٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

فإنَّ الأبرارَ إنَّما يعبدون الله خوفاً وطمعاً، وهما راجعان إلى نفسهم؛ لعدم فَوْزِهم بسعادة المحبَّة الذَّاتيَّة، فلا جَرَمَ يكون حسناتُ الأبرار سيئاتِ المقرَّبين، فحسناتُ الأبرار حسناتٌ من وجهٍ وسيِّئاتٌ من وجهٍ، وحسناتُ المقرَّبين حسناتٌ محضةٌ. نعم، من المقرَّبين من يعبد الله خوفاً وطمعاً أيضاً بعد تحقُّقهم بالبقاء الأكمل، وتنزُّلهم بعالم الأسباب، لكنَّ خوفَهم وطمعَهم غيرُ راجعَيْن إلى أنفسهم، بل إنَّما يعبدون طمعاً في رضائه سبحانه، وخوفاً من سخطه تعالى، وكذا إنَّما يطلبون الجنَّةَ؛ لأنَّها محلُّ رضائه تعالى، لا لحظوظ أنفسهم، وإنَّما يستعيذون من النَّار؛ لأنَّها محلُّ سَخَطِه تعالى، لا لدفع الإيلام عن أنفسهم؛ لأنَّ هؤلاءِ الأكابرَ مُحَرَّرون عن رِقِّيَّة الأنفس، وصاروا خالصين لله سبحانه، وهذه الرُّتبةُ أعلى من بين رُتَب المقرَّبين، ولصاحب هذه المرتبة نصيبٌ تامٌّ من كمالات مقام النُّبوَّة بعد تحقُّقه بمرتبة الولاية الخاصَّة، ومن لم يَنْزِلْ إلى عالم الأسباب؛ فهو من الأولياء المستهلَكين، فلا نصيبَ له من كمالات مقام النُّبوَّة، فلا يكون أهلاً للتَّكميل، بخلاف الأوَّل. رزقنا الله سبحانه محبَّةَ هؤلاء الأكابر بحرمة سيِّد البشر، عليه وعلى آله وأتباعه من الصَّلوات أفضلها، ومن التسليمات أكملها، فإنَّ المرءَ مع من أحبَّ.

المَكْتُوبُ الخَامِسُ وَالعِشْرُونَ

أرسِلَ إلى خواجه جِهان في التَّحريضِ على مُتابعة سيِّد المُرسلِين، ومُتابعة الخلفاء الرَّاشدين، عليه وعليهم منَ الصَّلواتِ أكملُها، ومنَ التَّسليماتِ أتمُّها.

سلَّم الله تعالى قَلْبَكم، وشرح صدوركم، وزكَّى أنفسَكم، وألان جِلْدَكم، كلُّ ذلك - بل جميعُ كمالات الرُّوح والسِّرِّ والخفيِّ والأخفى - منوطٌ بمتابعة سيِّد المرسلين، عليه وعلى آله من الصَّلوات أفضلُها، ومن التَّسليمات أكملُها، فعليكم بمتابعته ومتابعة خلفائه الرَّاشدين الهادين المهديِّين من بعده، فإنَّهم نجومُ الهداية، وشموسُ الولاية، فمن شُرِّفَ بمتابعتهم؛ فقد فاز فوزاً عظيماً، ومن جُبِلَ على مخالفتهم؛ فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً.

البقيَّةُ من المقصود: إظهارُ الاضطرار وضيق المعيشة لابني المرحوم الشيخ سلطان، فالملتمسُ من جنابكم مددُهم وإعانتُهم، فإنَّكم حَرِيُّون بذلك، بل مُوَفَّقون لقضاء حوائج الناس طُرّاً، زاد اللهُ تعالى توفِيقَكم، وجعل الخيرَ رفيقَكم، والسلامُ عليكم وعلى سائر من اتبع الهدى.

المَكْتُوبُ السَّادِسُ وَالعِشْرُونَ

أرسِلَ إلى الشَّيخ العالِم مولانا الحاجِّ محمَّدٍ اللَّاهوريِّ في بيان أنَّ الشَّوق يكون للأبرار دونَ المقرَّبين، مع علومٍ تُناسِب هذا المقام.

ثبَّتنا الله تعالى وإيَّاكم على جادَّة الشَّريعة المصطفويَّة، على صاحبها الصَّلاةُ والسَّلامُ والتَّحيَّةُ.

ورد في الحديث القُدْسيِّ: «**أَلَا طَالَ شَوْقُ الْأَبْرَارِ إِلَى لِقَائِي، وَأَنَا إِلَيْهِمْ لَأَشَدُّ شَوْقاً**»(1)، أثبت اللهُ سبحانه الشَّوقَ للأبرار؛ لأنَّ المقرَّبين الواصلين لا شَوْقَ لهم؛ لأنَّ الشَّوْقَ يقتضي الفقدَ، والفقدُ في حقِّهم مفقودٌ، ألا يُرى أنَّ الشَّخصَ لا يشتاقُ إلى نفسه مع إفراطه في حبِّه؛ لعدم تحقُّق الفقد في حقِّه؟ فالمقرَّبُ الواصلُ الباقي بالله سبحانه الفاني عن نفسه حكمُه كحال الشَّخْص مع نفسه، فلا جَرَمَ لا يكون المشتاقُ إلا الأبرارَ؛ لأنَّه مُحِبٌّ فاقدٌ، ونعني بالأبرار: غيرَ المقرَّبِ الواصل، سواءٌ كان في الابتداء أو في الوسط، ولو بَقِيَ منه مقدارُ خردلةٍ، ولنِعْمَ ما قيل في الشعر الفارسي: (شعر)

فراقِ دوستْ اگر اندک است اندک نیست ... درونِ دیدهْ اگر نیم مُوست بسیار است

---

(1) ذكره في «الفردوس» (٨٠٦٧) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

يعني: وَمَا قَلَّ هِجْرَانُ الْحَبِيبِ وَإِنْ غَدَا قَلِيلاً، وَنِصْفُ الشَّعْرِ فِي الْعَيْنِ ضَائِرُ

نُقِلَ عن الصِّدِّيق الأكبر ﷺ: أنَّه رأى قارئـًا يقرأ القرآنَ ويبكي، فقال: هكذا كنَّا نفعل، ولكن قَسَتْ قلوبنا. هذا من قبيل المدح بما يُشْبِهُ الذَّمَّ. وسمعتُ شيخي قدس سره يقول: إنَّ المنتهيَ الواصلَ ربَّما يتمنَّى الشَّوْقَ والطَّلَبَ الذي كان له في الابتداء، ولرفع الشَّوق مقامٌ آخرُ أكملُ من الأوَّل وأتمُّ، وهو مقامُ اليأس والعجز عن الإدراك، فإنَّ الشَّوْقَ يُتصوَّرُ في المتوقَّع، فحيث لا تَوَقُّعَ لا شَوْقَ، وإذا رجع هذا الكاملُ البالغُ نهايةَ الكمال إلى العالَمِ رجوعَ القهقرى؛ لا يعود إليه الشَّوْقُ أيضـًا مع وجود الفَقْد بالرُّجوع؛ لأنَّ زوالَ شوقه ما كان لزوال الفَقْد، بل لحصول اليأس، وهو موجودٌ بعد الرُّجوع أيضـًا، بخلاف الكامل الأوَّل، فإنَّه يعود إليه الشَّوْقُ برجوعه إلى العالم؛ لحصول الفقد الذي زال من قبلُ، فحين وُجِدَ الفقدُ بالرُّجوع؛ حصل الشَّوْقُ الذي زال بزواله.

لا يقال: إنَّ مراتبَ الوصول لا تنقطع أَبَدَ الآبدين، فيُتوقَّع بعد تلك المراتب، فيتصوَّرُ الشَّوْقُ؛ لأنَّا نقول: عدمُ انقطاع مراتب الوصول مبنيٌّ على السَّيْرِ التَّفصيليِّ الواقع في الأسماء والصِّفات والشُّؤون والاعتبارات، وهذا السَّالكُ لا يُتصوَّرُ في حقِّه نهايةٌ، ولا يزول عنه الشَّوْقُ أبداً، وما نحن بصدده هو المنتهي الواصلُ الذي قطع تلك المراتبَ بطريق الإجمال، وانتهى إلى ما لا يُمْكِنُ التَّعبيرُ عنه بعبارةٍ، ولا يُشارُ إليه بإشارةٍ، فلا يُتصوَّرُ ثمَّةَ توقُّعٌ أصلاً، فلا جَرَمَ يزولُ عنه الشَّوْقُ والطَّلَبُ، وهذا حالُ الخواصِّ من الأولياء؛ لأنَّهم هم الذين عَرَجَوا عن ضيق الصِّفات، ووصلوا إلى حضرة الذَّات تعالت وتقدَّست، بخلاف السَّالكين في الصِّفات مفصَّلاً، والسَّائرين في الشُّؤونات مرتَّبـًا، فإنَّهم محبوسون في التَّجلِّيات الصفاتيَّة أبد الآبدين، ومراتبُ الوصول في حقِّهم ليست إلا الوصولَ إلى الصِّفات، والعروجُ إلى حضرة الذَّات لا يُتصوَّرُ إلا بالسَّير الإجماليِّ في الصِّفات والاعتبارات، ومن وقع سيرُه في الأسماء بالتَّفصيل؛ حُبِسَ في الصِّفات والاعتبارات، ولم يَزُلْ منه الشَّوْقُ والطَّلَبُ، ولم يفارِقْ عنه الوجدُ والتَّواجدُ، فأصحابُ الشَّوق والتَّواجد ليسوا إلا أصحابَ التَّجليات الصِّفاتيَّة، وليس من التَّجلِّيات الذَّاتيَّة لهم نصيبٌ ما داموا في الشَّوْق والوجد.

فإن قال قائلٌ: ما معنى الشَّوقِ من الله سبحانه وليس منه سبحانه مفقودٌ شيئـًا؟

قلت: ذِكْرُ الشَّوْقِ ههنا يحتمل أن يكون من قبيل صنعة المشاكلة، وذكرُ الشدَّة فيه باعتبار أنَّ كلَّما يُنْسَبُ إلى العزيز الجبار؛ فهو شديدٌ وغالبٌ على ما يُنْسَبُ إلى العبد الضَّعيف. هذا الجوابُ على طريقة العلماء. وللعبد الضَّعيف في جوابه وجوهٌ أُخَرُ تناسِبُ طريقةَ الصُّوفيةَ، ولكنَّ تلك الأجوبةَ تقتضي نحواً من السُّكر، وبدون السُّكْر لا تُستحسنُ، بل لا تجوزُ؛ لأنَّ السكارى معذورون، وأربابَ الصّحْو مسؤولون، وحالي الآن الصّحوُ الصِّرْفُ، فلا يليق بحالي ذِكْرُها.

هذا، الحمدُ أوَّلاً وآخراً، والصلاةُ والسلامُ على نبيّه دائمـًا وسرمداً.

المكتوب السابع والعشرون

إلى خواجه عمك في بيان مدح الطَّريقة النَّقشبنديَّة، وعلوِّ نسبةِ هؤلاءِ الأكابِر قدَّس الله أسرارَهم.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩].

ورد مكتوبُكم المُرْسَلُ إلى هذا المُخْلِص على وجه..

الكرم، وصار باعثاً على الابتهاج والسُّرور، والمرجوُّ سلامَتُكم، ولا أريد أن أُصَدِّعَكم بغير مدحِ هذه السِّلسلة العليَّة النَّقشبنديَّة.

أيُّها المخدومُ المكرَّمُ، قد وقع في عبارات أكابر هذه السِّلسلة العليَّة قدَّس الله أسرارهم: أنَّ نسبَتَنا فوق جميع النِّسَب، وأرادوا بتلك النِّسبة: الحضورَ والشُّعورَ، والحضورُ المعتبرُ عندهم إنَّما هو حضورٌ بلا غَيْبَةٍ، وقد عبَّروا عنه بـ(ياد داشت)، فتكون نسبةُ هؤلاء الأعزَّة عبارةً عن (ياد داشت)، و(ياد داشت) الذي تقرَّرَ في فهم هذا الفقير القاصر مبنيٌّ على هذا التَّفصيل، وهو أنَّ التَّجلِّيَ الذَّاتِيَّ عبارةٌ عن ظهور حضرة الذَّات تعالَتْ وتقدَّستْ، وحضورُه تعالى بلا ملاحظةِ الأسماء والصِّفات والشُّؤون والاعتبارات، وقالوا لهذا التَّجلّي: تجلّياً برقيّاً، يعني: يتحقّقُ ارتفاعُ الشؤون والاعتبارات لمحةً يسيرةً، ثم تُسْدَلُ حُجُبُ الشُّؤون والاعتبارات، وتتوارى حضرةُ الذَّات، فعلى هذا التَّقدير لا يُتصوَّرُ حضورٌ بلا غيبةٍ، بل الحضورُ لمحةٌ يسيرةٌ، والغيبةُ دائمةٌ وكائنةٌ في أغلب الأوقات، فلا تكون هذه النِّسبةُ معتبرةً عند هؤلاء الأعزَّة، والحالُ قد قال مشائخُ السَّلاسل الأُخَر لهذا التَّجلّي: نهايةَ النِّهاية. فإذا دام هذا الحضورُ، ولم يقبل الاحتجابَ والاستتارَ أصلاً، وتجلَّى الحقُّ سبحانَهُ بلا حُجُبِ الأسماء والصِّفات والشُّؤون والاعتبارات دائماً؛ كان حضوراً بلا غيبةٍ، فينبغي أن يُعْلَمَ تفاوتُ ما بين نسبةِ هؤلاء الأكابر ونِسَبِ الآخرين بهذا القياس، وأن يعتقِدَها فوق الكلِّ بلا تحاشٍ، وهذا القسمُ من الحضور وإن كان مُسْتَبْعَداً عند أكثر النَّاس، ولكنْ لا بُعْدَ فيها عند أربابها: (شعر)

هَنِيئـاً لِأَرْبَابِ النَّعِيمِ نَعِيمُهَا ... وَلِلْعَاشِقِ الْمِسْكِينِ مَا يَتَجَرَّعُ

وقد عرضتْ لهذه النِّسبة غرابةٌ على نَهْجٍ لو حَكَيْتُها فرضاً عند أرباب هذه السِّلسلة العظيمة الشَّأن؛ يحتمل أن يكون أكثرُهم في مقام الإنكار ولا يُصَدِّقُوها، والنِّسبةُ التي كانتْ متعارفةً الآن عند أرباب هذه السِّلسلة عبارةٌ عن حضور الحقّ سبحانه وشهودِهِ تعالى على وجهٍ يكون منزَّهاً عن وصف الشَّاهديَّة والمشهوديَّة، وعن التَّوجُّه المعرى عن الجهات السِّتِّ المتعارفة، وإنّ تُوُهِّمَتْ جهةُ الفوق وظُنَّ دوامُها بحسب الظَّاهر.

وهذه النِّسبةُ - يعني: المذكورةَ المتعارفةَ الآن - تتحقَّقُ أيضاً في مقام الجذبة فقط، ولا يظهرُ وجهُ كونها فائقةً نسبَ سائر الطُّرُق، بخلاف (ياد داشت) بالمعنى السَّابق، فإنَّ حصولَها إنَّما هو بعد تمام جهة الجذبة ومقامات السُّلوك، وعُلُوُّ درجتها لا يخفى على أحدٍ، فإن كان خفاءٌ؛ فإنَّما هو في حصولها فقط، فإن أَنْكَرَ حاسدٌ بسبب حسده وجَحَدَ ناقصٌ لنقصانه؛ فهو معذورٌ: (شعر)

إِنْ عَابَهُمْ قَاصِرٌ طَعْناً بِهِمْ سَفَهاً ... بَرِئَتْ سَاحَتُهُمْ مِنْ أَفْحَشِ الْكَلِمِ

هَلْ يَقْطَعُ الثَّعْلَبُ الْمُخْتَالُ سِلْسِلَةً ... قُيِّدَتْ بِهَا أُسْدُ الدُّنْيَا بِأَسْرِهِمِ

والسَّلامُ أَوَّلاً وآخراً.

المَكتُوبُ الثَّامِنُ وَالعِشْرُونَ

أرسِلَ أيضاً إلى خواجه عمك في بيان علوِّ الحالِ، لكن بعِبارةٍ موهمةٍ للتَّنزُّل والتَّباعد.

قد ابتهجتُ بورود مكتوبكم المُرْسَل إلى هذا المُخْلِص على وجه الكَرَم، وتشرَّفتُ بمطالعته، فما أعظمَ نعمةَ تَذَكُّر الأحرار المأسورين، وما أجلَّ دولة اهتمام الواصلين بحال المهجورين،.....................................

والمهجورُ العاجزُ لَمّا لم يَجِدْ نفسَه أهلاً للوصال؛ اختارَ الخمولةَ في زاوية الهجران بالضّرورة، وهرب من القُرْب، واطمأنَّ بالبُعْد، وسكن إلى الانفصال عن الاتِّصال، ولَمَّا رأى أَسْراً في اختيار الحريّة؛ اختارَ الأسرَ بالممنونيَّة: (شعر)

چـون طمـع خواهد زمن سـلطانِ دين | خـاک بـر فـرقِ قـنـاعـت بـعـد از ايـن

يعني: إِذَا مَــا أَرَادَ الطَّمَــعُ مِنِّــي مَــالِكِي | لَقُلْــتُ: عَلَــى رَأْسِ الْقَنَاعَــةِ أَحْجَــارُ

وبماذا أُصَدِّعُكم بأزيدَ من ذلك بعباراتٍ غيرِ مرتبطةٍ، وإشاراتٍ غيرِ منتظمةٍ؟ ثبَّتنا اللهُ تعالى وإيَّاكم على متابعة سيِّد المرسلين، عليه وعلى آله من الصَّلوات أفضلُها، ومن التَّسليمات أكملُها.

المَكْتُوبُ التَّاسِعُ وَالعِشْرُونَ

صدر إلى الشَّيخ نظامِ الدِّين التَّهانيسَريِّ في التَّرغيب في أداء الفرائض، ورعايَة السُّنن والآداب، وعدمِ المبالاةِ في أداءِ النَّافلة في جنب الفرائِض، والمنعِ عن أداءِ العشاءِ في النِّصفِ الأخيرِ منَ اللَّيل، والمنعِ عَن تَجويزِ شُربِ الماءِ المستعملِ في الوضوءِ، والمَنعِ عَن تجويز سَجدَة المُريدينَ - يعني: لشَيخِهم أو غَيرِه -.

عَصَمَنا اللهُ سبحانه وإيَّاكم عن التَّعصُّب والتَّعسُّف، ونجّانا وإيَّاكم عن التَّلهُّف والتَّأسُّف، بحرمة سيِّد البشر، المنفيّ عنه زَيْغُ البَصَر، عليه وعلى آله من الصَّلوات أتمُّها، ومن التَّسليمات أكملُها.

واعلم أنَّ مُقَرِّبات الأعمال: إمَّا فرائضُ، وإما نوافلُ، فالنَّوافلُ لا اعتبارَ لها في جَنْب الفرائض أصلاً، فإنَّ أداءَ فرضٍ من الفرائض في وقتٍ من الأوقات أفضلُ من أداء النَّوافل ألفَ سنةٍ، وإن أُدِّيَتْ بنيةٍ خالصةٍ، أيَّ نفلٍ كان من الصَّلاة والصَّوم والذِّكْر والفكر وأمثال ذلك، بل أقولُ: إنَّ رعايةَ سُنَّةٍ من السُّنَن وأدبٍ من الآداب حين أداء الفرائض لها ذلك[1] الحكمُ أيضاً، نُقِلَ أنَّ سيدنا عمرَ ﵁ صلَّى يوماً صلاةَ الصُّبح بجماعةٍ، ثم نظر إلى القوم وتفقَّدهم، فلم يَرَ فيهم شخصاً من أصحابه، فقال: أَلَمْ يحضر فلان[2] الجماعةَ؟ فقيل: إنَّه يسهرُ أكثرَ اللَّيل، فيحتمل أن يكون قد غلبه النَّومُ في هذا الوقت، فقال: لو نام تمامَ اللَّيل وصلّى صلاةَ الصُّبْح مع الجماعة؛ لكان أَوْلى وأفضلَ، فرعايةُ الأَوْلى والاجتنابُ عن المكروه - وإن كان تنزيهيّاً - أَوْلى من الذِّكْر والفِكْر والمراقبة والتَّوجُّه بمراتبَ كثيرةٍ، فكيف إذا كان المكروهُ تحريميّاً؟ نعم، إنْ جَمَعَ هذه الأمورَ مع هذه الرِّعاية والاجتناب؛ فقد فاز فوزاً عظيماً، وبدونه خَرْطُ القَتَاد، فكما أنَّ تصدُّقَ دَانِقٍ مثلاً في حساب الزَّكاة أفضلُ من تصدُّق مقدارِ جبالٍ عظامٍ من ذهبٍ بطريق النَّفل بمراتبَ؛ كذلك رعايةُ أدبٍ في تصدُّق ذلك الدَّانق -كأنْ يُعْطِيَه إلى فقيرٍ مستحقٍّ- أفضلُ منه أيضاً بمراتب، فتأخيرُ صلاة العشاء إلى النِّصْف الأخير من اللَّيْل، وجعلُ ذلك التَّأخير وسيلةً إلى قيام اللَّيْل مُسْتَنْكَرٌ جدّاً، فإنَّ أداءَ العشاء في ذلك الوقت مكروهٌ عند علماء الحنفيَّة ﵏، والظَّاهرُ أنَّهم أرادوا بهذه الكراهة: الكراهةَ التَّحريميَّةَ، فإنَّهم أباحوا أداءَ العشاء إلى نصف اللَّيْل، وبعد نصف اللَّيْل قالوا بكراهته، والمكروهُ المقابلُ للمباح مكروهٌ تحريميٌّ، وعند الشَّافعيَّة: لا يجوز في ذلك الوقت أداءُ العشاء رأساً، فارتكابُ هذا الأمر بواسطة قيام اللَّيْل..

(١) يعني: رعاية سنةٍ أو أدبٍ وقت أداء الفرائض تزيد وتفضل على أداء النفل بكذا مرَّةٍ. (المعرِّب)

(٢) كذا في النسخ، ولعل الصواب (فلاناً).

وحصول الأذواق والجمعيَّة في ذلك الوقت مستكرهٌ جدّاً، ويكفي لهذا الغرض تأخيرُ الوِتْر أيضـًا، وذلك التَّأخيرُ مستحبٌّ، فيؤدَّى الوترُ في وقتٍ مستحبٍّ، ويتيسَّرُ الغرضُ من قيام اللَّيْل والسَّهَر، فينبغي تركُ هذا العمل وقضاءُ الصَّلوات الفائتة، فإنَّ الإمامَ الأعظمَ أبا حنيفة الكوفيَّ رضي الله تعالى عنه قضى صلاةَ أربعين سنةٍ بواسطة تركِ أدبٍ من آداب الوضوء.

وأيضـًا لا يجوز شربُ الماء المستعمل لإزالة الحدث أو بنيَّة القربة، فإنَّ ذلك الماءَ نجسٌ مغلَّظٌ عند الإمام الأعظم، ومنع الفقهاءُ من شرب ذلك الماء، وكرهوه. نعم، قالوا: إنَّ شربَ بقيَّة الوضوء شفاءٌ، فإن طلب شخصٌ ذلك بالاعتقاد الصَّحيح؛ فأعطِ من ذلك، وقد وقع للفقير مثلُ هذا الابتلاء في دهلي في هذه النَّوبة بسبب أنَّ بعض الأصحاب قد رأى في الواقعة أنَّه ينبغي أن يشرب الماءَ المستعملَ في وضوء هذا الفقير، وإلا؛ يلحقُهُ ضررٌ عظيمٌ، وكلَّما دفعتُهُ لم ينفعْ ولم يمتنعْ، فراجعتُ الكتبَ الفقهيَّةَ، فوجدتُ مَخْلَصـًا من ذلك، حيث قالوا: إنَّ المتوضِّئَ لو لم يَنْوِ القربةَ بعد تثليث الغسل؛ لا يكون الماءُ مستعملاً في المرتبة الرَّابعة، فكنتُ أعطيه ما أَغْسِلُ به في المرتبة الرَّابعة بلا نيَّة القربة ليشربَهُ؛ تجويزاً له بهذه الحيلة.

وأيضـًا قد نَقَلَ رجلٌ معتمدٌ: أنَّ مريدي بعض خلفائكم يسجدون له، ولا يكتفون بتقبيل الأرض، وشناعةُ هذا الفعل أظهرُ من الشَّمس، فامنعوه من ذلك بالتَّأكيد، فإنَّ الاجتنابَ من أمثال هذا الفعل مطلوبٌ من كلِّ أحدٍ، خصوصـًا ممن تَصَدَّى لاقتداء الخلق به، فإنَّ الاجتنابَ له من أمثال هذا الفعل من أشدِّ الضَّروريَّات؛ لأنَّ المقلِّدين يقتدون به في أعماله، فيقعون في بلاءٍ وابتلاءٍ. وأيضـًا إنَّ علومَ هذه الطَّائفة علومُ الأحوال، والأحوالُ مواريثُ الأعمال، فيكون الميراثُ من علوم الأحوال لشخصٍ قد صحَّح الأعمالَ، وقام بحقِّها في كلِّ حالٍ، وتصحيحُ الأعمال إنَّما يتيسَّرُ إذا عَرَفَ الأعمالَ، وعَلِمَ كيفيَّةَ كلٍّ منها بلا إهمالٍ، وذلك عِلْمُ أحكام الشَّرْع من الصَّلاة والصَّوْم وسائر الفرائض، وعلمُ المعاملات كالنِّكاح والطَّلاق والمبايعات، وعلمُ كلِّ شيءٍ أوجبه الحقُّ سبحانه على المكلَّف، ودعاه إليه، وهذه العلومُ اكتسابيَّةٌ لا بدَّ من تعلُّمها لكلِّ أحدٍ، والعلمُ بين المجاهدتين: إحداهما: في طلبه قبل حصوله، وثانيتهما: المجاهدةُ في استعماله بعد حصوله، فكما أنَّه يُذْكَرُ في مجلسه الشَّريف من كتب التَّصوُّف؛ كذلك ينبغي أن يُذْكَرَ فيه من الكتب الفقهيَّة، والكتبُ الفقهيَّةُ بالعبارة الفارسيَّة كثيرةٌ، مثلُ: «مجموعة خاني»، و«عمدة الإسلام»، و«الكنز الفارسيّ»، بل لا ضَرَرَ أصلاً إن لم يذكر من كتب التَّصوُّف، فإنَّه يتعلَّقُ بالأحوال لا دَخْلَ له في القال، وعدمُ مذاكرة الكتب الفقهيَّة محتملٌ للضَّرر. وزيادةُ الإطناب موجبةٌ للملال، القليلُ يدلُّ على الكثير: (شعر)

وَبَثَثْتُ عِنْدَكَ مِنْ خَفِيِّ ضَمَائِرٍ ... نَبْذاً، وَخِفْتُ سَآمَةً مِنْ كَثْرَةِ

رزقنا اللهُ سبحانه وإيَّاكم كمالَ متابعة حبيبه صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم.

المكتوب الثلاثون

في بيان الشُّهودِ الآفاقيِّ والأنفسيِّ، وفرقِ ما بين الشُّهود الأنفسيِّ والتَّجلِّي الصُّوريِّ، وبيان علوِّ شأن مقام العبوديَّة، ومطابقةِ عُلوم ذلك المقامِ بالعلومِ الشَّرعيَّة، وما يناسب ذلك.

قال الملا محمد صِدِّيق من جملة خَدَمته المتقدِّمين: إنَّ هذا الْمَكْتُوب أَيْضـًا أُرْسِلَ إلى الشَّيْخ نظام الدين التهانيسريّ.

شرَّفكم اللهُ بكمال الاتِّباع المحمديِّ، وزيَّنكم بزيِّ النبيِّ المصطفويِّ، عليه وعلى آله من الصَّلوات............

أفضلُها، ومن التَّحيَّات أكملُها. ما أدري ماذا أكتبُ؟ فإن تكلّمتُ من جناب قُدْسِ مولاي تعالى وتقدّس يكون كَذِباً صريحاً، وافتراءً محضاً، فإنَّ جنابَ كبريائه أجلُّ من أن يتكلّمَ فيه مثلي، فإنَّ المكتنفَ بالكيف كيف يقولُ ويتكلّمُ ممن تَنَزَّه عن الكَيْف؟ وماذا يريد؟ وأيُّ شيءٍ يُدْرِكُ المحدثُ من القديم؟ وإلى متى يجري المكانِيُّ، ويعدو في اللا مكانِيِّ؟ مسكينٌ، لا خَبَرَ له عما في خارج نفسه، ولا ممرَّ له فيما وراءه: (شعر)

گـر چـه عمـرى تگ زنـد، در خـود بـوَد ... ذرّه گـر بـس نيـک، وَرْ بـس بـد بـوَد

يعني: وَلَـوْ سَـعَـتْ ذَرَّةٌ فِـي عُـمْرِهَـا طَـلَـبـاً ... خَيْراً وَشَـرّاً تَـنَـلْ فِـي نَفْسِـهَـا اكْـتَـمَـنَـا

وهذا المعنى أيضاً يتيسَّرُ في السَّيْر الأنفسيِّ الذي يتيسَّرُ في نهاية الأمر، قال الخواجه بهاء الدين النَّقشبند قدِّس سرُّه: إنَّ أهلَ الله كلّما يرون بعد الفناء والبقاء يرونه في أنفسهم، وكلّما يعرفونه يعرفونه في أنفسهم، وحِيرتُهم إنَّما تكون في وجودهم، ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، وكلُّ سَيْرٍ قبل ذلك داخلٌ في السَّير الآفاقيِّ الذي حاصلُهُ مما لا حاصلَ فيه، وإطلاقُ لفظِ (لا حاصل) إنَّما هو بالنِّسبة إلى أصل المطلب، وإلا؛ فهو أيضاً من جملة الشَّرائط والمعدَّات. ولا يتوهَّمنَّ أحدٌ من الشُّهود الأنفسيِّ أنَّه مثلُ التَّجلّي الصُّوريّ الذي في نفس المتجلّي له، ولا يتخيَّلْ ذلك، حاشا وكلا، فإنَّ التَّجلّيَ الصوريَّ داخلٌ في السَّيْر الآفاقيِّ بجميع أقسامه، وحاصلٌ في مرتبة علم اليقين، والشُّهودَ الأنفسيَّ كائنٌ في مرتبة حقِّ اليقين الذي هو نهايةُ مراتب الكمال، وإطلاقُ لفظ الشُّهود في هذا المقام من ضِيقِ ميدان العبارة، وإلا؛ فكما أنَّ مطلبَهم منزَّهٌ عن الكيف والكيفيَّة؛ كذلك نِسبتُهم إلى ذلك المطلب منزَّهةٌ عن الكيف والكيفيَّة، فإنَّه لا سبيلَ للمتكيِّف إلى المنزَّه عن الكيف، قال في «المثنوي»: (شعر)

هسـت رب النـاس رابـا جـان نـاس ... اتصـالي بـي تـكـيـف بـي قـيـاس

ليـك كفـتم نـاس را نسـنـاس نـه ... نـاس غير ازجـان جـان اسنـاس نـه

يعني: إِنَّ لِـلـرَّحْـمَـنِ مَـعَ أَرْوَاحِ نَـاسٍ ... اتِّصَـالاً دُونَ كَـيْـفٍ وَقِـيَـاسِ

قُلْـتُ: نَـاسـاً دُونَ نَسْـنَـاسِ الْفَلَا ... لَـيْـسَ نَـاسٌ غَـيْـرُ رُوحٍ فِـي الْـمَـلَا

ومنشأُ توهُّم اتِّحاد الشُّهود الأنفسيِّ بالتَّجلّي الصُّوريِّ المذكور: هو حصولُ بقاء شخصٍ في كِلَا المقامين، فإنَّ التَّجلّيَ الصُّوريَّ ليس بمُفْنٍ، يعني: للمتجلّي له، وهو وإن رَفَعَ قيداً من القيود، ولكنَّه لا يُوصِلُ إلى حدِّ الفناء، ففيه بقيَّةٌ من وجود السَّالك، والسَّيْرُ الأنفسيُّ إنَّما هو بعد الفناء الأتمِّ، والبقاء الأكمل، فلا جَرَمَ يَصْعُبُ تفرقةُ ما بين هذين البقاءين لقلَّة المعرفة، فيحكمون بالاتِّحاد بالضَّرورة، فإنْ عَلِمُوا أنَّ البقاءَ الثَّانِيَ معبَّرٌ عندهم بالبقاء بالله، وأنَّ ذلك الوجودَ يقال له: الوجودُ الموهوبُ الحقانِيُّ؛ فعسى أن يتخلَّصوا من ذلك التَّوهُّم.

ولا يقال هنا: إنَّ البقاءَ بالله عبارةٌ عن وجدان السَّالك نفسَه عينَ الحقِّ تعالى وتقدَّس، فإنَّ الأمرَ ليس كذلك، فإن استُفِيدَ هذا المعنى من بعض عبارات القوم؛ أجيبَ عن ذلك: إنَّ هذا البقاءَ يتيسَّرُ للبعض في مقام الجذبة بعد الاستهلاك والاضمحلال المتشابه[1] بالفناء، وأكابرُ النقشبنديَّة يعبِّرون..

(١) كذا في النسخ، ولعل الصواب (المشابه).

عن ذلك بوجود العدم، وهذا قبل حصول الفناء، ويُتصوَّرُ له الزَّوالُ، بل هو واقعٌ، فإنَّه ربَّما يُؤخذُ السَّالكُ عن نفسه ويغيبُ، ثم يرجع إلى نفسه أحيانـًا، يعني: ترتفع عنه الصِّفاتُ البشريَّةُ، ثم يُعْطاها ثانيـًا، والبقاءُ الذي بعد الفناء الأتمّ مصونٌ عن الزَّوال، ومحفوظٌ من الخَلَل، وفناءُ أرباب هذا البقاء فناءٌ دائميٌّ، فهم فانون في عين البقاء، وباقون في عين الفناء، فإنَّ الفناءَ والبقاءَ اللَّذين يتطرَّقُ إليهما الزَّوالُ من جملة تلوينات الأوقات والأحوال، ولا كذلك فيما نحن بصدد بيانه، قال الخواجه بهاء الدين النَّقشبند قدِّس سرُّه: إنَّ وجودَ العدم يعودُ إلى وجود البشريَّة، وأما وجودُ الفناء؛ فلا يعود إلى وجود البشريَّة، فلا جَرَمَ يكون وقتُهم دائميـًا، وحالُهم سرمديّـًا ألبتّة، بل لا وقتَ لهم ولا حالَ، شغلُهم مع مؤقِّتِ الأوقات، ومعامَلَتُهم مع محوِّل الأحوال، فصار قبولُ الزَّوال مخصوصـًا بالوقت والحال، ومن تخلَّصَ عن الوقت والحال؛ فقد صار ما يَعْرِضُ له محفوظـًا من الزَّوال، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَآءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

ولا يزعم الزَّاعمُ أنَّ إطلاقَهم دوامَ الوقت وقولَهم به إنَّما هو باعتبارِ بقاءِ أثر ذلك الوقت ودوامِه من التَّعيُّن وغيره، فإنَّ الأمرَ ليس كذلك، بل الدَّوامُ لنفس الوقت، والاستمرارُ لعين الحال، ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ الْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٨] بل نقول: إنَّ بعض الظنِّ إثمٌ.

قد طال الكلامُ، فلنرجعْ إلى أصل المرام ونقول: إذا لم يكن في فضاء قُدْسه تعالى مجالٌ للكلام؛ فلنتكلَّمْ في مقام عبوديتنا وذُلِّنا وانكسارنا: إنَّ المقصودَ من الخِلْقَة الإنسانيَّة إنَّما هو أداءُ وظائف العبوديَّة، ومن أُعْطِيَ العِشْقَ والمحبَّةَ في الوسط والابتداء؛ فالمقصودُ منه: قطعُ التَّعلُّق من غير جناب قدسه جلَّ شأنه، وليس العشقُ والمحبَّةُ من المقاصد، بل هو لحصول مقام العبوديَّة، فإنَّ السَّالكَ إنَّما يكون عبداً لله تعالى إذا تخلَّصَ عن أَسْرِ غيره تعالى وعبوديَّته بالتَّمام، وليس فائدةُ العشق سوى أن يكون وسيلةَ الانقطاع عن غيره سبحانه، ولهذا كانتْ نهايةُ مراتب الولاية مقامَ العبديَّة، وليس في درجات الولاية مقامٌ فوق مقام العبديَّة، ولا يَجِدُ السَّالكُ في هذا المقام مناسبةً بينه وبين مولاه تعالى إلا الاحتياجَ من جانبه، والاستغناءَ الأتمَّ ذاتـًا وصفةً من جانب المولى تعالى وتقدَّس، لا أنَّه يجد ذاته مناسبـًا لذاته، وصفاتِه لصفاته، وأفعالَه لأفعاله عزَّ سلطانه، ولو بوجهٍ من الوجوه، حتى إنَّه يتنزَّهُ ويتبرَّأُ عن إطلاق الظِّلِّيَّة؛ لكونها من جملة المناسبات، بل يعتقد أنَّه سبحانه خالقَهُ، وهو مخلوقٌ له تعالى، ولا يجترئُ بغير ذلك بشيءٍ، والتَّوحيدُ الفعليُّ الذي يظهر لجمعٍ في أثناء الطَّريق بأن لا يجدوا فاعلاً غيرَ الحقّ سبحانه، يقول هؤلاء الأكابر ويعتقدون أنَّ خالقَ هذه الأفعال واحدٌ، لا أنَّ مباشِرَها واحدٌ، فإنَّ هذا الكلامَ يكاد يُوصِلُ قائلَهُ إلى الزَّندقة.

ولنوضِّحْ ذلك بمثالٍ، وهو أنَّ العارفَ بالشَّعبذة إذا قعد وراء الحجاب، وحرَّك بشعبذته صورَ جماداتٍ متعدِّدةٍ، وأظهر منها أفعالاً عجيبةً غريبةً؛ فالذّين فيهم حِدَّةُ البصر يعرفون أنَّ جاعلَ هذه الأفعال في تلك الصُّور هو ذلك الشَّخصُ القاعدُ وراء الحجاب، ولكنَّ مباشرَ هذه الأفعال هو هذه الصُّورُ، ولهذا يقال: إنَّ الصُّورةَ متحرّكةٌ، دون أن يقال: إنَّ صاحبَ الشَّعبذة متحرِّكٌ، وهم مُحِقُّون في ذلك الحكم في نفس الأمر، وشرائعُ الأنبياء ناطقةٌ بذلك، والحكمُ بوحدة الفاعل من جملة السُّكريات، بل الحقُّ الصَّريحُ: أنَّ الفاعلَ متعدِّدٌ، وخالقَ الأفعال واحدٌ، وهكذا العلومُ التي بيَّنوها في توحيد الوجود مبناها على السُّكر وغَلَبَة الحال، وعلامةُ صحَّة العلوم اللَّدنيَّة: مطابقَتُها لصريح العلوم الشَّرعيَّة، فإن جاوَزَها مقدارَ شعرةٍ وخالَفَها في مثقال ذرَّةٍ؛ فهو من السُّكر، ....

والحقُّ ما حقَّقه العلماءُ من أهل السنَّة والجماعة، وما سوى ذلك - يعني: مما يخالفه-: إمَّا زندقةٌ وإلحادٌ، أو سكرُ وقتٍ وغلبةُ حالٍ مفضيةٌ إلى القول بالاتِّحاد، وهذه المطابقةُ على وجه الكمال والتَّمام إنَّما تتيسَّرُ في مقام العبديَّة، وفيما وراء ذلك يتحقَّقُ فيه نحوٌ من السُّكر: (ع) فَيَا لَهَا قِصَّـــةً فِي شَـرْحِهَا طُولُ

سُئِلَ الخواجه بهاء الدين قدِّس سرُّه: أنَّه ما المقصودُ من السُّلوك؟ فقال: لتصير المعرفةُ الإجماليَّةُ تفصيليَّةً، والاستدلاليَّةُ كشفيَّةً ضروريَّةً، ولم يقل: ليحصل معرفةٌ زائدةٌ على معارف شرعيَّة، وإن حصل في الطَّريق أمورٌ زائدةٌ، لكن إذا بلغ الأمرُ نهايتَه؛ تكون تلك الأمورُ هباءً منثوراً، وتصير المعارفُ الشَّرعيَّةُ معلومةً على وجه التَّفصيل، وتَخْرُجُ من مضيق الاستدلال إلى فضاء إطلاق الكَشْف، يعني: كما أنَّ النبيَّ ﷺ كان يأخذُ هذه العلومَ من الوحي؛ كذلك هؤلاء الأكابرُ يأخذونها بطريق الإلهام من الأصل، والعلماءُ بيَّنوا هذه العلومَ أخذاً لها من الدَّلائل الشَّرعيَّة بطريق الإجمال، فكما أنَّ هذه العلومَ كانت حاصلةً للأنبياء عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ تفصيلاً؛ كذلك تكون تلك العلومُ حاصلةً لهم كشفاً على هذا النَّهج، والأصالةُ والتَّبعيَّةُ قائمتان في البَيْن، وإنَّما يُنتخبُ لمثل هذا القسم من الكمال بعضٌ من كُمَّل الأولياء بعد قرونٍ متطاولةٍ، وأزمنةٍ متباعدةٍ. وقد كان في الخاطر أن أكتب مسألةً إجماليَّةً واستدلاليَّةً على وجه التَّفصيل، لكن تمَّت الصَّحيفةُ، ولم يَبْقَ محلٌّ لكتابتها، ولعلَّ في ذلك حكمةُ الحقّ سبحانه وتعالى، والسَّلام.

المَكْتُوبُ الحَادِي وَالثَّلَاثُونَ

في بيان ظهورِ حقيقةِ التَّوحيدِ الوجوديِّ، وقربِه تعالى ومعيَّته الذَّاتيَّين، ومجاوزَة ذلك المقامِ، مع بعض الأسئلة والأجوبة المتعلِّقة بهذا المقامِ، أرسلَه إلى الشَّيخِ صوفي.

ثبَّتنا اللهُ سبحانه وتعالى على متابعة سيّد المرسلين، عليه وعلى آله وعليهم من الصَّلوات أفضلُها، ومن التَّسليمات أكملُها.

قد نَقَلَ مَنْ كان في مجلسكم الشَّريف: أنَّ شخصاً من مريدي الشيخ ميان نظام الدين التهانيسريِّ ذكر هذا الفقيرَ، وقال: إنَّه يُنكِرُ وحدةَ الوجود، والتمسَ ناقلُ هذا الكلام من هذا الفقير أن أكتبَ إلى خُدَّامكم ما هو الحقيقةُ في هذا الباب؛ لئلا يقع النَّاسُ من هذا الكلام في سوء الظَّنِّ، فإنَّ بعضَ الظنِّ إثمٌ، فتجرَّأتُ على تصديعكم بكلماتٍ؛ إجابةً لمسؤوله.

أيُّها المخدومُ المكرَّمُ، إنَّ معتقدَ الفقير من الصِّغَر كان مشربَ أهل التَّوحيد، يعني: توحيدَ الوجود، وكان والدُ الفقير قدِّس سرُّه في ذلك المشرب بحسب الظَّاهر، وكان مشغولاً بهذا الطَّريق على سبيل الدَّوام، مع وجود حصول التَّوجُّه التَّامِّ بحسب الباطن إلى جانب المرتبة اللا كيفيَّة، وبحكم (ابن الفقيه نصف فقيه) كان للفقير أيضاً حظٌّ وافرٌ من هذا المشرب بحسب العلم، وحصلتْ لي منه لذَّةٌ عظيمةٌ، إلى أن أَوْصَلَني اللهُ - بمحض كرمه - إلى جناب حضرة معدن الإرشاد، مظهرِ الحقائق والمعارف، مؤيِّدِ الدين الرضيّ، شيخِنا ومولانا وقبلتِنا محمد الباقي قدَّسنا الله تعالى بسرّه، فعلم الفقيرُ الطَّريقةَ النَّقشبنديَّةَ، وبذل التَّوجُّهَ البليغَ في حقّ هذا المسكين، فانكشف التَّوحيدُ الوجوديُّ في مدَّةٍ يسيرةٍ بعد ممارسة هذه الطَّريقة العليَّة، وعرض لي غُلُوٌّ في هذا الكَشْف، وظهر شيءٌ وافرٌ من علوم هذا المقام ومعارفه، ولم تَبْقَ دقيقةٌ من دقائق هذه المرتبة غيرَ منكشفةٍ، ولاحَتْ دقائقُ علوم الشَّيخ محيي الدين ابن العربيّ ومعارفُه، وشُرِّفْتُ بالتجلّي الذاتيِّ الذي بيَّنه صاحبُ «الفصوص»، واعتقدَ أنَّه نهايةُ العروج، وقال في حقِّه: وما بَعْدَ هذا إلا العدمُ المحضُ، وحصل.........................

لي علومُ ذلك التَّجلِّي ومعارفُه التي قال الشيخُ محيي الدين ابن العربي: إنَّها مخصوصةٌ بخاتم الولاية بالتَّفصيل، وبلغ سُكْرُ الوقت وغلبةُ الحال في هذا التَّوحيد حدّاً كتبتُ إلى حضرة الخواجه -يعني: شيخه- في بعض العرائض هذين البيتين المملوأين بألفاظ السُّكر:

(شعر) اى دريغا كين شريعت ملّت اَعمايى است — ملّتِ ما كافرى و ملّت ترسايى است

كفر و ايمان زلف و روى آن پرى زيبايى است — كفر و ايمان هر دو اندر راه ما يكتايى است

يعني: أَلَا إِنَّ هَـذَا الشَّـرْعَ مِـلَّـةُ مَنْ عَـمِـي — وَمِـلَّـتُـنَـا كُـفْـرٌ وَمِـلَّـةُ جَـاحِـدِ

ذَوَائِـبُ مَـنْ أَهْـوَاهُ كُـفْـرٌ وَوَجْـهُ انْـ — ـقِيَادِهِمَا عِنْدِي عَلَى حَدٍّ وَاحِدِ

وامتدَّ هذا الحالُ إلى مدَّةٍ مديدةٍ، وانجرَّ الأمرُ من الشُّهور إلى سنين عديدةٍ، ثم برزتْ عنايةُ الحقِّ سبحانه التي لا غايةَ لها من كُوَّة الغيب، وجاءتْ إلى عرصة الظُّهور، وانسدل نقابُ اللا كيفيّ واللا كيفيَّة على وجه المطلوب المذكور، وتوجَّهتِ العلومُ السَّابقةُ التي كانت منبئةً عن الاتِّحاد ووحدة الوجود نحوَ الزَّوال والفتور، واستترتِ الإحاطةُ والسَّرَيَانُ والقُرْبُ والمعيَّةُ الذَّاتياتُ التي كانت منكشفةً في ذلك المقام المسطور، وصار معلوماً بيقينٍ يقينٍ أنَّ هذه النِّسبَ المذكورةَ ليست بثابتةٍ للصَّانع جلَّ شأنُه مع العالم، بل إحاطتُه وقربُه تعالى بحسب العلم كما هو مقرَّرٌ عند أهل الحقّ شكر الله سَعْيَهم، وهو تعالى ليس بمتَّحدٍ بشيءٍ من الأشياء، هو هو تعالى وتقدَّس، والعالَمُ عالمٌ، وهو تعالى منزَّهٌ عن الكيف والكيفيَّات، والعالمُ متَّسمٌ بمَيْسَم الكيف من الفَرْق إلى القدم، ولا يمكن أن يقال: إنَّ المنزَّهَ عن الكيف عينُ المكيّف بالكيف، وإنَّ الواجبَ عينُ الممكن، ولا يكون القديمُ عينَ الحادث، وممتنعُ العدم عينَ جائز العدم أصلاً، فإنَّ انقلابَ الحقائق محالٌ عقلاً وشرعاً، وصحَّةُ حَمْلِ أحدهما على الآخر مفقودةٌ؛ لكونه ممتنعاً أصلاً ورأساً، والعجبُ من الشَّيخ محيي الدين وتابعيه حيث يقولون لذات الواجب: مجهولةٌ مطلقةٌ، وإنَّها ليستْ بمحكومةٍ بحكمٍ من الأحكام قطعاً، ومع ذلك يُثْبِتُون الإحاطةَ والقربَ والمعيَّةَ الذاتيَّات، وما هذا إلا حكمٌ على الذَّات تعالت وتقدست، فالصَّوابُ ما قاله العلماءُ من القرب والإحاطة العلميين.

وكان للفقير اضطرابٌ تامٌّ وقت حصول العلوم والمعارف المنافية لمشرب التَّوحيد الوجوديّ؛ لظَنِّي بأنْ ليس وراء هذا التَّوحيد أمرٌ آخرُ عالٍ، وكنت أدعو الله سبحانه وتعالى بالتضرُّع والانكسار أن لا يزيلَ اللهُ سبحانه عنِّي هذه المعرفةَ - يعني: معرفةَ التوحيد الوجوديّ -، إلى أن ارتفعت الحجبُ عن وجه الأمر بالتَّمام، وانكشف حقيقةُ الحال، وجلية المرام كما يقتضيه المقامُ، وصار معلوماً أنَّ العالَمَ وإن كان مرايا للكمالات الصِّفاتيَّة ومجالي للظُّهورات الأسمائيّة، ولكنَّ المظهرَ ليس عينَ الظَّاهر، والظِّلَّ ليس نفسَ الأصل كما هو مذهبُ أهل التَّوحيد الوجوديّ.

ولنوضّح هذا المبحث بمثالٍ، وهو أنَّ عالماً ذا فنونٍ أراد أن يخرج كمالاته المتنوِّعة إلى عرصة الظهور، وأن يُورِدَ خفاياها المستحسنة في معرض الإيضاح لأهل الشعور، فأوجد الحروف والأصوات، يعني: بالتكلّم، وأظهر كمالاته المخفية في مرايا تلك الحروف والأصوات، ففي هذه الصورة لا يقال: إنَّ هذه الحروفَ والأصواتِ التي كانت مجالي ومرايا لتلك الكمالات إنَّها عينُ تلك الكمالات، أو محيطةٌ بتلك الكمالات بالذات، أو قريبةٌ منها كذلك بالذات، أو لها معيّةٌ بها كذلك، بل بينهما نسبةُ الداليَّة والمدلوليَّة فقط، وليس لتلك..............................

الحروف والأصوات نصيبٌ ووظيفةٌ سوى الدلالة على تلك الكمالات، وأما تلك الكمالاتُ؛ فعلى صرافة إطلاقها، وتلك النسبةُ التي ظهرت إنَّما هي في الأوهام والخيالات، وإلا؛ فلا شيءَ منها ثابتٌ في الحقيقة، ولكن لما تحقَّقت بين تلك الكمالات والحروف والأصوات مناسبةُ الظاهريَّة والمظهريَّة والداليَّة والمدلوليَّة؛ صارتْ هذه المناسبةُ باعثةً على توهُّم حصول تلك النِّسَب الوهميَّة للبعض بواسطة بعض العوارض، وإلا؛ فتلك الكمالاتُ مُعْرَاةٌ ومبرَّأةٌ عن جميع النِّسَب في نفس الأمر، وفيما نحن فيه لا شيء سوى علاقة الداليَّة والمدلوليَّة والظاهريَّة والمظهريَّة أيضـًا، فإنَّ العالَمَ عَلَمٌ لصانعه تعالى وتقدَّس، ومظهرٌ لظهور كمالاته الأسمائيَّة والصفاتيَّة، وهذه العلاقةُ ربَّما تكون باعثةً على إثبات بعض الأحكام الوهميَّة بالنِّسبة إلى البعض بواسطة بعض العوارض، وقد يورِدُ البعضَ إلى هذا المورد - يعني: مورد إثبات هذه الأحكام - كثرةُ مراقبة التَّوحيد والأحديَّة؛ لانتقاش صورة تلك المراقبات في القوَّة المتخيِّلة، ويورث البعضَ نحواً من ذَوْق هذه الأحكام ممارسةُ علم التَّوحيد وتكرارُه، وهذان القسمان من التَّوحيد - يعني: الوجوديّ - معلولان وداخلان في دائرة العلم، لا مساسَ لهما بالحال، ويكون منشأُ توهُّم هذه الأحكام في البعض الآخر غلبةَ المحبَّة، فإنَّه كثيراً ما يستترُ عن نظر المحبّ غيرُ محبوبه بواسطة استيلاء حبّ محبوبه عليه، فلا يرى غيرَ محبوبه، لا أنَّه ليس في نفس الأمر غيرُ محبوبه، فإنَّه مخالفٌ لحكم الحسّ والعقل والشرع، وتصيرُ هذه المحبَّةُ أحيانـًا باعثةً على الحكم بالإحاطة والقرب الذاتيين. وهذا القسمُ من التَّوحيد أعلى من القسمين السابقين، وداخلٌ في دائرة الحال، وإن لم يكن مطابقـًا لنفس الأمر، وموافقـًا للشريعة، وتطبيقُه على الشَّريعة ونفس الأمر تكلُّفٌ محضٌ مثل التكلُّفات الفلسفيَّة الباردة، حيث إنَّ إسلاميَّهم يريدون تطبيقَ أصولهم الفاسدة على قوانين الشَّريعة، وكتابُ «إخوان الصفا» وغيره من هذا القبيل.

غَايَةُ ما فِي البابِ: أنَّ للخطأ الكشفيّ حكمَ الخطأ الاجتهاديِّ في ارتفاع الملام والعتاب عن صاحبه، بل تتحقَّقُ فيه درجةٌ من درجات الصَّواب، وإنَّما التَّفاوتُ بينهما أنَّ لمقلدي المجتهد حكمَ المجتهد، ولهم درجةٌ من درجات الصَّواب على تقدير الخطأ، بخلاف مقلِّدي أهل الكشف، فإنَّهم ليسوا بمعذورين، بل هم محرومون عن نيل درجة الصَّواب على تقدير الخطأ، فإنَّ كلاً من الإلهام والكشف ليس بحجةٍ للغير، وقولُ المجتهد حجَّةٌ للغير، فتقليدُ الأول لا يجوز على تقدير احتمال الخطأ، وتقليدُ الثاني جائزٌ على تقدير احتمال الخطأ أيضـًا، بل واجبٌ.

وشهودُ بعض السَّالكين الذي هو في مرايا التعينات الكونية أيضـًا من قبيل الأحكام السَّابقة، ويسمون هذا الشهود: شهود الوحدة وشهود الأحديَّة في الكثرة، فإنَّ الواجبَ تعالى وتقدَّس منزَّهٌ عن الكيف والكيفيات، لا تسعه مرايا المكيَّف أصلاً، ولا مجالي المتكلّم قطعـًا، لا يحصل اللامكانيُّ في المكان، ينبغي أن يَطلبَ المنزَّهَ عن الكيف في خارج دائرة المكيَّف، وأن يبتغي اللامكانِيَّ في ما وراء المكان، وكلّما يشاهده في الآفاق والأنفس؛ فهو من آياته سبحانه وتعالى وتقدَّس، قال قطبُ دائرة الولاية -يعني: حضرة الخواجه بهاء الدين النقشبند قدّس الله تعالى سرّه-: كلُّما كان مشهوداً أو مسموعـًا أو لا معلومـًا؛ فهو غيرُه تعالى، ينبغي نفيُه في الحقيقة بكلمة (لا): (شعر)

در تنگناي صورت معنى چگونه گنجد — در كلبهٔ گدا ن سلطان چه كار دارد

صورت پرستِ غافل معنى چه داند آخر — كو با جمال جانان پنهان چه كار دارد

فإن قيل: قد وقع في عبارات كثيرٍ من مشائخ النَّقشبنديَّة وغيرهم صريحاً وحدةُ الوجود، والقرب الذاتيّ، والمعيّة الذاتيّة، وشهود الوحدة والأحديَّة في الكثرة.

أجيب: إنَّ تلك الأحوالَ إنَّما حصلت لهم في توسُّط الأحوال، ثم ترقَّوا بعد ذلك عن ذلك المقام، كما كتب هذا الفقير عن أحواله فيما تقدم.

وجوابٌ آخرُ: إنَّ جمعاً من السَّالكين - مع وجود التوجُّه التامّ فيهم إلى جانب الأحديَّة الصِّرفة بباطنهم - تتشرَّفُ ظواهرهم التي هي مشاهدةٌ للكثرة بتلك الأحكام والشُّهود، فهم بحسب الباطن متوجهون إلى الأحديَّة، وفي الظَّاهر مشاهدون للمطلوب في الكثرة، كما أخبرتُ عن حال والدي في أوائل هذا المكتوب، وتفصيلُ تحقيق هذا الجواب مسطورٌ في الرِّسالة المؤلفة في تحقيق مراتب وحدة الوجود، ولا يتحمَّلُ هذا المقام زيادةً على ذلك.

لا يقال: إذا كان في نفس الأمر وجوداتٌ متعدِّدةٌ، ولم يكن قربٌ ذاتِيٌّ وإحاطةٌ ذاتيَّةٌ، ولم يكن شهودُ الوحدة في الكثرة مطابقاً للواقع؛ يكون حكمُ هؤلاء الأكابر كاذباً؛ لكونه غيرَ مطابقٍ للواقع ونفس الأمر؛ لأنَّا نقول: إنَّ هؤلاء الأكابر إنَّما حكموا على مقدار شهودهم مثل من يحكم برؤية صورة زيدٍ في المرآة، وهذا الحكمُ مع كونه غيرَ مطابقٍ للواقع، فإنَّه لم ير في المرآة صورة زيد أصلاً؛ لأنَّه لا صورة في المرآة قطعاً حتى تُرَى، لا يقال لهذا الشخص في العرف: إنَّه كاذبٌ فيه، وإن لم يكن مطابقاً لنفس الأمر، فهو معذورٌ في هذا الحكم، وعلامةُ الكذب مرتفعةٌ عنه كما مرَّ سابقاً، والمقصودُ من إظهار الأحوال اللازمة الإخفاءِ والسَّتر: هو الإيذانُ والإعلام بأنَّه لو كان منَّا قبولُ وحدة الوجود؛ فهو من طريق الكشف، لا على وجه التَّقليد، وإن وجد منا إنكارٌ؛ فهو أيضاً من الإلهام، فلا مجال إذاً للإنكار، يعني: على هذا الإنكار، وإن لم يكن الإلهامُ حجَّةً على الغير.

وجوابٌ آخر لدفع شبهة الكذب: إنَّ لأفراد العالم اشتراكاً مع بعضهم في بعض الأمور وامتيازاً في بعض آخر، وهكذا اشتراكُ الممكن مع الواجب تعالى وتقدس في بعض الأمور العرفيَّة، يعني: في مجرَّد الاسم والصورة، وإن كانا ممتازين بالذَّات امتيازاً كليّاً، فربَّما يختفي ما به الامتيازُ عن نظر السَّالك على تقدير غلبة المحبَّة عليه، ويظهر ما به الاشتراك لنظره، فعلى هذه الصُّورة لو حكموا بعينيَّة أحدهما بالآخر؛ لكان مطابقاً للواقع، فلا يبقى مجالٌ للكذب أصلاً، فينبغي أن يقيس الإحاطةَ الذاتيَّة ونظائرَها على ذلك، والسلام.

المَكتُوبُ الثَّانِي وَالثَّلَاثُونَ

أرسِلَ إلى الميرزا حسامِ الدِّين أحمد في بيانِ الكمالِ المخصوصِ بالأصحابِ الكرامِ رضوانُ الله تعالى عليهم أجمَعينَ، وأنَّه قد تشرَّف به قليلٌ منَ الأولياءِ، وما يناسبُ ذلك.

قد ورد مكتوبُكم المرسل على وجه الالتفات، لله سبحانه الحمدُ والمنَّةُ على ما لم يَصِرِ المهجورون منسيِّين، بل ذُكِروا مع المذكورين ولو استطراديّاً: (ع) دَعُونَا نُسَلِّي بِالْأَمَانِي قُلُوبَنَا

قد اندرج في كتابكم الشِّكايةُ من فقدان نسبة حضرة شيخنا عليه الرَّحمة الخاصّة به، وعدم وجدانها، والاستفسارُ عن سببه.

أيها المخدوم إنَّ شرحَ أمثال هذه الكلمات بطريق التحرير - بل بالتَّقرير - غيرُ مناسبٍ، فإنَّه لا يُدرى ماذا يحصل في فهم إنسانٍ وماذا يأخذ منه، بل اللازمُ الحضورُ بشرط حسن الظنِّ أو طول الصُّحبة على أيِّ نهجٍ كان، وبدونه خرطُ القتاد: (شعر)

أُرِيدُ صَفْوَ لَيَالٍ مَعْ ضِيَا قَمَرٍ حَتَّى أُحَدِّثَ أَنْوَاعَ الْحِكَايَاتِ

ولكن بحكم (لكل سؤالٍ جوابٌ) أظهر هذا القدرَ: إنَّ لكلِّ مقامٍ علوماً ومعارفَ على حدة، وأحوالاً ومواجيدَ متمايزةٍ، ففي مقامٍ يناسب الذِّكر والتوجُّه، وفي مقامٍ يناسب تلاوة القرآن والصلاة، ومقام مخصوص بالجذبة ومقام بالسلوك، ومقامٍ ممتزجٍ بهاتين الدولتين، ومقامٍ خالٍ عن جهتي الجذبة والسلوك، بحيث لا مساسَ له بالجذبة، ولا تعلُّقَ له بالسلوك، وهذا المقامُ عالٍ جداً، وأصحابُ النبي عليه وعلى آله وعليهم من الصلوات أفضلها ومن التسليمات أكملها ممتازون بهذا المقام، ومشرَّفون بهذه الدولة العظمى من بين الأنام، ولصاحب هذا المقام امتيازٌ تامٌّ عن أرباب المقامات الأخر، والمشابهةُ بين أرباب هذا المقام قليلةٌ، بخلاف أرباب مقاماتٍ أخر، فإنَّ لهم مشابهةً بعضهم ببعضٍ ولو بوجهٍ دون وجهٍ، وهذه النِّسبةُ تظهر بعد الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين في المهديّ عليه السلام على الوجه الأتمِّ إن شاء الله تعالى، وقلَّ من أخبر عن هذا المقام من مشائخ الطبقات، فكيف التكلّم من علومه ومعارفه؟ ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

غايةُ ما في الباب: أنَّ هذه النِّسبةَ العزيزةَ الوجود كانت تظهرُ في الصحابة في أوَّل القدم، ثم تبلغ مرتبةَ الكمال بمرور الزَّمان، وأما غيرُ الصَّحابة، فإن أريد تشريفُه بهذه الدولة، وترتُّبه على قدم نسبة الصحابة؛ إنَّما يستسعدُ بها بعد قطع منازل الجذبة، ومراتب السُّلوك، وطيّ علوم هذين المقامين ومعارفهما، وظهورُ هذه النِّسبة الشَّريفة في الابتداء كان مخصوصاً ببركة صحبة سيّد البشر، عليه وعلى آله الصَّلوات والتحيات والبركاتُ والتسليماتُ، ولكن يمكن أن يتشرَّفَ بهذه البركة بعضُ متابعيه ﷺ، فتكون صحبتُه أيضاً سبباً لظهور هذه النسبة العليَّة في الابتداء - يعني: في ابتداء الحال - قبل قطع منازل الجذبة والسلوك: (شعر)

لَوْ كَانَ مِنْ فَيْضِ رُوحِ الْقُدْسِ مِنْ مَدَدٍ ... لِغَيْرِ عِيسَى لِيَصْنَعْ مِثْلَمَا صَنَعَا

وفي هذا الوقت يتحقَّقُ في هذه النِّسبة اندراجُ النِّهاية في البداية أيضاً كما هو متحقِّقٌ في صورة تقدُّم الجذبة على السُّلوك، ولا مساعدةَ للزِّيادة على هذا: (شعر)

وَمِنْ بَعْدِ هَذَا مَا يَدِقُّ بَيَانُهُ ... وَمَا كَتْمُهُ أَحْظَى لَدَيَّ وَأَجْمَلُ

فإن وقعت الملاقاةُ بعد ذلك، وأحسّت مظنَّةُ حسن الاستماع من جانب المستمعين؛ ترد نبذةٌ من هذا المقام في معرض الظهور إن شاء الله تعالى، وهو سبحانه الموفِّقُ.

وقد حرَّرتم كلماتٍ في حق بعض الأصحاب، فالفقيرُ قد عفوتُ زلاتهم، يغفر الله لهم، وهو أرحم الراحمين، ولكن ينبغي نصيحةُ الأصحاب؛ لئلا يكونوا في مقام الإيذاء في الحضور والغيبة، ولا يغيروا أوضاعهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١] وكتبتم في حقّ الشيخ إلهداد خصوصاً لا مضايقةَ في حق الفقير أصلاً، ولكن النّدامةَ على تغيُّر الوضع لازمةٌ للمشار إليه، «النَّدَمُ تَوْبَةٌ»[1]، والاستشفاعُ فرعُ النَّدامة، والفقيرُ على كلِّ حالٍ في مقام العفو والتجاوز من قبل نفسه وجانبه، وأما الجانبُ الآخرُ؛ فهو أعلم بذلك، وما يلزم فيما هنالك. وأيضاً ينبغي لكم أن تتصوروا سرهند منزلَ أنفسكم، فإنَّ علاقةَ المحبَّة ونسبةَ أخوَّة الطَّريقة ليست مما ينقطع بسبب أمور عارضيَّة، وماذا أزيد على ذلك. ونخصُّ المخاديمَ وسائر.........

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٢)، والحاكم في «المستدرك» (٧٦١٢) وصححه من حديث ابن مسعود ﷺ. قال البوصيري في «مصباح الزجاجة»: (٤/٢٤٨): إسناد صحيح رجاله ثقات.

وقد أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٦١٢)، والحاكم في «مستدركه» (٧٦١٤) وصححه على شرط الشيخين من حديث أنس ﷺ.

أهل البيت بالدعاء.

وبعد تسويد هذه الرقيمة وقع في الخاطر أن أكتب في باب زلّات الإخوان والعفو عنهم كلاماً أوضحَ من الأوّل، فإنَّ في الإجمال إيهاماً، وماذا يفهم منه؟

فاعلم أيُّها المخدومُ أنَّ العفوَ إنَّما يُتصوَّرُ ويُطلبُ على تقدير اعتراف هؤلاء الجماعة بسوء تلك الأوضاع، والنَّدامة على فعلها، وإلا؛ فلا مساغَ للعفو، وكتبتم أيضاً أنَّ حضرةَ شيخنا فوَّض هذا المقام إلى الشيخ إلهداد بشهادة هؤلاء الجماعة، وهذا الكلامُ يستدعي بياناً، فإن كان التفويضُ بمعنى أنَّه يخدم الفقراء والواردين والصَّادرين، ويكون مستخبراً عما يحتاجون إليه من الأكل والشرب؛ فذلك مسلَّمٌ لا نزاع فيه لأحدٍ، وإن كان بمعنى أنَّه يربّي جماعةً من الطالبين، ويجلس في مقام المشيخة؛ فممنوعٌ، فإنَّ حضرة شيخنا قال للفقير في آخر ملاقاتنا: ما تقول في الشيخ إلهداد: لو علم بعض الطالبين المشغولية من جانبنا، وبلغ أحوال بعضهم إلينا، فإنَّه لا طاقةَ لي الآن بإحضارهم، وتعليم المشغولية، والسؤال عن أحوالهم، فكان الفقيرُ متوقفاً في هذا الباب أيضاً، ولكن لما اقتضت الضَّرورةُ ذلك جوّزت هذا القدر فيما هنالك، ولا شك في أنَّ هذا القسمَ من التبليغ من جنس السفارة المحضة، خصوصاً إذا كانت مبنيَّةً على الضرورة، والضرورةُ تقدَّرُ بقدرها، فتكون تلك السَّفارةُ مخصوصةً بزمن حياة شيخنا، ويكون تعليمُ المشغولية للطالبين وسؤال أحوالهم بعد ارتحاله داخلاً في الخيانة.

وكتبتم أيضاً: أنَّ نسبةَ حضرة شيخنا تكون باقيةً ألبتّة، يعني: لا تقبل الزيادةَ والنقصانَ بمرور الدهور والأزمان.

اعلم أيها المخدوم أنَّ تكميلَ الصناعة إنَّما يكون بتلاحق الأفكار، ألا ترى أنَّ علمَ النحو الذي وضعه سيبويه زادته أفكارُ المتأخرين عشرةَ أمثالها، فإنَّ بقاءَ الشيء على صرافته عينُ النقص، فإنَّ النسبة التي كانت لخواجه النقشبند ما كانت في زمن الخواجه عبد الخالق الغجدوانِيّ قدس سرهما، وعلى هذا القياس، يعني: سائرَ الأحوال، وعلى الخصوص كان حضرةُ شيخنا في صدد تكميل هذه النِّسبة، وكان غيرَ قائلٍ بتماميتها. فإن وَفَتْه حياتُه زادها بإرادة الله تعالى إلى ما شاء الله سبحانه، فالسعيُ في عدم زيادتها ليس بمناسبٍ، وهذا الفقيرُ ما يدري على أيِّ وجهٍ يكون بقاؤها، فإنَّ لك نسبةً على حدةٍ لا مساسَ لها بنسبة الآخرين، وكان هذا الكلام مشخَّصاً - يعني: معيّناً - في حضوره مكرراً، والشيخ إلهداد المسكين من أين يعرف أن النسبة ما هي؟ وإنَّما له نحوٌ من حضور القلب، ومعلومٌ للآخرين أنَّ الحالة ما هي؟ ومن قَيِّمُ تلك النسبة ومربِّيها؟ أخبروني عنه حتى أكون مُمِدّاً ومعاوناً له. ولا ينبغي اعتبارُ الواقعة والاعتمادُ عليها، فإنَّها خياليَّةٌ غيرُ صادقةٍ، والشيطانُ عدوٌّ قويٌّ، والأمنُ من تسويلاته متعسِّرٌ إلا لمن عصمه الله تعالى.

وكتبتم أيضاً في حقّ سلب النسبة المكتسبة، فاعلم أيُّها المخدوم أنَّ ذلك السلبَ لا يكون إلا بالاختيار كما ذُكِرَ في الحضور، والآن هذا السَّلبُ بحاله، ومن الخيال تصوُّرُ زواله، والصوتُ المسموعُ من القلب لا تعلُّقَ له بتلك الحالة، ألا ترى أنَّ الرَّمادَ الذي زالت عنه النارُ وصار بارداً يصدر عنه صوتٌ بعد صب الماء فيه؟ ولا يقال: إنَّ النارَ مكنونةٌ فيه بعدُ، ولا اعتبارَ للوقائع، فإن كان هذا الكلامُ مخفياً اليوم يظهر صدقُه غداً إن شاء الله تعالى.

ولما كان كتابكم مشتملاً على المبالغة؛ صدر في جوابه كلماتٌ، وإلا؛ لا يتيسَّرُ الكلامُ بلا داعٍ.

المكتوب الثالث والثلاثون

صدر إلى الحاجّ الـملّا محمَّد اللّاهوريّ في بيان مَذمَّة علماءِ السُّوء الذين هم في أسرِ محبَّة الدُّنيا، ومدحِ العلماءِ الزُّهّاد الذين يرغبون عنِ الدُّنيا.

إنَّ محبَّةَ الدنيا من العلماء ورغبَتَهم فيها كلفٌ على وجه جمالهم، وإن كان يحصل منهم فوائدُ للخلائق، لكن لا يكون علمهم نافعـاً في حقِّهم، وإن كان تأييدُ الشَّريعة وتقويةُ الملَّة مرتَّباً عليهم، لكن لا اعتبارَ على ذلك، فإنَّ التَّأييدَ والتقويةَ يحصل من أهل الفجور وأرباب الفتور أحيانـاً، كما أخبر سيد الأنبياء عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات عن تأييد الفاجر، حيث قال: «**إِنَّ اللهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ**»[1]، وهم كحجر الفارس، حيث إنَّ كلّما يلصق به من الشيء الأملس والحديد يكون ذهباً وهو باقٍ على حجريَّته، وكالنار المودعة في الحجر والشَّجر، فإنَّه يحصل منها منافعُ للعالم، ولكن لا نصيب للحجر والشجر من تلك النار المودعة في باطنهما، بل أقول: إنَّ ذلك العلم مُضِرٌّ في حقهم؛ لأنَّه به تمَّت الحجَّةُ عليهم، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابـًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ اللهُ بِعِلْمِهِ**»[2]، فكيف لا يكون مضرّاً؟ فإنَّ العلمَ الذي هو أعزُّ الأشياء عند الله تعالى وأشرفُ الموجودات جعلوه وسيلةً لجمع حُطام الدنيا الدنيَّة من المال والجاه والأحباب، والحالُ أنَّ الدنيا ذليلةٌ عند الله تعالى وحقيرةٌ، وأبغضُ المخلوقات عند الله، وإذلالُ ما هو عزيزٌ عند الله وإعزازُ ما هو ذليلٌ عنده في غاية القباحة، بل هو معارضةٌ مع الحقّ سبحانه في الحقيقة، والتَّدريسُ والإفتاءُ إنَّما يكونان نافعين إذا كانا خالصين لوجه الله تعالى، وخاليين عن شائبة حبّ الجاه والرِّياسة، وطمع حصول المال والرفعة، وعلامةُ خلوِّهما عن تلك المذكورات: الزُّهدُ في الدُّنيا، وعدمُ الرَّغبة فيها، فالعلماءُ الذين هم مُبْتَلون بهذا البلاء ومأسورون في أسر محبَّة الدنيا، فهم من علماء الدنيا، وهم علماءُ السُّوء وشرارُ الناس ولصوصُ الدين، والحالُ أنَّهم يعتقدون أنفسهم مقتدىً بهم في الدِّين وأفضلَ الخلائق أجمعين، ﴿وَيَحْسَبُونَ اَنَّهُمْ عَلٰى شَيْءٍۜ اَلَٓا اِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ۞ اِسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَاَنْسٰيهُمْ ذِكْرَ اللّٰهِۜ اُو۬لٰٓئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِۜ اَلَٓا اِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٨-١٩]، رأى واحدٌ من الأكابر الشيطان قاعداً فارغ البال عن الإغواء والإضلال، فسأله عن سرّ قعوده بفراغ البال، فقال اللعين: إنَّ علماءَ السوء في هذا الوقت قد أمدوني في أمري مدداً عظيمـاً، وتكفلوا لي بالإضلال حتى جعلوني فارغ البال، والحقُّ أنَّ كلَّ ضعفٍ ووهنٍ وقع في أمور الشريعة في هذا الزَّمان، وكلَّ فتورٍ ظهر في ترويج الملة وتقوية الدين؛ إنَّما هو من شؤم علماء السوء، وفساد نياتهم. نعم، إن كان العلماءُ راغبين عن الدنيا، ومحرَّرين من أسر حبّ الجاه والرياسة وطمع المال والرفعة؛ فهم من علماء الآخرة، وورثة الأنبياء عليهم الصلوات والتسليمات، وهم أفضلُ الخلائق وهم الذين يوزن مدادُهم يوم القيامة بدم الشُّهداء في سبيل الله، فيترجَّحُ مدادُهم[3]، و«**نَوْمُ الْعَالِمِ عِبَادَةٌ**»[4] متحقِّقٌ في حقِّهم، وهم الذين استحسن في نظرهم جمالُ الآخرة ونضارتُها، وظهرت قباحةُ الدُّنيا وشناعَتُها، فنظروا إلى الآخرة بنظر البقاء، ورأوا الدُّنيا متَّسمةً بسمة الزَّوال والفناء، فلا جرم هربوا من الفاني، وأقبلوا على الباقي، وشهودُ عظمة الآخرة إنَّما هو ثمرةُ شهود...

(١) أخرجه البخاري (٣٠٦٢)، ومسلم (١١١) من حديث أبي هريرة ﷺ، وله طرقٌ أخر كثيرة.

(٢) أخرجه الطبراني في «الصغير» (٥٠٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣/ ٢٧٣- ٢٧٤)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٦/ ٣٠٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرج جزأه الأولَ ابنُ عبد البر في «جامع بيان العلم» (ص١٥٠) حديثاً مرفوعـاً من حديث أبي الدرداء ﷺ.

(٤) ذكره الغزالي كحديث مرفوع، قال العراقي: (المعروف فيه: «الصائم دون العالم». انظر: «المغني»: ١/ ٣٤٣. وقد أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥/ ٤٢١- ٤٢٢)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٦٧٣٤) من حديث ابن أبي أوفى ﷺ بلفظ «الصائم». وأخرج أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٣٨٥) عن سلمان ﷺ مرفوعـاً: «نوم على علم خير من صلاة على جهل».

الجلال اللايزاليّ، وإذلالُ الدُّنيا وتحقيرُ ما فيها من لوازم شهود عظمة الآخرة؛ لأنَّ الدُّنيا والآخرة ضرَّتان، إن رضيتْ إحداهما سخطت الأخرى، فإن كانت الدُّنيا عزيزةً؛ فالآخرةُ حقيرةٌ، وإن كانت الدُّنيا حقيرةً؛ فالآخرةُ عزيزةٌ، وجمعُ هذين الأمرين من قبيل جمع الأضداد: (ع) مَا أَحْسَـنَ الدِّينَ وَالدُّنْيَا لَوِ اجْتَمَعَا

نعم، قد اختار جمعٌ من المشائخ الذين تخلَّصوا عن أسر نفوسهم ومقتضيات طبائعهم بالكليَّة صورةَ أهل الدُّنيا بواسطة نيَّاتٍ حقَّانيةٍ، تراهم في الظَّاهر راغبين فيها، ولكن لا علاقةَ لهم بها في الحقيقة أصلاً، بل هم فارغون عن الكلِّ، ومتخلِّصون عن الجميع، ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾ [النور: ٣٧]، فلا يمنعهم البيعُ والشراءُ عن ذكر الله، فهم في عين التعلُّق بهذه الأمور، غير متعلقين بشيءٍ، قال الخواجه بهاء الدين النقشبند قدس سره: رأيت في سوق مِنىً تاجراً اتَّجر بمقدار خمسين ألف دينار تقريباً، ولم يغفل قلبُه عن الحق سبحانه لحظةً.

المَكْتُوبُ الرَّابِعُ وَالثَّلَاثُونَ

أرسِلَ إلى الحاجِّ محمَّدٍ اللَّاهوريِّ أيضاً في بيان الجواهرِ الخمسَة الأمريَّة بطريقِ البَسطِ والتَّفصيل مهما أمكن.

اعلم أنَّ نَقْدَ سعادة الدَّارين مربوطٌ باتِّباع سيد الكونين، عليه وعلى آله من الصلوات أفضلها، ومن التسليمات أكملها، ولما لم تكن عينُ بصيرة الفلسفيّ مكحَّلةً بكُحْل متابعة صاحب الشَّريعة عليه وعلى آله الصلاة والسلام والتحية؛ صارت في عَمَايةٍ عن حقيقة عالم الأمر، فضلاً عن أن يكون له شعورٌ عن مرتبة الوجوب تعالى وتقدس، ونظرُه القاصرُ مقصورٌ على عالم الخلق، وليس بتامٍّ فيه أيضاً، وما أثبتوه من الجواهر الخمسة كلِّها في عالم الخلق، ومن جهالتهم عَدُّوا العقلَ والنَّفسَ من المجرَّدات، فإنَّ النَّفسَ النَّاطقةَ هي النَّفسُ الأمَّارةُ المحتاجة إلى التزكية، وهمَّتُها بالذات في السفالة والدناءة، فما المناسبةُ بينها وبين عالم الأمر؟ وأيّ نسبةٍ له بالتجرُّد؟ والعقلُ لا يُدرِك من المعقولات إلا الأمورَ التي لها مناسبةٌ بالمحسوسات، بل لا يدرِك إلا ما له حكمُ المحسوسات، وأما الأمورُ التي لا مناسبة لها بالمحسوسات، وليس لها شبهٌ ومثالٌ في المشاهدات؛ فلا سبيل لإدراك العقل إليها، ولا يُفتحُ بمفتاح العقل مغلقاتُها، ولهذا كان نظرُه قاصراً في أحكام اللاكيفيّ، وضالاً محضاً عن الطَّريق في إدراك الغيب، وذلك علامةٌ كونه من عالم الخلق، وميل عالم الأمر إلى اللاكيفيّ، وتوجُّهه إلى ما تنزَّه عن الكيفيَّة، وابتداءِ عالم الأمر من مرتبة القلب، وفوق القلب الرُّوحُ، وفوق الرُّوح السِّرُّ، وفوق السِّر الخفيُّ، وفوق الخفيّ الأخفى، فإن قيل لهذه الخمسة الأمريَّة: جواهرُ خمسةٌ؛ فله وجهٌ.

ومن قصور نظرهم التقطوا عدَّةً من قطعات الخَزَف، وظنّوها جواهرَ، وإدراكُ هذه الجواهر الخمسة الأمريَّة والاطِّلاعُ على حقائقها إنَّما هو نصيبُ كُمَّل تابعي النبيّ صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم، ولما كان ما في العالم الصَّغير الذي هو الإنسان أنموذجاً مما في العالم الكبير؛ كان أصولُ هذه الجواهر الخمسة أيضاً في العالم الكبير، فالعرشُ المجيدُ مبدأُ هذه الجواهر في العالم الكبير كالقلب في العالم الصَّغير، وبهذه المناسبة يقال للقلب: عرشُ الله تعالى أيضاً، والمراتبُ الباقيةُ من جواهر العالم الكبير الخمسة فوق العرش، والعرشُ برزخٌ بين عالم الخلق وعالم الأمر في العالم الكبير بمثابة قلب الإنسان، حيث إنَّه برزخٌ بين عالم الخلق وعالم الأمر في العالم الصغير، والقلبُ والعرشُ وإن كانا ظاهرَيْن في عالم الخلق، لكنَّهما من عالم الأمر، ولهما نصيبٌ من اللاكيفيّ واللاكميّ،

والاطِّلاعُ على حقيقة هذه الجواهر الخمسة مسلَّمٌ لكُمّل أفراد أولياء الله الذين أتمُّوا مراتب السلوك بالتفصيل، وبلغوا نهاية النهايات:

(شعر) هـــر گـــدايـــى مـــردِ مـــيدان كى شود؟ پـــشـــه اى آخـــر ســـلـــيـــمـــان كى شود؟

(ترجمة): هَـلْ كُـلُّ مَـنْ خِـلْـتَ رَجُـلاً رَجُـلُ مَـعْـرَكَـةٍ أَوْ كُـلُّ مَـنْ صَـارَ ذَا مُـلْـكٍ سُـلَـيْـمَـانُ

فإن تفتَّح نظرُ بصيرة صاحب دولةٍ بتفصيل مرتبة الوجوب على حسب الإمكان بمحض فضل الحقّ سبحانه وتعالى؛ يطالِعُ أصول هذه الجواهر أيضـًا في ذلك الموطن، وتصير هذه الجواهر الصغيريَّة والكبيريَّة في علمه كالظِّلال لتلك الجواهر الحقيقيَّة:

(ع) وَهَذِي سَـعَادَاتٌ تَكُونُ نَصِـيبَ مَنْ

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَآءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]. والمنعُ من إظهار حقائق عالم الأمر إنَّما هو بسبب دقَّة تلك المعاني المكنونة، وماذا يدرك منها قاصروا النَّظر؟ والرَّاسخون المشرفون بشرف خطاب: ﴿وَمَآ أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ اِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] لهم اطِّلاعٌ على ما هنالك: (ع) هَـنِـيـئـًا لِأَرْبَـابِ الـنَّـعِـيـمِ نَـعِـيـمُـهَـا

(شعر): وَلَيْسَ فِي بَثِّيَ الْأَسْـرَارَ مَصْـلَحَـةٌ وَإِنْ ظَهَرْنَ لَنَا كَـالشَّـمْسِ فِي فَلَـكِ

والسلام عليكم وعلى من اتبع الهدى، والتزم متابعةَ المصطفى، عليه وعليهم من الصلوات والتسليمات أتمها وأدومها.

وأيضـًا قد وقع في الخاطر أن أحرِّرَ نبذةً من بيان الجواهر المقدسة العليا. ينبغي أن يعلم أن ابتداء تلك الجواهر من الصفات الإضافيَّة التي هي كالبرزخ بين الوجوب والإمكان، وفوقها صفاتٌ حقيقيَّةٌ، وللروح نصيبٌ من تجلياتها، وللقلب تعلُّقٌ بالصفات الإضافية، وهو مشرَّفٌ بتجلياتها، وبقيَّة الجواهر العليا التي فوق الصفات الحقيقيَّة داخلة في دائرة حضرة الذات تعالت وتقدست، ولهذا يقال لتجليات هذه المراتب الثلاثة: تجلياتٌ ذاتيةٌ، ولا مصلحةَ في التكلّم وراء ذلك:

(ع) بَـلَـغَ الْـيَـرَاعُ إِلَـى هُـنَـا فَـتَـكَـسَّـرَ

المَكْتُوبُ الخَامِسُ وَالثَّلَاثُونَ

في بيان المحبَّة الذَّاتيَّة التي يستَوِي في هذا المقامِ الإنعامُ والإيلامُ، كَتَبَه إلى الحاجِّ مِيَان محمَّدٍ اللَّاهوريِّ أيضـًا.

نجَّانا الله سبحانه وإياكم عن زيغ البصر، بحرمة سيد البشر، عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات. اعلم أنَّ المقصودَ من السير والسلوك: تزكيةُ النفس الأمَّارة وتطهيرُها، حتى يتيسَّر النَّجاةُ من عبادة الآلهة الباطلة الناشئة عن الهوى النفسانِيِّ، ولا تبقى قبلةُ التوجه في الحقيقة غيرَ المعبود الواحد الحقيقيّ تعالى وتقدس، ولا يختار عليه مقصدٌ ما أصلاً، سواءٌ كان من المقاصد الدينيَّة أو من المطالب الدنياويَّة، والمقاصدُ الدينيَّة وإن كانت من الحسنات، ولكنَّها من شغل الأبرار، والمقربون يرونها سيئةً، ولا يعدون سوى الواحد من المقاصد، وحصولُ هذه الدولة منوطٌ بحصول الفناء، وتحقُّق المحبة الذاتيَّة التي يستوي في ذلك المقام الإنعام والإيلام، ويحصل من الالتذاذ من التعذيب مثل ما يحصل من التنعيم، فإن أرادوا الجنة إنَّما يريدونها لكونها محلَّ رضائه تعالى وتقدَّس، وفي طلبها مرضاه سبحانه، وإن استعاذوا من النار إنَّما يستعيذون منها لكونها محلَّ سخطه تعالى، لا أنَّ مقصودَهم من الجنَّة استيفاءُ الحظوظ النفسانيَّة، ولا فرارُهم من النَّار لخوف الألم والأذيَّة، فإنَّ كلّما يحصل من المحبوب؛.........................

فهو عند هؤلاء الأكابر محبوبٌ ومرغوبٌ وعينُ المطلوب، فإنَّ كلّما يفعله المحبوبُ محبوبٌ، وههنا تتيسَّرُ حقيقةُ الإخلاص، ويحصل الخلاصُ من عبادة الآلهة الباطلة، وتصحُّ كلمةُ التَّوحيد في هذا الوقت، وبدونه خرطُ القتاد، والأمرُ من غير حصول المحبة الذاتيَّة الحاصلة بلا ملاحظة الأسماء والصفات وبلا توسُّط إنعام المحبوب وإكرامه لا يخلو من الخلل، والفناءُ المطلقُ لا يحصل بدون هذه المحبَّة المحرقة المبطلة للشَّرِكَة: (شعر)

مَـا الْعِشْـقُ إِلَّا شُـعْلَـةٌ قَـدْ أَحْرَقَـتْ　　كُـلَّ الْـوَرَى غَـيْـرَ الْـحَـبِـيـبِ الْـبَـاقِـي
قَدْ هَزَّ فِي قَتْلِ السِّـوَى صَـمْـصَـامُ (لَا)　　فَـانْظُرْ إِلَى مَـا بَعْـدَ (لَا) مَـا الْـبَـاقِـي
بُشْـرَاكَ يَـا صَـاحِ قَدِ احْتَرَقَ الْوَرَى　　لَـمْ يَـبْـقَ غَـيْـرُ إِلَـهِـنَـا الْـخَـلَّاقِ

المكتوب السادس والثلاثون

في بيان أنَّ الشَّريعة متكفِّلة بجميعِ السَّعاداتِ الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، والطَّريقَة والحقيقة خادمَتان للشَّريعَة، وما يُناسبُ ذلك، إلى الحاجِّ محمَّدٍ اللَّاهوريِّ.

حقَّقنا الله سبحانه وإياكم بحقيقة الشَّريعة المصطفويَّة، على صاحبها الصلاةُ والسلامُ والتحيَّةُ، ويرحم الله عبداً قال: آمينا.

اعلم أنَّ للشَّريعة ثلاثةَ أجزاء: العلمُ والعملُ والإخلاصُ، وما لم يتحقَّق كلٌّ من هذه الأجزاء الثلاثة لا تتحقَّقُ الشَّريعةُ، ومتى تحقَّقت الشَّريعةُ؛ فقد تحقَّق رضا الحقِّ سبحانه وتعالى الذي هو فوق جميع السعادات الدنيويَّة والأخرويَّة، ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، فكانت الشَّريعةُ متكفِّلةً بجميع السعادات الدنيويَّة والأخرويَّة، ولم يَبْقَ مطلبٌ يقع فيه الاحتياجُ إلى ما وراء الشريعة. والطريقةُ والحقيقةُ اللتان امتازت بهما الصوفيةُ خادمتان للشريعة في تكميل جزئها الثالث الذي هو الإخلاصُ، فالمقصودُ من تحصيل كلٍّ منهما: تكميلُ الشَّريعة، لا أمرٌ آخرُ وراء الشريعة، والأحوالُ والمواجيدُ والعلومُ والمعارفُ التي تحصل للصُّوفية في أثناء الطَّريق ليست من المقاصد، بل هي أوهامٌ وخيالاتٌ تربَّى بها أطفالُ الطريقة، فينبغي أن يجاوِزَ جميع ذلك، وأن يصل إلى مقام الرضا الذي هو نهايةُ مقامات السُّلوك والجذبة، فإنَّ المقصودَ من طيِّ منازل الطَّريقة والحقيقة ليس هو شيءٌ غيرَ تحصيل الإخلاص المستلزم لحصول مقام الرِّضا، ويُوصلُ إلى دولة الإخلاص ومقام الرضا واحدٌ من ألوفٍ بعد العبور به من التجلِّيات الثَّلاثة ومشاهدات العارفين. والقاصرون هم الذين يَعُدُّون الأحوالَ والمواجيدَ من المقاصد، ويظنُّون المشاهداتِ والتجلِّياتِ من المطالب، فلا جرم يبقون في حبس الوهم والخيال، ويحرمون كمالات الشَّريعة بهذا الاعتقال، ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

نعم، إنَّ حصولَ مقام الإخلاص والوصولَ إلى مرتبة الرِّضا منوطٌ بطيِّ هذه الأحوال والمواجيد، ومربوطٌ بتحقُّق هذه العلوم والمعارف، فتكون هذه الأشياءُ معدَّاتٍ للمطلوب، ومقدماتٍ للمقصود، وحقيقةُ هذا المعنى اتَّضحت للفقير بعد الاشتغال بهذا الطَّريق عشر سنين بالتَّمام، ببركة حبيب الله عليه وعلى آله الصلاة والسلام، وانجلى شاهدُ الشَّريعة كما ينبغي، وفيما قبل وإن لم يكن لي تعلُّقٌ بالأحوال والمواجيد، ولم يكن في نظري مطلب غير التحقُّق بحقيقة الشريعة، ولكن ظهرت حقيقةُ الأمر بعد عشرةٍ كاملةٍ ظهوراً بيناً، والحمدُ لله على ذلك حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه مباركاً عليه.

وخبرُ موت...................................

المغفور له الشيخ ميان جمال باعثٌ على حزن جميع الإسلام، وتفرقة خواطرهم، والملتمس تعزية أولاد المرحوم المتوفى، وقراءة الفاتحة من جانب الفقير، والسلام.

المكتوب السابع والثلاثون

صدر إلى الشَّيخ محمَّدِ الجَتْرِيِّ في التَّحريض على مُتابعةِ السُّنَّة السَّنيَّة، على صاحبها الصَّلاة والسَّلام والتَّحيَّة، والتَّرغيب في تَحصيلِ النِّسبَة النَّقشبَنديَّة العليَّة قدِّس سرُّهم.

قد حصل السُّرورُ والابتهاجُ بمطالعة المكتوب الشَّريف الذي صدر على وجه الكرم، وقد اندرج فيه بيانُ استقامتكم وثباتكم على هذه الطَّريقة النقشبنديَّة، والحمد لله سبحانه على ذلك، يكرمكم الله سبحانه بترقِّياتٍ غير متناهيةٍ ببركة أكابر هذه الطَّريقة العليَّة، وطريقُهم كبريتٌ أحمرُ مبنيٌّ على متابعة السُّنَّة السنيَّة، على مصدرها الصلاةُ والسلامُ والتحيةُ، ويكتب هذا الفقير بياناً لنقد وقته، وحاصلُه: إنَّ العلومَ والمعارفَ والأحوالَ والمقاماتِ قد أفيضت عليّ مدَّةً مديدةً مثلَ مطر الرَّبيع، وكلُّما يلزم فعلُه؛ فقد فعل بعناية الله تعالى، والآن ما بقي تمنٍّ غيرُ إحياء سُنَّةٍ من السنن المصطفويَّة، على صاحبها الصلاة والسلام والتحية، والأحوالُ والمواجيدُ إنَّما هي منظورةٌ لأرباب الذَّوق، ينبغي أن يعمر الباطن بنسبة خواجكان قدّس الله أسرارهم، وأن يحلى الظاهر بالكليَّة بمتابعة السُّنَن الظَّاهرة: (ع) هَـذَا هُوَ الشُّـغْـلُ وَالْبَـاقِي خَيَـالَاتٌ

وينبغي أن تؤدّوا الصلوات الخمس في أوّل أوقاتها غير العشاء وقت الشتاء، فإنَّ تأخيرَها إلى ثلث الليل مستحبٌّ، والفقير مضطرٌّ في هذا الأمر، لا أريد تأخيرَ أداء الصلاة عن أوّل وقتها ولو مقدار شعرةٍ، والعجزُ البشريُّ مستثنى.

المكتوب الثامن والثلاثون

صدر أيضـاً إلى الشَّيخ محمَّدِ الجَتْرِيِّ في بيان التَّعلُّق بالذَّات البحتِ تعالت وتقدَّست، المنزَّه عنِ اعتبارِ الأسماءِ والصِّفاتِ والشُّؤون والاعتبارات، وفي مذمَّة النَّاقصين الذين زعموا المنزَّه عنِ المثلِ مثليّـًا، واللَّاكيفيَّ كيفيّـًا، فتعلَّقوا به، وافتَتنوا، وبيان تفاوتِ الأقدَامِ في الفناء المُترَتِّب عليه تفاوتُ العُلومِ والمعارف، وأمثالِ ذلك.

قد أورث المكتوبُ الشَّريفُ بوصوله فرحـاً كثيراً، جعلنا الله سبحانه وإيَّاكم معه دائمـاً، ولا يتركنا بغيره لحظةً، وكلُّ شيءٍ غيرِ ذاته البحت سبحانه وتعالى معبَّرٌ عنه بالغير والسوى، وإن كان ذلك الغير أسماءً وصفات، وما قاله المتكلّمون من أنَّ صفاته تعالى لا هو ولا غيرُه له معنىً آخرُ، فإنَّهم أرادوا بالغير: الغيرَ المصطلحَ، ونفوا الغيريَّة بهذا المعنى، لا بالمعنى المطلق، ونفيُ الخاصّ لا يستلزم نفيَ العامّ، ولا يمكن التَّعبير عن الذات بغير السُّلوب، وكلُّ إثباتٍ في مرتبة الذات إلحادٌ، وأفضلُ التَّعبيرات وأجمع العبارات فيها: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ومعناه بالفارسية: بيچون وبيچگونه، ولا سبيل للعلم والشهود والمعرفة إليه سبحانه، كلُّما تراه العيون أو وعاه الآذان أو حواه الظُّنونُ؛ فهو غيره تعالى، والتعلُّق به تعلُّقٌ بالغير، فيلزم نفيه بكلمة (لا إله)، وإثباتُ الذات المنزَّهة عن المثل بكلمة (إلا الله)، وهذا الإثبات يكون أولاً بالتقليد، ثم ينقلب أخيراً إلى التحقيق.

وقد زعم بعض أرباب السُّلوك الذين لم يبلغوا نهاية الأمر المثليَّ والمكيّفَ عينَ المنزَّه عن المثل والكيف، وقالوا بإمكان تطرُّق الشُّهود والمعرفة إليه، وأربابُ التَّقليد أفضلُ من هؤلاء بمراتبَ، فإنَّ تقليدَهم مقتبَسٌ من مشكاة أنوار النبوَّة على صاحبها الصلاة والسلام، ولا سبيلَ للخطأ إليه، ومقتدى هؤلاء القاصرين الكشفُ..........

غيرُ الصَّحيح: (ع) وَشَـتَّـانَ مَـا بَيْـنَ الطَّـرِيـقَيْـنِ فَـانْظُـرُوا

وهؤلاء الجماعة منكرون للذَّات في الحقيقة، وإن أثبتوا شهودَ الذات، ولم يدروا أن نفسَ الإثبات هنا هو عينُ الإنكار، وقد قال إمامُ المسلمين الإمام الأعظم الكوفيُّ رضي الله تعالى عنه: سبحانك ما عبدناك حقَّ عبادتك، ولكن عرفناك حقَّ معرفتك، وعدمُ أداء حقِّ العبادة ظاهرٌ، وأما حصولُ حقِّ المعرفة؛ فمبنيٌّ على أنَّ نهايةَ المعرفة في الذات تعالى شأنها ليست إلا معرفتها بعنوان ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ولا يظنُّ الأبله من ذلك أنَّ الخاصَّ والعامَّ والمبتدئ والمنتهي متساوو الأقدام في هذه المعرفة؛ لعدم تمييزه بين العلم والمعرفة، فإنَّ العلمَ للمبتدئ، والمعرفةَ للمنتهي وهي لا تحصل بدون الفناء، ولا تتيسَّرُ هذه الدولة لغير الفاني، قال المولوي في «المثنوي»:

(شعر) وَمَنْ لَمْ يَكُنْ فِي حُبِّ مَوْلَاهُ فَانِيـاً فَـلَيْـسَ لَـهُ فِـي كِـبْرِيَـاهُ سَـبِـيـلُ

فتكون المعرفةُ إذاً وراء العلم، ومما ينبغي أن يعلم أنَّ وراءَ العلم والإدراك المتعارف أمراً يعبَّرُ عنه بالمعرفة، ويقال له: الإدراكُ البسيطُ أيضاً: (شعر)

خَـلِـيـلَـيَّ مَـا هَـذَا بِـهَـزْلٍ وَإِنَّـمَـا حَدِيـثٌ عَجِيـبٌ مِنْ بَـدِيعِ الْغَرَائِـبِ

غيره من «المثنوي»: (شعر)

إِنَّ لِـلـرَّحْـمَـنِ مَـعَ أَرْوَاحِ نَـاسٍ اتِّصَـــالاً دُونَ كَـيْـفٍ وَقِـيَـاسِ

قُلْـتُ نَـاسـاً دُونَ نَسْـنَـاسِ الْفَلَا لَـيْـسَ نَـاسٌ غَـيْـرَ رُوحٍ فِـي الْـمَـلَا

ولما كانت الأقدامُ متفاوتةً في الفناء؛ لا جرم وُجِدَ التَّفاوتُ في المعرفة بين المنتهيين، فمن كان فناؤُه أتمَّ؛ تكون معرفتُه أكملَ، ومن كان دونه في الفناء؛ يكون دونه في المعرفة، وعلى هذا القياس. سبحان الله انجرَّ الكلام من أين إلى أين؟ بل كان اللائقُ بحالي أن أكتب من عدم حاصلي وعدم حصول مرادي، وعدم ثباتي واستقامتي، وطلب المعونة والمدد من الأحباب، وأيُّ مناسبةٍ لي بأمثال هذه الكلمات؟

(شعر) مَـنْ لَـمْ يَـكُـنْ خَـبَـرٌ لَـهُ عَـنْ نَـفْـسِـهِ هَـلْ يَـقْـدِرُ الْإِخْـبَـارَ مِـنْ هَـذَا وَذَا

ولكن الهمةَ العاليةَ والطينةَ السَّاميةَ لا تتركني أن أقنع ببضاعةٍ دنيَّةٍ، ودعابةٍ رديَّةٍ، فلا جرم أترقَّى عن مرتبتي، فإذا قلتُ فمنه أقولُ وإن كان لا شيئاً، وإذا طلبتُ فإياه أطلبُ وإن لم أجد شيئاً، وإن كان لي حاصلٌ فهو حاصلي وإن لم يكن شيئاً، وإن كنت واصلاً فإليه وصولي وإن لم يكن لي حصولٌ. وما وقع في عبارات بعض الأكابر قدس الله أسرارهم العليَّة من الشُّهود الذاتي لا يظهر معناه لغير أرباب الكمال، وفهمُه محالٌ للناقصين والقاصرين: (شعر)

لَـيْـسَ يَـدْرِي الْأَغْـبِـيَـا حَـالَ الْكِـرَامِ فَاقْصُـرِ الْأَقْوَالَ وَاسْـكُـتْ وَالسَّـلَامُ

وقد حرَّر في عنوان المكتوب كلمة (هو الظاهر هو الباطن)، أيها المخدوم، إنَّ (هو الظاهرُ هو الباطنُ) صحيحٌ، ولكن هذا الفقير لا يفهم من هذا الكلام معنى التَّوحيد - يعني: الوجودي - من مدَّةٍ، بل أنا متَّفقٌ بالعلماء في فهم معناه، وموافقُهم في صحَّته، فإنَّ صحَّةَ كلامهم قد صارت معلومةً لدي فوق صحة قول أرباب التوحيد، «**كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**»(١):

(ع) لِكُـلٍّ مِنَ الْإِنْسَـانِ شَـأْنٌ يَخُصُّـهُ

وما يلزم الإنسان الذي لا بدَّ له منه وهو مكلَّفٌ به: امتثال الأوامر، والانتهاء عن المناهي، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الحشر: ٧]، وإذا كان الإنسانُ..

(١) أخرجه البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧) من حديث علي ﷺ.

مأموراً بالإخلاص، والإخلاصُ لا يُتصوَّرُ بدون الفناء والمحبَّة الذاتيَّة؛ لا جرم ينبغي أن يحصِّل مقدمات الفناء التي هي المقاماتُ العشرةُ، والفناءُ وإن كان نفسُه موهبةً محضةً، ولكنَّ مقدِّماته ومباديه متعلِّقةٌ بالكسب، وإن تشرَّف البعضُ بحقيقة الفناء من غير تجشُّمِ كسبٍ منه في مقدماته وتصفية حقيقته بالرياضات والمجاهدات، وحينئذٍ لا يخلو حاله من أحد الأمرين: إما أن يوقَفَ في موقف الواقفين، أو يُرجَعَ إلى العالم لتكميل النَّاقصين، فعلى التَّقدير الأوَّل لا يقع سيرُه في المقامات المذكورة، ولا يكون له خبرٌ عن تفاصيل التجليات الأسمائية والصفاتيَّة، وعلى التَّقدير الثاني يقع سيرُه في تفاصيل المقامات حين رجوعه إلى العالم، ويتشرَّفُ بتجلياتٍ غير متناهيةٍ، وتكون له صورةُ المجاهدة، ولكن هو في كمال الذَّوق واللذَّة في الحقيقة بالظَّاهر في الرياضات، وبالباطن في التنعُّم واللذَّات:

(ع) وَهَذِي سَـعَادَاتٌ تَكُونُ نَصِـيبَ مَنْ

لا يقال: إنَّ الإخلاصَ إذا كان من جملة المأمورات الواجبة الامتثال، ولم تتحقَّقْ حقيقتُه بدون الفناء؛ يكون العلماءُ والصلحاءُ والأخيارُ عاصين بترك الإخلاص؛ لعدم تشرُّفهم بحقيقة الفناء؛ لأنا نقول: إنَّ نفسَ الإخلاص حاصلٌ لهم ولو في ضمن بعض أفراد الإخلاص، والمتوقِّفُ على الفناء إنَّما هو كمالُ الإخلاص الذي يشمل جميعَ أفراد الإخلاص، ولهذا قيل: لا يحصل حقيقةُ الإخلاص بدون الفناء، دون أن يقال: نفس الإخلاص.

المَكْتُوبُ التَّاسِعُ وَالثَّلَاثُونَ

صَدَرَ أيضـًا إلى الشَّيخِ محمَّدٍ الجَتْرِيِّ في بيان أنَّ مدار الأمر على القلب، وأنَّه لا يفتَح شيءٌ من مجرَّد الأعمالِ الصُّوريَّة والعباداتِ الرَّسميَّة، وأمثَالِ ذلك.

رزقنا الله سبحانه الإعراض عما سواه، والإقبال على جناب قدسه، بحرمة سيد البشر، المحرَّر عن زيغ البصر، عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات. اعلم أنَّ مدارَ الأمر على القلب، فإن كان القلبُ مفتوناً ومتعلِّقاً بغير الحقّ سبحانه وتعالى؛ فذلك القلبُ خرابٌ وأبترُ، ولا يحصل شيءٌ من مجرَّد الأعمال الصوريَّة والعبادات الرسوميَّة، بل لا بُدَّ من كلٍّ من سلامة القلب من الالتفات إلى ما سواه تعالى، والأعمالُ الصَّالحةُ المتعلِّقةُ بالبدن التي أمر الشرع بفعلها، ودعوى سلامة القلب بدون إتيان الأعمال الصالحة باطلةٌ، كما أنَّ وجودَ الروح بلا بدنٍ غيرُ متصوَّرٍ في هذه النَّشأة، وحصول الأحوال القلبية من غير حصول الأعمال الصالحة القالبيَّة محالٌ، وكثيرٌ من الملحدين يدَّعون هذه الدعوى في هذا الزمان، نجانا الله سبحانه عن معتقداتهم السيِّئة، بحرمة حبيبه عليه الصَّلاةُ والسلامُ والتحيَّةُ.

المَكْتُوبُ الأَرْبَعُونَ

صدَر أيضـًا إلى الشَّيخ محمَّدٍ الجَتْرِيِّ في بيان تحصيل الإخلاص الذي هو جزءٌ مِنَ الأجزاءِ الثَّلاثة للشَّريعة الغرَّاء، وأنَّ الطَّريقَة والحقيقَة خادمَتانِ للشَّريعة في تكميل هذا الجزء، وأمثالِ ذلك.

نحمده ونصلي على نبيه ونسلم. أيُّها المخدوم قد صار معلوماً لي بعد طيِّ منازل السُّلوك وقطع مقامات الجذبة أنَّ المقصودَ من هذا السَّير والسُّلوك: تحصيلُ مقام الإخلاص المربوط حصولُه بفناء الآلهة الآفاقيَّة والأنفسيَّة، وهذا الإخلاصُ جزءٌ من أجزاء الشَّريعة، فإنَّ للشَّريعة ثلاثةَ أجزاء: العلمُ والعملُ والإخلاصُ، فالطَّريقةُ والحقيقةُ خادمتان للشَّريعة في تكميل جزء الإخلاص، وهذا هو حقيقةُ الأمر، ولكن لا يُدْرِكُ فهمُ كلٍّ..........................

أحدِ ذلك، وأكثرُ خلق العالم قد اطمأنُّوا بالمنام والخيال، واكتفوا بالجوز والموز، فماذا يُدْرِكون من كمالات الشَّريعة؟ وأنَّى يصلون إلى حقيقة الطَّريقة والحقيقة؟ فيزعمون الشَّريعةَ قشراً، والحقيقةَ لبّاً، ولا يدرون ما حقيقةُ المعاملة، بل يغترُّون بترَّهات الصوفيَّة، ويفتتنون بالأحوال والمقامات السُّفليَّة، هداهم الله سبحانه سواءَ الطريق، والسَّلامُ علينا وعلى عباد الله الصالحين.

المَكْتُوبُ الحَادِي وَالأَرْبَعُونَ

إلى الشَّيخ دَرويشٍ في التَّحريضِ على مُتابعةِ السُّنَّة السَّنيَّة المُصطفَويَّة، على صاحِبها الصَّلاة والسَّلام والتَّحيَّة، وبَيانِ أنَّ الطَّريقَة والحَقيقَة متمِّمَتان للشَّريعَة، وما يُناسبُ ذلك.

رزقنا الله سبحانه وتعالى التحلِّي والتزيُّن بمتابعة السنة السنيَّة المصطفويَّة، على صاحبها الصلاة والسلام والتحية، ظاهراً وباطناً بحرمة النبيِّ وآله الأمجاد، عليه وعليهم الصلوات والتسليمات.

إنَّ محمداً رسولُ الله ﷺ محبوبُ ربّ العالمين، وكلُّ شيءٍ حَسَنٍ ومرغوبٍ؛ فهو لأجل المطلوب والمحبوب، ولهذا قال الله تعالى في كلامه المجيد: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وقال تعالى وتقدس أيضاً: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يس: ٣-٤]، وقال أيضاً: ﴿أَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فسمّى ملّته ﷺ: صراطاً مستقيماً، وجعل ما سواها داخلاً في السُّبُل، ومنع عن اتِّباعها، وقال عليه الصلاة والسلام إظهاراً للشكر وإعلاماً للخلق وهدايةً لهم: «خَيْرُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ»(١)، وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً: «أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي»(٢)، والباطنُ متمِّمٌ للظاهر ومكمِّلٌ له، لا مخالفةَ بينهما مقدار شعرةٍ. مثلاً: عدمُ التكلّم بالكذب شريعةٌ، ونفيُ الكذب عن الخاطر طريقةٌ وحقيقةٌ، فإنَّ ذلك النَّفيَ لو كان بالتعمُّل والتكلُّف؛ فطريقةٌ، وإلا؛ فحقيقةٌ، فكان الباطنُ الذي هو الطريقةُ والحقيقةُ متمِّماً ومكمِّلاً في الحقيقة للظَّاهر الذي هو الشَّريعة، فإن ظهر لسالكي سبل الطريقة والحقيقة في أثناء طريقهم أمورٌ مخالفةٌ لظاهر الشَّريعة، وأظهروا ذلك؛ فهو مبنيٌّ على سُكْر الوقت وغلبة الحال، فإن جاوزوا ذلك المقامَ، وخرجوا من مضيق السكر إلى فضاء الصحو؛ ترتفع تلك المنافاةُ بالكلية، وتكون تلك العلومُ المتضادَّةُ هباءً منثوراً. مثلاً: قالت طائفةٌ من السُّكر بالإحاطة الذاتيَّة، ورأوا أنَّ الحقَّ محيطٌ بالعالم بالذات تعالى وتقدس، وهذا الحكمُ مخالفٌ لآراء علماء أهل الحقّ، فإنَّهم قائلون بإحاطةٍ علميَّةٍ، وآراءُ العلماء أقربُ إلى الصواب في الحقيقة، وإذا قال هؤلاء الصوفيَّة بنفسهم بأنَّ ذات الحقّ سبحانه وتعالى لا يُحْكَمُ عليها بحكمٍ؛ يكون الحكمُ عليها بالإحاطة والسريان مخالفاً لهذا القول.

والحقُّ: أنَّ ذاتَه تعالى ليس كمثله شيء، لا سبيلَ لحكمٍ من الأحكام إليها أصلاً، بل في ذلك الموطن الحيرةُ الصرفةُ، والجهالةُ المحضةُ، فكيف يتطرَّقُ السريانُ والإحاطةُ إليها؟ ويمكن الاعتذارُ من جانب الصوفية القائلين بهذه الأحكام بأنَّ مرادهم بالذات هو التعين الأوَّل، فإنَّهم لما لم يقولوا بزيادة ذلك التعين على المتعين؛ قالوا لذلك التعين: عينَ الذات، وذلك التعيُّنُ الأوَّلُ المعبَّرُ عنه بالواحدية سارٍ في جميع الممكنات، فحينئذٍ يصحُّ الحكم بالإحاطة الذاتيَّة.

وههنا دقيقةٌ: ينبغي أن يعلم أنَّ ذات الحق تعالى وتقدس عند علماء أهل الحق منزَّهةٌ عن المثل والكيف، وكلُّما سواها زائدٌ عليها، حتى إنَّ ذلك التعيُّن لو كان ثابتاً عندهم؛ لكان زائداً على الذات، وخارجاً عن دائرة اللامثليَّة واللاكيفيَّة، فلا يقال لإحاطته: إحاطةٌ ....

---

(١) أخرجه مسلم (٨٦٧) من حديث جابر ﵁ ضمن حديثٍ.

(٢) أخرجه ابن السمعاني في «أدب الإملاء» (ص: ١) من حديث ابن مسعود ﵁ بلفظ: «إن الله أدَّبني وأحسن أدبي».

ذاتيةٌ، فكان نظرُ العلماء أعلى من نظر هؤلاء الصوفيَّة، فإن الذاتَ عندهم كانت داخلةً فيما سواها عند العلماء، وعلى هذا القياس القربُ والمعيَّةُ الذاتيان، وموافقةُ المعارف الباطنيَّة لعلوم ظاهر الشَّريعة بتمامها وكمالها بحيث لا يبقى مجالُ المخالفة في النَّقير والقطمير، إنَّما هي في مقام الصِّدِّيقية الذي هو فوق مقام الولاية وفوق مقام الصديقية مقامُ النبوَّة، والعلومُ الحاصلةُ للنبيّ بطريق الوحي منكشفةٌ للصِّدِّيق بطريق الإلهام، وليس بين هذين العلمين فرقٌ سوى كون حصول أحدهما بالوحي والآخر بالإلهام، فكيف يكون للمخالفة مجالٌ فيه؟ وفي كلِّ مقامٍ دون مقام الصديقية نحوٌ من السكر والصحو التام، إنَّما هو في مقام الصديقية فحسب.

وفرقٌ آخر بين هذين العلمين: إنَّ في الوحي قطعاً، وفي الإلهام ظنّاً، فإنَّ الوحيَ - بتوسُّط الملك والملائكة معصومون، ليس فيهم احتمالُ الخطأ، والإلهامُ وإن كان له المحلُّ المعلَّى والمنزلُ الأعلى الذي هو القلب الذي هو من عالم الأمر، لكن للقلب نحوٌ من التعلُّق بالعقل والنفس، والنفسُ وإن صارت مطمئنَّةً بالتزكية، لكنَّها لا ترجع عن صفاتها أصلاً باطمئنانها، فكان للخطأ مجالٌ في ذلك الميدان.

ومما ينبغي أن يعلم: أنَّ لبقاء صفات النفس مع وجود اطمئنانها منافع كثيرة، وفوائد عديدة، فإنَّه لو كانت النفسُ ممنوعةً عن ظهور صفاتها بالكليَّة؛ لكان طريقُ الترقّي مسدوداً، ولظهر في الروح صفةُ الملك، بحيث تصير محبوسةً في مقامها، فإنَّ ترقِّيها إنَّما هو بواسطة مخالفتها النفس، فإن لم تبقَ في النفس مخالفةٌ؛ فمن أين يحصل الترقّي. ولما رجع سيِّدُ الكائنات عليه أفضل الصلوات وأكمل التسليمات من الجهاد مع الكفار مرَّةً قال: «رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ»[1]، فقال للجهاد مع النَّفس: جهاداً أكبر، ومخالفةُ النَّفْس في ذلك الموطن إنَّما تكون بترك أدنى عزيمةٍ، بل بإرادتها ذلك التَّرك مهما أمكن؛ لعدم تصوُّر تحقُّق الترك فيه، ويحصل بهذه الإرادة من النَّدامة والخجالة والالتجاء والتضرُّع إلى جناب قدسه جلَّ سلطانه ما يتيسَّرُ بها فوائدُ أمورِ سنةٍ مثلاً في ساعةٍ لطيفةٍ.

ولنرجع إلى أصل الكلام ونقول: كلَّما يوجد فيه شمائلُ المحبوب وأخلاقُه؛ يكون ذلك الشيءُ أيضاً محبوباً بتبعيَّة المحبوب، وفي قوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] بيانٌ لهذا الرمز، فالسعيُ في متابعته عليه الصلاة والسلام يجرُّ إلى المحبوبيَّة، فعلى كلِّ عاقلٍ ذي لبِّ السعيُ في كمال اتِّباع حبيبه عليه الصلاة والسلام ظاهراً وباطناً. وقد انجرَّ الكلامُ إلى التَّطويل، والمأمولُ مسامحتكم، وجمالُ الكلام إذا كان من الجميل المطلق يزداد حسناً كلَّما يزداد طولاً، ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

ولننقل الكلام إلى محلٍّ آخر ونقول: إنَّ حاملَ هذه الرقيمة مولانا محمد حافظ من أهل العلم وكثير العيال، وبسبب قلَّة أسباب المعيشة توجَّهَ نحو العسكر، فإن بذلتم في حقِّه العنايةَ والالتفاتَ، وكلَّمتم الرئيسَ المنصورَ الأمير النقيب السيد الشيخ جيو؛ لتحصيل الوظيفة أو الإمداد للمشار إليه؛ يكون عينَ الكرم، ولا نصدع بأزيد من ذلك.

المكتوب الثاني والأربعون

إلى الشَّيخ محمَّدٍ المذكورِ أيضاً في بيانِ أنَّ أفضلَ المصاقيلِ لإزالةِ صدأِ محبَّةِ ما سوَى الحقِّ منَ الحقيقَةِ الجامعةِ القلبيَّةِ: متابعةُ السُّنَّة السَّنيَّة، على صاحبِها الصَّلاة والسَّلام والتَّحيَّة.

سلمكم الله سبحانه وأبقاكم. واعلم أنَّ الإنسانَ ما دام متلوِّثاً بدَنَس التعلُّقات الشَّتَّى محرومٌ..............

---

(١) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١٥/ ٦٨٥) من حديث جابر ﷺ بلفظ: «قدمتم خيرَ مقدمٍ من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»، قالوا: وما الجهاد الأكبر؟ قال: «مجاهدة العبد هواه».

ومهجورٌ، ولا بُدَّ من تصقيل مرآة الحقيقة الجامعة من صدأ محبَّة ما سواه عزّ وجلّ، وأفضلُ المصاقيل في إزالة ذلك الصدأ: متابعةُ السنَّة السنيَّة المصطفويَّة، على مصدرها الصلاة والسلام والتحيةُ، ومدارُ ذلك على رفع العادات النفسانيَّة، ودفع الرسوم الظلمانيَّة، فطوبى لمن تشرَّف بهذه النِّعمة العظمى، وويلٌ لمن حرم من هذه الدولة القصوى.

وبقيَّةُ المرام: إنَّ أخي الأعز ميان مظفر بن المرحوم الشيخ كهورن من أعيان الناس، وأولاد الأكابر وحوله من متعلقاته جمعٌ كثيرٌ، فهو محلُّ الترحُّم، فبماذا نصدع أزيد من ذلك؟ والسلام عليكم وعلى من اتبع الهدى.

المَكتُوبُ الثَّالِثُ وَالأَربَعُونَ

إلى السَّيِّد النَّقيبِ الشَّيخ فريدِ البخاريِّ في بيانِ أنَّ التَّوحيدَ على قسمَينِ: شُهوديٌّ ووجوديٌّ، وأنَّ ما لا بدَّ منه هوَ الشُّهوديُّ المربوطُ به الفَناءُ، وأنَّه في مرتَبة عينِ اليقينِ، وما فوقَه فهو حقُّ اليقينِ، وَما يُناسبُ ذلك منَ الأسئِلة والأجوِبَة والتَّمثيلاتِ الموَضِّحة.

سلمكم الله سبحانه، وعصمكم عما يصِمّكم، وصانكم عما شانكم. واعلم أنَّ التَّوحيدَ الذي يظهر في أثناء طريق هذه الطَّائفة العليّة على قسمين: توحيدٌ شهوديٌّ وتوحيدٌ وجوديٌّ، فالتَّوحيدُ الشهوديُّ: هو مشاهدةُ الواحد، يعني: لا يكون مشهودُ السَّالك غيرَ واحدٍ، والتوحيدُ الوجوديُّ: هو أن يعلم السَّالكُ ويعتقد الموجودَ واحداً، وأن يعتقدَ أو يظنَّ غيره معدوماً، وأن يزعمَ الغير مع اعتقاد عدميّته مجالي ذلك الواحد ومظاهرَه، فكان التَّوحيدُ الوجوديُّ من قبيل علم اليقين، والتَّوحيدُ الشهوديُّ من قبيل عين اليقين، وهو من ضروريّات هذا الطَّريق، فإنَّ الفناءَ لا يتحقَّق بدونه، ولا يتيسَّرُ عين اليقين بلا تحقُّقه، فإنَّ مشاهدةَ الأحديَّة باستيلائها مستلزمةٌ لعدم رؤية ما سواه، بخلاف التَّوحيد الوجوديّ، فإنَّه ليس كذلك، يعني: أنَّه ليس بضروريٍّ، فإنَّ علمَ اليقين حاصلٌ بدون تلك المعرفة؛ لأنَّ علمَ اليقين ليس بمستلزمٍ لنفي ما سواه تعالى.

غَايةُ ما فِي البابِ: أنَّه مستلزمٌ لنفي علم ما سواه وقت غلبة علم ذلك الواحد واستيلائه. مثلاً: إذا حصل لشخصٍ يقينٌ بوجود الشَّمس؛ فاستيلاءُ هذا اليقين غيرُ مستلزمٍ للعلم بأنَّ النُّجومَ منتفيةٌ ومعدومةٌ في ذلك الوقت، ولكن حين رؤيته الشَّمس لا يرى النُّجومَ ألبتَّة، ولا يكون مشهودُه غيرَ الشَّمس، وفي هذا الوقت الذي لا يرى فيه النُّجومَ يعلم أنَّ النُّجومَ ليستْ بمعدومةٍ، بل يعلم أنَّها موجودةٌ ولكنَّها مستورةٌ، وفي تشعشع نور الشَّمس مغلوبةٌ، وهذا الشَّخصُ في مقام الإنكار لجماعةٍ ينفون وجود النُّجوم في ذلك الوقت، ويرى أنَّ تلك المعرفةَ غيرُ واقعيّةٍ، فالتَّوحيدُ الوجوديُّ الذي هو نفيُ ما سوى ذاتٍ واحدةٍ تعالتْ وتقدست مخالِفٌ للعقل والشَّرع، بخلاف التَّوحيد الشهوديّ، فإنَّه لا مخالفةَ في مشاهدة الواحد، ونفيُ النُّجوم وقت طلوع الشمس مثلاً والقولُ بأنَّها معدومةٌ مخالفٌ للواقع، وأما عدمُ رؤية النُّجوم في ذلك الوقت؛ فلا مخالفةَ فيه أصلاً، بل هذا إنّما هو بواسطة غلبة ظهور نور الشَّمس، وضعف بصر الرَّائي، فإن اكتحل بصرُ الرائي بنور الشمس؛ تحصل له قوَّةٌ يرى بها أنَّ النُّجومَ ممتازةٌ من الشمس، وهذه الرُّؤية - يعني: رؤيةَ النُّجوم - ممتازةٌ من الشمس في مرتبة حقّ اليقين.

وأقوالُ بعض المشائخ التي تُرَى مخالفةً لظاهر الشَّريعة الحقَّة، ونزَّلها بعض الناس إلى التَّوحيد الوجوديّ، مثل قول الحسين بن منصور الحلّاج: أنا الحقّ، وقول أبي يزيد البسطاميّ: سبحاني ما أعظم شأني، وأمثال ذلك؛ فالأَوْلى والأنسبُ تنزيلُها إلى التَّوحيد الشهوديّ، وإبعادُ المخالفة عنها، فإنَّهم لما اختفى ما سوى الحقّ سبحانه عن نظرهم؛ تكلّموا بهذه الألفاظ

في غَلَبَة ذلك الحال، ولم يُثْبِتُوا غيرَ الحقّ سبحانه. ومعنى: أنا الحقُّ: أنّه الحقّ دون أنا، فإنَّه لما لم ير نفسه؛ لم يثبته، لا أنّه رأى نفسه، وقال: إنَّه الحق، فإنَّ هذا كفرٌ.

لا يقال: إنَّ عدمَ الإثبات مستلزمٌ للنفي، وهو التَّوحيدُ الوجوديُّ بعينه؛ لأنَّا نقول: لا يلزم من عدم الإثبات النفيُ، فإنَّ في ذلك الموطن حيرةً بحيث قد سقطت الأحكامُ فيه بالتمام. وفي قول: سبحاني أيضـاً تنزيهُ الحقّ، لا تنزيه القائل نفسه، فإنَّ نفسه قد ارتفع عن نظره بالكليَّة لا يتعلَّقُ به حكمٌ أصلاً، وأمثالُ هذه الأقوال تظهر من البعض في مقام عين اليقين الذي هو مقامُ الحيرة، فإذا ترقّوا من ذلك المقام، وبلغوا مرتبةَ حقّ اليقين؛ يتحاشون من أمثال تلك الكلمات، ولا يتعدّون عن حدِّ الاعتدال.

وقد أشاع التَّوحيد الوجوديّ في هذا الزمان كثيرٌ من هذه الطَّائفة المتزيين بزيّ الصوفية، ولا يدرون أنَّ الكمالَ فيما وراءه، ويقنعون من العين بالعلم، وينزِّلون أقوالَ المشائخ إلى متخيلاتهم، ويجعلونها مقتدىً بها لأوقاتهم، وسنداً لأحوالهم، ويروِّجون سوقهم الكاسد بهذه التخيُّلات، ولئن وقع في عبارات بعض المشائخ المتقدمين فرضـاً ألفاظٌ صريحةٌ في التَّوحيد الوجوديّ؛ كان ينبغي حملُها على أنَّهم تكلّموا بهذه الكلمات في الابتداء حين كونهم في مقام علم اليقين، ثم ترقَّى حالهم من ذلك المقام، وجاوزوا من العلم إلى العين أخيراً.

لا يقال هنا: إنَّ أربابَ التَّوحيد الوجوديّ كما أنَّهم يعلمون الواحدَ فقط؛ كذلك هم لا يرون إلا الواحد فقط، فكان لهم نصيبٌ من عين اليقين أيضـاً؛ لأنَّا نقول: إنَّ أربابَ هذا التَّوحيد إنّما يرون صورةَ التَّوحيد الشهوديّ المثاليَّة، لا أنَّهم تحقَّقوا بذلك التَّوحيد، ولا مناسبةَ للتَّوحيد الشهوديّ بهذه الصُّورة المثاليَّة في الحقيقة؛ لأنَّ وقتَ حصول ذلك التَّوحيد وقتُ حيرةٍ، لا حكم بشيءٍ في ذلك الموطن، وصاحبُ التَّوحيد الوجوديّ مع شهوده لصورة التَّوحيد الشُّهوديّ المثاليَّة من أرباب العلم؛ فإنَّه ينفي ما سوى الواحد، والنفيُ حكمٌ من الأحكام، وهو من مقولة العلم، والعلمُ لا يجتمع مع الحيرة. فثبت أنَّ صاحبَ التَّوحيد الوجوديّ لا حَظَّ له من مقام عين اليقين. نعم، إذا وقع لصاحب التَّوحيد الشهوديّ الترقِّي من مقام الحيرة يبلغُ مقامَ المعرفة الذي[1] هو مقامُ حقّ اليقين، فيجتمع العلمُ في ذلك الموطن مع الحيرة، والعلمُ الحاصلُ قبل الحيرة ومع الحيرة هو علمُ اليقين.

ويتضحُ هذا الجوابُ بمثالٍ، وهو أنَّ شخصـاً رأى نفسه مثلاً سلطانـاً في المنام بواسطة مناسبةٍ تتعلَّقُ بمقام السَّلطنة، ووجد في نفسه لوازمَ السَّلطنة، ومعلومٌ أنَّ ذلك الشَّخصَ لم يَصِرْ سلطانـاً بعدُ بهذه الرُّؤية، بل رأى نفسه في صورة السّلطنة المثالية، ولا مناسبةَ في الحقيقة للسَّلطنة بصورتها المثالية أصلاً، إلا أنَّ هذا الشُّهودَ - ولو كان لصورةٍ مثاليةٍ - يُؤْذِنُ بوجود الاستعداد في ذلك الشَّخص للتحقُّق بحقيقة هذه الصورة، بحيث لو اجتهد بغايةِ جهده، وكانت عنايةُ الحقّ جل شأنه شاملَ حاله؛ لبلغ مقام السَّلطنة، وفرقُ ما بين القوة والفعل كثيرٌ، وكم من حديدٍ له قابلية لأن يكون مرآةً لا يصل إلى أيدي الملوك حتى يصير مرآةً بالفعل، ولا يحصل له نصيبٌ من جمالهم.

أين وقعتُ، إلا أنّي أقول: إنَّ سببَ تحرير هذه العلوم الغامضة: هو أنَّ أكثر أبناء هذا الزمان قد تمسَّك بذيل التَّوحيد الوجوديّ، بعضهم بالتقليد، وبعضهم بمجرد العلم، وبعضهم بالعلم الممزوج بالذوق ولو في الجملة، وبعضهم بالإلحاد والزندقة، وصاروا يرون الكلَّ من الحقِّ، بل يرون الكلَّ حقـاً، وطفقوا يخرجون رقابهم بهذه الحيلة من رِبْقَة الإسلام، وتكاليف الشريعة،..................

---

(١) في النسخ: (التي)، ولعل الصواب ما أثبتناه.

ويخترعون أنواع المداهنات في الأحكام الشرعيَّة، ويفرحون بهذه المعاملات الغير المرعيَّة، ولئن اعترفوا بإتيان الأوامر الشرعية إنّما يعترفون به بالتبعيَّة، ويتخيلون المقصودَ الأصليَّ وراء الشَّريعة العليّة، حاشا وكلا ثم حاشا وكلا، نعوذ بالله سبحانه من هذا الاعتقاد السوء، فإنَّ الطَّريقة والشَّريعة كلٌّ منهما عينُ الآخر، لا مخالفةَ بينهما مقدارَ شعرةٍ، وإنَّما الفرقُ بينهما بالإجمال والتَّفصيل، والاستدلال والكشف، وكلُّما هو مخالفٌ للشَّريعة؛ فهو مردودٌ، وكلُّ حقيقةٍ ردَدته الشَّريعة؛ فهو[1] زندقةٌ، وطلبُ الحقيقة مع الاستقامة في الشَّريعة حالُ أهل الكمال من الرجال، رزقنا الله سبحانه وإياكم الاستقامةَ والثباتَ على متابعة سيد البشر، عليه وعلى آله الصلواتُ والتسليمات والتحيات ظاهراً وباطناً.

وكان العارف بالله حضرة شيخنا وقبلتنا قدّس الله سره في مشرب التَّوحيد الوجوديّ زمانـاً، وبيَّنه في رسائله ومكاتيبه، ثم رزقه الله سبحانه الترقِّي من ذلك المقام أخيراً، ووُجِّه نحو الطَّريق الأعظم، وخلَّصه من مضيق هذه المعرفة. نقل الشيخ ميان عبد الحق الذي هو من جملة مخلصيه عنه أنَّه قال قبل مرض موته بجمعةٍ: إنَّه قد صار لي معلوماً بيقينِ يقينٍ أنَّ التَّوحيدَ الوجوديَّ سكَّةٌ صغيرةٌ، والطَّريق الأعظم غيره، وقد كنت علمتُ هذا سابقـاً، ولكن الآن قد حصل لي يقينٌ آخر. وكان هذا الفقيرُ أيضـاً في مشرب التَّوحيد مدَّةً حين كنت في ملازمة شيخي وحضوره، ولاحتْ لي مقدّماتٌ كشفيةٌ في تأييد هذا الطَّريق وتقويته كثيراً، ثم جاوزتُ ذلك المقام بعناية الله جلَّ سلطانه، وشرفني الله سبحانه بمقامٍ أراده لي. ولنكتفِ بهذا القدر، فإنَّ الزيادةَ على ذلك موجبٌ للإطناب.

والشيخ ميان زكريا لا يزال يكتبُ في شأن منصبه، ويظهر الالتجاءَ إلى عتبتكم العليّة، وهو في غاية الخوف من المحاسبة، وجعل ملجأه ومعتصمه في عالم الحكمة جنابَ قدسكم، وليس له ملاذٌ وملجأٌ في الظَّاهر سوى توجُّهاتكم العليّة، فكما سبق التفاتُكم إليه؛ كذلك يرجو أن تُعينوه وتحفظوه من ذئاب الحوادث، وهو لا يتجاسَرُ أن يعرضَ أحواله عليكم بنفسه؛ لكمال رعاية الأدب معكم، ولهذا يتوسَّلُ بالفقير إليكم في إظهار أحواله، والمرجوُّ أن يقترن مسؤوله بالإجابة.

المَكْتُوبُ الرَّابِعُ وَالأَرْبَعُونَ

إلى المذكورِ أيضـاً في مدحِ خيرِ البشرِ عليه وعلى آلِه الصَّلاة والسَّلام، وبَيَانِ أنَّ مُصدِّقيه من خيرِ الأممِ، ومكذِّبيه من أشرارِ بَني آدمَ، وفي التَّرغيبِ في متابعةِ سنَّته السَّنيَّة، عليه وعلى آله الصَّلاة والسَّلام والتَّحيَّة.

ورد مكتوبكم الشريف في أعزّ الأزمنة، وتشرَّفت بمطالعته. الحمد لله سبحانه والمنَّة على ما حصلتم من ميراث الفقر المحمديّ، عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات، ومحبة الفقراء، والارتباط بهم من نتيجة ذلك الفقر، ولم أدرِ ماذا أكتب في جوابه سوى أن أحرِّرَ فقراتٍ بعبارةٍ عربيةٍ مأثورةٍ في فضائل جدِّكم الأعظم خير العرب والعجم، عليه وعلى آله من الصلوات أتمها، ومن التحيات أكملها، وأجعل هذا المكتوبَ وسيلةً لنجاةٍ أخرويَّةٍ، لا أنّي أمدحُ به النبيَّ عليه الصلاة والسلام، بل أمدحُ به مقالي: (شعر)

مَا إِنْ مَدَحْتُ مُحَمَّداً بِمَقَالَتِي ... لَكِنْ مَدَحْتُ مَقَالَتِي بِمُحَمَّدِ

فأقول وبالله العصمة والتوفيق: إن محمداً رسولُ الله سيد ولد آدم[2]، وأكثرُ الناس تبعـاً يوم.........

---

(١) في النسخ: (ردته الشريعة فهو)، وفي بعضها: (رددته الشريعة فهو).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعـاً: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة».

القيامة[١]، وأكرم الأوَّلين والآخرين على الله[٢]، وأوَّلُ من ينشقُّ عنه القبرُ، وأوَّلُ شافعٍ وأوَّل مشفَّعٍ[٣]، وأوَّلُ من يقرع باب الجنة، فيفتح اللهُ له، وحاملُ لواء الحمد يوم القيامة، تحته آدمُ فمن دونه[٤]، وهو الذي قال عليه الصلاة والسلام: «نَحْنُ الْآخِرُونَ وَنَحْنُ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنِّي قَائِلٌ قَوْلاً غَيْرَ فَخْرٍ»[٥]، و«أَنَا حَبِيبُ اللهِ»[٦]، و«أَنَا قَائِدُ الْمُرْسَلِينَ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَلَا فَخْرَ»[٧]، و«أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، إِنَّ اللهَ خَلَقَ الْخَلْقَ، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ، ثُمَّ جَعَلَهُمْ فَرِيقَيْنِ، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ فِرْقَةً، ثُمَّ جَعَلَهُمْ قَبَائِلَ، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ قَبِيلَةً، ثُمَّ جَعَلَهُمْ بُيُوتـًا، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ بَيْتـًا، فَأَنَا خَيْرُهُمْ بَيْتـًا، وَخَيْرُهُمْ نَفْسـًا»[٨]، و«أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ خُرُوجـًا إِذَا بُعِثُوا، وَأَنَا قَائِدُهُمْ إِذَا وَفَدُوا، وَأَنَا خَطِيبُهُمْ إِذَا نَصَتُوا، وَأَنَا شَفِيعُهُمْ إِذَا حُبِسُوا، وَأَنَا مُبَشِّرُهُمْ إِذَا يَئِسُوا، وَلِوَاءُ الْكَرَمِ وَالْمَفَاتِيحُ يَوْمَئِذٍ بِيَدِي، وَلِوَاءُ الْحَمْدِ يَوْمَئِذٍ بِيَدِي، وَأَنَا أَكْرَمُ وَلَدِ آدَمَ عَلَى رَبِّي، يَطُوفُ عَلَيَّ أَلْفُ خَادِمٍ كَأَنَّـهُمْ بَيْضٌ مَكْنُونٌ»[٩]، و«إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ كُنْتُ إِمَامَ النَّبِيِّينَ وَخَطِيبَهُمْ، وَصَاحِبَ شَفَاعَتِهِمْ غَيْرَ فَخْرٍ»[١٠]. لولاه لما خلق الله سبحانه الخلقَ، ولما أظهر الربوبيَّةَ[١١]، وكان نبيـًا وآدمُ بين الماء والطين[١٢]:

(شعر) مَـنْ كَـانَ هَـذَا مُـقْـتَـدَاهُ بِـأَمْـرِهِ ... لَنْ يَبْقَ فِي قَيْـدِ الـذُّنُوبِ وَأَسْـرِهِ

فلا جرم يكون مصدّقُ مثل هذا الرَّسول النبيّ الكريم سيِّد البشر عليه الصلاة والسلام خيرَ الأمم ألبتَّة، ويكون قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] نقدَ وقتهم، ووصفَ حالهم، ويكون مكذّبوه عليه الصلاة والسلام شرَّ بني آدم، ويكون قوله تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ [التوبة: ٩٧] علامةَ حالهم، فيا سعادة من يشرف بدولة اتِّباع سنَّته السنيَّة، ومتابعة شريعته المرضيَّة، واليوم يُقبَل الأمرُ اليسيرُ المقرون بتصديق حقيَّة دينه عليه الصلاة والسلام مكان العمل الكثير، ولا غروَ فيه، ألا ترى أنَّ أصحابَ الكهف نالوا ما نالوا من الدَّرجات بواسطة حسنةٍ واحدةٍ، وهي الهجرةُ والفرارُ عن أعداء الله تعالى بسبب نور اليقين الإيمانِيِّ وقت استيلاء.........................

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٦) من حديث أنس بن مالك ﷺ يرفعه: «أنا أكثر الأنبياء تبعـًا».

(٢) أخرجه الترمذي (٣٦١٦) واستغربه من حديث ابن عباس ﷺ مرفوعـًا ضمن حديث: «وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر».

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع».

(٤) أخرجه الترمذي (٣١٤٨) وحسنه، وابن ماجه (٤٣٠٨) من حديث أبي سعيد ﷺ. وأخرجه الترمذي (٣٦١٠) وحسنه، والدارمي (٥٣) من حديث أنس بن مالك ﷺ. وأخرجه الترمذي (٣٦١٦)، والدارمي (٤٨) من حديث ابن عباس ﷺ.

(٥) أخرجه الدارمي في «السنن» (٥٥) من حديث عمرو بن قيس ﷺ.

(٦) أخرجه الترمذي (٣٦١٦) من حديث ابن عباس ﷺ ضمن حديث.

(٧) أخرجه الدارمي (٥٠)، والطبراني في «الأوسط» (١٧٠) من حديث جابر ﷺ.

(٨) أخرجه الترمذي (٣٥٣٢) وحسنه من حديث العباس ﷺ، وفي آخره: (وخيرهم نسبـًا) بدل: (نفسـًا).

(٩) أخرجه الترمذي (٣٦١٠)، والدارمي (٤٩) واللفظ له من حديث أنس ﷺ.

(١٠) أخرجه الترمذي (٣٦١٣)، وابن ماجه (٤٣١٤) من حديث أبي بن كعب ﷺ. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(١١) هذا إشارةٌ إلى ما أخرجه الديلمي في «الفردوس» (٨٠٣١) من حديث ابن عباس ﷺ مرفوعـًا: «يقول الله عز وجل: وعزتي وجلالي، لولاك ما خلقت الجنة، ولولاك ما خلقت الدنيا». وأخرج الحاكم في «المستدرك» (٤٢٢٧) وصححه على شرط الشيخين من حديث ابن عباس ﷺ مرفوعـًا: «أوحى الله إلى عيسى عليه السلام:... فلولا محمد ما خلقت آدم، ولولا محمد ما خلقت الجنة ولا النار». وأخرج أيضـًا (٤٢٢٨) وصححه من حديث عمر ﷺ مرفوعـًا في خطاب الله لآدم عليه السلام: «لولا محمد ما خلقتك». وانظر في هذا الحديث: «المواهب اللدنية»: ١/ ٤٦- ٤٧.

(١٢) في الترمذي [٣٦٠٩]: متى كنت نبيـًا، قال: وآدم بين الروح والجسد، وفي صحيح ابن حبان [٦٤٠٣] والحاكم [٣٥٦٦] من حديث العرباض بن سارية: إني عند الله لمكتوب خاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته. انظر: «الدرر المنتثرة»: ١/ ١٦٣.

المعاندين؟ وهذا كما أنَّ العسكرَ إذا صدرت عنهم حركةٌ يسيرةٌ حين غلبة الأعداء واستيلاء المخالفين تكون من القبول والاعتبار بمرتبةٍ لا تبلغها أضعافُ تلك الحركة وقت الأمن والاطمئنان. وأيضاً إنَّه ﷺ لما كان محبوبَ ربّ العالمين؛ لا جرم يبلغ أتباعُه ﷺ مرتبةَ المحبوبيَّة بسبب المتابعة، فإنَّ المحبَّ إذا رأى شيئاً من شمائل محبوبه عند شخصٍ يحبُّ ذلك الشَّخصَ بالضَّرورة؛ لملابسته بشمائل محبوبه وأخلاقه، وقِسْ على ذلك حالَ المخالفين: (شعر)

رَئِيسُ جَمِيعِ الْعَالَمِينَ مُحَمَّدٌ عَلَى رَأْسِ أَعْدَاهُ حَصَىً وَتُرَابُ

فإن لم تتيسّر الهجرةُ الظَّاهريَّةُ؛ ينبغي أن يراعيَ الهجرةَ الباطنيَّةَ بكمالها، وأن يكون معهم -يعني: مع الناس- في الظَّاهر دونهم -يعني: في الباطن-، ولعلَّ الله يحدث بعد ذلك أمراً. وقد أتى موسمُ النيروز، ومعلومٌ أنَّ أهل المملكة يكونون في تلك الأيّام متفرِّقي البال، ومتشتّتي الحال، فإذا ساعدتْ إرادةُ الله سبحانه وتعالى تتيسّرُ الملاقاةُ بعد مضيِّ تلك الأحوال. وزيادةُ الإطناب موجبةٌ للملال، ثبّتكم الله سبحانه على جادة آبائكم الكرام، والسلام عليكم وعليهم إلى يوم القيام.

المَكْتُوبُ الخَامِسُ وَالأَرْبَعُونَ

كتبَه إلى المذكورِ أيضـاً إظهاراً لشُكرِ تقويتِه الظَّاهريَّة أمورَ فقَراءِ الخانقاه بعدَ ارتحالِ شَيخِه، وبيَّن فيه أيضاً كونَ جامعيَّة الإنسانِ سَبباً لنُقصانِه ككَونِها سَبباً لكَمالِه، مع ذِكرِ فَضائِل شَهرِ رمضانَ، وما يناسِبُ ذلك.

ثبَّتكم الله سبحانه على جادَّة آبائكم الكرام، وسلَّمكم عن موجبات التلهُّف والتأسُّف على مرور الشهور والأيّام. واعلم أنَّ أولياءَ الله تعالى بحكم «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ» مع الله تعالى وتقدَّس، والتعلُّق بالبدن نوعٌ من موانع تلك المعيَّة والاتصال، وأما بعد الانفصال من هذا المقرّ الهيولانيّ والمفارقة عن الهيكل الظلمانيّ؛ فقُرْبٌ في قربٍ، واتِّصالٌ في اتِّصالٍ، (الموتُ جسرٌ يوصل الحبيبَ إلى الحبيب) بيانٌ لهذا المعنى، وفي قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ اللهِ فَإِنَّ اَجَلَ اللهِ لَاٰتٍ﴾ [العنكبوت: ٥] تسليةٌ للمشتاقين، ورمزٌ من ذلك البيان، ولكنَّ أحوالَ العاجزين الذين أخَّرتهم العلائقُ والعوائقُ بلا دولة الحضور عند أكابر الدين خرابٌ وأبتر[١]، والاستفاضةُ من روحانيَّات الأكابر قدّس الله أسرارهم مشروطةٌ بشرائطَ لا مجالَ لكلِّ شخصٍ في إيفائها، ولكن الحمد لله سبحانه ذي الإنعام والمنَّة على أن جعلَ مربّي هؤلاء الفقراء العاجزين ومعينَهم وقت ظهور هذه الحادثة الهائلة والواقعة الموحشة المفزعة من أهل بيت النبوَّة على صاحبها الصلاة والسلام والتحيَّة، فصار سبباً لانتظام هذه السِّلسلة العليّة، وواسطةً لجمعيَّة النِّسبة النقشبنديَّة، ولا غَرْو في ذلك، فإنَّ هذه النِّسبةَ العليّةَ لَمّا كانت في هذه الدِّيار غريبةً جداً، وكان أهلُها في هذه المملكة قد جاوزوا في القلَّة حدّاً كنسبة أهل البيت بين سائر النِّسب؛ ناسب أن يكون مربِّيها وحاميها من أهل البيت، وكان تقويتُها منهم أَوْلى وأحرى؛ لئلا يلزم تكميلُ تلك الدَّولة العظمى بالغير، فكما أنَّ شكرَ هذه النعمة القصوى لازمٌ للفقراء؛ كذلك شكرُ هذه الدَّولة الأسمى[٢] لازمٌ لذمَّتهم، وكما أنَّه يحتاج إلى الجمعيَّة الباطنيَّة؛ كذلك يحتاجُ إلى الجمعيَّة الظَّاهريَّة، بل هذا الاحتياجُ مقدَّمٌ على ذلك الاحتياج، وأحوجُ الخلائق هو الإنسانُ، وشدَّةُ احتياجه إنّما هي بواسطة جامعيَّته، فإنَّه يلزمه وحده ما يلزم الكلّ، وله تعلُّقٌ بكلّما يحتاج إليه، فتعلُّقاته أكثرُ من تعلُّقات الكلّ، وكلُّ تعلُّقٍ مستلزمٌ للإعراض عن جناب قدسه تعالى، فكان الإنسانُ أشدَّ........

(١) كذا في النسخ، ولعل الصواب: (بتراء).

(٢) يعني: يلزمهم أيضاً أن يشكروا من قام بتربيتهم، وتقوية نسبتهم بموجب قضية أنَّ شكرَ المنعم واجبٌ. (المعرِّب)

الخلائق وأكثرهم حرماناً من هذه الحيثيَّة: (شعر)

وَمَرْتَبَةُ الْإِنْسَانِ فِي آخِرِ الْوَرَى ... لِذَلِكَ عَنْ عِزِّ الْحُضُورِ تَأَخَّرَا

فَإِنْ لَمْ يَعُدْ مِنْ بُعْدِهِ وَاغْتِرَابِهِ ... فَلَا شَيْءَ مَحْرُومٌ كَأُنْسٍ مِنَ الْوَرَى

والحالُ أنَّ سبب أفضليّته من جميع الخلائق كان أيضاً من جهة جامعيّته، ولهذا كان مرآته أتمّ، فكلما يظهر في مرايا جميع الخلائق؛ فهو لائحٌ في مرآةٍ واحدةٍ منه، فكان أفضلُ الخلائق من هذه الجهة هو الإنسانَ، وشرُّ جميع الموجودات من تلك الجهة هو الإنسانَ؛ إذ منهم محمد عليه الصلاة والسلام، ومنهم أبو جهل اللعين، ولا شكَّ أنّكم كفيلٌ بجمعيّة هؤلاء الفقراء في الظَّاهر بتوفيق الله عز وجلّ، وبحكم (الولد سرٌّ لأبيه) الرجاءُ تامٌّ بحصول الجمعيَّة الباطنيَّة أيضاً بسببكم.

ولما ورد مكتوبكم الشريف في شهر رمضان المبارك؛ خطر في الخاطر الفاتر أن أكتب نبذةً من فضائل هذا الشهر العظيم القدر؛ ينبغي أن يعلم أنَّ شهرَ رمضان شهرٌ عظيمٌ، وكلُّ عبادةٍ نافلةٍ من الصلاة والذِّكر والصدقة وأمثالها في هذا الشهر تساوي أداءَ فريضةٍ فيما سواه، ومن أدَّى فريضةً فيه كان كمن أدَّى سبعين فريضةً فيما سواه، ومن فطّر فيه صائماً؛ كان له مغفرة لذنوبه، وعتقَ رقبته من النار، وكان له مثل أجره من غير أن ينتقص من أجره شيءٌ، ومن خفَّف عن مملوكه فيه؛ غفر اللهُ له، وأعتقه من النار[1]، وكان رسول الله ﷺ إذا دخل شهرُ رمضان أطلقَ كلَّ أسيرٍ، وأعطى كلَّ سائلٍ[2]. ومن وُفِّقَ للخيرات والأعمال الصالحة في هذا الشهر؛ كان التَّوفيقُ رفيقَه في تمام هذه السَّنَة، وإذا مَرَّ هذا الشَّهرُ على تفرقةٍ؛ يكون في جميع السَّنة على تفرقةٍ، فينبغي فيه أن يجتهد في تحصيل الجمعيَّة مهما أمكن مغتنماً لهذا الشهر، فإنَّ الله سبحانه وتعالى يعتق في كلِّ ليلةٍ من لياليها ألوفاً ممن استحقَّ النار، وتفتحُ أبوابُ الجنة في هذا الشهر، وتغلقُ أبوابُ جهنم، وتسلسلُ الشياطينُ، وتفتح أبواب الرَّحمة[3]، وتعجيلُ الإفطار[4] وتأخير السحور من السنن[5]، قد بالغ النبي ﷺ في هذا الباب، ويشبه أن تكون مبالغةً لإظهار احتياجه المناسب لمقام العبوديَّة، والإفطار بالتمر سنةٌ[6]، ويقرأ وقت الإفطار هذا الدعاء: «**ذَهَبَ الظَّمَأُ، وَابْتَلَّتِ الْعُرُوقُ، وَثَبَتَ الْأَجْرُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى**»[7]، وأداء التراويح، وختم القرآن في هذا الشَّهر من السنن المؤكَّدة، ومثمرٌ لنتائج كثيرةٍ، وفَّقنا الله سبحانه بحرمة حبيبه عليه وعلى آله الصلاة والسلام.

وبقيَّةُ الكلام: أنَّ الصَّحيفةَ الشريفةَ وردت في وسط شهر رمضان، وإلا؛ ما كنت أسامح نفسي في التَّأخير عن امتثال الأمر، والتَّكلّمُ مما بعد الشَّهر المذكور حكمٌ بالغيب، ومبنيٌّ على طول الأمل، وبالجملة يكون ما هو مرضاكم، ولا أكون في صون نفسي بوجهٍ من الوجوه، فإنَّ حقوقَكم ثابتةٌ في ذمَّتنا نحن ظاهراً وباطناً، قال حضرةُ.........

---

(١) أخرجه ابن خزيمة في «صحيحه» (١٨٨٧)، وابن أبي الدنيا في «فضائل رمضان» (ص: ٦٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥/ ٢٢٣- ٢٢٤) من حديث سلمان الفارسي ﷺ.

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥/ ٢٣٦- ٢٣٧) من حديث ابن عباس ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري (١٨٩٩) من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب جهنم، وسلسلت الشياطين».

(٤) أخرجه البخاري (١٩٥٧)، ومسلم (١٠٩٨) من حديث سهل ﷺ مرفوعاً: «لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر».
وأخرجه الترمذي (٧٠٠) عن أبي هريرة ﷺ يرفعه: «قال الله عز وجل: إن أحب عبادي إلي أعجلهم فطراً».

(٥) أخرجه البخاري (١٩٢١)، ومسلم (١٠٩٧) عن زيد بن ثابت ﷺ قال: تسحرنا مع رسول الله ﷺ ثم قمنا إلى الصلاة، قلت-يعني: أنس-: كم كان بين الأذان والسحور؟ قال: خمسين آية.

(٦) أخرجه أبو داود (٢٣٥٥)، والترمذي (٦٥٨)، وابن ماجه (١٦٩٩) من حديث سلمان بن عامر ﷺ مرفوعاً: «إذا أفطر أحدكم فليفطر على تمر، فإنه بركة».
وأخرجه أبو داود (٢٣٥٦) من حديث أنس ﷺ: (كان رسول الله ﷺ يفطر على رطبات قبل أن يصلي، فإن لم تكن رطبات؛ فعلى تمرات).

(٧) أخرجه أبو داود (٢٣٥٧)، والنسائي في «الكبرى» (٣٣١٥) من حديث ابن عمر ﷺ.

قبلتنا قدس سره: إنَّ حقوقَ الشَّيخ جيو ثابتةٌ عليكم جميعـًا، ومقرَّرةٌ لديكم، فإنَّه هو الباعثُ على هذه الجمعيَّة، وفَّقنا الله سبحانه جميعـًا دائمـًا للأعمال المرضيَّة، بحرمة النبي وآله الأمجاد، عليه وعليهم الصلوات والتسليمات، والزيادةُ على ذلك تصديعٌ تامٌّ.

المكتوبُ السادسُ والأربعونَ

إلى المذكورِ أيضـًا في بيانِ أنَّ وجودَ الواجبِ تعالى وتقدَّس، وكذلك وحدَانيّته، بل نبوَّة محمَّدٍ رسولِ اللهِ ﷺ ورِسالتَه، وجميعَ ما جاءَ به من عندِ اللهِ، كلَّها بديهيٌّ غيرُ محتاجٍ إلى فكرٍ ودليلٍ، وذُكرَ في إيضاحِ ذلك مقدِّماتٌ كثيرةٌ.

ثبتكم الله سبحانه على جادة آبائكم الكرام، على أولهم وأفضلهم أولاً وعلى بواقيهم ثانيـًا الصلاةُ والسلامُ. واعلم أنَّ وجودَ الباري تعالى وتقدس - وكذلك وحدانيته سبحانه، بل نبوَّةُ محمد رسول الله ﷺ، بل جميعُ ما جاء به من عند الله- بديهيٌّ لا يحتاج إلى فكرٍ ودليلٍ على تقدير سلامة القوَّة المُدْرِكة من الآفات الرديَّة، والأمراض المعنويَّة، والنَّظرُ والفكرُ فيها مقصورٌ على زمن وجود العلَّة وثبوت الآفة، وأما بعد النَّجاة من المرض القلبيّ، وزوال الغشاوة البصريَّة؛ فلا شيءَ سوى البداهة، ألا ترى أنَّ الصفراويَّ مثلًا ما دام مبتلى بعلَّة الصفراء يحتاج إثباتُ حلاوة السُّكَّر والعسل عنده إلى الدَّليل؟

ولكن إذا تخلَّص من تلك العلَّة لا يحتاج إلى دليلٍ أصلاً، ولا منافاةَ بين احتياجه إلى الدليل الناشئ عن وجود الآفة وبين بداهته، يعني: في ذاته، ألا ترى أنَّ الأحولَ يرى الواحد اثنين، ويحكمُ بعدم وحدته، فهو معذورٌ في هذا الحكم، ولا يُخرجُ حكمُه هذا النَّاشئُ من الآفة فيه وحدةَ ذلك الواحد من البداهة، ولا يُدْخِلُها في النَّظرية، ومن المحقَّق أنَّ ميدانَ الاستدلال ضيِّقٌ جداً، وحصول اليقين من طريق الدَّليل والنَّظَر والفكر متعذِّرٌ، فكان فكرُ إزالة المرض القلبيّ لتحصيل الإيمان اليقينيّ ضروريّـًا كما أنَّ إزالةَ علَّة الصفراء في تحصيل اليقين بحلاوة السكر أشدّ ضرورةً من إقامة الدليل على حلاوة السكر، وكيف يحصل اليقينُ به بإقامة الدليل عليه مع حكم وجدانه بمرارته بسبب علة الصفراء القائمة به؟

وهكذا الحكمُ فيما نحن فيه، فإنَّ النفسَ الأمَّارةَ منكرةٌ للأحكام الشرعيَّة بالذات، وحاكمةٌ بتناقضها بالطَّبع، فتحصيلُ اليقين بحقيَّة هذه الأحكام الصَّادقة من طريق الدَّليل مع وجود إنكار وجدان المستدلِّ عليه عسيرٌ جدّاً، فكانت تزكيةُ النَّفس ضروريَّةً؛ لتعسُّر حصول اليقين اللازم الحصول بدونها، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّىٰهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠]، فتقرَّر أنَّ منكرَ هذه الشَّريعة الباهرة والملَّة الطَّاهرة الظَّاهرة معلولٌ بعلَّةٍ مثلَ منكر حلاوة السكر، ولكن: (شعر)

مَا ضَرَّ شَمْسَ الضُّحَى فِي الْأُفْقِ طَالِعَةً ... أَنْ لَا يَرَى ضَوْءَهَا مَنْ لَيْسَ ذَا بَصَرِ

فالمقصودُ من السَّير والسُّلوك وتزكية النَّفس وتصفية القلب: هو إزالةُ الآفات المعنويَّة والأمراض القلبيَّة المشار إليها بقوله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠] لتتحقَّقَ حقيقةُ الإيمان، فإن وجد الإيمانُ مع وجود هذه الآفات؛ فإنَّما هو بحسب الظَّاهر فقط؛ لأنَّ وجدان النفس الأمَّارة حاكمٌ بخلافه، وهي مُصِرَّةٌ على كفرها، ومثلُ هذا الإيمان الصوريّ مثلُ إيمان الصفراويِّ بحلاوة السكر في كون وجدانه حاكمـًا وشاهداً بخلافه، فكما أنَّ اليقينَ الحقيقيَّ بحلاوة السُّكَّرِ إنَّما يحصل بعد زوال مرض الصَّفراء؛ كذلك حقيقةُ الإيمان - يعني: بحقيَّة الأحكام الشرعيَّة........................

وصدقها - إنّما تحصل بعد تزكية النفس واطمئنانها، وحينئذٍ يصير الإيمانُ وجدانيّاً، وهذا القسمُ من أقسام الإيمان محفوظٌ من الزوال، قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] صادقٌ في شأن صاحبه. شرَّفنا الله سبحانه بشرف هذا الإيمان الكامل الحقيقيّ، بحرمة النبي الأميّ القرشيّ، عليه وعلى آله من الصلوات أفضلها، ومن التسليمات أكملها.

المكتوب السابع والأربعون

إلى المذكورِ أيضاً في الشِّكايَة من ضَعفِ أهلِ الإسلامِ، وغلبَةِ الكفَّارِ، وتَرغيبِ السَّلاطينِ في ترويجِ الدِّينِ، وتَقويَة المُسلِمينَ.

ثبتكم الله سبحانه وتعالى على جادَّة آبائكم الكرام، على أفضلهم سيد الكونين أولاً وعلى بواقيهم ثانياً الصلاةُ والتحيةُ والسلامُ. اعلم أنَّ السلطانَ بالنِّسبة إلى العالم بمثابة القلب بالنِّسبة إلى البدن من بني آدم، فكما أنَّ القلبَ إذا كان صالحاً يكون البدنُ صالحاً، وإذا كان فاسداً يكون البدن فاسداً؛ كذلك صلاحُ السلطان صلاح العالم، وفسادُه فساده، ألا ترى أنَّه ماذا جرى على أهل الإسلام في القرن السابق، وفي ابتداء الإسلام مع كمال غربته، وعجز أهله، وقلَّتهم وضعفهم، لم يُورِثْ ذلك ولم يوجبْ شيئاً سوى أن يكون المسلمون على دينهم، والكفارُ على كفرهم؟ يعني: لم يقدر الكفَّارُ أن يغيِّروا من أمور المسلمين شيئاً، وأن يُجْرُوا عليهم أحكامَ الكفر مع قوَّتهم وشوكتهم، وفي قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] بيانٌ لذلك.

وأما في القرن الماضي؛ فقد أجرى الكفارُ أحكامهم في دار الإسلام على الملإ بطريقة الغلبة والاستيلاء، حتى عجز المسلمون عن إظهار أحكام الإسلام، بحيث من أظهره قتلوه، وا ويلا، ويا مصيبتا، ويا حسرتا، ويا حزنا، على ما صار مصدقوا محمد رسول الله ﷺ محبوب رب العالمين أذلّاء حقيرين عديمي المقدار، ومنكرُه في غاية العزّ والاعتبار، والمسلمون في تعزية الإسلام مع قلوبٍ مجروحةٍ، والمعاندون يرشُّون الملحَ على جراحاتهم بالسُّخرية والاستهزاء، وشمسُ الهداية مستورةٌ تحت أفق الضَّلالة، ونورُ الحقِّ مُنْزَوٍ ومنعزلٌ في حجب الباطل، وقد وصل الآن زوالُ مانع ظهور الإسلام، وبشارةُ جلوس سلطان المسلمين على سرير السَّلطنة إلى مسامع الخاصّ والعام، فينبغي لأهل الإسلام أن يعدّوا معاونة السلطان وإمداده لازمةً لذمَّتهم، وأن يدلُّوه على ترويج الشَّريعة، وتقوية الملَّة، وهذا الإمداد والتقويةُ يمكن أن يكون باللسان، وأن يكون باليد، وأسبقُ الإمداد باللسان، وأفضله هو تبيينُ المسائل الشرعيَّة وإظهارُ العقائد الكلاميَّة على طبق الكتاب والسنة السنية، وإجماع الأمة النبوية؛ لئلا يظهر في البين ضالٌّ ومبتدعٌ، فيسد الطَّريق، وينجرَّ الأمرُ إلى الفساد، وهذا القسمُ من الإمداد مخصوصٌ بعلماء أهل الحق المقبلين على الآخرة، فإنَّ علماءَ الدنيا الذين همَّتُهم التهافتُ على متاع الدنيا وجمع حطامها صحبتُهم سمٌّ قاتلٌ، وفسادهم فسادٌ متعدٍّ: (شعر)

إِذَا كَانَ ذُو عِلْمٍ أَسِيراً بِنَفْسِهِ فَمَنْ ذَا الذِي يَنْجُو بِهِ مِنْ غِوَايَتِهِ

وكلُّ بلاءٍ ظهر في القرن الماضي إنّما ظهر بسبب شآمة هؤلاء الجماعة، فإنَّهم هم الذين أخرجوا السُّلطانَ من الطَّريق الحقَّة، بل ليست فرقةٌ من اثنتين وسبعين فرقةً إلا ومقتداهم في اختيار طريق الضلالة هم العلماء السوء، وقلَّ من تتعدَّى ضلالتُه إلى الغير ممن اختار الضَّلالةَ غير العلماء السُّوء، وأكثرُ الجهلاء المتشبهين بالصوفيَّة في هذا الزمان لهم حكمُ العلماء السوء أيضاً، فإنَّ فسادَهم فسادٌ متعدٍّ، والظَّاهر أنَّ كلَّ من يقصِّرُ في الإمداد مع وجود الاستطاعة فيه -أيَّ نوعٍ كان من الإمداد، ووقع الفتورُ على........

أمور أهل الإسلام؛ يكون معاتَباً. وبناءً على هذا يريد هذا الفقيرُ أن يُلْقِي نفسه إلى ميدان مُمِدِّي دولة الإسلام، ويجتهد فيه بقدر الإمكان، فبحكم «مَنْ كَثَّرَ سَوَادَ قَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»[1] يحتمل أن يكون هذا العاجزُ عديمَ الاستطاعة، داخلاً في زمرة هؤلاء الجماعة، وإنَّ مثلي مثل عجوزٍ جاءت بغزلها في سوق مشتريي يوسف على نبينا وعليه الصلاة والسلام لتشتريه به، والمرجوُّ أن أتشرَّفَ بشرف الحضور عن قريبٍ إن شاء الله تعالى، والمتوقَّعُ من جناب شرفكم - حيث يسَّر الله سبحانه وتعالى لك الاستطاعةَ وقربَ السلطان على الوجه الأتمّ - أن تجتهد في ترويج الشَّريعة المحمديَّة، عليه وعلى آله الصلاة والتحية، وإخراج المسلمين من الكربة، والإسلام من الغربة، في خلوةٍ وجلوةٍ.

ولحامل الرَّقيمة مولانا حامد وظيفةٌ مقررةٌ من الأمير صاحب الإقبال، والظَّاهر أنَّه أخذها في العام الماضي في حضوركم، وجاء في هذه السنة أيضاً بهذا الرجاء، يسَّر لكم الله سبحانه الدَّولة الحقيقةَ والمجازيَّةَ.

المَكْتُوبُ الثَّامِنُ وَالأَرْبَعُونَ

إلى المذكورِ أيضاً في التَّحريضِ على تَعظيمِ العُلَماءِ وطَلَبَةِ العُلومِ، الذينَ هم حمَلةُ الشَّريعَةِ الغرَّاء.

نصركم الله سبحانه على الأعداء، بحرمة سيد الأنبياء، عليه وعليهم الصلواتُ والتسليماتُ والتحياتُ. قد تشرَّفتُ بمطالعة مكتوبكم الشَّريف المرسل على وجه الالتفات إلى الفقراء، وحرَّر مولانا محمد قليج موفق في الكتاب أنَّه قد أرسل شيءٌ من الخرج لأجل طلبة العلوم والصوفيَّة، وقد حَسُنَ تقديمُ طلبة العلوم على الصوفية في نظر الهمة جداً، وبحكم (الظَّاهر عنوان الباطن) نرجو أن يحصل تقديمُ هؤلاء الجماعة في الباطن أيضاً: (ع) وَكُـلُّ إِنَـاءٍ بِـالـذِي فِـيـهِ يَـنْـضَـحُ

وفي تقديم طلبة العلوم ترويجُ الشَّريعة؛ لأنَّهم حملةُ الشَّريعة النبوية، والملةُ المصطفويَّةُ قائمةٌ بهم، والناسُ إنّما يسألون يوم القيامة عن الشَّريعة دون التَّصوُّف، وكلٌّ من دخول الجنَّة وتجنُّب النار مربوطٌ بإتيان الشَّريعة، والأنبياءُ عليهم الصلوات والتسليمات الذين هم أفضلُ الكائنات إنّما دعوا الخلقَ إلى الشرائع، وجعلوا مدارَ النَّجاة عليها، والمقصودُ من بعثة هؤلاء الأكابر: هو تبليغُ الشَّرائع، فأعظمُ الخيرات إذاً هو السَّعيُ في ترويج الشَّريعة، وإحياءُ حكمٍ من أحكامه، خصوصاً في الزَّمان الذي انهدمتْ فيه شعائرُ الإسلام، بحيث لو أنفق ألوفاً في سبيل الله لا يساوي ذلك ترويجَ مسألةٍ من المسائل الشَّرعيَّة، فإنَّ في هذا الفعل اقتداءً بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذين هم أعظمُ المخلوقات، ومشاركةً لهؤلاء الأكابر، ومن المقرَّر أنَّ أكملَ الحسنات مسلّمٌ لهم، وإنفاق الألوف ميسَّرٌ لغير هؤلاء الأكابر أيضاً، وفي إقامة الشَّريعة والعمل بأحكامها مخالفةُ النفس أيضاً؛ لأن الشَّريعةَ وردتْ على خلاف النفس، وفي إنفاق الأموال موافقة النفس أحياناً. نعم، إن كان الإنفاقُ لتأييد الشَّريعة وترويج الملَّة؛ فله درجةٌ عليا، وإنفاقُ فلسٍ بهذه النية يساوي إنفاقَ ألوفٍ في سائر الأمنيات.

فإن قيل: إنَّ طالبَ العلم أسيرٌ في يد نفسه، فكيف يُقَدَّمُ على صوفيٍّ تخلَّص من رقية نفسه؟

أجيب: إنَّ هذا القائلَ لم يفهم بعدُ حقيقة الكلام، ولم يطَّلع على أصل المرام، فإنَّ طالبَ علمٍ سببٌ لنجاة الخلائق مع وجود أسره في يد نفسه، فإنَّ تبليغَ الأحكام الشرعيَّة منوطٌ به، وإن لم ينتفع هو نفسه بها، والصوفيُّ مع وجود تخلُّصه إنّما خلّص نفسه فقط لا التفات له إلى الخلائق، وأفضليَّةُ من تعلَّقت به..

(١) أخرجه الديلمي في «الفردوس» (٥٦٢١) من حديث ابن مسعود ﷺ.
وأخرجه أبو يعلى الموصلي في «مسنده» كما في «إتحاف الخيرة المهرة»: (٤/ ١٣٥)، و«المطالب العالية»: (٨/ ٣١٩).

نجاةُ كثيرٍ وجمّ غفيرٍ ممن اقتصرت النجاةُ عليه أمرٌ مقرَّرٌ. نعم، إذا رجع الصوفيُّ إلى العالم لدعوة الخلق بعد الفناء والبقاء والسير عن الله وبالله، وحصل له نصيبٌ من مقام النبوَّة؛ فهو داخلٌ في مبلِّغي الشَّريعة، وله حكمُ العلماء الأشراف، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

المكتوب التاسع والأربعون

إلى المذكورِ أيضاً في التَّحريضِ على الجمعِ بينَ دَولتَي تَحليَةِ الظَّاهِرِ بإتيانِ الأحكامِ الشَّرعيَّة، وتَخليَةِ الباطنِ عن علاقَة ما سواهُ تعالى.

أسعدكم الله سبحانه بدولةٍ صوريَّةٍ، وسعادةٍ معنويَّةٍ، والدَّولةُ الصُّوريةُ في الحقيقة: هي كونُ الظَّاهر محلّى بالأحكام الشرعيَّة المصطفوية، على صاحبها الصلاة والسلام والتحية، والسعادةُ المعنويَّةُ: هي تخلُّصُ الباطن وخلوُّه عن علاقة ما سواه، والارتباط بغيره تعالى، فيا فوز من تشرَّف بهاتين الدولتين: (ع) هَـذَا هُوَ الْأَمْرُ وَالْبَـاقِي مِنَ الْعَبَثِ

والزيادةُ تصديعٌ.

المكتوب الخمسون

في مذمَّة الدُّنيا الدَّنيَّة، إلى السَّيِّد المذكورِ أيضاً.

أكرمكم الله سبحانه بالحريَّة من رِقِّيَّة ما سواه، وجعلكم متوجِّهاً إليه سبحانه بالتمام، ومشغوفاً به على الدوام، بحرمة سيد البشر، المحرَّر عن زيغ البصر، عليه وعلى آله الصلاة والسلام. اعلم أنَّ هذه الدنيا حلوٌ في الظَّاهر، ولها طراوةٌ صوريَّةٌ، ولكنها في الحقيقة سمٌّ قاتلٌ، ومتاعٌ باطلٌ، وليس في التعلُّق والارتباط بها طائلٌ، مقبولُها مخذولٌ، ومفتونها مجنونٌ، وحكمُها حكمُ نجاسةٍ طليت بالذهب، ومثلها مثلُ سمٍّ مخلوط بالسكَّر، والعاقلُ هو الذي لا يغترُّ بمثل هذا المتاع الكاسد، ولا يتعلَّق بمثل هذا الشيء الفاسد، ولهذا قال الفقهاء: لو أوصى بماله للعقلاء فهو للزُّهَّاد؛ لأنَّهم يرغبون عن الدنيا، ورغبتهم عنها تدلُّ على كمال عقلهم وفطنتهم. والزِّيادةُ على ذلك إطنابٌ. وبقيَّة المرام: أنَّ الشيخ زكريا مبتلى بمنصب استيفاء الخراج في هذا السنّ، وإنَّه مع وجود هذا الابتلاء خائفٌ دائماً من المحاسبة العاجلة التي هي في غاية السُّهولة بالنِّسبة إلى المحاسبة الآجلة، ويرى وثيقتَه العظمى في عالم الأسباب توجُّهَكم الشريفَ، ويرجو أن يكون كونه من خدمة العتبة العليّة ظاهراً في الدّيوان الجديد أيضاً، يعني: معلوماً عند أربابها:

(شعر) أَلَا أَعْطِنِي قَلْبـاً تَرَى مِنْ جَسَـارَةِ الْـ أَسُـودِ وَإِنْ أَلْفَيْتَنِي قَبْـلُ ثَـعْلَبـا

يسَّر الله سبحانه الدَّولةَ الصوريَّة والمعنوية بحرمة النبيّ الأميّ وآله الأمجاد، عليه وعليهم الصلاة والسلام.

المكتوب الحادي والخمسون

إلى المذكورِ أيضاً في التَّرغيبِ في ترويجِ الشَّريعَة الغرَّاء على صاحبِها الصَّلاة والسَّلام.

نسأل الله سبحانه تقوِّي أركان الشَّريعة الغرَّاء، ورواجَ أحكام الملَّة السَّمحة البيضاء، بتوسّل وجود سلالة العظام الشَّريفة: (ع) هَـذَا هُوَ الْأَمْرُ وَالْبَـاقِي مِنَ الْعَبَثِ

والنَّجاةُ لغرباء أهل الإسلام، في مثل هذه الأيَّام، من لجة بحر الضلالة، إنّما تُرْجَى من سفينة أهل بيت خير البشر معدن الرسالة، عليه وعلى آله من الصلوات أكملها، ومن التسليمات أفضلها، قال عليه الصلاة والسلام: «**مَثَلُ أَهْلِ بَيْتِي كَمَثَلِ سَفِينَةِ نُوحٍ، مَنْ رَكِبَهَا نَجَا، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا هَلَكَ**»(١)، فينبغي صرفُ الهمَّة العليا في تحصيل هذه السعادة العظمى، وقد تيسّر لكم بعناية الله سبحانه وتعالى الجاهُ والجلالُ والعظمةُ والشوكة كلُّها، فإن انضمَّت هذه العلاوةُ إلى هذه المذكورات مع وجود الشرف الذاتيّ؛ فقد أحرزتم قصب السَّبق في ميدان السَّعادة على جميع الأقران، ....

(١) أخرجه البزار في «مسنده» (٣٩٠٠)، والطبراني في «الكبير» (٢٦٣٦)، و«الأوسط» (٣٤٧٨)، و«الصغير» (٣٩١). وأخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣٣١٢) من حديث أبي ذر ﷺ، وصححه على شرط مسلم.

وهذا الفقيرُ متوجِّهٌ نحوكم بإرادة إظهار أمثال هذه الكلمات في تأييد الشَّريعة الحقَّة وترويجها، ورأوا هلالَ شهر رمضان في دهلي. وفُهِمَ مرضيُّ حضرة الوالدة في التوقُّف، فتوقَّفتُ بالضَّرورة لاستماع ختم القرآن، والأمرُ عند الله سبحانه وتعالى، والمرجوُّ من الله حصولُ سعادة الدَّارين.

المكتُوبُ الثَّاني والخمسُونَ

إلى السَّيِّد المَذكورِ أيضاً في مذمَّة النَّفسِ الأمَّارَة، وبَيانِ مَرَضِها الذَّاتيِّ، وبيانِ عِلاجِ إزالَة ذلك المَرضِ.

قد تشرَّفتُ بمطالعة مكتوب الأخ المكرّم الذي جعل هذا الدَّاعي المخلص ممتازاً به على وجه الشَّفقة والرأفة، عظَّم الله سبحانه أجركم، ورفع قدركم، وشرح صدركم، ويسَّر أمركم بحرمة جدِّكُم الأمجد، عليه وعلى آله من الصلوات أفضلها، ومن التسليمات أكملها، ثبتنا الله سبحانه وتعالى على متابعته ظاهراً وباطناً، ويرحم الله عبداً قال آمينا.

وإنِّي أردت أن أحرّر فقرأت في الشِّكاية من صاحب السوء، والنديم السيئ الخلق، فالمرجوُّ الإصغاءُ إليه بسمع القبول. فاعلم أيها المخدوم المكرّم أنَّ النفسَ الأمَّارة الإنسانيَّةَ مجبولةٌ على حبّ الجاه والرياسة، وجميعُ همتها الترفعُ على جميع الأقران، ومتمناها بالذات أن يكون الخلائقُ كلُّهم محتاجين إليها، ومنقادين إلى أوامرها ونواهيها، ولا تريد أن تكون هي محتاجةً إلى الشيء، ومحكومةً لأحدٍ أبداً، وهذه كلُّها هي دعوى الألوهيَّة منها، والشركة مع خالقها المنزَّه عن المثل والشبه جلَّ سلطانه، بل هي البعيدةُ عن السعادة غيرُ راضيةٍ بالشركة، بل تريد أن تكون هي الحاكمة فقط لا غير، ويكون الكلّ تحت حكمها، وقد ورد في الحديث القدسيّ: «**عَادِ نَفْسَكَ، فَإِنَّهَا انْتَصَبَتْ لِمُعَادَاتِي**»[(١)].

فتربيةُ النَّفس بإعطاء مراداتها من الجاه والرياسة والترفُّع والتكبُّر إمدادُها في الحقيقة لعداوة الله عزّ وجلّ، وتقويتها لذلك، فينبغي أن يُدْرَكَ شناعةُ هذا الأمر جدّاً، وقد ورد في الحديث القدسي: «**الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي فِي شَيْءٍ مِنْهُمَا أَدْخَلْتُهُ فِي نَارِي وَلَا أُبَالِي**»[(٢)].

وإنَّما كانت الدنيا الدنيَّة مبغوضةً عند الحقّ سبحانه وملعونةً بسبب أنَّ حصولَها ممدٌّ ومعاونٌ في حصول مرادات النَّفس، فمن أمدَّ العدوَّ لا جرم يستحقُّ اللعنَ والطَّردَ، وإنَّما صار الفقرُ فخراً محمديّاً عليه وعلى آله الصلاة والسلامُ، فإنَّ في الفقر عدمَ حصول مراد النَّفس، وحصول عجزها، والمقصودُ من بعثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والحكمةُ في التَّكليفات الشَّرعيّة: هو تعجيزُ هذه النَّفس الأمَّارة وتخريبها، وقد وردت الشَّرائعُ لرفع الهوى النَّفسانِيّ، وكلّما يعمل شيءٌ بمقتضى الشَّريعة يزول من الهوى النَّفسانِيّ بقدره، ولهذا كان فعلُ شيءٍ من الأحكام الشَّرعيّة أفضلَ في إزالة الهوى النَّفسانِيّ من رياضات ألف سنةٍ ومجاهداتها التي كانت من قبل النَّفس، بل هذه الرياضاتُ والمجاهداتُ التي لم تقع على مقتضى الشَّريعة الغرَّاء مؤيّدةٌ ومقوّيةٌ للهوى النَّفسانِيّ، ولم تقصِّر البراهمةُ والجوكيةُ في الرياضات والمجاهدات شيئاً، ولكنَّها لَمّا لم تكن على وفق الشَّريعة؛ لم ينتفعوا بها أصلاً، ولم يحصل لهم غيرُ تقوية النَّفس وتربيتها. فمن صرف مثلاً دانقاً بنيّة أداء الزكاة التي أمر بها الشَّرعُ؛ فهو أنفع في تخريب النَّفس من صرف ألف دينارٍ من قبل نفسه، وكذلك أكلُ الطعام يوم عيد الفطر بحكم الشَّريعة أنفعُ في دفع الهوى من صيام سنين من قِبَل نفسه، وأداءُ........................

---

(١) قال القشيري: هذا من وحي الله لداود عليه السلام. انظر: «لطائف الإشارات»: (٣/ ٥٦٩).

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» في رواية البرقاني عنه من حديث أبي سعيد وأبي هريرة ﷺ.

ركعتي الفجر مع الجماعة التي هي سُنَّةٌ من السنن أفضل من قيام تمام الليلة بالنافلة مع ترك الجماعة في الفجر. وبالجملة إنَّ النَّفس ما لم تَتْرُكْ من خبث ماليخوليا دعوى السّيادة والرّفعة؛ فالنجاةُ محالٌ، ففكرُ إزالة هذا المرض ضروريٌّ كيلا يفضي إلى الموت الأبديّ، وكلمة لا إله إلا الله التي وُضعتْ لنفي الآلهة الآفاقيّة والأنفسيّة أنفع في تزكية النَّفس، وأنسبُ لتطهيرها، واختار أكابرُ الطَّريقة قدّس الله أسرارهم لتزكية النَّفس هذه الكلمة الطيِّبة: (شعر)

مَا دُمْتَ لَمْ تَضْرِبْ بِـ(لَا) عُنُقَ السِّوَى فِي قَصْـرِ (إِلَّا اللهُ) لَسْـتَ بِوَاصِـلِ

وما دامت النَّفس في مقام البغي والعناد، ونقض العهد والفساد؛ ينبغي أن يُجدَّدَ الإيمانُ بتكرار هذه الكلمة، قال عليه الصلاة والسلام: «**جَدِّدُوا إِيمَانَكُمْ بِقَوْلِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»(١)، بل لا بدَّ من تكرار هذه الكلمة في جميع الأوقات، فإنَّ النَّفسَ الأمَّارةَ في مقام الخبث دائماً، وقد ورد عن النبي ﷺ في فضائل هذه الكلمة حديث: «**لَوْ وُضِعَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ فِي كَفَّةِ الْمِيزَانِ، وَهَذِهِ الْكَلِمَةُ فِي كَفَّةٍ؛ لَتَرَجَّحَتْ هَذِهِ الْكَفَّةُ عَلَى الْأُخْرَى**»(٢). والسلامُ على من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى، عليه وعلى آله الصلاة الأكمل والسلام الأوفى.

المَكْتُوبُ الثَّالِثُ والخَمْسُونَ

إلى السَّيِّد المَذكورِ أيضاً في بيانِ أنَّ اختلافَ العُلَماءِ السُّوءِ موجِبٌ لفَسادِ العالمِ، وما يناسبُ ذلك.

ثبَّتكم الله سبحانه على جادَّة آبائكم الكرام، قد سمعت أنَّ سلطانَ الإسلام والمسلمين أمر جنابكم - من حسن نشأته الإسلاميَّة التي أُودِعَتْ في جِبِلَّته - أن تنتخب أربعة أنفارٍ من العلماء المتدينين ليلازموه، ويبيِّنوا له المسائل الشَّرعيّة، حتى لا يقع أمرٌ على خلاف الشَّريعة، الحمدُ لله سبحانه على ذلك، وماذا يكون للمسلمين أحسن بشارةً من ذلك؟ وأيُّ شيءٍ يكون لأهل المآتم أشدَّ تسلية مما هناك؟ ولكن الفقيرَ حيث كنت متوجِّهاً نحو جانبكم العالي بواسطة هذا الغرض كما أظهرتُ ذلك مكَرَّراً لا أسامحُ نفسي ولا أرخِّصُ لها في السكوت والقعود عن الكتابة في هذا الباب بالضَّرورة، فالمرجوُّ مسامحتكم إياي، فإنَّ صاحبَ الغرض مجنونٌ. والمعروضُ الآن هو أنَّ العلماءَ المتدينين أقلُّ من القليل، وهم الذين جاوزوا حبَّ الجاه والرياسة، وخلَّفوه وراءهم، وليس لهم مقصدٌ ومطلبٌ سوى ترويج الشَّريعة، وتأييد الملَّة، فإنَّه إذا كان فيهم حبُّ الجاه؛ يأخذ كلُّ واحدٍ منهم طرفاً مما يلائم مرامه، ويتمسَّك به، ويظهر من ذلك الطَّرف أفضليّته، ويورد الاختلافاتِ، ويوقع الخلافياتِ في البين، ويجعل ذلك وسيلةً لقرب السلطان، فيكون مهمُّ الدِّين لا محالة أبترَ وأقطعَ، واختلافاتُ العلماء هي التي ألقت العالَمَ إلى البلاء في القرن السابق، فإذا كان هذا الدَّاءُ مستمرّاً، وتلك الصّحبةُ دائمةً؛ من أين يرجى ترويج الشَّريعة؟ وكيف يكون المجالُ لتأييد الملة؟ بل يكون باعثاً على التخريب والعياذ بالله سبحانه من ذلك ومن فتنة العلماء السوء. فإن انتخبتم لهذا الغرض عالماً واحداً؛ فهو أفضلُ وأحسنُ، فإن تيسّر ذلك من علماء الآخرة؛ فنعمت السعادةُ، فإن صحبته كبريتٌ أحمرُ، فإن لم يتيسّر؛ فاختاروا أفضل هذا الجنس بعد التأمُّل الصَّحيح، ما لا يدرك كلُّه لا يترك كلُّه، ولا أدري ماذا أكتب، فكما أنَّ نجاةَ الخلائق مربوطةٌ بوجود العلماء؛ كذلك خسرانُ العالم أيضاً منوطٌ بهم، وأفضلُ العلماء أفضل العالم، وشرهم شرُّ الخلائق، قد نيطت الهدايةُ والضَّلالةُ بهم. رأى واحدٌ من الأعزَّة إبليس اللعين قاعداً على الفراغ على خلاف..........................

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٨٧١٠)، والبزار (٩٥٦٩)، والحاكم في «المستدرك» (٧٦٥٧) وصححه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «جددوا إيمانكم»، قيل: يا رسول الله، وكيف نجدد إيماننا؟ قال: «أكثروا من قول: لا إله إلا الله». قال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: ١/ ٥٢: إسناده جيد، وفيه سمير ابن نهار، وثقه ابن حبان.

(٢) أخرجه البزار في «مسنده» بنحوه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما كما في «كشف الأستار»: ٤/ ٧-٨، وأبو يعلى كما في «إتحاف الخيرة المهرة»: (٦/ ٤١٨- ٤١٩).

عادته، فسأله عن سرِّ ذلك - يعني: متعجِّباً -، فقال اللعين: إنَّ علماءَ هذا الوقت قد كفوني مؤنتي، وتكفلوا لي بالإغواء والإضلال، والغرضُ إقدامكم على هذا الأمر، وشروعكم فيه بعد رعاية الفكر الصحيح، والتأمُّل الصادق، فإنَّ الأمرَ إذا خرج من اليد لا يقبل العلاجَ، وإني وإن كنت مستحيياً من إظهار أمثال هذه الكلمات لأرباب الفطانة الصحيحة، ولكن لما علمتُ أنَّ هذا الأمر وسيلةٌ للسعادة العظمى كنتُ باعثاً على التَّصديع.

المَكتُوبُ الرَّابعُ والخَمسُونَ

إلى السَّيِّد المذكورِ أيضاً في بيانِ أنَّ الاجتِنابَ من صُحبةِ المُبتدعِ لازمٌ، وأنَّ ضرر صُحبتِهم فوقَ ضررِ صُحبةِ الكفَّارِ، وأنَّ شرَّ الفرَقِ المُبتَدعَة الشِّيعةُ الشَّنيعةُ، وما يُناسبُ ذلك.

عظَّم الله سبحانه أجركم، ورفع قدرَكم، ويسَّر أمركم، وشرح صدركم بحرمة سيّد البشر، المطهّر عن زيغ البصر، عليه وعلى آله الصلاة الأوفى والسلام الأوفرُ.

قد ورد أنَّ من لم يشكر الناس لم يشكر الله، فشكرُ إحساناتكم لازمٌ لنا، فإنَّكم كنتم أوَّلاً سبباً لجمعيَّة حضرة شيخنا، فطلبنا الحقَّ سبحانه ببركتكم في تلك الجمعيَّة، ونِلْنا حظّاً وافراً من تلك الأمنية، ولما بلغت النبوَّةُ هذه الطبقة بحكم (كبرت بموت الكبراء) كنتم مرَّةً ثانيةً واسطةَ اجتماع الفقراء، وباعثاً على انتظام نظام الطالبين الغرباء، فجزاكم الله سبحانه عنا خير الجزاء: (شعر)

وَلَوْ أَنَّ لِي فِي كُلِّ مَنْبَتِ شَعْرَةٍ لِسَاناً يَبُثُّ الشُّكْرَ كُنْتُ مُقَصِّرَا

والمأمولُ من الحق سبحانه أن يحفظكم عما لا يليق بجنابكم في الدنيا والآخرة بحرمة جدكم سيد المرسلين، عليه وعلى آله من الصلوات أتمها، ومن التسليمات أكملها، وقد بَعُدَ هذا الفقير عن صحبتكم ونأى، ولا أدري أنّ أيَّ قسمٍ من الناس في مجلسكم الشَّريف؟ ومَنْ أنيسُكم وجليسُكم في محفلكم المُنِيف؟ (شعر)

مِنْ مُقْلَتِي طَارَ الْمَنَامُ تَفَكُّراً مَنْ كَانَ مِنْ نُدَمَائِكُمْ وَضَجِيعِكُمْ

وأيقِنوا أنَّ فسادَ صحبة المبتدع أزيدُ من فساد صحبة الكافر، وأخبثُ جميع المبتدعين وأخسُّهم طائفةٌ يبغضون أصحاب رسول الله ﷺ، وقد قال الله تعالى في القرآن المجيد لهؤلاء الطَّائفة كفاراً، حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]، والمبلِّغون للقرآن والشَّريعة هم الأصحابُ، فإن كان الأصحابُ مطعوناً فيهم؛ يلزم الطَّعنُ في القرآن والشَّريعة، والقرآنُ جَمَعَه عثمانُ بن عفان عليه الرضوان، فإن كان عثمانُ مطعوناً فيه؛ كان القرآن مطعوناً فيه، أعاذنا الله سبحانه مما يعتقده الزنادقةُ. والاختلافُ الواقعُ بين الأصحاب عليهم الرضوان - وكذا الجدالُ والقتالُ - ليس بمحمولٍ على الهوى النَّفسانِيّ، فإنَّ نفوسهم قد تزكَّتْ في صحبة خير البشر، وتخلَّصت من وصف الأمَّارية، ولكن الذي نعتقده أنَّ الحقَّ كان في طرف عليّ كرم الله وجهه، والخطأَ في طرف مخالفيه، ولكنَّ هذا الخطأَ خطأٌ اجتهاديٌّ، وهو لا يبلغ حدَّ الفسق، بل لا مجالَ للملامة في مثل هذا الخطأ، وللمخطئ فيه درجةٌ واحدةٌ من الثواب. ويزيد البعيد عن السَّعادة ليس من الأصحاب، فلا كلامَ لأحدٍ في كونه بعيداً عن ساحة السَّعادة، فإن الأمر الذي فعله هو لا يفعله كفار إفرنج، وقد توقَّف بعض العلماء من أهل السنة في لعنه، لا لكونه راضياً عنه أو بفعله، بل رعايةً لاحتمال رجوعه وتوبته، وينبغي أن يقرأ في المجلس الشريف كلّ يومٍ شيءٌ من كتب قطب الزمان مخدوم العالم؛ ليعلم أنَّه كيف مدح أصحاب النبيّ.........

عليه وعليهم الصلاة والسلام، وبأيِّ نوعٍ من الآداب ذكرهم، حتى يكون المخالفون محجوبين ومخذولين. وقد غالى هذه الطَّائفةُ الباغيةُ الطاغيةُ في هذه الأيَّام غلوّاً كثيراً، وعتوا عتوّاً كبيراً، وانتشروا في الآفاق والأكناف، فكتبنا في بيان فسادهم كلماتٍ بهذا السبب؛ لئلا تتطرَّقَ هذه الطَّائفة إلى المجلس الشريف، وكيلا يكون لهم اعتبارٌ في ذلك المحفل المنيف، ثبتكم الله سبحانه على الطَّريقة المرضيَّة.

المَكتُوبُ الخَامِسُ والخَمسُونَ

إلى السَّيِّد عبدِ الوهَّابِ البُخاريِّ في إظهارِ المحبَّة.

قد ظهرت في قلبي محبَّةٌ لجنابكم من مدَّةٍ مديدةٍ غير الارتباط الذي تحقق سابقاً، فنحن مشغولون بدعائكم الخير من ظهر الغيب بلا اختيارٍ بناءً على تلك المحبَّة، وحيث ورد من سيد الكائنات، ومفخر الموجودات، عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات: «**مَنْ أَحَبَّ أَخَاهُ فَلْيُعْلِمْ إِيَّاهُ**»[1] رأيتُ أنَّ إظهارَ حبّي أَوْلى وأنسبُ، وبهذه المحبة المتعلّقة بأقرباء النبيّ ﷺ حصل في اليد حبلُ الرَّجاء التامّ، رزقنا الله سبحانه الاستقامة على محبَّتهم بحرمة سيد البشر عليه وعلى آله الصلاة والسلام.

المَكتُوبُ السَّادِسُ والخَمسُونَ

إلى الشَّيخ عبدِ الوهَّابِ أيضاً في تفويضِ شخصٍ منَ السَّاداتِ.

إنَّ جنابَ قُدْس السَّادات كثيرُ البركات بواسطة الجزئيَّة من سيد الأولين والآخرين عليه وعلى آله الصلوات والتحيات، أجلُّ من أن يبيَّن منقبتهم ومحمدتهم باللِّسان، إلا أن نجترئ في هذا الباب؛ ليكون مدحهم سبباً لسعادتنا، بل إنّما نمدح أنفسنا في ضمنه، ونُظْهِرُ المودَّةَ التي أمرنا الله بها، اللهم اجعلنا من محبيهم بحرمة سيّد المرسلين عليه وعلى آله الصلاة والسلام. وحاملُ العريضة هذه السيد أحمد من زمرة السَّادات، ومن جملة طلبة العلوم، ومن جماعة الصالحين، وقد توجَّه إلى تلك الحدود من جهة ضيق المعيشة، فإن كان في الباب العالي مجالٌ؛ فالمشارُ إليه لائقٌ بالنظر والإمداد، ومستحقٌّ في الغاية، وإلا؛ فينبغي تفويضُه إلى شخصٍ من المخلصين ليجعله مطمئنّاً من جهة المعيشة، ولما تيقّنتُ أنَّ لجنابكم توجُّهاً أتمَّ في أحوال الفقراء والمحتاجين، وعلى الخصوص في إمداد السَّادات العظام؛ أقدمنا على تحرير كلماتٍ، والمذكورُ وإن لم يستسعدْ وقتَ الذهاب بسعادة الرخصة، إلا أنَّه داخلٌ في زمرة المخلصين. رزقنا الله سبحانه الاستقامةَ والإخلاص في محبتهم، والزيادةُ على ذلك انبساطٌ.

المَكتُوبُ السَّابِعُ والخَمسُونَ

إلى الشَّيخ محمَّدٍ يوسُفَ في النَّصيحَة.

رزقكم الله سبحانه الاستقامةَ على جادَّة آبائكم الكرام، بحرمة سيد المرسلين عليه وعلى آله الصلاة والسلام. اعلم أنَّ السُّؤدَدَ والرياسةَ والحشمةَ موروثةٌ في جماعتكم، فينبغي أن تكون معيشتُكم ومعاشرتُكم على نهجٍ يتيسّرُ لكم استحقاقُ هذه الوراثة، أعني: تحليةَ الظَّاهر بظاهر الشَّريعة، وتزيينَ الباطن بباطنها، الذي هو عبارةٌ عن الحقيقة، فإنَّ الطَّريقةَ والحقيقةَ عبارتان عن حقيقة الشَّريعة، والطَّريقةُ هي نفسُ تلك الحقيقة، لا أنَّ الشَّريعةَ أمرٌ والطَّريقةَ والحقيقةَ أمران آخران مغايران لها، فإن اعتقادَ ذلك إلحادٌ وزندقةٌ، وظنُّ الفقير بكم حَسَنٌ جدّاً، وأجعلُ بعض الوقائعَ شاهداً لهذا المعنى، وقد أظهرتُ نبذةً من ذلك لوالدكم الماجد. وبقيَّة المرام: أنَّ الشيخَ عبد الغني رجل محلّى بالصلاح وحسن الشِّيمة،...........

(١) أخرجه أبو داود (٥١٢٤)، والترمذي (٢٣٩٢) واللفظ له، والبخاري في «الأدب المفرد» (ص٢٧٩) من حديث المقدام رضي الله عنه.

فإن راجع خدمتكم في أمرٍ من الأمور؛ فالمرجوُّ منكم بذلُ الالتفات إليه، والسلامُ والإكرامُ.

المَكتُوبُ الثّامِنُ والخَمْسُونَ

إلى السَّيِّد محمودٍ في بيانِ أنَّ هذا الطَّريقَ كلَّه سبعُ خُطواتٍ، وأنَّ مشائخَ النَّقشبَنديَّة اختارُوا ابتِداء السَّير من عالَمِ الأمرِ، بخِلافِ مشائخِ السَّلاسلِ الأُخرِ، وأنَّ طريقَ هؤلاءِ الأكابِرِ هو طريقُ الأصحابِ الكِرام، وما يناسِبُ ذلك.

قد ورد مكتوبكم الشَّـريف، ولَمّا فهمتُ منه شـوقكم إلى اسـتماع كلمات هؤلاء الطَّائفة العليّة؛ أردتُ أن أحرِّرَ بالضَّرورة كلماتٍ إجابةً للمسؤول، وترغيباً في المأمول. أيُّها المخدومُ، إنَّ هذا الطَّريقَ الذي نحن في صدد قطعه كلّه سبعُ أقدامٍ بعدد اللطائف السَّبع الإنسانيَّة: قدمان منها في عالم الخلق يتعلَّقان بالقالب -أعني: البدنَ العنصريَّ والنَّفسَ-، وخمسةٌ منها في عالم الأمر، مربوطةٌ بالقلب والرُّوح والسرِّ والخفيِّ والأخفى، وفي كلِّ قدمٍ من هذه الأقدام السَّبع ترتفع عشرةُ آلاف حجابٍ، نورانيَّةً كانت تلك الحُجُبُ أو ظلمانيّةً، «**إنَّ للهِ سَبْعِينَ أَلْفَ حِجَابٍ مِنْ نُورٍ وَظُلْمَةٍ**»[1]، ففي القدم الأولى التي توضع في عالم الأمر يظهر التجلِّي الأفعاليّ، وفي الثَّانية التَّجلِّي الصِّفاتِي، ويقع الشُّروعُ في التجلِّيات الذاتيّة في الثالثة، ثم وثم على تفاوت درجاتها كما لا يخفى على أربابها، وفي كلِّ خطوةٍ من الخطوات السَّبع يبعد السَّالكُ عن نفسه، ويقرب من ربِّه سبحانه، حتى يتمَّ القربُ بتمام هذه الأقدام، فحينئذٍ يتشرَّفُ بالفناء والبقاء، ويبلغ درجة الولاية الخاصَّـة. واختار مشائخُ النقشبنديَّة العليّة قدس الله أسرارهم السنيَّة ابتداءَ هذا السَّير من عالم الأمر، وهم يقطعون مسافةَ عالم الخلق أيضاً في ضمن هذا السَّير، بخلاف مشائخ سلاسل أخر قدَّس الله أسرارهم، ولهذا كان طريقُ النقشبنديَّة أقربَ الطُّرق، فلا جرم صارت نهايةُ غيرهم مندرجةً في بدايتهم: (ع) يَدُلُّ عَلَى حُسْـنِ الزَّمَانِ رَبِيعُهُ

وطريقُ هؤلاء الأكابر هو بعينه طريقُ الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين، فإنَّ ما حصل للأصحاب في أوَّل صحبة خير البشر عليه وعلى آله الصلاة والسلام بطريق اندراج النِّهاية في البداية قلَّما يحصل لكُمَّل الأولياء في النهاية، ولهذا كان وحشي قاتل حمزة رضي الله عنه أفضلَ من أويس القرنيّ الذي هو خيرُ التابعين؛ لنيله صحبةَ النبيِّ ﷺ مرَّةً واحدةً، سئل عبد الله بن المبارك: أيُّهما أفضلُ: معاوية أو عمر بن عبد العزيز؟ فقال: والله للغبار الذي دخل أنف فرس معاوية مع رسول الله ﷺ خيرٌ من عمر بن عبد العزيز كذا مرَّة[2]، فينبغي أن يتأمَّلَ في أنَّه إذا كان بدايةُ جماعةٍ بحيث اندرجتْ فيها نهايةُ غيرهم ماذا تكون نهايتهم؟ وكيف يسعها إدراكُ الآخرين؟ ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]: (شعر)

لَوْ عَابَهُمْ قَاصِـرٌ طَعْنـاً بِهِمْ سَـفَهـاً ... بَرِأَتْ سَـاحَتُهُمْ مِنْ أَفْحَشِ الْكَلِمِ
هَلْ يَقْطَعُ الثَّعْلَبُ الْمُحْتَالُ سِـلْسِـلَةً ... قُيِّدَتْ بِهَا أُسْـدُ الـدُّنْيَا بِأَسْـرِهِمِ

رزقنا الله سبحانه وإيَّاكم محبَّةَ هؤلاء الطَّائفة العزيزي الوجود. والورقةُ وإن كانت محقّرةً، ولكنَّها قد اندرجتْ فيها معارفُ عاليةٌ، وحقائقُ سامية، فينبغي إعزازها، يعني: من أجلها.

المَكتُوبُ التَّاسِعُ والخَمْسُونَ

إلى السَّيِّد محمودٍ أيضاً في بيانِ أنَّه لا بدَّ في حُصولِ النَّجاةِ

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٥٨٠٢) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، وأخرج مسلم (١٧٩) من حديث أبي موسى رضي الله عنه مرفوعاً: «حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»، وأخرج أبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٦٧٧) من حديث زرارة بن أوفى رضي الله عنه مرفوعاً من قول جبريل: «يا محمد، إن بيني وبينه سبعين حجاباً من نور»، وأخرج أيضاً (٢/ ٦٦٩) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً من كلام جبريل: «إن بيني وبينه سبعين حجاباً من نار أو نور»، وأخرج أيضاً (٢/ ٦٧١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ: «والذي نفسي بيده، إن دون الله عز وجل يوم القيامة سبعين ألف حجاب، منها حجاب من نار، وحجاب من نور، وحجاب من ظلمة».

(٢) في «الفتاوى الحديثية» لابن حجر: من مائةٍ وواحد مثل ابن عبد العزيز. (المعرِّب)

من أمورٍ ثلاثةٍ، وأنَّها لا تُتصوَّرُ بدونِ اتِّباع أهلِ السُّنَّة والجَماعةِ، وأنَّ العِلمَ والعملَ متعلِّقانِ بالشَّريعةِ، والإخلاصَ مَنوطٌ بسلوكِ طريقِ الصُّوفيَّة، وما يُناسبُ ذلك.

رزقنا الله سبحانه الاستقامةَ على جادة الشَّريعة المصطفويَّة، على صاحبها الصلاة والسلام والتحية، والإقبالَ على جناب قدسه بالكليَّة، وقد وردت الصَّحيفةُ الشَّريفةُ، المشتملةُ على المفاوضة المنيفة، فصارت موجبةً للفرح، واتَّضحت المقدِّماتُ المنبئةُ عن محبَّة الفقراء، والإخلاص لهؤلاء الطَّائفة الغرباء، اللهم زِدْ، واندرج فيها أيضاً طلبُ الفوائد.

فاعلم أيُّها المخدوم ولا بُدَّ للإنسان من ثلاثة أشياءَ حتى تتيسّر النجاة الأبديّة: العلمُ والعملُ والإخلاصُ، والعلمُ على قسمين: قسمٌ المقصودُ منه العملُ، وقد تكفَّل ببيانه علمُ الفقه، وقسمٌ المقصودُ منه مجرَّد الاعتقاد واليقين القلبيّ، وذُكر هذا القسمُ في علم الكلام بالتَّفصيل على مقتضى آراء أهل السنة والجماعة الذين هم الفرقةُ الناجيةُ، ولا إمكان للنَّجاة ولا مطمع لأحدٍ فيها بدون اتِّباع هؤلاء الأكابر، فإن وقعت المخالفةُ لهم مقدارَ شعرةٍ؛ فالأمر في خطرٍ أيّ خطرٍ، وهذا الكلامُ قد بلغ من الصحَّة مرتبةَ اليقين بالكشف الصحيح، والإلهام الصريح أيضاً، لا احتمالَ فيه للتخلُّف، فطوبى لمن وُفِّقَ لمتابعتهم، وتشرَّف بتقليدهم، وويلٌ لمن خالفهم واعتزلهم ورفض أصولهم، وخرج من زمرتهم، فضلَّ وأضلَّ، وأنكر الرؤيةَ والشفاعةَ، وخفي عليه فضيلةُ الصحبة وفضل الصحابة، وحرم محبَّة أهل بيت الرسول، ومودة أولاد البتول، فمنع من خيرٍ كثيرٍ نالها أهل السنة. واتفقت الصحابةُ على أنَّ أفضلهم أبو بكر.

قال الإمام الشافعيّ ﷺ - وهو أعلم بأحوال الصحابة -: اضطرَّ الناس بعد رسول الله ﷺ، فلم يجدوا تحت أديم السماء خيراً من أبي بكر، فولّوه رقابهم، وهذا تصريحٌ منه بأنَّ الصحابةَ متفقون على أفضليّة الصديق، فيكون إجماعاً على أفضليّته في الصدر الأوَّل، فيكون قطعيّاً لا يسوغ إنكارُه، وأهلُ بيت الرسول مثلُهم كمَثَل سفينة نوحٍ، من ركبها نجا، ومن تخلَّفَ عنها هلك.

قال بعضُ العارفين: إنَّ رسول الله ﷺ جعل أصحابه كالنُّجوم، ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]، وشبَّه أهل بيته بسفينة نوحٍ إشارةً إلى أنَّ راكبَ السَّفينة لا بُدَّ له من رعاية النُّجوم ليأمن من الهلاك، وبدون رعاية النُّجوم النَّجاةُ ممتنعةٌ.

ومما ينبغي أن يعلم أنَّ الإنكارَ على بعضٍ إنكارٌ على جميعهم، فإنَّهم في فضيلة صحبة خير البشر مشتركون، وفضيلةُ الصُّحبة فوق جميع الفضائل والكمالات، ولهذا لم يبلغ أويس القرنيّ الذي هو خيرُ التابعين مرتبةَ أدنى من صحبه عليه الصلاة والسلام، فلا تَعْدِل بفضيلة الصُّحبة شيئاً كائناً ما كان، فإنَّ إيمانهم ببركة الصحبة وشهود نزول الوحي صار شهوديّاً، ولم يتفق لأحدٍ بعد الصحابة هذه المرتبة من الإيمان، والأعمالُ متفرِّعةٌ على الإيمان، كمالُها بحسب كمال الإيمان، وما جرى بينهم من المشاجرات والمنازعات؛ فمحمولٌ على محاملَ صالحةٍ، وحكمٍ بالغةٍ، ما كانت عن هوىً وجهلٍ، ولكن عن اجتهادٍ وعلمٍ، فإن أخطأ بعضهم في الاجتهاد؛ فللمخطئ أيضاً درجةٌ عند الله سبحانه.

هذا هو الطَّريقُ الوسطُ بين الإفراط والتَّفريط الذي اختاره أهل السنة والجماعة، وهو الطَّريقُ الأسلمُ، والسبيلُ الأحكمُ. وبالجملة إنَّ العلمَ والعملَ مستفادان من الشَّريعة، وتحصيلُ الإخلاص الذي هو بمنزلة الروح للعلم، والعملُ مربوطٌ بسلوك طريقة الصُّوفية، وما لم يقطع السَّالكُ مسافةَ السَّير إلى الله، ولم يتحقَّق له السَّيرُ في الله؛ فهو بعيدٌ من حقيقة الإخلاص، ومحرومٌ من كمالات المخلصين أهل الاختصاص.

نعم، قد يتحقَّقُ ....

الإخلاص في بعض الأعمال لعامة المؤمنين بالتعمُّل والتكلُّف ولو في الجملة، ولكنَّ الإخلاصَ الذي نحن في صدد بيانه: هو الإخلاصُ في جميع الأفعال والأقوال والحركات والسكنات من غير تعمُّلٍ وتكلُّفٍ فيه، وحصولُ هذا الإخلاص منوطٌ بانتفاء الآلهة الآفاقيّة والأنفسيّة الذي هو مربوطٌ بالفناء والبقاء والوصولِ بالولاية الخاصَّة، والإخلاصُ الذي يحتاج فيه إلى التعمُّل والتكلُّف لا يكون له دوامٌ، ولا بُدَّ من سقوط التكلُّف في حصول الدوام الذي هو مرتبةُ حقّ اليقين، وأولياءُ الله تعالى كلّما يفعلون يفعلونه لله جلّ وعلا، لا لحظوظ نفوسهم، فإنَّ نفوسهم كانت فداءَ الحقّ سبحانه، ولا حاجةَ لهم إلى تصحيح النيَّة في حصول الإخلاص، فإنَّ نيَّتهم قد صحَّت بالفناء في الله، والبقاء بالله، فإنَّ شخصاً مثلاً إذا كان أسيراً في يد نفسه؛ فكلُّما يفعله يفعله لحظّ نفسه، نوى أو لم ينو، ومتى زال تعلُّقُه بنفسه، وتخلَّص من ربقة رقيتها، وحصل بدله التعلُّقُ بالحقّ جلّ وعلا؛ فلا جرم يفعلُ كلّما يفعله لله، نوى أو لم ينو، فإنَّ النيَّة إنّما يحتاج إليها في المحتمل، وأما المتعيّن؛ فلا حاجةَ فيه إلى التَّعيين، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَآءُۚ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

وصاحبُ الإخلاص الدائم هو من المخلَصين - بفتح اللام -، ومن لا دوامَ في إخلاصه، بل هو في كسب الإخلاص دائماً؛ فهو من المخلِصين - بكسر اللام -، وشتَّان ما بينهما، والنفعُ الذي يحصل في العلم والعمل من طريق الصوفيَّة هو أن تكون العلومُ الكلاميَّةُ الاستدلاليَّةُ كشفيَّةً، وأن يحصل اليسرُ التامُّ في أداء الأعمال، وأن يزول الكسلُ الناشئ من جانب النَّفس والشيطان:

(ع) وَهَذِي سَـعَادَاتٌ تَكُونُ نَصِـيبَ مَنْ

والسلام أولاً وآخراً.

المَكتُوبُ السِّتُّونَ

إلى السَّيِّد محمودٍ أيضاً في بيانِ نفيِ الخواطِر، ودَفعِ الوَساوسِ الكلِّيَّة، وما يُناسبُ ذلك.

شرَّف الله سبحانه وتعالى بدوام التعلُّق بجناب قدسه، فإنَّ حقيقةَ الحريَّة إنّما هي في ذلك التحقُّق، ومنعُ الخواطر ودفعُ الوساويس حاصلٌ في طريقة خواجكان قدَّس الله أسرارهم على الوجه الأتمِّ، حتى جلس بعض مشائخ هذه الطَّائفة الأربعين لملاحظة خطور الخواطر، ومنعها عن ساحة صدره في هذه المدَّة كلِّها.

قال حضرةُ الخواجه عبيد الله أحرار قدّس الله سره في هذا المقام: إنَّ المرادَ بعدم خطور الخواطر ودفعها: هي الخواطرُ التي تكون مانعةً من دوام التَّوجُّه إلى المطلوب، لا دفعُ الخواطر مطلقاً، يقول واحدٌ من مخلصي هذه السِّلسلة العليّة مخبراً عن حاله بحكم ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]: إنَّ نفيَ الخواطر عن القلب يبلغُ حدّاً لو أعطيتُ عمرَ نوحٍ على نبينا وعليه الصلاة والسلام فرضاً لا يخطر على قلبي شيءٌ من الخواطر، لا أنَّه متكلِّفٌ في هذا الدَّفع، فإنَّ كلَّ شيءٍ كان حصولُه بالتكلُّف؛ فهو مؤقَّتٌ لا يقبل الدوامَ، بل لو تكلّف في إتيان الخواطر وإيقاعها سنين لا يتيسرُ أصلاً، وتعيينُ الأربعين يُنْبِئُ عن التكلُّف، والتكلُّفُ إنّما هو في مرتبة الطَّريقة، وأما الحقيقة؛ فهي التخلُّص من التَّعمُّل والتكلّف (ياد كرد) في الطَّريقة، و(ياد داشت) في الحقيقة، فتحقَّقَ أنَّ دوامَ التوجُّه إلى المطلوب على تقدير تحقُّق منع الخواطر المؤقت بوقتٍ من العشر والأربعين محالٌ؛ لما مرَّ من أنَّ التكلّفَ في مرتبة الطَّريقة والدوام غيرُ متصورٍ في الطَّريقة، وإنَّما هو في الحقيقة، وذلك لعدم مجالٍ للتكلّف في ذلك الموطن، فورودُ الخاطر وخطورُه في مرتبة التكلّف يكون مانعاً من دوام التوجُّه، والذي يحصل لقلوب ....

مبتدئ هذه السِّلسلة العليّة من دوام التوجُّه؛ فهو أمرٌ آخر، وما نحن بصدد بيانه فعبارةٌ عن (ياد داشت) الذي هو نهايةُ مرتبة الكمال، قال حضرة الخواجه عبد الخالق قدس سره: ليس وراءَ (ياد داشت) غيرُ الأوهام والظُّنون، يعني: ليس وراءه مرتبةٌ أخرى، والمقصودُ من إظهار أمثال هذه الأحوال: هو ترغيبُ طالبي هذه الطَّريقة العليّة، وإن لم يزد للمنكرين غيرَ الإنكار شيئاً، ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦]، قال في «المثنوي»:

خَابَ الذِي قَدْ يَرَى ذَا الْقُبْحِ كَالْحَسَنِ ... وَفَازَ مَنْ كَانَ فِيهِ حِدَّةُ الْبَصَرِ
النِّيلُ كَانَ دَماً لِلْقِبْطِ وَلِبَنِي ... يَعْقُوبَ مَاءً وَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْعِبَرِ

والسلامُ والإكرامُ.

المَكْتُوبُ الحَادِي وَالسِّتُّونَ

إلى السَّيِّد محمودٍ أيضاً في التَّحريضِ على صُحبةِ الشَّيخ الكاملِ المكمِّلِ، والاِجتنابِ عن صُحبةِ النَّاقص، وما يُناسبُ ذلك.

رزقكم الله سبحانه الزِّيادةَ في طلبه، والاجتنابَ عن كلِّما ينافي الوصول إلى المطلب بحرمة سيد البشر، المحرر عن زيغ البصر، عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات.

قد شرف مكتوبكم الشَّريف بوصوله، ولما كان مُنْبِئاً عن الطَّلب والشَّوق، ومشعراً بوجود الهيام والظمأ والذوق؛ كان لدى النَّظر مستحسناً جداً، فإنَّ وجودَ الطلب مبشِّرٌ بحصول المطلوب، وحصولُ الهيام مقدمةُ الوصول إلى المقصود. وقال أحدٌ من الأعزَّة: إن طلبتَ تعطى، وإن لم تُعْطَ تزاد، فينبغي أن يعد حصول دولة الطَّلب نعمةً عظمى، وأن يحترز من كلِّما ينافيها لئلا يتطرَّق الفتورُ إليها من غير شعورٍ، وكيلا تؤثِّر البرودةُ في تلك الحرارة، ومعظمُ أسباب المحافظة عليها هو القيامُ بشكر حصول تلك الدَّولة، ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، ودوامُ الالتجاء والتضرُّع إلى جناب قدس الحقّ جلّ سلطانه حتى لا يصرف وجه طلبه عن كعبة جماله اللايزاليّ، فإن لم تتيسّر حقيقةُ الالتجاء والتضرُّع؛ ينبغي أن لا يُقَصِّرَ في صورة الالتجاء والتضرُّع، «**فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوا**»[1] بيانٌ لهذا المعنى، وهذه المحافظةُ إنّما هي إلى زمان الوصول إلى الشيخ الكامل المكمِّل، ثم بعد الوصول إليه لا شيءَ عليه سوى تفويضِ جميع مراداته إليه، وكونه كالميت بين يدي الغسّال لديه، والفناءُ الأوَّلُ هو الفناءُ في الشّيخ، ويكون هذا الفناءُ وسيلةَ الفناء في الله:

مِنْ أَجْلِ كَوْنِكَ فِي الْبِدَايَةِ أَحْوَلَا ... لَا بُدَّ مِنْ شَيْخٍ يَقُودُكَ أَوَّلَا

فإنَّ طريقَ الإفادة والاستفادة مبنيٌّ على وجود المناسبة بين الطَّرفين، والطَّالبُ لا بُدَّ له أولاً من برزخٍ ذي جهتين؛ لكونه في الابتداء في غاية الدَّنائة، ونهاية الخساسة، وعدم مناسبته أصلاً لجناب قدسه جلّ سلطانه من هذه الحيثيَّة، وذلك البرزخُ هو الشيخُ الكاملُ المكمّلُ، وأقوى أسباب وقوع الفتور على طلب الطالب: هو الإنابةُ إلى الشيخ الناقص، وهو الذي جلس على مسند المشيخة بدون إتمام أمره بالسلوك والجذبة، فصحبتُه سمٌّ قاتلٌ للطالب، والإنابةُ إليه مرضٌ مهلكٌ، ومثلُ هذه الصحبة تُورِثُ الانحطاط، والتنزُّلَ للاستعداد العالي، بل ترميه من الذِّروة إلى الحضيض، ألا ترى أنَّ المريضَ إذا أكل مثلاً دواءً من طبيبٍ ناقصٍ في الطبّ؛ فلا جرم يكون ذلك سعياً واجتهاداً منه في زيادة مرضه، وتضييع قابليَّة إزالة مرضه؟ وهذا الدواءُ وإن أَوْرَثَ تسكينَ الوجع وتخفيف ما في أوَّل وهلةٍ، ولكن في الحقيقة هو عينُ المضرَّة، فإن وصل هذا المريضُ فرضاً إلى طبيبٍ حاذقٍ؛ يجتهد هذا الطّبيبُ ....

(١) أخرجه ابن ماجه (١٣٣٧) من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ.

أوّلاً في إزالة تأثير ذلك الدَّواء، ويعالجه بالمسهلات، يعني: لإخراجه، ثم يشرع في معالجة إزالة المرض بعد زوال ذلك التَّأثير، ومدارُ طريق هؤلاء الأكابر على الصُّحبة، لا يحصل فيه شيءٌ من القيل والقال، والسماعِ العاري عن الأحوال، بل يورث ذلك فتوراً في طلب الترقِّي إلى مدارج القرب والكمال.

ويحتمل أن يقع السَّيرُ إلى جانب دهلي وأكره بعد أيام، فإن أوصلتَ نفسك هناك، واستفدتَ بالمشافهة شيئاً، ثم رَجَعْتَ بلا تأخيرٍ؛ يكون حَسَناً، والزِّيادةُ على ذلك تصديعٌ. وأجوبةُ بقيَّة الأسئلة: أنَّ الشيخ تاجاً صاحب المعارف والابتهاج مغتنمٌ في ذلك الطَّرف، فإنَّه رجلٌ محتشمٌ وعظيمُ الشأن جداً، ولكنَّ استعدادَك إلى طريقه قليلةٌ جداً، وحصولُ المطلوب من غير رابطة المناسبة متعسِّرٌ، والأمرُ مفوَّضٌ إليكم، فإن كتبتم من أحوالكم شيئاً في بعض الأحيان لنكتب من هذا الجانب في جوابه شيئاً؛ لكان مناسباً، فإنَّ تلك الحيثيَّةَ تكون باعثةً على تحرُّك سلسلة الإخلاص دائماً.

المَكتُوبُ الثَّانِي وَالسِّتُّونَ

إلى جَنابِ المِيرزا حُسامِ الدِّينِ أحمدَ في بيانِ أنَّ الجَذبَة التي هيَ قبلَ السُّلوكِ ليسَتْ منَ المَقاصدِ، بل هيَ وسيلَة لقطعِ منازِلِ السُّلوك بالسُّهولَة، والجَذبَة التي منَ المَقاصِد إنَّما هيَ بعدَ السُّلوكِ، وما يُناسبُ ذلك.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩].

اعلم أنَّ طريقَ الوصول مركَّبٌ من جزأين: جذبة وسلوك، وبعبارةٍ أخرى: تصفية وتزكية، والجذبةُ التي هي مقدمةٌ على السُّلوك ليست من المقاصد، والتَّصفيةُ التي قبل التَّزكية ليست من المطالب، والجذبةُ المقصودةُ والتصفيةُ المطلوبةُ إنّما هما الحاصلتان بعد تمام السُّلوك وحصولِ التَّزكية التي هي في السَّير في الله، وفائدةُ الجذبة والتَّصفية السَّابقتين للسُّلوك والتَّزكية إنّما هي تسهيل مسالك السُّلوك، فإنَّ الأمرَ لا يحصل بدون السُّلوك، وجمالُ المطلوب لا يتجلَّى من غير قطع المنازل، والجذبةُ الأولى كالصورة للجذبة الثانية، لا مناسبةَ بينهما في الحقيقة - يعني: سوى هذا -، فالمرادُ باندراج النهاية في البداية -كما ورد ذلك في عبارات مشائخ هذه السِّلسلة العليّة-: هو اندراجُ صورة النهاية في البداية، وإلا؛ فالبدايةُ لا تسع حقيقة النهاية، ولا مناسبةَ بين النهاية والبداية. وتحقيقُ هذا المبحث مذكورٌ بالتَّفصيل في الرسالة التي حررتها لتحقيق حقيقة الجذبة والسلوك وأمثالها، والحاصلُ: أنَّ العبورَ من الصورة إلى الحقيقة ضروريٌّ، والاكتفاءَ من الحقيقة بالصورة مهجوريٌّ، حققنا الله سبحانه بالحقيقة الحَقَّة، وجنَّبنا عن الصورة الباطلة، بحرمة النبي المختار، وآله الأبرار، عليه وعليهم من الصلوات أكملها، ومن التحيات أفضلها.

المَكتُوبُ الثَّالِثُ وَالسِّتُّونَ

إلى السَّيِّد النَّقيبِ الشَّيخ فريدٍ في بيانِ أنَّ الأنبياءَ عليهم الصَّلاة والسَّلام متَّفقونَ فِي أصولِ الدِّين، واختلافُهم إنَّما هو في الفُروعِ، وبَيانِ بعضِ كلِماتِهم المتَّفقَة.

ثبتنا الله تعالى وإياكم على جادة آبائكم الكرام، على أفضلهم أصالةً وعلى بواقيهم متابعةً الصَّلاةُ والسلامُ. واعلم أنَّ الأنبياء صلوات الله تعالى وتسليماته وبركاته على جميعهم عموماً وعلى أفضلهم خصوصاً كلُّهم رحماتٌ من الله سبحانه، استسعد العالمُ بتوسط هؤلاء العظام بالنجاة الأبديّة، وتخلصوا من البليات السرمديَّة، فلولا وجودهم الشَّريفُ؛ لما أخبر الحقُّ سبحانه الذي هو الغنيُّ المطلقُ أحداً من أهل العالم عن ذاته وصفاته تعالى وتقدس، ولَمَا دلّ............

عليها أحداً، ولما أهدى إلى معرفته شخصاً أبداً، ولما كلّف عباده بامتثال أوامره والانتهاء عن مناهيه سرمداً الذين كلّفهم بهما بمحض كرمه لنفعهم، ولما امتازت مرضيّاتُه تعالى من غير مرضياته، فشكرُ هذه النِّعمة العظمى بأيِّ لسانٍ يؤدّى؟ ولمن يكون مجالُ الخروج عن عهدته؟

الحمد لله الذي أنعم علينا وهدانا إلى الإسلام، وجعلنا من مصدقي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهؤلاء العظامُ متَّفقون في الأصول، وكلمتهم متَّحدةٌ في ذات الحقّ وصفاته تعالى وتقدس، وفي الحشر والنشر، وإرسال الرسل، ونزول الملك، وورود الوحي، ونعيم الجنة وعذاب الجحيم بطريق الخلود والتأبيد، واختلافُهم إنّما هو في بعض الأحكام المتعلِّقة بفروع الدين، وذلك لأنَّ الحقَّ سبحانه أرسل في كلِّ زمانٍ إلى أنبياء ذلك الزمان بعضَ الأحكام المناسبة لذلك الزَّمان بطريق الوحي، وكلَّفهم بأحكامٍ مخصوصةٍ، والنَّسخُ والتبديلُ دائران على حِكَمٍ من الحقِّ سبحانه ومصالحَ، وكثيراً ما وردتْ إلى نبيٍّ صاحب شريعةٍ - يعني: مستقلة - أحكامٌ متضادَّةٌ في أوقاتٍ مختلفةٍ بطريق النسخ والتبديل، ومن كلماتهم المتحدة وعباراتهم المتفقة: نفيُ عبادة غير الحقّ سبحانه، ومنعُ الاشتراك معه تعالى وتقدس، ومنعُ المخلوقات عن اتِّخاذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله، وهذا الحكمُ مخصوصٌ بالأنبياء، ولم يشرف بهذه الدَّولة غير متابعيهم، ولم يتكلّم بهذا الكلام أحدٌ غير الأنبياء، والذين ينكرون الأنبياء وإن أقرُّوا بوحدانية الحقّ سبحانه، ولكن حالهم غيرُ خالٍ عن أحد أمرين: إما تقليد أهل الإسلام، وإما التَّوحيدُ في وجوب الوجود فقط، دون استحقاق العبادة، بخلاف أهل الإسلام - يعني: أتباع الأنبياء الكرام -، فإنَّهم يوحِّدونه سبحانه في وجوب الوجود، وفي استحقاق العبادة، فإنَّ المراد بنطق كلمة لا إله إلا الله: نفيُ الآلهة الباطلة، وإثباتُ المعبود بالحق.

ومما يختصُّ بهؤلاء العظام: اعتقادُ أنفسهم بشراً مثل سائر الناس، واعتقادُ أنَّ الإله المعبودَ هو الحقّ سبحانه، ودعوةُ الناس إليه تعالى وتنزيهه جلّ شأنه عن الحلول والاتحاد، ومنكروا النبوَّة ليسوا كذلك، بل رؤسائهم يدَّعون الألوهية، ويثبتون حلولَ الحقّ في أنفسهم، ولا يتحاشون من دعوى استحقاق العبادة، وإطلاق اسم الألوهية على أنفسهم، فلا جرم أنّهم لا يزالون يخلعون رِبْقَة العبوديَّة عن رقابهم، ويقعون في منكرات الأفعال، ومستقبحات الأعمال، ويسلكون سبيلَ الإباحة، ويزعمون أنَّ الله غيرُ ممنوعٍ من شيءٍ أصلاً، وكلُّما يقولون يحسبونه صواباً، وكلُّما يفعلون يزعمونه مباحاً، ضلُّوا فأضلوا، فويلٌ لهم ولأتباعهم ولأشياعهم.

ومما اتَّفق عليه الأنبياءُ عليهم الصلاة والسلام وحرَّمه منكروهم وصاروا لا نصيبَ لهم من هذه الدَّولة: أنّهم عليهم الصلاة والسلام قائلون بنزول الملائكة الكرام، الذين هم معصومون مطلقاً من الآثام، وليس فيهم تلوُّثٌ وتعلُّقٌ بالأنام، ومعتقدون أنّهم أمناء الوحي، وحملةُ كلام الله تعالى وتقدس، يعني: إلى الأنبياء العظام، فكلُّما يقوله هؤلاء الأكابر يقولونه من الحقّ سبحانه، وكلُّما يبلِّغون يبلغُّونه منه تعالى، وأحكامُهم الاجتهاديَّةُ أيضاً مؤيَّدةٌ بالوحي، فإن وقعت منهم زلَّةٌ فرضاً؛ تداركها الله سبحانه في الحال بالوحي القاطع، ورؤساءُ المنكرين الذين يدَّعون الألوهيَّة كلُّما يقولون يقولونه من قِبَل أنفسهم، ويحسبونه صواباً بواسطة زعم الألوهيَّة، فينبغي الإنصافُ، لو أنَّ شخصاً زعم نفسه من كمال قلَّة العقل إلهاً مستحقّاً للعبادة، وبهذا الزعم الفاسد يرتكب أفعالاً قبيحةً أيُّ اعتبارٍ يكون في كلامه؟ وما الباعثُ والمدارُ...

على اتّباعه؟ (ع) وَكُـلُّ إِنَـاءٍ بِـالَّـذِي فِـيـهِ يَـنْضَـحُ

وإيراد أمثال هذه الكلمات إنّما هو لزيادة الإيضاح، وإلا؛ فالحقُّ ممتازٌ عن الباطل، والنورُ مباينٌ ومغايرٌ للظلمة، ﴿جَآءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، اللهم ثبّتنا على متابعة هؤلاء الأكابر عليهم الصلاة والسلام أولاً وآخراً.

وبقيَّةُ المقصود: إنَّ جنابكم أعلم بالسيد ميان پير كمال، فما الحاجةُ إلى الكتابة في هذا الباب؟ ولكن نكتب هذا القدر: إنَّ الفقير محظوظٌ بمودته من مدة أزمان، وفيه اشتياقُ تقبيل العتبة العليّة من مدَّةٍ مديدةٍ، ولكن الآن طرأ عليه الضعفُ بحسب الأبدان، حتى صار صاحب فراش منذ أزمانٍ، وبعد القيام يتوجَّه نحو ذلك الجانب العالي، راجياً العنايةَ من حضرتكم محطّ الآمال والأماني.

المَكْتُوبُ الرَّابِعُ وَالسِّتُّونَ

إلى السَّيِّد النَّقيب الشَّيخ فريدٍ في بيانِ اللَّذَّة والألَم الجسمانيَّينِ والرُّوحانيَّينِ، والتَّحريضِ على تحمُّلِ المَصائبِ والآلامِ الجِسمانيَّة، وما يناسِب ذلك.

سلَّمكم الله سبحانه وعافاكم في الدَّارين، بحرمة سيد الثقلين، عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات. واعلم أنَّ لذَّةَ الدنيا وألمَها على قسمين: جسمانيٍّ وروحانيٍّ، وكلُّ شيءٍ فيه لذَّةٌ للجسم؛ فيه ألمٌ للروح، وكلُّ شيءٍ فيه ألمٌ للجسم؛ فيه التذاذٌ للروح، فالرُّوحُ والجسمُ ضدَّان، وفي هذه النَّشأة التي تنزَّلت الروحُ فيها إلى مقام الجسم وتعلّقت به؛ اكتسبتْ حُكْمَ الجسم، فصارتْ تتلذَّذُ بتلذُّذه، وتتألَّم بتألُّمه، وهذا هو مرتبة العوامِّ كالأنعام، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين: ٥] صادقٌ في شأنهم، فآهـاً ألف آهٍ، لو لم تتخلَّص الروح من هذا التعلُّق، ولم ترجع إلى وطنها الأصلي: (شعر)

وَمَرْتَبَـةُ الْإِنْسَـانِ فِي آخِرِ الْوَرَى لِـذَلِكَ مِنْ عِزِّ الْحُضُـورِ تَـأَخَّرَا
فَـلَوْ لَـم يَـعُـدْ مِـنْ بُـعْـدِهِ وَاغْـتِـرَابِـهِ فَلَا شَـيْءَ مَحْرُومٌ كَـأُنْسٍ مِنَ الْوَرَى

والرُّوحُ من مرضها تزعم ألَمَها لذَّةً، وتظنُّ لذَّتَها ألمـاً، ومثلها مثلُ الصفراويِّ، حيث يجد الحلوَ بواسطة علَّة الصفراء مُرّاً، فالفكرُ في إزالة هذا المرض لازمٌ للعقلاء حتى يغشاهم الفرحُ والسرورُ في الآلام والمصائب الجسمانيَّتين: (شعر)

مِنْ أَجْلِ هَـذَا الْعَيْشِ وَالْمَعِيشَـةِ لَا بُـدَّ مِـنْ شَـقِّ الْـمَرَائِرِ يَـا فَـتَـى

فإن لوحظ ملاحظة جيّدة؛ لتبيَّن أنَّه لو لم يكن الألمُ والمصيبةُ والمرضُ في الدنيا؛ لَمَا تساوى بشعيرةٍ، فإنَّ الوقائعَ والحوادثَ هي التي تزيل ظُلْمَتَها، ومرارةُ الحوادث مثلُ مرارة الدَّواء النَّافع المزيل للمرض، وكان محسوسـاً للفقير أنَّ كثيراً من النَّاس يهيِّئون الطَّعام لدعوةٍ عامَّةٍ، ولا يقدرون أن يصحِّحوا النيَّة، وأن يخلِّصوها عن شائبة الرياء والسمعة، فيشرع في ذلك الأثناء طائفةٌ من الحاضرين في ذلك المجمع والآكلين من ذلك الطعام في ذمِّ صاحب الطعام، ومنقصته ومنقصة طعامه، فيحصل لصاحب الطعام انكسارُ القلب من هذه الجهة، وبهذا الانكسار ترتفعُ ظلمةُ الطَّعام التي طرأتْ عليه من عدم خلوص النيَّة، ويقع في معرض القبول، فإن لم يكن شكوى هؤلاء الجماعة وذمّهم، ولم يحصل لصاحب الطعام انكسارُ القلب بسببه؛ لكان الطعامُ مملوءاً بالظُّلمة والكدورة، فكيف المساغُ لاحتمال القبول في هذه الصورة؟ فكان مدارُ الأمر إذاً على الانكسار والعجز والافتقار، والأمرُ مشكلٌ على أمثالنا أرباب التَّربية، وطالبي العيش.........

الحسن والتنعُّم، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] نصٌّ قاطعٌ، والعبادةُ عبارةٌ عن التذلُّل والانكسار، فالمقصودُ من خلق الإنسان هو التذلُّل، خصوصاً المسلمين والمتدينين، فإنَّ الدنيا سجنُهم، وطلبُ العيش الحسن في السِّجن بعيدٌ من طور العقل، فلا بُدَّ إذاً للإنسان من تحمُّل المشقة والمحنة، ولا مندوحةَ له في ذلك التحمُّل. أكرمنا الله سبحانه بالاستقامة على هذا المعنى بحرمة جدكم الأمجد، عليه وعلى آله من الصلوات أتمها، ومن التحيات أيمنها.

المَكْتُوبُ الخَامِسُ وَالسِّتُّونَ

إلى الخان الأعظَمِ في التَّأسُّف والتَّلهُّف على ضعفِ الإسلامِ، وعجزِ المسلِمينَ، والتَّحريضِ على تقويَة أهلِ الإسلَامِ، والإغراءِ على إجراءِ أحكامِ الدِّين.

أيَّدكم الله سبحانه، ونصركم على أعداء الإسلام، في إعلاء الأحكام، قال المخبرُ الصادقُ عليه وعلى آله من الصلوات أفضلها ومن التسليمات أكملها: «**الْإِسْلَامُ بَدَأَ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ**»[1]، وقد بلغت غربةُ الإسلام حدّاً يطعنُ الكُفَّارُ في الإسلام بين ملأٍ، ويذمُّون المسلمين، ويُجْرُون أحكامَ الكفر بلا تحاشٍ، ويمدحون أهله في الأزقَّة والأسواق، والمسلمون عاجزون ممنوعون من إجراء أحكام الإسلام، ومطعونٌ فيهم في إتيان أحكام الشَّرائع عند هؤلاء الكفرة اللئام:

(شعر) مَلِيحٌ عَدِيمُ الْمِثْلِ مَرْمِيٍ وَضِدُّهُ ... يُقَبَّلُ مِنْهُ الْخَدُّ وَالْعَيْنُ وَالْفَمُ

سبحان الله وبحمده، وقد قيل: الشَّرعُ تحت السَّيف، وجُعِلَ رَوْنَقُ الشَّرع الشَّريف مربوطاً بالملوك والسلاطين، والآن قد انعكست القضيَّةُ، وانقلبت المعاملةُ في هذا الزمان، واحسرتاه، واندامتاه، ووايلتاه، ونحن اليوم نعدُّ وجودكم الشَّريف مغتنماً، ولا ندري من المبارزُ في هذه المعركة الضَّعيفة المنكسرة غيركم، والله سبحانه يكون مؤيِّدَكم وناصرَكم بحرمة النبيّ وآله الأمجاد، عليه وعليهم الصلواتُ والتسليماتُ والتحياتُ والبركاتُ، وقد ورد في الخبر: «**لَنْ يُؤْمِنَ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُقَالَ: إِنَّهُ مَجْنُونٌ**»[2]، وهذا الجنونُ الذي مبناه على فَرْط غيرة الإسلام محسوسٌ في شيمتكم في ذلك الوقت، والحمدُ لله على ذلك، وهذا اليومُ يومٌ يقبلُ فيه عملٌ قليلٌ بالاعتبار التامِّ على أجرٍ جزيلٍ، ولا يعلم وقوعُ عملٍ من أصحاب الكهف سوى هجرتهم وفرارهم من الكفار، مع هذا الاعتبار فيهم والاشتهار، ألا ترى أنَّ العساكرَ إذا صدرت عنهم خدمةٌ يسيرةٌ وإقدامٌ قليلٌ وقت غلبة الأعداء؛ ينالون بها اعتباراتٍ كثيرةً، وإنعاماتٍ جزيلةً، بخلاف وقت الأمن وسكون الأعداء؟ وهذا الجهادُ القوليُّ الذي تيسّر لكم اليوم ينبغي أن تغتنمه، وتقول: هل من مزيد، معتقداً أنَّ هذا الجهادَ القوليَّ أفضلُ من جهاد القتل، وأمثالنا العاجزون المقعدون مقطوعوا اليدين والرجلين محرومون من هذه الدَّولة:

(شعر) هَنِيئًا لِأَرْبَابِ النَّعِيمِ نَعِيمُهَا ... وَلِلْعَاشِقِ الْمِسْكِينِ مَا يَتَجَرَّعُ

آخر: وَأَبْدَيْتُ مِنْ كَنْزِ الْمَرَامِ عَلَامَةً ... وَأَرْجُوكَ أَنْ تَحْظَى بِهِ أَنْ تُحَاوِلَ

قال حضرة الخواجه عبيد الله أحرار قدّس الله سره: ولو كنتُ في مقام المشيخة والإرشاد؛ لَما وجد شيخٌ من شيوخ العالم مريداً، ولكن أُمرتُ - يعني: من عالم الغيب - بأمرٍ آخر، وهو ترويجُ الشَّريعة، وتأييدُ الملَّة، فلا جرم اختار صحبةَ السَّلاطين، وجعلهم منقادين إليه بتصرُّفه، وروَّج..

(١) أخرجه مسلم (١٤٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١١٦٥٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٨١٧)، والحاكم في «المستدرك» (١٨٣٩)، وأبو يعلى (١٣٧٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ: «أكثروا ذكر الله عز وجل حتى يقولوا: إنه مجنون».

الشَّريعة بواسطتهم، وقد جعل الله سبحانه كلامكم مؤثِّراً، وأودع فيه تأثيراً ببركة محبَّتكم لأكابر هذه الطَّائفة قدس الله أسرارهم، وظهرت عظمةُ إسلاميتكم في نظر الأقران، فالملتمسُ سعيُكم في هذا الباب ولو لهدم أكبر أحكام الكفر الذي له شيوعٌ تامٌّ بين أهل الإسلام، حتى يكون أهل الإسلام محفوظين من تلك المنكرات، جزاكم الله عنا وعن سائر المسلمين خير الجزاء، وقد فُهِمَ العنادُ للدين المصطفويّ عليه الصلاة والسلام في السَّلطنة الأولى، وليس هذا العنادُ ظاهراً في هذه السَّلطنة، فإن كان؛ فمبنيٌّ على عدم العلم، ونحن في خوفٍ من أن ينجرَّ الأمرُ هنا أيضاً إلى العناد، فتصير المعاملةُ ضيِّقةً على المسلمين:

(ع) وَمَا خَوْفِي لِشَيْءٍ غَيْرِ دِينِي

ثبَّتنا الله سبحانه وإياكم على متابعة سيِّد المرسلين، عليه وعلى آله الصلواتُ والتسليماتُ. والفقيرُ قد جئت هنا بسببٍ من الأسباب، ولم أستصوبْ أن لا أُطْلِعَكم على مجيئي، وأن لا أكتبَ بعض كلماتٍ نافعةٍ، وأن لا أخبر عن محبةٍ متعلِّقةٍ بواحدٍ من الأعزة بحسب المناسبة الفطرية، قال عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ أَحَبَّ أَخَاهُ فَلْيُعْلِمْ إِيَّاهُ**». والسلامُ عليكم وعلى جميع من اتَّبع الهدى.

المَكْتُوبُ السَّادِسُ وَالسِّتُّونَ

إلى المذكورِ أيضـًا في مدحِ الطَّريقةِ العليَّة النَّقشبَنديَّة قدَّس اللهُ أسرارَهم، وبيانِ مُناسبةِ هذا الطَّريق بطريقِ الأصحابِ الكرامِ، وبَيانِ فضيلَةِ الأصحابِ العظامِ على غيرِهِم، ولو كانَ ذلك الغيرُ أُويسـًا القَرَني أو عمَرَ بنَ عبدِ العزيزِ المَرواني.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. اعلم أنَّ طريقَ حضرات خواجكان قدَّس الله أسرارهم مبنيٌّ على اندراج النِّهاية، قال حضرة الخواجه بهاء الدين النَّقشبند قدَّس الله سره: نحن نُدْرِجُ النِّهايةَ في البداية، وهذا الطَّريقُ هو طريقُ الأصحاب الكرام بعينه، فإنَّه كان يتيسّر لهم في أوَّل صحبة النبيِّ عليه الصلاة والسلام ما يتيسّر لسائر أولياء الأمّة نبذة منه في نهاية النهاية، ولهذا كان وحشيّ قاتلُ حمزة ﷺ أفضلَ من أويس القرنيّ الذي هو خيرُ التابعين، وذلك لتشرُّفه بشرف صحبة سيد الأولين والآخرين في بداية إسلامه مرَّةً واحدةً، وما حصل لوحشيّ في أوَّل صحبة خير البشر عليه وعلى آله الصلاةُ والسلامُ لم يتيسّر لأويس القرنيّ في الانتهاء بتلك الخصوصيَّة، فلا جرم كان خيرُ القرون قرنَ الأصحاب رضوان الله عليهم أجمعين، وأخَّرت كلمةُ (ثم)[1] أمرَ الآخرين، وأشارت إلى بُعْدِ ما بين الدَّرجتين، سئل عبد الله بن المبارك: أيُّهما أفضلُ: معاوية أو عمر بن عبد العزيز؟ قال: الغبارُ الذي دخل أنف فرس معاوية مع رسول الله ﷺ خيرٌ من عمر بن عبد العزيز كذا مرَّة. فلا جرم كانت سلسلةُ هؤلاء الأكابر سلسلةَ الذَّهب، وكونُ مزيَّة هذا الطَّريق العالي على سائر الطُّرق كمزيَّة قرن الأصحاب على سائر القرون صار مبرهناً، والاطِّلاعُ على حقيقة جماعةٍ ذاقوا في أوَّل شربٍ من ذلك الجام من كمال الفضل والكرم متعذِّرٌ من غيرهم، فإنَّ نهايَتَهم فوق نهاية الآخرين:

(ع) وَعَامُ الْخَصْبِ يُعْلَمُ مِنْ رَبِيعِ

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]. قال حضرة الخواجه بهاء الدين النَّقشبند قدس سره: نحن المفضَّلون. جعلنا الله سبحانه وإياكم من محبِّي هؤلاء الأكابر ومتابعي آثارهم، بحرمة النبي القرشيّ، عليه وعلى آله من الصلوات أفضلها، ومن التحيات أكملها.

---

(١) أي: التي في الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٣) من حديث عمران ﷺ مرفوعاً: «خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم».

المكتوب السابع والستون

إلى خان خانان في تفويضِ مُحتاج.

ثبَّتنا الله سبحانه وإياكم على متابعة سيد المرسلين، عليه وعلى آله الصلواتُ والتسليماتُ ظاهراً وباطناً، ويرحم الله عبداً قال آمينا. قد اضطرَّني إلى تصديعكم أمران أهمّان: أحدهما: إظهارُ رفع مظنَّة الأذى، بل إظهارُ حصول المودَّة والإخلاص، وثانيهما: الإيماءُ إلى احتياج محتاجٍ متحل بالفضيلة والصلاح، ومتزيِّن بالمعرفة والشُّهود، كريمٍ من جهة النَّسب، شريفٍ من جهة الحسب. أيُّها المخدوم، إنَّ في إظهار الحقّ نوعاً من المرارة، وإن كانت متفاوتةً بحسب الشدَّة والضعف، فيا سعادة من يأكل هذه المرارةَ مثل العسل، ويقول: هل من مزيد، وتلويناتُ الأحوال من لوازم صفة الإمكان، حتى إنَّ طائفةً بلغوا مرتبة التمكين لم يتخلَّصوا من التلوين، فإنَّ الممكنَ المسكينَ لا يخلو: إما أن يكون مغلوبَ سلطان الصِّفات الجلاليَّة، أو يكون مغلوب الصِّفات الجماليَّة، أو يكون وقتاً محلاًّ للقبض، ووقتاً موطناً للبسط، ولكلِّ موسمٍ أحكامٌ على حدةٍ، كان بالأمس ذلك، واليوم هذا: «**قَلْبُ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ**»[1]. والسلام.

المكتوب الثامن والستون

إلى المذكورِ أيضاً في بيانِ أنَّ التَّواضعَ يستَحسنُ من أربابِ الغنَى، والاستغناءَ من أصحابِ الفَقرِ، وما يُناسبُ ذلك.

الخيرُ فيما صنع الله أيها المخدوم: (شعر)

وَمَا هُوَ مِنْ شَـرْطِ الْبَلَاغِ أَقُولُـهُ ... فَخُذْ مِنْهُ نُصْحاً نَاصِحاً أَوْ مَلَالَـةً

التَّواضُعُ مستحسنٌ من أرباب الغنى، والاستغناءُ من أصحاب الفقر؛ لأنَّ المعالجةَ إنّما تكون بالأضداد، ولم يفهم من مكاتيبكم الثَّلاثة شيءٌ غيرُ الاستغناء، وإن كان مقصودُكم التَّواضعَ، وكان في المكتوب الأخير مسطوراً بعد الحمد والصلاة: فليعلم... إلخ، ينبغي أن يلاحظ في هذه العبارة ملاحظة جيّدة حتى يظهر أنَّها إلى أين تكتب؟ وإلى من تُرسل؟ نعم، قد خدمتم الفقراءَ كثيراً، ولكن رعايةُ الأدب أيضاً ضروريَّة؛ لتترتَّبَ الثَّمرةُ عليها، وبدونها خرطُ القتاد. نعم، إنَّ أتقياء أمّته ﷺ بريئون من التكلّف، ولكنَّ التكبُّرَ مع المتكبرين صدقةٌ، قال شخصٌ لحضرة الخواجه: إنَّه متكبِّرٌ، فقال في جوابه: إنَّ تكبُّري من كبريائه تعالى، لا ينبغي لأحد أن يظنَّ هذه الطَّائفةَ ذليلين حقيرين، «**رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَـرَّهُ**»[2] حديثٌ نبويٌّ عليه الصلاة والسلام: (شعر)

بَثَثْتُ قَلِيلاً مِنْ هُمُومِي وَخِفْتُ أَنْ ... تَـمَـلُّـوا وَإِلَّا فَـالْـكَـلَامُ كَـثِـيـرٌ

وينبغي لمحبِّيكم الأعزَّة ومخلصيكم الأجلَّة أن يكونوا من أصحاب الملاحظة المطابقة لنفس الأمر، وأن يبلغوا إليك كلما هو واقعٌ في نفس الأمر، وأن ينظروا في كلِّ مشورةٍ إلى ما فيه صلاحكم، لا إلى ما فيه صلاح أنفسهم، فإنَّه خيانةٌ. ولقد كان من العلل الغائية لهذا السفر إفادةُ ما فيه بعض منافعكم، ولكن محبوكم لم يتركوني لأن ألاقيكم، فلا تنسبوا التَّقصيرَ إلى هذا الطرف، وهذه المقدّماتُ وإن كانت مرّاً في الظَّاهر، ولكنَّ من يمدحكم ويستميلكم كثيرٌ، فاكتفوا بهم، والمقصودُ من مودَّة الفقراء ومحبتهم: الاطِّلاعُ على العيوب المكنونة، وظهورُ الرذائل المخزونة، ولكن ينبغي أن يعلم أنَّ إظهارَ أمثال هذه الكلمات ليس على وجه الإيذاء، بل على وجه النَّصيحة وحُرْقة القلب، ....

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ، ورواه الترمذي (٢١٤٠) وحسنه من حديث أنس ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٥٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وأَيْقِنْ أنَّ الخواجه محمد صديق لو تقدَّم يوماً واحداً؛ لأوصل هذا الفقير نفسه إليكم على كلِّ حالٍ، ولكنه لقي في أثناء طريق سرهند، فالمأمولُ مسامحتكم، الخيرُ فيما صنع الله سبحانه.

المَكتُوبُ التَّاسِعُ وَالسِّتُّونَ

إلى المَذكورِ أيضاً في بيانِ أنَّ التَّواضعَ موجبٌ للرِّفعةِ في الدَّارينِ، وأنَّ النَّجاةَ مربوطَةٌ بمُتابَعة أهلِ السُّنَّة والجماعَة الذينَ همُ الفِرقةُ النَّاجيةُ.

الحمد لله، والصلاةُ والسلامُ على رسول الله. وصل مكتوبكم الشَّريفُ صحبةَ الأخ مولانا محمد صديق، وقد أكرمتم جزاكم الله سبحانه عنا خيرَ الجزاء، وحيث إنَّكم راعيتم الأدبَ مع الفقراء، وسقتم الكلامَ بالتواضع؛ نرجو أن يكون هذا التنزُّل بحكم: «**مَنْ تَوَاضَعَ للهِ رَفَعَهُ اللهُ**»(١) موجباً للرفعة الدينية والدنياويَّة، بل كان كذلك بشرى لكم، وحيث أوردتم الكلامَ في البين من الإنابة والمراجعة؛ فتصوّر أنَّ هذه الإنابةَ قد وقعت على يد درويشٍ من الدراويش، وكن مترصِّداً لنتائجه وثمراته، ولكن ينبغي لك أن تراعي حقوقه مهما أمكن، وأيش نكتب من الوصايا والنَّصائح؟ وماذا نبيِّنُ من العلوم والمعارف؟ فإنَّ العلماءَ المجتهدين والصوفيَّةَ المحققين شكر الله سعيهم لم يُقَصِّروا في بسط الكلام وتفصيله، وأظنُّ أنَّ بعض الأصحاب أَوْصَلَ بعض مسودّات هذا الفقير قليل البضاعة إلى خدمتكم، ولعلَّ نظركم الشَّريفَ وقع عليه.

وبالجملة: إنَّ طريقَ النجاة هو متابعةُ أهل السنة والجماعة كثَّرهم الله سبحانه في الأفعال والأقوال، وفي الفروع والأصول، فإنَّهم هم الفرقةُ النَّاجيةُ، وما سواهم من الفرق؛ فإنَّهم في معرض الزوال، وشرف الهلاك، علمه اليوم واحدٌ أو لم يعلم، وأما غداً؛ فيعلمه كلُّ أحدٍ ولا ينفعُ. اللّهم نبِّهْنا قبل أن ينبِّهنا الموت. والسيدُ إبراهيم منسوبٌ إلى تلك العتبة العليّة من قديم الأيّام، ومنتظمٌ في سلك الدُّعاة، فاللَّازمُ لِذِمَّة الكرام أن يعينوه ويأخذوا بيده حتى يخلِّصوه وأهله من الفقر والعجز؛ ليحصلَ له فراغُ الخاطر، ويشتغل بدعاء سلامة الدَّارين. والسلام.

المَكتُوبُ السَّبعُونَ

إلى المذكورِ أيضاً في بيانِ أنَّ جامعيَّةَ الإنسانِ سببٌ لبُعدِه كما أنَّها سببٌ لقربِه، وما يُناسبُ ذلك.

ثبتكم الله سبحانه على جادة الشَّريعة المصطفويَّة، على صاحبها الصلاةُ والسلامُ والتحية، رحم الله عبداً قال: آمينا.

اعلم أنَّ جامعيَّةَ الإنسان كما أنَّها سببٌ لقربه وتكريمه وتفضيله؛ كذلك هي سببٌ أيضاً لبعده وتجهيله وتضليله، أما قربُه؛ فبواسطة أتميَّة مرآته، وقابليَّته لظهور جميع الأسماء والصِّفات، بل للتجلِّيات الذاتيّة، وما ورد من الحديث القدسي: «**لَا يَسَعُنِي أَرْضِي وَلَا سَمَائِي، وَلَكِنْ يَسَعُنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ**»(٢) رمزٌ من هذا البيان، وأما بعده؛ فبسبب احتياجه إلى كلِّ شيءٍ من جزئيات العالم، فإنَّ له احتياجاً إلى كلِّما في العالم، ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، فبواسطة هذا الاحتياج له تعلُّق بجميع الأشياء، وهذا التعلُّقُ هو الذي صار سبباً لبعده وضلاله: (شعر)

وَمَرْتَبَةُ الْإِنْسَـانِ فِي آخِرِ الْوَرَى ... لِذَلِكَ عَنْ عِزِّ الْحُضُـورِ تَأَخَّرَا

فَإِنْ لَمْ يَعُدْ مِنْ بُعْدِهِ وَاغْتِرَابِهِ ... فَلَا شَيْءَ مَحْرُومٌ كَأُنْسٍ مِنَ الْوَرَى

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ١٢٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠/ ٤٥٥- ٤٥٦) من حديث عمر ﷺ.

(٢) أخرجه الديلمي في «الفردوس» (٤٤٦٦) من حديث أنس ﷺ مرفوعاً: «قال الله عز وجل: لا يسعني شيء، ووسعني قلب عبد المؤمن إذا ألبسته لبسة أحبائي».

فكان الإنسانُ أشرفَ الموجودات وشرَّ الكائنات أيضاً؛ إذ منه محمد حبيب رب العالمين، عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات والتحيات، ومنه أبو جهل اللعين عدوّ رب الأرضين والسموات، فلا جرم كان الأمرُ مشكلاً جدّاً، ما لم يتيسّر النجاةُ من جميع التعلُّقات الشتّى، ولم يحصل تعلُّقٌ بواحدٍ منزَّهٍ عن الوحدة أيضاً، ولكن بمقتضى (ما لا يدرك كلُّه لا يترك كلّه) ينبغي أن يلتزم كون المعاملة والمعيشة في أيّام قليلةٍ على وفق السُّنَّة، واتباع صاحب الشَّريعة عليه وعلى آله الصلاة والتحية، فإنَّ التخلُّصَ من عذاب الآخرة، والفوزَ بالتنعُّمات السرمديَّة مربوطةٌ بسعادة هذا الاتباع، فينبغي أداءُ الزكاة من الأموال النامية والأنعام السائمة كما هو حقُّها، وأن يجعل ذلك وسيلةً لقطع التعلُّق عن الأموال والأنعام، وينبغي أن لا يكون حظُّ النَّفس ملحوظاً ومنظوراً إليه في أكل الأطعمة اللذيذة، ولبس الألبسة النفيسة، بل اللائقُ في استعمال الأطعمة والأشربة: أن لا ينوي شيئاً غيرَ حصول القوَّة لأداء الطاعات، وفي لبس الثوب النَّفيس[1] ينبغي أن ينوي التزيُّنَ المأمورَ بقوله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، أي: عند كل صلاةٍ، وأن لا يشوبَه نيةٌ أخرى. فإن لم تتيسّر حقيقةُ النيَّة؛ ينبغي أن يتكلّفَ فيها، «فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوا»، وأن يلتجئَ ويتضرَّعَ إلى الله سبحانه دائماً؛ لتتيسّر حقيقةُ النيّة، وليتخلَّص من التكلّف: (شعر)

مَنْ كَانَ يَخْلُقُ لُؤْلُؤاً مِنْ قَطْرَةٍ ... وَلَعَلَّ يَقْبَلُ دَمْعِيَ الْمُتَقَاطِرِ

وعلى هذا القياس ينبغي أن يعامل في جميع الأمور بمقتضى فتاوى العلماء المتديِّنين الذين اختاروا العزيمةَ واجتنبوا الرُّخصةَ، وأن يعتقد ذلك وسيلةً للنجاة الأبديّة، ﴿مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧].

المكتوب الحادي والسبعون

إلى المِيرزا دَارَاب بن خان خانان في بيانِ أنَّ شكرَ المُنعِم واجبٌ على المُنعَمِ عليه، وحُصولَ الشُّكر إنَّما هو بإتيانِ أحكامِ الشَّريعَة لا غيرُ.

أيّدكم الله سبحانه ونصركم. اعلم أنَّ شكرَ المنعِم واجبٌ على المنعَم عليه عقلاً وشرعاً، ومن المعلوم أنَّ وجوبَ الشُّكر على قدر وصول النِّعمة، فكلَّما كان وصولُ النِّعمة أكثرَ؛ كان وجوبُ الشكر أزيدَ وأوفرَ، فكان الشُّكر على الأغنياء على تفاوت درجاتهم بأضعاف ما يجب على الفقراء، ولهذا ورد في الخبر: «إِنَّ فُقَرَاءَ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قَبْلَ الْأَغْنِيَاءِ بِخَمْسِمِائَةِ عَامٍ»[2]، والشكرُ لله المنعم تعالى وتقدس إنّما يكون بتصحيح العقائد أوّلاً على مقتضى آراء الفرقة النَّاجية أهل السُّنَّة والجماعة، وإتيان الأحكام الشَّرعيّة العمليَّة ثانياً على وفق بيان مجتهدي هذه الفرقة العليّة، والتَّصفية والتَّزكية ثالثاً على طِبْق سلوك الصُّوفيَّة العليّة من هذه الفرقة النَّاجية السنيَّة، ووجوبُ هذا الرُّكن الأخير استحسانيٌّ، بخلاف الرُّكنين السَّابقين، فإنَّ أصلَ الإسلام مربوطٌ بذينك الرُّكنين، وإنَّما المنوطُ بالركن الأخير: هو كمالُ الإسلام، لا أصلُه. والعملُ المخالفُ لهذه الأركان الثَّلاثة ولو كان من جنس الرياضات الشاقة والمجاهدات الشديدة، فهو داخلٌ في المعصية والبغي والطغيان على المنعم جلَّ سلطانه، ولم يقصِّرْ براهمةُ الهند وفلاسفة اليونان في الرِّياضات والمجاهدات شيئاً، ولم يفوِّتوا فيها دقيقةً، ولكن لَمَّا لم تكن تلك الرِّياضاتُ والمجاهداتُ على وفق شرائع الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام كانوا مردودين، وصاروا من النَّصيب الأخرويّ محرومين. فعليكم بمتابعة سيدنا ومولانا وشفيع ذنوبنا وطبيب قلوبنا.........

(١) في بعض النسخ: (الفنيس).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٥٤)، وابن ماجه (٤١٢٢) من حديث أبي هريرة ﵁ بلفظ: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم، وهو خمسمائة عام». قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وأخرجه مسلم (٣٧) من حديث عبد الله بن عمرو ﵄ بلفظ: «إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفاً».

محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم، ومتابعة خلفائه الرَّاشدين المهديِّين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

المَكتُوبُ الثَّاني وَالسَّبْعُونَ

إلى الخواجه جِهان في بيانِ أنَّ جمعَ الدِّينِ معَ الدُّنيا متعسِّرٌ، وما يناسبُ ذلك.

سلَّمكم الله سبحانه وعافاكم: (ع) مَا أَحْسَنَ الدِّينَ وَالدُّنْيَا لَوِ اجْتَمَعَا

والجمعُ بين الدِّين والدُّنيا من قبيل الجمع بين الأضداد، فلا بُدَّ إذاً لطالب الآخرة من ترك الدنيا، وحيث كان تركُها حقيقةً متعسِّراً في هذه الأوان[1]؛ ينبغي أن يَلتزِمَ تركَها حكماً بالضَّرورة، والتركُ الحكميُّ عبارةٌ عن أن يكون محكوماً بمقتضى حكم الشَّريعة الغرَّاء في الأمور الدينيَّة، وأن يراعيَ حدودَ الشَّرع في المطاعم والمشارب والمساكن، غيرَ مجوِّزٍ لمجاوزتها، وأن يؤدِّيَ الزكاة المفروضة في الأموال النامية والأنعام السَّائمة، فإذا تيسّر التحلِّي بالأحكام الشَّرعيّة؛ فقد حصلت النَّجاةُ من مضرَّة الدنيا، واجتمعت الدنيا حينئذٍ بالآخرة، ومن لم يتيسّر له هذا القسمُ أيضاً من الترك؛ فهو خارجٌ من المبحث، وحكمُه حكمُ المنافق، وصورةُ الإيمان التي فيه لا تنفعه في الآخرة، وإنَّما نتيجتُها عصمةُ الدِّماء والأموال في الدنيا: (شعر)

وَمَا هُوَ مِنْ شَرْطِ الْبَلَاغِ أَقُولُهُ فَخُذْ مِنْهُ نُصْحاً نَافِعاً أَوْ مَلَالَةً

وأيُّ صاحبِ دولةٍ يسمع الكلمةَ الحقَّةَ بسَمْعِ القبول مع هذه الزَّمزمة الدُّنياويَّة، والخدم والحشم، والأطعمة اللَّذيذة، والألبسة الفاخرة؟ (شعر)

فِي أُذْنِهِ مِنْ أَنَّتِي صَمَمٌ فَلَا يَرْضَى سَمَاعَ نَصِيحَتِي وَبُكَائِيَا

وفَّقنا الله سبحانه وإياكم لمتابعة الشَّريعة المصطفويَّة، على صاحبها الصلاةُ والسلامُ والتحيةُ. وبقيةُ المرام: أنَّ الشيخ ميان زكريا كان سابقاً مستوفي الخراج، وهو عالمٌ وفاضلٌ، وقد مضت مدَّةٌ مديدةٌ وهو محبوسٌ في السِّجن بشؤم أعماله، وقد عجز الآن بواسطة ضعف الهرم وضيق المعيشة، وتمادت مدَّةُ حبسه، وقد كتب إلى الفقير يطلب حضوري في العسكر، فأسعى في تخليصه، ولكنَّ كثرةَ مسافة الطَّريق كانت مانعةً من ذلك، ولما أراد أخي الخواجه محمد صادق التَّوجُّهَ إلى خدمتكم كنت سبباً للتَّصديع بتحرير كلماتٍ بالضَّرورة، فالمرجوُّ رعايةُ التوجُّه العالي في حقِّ ذلك الضَّعيف، فإنَّه عالمٌ وشيخٌ كبيرٌ. والسَّلام أولاً وآخراً.

المَكتُوبُ الثَّالِثُ وَالسَّبْعُونَ

إلى قِلِيج الله بنِ قِلِيج خان في مذمَّة الدُّنيا وأبنائِها، وتَركِ تحصيلِ العُلومِ الغَيرِ النَّافعَة، والاِجتِنابِ عن فُضولِ المُباحاتِ، والتَّحريضِ على الخيراتِ والأعمالِ الصَّالحةِ، وما يُناسبُ ذلك.

رزقنا الله سبحانه الاستقامةَ على جادة الشَّريعة المصطفويَّة، على صاحبها الصلاةُ والسلامُ والتحيَّةُ الأبديّةُ السرمديَّة. أيها الولد، إنَّ الدُّنيا محلُّ الامتحان والابتلاء، ظاهرُها مموَّهٌ ومزيَّنٌ بأنواع المزخرفات، وصورَتُها منقّشةٌ وملوَّنةٌ بالخيلان والخطوط والذَّوائب والخدود الموهومة، حلوةٌ في بادي النَّظر، متخيَّلة بالطراوة والنَّضارة في البصر، ولكنَّها في الحقيقة جيفةٌ مرشوشٌ عليها العطر، ومزبلةٌ ملآنةٌ بالذباب والدود، سرابٌ يرى كالشَّراب، وسُمٌّ في صورة سُكَّر، باطنُها خرابٌ وأبترُ، ومعاملتها مع أبنائها مع وجود هذه الدّمامة والوقاحة شرٌّ من جميع ما يقال ويذكر، عاشقُها سفيهٌ ومسحورٌ، ومفتونُها مجنونٌ ومخدوعٌ، كلُّ........

---

(١) كذا في النسخ، ولعل الصواب (الآونة).

من افتتن بظاهرها؛ فقد اتَّسم بسيمة الخسارة الأبديّة، وكلُّ من نظر إلى حلاوتها وطراوتها؛ كان نصيبُه النّدامة السَّرمديَّة، قال سيدُ الكائنات حبيب رب العالمين عليه وعلى آله الصلاة والسلام: «**مَا الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ إِلَّا ضَرَّتَانِ، إِنْ رَضِيَتْ إِحْدَاهُمَا سَخِطَتِ الْأُخْرَى، فَمَنْ أَرْضَى الدُّنْيَا؛ فَقَدْ أَسْخَطَ الْآخِرَةَ عَلَى نَفْسِهِ**»(١)، فلا جرم لا يكون له نصيبٌ من الآخرة، أعاذنا الله سبحانه وإياكم من محبتها ومحبة أهلها.

أيها الولد، هل تدري ما الدُّنيا؟ كلُّما يعوقك ويحجبك عن الحقِّ سبحانه وتعالى من النِّساء والأولاد والأموال والجاه والرياسة واللهو واللعب والاشتغال بما لا يعني؛ فهو داخلٌ في الدنيا، والعلومُ التي لا دَخْلَ لها في أمور الآخرة؛ فهي أيضاً من الدنيا، فلو نَفَعَ تحصيلُ علم النُّجوم والمنطق والهندسة والحساب وأمثالها من العلوم التي لا طائلَ فيها؛ لكانت الفلاسفةُ من أهل النجاة، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**عَلَامَةُ إِعْرَاضِهِ تَعَالَى عَنِ الْعَبْدِ: اشْتِغَالُهُ بِمَا لَا يَعْنِيهِ**»(٢): (شعر)

مَـنْ كَـانَ فِي قَـلْـبِـهِ مِـقْـدَارُ خَـرْدَلَـةٍ ... سِـوَى هَـوَى الْحَقِّ فَـاعْـلَـمْ أَنَّـهُ مَـرِضُ

وما قالوا من أنَّ معرفةَ علم النُّجوم لازمةٌ لمعرفة أوقات الصَّلاة ليس معناه: أنَّ معرفةَ أوقات الصَّلاة لا تمكن إلا بمعرفة علم النُّجوم، بل بمعنى: أنَّ علمَ النُّجوم أحدُ طرق معرفة الأوقات، وكثيرٌ من الناس لا خَبَرَ لهم من علم النُّجوم، ومع ذلك يعرفون أوقاتَ الصلاة أزيدَ من علماء علم النُّجوم، وقريبٌ من ذلك: الوجوهُ التي ذكروها في تحصيل المنطق والحساب وأمثالهما من العلوم التي لها دَخلٌ في الجملة في بعض العلوم الشَّرعيّة. وبالجملة لا يظهر وجهُ جواز الاشتغال بهذه العلوم إلا بعد تمحُّلاتٍ كثيرةٍ، وذلك أيضاً بشرط أن لا يكون المقصودُ منها غيرَ معرفة الأحكام الشَّرعيّة، وتقوية الأدلَّة الكلاميَّة، وإلا؛ فلا يجوز الاشتغالُ بها أصلاً. ينبغي الإنصافُ: أنَّ الأمرَ المباحَ إذا كان الاشتغالُ به مستلزماً لفوات أمرٍ واجبٍ هل يخرج من الإباحة أو لا؟ ولا شكَّ أنَّ الاشتغالَ بهذه العلوم مستلزمٌ لفوات الاشتغال بالعلوم الشَّرعيّة الضروريَّة.

أيها الولدُ: إنَّ الحقَّ سبحانه قد رزقك من كمال عنايته التي لا غايةَ لها التَّوفيقَ للتَّوبة في عنفوان الشَّباب، ووفَّقك للإنابة على يدِ واحدٍ من داريش السِّلسلة النَّقشبنديَّة العليّة قدّس الله أسرارَ أهلها، ولا أدري هل لك على تلك التَّوبة ثباتٌ أو أَغْوَتْك عنها النَّفسُ بأنواع المزخرفات؟ وأرى الاستقامةَ عليها مشكلةً، فإنَّ الموسمَ عنفوانُ الشَّباب، ومتاعُ الدُّنيا متيسّرُ الأسباب، وأكثرُ القرناء غيرُ مناسبٍ في هذا الباب.

أيها الولد، إنَّ الأمرَ والحزمَ: هو الاجتنابُ عن فضول المباحات، والاكتفاءُ بقدر الضَّرورة، وأن يكون هو أيضاً بنيَّة حصول القوة والجمعيَّة لأداء وظائف العبوديَّة، فإنَّ المقصودَ من الأكل مثلاً: هو حصولُ القوَّة على أداء الطاعة، ومن لُبْس اللباس: سترُ العورة، ودفعُ الحرِّ والبرد، وعلى هذا القياس سائرُ المباحات الضروريَّة، واختار أكابر النقشبنديَّة قدس الله أسرارهم العليّة العملَ بالعزيمة، واجتنبوا من الرخصة مهما أمكن، ومن جملة العزائم: الاكتفاءُ بقدر الضَّرورة، فإن لم تتيسّر هذه الدَّولة؛ ينبغي أن لا يخرج من دائرة المباحات إلى حدِّ المشتبهات والمحرمات، ولقد أباح الله سبحانه بكمال كرمه تنعُّماتٍ كثيرةً على الوجه الأتمِّ، وجعل دائرةَ هذه التنعمات واسعةً جداً، ومع قطع النَّظر عن هذه التنعُّمات أيُّ عيشٍ يساوي رضا مولى العبد بأفعاله؟ وأيُّ جفاءٍ يشبّه بسخط سيده على..........

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٩٦٩٧)، والحاكم في «المستدرك» (٧٨٥٣) وصححه، وابن حبان (٧٠٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٨٥٤) من حديث أبي موسى ﷺ مرفوعاً: «من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى». قال الهيثمي: رجاله ثقات. «مجمع الزوائد»: (١٠/ ٢٤٩).

(٢) نقله ابن حجر الهيتمي عن الحسن من قوله. «الفتح المبين»: (ص٣٠٢).

أعماله؟ رضاءُ الله في الجنة خيرٌ من الجنَّة، وسخطُ الله في النار شرٌّ من النار، والإنسانُ عبدٌ محكومٌ بحكمٍ، لم يجعله المولى ولده، ولم يتركه سدى، حتى يتهافت على كلِّما يشاء، فينبغي التفكُّرُ وإعمالُ القلب، ولا يحصل غداً شيءٌ غير الندامة والخسارة، وقتُ العمل إنّما هو عهدُ الشَّباب، والعاقلُ من لا يضيِّعُ هذا الوقت ويغتنم الفرصة، فإنَّ الأمر مبهمٌ، فعساه أن لا يبقى إلى زمن الشيخوخة، ولئن بقي؛ فلعلَّه لا تتيسّر له الجمعيَّة، ولئن تيسّرت؛ فلعلَّه لا يقدر على العمل في أوان استيلاء الضعف والعجز، والحالُ أنَّ أسبابَ الجمعيَّة كلَّها متيسّرةٌ الآن، ووجودُ الوالدين أيضـاً من إنعامات الحقِّ سبحانه، فإن هَمَّ معيشتك على ذمَّتهم، والموسمُ موسمُ الفرصة، وزمانُ القوة والاستطاعة، فبأيِّ عذرٍ يمكن أن يؤخِّر شغلَ اليوم إلى غدٍ ويختار التَّسويفَ؟ قال عليه الصلاة والسلام: «**هَلَكَ الْمُسَوِّفُونَ**»(١).

نعم، إذا أخَّرت المهمات الدنياوية الدنية إلى غدٍ لأجل الاشتغال بأمور الآخرة في اليوم؛ يكون مستحسناً جداً، كما أنَّ عكسه مستقبحٌ جداً، وفي هذا الوقت الذي هو عنفوان الشَّباب، ووقت استيلاء أعداء الدين من النَّفس والشيطان، لعمل قليل من الاعتبار ما ليس ذلك في غير هذا الوقت لأضعافٍ مضاعفةٍ، كما أنَّ في القاعدة العسكريَّة للعساكر الشّجعان أقوياء الجنان اعتبار زائد وقت استيلاء الأعداء، حتى يعتبر منهم في ذلك الوقت عملٌ يسيرٌ وثباتٌ قليلٌ، ويكون ذلك منظوراً، ولا يكون مثلُ هذا الاعتبار وقت الأمن من شرِّ الأعداء.

أيها الولدُ، إنَّ المقصودَ من خلق الإنسان الذي هو خلاصةُ الموجودات ليس هو اللَّهو واللعب، ولا الأكل والنَّوم، وإنَّما المقصودُ منه: أداءُ وظائف العبودية والذلّ والانكسار، والعجز والافتقار، ودوام الالتجاء والتضرُّع إلى جناب قدس الغفار جلَّ سلطانه، والعباداتُ التي الشرعُ المحمديُّ ناطقٌ بها المقصودُ من أدائها منافعُ العباد ومصالحهم، ولا يعود منها شيء إلى جناب قدسه عزَّ شأنه، فينبغي إذاً أداؤها بغاية الممنونيَّة، وأن يسعى ويجتهدَ في انقياد الأوامر وامتثالها، والانتهاء عن المناهي وامتناعها، وقد أكرم الله سبحانه عبادَه بالأوامر والنَّواهي مع وجود غناه المطلق، فينبغي لنا أن نشكرَ على هذه النِّعمة على الوجه الأتمِّ، وأن نجتهدَ في امتثال أحكامها بكمال الممنونيَّة.

اعلم أيُّها الولدُ، لو أنَّ واحداً من أبناء الدنيا الذين تحقَّقوا بشوكةٍ ظاهريَّةٍ وجاهٍ صوريٍّ أنعم على واحدٍ من متعلِّقيه بخدمةٍ يرجع منها نفعٌ للآمر بها أيضـاً كيف يعدّها عزيزةً، ويقول: إنَّ شخصـاً عظيمَ القدر أمرني بهذه الخدمة، فينبغي لي القيامُ بها بغاية الممنونية؟ فأيُّ بلاءٍ نزل وأيُّ مصيبةٍ أصابت هل كانت عظمةُ الحق جلّ شانه في النَّظر أقلَّ من عظمة هذا الشَّخص حيث لا يجتهد في امتثال أحكام الحقّ جلّت عظمته؟ ينبغي أن يستحي وأن يتنبه من نوم الأرنب، وعدم امتثال أوامر الله جلّ سلطانه لا يخلو من أمرين: إما أن يكذب الإخبارات الشَّرعيّة، وإما أن تكون عظمةُ أمر الحقّ تعالى وتقدس أحقرَ من عظمة أمر أبناء الدنيا، فينبغي أن يلاحِظَ شناعةَ هذين الأمرين.

أيها الولد، لو أن شخصـاً قد جُرِّب كذبُه مراراً أَخْبَرَ بأنَّ الأعداءَ في صدد الهجوم بالليل لاستيلاءٍ تامٍّ على قوم كذا؛ لاجتهد عقلاءُ ذلك القوم في المحافظة وفكر دفع تلك البليَّة، مع علمهم بأنَّ ذلك المخبرَ متَّهمٌ بالكذب؛ لكون الاحتراز عما يتوهَّمُ فيه الخطرُ لازمـاً، وقد أخبر المخبرُ الصادقُ عليه الصلاة والسلام بتمام المبالغة عن عذاب الآخرة، ومع ذلك لم يتأثَّروا ....

---

(١) انظر: «تنبيه الغافلين» للسمرقندي (١/ ١١٤)، وفي حديثٍ أخرجه الديلمي ـ كما في «الفتح الكبير» للسيوطي (٢/ ٣٨) ـ من حديث عبد الرحمن بن عوف ﷺ مرفوعـاً: «التسويف شعار الشيطان، يلقيه في قلوب المؤمنين».

وعزا المتقي الهندي للديلمي أيضـاً من حديث ابن عباس ﷺ مرفوعـاً: «إياك والتسويف بالتوبة، وإياك والغرة بحلم الله عنك». «كنز العمال»: (٤/ ٢٢٨).

وأخرج قوام السنة في «الترغيب والترهيب» (١/ ٤٤١ - ٤٤٢) من حديث ابن عباس ﷺ مرفوعـاً: «واحذروا التسويف، فإن الموت يأتي بغتة».

منه أصلاً، فإنَّهم إن تأثَّروا لانزعجوا وتفكَّروا في دفعه، والحالُ أنَّهم عرفوا علاجَ دفعه ببيان المخبر الصادق عليه الصلاة والسلام، فبئس الإيمانُ الذي لا يكون لخبر المخبر الصّادق اعتبارٌ عند صاحبه مثلَ اعتبار خبر الكاذب، وصورةُ الإسلام لا تنفعُ من النَّجاة شيئاً، بل لا بُدَّ لحصول النَّجاة من تحصيل اليقين، وأين اليقينُ؟

بل لا ظن ولا وهم أيضاً، فإنَّ العقلاءَ يعتبرون الوهمَ في أمورٍ فيها خطرٌ وخوفٌ، وكذلك قال الله تعالى في كتابه المجيد: ﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحجرات: ١٨]، ومع ذلك إنَّهم يعملون هذه الأعمالَ القبيحةَ، والحالُ أنَّهم لو أحسُّوا اطِّلاع شخصٍ حقيرٍ على أعمالهم؛ لَمَا عملوا حينئذٍ عملاً شنيعاً أصلاً، فحالُ هؤلاء لا يخلو عن أحد الحالين:

* إما أن يكذِّبوا خبرَ الحقّ سبحانه.

* وإما أن لا يعتبروا اطِّلاعه تعالى، فمثلُ هذا العمل هل هو من الإيمان أو من الكفر؟

فيلزم لذلك الولد أن يجدِّد الإيمانَ، قال عليه الصلاة والسلام: «**جَدِّدُوا إِيمَانَكُمْ بِقَوْلِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»، وأن يعيد توبةً نصوحاً من أمورٍ لا يرضى بها الله سبحانه، وأن يجتنب عن أمورٍ محرمةٍ منهيةٍ عنها، وأن يؤدّي الصلوات الخمس مع الجماعة، فإن تيسّر قيامُ الليل وصلاةُ التهجُّد؛ فنعمت السَّعادةُ.

وأداءُ زكاة الأموال أيضاً من أركان الإسلام، فلا بد من أدائها ألبتَّة، وأسهلُ طرق أدائها: أن يعزل حقّ الفقراء من المال في كلِّ سنةٍ بنية الزكاة، فيحفظه عنده، ويصرفه في مصارف الزكاة في تمام السنة، فعلى هذا التَّقدير لا يلزم تجديدُ نيَّة أداء الزكاة في كلِّ مرةٍ، بل تكفي النيَّةُ وقت العزل مرَّةً واحدةً، ومن المعلوم أنَّه كم يصرف إلى الفقراء والمستحقين في جميع السَّنة، ولكن لما لم يكن بنيَّة أداء الزكاة؛ لم يكن محسوباً منها، وفي الصُّورةِ المذكورةِ تسقط الزَّكاةُ من الذمَّةِ، ويحصل التَّخلُّص أيضاً من الخرج من غير مضايقةٍ، فإن لم يصرف للفقراء في تمام السَّنة مقدارَ الزكاة، بل بقيتْ منها بقيَّةٌ؛ ينبغي أن يحفظها كذلك معزولةً عن سائر الأموال، فإنَّ مثلَ هذا العمل يحتاج إليه في كلِّ عامٍ، ومتى كان مالُ الفقراء ممتازاً ومعزولاً؛ فعسى أن يحصل التَّوفيق لإنفاقه غداً، وإن لم يحصل اليوم.

أيها الولد، إنَّ النَّفس بخيلةٌ بالذات، وهاربةٌ من امتثال الأحكام الإلهية جلَّ سلطانه، فلا جرم يصدرُ الكلامُ بالرفق واللين، وإلا؛ فالأموالُ والأملاكُ كلُّها حقّ الله تعالى، فأين المجالُ للعبد في المكث والتوقف فيه؟ بل ينبغي أداءها بالممنونيَّة التامَّة، وكذلك ينبغي أن لا يَتساهَلَ في أداء العبادات باتِّباع هوى النَّفس، وأن يسعى في أداء حقوق العباد سعياً بليغاً، وأن يبذل الجهد فيه حتى لا يبقى لأحد حقٌّ في الذمَّة، فإنَّ أداءَ الحقِّ هنا - يعني: في الدنيا - سهلٌ، بحيث يمكن تحصيله بالملائمة والتملُّق، وأما في الآخرة؛ فالأمرُ مشكلٌ غيرُ قابلٍ للعلاج.

وينبغي الاستفسارُ عن الأحكام الشَّرعيّة، والاستفتاءُ فيها من علماء الآخرة، فإنَّ لكلامهم تأثيراً، فعسى أن يحصلَ التَّوفيقُ للعمل بها ببركة أنفاسهم، وينبغي الاجتنابُ عن علماء الدنيا الذين جعلوا العلم وسيلةً للجاه، إلا أن لا يوجد العلماء المتقون، فيرجع إليهم بالضَّرورة بقدر الضَّرورة. والحاج ميان محمد الأترة من العلماء المتدينين هناك، والشيخ علي الأترة من أحبابكم، وكلٌّ من هذين الشَّخصين مغتنمٌ في تلك النَّواحي، والرّجوعُ إليهما في تحقيق المسائل الشَّرعيّة أنسبُ.

أيها الولدُ: ما لنا ولأبناء الدُّنيا؟ وأيَّةُ مناسبةٍ بيننا وبينهم حتى نتكلّم في خيرهم وشرّهم؟ وقد وردت النَّصائحُ الشَّرعيّةُ في هذا الباب على الوجه الأتمِّ والأكمل، فللّه الحجةُ البالغةُ، ولكن لما..........................

كان ذلك الولدُ راجعاً إلى الفقراء ومنسوباً إليهم من طريق الإنابة؛ كان للقلب توجُّهٌ في أكثر الأوقات إلى أحواله، وكان هذا التوجُّهُ باعثاً على القيل والقال، واعلم أنَّ أكثرَ هذه النصائح والمسائل قد بلغه وقرع سمعَه، ولكنَّ المقصودَ هو العملُ، لا مجرَّد العلم، ألا ترى أنَّ مريضاً إذا كان عالماً بداء مرضه لا ينفعه علمُه بذلك الدَّواء ولا يحصل الشِّفاءُ بدون أكل الدواء، وكلُّ هذا الإبرام والمبالغة لأجل العمل، فإنَّ العلمَ العاري عن العمل يقيم الحجَّةَ على صاحبه، قال عليه الصلاة والسلام: «**أَشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ الْقِيَامَةِ: عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ اللهُ بِعِلْمِهِ**».

وليعلم ذلك الولدُ: أنَّ الإنابةَ السَّابقة وإن لم تُثمِرْ بواسطة قلَّة صحبةِ أرباب الجمعيَّة، ولكنَّها تُنبِئُ عن نفاسة جوهر استعداده، والمرجوُّ أن يوفِّقه الله سبحانه لمرضيَّاته ببركة تلك الإنابة، وأن يجعله من أهل النَّجاة، وعلى كلِّ حالٍ ينبغي أن لا يفلت حبلَ محبَّة هذه الطَّائفة، وأن يجعل الالتجاءَ والتضرُّعَ إلى هؤلاء القوم شعاراً، وأن ينتظر تشريف الحقِّ سبحانه بمحبَّته بسبب محبَّة هذه الطَّائفة، وجذبه إليه بالتَّمام، وتخليصه من الأدناس والأوساخ بالكليَّة: (شعر)

مَا الْعِشْـقُ إِلَّا شُـعْلَـةٌ قَـدْ أَحْرَقَـتْ   كُـلَّ الْـوَرَى إِلَّا الْـحَبِـيـبَ الْـبَـاقِـي

المَكتُوبُ الرَّابِعُ وَالسَّبْعُون

إلى الميرزا بديعِ الزَّمانِ في التَّحريضِ على محبَّةِ الفقراءِ، والتَّوجُّه إليهِم، وعلى اتِّباعِ صاحبِ الشَّريعَة عليه الصَّلاة والسَّلام.

قد وردت الرقعةُ الشريفةُ، والنميقةُ اللطيفةُ، حمداً لله سبحانه حيث يفهم من فحواه محبَّة الفقراء، والتوجُّه إلى الدراويش، التي هي رأسُ مال السَّعادة؛ لأنَّهم جلساءُ الله سبحانه، و«**هُمْ قَوْمٌ لَا يَشْقَى جَلِيسُهُمْ**»[١]، وكان رسول الله ﷺ يستفتح بصعاليك المهاجرين[٢]، وقال عليه الصلاة والسلام في شأنهم: «**رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ**»، وقد اندرجتْ في الصَّحيفة الشَّريفة فقرةُ خديو النَّشأتين، وهذه لغةٌ مخصوصٌ إطلاقُها بحضرة واجب الوجود جلَّ سلطانه، وكيف يسوغُ لعبدٍ مملوكٍ لا يقدرُ على شيءٍ أن يبتغي المشاركةَ بالله جلَّ شأنه بوجهٍ من الوجوه، وأن يسعى ويعدو في طريق الاستقلال خصوصاً في النشأة الأخرويَّة التي تختصُّ فيها المالكيَّة والملكيَّة - سواءٌ كانت بطريق الحقيقة أو بطريق المجاز - بمالك يوم الدين؟ ويومئذ ينادي الحق سبحانه ويقول: ﴿**لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ**﴾ [غافر: ١٦]، ويقول في جوابه بنفسه: ﴿**لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ**﴾ [غافر: ١٦]، وليس للعباد في ذلك اليوم شيءٌ سوى الهول والدهشة والندم والحسرة، وقد أخبر الله سبحانه في القرآن المجيد عن شدَّة ذلك اليوم، وغايةِ اضطراب الخلائق، حيث قال تبارك وتعالى: ﴿**إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ**﴾ [الحج: ١-٢]: (شعر)

عَنِ الْفِعْلِ لَا قَوْلٌ بِـذَا الْيَوْمِ تُسْـأَلُ   قُلُوبُ ذَوِي الْأَلْبَابِ تُشْـوَى وَتَـذْبُـلُ
وَيَـدْهَـشُ فِـيـهِ الْأَنْـبِـيَـاءُ جَـمِـيـعُـهُـمْ   فَمَـا عُـذْرُ ذَنْـبٍ فِيـكَ أَمْ كَيْـفَ تَفْعَـلُ

وبقيَّة النصح: أنَّه لا بُدَّ من اتباع صاحب الشَّريعة عليه الصلاة والسلام والتحية، فإنَّ النجاةَ بدونه محالٌ، وينبغي أن لا يَلتفتَ إلى زخارف الدنيا، وأن لا يَعتنيَ بوجودها وعدمها، فإنَّ الدنيا مبغوضةٌ.........................

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٠٨)، ومسلم (٢٦٨٩) واللفظ له من حديث أبي هريرة ﷺ مطوَّلاً.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٨٥٧) من حديث أمية بن عبد الله مرسلاً. قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح. انظر: «مجمع الزوائد»: (١٠/ ٢٦٢). وفي رواية للطبراني (٥٨٩): (يستنصر) بدل: (يستفتح).

الله سبحانه، لا قَدْرَ لها عنده تعالى، فينبغي أن يكون عدمُها خيراً من وجودها عند العباد، وعدمُ وفائها وسرعةُ زوالها مشهورةٌ، بل مشهودةٌ، فاعتبروا بأبنائها الذين مضوا من قبلُ، وفَّقنا الله وإياكم لمتابعة سيِّد المرسلين عليه وعلى آله الصلاة والسلام.

المَكْتُوبُ الخَامِسُ وَالسَّبْعُونَ

إلى المِيرزا بديعِ الزَّمانِ أيضـًا في التَّحريضِ على متابعةِ سيِّد الكَونينِ عليه وعلى آله الصَّلاة والسَّلام بتَصحيحِ العَقائِد أوَّلاً، وتعلُّم الأحكام الفقهيَّة الضَّروريَّة ثانيـًا، وما يناسِبُه.

سلمكم الله سبحانه وعافاكم... اعلم أنَّ نقدَ سعادة الدَّارين منوطٌ بمتابعة سيِّد المرسلين عليه وعلى آله الصلواتُ والتسليماتُ، على نهجٍ بيَّنه علماء أهل السُّنَّة شكر الله سعيهم، وذلك بتصحيح الاعتقاد أوَّلاً على مقتضى آراء هؤلاء الأكابر، وبتحصيل علم الحلال والحرام، والفرض والواجب، والسنة والمندوب، والمباح والمشتبه. ثانيـًا: ولا بدَّ من العمل بمقتضى هذا العلم. وبعد حصول هذين الجناحين الاعتقاديّ والعمليّ إذا سبقت العنايةُ الأزليَّة بحصول السعادة السرمديَّة؛ يتيسّرُ الطَّيرانُ نحو عالم القدس، وبدونها خرطُ القتاد، والدنيا الدَّنيَّةُ ليست مما يخفى فعلها حتى تعدَّ من المطالب، ويظنَّ حصولُ آمالها وجاهها من المقاصد، ينبغي أن يكون عالي الهمَّة، فإنَّ الإنسانَ كلّما يجد من الله سبحانه إنّما يجده بالوسيلة، فينبغي إذاً طلبُ الوسيلة إليه تعالى:

(ع) هَـذَا هُوَ الأَمْرُ وَالْبَـاقِي مِنَ الْعَبَـثِ

وحيث طلبت الهمَّة من كمال الالتفات؛ فبشرى لك، ترجع سالمـًا وغانمـًا، لكن لا بدَّ من أن تراعي شرطـًا واحداً، وهو توحيدُ قبلة التوجُّه، فإنَّ جعلَ قبلة التوجُّه متعدِّدةً إلقاءُ السَّالك نفسه إلى التَّفرقة، ومن الأمثال المشهورة: أنَّ المقيمَ في محلٍّ في كلِّ محلٍّ، والمتردِّدَ بين المحالِّ ليس في محلٍّ أصلاً. رزقنا الله سبحانه وإياكم الاستقامةَ على جادة الشَّريعة المصطفوية، على صاحبها الصلاة والسلام والتحية، والسلام على من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى، عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات.

المَكْتُوبُ السَّادِسُ وَالسَّبْعُونَ

إلى قِلِيج خان في بيانِ أنَّ التَّرقِّيَ مربوطٌ بالورَعِ والتَّقوى، وفي التَّحريضِ على تركِ فُضولِ المُباحاتِ، وما يناسبُ ذلك.

عصمكم الله سبحانه عما يصمكم، وصانكم عما شانكم، بحرمة سيّد البشر، المنفيِّ عنه زيغُ البصر، عليه وعلى آله من الصلوات أكملُها، ومن التسليمات أفضلُها. قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧]، فكان مدارُ النَّجاة على جزأين: امتثال الأوامر، والانتهاء عن المناهي، ومعظمُ هذين الجزأين هو الجزءُ الأخيرُ المعبَّر عنه بالورع والتَّقوى، ذكر رجلٌ عند رسول الله ﷺ بعبادةٍ واجتهادٍ فيها، وذكر آخر برِعَةٍ، فقال النبيّ ﷺ: «**لَا تَعْدِلْ بِالرِّعَةِ شَيْئًا**»(١) يعني: الورع، وقال أيضـًا عليه من الصلوات أتمها ومن التسليمات أكملها: «**مِلَاكُ دِينِكُمُ الْوَرَعُ**»(٢)، وفضيلةُ الإنسان على الملك إنّما هي بسبب هذا الجزء، والترقِّي في مدارج القرب أيضـًا من هذا الجزء، فإنَّ الملائكةَ أيضـًا متشاركون في الجزء الأوَّل، والترقِّي مفقودٌ فيهم، فكانت رعايةُ جزء الورع والتقوى من أهم مهام الإسلام، وأشدّ ضروريات الدين، ورعايةُ هذا الجزء الذي مداره على الاجتناب من المحارم إنّما تتيسّر على وجه الكمال إذا حصل الاجتنابُ عن فضول المباحات، ....

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٩) واستغربه من حديث جابر ﷺ. والرِّعةُ: الورعُ.

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧/ ٥٠٠) من حديث عائشة ﷺ، وأخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠٩٦٩)، والخطيب في «تاريخ بغداد»: (٦/ ١٢٤)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (ص: ١١٢) من حديث عبد الله بن عباس ﷺ، وأخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (ص: ١١١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

واكتُفي منها بقَدْرِ الضَّرورة، فإنَّ إرخاءَ عنان النَّفس في ارتكاب المباحات يجرُّ إلى المشتبهات، والمشتبهُ قريبٌ من المحرم، و«مَنْ حَامَ حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ»(١)، فلا بدَّ إذاً في حصول كمال الورع والتقوى من الاكتفاء بقدر الضَّرورة من المباحات، وهو أيضـاً مشروطٌ بنيَّة تحصيل القوَّة على أداء وظائف العبوديَّة، وإلا؛ فهذا القدرُ أيضـاً وبالٌ، ولقليله حكم الكثير. ولما كان الاجتنابُ عن فضول المباحات بالكلية في جميع الأوقات - خصوصـاً في هذا الزمان - متعسِّراً وعزيزَ الوجود؛ لزم الاجتنابُ عن المحرمات، وتضييقُ دائرة ارتكاب فضول المباحات مهما أمكن، وأن يكون نادمـاً على هذا الارتكاب، ومستغفراً منه دائمـاً، وأن يلتجئ ويتضرَّعَ إلى الله تعالى في جميع الأوقات، معتقداً أنَّ هذا الارتكابَ لفضول المباحات فتحَ باب الدُّخول حوالي المحرمات، فعسى أن تقوم هذه النَّدامةُ والاستغفارُ والالتجاءُ والتضرُّعُ مقامَ الاجتناب عن فضول المباحات، وأن تسدَّ مسدَّه، وأن تدفع آفاتها، وتحفظ عنها، قال واحدٌ من أعزَّة الأكابر: انكسارُ العاصين أحبُّ إلى الله تعالى من صولة المطيعين.

والاجتنابُ عن المحرمات على قسمين: قسمٌ يتعلّق بحقوق الله سبحانه وتعالى، وقسمٌ يتعلّقُ بحقوق العباد، ورعايةُ القسم الثَّاني أهمُّ من رعاية القسم الأوَّل، فإنَّ الحقَّ سبحانه غنيٌّ على الإطلاق، وأرحم الراحمين، والعبادُ فقراءُ محتاجون وبخلاءُ ولئامٌ بالذات، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ؛ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، وَإِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ؛ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ؛ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ، فَحُمِلَ عَلَيْهِ»(٢)، وقال أيضـاً ﷺ: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قالوا: المفلسُ فينا: من لا درهم له ولا متاعَ، فقال: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي: مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ؛ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»(٣) صدق رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

ونقول إظهاراً لمحمدتكم وشكراً على صنيعكم: إنَّ كثيراً من الأحكام الشَّرعيّة صار مروَّجـاً في بلدة لاهور بوجودكم في مثل هذا الزمان، وحصلت تقويةُ الدين وترويجُ الملَّة في تلك البقعة، وهذه البلدةُ عند الفقير بالنِّسبة إلى سائر بلاد الهند كقطب الإرشاد بالنسبة إلى سائر الناس، وخيرُ هذه البلدة وبركاتها سارٍ في جميع بلاد الهند، فإذا حصل هناك ترويجٌ يتحقَّقُ نحوٌ من الترويج في كلِّ محلٍّ، كان الله سبحانه مؤيدكم وناصركم، قال رسول الله ﷺ: «لَا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ»(٤)، ولما كان حبلُ ارتباطكم الحبيّ بحضرة معدن المعارف شيخنا وقبلتنا قدس سره مُحْكمـاً قويّـاً؛ كنت باعثـاً على تحريك ذلك الارتباط الحبيّ بتسويد الأوراق، وتحرير بعض الكلمات، والزِّيادةُ على ذلك إطنابٌ.

وحاملُ رقيمة الدُّعاء رجلٌ صالحٌ ذو نسبٍ طيبٍ، وقد وقعت له حاجةٌ إلى جنابكم، فالمرجوُّ رعايةُ التوجُّه الشَّريف في حقه، وإنجاحُ حاجته، رزقنا الله سبحانه وإياكم الدَّولة الحقيقيَّة، والسعادة السرمديَّة، بحرمة النبي وآله الأمجاد، عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير ﵁.

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٤٩) من حديث أبي هريرة ﵁.

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٨١) من حديث أبي هريرة ﵁.

(٤) أخرجه البخاري (٣٦٤١)، ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية ﵁.
وأخرجه مسلم (١٩٢٠) من حديث ثوبان ﵁.
وأخرجه مسلم أيضـاً (١٩٢٤) من حديث عبد الله بن عمرو ﵄ بنحوه، وكذا أخرجه (١٩٢٣) من حديث جابر ﵁.

المكتوب السابع والسبعون

إلى جبَّاري خان في بيانِ أنَّ عبادةَ اللهِ الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ متى تكونُ ميسَّرةً؟ وما يُناسبُ ذلك.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]: (شعر)

وَمَا عَبَدُوا غَيْرَ الإِلَهِ فَبَاطِلٌ ... فَيَا وَيْلَ مَنْ يَخْتَارُ مَا كَانَ بَاطِلَا

وعبادةُ الله الذي ليس كمثله شيءٌ إنّما تتيسّرُ إذا تخلَّصَ العبدُ عن رقِّيَّة سواه جلَّ سلطانه بالتَّمام، ولم تبقَ قبلةُ التوجُّه غيرَ الذات الأحديَّة، ومصداقُ هذا التوجُّه: استواءُ إنعامه وإيلامه تعالى، بل يكون الإيلامُ أرغبَ فيه من الإنعام في ابتداء حصول هذا المقام، وإن انجرَّ الأمرُ أخيراً إلى التَّفويض، وكان كلَّما يصلُ ويحصلُ هو الأَوْلى والأنسبُ، والعبادةُ التي منشؤوها الرَّغبةُ والرهبةُ؛ فتلك العبادةُ هي عبادةُ النَّفس في الحقيقة، فإنَّ المقصودَ منها: إما حصولُ نجاةِ النَّفس أو سرورُها: (شعر)

مَا دُمْتَ مَفْتُوناً بِنَفْسِكَ يَا خَلِّي ... دَعْوَى الْمَحَبَّةِ مِنْكَ دَعْوَى كَاذِبِ

وحصولُ هذه الدَّولة منوطٌ بالفناء المطلق، وهذا التوجُّهُ من نتيجة المحبَّة الذاتيّة، ومقدمةُ ظهور الولاية الخاصَّة المحمديَّة، على صاحبها الصلاةُ والسلامُ والتحيةُ، وحصولُ هذه النِّعمة العظمى الموافق على كمال اتِّباع شريعته، عليه من الصلوات أتمها، ومن التحيات أكملها، فإنَّ شريعةَ كلِّ نبيٍّ التي أعطاه الله إياها من طريق النبوَّة مناسبةٌ لولايته، فإنَّ التوجُّهَ في الولاية إلى الحقِّ بالكلية، فإذا نزل بإذن الله سبحانه إلى مقام النبوَّة؛ ينزلُ بذلك النُّور، ويجمع ذلك الكمالَ مع التوجُّه إلى الخلق، وسببُ حصول كمالات مقام النبوَّة هو ذلك النورُ أيضاً، ولهذا قيل: ولايةُ النبيِّ أفضلُ من نبوَّته، فلا جرم تكون شريعةُ كلِّ نبيٍّ مناسبةً لولايته، واتِّباعُ تلك الشَّريعة مستلزمٌ للوصول إلى تلك الولاية.

فإن قيل: إنَّ بعضَ من يتَّبع شريعة نبينا عليه الصلاة والسلام لا نصيبَ له من ولايته ﷺ، بل هو على قَدَمِ نبيٍّ آخر، وله نصيبٌ من ولايته.

أجيب: أنَّ شريعةَ نبيِّنا عليه الصلاة والسلام جامعةٌ لجميع الشَّرائع، والكتابُ الذي أُنزل إليه شاملٌ لجميع الكتب السَّماوية، فاتِّباعُ هذه الشَّريعة كأنَّه اتباعٌ لجميع الشَّرائع، فمن له مناسبةٌ لنبيٍّ من الأنبياء يأخذ نصيباً من ولايته على قدر استعداده، ولا محذورَ فيه.

بل أقول: إنَّ ولايتَه عليه الصلاة والسلام حاويةٌ لولايات جميع الأنبياء عليهم الصلوات والتسليمات، فالوصولُ إلى واحدةٍ من تلك الولايات وصولٌ إلى جزءٍ من أجزاء هذه الولاية الخاصَّة، وسببُ عدم الوصول إلى تلك الولاية: القصورُ في كمال متابعته عليه الصلاة والسلام، وللقصور درجاتٌ، فلا جرم حصل التَّفاوتُ في درجات الولاية، ولو تيسّر كمالُ الاتِّباع؛ لأمكن الوصولُ إلى تلك الولاية، والاعتراضُ إنّما يَرِدُ إذا حصلت الولايةُ المحمديَّةُ لمتابعي شرائع الأنبياء الأخر عليه وعليهم الصلوات والتسليمات والتحيات، وليس فليس.

الحمدُ لله الذي أنعم علينا، وهدانا إلى الصراط المستقيم، والدين القويم، والصراطُ المستقيمُ عبارةٌ عن هذا الطَّريق المتين، والشرع المبين، ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يس: ٣-٤] دليلٌ لهذا المعنى.

رزقنا الله سبحانه وإياكم كمال اتِّباع شريعته عليه الصلاة والسلام بحرمة كُمَّل ....

أتباعه ومعظم أوليائه رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. آمين. وحاملُ رقيمة الدعاء لَمّا كان في صدد التوجُّه إلى تلك الحدود؛ صار باعثاً على تحريك سلسلة المحبَّة بتحرير كلماتٍ، والسلامُ عليكم ورحمة الله سبحانه لديكم.

المَكْتُوبُ الثَّامِنُ وَالسَّبْعُونَ

إلى جبَّاري خان أيضاً في بيانِ معنى السَّفرِ في الوطَن، والسَّيرِ الآفاقيِّ والأنفُسيِّ، وأنَّ حُصولَ هذه الدَّولَة موقوفٌ على اتِّباعه ﷺ.

رزقنا الله سبحانه الاستقامةَ على جادة الشَّريعة الحقَّة، على مصدرها الصلاة والتحيةُ. قد مضت مدَّةٌ من العود من سفر دهلي وأكره إلى الوطن المألوف، ونقدُ الوقت الآن «**حُبُّ الْوَطَنِ مِنَ الْإِيمَانِ**»[1]، فإن وقع السَّفرُ بعد الوصول إلى الوطن؛ فهو في نفس الوطن، فإنَّ السفرَ في الوطن من الأصول المقرَّرة عند أكابر الطَّائفة النقشبنديَّة العليّة قدس الله أسرارهم السنيَّة، ويحصل في هذا الطَّريق ذوقٌ من هذا السَّفر في الابتداء بطريق اندراج النِّهاية في البداية، ويجعل جمعٌ من هؤلاء الطَّائفة مجذوبين سالكين إذا أريد ذلك، ويُرْمون أوّلاً في السَّير الآفاقيّ، ثم يجذبون إلى السَّير الأنفسيِّ بعد تمام السَّير الآفاقيِّ، والسفرُ في الوطن عبارةٌ عن هذا السَّير الأنفسيِّ:

(ع) وَهَـذِي سَـعَادَاتٌ تَكُـونُ نَصِيبَ مَـنْ

(آخر): هَـنِيئـاً لِأَرْبَـابِ الـنَّعِـيمِ نَعِـيمُـهَـا

والوصولُ إلى هذه النِّعمة العظمى منوطٌ باتِّباع سيِّد الأولين والآخرين، عليه وعلى آله من الصلوات أكملها، ومن التحيات أفضلها، وما لم يُفْنِ السَّالكُ نفسه في الشَّريعة، ولم يتحلَّ بحُلَى امتثال الأوامر والانتهاء عن المناهي؛ لا تَصِلُ رائحةٌ من هذه الدَّولة إلى مشامِّ روحه، فإن حصلت له الأحوالُ والمواجيدُ فرضاً مع وجود مخالفة الشَّريعة ولو مقدار شعرةٍ؛ فهي داخلةٌ في الاستدراج تفضحهُ أخيراً، ولا إمكانَ للخلاص بدون اتِّباع محبوب ربّ العالمين، عليه وعلى آله من الصلوات أفضلها، ومن التسليمات أكلمها. ينبغي للعاقل أن يَصْرِفَ حياةَ أيَّامٍ معدودةٍ في مرضيَّات الله سبحانه وتعالى، وأيُّ صفاءٍ في عيشٍ وأيَّةُ لذَّةٍ في معيشةٍ إذا لم يكن مولى العبد راضياً عن أفعاله؟ والحقُّ سبحانه وتعالى مطَّلعٌ على الأحوال الكليَّة والجزئيَّة، وحاضرٌ وناظرٌ، فينبغي أن يستحيي منه سبحانه، فإنَّه لو ظَنَّ اطِّلاعَ مخلوقٍ على الغيوب[2] والأفعال القبيحة؛ لَمَا صدرتْ حينئذٍ قبيحةٌ ولا عيبٌ قطعاً، ولا يراد اطِّلاعُه على الغيوب ألبتّة، فأيُّ بلاءٍ وقع؟ فإنَّ أكثرَ الناس لا يتَّقون ولا ينقبضون ولا يبالون مع علمهم بحضور الحق سبحانه واطِّلاعه على الضمائر والسرائر، فأيُّ إسلامٍ هذا حيث لا اعتبار للحقّ عندهم مثل اعتبار هذا المخلوق؟ نعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، فبحكم «**جَدِّدُوا إِيمَانَكُمْ بِقَوْلِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**» ينبغي أن يجدِّدَ الإيمانَ في كل آنٍ بهذا القول العظيم الشأن، وأن يتوب إلى الله سبحانه من جميع الأفعال المذمومة، وينيبَ إليه تعالى، فإنَّه لا يُدرَى ربما تكون الفرصةُ للتوبة في وقتٍ آخر: «**هَلَكَ الْمُسَوِّفُونَ**» حديثٌ نبويٌّ، عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات.

وينبغي أن يغتنم الفرصةَ، ويصرفها في مرضاته تعالى، والتوفيقُ للتَّوبة من عناية الحقّ سبحانه، فينبغي أن يطلب هذا المعنى دائماً، وأن يطلب الهمَّةَ من الدَّراويش الذين لهم قدمٌ راسخٌ في الشَّريعة، ومعرفةٌ تامَّةٌ من عالم الحقيقة، وأن يستمدَّ منهم.........

(١) قال السخاوي: (لم أقف عليه، ومعناه صحيح). «المقاصد الحسنة»: ص٢٩٧.

(٢) كذا في النسخ، ولعل الصواب: (العيوب).

حتى تظهر عنايةُ الحقِّ سبحانه من بابهم، فتجذب إلى جناب قدسه تعالى بالتَّمام، فلا تبقى حينئذٍ مخالفةٌ أصلاً، فإنَّه لو وجدت من مخالفة الشَّريعة مقدارُ شعرةٍ؛ فالأمرُ في خطرٍ، فلا بُدَّ من سدّ سُبل المخالفة بالتمام: (شعر)

وَمِنَ الْمُحَالِ الْمَشْيُ فِي طُرُقِ الصَّـفَا　　　يَـا سَـعْـدُ مِنْ غَيْرِ اتِّبَاعِ الْمُصْـطَفَى

صلواتُ الله سبحانه عليه وعلى آله.

ولا ينبغي الاعتراضُ على أهل الله، خصوصاً إذا تحقَّقَ في البين اسم المرشديَّة والمريديَّة، وكان طريقُ الإفادة والاستفادة مفتوحاً، وينبغي أن يعتقده سمّاً قاتلاً. والزيادةُ على ذلك إطنابٌ، وقد حرَّرتُ هذه الكلمات بسبب ارتباط المحبَّة والإخلاص، فالمرجوُّ أن لا تكون موجبةً للملال.

ثم إنَّ الملا عمر وشاه حسين كليهما من أولاد الكبار يريدان ملازمتكم، فالمرجوُّ إدخالهما في زمرة الملازمين المخصوصين، وجاء الشيخ إسماعيل أيضاً بهذه الإرادة، ولو كان راجلاً؛ فالمأمولُ أن يحتظّ بما يناسب حاله، ولنكتفِ بهذا القدر من زيادة التصديع. والسلام والإكرام.

المَكْتُوبُ التَّاسِعُ وَالسَّبْعُونَ

إلى المذكورِ أيضاً في بيانِ أنَّ هذه الشَّريعة الغرَّاء جامعةٌ للشَّرائع المتقدِّمَة، والإتيانَ بمُقتضَى هذه الشَّريعَة إتيانٌ بمُقتضَى الشَّرائع، وما يُناسبُ ذلك.

رزقكم الله سبحانه الثباتَ والاستقامةَ على جادة الشَّريعة المصطفويَّة، على صاحبها الصلاةُ والسلامُ والتحيةُ، وجعلكم متوجِّهاً إلى جناب قدسه بالكليَّة، وقد تقرَّر أنَّ محمداً رسول الله ﷺ جامعٌ لجميع الكمالات الأسمائيَّة والصِّفاتيَّة، ومظهرُ جميع الأنبياء على سبيل الاعتدال، والكتابُ الذي أنزل إليه خلاصةُ جميع الكتب السَّماوية المنزلة على سائر الأنبياء على نبينا وعليهم الصلوات والتسليمات، وأيضاً إنَّ الشَّريعةَ التي أُعْطِيَها زبدةُ الشَّرائع المتقدِّمة، والأعمالُ بمقتضى هذه الشَّريعة الحقَّة منتخبةٌ من أعمال الشَّرائع، بل من أعمال الملائكة أيضاً، صلوات الله على نبينا وعليهم أجمعين، فإنَّ بعضَ الملائكة مأمورون بالركوع، وبعضهم بالسجود، وبعضهم بالقيام، وكذلك الأممُ السَّابقةُ كان بعضهم مأمورين بصلاة الصُّبح، وبعضهم بصلاةٍ أخرى، وورد الأمرُ في هذه الشَّريعة بإتيان الأعمال المنتخبة من خلاصة أعمال الأمم السَّابقة والملائكةِ المقربين وزبدتها، فالتَّصديقُ بهذه الشَّريعة تصديقٌ بجميع الشَّرائع، والعملُ بمقتضاها عملٌ بمقتضيات تلك الشَّرائع، فلا جرم يكون مصدِّقوا هذه الشَّريعة خيرَ الأمم، وكذلك تكذيبُ هذه الشَّريعة تكذيبٌ لجميع الشَّرائع، وتركُ العمل بموجبها تركُ العمل بموجب سائر الشَّرائع، وكذلك إنكارُ نبينا ﷺ إنكارٌ لجميع الكمالات الأسمائيَّة والصِّفاتيَّة، وتصديقُه تصديقٌ بجميع ذلك، فلا جرم يكون منكرُه ﷺ ومكذِّبُ شريعته شرَّ الأمم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا﴾ [التوبة: ٩٧]: (شعر)

مُحَمَّـدٌ سَـيِّـدُ الْكَوْنَيْنِ مِنْ عَرَبٍ　　　تَعْسَـــا لِمَنْ لَمْ يَكُنْ فِي بَـابِـهِ تُرَبَـا

الحمد لله ذي الإنعام والمنَّة قد صار حسنُ الاعتقاد وحسنُ الظنّ بالشَّريعة وصاحبها عليه الصلاة والسلام والتحية مشهوداً فيك بأحسن الوجوه، وكانت النَّدامةُ على الأوضاع ....

المذمومة مُمِدَّتَك ومعينتَك دائماً، زادهما الله سبحانه وتعالى.

ثم إنَّ حاملَ رقيمة الدُّعاء الشيخ ميان مصطفى من نسل القاضي شريح، وقد كانت أسلافُه الأكابرُ من كبراء هذه الديار، وكانت لهم وظائفُ كثيرةٌ، وأسبابُ معيشةٍ وافرةٍ، وقد توجَّه المشارُ إليه إلى العسكر بسبب ضيق المعيشة، ومعه إسنادُه ومنشورُه، فالمرجوُّ حصولُ الجمعيَّة له بواسطتكم، والزيادةُ على ذلك موجبةٌ للتصديع، وينبغي تفويضُ المشار إليه إلى الصدور العظام على نهجٍ يتيسّر له الأمرُ، فيكون سبباً لجمعيَّة أرباب التَّفرقة. والسلامُ والإكرامُ.

المكتوبُ الثمانونَ

إلى الميرزا فتحِ اللهِ الحَكيمِ في بيانِ أنَّ الفِرقةَ النَّاجيَةَ مِنْ بينِ الفِرقِ الثَّلاثةِ والسَّبعينَ، فِرقةُ أهلِ السُّنَّة والجَماعةِ، وفي المَنعِ مِنَ الِالتِفاتِ إلى الفِرَقِ المُبتدعَة والِاختِلاطِ معهُم، وما يُناسبُ ذلك.

رزقنا الله سبحانه وإياكم الاستقامةَ على جادة الشَّريعة المصطفويَّة، على صاحبها الصلاة والسلام والتحيةُ:

(ع) هَـذَا هُوَ الْأَمْرُ وَالْبَـاقِي مِنَ الْعَبَـثِ

وكلُّ فرقةٍ من الفرق الثَّلاث والسَّبعين يدَّعون أنَّهم متَّبعون للشريعة، ويجزمون بكونهم ناجين: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣] مصداقُ حالهم، ونقدُ وقتهم. وأما الدَّليلُ الذي بيَّنه النبيُّ الصادقُ عليه من الصلوات أكملها ومن التسليمات أفضلها على تمييز فرقةٍ ناجيةٍ من تلك الفرق المتعدِّدة؛ فهو قوله ﷺ: «**الَّذِينَ هُمْ عَلَى مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**»(١)، وذكرُ الأصحاب مع وجود الكفاية بذكر صاحب الشَّريعة عليه الصلاة والسلام والتحية في ذلك المحلِّ يمكن أن يكون للإيذان بأنَّ طريقي هو طريقُ الأصحاب، وطريقُ النَّجاة منوطٌ باتِّباع طريقهم فحسبُ، كما قال الله تعالى: و﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ اَطَاعَ اللّٰهَۚ﴾ [النساء: ٨٠]، فكان إطاعةُ الرَّسول عينَ إطاعة الله تعالى، وخلافُ إطاعته ﷺ عينَ معصيته تعالى وتقدَّس، وقد أخبر الله سبحانه عن حال جماعةٍ زعموا طاعته تعالى خلافَ طاعة الرَّسول، وحَكَمَ بكفرهم، حيث قال سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ اَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللّٰهِ وَرُسُلِهٖ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍۙ﴾ [النساء: ١٥٠] الآية، فدعوى اتِّباع النبيِّ ﷺ بدون اتِّباع طريق الأصحاب رضوان الله عليهم أجمعين دعوى باطلة، بل ذلك الاتِّباعُ في الحقيقة عينُ معصية الرسول عليه الصلاة والسلام، فأين المجالُ لطمع النَّجاة في ذلك الطَّريق؟ ﴿يَحْسَبُونَ اَنَّهُمْ عَلٰى شَيْءٍۜ اَلَٓا اِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨] مطابقةٌ لحالهم. ولا شكَّ أنَّ الفِرقةَ الملتزمةَ لاتِّباع أصحابه عليه وعليهم الصلاة والسلام أهلُ السنة والجماعة شكر الله سعيهم، فهم الفرقةُ النَّاجيةُ، فإنَّ الطَّاعنين في أصحاب رسول الله ﷺ كالشِّيعة والخوارج محرمون من اتِّباعهم، وللمعتزلة مذهبٌ على حدةٍ مُحْدَثٌ، ورئيسُهم واصلُ بن عطاء كان من أصحاب الحسن البصريّ، ثم اعتزل مجلسه، وصار يقول بإثبات الواسطة بين الكفر والإيمان، فقال الحسن: اعتزِلْ عنا. وعلى هذا القياس سائرُ الفرق، والطعنُ في الأصحاب طعنٌ في رسول الله ﷺ في الحقيقة، ما آمن برسول الله ﷺ من لم يوقِّرْ أصحابَه، فإنَّ خبثَهم ينجرُّ إلى خبث صاحبهم، نعوذ بالله من هذا الاعتقاد السوء.

وأيضاً إنَّ أحكامَ الشَّريعة التي وصلت إلينا من طريق القرآن والأحاديث إنّما وصلتْ بتوسُّط نقلهم، فإذا كان هؤلاء مطعوناً فيهم؛ يكون نقلُهم أيضاً مطعوناً فيه، وهذا النَّقلُ ليس مخصوصاً..........

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٤١) من حديث عبد الله بن عمرو ، ولفظه: «وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلهم في النار إلا ملة واحدة؟ قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي».

ببعضٍ دون بعضٍ، بل كلُّهم في العدالة والصِّدق والتبليغ سواء، فالطَّعنُ في واحد منهم - أيّ واحدٍ كان - طعنٌ في الدين، والعياذ بالله سبحانه منه.

فإن قال الطَّاعنون في الأصحاب: نحن أيضاً نتابِعُهم، ولكن لا يلزم في تحقُّق المتابعة متابعةُ الجميع، بل ذلك غيرُ ممكنٍ؛ لتناقض آرائهم، واختلاف مذاهبهم.

أجيب: إنَّ متابعةَ البعض إنّما تنفع إذا لم يوجد إنكارُ الباقين، ومتى تحقَّقَ إنكارُ البعض؛ لا يتحقق متابعة البعض الآخر، فإن عليّاً كرم الله وجهه كان يوقِّرُ الخلفاء الثلاثة، ويعظمهم رضوان الله عليهم أجمعين، وبايعهم عالماً باستحقاقهم الاقتداء بهم، فدعوى متابعته مع وجود إنكارهم افتراءٌ محضٌ، وادعاءٌ صرفٌ، بل إنكارُهم إنكارٌ في الحقيقة لسيدنا علي كرم الله وجهه، وردٌّ صريحٌ لأقواله وأفعاله.

وتجويزُ احتمال التُّقاة في حق أسد الله من غاية سخافة العقل؛ فإنَّ العقلَ الصحيحَ لا يجوِّزُ إضمار بغض الخلفاء الثلاثة لأسد الله قريباً من مدَّة ثلاثين سنةً، وإظهارَ خلافه، وصحبَته معهم على النفاق أصلاً، فإنَّ مثلَ هذا النفاق لا يتصوَّرُ من أدنى أهل الإسلام، فينبغي التأمُّلُ والتفكُّرُ في شناعة هذا الفعل، فإنَّه يستلزم نسبة ضعفٍ كبيرٍ ووهنٍ كثيرٍ وخديعةٍ شنيعةٍ إلى أسد الله علي كرم الله وجهه، فلئن جوَّزنا التقاةَ في حقّ أسد الله على سبيل فرض المحال؛ فماذا يقولون في تعظيم رسول الله ﷺ للخلفاء الثلاثة وتوقيره إياهم من الابتداء إلى الانتهاء؟ فإنّه لا مساغ فيه للتقاة؛ لأنَّ تبليغ ما هو الحقّ واجبٌ على الرسول، وتجويزُ التقاة هناك ينجرُّ إلى الزندقة، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧]، قال الكفار: إنَّ محمداً يظهر من الوحي ما يوافقه، ويخفي منه ما يخالفه. ومن المقرَّر أنَّ تقريرَ النبي على الخطأ غيرُ جائزٍ، وإلا؛ يتطرَّقُ الخللُ إلى شريعته، فإذا لم يصدر منه ﷺ خلاف تعظيم الخلفاء الثلاثة، ولم يظهرْ ما ينافي توقيرهم؛ علم أنَّ تعظيمَه وتوقيرَه ﷺ إياهم مصونٌ عن الخطأ، ومحفوظٌ عن الزَّوال.

ولنرجع إلى أصل الكلام، ونبيِّن جواب اعتراضهم - يعني: شبهتهم - أوضح مما سبق وأنقح، فنقول: إنَّ متابعةَ جميع الأصحاب واجبةٌ في أصول الدين، فإنَّه لا اختلاف بينهم في الأصول، وإنَّما اختلافُهم في الفروع فقط، فالذي يطعن في بعضهم؛ فهو محرومٌ من متابعة جميعهم، وكلمةُ الأصحاب وإن كانت في نفسها متَّفقةً، ولكنَّ شؤمَ الإنكار لأكابر الدين يخرجها من الاتفاق إلى الاختلاف، بل يجرُّ إنكارُ القائل إلى إنكار المقول، وأيضاً إنَّ مبلِّغي الشَّريعة جميعُ الأصحاب كما مرَّ؛ لأنَّ الأصحابَ كلّهم عدولٌ، وبلغ من كلِّ واحدٍ شيءٌ من الشَّريعة إلينا، وكذلك جمعوا القرآن أخذاً من كلّ واحدٍ منهم آيةً فما فوقها، فإنكارُ البعض إنكارٌ لمبلغي القرآن، فلا يتحقَّق الإتيانُ بجميع الشَّريعة في حق المنكر، فكيف النجاةُ والفلاحُ؟ قال الله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥] الآية، مع أنَّا نقول: إنَّ جامعَ القرآن عثمانُ - بل أبو بكر الصديق وعمر الفاروق ﵄ -، وما جمعه عليّ كرم الله وجهه وما حواه؛ فهو سوى هذا القرآن، فينبغي التأمُّلُ والتفكُّرُ، فإنَّ إنكارَ هؤلاء الأكابر ينجرُّ إلى إنكار القرآن في الحقيقة، عياذاً بالله سبحانه منه.

سأل شخصٌ مجتهدٌ أهلَ التشيُّع - يعني: في زعمهم -: أنَّ القرآنَ جمعه عثمان، فما اعتقادُك في حقِّ هذا القرآن؟ فقال: لا أرى المصلحةَ في إنكاره، فإنَّ بإنكاره ينهدم الدينُ بالتمام.

وأيضاً إنَّ العاقلَ[1] لا يجوِّزُ اجتماعَ أصحاب رسول الله ﷺ على أمرٍ باطلٍ قبل مرور..........

---

(١) أشار به إلى أنَّ مجرَّدَ العقل كافٍ في ذلك، فكيف إذا انضمَّ إليه الديانةُ وحسنُ الظنِّ بأصحاب النبي ﷺ؟ (المعرِّب)

يومٍ من رحلته ﷺ، ومن المقرَّر أنَّ أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يوم رحلته مقدار ثلاث وثلاثين ألفـًا، وبايع كلُّهم الصِّديق الأكبر بالطوع والاختيار، واجتماعُ جميع أصحاب رسول الله ﷺ في تلك الحالة على الضَّلالة من جملة المحالات، وقد قال النبي ﷺ: «لَا يَجْتَمِعُ أُمَّتِي عَلَى الضَّلَالَةِ»[1]. وتأخُّرُ علي كرم الله وجهه - يعني: من البيعة في الابتداء - ليس إلا لعدم دعوتهم إياه إلى المشورة كما قال بنفسه: ما غضبنا إلا لتأخُّرنا عن المشورة، وإلا؛ لَنعلمُ أنَّ أبا بكر خيرٌ منا... إلخ. وعدمُ دعوتهم إياه يمكن أن يكون مبنيًا على مصلحةٍ، كتسلية أهل البيت بقعوده عندهنَّ في الصَّدمة الأولى من المصيبة أو نحو ذلك. والاختلافُ الواقعُ بين الأصحاب ليس منشؤه الهوى النَّفسانيَّ، فإنَّ نفوسهم قد تزكَّتْ وتخلَّصتْ من أن تكون أمَّارةً بالسوء، وصارت مطمئنةً، وكانت أهواءهم تابعةً للشريعة، بل كان مبناه على الاجتهاد وإعلاء الحقّ، فللمخطئ منهم درجةٌ واحدةٌ عند الله، وللمصيب عشرُ درجاتٍ. فينبغي إذاً حفظُ اللِّسان من أذاهم وجفاهم، وأن يَذْكُرَ كُلّاً منهم بخيرٍ، قال الإمامُ الشافعيُّ رحمه الله تعالى: تلك دماءٌ طهَّر الله أيدينا عنها، فلنطهِّرْ عنها ألسنتنا، وقال أيضـًا: اضطرّ الناسُ بعد رسول الله ﷺ، فلم يجدوا تحت أديم السماء خيراً من أبي بكرٍ، فولّوه رقابهم، وهذا القولُ تصريحٌ منه بنفي التقاة، ورضاء علي كرم الله وجهه بيعة الصِّدِّيق ﷺ. بقيَّةُ المقصود: إنَّ الميان سيدن ولد الشيخ ميان أبي الخير من أولاد الكبار، وقد سافر إلى دكن في رفاقتكم، فيُرجَى في حقِّه التفاتُكم وعنايتُكم، وأيضـًا إنَّ مولانا محمداً عارفـًا طالبُ علمٍ، ومن أولاد الكبار، وكان أبوه عالمـًا، وقد جاء لأجل الاستمداد في أمر المعاش، فيرجى التوجه إليه، والسلام والإكرام.

المَكتُوبُ الحَادِي وَالثَّمَانُونَ

إلى لالا بَيگ في التَّحريضِ على تَرويجِ الإسلام، وبيانِ حُصولِ الوَهَنِ والضَّعفِ للإسلامِ والمُسلمينَ، واسـتيلاءِ الكـفَّار الأشرارِ وغلَبتِهم.

زادنا الله وإياكم حميَّة الإسلام، وقد بلغت غربةُ الإسلام منذ قرنٍ واحدٍ مبلغـًا وغايةً لا يرضى أهلُ الكفر بمجرَّد إجراء أحكام الكفر في بلاد الإسلام، بل يريدون إزالةَ أحكام الإسلام ورفعَها بالكليَّة، ويجتهدون في إعدام أثر الإسلام والمسلمين، وبلغ الأمرُ حدّاً لو أظهر مسلمٌ شيئـًا من شعار الإسلام يذيقونه القتلَ، وذَبْحُ البقرة من أعظم شعائر الإسلام في بلاد الهند، ولعلَّ الكفَّار يرضون بأداء الجزية، ولا يَرْضَون بذبح البقرة أصلاً، فإن حصل الرَّواجُ والقوَّةُ للإسلام والاعتبارُ للمسلمين في ابتداء السَّلطنة؛ فبها، وإلا فالأمرُ مشكلٌ في حقِّ المسلمين جداً. الغياثَ الغياثَ، ثم الغياثَ الغياثَ، ويا سعادة من يستسعد بهذه السعادة، ويا إقبال بازٍ يصيد هذه الدَّولة، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]، ثبَّتنا الله سبحانه وإياكم على متابعة سيد المرسلين، عليه وعلى آله من الصلوات أفضلها، ومن التسليمات أكملها، والسلام.

المَكتُوبُ الثَّانِي وَالثَّمَانُونَ

إلى إسكَندَر خان اللُّوديِّ في بيانِ أنَّ سَلامَة القلبِ لا تُصوَّر بدونِ نسيانِ ما سِوى الحقِّ جلَّ وعلا، وهذا النِّسيانُ معبَّر عنه بالفناءِ.

جعلكم الله سبحانه معه على الدَّوام، ولا يترك مع غيره من الأنام، بحرمة سيد البشر، المطهَّر..................

(١) أخرجه الترمذي (٢١٦٧) واستغربه من حديث ابن عمر ﷺ بلفظ: «إن الله لا يجمع أمتي على ضلالة»، وأخرجه ابن ماجه (٣٩٥٠) من حديث أنس ﷺ بلفظ: «إن أمتي لا تجتمع على ضلالة». وأخرجه أبو داود (٤٢٥٣) من حديث أبي مالك الأشعري ﷺ بلفظ: «إن الله أجاركم من ثلاث خلال... وأن لا تجتمعوا على ضلالة»، وأخرجه الحاكم (٣٩٩) من حديث ابن عباس ﷺ بلفظ: «لا يجمع الله أمتي على ضلالة أبداً»، وأخرجه أيضـًا (٨٥٤٥) من حديث أبي مسعود الأنصاري ﷺ بلفظ: «إن الله تعالى لن يجمع جماعة محمد على ضلالة»، وأخرجه أحمد في «مسنده» (٢٧٢٢٤)، والطبراني في «الكبير» (٢١٧١) من حديث أبي بصرة ﷺ، وفيه: «سألت ربي عز وجل أربعـًا... سألت الله عز وجل أن لا يجمع أمتي على ضلالة، فأعطانيها».

عن زيغ البصر، عليه وعلى آله الصلوات والتسليماتُ. وما هو اللازم لنا ولكم سلامةُ القلب من غير الحقّ سبحانه، وهذه السّلامةُ إنّما تتيسّرُ إذا لم يبقَ لغير الحقّ سبحانه مرورٌ وخطورٌ على القلب، وعدمُ مرور الغير منوطٌ بنسيان ذلك الغير المعبّر عنه بالفناء عند هذه الطّائفة العليّة، ويبلغ ذلك النّسيانُ مبلغاً لو أرادوا إخطارَ الغير بالبال وإيقاعه في القلب بالتكلّف فرضاً؛ لا يخطر أبداً، ولا يقع سرمداً، وما لم يبلغ النّسيانُ هذه المرتبة؛ فسلامةُ القلب محالٌ، وهذه النّسبة - يعني: نسيان السوى - بهذه المرتبة صارت الآن كعنقاء المغرب، بل لا يصدق بها أن أخبِّر عنها: (شعر)

هَنِيئـاً لِأَرْبَابِ النَّعِيـمِ نَعِيمُـهَا وَلِلْعَاشِـقِ الْمِسْـكِينِ مَا يَتَجَرَّعُ

وماذا نكتب أزيدَ من ذلك؟ والسلام أولاً وآخراً.

المَكْتُوبُ الثَّالِثُ وَالثَّمَانُونَ

إلى بهادر خان في التّحريضِ على الجَمعِ بينَ جمعيَّتَي الظّاهرِ والباطنِ مع الإستِقامةِ على الشَّريعَةِ والحَقيقَةِ.

رزقكم الله سبحانه النَّجاةَ من تعلُّقات شتّى، وجعلكم مقبلاً على جناب قدسه بالكليَّة، بحرمة سيد المرسلين، عليه وعلى آله من الصلوات أكملها، ومن التسليمات أفضلها: (شعر)

مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ خَرْدَلَةٍ سِـوَى هَوَى الْحَقِّ فَاعْلَمْ أَنَّهُ مَرِضُ

وتحليةُ الظّاهر بالشَّريعة الغرَّاء، وربطُ الباطن على الدوام بالله أمرٌ عظيمٌ، أيُّ صاحب دولةٍ يشرف بهاتين النّعمتين العظيمتين؟ والجمع بين هاتين النِّسبتين في هذا الوقت - بل الاستقامةُ على ظاهر الشَّريعة - عزيزُ الوجود جدّاً، بل أعزُّ من الكبريت الأحمر، رزق الله سبحانه من كمال كرمه كرامةَ الاستقامة على متابعة سيد الأولين والآخرين، عليه وعلى آله الصلاة والسلام ظاهراً وباطناً.

المَكْتُوبُ الرَّابِعُ وَالثَّمَانُونَ

إلى السَّيِّد أحمدَ القادريِّ في بيانِ أنَّ كلاً منَ الشَّريعَة والحقيقَةِ عينُ الآخرِ، وأنَّ علامةَ الوصولِ إلى مرتبةِ حقِّ اليَقينِ مُطابقةُ عُلومِ ذلك المَقامِ ومَعارِفِها بالعُلومِ الشَّرعيَّة ومَعارِفِها، وما يناسبُ ذلك.

رزقكم الله سبحانه الاستقامةَ على جادة الشَّريعة، وجعل جميعَ همَّتكم التوجُّهَ إلى جناب قدسه، وأخذك عنده بالتَّمام، ويسَّر لك ولنا الإعراضَ عما سواه بالكليَّة، بحرمة سيد البشر، المقدَّس عن زيغ البصر، عليه من الصلوات أفضلها، ومن التسليمات أكملها، وعلى آله وأصحابه أجمعين آمين:

(ع) وَأَحْسَـنُ مَا يُمْلَى حَدِيثُ الأَحِبَّةِ

وكلُّما قيل عن الحبيب وإن لم يكن من كلامه، ولكن لَمّا كان لهذا الكلام نوعُ مناسبةٍ بجنابه تعالى وتقدَّس؛ نغتنمُ هذا المعنى المناسب، ونجترئ في إطالة اللِّسان في ذلك الباب. المقصودُ: أنَّ كُلّاً من الشَّريعة والحقيقة عينُ الآخر، لا تمايُزَ بينهما في الحقيقة غير الإجمال والتَّفصيل، والاستدلال والكشف، والغيبة والشهادة، والتعمُّل وزواله، فإنَّ الأحكامَ والعلومَ التي صارتْ معلومةً بموجب بيان الشَّريعة الغراء تنكشفُ تلك العلومُ والأحكامُ بعينها تفصيلاً بعد التحقُّق بحقيقة حقِّ اليقين، وتخرج من الغيبة إلى الشَّهادة، ويرتفع تجشُّمُ الكسب وتمحُّل العمل من البين، وعلامةُ الوصول إلى مرتبة حقِّ اليقين: مطابَقةُ علوم ذلك المقام ومعارفه بعلوم الشَّريعة ومعارفها، فلو بقيت المخالفةُ مقدارَ........

شعرةٍ؛ فهو دليلٌ على عدم الوصول إلى حقيقة الحقائق، وكلُّما وقع من مشائخ الطَّريقة مما يخالِفُ الشَّريعةَ من علمٍ أو عملٍ؛ فهو مبنيٌّ على سُكْر الوقت، وسكرُ الوقت لا يقع إلا في أثناء الطَّريق، وحالُ المنتهيين إلى نهاية النِّهاية كلُّه صحوٌ، والوقتُ مغلوبُ فعالهم، والحالُ والمقامُ تابعان لكمالهم: (شعر)

صُــوفِيٌّ ابْنُ الْوَقْـتِ آمَـدُ فِي الْمِثَـالِ   كُـلِّ صَــافٍ فَـارِغٍ عَـنْ كُـلِّ حَـالِ

فتحقَّقَ من ذلك أنَّ مخالفةَ الشَّريعة علامةُ عدم الوصول إلى حقيقة الأمر، ووقع في عبارة بعض المشائخ: أنَّ الشَّريعة قشرُ الحقيقة، والحقيقةَ لبُّ الشَّريعة، وهذا الكلامُ وإن كان منبئاً عن عدم استقامة قائله، ولكن يمكن أن يكون مراده به: إنَّ المجملَ حكمُه بالنِّسبة إلى المفصَّل كحكم القشر بالنِّسبة إلى اللُّبِّ، والاستدلالُ في جنب الكشف كالقشر في جنب اللبّ. وأما الأكابرُ المستقيموا الأحوال؛ فلا يجوِّزون التكلّمَ بأمثال هذه العبارة الموهمة للمخالفة، ولا يثبتون الفرقَ بينهما غيرَ الإجمال والتَّفصيل، والاستدلال والكشف، سأل سائل الخواجه بهاء الدين النَّقشبند قدَّس الله سرَّه الأقدس: إنَّه ما المقصودُ من السَّير والسلوك؟ فقال: كونُ المعرفة الإجماليَّة تفصيليَّةً، والاستدلاليَّة كشفيَّةً. رزقنا الله سبحانه الثباتَ والاستقامةَ على الشَّريعة علماً وعملاً، صلوات الله وسلامه على صاحبها.

وبقيَّةُ التَّصديع: أنَّ حاملَ رقيمة الدعاء الشيخ مصطفى الشريحي من نسل القاضي شريح، وكان آباؤه وأجداده من الأكابر وأصحاب وظائف وفيرةٍ، ومعائش كثيرةٍ، وقد توجَّهَ إلى العسكر بسبب اضطراره من فقدان أسباب المعيشة، وأخذ معه أسناده ومنشوره، والمأمولُ التفاتُكم وتوجُّهُكم إلى حاله على نهجٍ يكون سبباً لحصول الجمعيَّة، وينجو من الاضطراب والتفرقة، ولنكتف بهذا القدر من زيادة التَّصديع.

المكتوب الخامس والثمانون

إلى الميرزا فتح اللهِ الحكيمِ في التَّحريضِ على إتيانِ الأعمالِ الصَّالحةِ، خُصوصاً على أداءِ الصَّلواتِ بالجَماعةِ، وما يناسبُ ذلك.

وفَّقكم الله سبحانه لمرضياته، واعلم أنَّ الإنسانَ كما أنَّه لا بدَّ له من تصحيح الاعتقادات؛ كذلك لا بُدَّ له من إتيان الأعمال الصالحات، وأجمعُ العبادات وأقربُ الطاعات: هو أداءُ الصلاة، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**الصَّلَاةُ عِمَادُ الدِّينِ، فَمَنْ أَقَامَهَا؛ فَقَدْ أَقَامَ الدِّينَ، وَمَنْ تَرَكَهَا؛ فَقَدْ هَدَمَ الدِّينَ**»(1)، ومن وُفِّقَ لمواظبة أداء الصَّلاة؛ فقد امتنع عن الفحشاء والمنكر، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنْكَرِ**﴾ [العنكبوت: ٤٥] مؤيِّدٌ لهذا الكلام، والصَّلاةُ التي ليست بهذه المثابة - يعني: لم تمنع صاحبها عن الفحشاء والمنكر -؛ فهي صورةُ الصلاة لا حقيقة لها، ولكن ينبغي أن لا تترك الصورةُ إلى أن تحصل الحقيقةُ، فإنَّ ما لا يدرك كلّه لا يترك كلّه، ولا يستبعد اعتبارُ أكرم الأكرمين الصورةَ، وأن يقبلها مكانَ الحقيقة، فعليكم المواظبة على أداء الصَّلاة مع الجماعة، ومع الخشوع والخضوع، فإنَّها سببُ النجاة والفلاح، قال الله تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۞ الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ**﴾ [المؤمنون: ١-٢].

والحاصلُ: إنَّه ينبغي أن يعمل مع وجود الخطر - يعني: الردّ -، ألا ترى أنَّ العساكرَ يحصل لهم اعتبارٌ كثيرٌ في مقابلة حركتهم اليسيرة ومناضلتهم القليلة وقت غلبة العدوّ، وإنَّما يعتبر صلاحُ الشُّبَّان؛ لأنَّهم اختاروا الصلاحَ، وكلَّفوا أنفسهم عليه، مع وجود غلبة الشهوة النَّفسانية فيهم، وقد.......................................

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤/ ٣٠٠) من حديث عكرمة عن عمر ﷺ. الشطر الأول منه فحسب.

نال أصحابُ الكهف جميعَ تلك الحشمة والعظمة والرتبة عند الله تعالى بسبب هجرةٍ واحدةٍ من مخالفي الدين، وورد في الحديث النبوي عليه الصلاة والسلام: «عِبَادَةٌ فِي الْهَرَجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ»[١]، فكان المنافي عينَ الباعث في الحقيقة. وماذا نكتب أزيدَ من ذلك، وصحبةُ الفقراء غيرُ مرغوبةٍ فيها لدى ولدي بهاء الدين، بل ميلُه وانجذابُه إلى أهل الثروة والغنى وأرباب التنعم والاستغناء، ولا يدري أنّ صحبَتهم سُمٌّ قاتلٌ، ولقمتهم السمينةُ - يعني: أطعمتهم اللذيذة - زائدةٌ في ظلمة الباطن وقساوة القلب، الحذرَ الحذرَ، ثم الحذرَ الحذرَ منهم، وورد في الحديث الصحيح على مصدره الصلاةُ والسلامُ: «مَنْ تَوَاضَعَ لِغَنِيٍّ لِغِنَاهُ ذَهَبَ ثُلُثَا دِينِهِ»[٢]، فويلٌ لمن تواضعهم لغناهم. والله سبحانه الموفق.

المكتوب السادس والثمانون

إلى شخصٍ مِنْ حكَّام بَعضِ القصَبةِ في بيانِ سلامَة القَلبِ عمَّا سِواهُ تعالى.

رزقكم الله سبحانه الاستقامةَ على حدِّ الاعتدال، ومركز العدالة، بجاه سيِّد المرسلين، عليه وعلى آله من الصلوات أفضلُها، ومن التسليمات أكملُها، وما هو اللازم لنا ولكم: سلامةُ القلب من التَّعلُّق بما سوى الحقِّ تعالى، وهذه السَّلامةُ إنّما تتحقَّقُ على تقدير عدم بقاء خطور غيره تعالى في القلب، بحيث لو امتدَّت الحياةُ إلى ألف سنةٍ فرضاً لا يقع الغيرُ في القلب بواسطة نسيان ما سواه تعالى الحاصل للقلب:

(ع) هَـذَا هُوَ الأَمْرُ وَالْبَـاقِي مِنَ الْـهَوَسِ

وقد قلتم وقتَ الملاقاة على وجه الكرم: إنَّه إذا وقع أمرٌ مهمٌّ لازمُ الرجوع فيه ينبغي أن تكتبوه إلينا، فبناءً على ذلك اجترأ على التصديع أنّ الشيخ عبد الله الصوفيّ من الصلحاء وقد رَكِبَه الدَّينُ بسبب أداء بعض حوائجه، فالمرجوُّ حصولُ المدد له منكم في تخليص ذمَّته، والسلام.

المكتوب السابع والثمانون

إلى پَهلوَان محمود في بيانِ سَعادة من قَبِلَه أولياء اللهِ تعالى.

سلَّمكم الله وثبَّتكم على جادة الشَّريعة، على صاحبها الصلاة والسلام والتحية. أوَّلُ بشارات جماعتكم قدومُ الشيخ ميان مزمل، وماذا أبيَنُ من بركات صحبته؟ وأيُّ سعادةٍ أفضلُ من قبول أولياء الله عز وجل شخصاً، فكيف لو امتاز بمحبتهم وقربهم؟ «هُمْ قَوْمٌ لَا يَشْقَى جَلِيسُهُمْ»، وبالجملة ينبغي اغتنام صحبتهم حتى تكون مؤثِّرةً، وماذا نكتب أزيد من ذلك؟ والسلام أولاً وآخراً.

المكتوب الثامن والثمانون

إلى المذكورِ أيضاً في بيانِ فضيلةِ الشَّيبِ في الإيمانِ والصَّلاحِ، ولُزوم غلبةِ الخوفِ في عهدِ الشَّبابِ، والرَّجاءِ في الشَّيخوخةِ.

جعلكم الله سبحانه معه على الدوام، أيُّ نعمةٍ أعظمُ من الشيب في الإيمان والصلاح؟ وورد في الحديث النبوي عليه الصلاة والسلام: «مَنْ شَابَ شَيْبَةً فِي الْإِسْلَامِ غُفِرَ لَهُ»[٣]. ينبغي بعد الشيب أن يرجّح جانب الرجاء، وأن يغلب ظنّ المغفرة، فإنَّ الخوفَ ينبغي أن يكون أزيدَ في عهد الشباب، وأما في سنِّ الشَّيخوخة؛ فلا ينبغي إلا ترجيح الرجاء، والسلام أولاً وآخراً.

المكتوب التاسع والثمانون

إلى المِيرزا علي خان في التَّعزيَة.

رزقكم الله سبحانه الاستقامةَ على جادة الشَّريعة، على صاحبها الصلاة والسلام والتحية، واعلم أنّه لا بُدَّ للإنسان من الموت تصديقاً لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [العنكبوت: ٥٧]، فطوبى لمن طال عمره وكَثُرَ عمله[٤]،.......

(١) أخرجه مسلم (٢٩٤٨) من حديث معقل بن يسار ﵁.

(٢) أخرجه الديلمي (٥٤٤٩) من حديث أبي ذر ﵁ مرفوعاً: «لعن الله فقيراً تواضع لغني من أجل ماله، فمن فعل ذلك منهم؛ فقد ذهب ثلثا دينه»، وأخرج البيهقي في «شعب الإيمان» (١٢/ ٣٧٤- ٣٧٥) من حديث ابن مسعود ﵁ مرفوعاً، وفيه: «ومن دخل على غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه»، وأخرج أيضاً (١٠/ ٥٠٣) من حديث ابن مسعود ﵁ بلفظ: «من خضع لغني ووضع له نفسه إعظاماً له وطمعاً فيما قبله ذهب ثلثا مروءته وشطر دينه».

(٣) أخرجه الترمذي (١٦٣٤)، والنسائي (٣١٤٢، ٣١٤٤) من حديث شرحبيل بن السمط ﵁ بلفظ: «من شاب شيبة في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة»، وأخرجه الترمذي أيضاً (١٦٣٥)، والنسائي (٣١٤٥) من حديث عمرو بن عبسة ﵁.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٣٢٩) وحسنه من حديث عبد الله بن بسر ﵁ أن أعرابياً قال: يا رسول الله، من خير الناس؟ قال: «من طال عمره وحسن عمله».

والموتُ هو الذي يتسلّى به المشتاقون، وجعل وسيلةً لوصول الحبيب إلى الحبيب، ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ﴾ [العنكبوت: ٥] نعم، إنَّ أحوالَ العاجزين المحرومين من دولة الحضور والوصول إلى مطلب الواصلين المجردين من رقِّيَّة السِّوى خرابٌ وأبترُ، وقد كانت المرحومةُ ولية نعمتكم مغتنمةً لكم في هذه الأوان جداً، واللازمُ لكم الآن مكافأةُ الإحسان بالإحسان، والإمداد بالدعاء والصدقة ساعةً فساعةً، فإنَّ الميتَ كالغريق ينتظر دعوةً ملحقةً من أبٍ أو أمٍّ أو صديقٍ.

وأيضاً ينبغي لكم أن تعتبروا من موتها، وتتذكروا موتكم، وأن تُقْبلوا على مرضيات الحقّ سبحانه بالكليَّة، وأن لا تعدُّوا الحياة الدنيويَّة غيرَ متاع الغرور، فإن كان للتَّمتعات الدنياويَّة مقدارَ شعرةٍ من الاعتبار؛ لما منح بها الكفارُ، ولما أعطيها الأشرارُ.

رزقنا الله سبحانه وإياكم الإعراضَ عما سوى الله سبحانه، والإقبالَ على جناب قدسه، بحرمة سيد المرسلين، عليه وعلى آله من الصلوات أفضلها، ومن التسليمات أكملها، والسلام والإكرام.

المَكْتُوبُ التِّسْعُونَ

إلى الخواجه قاسمٍ في التَّحريضِ على التَّوجُّه إلى الحقِّ سبحانَه بالكلِّيَّة، وبيانِ أنَّ حصولَ هذهِ الدَّولةِ موقوفٌ في هذا الوقتِ على الإخلاصِ لهذِه الطَّائفَة العليَّة النَّقشبَنديَّة قَدَّسَ اللهُ أسرارَهُم، والتَّوجُّه إليهِم.

جعل الله سبحانه الدُّنيا الدنيَّة حقيرةَ المقدار عديمةَ الاعتبار في نظر همتكم، وجعل جمالَ الآخرة محلى ومزيّناً في مرآة بصيرتكم، بحرمة سيد البشر، المطهر عن زيغ البصر، عليه وعلى آله من الصلوات أفضلها، ومن التسليمات أكملها.

قد وصل مكتوبكم الشَّريفُ المرسلُ على وجه الالتفات مع الهدايا المحترمة، جزاكم الله سبحانه على كرمكم خير الجزاء، والنصيحةُ التي ينصح بها المحبون والمخلصون: هو التَّرغيبُ في السَّعي والاجتهاد في تحصيل الإقبال بالكليَّة على جناب قدسه تعالى، والإعراض عما سواه عزَّ شأنه:

(ع) هَـٰذَا هُوَ الْأَمْرُ وَالْبَـاقِي مِنَ الْعَبَـثِ

وحصولُ هذه الدَّولة العظمى موقوفٌ في هذا الوقت على الإخلاص للطائفة العليّة النقشبنديَّة والتوجُّه إليهم، فإنَّ الذي يحصل في صحبتهم الواحدة لا يتيسّر بالرياضات الشَّديدة والمجاهدات الشاقَّة في مدَّةٍ مديدةٍ، وذلك لأنَّ في طريق هؤلاء الأكابر اندراجَ النِّهاية في البداية بحيث يعطى في أوَّل صحبتهم ما يقع في يد المنتهيين في نهايتهم، وطريقُ هؤلاء الأكابر هو طريقُ الأصحاب الكرام، فإنَّه كان يحصل لهم في أوَّل صحبة خير البشر عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات ما يندرُ حصولُه لأولياء الأمَّة في النهاية، وهذا طريقُ اندراج النِّهاية في البداية، فعليكم بمحبَّة هؤلاء الأكابر، فإنَّها ملاكُ الأمر. والسلام عليكم وعلى سائر من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى عليه وعلى آله الصلاة والسلام.

المَكْتُوبُ الحَادِي وَالتِّسْعُونَ

إلى الشَّيخ الكبير في بيانِ أنَّ تَصحيح العقائدِ وإتيانَ الأعمالِ الصَّالحةِ كلَيهِما جَناحانِ للطَّيرانِ إلى عالَم القُدس، وأنَّ المقصودَ من أعمالِ الشَّريعةِ وأحوالِ الحَقيقةِ هو تزكيَةِ النَّفسِ وتَصفيَةِ القَلب.

رزقنا الله سبحانه وإياكم الاستقامة على متابعة السنة السنيَّة، على صاحبها الصلاةُ والسلامُ والتحيةُ.

واعلم أنَّ الذي لا بُدَّ منه: هو تصحيحُ الاعتقاد أولاً على وفق آراء علماء أهل السنة......................

والجماعة الذين هم الفرقةُ النَّاجيةُ، ثم العملُ بمقتضى الأحكام الفقهيَّة ثانياً، فإذا حصل هذان الجناحان الاعتقادي والعمليّ؛ ينبغي أن يقصد الطيرانَ إلى عالم القدس:

(ع) هَـذَا هُوَ الأَمْرُ وَالْبَـاقِي مِنَ الْعَبَـثِ

والمقصودُ من أعمال الشَّريعة وأحوال الطَّريقة والحقيقة: هو تزكيةُ النَّفس، وتصفيةُ القلب، وما لم تتزكَّ النَّفسُ لا تحصل السَّلامةُ للقلب، ولا يحصل الإيمانُ الحقيقيُّ الذي به نيطت النجاةُ، وسلامةُ القلب إنّما تُتصوَّرُ إذا لم يخطر ما سواه تعالى في القلب أصلاً، بحيث لو مضى ألف سنةٍ مثلاً لا يقع الغيرُ في القلب، ولا يمرُّ عليه قطعاً؛ لأنّه قد حصل للقلب حينئذٍ نسيانُ السوى بالكلية، بحيث لو ذكَّروه بالتَّكليف لَمَا يتذكَّر، وهذه الحالةُ هي المعبَّرُ عنها بالفناء، وأوَّلُ قدم في هذا الطَّريق، والسلام أولاً وآخراً.

المَكتُوبُ الثَّانِي وَالتِّسعُونَ

إلى المذكورِ أيضاً في بيانِ أنَّ اطمئنانَ القَلبِ إنَّما هو بالذِّكرِ، لا بالإستِدلالِ والنَّظر.

ثبتنا الله سبحانه وإياكم على الشَّريعة المصطفوية، على صاحبها الصلاة والسلام والتحية. ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وطريقُ اطمئنان القلب إنّما هو ذكر الله تعالى دون النظر والاستدلال: (شعر)

أَقْـدَامُ أَرْبَـابِ الْـحِجَى كَـالْـخَزَفِ ... وَمَـا الـذِي تَـمْكِـينُـهُ يَـا أَسَــفِـي

فإنَّ في الذكر اكتسابَ المناسبة بجناب قدسه تعالى، وإن لم تكن مناسبةً أصلاً - يعني: في الحقيقة -، ما للتراب ورب الأرباب، ولكن يحصل بين الذاكر والمذكور نوعٌ من الارتباط والعلاقة الموجبة للمحبَّة، فإذا استولت المحبَّةُ على الذَّاكر؛ فلا شيءَ بعده سوى الاطمئنانُ أصلاً، وإذا بلغ الأمرُ اطمئنانَ القلب؛ كانت الدَّولةُ الأبديّةُ نقدَ الوقت: (شعر)

عَـلَـيْكُـمْ بِـذِكْـرِ الْـحَقِّ دَوْمـاً فَـإِنَّـهُ ... جِـلَاءُ الْـقُـلُـوبِ وَالْـغِـذَاءُ لِأَرْوَاحِ

والسَّلامُ أولاً وآخراً.

المَكتُوبُ الثَّالِثُ وَالتِّسعُونَ

إلى إسكَندَر خان اللُّوديِّ في التَّحريضِ على صَرفِ الأوقاتِ إلى ذكرِ اللهِ سُبحانَه وتعالى.

ينبغي صرفُ الأوقات إلى ذكر الله تعالى بعد أداء الصَّلوات الخمس مع الجماعة، وأداء السُّنن الرَّواتب، وأن لا يشتغل بغيره، سواءٌ كان وقت الأكل أو النَّوم أو المشي، وقد بُيِّنَ لكم طريقُ الذِّكر، فينبغي الاشتغالُ به بهذا الطَّريق المعهود، فإن طرأ الفتورُ على الجمعيَّة؛ ينبغي البحثُ عن سبب ذلك الفتور وتعيينُه وتشخيصُه أوَّلاً، ثم التشبُّثُ بأسباب تلافي التَّقصير ثانياً، وينبغي التوجُّه إلى الحقِّ سبحانه بالالتجاء والتضرُّع التامّ، وأن يسأله سبحانه دفعَ ظلمة الفتور والتقصير، وأن يتوسَّلَ بالشيخ الذي أخذ عنه الذكرَ، والله سبحانه الميسِّرُ كلّ عسير. والسلام.

المَكتُوبُ الرَّابِعُ وَالتِّسعُونَ

إلى خضر خان اللُّوديِّ في بيانِ أنّه لا بدَّ للإنسانِ من تَصحيحِ العقائدِ وإتيانِ الأعمالِ الصَّالحَة، لِيطيرَ بهذينِ الجَناحَين إلى عالَم الحقيقَة.

رزقكم الله سبحانه الاستقامةَ على جادة الشَّريعة المصطفوية، على صاحبها الصلاة والسلام والتحية. والذي لا بُدَّ منه للإنسان: هو تصحيحُ العقائد أوَّلاً على مقتضى آراء أهل السنة والجماعة الصائبة الذين هم الفرقةُ النَّاجيةُ، وإتيانُ الأعمال الصَّالحة ثانياً بموجب الأحكام الفقهيَّة،..................

فإن ساعَدَ التوفيقُ الإلهيُّ بعد تعلُّم أحكام الفرائض والسنن والواجبات والمستحبات والحلال والحرام والمشتبهات، وحصول هذين الجناحين الاعتقاديّ والعمليّ؛ يُمْكِنُ الطيرانُ نحو عالم الحقيقة، وبدون حصول هذين السّاعدين يستحيلُ الطيران نحوها: (شعر)

وَمِنَ الْمُحَالِ السَّـيْرُ فِي طُرُقِ الصَّـفَا   يَـا سَـعْـدُ مِنْ غَيْرِ اتِّبَاعِ الْمُصْـطَفَى

ثبتنا الله سبحانه وإياكم على متابعته عليه وعلى آله الصلاة والسلام.

المَكْتُوبُ الخَامِسُ وَالتِّسْعُونَ

إلى السَّيِّد بِجْوَارِي في بيانِ أنَّ الإنسانَ نسخةٌ جامعةٌ، وقلبَه أيضـًا مخلوقٌ على وصفِ الجامعيَّة، وتوجيهاتِ أقوالِ بعضِ المشائخِ الواقعَة حالَةَ السُّكرِ، وما يُناسبُ ذلك.

اعلم أنَّ الإنسانَ نسخةٌ جامعةٌ، وكلُّما هو موجودٌ في جميع الكائنات متفرِّقـًا موجودٌ في الإنسان وحده، ولكن من عالم الإمكان بطريق الحقيقة، ومن مرتبة الوجوب بطريق الصُّورة: «**إنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ**»[1]، وهذه الجامعيَّةُ ثابتةٌ لقلب الإنسان، فإنَّ جميعَ ما هو في كليَّة الإنسان؛ فهو موجودٌ في القلب وحده، ولهذا يقال له: الحقيقةُ الجامعةُ، ومن حيثيَّة هذه الجامعيَّة أخبرَ بعضُ المشائخ عن وسعة القلب بقوله: لو ألقي العرشُ وما فيه في زاوية قلب العارف لَمَا أحسَّ به أصلاً، فإنَّ القلبَ جامعٌ للعناصر والأفلاك والعرش والكرسي والعقل والنَّفس، وشاملٌ للمكانِيّ واللا مكانِيّ، فلا جرم لا يكون للعرش مقدارٌ في جنب القلب بواسطة شموله للا مكانيَّة؛ لأنَّ العرشَ وما فيه مع وجود الوسعة فيه داخلٌ في دائرة الإمكان والمكانِيّ، وإن كان وسيعـًا في حدِّ ذاته، لكنَّه ضيِّقٌ في جنب اللا مكانِيّ لا مقدارَ له بالنِّسبة إليه، ولكنَّ أربابَ الصحو من المشائخ قدّس الله أسرارهم يعلمون أنَّ هذا الحكمَ مبنيٌّ على السُّكْر، ومحمولٌ على عدم التَّمييز بين حقيقة الشيء وبين أنموذجه، فإنَّ العرشَ المجيدَ الذي هو محلُّ الظهور التامِّ أجلُّ وأرفعُ من أن يكون له حصولٌ في القلب، والذي يرى في القلب من العرش فهو أنموذجُ العرش لا حقيقتُه، ولا شك أنَّه لا مقدارَ لهذا الأنموذج في جنب القلب، فإنَّه جامعٌ لأنموذجاتٍ غير متناهية، ولا يقال للمرآة التي ترى فيها السموات مع هذه الوسعة والكبر بأشياء أخر: إنَّها أكبر من السموات. نعم، إنَّ تمثالَ السموات الذي هو في المرآة أصغرُ من المرآة، لا حقيقةُ السموات.

ولنوضِّحْ هذا المبحثَ بمثالٍ، وهو أنَّ أنموذجـًا من عنصر كرة الأرض مكمونٌ في بدن الإنسان، ولا يقال: إنَّ بدن الإنسان أكبرُ وأوسعُ من كرة الأرض نظراً إلى جامعيَّة الإنسان، بل لا مقدارَ لبدن الإنسان في جنب كرة الأرض أصلاً، ومنشأُ هذا الحكم إنّما هو توهُّم الجزء الحقير للشيء، بل الأنموذجُ الحقيرُ للشيء نفسُ ذلك الشيء. ومن هذا القبيل كلامُ بعض المشائخ الذي صدر عنهم وقت غلبة السُّكْر كقولهم: إنَّ الجمعَ المحمديَّ أجمع من الجمع الإلهيِّ جلَّ سلطانه، فإنَّهم لَمّا زعموا أنَّ محمداً عليه الصلاة والسلام جامعٌ لحقيقة الإمكان ومرتبة الوجوب؛ حكموا بأنَّ جامعيَّةَ محمد عليه الصلاة والسلام أجمعُ من جامعيَّة الله تعالى شأنُه، وهنا أيضـًا زعموا الصُّورةَ حقيقةً، فحكموا بذلك، فإنَّ محمداً عليه وعلى آله الصلواتُ والتسليماتُ جامعٌ لصورة مرتبة الوجوب دون حقيقتها، والله سبحانه وتعالى وتقدَّس واجبُ الوجود على الحقيقة، فلو فرَّقوا بين حقيقة الوجوب وصورته؛ لَمَا حكموا به، حاشا وكلا من أمثال هذه الأحكام السُّكرية، فإنَّ...

(١) أخرجه البخاري (٦٢٢٧)، ومسلم (٢٨٤١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

محمداً ﷺ عبدٌ مخلوقٌ متناهٍ محدودٌ، والله سبحانه غيرُ متناهٍ وغيرُ محدودٍ.

وينبغي أن يعلم أنَّ كلَّما هو من الأحكام السُّكرية؛ فهو من مقام الولاية، وكلَّما هو من أحكام الصَّحْو؛ فله تعلُّقٌ بمقام النبوَّة، ولكُمَّل أتباع الأنبياء عليهم الصلوات والتسليمات نصيبٌ من هذا المقام بواسطة الصَّحْو بطريق التبعيَّة، والبسطاميَّةُ يفضِّلون السُّكر على الصَّحْو، ولهذا قال الشيخ أبو يزيد البسطاميُّ قدس سره:

(لوائي أرفعُ من لواء محمد)، أراد بلوائه: لواءَ الولاية، وبلواء محمدٍ عليه الصلاة والسلام: لواءَ النبوَّة، ويرجِّح لواءَ الولاية الذي هو ناظرٌ إلى السُّكر على لواء النبوَّة الذي هو ناظرٌ إلى الصحو.

ومن هذا القبيل قول بعضهم: الولايةُ أفضلُ من النبوَّة، وذلك لِمَا رأوا من أنَّ التَّوجُّهَ في الولاية إلى الحقّ، وفي النبوَّة إلى الخلق، ولا شكَّ أنَّ التوجُّهَ إلى الحقِّ أفضلُ من التوجُّه إلى الخلق.

وقال بعضهم في توجيه هذا الكلام: إنَّ ولايةَ النبيِّ أفضلُ من نبوته.

وأمثالُ هذه الكلمات بعيدةٌ عن الصواب عند هذا الفقير، فإنَّ التوجُّهَ في النبوَّة ليس إلى الخلق فقط، بل فيها توجُّهٌ إلى الحقّ أيضاً مع وجود هذا التوجُّه، فإنَّ بواطنهم مع الحقّ سبحانه، وظواهرهم مع الخلق، وأما الذين توجُّهُهم إلى الخلق فقط؛ فهم من المعرضين المدبرين، والأنبياءُ عليهم الصلوات والتسلميات أفضلُ جميع الموجودات، ولهم مسلّم أفضل الدولات، والولايةُ جزءٌ من النبوَّة، ومندرجةٌ فيها، والنبوَّةُ كلٌّ شاملٌ لها، فلا جرم تكون النبوَّةُ أفضلَ من الولاية، سواءٌ كانت ولايةَ نبيٍّ أو ولايةَ غيره، فكان الصحوُ أفضلَ من السُّكر، والسُّكرُ مندرجٌ في الصحو اندراجَ الولاية في النبوَّة، والصَّحوُ الخالي عن السُّكر الذي هو للعوامّ خارجٌ عن المبحث، ولا معنى لترجيح ذلك، والصحوُ المتضمِّنُ للسُّكْر أفضلُ من السُّكر ألبتّة، والعلومُ الشَّرعيّة التي مصدرها النبوَّة ناشئةٌ كلُّها من كمال الصحو، وما يخالفها كائناً ما كان من السُّكر، وصاحب السُّكر معذورٌ، وما يستحقُّ التقليدَ، والاستمساك به هو علومُ مقام الصحو، لا علوم حالة السُّكر، ثبتنا الله سبحانه على تقليد العلوم الشَّرعيّة، على مصدرها الصلاة والسلام والتحية، يرحم الله عبداً قال آمينا.

وما وقع في الحديث القدسي حيث ورد: «لَا يَسَعُنِي أَرْضِي وَلَا سَمَائِي، وَلَكِنْ يَسَعُنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ»، فالمراد به – والله سبحانه أعلم بمراده –: سعتُه صورةَ مرتبة الوجوب، لا حقيقتها، فإنَّ الحلولَ محالٌ هناك كما تقدَّم، فظهر أنَّ شمولَ القلب للامكانيَّة باعتبار الصورة لا الحقيقة، حتى لا يكون للعرش وما حواه مقدارٌ فيه، فإنَّ هذا الحكمَ مخصوصٌ بحقيقة اللامكانيَّة.

المكتوب السادس والتسعون

إلى محمَّد شريفٍ في المَنعِ والزَّجرِ عنِ التَّسويفِ والتَّأخير، وفي التَّحريضِ على مُتابعةِ الشَّريعةِ على صاحبِها الصَّلاة والتَّحيَّة، وما يُناسِبه.

أيُّها الولدُ، هذا الوقتُ الذي هو أوانُ الفرصة، وتيسّرُ أسباب الجمعيَّة كلِّها لا مجالَ فيه للتسويف والتأخير أصلاً، ينبغي صرفُ أشرف الأوقات الذي هو زمانُ عنفوان الشَّباب في أفضل الأعمال الذي هو طاعةُ الحقّ سبحانه وعبادتُه تعالى وتقدّس، وينبغي أيضاً أن يلتزمَ المداومةَ على الصَّلوات الخمس مع الجماعة، مجتنباً عن المحرمات والمشتبهات الشَّرعيّة، وأداءُ الزَّكاة على تقدير وجود النِّصاب من ضروريات الإسلام أيضاً، فينبغي إذاً أداؤها بكمال الرَّغبة، بل بقبول المنَّة، وقد......................................

عيَّنَ الحقُّ سبحانه - بكمال كرمه - للعبادة في اليوم والليلة خمسة أوقاتٍ، وعيّن من الأموال النّامية والأنعام السائمة ربع العشر تحقيقاً وتقريباً لأجل الفقراء، ووسّع ميدان تصرُّف المباحات، والتكاسُلُ في صرف ساعةٍ واحدةٍ من أربع وعشرين ساعة في طاعة الحقّ سبحانه، والبخلُ بأداء سهمٍ واحدٍ من أربعين سهماً إلى الفقراء، ووضعُ القدم في خارج دائرة المباح الوسيعة الفضاء البعيدة الأرجاء، والوقوعُ في المحرمات والمشتبهات من غاية عدم الإنصاف، وفي موسم الشباب الذي هو أوانُ غلبة سلطان النَّفس الأمّارة، وقهرمان الشّيطان اللعين؛ يعطى على عملٍ قليلٍ أجرٌ جزيلٌ، فإذا بلغتَ غداً أرذل العمر، وضعفت الحواسُّ والقوى، وتشتّتتْ أسبابُ الجمعيّة؛ لا يحصل غيرُ النّدامة والتأسّف، وربّما لا تبقى إلى غدٍ، فلا تتيسّرُ فرصةُ النّدامة والتأسّف التي هي نوعُ توبةٍ، والعذابُ الأبديُّ والعقابُ السرمديُّ الذي أخبر به النبي الصادق عليه من الصلوات أفضلها ومن التسليمات أكملها، وحذّر عنه العصاةَ إمامُنا لا يتخلّفُ أبداً، وفي هذا اليوم يلقي الشّيطانُ اللعينُ في التّسويف والغرور والمداهنة بإظهار كرم الله تعالى، ويأمر بالمعاصي اتّكاءً بعفوه تعالى.

ينبغي أن يتنبَّه ويعلم أنَّ الدُّنيا التي هي دارُ المحنة والبلاء امتزجَ فيها الأعداءُ والأحباءُ، واشتبهَ الأمرُ، وشملت رحمته تعالى الكلَّ، كما يُشعِرُ به قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وأما يومُ القيامة الذي هو دارُ الجزاء؛ فيمتاز فيه الأعداءُ والأحباءُ، كما أخبر الله تعالى عنه بقوله: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩]، وتخرجُ قرعةُ الرّحمة يومئذٍ باسم الأحباب، وتصير الأعداءُ محرومين مطلقاً، وملعونين محقّقاً، كما يشهد به قوله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فخصَّ الكرمَ والرّحمةَ في الآخرة بالأبرار، وأهل الإسلام الأخيار.

نعم، إنَّ لمطلق أهل الإسلام نصيباً من الرَّحمة على تقدير حسن الخاتمة، ونجاةً من عذاب جهنّم، ولو بعد أزمنةٍ متطاولةٍ، ولكن كيف يبقى نورُ الإيمان مع تراكم ظلمات المعاصي؟ وكيف يُتركُ عدم المبالاة بالأحكام المنزّلة من الله سبحانه أن يخرج من الدُّنيا بالسّلامة؟ وقد قال العلماء: الإصرارُ على الصغيرة يفضي إلى الكبيرة، والإصرارُ على الكبيرة يفضي إلى الكفر، عياذاً بالله سبحانه: (شعر) بَثَثْتُ قَلِيلاً مِنْ هُمُومِي وَخِفْتُ أَنْ ... تَمَلُّوا وَإِلَّا فَالْكَلَامُ كَثِيرٌ

وفّقنا الله سبحانه لمرضيّاته بحرمة محمد رسول الله ﷺ.

وبقيّةُ المقصود: إنَّ حامل الكتاب مولانا إسحاق من أحباب الفقير ومُخلِصيه، وله حقُّ الجوار من القديم، فإن احتاج إلى الإعانة والإمداد؛ ينبغي رعايةُ التوجُّه في حقّه، وله اطّلاعٌ على فنّ الكتابة والإنشاء، وممارسةٌ فيه بقدر الوسع، والسلام.

المكتوب السابع والتسعون

إلى الشّيخ دَرويشٍ في بيانِ أنَّ المقصودَ منَ العِبادةِ هو تحصيلُ اليقينِ، وما يناسِبه.

شرّف الله سبحانه أمثالنا المفلسين بحقيقة الإيمان، بحرمة سيد المرسلين، عليه وعلى آله من الصلوات أتمها، ومن التسليمات أكملها. وكما أنَّ المقصودَ من خلق الإنسان أداءُ العبادة المأمور بها؛ كذلك المقصودُ من أداء العبادة تحصيلُ اليقين الذي هو حقيقة الإيمان، ويمكن أن يكون في قوله تعالى: ....

﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] رمزاً إلى هذا المعنى، فإنَّ كلمة ﴿حَتَّىٰ﴾ كما أنَّها تكون للغاية؛ تكون للعلَّة أيضاً، أي: لأجل أن يأتيك، وكان الإيمانُ المتقدِّمُ على أداء العبادة صورةَ الإيمان، لا حقيقته التي عبَّر عنها باليقين، قال الله عز شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا ءَامِنُوا﴾ [النساء: ١٣٦]، أي: الذين آمنوا صورةً آمنوا حقيقةً بأداء وظائف العبادة المأمور بها، والمقصودُ من الفناء والبقاء اللَّذين الولايةُ عبارةٌ عن حصول هاتين الدولتين: هو هذا اليقينُ فحسب، فإن أرادوا بالفناء في الله والبقاء بالله معنىً آخر يُوهِمُ بالحالية والمحلّية؛ فهو عينُ الإلحاد والزَّندقة. ويُظهرُ في أثناء غلبة الحال وسكر الوقت شيئاً ينبغي أن يجاوزها أخيراً، وأن يستغفرَ منها، قال إبراهيم بن شيبان الذي هو من مشائخ الطَّبقات قدَّس الله أرواحهم: علمُ الفناء والبقاء يدورُ على إخلاص الوحدانيَّة وصحَّة العبوديَّة، وما سوى ذلك فمغاليطُ وزندقةٌ. والحقُّ: أنَّه صادقٌ في هذا القول، وقوله هذا يُنْبِئُ عن استقامته، فإنَّ الفناءَ في الله عبارةٌ عن الفناء في مرضيّات الحقِّ سبحانه، وعلى هذا القياس السَّيرُ إلى الله، والسيرُ في الله، ونحوهما.

وبقية المرام: إنَّ الشيخ ميان الله بخش رجلٌ متَّصفٌ بالصَّلاح والتَّقوى والفضيلة، وقد ارتبط به جمعٌ كثيرٌ، فإن احتاج إلى المعونة في مادَّةٍ من الموادّ؛ فالمرجوُّ رعايةُ التوجُّه الشَّريف في حاله، والسلامُ عليكم وعلى من اتبع الهدى.

المكتوب الثامن والتسعون

إلى عبدِ القادرِ ولَدِ الشَّيخ زكريا في التَّحريضِ على الرِّفقِ، وتركِ العنفِ بإيرادِ الأحاديثِ على مصدَرِها الصَّلاة والسَّلام.

نسأل الله الاستقامةَ على مركز العدالة، ولنوردْ أحاديثَ نبويَّةً عليه من الصلوات أفضلها ومن التسليمات أكملها الواردة في باب التَّذكير والوعظ والنَّصيحة يسَّر الله سبحانه العملَ بمقتضاها، قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ**» رواه مسلم(١)، وفي رواية له: قال لعائشة رضي الله عنها وعن أبويها: «**عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ، وَإِيَّاكِ وَالْعُنْفَ وَالْفُحْشَ، فَإِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ**»(٢)، وقال عليه وعلى آله الصلاة والسلام والتحية أيضاً: «**مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الْخَيْرَ**»(٣)، وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً: «**إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقاً**»(٤)، وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً: «**مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**»(٥)، وقال عليه الصلاة والسلام: «**الْحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ، وَالْإِيمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَالْبَذَاءُ مِنَ الْجَفَاءِ، وَالْجَفَاءُ فِي النَّارِ**»(٦)، «**إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ الْفَحْشَاءَ الْبَذِيءَ**»(٧)، «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يُحَرَّمُ عَلَى النَّارِ، وَبِمَنْ تُحَرَّمُ النَّارُ عَلَيْهِ؟ عَلَى كُلِّ هَيِّنٍ لَيِّنٍ قَرِيبٍ سَهْلٍ**»(٨)، «**الْمُؤْمِنُونَ هَيِّنُونَ لَيِّنُونَ، كَالْجَمَلِ الْأَنِفِ، إِنْ قِيدَ انْقَادَ، وَإِنِ اسْتُنِيخَ عَلَى صَخْرَةٍ اسْتَنَاخَ**»(٩)، «**مَنْ كَظَمَ غَيْظاً وَهُوَ يَقْدِرُ أَنْ يُنْفِذَهُ دَعَاهُ اللهُ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ فِي أَيِّ الْحُورِ شَاءَ**»(١٠)، إنَّ رجلاً قال للنبيِّ ﷺ: أوصني، قال: «**لَا تَغْضَبْ**»، فردَّ مراراً، قال: «**لَا تَغْضَبْ**»(١١)، «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ؟**.........................

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٩٤)، وأخرج البخاري (٦٠٣٠) قوله: «عليك بالرفق، وإياك والعنف والفحش».

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٩٢) من حديث جرير رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري (٣٧٥٩) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وأخرجه مسلم أيضاً (٢٣٢١) بلفظ: «إن من خياركم».

(٥) أخرجه الترمذي (٢٠١٣) وصححه من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٦) أخرجه الترمذي (٢٠٠٩) وصححه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٧) أخرجه الترمذي (٢٠٠٢) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، ولفظه: «الفاحش البذيء». وقال: (حديث حسن صحيح).

(٨) أخرجه الترمذي (٢٤٤٨) وحسنه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٩) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠/٤٤٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وأخرجه أيضاً (١٠/٤٤٧) من حديث مكحول مرسلاً، وقال: الأول ـ مع إرساله ـ أصح.

(١٠) أخرجه أبو داود (٤٧٧٧)، والترمذي (٢٠٢١) وحسنه، وابن ماجه (٤١٨٦) من حديث معاذ بن أنس رضي الله عنه.

(١١) أخرجه البخاري (٦١١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

كُلُّ ضَعِيفٍ مُسْتَضْعَفٍ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ، أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ»[1]، «إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ، فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ، وَإِلَّا؛ فَلْيَضْطَجِعْ»[2]، «إِنَّ الْغَضَبَ لَيُفْسِدُ الْإِيمَانَ كَمَا يُفْسِدُ الصَّبِرُ الْعَسَلَ»[3]، «مَنْ تَوَاضَعَ للهِ رَفَعَهُ اللهُ، فَهُوَ فِي نَفْسِهِ صَغِيرٌ، وَفِي أَعْيُنِ النَّاسِ عَظِيمٌ، وَمَنْ تَكَبَّرَ وَضَعَهُ اللهُ، فَهُوَ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ صَغِيرٌ، وَفِي نَفْسِهِ كَبِيرٌ، حَتَّى لَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِمْ مِنْ كَلْبٍ وَخِنْزِيرٍ»، قال موسى بن عمران على نبينا وعليه الصلاة والسلام: يا ربِّ، من أعزُّ عبادك؟ قال: من إذا قدر غفر[4]، وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام: «مَنْ خَزَنَ لِسَانَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ كَفَّ عَنْهُ اللهُ عَذَابَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنِ اعْتَذَرَ إِلَى اللهِ قَبِلَ اللهُ عُذْرَهُ»[5]، وقال أيضاً: «مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ؛ فَلْيَتَحَلَّلْ مِنْهُ قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ، فَحُمِلَ عَلَيْهِ»، وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قالوا: المفلسُ فينا: من لا درهمَ له ولا متاعَ، فقال: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي: مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَأَخَذَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يَقْضِيَ مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»، وعن معاوية ﷺ أنَّه كتب إلى عائشة ﷺ: أن اكتبي إليّ كتاباً توصيني فيه ولا تكثري، فكتبت: سلام عليك، أما بعد، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ؛ كَفَاهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ وَكَلَهُ اللهُ إِلَى النَّاسِ»، والسَّلام عليك[6]، صدق رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم وبارَكَ، رزقنا الله سبحانه وإياكم التَّوفيقَ للعمل بما أخبر به المخبرُ الصادقُ. والسلام.

وهذه الأحاديثُ وإن كتبتْ بدون ترجمةٍ، ولكن تُفْهَمُ معانيها بالرجوع إلى الشيخ جيو، وينبغي السعيُ والاجتهادُ للعمل بمقتضاها، بقاءُ الدنيا قليلٌ جدّاً، وعذابُ الآخرة شديدٌ في الغاية ودائمٌ، فعليكم استعمالَ العقل والفكر، وأن لا يغترَّ بطراوة الدُّنيا الخالية عن الحلاوة، فإن كانت العزَّةُ والأفضليَّةُ بسبب الدُّنيا.

ينبغي أن تكون الكفّارُ الذين لهم حظٌّ وافرٌ من الدنيا أعزَّ وأفضلَ من الكلّ، والانخداعُ بظاهر الدنيا من عدم العقل، وإنَّما اللائق بالعاقل: أن يغتنمَ فرصةَ أيامٍ قليلةٍ، وأن يجتهد في تلك الفرصة اليسيرة في تحصيل مرضات الله تعالى، والإحسان إلى خلق الله عز وجلّ، فإن التعظيمَ لأمر الله والشفقةَ على خلق الله كليهما أصلان عظيمان لأجل النَّجاة من عذاب الآخرة، وكلُّما أخبر به المخبرُ الصادقُ؛ فهو مطابقٌ لنفس الأمر، ليس بالهزل ولا بالهذيان، فإلى متى يمتدُّ نومُ الغفلة والغرورُ؟ أليس آخره وعقباه إلى الفضيحة والحرمان؟ قال الله سبحانه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وإني وإن كنت أعلم أنَّ وقتك لا يقتضي استماعَ أمثال هذه الكلمات لكونك في عنفوان الشَّباب، والتنعُّماتُ الدنيويَّةُ ميسَّرةٌ، والحكومةُ والتسلُّطُ على الخلق حاصلةٌ، ولكنَّ الشَّفقةَ على أحوالك كانت باعثةً على هذا القيل والقال، ولم يَفُتْ إلى الآن شيءٌ من الفرصة، والوقتُ قابلٌ للتَّوبة والإنابة، والشرطُ البلاغُ:

(ع) كَفَى الْحَرْفُ لَوْ فِي دَاخِلِ الْبَيْتِ إِنْسَانُ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩١٨) ومسلم (٢٨٥٣) من حديث حارثة بن وهب ﷺ.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٨٢) من حديث أبي ذر ﷺ.

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» ١٩/ ٤١٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠/ ٥٣١- ٥٣٢) من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده، ولفظ الطبراني: «يفسد الأمر كما يفسد الخل العسل».

(٤) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠/ ٥٥٠) من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً.

(٥) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٤٣٣٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠/ ٥٤١- ٥٤٢) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٦) أخرجه الترمذي (٢٤١٤).

المكتوب التاسع والتسعون

إلى المُلَّا حَسَنٍ الكَشميريِّ في جوابِ استفسارِه عن كيفيَّة دَوامِ الحُضورِ، واجتِماعِه مع النَّومِ الذي هو معدنُ الغَفلةِ.

قد شرّف مكتوبكم الشّريف بوصوله، وما وقع فيه من الاستفسار عن كيفيّة دوام الحضور واجتماعه مع حالة النّوم التي هي حالةُ الغفلة، وتعطُّل القوى والإدراك من أوّلها إلى آخرها، كما أخبر بعض أكابر هذه الطّائفة العليّة بحصول هذه الدّولة العظيمة.

أيُّها المخدومُ، إنَّ حلَّ هذا المشكل مبنيٌّ وموقوفٌ على تمهيد مقدمةٍ لا بُدَّ من بيانها، فأقول: إنَّ طريقَ الترقّي والعروج كان مسدوداً للرُّوح الإنسانيَّة قبل تعلُّقها بهذا الجسم الهيولانِيِّ، وكانت مقيَّدةً ومحبوسةً في حبس ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤]، ولكن كانت قد أُودِعَتْ في طبعها جوهرةٌ نفيسةٌ، وهي الاستعدادُ للعروج والتَّرقّي بشرط النُّزول، وكانت مزيَّتُها على المَلَك مقرَّرةً من هذه الجهة، فجمع الحقُّ سبحانه من كمال كرمه ذلك الجوهرَ النورانِيَّ بهذا الجسم الظلمانِيِّ، فسبحان من جمع بين النُّور والظلمة، وقَرَنَ الأمرَ بالخلق.

ولَمّا كان كلٌّ من هذين الشيئين واقعاً في مقابلة الآخر، ونقيضاً له في الحقيقة؛ أعطى الحكيم المطلق جلَّ سلطانه للروح نسبةَ التعشق والتعلُّق بالنَّفس تحقيقاً لهذا الاجتماع، وتقريراً لهذا الانتظام، وجعل هذا التعلُّق سبباً للانتظام، وفي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٤-٥] رمزٌ إلى هذا البيان.

وهذا التَّنزيلُ للروح وتعلُّقُها من قبيل المدح بما يشبهُ الذمَّ في الحقيقة، فتهافتت الروحُ إلى عالم النَّفس بالتمام، وتوجَّهتْ إليه بكليَّتها بواسطة تلك النِّسبة الحبِّيَّة، وجعلت نفسها تابعةً لها، بل نسيتْ نفسَها مرَّةً واحدةً، وصارت تعبِّرُ عن نفسها بالنَّفس الأمَّارة، وهذا لطافةٌ أخرى للروح، حيث إنَّها تأخذُ حكمَ كلِّ شيءٍ تتوجَّهُ إليه من كمال لطافته، فإذا نسيت نفسها؛ فلا جرم أنَّها نسيتْ أيضاً حضورَه السابقَ مع مرتبة الوجوب تعالت وتقدست بالضَّرورة، وتوغَّلت في الغفلة بالتمام، وأخذ حكم الظُّلمة، فبعث الله - من كمال كرمه وشفقته على عباده - الأنبياءَ عليهم الصلاة والسلام، ودعاهم إليه سبحانه بواسطة هؤلاء الأكابر، وأمرهم بمخالفة النَّفس التي هي معشوقةُ الرُّوح، فمن رجع القهقرى؛ فقد فاز فوزاً عظيماً، ومن لم يرفع رأسَه واختار الخلودَ إلى الأرض؛ فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً.

هذا، ولنرجع إلى الجواب عن الإشكال، ونقول: إنَّه قد فهم من هذه المقدمة من اجتماع الروح بالنَّفس أنَّ فناءَ الروح في النَّفس وبقاءها بها فحسب، فلا جرم تكون غفلةُ الظَّاهر عينَ غفلة الباطن ما دام هذا الاجتماعُ والانتظامُ موجوداً، ويكون النومُ الذي هو غفلةُ الظَّاهر عينَ غفلة الباطن، فإذا طرأ الخللُ على هذا الانتظام، وأعرض الباطنُ عن محبَّة الظَّاهر، وأقبل على محبَّة أبطن البطون، وزال الفناءُ والبقاءُ اللذان كانا للرُّوح قبلُ، وحصل لها الفناءُ في الباقي الحقيقيِّ، والبقاءُ به تعالى وتقدَّس؛ فلا تؤثِّرُ غفلةُ الظَّاهر حينئذٍ في حضور الباطن، وكيف تؤثِّرُ؟

فإنَّ الباطنَ قد أدبر عن الظَّاهر بالتمام، وجعله خلف ظهره، ولم يَبْقَ للظاهر سبيلٌ إلى الباطن أصلاً، فيجوز حينئذٍ أن يكون الظَّاهر غافلاً والباطن حاضراً، ولا محذورَ فيه، ألا ترى أنَّ دهنَ اللوز مثلاً ما دام ممتزجاً باللوز حكمُه حكمُ اللوز، فإذا مُيِّزَ عن اللوز ظهر التغايرُ والتمايزُ في الأحكام؟ فإذا أراد...............

الله سبحانه إرجاعَ مثل صاحب هذه الدَّولة إلى العالم لتخليص أهله من الظُّلمات النَّفسانيَّة بتوسُّط شريعته التي شرعها؛ ينزلُ إلى العالم بطريق السَّير عن الله بالله، فيكون توجُّهه إلى العالم بالتَّمام من غير تعلُّقٍ بهم؛ لأنَّه على تعلُّقه السابق - يعني: بجناب القدس -، وإنَّما أُورِدَ إلى هذا العالم من غير اختيارٍ منه، فهذا المنتهي له شِرْكةٌ صوريَّةٌ مع سائر المبتدئين في الإعراض عن جناب قدسه تعالى وتقدَّس، والإقبال على الخلق، ولكن لا مناسبةَ بينهما في الحقيقة، فإنَّ بين التَّعلُّق وعدم التَّعلُّق تفاوتاً فاحشاً. وأيضاً الإقبالُ على الخلق في حقِّ هذا المنتهي بلا اختيارٍ منه لا رغبةَ له فيه، وإنَّما ذلك لكون رضاء الله تعالى في ذلك الإقبال، وفي حقِّ المبتدئ ذاتيٌّ، ومع الرَّغبة له فيه، وليس فيه رضا الحق سبحانه وتعالى. وفرقٌ آخر: إنَّ المبتدئَ يمكن له الإعراضُ عن الخلق والإقبالُ على الحق تعالى وتقدس، وذلك محالٌ في المنتهي، فإنَّ دوامَ الإقبال إلى الخلق لازمٌ لمقامه ومرتبته، إلا أن يتمَّ أمر دعوته، وارتحل من دار الفناء إلى دار البقاء، فيكون نداء: (اللهم الرفيقَ الأعلى) حينئذٍ نقدَ وقته.

وقد اختلف مشائخُ الطَّريقة قدس الله أسرارهم في تعيين مقام الدعوة، فقال جماعةٌ منهم: إنَّه مقامُ الجمع بين التوجُّه إلى الخلق والتوجُّه إلى الحقّ، والاختلافُ فيه مبنيٌّ على الاختلاف في الأحوال والمقامات، وقد أخبر كلُّ شخصٍ عن مقامه، والأمرُ عند الله تعالى. وما قال سيد الطَّائفة جنيد رضي الله تعالى عنه من أنَّ النِّهاية هي الرجوعُ إلى البداية موافقٌ لمقام الدَّعوة الذي حُرِّرَ في هذه المسودَّة، فإنَّ الوجهَ والتوجُّهَ في البداية إلى الخلق بالتَّمام. وحديث: «**تَنَامُ عَيْنَايَ وَلَا يَنَامُ قَلْبِي**»(١) الذي حرَّرتموه ليس فيه إشارةٌ إلى دوام الحضور، بل هو إخبارٌ عن عدم الغفلة عما يجري عليه وعلى أمته عليه الصلاة والسلام، وعما يصدر منه ﷺ من الأحوال، ولهذا لم يكن نومه ناقضاً لوضوئه عليه الصلاة والسلام، ولما كان النبيُّ مثلَ الراعي في حفظ أمته؛ لم تكن الغفلةُ لائقةً لمنصب نبوته، وحديث: «**لِي مَعَ اللهِ وَقْتٌ لَا يَسَعُنِي فِيهِ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ**»(٢) يمكن أن يكون إشارةً إلى التجلِّي البرقيِّ الذاتيِّ على تقدير صحَّته، وأيضاً إنَّ هذا التجلِّي ليس بمستلزمٍ للتوجُّه إلى جناب الحقّ سبحانه، بل هو من ذلك الجانب الأقدس، لا صُنْعَ فيه للمتجلَّى له، بل هو من قبيل سير المعشوق في العاشق لشِبَع العاشق من السَّير: (شعر)

لَا الْكَوْنُ فِي الْمِرْآةِ مِنْ حَرَكَاتِهَا　　　لَكِنَّهَا قَبِلَتْ لَهُ لِصَفَائِهَا

وينبغي أن يعلم أنَّ الحجبَ المرتفعةَ لا تعود على تقدير الرُّجوع، بل مع وجود ارتفاع الحجب يكون المنتهي مشغولاً بالخلق؛ لارتباط فلاح الخلق به، ومثلُ هؤلاء الأكابر كمثل شخصٍ له كمالُ التقرب من الملك، بحيث ليس بينهما حائلٌ ومانعٌ أصلاً لا صورةً ولا معنىً، ومع ذلك شغله الملكُ بقضاء حاجات أرباب الحوائج وخدماتهم، وهذا فرقٌ آخرُ أيضاً بين المبتدئ والمنتهي المرجوع، فإنَّ المبتدئَ محجوبٌ، بخلاف ذلك المنتهي. والسلام عليكم وعلى سائر من اتبع الهدى.

المكتوب المائة

إلى الملَّا حَسَنٍ الكَشميريِّ أيضاً في جوابِ سُؤالِه عن قولِ الشَّيخ عبدِ الكريمِ اليَمَنيِّ: إنَّ الحقَّ سبحانَه ليسَ بعالِم الغيبِ.

قد شرّفنا المكتوب بوصوله، واتَّضح ما اندرج فيه بأبوابه وفصوله، وفروعه وأصوله، ومما اندرج فيه أنَّ الشيخَ(٣) عبد الكريم اليمنيَّ قال: إنَّ الله سبحانه ليس بعالم ....

(١) أخرجه البخاري (١١٤٧)، ومسلم (٧٣٨) من حديث عائشة ﵂.

(٢) وقد ذكره في «الرسالة القشيرية» (١/ ١٩٠) بلفظ: «لي وقت لا يسعني فيه غير ربي عز وجل».

(٣) وهذا مسطورٌ في «الرشحات» عند ترجمة مولانا محمد الروجي بالتفصيل، فراجعها منه. (المعرِّب)

https://t.me/kutubumutuun

الغيب.

أيُّها المخدومُ، لا طاقةَ للفقير باستماع أمثال هذه الكلمات أصلاً، ويتحرَّكُ عرقي الفاروقيّ من استماعها بلا اختيارٍ، بحيث لا يبقى مجالُ التَّأمُّل، وفرصةُ التَّأويل والتوجيه، سواءٌ كان قائلها الشيخ عبد الكريم اليمنيَّ أو الشيخ الأكبر الشاميَّ، وإنَّما اللازمُ لنا اتِّباعُ كلام محمد العربي عليه الصلاة والسلام، دون كلام محيي الدين ابن العربي وصدر الدين القونويّ وعبد الرزاق الكاشي، نحن نتمسَّكُ بالنصوص لا بـ«الفصوص»، وقد أغنانا الفتوحاتُ المدنيَّةُ عن «الفتوحات المكية»، وقد وصف الله سبحانه نفسَه في كلامه المجيد بعالم الغيب، وأطلقه على نفسه، فنفيُ علم الغيب عنه تعالى مستقبحٌ ومستكرهٌ جدّاً، بل هو تكذيبٌ للحقّ سبحانه في الحقيقة، وإرادةُ معنىً آخر من الغيب لا يُخْرِجُ هذا الكلام من الشَّناعة، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [الكهف: ٥] فيا ليت شعري، ما حملهم على التفوُّه بأمثال هذه الكلمات الصَّريحة في خلاف الشَّريعة؟

وابن المنصور معذورٌ في قوله: أنا الحقّ، وكذلك البسطاميُّ في قوله: سبحاني؛ لكونهما مغلوبي الحال. وأما أمثالُ هذا الكلام؛ فليستْ بمبنيَّةٍ على غلبة الأحوال، بل هي صادرةٌ بعلمٍ عن صاحبها، ومستندةٌ إلى التَّأويل، فليست بقابلةٍ للعذر، ولا يقبل في هذا المقام تأويلٌ أصلاً، وإنَّما يُصرفُ عن الظَّاهر كلامُ السّكارى لا غير، فإن كان مقصود المتكلِّم من إظهار هذا الكلام ملامة الخلق إياه ونفرتهم عنه؛ فهو أيضاً مستكرهٌ ومستهجنٌ، فإنَّ طرقَ تحصيل ملامة الخلق كثيرةٌ، فأيُّ ضرورةٍ تدعو إلى أن يرتكب ما يوصل إلى حدِّ الكفر؟

وحيث تكلّمتم في تأويل هذا الكلام، واستفسرتم عنه؛ فبحكم (لكلِّ سؤالٍ جوابٌ) نتكلّم في هذا الباب بالضَّرورة، وعلمُ الغيب عند الله سبحانه، وما قيل: إنَّ الغيبَ لا يكون إلا معدوماً، والمعدومُ لا يكون معلوماً، فإنَّ العلم لا يتعلَّق بالمعدوم، معناه: أنَّ الغيبَ لَمَّا كان بالنِّسبة إليه سبحانه معدوماً مطلقاً، ولا شيئاً محضاً؛ لا معنى لتعلُّق العلم به، فإنَّ معلوميَّته تُخْرِجه عن معدوميَّته المطلقة واللّاشيئيَّة المحضة، ألا ترى أنَّه لا يقال: إنَّ الحقَّ سبحانه عالمٌ بشريكه، فإنَّ شريكَه تعالى وتقدس ليس بموجودٍ أصلاً، بل هو لا شيء صرفٌ؟

نعم، يمكن تصوُّرُ مفهوم الغيب والشريك، ولكن الكلامَ ليس في مفهومهما، بل في مصداقهما، ومثلُ هذا حالُ جميع المحالات، فإنَّ مفهوماتها ممكنةُ التَّصوُّر، ومصادقها ممتنعةُ التَّصوُّر، فإنَّ المعلوميَّةَ تخرج عن الاستحالة، ولا أقلَّ من إعطائها الوجودَ الذهنيَّ.

والاعتراضُ الذي أوردته على توجيه مولانا محمد الروجيّ صحيحٌ، فإنَّ نفيَ النِّسبة العلميَّة في مرتبة الأحديَّة المجرَّدة مستلزمٌ لنفي مطلق العلم، ولا وجهَ لتخصيص النفي بعلم الغيب، والإشكالُ الآخرُ على توجيه مولانا: إنَّ النِّسبةَ العلميةَ وإن كانت منتفيةً في مرتبة الأحدية المجرَّدة، ولكن عالميَّته تعالى قائمة على حالها، فإنَّه تعالى عالمٌ بالذات لا بالصِّفات؛ لكون الصِّفات منتفية في تلك المرتبة، ألا ترى أنَّ نفاة الصِّفات رأساً يقولون: إنَّ الحقَّ سبحانه عالمٌ مع سلبهم الصِّفات عنه سبحانه وتعالى، ويقولون: إنَّ الانكشافَ الذي يترتَّبُ على الصِّفات يترتَّبُ على الذات؟ وكذا هنا.

والتوجيهُ الذي بيَّنتموه من إرادة غيب الذات تعالت وتقدست بالغيب، وعدم تجويز تعلُّق العلم به، فإن كان المرادُ بالعلم: علمَ الواجب تعالى وتقدس؛ فهو أقربُ التَّوجيهات، ولكن في عدم جواز تعلُّق علم الواجب تعالى بذاته البحث سبحانه بحثٌ للفقير، فإنَّ الوجهَ الذي بيَّنوه في عدم الجواز هو اقتضاءُ حقيقة العلم لإحاطة المعلوم، والذَّاتُ المطلقةُ تعالت مقتضيةٌ لعدم الإحاطة، فلا يجتمعان في هذا التعلُّق.

وههنا محلُّ خدشةٍ،...

فإنَّ هذا المعنى - يعني: اقتضاءَ حقيقة العلم لإحاطة المعلوم - إنّما هو في العلم الحصوليّ؛ لحصول صورة المعلوم فيه في القوَّة العلميَّة، وأما في العلم الحضوريِّ؛ فلا يلزم هذا المعنى أصلاً، والعلمُ فيما نحن فيه حضوريٌّ لا حصوليٌّ، فلا محذورَ، فإنَّ تعلُّقَ علم الواجب سبحانه بذاته تعالى بطريق الحضوريِّ، لا بطريق الحصول، والله سبحانه أعلمُ بحقيقة الحال، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين وبارك وسلم، والسلام أولاً وآخراً.

المَكتُوبُ الحَادِي وَالمِائَة

إلى المُلَّا حَسَنِ الكَشْمِيرِيِّ أيضـًا في الرَّدِّ على جماعةٍ تعرَّضوا لأهلِ الكَمالِ، وأطالُوا اللِّسانَ في حقِّه بأنواعِ المَقالِ.

أحسن الله سبحانه حالكم، وأصلح بالكم. قد أوصل مولانا محمد صديق المفاوضةَ الشَّريفةَ، حمداً لله سبحانه حيث لم تنسوا النَّائين المهجورين، والخطاباتُ التي صدرت للنَّفْس بحسب الظَّاهر صارتْ واضحةً في الجملة. نعم، كلُّ اعتراضٍ على النَّفس مسلَّمٌ وقت كونها أمَّارة، وأما بعد حصول الاطمئنان لها؛ فلا مجالَ للاعتراض أصلاً، فإنَّ النَّفسَ في ذلك الموطن راضيةٌ عن الحقِّ، والحقُّ سبحانه راضٍ عنها، فهي إذاً مرضيَّةٌ ومقبولةٌ، ولا اعتراضَ على المرضيِّ المقبول، وكيف فإنَّ مرادَها حينئذٍ مرادُ الحقِّ سبحانه؟ فإنَّ حصولَ هذه الدَّولة إنّما هو زمن التَّخلُّق بأخلاق الله تعالى، وساحةُ قدسه أعلى وأجلُّ من اعتراض أمثالنا وضيعي الفطرة وعديمي القدرة، بل كلَّما نقول عائدٌ إلينا:

(شعر) مَنْ لَمْ يَكُنْ عَنْ نَفْسِـــهِ ذَا خِبْرَةٍ ... هَـلْ يَـقْـدِرُ الإِخْـبَـارَ عَـنْ هَـذَا وَذَا

ومن جاهلٍ يتصوَّر النَّفسَ المطمئنَّةَ من كمال جهله أمَّارةً، ويُجْري أحكامَ الأمَّارة على المطمئنَّة، كما زعم الكفارُ الأشرارُ الأنبياءَ عليهم الصلاة والسلام مثل سائر البشر، وأنكروا كمالات النبوَّة، أعاذنا الله سبحانه من إنكار هؤلاء الأكابر، وإنكار متابعيهم عليهم الصلوات والتحيات.

المَكتُوبُ الثَّانِي وَالمِائَة

إلى المـلَّا مظفَّرٍ في بيانِ أنَّ المحرَّم في القَرضِ معَ الفَيضِ - يَعني: الرِّبا - مَجموعُ المَبلغِ، لا الزِّيادَة فقط، وما يتعلَّق بذلك.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. قد قلتم في ذلك اليوم: إنَّ الربا في القرض بالفيض هو الفضلُ فقط، والمحرَّمُ في قرض عشرة دراهم باثني عشر درهمـًا هو الدِّرهمان الزَّائدان على القرض، ولَمّا راجعتُ بعض الكتب الفقهية ظهر أنَّ كلَّ عقدٍ فيه فضلٌ فهو ربا في الشَّريعة، فيكون هذا العقدُ محرَّمـًا بالضَّرورة، وكلُّما يفضي إلى تحصيل المحرم يكون محرمـًا، فتكون الدراهمُ العشرةُ أيضـًا محرمةً، وكان المقصودُ من إرسال كتاب «جامع الرموز» وروايات كتاب إبراهيم الشَّاهيّ إظهارَ هذا المعنى، وبقي صورةُ الاحتياج.

أيُّها المخدومُ، إنَّ حرمةَ الربا ثابتةٌ بنصٍّ قطعيٍّ شاملٌ للمحتاج وغير المحتاج، فاستثناءُ المحتاج من هذا الحكم نسخٌ لذلك الحكم القطعيّ، ورواية «القنية» ليست في مرتبة تنسخُ الحكمَ القطعيَّ، وقد قال مولانا جمال اللاهوريّ الذي هو أعلمُ علماء لاهور: إنَّ كثيراً من رواية «القنية» لا يستحقُّ الاعتماد عليه؛ لكونها مخالفةً لرواية الكتب المعتبرة، ولو سُلِّمَ صحَّةُ هذه الرواية؛ ينبغي أن ينزل الاحتياجُ إلى حالة الاضطرار والمخمصة ليكون مخصِّصُ ذلك الحكم القطعي قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ ......

فِى مَخۡمَصَةٍ﴾ [المائدة: ٣] الآية، فإنَّه مثله في القوَّة:

(ع) وَقَاتِلُ رُسْتُمِ أَمْثَالُ رُسْتُمِ

وأيضاً لو أُخِذَ المحتاجُ أعمَّ ينبغي أن يكون في محلٍّ لا يظهر فيه حكمُ حرمة الرِّبا، وإلا؛ فكلُّ من يقبل إعطاءَ الزِّيادة إنّما يقبله بعلَّة الاحتياج ألبتَّة، فإنَّه لا يُقْدِمُ أحدٌ على ضرر نفسه من غير احتياجٍ، فلا يبقى لهذا الحكم المنزَّل من الحكيم الحميد مزيدُ فائدةٍ، تعالى كتابُه العزيزُ من أمثال هذا التوهُّم. ولو سلِّم عمومُ الاحتياج ولو على سبيل فرض المحال فأقول: إنَّ الاحتياجَ من جملة الضَّرورات، والضَّرورةُ تقدَّرُ بقدرها، وإطعامُ الطعام النَّاسَ مما استقرض بالفيض ليس بداخلٍ في الاحتياج، فإنَّه لا تعلُّق للضَّرورة به، ولهذا يستثنى من تركة الميت ما يحتاجُ إليه في تجهيزه، وقصروه في الكَفَن والدَّفن، ولم يجعلوا إطعامَ الطَّعام لروحه داخلاً في الاحتياج، مع أنَّه أحوجُ إلى الصدقة - يعني: من الدفن والكفن -، فينبغي الملاحظةُ في الصُّورة المتنازع فيها: هل المستقرضون بالفيض محتاجون أو لا؟ وعلى تقدير الاحتياج هل يحلُّ لغيرهم الأكلُ من الطَّعام الذي يطبخونه لهم من ذلك المبلغ أو لا؟ وجعلُ الضيافة وإجراء الرسم والعادة حيلةَ الاحتياج والقرض بالفيض بهذه العلَّة، واعتقادُ ذلك جائزاً وحلالاً؛ بعيدٌ عن التَّديُّن والدِّيانة، ينبغي رعايةُ الأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، ومنعُ جماعةٍ ابتلوا بهذا البلاء، وتنبيهُهم على عدم صدق هذه الحيلة، وعدم جوازها، وكيف ينبغي للإنسان اختيارُ هذا القسم من الابتلاء بارتكاب محظورٍ. فإنَّ أسبابَ المعاش كثيرةٌ ليست بمحصورةٍ على شيءٍ واحدٍ، وحيث إنَّكم من أهل الصلاح والتقوى أرسلنا لكم روايةَ الطيِّب في الأكل.

وكتبتم: إنَّ الخالي عن الشُّبهة لا يوجد في هذا الزَّمان، فهذا الكلامُ صحيحٌ، ولكن ينبغي الاحترازُ من الشُّبهة مهما أمكن، وقد قيل: إنَّ الزراعةَ بلا طهارةٍ منافيةٌ للطيِّب، والاجتنابُ عن ذلك غيرُ ممكنٍ في بلاد الهند، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ولكنَّ تركَ أكل طعام الربا في غاية السهولة، واعتقاد الحلال حلالاً والحرام حراماً إنّما هو في الحلال والحرام القطعيين الذين يكفر جاحدهما، وفي الظنيات ليس كذلك، وكم من أمورٍ مباحةٍ عند الحنفية غيرُ مباحةٍ عند الشافعية وبالعكس؟ ففيما نحن فيه إذا توقف شخص في حِلِّيَّة القرض بالفيض لمن يشكُّ في احتياجه لكونه مخالفاً في الظَّاهر حكم النصِّ القطعيِّ لا ينبغي تضليلُه وتكليفُه باعتقاد حليَّته، بل الراجحُ أنَّ الصوابَ في جانبه، بل هذا متيقَّنٌ، ومخالفُه في خطرٍ. ونقل بعضُ أصحابكم أنَّ مولانا عبد الفتاح قال يوماً في حضوركم: لو وجد قرضٌ بلا فيضٍ؛ فهو حسنٌ، فلماذا يستقرض الإنسانُ بالفيض؟ فزجرتموه قائلاً: لا تنكر الحلالَ.

أيها المخدومُ، إنَّ أمثالَ هذه الكلمات لها مساغٌ ومجالٌ في الحلال القطعيّ، وأما إن كان مشكوكاً في حليته؛ فلا شكَّ أنَّ تركه أَوْلى، وأهلُ الورع لا يأمرون بالرخصة، بل يدلُّون على العزيمة، وقد أفتى علماءُ لاهور بالحليَّة بعلة الاحتياج، وذيلُ الاحتياج واسعٌ، بحيث لو مُدَّ لا يبقى رباً أصلاً، ويكون الحكمُ القطعيُّ بحرمة الربا عبثاً كما سبق آنفاً، وكان ينبغي لهم ملاحظةُ أنَّ إطعامَ الغير أيّ قسمٍ هو من احتياج المستقرض بالفيض، وروايةُ «القنية» مجوِّزةٌ للاستقراض بالفيض بعد اللّتيا والتي في حقِّ المحتاج نفسه فقط، لا في حق الغير. فإن قيل: يجوز أن يطبخَ المحتاجُ هذا الطعام للإطعام بنية كفارة اليمين أو الظهار أو غيرهما، ولا شكَّ أنَّه محتاجٌ إلى أداء هذه الكفارات.

أقول: إذا لم يكن فيه استطاعةُ الإطعام؛ يصوم لها، لا أنَّه يستقرضُ بالفيض،.........................

ويكفِّرُ عنها، وكلُّما يظهر من أقسام الاحتياج من هذا القبيل يندفع بأدنى تأمُّلٍ وتوجُّهٍ ببركة التَّقوى، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣] والزيادةُ على ذلك إطنابٌ، والسلامُ عليكم وعلى من اتبع الهدى.

المكتوبُ الثَّالثُ والمائة

إلى السَّيِّد فريدٍ في بيانِ معنى العافيَة، وطلَبِ القاضي لبلدِ سَرهَند.

رزقنا الله سبحانه وإياكم العافيةَ، والمرادُ بالعافية المطلوبة: ما كان واحدٌ من الأعزَّة يدعو الله سبحانه دائمـاً، ويتمنَّى منه عزّ وجل عافيةَ يومٍ واحدٍ، فسأله شخص أنَّ جميعَ هذه الأوقات التي تمرُّ عليك أليست تمرُّ عليك على عافيةٍ؟ قال: بل أريد أن يمرَّ عليّ يومٌ لا أرتكبُ فيه معصية من معاصي الله تعالى من الفجر إلى المغرب، وقد مضت مدَّةٌ وليس في سرهند قاضٍ، ويقع إجراءُ بعض الأحكام الشَّرعيّة بهذا السبب في التوقف، مثلاً: إن لي ابن أخٍ، وبقي له ميراث من أبويه، وليس له وصيٌّ، والتصرُّفُ في ذلك المال بلا إذنٍ شرعيٍّ غيرُ جائزٍ، فإن كان هنا قاضٍ؛ لأمكن التَّصرُّفُ فيه بإذنه.

المكتوبُ الرَّابعُ والمائة

إلى قُضاةِ بعضِ القصبةِ في التَّعزيَة.

اعلموا أنَّ مصيبة فوت المغفور له وإن كانت شديدةً جداً ومستصعبةً، ولكن لا بُدَّ للعبد من الرضا بفعل الحق سبحانه وتعالى، فإنّا لم نخلق للبقاء في الدنيا، بل للعمل، فينبغي السعيُ في العمل، فإنْ ذهب المرحومُ بعمله لا ضيرَ فيه، بل هو ملك (الموت جسرٌ يوصل الحبيبَ إلى الحبيب) ثابتٌ في شأنه، ليست المصيبةُ للفوت، بل لحال القادم إلى الحبيب، إنّه كيف يعامل به، فينبغي الإمدادُ بالدعاء والاستغفار والتصدق، قال رسول الله ﷺ: «**مَا الْمَيِّتُ إِلَّا كَالْغَرِيقِ الْمُتَغَوِّثِ يَنْتَظِرُ دَعْوَةً تَلْحَقُهُ مِنْ أَبٍ أَوْ أُمٍّ أَوْ أَخٍ أَوْ صَدِيقٍ، فَإِذَا لَحِقَتْهُ كَانَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**»(١)، وإنَّ الله تعالى ليدخل على أهل القبور من دعاء أهل الأرض أمثالَ الجبال من الرَّحمة، وإنَّ هديةَ الأحياء إلى الأموات استغفارٌ لهم. وبلغ المكتوبُ الشَّريفُ والهواءُ الباردُ شديدٌ على الفقراء جدّاً، وإلا؛ ما كنت أتأخَّرُ، وكتبُ التفويض مؤكّداً ينفع إن شاء الله تعالى، والزيادةُ على ذلك تصديعٌ، والدعواتُ الكثيرةُ مبذولةٌ للقاضي حسن وسائر الأعزة، وليكونوا راضين بفعل الحق سبحانه، وشاكرين عليه تعالى في جميع الأمور.

المكتوبُ الخامسُ والمائة

إلى الحكيم عبدِ القادرِ في بيانِ أنَّ المريضَ ما لم يصحَّ ولم يبرأ لا ينفعُه غذاءٌ أصلاً، وما يناسِبه.

قد تقرَّر عند الحكماء: أنَّ المريضَ ما دام مريضـاً لا ينفعه غذاءٌ أصلاً، ولو كان من أعزِّ الأكل وأحسنه، بل هو مقوٍّ لمرضه:

(ع) أَلَا كُـلُّـمَـا نَـالَ الْـعَـلِـيـلَ عَـلِـيـلُ

فيشتغلون أوَّلاً بفكر إزالة مرضه، ثم يجتهدون في تحصيل القوَّة بأغذيةٍ مناسبةٍ لمزاجه وحاله بالتَّدريج، فكذلك الإنسانُ ما دام مبتلىً بمرض القلب كما قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠]؛ لا تنفعه عبادةٌ وطاعةٌ أصلاً، بل هي مضرَّةٌ له: «**رُبَّ تَالٍ لِلْقُرْآنِ وَالْقُرْآنُ يَلْعَنُهُ**» حديثٌ معروفٌ، و«**رُبَّ صَائِمٍ لَيْسَ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ وَالظَّمَأُ**» خبرٌ صحيحٌ، فأطبّاءُ القلوب أيضـاً يأمرون أوَّلاً بإزالة المرض، وذلك المرضُ عبارةٌ عن تعلّق القلب بغير الحقّ سبحانه وتعالى، بل هو تعلّق الإنسان بنفسه، فإنَّ الإنسانَ........

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠/ ٣٠٠-٣٠١، ١١/ ٤٧٢)، والديلمي في «مسند الفردوس» ـ كما قال العراقي ـ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: هذا حديث غريب.

كلَّما يحبه ويطلبه؛ إنّما يحبُّه ويطلبُه لنفسه، فإنْ أحب أولادَه يحبُّهم لنفسه، وكذلك الأموال والرياسة والجاه، فمعبودُه في الحقيقة هو نفسُه، فما دام الإنسانُ لم يتخلَّصْ من هذا التعلُّق والارتباط؛ لا وجهَ لرجاء النَّجاة، ففكرُ إزالة هذا المرض لازمٌ للعلماء أولي الألباب، والحكماء ذوي الأبصار:

(ع) وَيَـكْـفِـي مَـنْ لَـهُ فَـهْـمٌ إِشَـــارَةٌ

المَكتُوبُ السَّادِسُ وَالمِائَةُ

إلى محمَّدٍ صادقٍ الكَشْمِيريِّ في بيانِ أنَّ محبَّةَ هذه الطَّائفة المتفرِّعَة على معرفتِهم من أجلِّ نعَمِ اللهِ جلَّ شأنُه.

قد وصل المكتوبُ المرغوبُ المنبئُ عن فرط المحبة وكمال المودَّة، لله سبحانه المنَّةُ على ذلك، فإنَّ محبَّة هذه الطَّائفة - التي هي متفرِّعةٌ على معرفتهم - من أجلِّ نعم الله سبحانه، ويا سعادةَ من يتشرَّفُ بها، قال شيخ الإسلام الهرويُّ قدس سره: إلهي، ما هذا الذي جعلتَ أولياءك على وجه من عرفهم وجدك، وما لم يجدْك لم يعرفْهم؟ وبغضُ هذه الطَّائفة سمٌّ قاتلٌ، والطعنُ فيهم موجبٌ للحرمان الأبديّ، نجَّانا الله سبحانه وإياكم من هذا الابتلاء، وقال شيخُ الإسلام أيضاً: إلهي، كلُّ من أردت سقوطَه؛ فأسقطْه علينا، يعني: أوقعه بغيبتنا وملامتنا: (شعر)

مَنْ لَـمْ يُعِنْـهُ مُـهَـيْـمِنٌ وَخَـوَاصُّــهُ ... الْأَمْرُ فِي خَطَـرٍ وَلَوْ هُوَ مِنْ مَـلَـكِ

وهذه الإنابةُ التي أنعم الله عليك بتجديدها ينبغي لك أن تعتقدها نعمةً عظيمةً، وأن تسأل الله سبحانه الاستقامةَ عليها، والسلامُ على من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى، عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات.

المَكتُوبُ السَّابِعُ وَالمِائَةُ

إلى محمَّد صادِق الكَشْمِيرِيِّ أيضاً في أجوِبَة أسئِلتِه التي كتَبها إليه، وفيه فوائدُ ضروريَّة نافِعة في التَّسليمِ لهذه الطَّائفة.

أسعدنا الله سبحانه بسعادة الإيمان بهذه الطَّائفة. قد وصل الكتابُ الذي أرسلته مشتملاً على أسئلةٍ، والسؤالُ الذي فيه رائحةُ التَّعنُّت والتعصُّب وإن كان لا يستحقُّ الجواب، ولكن نتصدَّى على جوابه على سبيل التنزُّل، فإن لم ينفع شخصاً؛ لعلَّه ينفع آخر.

السؤالُ الأولُ: ما السببُ في كثرة ظهور الكرامات وخوارق العادات من الأولياء المتقدمين، وقلَّة ظهورها من أكابر هذا الزمان؟

فإن كان المقصودُ من هذا السؤال نفيَ أكابر هذا الزمان بواسطة قلَّة ظهور الخوارق منهم كما هو المفهومُ من فحوى العبارة؛ فالعياذُ بالله سبحانه من تسويلات الشيطان، فإنَّ ظهورَ الخوارق ليس من أركان الولاية، ولا من شرائطها، بخلاف المعجزة من النبيّ عليه الصلاة والسلام، فإنَّها من شرائط مقام النبوَّة، ومع ذلك إنَّ ظهورَ الخوارق من أولياء الله تعالى شائعٌ ذائعٌ قلَّما يتخلَّفُ عنهم، ولكنَّ كثرةَ ظهور الخوارق لا تدلُّ على الأفضليّة، فإنَّ التَّفاضلَ هناك باعتبار درجات القرب الإلهيّ جلّ سلطانه، بل يمكن أن يكون ظهورُ الخوارق من الوليّ الأقرب أقلَّ، ومن الأبعد أكثرَ، ألا ترى أنَّ الخوارقَ التي ظهرت من بعض أولياء هذه الأمة لم يظهر عشرُ عشيره من الأصحاب الكرام رضوان الله عليهم أجمعين، مع أنَّ أفضلَ الأولياء لا يبلغ مرتبة أدنى الصَّحابة؟ فالنَّظَر إلى ظهور الخوارق من قصور النظر، ودليلٌ على قصور الاستعداد التقليديّ، والمستحقُّ لقبول فيوض النبوَّة والولاية جماعةٌ غلب فيهم الاستعدادُ التَّقليديُّ على قوتهم النظريَّة، والصِّدِّيقُ الأكبر ﵁ بواسطة قوَّة........

استعداده التقليديّ لم يحتجْ في تصديق النبيّ عليه وعلى آله الصلاة والسلام إلى قولِ (لِمَ) أصلاً، وأبو جهل اللعينُ بواسطة قصور هذا الاستعداد فيه لم يتشرَّفْ بتصديق النبوَّة مع وجود ظهور آياتٍ باهرةٍ، ومعجزاتٍ قاهرةٍ، وقال الله في شأن هؤلاء المنكرين المحرومين: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاؤُكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥] على أنا نقول: إنَّ ظهورَ الخوارق لم يُنْقَلْ من أكثر المتقدِّمين في طول عمرهم أزيدَ من خمسة أو ستة خوارق، حتى إنَّ الجنيدَ سيدَ هذه الطَّائفة لم يُدْرَ هل نقل عنه عشرة خوارق أو لا، ولقد أخبر الله سبحانه عن حال كليمه على نبينا وعليه الصلاة والسلام بقوله عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١] ومن أين يعلم عدمُ ظهور أمثال هذه الخوارق من مشائخ هذا الوقت؟ بل لأولياء الله تعالى -متقدميهم ومتأخريهم- في كلِّ ساعةٍ ظهورُ خوارق، يعرفها المدّعي أم لا: (شعر)

مَا ضَرَّ شَمْسَ الضُّحَى فِي الْأُفْقِ طَالِعَةً   أَنْ لَا يَرَى ضَوْءَها مَنْ لَيْسَ ذَا بَصَرِ

والثاني: أنَّه هل يكون لإلقاء الشَّيطان دخلٌ في كشف الطَّالبين الصَّادقين وشهودهم؟ فإن كان؛ فبماذا يُعْلم ويتضح أنَّه كشفٌ شيطانِيٌّ؟ وإن لم يكن؛ فما السببُ في وجود الغلط في بعض الأمور المُلْهَمَة؟

والجوابُ: الله أعلمُ بالصواب لا أحدَ محفوظٌ من إلقاء الشيطان، كيف وإذا كان ذلك متصوراً في الأنبياء، بل متحقّقاً؟ فبالطَّريق الأَوْلى أن يكون في الأولياء ومن هو الطَّالب الصادق بعد.

غَايةُ ما فِي البابِ: أنَّ الأنبياء ينبّهون على هذا الإلقاء، ويميِّزُ الباطل من الحقّ، قولُه تعالى: ﴿فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ﴾ [الحج: ٥٢] تنبيهٌ دالٌّ على هذا المعنى، وليس هذا التَّنبيهُ بلازمٍ في الأولياء، فإنَّهم تابعون للنبيّ، فكلَّما وجدوه على خلاف ما جاء به النبي يردُّونه ويرون بطلانه، وأما في صورةٍ سكتت عنها الشَّريعةُ، ولم تحكم بإثباتها ونفيها؛ فامتيازُ الحقّ عن الباطل فيها بطريق القطع مشكلٌ، فإنَّ الإلهامَ ظنيٌّ، ولكن لا يتطرَّق القصورُ إلى الولاية بسبب عدم ذلك الامتياز أصلاً، فإنَّ إتيان أحكام الشَّريعة ومتابعة النبي متكفِّلٌ بنجاة الدَّارين، والأمرُ المسكوتُ عنه زائدٌ على الشَّريعة، ونحن لم نكلَّفْ بالأمور الزَّائدة.

ومما ينبغي أن يعلم أنَّ الغلطَ في الكشف غيرُ منحصرٍ في إلقاءٍ شيطانِيٍّ، فإنَّه ربَّما يتخيَّل أحكامٌ غيرُ صادقةٍ في القوة المتخيَّلة لا مدخلَ للشيطان فيها أصلاً.

ومن هذا القبيل: رؤيةُ النبيّ ﷺ في المنام، والأخذ عنه بعض الأحكام مما الحقّ في الحقيقة خلافُ تلك الأحكام، والحالُ أنَّ إلقاءَ الشَّيطان غيرُ متصوَّرٍ في تلك الصورة، فإنَّ مختارَ العلماء أنَّ الشيطانَ لا يتمثل بصورة خير البشر عليه وعلى آله الصلاة والسلام على أيّ صورةٍ يرى، فليس في تلك الصورة إلا تصرُّف المتخيلة بإلقاء غير الواقعيّ واقعياً.

والثالث: إنَّ التصرُّفَ بطريق الكرامة والتصرُّفَ بطريق الاستدراج متساويان في بادي النظر، فكيف يعرف المبتدي أنَّ هذا وليٌّ صاحبُ كرامةٍ وذاك مدَّعٍ كذابٌ صاحبُ استدراجٍ؟

الجوابُ والله أعلم بالصواب: أنَّ الدَّليلَ في هذه التفرقة واضحٌ للطالب المبتدئ، وهو وجدانُه الصحيحُ، فإنَّه إن وجد قلبه مائلاً ومنجذباً إلى الحقّ سبحانه، وحاضراً معه تعالى في صحبته؛ فليعلم أنَّه وليٌّ صاحبُ كرامةٍ، ....

وإن وجد خلافَ ذلك؛ فليتيقَّن أنّه مدعٍ كذابٌ صاحبُ استدراجٍ، فإن كان في ذلك خفاءٌ؛ فإنّما هو بالنِّسبة إلى العوامّ كالأنعام دون الطالبين، والخفاءُ على العوامّ ساقطٌ عن حيِّز الاعتبار عند الخواصّ، فإنَّ منشأهُ مرضُ القلب، وغشاوةُ البصر، وكم من شيءٍ خفيتْ على العوام علمُها أشدُّ ضرورةً من إدراك هذه التّفرقة؟

ولنختم هذا المكتوبَ ببعض المعارف الذي ينفعك في إزالة مثل هذه الشكوك والشبهات:

اعلم أنَّ التخلُّقَ بأخلاق الله الذي هو مأخوذٌ في الولاية - يعني: داخل فيها -: هو أن يحصل للأولياء صفاتٌ مناسبةٌ لصفات الواجب تعالى، ولكن تكون المناسبةُ في الاسم، والمشاركةُ في عموم الصِّفات، لا في خواصّ المعاني، فإنَّ ذلك محالٌ ومستلزمٌ لقلب الحقائق، قال الخواجه محمد پارسا قدس سره في تحقيقاته في مقام بيان (تخلقوا بأخلاق الله): والصفةُ الأخرى الملك، ومعنى الملك: المتصرّف على الكلّ، والسَّالك إن كان متصرّفاً في نفسه، وقادراً على قهرها، وكان تصرُّفُه نافذاً في القلوب؛ يكون موصوفاً بهذه الصفة.

والصفةُ الأخرى: السميعُ، فإن سمعَ السَّالكُ الكلامَ الحقَّ، وقَبِله من كلِّ أحدٍ من غير استنكافٍ، وفَهِم الأسرارَ الغيبيَّة، والحقائقَ اللاريبيَّة بسمع روحه؛ يكون موصوفاً بهذه الصفة. والصفة الأخرى: البصيرُ، فإن كان بصرُ بصيرة سالك الطَّريق بصيراً، ورأى جميعَ عيوب نفسه بنور الفراسة، وشاهَد كمالَ غيره - يعني: اعتقد أنَّ كلَّ أحدٍ أفضلَ منه -، وكان كونُ الحقّ سبحانه بصيراً منظوراً في نظره بحيث يعمل كلّما يعمله على وجهٍ يكون موجباً لقبول الحق سبحانه؛ يكون موصوفاً بهذه الصفة. والصفة الأخرى: المحيي، فإن قام سالكُ الطَّريق بإحياء السُّنَّة المتروكة؛ يكون موصوفاً بهذه الصفة، والصفة الأخرى: المميت، فإن منع السَّالكُ البدعات التي استعملوها مكان السنَّة؛ يكون موصوفاً بهذه الصفة، وعلى هذا القياس سائرُ الصِّفات.

وفهم العوام في معنى (تخلقوا بأخلاق الله) شيئاً آخر، فلا جرم وقعوا في تيه الضلالة، وزعموا أنَّ الوليَّ لا بُدَّ له من إحياء الجسد الميت، وأن ينكشف له أكثرُ المغيبات، وأمثال ذلك، وهو - كما ترى - من الظنون الفاسدة ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

وأيضا إنَّ الخوارقَ غيرُ منحصرةٍ في الإحياء والإماتة، فإنَّ العلومَ والمعارفَ الإلهاميَّةَ من أعظم الآيات، وأرفع الخوارق، ولهذا كان معجز القرآن العظيم أقوى وأبقى من سائر المعجزات.

ينبغي أن يمعن النظرَ من أين تحصل هذه العلومُ والمعارفُ التي تفاض كمطر الربيع، وهذه العلومُ مع كثرتها موافقةٌ للعلوم الشَّرعيَّة بالتمام لا مخالفةَ بينهما مقدارَ شعرةٍ، وهذه الخصوصيَّةُ علامةُ صحَّة العلوم، وقد كتب حضرة شيخنا قدس سره: إنَّ علومَك كلَّها صحيحةٌ، ولكن ما الفائدةُ؟ فإنَّ كلامَ حضرة شيخنا لا يكون حجَّة عليكم، وإن زعمتم أنّكم منقادون إلى الشيخ؟ وماذا نكتب أزيد من ذلك، وأسئلتك هذه وإن كانت ثقيلةً أوّلاً، ولكن لما كانت باعثةً على ظهور هذه العلوم والمعارف؛ كانت حسنةً في الآخر:

(شعر) هيچ زشتى نيست كو را خوبى اى همراه نيست ... زنگيِ شبرنگ را دندان چو دُرّ و گوهر است

(ترجمة): وَمَا مِنْ قَبِيحٍ لَيْسَ فِيهِ مَلَاحَةٌ ... أَلَمْ تَرَ سِنَّ الزِّنْجِ كَالشُّهْبِ فِي الدُّجَى

والعجبُ أنّك أظهرتَ في المكتوب السابق إخلاصاً كثيراً، وزعمت أنَّ سببَه ظهورُ واقعتين متعاقبتين، وكتبت أنَّ أثرهما يوجد في الإقامة أيضاً على حدٍّ تحقَّقت الندامةُ على الوضع السابق بالتمام، وألجأتا إلى التَّوبة والإنابة وتجديد الإيمان، ولم يَمْضِ على ذلك شهرٌ واحدٌ حتى فُهِمَ منك التَّغيُّرُ عن هذا الوضع، وحصل الانتقالُ والتحولُ إلى الوضع السابق برجوع القهقرى حتى صرت في أبدأ وجهٍ لهاتين الواقعتين، ينجرُّ إلى أنّهما كانتا بإلقاء الشيطان أو بغلط الكشف فما ذاك وما هذا؟ (شعر)

تَقُولُ: فُلَانٌ يَفْعَلُ الشَّرَّ قُلْتُ: لَا يَضُرُّ عَلَيْنَا، بَلْ عَلَيْهِ وَبَالُهُ

والسلام على من اتبع الهدى، والتزم متابعةَ المصطفى، عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات.

المكتوبُ الثامنُ والمائةُ

إلى السَّيِّد أحمدَ في بيانِ أنَّ النُّبوَّة أفضلُ منَ الولايةِ، على عكسِ ما قيلَ: إنَّ الولايةَ أفضلُ منَ النُّبوَّة.

ثبتنا الله سبحانه وإياكم وجميع المسلمين على متابعة سيّد المرسلين، عليه وعلى آله من الصلوات أفضلها، ومن التسليمات أكملها.

قال بعضُ المشائخ وقتَ السُّكر: إنَّ الولايةَ أفضلُ من النبوَّة، وأراد بعضهم بهذه الولاية: ولايةَ النبيّ؛ ليرتفع وَهْمُ أفضليّة الوليّ من النبيّ، ولكنَّ الأمرَ على العكس في الحقيقة، فإنَّ نبوَّةَ نبيٍّ أفضلُ من ولايته، وفي الولاية إنّما لا يمكن التَّوجُّهُ إلى الخلق من ضيق الصَّدر، وفي النبوَّة تمامُ انشراح الصدر، بحيث لا يكون التوجُّهُ إلى الحقّ مانعاً من التوجه إلى الخلق، ولا التوجُّهُ إلى الخلق مانعاً من التوجُّه إلى الحقّ سبحانه، وليس التوجُّهُ في النبوَّة إلى الخلق فقط حتى تترجَّحَ الولايةُ بسببه عليها؛ لكون التوجُّه فيها إلى الحقّ، عياذاً بالله سبحانه من هذا الكلام، فإنَّ التوجُّهَ إلى الخلق وحده مرتبة العوام كالأنعام، وشأنُ النبوَّة أعلى وأجلُّ من ذلك، وفهمُ هذا المعنى إن كان عسيراً؛ فإنَّما هو بالنِّسبة إلى أرباب السُّكر، وأما الأكابرُ مستقيموا الأحوال؛ فهم ممتازون بمعرفة ذلك:

(ع) هَنِيئاً لِأَرْبَابِ النَّعِيمِ نَعِيمُهَا

وبقيةُ المقصود: إنَّ الشيخ ميان عبد الله بن الشيخ ميان عبد الرحيم له قرابةٌ قريبةٌ لهذا الفقير، وكان والده ملازماً لبهادر خان مدةً كثيرةً، وله احتياجٌ وهو معذورٌ عاجزٌ عن الكسب لكونه ضريراً، وقد أرسل ابنه ليكون عند بهادر خان، فإن صدرت من ذلك الجانب أيضاً إشارةٌ في هذا الباب؛ لكان حسناً. والسلام.

المكتوبُ التاسعُ والمائةُ

إلى الحكيمِ صَدْر في بيانِ سلامةِ القَلبِ ونسيانِه ما دونَ الحقِّ سبحانَه.

اعلم أنَّ أهلَ الله أطبَّاءُ الأمراض القلبيَّة، وإزالةُ العلل الباطنيَّة منوطةٌ بتوجُّه هؤلاء الأكابر، كلامُهم دواءٌ، ونظرُهم شفاءٌ، «**هُمْ قَوْمٌ لَا يَشْقَى جَلِيسُهُمْ**»، وهم جلساءُ الله، بهم يمطرون، وبهم يرزقون، ورأسُ الأمراض القلبيَّة ورئيس العلل الباطنيَّة: هو تعلُّقُ القلب وارتباطُه بما دون الحقّ سبحانه وتعالى، وما لم يتيسّر التخلُّصُ من هذا التعلّق بالتمام؛ فالسلامةُ محالٌ، فإنَّه لا مجالَ للشّركة في جناب الحقّ جلّ سلطانه، ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، فكيف إذا جُعِلَ الشريكُ غالباً؟ وجعلُ محبَّة غير الحقّ غالبةً على محبَّته تعالى على نهجٍ تكون محبَّتُه تعالى معدومةً في جنبها أو مغلوبةً غايةَ الوقاحة، ونهايةَ عدم الحياء، ولعلَّ المرادَ من الحياء في قوله ....

عليه السلام: «الْحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ» هو هذا الحياءُ، وعلامةُ عدم تعلُّق القلب بما سواه تعالى: نسيانُه إياه بالكلية، وذهولُه عنه جملةً على وجهٍ لو كلِّف بتذكُّر الأشياء لما تذكَّر، فكيف يكون لتعلُّق القلب بالأشياء مجالٌ في ذلك الموطن؟ وهذه الحالةُ معبَّرةٌ عنها عند أهل الله بالفناء، وهو أوَّلُ قدمٍ يوضع في الطَّريقة، ومبدأُ ظهور أنوار القدم، ومنشأُ ورود المعارف والحكم، وبدونها خَرْطُ القتاد.

المكتوبُ العاشرُ والمائةُ

إلى الشَّيخ صدرِ الدِّين في بيانِ أنَّ المقصودَ من خلقِ الإنسانِ: أداءُ وظائف السلوك، وكمالُ الإقبالِ على جنابِ الحقِّ سبحانَه وتعالى.

بلَّغكم الله سبحانه وتعالى إلى منتهى نهاية أرباب الكمال. واعلم أنَّ المقصودَ من خلق الإنسان: هو أداءُ وظائف العبوديَّة، ودوامُ الإقبال على جناب الحقّ سبحانه، وهذا المعنى لا يتيسّرُ بدون التَّحقُّق بكمال اتِّباع سيِّد الأولين والآخرين، عليه من الصلوات أكملها، ومن التحيات أيمنها، ظاهراً وباطناً، رزقنا الله سبحانه وإيَّاكم كمالَ متابعته ﷺ قولاً وفعلاً، ظاهراً وباطناً، عملاً واعتقاداً آمين يا رب العالمين: (شعر)

وَمَا اتَّخَذُوا غَيْرَ الْإِلَهِ فَبَاطِلٌ   فَتَعْسًا لِمَنْ يَخْتَارُ مَا كَانَ بَاطِلَا

وكلُّما هو مطلوبٌ غير الحقّ سبحانه ومقصودٌ؛ فهو معبودٌ، وإنَّما تحصلُ النَّجاةُ من عبادة غير الحقّ سبحانه إذا لم يبقَ غيرَ الحقّ مقصودٌ جلّ وعلا، وإن كان ذلك الغيرُ من المقاصد الأخرويَّة وتنعّمات الجنَّة، فإن المقاصدَ الأخرويَّةَ وإن كانت من الحسنات، لكنَّها عند المقربين من جملة السيئات، فإذا كان حال أمور الآخرة على هذا المنوال؛ ما تقول في الأمور الدنياويَّة؟ فإنَّ الدنيا مبغوضةُ الحقّ سبحانه، بحيث لم يَنْظُرْ إليها منذ خلقها، وحبُّها رأسُ كلِّ خطيئةٍ، وطلَّابُها مستحقون للطرد واللعن: «**الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ وَمَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذِكْرَ اللهِ تَعَالَى**»(١). نجانا الله تعالى من شرها وشرّ ما فيها، بحرمة حبيبه محمد سيد الأولين والآخرين عليه الصلاة والسلام.

المكتوبُ الحادي عشرَ والمائةُ

إلى الشَّيخ أحمد السَّنبَهليِّ في بيانِ أنَّ التَّوحيدَ عبارةٌ عن تخليصِ القلبِ عمَّا دونَ الحقِّ سُبحانَه وتعالى، وما يُناسِبه.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل: ٥٩]. اعلم أنَّ التَّوحيد عبارةٌ عن تخليص القلب عن التوجُّه إلى ما دون الحقّ سبحانه، وما دام القلبُ متعلّقاً بما سواه تعالى - وإن كان أقلَّ قليلٍ - لا يكون صاحبُه من أرباب التَّوحيد، ومجرَّدُ قول التَّوحيد واعتقاد التَّوحيد من الفضول عند أرباب الفضائل. نعم، لا بُدَّ من القول بالتوحيد واعتقاد التَّوحيد الذي هو معتبرٌ في التصديق والإيمان، لكنَّه بمعنىً آخر، والفرقُ بين (لا معبودَ إلا الله) وبين (لا موجودَ إلا الله) بيِّنٌ، وتصديقُ الإيمان علميٌّ، والإدراكُ الوجدانيُّ حالةٌ، والتكلُّمُ به قبل حصول الحال محظور، وتكلُّمُ طائفةٍ من المشائخ في هذا الباب لا يخلو عن أحد أمرين: إما أنَّهم في ذلك معذورون لكونهم تحت غلبة الحال مستورين، أو كان مقصودُهم من كتابة الأحوال وإظهارها: كونَها محكّاً ومعياراً لأحوال غيرهم ليعرفوا بها استقامةَ أحوالهم واعوجاجها، وإلا؛ فإفشاءُ الأسرار بدون حصول هذه الدَّولة ممنوعٌ، جعل الله سبحانه نبذةً من أحوال أرباب الكمال........

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٢٢) وحسنه، وابن ماجه (٤١١٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

نصيباً لأمثالنا المُدْبِرين، ورزقنا الاستقامةَ على متابعة السُّنَّة السنيَّة المصطفويَّة، على مصدرها الصلاة والسلام والتحية، بحرمة النبي وآله الأمجاد، عليه وعليهم الصلوات والتسليمات.

وبقية التَّصديع: إنَّ حاملَ رقيمة الدعاء الشيخ الحافظ ميان عبد الفتاح من أولاد الكبار، وكثيرُ العيال، خصوصاً البنات، واضطرته قلَّةُ أسباب المعيشة إلى أن يوصل نفسَه إلى باب الكرام، والمرجوُّ وصولُه إلى ما قصده ورام، يعني: بيُمْن التفاتكم الخاصّ به والعامّ، والزيادةُ عن ذلك تصديعٌ.

المَكتُوبُ الثَّاني عَشَرَ وَالمِائَة

إلى الشَّيخِ عبدِ الجليل في بيانِ أنَّ المدارَ في التَّحقيقِ على عقائدِ أهلِ السُّنَّة والجماعةِ... إلخ.

حقَّقنا الله سبحانه وتعالى شأنُه وأمثالَنا المفلسين بحقيقة معتقدات أهل الحقّ - يعني: أهل السُّنَّة والجماعة -، وجعل التَّوفيقَ للأعمال المرضيَّة نقدَ الوقت، وأنعم علينا بالأحوال التي هي ثمراتُ هذه الأعمال، وجذبه إلى جناب قدسه بالتَّمام والكمال:

(ع) هَـذَا هُوَ الْأَمْرُ وَالْبَـاقِي مِنَ الْعَبَـثِ

فإنَّ الأحوالَ والمواجيدَ الحاصلةَ بدون التَّحقُّق بمعتقدات هذه الفرقة النَّاجية لا أعدُّها شيئاً سوى الاستدراج، وما أظنُّها غيرَ الخذلان والحرمان، فإن أعطينا مع دولة الاتِّباع لهذه الفرقة النَّاجية شيئاً نكن ممنونين، ونجتهدُ في أداء شكره، وإن أعطينا هذا الاتباع فقط، ولم نُعْطَ الأحوال والمواجيد أصلاً؛ لا نغتمُّ ولا نحزن، بل نرضى به، ونقولُ: هذا أَوْلى وأحسنُ. وما ظهر من بعض المشائخ قدس الله أرواحهم وقتَ غلبة الحال والسُّكر من بعض العلوم والمعارف المنافية لآراء أهل الحق الصائبة لَمّا كان منشؤها كشفاً؛ فهم معذورون في ذلك، ونرجو أن لا يؤاخذوا بذلك يوم القيامة، بل لهم حكمُ المجتهد المخطئ، فيكون له أجرٌ واحدٌ، والحقُّ في جانب علماء أهل الحق شكر الله سعيهم، فإنَّ علومَ العلماء مقتبسةٌ من مشكاة النبوَّة على صاحبها الصلاة والسلام والتحية، المؤيَّدة بالوحي القطعيّ، ومستندُ معارف الصَّوفيَّة: الكشفُ والإلهامُ اللذان للخطأ سبيلٌ فيهما، وعلامةُ صحَّة الكشف والإلهام: مطابقتُهما بعلوم علماء أهل السُّنَّة والجماعة، فإن وقعت المخالفةُ - ولو مقدار شعرةٍ -؛ فخارجٌ من دائرة الصواب. هذا هو العلمُ الصحيحُ، والحقُّ الصريحُ، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢]، رزقنا الله سبحانه وإياكم الاستقامةَ على متابعة سيد المرسلين ظاهراً وباطناً، عملاً واعتقاداً، عليه وعلى آله من الصلوات أكملها، ومن التسليمات أفضلها، والسلام عليكم وعلى من اتبع الهدى.

المَكتُوبُ الثَّالِثَ عَشَرَ وَالمِائَة

إلى جمالِ الدِّينِ حُسَين في بيانِ الفَرقِ بينَ جذبَة المبتدئ وبينَ جذبةِ المُنتَهي، وأنَّ مشهودَ المجذوبينَ في الابتِداءِ ليسَ إلَّا الرُّوحَ التي هيَ فَوقَ مَقامِ القَلبِ، وأنهم يتخيَّلونَ أنَّ ذلك الشُّهودَ شهودُ الحقِّ سبحانَه.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل: ٥٩]. اعلم أنَّ الانجذابَ والانجرارَ لا يكون إلا إلى مقام هو فوق مقام السَّالك، لا إلى ما فوق فوق مقامه، وكذا الحالُ في الشُّهود ونحوه، فليس للمجذوبين الذين لا سلوكَ لهم بعدُ - بل لهم في مقام القلب - انجذابٌ إلى مقام الرُّوح الذي فوق مقام القلب، والانجذابُ الإلهيُّ إنّما هو في جذبة المنتهي التي لا مقامَ فوقها، وأما جذبةُ البداية؛ فليس المشهودُ فيها إلا الرُّوحَ المنفوخَ - يعني: في آدم عليه السلام -، ولَمّا كانت الرُّوح مخلوقةً على صورة أصله...

«إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ» اعتقدوا شهودَ الروح شهودَ الحقّ تعالى وتقدس، وحيث كانت للروح مناسبةٌ قليلةٌ مع عالم الأجسام؛ أطلقوا على ذلك الشُّهود أحياناً شهودَ الأحديَّة في الكثرة، وأحياناً قالوا بالمعيَّة، وشهودُ الحقّ جلّ وعلا لا يتصوَّر بدون حصول الفناء المطلق الذي يتحقّقُ في نهاية السلوك: (شعر)

وَمَنْ لَمْ يَكُنْ فِي حُبِّ مَوْلَاهُ فَانِيـاً   فَلَيْسَ لَـهُ فِـي كِبْرِيَـاهُ سَـبِيـلُ

وليس لهذا الشُّهود مساس بالعلم أصلاً، والفرقُ بين الشُّهودين: أنَّه لو كانت له مناسبةٌ بالعالم بوجهٍ من الوجوه؛ فليس هو شهودَ الحقّ سبحانه، فإن انتفت المناسبةُ أصلاً؛ فهو علامةُ الشُّهود الإلهيّ جلّ وعلا، وإطلاقُ الشُّهود هنا إنّما هو بواسطة ضيق العبارة، وإلا؛ فالنِّسبةُ لا مثليةٌ ولا كيفيةٌ، كالمنتسب إليه (لا يحمل عطايا الملك إلا مطاياه).

المَكْتُوبُ الرَّابِعَ عَشَرَ وَالمِائَةُ

إلى صُوفي قُرْبَان في التَّحريضِ على مُتابعةِ سيِّد المرسَلينَ عليه وعلى آله الصَّلواتُ والتَّسليماتِ.

شرفَّنا الله سبحانه وأمثالنا المفلسين العاجزين المقعدين، بدولة اتِّباع سيد الأولين والآخرين، الذي أبرز كمالاته الأسمائيَّة والصِّفاتية في طُفَيل محبَّته إلى عرصة الظهور، وجعله أفضل جميع الكائنات، عليه من الصلوات أفضلها، ومن التسليمات أكملها، ورزقنا الاستقامةَ عليه، فإنَّ ذرَّةً من هذه المتابعة المرضيَّة أفضلُ من جميع التلذُّذات الدنياويَّة والتنعمات الأخرويَّة بمراتب كثيرةٍ، والفضيلةُ منوطةٌ بمتابعة سنته، والمزيَّةُ مربوطةٌ بإتيان شريعته، عليه وعلى آله الصلاة والسلام والتحية. والنَّومُ في نصف النَّهار مثلاً الواقعُ على وجه هذه المتابعة أفضلُ من إحياء ألوفٍ من اللَّيالي الواقع على غير وجه المتابعة، وكذلك الإفطارُ في يوم عيد الفطر الذي أمرت الشَّريعة به أفضلُ من صيام أبد الآباد الذي لم يُؤْخَذْ من الشَّريعة، وإعطاءُ حبلٍ بأمر الشَّارع أفضل من إنفاق جبلٍ من الذهب من قِبَل نفسه، صلّى عمر ﷺ مرَّةً صلاة الصبح بالجماعة، ثم تفقَّد الأصحاب ﷺ، فلم ير فيهم شخصاً منهم، فسألهم عنه، فقيل: إنَّه يحيي الليالي كلها، ولعلَّ النومَ غلب عليه في هذا الوقت، فقال: لو نام الليلَ كلَّه وصلى صلاة الصبح بجماعةٍ؛ لكان أفضل.

ألا ترى أنَّ أهلَ الضلالة مع ارتكابهم الرياضاتِ الكثيرةَ والمجاهدات الشديدةَ ليس لهم اعتبارٌ أصلاً، بل هم أذلاءُ - يعني: عند الله تعالى -، وذلك لعدم موافقة أعمالهم الشَّريعة الحقَّة؟ فإن ترتب أجر على تلك الأعمال الشَّاقة فهو مقصورٌ على بعض المنافع الدنيويَّة، وما جميعُ الدنيا وكلّها حتى يعتبر بعضها؟

ومَثَلُهم مثل الكناس رياضتُه أزيدُ من رياضة الكلّ، وأجرته أقلُّ من أجرة الكلّ، ومثلُ متابعي الشَّريعة مثلُ جماعةٍ يعملون في الجواهر النفيسة بالماسات اللطيفة، عملهم في نهاية القلَّة، وأجرُهم في غاية الرفعة، حتى إنَّ عمل ساعتهم يساوي أجر مائة ألفٍ، والسرُّ في ذلك: أنَّ العملَ إذا وقع موافقاً للشريعة؛ فهو مرضيّ الحقّ سبحانه، وخلافُها غيرُ مرضيِّه تعالى، فكيف يكون غيرُ المرضيّ محلاً للثواب؟ بل هو موقعٌ للعقاب، والشاهدُ لهذا المعنى في هذا العالم المجازيّ واضحٌ يظهر بأدنى التفاتٍ: (شعر)   كُـلَّـمَـا نَـالَ الْـعَـلِـيـلَ عِـلَّـةٌ   والـذِي مَـالَ الـنَّـبِـيـلَ مِـلَّـةٌ

فرأسُ جميع السَّعادات وأصلُها متابعةُ السُّنَّة، وهيولى جميع الفسادات ومادَّتُها ....

مخالفةُ الشَّريعة، ثبَّتنا الله سبحانه وإياكم على متابعة سيد المرسلين، عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات، والسلام.

المَكْتُوبُ الخَامِسَ عَشَرَ وَالمِائَةُ

إلى الشَّيخ عبد الحقِّ الدِّهْلَوِيِّ في بيانِ أنَّ الطَّريقَ الذي نحنُ في صددِ قطعِه كلَّه سبعةُ أقدامٍ.

(ع) وَأَحْسَــنُ مَـا يُمْلَى حَـدِيـثُ الأَحِبَّـةِ

اعلم أنَّ الطَّريقَ الذي نحن في صدد قطعه سبعةُ أقدامٍ: قدمان في عالم الخلق، وخمسةُ أقدامٍ في عالم الأمر. ففي أوَّلِ قدمٍ توضع في عالم الأمر يظهر التجلِّي الأفعاليّ، وفي الثانية التجلِّي الصِّفاتِيّ، وفي الثَّالثة يقع الشروعُ في التجلِّيات الذاتيّة، ثم وثم على تفاوت درجات الكمالات كما لا يخفى على أربابها، كلُّ ذلك منوطٌ بمتابعة سيِّد الأولين والآخرين، عليه من الصلوات أكملها، ومن التسليمات أفضلها. وما قيل: إنَّ هذا الطَّريق خطوتان؛ فالمرادُ بهما: عالم الخلق وعالم الأمر على سبيل الإجمال تسهيلاً للأمر في نظر الطالبين، وحقيقة الأمر ما حققته بتوفيق الله سبحانه هذا.

المَكْتُوبُ السَّادِسَ عَشَرَ وَالمِائَةُ

إلى الـملَّا عبدِ الواحِدِ اللَّاهورِيِّ في بيانِ أنَّ سلامةَ القَلبِ موقوفةٌ على نسيانِ ما سواه تعالى وزَوالِه منَ القَلبِ بالكلِّيَّة، وفي المَنعِ مِن كثرَةِ الاشتغَالِ بالدُّنيا الدَّنيَّة، لئلَّا تحصلَ الرَّغبةُ فيها.

وصل مكتوبكم المرغوبُ، واتَّضح ما اندرج فيه من بيان سلامة القلب. نعم، إنَّ سلامةَ القلب موقوفةٌ على نسيان الغير وزواله من القلب على حد لو كلف تذكره لا يتذكر، فعلى هذا التقدير لا معنى لخطور الغير، وهذه الحالةُ معبَّرٌ عنها بفناء القلب، وأوَّلُ قدمٍ توضع في هذا الطَّريق، ومبشرةٌ بكمالات مراتب الولاية على تفاوت درجات الاستعدادات. ينبغي للعاقل أن يكون عالي الهمَّة، وأن لا يقنع بالجوز والموز، «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ مَعَالِيَ الْهِمَمِ»[1]، وفي كثرة الاشتغال بأمورٍ دنياويَّةٍ خوفُ الرَّغبة في هذه الأمور الدنيَّة، ولا تغترَّ بهذا القدر من سلامة القلب، فإنَّ للرجوع إمكاناً، فلا ينبغي الإقدامُ على الاشتغالات الدنيويَّة مهما أمكن؛ لئلا تظهر الرغبةُ فيها، فتقع في الخسارة عياذاً بالله سبحانه، الكناسة في الفقر أفضلُ من القعود في صدر المجلس في الغِنَى، ينبغي صرفُ جميع الهمَّة في أن يختار معيشةَ أيامٍ في الفقر والبأس، فِرّ من الغنى وأربابه أكثرَ مما تَفِرُّ من الأسد، والسلام.

المَكْتُوبُ السَّابِعَ عَشَرَ وَالمِائَةُ

إلى الـملَّا يار محمَّدٍ البَدَخْشِيِّ القَديمِ في أنَّ القَلبَ تابعٌ للحِسِّ في الابتِداءِ، ولا تبقَى تلك التَّبعيَّة في الانتهاءِ.

لعل مولانا يار محمد لم ينس أنَّ القلبَ تابعٌ للحسّ مدّةً، فلا جرم كلَّما هو بعيدٌ عن الحسّ يكون بعيداً عن القلب، وحديثُ «مَنْ لَمْ يَمْلِكْ عَيْنَهُ؛ فَلَيْسَ الْقَلْبُ عِنْدَهُ» واردٌ في هذه المرتبة، فإذا لم تَبْقَ تبعيَّةُ القلب للحسّ في نهاية الأمر لا يؤثّر بعد الشّيء عن الحسّ في بُعْده عن القلب، بل يكون الشيءُ قريباً بحسب القلب وإن كان بعيداً بحسب الحسّ، ولهذا لم يجوِّزْ مشائخُ الطَّريقة مفارقةَ المبتدئ والمتوسط صحبةَ الشيخ الكامل المكمل. وبالجملة بحكم (ما لا يدرك كله لا يترك كله) ينبغي أن تكون على هذا الطَّريق، وأن تجتنب عن صحبة غير الجنس على أبلغ الوجوه، وأن تغتنم صحبةَ الشيخ ميان مزمل معتقداً قدومه مقدمة السَّعادة، وكن في صحبته في أكثر الأوقات، ....

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٥٩٢٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٣٣)، والحاكم في «مستدركه» (١٥١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠/ ٧٦٤٦) من حديث سهل بن سعد ﷺ بلفظ: «إن الله كريم يحب الكرم ومعالي الأخلاق، ويبغض سفاسفها». قال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: ٨/ ١٨٨: رجاله ثقات.

https://t.me/kutubhumudatun

فإنَّه عزيزُ الوجود جداً، والسلام.

المكتوب الثامن عشر والمائة

إلى الملّا قاسم عليٍّ البَدَخْشِيِّ في بيانِ خَسارةِ جماعةٍ يعترضونَ على أهلِ الله.

قد وصل الكتاب الذي أرسله محبنا مولانا القاسم عليّ واتَّضح مضمونُه، قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]، وقال الخواجه عبد الله الأنصاريّ: إلهي، إذا أردت أن تهلك أحداً؛ فاطرحه علينا: (شعر)

أَخَافُ عَلَى قَوْمٍ مِنَ الْقَوْمِ يَضْحَكُو نَ أَنْ يُسْلَبَ الْإِيمَانُ عَنْهُمْ وَيُطْرَدُوا

حفظ الله سبحانه كافة المسلمين من إنكار الفقراء والطعن في الدراويش بحرمة سيد البشر عليه وعلى آله الصلاة والسلام.

المكتوب التاسع عشر والمائة

إلى المِير محمَّد نُعمانَ في التَّرغيبِ فِي صُحبَةِ الشَّيخ المُقتَدى به، وبيانِ أنَّ الكُمَلاءَ يجيزونَ بعضَ مريديهمُ النَّاقِصِينَ بتَعليمِ الطَّريقةِ أحياناً بواسِطةِ بعضِ نيَّاتٍ صالحةٍ، وأغراضٍ صحيحةٍ.

وصل المكتوبُ من جانب خدمة المير، هذا الطَّريقُ يناسب له الجنونُ، وقد ورد في الخبر: «**لَنْ يُؤْمِنَ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُقَالَ: إِنَّهُ مَجْنُونٌ**»، فمن كانت به جِنَّةٌ؛ كان فارغاً من تدبير أمور النَّاس والأولاد، وتيسّرت له الجمعيَّةُ من التَّفكُّر في كذا وكذا، وهذا الجنونُ مودعٌ في جبلَّتكم، ولكنكم تدفنونه وتكتمونه بعوارض لا طائل فيها، فماذا نفعل؟ ويفهم في هذا الكسب عدمُ المناسبة جداً، ينبغي أن تداركه سريعاً، وأن ترفع البعدَ الصوريَّ معتقداً عدم الاستطاعة، فإنَّ جمعيَّةَ هذه الطَّائفة وراءَ جمعيَّة سائر الخلق، وأسبابُ جمعيَّة الخلق باعثةٌ على تفرقة هذه الطَّائفة، فينبغي التَّشبُّثُ بأسباب تفرقة الخلق حتى تحصل الجمعيَّةُ، فإن أعطيت هذه الطَّائفةُ جمعيَّةً في جمعيَّة سائر الخلق ينبغي أن يُخافَ منها، وأن يُلتجأ إلى جناب الحقّ سبحانه؛ لئلا تكون تلك الجمعيَّةُ آفةَ الروح، ولا ينبغي القياسُ على أحوال فلان وفلان، فإنَّ قبل التمام كلّه مراتب النقصان على تفاوت درجاتها: (ع) وَلَا تَسْتَقِلَّ صَاحِ فِرَاقَ الْأَحِبَّةِ

وإعطاءُ الإجازة لتعليم الطَّريقة بعض المريدين قبل بلوغ درجة الكمال من عادة مشائخ الطَّريقة، قال الخواجه بهاء الدين النَّقشبند قدس سره لمولانا يعقوب الجرخيّ بعد تعليم الطَّريقة وتسليكه بعضَ المنازل: يا يعقوب، كلُّما وصل منا إليك؛ أوصِلْه إلى الخلق، والحال أنَّه قال له: تكون بعدي في خدمة علاء الدين، واشتغل هو بأكثر أمره في خدمة الخواجه علاء الدين، حتى عدَّه مولانا عبد الرحمن الجامي في «النفحات» في عداد مريدي الخواجه علاء الدين أولاً، ثم نسبه إلى الخواجه النقشبند ثانياً. وبالجملة إنَّ علاجَ هذه التَّفرقة: هو صحبةُ أرباب الجمعيَّة، وقد كتبوا مكرراً ومؤكداً.

وسمعنا أيضاً أنَّ مولانا محمد صديق اختار العسكريَّةَ، وترك وضعَ الفقراء وطورَهم، الويلُ كلَّ الويلِ لمن ينحطُّ من أعلى عليين إلى أسفل سافلين، وحالُه لا يخلو عن أحد الأمرين: إما أن يعطى الجمعيَّةَ في العسكرية أو لا، فإن أعطيها فشرٌّ، وإن لم يعطَ؛ فأشدُّ. ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨] والسلام.

المكتوب العشرون والمائة

إلى المِير محمَّدٍ نعمانَ أيضاً في التَّحريضِ على صحبةِ أربابِ الجمعيَّة.

كأنَّه طرأ النِّسيانُ على المير حتى لا يتذكّر بسلامٍ وتحيّة، الفرصةُ قليلةٌ، وصرفُها إلى أهمّ المهامّ ضروريٌّ، وهو صحبةُ أرباب الجمعيَّة، لا تعدلُ بالصُّحبة شيئاً أيّاً ما كان، ألا ترى أنَّ أصحاب رسول الله ﷺ وبارك فُضِّلوا بالصُّحبة على من عداهم سوى الأنبياء عليهم السلام، وإن كان أويساً قرنياً أو عمراً مروانياً مع بلوغهما نهاية الدَّرجات، ووصولهما غايةَ الكمالات، سوى الصُّحبة، فلا جرم كان خطأُ معاوية خيراً من صوابهما ببركة الصحبة، وسهو عمرو بن العاص أفضلُ من صحوهما؛ لِمَا أنَّ إيمانَ هؤلاء الكبراء صار شهوديّاً برؤية الرسول، وحضور الملك، وشهود الوحي، ومعاينة المعجزات. وما اتَّفق لمن عداهم هذه الكمالات التي هي أصول سائر الكمالات كلِّها، ولو عَلِمَ أويسٌ فضيلةَ الصُّحبة بهذه الخاصيَّة؛ لم يمنعه مانعٌ من الصحبة، وما آثر شيئاً من الأشياء على هذه الفضيلة، ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥]:

(شعر) سكندر را نمى بخشند آبى ... بـه زور و زر ميسّر نيست اين كار

(ترجمة): وَذُو الْقَرْنَيْنِ لَمْ يَظْفَرْ بِمَاءٍ ... بِهِ الْمَحْيَا بِمَالٍ أَوْ بِقُوَّةٍ

اللهم وإن لم تخلقنا في هذه النشأة في قرن هؤلاء الأكابر؛ فاجعلنا في النشأة الآخرة محشورين في زمرتهم، بحرمة سيد المرسلين، عليه وعليهم الصلوات والتحيات والتسليمات، والسلام.

المَكتُوبُ الحَادِي وَالعِشرُونَ وَالمِائَة

إلى المِير محمَّدٍ نُعمانَ أيضاً في بيانِ أنَّ هذا الطَّريقَ تقرَّر كلُّه على سبعةِ أقدامٍ، وأنَّه قد وصلَ بعضُ أصحَابِه إلى القَدمِ السَّادسَة.

ليعلمْ خدمةُ المير بعد مطالعة الدعوات الوافرة أنَّه قد مضت مدَّةٌ ولم يطّلع على أحواله، ولم يستخبرْ عن أحوال فقراء هذه الجهة، لله سبحانه الحمد والمنّة، إنَّ الفقراء مُرَفَّهُوا الأحوال، ولنبيّن نبذةً من أطوارهم.

أيُّها المحب الصادقُ، إنَّ هذا الطَّريقَ تقرَّر كلُّه على سبعة أقدامٍ، وقد أوصل جمعٌ من الإخوان أمرهم إلى ستّة أقدام، والبعضُ الآخر إلى خمسةٍ، وطائفةٌ إلى أربعةٍ، وفرقةٌ إلى ثلاثة على تفاوت درجاتهم، وأصحاب الأقدام الثلاث أيضاً يقدرون إفادة الناس - يعني: الطَّريقة -، فكيف جماعةٌ لهم سبقة القدم.

ينبغي للعاقل أن يكون عالي الهمة دون أن يكتفي بكلّ حقيرٍ ونقيرٍ، ولم يسع الوقتُ الزيادةَ على ذلك، والسلام.

المَكتُوبُ الثَّانِي وَالعِشرُونَ وَالمِائَة

إلى المـلّا طاهرٍ البَدَخْشِيِّ في التَّحريضِ على علوِّ الهمَّة، وعدَم الاكتِفاء بكلِّما يتَيسَّر.

إنَّ مولانا طاهراً معذورٌ، ومولانا يار محمد يبيِّن وجهَ الانتقال، وحيث إنَّ إرادةَ السفر إلى جانب الهند مصممةٌ؛ فليذهب وليستخبر عن الأهل والعيال، (الباقي عند التلاقي) مَثَلٌ مشهورٌ، ودوامُ الحضور والاجتنابُ عن الاختلاط بالأغيار ضروريٌّ، ينبغي أن يكون عالي الهمة دون أن يقنع بكلِّما يتيسّر:

(شعر) ما از پى نورى كه بوَد مشرقِ انوار ... از مغربى و كوكب و مشكات گذشتيم

(ترجمة): وَمِنْ أَجْلِ نُورٍ مُشْرِقٍ كُلَّ أَنْوَرٍ ... تَجَاوَزْتُ مِشْكَاةً وَغَرْباً وَكَوْكَبَا

وأكثرُ فقراء هذا الزمان يقيمون في مقام الريّ والاكتفاء - يعني: بشيء يسير -، فصحبتُهم سمٌّ قاتلٌ، فِرَّ منه كما تفرَّ من الأسد، وكن ملازماً لهذا الطَّريق، وليس للواقعات كثيرُ اعتبارٍ، فإنَّ ميدانَ التأويل واسعٌ، فلا ينبغي الانخداعُ بالمنام والخيال: (شعر) كَيْفَ الْوُصُولُ إِلَى سُعَادَ وَدُونَهَا قُلَلُ الْجِبَالِ وَدُونَهُنَّ خُيُوفُ

والسلام.

المَكْتُوبُ الثَّالِثُ وَالعِشْرُونَ وَالمِائَةُ

إلى المـلّا طاهرِ البَدَخْشِيِّ أيضـاً في بيانِ أنَّ أداءَ النَّفلِ - وإن كَانَ حجّـاً - داخلٌ فيما لا يعني إذا استَلزَم فوتَ فرضٍ منَ الفَرائِض.

قد وصل مكتوب أخي الأرشد، لا زال كأسه طاهراً عن دنس التعلُّقات. أيُّها الأخ، قد ورد في الخبر: «**عَلَامَةُ إِعْرَاضِ اللهِ تَعَالَى عَنِ الْعَبْدِ: اشْتِغَالُهُ بِمَا لَا يَعْنِيهِ**»، والاشتغالُ بنفلٍ من النوافل مع الإعراض عن فرضٍ من الفرائض داخلٌ فيما لا يعني، فلزمك تفتيشُ أحوالك لتعلم أنَّ اشتغالك بأيّ شيءٍ؟ بنفلٍ أو بفرضٍ؟ وكم من محظورٍ يرتكب في أداء الحج النّفل، فينبغي أن تلاحظ ملاحظةً جيدةً. العاقلُ تكفيه الإشارةُ، والسلام عليكم وعلى رفقائكم.

المَكْتُوبُ الرَّابِعُ وَالعِشْرُونَ وَالمِائَةُ

إلى المذكورِ أيضـاً في بيانِ أنَّ الاستِطاعة شرطٌ لوجوبِ الحجِّ، والحج مع عدمِ الاستطاعةِ داخلٌ في تضييعِ الأوقاتِ بالنِّسبةِ إلى تحصيلِ المطلوبِ.

قد وصل مكتوب أخي الخواجه محمد طاهر البدخشي، لله سبحانه الحمد والمنَّة لم يتطرَّقِ الفتورُ إلى إخلاصه للفقراء ومحبَّتهم مع وجود تمادي أيام المهاجرة، وهذه علامةُ سعادةٍ عظيمةٍ.

أيُّها المحبُّ، لَمّا طلبت الإذن - يعني: لسفر الحجّ -، وصمَّمتَ العزمَ للسفر؛ قد ذكرتُك وقت الوداع، أنَّه يحتمل أن ألحقكم في هذا السفر، ولكن كلَّما قصدت لم توافق الاستخاراتُ، ولم يفهم التجويزُ في هذا الباب، فاخترت التقاعدَ بالضَّرورة، ولم يكن في ذهابكم صلاحُ الفقراء من الأوَّل، ولكن لَمّا رأيت شوقكم؛ لم أمنع صريحـاً، والاستطاعةُ شرطُ الدُّخول في الطَّريق - يعني: طريق الحج -، وبدون الاستطاعة تضييعٌ للأوقات، والاشتغالُ بأمرٍ غيرِ ضروريٍّ تاركـاً للأمر الأهمّ ليس بمناسبٍ، وقد كتبتُ إليكم هذا المضمون مكرراً، وصل إليكم أو لا، والقولُ هو هذا، وأنتم المخيَّرُ.

المَكْتُوبُ الخَامِسُ وَالعِشْرُونَ وَالمِائَةُ

إلى المِير صالحِ النيشَابُورِيِّ في بيانِ أنَّ العالمَ كبيرَه وصغيرَه مظاهرُ الأسماءِ والصِّفاتِ الإلهيَّة تعالى شأنُه، وليسَ للعالَمِ نسبةٌ إليه تعالى أصلاً سوَى المخلوقيَّة والمَظهريَّة، وما يناسبُ ذلك.

اللهم أرنا حقائقَ الأشياء كما هي. اعلم أنَّ العالم كلَّه كبيرَه وصغيرَه مظاهرُ الأسماء والصِّفات الإلهيَّة تعالى شأنه، ومرايا شؤوناته وكمالاته الذاتيّة، وكان عزَّ سلطانه كنزاً مخفياً، وسراً مكنوناً، فأراد سبحانه أن يعرض كمالاته من الخلاء إلى الملأ، وأن يوردها من الإجمال إلى التَّفصيل، فخلق الخلقَ على نهجٍ يكون دالّاً بذاته وصفاته على ذاته وصفاته تعالى وتقدس، فليس للعالم نسبةٌ مع صانعه أصلاً إلا أنَّه مخلوقه تعالى، ودالٌّ على أسمائه وشؤوناته تعالى، والحكمُ بالاتِّحاد والعينيَّة، ونسبةُ الإحاطة والسريان والمعيَّة الذاتيّات هناك من غَلَبة الحال وسكر الوقت، والأكابرُ المستقيموا الأحوال الذين لهم شربٌ من قدح الصَّحو لا يُثبتون للعالم..........

نسبةً مع صانعه إلا المخلوقيَّةَ والمظهريَّةَ، ويقولون بالإحاطة والسَّريان والمعيَّة العِلْميّات على طِبْق قول علماء أهل الحقّ شكر الله سعيهم، والعجبُ من بعض الصُّوفية حيث يثبتون بعض النِّسبة الذَّاتيّة كالإحاطة والمعيَّة مثلاً مع اعترافهم بسَلْب جميع النِّسَب عن الذَّات حتى الصِّفات الذاتيّة، فهل هذا إلا تناقض؟ وإثباتُ المراتب في الذات لدفع هذا التناقض تكلّفٌ، مثل التدقيقات الفلسفيّة. وأربابُ الكشف الصَّحيح لا يشهدون الذاتَ إلا بسيطًا حقيقيًّا، ويعدُّون ما ورائه كائنًا ما كان داخلاً في الأسماء: (شعر) وَمَا قَلَّ هِجْرَانُ الْحَبِيبِ وَإِنْ غَدَا قَلِيلاً، وَنِصْفُ الشَّعْرِ فِي الْعَيْنِ ضَائِرُ

ولنبيِّنْ مثالاً لتحقيق هذا المبحث: أراد عالمٌ نحريرٌ متفنِّنٌ مثلاً إظهارَ كمالاته المكنونة وإبرازَها في عرصة الظهور، فأوجد الحروفَ والأصواتِ ليجلو كمالاته في حجاب تلك الحروف والأصوات، ففي تلك الصُّورة لا نسبةَ لتلك الحروف والأصوات الدوالِّ مع تلك المعاني المخزونة إلا أنَّ هذه الحروفَ والأصواتَ مظاهرُ تلك المعاني المخفية، ومرايا الكمالات المخزونة، ولا معنى لأن يقال: إنَّ الحروفَ والأصوات عينُ تلك المعاني المخفيّة، وكذلك الحكمُ بالإحاطة والمعية في هذه الصورة غيرُ مطابقٍ للواقع، بل المعاني على صرافتها المخزونة لم يتطرَّق التغيُّر إليها، لا في ذاتها ولا في صفاتها أصلاً، ولكن لَمّا كان بين تلك المعاني وبين الحروف والأصوات الدالَّة نوعُ مناسبةٍ من الداليّة والمدلوليّة يتخيَّلُ منه بعض المعاني الزَّائدة، وتلك المعاني المخزونةُ منزَّهةٌ ومبرَّأةٌ في الحقيقة عن تلك المعاني الزائدة، وهذا هو معتقدنا في هذه المسألة، وإثباتُ الأمر الزائد على المظهرية والمرآتية من الاتحاد والعينيَّة والإحاطة والمعية من السُّكر وذاته تعالى في الحقيقة معراةٌ عن النِّسبة، ومبرأةٌ عن المناسبة، ما للتراب ورب الأرباب. وبهذا القدر من مناسبة الظَّاهرية والمظهرية يقال بوحدة الوجود أو لا، بل في الواقع وجوداتٌ متعدِّدةٌ، لكن بطريق الأصالة والظليَّة والظَّاهريَّة والمظهريَّة، لا أنَّ[1] الموجود واحدٌ، وما سواه أوهامٌ وخيالاتٌ، فإنَّ هذا المذهبَ بعينه مذهبُ السوفسطائيّ، وإثباتُ الحقيقة في العالم لا يخرجُه من كونه أوهامًا وخيالاتٍ كما هو مقصودُ السوفسطائيّ: (شعر)

وَإِذَا عَرَفْتَهُ أَنْتَ مَنْ هُوَ أَوَّلاً وَنَسَبْتَ نَفْسَكَ نَحْوَ حَضْرَتِهِ الْعُلَى
وَعَلِمْتَ أَنَّكَ ظِلُّ مَنْ يَا مَنْ دَرَى كُنْ فَارِغًا حَيًّا وَمَيْتًا مِنْ مِلَا

المَكْتُوبُ السَّادِسُ وَالعِشْرُونَ وَالمِائَةُ

إلى المِير صالحِ النيشَابُورِيِّ أيضًا في بيانِ أنَّه ينبَغي للطَّالبِ الاهتمامُ في نفي الآلهة الباطلَة آفاقيَّةً كانت أو أنفسيَّةً، وإثبات المعبودِ على الحقِّ، وما يناسبُ ذلك.

أيها السيدُ النقيبُ، ينبغي للطالب الاهتمامُ في نفي الآلهة الباطلة آفاقيّةً كانت أو أنفسيّةً، وكلَّما يدخل في حوصلة الفهم وحيطة الوهم وقت إثبات المعبود بالحق جلّ سلطانه ينبغي أن يدخله تحت النفي أيضًا، وأن يكتفي بموجوديّة المطلوب: (ع) هُوَ الْمَوْجُودُ لَا شَيْءٌ سِوَاهُ

وإن لم يكن مساغٌ للوجود في ذلك الموطن أيضًا، بل ينبغي أن يطلبه من ما وراء الوجود، ولقد أحسن علماءُ أهل السُّنَّة شكر الله سعيهم في قولهم بزيادة وجود الواجب تعالى على ذاته سبحانه، والقول بعينيَّة الوجود مع الذَّات، وعدمُ إثبات شيءٍ وراء الوجود من قصور النظر. قال الشيخ...

(١) هذا القولُ منسوخٌ بما يأتي غير مرَّة أنَّ العالمَ واقعٌ في مرتبة الوهم والخيال، وبيان الفرق بين مذهب السوفسطائيّ وبين مذهب الصوفية، والمعوَّل على ما هنالك، لا على ما هنا. (المعرِّب)

علاء الدَّولة: فوق عالَمِ الوجود عالَمُ الملك الودود، ولَمّا ترقّى هذا الدّرويشُ من مرتبة الوجود؛ كان مغلوبَ الحال أوقاتاً، ووجد نفسه على وجه الذَّوق والوجدان من أرباب التعطيل، ولم يحكمْ بوجود الواجب، فإنَّه كان تَرَكَ الوجودَ في الطَّريق، ولم يَجِدْ للوجود مجالاً في مرتبة الذَّات، وكان إسلامُه في ذلك الوقت تقليديّاً لا تحقيقيّاً. وبالجملة: إنَّ كلَّما يحصل في حوصلة الممكن يكون ممكناً بالطَّريق الأولى، فسبحان من لم يجعل للخلق إلى الله سبيلاً إلا بالعجز عن معرفته، ولا يظننَّ أحدٌ من حصول الفناء في الله والبقاء بالله أنَّ الممكن يصير واجباً، حاشا من ذلك، فإنَّه محالٌ مستلزمٌ لقلب الحقائق، فإذا لم يصر الممكن واجباً؛ لا يكون نصيبُه غيرَ العجز: (شعر)

وَلَا أَحَدٌ يَصْطَادُ عَنْقَاءَ فَاطْرَحِ الْـ ـــفِخَاخَ وَإِلَّا دَامَ فِيكَ الْمَتَاعِبُ

وعلوُّ الهمّة يطلب مطلباً لا يحصل منه شيءٌ، ولا يبدو منه اسمٌ ولا رسمٌ، وطائفةٌ يطلبون شيئاً يجدونه عينهم، ويثبتون له قرباً ومعيّةً: (ع) لِكُلٍّ مِنَ الْإِنْسَانِ شَأْنٌ يَخُصُّهُ

والسلام أولاً وآخراً.

المكتوب السابع والعشرون والمائة

إلى الملّا صفر أحمدَ الرُّوميِّ في بيانِ أنَّ خدمَةَ الوالدَينِ وإن كانت منَ الحسناتِ، ولكنَّها في جَنبِ تَحصيلِ المطلبِ الحقيقيِّ لا شيءٌ محضٌ، وما يناسبُ ذلك.

قد وصل المكتوبُ المرغوبُ، والعذرُ الذي ذكرته في باب التّوقُّف صحيحٌ. ينبغي أن تفعل أزيد مما وقع، وأن تعتقد نفسك مقصّراً، قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، وقال الله سبحانه أيضاً: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]، وينبغي أن تعتقد أنَّ كلَّ ذلك فضولٌ محضٌ في جنب الوصول إلى المطلب الحقيقيّ، بل في جنب طيِّ منازل السلوك أيضاً تعطيلٌ صرفٌ، وقد سمعت: أنَّ حسنات[1] الأبرار سيئات المقربين: (شعر)

كُلُّمَا دُونَ هَوَى الْحَقِّ وَلَوْ أَكْلَ قَنْدٍ فَهُوَ سُمٌّ قَاتِلُ

وحقُّ الله سبحانه مقدَّمٌ على حقوق جميع الخلائق، فإنَّ أداءَ حقوق الخلائق إنّما هو لامتثال أمره تعالى، وإلا؛ لمن يكون مجالُ ترك خدمته، والاشتغالُ بخدمة غيره؟ فخدمةُ الخلائق بهذا السبب من جملة خدمات الحقّ سبحانه وتعالى، ولكنَّ الفرقَ بين خدمةٍ وخدمةٍ كثيرٌ، ألا ترى أنَّ أربابَ الحرث وأصحابَ الزرع كلَّهم في خدمة السُّلطان، ولكن لا مناسبةَ بين خدمتهم وخدمة المقرَّبين، حتى إنَّ إجراءَ اسم الزراعة والحراثة على اللِّسان هناك معصيةٌ، وأجرُ كلِّ أمرٍ على مقدار ذلك الأمر، فأهلُ الحراثة يأخذون درهما واحداً على خدمة يومٍ كاملٍ مع غاية المحنة والمشقَّة، والمقربون يستحقون الألوف على ساعة خدمة الحضور، ومع ذلك لا تعلُّقَ لهم بتلك الألوف، وغايةُ مرامهم إنّما هي قربُ السلطان فحسب؟ شتان ما بينهما. وفرخ حسين موفّق جداً - يعني: للترقّي والاجتهاد -، وليطمئنَّ قلبك من طرفه، ماذا أكتبُ أزيدَ من ذلك؟ والسلام.

المكتوب الثامن والعشرون والمائة

إلى الخواجه مقيمٍ في التَّرغيبِ في علوِّ الهمَّة، وعدمِ الاكتِفاءِ بغيرِ المطلبِ الحقيقيِّ.

إنَّ الخواجه مقيم لا ينسى النَّائين المهجورين، بل يراهم قريباً لا بعيداً، «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»، المسلكُ.........

(١) هو من كلام أبي سعيد الخراز. (المعرِّب)

في غاية الطول، والمطلبُ في كمال الرِّفعة، والهممُ في نهاية النُّقصان، والمنازلُ الوسطانيَّةُ في شبه المطلب كالسّراب، عياذاً بالله سبحانه مِنْ ظنِّ الوسط نهايةً، وغيرِ المقصد مقصداً، وتصوُّر المثاليّ والكيفيّ منزَّهـاً عن المثال والكيف، والتوقُّفِ من الوصول إلى المطلب الحقيقيّ.

ينبغي للعاقل أن يكون عالي الهمَّة، وأن لا يقنع بكلِّما يحصلُ ويتيسّرُ، وأن يطلبَ المطلوبَ مما وراء الوراء، وحصولُ مثل هذه الهمَّة موقوفٌ على توجُّه الشَّيخ المقتدَى به، وتوجُّهه إنَّما يكون على قَدْر إخلاص المريد المقتدي ومحبَّته، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَآءُۚ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

المَكتُوبُ التَّاسِعُ وَالعِشْرُونَ وَالمِائَةُ

إلى السَّيِّد نظامٍ في بيانِ أنَّ جامعيَّةَ الإنسانِ باعثةٌ على تفرقتِه، كما أنَّها سببٌ لجَمعيَّته، كماء نيلٍ؛ ماءٌ للمَحبوبينَ، وبلاءٌ للمَحجوبينَ.

قد وصل المكتوب الشَّريف. اعلم أنَّ الإنسان أجمعُ الموجودات، وله تعلُّقٌ وارتباطٌ بالموجودات المتكثِّرة بواسطة كلِّ جزءٍ من أجزائه، فكانت جامعيَّتُه باعثةً على زيادة بُعْده من جناب قدس الحقّ جلّ سلطانه على بُعْد الكلّ، وتعلُّقاتُه المتعدِّدةُ كانت سبباً لزيادة حرمانه على حرمان ما سواه، فإن جَمَعَ نفسه من هذه التعلُّقات المتشتتة بتوفيق الله عزّ شأنه، ورجع قهقرى؛ فقد فاز فوزاً عظيماً، وإلا؛ فقد ضل ضلالاً بعيداً، فكما أنَّ الإنسانَ أفضلُ الموجودات بواسطة الجامعيَّة؛ كذلك هو شرُّ المخلوقات بواسطة تلك الجامعيَّة، ومرآتُه أتمُّ بواسطة تلك الجامعيَّة، فإن جعل وجهَها نحو العالم؛ فهي أشدُّ تكدُّراً من كلِّ شيءٍ، وإن وجَّه وجهها نحوَ الحقّ سبحانه؛ فأشدُّ صفاءً وإراءةً من كل شيءٍ، وكمالُ حريَّة القلب من هذه التعلُّقات من خواصّ محمد رسول الله ﷺ، ثم بقيَّة الأنبياء، ثم الأولياء على تفاوت درجاتهم، صلوات الله وتسليماته على نبينا وعليهم وعلى أتباعهم أجمعين إلى يوم الدين. رزقنا الله سبحانه وإياكم النجاة من هذه التعلُّقات بحرمة النبي المصطفى الممدوح بقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧]، عليه وعلى آله من الصلوات أتمها، ومن التسليمات أكملها. والزيادةُ على ذلك موجبةٌ للملال، والسلام والإكرام.

المَكتُوبُ الثَّلَاثُونَ وَالمِائَةُ

إلى جمالِ الدِّينِ في بيانِ أن لا اعتبارَ بتَلوِيناتِ الأحوالِ، بَل يَنبَغي تَحصيلُ مطلبٍ منزَّهٍ عنِ الشِّبه والمثالِ.

ليس لتلوينات الأحوال كثيرُ اعتبارٍ، ينبغي عدمُ الالتفات إليها، سواءٌ كان ذهاباً أو مجيئاً، أو تكلّماً أو سماعاً، فإنَّ المقصودَ غيرُ ذلك، وهو مبرّأٌ ومنزَّهٌ عن التكلّم والسَّماع والرُّؤية والشُّهود، وإنَّما يتسلَّى بجوز الحال وموزه أطفالُ الطَّريقة.

ينبغي للعاقل أن يكون عالي الهمَّة، فإنَّ الأمرَ وراءَ ذلك، وكلُّ ذلك منامٌ وخيالٌ، ومن رأى نفسه أنَّه صار سلطاناً في المنام ليس هو في نفس الأمر كذلك، ولكن هذا المنامُ يُورِثُ رجاءً وطمعاً لصاحبه، لا اعتبارَ للوقائع المنامية في الطَّريقة النقشبنديَّة، وهذا البيتُ مسطورٌ في كتبهم العليّة: (شعر)

وَإِنِّي غُلَامُ الشَّـمْسِ أَرْوِي حَـدِيثَهَـا ... وَمَـا لِـي وَلِـلَّـيْـلِ فَـأَرْوِي حَـدِيـثَـهُ

فإن حصل حالٌ من الأحوال أو زَالَ؛ فليس ذلك بمحلٍّ للسُّرور، ولا هذا بموجبٍ للغمّ والانفعال، بل ينبغي أن يكون منتظراً للمقصود المنزَّه عن الكيف والمثال، والسلام.

المَكْتُوبُ الحَادِي وَالثَّلَاثُونَ وَالمِائَةُ

إلى الخواجه محمَّد أشرَف الكَابُلِيِّ في بيانِ علوِّ شأنِ طريقَةِ حضَراتِ خواجَكان قدَّس اللهُ تعالى أسرارَهُم، والشِّكايةِ من جماعةٍ أحدَثوا فيها إحداثاتٍ، واعتقدُوها تكمِلةً لهذه الطَّرِيقَة.

الحمد لله رب العالمين، والصلاةُ والسلامُ على سيد المرسلين وآله الطاهرين. وليعلم أخي الأرشد الخواجه محمد أشرف شرَّفه الله سبحانه بتشريفات أوليائه الكرام أنَّ طريقةَ حضرات خواجكان قدس الله أسرارهم أقربُ الطُّرُق الموصلة، ونهايةُ سائر المشائخ مندرجةٌ في بداية هؤلاء الأكابر، ونسبتُهم فوقَ جميع النِّسَب، كلُّ ذلك[1] المزايا لوجود التزام السُّنَّة السنية في هذه الطَّريقة العليّة، والاجتناب عن البدعة الشنيعة مهما أمكن، فإنَّهم لا يُجَوِّزون العمل بالرخصة وإن وجدوها نافعةً لأمر الباطن في الظَّاهر، ولا يفارقون العملَ بالعزيمة وأن يروها مضرَّةً في السّيرة بحسب الصُّورة، يجعلون الأحوالَ والمواجيدَ تابعةً للأحكام الشَّرعيّة، ويعتقدون أنَّ الأذواقَ والمعارفَ خادمةٌ للعلوم الشَّرعيّة، ولا يُبَدِّلُون جواهر الشَّريعة النَّفيسة مثل الأطفال بجَوْز الوجد ومَوْز الحال، ولا يغترُّون بتُرَّهات جهلة الصوفيَّة، ولا يفتتنون بأباطيلهم، ولا يتركون النُّصوصَ بالفصوص، ولا يلتفتون إلى «الفتوحات المكية» تاركين للفتوحات المدنية، حالُهم على الدَّوام، ووقتُهم مستمرٌّ ومستدامٌ، والتجلِّي الذاتِيّ البرقيُّ الذي هو كالبرق لغيرهم؛ دائمٌ لهؤلاء الأكابر، والحضورُ الذي تَعْقُبه الغيبةُ ساقطٌ عن حيِّز الاعتبار عند هؤلاء الأكابر، ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: ٣٧]، ولكن لا يصلُ فهمُ كلِّ أحدٍ إلى مذاق هؤلاء الأكابر، بل يكاد ينكرُ قاصروا هذه الطَّريقة على بعض كمالاتهم: (شعر)

لَوْ عَابَهُمْ قَاصِرٌ طَعْنًا بِهِمْ سَفَهًا ... بَرِئَتْ سَاحَتُهُمْ عَنْ أَفْحَشِ الْكَلِمِ

نعم قد أحدث بعض متأخّري هذه الطَّريقة إحداثاتٍ فيها، وضيَّع أصلَ سيرة الأكابر، وزعم جمعٌ من مريديه أنَّهم كمَّلوا الطَّريقة بتلك المحدثات، حاشا وكلا، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [الكهف: ٥]، بل هم سعوا في تخريبها وتضييعها، يا أسفاً كلّ الأسف على ما أحدثوا في هذه الطَّريقة بعض بدعٍ لا وجود له في سلاسل أُخَر أصلاً، حيث يصلُّون صلاة التّهجُّد بجماعةٍ، ويجتمع الناسُ من الأطراف والجوانب في ذلك الوقت لصلاة التهجد، ويؤدُّونها بجمعيَّةٍ تامةٍ، وهذا العملُ مكروهٌ كراهةً تحريميّةً، والذين اشترطوا التَّداعي لتحقُّق الكراهة من الفقهاء قيَّدوا جوازَ التَّنفُّل بجماعةٍ بأدائها في ناحية المسجد، واتَّفقوا على تحقُّق الكراهة إن زادوا على ثلاثةٍ. وأيضاً إنَّ هؤلاء المحدثين يعتقدون التهجُّد بهذا الوضع ثلاث عشرة ركعةً، فيصلون اثنتي عشرة ركعةً قائمين، وركعتين قاعدين، زاعمين أنَّ لهما حكم ركعةٍ واحدةٍ، فتكون بها ثلاث عشرة ركعة، وليس الأمرُ كما زعموا، فإنَّ نبينا صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم كان يصلي أحياناً ثلاث عشرة ركعةً، وأحياناً إحدى عشرة ركعةً، وأحياناً تسع ركعاتٍ، وأحياناً سبعاً[2]، والفرديةُ إنّما عرضت للتهجد بصلاة الوتر، لا أنَّه أعطي لركعتي القعود حكمُ ركعة القيام، ومنشأُ أمثال هذا العلم والعمل عدمُ تتبُّع السُّنَّة المصطفويَّة، على صاحبها الصلاة والسلام والتحيةُ، والعجبُ من رَوَاج أمثال هذه المحدثات في بلاد العلماء ومأوى المجتهدين عليهم الرضوان، مع أنَّ أمثالنا الفقراءَ يستفيضون العلوم الإسلاميَّةَ من بركاتهم، والله سبحانه الملهمُ للصواب:

---

(١) كذا في النسخ، ولعل الصواب: (تلك).

(٢) أخرجه البخاري (١١٤٠) ومسلم (٧٣٧) من حديث عائشة ﵂ قالت: (كان النبي ﷺ يصلي من الليل ثلاث عشرة ركعة، منها الوتر، وركعتا الفجر).
وأخرج البخاري (١١٣٩) من حديث عائشة ﵂ أنها سئلت عن صلاة رسول الله ﷺ بالليل، فقالت: (سبع، وتسع، وإحدى عشرة، سوى ركعتي الفجر).
وأما إيتارُه بسبع؛ فأخرج أحمد في «مسنده» (٢٦٤٨٦)، والطبراني في «الكبير» (٢٣/ ٣٧٨) من حديث أم سلمة: (أن رسول الله كان يوتر بسبع وبخمس لا يفصل بينهن بتسليم ولا بكلام).

(شعر) بَثَثْتُ لَدَيْكُمْ مِنْ هُمُومِي وَخِفْتُ أَنْ ... تَمَلُّوا وَإِلَّا فَالْكَلَامُ كَثِيرٌ

والسلام.

المَكْتُوبُ الثَّانِي وَالثَّلَاثُونَ وَالمِائَةُ

إلى الملَّا محمَّدٍ صدِّيقِ البَدَخْشِيِّ في التَّحذيرِ عن صحبَة أربابِ الغنَى، والتَّرغيبِ في صُحبةِ الفقَراءِ.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]. أيها الأخ الظَّاهر، إنَّك مللتَ من صحبة الفقراء، واخترتَ صحبة الأغنياء، ولبئس ما صنعتَ، فإن كانت عينك مغمضةً اليوم؛ ستنكشف غداً، فلا ترى فائدةً غير الندامة، والشرطُ الخبرُ.

أيها المهوسُ: إنَّ حالك لا يخلو من أحد أمرين: إما أن تنال الجمعيَّةَ في مجلس الأغنياء أو لا، فإن تنل؛ فشرٌّ، وإلا؛ فأشدُّ شراً، فإنَّك إن تنلها؛ فهي استدراجٌ، عياذاً بالله سبحانه من ذلك، وإن لم تنل؛ فمصداقُ الحال ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ [الحج: ١١]، كناسةُ الفقراء أفضل من قعود الأغنياء في الصَّدْر، وهذا الكلام يكون معقولاً عندك اليوم أو لا، وأما في الآخرة؛ فسيصير لك معلوماً، ولكنه لا يفيد. وإنَّما أوقعك في هذا البلاء: اشتهاءُ الأطعمة اللَّذيذة، والألبسة الفاخرة، ولم يَفُتِ الأمرُ الآن، فينبغي التفكُّرُ في أصل الأمر، والفرارُ من كلِّما يكون مانعاً عن الحقّ سبحانه، والحذرُ منه معتقداً بأنَّه عدوٌّ، قوله تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤] نصٌّ قاطعٌ. وقد اقتضت رعايةُ حقوق الصحبة أن أنصحك مرةً واحدةً، تعمل بها أو لا، وقد كنت عرفتُ من أوَّل الأمر حين شاهدت فضولياتك أنَّ الاستقامةَ على الفقر عسيرةٌ بهذا الوضع: (شعر)

قَدْ كَانَ مَا خِفْتُ أَنْ يَكُونَا ... إِنَّا إِلَى اللهِ رَاجِعُونَا

والسلام على من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى، عليه وعلى آله من الصلوات أتمها، ومن التسليمات أكملها. وقد كنت متوقِّعاً من فطرتك واستعدادك شيئاً آخر، فأنت رميتَ الجوهرَ النفيسَ في السرقين، إنَّا لله وإنا إليه راجعون.

المَكْتُوبُ الثَّالِثُ وَالثَّلَاثُونَ وَالمِائَةُ

إلى الملَّا محمَّدٍ صدِّيقٍ أيضاً في بيانِ اغتنامِ الفُرصةِ، وعدمِ تضييعِ الوَقتِ.

قد وصل المكتوبُ الذي أرسلتَهُ. ينبغي اغتنامُ الفرصة، وعدمُ تضييع الوقت، ولا يحصل شيءٌ من الرُّسوم والعادات، ولا يزيد شيءٌ من التمحّل والتعلل غيرَ الخسارة، وقد قال المخبر الصادق عليه من الصلوات أتمها ومن التسليمات أكملها: «**هَلَكَ الْمُسَوِّفُونَ**». وصرفُ نقد العمر المحقَّق الموجود إلى الأمر الموهوم وحفظ الموهوم للموجود مستكرهٌ جداً، فإنَّ نقدَ الوقت ينبغي أن يصرفَ في الأمر الأهمّ، والنسبةُ تستدعي أن تدخر لِمَا لا يعني من المزخرفات، رزقنا الله سبحانه ذرَّةً من لذّة الطلب وعدم القرار والسكونة، حتى تتيسّر النجاةُ من السكون إلى ما سواه تعالى، ولا حاصلَ في القيل والقال، وإنَّما المطلوبُ: سلامةُ القلب. ينبغي الفكرُ في الأصل، والإعراضُ عما لا يعني بالتمام: (شعر)

كُلُّمَا دُونَ هَوَى الْحَقِّ وَلَوْ ... أَكْلَ قَنْدٍ فَهُوَ سُمٌّ قَاتِلُ

﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [النور: ٥٤].

المكتوب الرابع والثلاثون والمائة

إلى الـملّا محمَّدٍ صدِّيقٍ أيضـًا في المنعِ عنِ التَّسويفِ.

رزقنا الله سبحانه وإياكم عُرُوجاتٍ غيرَ متناهيةٍ في مدارج قربه، بحرمة سيد المرسلين عليه وعلى آله الصلوات والتَّسليماتُ. أيها المحبُّ، إنَّ الوقتَ سيفٌ قاطعٌ، ولا يدرى أنه هل تعطى الفرصةَ غداً أو لا؟ فينبغي تقديم الأهمّ في هذا اليوم، وتأخيرُ غير الأهمّ إلى غدٍ، وهذا حكمُ العقل ومقتضاه. ولا أريد بالعقل عقلَ المعاش، بل عقلَ المعاد، وماذا أكتب أزيد من ذلك؟

المكتوب الخامس والثلاثون والمائة

إلى المُخلصِ الصَّديقِ محمَّدٍ صدِّيقٍ في بيانِ مراتبِ الولايةِ عامَّةً كانت أو خاصَّةً، مع بعضِ خواصِّ الخاصَّة.

اعلم أنَّ الولايةَ عبارةٌ عن الفناء والبقاء، وهي إما عامةٌ وإما خاصةٌ، ونعني بالعامّة: مطلق الولاية، وبالخاصّة: الولاية المحمديَّة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام والتحية، الفناءُ فيها أتمُّ، والبقاءُ أكملُ، ومن شُرِّفَ بهذه النِّعمة العظمى؛ فقد لان جلدُه للطَّاعة، وانشرح صدرُه للإسلام، واطمأنَّت نفسه، فرضيتْ عن مولاها، ورضي مولاها عنها، وسلَّم قلبه لمقلِّبه، وتخلَّصتْ روحُه كليّة إلى مكاشفات حضرة صفات اللاهوت، وشاهد سرّه مع ملاحظة الشُّؤون والاعتبارات، وفي هذا المقام شرّف بالتجلّيات الذاتيّة البرقيّة، وتحيّر خفيُّه لكمال التنزُّه والتقدُّس والكبرياء، واتَّصل أخفاه اتِّصالاً بلا تكيُّف وضربٍ من المثال، هذا:

(ع) هَنِيئـًا لِأَرْبَابِ النَّعِيمِ نَعِيمُهَا

ومما ينبغي أن يعلم: أنَّ الولايةَ الخاصَّة المحمديَّة على صاحبها الصلاة والسلام والتحية متميِّزةٌ عن سائر مراتب الولاية في طَرَف العروج والنزول، أما في طرف العروج؛ فلأنَّ فناءَ الأخفى وبقائه مختصَّان بتلك الولاية الخاصَّة، وعروجُ سائر الولايات إلى الخفيّ فقط مع تفاوت درجاتها، يعني: أنَّ عروجَ بعض أرباب الولايات إلى مقام الروح، وعروجَ البعض إلى السرّ، وعروجَ البعض الآخر إلى الخفيّ، وهو أقصى درجات الولاية العامّة، وأما في طرف النزول؛ فلأنَّ لأجساد الأولياء المحمديَّة عليه وعلى آله الصلاة والسلام والتحية نصيباً من كمالات درجات تلك الولاية؛ لِمَا أنه ﷺ أسري به ليلة المعراج بالجسد[1] إلى ما شاء الله وعرض عليه الجنةُ والنارُ، وأوحي إليه ما أوحي، وشرّف[2] ثمَّةَ بالرُّؤية البصريَّة، وهذا القسمُ من المعراج مخصوصٌ به عليه الصلاة والسلام، والأولياء المتابعون له كمالَ المتابعة السَّالكون تحت قدمه لهم أيضـًا نصيبٌ من هذه المرتبة المخصوصة:

(ع) هَنِيئـًا لِأَرْبَابِ النَّعِيمِ نَعِيمُهَا

غَايةُ ما فِي البابِ: أنَّ وقوعَ الرُّؤية في الدنيا مخصوصٌ به عليه الصلاة والسلام، والحالةُ التي حصلت للأولياء الذين تحت قدمه ليست برؤيةٍ، والفرقُ بين الرؤية وتلك الحالة كالفرق بين الأصل والفرع، والشَّخص والظلّ، وليس أحدهما عينَ الآخر.

المكتوب السادس والثلاثون والمائة

إلى الـملّا محمَّدٍ صدِّيقٍ أيضـًا في المَنعِ عنِ التَّسويفِ، والتَّأخيرِ في تحصيلِ المَطلوبِ الحقيقيِّ.

وصل المكتوبُ المرغوبُ، وحيث إنَّ القاصدَ وصل في أواخر العشر المتبرّك؛ كنت بعد مضيّه مشغولاً بكتابة جوابات المكاتيب، وقد كتب جواب مكتوب خان خانان ومكتوب الخواجه عبد الله أيضـًا، وأرسلا إليهما، ينبغي مطالعتهما بالملاحظة، وذهابك إلى العسكر في..

(١) قال علي القاري: والحقُّ الذي عليه أكثرُ الناس ومعظمُ السلف وعامة المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلِّمين: أنه أسري بجسده، فمن طالعها وبحث عنها لا يعدل عن الظاهر، ولا استحالة في حملها على ظاهرها حتى يحتاج إلى التأويل. (المعرِّب)

(٢) هذا أيضـًا ما عليه الجمهورُ من المحققين، وفي «مسند الإمام أحمد»: أُرِيَه في اليقظة بعينه، ولو كان في المنام لما أنكرتْ قريشٌ، ولا ارتدَّت جماعةٌ. انتهى. قلت: التعليل بهذا أَوْلى؛ لكون المعراج بالجسد، فإنَّ استبعادهم إياه أكثرُ من استبعاد رؤية الله تعالى بالبصر كما لا يخفى من حالهم وجهلهم بالله. (المعرِّب)

هذه النوبة ليس بمعقولٍ للفقير، وما الحكمةُ فيه؟ والأمر عند الله سبحانه ينبغي الملاحظة، فإنَّ الله سبحانه قد أعطاك قوت اليوم من كمال كرمه، فاللائق بك التفكُّرُ في أمرك مغتنماً ذلك، دون أن تجعله وسيلةً إلى تحصيل قوت يومٍ آخر، فإنَّ الأمرَ ينجرُّ حينئذٍ إلى التسلسل، وطولُ الأمل كفرٌ في طريق الفقر، والتخلُّصُ من معاملة القرض لا يدرى أنه يحصل من طرف خواجكي أو لا، فإن كان فيه اشتباهٌ؛ فاكتب إلى خواجكي كتاباً منقحاً صريحاً، فإن كتب في جوابه منقّحاً، وفهم منه الوعدُ المؤكَّدُ؛ فاذهب بهذه النيَّة، ولكن ماذا يكون علاجُ التَّسويف والتَّأخير؟ وكلُّ شيءٍ تختاره وتفعله ينبغي لك أن تستعجل فيه، فإنَّ الفرصةَ غنيمةٌ جداً.

المَكْتُوبُ السَّابِعُ وَالثَّلَاثُونَ وَالمِائَةُ

إلى الحاجِّ خضرِ الأفغانيِّ في بيانِ علوِّ شأنِ الصَّلاةِ المَنوطِ كمالُها بالوُصولِ إلى نهايةِ النِّهايةِ، وما يُناسبُ ذلك.

وصل المكتوبُ المرغوبُ، واتَّضح ما فيه. اعلم أنَّ الالتذاذَ بالعبادة وارتفاعَ الكلفة في أدائها من أجلِّ نعم الله سبحانه وتعالى، خصوصاً في أداء الصلاة، فإنَّه لا يتيسّر فيها لغير المنتهي، خصوصاً في أداء الصَّلوات الفرضيَّة، فإنَّ الابتداءَ لا التذاذَ فيه إلا بالنوافل، وأما في النهاية؛ فتكون تلك النِّسبةُ منوطةً بالفرائض، ويرى فيها الاشتغالَ بالنوافل تعطيلاً، والأمرُ العظيمُ للمنتهي: هو أداءُ الفرائض فقط:

(ع) وَهَذِي سَعَادَاتٌ تَكُونُ نَصِيبَ مَنْ

وينبغي أن يعلم أنَّ الالتذاذَ الذي يحصل حين أداء الصلاة لا حَظَّ للنفس فيه أصلاً، بل هي عينُ ذلك الالتذاذ في البكاء والحزن، سبحان الله أيُّ رتبةٍ هذا؟

(ع) هَنِيئاً لِأَرْبَابِ النَّعِيمِ نَعِيمُهَا

والتكلّمُ بمثل هذا الكلام وسماعُنا إياه أيضاً غنيمةٌ لأمثالنا المهووسين:

(ع) دَعُونَا نُسَلِّي بِالْأَمَانِي قُلُوبَنَا

واعلم أيضاً أنَّ رتبةَ الصَّلاة مثلُ رتبة الرُّؤية في الآخرة، فنهايةُ القرب في الدُّنيا إنّما هي في الصَّلاة، ونهايةُ القرب في الآخرة في عين الرؤية، وأيضاً إنَّ سائرَ العبادات وسائلُ للصلاة، والصلاةُ من المقاصد، والسلام والإكرام.

المَكْتُوبُ الثَّامِنُ وَالثَّلَاثُونَ وَالمِائَةُ

إلى الشَّيخ بهاءِ الدِّينِ السَّرْهَنديِّ في مذمَّةِ الدُّنيا، والتَّحذيرِ من صحبةِ أربابِها.

لا يكونن ولدي الأرشد مغروراً ومسروراً بهذه الدنيّة المبغوض عليها، ولا يضيعنّ بضاعة الإقبال إلى جناب قدس الحقّ جلّ سلطانه، ينبغي التفكُّر أيُّ شيءٍ يباعُ، وأيُّ شيءٍ يشترى. تبديلُ الآخرة بالدنيا والامتناعُ من طلب الحقّ بالخلق من السَّفاهة والجهالة، والجمعُ بين الدُّنيا والآخرة من قبيل الجمع بين الأضداد:

(ع) مَا أَحْسَنَ الدِّينَ وَالدُّنْيَا لَوِ اجْتَمَعَا

فاختر أيّاً شئت من هذين الضدين، وبع نفسك من أيهما شئت، عذابُ الآخرة أبديٌّ، ومتاعُ الدنيا قليلٌ، والدنيا مبغوضٌ عليها عند الحقّ سبحانه، والآخرةُ مرضيَّةٌ له تعالى وتقدس.

عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ وَالْزَمْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُ

ولا بدَّ من ترك العيال والأولاد أخيراً، وتفويضهم إلى الحق سبحانه، فينبغي لك أن تحسب نفسك اليوم ميتاً، وأن تفوِّضَهم إلى الله تعالى، ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ﴾ [التغابن: ١٤] نصٌّ قاطعٌ، وقد سمعت مكرراً أنَّ نومَ الأرنب - يعني: الغفلةَ والغرورَ - إلى متى يمتد، فلا بدَّ من التنبُّه والتيقُّظ.

واعلم أنَّ صحبةَ أهل الدُّنيا والاختلاطَ بهم سمٌّ قاتلٌ، وقتيلُ هذا السمّ ميتٌ بالموت الأبديّ، العاقلُ تكفيه الإشارةُ..

فكيف التَّصريحُ مع هذه المبالغة والتَّأكيد، وطعامُ الملوك وإن كان لذيذاً، ولكنَّه يزيد مرضَ القلب، فكيف يُرجَى الفلاحُ والنجاةُ؟ الحذرَ الحذرَ الحذرَ: (شعر)

وَمَا هُوَ مِنْ شَرْطِ الْبَلَاغِ أَقُولُهُ ... فَخُذْ مِنْهُ نُصْحاً خَالِصاً أَوْ مَلَالَةَ

فِرّ من صحبتهم أكثرَ مما تفرُّ من الأسد، فإنَّ الفرارَ منهم وإن أوجب الموتَ الدنيويَّ، ولكنَّه قد يفيد في الآخرة، واختلاطُ الملوك يوجِبُ الهلاكَ الأبديَّ، والخسارَ السرمديّ، فإياك وصحبتهم، وإياك ولقمتهم، وإياك ومحبَّتَهم، وإياك ورؤيَتَهم، وقد ورد في الخبر الصَّحيح: «مَنْ تَوَاضَعَ لِغَنِيٍّ لِغِنَاهُ ذَهَبَ ثُلُثَا دِينِهِ»، فينبغي لك الملاحظةُ أنَّ كلَّ ذلك التواضع والملاينة هل هو من جهة غناهم أو من جهة شيءٍ آخر؟ ولا شك في أنَّه من جهة غناهم، ونتيجتُه ذهابُ ثلثي الدين، فأين أنت من الإسلام؟ وأين أنت من النجاة؟ وكلُّ هذه المبالغة والإبرام ليعلم ولدي أنَّ لقمةَ غير الجنس وصحبتَهم تحجبُ قلبَه عن تذكُّر المواعظ وتعقُّل النَّصائح، فلا يكاد يتأثَّر من الكلمة والكلام، فالحذرَ الحذرَ من صحبتهم، والحذرَ الحذرَ من رؤيتهم، والله سبحانه الموفِّق، نجانا الله وإياكم عما لا يرضى عنه ربنا المتعالي، بحرمة سيد البشر الممدوح بـ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾ [النجم: ١٧]، عليه وعلى آله من الصلوات أفضلها، ومن التسليمات أكملها. والسلام.

المكتوب التاسع والثلاثون والمائة

إلى جعفَر بيگ التَّهاني في بيانِ جَوازِ هجوِ جماعةِ السُّفهاءِ الذينَ يطعَنونَ في أهلِ اللهِ، وفي استِحسانِ ذمِّهم.

قد شرف المكتوبُ الشَّريفُ بوروده، سلمكم الله سبحانه وتعالى حيث تتفقدون أحوالَ الفقراء، وتعتقدون أنَّ الحضورَ والغيبةَ سيّان. أيُّها المخدومُ، إنَّ كفارَ قريش لَمّا بالغوا في هَجْو أهل الإسلام وسبّهم من غاية خذلانهم وكمال حرمانهم عن السَّعادة؛ أمر النبيُّ عليه وعلى آله الصلاة والسلام بعضَ الشُّعراء الإسلاميَّة بهجو الكفار الأشرار[1]، فكان الشاعرُ المأمورُ يصعد المنبرَ في حضور النبي عليه وعلى آله من الصلوات أفضلها، ومن التسليمات أكملها، ويهجو الكفَّارَ في ملأٍ بإنشاد الأشعار، وكان النبي ﷺ يقول: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ مَعَهُ مَا دَامَ يَهْجُو الْكُفَّارَ»[2]. واعلم أنَّ الملامةَ وإيذاءَ الخلق من مغتنمات أرباب العشق، اللهم اجعلنا منهم بحرمة سيد المرسلين عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات.

المكتوب الأربعون والمائة

إلى الملَّا محمَّدٍ معصومٍ الكَابُليِّ في بيانِ أنَّ الألمَ والمحنةَ من لوازمِ المحبَّة. اهـ.

أيُّها المحبُّ، إنَّ الألمَ والمحنةَ من لوازم المحبة، ولا بُدَّ من الألم والغمّ لمن اختار الفقرَ: (شعر)

أَلَا إِنَّ قَصْدِي مِنْ هَوَاكَ التَّأَلُّمُ ... وَإِلَّا فَأَسْبَابُ التَّنَعُّمِ وَافِرَهْ

والمحبوبُ يريد وَلَهَ المحبّ به، وعدم سكونه إلى من سواه؛ ليحصل الانقطاعُ عن غيره بالكليَّة، والاطمئنانُ هنا في عدم الاطمئنان، واللذَّةُ في الحرقة، والقرارُ في عدم القرار، والراحةُ في الجراحة، وطلبُ الفراغة في هذا المقام إلقاءُ نفسك إلى الفتنة، ينبغي تفويضُ نفسك إلى المحبوب بالتمام، وأن يرضى بكلِّما يجيء منه، وأن يقبله من غير إعراضٍ واعتراضٍ، وهذا الوضع هو طريقُ المعيشة، وعليك بالاجتهاد في تحصيل الاستقامة بقدر الوسع والطاقة، وإلا؛ فالفتورُ في القفا. وقد كان اشتغالك جيداً، ولكنَّها ضعفتْ قبل حصول القوَّة، ولكن لا بأس فيه، ولا هو مما يُغتمُّ به، فإنَّك لو تشبَّثت بأسباب الجمعيَّة من هذه التردُّدات يكون أحسنَ من الأول، ينبغي لك أن تعتقد أنَّ أسبابَ هذه التَّفرقة هي عين أسباب الجمعيَّة حتى تقدر أن تعمل شيئاً، والسلام.

---

(١) ورد ذلك في أحاديث كثيرةٍ، منها: ما أخرجه البخاري (٣٢١٣)، ومسلم (٢٤٨٦) من حديث البراء رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لحسان: «اهجهم -أو هاجهم- وجبريل معك». وأخرج مسلم (٢٤٩٠) من حديث عائشة مرفوعاً: «اهجوا قريشاً، فإنه أشد عليها من رشقٍ بالنبل»، فأرسل إلى ابن رواحة، فقال: «اهجهم»، فهجاهم، فلم يرض، فأرسل إلى كعب بن مالك، ثم أرسل إلى حسن بن ثابت... الحديث.

(٢) أخرجه أبو داود (٥٠١٥) واللفظ له، والترمذي (٢٨٤٦) من حديث عائشة رضي الله عنها، ولفظه: «إن روح القدس مع حسان ما نافح عن رسول الله ﷺ»، قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

المكتوب الحادي والأربعون والمائة

إلى الـملّا محمَّدٍ قِلِيج في بيانِ أنَّ العُمدةَ في هذا الأمرِ: المحبَّة والإخلاصُ.

أنعم الله سبحانه وتعالى علينا وعليكم بالترقِّيات بحرمة سيد المرسلين عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات. أيُها المحبُّ، إنَّكَ لا تكتبُ من أحوال القلب شيئاً في بعض الأحيان حتى نطّلع على كيفيته، ولا بُدَّ لك من كتابة شيءٍ من هذا الباب أيضاً ألبتّة، فإنَّه موجبٌ للتوجُّه الغائبيّ، وعمدةُ هذا الأمر هي المحبّةُ والإخلاصُ، ولا غَمّ إن لم يفهم الترقِّي، فإنَّه إذا بقيت الاستقامةُ على الإخلاص؛ تيسّر أمورُ سنين في ساعاتٍ. والسلام.

المكتوب الثاني والأربعون والمائة

إلى الـملّا عبدِ الغفورِ السَّمَرقَنْدِيِّ في بيانِ استِكثارِ قليلٍ من نِسبَة الأكابر.

وصل المكتوب الشّريف الذي أرسلته على وجه الالتفات، ينبغي أن يعدّ محبّةَ الفقراء من أجلّ نعم الله تعالى، والمسؤولُ من الحقّ سبحانه، والمرجوُّ منه تعالى الاستقامةُ عليها، ووصلت الهديةُ المرسلةُ إلى الفقراء أيضاً، وقرأ فاتحة السَّلامة والطَّريقة التي أخذتها، ووصلت منها نسبة كثيرة لم يذكر شيءٌ من هذه المقولة، معاذ الله من تطرُّق الفتور إليها:

(شعر) قَدْ فَاقَ وَصْـلَ الْغَوَانِي مُدَّةَ الْعُمْرِ   خَيَالُـهُ طَرْفَـةُ الْعَيْنِ لَـدَى نَظَرِي

فإن حصل شيءٌ من نسبة هؤلاء الأكابر؛ ينبغي أن تستكثره، فإنَّه ليس بقليلٍ؛ لأنَّ نهايةَ الآخرين مندرجةٌ في بدايتهم:

(ع) وَقِسْ مِنْ حَالِ بُسْـتَـانِي رَبِيعِي

ولكن ينبغي أن لا تغتمَّ من هذا الفتور إذا كانت محبّةُ حَمَلَة هذه النِّسبة قوية. وقد أُرْسِل الثوبُ الذي كان ملبوساً مكرّراً، فالبسه أحياناً، واحفظه بكمال الأدب، فإنَّه يتوقَّعُ منه فوائد كثيرةٌ، وكلّما تلبسه تلبسُه على الوضوء، وتشتغل بتكرار الذكر، فعسى أن تحصل الجمعيَّةُ التامةُ. وكلّما كتبت شيئاً ينبغي لك أن تكتبَ أوّلاً من أحوال باطنك، فإنَّ أحوالَ الظَّاهر بدون أحوال الباطن ساقطةٌ عن حيِّز الاعتبار:

(ع) وَأَحْسَـنُ مَـا يُمْلَى حَـدِيثُ الأَحِبَّـةِ

ثبتنا الله سبحانه وإياكم على متابعة سيد البشر المطهر عن زيغ البصر، عليه وعلى آله الصلاة والسلام ظاهراً وباطناً:

(ع) هَـذَا هُوَ الأَمْرُ وَالْبَـاقِي مِنَ الْعَبَـثِ

المكتوب الثالث والأربعون والمائة

إلى الـملّا شمسِ الدِّين في بيانِ اغتِنام مَوسمِ الشَّبابِ، وعدمِ صَرفِه إلى ما لا يعني منَ اللَّهوِ واللَّعبِ.

كان محبُّ الفقراء مولانا شمس الدين موفّقاً ومغتنماً لموسم الشباب، ممتنعاً من صرفه في اللهو واللعب، وتعويضه بالجوز والموز، وإلا؛ لا يحصل شيءٌ أخيراً غير النَّدامة والتأسف، ولا يُجْدِي شيئاً، والشَّرطُ الإخبارُ. وينبغي أداءُ الصلوات الخمس بالجماعة، وتمييزُ الحلال من الحرام، وطريقُ النجاة الأخرويَّة: هو متابعة صاحب الشَّريعة عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات، وينبغي أن لا تكون التلذُّذاتُ الفانيةُ والتنعماتُ الهالكةُ منظوراً إليها، والله سبحانه الموفقُ للخيرات.

المكتوب الرابع والأربعون والمائة

إلى الحافِظ محمودِ اللَّاهوريِّ في بيانِ معنى السَّيرِ والسُّلوكِ، وبيانِ السَّيرِ إلى اللهِ، والسَّيرِ في اللهِ، والسَّيرَينِ الآخَرَينِ.

رزقكم الله سبحانه ترقِّياتٍ غير متناهيةٍ في مدارج الكمالات، بحرمة سيد البشر، المطهر عن زيغ البصر، عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات: (ع) وَأَحْسَـنُ مَـا يُمْلَى حَـدِيـثُ الأَحِبَّـةِ

اعلم أن السَّيرَ والسلوكَ عبارةٌ عن الحركة العلميَّة التي هي من مقولة الكيف، ولا مجالَ هنا للحركة الأينيَّة، فالسيرُ إلى الله عبارةٌ عن الحركة العلميَّة ذاهباً من العلم الأدنى إلى العلم الأعلى، ومن هذا إلى أعلى آخرَ، وهكذا إلى أن تنتهي إلى علم الواجب تعالى بعد طيِّ علوم الممكنات كلِّها وزوالها بأسرها، وهذه الحالةُ هي المعبَّرُ عنها بالفناء، والسَّيرُ في الله عبارةٌ عن الحركة العلميَّة في مراتب الوجوب من الأسماء والصِّفات والشؤون والاعتبارات والتقديسات والتَّنزيهات، إلى أن تنتهي إلى مرتبةٍ لا يمكن التَّعبيرُ عنها بعبارةٍ، ولا يشار إليها بإشارةٍ، ولا تسمّى باسمٍ، ولا يُكْنَى عنها بكنايةٍ، ولا يعلمها عالمٌ، ولا يدركها مدركٌ، وهذا السَّيرُ يسمّى بالبقاء. والسيرُ عن الله بالله الذي هو السَّيرُ الثالثُ أيضاً عبارةٌ عن الحركة العلميّة نازلاً من العلم الأعلى إلى العلم الأدنى، ومن الأدنى إلى الأدنى، وهكذا إلى أن يرجع إلى الممكنات رجوعَ القهقرى، وينزل من علوم مراتب الوجوب كلّها، وهو العارفُ الذي نسي اللهَ بالله، ورجع عن الله مع الله، وهو الواجدُ الفاقدُ، والواصلُ المهجورُ، وهو القريبُ البعيدُ. والسيرُ الرابعُ الذي هو السَّير في الأشياء عبارةٌ عن حصول علوم الأشياء شيئاً فشيئاً بعد زوال تلك العلوم كلِّها في السَّير الأول.

فالسيرُ الرابعُ مقابلٌ للسير الأوَّل، والسيرُ الثالثُ للثَّاني كما ترى، والسيرُ إلى الله والسيرُ في الله لتحصيل نفس الولاية التي هي عبارةٌ عن الفناء والبقاء، والسيرُ الثالثُ والرابعُ لحصول مقام الدَّعوة الذي هو مخصوصٌ بالأنبياء المرسلين صلوات الله وتسليماته على جميعهم عموماً، وعلى أفضلهم خصوصاً. وللمتابعين الكاملين أيضاً نصيبٌ من مقام هؤلاء الأكابر عليهم السلام، ﴿قُلْ هٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨] الآية. هذا هو حديثُ البداية والنهاية، والمقصودُ من ذكره: تنويهُ شأنه، وتشويقُ الطّلّاب إليه: (شعر)

وَتَهَـافَتُوا فِي سُـكْرٍ يَـا أَهْلَ صَـفْـ ... رَاءَ لِأَجْـلِ تَـغَـافُـلِ السَّـوْدَاوِي

والسلامُ على من اتَّبع الهدى، والتزم متابعةَ المصطفى، عليه وعلى آله الصلواتُ والتسليماتُ.

المَكْتُوبُ الخَامِسُ وَالأَرْبَعُونَ وَالمِائَةُ

إلى المُفتي عبدِ الرَّحمَن في بيانِ أنَّ مشائخَ الطَّريقةِ النَّقشبنديَّةِ قدَّس اللهُ تعالى أسرارَهُم اختاروا ابتداءَ السَّيرِ من عالمِ الأمرِ، وبيانِ سرِّ عدمِ تأثُّرِ بعضِ مبتدئي هذه الطَّريقَة بسُرعةٍ.

ثبَّتنا الله سبحانه وإياكم على جادة الشَّريعة المصطفوية، على صاحبها الصلاةُ والسلامُ والتحيةُ، ويرحم الله عبداً قال آمينا. اعلم أنَّ مشائخَ الطَّريقة النقشبنديَّة قدس الله أسرارهم اختاروا ابتداءَ السَّير من عالم الأمر، وصاروا يقطعون مسافةَ عالم الخلق في ضمنه، بخلاف مشائخ سائر الطُّرق، فإنَّ ابتداءَ سيرهم من عالم الخلق، وبعد طيِّ مسافة عالم الخلق يضعون القدمَ في عالم الأمر، ويصلون إلى مقام الجذبة، ولهذا كان طريقُ النقشبنديَّة أقربَ الطُّرق، فلا جرم صارتْ نهايةُ الآخرين مندرجةً في بدايتهم: (ع) وَقِسْ مِنْ حَالِ بُسْتَانِي رَبِيعِي

ومع كون ابتداء سَيْرِهم من عالم الأمر؛ لا يتأثَّر بعضُ الطَّالبين من هذه الطَّريقة بسرعةٍ، ولا يجدون الحلاوةَ ولا التلذُّذَ الذي هو من مقدمة الجذبة بالسُّهولة، ووجهُ ذلك: أنَّ لطائفَ عالم الأمر ضعيفةٌ فيهم.........................

بالنِّسبة إلى عالم الخلق، وهذا الضَّعفُ هو الذي صار سُدّةً في طريق التَّأثير والتأثُّر، وامتداد زمان بطء التَّأثُّر إلى أن يقوى لطائفُ عالم الأمر فيهم، وتغلبَ على عالم الخلق، وأن ينعكس الأمرُ، وعلاجُ هذا الضَّعْف بحيث يكون مناسباً لهذه الطَّريقة: هو التَّصرُّفُ التامُّ من صاحب التصرُّف، والعلاجُ المناسبُ لسائر الطُّرُق: تقديمُ تزكية النَّفس، والرياضاتُ الشديدةُ، والمجاهدات الشَّاقَّة الواقعة على وفق الشَّريعة، على صاحبها الصلاة والسلام والتحيةُ، وينبغي أن يعلم أنَّ بطءَ التأثُّر ليس من علامة نقصان الاستعداد، وكم من طائفةٍ تامّي الاستعداد يبتلون بهذا البلاء. والسلام.

المَكْتُوبُ السَّادِسُ وَالأَرْبَعُونَ وَالمِائَةُ

إلى شرفِ الدِّين حسَينٍ في النَّصيحةِ بتَكرارِ الذِّكر.

وصل مكتوبُ ولدي شرف الدين حسين، لله سبحانه الحمدُ والمنَّةُ على أنَّه مستعدٌ بسعادة تذكُّر الفقراء، ولْيعمرِ الأوقاتَ بتكرار الذِّكْر الذي أخذه، ولا يُفَوِّتَنَّ الفرصةَ منخدعاً بالشَّأن والشوَّكة الفانية، مغتنماً للحياة القليلة: (شعر)

همه اندرزِ من بـه تـو، ايـن اسـت   كه تو طفلى و خانه رنگيـن اسـت

ونعمَ النِّعمة إكرامُ الحقّ سبحانه عبده بتوفيق التَّوبة في عُنْفُوانِ الشباب، والإنعام عليه بالاستقامة عليها. يمكن أن يقال: إنَّ جميع التَّنعُّمات الدنيويَّة في جنب تلك النِّعمة لها حكمُ الندى في جنب البحر العميق، فإنَّ هذه النِّعمةَ موجبةٌ لرضا المولى سبحانه الذي هو فوقَ جميع النِّعم دنيويَّةً كانت أو أخرويَّةً، ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]. والسلامُ على من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى، عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات أتمها وأكملها.

المَكْتُوبُ السَّابِعُ وَالأَرْبَعُونَ وَالمِائَةُ

إلى الخواجه أشرَف الكَابُليِّ في بيانِ أنَّ الانقِطاعَ مقدَّمٌ على الاتِّصالِ، وبالعَكسِ.

رزقنا الله سبحانه وإياكم الترقِّيات على مدارج الكمال، بحرمة سيد المرسلين، عليه وعلى آله الصلوات والتسليماتُ. قالت طائفةٌ من مشائخ الطَّريقة قدّس الله أسرارهم بتقدُّم الانفصال والانقطاع على الاتِّصال، وطائفةٌ أخرى من هؤلاء الأكابر قدموا الاتِّصالَ على الانقطاع والانفصال، وتوقّفت طائفةٌ ثالثةٌ فيه، قال أبو سعيد الخراز قدس سره: ما لم تنقطع لا تجد، وما لم تجدْ لا تنقطع، ولا أدري أيّهما أقدَّمُ.

يقول راقمُ هذه السطور: إنَّ الانقطاعَ والاتِّصالَ يتحقَّقان في آنٍ واحدٍ، ولا يجوز أن ينفكَّ الانقطاعُ عن الاتِّصال، وأن يحصل الاتِّصالُ بدون الانقطاع والانفصال.

غَايةُ ما فِي البابِ: إنَّ الخفاءَ إن تحقّقَ؛ فإنَّما هو في التَّقدُّم الذاتِيّ، وتعيُّن عليَّة أحدهما للآخر. واختار شيخُ الإسلام الهرويّ قدس الله سره المذهبَ الثَّاني قائلاً بأنَّ السّبقة من ذاك الطرف أحسنُ، والذين يقولون بتقدم الانفصال على الاتِّصال لا ينكرون هذه السبقةَ أيضاً، ومرادهم من الاتِّصال: الظهورُ التامُّ، وهو لا ينافي الظهورَ المطلقَ، فيكون الظهورُ المطلقُ مقدَّماً على الانفصال، والظهورُ التامُّ مؤخّراً عنه. فعلى هذا التَّحقيق يكون نزاعُهم راجعاً إلى اللفظ، ولكنَّ نظرَ الطَّائفة الأولى عالٍ حيث لا يعتبرون القليلَ. وينبغي أن يُعلمَ أنَّ على هذا التَّوجيه قد حصل التَّقدُّم الزمانيُّ أيضاً. فافهم. والله سبحانه الملهمُ للصواب.

وعلى كلِّ حالٍ ينبغي أن يكون مظهراً للانفصال والاتِّصال، فإنَّ.............................

مرتبةَ الولاية منوطةٌ بهاتين المرتبتين، وبدونهما خرطُ القتاد. والمرتبةُ الأولى مربوطةٌ بالسَّير إلى الله، والثَّانية بالسَّير في الله، وبمجموع هذين السَّيرين يوصلُ إلى مرتبة الولاية والكمال على تفاوت درجاتها والسَّير، والسَّيران الباقيان لتحصيل مرتبة التَّكميل والوصول إلى درجة الدَّعوة: (شعر)

نَـادَيْـتُ غَـيْـرَ مَـرَّةٍ   لَوْ كَـانَ فِي الْأَحْيَـاءِ حَيُّ

المَكْتُوبُ الثَّامِنُ وَالأَرْبَعُونَ وَالمِائَةُ

إلى المـلَّا صادقِ الكَابُليِّ في بيانِ ذمِّ صاحبِ الرِّيِّ، وعدمِ الاغترارِ بتوسُّط روحانيَّة المَشائخِ وإمداداتِهم. اهـ.

وصل المكتوبان متَّصلاً بعضهما ببعضٍ: كان الأوَّلُ منبئاً عن الحصول والريّ، والثاني عن العطش وعدم الحصول، الحمد لله سبحانه، العبرةُ بالخاتمة، إنَّ صاحبَ الريّ ليس له حاصلٌ، والذي يرى نفسه لا حاصلَ له؛ فهو الواصلُ، وقد قيل لك مكرَّراً أن لا تغترَّ بتوسُّط روحانيَّة المشائخ وإمداداتهم، فإنَّ صورَ هؤلاء المشائخ التي تراها وتشاهدها هي لطائفُ الشيخ المقتدَى به في الحقيقة ظهرتْ بهذه الصُّور، وتوحيدُ قبلة التَّوجُّه من الشُّروط، وتفريقُ التَّوجُّه موجبٌ للخسران عياذاً بالله سبحانه.

وأيضـاً إنِّي كنت قلت لك مكرراً ومؤكّداً: إن قلل الأشغال ليحصل المقصودُ بسرعةٍ، فإنَّ تركَ الأمر الضروريِّ والاشتغالَ بما لا طائلَ فيه بعيدٌ عن طَوْر العقل، ولكنَّك معتقدٌ لرأي نفسك قلَّما يؤثِّرُ فيك كلامُ غيرك وأنت تعلم، ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [النور: ٥٤].

المَكْتُوبُ التَّاسِعُ وَالأَرْبَعُونَ وَالمِائَةُ

إلى المـلَّا صادقِ الكَابُليِّ أيضـاً في بيانِ عدمِ قصرِ النَّظرِ على سببٍ معيَّنٍ.

والعجبُ من أخي مولانا محمد صادق حيث سلَّم نفسه بالكليَّة إلى عالم الأسباب، وإن جعلَ مسبِّب الأسباب تعالى وتقدس الأشياءَ مرتَّبةً على الأسباب، ولكن ما الحاجةُ إلى نصب العين على سببٍ معيَّنٍ؟ (شعر)

وَلَا تَـحْـزَنْ إِذَا مَـا سُـدَّ بَـابٌ   فَـإِنَّ اللهَ يَـفْـتَـحُ أَلْـفَ بَـابِ

وهذا القسمُ من قصور النَّظر ينبئُ عن غاية عدم المناسبة، ومستهجنٌ من أمثالك جداً، ينبغي لك أن تتفكَّرَ في حالك ساعةً تفهم هذه الشَّناعة، وكلُّ هذا الاضطراب في كسوة الفقر تحصيلُ ما هو مبغوضٌ عليه لدى الحقّ سبحانه، ما أشدَّه قباحةً، وبئس البلاء المستنكرُ، والعجبُ أنَّه كيف زُيِّنَ هذا الشيءُ المستنكرُ في نظرك؟ ينبغي لك أن تسعى وتجتهد في تحصيل الأمور الضروريَّة بقدر الضَّرورة، وصرف جميع الهمَّة إليها، وتضييعُ تمام العمر في تحصيلها سفاهةٌ محضةٌ، الفرصةُ غنيمةٌ جدّاً، والأسفُ كلَّ الأسف على حالٍ من يصرِفُها إلى تحصيل علومٍ لا طائلَ فيها، والشرطُ هو الإخبارُ، ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [النور: ٥٤]، ولا تحزن من مقالات الناس فيك، فإن نسبوا إليك شيئـاً ليس فيك منها شيءٌ؛ فلا غمَّ، نعمت الدَّولةُ أن يرى الناسُ شخصـاً شرّاً وهو في الحقيقة من الأخيار، فإن تحقَّق عكسُ هذه القضيّة؛ فقد عظم الخطرُ. والسلام.

المَكْتُوبُ الخَمْسُونَ وَالمِائَةُ

إلى الخواجه محمَّدٍ قاسمٍ في بيانِ أن لا مستحِقَّ للمَطلوبيَّة غيرَ الحقِّ تعالى وتقدَّس.

وصل مكتوب أخينا الخواجه محمد قاسم، وصار موجباً للفرح، ولا تضيِّقْ صدرك من تشتُّت الأوضاع الدنياويَّة، وتفرُّق الأحوال الصُّوريَّة، فإنَّها لا تستحقُّ لذلك؛ لأنَّ هذه النَّشأة في معرض الفناء، بل ينبغي السَّعيُ في تحصيل مرضاة الحقّ سبحانه وتعالى، سواءٌ كان فيها عُسْرٌ أو يسرٌ، ولا مستحقّ للمطلوبيَّة غير ذات الواجب الوجود جلّ شأنه، خصوصاً لأمثالكم الأعزَّة، ومع ذلك لو وقعت الإشارةُ بخدمةٍ وأمرٍ؛ تجتهد في تحصيلها بالممنونيَّة. والسلام.

المكتوب الحادي والخمسون والمائة

إلى المِير مؤمنِ البَلْخيِّ في بيانِ علوِّ شأنِ الطَّريقةِ النَّقشبنديَّةِ قدَّس اللهُ أسرارَ أهليها العليَّة، وبيانِ معنى يادداشت المَخصوصِ بهم.

(ع) وَأَحْسَـنُ مَا يُمْلَى حَـدِيثُ الْأَحِبَّةِ

اعلم أن يادداشت عبارةٌ في طريقة حضرات خواجكان قدّس الله أسرارهم عن حضورٍ بلا غيبةٍ، أعني: دوامَ حضور حضرة الذَّات تعالت وتقدست، من غير تخلُّل الحجب الشؤونيَّة والاعتباريَّة، فإن وُجِدَ حضورٌ في وقتٍ وغيبةٌ في وقتٍ، بأن ترتفع الحجبُ في وقتٍ بالتمام، وانسدلتْ في وقتٍ آخر، كما يكون في التجلِّي البرقيّ الذاتيّ، حيث إنَّ الحجبَ ترتفعُ فيه عن حضرة الذات تعالت وتقدست كالبرق، ثم تحتجب بحجب الشُّؤون والاعتبارات بسرعةٍ؛ فهو ساقطٌ عن حيِّز الاعتبار عند هؤلاء الأكابر، فعلم من هذا أنَّ حاصلَ الحضور بلا غيبةٍ: هو دوامُ التجلِّي البرقيّ الذاتيّ الذي هو عبارةٌ عن ظهور حضرة الذات بدون توسُّط الشؤون والاعتبارات، ويتيسّرُ ذلك في نهاية هذا الطَّريق، ويثبتُ في هذا المقام الفناءُ الأكملُ، ولا رجوعَ فيه للحُجُب أصلاً، فإنَّها لو رجعتْ؛ لتبدَّلَ الحضورُ بالغيبة، ولا يقال له: يادداشت، فتحقَّقَ أنَّ شهودَ هؤلاء الأكابر على الوجه الأتمّ والأكمل، وأكمليّة الفناء وأتميَّة البقاء على قدر أتميَّة الشُّهود وأكمليَّته:

(ع) وَقِسْ مِنْ حَالِ بُسْـتَانِي رَبِيعِي

المكتوب الثَّاني والخمسون والمائة

إلى السَّيِّد فريدٍ في بيانِ أنَّ إطاعةَ الرَّسولِ عينُ إطاعةِ الحَقِّ سُبحانِه، وما يناسبُ ذلك.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، فجعل اللهُ سبحانه إطاعةَ الرسول عينَ إطاعته، فإطاعةُ الحقّ عزّ وجلّ بدون إطاعة الرسول ليس بإطاعةٍ له سبحانه، ولذلك أورد كلمةَ ﴿قَدْ﴾ تأكيداً لهذا المعنى وتحقيقاً له؛ لئلا يفرقَ مهوسٌ بين هاتين الإطاعتين، ويختار إحداهما دون الأخرى، وقد وبَّخ اللهُ سبحانه في محلٍّ آخرَ جماعةً فرَّقوا بين هاتين الإطاعتين، حيث قال سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ اَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللّٰهِ وَرُسُلِهِ﴾ [النساء: ١٥٠] الآية. نعم، قد صدرتْ من بعض المشائخ وقتَ غلبة الحال والسُّكر كلماتٌ مؤذنةٌ بالتَّفرقة بين هاتين الإطاعتين، ومشعرةٌ باختيارِ محبَّةِ إحداهما على الأخرى، كما نُقِلَ أنَّ السُّلطانَ محمود الغزنويَّ لَمّا نزل مرَّةً في أيّام سلطنته في قرب قرية خرقان؛ أرسل واحداً من وكلائه إلى الشيخ أبي الحسن الخرقانيّ، والتمس منه الحضورَ عنده، وقال لرسوله: إذا فهمتَ توقُّفاً من الشيخ؛ فاقرأ هذه الآية: ﴿اَطِيعُوا اللّٰهَ وَاَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاُولِى الْاَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، فلما فهم الرسولُ توقُّفاً من الشيخ؛ قرأ الآيةَ المذكورةَ، فقال له الشيخ في جوابه: إنِّي مشغولٌ بإطاعة الله تعالى، بحيث لم أفرغْ منها بعدُ لإطاعة رسول الله، فكيف لإطاعة أولي الأمر؟ فجعل حضرةُ الشَّيخ إطاعةَ الحقِّ سبحانه غيرَ إطاعة الرَّسول، وهذا الكلامُ.........

بعيدٌ عن الاستقامة، والمشائخُ المستقيموا الأحوال يتحاشَوْن من أمثال هذا الكلام، ويعلمون أنَّ إطاعةَ الحقِّ سبحانه في إطاعة رسوله في جميع مراتب الشَّريعة والطَّريقة والحقيقة، ويعتقدون أنَّ إطاعةَ الحقِّ سبحانه في غير إطاعة رسوله عينُ الضلالة.

ونقل أيضـاً أنَّ شيخ بلدة مهنة الشيخ أبا سعيد أبا الخير عقد مجلسـاً، وكان في ذلك المجلس واحدٌ من أجلَّة سادات خراسان، فدخل في ذلك الأثناء اتِّفاقـاً مجذوبٌ مغلوبُ الحال، فقدَّمه الشيخُ على السيّد الأجلّ، فلم يَحْسُنْ ذلك للسيّد، فقال الشيخُ للسيد: إنَّ تعظيمَك بواسطة محبَّة رسول الله ﷺ، وتعظيمُ هذا المجذوب بواسطة محبَّة الحقّ سبحانه. والأكابرُ المستقيموا الأحوال لا يجوِّزُون أيضـاً هذا القسمَ من التَّفرقة، ويرون غلبةَ محبَّة الحقّ سبحانه على محبّة رسوله عليه الصلاة والسلام من سُكْر الحال، ولا يعتقدونها شيئـاً غيرَ الفضول، ولكن ينبغي أن يعلم هذا القدر: إنَّ محبَّةَ الحقّ سبحانه غالبةٌ في مقام الكمال الذي هو مرتبةُ الولاية، ومحبَّةُ الرَّسول غالبةٌ في مقام التَّكميل الذي فيه نصيبٌ من مقام النبوَّة. ثبَّتنا الله سبحانه على إطاعة الرَّسول التي هي عينُ إطاعة الله سبحانه.

المَكْتُوبُ الثَّالِثُ وَالخَمْسُونَ وَالمِائَةُ

إلى الشَّيخ مِيَان مزَّمِّل في بيانِ الخلاصِ التَّامِّ منْ رقِّيَّة ما سواه تعالى المَربوطِ بالفَناءِ المُطلَقِ.

وصل المكتوبُ المرسلُ. الحمدُ لله ذي الإنعام والمنَّة قد جعل طالبيه في قلقٍ واضطرابٍ، ونجَّاهم بذلك الاضطراب من السُّكون إلى غيره، ولكنَّ الخلاصَ التامَّ من رقِّيَّة الأغيار إنّما يتيسّرُ إذا حصل التشرُّفُ بالفناء المطلق، وزالت النُّقوشُ الكونيَّةُ من مرآة القلب بالكليَّة، ولم يبقَ التعلُّق العلميُّ والحبيُّ بشيءٍ من الأشياء، ولم يكن مقصودٌ ومرادٌ غيرَ الحقّ سبحانه وتعالى، ودونه خرطُ القتاد، وربَّما يُظَنُّ انتفاءُ التعلُّق، ولكنَّ الظنَّ لا يغني من الحق شيئـاً:

(ع) وَهَذِي سَـعَادَاتٌ تَكُونُ نَصِـيبَ مَنْ

والتعلُّقُ بالأحوال والمقامات تعلُّقٌ بالغير، فما تقول في التعلق بأشياء أخر؟ (شعر)

دَعْ مَا يَصُـدُّكَ عَنْ وَصْـلِ الْحَبِيبِ وَمَا ... يُلْهِيكَ عَنْهُ قَبِيحـاً كَـانَ أَوْ حَسَـنَا

وقد انجرَّت مدَّةُ غربتك إلى التَّطويل، والفرصةُ غنيمةٌ، فإن كان الأصحابُ والأحبابُ من أهل الرخصة؛ فما وجهُ التوقُّف؟ وإلا؛ فما الحاجةُ إلى الرُّخصـة؟ ينبغي أن يلاحظ مرضيُّ الحق سبحانه، رَضِيَ أهلُ العالم أم لا؟ وماذا يكون عدمُ رضاهم؟ (ع) وَكُـلُّ الْقَصْـدِ مِنْ تَبَعِ الْحَبِيـبِ

ينبغي أن تعتقدَ أنَّ المقصودَ هو الحقُّ سبحانه، فإن اجتمع مع محبَّته شيءٌ؛ فنافعٌ، وإلا؛ فضارٌّ:

(ع) أَتَـرْنُـو إِلَـى وَرْدٍ وَذَا وَجْـهِـي زَاهِـرُ

والسلامُ.

المَكْتُوبُ الرَّابِعُ وَالخَمْسُونَ وَالمِائَةُ

إلى مِيَان مزَّمِّل أيضـاً في بيانِ ضَروريَّةِ تَركِ النَّفسِ والسَّيرِ إليها.

جعلنا الحقُّ سبحانه معه، ولا يترك مع غيره لحظةً، اللهم لا تَكِلْنا إلى نفسنا طرفةَ عينٍ فنهلكَ، ولا أقلَّ منها فنضيعَ، وكلُّ بلاءٍ وقع على الإنسان إنّما هو من التعلُّق بالنَّفس، فإذا حصل الخلاصُ من يد النَّفس؛ فقد حصل الخلاصُ مما دون الحقِّ سبحانه، حتى إنَّ من يعبد الأصنامَ؛ إنّما يعبد نفسَه، ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]:

(ع) إِذَا مَـا تَرَكْـتُ النَّفسَ أَلْفَيْـتُ رَاحَـةَ

دع نفسَك وتعال، وكما أنَّ تركَ النَّفس..

والتَّجاوزَ منها فرضٌ؛ كذلك السَّيرُ والمشيُ إلى النَّفس لازمٌ، فإنَّ الوجدانَ إنّما هو فيها، ولا وجدانَ في خارجها: (شعر)

وَلَسَـوْفَ تَعْلَمُ أَنَّ سَـيْرَكَ لَمْ يَكُنْ   إِلَّا إِلَـيْـكَ إِذَا بَـلَـغْـتَ الْـمَـنْـزِلَا

السَّيرُ الآفاقيُّ بعدٌ في بعدٍ، والسيرُ الأنفسيُّ قربٌ في قربٍ، فإن كان شهود فهو في النَّفس، وإن كان معرفةً؛ فهي أيضاً في النَّفس، وإن كانت حيرةً؛ فهي أيضاً فيها لا مجالَ للقدم في خارج النَّفس. إلى أين وصل الكلامُ؟

ولا يفهمنَّ الأبلهُ من هذا الكلام حلولاً واتِّحاداً، فيقع في ورطة الضَّلالة، فإنَّ القولَ بالحلول كفرٌ، وكذلك الاتِّحادُ والتفكُّرُ فيه قبل التحقُّق بهذا المقام ممنوعٌ. رزقنا الله سبحانه وإياكم الاستقامةَ على الطَّريقة المرضيَّة، على صاحبها الصلاة والسلام والتحية.

وينبغي لك أن تكتبَ من أحوالك، فإنَّ له دَخْلا تاماً، وعليك أن تكون حرّاً مع وجود العلائق الصوريَّة، وأن تعتقد وجودها وعدمها سيّان. والسلام والإكرام.

المَكتُوبُ الخَامِسُ والخَمْسُونَ وَالمِائَة

إلى الشَّيخ مزَّمِّلٍ أيضاً في التَّحريضِ على الرُّجوعِ إلى أصلِه.

(شعر): وَمَـا عَـبَـدُوا غَـيْـرَ الْإِلَـهِ فَـبَـاطِـلٌ   فَبِئْسَ الـذِي يَخْتَـارُ مَـا كَـانَ بَـاطِـلَا

قد تشرَّفتُ بزيارة مشاهد دهلي في غُرّة جمادى الأولى يوم الجمعة، ومحمد صادق معي، وبعد إقامة أيامٍ هنا نتوجَّهُ إلى طَرَف الوطن الأصليّ إن وافقتْ إرادتُنا إرادةَ الحقّ سبحانه، «**حُبُّ الْوَطَنِ مِنَ الْإِيمَانِ**» خبرٌ مشهورٌ، أين يذهب العاجزُ المسكينُ وناصيتُه في يده تعالى؟ ﴿**مَا مِنْ دَآبَّةٍ اِلَّا هُوَ اٰخِذٌ بِنَاصِيَتِهَاۜ اِنَّ رَبّ۪ي عَلٰى صِرَاطٍ مُسْتَق۪يمٍ**﴾ [هود: ٥٦]، وأين المفرُّ إلا أن يُفَرَّ منه إليه قائلاً: ﴿**فَفِرُّٓوا اِلَى اللّٰهِ**﴾ [الذاريات: ٥٠]، وعلى كل حالٍ ينبغي أن يعتقد الأصلَ أصلاً، والفرعَ تبعاً له، وأن يتوجَّهَ إلى الأصل:

(شعر)   مَنْ كَـانَ فِي قَلْبِـهِ مِثْـقَـالُ خَرْدَلَـةٍ   سِـوَى هَوَى الْحَقِّ فَاعْلَمْ أَنَّـهُ مَرِضُ

المَكتُوبُ السَّادِسُ والخَمْسُونَ وَالمِائَة

إلى المَذكورِ أيضاً في التَّحريضِ على صُحبةِ أهلِ اللهِ.

وصل الكتابُ الذي أرسلتَه مع قاضي زاده الجالندريّ في دهلي. لله الحمدُ والمنَّةُ على ما كانت محبَّةُ الفقراء نقدَ الوقت، وأنَّه معهم بحكم: «**الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**»، وشهرُ رجب وإن كان بحسب الأوقات والأزمان قريباً، ولكنَّه بعيدٌ جدّاً:

(شعر)   أَقُولُ لِأَصْحَابِي: هِيَ الشَّمْسُ ضَوْءُهَا   قَـرِيـبٌ وَلَـكِـنْ فِـي تَـنَـاوُلِـهَـا بُـعْـدُ

وحيث أنَّك اخترت هذا المعنى الذي اخترتَ بواسطة رعاية حقوق أرباب الحقوق؛ فاستقمْ عليه، وعسى الفقيرُ أن يكون أيضاً هنا إلى رجب، والله سبحانه أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

وعلى كل حالٍ ينبغي أن تكون مع الفقراء في أيام عمرٍ قصير، ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذ۪ينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدٰوةِ وَالْعَشِيِّ يُر۪يدُونَ وَجْهَهُ**﴾ [الكهف: ٢٨] نصٌّ قاطعٌ في ذلك، حيث أمر الله سبحانه حبيبه ﷺ، وقال واحدٌ من الأعزَّة: إلهي، ما هذا الذي جعلت أولياءك على وجه من عرفهم وجدك، ومن لم يجدك لم يعرفهم؟ رزقنا الله سبحانه وإياكم محبَّةَ هذه الطَّائفة العليّة الشَّريفة.

المكتوب السابع والخمسون والمائة

إلى الحكيم عبدِ الوهَّابِ في بيانِ لزومِ إظهارِ التَّواضعِ والاحتِياجِ عندَ حُضورِ الأكابِرِ، وبَيانِ لزومِ تَصحيحِ العَقائِد.

اعلم أنَّك قد جئت هنا، وأَلَمْتَ قدمك، وانصرفتَ مسرعـاً، حتى لم تَجِدْ فرصةً لأداء بعض حقوق الصُّحبة والمقصود من الملاقاة والاجتماع إما الإفادةُ وإما الاستفادةُ؛ فإذا خلا المجلسُ من كلا هذين الخصالين(١)؛ فهو خارجٌ عن الاعتداد به، وينبغي لمن يحضر عند واحدٍ من هذه الطَّائفة: أن يحضر خالياً ليرجعَ ملآن، وأن يظهر عندهم العجزَ والإفلاسَ؛ ليكون محلاً لشفقتهم، ومستحقّاً لإفاضتهم، ولا معنى في المجيء والانصراف ريّاناً، ولا شيءَ في الامتلاء غير العلَّة، ولا في الاستغناء دون الطُّغيان. قال الخواجه بهاء الدين النَّقشبند قدس سره: لا بدَّ أوَّلاً من تضرُّع المريض وانكساره، ثم بعده يتوجَّهُ الخاطرُ المنكسرُ، فكان التضرُّعُ والانكسارُ شرطي التَّوجُّه.

ومع ذلك كلِّه جاء في هذه الأوان طالب علم، والتمس مني التَّفويضَ والتَّوصيةَ إلى ذلك الجانب، فوقع في الخاطر أنَّ مجرَّدَ مجيئه أيضاً حقٌّ من الحقوق، فينبغي أداءُ الحقِّ من قِبَلي مهما أمكن، فلا جرم أمليتُ بلسان القلم كلماتٍ على مقتضى الوقت والحال تداركاً لِمَا مضى، وتلافياً لِمَا سبق، وأرسلتُ إلى ذلك الجانب. والله سبحانه الملهمُ للصواب، والموفِّقُ للسداد.

أيها الموفَّقُ للسعادة: إنَّ ما هو اللازمُ لنا ولكم: تصحيحُ العقائد على مقتضى الكتاب والسنة على نهج أخذها علماء أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنَّة بعدما فهموها كما ينبغي، فإنَّ فهمَنا وفهمَكم ساقطٌ عن حيِّز الاعتبار إذا لم يوافقْ فهمَ هؤلاء الكبار، ألا ترى أنَّ كلَّ مبتدعٍ وضالٍّ يدَّعي أخذَ أحكامه الباطلة من الكتاب والسنة، وفهمها منهما؟ والحالُ أنَّه لا يغني من الحق شيئاً.

ثم علمُ الأحكام الشَّرعيّة ثانياً من الحلال والحرام والفرض والواجب، ثم العملُ ثالثاً بمقتضى هذا العلم، ثم السُّلوكُ رابعـاً طريق التَّصفية والتَّزكية الذي خُصّ بالصوفية الكرام قدس الله أسرارهم.

فما لم تُصَحَّحِ العقائدُ؛ لا ينفع العلمُ بالأحكام الشَّرعيّة، وما لم يتحقَّقْ كلا هذين؛ لا يجدي العملُ شيئاً، وما لم تحصل الثلاثةُ كلُّها؛ فحصولُ التَّصفية والتزكية محالٌ، وما سوى هذه الأركان الأربعة ومتمّماتها ومكملاتها كالسنة المكملة للفرض كلُّه من الفضول داخلٌ في دائرة ما لا يعني، و«مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»(٢)، واشتغالُه بما يعنيه.

والسلامُ على من اتبع الهدى، والتزم متابعةَ المصطفى، عليه وعلى آله الصلاة والسلام.

المكتوب الثامن والخمسون والمائة

إلى الشَّيخ حَميدٍ البَنْگالِيِّ في بيانِ تفاوتِ مَراتبِ الكَمالِ بحَسبِ تَفاوتِ الاستِعداداتِ.

اعلم أنَّ مراتبَ الكمال متفاوتةٌ بحسب تفاوت الاستعدادات، والتَّفاوتُ في الكمال قد يكون بحسب الكميَّة، وقد يكون بحسب الكيفيَّة، وقد يكون بهما معـاً، فكمالُ البعض مثلاً بالتجلِّي الصِّفاتِيّ، وكمالُ بعضٍ آخر بالتجلِّي الذاتِيّ، مع تفاوتٍ فاحشٍ بين أفراد ذَيْنِك التجلِّيين، وبين أربابهما أيضـاً، فكمالُ البعض: سلامةُ القلب وتخلُّصُ الروح، وكمالُ الآخر: بهما وبالشُّهود السريّ، وكمالُ الثالث: بتلك الثلاث وبالحيرة المنسوبة إلى الخفيّ، وكمالُ الرابع: بتلك الأربع وبالاتِّصال المنسوب إلى الأخفى، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]. وبعد حصول الكمال في أيّ مرتبةٍ كانت من المراتب المذكورة: إما رجوعُ القهقرى، وإما ثباتٌ واستقرارٌ في ذلك الموطن،..........

(١) كذا في النسخ، ولعل الصواب: (هاتين الخصلتين).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣١٧) واستغربه، وابن ماجه (٣٩٧٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

والأوَّلُ هو مقامُ التَّكميل والإرشاد، ورجوعٌ من طرف الحقّ إلى الخلق للدعوة، والثاني هو موطنُ الاستهلاك والعزلة من الخلق. والسلام أولاً وآخراً.

المكتوب التاسع والخمسون والمائة

إلى شرَفِ الدِّين حُسَينِ البَدَخْشِيِّ في التَّعزِيَة.

اعلم أنَّ الآلامَ والمصائبَ وإن كانت مرّةً في الظَّاهر ومؤلمةً للجسم، ولكنَّها حلوة في الباطن، ومورثةٌ للذة الرُّوح، وذلك لأنَّ الروحَ والجسمَ كأنَّهما وقعا على طرفي النَّقيض، فألمُ أحدهما يستلزمُ لذَّة الآخر، فالذي لا يقدر أن يميِّز بين هذين النَّقيضين ولوازمهما خارجٌ عن البحث، ولا قابليَّةَ فيه، ﴿أُولَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الفرقان: ٤٤]: (شعر)

مَنْ لَمْ يَكُنْ ذَا خِبْرَةٍ عَنْ نَفْسِهِ ... هَلْ يَقْدِرُ الْإِخْبَارَ عَنْ هَذَا وَذَا

ومن تنزلت روحه واستقرَّتْ في مرتبة الجسم، وكانت لطائفُه الأمريَّةُ تابعةً للطائفه الخلقيَّة من أين يعرفُ سرَّ هذا المعمّى؟ وما لم ترجعِ الروحُ إلى مقرّها الأصليَّة[1] قهقرى، ولم يميز الأمرُ من الخلق؛ لا ينجلي الحجابُ عن جمال هذه المعرفة، وحصولُ هذه الدَّولة مربوطٌ بالموت قبل حلول الأجل المسمّى ووقوعه الذي عبّر عنه مشائخُ الطَّريقة قدس الله أسرارهم بالفناء: (شعر)

وَكُنْ أَرْضاً لِيَنْبُتَ فِيكَ وَرْدٌ ... فَإِنَّ الْوَرْدَ مَنْبَتُهُ التُّرَابُ

ومن لم يَمُتْ قبل موته ينبغي تعزيتُه لمصيبته. وقد صار خبرُ وفاة والدك المرحوم الذي كان مشتهراً بالخير والصَّلاح، ومراعياً لشيمة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر جدّاً موجباً لحزن المسلمين، ومستلزماً لغمّهم، إنا لله وإنا إليه راجعون، فينبغي للولد الأرشد أن يلزم شيمةَ الصبر، وأن يُمِدَّ الأمواتَ ويعاونهم بالصَّدقة والاستغفار والدَّعوات، فإنَّ الموتى أشدُّ احتياجاً إلى إمدادِ الأحياء، وقد ورد في الحديث النبويّ عليه الصلاة والسلام: «**مَا الْمَيِّتُ إِلَّا كَالْغَرِيقِ الْمُتَغَوِّثِ، يَنْتَظِرُ دَعْوَةً تَلْحَقُهُ مِنْ أَبٍ أَوْ أُمٍّ أَوْ أَخٍ أَوْ صَدِيقٍ، فَإِذَا لَحِقَتْهُ؛ كَانَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَإِنَّ اللهَ لَيُدْخِلُ عَلَى أَهْلِ الْقُبُورِ مِنْ دُعَاءِ أَهْلِ الْأَرْضِ أَمْثَالَ الْجِبَالِ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَإِنَّ هَدِيَّةَ الْأَحْيَاءِ إِلَى الْأَمْوَاتِ الِاسْتِغْفَارُ**».

وبقيَّةُ النُّصح: ملازمةُ الذِّكر، والمداومةُ على الفكر، فإنَّ الفرصةَ قليلةٌ جداً، ينبغي أن تصرفها إلى أهمِّ المهامّ. والسلام.

المكتوب الستون والمائة

إلى أقلِّ عبيدِه - أعني: يار محمَّدٍ الجَديدِ البَدَخْشِيِّ الطَّالِقَانيِّ - في بيانِ أنَّ مَشائخَ الطَّريقةِ قدَّس اللهُ أسرارَهُم ثَلاثةُ طَوائفَ، مع شَرحِ أحوالِ كلٍّ منها كمالاً ونُقصاناً.

اعلم أنَّ مشائخَ الطَّريقة قدَّس الله أسرارهم ثلاثةُ طوائف: فالطَّائفةُ الأولى قائلون بأنَّ العالمَ موجودٌ في الخارج بإيجاد الحقّ سبحانه، وكلُّما فيه من أوصاف الكمال والنُّقصان؛ فهو بإيجاد الحقّ سبحانه وتعالى، ولا يعتقدون أنفسهم شيئاً سوى شبحٍ، بل يعتقدون أنَّ الشَّبحيَّة أيضاً منه سبحانه، قد غرقوا في بحار العَدَم، بحيث لا خَبَرَ لهم عن العالم ولا عن أنفسهم، مَثَلُهم مثلُ شخصٍ لا ثَوْبَ له، فليس ثوبُ شخصٍ على طريق العاريَةِ عالماً بأنّه عاريةٌ، وغلب عليه علمُ كونه عاريةً على وجهٍ يرى ذلك الثَّوبَ في يد صاحبه، ويجد نفسه عارياً عنه، فإذا خرج مثلُ هذا الشَّخص من عدم الشُّعور والسُّكر إلى الصَّحو والشُّعور، وتشرَّفَ..

(١) كذا في النسخ، ولعل الصواب (الأصلي).

بالبقاء بعد الفناء؛ فإنَّه وإن وجد الثوبَ حينئذٍ في نفسه، ولكنَّه يعرفُ بيقينٍ أنَّه من الغير، فإنَّ ذلك الفناءَ مندرجٌ الآن في العلم، وما بقي شيءٌ من التَّعلُّق الذي كان بالثَّوب أصلاً. وكذلك حالُ من يرى أوصافه وكمالاتِه كالثَّوب المستعار، ولكنَّه يرى أنَّ هذا الثوبَ إنّما هو في الوهم فقط، لا ثوبَ في الخارج أصلاً، بل هو عارٍ فيه، ويغلب عليه هذه الرُّؤيةُ على وجه لا يرى الثوبَ أصلاً، بل يجد نفسه عرياناً، وبعد الإفاقة والصحَّة يجد ذاك الثوبَ معه أيضاً. ولكنَّ فناءَ الشَّخص الأوَّل أتمُّ، والبقاءُ المترتبُ عليه أكملُ كما سيجيءُ عن قريبٍ إن شاء الله.

وهؤلاء الأكابر متفقون مع علماء أهل السنّة والجماعة في جميع المعتقدات الكلاميَّة الثابتة على وفق الكتاب والسنّة وإجماع علماء الأمّة، ولا فرقَ بينهم وبين المتكلّمين، إلا أنَّ المتكلّمين يدركون هذا المعنى علماً واستدلالاً، وهؤلاء الأكابر كشفاً وذوقاً وحالاً.

وأيضاً إنَّ هؤلاء الأكابرَ لا يُثْبِتُون شيئاً من نسب العالم إلى الحقّ سبحانه من غاية التَّنزيه، بل يسلبون منه سبحانه جميعَ النِّسَب، فكيف العينيَّةُ والجزئيَّةُ؟ تعالى شأنُه عن ذلك، إلا نسبةَ الربوبيَّة والعبوديَّة والصانعيَّة والمصنوعيَّة، بل يضيِّعُون هذه النِّسبةَ أيضاً وقتَ غلبة الحال، فحينئذٍ يتشرَّفون بالفناء الحقيقيّ، وتحصلُ لهم القابليَّةُ للتجلِّيات الذاتيّة والمظهريَّة لتجلِّياتٍ غير متناهيةٍ.

والطَّائفةُ الثانيةُ يقولون بأنَّ العالمَ ظلُّ الحقّ سبحانه، ولكنَّهم قائلون بوجوده في الخارج بطريق الظليَّة، لا بطريق الأصالة، وأنَّ وجودَ العالم قائمٌ بوجود الحقّ سبحانه قيام الظلّ بالأصل، مثلاً: إذا امتدَّ الظلُّ من شخصٍ، وجعل ذلك الشَّخصُ من كمال قدرته صفات نفسه منعكسةً فيه كالعلم والقدرة والإرادة وغيرها حتى اللذَّة والألم، فإن وقع ذلك الظلُّ في النار مثلاً وتألَّمَ بها؛ لا يقال عرفاً وعقلاً: إنَّ ذلك الشَّخصَ الذي هو صاحبُ الظلّ متألمٌ كما قالت به الطَّائفةُ الثالثةُ، وعلى هذا القياس جميعُ ذمائم الأفعال التي تصدرُ من المخلوقات، لا يقال: إنَّها فعلُ الحقّ سبحانه، كما أنَّ الظلَّ إذا تحرَّك بإرادته لا يقال: إنَّ الشَّخصَ متحرِّكٌ، نعم، يقال: إنَّ ذلك أثرُ قدرته وإرادته، يعني: مخلوقَه، ومن المقرَّر أنَّ خلقَ القبيح ليس بقبيحٍ، بل القبيحُ فعلُ القبيح وكسبُه.

والطَّائفةُ الثالثةُ قائلون بوحدة الوجود، يعني: أنَّ في الخارج موجوداً واحداً فقط، وهو ذاتُ الحقّ سبحانه، ولا تحقُّقَ للعالم في الخارج أصلاً، وإنَّما له الثبوتُ العلميُّ، ويقولون: إنَّ الأعيانَ ما شمَّت رائحةَ الوجود، وهذه الطَّائفةُ وإن قالوا: إنَّ العالمَ ظلُّ الحقّ سبحانه، ولكنَّهم يقولون: إنَّ وجودَه الظليَّ إنّما هو في مرتبة الحسّ فقط، وأما في نفس الأمر والخارج؛ فمعدومٌ محضٌ، ويقولون: إنَّ الحقَّ سبحانه متَّصفٌ بصفاتٍ وجوبيَّة وإمكانيَّة، ويُثْبِتُون مراتبَ التنزُّلات، ويقولون باتِّصاف الذَّات الواحدة في كلِّ مرتبةٍ بأحكامٍ لائقةٍ بتلك المرتبة، ويثبتون للذّات التلذُّذَ والتألُّمَ، ولكن لا بالذات، بل في حُجُب هذه الظِّلال المحسوسة الموهومة، ويلزم على هذا محظوراتٌ كثيرةٌ شرعاً وعقلاً، وهم قد ارتكبوا في جوابها تمحُّلاتٍ كثيرةً، وتكلّفاتٍ بعيدةً.

وهؤلاء الطَّائفةُ وإن كانوا واصلين كاملين على تفاوت درجات الوصول والكمال، ولكنَّ كلامَهم دلَّ الخلقَ على طريق الضلالة والإلحاد، وأفضاهم إلى الزَّندقة بالقول بالاتحاد. والطَّائفةُ الأولى أكملُ وأتمُّ، وأقوالُهم أوفقُ بالكتاب والسنة وأسلمُ. أما الأسلميَّةُ والأوفقيَّةُ؛ فظاهرٌ، وأما الأتميَّةُ والأكمليَّةُ؛ فمبنيَّةٌ على أنَّ بعضَ مراتب الوجود الإنسانيِّ.....

لها مشابهةٌ بالمبدأ، ومناسبةٌ تامَّةٌ لها في غاية اللَّطافة والتجرُّد، كالخفيّ والأخفى، فالذين لا يقدرون على تمييز هذه المراتب من المبدأ مع وجود الفناء السريّ؛ فينفوها بكلمة: لا، بل يبقى المبدأُ عندهم ممتزجاً ومتشابهاً، ويجدون أنفسهم حقّاً، يعني: عينه، قالوا: ليس في الخارج إلا الحقُّ سبحانه فقط، وليس لنا وجودٌ أصلاً، ولكن لَمّا كان تعدُّدُ الآثار الخارجية متحققاً قالوا بالثبوت العلميّ بالضَّرورة.

ومن ههنا قالوا: إنَّ الأعيانَ برازخُ بين الوجود والعدم، فإنَّهم لَمّا لم يميِّزوا بعضَ مراتب وجوداتِ المخلوقات من المبدأ، ولم يقولوا بوجوب وجوده؛ صرَّحوا ببرزخيته، وأثبتوا للممكن ما للواجب، ولم يدروا أنَّ الذي أثبتوه هو من لوازم الممكن في نفس الأمر، لكنَّه مشابهٌ بالواجب ولو في الصُّورة والاسم، فإن فرَّقوا ذلك وميَّزوا الممكنَ من الواجب بالتمام؛ لَمَا يقولون باتحاد العالم بالحقّ سبحانه وعينيتهما، بل يرون العالَمَ متميزاً من الحقّ، ولما يقولون بوحدة الوجود، وما دام لم يزلْ من شخصٍ أثرٌ؛ لا يرى نفسه حقاً، وإن زعم أنَّه لم يبق منه أثرٌ[1]. وهذا أيضاً من قصور نظره.

والطَّائفةُ الثانيةُ وإن فرَّقوا هذه المراتب من المبدأ، وأدخلوها تحت كلمة (لا)، ونفوها بها، ولكن بقيَ جزءٌ من بقايا وجودها ثانياً بواسطة الظليَّة والأصالة، فإنَّ تعلُّقَ رتبة الظلّ وارتباطها بالأصل قويٌّ جداً، وهذه النِّسبةُ لم تكن ممحوةً من نظرهم. وأما الطَّائفةُ الأولى؛ فقد فرَّقوا جميع مراتب الممكن من الواجب بواسطة كمال المناسبة والمتابعة لحضرة خاتم الرسالة عليه من الصلوات أتمها، ومن التحيات أكملها، ونفوا الكلّ من أوَّل الأمر بكلمة (لا)، ولم يروا في الممكن مناسبةً للواجب أصلاً، ولم يثبتوا للواجب نسبةً ما قطعاً، ولم يعتقدوا أنفسهم غير المخلوق العاجز شيئاً، واعتقدوا الحقَّ سبحانه خالقَهم ومولاهم، واعتقادُ شخص نفسه عينَ مولاه أو ظلّه ثقيلٌ على هؤلاء الأكابر جداً، ما للتراب ورب الأرباب.

وهؤلاء الأكابر يحبُّون الأشياءَ لكونها مخلوقةَ الحقّ سبحانه، وتكون الأشياءُ محبوبةً في نظرهم بهذا السَّبب، وبهذه الحيثيَّة - أعني: من حيثيَّة كون العالم وأفعالهم مصنوعَ الحقّ سبحانه وأثر أفعاله وإرادته وقدرته - ينقادون ويستسلمون للأشياء بالتمام، ولا يقدرون على إنكار أفعالهم إلا بموجب الشَّريعة، فكما أنَّ هذا النوعَ من الانقياد والاستسلام والمحبَّة يحصل لأرباب التَّوحيد بسبب اعتقادهم الأشياء مظهراً لصفات الحقّ، بل عينه تعالى؛ كذلك يحصل هذا النّوع لهؤلاء الأكابر بمجرَّد ملاحظة كون الأشياء مخلوقة الحقّ ومصنوعته تعالى:

(ع) وَشَــتَّــانَ مَـا بَيْنَ الطَّرِيقَيْنِ فَـانْظُرُوا

فإنَّ نفسَ المحبوب وعينَه يمكن أن يحبّ بأدنى شيءٍ من موجبات المحبَّة، وأما مصنوعاتُه ومخلوقاتُه وعبيدُه؛ فلا يمكن تعلُّقُ المحبَّة بهم، وكونهم محبوبين بدون حصول كمال محبَّة المحبوب، ولهذه الطَّائفة العليّة حظٌّ وافرٌ من مقام العبديَّة التي هي نهايةُ مقامات الولاية، وأيّ دليلٍ أتمُّ على صحَّة حال هؤلاء الأصفياء من كون كشفهم موافقاً للكتاب والسنَّة، وظاهر الشَّريعة بالتمام، بحيث لم يتطرَّقْ إليه مقدارُ شعرةٍ من مخالفة ظاهر الشَّريعة.

اللهم اجعلنا من محبّيهم وتابعيهم بحرمة محمد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وبارك.

وكان هذا الدَّرويشُ راقم السطور أوَّلاً معتقداً لتوحيد الوجود، وحصل له علمُ هذا التَّوحيد من زمن الصبى، وبلغَ مرتبةَ اليقين، وإن لم يكن له حالٌ. ولَمّا دخل في هذا الطَّريق؛ انكشف له أوَّلاً طريقُ التَّوحيد، يعني: على وجه الحال، وسار

---

(١) أي: وشتَّان ما بين الطَّريقَين، فانظُروا رؤية نفسه حقاً ما لم يزل أثر منه. (المعرِّب)

مدَّةً في مراتب هذا المقام، وفاضتْ عليه علومٌ وافرةٌ مناسبةٌ لهذا المقام، وصارت المشكلاتُ والوارداتُ التي تَرِد لأرباب التَّوحيد الوجوديّ كلّها منكشفةً، وأفيضت علوم حلّها أيضـًا، وبعد مدَّةٍ غلبت على هذا الدرويش نسبةٌ أخرى، وتوقَّفَ في التَّوحيد الوجوديّ -يعني: في مطابقته للواقع وعدمه - عند غلبتها عليه، ولكن هذا التَّوقُّفَ كان بحسن الظنّ لا بالإنكار، وبقي على ذلك التوقُّف مدَّةً. ثم انجرَّ الأمرُ أخيراً إلى الإنكار، وألهم إليه: أنَّ هذا المقامَ مقامٌ سفليٌّ ينبغي الترقِّي على مقام الظليَّة، ولكنَّه لم يكن في هذا الإنكار صاحبَ اختيارٍ، ولم يرضَ أن يفارِقَ هذا المقامَ بسبب إقامة المشائخ العظام فيه، ولمّا وصل إلى مقام الظليَّة، ووجد نفسَه وسائرَ العالم ظلّاً كما قال به الطَّائفةُ الثانيةُ؛ تمنَّى عدمَ مفارقته ذلك؛ لظنِّه أنَّ الكمالَ في وحدة الوجود، ولهذا المقام - يعني: مقامَ الظليَّة - مناسبةٌ بذاك المقام في الجملة، ثم رقَّوه من هذا المقام أيضـًا اتِّفاقـًا من كمال العناية وغاية اللُّطف به على أعلى منه، وبلَّغوه مقام العبديَّة، فظهر حينئذٍ كمال هذا المقام، واتَّضح علوُّه، فصار تائبـًا من المقامات التحتانيَّة، ومستغفراً منها، فإن لم يسلكوا بهذا الدرويش بهذا الطَّريق، ولم يظهروا له فوقيَّةَ بعض بعضـًا؛ كان قد ظنّ ترقِّيه على هذا المقام تنزُّلاً من ذاك المقام إليه، فإنه لم يكن عنده مقامٌ أعلى من مقام التَّوحيد الوجوديّ، والله يحق الحق وهو يهدي السبيل.

وينبغي أن يعلم أنَّ منشأَ تفاوت العلوم والمعارف في المكاتيب والرسائل الصادرة من هذا الدَّرويش - بل من كلّ سالكٍ - هو حصولُ هذه المقامات المتفاوتة، فإنَّ لكلِّ مقامٍ علومـًا ومعارف خاصَّةً به، ولكلِّ حالٍ قيلاً وقالاً، فعلى هذا لا تدافُعَ في العلوم ولا تناقُضَ بينها، بل ذلك مثلُ نسخ الأحكام الشَّرعيَّة، فلا تكن من الممترين. وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وآله وسلم.

المَكتُوبُ الحَادِي وَالسِّتُّونَ وَالمِائَة

إلى الـملَّا صالحٍ البَدَخْشيِّ في بيانِ أنَّ المَقصودَ من طيِّ مَنازِلِ السُّلوك: حصولُ الإيمانِ الحَقيقيِّ المَوقوفِ على اطمِئنانِ النَّفس.

اعلم أنَّ المقصودَ من طيِّ منازل السُّلوك: حصولُ الإيمان الحقيقيِّ الذي هو مربوطٌ باطمئنان النَّفس، وما لم تطمئنَّ النَّفسُ؛ لا تُتصوَّرُ النَّجاةُ، ولا تصل النَّفسُ إلى مرتبة الاطمئنان ما لم تسلَّطْ عليها سياسةُ القلب، وسياسةُ القلب إنّما تتيسّر إذا كان القلبُ فارغـًا من جميع ما هو من قِبَل النَّفس، وحصلت له السلامةُ من التعلُّق بما سوى الحقّ سبحانه، وعلامةُ سلامته من ذلك التعلُّق: نسيانُه ما سوى الله تعالى وتقدس، وما بقي مقدارُ شعرةٍ من الشعور بالغير؛ فالسلامةُ بعيدةٌ، فطوبى لمن سلّم قلبه لربه. والسَّعيُ إلى أن تشرف[1] القلب بالسَّلامة، وينجرَّ الأمرُ إلى اطمئنان النَّفس لازمٌ، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]. والسلام.

المَكتُوبُ الثَّانِي وَالسِّتُّونَ وَالمِائَة

إلى الخواجه محمَّدٍ صدِّيقٍ في بيانِ فضيلَة شَهرِ رمضانَ، وبيانِ مُناسبَته للقُرآنِ المجيدِ، وما يناسِبُه.

باسمه سبحانه، اعلم أنَّ شأنَ الكلام الذي هو من جملة الشؤونات الذاتيّة جامعٌ لجميع الكمالات الذاتيّة والشؤونات الصِّفاتيَّة كما ذكر في العلوم السَّابقة، وشهرُ رمضان المبارك جامعٌ لجميع الخيرات والبركات، وكلُّ خيرٍ وبركةٍ؛ فهو مفاضٌ من حضرة الذات تعالت وتقدّست، ونتيجةُ شؤوناته سبحانه، وكلُّ شرٍّ ونقصٍ ظهر في عرصة الوجود؛ فمنشؤه الذَّاتُ الحادثةُ والصِّفاتُ المستحدثةُ، ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] نصٌّ قاطعٌ........

(١) كذا في النسخ، ولعل الصواب: (يتشرَّف).

في ذلك، فجميعُ خيرات هذا الشَّهر وبركاته نتيجةُ تلك الكمالات الذاتيّة التي استجمعت في شأن الكلام، والقرآنُ المجيدُ حاصلُ تمام حقيقة ذلك الشَّأن الجامع، فلهذا الشَّهر المبارك مناسبةٌ تامَّةٌ للقرآن المجيد من جهة كون القرآن جامعاً لجميع الكمالات، وهذا الشَّهرُ لجميع الخيرات التي هي نتائجُ تلك الكمالات وثمراتها، وهذه المناسبةُ كانت باعثةً على نزول القرآن في هذا الشهر، قال الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وليلةُ القدر في هذا الشهر خلاصةُ هذا الشَّهر وزبدتُه، فهو بمنزلة اللبّ، وهذا الشَّهرُ بمنزلة قشره، فمن مَرَّ عليه هذا الشهرُ وهو متلبِّسٌ بالجمعيَّة، وصار محظوظاً من خيراته وبركاته؛ يكن موفَّقاً لجمعيَّة تمام السنة، ويفوز بالخيرات والبركات فيها. وفَّقنا الله سبحانه للخيرات والبركات في مثل هذا الشهر المبارك، ورزقنا النصيبَ الأعظمَ.

قال حضرةُ خاتم الرسالة عليه الصلاة والسلام والتحية: «**إِذَا أَفْطَرَ أَحَدُكُمْ؛ فَلْيُفْطِرْ عَلَى تَمْرَةٍ، فَإِنَّهُ بَرَكَةٌ**»(١)، وأفطر النبيّ ﷺ بالتمر(٢)، وكونُ التمرة بركةً؛ لأنَّ شجرتها النخلة مخلوقةٌ على عنوان الجامعيَّة وصفاتٍ أعدليّةٍ كالإنسان، ولهذا سمّى النبيُّ ﷺ النخلة عمَّةَ بني آدم؛ لكونها مخلوقةً من بقية طينة آدم عليه السلام، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**أَكْرِمُوا عَمَّتَكُمُ النَّخْلَةَ، فَإِنَّهَا خُلِقَتْ مِنْ بَقِيَّةِ طِينَةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ**»(٣)، وتسميتُه بركةً يمكن أن تكون باعتبار هذه الجامعيَّة، فالإفطارُ بثمرتها - التي هي التمرةُ - تكون جزءاً من المفطر بها، وحقيقتُها الجامعيَّةُ تكون جزءاً من حقيقته باعتبار تلك الجزئيَّة، ويكون آكلُها جامعاً لكمالات غير متناهيةٍ مندرجةٍ في حقيقة التمر الجامعة بذلك الاعتبار، وهذا المعنى وإن كان حاصلاً في أكله مطلقاً، ولكنَّه وقتَ الإفطار الذي هو أوانُ خلوّ الصائم عن الشهوات المانعة واللذَّات الفانية يكون تأثيرُه أزيدَ، وظهورُ هذا المعنى فيه يكون أتمَّ وأكملَ، وما قال النبي ﷺ: «**نِعْمَ سَحُورُ الْمَرْءِ التَّمْرُ**»(٤) يمكن أن يكون ذلك باعتبار أنَّ في غذائه الذي يصير جزءاً من الأكل تكميلُ حقيقته، لا تكميلُ حقيقة الغذاء، ولَمّا كان هذا المعنى مفقوداً وقت الصوم؛ رغَّب في التسحُّر بالتمر تلافياً لهذا المعنى، وكان في أكله فائدةُ أكل جميع المأكولات، وتبقى بركتُه باعتبار جامعيّته إلى وقت الإفطار، وهذه الفائدةُ الغذائيةُ المذكورةُ إنّما تترتَّبُ إذا وقع ذلك الغذاءُ على وجهٍ شرعيٍّ، ولم يجاوز حدود الشرع مقدار شعرةٍ. وأيضاً إنَّ حقيقةَ هذه الفائدة إنّما تتيسَّرُ إذا كان أكله قد جاوز الصورةَ، وبلغ المعنى والحقيقةَ، واطمئنَّ عن الظَّاهر بالباطن، فحينئذٍ يكون ظاهرُ الغذاء ممداً لظاهره، وباطنُه مكملاً لباطنه، وإلا؛ ففائدتُه مقصورةٌ على الإمداد الظَّاهريّ، وآكله في عين القصور: (شعر)

اجْتَـهِـدْ فِـي جَـعْـلِ أَكْـلِ جَـوْهَـراً ... ثُـمَّ كُـلْ مِـنْ بَـعْـدِ ذَا مَـا تَـشْـتَـهِـي

وهذا - أعني: تكميل الغذاء لآكله - هو سرُّ تعجيل الإفطار وتأخير السحور. والسلام.

المَكتُوبُ الثَّالِثُ وَالسِّتُونَ وَالمِائَة

إلى السَّيِّد النَّقيب الشَّيخ فريدٍ في بيانِ أنَّ كلاً منَ الإسلامِ والكُفرِ ضدُّ الآخرِ، واجتِماعُهما محالٌ، وإعزازُ أحَدِهما مستلزمٌ لإذلالِ الآخرِ... إلخ.

الحمد لله الذي أنعم علينا وهدانا إلى الإسلام، وجعلنا من أمة محمد عليه الصلاة والسلام. اعلم أنَّ نقدَ سعادة الدَّارين مربوطٌ باتِّباع سيد الكونين عليه الصلاة والسلام فحسب، والاتِّباعُ إنّما هو بإتيان أحكام الإسلام، وإجرائها بين الأنام، ورفع رسوم الكفر وإبطالها ودفعها عن......................

(١) أخرجه أبو داود (٢٣٥٥)، والترمذي (٦٥٨) واللفظ له، وابن ماجه (١٦٩٩) من حديث سلمان بن عامر رضي الله عنه.

(٢) أخرج أبو داود (٢٣٥٦)، والترمذي (٦٩٦) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: (أن النبي ﷺ كان يفطر على رطبات قبل أن يصلي، فإن لم تكن رطبات فعلى تمرات، فإن لم تكن حسا حسوات من ماء).

(٣) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٤٥٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١٣٣) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أبو داود (٢٣٤٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه: (المؤمن) بدل: (المرء).

الخاصّ والعامّ، فإنَّ الكفرَ والإسلامَ ضدَّان لا يجتمعان إلى قيام الساعة وساعة القيام، فإثباتُ أحدهما موجبٌ لرفع الآخر، وإعزاز أَحَدِهِمَا مستلزمٌ لإذلال الآخر، وقد قال الله سبحانه خطاباً لنبيه وحبيبه ﷺ: ﴿يَآ أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]، فإذا أمر الله سبحانه رسوله الذي هو موصوفٌ بالخلق العظيم بجهاد الكفار والغلظة عليهم؛ عُلِمَ أنَّ الغلظةَ عليهم داخلٌ في الخُلُق العظيم، فعزَّةُ الإسلام في مذلَّة الكفر وأهله، فمن أعزَّ أهل الكفر؛ فقد أذلَّ أهل الإسلام، والإعزازُ ليس هو عبارة عن تعظيمهم وإجلاسهم في الصَّدر ألبتّة، بل إدخالهم في المجالس ومصاحبتهم والتكلّم معهم بلغاتهم كلُّ ذلك داخلٌ في الإعزاز، فإنَّ اللَّائقَ بهم إبعادُهم مثل الكلاب، فإن تعلَّقَ بهم غرضٌ من الأغراض الدنياويَّة بحيث لا يكاد يتيسّرُ بدونهم؛ فحينئذٍ ينبغي أن يختلطَ بهم بقدر الضَّرورة مراعياً شيمة عدم الالتفات إليهم والاعتداد بهم، وكمالُ الإسلام في ترك هذا الغرض بالكليَّة، وعدم الالتفات إليهم، والاختلاط بهم، وقد سمى الله سبحانه أهلَ الكفر في كلامه المجيد عدوّه وعدوّ رسوله، فالاختلاطُ بأعداء الله وأعداء رسوله من أعظم الجنايات، وأقلُّ ضرر المخالطة بهؤلاء الأعداء والمصاحبة معهم: حصولُ الوهن والضَّعف في قدرة إجراء الأحكام الشَّرعيَّة، ورفعُ رسوم الكفر الشنيعة لمانع حياء المؤانسة بهم، وهذا الضررُ عظيمٌ جداً، فإنَّ المودَّةَ والألفةَ مع أعداء الله ينجرُّ إلى عداوة الله عز وجل وعداوة رسوله ﷺ، وربَّما يزعم الإنسانُ أنَّه من أهل الإسلام، وأنَّه مؤمنٌ بالله ورسوله، ولكنَّه لا يدري أنَّ أمثالَ هذه الأعمال الشَّنيعة يُذْهِبُ دولةَ الإسلام عنه بالتمام. نعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيآت أعمالنا: (شعر) تُـحِـبُّ عَـدُوِّي ثُـمَّ تَـزْعُـمُ أَنَّـنِـي أُحِـبُّـكَ إِنَّ الْـعَـقْـلَ مِـنْـكَ لَـعَـازِبُ

وشغلُ هؤلاء الملاعين أعداءِ الدِّين الاستهزاءُ بالإسلام، والسخريةُ بأهله، منتظرين بأنَّهم إن وجدوا فرصةً؛ يخرجوننا من الإسلام أو يقتلوننا جميعاً، فينبغي لأهل الإسلام أيضاً الاستحياءُ والحميةُ، فإنَّ الحياء من الإيمان، والحميةُ الإسلاميةُ ضروريَّةٌ، فاللائقُ بأولي الأمر أن يكونوا في إذلال هؤلاء المخذولين دائماً، وقد ارتفعت الجزيةُ من أهل الكفر في بلاد الهند رأساً وبالذات، وذلك بواسطة شآمة مصاحبة أهل الكفر مع سلاطين هذه الديار.

والمقصودُ الأصليُّ من أخذ الجزية منهم: هو إذلالُهم، وهذا الإذلالُ يكون على حدٍّ لا يقدرون لبس الثياب النفيسة خوفاً من أخذ الجزية، ولا يقدرون على التَّجمُّل، بل يكونون خائفين وَجِلين من أخذ أموالهم على الدوام، وكيف يتجاسَرُ السَّلاطين على المنع من أخذ الجزية والحالُ أنَّ الحقَّ سبحانه وضع الجزيةَ ذلاً لهم؟

والمقصودُ من أخذها فضيحتهم ومذلّتهم، وغلبةُ أهل الإسلام وعزّتُهم:

(ع) وَفِـي إِذْلَالِ كُـفْـرٍ عِـزُّ الْإِسْـلَامِ

وعلامةُ حصول دولة الإسلام: بغضُ أهل الكفر وكراهتُهم، وقد سماهم الله سبحانه في كلامه المجيد نجساً، وفي محلّ رجساً(١)، فينبغي إذاً أن يكون أهلُ الكفر في نظر أهل الإسلام نجساً ورجساً، فإذا رأوهم كذلك؛ فلا جَرَم يجتنبون عن صحبتهم، ويستكرهون مجانستهم، والرجوعُ إلى هؤلاء الأعداء في شيءٍ من الأشياء والعملُ بمقتضى رأيهم وحكمهم من كمال إعزازهم، فما يكون حالُ من يطلب منهم الهمَّةَ ويتوسَّلُ بهم؟ وقد قال الله سبحانه في..............

---

(١) قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨]، وقال في ذم المنافقين: ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ [التوبة: ٩٥].

كلامه المجيد: ﴿وَمَا دُعَآءُ الْكَافِرِينَ اِلَّا فِى ضَلَالٍ﴾ [الرعد: ١٤]، فدعاءُ هؤلاء الأعداء باطلٌ عارٍ عن الحاصل، فأنّى يكون احتمالُ الإجابة فيه؟ بل يستلزم ذلك فساداً كبيراً من إعزاز هؤلاء الكلاب. ولئن باشَرَ هؤلاء المخذولون الدُّعاءَ؛ يتوسَّلون بأصنامهم، فينبغي التفكُّر إلى أين ينجرُّ الأمر، بل لا تبقى رائحةٌ من الإسلام. قال واحدٌ من الأعزة: ما لم يصل أحدكم إلى حدّ الجنون؛ لا يصلُ إلى الإسلام، والجنونُ عبارةٌ عن عدم الالتفات إلى نفع نفسه وضرره، وعدمُ المبالاة بحصول شيءٍ وفوته في إعلاء كلمة الإسلام والمسلمين، فإذا حصل الإسلامُ؛ فقد حصل رضا الحقّ ورضا رسوله عليه الصلاة والسلام، ولا دولةَ أعظمُ من رضا المولى سبحانه. رضينا بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد عليه الصلاة والسلام نبياً ورسولاً، وأَحْيِنا يا رب على ذلك بحرمة سيد المرسلين، عليه وعلى آله من الصلوات أفضلها، ومن التسليمات أكملها. والسلام أولاً وآخراً.

فقد كتبتُ ما هو ضروريٌّ وما لا بُدَّ منه عجالة الوقت بطريق الإجمال وأرسلته، فإن كان التوفيقُ رفيقاً بعد ذلك؛ أكتبُ مفصَّلاً وأرسِلُه، وكما أنَّ الإسلامَ ضدُّ الكفر؛ كذلك الآخرةُ ضد الدنيا، لا تجتمع إحداهما بالأخرى، وتركُ الدنيا على نوعين: تركُها مع جميع مباحاتها إلا قدرَ الضَّرورة، وهذا القسمُ أعلى نوعي ترك الدُّنيا، والآخرُ: الاجتنابُ عن محرَّماتها ومشتبهاتها مع التَّنعُّم بمباحاتها، وهذا القسمُ أيضاً عزيزُ الوجود جدّاً، خصوصاً في هذه الأزمان: (شعر)

إِذَا قِسْنَا السَّمَا بِالْعَرْشِ يَنْحَطُّ ... وَمَا أَعْلَاهُ إِنْ قِسْنَا بِأَرْضِ

فلا بُدَّ بالضَّرورة من الاجتناب عن استعمال الذَّهب والفضَّة ولبس الحرير وأمثالها مما هو محرَّمٌ في الشَّريعة المصطفوية، على مصدرها الصلاة والسلام والتحية، فإن حُفِظَتْ أواني الذهب والفضة للتجمُّل وزينة البيت؛ فلا بأسَ به، بل له مساغ في الجملة، ولكنَّ استعمالَها بأيِّ وجهٍ كان من شرب ماءٍ وأكل طعامٍ فيها ووضع العطر واتخاذ المكحلة منها وغير ذلك حرامٌ.

والحاصلُ: إنَّ الحقَّ سبحانه وسَّع دائرةَ المباح جداً، حتى إنَّ التَّنعُّمات والتمتُّعات بها أزيدُ منها بالأمور المحرمة، مع أنَّ في استعمال المباحات رضا الحقّ سبحانه، وفي استعمال المحرمات سخطُه تعالى، والعقلُ السليمُ لا يجوِّزُ أصلاً اختيارَ لذّةٍ فانيةٍ فيها عدمُ رضا مولاه، مع أنَّ مولاه جوَّز له بدل تلك اللذة المحرمة اللذَّةَ المباحة. رزقنا الله سبحانه وإياكم الاستقامةَ على متابعة صاحب الشَّريعة، عليه وعلى آله الصلاة والتحية.

وينبغي الرجوعُ في المعاملة إلى العلماء المتورعين دائماً، والاستفسارُ منهم، والعملُ بمقتضى فتواهم، فإنَّ طريقَ النَّجاة هو الشَّريعةُ، وما عدا الشَّريعة كلُّه باطلٌ لا اعتبارَ له، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ اِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢] والسلامُ أولاً وآخراً.

المكتوبُ الرَّابعُ والسِّتُّونَ والمائَةُ

إلى الحافظِ بهاءِ الدِّينِ السَّرهَنْدِيِّ في بيانِ أنَّ فيضَ الحقِّ سُبحانَه وتعالى واردٌ على الخَواصِّ والعَوامِّ على الدَّوامِ، والتَّفاوت إنَّما هو بقبولِه وعدمِ قبولِه من طرَفِ العَبد.

رزقكم الله سبحانه الاستقامةَ على جادة الشَّريعة بمنّه وكرمه. اعلم أنَّ فيضَ الحقّ سبحانه من قِسْم الأولاد والأموال، والهداية والرُّشد، وإن كان وارداً على الدَّوام من غير تفرقةٍ بين الخواصّ والعوامّ، والكِرَام واللِّئام، ولكنَّ التفاوتَ ناشئٌ من هذا الطرف، فبعضٌ يقبل الفيوضَ، وآخرُ لا يقبلها، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّٰهُ وَلٰكِنْ كَانُوا اَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ٣٣] ألا ترى أنَّ الشمسَ تشرق على القَصّار..

والثَّوب بالسَّوِيَّة، ومع ذلك تسوِّدُ وجهَ القصَّار، وتبيِّضُ الثوبَ؟ وعدمُ قبول فيض الحقّ سبحانه إنّما هو بسبب الإعراض عن جناب قدسه جلّ سلطانه، فإنَّ الإدبارَ لازمٌ للمعرض، والحرمانَ من النِّعمة واجبٌ عليه.

لا يقال: إنَّ كثيراً من المعرضين متنعمون بتنعماتٍ عاجلةٍ، ولم يكن إعراضُهم سبباً لحرمانهم؛ لأنّا نقول: إنَّ تلك نقمةٌ ظهرت في صورة نعمةٍ على سبيل الاستدراج لطغيانهم؛ لينهمكوا في الإعراض والضلالة، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۞ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦]، فالدنيا وتنعُّماتها مع وجود الإعراض عينُ الاستدراج، الحذر الحذر.

المكتوب الخامس والستون والمائة

إلى السَّيِّد النَّقيب الشَّيخ فريدٍ في التَّرغيبِ في متابعةِ صاحبِ الشَّريعةِ، عليه وعلى آله الصَّلاة والتَّحيَّة، وبغضِ مخالِفي الشَّريعَة، وعَداوتِهم، والغِلظَة عليهم.

شرَّفكم الله سبحانه بتشريف الميراث المعنويّ، من النبي الأميّ القرشيّ الهاشميّ، عليه وعلى آله من الصلوات أفضلها، ومن التسليمات أكملها، كما شرَّفكم بتشريف الميراث الصوريّ، ويرحم الله عبداً قال آمينا. وميراثُه الصوريُّ يتعلَّقُ بعالم الخلق، وميراثُه المعنويُّ بعالم الأمر الذي هو مقرُّ الإيمان والمعرفة، ومحلُّ الرشد والهداية. وشكرُ نعمة الميراث الصوريّ: هو التحلّي بالميراث المعنويّ، ولا يتيسّرُ ذلك إلا بكمال الاتباع المصطفويّ عليه الصلاة والسلام، فعليكم باتّباعه في أوامره ونواهيه، والمتابعةُ فرعُ كمال محبّته عليه الصلاة والسلام:

(ع) إنَّ الْـمُـحِـبَّ لِـمَـنْ يُـحِـبُّ مُـطِـيـعُ

وعلامةُ كمال المحبَّة: كمالُ بغض أعدائه ﷺ، وإظهارُ العداوة لمخالفي شريعته عليه الصلاة والسلام، ولا سبيلَ للمداهنة في المحبَّة، فإن المحبَّ والهٌ بالمحبوب، هائمٌ به، لا يطيق مخالفَتَه، ولا أن يميل إلى مخالفيه، ولا أن يلين لهم بوجهٍ من الوجوه، ولا يجتمع محبَّةُ المتباينين، فإنَّ الجمعَ بين الضدَّين محالٌ، بل محبَّةُ أحدهما تستلزمُ عداوةَ الآخر، ينبغي أن يتأمّل تأمُّلاً جيداً، وأن يتدارك ما مضى قبل فوت الفرصة، فإنَّه إذا فاتت الفرصةُ لا يحصل شيءٌ غير الندامة:

(شعر) وَحِـيـنَ الصُّـبْـحِ تَبْدُو كَـالـنَّـهَـارِ ... حَـقِـيـقَـةُ مَـنْ هَـوِيـتُـهُ فِـي الـظَّـلَامِ

غيره: سَــوفَ تَـرَى إِذَا انْـجَلَـى الْـغُـبَارُ ... أَفَـرَسٌ تَـحْـتَـكَ أَمْ حِـمَـارُ

ومتاعُ الدنيا متاعُ الغرور، وترتَّبت عليه ـ الأخرويَّةُ والأبديّةُ، فإن تيسّرتْ متابعةُ سيد الأولين والآخرين في هذه الأيّام المعدودة؛ فالنجاةُ الأبديّةُ مرجوةٌ، وإلا؛ فخسارةٌ في خسارةٍ كائناً من كان، وأيُّ عملٍ عملُه من الخير: (شعر)

مُحَمَّـدٌ سَــيِّـدُ الْكَوْنَيْنِ مِنْ عَرَبِ ... خَابَ الـذِي لَمْ يَكُنْ فِي بَـابِـهِ التُّرَبَا

وحصولُ دولة تلك المتابعة العظمى ليس بموقوفٍ على ترك الدنيا بالكليَّة حتى يكون عسيراً، بل إذا أدّيت الزكاةَ المفروضةَ مثلاً؛ فله حكمُ الترك في عدم وصول المضرَّة، فإنَّه لا ضررَ في المال المزكَّى، فمعالجةُ دفع الضرر عن المال الدنياويّ إخراجُ الزكاة، وإن كان التركُ الكليُّ أَوْلى وأفضلَ منه، ولكنَّ أداءَ الزكاة يقوم مقامه: (شعر)

إِذَا قِسْنَا السَّمَا بِالْعَرْشِ يَنْحَطُّ   وَمَا أَعْلَاهُ إِنْ قِسْنَا بِأَرْضِ

فينبغي صرفُ جميع الهمة في إتيان أحكام الشَّريعة، وتعظيم أهلها من العلماء والصلحاء، والاجتهاد في ترويجها، وإذلال أهل الأهواء والبدع، فإن من وقَّر صاحب بدعةٍ؛ فقد أعان على هدم الإسلام[1]، ومعاداةُ الكفار الذين هم أعداءُ الله وأعداءُ رسوله ﷺ، والسعيُ في إهانتهم وتحقيرهم، وعدم إعزازهم بوجهٍ من الوجوه، وعدمُ إدخالهم في المجالس أصلاً، وعدمُ الأنس بهم، وسلوكُ طريق الغلظة والشدَّة عليهم، وعدمُ الرجوع إليهم في أمرٍ من الأمور مهما أمكن، فإن اضطرت الضَّرورةُ فرضاً إلى الرجوع إليهم؛ ينبغي قضاءُ تلك الحاجة منهم بكرهٍ واضطرارٍ، مثل قضاء الحاجة الإنسانيَّة. الطَّريقُ الذي يوصل إلى جناب قدس جدِّكم المعظَّم هو هذا، ومن لم يمشِ من هذا الطَّريق؛ فالوصولُ إلى ذاك الجناب المقدَّس مشكلٌ، هيهات هيهات: (شعر)

كَيْفَ الْوُصُولُ إِلَى سُعَادَ وَدُونَهَا   قُلَلُ الْجِبَالِ وَدُونَهُنَّ خُيُوفُ

ماذا نكتب أزيد من هذا؟ (شعر)

بَثَثْتُ لَدَيْكُمْ مِنْ هُمُومِي وَخِفْتُ أَنْ   تَمَلُّوا وَإِلَّا فَالْكَلَامُ كَثِيرٌ

المَكْتُوبُ السَّادِسُ وَالسِّتُّونَ وَالمِائَةُ

إلى الملَّا محمَّدٍ أمينٍ في عدَمِ الاغترارِ بالحَياةِ اليسيرَةِ، والجهدِ في إزالَةِ المَرضِ القَلبيِّ بالذِّكرِ الكَثيرِ.

أيها المخدومُ، إلامَ تحنُّ إلى نفسك كالأمِّ الشَّفيقة، وحتّامَ تتجرَّعُ الغصص من أجلها، وتغتمُّ عليها كالأخت الشقيقة، ينبغي أن تفرض الكلّ ميتاً وجماداً خالياً عن الحسّ والحركة، ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] نصٌّ قاطعٌ في هذا المعنى، وفكرُ إزالة المرض القلبيّ بالذِّكر الكثير في هذه الفرصة اليسيرة من أهمِّ المهمات، ومعالجةُ العلّة المعنويَّة بذكر الربّ الجليل في هذا الوقت القليل من أعظم المقاصد، وأجلِّ القُربات. القلبُ الذي هو متعلّقٌ بالغير كيف يتوقَّعُ منه الخيرُ؟ والروحُ التي هي مائلةٌ إلى الشرّ النَّفسُ الأمَّارةُ أفضلُ منها وأخيرُ؟ المطلوبُ منا هناك كلّه سلامةُ القلب، وتخلُّصُ الروح وصفاؤها، ونحن القاصرون في فكر تحصيل أسباب تعلُّق الرُّوح والقلب دائماً، هيهات هيهات، وماذا نصنع؟ ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ٣٣] ولا ينبغي أن تغتمَّ من جهة الضَّعف الظَّاهريّ، عسى أن يتبدَّل صحَّةً وعافيةً إن شاء الله تعالى، ولا تشويشَ في خاطرِ هذا الجانب من تلك الجهة. وقد طلبتم الثوبَ الذي لبسه الفقيرُ، فأرسلت قميصاً، فينبغي أن تلبسه مترصِّداً لنتائجه وثمراته، فإنَّه كثيرُ البركة: (شعر)

خَابَ الَّذِي قَدْ غَدَا فِي قَلْبِهِ مَرَضُ   وَفَازَ مَنْ كَانَ فِيهِ حِدَّةُ الْبَصَرِ

والسلام على من اتبع الهدى والتزم متابعة المصطفى، عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات.

المَكْتُوبُ السَّابِعُ وَالسِّتُّونَ وَالمِائَةُ

إلى هَرْدِي رَام الهِنْدُو الذي أظهرَ الإخلاصَ لهذه الطَّائفةِ العَليَّة في التَّحريضِ على عِبادةِ اللهِ تعالى، والتَّحذيرِ عن عبادةِ الآلهَة الباطِلة.

قد وصل إلينا منكم مكتوبان، وفهم من كلٍّ منهما محبَّةُ الفقراء، والالتجاءُ إلى هذه الطَّائفة العليّة، نِعْمَ النعمةُ أن تُمَنَّ على شخصٍ بهذه الدَّولة: (شعر)

وَمَا هُوَ مِنْ شَرْطِ الْبَلَاغِ أَقُولُهُ   فَخُذْ مِنْهُ نُصْحاً خَالِصاً أَوْ مَلَالَةً

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٧٧٢) من حديث عائشة رضي الله عنها، وأخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٢١٨) من حديث عبد الله بن بسر رضي الله عنه.

اعلم وتنبَّه أنَّ ربنا وربكم - بل ربُّ العالمين من السّموات والأرضين، والعلويين والسفليين - واحدٌ، ليس كمثله شيءٌ، منزَّهٌ عن الشَّبَه والمثال، مبرَّأٌ عن الشَّكل وكلّما يمرُّ على الخيال، وكلٌّ من الأبوَّة والبنوَّة في حقّه محالٌ، وليس للكفاءة والتمثال في حضرته مجالٌ، وزعمُ شائبة الاتحاد والحلول مستهجنٌ في حضرة أنسه، ومظنَّةُ الكمون والبروز مستقبحٌ في جناب قدسه، ليس بزمانِيٍّ، فإنَّ الزَّمان مخلوقه تعالى، وليس بمكانِيٍّ، فإنَّ المكانَ مصنوعُه سبحانه، لا بدايةَ لوجوده، ولا نهايةَ لبقائه، وكلُّ خيرٍ وكمالٍ ثابتٌ له سبحانه، وكلُّ نقصٍ وزوالٍ مسلوبٌ عن جنابه المتعال، فيكون مستحق العبادة هو تعالى، ورام وكرشن وأمثالهما من آلهة الهنود كلُّها من أحقر مخلوقاته تعالى متولِّداتٌ من المخلوقين، فإنَّ رام ولدُ جسرت، وأخو لكهمن، وزوج سيتا، فإذا كان رام غيرَ قادرٍ على حفظ زوجته؛ فكيف يُمِدُّ الغيرَ؟ ينبغي استعمالُ العقل، لا اتِّباعُ هؤلاء وتقليدُهم، فعارٌ على شخص ألف عارٍ اعتقادُ أنَّ ربَّ العالمين هو رام وكرشن، وذكره تعالى بهما، ومَثَلُه مثلُ شخصٍ يذكر السلطان المعظَّم باسم أرذل الكناسين، وزعمُ اتِّحاد رام ورحمن من نهاية عدم العقل، فإنَّ الخالقَ لا يتَّحدُ بالمخلوق، وقبل خلق رام وكرشن ما كان أحدٌ يذكر ربّ العالمين باسم رام وكرشن، فلأيّ شيءٍ يُطْلَقُ اسمهما عليه سبحانه وتعالى بعد ظهورهما، ويعتقدون أنَّ ذكرَهما ذكرُ رب العالمين، حاشا وكلا، ثم حاشا وكلا، ولقد مضى من أنبيائنا عليهم الصلوات والتسليمات مائةُ ألف وأربع وعشرون ألفاً[1] تقريباً كلُّهم دعوا الخلقَ إلى عبادة الخالق، ورغَّبوهم فيها، ومنعوهم عن عبادة غيره، واعتقدوا أنفسهم عبيداً عاجزين، وكانوا خائفين ووَجِلين من هيبته وعظمته تعالى. وآلهةُ الهنود رغَّبوا الخلق في عبادتهم، واعتقدوا أنفسهم آلهةً، فإنَّهم وإن كانوا قائلين بوجود ربّ العالمين، ولكنَّهم أثبتوا له سبحانه الحلولَ فيهم، واتّحادَه بهم، فدعوا الخلقَ إلى عبادتهم من هذه الجهة، وأمروهم بأن يقولوا لهم آلهةً، ووقعوا في المحرمات من غير تحاشٍ، زعماً منهم أنَّ الإله لا يكون ممنوعاً من شيءٍ أصلاً، بل يتصرَّفُ في خلقه كيف يشاء، وأقسامُ هذه التخيلات الفاسدة كثيرةٌ فيهم، ضلُّوا فأضلُّوا، بخلاف أنبيائنا عليهم الصلواتُ والتسليماتُ، فإنَّهم امتنعوا عن كلّما منعوا الخلقَ منه على الوجه الأتمّ والأكمل، واعتقدوا أنفسهم بشراً مثل سائر البشر:

(ع) وَشَـتَّـانَ مَـا بَيْنَ الطَّرِيقَيْنِ فَـانْظُرُوا

المَكْتُوبُ الثَّامِنُ وَالسِّتُّونَ وَالمِائَةُ

إلى الخواجه محمَّدٍ قاسِمِ بنِ الخواجگي الأَمْكَنْگِيِّ في مدحِ الطَّرِيقَةِ النَّقْشبَنْدِيَّةِ، وذمِّ من أحدثَ فيها ما ليسَ منها.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وآله الطاهرين أجمعين.

وبعدَ تبليغ دعواتٍ موفورةٍ، وتحياتٍ غيرِ محصورةٍ، إلى الجناب العالي سلالة المشائخ الكرام، نتيجة الأولياء العظام، حضرة المخدوم زاده، المستقيم على الجادة، سلّمه الله سبحانه وأبقاه، وإظهارِ اشتياق رؤيته وتمنّي لقائه: (شعر)

كَيْفَ الْوُصُـولُ إِلَى سُـعَـادَ وَدُونَهَـا   قُـلَـلُ الْـجِـبَـالِ وَدُونَـهُـنَّ حُـيُـوفُ

ليكن معلوماً لجنابه العالي: أنَّ علوَّ هذه الطَّريقة العليّة، ورفعةَ الطّبقة النقشبنديَّة إنّما هي بواسطة التزام السنّة السنيَّة، والاجتناب عن البدعة الشنيعة، ولهذا اجتنب أكابرُ هذه ....

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٢٢٨٨)، وابن حبان (٣٦١)، والطبراني في «الكبير» (٧٨٧١) من حديث أبي ذر ﷺ. قال: قلت: يا رسول الله، كم وفي عدة الأنبياء؟ قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، الرسل من ذلك ثلاث مائة وخمسة عشر جماً غفيراً».

الطَّريقة العليّة عن ذكر الجهر، وأمروا بالذِّكْر القلبيّ، ومنعوا من السَّماع والرَّقص والوجد والتَّواجد وغير ذلك مما لم يكن في عصره عليه الصلاة والسلام، وعصر الخلفاء الراشدين عليهم الرضوان، واختاروا الخلوةَ في الجلوة بدل خلوة الأربعين؛ لعدم كونها في الصَّدر الأول، فلا جرم ترتَّبتْ على ذلك الالتزام نتائجُ عظمى، وتفرَّعتْ على ذاك الاجتناب ثمراتٌ كثيرةٌ، ومن ههنا كانت نهايةُ غيرهم مندرجةً في بدايتهم، وكانت نسبتُهم فوق جميع النِّسَب، كلامُهم دواءُ الأمراض القلبيَّة، ونظرُهم شفاءُ العلل المعنويَّة، توجُّهُهم الوجيهُ ينجي الطَّالبين من تعلُّق الكونين، وهمَّتُهم الرفيعةُ الشأن ترفعُ المريدين إلى ذروة الوجوب من حضيض الإمكان: (شعر)

مَـا أَحْسَـنَ النَّقْشَـبَنْدِيِّينَ سِـيرَتَهُمْ ... يَمْشُـونَ بِـالرَّكْبِ مَخْفِيِّينَ لِلْحُرُمِ

تُزِيلُ وَسْـوَسَـةَ الْخَلْوَاتِ صُـحْبَتُهُمْ ... عَنْ قَلْبِ أَصْحَابِهِمْ يَا حُسْنَ ذَا الْكَرَمِ

ولكن قد صارت هذه النِّسبةُ الشريفةُ في هذه الأوان كعنقاء المغرب، وتوجهت نحو الاستتار تحت الحجب، حتى سلك جماعةٌ من هذه الطبقة من عدم وجدان هذه الدَّولة العظمى وفقدان تلك النعمة القصوى كلَّ مسلكٍ، وفرحوا بنيل قطعاتِ خزفٍ بدلاً من الجواهر النَّفيسة، واطمأنَّتْ قلوبُهم بالجَوْز والمَوْز مثل الأطفال، حتى إنَّهم من غاية الاضطرار والتحيُّر؛ تركوا طريقةَ أكابرهم، وصاروا يطلبون التسلّي أحياناً بذكر الجهر، وآونةً يرومون الاطمئنانَ بالرَّقص والسَّماع والدّور، ولَمّا لم تتيسّر لهم الخلوةُ في الجلوة؛ اختاروا الأربعينات.

وأعجبُ من ذلك: زعمُهم هذه البدعات الشنيعة متمِّمةً ومكملةً لهذه النِّسبة الشريفة، وعدَّهم هذا التخريبَ عينَ التَّعمير، أعطاهم الله سبحانه وتعالى الإنصاف، وأوصل شمّةً من كمالات أكابر هذه الطَّريقة إلى مشامّ أرواحهم حتى يتركوا الاعتسافَ بالنون والصاد، وبحرمة النبي وآله الأمجاد، عليه وعليهم الصلوات والتسليمات.

ولما شاعتْ هذه المحدثاتُ في تلك الديار، وبلغ شيوعُها إلى حدٍّ اختفى أصلُ طريق الأكابر، واختار الوضيعُ والشريفُ هذا الوضعَ المحدثَ الجديدَ هناك، وأعرضوا عن طريق الأصل والقديم؛ خطر في الخاطر أن أظهرَ نبذةً من هذه البليّة لخدمة عتبته العليّة، وأن أفرغَ القلبَ من الألم بهذه الوسيلة، ولا أدري من أيّ طائفةٍ أنيس المخدوم زاده في مجلسه الشَّريف؟ ومن أيّ فرقةٍ مؤنسُه في محفله المنيف؟ (شعر)

مِـنْ مُـقْـلَـتِـي طَـارَ الْـمَـنَـامُ تَـفَـكُّـراً ... مَـنْ كَـانَ مِـنْ نُـدَمَـائِـهِ وَضَـجِـيـعِـهِ

والمسؤولُ من الله سبحانه أن يعصم جناب قدسكم عن عموم هذه البلوى، وأن يحفظَ عتبة شرفكم عن شمول هذا الابتلاء. أيُّها المخدومُ المكرّمُ، قد روَّجوا المحدثات والمبتدعات في هذه الطَّريقة، بحيث لو قال المخالفون: إنَّ في هذه الطَّريقة التزام البدعة والاجتناب عن السنة لساغ لهم ذلك، فإنَّهم يصلُّون صلاةَ التهجد بجمعيَّةٍ تامةٍ، ويروجون هذه البدعة ويزيِّنونها في عيون العامة بأدائها في المسجد مثل سنة التراويح، ويزعمون عملهم ذلك حسناً، ويرغِّبون الناسَ فيه، والحالُ أنَّ الفقهاءَ - شكر الله سعيهم - قالوا: إنَّ أداءَ النوافل بالجماعة مكروهٌ أشدَّ الكراهة، والذين اشترطوا التَّداعي لكراهة الجماعة في النفل من الفقهاء؛ قيَّدوا جوازَ الجماعة فيه بأدائه في ناحية المسجد، واتَّفقوا على كراهتها إذا زادت الجماعةُ على ثلاثة.............................

أنفار. وأيضاً إنَّ هؤلاء يزعمون صلاةَ التهجُّد بهذا الوضع ثلاث عشرة ركعة، ويصلون اثنتي عشرة ركعةً قائمين، وركعتين قاعدين، زعماً منهم أنَّهما في حكم ركعةٍ واحدةٍ، آخذين ذلك من قولهم: إنَّ ثوابَ القاعد نصفُ ثواب القائم، وهذا العلمُ والعملُ أيضاً مخالفٌ للسنَّة على صاحبها الصلاة والسلام والتحية، فإنَّ النبي ﷺ إنّما صلى التهجد ثلاث عشرة ركعة مع الوتر، والفرديَّةُ في التهجُّد إنّما جاءتْ من فرديَّة ركعات الوتر، لا كما زعم هؤلاء: (شعر)

بَثَثْتُ لَدَيْكُمْ مِنْ هُمُومِي وَخِفْتُ أَنْ ... تَمَلُّوا وَإِلَّا فَالْكَلَامُ كَثِيرٌ

والعجبُ من رواج أمثال هذه البدعات في بلاد ما وراء النهر التي هي مأوى علماء أهل الحقّ، وكيف شاعت فيها أمثال هذه المخترعات؟ والحالُ أنّا نستفيد العلومَ الشَّرعيّةَ من بركاتهم، والله سبحانه الملهمُ للصواب. ثبَّتنا الله سبحانه وإياكم على جادة الشَّريعة المصطفوية، على صاحبها الصلاة والسلام والتحية، ويرحم الله عبداً قال: آمينا.

المَكتُوبُ التَّاسِعُ وَالسِّتُّونَ وَالمِائَةُ

إلى الشَّيخ عبدِ الصَّمدِ السُّلطان پُورِي في جوابِ سُؤالِه عن قولِ من قال لشَيخِه: لو دخلتَ بيني وبينَ الحقِّ سُبحانَه في وقتٍ خاصٍّ بي معَه تعالى أقطَعُ رأسَكَ، واستَحسَنَه الشَّيخ منه.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وآله الطاهرين أجمعين. وصل المكتوبُ الشَّريفُ المرسلُ على وجه الكرم، وصار موجباً للفرح.

وأما جوابُ الاستفسار؛ فاعلم أيُّها المخدومُ أنَّ المقصدَ الأقصى والمطلبَ الأسنى: هو الوصولُ إلى جناب قدس الحقّ جل سلطانه، ولكن لَمّا كان الطالبُ في الابتداء في غاية التدنس والتنزل بسبب تعلُّقات شتّى، وجنابُ قدسه تعالى في غاية الرفعة والتنزه؛ كانت المناسبةُ التي هي سببُ الإفاضة والاستفاضة مسلوبةً بين الطالب والمطلوب بالكلية، فلا جرم لم يكن بدٌّ من شيخٍ عالمٍ بالطَّريق، وبصيرٍ به، وقابلٍ للبرزخية، نائلٍ للحظ الوافر من الطرفين؛ ليكون واسطةً في وصول الطالب إلى المطلوب، وكلَّما يحصل شيءٌ من المناسبة بين الطالب والمطلوب؛ يجرُّ الشيخُ نفسه بهذا القدر من البين، فإذا حصلت مناسبةٌ تامَّةٌ بين الطالب والمطلوب؛ فحينئذٍ يأخذ الشيخُ نفسه من البين بالتمام، فإنَّه قد أوصل الطالبَ إلى المطلوب، فلم يَبْقَ الاحتياجُ إلى التوسُّط، فمشاهدةُ المطلوب في الابتداء والتوسُّط من غير وساطة الشيخ غيرُ ممكنةٍ. وفي الانتهاء يتجلّى جمالُ المطلوب بدون وساطته، ويحصل فيه الوصلُ العريانُ. والذي يقول: إنَّ الشيخ لو حضر في ذلك الوقت أحزُّ رأسه؛ إنّما يقول ذلك من جنونه، فإنَّ مثلَ هذا الكلام لا يظهر من أرباب الاستقامة، فإنَّهم لا يسلكون طريقَ إساءة الأدب، بل يطلبون المرادات من بركات الشيخ.

المَكتُوبُ السَّبعُونَ وَالمِائَةُ

إلى الشَّيخِ نورٍ في بيانِ لُزومِ مُراعاةِ حقوقِ الخلقِ ومواساتِهم كمراعاةِ حُقوقِه تعالى.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. أيُّها الأخُ الأرشدُ، كما أنَّ الإنسانَ لا بُدَّ له من امتثال أوامر الحق جل وعلا، والانتهاءِ عن مناهيه؛ كذلك لا بُدَّ له من مراعاة أداء حقوق الخلق ومواساتهم، التَّعظيمُ لأمر الله والشفقةُ على خلق الله بيانٌ لأداء هذين الحقين، ودالٌّ على لزوم..

مراعاة هذين الشطرين، فالاقتصارُ على أحدهما والاكتفاءُ عن الكلّ بالجزء قصورٌ وبعيدٌ عن الاتصاف بالكمال، فكان تحمُّلُ إيذاء الخلق ضروريّاً، وحسنُ معاشرتهم واجباً، ولا يحسنُ عدم التّفكُّر، ولا يليق عدمُ الالتفات وقلة المبالاة:

(شعر) وَلَا يَسْـتَقِيمُ الْغُنْجُ مِنْ كُلِّ عَاشِـقٍ ... وَلَـوْ أَنَّـهُ مَـحْـبُـوبُ كُـلِّ الْـخَـلَائِـقِ

وحيث تشرَّفت بصحبة الفقراء مدّةً كثيرةً، وسمعت من المواعظ والنصائح نبذةً يسيرةً؛ أعرضنا عن إطالة الكلام، واقتصرنا على فقراتٍ يسيرةٍ في إفادة المرام. ثبّتنا الله سبحانه وإياكم على جادة الشّريعة المصطفوية، على صاحبها الصلاة والسلام والتحية.

المَكْتُوبُ الحَادِي وَالسَّبْعُونَ وَالمِائَةُ

إلى الشَّيخِ طاهرِ البَدَخْشِيِّ في بيانِ فضيلَةِ اختيارِ الذُّلِّ والانكِسارِ، وأداءِ وظائفِ العُبوديَّة، والمُحافظةِ على حُدودِ الشَّريعةِ، واتِّباعِ السُّنَّة السَّنِيَّة، وخشيَةِ اللهِ تعالى، وما يُناسِبه.

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على سيد المرسلين، وآله الطّاهرين. اعلم أنَّ اللازمَ لأمثالنا الفقراء اختيارُ الذلّ والافتقار، والتضرُّع والالتجاء إلى الحقّ، والانكسار دائماً، وأداءُ وظائف العبوديَّة، والمحافظة على حدود الشَّريعة، ومتابعة السُّنَّة السَنِيَّة، على صاحبها الصلاة والسلام والتحيَّة، وتصحيحُ النّيّات في تحصيل الخيرات، وتخليصُ البواطن، وتسليم الظواهر، ورؤيةُ العيوب، ومشاهدةُ استيلاء الذُّنوب، والخوف من انتقام علّام الغيوب، واستقلالُ الحسنات وإن كانت كثيرةً، واستكثارُ السيّئات وإن كانت يسيرةً، وكراهةُ الشُّهرة وقبول الخلق، قال عليه الصلاة والسلام: «**بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يُشَارَ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ فِي دِينٍ أَوْ دُنْيَا إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللهُ**»[(١)]، واتّهامُ النّيّات والأفعال وإن كانت صحيحةً مثلَ فلق الصبح، وعدمُ الاعتناء بالأحوال والمواجيد وإن كانت مطابقةً للواقع، وعدمُ الاعتماد عليها. ولا ينبغي أيضاً استحسانُ مجرَّد تأييد الدين، وتقوية الملَّة، وترويج الشَّريعة، ودعوة الخلق إلى الحقّ جلّ وعلا، فإنَّ هذا القسمَ من التَّأييد قد يكون أحياناً من الكُفّار والفجّار، وقال عليه الصلاة والسلام: «**إِنَّ اللهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ**»، وكلَّما يجيءُ مريدٌ لطلب الطَّريقة وإرادة الإنابة؛ ينبغي أن يرى في النَّظر مثل النّمر والأسد، وأن يخافَ من أن يراد به مكيدةٌ واستدراجٌ، فإن وجد الفرحَ والسرورَ في النَّفس عند قدوم المريد؛ ينبغي أن يعتقده شركاً وكفراً، وأن يتداركه بالنَّدامة والاستغفار إلى أن لا يبقى أثرٌ من هذا السُّرور، بل إلى أن يجيءَ محلَّ السُّرور والفرح الخوفُ والحزنُ. وينبغي أن يجتنبَ غاية الاجتناب عن ظهور الطَّمع والتوقُّع في مال المريد ومنافعه الدنياويَّة، فإنَّه مانعٌ لرُشْد المريد، وباعثٌ على كون الشيخ خراباً، فإنَّ المطلوبَ هناك كلّه الدّينُ الخالصُ، ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، لا مجالَ للشّركة في جناب الحضرة الإلهيَّة بوجهٍ من الوجوه.

واعلم أنَّ كلَّ ظلمةٍ وكدورةٍ تطرأ على القلب؛ فإزالتها تتيسّرُ بالتوبة والاستغفار والنَّدامة والالتجاء إلى الحقّ سبحانه وتعالى بأسهل الوجوه، إلا ظلمةً طرأتْ على القلب من طريق محبَّة الدنيا الدنيَّة، فإنَّها تجعل القلبَ خراباً، وإزالتها في غاية التعسُّر، بل في نهاية التعذُّر، صدق رسول الله ﷺ حيث قال: «**حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ**»[(٢)]. نجّانا الله سبحانه وإياكم من محبَّة الدنيا، ومحبَّة أبنائها وأربابها، والاختلاط بهم، والمصاحبة معها،..........................

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٨٩٠) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩/ ٢٢٤- ٢٢٥) من حديث أنس بن مالك ببعض تقديم وتأخير.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «ذم الدنيا» (ص: ١٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٣/ ١٠٢) من حديث الحسن مرسلاً، وإسناده حسنٌ إلى الحسن.

https://t.me/kutubumufidatun

فإنَّها سمٌّ قاتلٌ، ومرضٌ مهلكٌ، وبلاءٌ عظيمٌ، وداءٌ عميمٌ.

وأخونا الأرشد الشيخ حميد متردِّدٌ في تلك الحدود بأحسن الوجوه، فينبغي اغتنامُ استماع الكلمات الجديدة الطريَّة منه، والباقي عند التلاقي.

المكتوب الثاني والسبعون والمائة

إلى الشَّيخ بديعِ الدِّينِ في بيانِ بعضِ الأسرارِ الخاصَّةِ به، وما يناسبُ ذلك.

بعد الحمد والصلاة، ليكن معلوماً للأخ الأعزّ أنَّ للشَّريعة صورةً وحقيقةً، فصورتُها: ما تكفَّلَ ببيانها علماءُ الظَّاهر، وحقيقَتُها: ما امتاز بها الصُّوفيَّةُ العليّةُ، ونهايةُ عروج صورة الشَّريعة إلى نهاية سلسلة الممكنات، فإن وقع السَّيرُ بعد ذلك في مراتب الوجوب؛ تكون الصُّورةُ ممتزجةً بالحقيقة، ومعاملةُ هذا الامتزاج إلى العروج على شأن العلم الذي هو مبدأُ تعيُّن سيّد البشر عليه الصلاة والسلام، فإن وقع الترقِّي بعد ذلك؛ يودَعُ فيه الصُّورةُ والحقيقةُ كلتاهما، وتقع معاملةُ العارف في شأن الحياة، ولا مناسبةَ بين هذا الشَّأن العظيم الشَّأن وبين العالَم أصلاً، بل هو من الشُّؤونات الحقيقيَّة التي لم تمسّه يدُ الإضافة أصلاً حتى يحصلَ له تعلُّقٌ بالعالم، وهذا الشأنُ هو دهليزُ المقصود، ومقدمةُ المطلوب، ويجد العارفُ نفسه في ذلك الموطن خارجاً من دائرة الشَّريعة، ولكن لَمّا كان محفوظاً بعناية الله لا يفوِّتُ دقيقةً من دقائق الشَّريعة، والذين تشرَّفوا بهذه الدَّولة العظمى أقلُّ قليلٍ، فإن بُيِّنَ عددُهم؛ فلعلَّه لا يقبله إلا أقلُّ قليل، ولَمّا وصل جمعٌ كثيرٌ من الصوفية إلى ظلِّ هذا المقام - فإنَّ لكلِّ مقامٍ عالٍ ظلاً تحته - زعموا أنَّهم خرجوا من دائرة الشَّريعة، وترقَّوا من القشر، ووصلوا إلى اللبّ. وهذا المقامُ بين الصوفيَّة من مزالّ الأقدام، حتى إنَّ طائفةً من ناقصي سالكي هذا الطَّريق صاروا زنادقةً وملاحدةً، وأخرجوا رؤوسهم من ربقة الشَّريعة الغراء، ضلّوا فأضلُّوا، وجماعةٌ من الكَمَلة الذين تشرَّفوا بدرجةٍ من الولاية، وحصّلوا هذه المعرفةَ في ظلٍّ من ظلال هذا المقام العالي وإن لم يصلوا إلى أصلِ هذا المقام، ولكنَّهم محفوظون لا يجوِّزون تركَ أدبٍ من آداب الشَّريعة، وإن لم يعرفوا سرَّ هذه المعرفة، ولم يفهموا حقيقةَ المعاملة.

ولَمّا انكشف سرُّ هذا المعمّى لهذا الفقير بعناية الله سبحانه وتعالى، وبركة حبيبه عليه الصلاة والسلام، واتَّضحت حقيقةُ الحال كما ينبغي؛ أردت أن أوردَ نبذةً منها في معرض البيان لعلها ترشدُ النَّاقصين إلى سواء الطَّريق، وتَكْشِفُ للكاملين عن وجه حقيقة المعاملة.

ينبغي أن يعلم: أنَّ التَّكليفاتِ الشَّرعيَّةَ مخصوصةٌ بالقالب والقلب، فإنَّ تزكيةَ النَّفس متفرعةٌ عليها، والذي يضع القدمَ من اللَّطائف في خارج دائرة الشَّريعة هو ما سوى هذه اللَّطائف المذكورة، يعني: القالب والقلب، فالذي هو مكلَّفٌ بالشَّريعة مكلَّفٌ بها دائماً، وما هو غيرُ مكلَّفٍ بها غيرُ مكلَّفٍ بها أصلاً.

غَايَةُ ما فِي البابِ: أنَّ اللطائفَ كانت قبل السُّلوك بعضها ممتزجاً ببعضٍ، ولم تكن ممتازةً عن القلب، ولَمّا ميَّز السَّيرُ والسلوكُ بعضَها عن بعضٍ، وأَوْصَلَ كُلّاً منها إلى مقرّه الأصليّ؛ تبيَّن أنَّ أيّاً منها كان مكلَّفاً، وأيّاً منها لم يكن مكلَّفاً.

فإن قيل: إنَّ العارفَ قد يجد في ذلك المقام قالبَه وقلبَه أيضاً في خارج دائرة الشَّريعة، فما وجهُ ذلك؟

أجيب: أنَّ هذا الوجدانَ ليس بتحقيقيٍّ، بل تخيُّليٌّ، ومنشأُ التخيُّل: هو انصباغُ القلب والقالب بلون ألطف اللَّطائف التي وضعت الأقدام في خارج دائرة الشَّريعة.

فإن قيل: إنَّ صورةَ التَّكليفات الشَّرعيّة وإن كانت مخصوصةً بالقلب والقالب، ولكن لحقيقة الشَّريعة مجالٌ فيما وراء القلب أيضاً، فما معنى وضع القَدَم في خارج مطلق الشَّريعة؟

أجيب: إنَّ حقيقةَ الشَّريعة وإن كان لها مجالٌ فيما وراء القلب، ولكنَّها لا تتجاوَزُ ولا تتعدَّى الروحَ والسرَّ، ولا تصلُ إلى الخفي والأخفى، والذي يضع الأقدامَ في الخارج هو الخفيُّ والأخفى في الحقيقة. والله سبحانه أعلم بحقيقة الحال. ثبتنا الله سبحانه وجميع المسلمين على متابعة سيد المرسلين، عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات أتمها وأكملها.

المكتوبُ الثَّالثُ والسَّبْعُونَ والمِائَةُ

إلى المِير محمَّدٍ نعمانَ في جوابِ سؤالٍ سألَه مع بيانِ أسرارٍ غريبةٍ متعلِّقةٍ بالنَّفي والإثباتِ.

بعد الحمد والصلاة، ليكن معلوم جناب السيد أنَّك قد سألت: إنَّه لَمّا كان نفيُ كلّما يكون محسوساً بالبصر أو مُدْرَكاً بالخيال بكلمة (لا) ضروريَّة[1]؛ لكون المطلوب المثبت وراء الحسّ والخيال، يلزم على هذا أن يكون مشهود محمد رسول الله ﷺ مستحقّاً للنفي، ويكون المطلوب المثبت وراء ذلك المشهود.

أيُّها الأخُ، إنَّ محمداً رسول الله ﷺ - مع كمال عُلُوّ شأنه - كان بشراً، ومتَّسِماً بسمة الحدوث والإمكان، فماذا يدرك البشرُ من خالق البشر؟ وماذا ينال الممكنُ الأحقرُ من الواجب الأكبر؟ أم كيف يحيط الحادثُ بالقديم الوارث جلّت عظمته؟ ﴿لَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] نصٌّ قاطعٌ في ذلك، قال الشيخ فريد الدين العطار: (شعر)

أَلَا تَرَى سَـيِّدَ الْكَوْنَيْنِ مَا بَلَغَا ... لَكِنَّهُ فَقْرٌ فَدَعْ عَنْ نَفْسِـكَ التَّعَبَا

أيُّها الأخُ الأعزُّ، إنَّ هذا المقامَ يستدعي تفصيلاً ينبغي استماعُه بأذن القلب. اعلم أنَّ للكلمة الطيِّبة (لا إله إلا الله) مقامين، أعني بهما: النَّفيَ والإثباتَ، ولكلٍّ من النَّفي والإثبات اعتباران: الاعتبارُ الأوّلُ: نفيُ استحقاق عبادة الآلهة الباطلة، وإثباتُ استحقاق العبادة للمعبود بالحقّ. والاعتبارُ الثّاني: أن يكون النَّفيُ متعلّقاً بمقصوداتٍ غير مقصودةٍ ومتعلّقاتٍ غير مطلوبةٍ، وأن لا يكون متعلَّقُ الإثبات غيرَ المطلوب الحقيقيّ، ووراء المقصود الأصليّ. والكمالُ في الاعتبار الأوّل في الابتداء: هو أن يكون كلُّما هو معلومٌ ومشهودٌ داخلاً تحت كلمة (لا)، ومنفيّاً بها، وأن لا يكون شيءٌ ما ملحوظاً في جانب الإثبات غيرَ التكلّم بالمستثنى، يعني: لفظة الجلالة، وبعد مرور أزمانٍ تحصل الحدَّةُ لبصر البصيرة، ويكتحلُ بكُحْلِ غبار طريق المطلوب، فحينئذٍ يكون المستثنى أيضاً مشهوداً مثل المستثنى منه، ومع ذلك يجد السَّالكُ نفسه متعلّقاً بما وراء ذلك المشهود، ويطلب المطلوبَ من خارجه. ووجهُ ذلك: أنَّ كلَّما كان داخلاً تحت كلمة (لا) في ابتداء هذا الكمال؛ كان بتمامه من دائرة الممكنات لم يكن له استحقاقُ العبادة أصلاً، وصار متميِّزاً من المعبود المستحقّ للعبادة المثبت بكلمة (إلا) ببركة هذه الكلمة الطيِّبة، ولكن السَّالكَ - بسبب ضعف بصيرته - لم يَرَ مرتبةَ الوجوب المستحقّ للعبادة المثبتة بكلمة (إلا)، ولم يكن له نصيبٌ من ذلك المقام غيرَ التّكلّم بالكلمة المستثناة، ولَمّا حصلت القوةُ للبصيرة؛ صار المستثنى أيضاً مشهوداً مثل المستثنى منه، ولَمّا كانت مرتبةُ الوجوب جامعةً للأسماء والصِّفات الإلهيّة جلّ سلطانه، ومتعلّقُ همّة السَّالك هو الأحديَّة المجرَّدة؛ بقي استحقاقُ العبادة أيضاً في ذلك الموطن مثلَ عدم الاستحقاق في الطَّريق، فلا جرم يطلبُ السَّالكُ مقصودَه فيما وراء الأسماء والصِّفات، ....

(١) كذا في النسخ، ولعل الصواب (ضروريّاً).

ويتحاشى عن التَّعلُّق بما سواه، (أشعار):

إِذَا سَكَنَ الْفُؤَادُ إِلَى حَبِيبٍ ... فَهَلْ يَبْغِي مِنَ الْغَيْرِ الْوِصَالَا
وَضَعْ عِنْدَ الْبَلَابِلِ أَلْفَ نَبْتٍ ... سِوَى أَزْهَارِ وَرْدٍ قُلْنَ: لَا لَا
وَذَا نَيْلُوفَرُ عُشَّاقِ شَمْسٍ ... فَهَلْ يُرْضِيهِ رُؤْيَتُهُ الْهِلَالَا
وَهَلْ يُجْدِي شَرَابُ سَكْرَى ... لِظَمْآنٍ بَغَى مَاءً زُلَالَا

والكمالُ في الاعتبار الثّاني الذي فيه المقصودُ نفيُ المقصودات الغير المقصودة: هو أن يكون شهودُ مرتبة الوجوب أيضاً داخلاً تحت كلمة (لا) مثلَ شهود مراتب الإمكان، وأن لا يكون شيءٌ ما ملحوظاً في جانب الإثبات غيرَ التفوُّه بالكلمة المستثناة: (شعر)

وَمَا أُبْدِيكَ مِنْ طَيْرِي عَلَامَهْ ... وَقَدْ أَضْحَى كَعَنْقَاءَ وَهَامَهْ
وَلِلْعَنْقَاءِ بَيْنَ النَّاسِ اسْمٌ ... وَلَمْ يَكُ لِاسْمِ طَيْرِي اسْتِدَامَهْ

والحقُّ: أنَّ الفطرةَ العليا والهِمَّةَ القصوى تطلب مطلباً لا يحصلُ منه شيءٌ، بل لا يصل غبارُ الإدراك إلى ذيله أصلاً، والرؤيةُ الأخرويَّةُ حقٌّ، ولكنَّ تصوُّرَها وتمنِّيها يُزْعِجُنا عن محلِّ القرار، ومركز الاصطبار، والناسُ مسرورون ومحظوظون بوعد الرؤية الأخرويَّة، وليس تعلّقي وتعشُّقي إلا بغيب الغيب، وأريد بجميع الهمَّة أن لا يخرجَ شيءٌ من المطلوب من الغيب إلى الشهادة، وأن لا تبدّلَ المراسلةُ بالمواصلة، وأن لا يحمل حمول الأمر من العلم إلى العين، ماذا نصنعُ؟ قد جبلتُ على ذلك:

(ع) لِكُلٍّ مِنَ الْإِنْسَانِ شَأْنٌ يَخُصُّهُ

وإن كان لي في هذا المقام أنواعٌ من الجنون، ولكن لا أقدر أن أحرّكَ شفتي من الأدب:

(ع) جُنُونِي مِنْ حَبِيبٍ ذِي فُنُونِ

شعر: عُمْرِي مَضَى وَحَدِيثُ وَجْدِي مَا انْقَضَى ... وَاللَّيْلُ قَدْ بَلَغَ الْمَدَى فَاقْنَعْ بِذَا

والسلامُ على من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى، عليه وعلى آله أتم الصلوات وأكمل التسليمات.

المَكْتُوبُ الرَّابِعُ وَالسَّبْعُونَ وَالمِائَةُ

إلى الخواجه أشرَف الكابُليّ في بيانِ أنَّ والِهي هذا الطَّريقِ لا يتسلَّونَ بهذه المعيَّة، ولا يطمئنُّون بهذا البُعدِ المُشابه بالقُربِ، بل يطلُبونَ قُرباً يُشبِه البُعدَ، ووَصلاً يشبِهِ الهَجرَ، وبيانِ واقعَته التي رآها... إلخ.

قد وصل مكتوبُ أخينا الأعزّ، وحيث كان منبئاً عن محبَّة الفقراء، والالتجاء إلى هذه الطَّائفة؛ صار موجباً للفرح، «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ» نقدُ الوقت، ومصداقُ الحال، ولكن ينبغي أن يعلم: أنَّ والهي هذا الطَّريق لا يتسلَّون بهذه المعيَّة، ولا يطمئنُّون بهذا البعد المشابه بالقرب، بل يطلبون قرباً يشبه البعدَ، ووصلاً يشبه الهجرَ، لا يجوِّزون التَّسويفَ والتَّأخيرَ، ويجتنبون التَّعطيلَ والتَّأجيلَ، ولا يصرفون نَقْدَ وقتهم إلى مزخرفاتٍ باطلةٍ، ولا يُتْلِفُون رأسَ مال عمرهم في مموّهاتٍ عاطلةٍ، ولا يكتفون من الشَّريف بالخسيس، ولا يلتفتون إلى المغضوب عليه تاركين للمرضى النَّفيس، ولا يبيعون أنفسهم بلقيماتٍ سمينةٍ لذيذةٍ، ولا يبدِّلون حظَّ العبوديّة بألبسةٍ رقيقةٍ مزيّنةٍ، ويرون تلويثَ تَخْت السَّلطنة بقاذورات التعلُّقات عاراً، ويتحاشون من إشراك اللات........................

والعزّى في ملك الحقّ سبحانه، ويعدُّونه شَنَاراً.

أيُّها الأخُ، إنَّ المطلوبَ كلَّه هنا: هو الدينُ الخالصُ، ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، لا يجوِّزون فيه ذرَّةً من الشركة: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، فينبغي أن تتأمَّل ساعةً في أحوالك، فإن تيسّرَ هذا الدينُ الخالصُ؛ فبشرى لك، وإلا؛ فينبغي تفكُّر علاج الواقعة وتدبيرها قبل وقوعها، والواقعةُ التي كتبتها هي من ظهور الشيطان وتصرُّفه الباطل، وهذا القسمُ من ظهوره وتصرُّفه كثيرُ الوقوع بين الطَّالبين، ولا بأس فيه، ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] فإن ظهرَ ثانياً؛ ينبغي دفعُ ذاك المفسد بتكرار كلمة التَّمجيد: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. والسلامُ على من اتّبع الهدى، والتزم متابعةَ المصطفى، عليه وعلى آله أتم الصلوات، وأكمل التسليمات.

المكتوبُ الخامسُ والسبعونَ والمائةُ

إلى الحافظِ محمودٍ في بيانِ تَلوينات الأحوالِ، وحُصولِ التَّمكينِ، ومَعنَى: لي مع اللهِ وقتٌ.

وصل المكتوبُ الشَّريفُ من الأخ العزيز، وقد اندرج فيه نبذةٌ من تلوينات أحواله. اعلم أنَّ السَّالكَ لا بُدَّ له من تلوينات الأحوال، لا في البداية ولا في النِّهاية.

غَايةُ ما فِي البابِ: أنَّ التَّلوينَ إذا كان في القلب؛ فالسَّالكُ من أرباب القلوب، ومسمّىً بابن الوقت، وإذا تخلَّصَ القلبُ من التَّلوين، وخرج من رِقّيّة أحواله إلى الحريَّة، ووصل إلى مقام التَّمكين؛ فحينئذٍ يكون ورودُ الأحوال المتلوّنة على النَّفس التي جلستْ مقامَ القلب خلافةً عنه، وهذا التَّلوين إنّما هو بعد حصول التَّمكين، فإن قيل لصاحب هذا التَّلوين: أبا الوقت؛ لجاز، فإن تخلَّصت النَّفسُ أيضاً من هذه التلوينات بمحض فضل الحقّ سبحانه، ووصلت إلى مقام التَّمكين والاطمئنان؛ فحينئذٍ يكون ورودُ التَّلوينات على القالب الذي تركَّب من أجزاء مختلفةٍ، وهذا التَّلوينُ - يعني: تلوينَ القالب - دائميٌّ، فإنَّ التَّمكينَ لا يُتصوَّرُ في حقّ القالب وإن كان منصبغاً بلون ألطف اللَّطائف، فإنَّ التَّمكينَ الواردَ من طريق هذا الانصباغ بطريق التَّبعيَّة، وورود الأحوال المتلوّنة بطريق الأصالة، والعبرةُ بالأصل لا بالتَّبع، وصاحبُ هذا المقام من أخصّ الخواصّ، ويمكن أن يكون هو أبا الوقت في الحقيقة، ومعنى حديث: «لِي مَعَ اللهِ وَقْتٌ» الذي روي عن النبيّ عليه الصلاة والسلام - وأراد جماعةٌ من الوقت: الوقتَ المستمرَّ، وطائفةٌ الوقتَ النَّادرَ - يكون راجعاً إلى هذا البيان، فإنَّه بالنِّسبة إلى بعض اللَّطائف مستمرٌّ، وبالنِّسبة إلى بعضٍ آخر نادرٌ، فلا خلافَ، وبالجملة: ينبغي تحليةُ الظَّاهر بالشَّريعة الغرَّاء، والمداومةُ على تكرار ذكر القلب في السَّرّاء والضرَّاء: (شعر)

كُنْ طَالِباً مَا تَبْتَغِي مِنْ ذَا وَذَا ... فِي ذَلِكَ الْبَحْرِ الْعَمِيقِ كَضِفْدَعِ

وأخونا مولانا محمد صديق في آكره، فلتغتنمْ ملاقاتِه.

المكتوبُ السادسُ والسبعونَ والمائةُ

إلى المـلّا محمَّدٍ صدِّيقٍ في بيانِ أنَّ حِفظَ الأوقاتِ من ضَروريَّاتِ هذا الطَّريق.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل: ٥٩]. اعلم أنَّ من حسن إسلام المرء: اشتغالُه بما يعنيه، وإعراضُه عما لا يعنيه، فلا بُدَّ إذاً من حفظ الأوقات؛ لئلا تتلفَ في أمورٍ لا طائلَ فيها. ينبغي أن تعتقد أنَّ إنشادَ الشعر وحكايةَ القصص نصيبُ الأعداء، وأن تشتغلَ بالسكوت، وحفظِ نسبة الباطن، واجتماع ....

الأصحاب في هذا الطَّريق إنّما هو لجمعيَّة الباطن، لا لتشتيت الخاطر، ولهذا اختاروا الخلطةَ على الخلوة، وطلبوا الجمعيَّةَ من الاجتماع، ومتى كان الاجتماعُ سبباً للتَّفرقة؛ يلزم التَّحاشي منه، والتَّباعُد عنه، وكلُّ شيءٍ يجتمع مع الاجتماع؛ فهو مبارَكٌ، وإلا؛ فمشؤومٌ وغيرُ مباركٍ. وينبغي للسَّالك أن يعيش على وجهٍ تحصل الجمعيَّةُ للطَّالبين في صحبته، لا أنَّه يلقيهم ويرميهم إلى التَّفرقة، وينبغي أن يقلِّبَ أيضاً أوراقَ نفسه، وأن يبدِّلَ الكلامَ بالسُّكوت، الوقتُ ليس وقتَ المشاعرة، ولا حين المحاورة:

(ع) وَمَا الْوَقْتُ وَقْتَ الدَّرْسِ أَوْ كَشْفَ كَشَّافِ

والسلام.

المكتوب السابع والسبعون والمائة

إلى جمالِ الدِّين حُسَينِ البَدَخْشِيِّ في التَّحريضِ على تصحيحِ العَقائدِ بمُقتضى آراءِ أهلِ السُّنَّة والجماعةِ الصَّائبةِ شكرَ اللهُ سعيهم.

ليغتنم الخواجه جمال الدين حسين عنفوان الشبابَ، وليصرِفْه في مرضيات الحقّ سبحانه مهما أمكن، يعني: يلزم نفسه أوّلاً تصحيح العقائد بمقتضى آراء أهل السنة والجماعة الصائبة شكر الله سعيهم، وثانياً: العمل بموجب الأحكام الشَّرعيّة الفقهية، وثالثاً: سلوك الطَّريقة العليّة المنسوبة إلى الصُّوفيّة الصافية قدس الله أسرارهم، فمن وُفِّق لهذا؛ فقد فاز فوزاً عظيماً، ومن تخلَّف عن هذا؛ فقد خسر خسراناً مبيناً، وليَعُدَّ خدمة أولاد الخواجه محمد صالح من السَّعادة العظمى، فإنَّ هذه الخدمةَ إمدادٌ وإعانةٌ للخواجه المشار إليه في الحقيقة الذي هو من المقبولين: (ع) أَبْـرَزْتُ مِـنْ كَـنْـزِ الْـمَـرَامِ عَـلَامَـةً

والسلام.

المكتوب الثامن والسبعون والمائة

إلى المِيرزا مظفَّرٍ في تفويضِ شَخصٍ إليه، وتَرغيبِه في اتِّباعِ النَّبيِّ ﷺ.

عظّم الله أجركم، ورفع قدركم، ويسّر أمركم، وشرح صدركم، بحرمة سيد المرسلين عليه وعلى آله الصلاة والسلام، وما الحاجةُ إلى دلالة المتخلقين بالأخلاق النبوية عليه الصلاة والسلام على الإحسان وحسن المعاشرة، بل يكاد تكون تلك الدلالةُ داخلةً في سوء الأدب.

غايةُ ما في البابِ: أنَّ الإنسانَ قد يتشبَّثُ وقت الاحتياج بكلّ حقيرٍ ونقيرٍ، ويطلب تسلّيه من كلِّ ضعيفٍ ونحيفٍ، فبناءً على ذلك نرتكبُ التَّصديعَ لتسلية أرباب المسألة. أيُّها المخدومُ المكرّمُ: إنَّ الإحسانَ محمودٌ في كلِّ محلٍّ، خصوصاً إلى جماعةٍ لهم قربُ الجوار، فقد بالغ النبيُّ ﷺ في أداء حقوق الجوار على وجهٍ ظنَّ الأصحابُ الكرامُ من تلك المبالغة أنَّه سيورث الجيرانَ[1]، «المثنوي»:

چون چنين با يكدگر همسايه ايم	تو چو خورشيدى و ما چون سايه ايم
چه بُدى اى مايهٔ بى مايگان	گر نگه دارى حقِّ همسايگان

والسلام.

المكتوب التاسع والسبعون والمائة

إلى المِير عبدِ اللهِ بنِ المِير نعمانَ في النَّصيحةِ.

ليغتنم الولد الأعز - لا زال موفّقاً كاسمه - موسمَ الشباب، وليشتغلْ بتحصيل العلوم الشَّرعيّة، والعمل بمقتضاها، وليهتمَّ في أن لا يصرف هذا العمرَ العزيزَ فيما لا يعني، وأن لا يُتْلِفَه باللهو واللعب، ووالدُكم المكرّمُ يلحقكم بعد أيام إن شاء الله تعالى، وكن مستخبراً عن أحوال المتعلّقات إلى أن يصل إليكم: (ع) وَمَـنْ يُشَـابِـهْ أَبَـهُ فَـمَـا ظَـلَـمْ

المكتوب الثمانون والمائة

إلى الخواجه أبي القاسمِ بنِ الخواجگي الأَمْكَنگِيِّ في الاستِفسارِ

---

(١) أخرج البخاري (٦٠١٤)، ومسلم (٢٦٢٥) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنّه سيورثه».

عن أسامي بعضِ مَشائخه الذي وقَع فيه التَّردُّد.

أيها المخدومُ المكرّمُ، إنَّ الذي بلغنا من حضرة شيخنا - أعني: الخواجه محمد الباقي عليه الرَّحمة - في تحقيق أسامي المشائخ: هو أنَّ ما بين مولانا الخواجگي الأمكنگي وبين حضرة الخواجه أحرار اثنان: أحدهما: حضرةُ مولانا - أعني: مولانا درويش محمد -، والثّاني: مولانا محمد زاهد خال مولانا درويش محمد، وقد قَدِمَ هذه الحدودَ في هذه الأوان مولانا الخواجه خاوند محمود[1]، وجرى الكلامُ في أوَّل الملاقاة في مولانا المذكور، وقال: إنَّه لم يكن مجازاً من أحدٍ، ولهذا ما كان يأخذ المريد في الأوائل، ثم شرع في التكلّم في أواخر عمره، فقلنا له: إنَّه كان من كبراء زمانه، وسلّم جميعُ سكان ما وراء النهر لفضله وكماله، وعلوّ شأنه وحاله، ولا يجوِّزُ العقلُ أنّه يأخذ المريدَ من غير إجازةٍ، سواءٌ كان في أوائل عمره أو أواخره، فإنَّ مثلَ هذا داخلٌ في الخيانة بعيدٌ عن الدِّيانة، لا يُظَنُّ صدورُ ذلك من أدنى مسلمٍ، فكيف من أكابر الدين؟ فقال الخواجه خاوند محمود بعد ذلك: جاء مولانا مرة عند الخواجه كلان الدهبيديّ وكان هو يأكل الخربزة، فأظهر مولانا طلب الطَّريقة، فقال له الخواجه كلان: إنَّ خربزتك قد تمَّ أمرها، وكَمُلَ نضجُها، فقال مولانا: أنت تشهد أنَّ خربزتي قد كَمُلَتْ، فقال: أشهد أنَّ خربزتك تامّةٌ كاملةٌ، فشرع مولانا في أخذ المريد من هذا الوقت. وهذا النَّقلُ أيضاً يرى مستبعداً جدّاً، فإنَّ مولانا كيف يعتقد نفسَه شيخاً بمجرَّد هذا القول، ويشرع في أخذ المريد؟ ثم قال حضرة الخواجه خاوند محمود: إنَّ تسمية هذين الشيخين المذكورين بين حضرة مولانا وبين حضرة الخواجه أحرار بهذين الاسمين، واعتقاد أنّهما مسمّيا هذين الاسمين خطأٌ، ذكروهما بغير اسمهما، وقال أيضاً: إنَّ درويش محمد لا نسبةَ له من خاله، يعني: لا انتسابَ له إليه، بل انتسابُه إلى غيره، فحصل تعجُّبٌ كثيرٌ من كلماته هذه، فارتكبنا التَّصديع بالضَّرورة؛ لتكتبوا لنا اسمي الشَّيخين المذكورين على وجه التَّحقيق؛ لئلا يبقى لأحدٍ مجالُ الكلام في سلسلتنا.

وما الحاجةُ إلى كتابة حديث الإجازة، فإنَّ عظمته وعلوَّ شأنه شاهدُ عدلٍ، ومع ذلك إن كتب؛ كان قطعاً للسان الطاعنين، ولم يُدْرَ ماذا كان مقصودُ الخواجه خاوند من هذه الكلمات المشتّتة؟ فإن كان مقصودُه: نفيَ هؤلاء الفقراء الذين لا بضاعةَ لهم بأبلغ الوجوه؛ فإنَّ نفيَ الشيخ مستلزمٌ لنفي المريد بآكد الوجوه، فطرقُ نفي هؤلاء عديمي البضاعة كثيرةٌ، فما الحاجةُ إلى نفي الأكابر لهذا الغرض؟ وإن كان مقصودُه: نفيَ الأكابر بالأصالة ولم يكن له غرضٌ سواه؛ فهذا أيضاً غيرُ مستحسنٍ كما لا يخفى على من له أدنى درايةٍ، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]، بحرمة سيد المرسلين عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات، والسلام على من اتبع الهدى.

المَكتُوبُ الحادِي وَالثَّمَانُونَ وَالمِائَةُ

إلى حَضرةِ المَخدومِ زَادَه مِيَان محمَّدٍ صادقٍ في جوابِ استِفسارِه عن سببِ مُشاهدةِ بعضِ المَشائخِ في مقامٍ أعلى من مَقاماتِهم، وبَعضِهم في أدنَى من مَقاماتِهم، وما يُناسبُ ذلك.

قد سأل ولدي الأرشد محمد صادق عن سبب انفهام كون طائفةٍ من المشائخ في درجاتٍ عليا من مقام الزُّهْد والتَّوكُّل والتَّرْك والصَّبْر والرِّضا مع أني أرى وأشاهِدُ أنَّ لهم درجةً أدنى في مراتب القرب الإلهيّ جلّ سلطانه، ورؤيةِ طائفةٍ أخرى من المشائخ في درجةٍ...

(١) مولانا الخواجه خاوند محمود يتَّصل نسبُه الظاهريُّ بستةٍ وسائط بمولانا الخواجه علاء الدين العطار: بواسطة الخواجه حسن العطار، وحصل النسبةَ المعنويةَ في صحبة الخواجه إسحاق الدهبيدي، ثم اختار السياحةَ والسفرَ حتى استوطن كشمير، وبنى فيها خانقاه، واشتغل هناك بترويج الطريقة، ثم جاء إلى لاهور، وتوفِّي فيها، والخواجه إسحاق هو ولدُ المخدوم الأعظم الدهبيدي، الذي هو خليفةُ القاضي محمد، الذي هو خليفة الخواجه أحرار، وقد حصل الخواجه إسحاق النسبةَ من مولانا لطف الله، الذي هو من خلفاء والده قدس الله أسرارهم. (المعرِّب)

سفلى من مقامات الزُّهد والتوكُّل وغيرهما مع أنَّهم يُرَى لهم درجاتٌ عليا في مقام القرب، ومن المقرَّر أنَّ أكمليَّة هذه المقامات باعتبار أتميَّة اليقين، وأتميَّةُ اليقين بسبب الأقربيَّة إلى جناب قدس الحقّ جل شأنه، فالمقامُ لا يخلو هنا عن أحدِ أمورٍ: إما تطرُّقُ الخطأ إلى النَّظر، فرأى القريبَ بعيداً والبعيدَ قريباً، أو إنَّ سببَ أكمليَّة هذه المقامات أمرٌ وراء اليقين، أو إنَّ ترتُّبَ اليقين ليس على القرب.

فأقول في الجواب: إنَّ ترتُّبَ اليقين على القرب، فإذا كان القربُ أكثرَ؛ فاليقينُ أزيدَ وأوفرَ، وسببُ أكمليَّة هذه المقامات أيضاً: أتميَّةُ اليقين، لا أمرٌ آخرُ، والنَّظرُ الكشفيُّ أيضاً صحيحٌ.

غَايةُ ما فِي البابِ: أنَّ حصولَ القرب إنّما هو لألطف اللطائف، فيكون اليقينُ أيضاً نصيبَه، وحيث كانت أكمليَّةُ المقامات مترتِّبةً على أتميَّة اليقين؛ تكون تلك الأكمليَّةُ أيضاً حاصلةً، فيمكن أن يحصّل رجلٌ من الأكابر إقامةً في مقام من مقامات ألطف اللطائف مع وجود قلّة قربه، ولم يرجعْ بعدُ إلى أكثف اللَّطائف، ويكون في المقامات المذكورة أكملُ ممن له زيادةُ قربٍ، وقد رجع إلى أكثف اللطائف - أعني: لطيفةَ القالب -، وحيث إنَّ لطيفةَ القالب محرومةٌ من ذلك القرب؛ لا يكون اليقينُ أيضاً نصيباً لها، فمن أين تحصلُ لها أكمليَّةُ تلك المقامات؟ والذي رجع إلى هذه اللَّطيفة أخذ حكمها، وكانت يقيناتُ لطائفه الباقية التي قد حصلتْ لها سابقاً مستورةً، بخلاف من ليس له رجوعٌ إلى القالب، فإنَّ حكمَه حكمُ ألطف اللطائف، والقربُ واليقينُ على كمالهما في حقّه، ولم يستترا بعدُ، فلا جرم يكون في المقامات المذكورة أتمَّ وأكملَ، ولكن ينبغي أن يُعْلَمَ أنَّ صاحبَ الرُّجوع كما أنَّه أكملُ في القُرْب واليقين؛ كذلك هو أكملُ في المقامات أيضاً، ولكن قد سترتْ كمالاتُه تلك، وجُعِلَ ظاهرُه مثلَ ظاهر عوامِّ الناس؛ لحصول المناسبة بينه وبين الخلق التي هي سببُ الإفادة والاستفادة، فيكون مستحقّاً لدعوة الخلق إلى الحقّ، وهذا المقامُ مقامُ الأنبياء المرسلين عليهم الصلواتُ والتسليماتُ بالأصالة، ولهذا طلب إبراهيمُ الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام اطمئنانَ القلب، واحتاج في حصول اليقين إلى الرُّؤية البصريَّة مثلَ عوامّ الناس، وقال عُزيرٌ على نبينا وعليه الصلاة والسلام: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِ هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩]، والذي لم يرجعْ؛ أخبرَ عن يقينه بقوله: لو كُشِفَ الغطاءُ ما ازددتُ يقيناً، فإن ثبت صدورُ هذا الكلام عن سيدنا عليّ كرم الله وجهه؛ ينبغي حملُه على أنَّه قال ذلك قبل حصول الرجوع، فإنَّ صاحبَ الرُّجوع محتاجٌ إلى الدَّلائل والبراهين في حصول اليقين بعد الرجوع مثلَ عوامّ الناس، وقد كانت المسائلُ الكلاميَّةُ كلُّها بديهيَّةً لهذا الدَّرويش قبل الرجوع، وكنت أجدها أشدَّ يقيناً من المحسوسات، وأما بعد الرُّجوع؛ فقد استتر ذاك اليقينُ، وصرتُ محتاجاً إلى الدَّلائل والبراهين مثلَ عوامّ الناس: (ع) عَلَى مِقْدَارِ مَا رَبَّوْنِي أَنْمُو

والسلام.

المكتوب الثاني والثمانون والمائة

إلى الملَّا صالح الكولابيِّ في بيانِ كونِ الخواطرِ والوَساوِسِ من كَمالِ الإيمانِ كَما ورَدَ في بعضِ الأحاديثِ.

كان طائفةٌ من الدَّراويش يوماً من الأيّام قاعدين مجتمعين، فجرى الكلامُ في خطرات الطالبين ووساوسهم، فذكر في ذلك الأثناءِ حديثٌ نبويٌّ، وهو أنَّ بعضَ الأصحاب شكا إلى النبيّ ﷺ من الخواطر الرديئة، وقال: إنَّا نجد في أنفسنا ما لو أنَّ أحدنا خرَّ على رأسه لكان خيراً له من أن يتكلّم، فقال عليه الصلاة والسلام: «**أَوَجَدْتُمْ ذَلِكَ؟ ذَاكَ مِنْ كَمَالِ الْإِيمَانِ، أَوْ** ....

مِنْ صَرِيحِ الْإِيمَانِ»[(١)]، فوقع في خاطر هذا الفقير في ذلك الوقت في تأويل هذا الحديث - والله سبحانه أعلمُ بحقيقة الحال -: أنَّ كمالَ الإيمان عبارةٌ عن كمال اليقين، وكمالُ اليقين مرتَّبٌ على كمال القرب، فإذا حصل للقلب وما فوقه من اللطائف زيادةُ القرب الإلهيّ جلّ شأنه؛ يكون الإيمانُ واليقينُ أزيدَ، ويكون عدمُ تعلُّق القلب وسائر اللطائف بالبدن أكثرَ، فيكون ظهورُ الخطرات في القالب أزيدَ وأوفرَ، والوساوسِ غيرِ اللائقة فيه أظهرَ، فلا جرم يكون سببُ الخطرات الرديَّة كمالَ الإيمان بالضَّرورة، فعلى هذا كلَّما كانت الخطراتُ أزيدَ في المنتهى إلى نهاية النِّهاية؛ تكون أكمليَّةُ الإيمان فيه أشدَّ، فإنَّ كمالَ الإيمان يقتضي عدمَ المناسبة بين ألطف اللَّطائف وبين لطيفة القالب، وكلَّما كان عدمُ المناسبة المذكورة أكثرَ؛ كان القالبُ أشدَّ خلوّاً وأقربَ إلى الظُّلمة والكدورة، ويكون ورودُ الخواطر إليه أزيدَ وأوفرَ، بخلاف المبتدي والمتوسّط، فإنَّ مثلَ هذه الخواطر سمٌّ قاتلٌ بالنِّسبة إليهما، وسببٌ لازدياد مرضهم الباطنيّ، فلا تكن من القاصرين. وهذه المعرفةُ من المعارف الغامضة المختصّة بهذا الفقير. والسلامُ على من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى عليه وعلى آله الصلاة والسلام.

المَكْتُوبُ الثَّالِثُ وَالثَّمَانُونَ وَالمِائَةُ

إلى المـلَّا معصومِ الكَابُليّ في النَّصيحةِ.

رزقكم الله سبحانه الاستقامةَ على جادّة الشَّريعة المصطفوية، على صاحبها الصلاة والسلام والتحية، وجعلنا وإياكم متوجّهين إلى جناب قدسه بالكليَّة، وشغلنا به عن غيره، حتى لا نتوجه إلى الاثنينيَّة، والمأمولُ أن لا تكون التعلُّقاتُ الشَّتّى والتوجُّهاتُ المتفرِّقةُ التي استولت على الظَّاهر مانعةً عن النِّسبة الباطنيَّة، ومع ذلك ينبغي السّعيُ والاجتهادُ في تحقيق التَّفرقة الظَّاهريَّة، والتفحُّص عنها؛ لئلا تسري في الباطن، فتمنع عن الوصول إلى المطلب الحقيقيّ، عياذاً بالله سبحانه من ذلك، ولا تستحقُّ الدُّنيا وما فيها لأن تصرفَ بضاعةُ العمر العزيز في تحصيلها، الشرطُ هو الإخبارُ، وإلى متى يمتدُّ منامُ الأرنب؟ (شعر) وَمَا الْقَصْـرُ وَالْبُسْـتَانُ إِلَّا مَحَابِسٌ وَمَا الْمَالُ وَالْأَمْلَاكُ إِلَّا مَصَـائِبُ

فإن حصل العملُ قبل الموت؛ فبِهَا، وإلا؛ فخسرانٌ في خسرانٍ، ينبغي أن يعدَّ ذكر القلب ومشغوليَّة الباطن عزيزاً، وأن يتخذ كلَّما ينافيه عدوّاً: (شعر)

كُـلَّـمَـا دُونَ هَـوَى الْـحَـقِّ وَلَـوْ أَكْـلَ قَـنْـدٍ فَـهُـوَ سُـمٌّ قَـاتِـلُ

﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [النور: ٥٤].

المَكْتُوبُ الرَّابِعُ وَالثَّمَانُونَ وَالمِائَةُ

في التَّحريضِ على مُتابعةِ سيِّد المُرسلينَ ﷺ أرسله إلى فتحِ الله.

وصل مكتوبُ الولد الأعزّ المكتوب على وجه المحبَّة والخلوص أوصله الخواجه، فصار موجباً للفرح، جعل الله سبحانه وتعالى التَّوفيقَ لمرضياته رفيقنا بحرمة النبي وآله الأمجاد عليه وعليهم الصلاة والسلام.

أيُّها الولدُ، إنَّ الذي ينفع الإنسانَ غداً: هو متابعةُ صاحب الشَّريعة عليه الصلاة والسلام والتحيةُ، فإن اجتمعت الأحوالُ والمواجيدُ والعلومُ والمعارفُ والإشاراتُ والرموزُ مع تلك المتابعة؛ فبها ونعمتْ، وإلا؛ فلا شيءَ سوى الخذلان والاستدراج. رأى شخصٌ سيدَ الطَّائفة الجنيدَ بعد وفاته، فسأله عن حاله، فقال له الجنيدُ في جوابه: طاحت........

(١) أخرجه مسلم (١٣٢) من حديث أبي هريرة ﷺ قال: جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ، فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: «وقد وجدتموه؟» قالوا: نعم، قال: «ذاك صريح الإيمان».

العباراتُ، وفنيت الإشاراتُ، وما نفعنا إلا رُكَعياتٌ ركعناها في جوف الليل، فعليكم بمتابعته ومتابعة خلفائه الراشدين عليه وعليهم الصلاة والسلام، وإياكم ومخالفةَ شريعته قولاً وعملاً واعتقاداً، فإن الأولى يمنٌ وبركةٌ، والثّانية شؤمٌ وهلكةٌ.

هذا، والرِّسالةُ التي أرسلْتَها قد وصلتْ، وطالعتُ بعضَ المواضع منها، فرأيته حسنًا، ولكنَّ الأهمَّ أمرٌ آخر دون التَّصنيف، والاشتغالُ بالأمر الأهمّ أنسبُ وأَوْلى. والسلام.

المَكتُوبُ الخَامِسُ وَالثَّمَانُونَ وَالمِائَة

إلى منصور عَرَب في تفويضِ شخصٍ إليه.

رزقكم الله سبحانه الاستقامةَ على جادة الشَّريعة المصطفويَّة، على صاحبها الصلاةُ والسلامُ والتحيَّةُ، وجعل جميعَ همَّتكم التَّوجُّهَ إلى جناب قدسه، وما هو اللازمُ لنا ولكم هو سلامةُ القلب من التعلُّق بما سوى الحقّ سبحانه، وهذه السَّلامةُ إنّما تتيسّرُ إذا لم يَبْقَ لغير الحقّ سبحانه خطورٌ في القلب، بحيث لو تيسّرت حياةُ ألف سنةٍ فرضـًا؛ لا يقع الغيرُ في القلب بواسطة نسيان القلب ما سواه تعالى: (ع) هَـذَا هُـوَ الْأَمْـرُ وَالْـبَـاقِـي خَـيَـالَاتُ

بقيَّةُ المرام: إنَّ مولانا الفاضل السرهنديَّ الذي هو قائمٌ بخدمتكم العليّة أبوه في سرهند، ويتمنّى أن يكون مسروراً ومبتهجـًا بملاقاة ولده وقت ضعفه وشيخوخته، فبناءً على ذلك جعل الفقيرَ وسيلةً إلى التَّصديع، والأمرُ عندكم، بل كلٌّ من عند الله، والسلام.

المَكتُوبُ السَّادِسُ وَالثَّمَانُونَ وَالمِائَة

إلى الخواجه عبد الرَّحمنِ المفتي الكابُليِّ في الحَثِّ على مُتابعةِ السُّنَّة، والإجتِنابِ عنِ البِدعةِ، وأنَّ كلَّ بدعةٍ ضلالةٌ.

أسأل الله سبحانه وتعالى بالتضرُّع والاعتذار، والالتجاء والافتقار، والتذلُّل والانكسار، في السرّ والجهار، أن لا يبتلي هذا الضَّعيفَ مع من هم مجتمعون لديه أو مستندون إليه بفعل كلِّ عملٍ محدثٍ ومبتدعٍ في الدين مما لم يكن في زمن خير البشر وزمن خلفائه الراشدين عليه وعليهم الصلاة والسلام، وإن كانَ ذلك العملُ مثلَ فَلَق الصبح في الوضوح، وأن لا يفتننا بحسن ذلك المتبدَع بحرمة السيّد المختار، وآله الأبرار، عليه وعليهم الصلاة والسلام. قال بعضُ الناس: إنَّ البدعةَ على نوعين: حسنةٌ وسيئةٌ، فالحسنةُ: هي كلُّ عملٍ صالحٍ حدث بعد زمن نبينا وزمن خلفائه الراشدين عليه وعليهم الصلاة والسلام، ولم يكن رافعـًا للسُّنّة. والسّيئةُ: ما تكونُ رافعةً للسُّنَّة، وهذا الفقيرُ لا يشاهِدُ في شيءٍ من البدعة شيئـًا من الحسن والنورانيَّة، ولا يحسُّ فيها شيئـًا سوى الظُّلمة والكدورة، ومن رأى اليوم فَرَضـًا طراوةً ونضارةً في الأمر المبتدَع بسبب ضعف البصيرة، ولكن سيعلمُ غداً بعد حصول الحدّة في بصره أنْ ليسَ له شيءٌ من نتيجةٍ غير النَّدامة والخسارة: (شعر)

وَوَقْـتَ الصُّـبْـحِ يَـبْـدُو كَـالـنَّـهَـارِ حَـقِـيـقَـةُ مَـنْ هَـوِيـتَـهُ فِـي الـظَّـلَامِ

قال سيدُ البشر عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ؛ فَهُوَ رَدٌّ**»[1]، فإذا كان الشيءُ مردوداً؛ فمن أين يجيء له الحسنُ؟ وقال عليه الصلاة والسلام: «**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»[2]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ كَانَ عَبْداً حَبَشِيّاً، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي؛ فَسَيَرَى اخْتِلَافاً كَثِيراً، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا**..

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) تقدَّم تخريجه مختصراً من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه عند مسلم (٨٦٧).

عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[1]، فإذا كان كلُّ محدثٍ بدعةً، وكلُّ بدعةٍ ضلالةً؛ فما يكون معنى الحسن في البدعة؟ وأيضاً المفهومُ من الأحاديث: أنَّ كلَّ بدعةٍ رافعةٌ للسُّنة، والرَّفعَ غيرُ مختصٍّ بالبعض، فيكون كلُّ بدعةٍ سيئةً، قال عليه الصلاة والسلام: «مَا أَحْدَثَ قَوْمٌ بِدْعَةً إِلَّا رُفِعَ مِثْلُهَا مِنَ السُّنَّةِ»[2]، فالتَّمسُّكُ بالسنَّة خيرٌ من إحداث البدعة، وعن حسّان أنَّه قال: ما ابتدع قومٌ بدعةً في دينهم إلا نزع اللهُ من سننهم مثلها، ثم لا يعيدها إليهم إلى يوم القيامة[3].

ينبغي أن يعلم أنَّ بعضَ البدع الذي عدَّه العلماءُ والمشائخُ من البدعة الحسنة إذا لوحظ فيه كمال الملاحظة؛ يعلم أنَّه رافعٌ للسُّنَّة، ومن ذلك: أنَّ تعميمَ الميّت مثلاً عدُّوه من البدعة الحسنة، مع أنَّه رافعٌ للسُّنَّة؛ لأنَّه زيادةٌ على العدد المسنون في الكفن، وهو كونُه ثلاثةَ أثوابٍ، والزّيادةُ نسخٌ، والنَّسخُ هو عينُ الرَّفع، وكذلك استحسن المشائخُ - يعني: بعضهم - إرسال ذَنَب العمامة من طرف اليسار، مع أنَّ السُّنَّةَ إرسالُه مما بين الكتفين[4]، وكونُ ذلك رافعاً لهذه السُّنَّة ظاهرٌ لا سترةَ فيه.

وكذلك استحسن العلماءُ - يعني: بعضهم - في نيّة الصّلاة النُّطقَ باللِّسان مع إرادةٍ قلبيَّةٍ، والحالُ أنَّه لم يثبتْ عن النبيِّ ﷺ ولا عن أصحابه الكرام ولا عن التَّابعين العظام في النيَّة النُّطقُ باللسان، لا في روايةٍ صحيحةٍ، ولا في روايةٍ ضعيفةٍ، بل كانوا يكبِّرون للتَّحريمة عقبَ القيام، فيكون النُّطقُ بدعةً، وقالوا: إنَّ ذلك بدعةٌ حسنةٌ، ويقول هذا الفقير: إنَّ هذه البدعةَ رافعةٌ للفرض فضلاً عن السّنة، فإنَّ أكثرَ النَّاس يكتفون على هذا التَّقدير بالنطق باللسان، يعني: من غير استحضار النيّة بالجنان، ومن غير مبالاةٍ بالغفلة القلبيَّة عن هذا الشَّأن، فحينئذٍ يكون فرضٌ من فرائض الصلاة - وهو النيَّةُ القلبيَّةُ - متروكاً بالكليّة، ويفضي إلى فساد الصلاة.

وعلى هذا القياس سائرُ المبتدعات والمحدثات، فإنَّها زياداتٌ على السّنّة ولو بوجهٍ من الوجوه، والزيادةُ نسخٌ، والنسخُ رفعٌ. فعليكم بالاقتصار على متابعة سنة رسول الله ﷺ، والاكتفاء بالاقتداء بأصحابه الكرام، فإنَّهم كالنُّجوم، بأيِّهم اقتديتم اهتديتم. وأما القياسُ بالاجتهاد؛ فليس من البدعة في شيءٍ، فإنَّه مظهرٌ لمعنى النصوص، لا أنَّه مثبتٌ لأمرٍ زائدٍ، ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢] والسلام على من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى عليه وعلى آله أفضل الصلوات وأكمل التسليمات.

المكتوب السابع والثمانون والمائة

إلى الخواجه أشرَف الكابُليِّ في أفضليَّة طريقِ الرَّابطة على الذِّكْر بالنِّسبة إلى المريد.

قد وقع النَّظرُ على الكتاب الذي كتبته إلى الأصحاب، واطّلعت على الأحوال المسطورة فيه. اعلم أنَّ حصولَ رابطة الشّيخ للمريد بلا تكلُّفٍ وتعمُّلٍ علامةُ المناسبة التامَّة بين المرشد والمريد التي هي سببُ الإفادة والاستفادة، ولا طريقَ أقربُ من طريق الرَّابطة أصلاً، فيا سعادةَ من استسعد بهذه الدَّولة، أَوْرَدَ حضرة الخواجه أحرار قدس سره في «الفقرات»: أنَّ ظلَّ الدَّليل أَوْلى من ذكر الحقّ سبحانه باعتبار النَّفع، يعني: أنَّ ظلَّ الدليل أَوْلى للمريد من اشتغاله بالذِّكْر، فإنَّه لم تحصل بعدُ للمريد مناسبةٌ كاملةٌ بالمذكور جلّ وعلا حتى ينتفع من طريق الذكر انتفاعاً تامّاً، والسلامُ أولاً وآخراً.

المكتوب الثامن والثمانون والمائة

إلى الخواجه محمَّدٍ صدِّيقِ البَدَخْشِيِّ في حلِّ إشكالِ المسائلِ التي سألَ عنها.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦) وصححه، وابن ماجه (٤٣) من حديث العرباض بن سارية ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٦٩٧٠) من حديث غضيف بن الحارث.

(٣) أخرجه الدارمي في «سننه» (٩٩).

(٤) أخرج مسلم (١٣٥٩) من حديث عمرو بن حريث ﷺ قال: (كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ على المنبر، وعليه عمامةٌ سوداء، قد أرخى طرفيها بين كتفيه).

وصل مكتوبُ الأخ الأعزّ، وقد سُئِلَ عن أمورٍ ثلاثةٍ.

أيُّها المحبُّ: إنَّ اختفاءَ بعض اللطائف في مرتبة القلب مقصورٌ على لطائف تضمّنها القلبُ، لا أنّه جارٍ في لطائف متحقّقةٍ فيما وراء القلب، فإنَّه لا معنى لاختفائها في مقام القلب.

الثّاني: إنَّ من كان استعدادُه إلى مرتبة القلب أو الروح؛ يقدرُ الشيخُ صاحبُ التَّصرُّف على إيصاله إلى مرتبةٍ فوقانيّةٍ، لكن هنا دقيقةٌ بيانُها موقوفٌ على الحضور لعُسْر تحريره.

الثّالثُ: إنَّ الظّاهرَ إذا انصبغ بلون الباطن، وانصبغ الباطنُ بلون الظّاهر؛ لا عُسرةَ حينئذٍ في ظهور أحكام الظّاهر في الباطن، وبُدُوّ أحوال الباطن في الظّاهر. والسلام.

المَكْتُوبُ التَّاسِعُ وَالثَّمَانُونَ وَالمِائَةُ

إلى شرفِ الدِّينِ حسينٍ في بيانِ فضلِ تذكُّر الفُقراءِ مع كثرةِ الاشتغالِ، والتَّحذيرِ عنِ الانخداعِ بمتاعِ الدُّنيا، وتعظيمِ ذِكر القَلبِ.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وآله الطاهرين أجمعين. وصل مكتوبُ الولد الأنجب الأعزّ الأرشد شرف الدين حسين، وصار موجباً للفرحة، وباعثاً على البهجة، نعمت النِّعمةُ عدمُ نسيان الفقراء الذين لا بضاعةَ لهم مع وجود تعلُّقاتٍ شتّى، وهذا التَّذكُّرُ ينبئُ عن أشدّ المناسبة التي هي سببُ الإفادة والاستفادة، وبعضُ الوقائع التي اندرج بيانُه فيه حسنٌ وأصيلٌ، وأدلُّ دليلٍ على الارتباط المعنويّ.

أيُّها الولدُ، إياك والانخداع بطراوة الدُّنيا الدنيَّة، والافتتانَ بمزخرفاتها الشَّنيعة التي لا معنى فيها، فإنَّ الدنيا ليس لها مدارٌ ولا اعتبارٌ، ولا هي محلُّ قرارٍ، وهذا المعنى وإن لم يكن اليومَ معلوماً لكم، ولكنه سيكون غداً معقولاً ألبتّة، ولكن لا ينفعُ: (شعر) فِـي أُذْنِـهِ مِـنْ أَنَّـتِـي صَـمَـمٌ فَلَا يَرْضَـى سَـمَاعَ نَصِـيحَتِي وَبُكَائِيَا

وينبغي لك أن تكون مُولَعاً وحريصاً بتكرار ذكر القلب معتقداً أنّه من أجلِّ نعم الله جل شأنه، وأن تصلّي الصلوات الخمس مع الجماعة من غير تكاسلٍ وفتورٍ، وأن تؤدّي زكاةَ الأموال إلى الفقراء والمساكين بنشاط القلب، وأن تجتنب المحرّمات والمشتبهات، وأن تكون مشفقا على الخلق، وهذا هو طريقُ النجاة والخلاص. والسلام.

المَكْتُوبُ التِّسْعُونَ وَالمِائَةُ

إلى واحدٍ من أولادِ المِير محمَّدٍ نعمانَ البَدَخْشِيِّ في التَّحريضِ على المداوَمةِ على الذِّكر، واختيارِ الطَّريقة النَّقشبَنديَّة مع بيانِ كيفيَّة الذِّكر.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله الطاهرين أجمعين. اعلم وتنبَّه أنَّ سعادتك - بل سعادةَ جميع بني آدم وفلاحَهم وخلاصَهم كلُّ ذلك - في ذكر مولاهم جلّ سلطانه، فينبغي استغراقُ جميع الأوقات بالذكر الإلهيّ جلّ شأنه بقدر الإمكان، وأن لا يجوز الغفلةُ لحظةً واحدةً، ولله سبحانه الحمد والمنة إنَّ دوامَ الذكر يتيسّرُ في طريقة خواجكان قدس الله أسرارهم في الابتداء، ويحصل ذلك فيها على طريق اندراج النِّهاية في البداية، فاختيارُ هذه الطَّريقة كان للطَّالب أَوْلى وأنسبُ، بل يكون واجباً عليهم ولازماً، فعليك إذاً صرفُ التوجُّه عن جميع الجهات، والإقبالُ بالكليَّة على جانب أكابر هذه الطَّريقة العليّة، وطلبُ الهمَّة من بواطنهم الشريفة، ولا بُدَّ من الذكر في الابتداء، فينبغي أن تتوجَّهَ إلى القلب الصنوبريّ الشكل، فإنَّ تلك المضغةَ كالحجرة للقلب الحقيقيّ، وأن تجريَ الاسمَ المباركَ (الله).......

على هذا القلب، ولا تحرِّك عضواً من أعضائك في هذا الوقت بالقصد، واقعد متوجّهاً إلى القلب بالكليَّة، ولا تخيّل صورةَ القلب بالقوّة المتخيلة أصلاً، ولا تلتفتْ إليها قطعاً، فإنَّ المقصودَ: التوجُّهُ إلى القلب، لا تصوُّرُ صورته، وينبغي أن تلاحظَ معنى اللفظ المبارك (الله) بـ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وأن لا تضمَّ إليها شيئاً من ملاحظة الصِّفات حتى الحاضريَّة والناظريَّة؛ لئلا تنزل من ذروة حضرة الذَّات إلى حضيض الصِّفات، فتقع منها إلى شهود الوحدة في الكثرة، وتطمئنَّ بشهود المثاليّ من التعلُّق بمن تنزَّه عن المثال، والتوجُّه إليه، فإنَّ كلّما يظهر في مرآة المثالي؛ لا يكون مصداقاً لـ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وكلُّما يشاهَدُ في الكثرة لا يكون واحداً حقيقيّاً ألبتّة.

ينبغي للعاقل أن يطلب المنزَّه عن المثال فيما وراء المثاليّ، وأن يلتمس البسيطَ الحقيقيَّ في خارج حيطة الكثرة، فإن ظهرت صورةُ المرشد وقت الذكر من غير تكلّفٍ؛ ينبغي أن تذهبَ بها إلى القلب، وأن تشتغل بالذّكر حافظاً لها في القلب. أتدري من المرشدُ؟ المرشدُ: من تستفيد منه طريقَ الوصول إلى جناب قدس الحقّ جل سلطانه، وتجدُ منه مدداً وإعانةً في هذا الطَّريق، ومجرّدُ لبس الكلاه والخرقة وأخذ الشّجرة وغيرها مما صار عرفاً ورسماً بين الناس كلّها خارجةٌ عن حقيقة المرشديَّة والمريديَّة، وداخلةٌ في الرسوم والعادات، إلا أنَّ الخرقةَ إن حصلتْ من الشيخ الكامل المكمّل، وعاملت بها بالاعتقاد والإخلاص؛ فاحتمالُ حصول الثمرات والنَّتائج قويٌّ في هذه الصورة.

واعلم أنَّ المناماتِ والواقعاتِ لا اعتمادَ عليها، ولا اعتبارَ لها، فإنَّ الإنسانَ لا يكون سلطاناً أو قطبَ الوقت في الحقيقة بسبب رؤية نفسه كذلك في المنام، فإن كان في الواقع سلطاناً أو قطب الوقت؛ فمسلَّمٌ، وكذلك كلُّما ظهر من الأحوال والمواجيد في الصحو والإفاقة؛ ففيه مجالٌ للاعتماد عليه، وإلا؛ فلا.

واعلم أنَّ نفعَ الذكر وترتُّبَ الأثر عليه مربوطٌ بإتيان أحكام الشَّريعة، فينبغي حسنُ الاحتياط في أداء الفرائض والسنن، واجتنابُ المحرّم والمشتبه، والرجوعُ إلى العلماء في القليل والكثير، والعملُ بمقتضى فتواهم. والسلام.

المَكْتُوبُ الحَادِي وَالتِّسْعُونَ وَالمِائَةُ

إلى خان خانان في الحثِّ على اتِّباع الأنبياءِ عليهمُ السَّلام، وأنَّه لا عسرَ في التَّكاليف الشَّرعيَّة.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣]. اعلم أنّ السَّعادةَ الأبديّةَ والنجاةَ السرمديةَ مربوطةٌ بمتابعة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عموماً، وعلى أفضلهم خصوصاً، فإن تيسّرت عبادةُ ألف سنةٍ فرضاً مع الرياضات الشاقَّة والمجاهدات الشديدة؛ لا تعدل تلك العباداتُ بنصف شعيرةٍ ولا تساوي تلك الرياضاتُ بالنوم وقت الظهيرة اقتداءً بصاحب الشَّريعة مع كونه غفلةً من الأوّل إلى الآخر ما لم تكن منوّرةً بنور اتّباع هؤلاء الأكابر في الأمور الخطيرة والحقيرة، بل هي كسرابٍ بقيعةٍ، ومن كمال عناية الحقّ سبحانه وتعالى رعايةُ نهاية اليسر وغاية السهولة في جميع التَّكاليف الشَّرعيّة والأحكام الدينيَّة، حيث أمر مثلاً بسبع عشرة ركعةً من الصَّلاة في الليل والنهار لا يبلغ مجموعُ أوقات أدائها ساعةً واحدةً، ومع ذلك اكتفي في قراءتها بما تيسّرَ، وجوَّزَ القعودَ عند تعذُّر القيام، والاضطجاع عند تعذر القعود، وأمر بالإيماء عند تعذُّر الركوع والسجود، وجعل التيمُّمَ خَلَفَ الوضوء وقت العجز عن استعمال الماء، وعيَّنَ للفقراء والمساكين حصَّةً واحدةً من أربعين حصَّةً في زكاة الأموال، وقيَّدَ افتراضها أيضاً بكون الأموال ناميةً، والأنعام سائمةً، وفرض في جميع العمر حجّاً واحداً، ومع ذلك جعله مشروطاً بالقدرة على الزّاد........

والراحلة وأمن الطَّريق، ووسَّع دائرةَ المباح، حيث أباح نكاحَ أربعةٍ من النساء، ومقدار ما يملكه ويقدر عليه من السراري، وجعل الطلاقَ وسيلةً لتبديل النساء، وجعل أكثرَ الأطعمة والأشربة والأقمشة مباحاً، وجعل المحرَّمَ منها قليلاً، وتحريمُه أيضاً بواسطة مصالح العباد، وإن حرّم شراباً واحداً مرّاً كثيرَ الضرر، ولكنَّه أباح عِوَضاً عنه كثيراً من الأشربة اللّذيذة السّائغة الكثيرة النفع، ألا ترى أنَّ عرقَ القرنفل وعرقَ الدارصيني مع سهولةِ شربهما وطيب رائحتهما مشتملان على منافع كثيرةٍ وفوائد جزيلةٍ لا يمكن تحريرُها، فأيُّ فائدةٍ في تركهما واختيار شيءٍ مرٍّ كريهِ الطعم وكريهِ الرائحة ساتر العقل عظيمِ الخطر؟ شتّان ما بينهما، ومع ذلك بينهما فرقٌ آخر طار من جهة الحلّية والحرمة، فإنَّه أمرٌ آخرُ، والتميّز العارض من حيثيّة رضائه تعالى وعدم رضائه شيءٌ على حدةٍ، فإن حرَّم بعض ألبسة الإبرسيم؛ فما الضررُ فيه؟ حيث أحلّ عوضه كثيراً من الألبسة الملوّنة المنقشة والأقمشة المزيَّنة، ولباسُ الصوف الذي أبيح مطلقاً أفضلُ من ألبسة الإبرسيم بمراتبَ، ومع ذلك قد أبيح لباسُ الإبرسيم للنساء، ومنافعُه عائدةٌ إلى الرجال، وهكذا حالُ الذَّهب والفضّة، فإنَّ حليَ النساء لأجل تمتُّع الرجال، فمن اعتقد الأحكامَ الشَّرعيّةَ مع هذه السُّهولة واليسر من عدم الإنصاف متعسِّرةً ومتعذِّرةً؛ فهو مبتلىً بمرضٍ قلبيٍّ، وعلّةٍ باطنيَّةٍ، وكم من أمورٍ يسيرةٍ للأصحّاء متعسِّرةٌ للضعفاء عسرةً تامّةً، ومرضُ القلب هو عبارةٌ عن عدم يقين القلب بالأحكام المنزلة من السماء، وتصديقهم بهذه الأحكام إنّما هو صورةُ التَّصديق لا حقيقتُه، وعلامةُ حصول حقيقة التَّصديق: ثبوتُ اليسر والخفّة والنشاط في إتيان الأحكام الشَّرعيّة، وبدونها خرطُ القتاد، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣] والسلام على من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى، عليه وعلى آله أتم الصلوات وأكمل التسليمات.

المكتوب الثاني والتسعون والمائة

إلى الشّيخ بديعِ الدِّين السَّهارَنْ پوريِّ في جوابِ استِفسارِه.

استفسر الأخُ الأعزُّ الأرشدُ الشيخ بديع الدين أنَّه قد وقع في العريضة الحادية عشرة المكتوبة إلى حضرة الخواجه – يعني: الشيخ محمد الباقي قدس سره –، وتيسَّرَ الوصولُ إلى مقام مزيّن أعلى من مقام الصديق الأكبر ﷺ، فما يكون معنى هذا الكلام؟

اعلم أرشدك الله: لا نسلم أنَّ هذه العبارةَ موهمةٌ للتَّفضيل، مع أنَّ لفظ (أيضاً) واقعٌ فيها أيضاً، ولو سلّم فأقول: إنَّ هذا الكلامَ وغيره في هذه العريضة من جملة الواقعات المكتوبة إلى شيخي والمعروضة عليه، ومن المقرَّر عند هؤلاء الطّائفة: أنَّ كلّما يحصل للسالك من الواقعة؛ يُظْهِرُه لشيخه بلا تحاشٍ، صحيحاً كان أو سقيماً، فإن في غير الصَّحيح أيضاً احتمالَ التّأويل والتَّعبير، فلا يكون إذاً بُدٌّ من إظهاره، ففيما نحن فيه لا يلزم محظورٌ عند ملاحظة هذا المعنى. والحلُّ الثّاني: إنّه قد جوّز تحقُّقَ فضلٍ في جزئيٍّ من الجزئيات لغير نبيٍّ على نبيٍّ، ولم يروا فيه بأساً، كما وقعت الزيادةُ في شأن الشهداء ليست هي في الأنبياء عليهم السلام، مع أنَّ الفضلَ الكليَّ للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فعلى هذا التَّقدير لو وقع سيرُ غير النبيّ في كمالات ذلك الجزئيّ، ووجد السَّالكُ نفسه في ذلك المقام أعلى؛ لكان مجوّزاً، وإن كان حصولُ الوصول له إلى ذلك المقام بواسطة متابعة النبيّ، وللنبيّ أيضاً نصيبٌ تامٌّ من ذلك المقام بحكم حديث: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً» الحديث[1]، فإن كان تحقُّقُ الفضل الجزئيّ لغير النبيّ على النبيّ مجوّزاً؛ فعلى غير النبيّ يكون مجوزاً بالطَّريق الأولى، فلا إشكالَ.........

(١) أخرجه مسلم (١٠١٧) من حديث جابر ﷺ.

أصلاً. والسلام.

المكتوب الثالث والتسعون والمائة

إلى سيِّد فريدٍ في الحثِّ على تصحيحِ العَقائدِ على وَفقِ آراءِ أهلِ السُّنَّة والجماعةِ، وتعلُّمِ الأحكامِ الفقهيَّة، والشِّكاية من غربَة الإسلامِ، والإغراءِ على ترويجِه وتأييدِه.

كان الله ناصركم ومعينكم على كلما يعيبكم ويشينكم. اعلم أنَّ أوَّلَ الضروريات الواجبة على أرباب التَّكليف: تصحيحُ العقائد على وفق آراء علماء أهل السنة والجماعة شكر الله تعالى سعيهم، فإنَّ النَّجاةَ الأخرويَّةَ مربوطةٌ باتِّباع آراء هؤلاء الأكابر، وهم وأتباعهم هم الفرقةُ النَّاجيةُ، فإنَّهم على طريق النبيّ وطريق أصحابه صلوات الله وتسليماته عليه وعليهم أجمعين، والمعتبرُ من العلوم المستفادة من الكتاب والسنَّة: هو ما أخذه واستنبطه منهما هؤلاء الأكابرُ، فإنَّ كلَّ مبتدعٍ وضالٍّ يأخذ عقيدتَه الفاسدةَ من الكتاب والسنة بزعمه الفاسد، فلا يكون كلُّ معنىً مفهومٍ من معاني الكتاب والسنَّة معتَبَراً، ورسالةُ الإمام الأجلّ التوربشتي مناسبةٌ جداً لأجل تصحيح العقائد، وأقربُ إلى الفهم، ولكن حيث إنَّ الرسالةَ المذكورةَ مشتملةٌ على الاستدلالات مع التَّطويل والبسط؛ يعسرُ الأخذُ عنها، فلو كانت رسالةٌ غيرها متضمّنةً للمسائل الصرفة؛ لكان أَوْلى وأنسب. وقد وقع في خاطري أيضاً في هذه الأثناء أن أكتبَ في هذا الباب رسالةً متضمّنةً لعقائد أهل السنة والجماعة، وتكون سهلةَ المأخذ، فإن تيسّر ذلك؛ نرسِلُها إلى الخدمة بعد كتابتها.

وبعد تصحيح هذه العقائد؛ لا بُدَّ من تعلُّم علم الحلال والحرام والفرض والواجب والسنة والمندوب والمكروه وغيرها مما تكفَّل به علمُ الفقه، والعملُ بمقتضى هذا العلم أيضاً ضروريٌّ، فينبغي أمرُ بعض الطلبة بقراءة بعض كتب الفقه بعبارةٍ فارسيةٍ، مثل «مجموعة الخاني» و«عمدة الإسلام»، فإن وقع - عياذاً بالله سبحانه - خللٌ على مسألة من المسائل الاعتقاديَّة الضروريَّة؛ فقد تحقَّقَ الحرمانُ من النجاة الأخرويَّة، بخلاف العمليات، فإنَّها إذا وقعت المساهلةُ فيها؛ يرجى العفوُ والتجاوزُ عنها ولو بلا توبةٍ، ولئن أُخِذَ بها، ولكن النَّجاةَ متحقّقةٌ في آخر الأمر، فعمدةُ الأمر: تصحيحُ العقائد.

ونقل عن حضرة الخواجه أحرار قدس سره أنَّه قال: لو أعطينا الأحوالَ والمواجيدَ كلَّها، ولم تكن حقيقتنا محلاّةً ومتزيّنةً بعقائد أهل السنة والجماعة؛ لا نعتقدُ تلك الأحوال شيئاً غيرَ الخذلان، ولئن اجتمع فينا القصورُ والنقصانُ، وحقيقتنا مستقيمةٌ على عقائد أهل السنة والجماعة؛ لا نرى بأساً في ذلك. ثبتنا الله سبحانه وإياكم على طريقتهم المرضيَّة، بحرمة سيد البشر عليه وعلى آله الصلاة والسلام.

وقد قدم واحدٌ من الدراويش من طرف لاهور، وقال: إنَّ الشيخ جيو كان قد حضر في مسجد النَّخّاس القديم لصلاة الجمعة، فقال ميان رفيع الدين بعد التفات الشيخ إليه: إنَّ نُوّاب الشيخ جيو قد بنى مسجداً جامعاً في قرب بيته، الحمد لله على ذلك، رزقه الله سبحانه مزيدَ التوفيق، وسماعُ أمثال هذه الأخبار السَّارة يكون باعثاً على حصول غاية السُّرور ونهاية الابتهاج.

أيُّها السيدُ، إنَّ الإسلامَ غريبٌ في هذا الزمان جدّاً، فصرفُ فلسٍ واحدٍ في تقوية الإسلام في هذا الزمان يساوي صرفَ ألوفٍ من الدّرهم والدّينار، فيا سعادة من تشرَّفَ بهذه الدَّولة العظمى، وترويج الدين، وتقوية الملة، وإن كان حسناً ومرغوباً فيه في جميع الأوقات من جميع الأشخاص، ولكنَّ صدورَه في هذا الوقت........................

الذي هو أوانُ غربة الإسلام من أمثالكم أصحاب المروءة والهمّة والفتوّة وأهل بيت النبوّة أحسنُ وأجملُ، فإنَّ هذه الدَّولةَ منتشرةٌ من طائفتكم العليّة، فهي ذاتيّةٌ فيكم، وعَرَضيةٌ في غيركم، وحقيقةُ الوراثة النبويّة عليه وعلى آله الصلاة والسلام إنّما هي في تحصيل هذا الأمر العظيم القدر، قال النبي ﷺ للأصحاب: «**إِنَّكُمْ فِي زَمَانٍ مَنْ تَرَكَ عُشْرَ مَا أُمِرَ بِهِ هَلَكَ، ثُمَّ يَأْتِي زَمَانٌ مَنْ عَمِلَ بِعُشْرِ مَا أُمِرَ بِهِ نَجَا**»[1]، وهذا هو ذلك الوقتُ، وهذا القومُ هو ذلك القومُ: (شعر)

هَلُمُّوا أَيُّهَا الْأَبْطَالُ نَحْوَ الْـ ... ـغَنَائِمِ مَا لَهَا أَصْلاً مُدَافِعُ

وقد حسن قتلُ الكافر اللعين كوبنددال في هذا الوقت، وكان هذا الفعلُ باعثاً على كسر عظيمٍ في الهنود المردودة بأيّ نيةٍ كان قتلُه، وبأيّ غرضٍ كان إهلاكُه، فإنَّ مذلَّة الكفار نقدُ وقت أهل الإسلام، وقد رأى هذا الفقيرُ في المنام قبل قتل ذلك الكافر أنَّ سلطانَ الوقت قد كسر رأسَ رئيس أهل الشرك، والحقُّ أنَّ ذلك الكافرَ كان رئيسَ أهل الشرك، وإمامَ أهل الكفر، خذلهم الله سبحانه.

وقد دعا النبيُّ عليه الصلاة والسلام على أهل الشرك في بعض أدعيته بهذه العبارة: «**اللَّهُمَّ شَتِّتْ شَمْلَهُمْ، وَفَرِّقْ جَمْعَهُمْ، وَخَرِّبْ بُنْيَانَهُمْ، وَخُذْهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ**»، وعزَّةُ الإسلام وأهله إنّما هي في مذلَّة الكفر وأهله، والمقصودُ من أخذ الجزية: هو إذلالُ الكفار وإهانتُهم، وتحصل المذلَّةُ لأهل الإسلام بقدر ما تحصلُ العزَّةُ لأهل الكفر، فينبغي حسنُ التنبُّه على هذا الأمر، وقد ضيَّعه أكثرُ الناس، وأخرب دينه بشؤمه، وجعله هباءً منثوراً، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم: ٩]، فجهادُ الكفار والغلظةُ عليهم من ضروريات الدين، وبقايا رسوم الكفر التي ظهرت في القرن السابق تثقل على قلوب المسلمين جدّاً، ولم يَبْقَ لسلطان الوقت توجُّهٌ إلى أهل الكفر في هذا الوقت، فاللّازمُ لمن يقدر من المسلمين إعلامُ السُّلطان بقبح رسوم هؤلاء الأشرار، والاجتهاد في دفعها وإزالتها، فإنَّ بقاءها يحتمل أن يكون مبنيّاً على عدم علم السُّلطان بقبحها. وبالجملة إذا وجدت مساعدةُ الوقت.

ينبغي إخبارُ بعض علماء أهل الإسلام بأن يجيئوا ويعلموا بشناعة رسوم أهل الكفر، فإنَّه لا حاجةَ لتبليغ الأحكام الشَّرعيّة إلى إظهار خوارق العادات والكرامات، والاعتذارُ بعدم التَّصرُّف لا يُسْمَعُ يوم القيامة في القعود عن تبليغ الأحكام الشَّرعيّة، وقد بلَّغ الأنبياءُ عليهم السلام الذين هم أفضل الموجودات الأحكامَ الشَّرعيّةَ، فإذا طلبوا منهم المعجزاتِ والآياتِ؛ كانوا يقولون: إنّما الآياتُ والمعجزاتُ عند الله، وما علينا إلا البلاغ المبين، ولعلَّ الله سبحانه يحدث في تلك الأثناء أمراً يكون باعثاً على ظهور حقيقة هؤلاء الجماعة، وعلى كلِّ حالٍ الاطلاعُ على حقيقة المسائل الشَّرعيّة ضروريٌّ، فإن وقع الإهمالُ في ذلك؛ فالعهدةُ على ذمّة العلماء ومقرّبي السلطان، فإن حصلت الأذيَّةُ في هذا القيل والقال لبعض الناس.

ينبغي أن يعدها سعادةً عظيمةً، ألا ترى أنَّ الأنبياءَ عليهم الصلاة والسلام ماذا رأوا من الأذيّة؟ وكم تحملوا من المحنة؟ حتى قال أفضلهم عليه الصلاة والسلام: «**مَا أُوذِيَ نَبِيٌّ قَطُّ مِثْلَ مَا أُوذِيتُ**»: (شعر)

عُمْرِي مَضَى وَحَدِيثُ وَجْدِي مَا انْقَضَى ... وَاللَّيْلُ قَدْ بَلَغَ الْمَدَى فَاقْنَعْ بِذَا

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٢٦٧) واستغربه من حديث أبي هريرة ﷺ.

والسلامُ والإكرامُ.

المَكتُوبُ الرَّابِعُ وَالتِّسْعُونَ وَالمِائَةُ

إلى صَدْر جِهان في التَّحريضِ على ترويجِ الملَّة، وتأييدِ الدِّين، وما يتعلَّق بذلك.

سلَّمكم الله سبحانه وعافاكم. إنَّ سماعَ أخبار ترويج الأحكام الشَّرعيّة، وإذلال أعداء الملَّة المصطفوية، على صاحبها الصلاة والسلام والتحية، يُورِثُ الفرحَ للمسلمين المغمومين، ويزيدُ في نشاط أرواحهم، الحمد لله سبحانه والمنَّةُ على ذلك، والمسؤولُ من الله سبحانه الملك القدير ازديادُ هذا الأمر الخطير، بحرمة النبي البشير النذير، عليه وعلى آله الصلاة والسلام، ونحن على يقينٍ بكون كبراء أهل الإسلام، من السَّادات العظام، والعلماء الكرام، متصدِّين في الخلاء والملاء لازدياد تقوية الدين المبين، وتكميل الصراط المستقيم، وماذا يُظْهِرُ عديمُ الطاقة وفاقدُ الاستطاعة في هذا الباب؟ وقد سمعنا أنَّ سلطانَ الإسلام من حُسْن استعداده الإسلاميّ طالبٌ للعلماء، وراغبٌ فيهم، الحمدُ لله على ذلك، ومن المعلوم أنَّ كلَّ فسادٍ ظهر في القرن السَّابق؛ كان ذلك من شآمة علماء السُّوء، فينبغي رعايةُ التتبُّع التامّ في هذا الباب، وانتخابُ العلماء المتدينين، فإنَّ علماءَ السُّوء لصوص الدين مطلبُهم الجاهُ والرياسةُ والمنزلةُ عند الخلق، والعياذ بالله سبحانه من فتنتهم. نعم، إنَّ أفضلَهم أفضلُ الخلائق، حتى يوزنُ مدادُهم يوم القيامة بدم الشهداء في سبيل الله، فيترجَّحُ مدادُهم، شرُّ الناس شرارُ العلماء، وخيرُ الناس خيارُ العلماء.

والملتمسُ ثانياً: أنَّ بعض النيّات قد اضطرّ أن أُوصِلَ نفسي إلى العسكر، ووقع التوقُّفُ في دهلي بسبب دخول شهر رمضان المبارك، وبعد مضيّ هذا الشهر المبارك نصلُ إلى خدمة الأعزّة إن شاء الله تعالى.

المَكتُوبُ الخَامِسُ وَالتِّسْعُونَ وَالمِائَةُ

إلى المَذكورِ أيضاً في الحثِّ على ترويجِ الشَّريعة، وإظهارِ الأسفِ على ضعفِ الإسلامِ.

سلَّمكم الله سبحانه وأبقاكم، وحيث إنَّ إحسانَ السَّلاطين حاصلٌ[1] لكافة الخلق؛ فبحكم «**جُبِلَتِ الْقُلُوبُ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِمْ**»[2] قلوبُ الخلائق مائلةٌ إلى جانب المحسنين بالضَّرورة، فلا جرم كانت أخلاقُ السلاطين وأوضاعُهم ساريةً إلى جميع الخلائق بواسطة هذا الارتباط الحبيّ على تفاوت درجات الإحسان، وكأنَّه لذلك قيل: الناسُ على دين ملوكهم، وأحوالُ القرن السَّابق مصداقُ هذا الكلام، ولَمّا وقع الآن الانقلابُ في الدول، وانكسرتْ سورةُ عناد أهل الملل؛ لزم لأئمة أهل الإسلام من الصّدور العظام والعلماء الكرام صرفُ جميع الهمّة في ترويج الشَّريعة الغراء، وتقويم أركان الإسلام المنهدمة، وإحكامها في بداية الأمر، فإنَّ التَّأخيرَ ليس فيه خيرٌ، وقلوبُ الغرباء في غاية الاضطراب، من هذا التَّأخير في هذا الباب، وشدائدُ القرن السَّابق متمكِّنةٌ في قلوب المسلمين، فهم خائفون من فوت تلافي ذلك، فتنجرُّ غرابة الإسلام إلى الطول، فإذا لم يكن في السَّلاطين شوقُ ترويج السنة السَنِيّة يتساهَلُ مقرّبوهم في هذا الباب أيضاً، ويعدُّون حياةَ أيام معدودةٍ غنيمةً، فيكون الأمرُ ضيّقاً على فقراء أهل الإسلام ومظلماً جداً، إنا لله وإنا إليه راجعون، أنشد واحدٌ من الأعزّة:

(شعرٌ) آنچه از من گُم ده، گر از سليمان گم شدى ... هم سليمان، هم پرى، هم اَهرِمن بگريستى

(١) في النسخ: (حاصلة)، ولعل الصواب ما أثبتناه.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٢١)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٨/ ٣٢٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١١/ ٣٠٧- ٣٠٨) من حديث ابن مسعود ﷺ مرفوعاً، وأخرجه ابن حبان في «روضة العقلاء» (ص: ٢٤٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١١/ ٣٠٦) عنه موقوفاً. قال البيهقي: هذا هو المحفوظ موقوفٌ.

آخر: صُبَّتْ عَلَيَّ مَصَائِبُ لَوْ أَنَّهَا صُبَّتْ عَلَى الأَيَّامِ صِرْنَ لَيَالِيَا

ومن جملة شعائر الإسلام: تعيينُ القضاة في بلاد الإسلام، وقد انمحى أثرُه في القرن السَّابق، وبلدُ سرهند الذي هو أعظم بلاد الإسلام وليس فيه قاضٍ منذ سنين، وكان آباءُ حامل رقيمة الدُّعاء القاضي يوسف قضاةً فيه منذ بنائه كما هو معلومٌ من إسناد السَّلاطين في يده، والمشارُ إليه محلّىً بالصلاح والتقوى، ففوِّضوا هذا الأمرَ العظيمَ القدر إليه إن علمتم فيه الصلاحَ. ثبتنا الله سبحانه وإياكم على جادة الشَّريعة الحقَّة على مصدرها الصلاةُ والسلامُ والتحيةُ.

المَكْتُوبُ السَّادِسُ وَالتِّسْعُونَ وَالمِائَةُ

إلى منصورٍ عربٍ في بيانِ أنَّ هذا الطَّريق الذي نحنُ في صددِ قطعِه سَبعة أقدامٍ، وما يناسِبه.

وردت صحيفةُ المرحمة، ورقيمةُ المكرمة، في أعزّ الأمكنة. لله سبحانه الحمدُ والمنةُ على أنَّ الخواصَّ ليسوا بفارغين من تذكُّر العوامّ، ولم يَخْلُ الأكابرُ من تفقُّد أحوال الأصاغر، جزاكم الله عنا خير الجزاء. أيُّها المخدومُ:

(ع) وَأَحْسَنُ مَا يُمْلَى حَدِيثُ الأَحِبَّةِ

إنَّ هذا الطَّريقَ الذي نحن في صدد قطعه كلَّه سبعةُ أقدام: قدمان منها يتعلّقان بعالم الخلق، وخمسةٌ منها تتعلّق بعالم الأمر، فإذا وضع السَّالكُ قدمه في عالم الأمر؛ يظهر في أوَّل القدم التجلّي الأفعاليّ، وفي القدم الثَّاني التجلّي الصِّفاتيّ، وفي الثَّالث يقع الشروعُ في التجلّيات الذاتيّة، ثم وثم على تفاوت درجاتها كما لا يخفى على أربابها، كلُّ ذلك منوطٌ بمتابعة سيد الأوّلين والآخرين عليه وعلى آله الصلاة والسلام. وما قيل من أنَّ هذا الطَّريق خطوتان؛ فالمرادُ بهما: عالمُ الأمر وعالمُ الخلق على سبيل الإجمال تيسيراً للأمر في نظر الطَّالبين. وفي كلِّ قدم من هذه الأقدام يقع السَّالكُ بعيداً عن نفسه، وقريباً من الحقّ سبحانه، وبعد طيّ هذه الأقدام يحصل الفناءُ الأتمُّ الذي يترَتَّبُ عليه البقاءُ الأكملُ، وبحصول هذا الفناء والبقاء حصولُ الولاية المحمديَّة، على صاحبها الصلاة والسلام والتحية:

(ع) وَهَذِي سَعَادَاتٌ تَكُونُ نَصِيبَ مَنْ

وأيُّ مناسبةٍ لأمثالنا الفقراء بهذه الكلمات غير أنَّا نَبُلُّ أفواهنا بزلال حال أهل الكمال ونطيِّبها به: (شعر)

گر نداريم از شكر جز نام بهر اين بسى خوشتر كه اندر كام زَهر

غيره:

إِذَا قِسْنَا السَّمَا بِالْعَرْشِ يَنْحَطَّ وَمَا أَعْلَاهُ إِنْ قِسْنَا بِأَرْضٍ

والسلام أولاً وآخراً.

المَكْتُوبُ السَّابِعُ وَالتِّسْعُونَ وَالمِائَةُ

إلى بَهلوَان محمود في مدحِ من تبرَّد قلبُه منَ الدُّنيا، وتأثَّر من محبَّة الحقِّ سُبحانه... إلخ.

ثبتكم الله سبحانه على جادة الشَّريعة. اعلم أنَّ السعيدَ: من تبرَّدَ قلبُه من الدنيا، وتأثَّر من حرارة محبَّة الحقّ سبحانه، ومحبَّةُ الدنيا رأسُ كل خطيئة، وتركُها رأسُ جميع العبادات، فإنَّ الدنيا مبغوضةُ الحقّ سبحانه بحيث لم ينظر إليها منذ خلقها، واتَّسمت هي وأهلها بسمة الطَّرد واللعن كما ورد في الخبر: **«الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ وَمَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا مَا فِيهِ ذِكْرُ اللهِ تَعَالَى»**، وحيث كان الذاكرون - بل كلُّ ذرةٍ من ذراتهم - مملوئين بذكر الحقّ سبحانه وتعالى؛ كانوا خارجين من هذا الوعيد، وهم ليسوا في عداد أهل الدنيا، فإنَّ الدنيا هي التي تمنع..........................

القلبَ عن الاشتغال بذكر الحقّ، وتشغله بغيره، سواءٌ كان ذلك أموالاً وأسباباً، أو جاهاً ورياسةً، أو عاراً وحميةً، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا﴾ [النجم: ٢٩] نصٌّ قاطعٌ في ذلك. وكلُّما هو في الدنيا؛ فهو بلاءُ الروح، وأهلُ الدنيا في تفرقةٍ وظلمةٍ في هذه النَّشأة دائماً، وفي الآخرة من أهل النَّدامة والحسرة، وحقيقةُ تركها عبارةٌ عن ترك الرَّغبة فيها، وتركُ الرَّغبة فيها إنّما يتحقَّقُ إذا كان وجودُها وعدمُها متساويين، وحصولُ هذا المعنى بدون صحبة أرباب الجمعيَّة متعسِّرٌ، فإن تيسّرت صحبةُ هؤلاء الأكابر ينبغي أن تعدَّها غنيمةً، وأن تصرف الهمَّةَ والعنايةَ إليها. وصحبةُ الشيخ ميان مزمل وإن كانت غنيمةً لكم، فإنَّه وأمثاله من الأعزَّة العزيزيّ الوجود أعزّ من الكبريت الأحمر، ولكنَّ شيمةَ أهل الكرم الإيثارُ، يعني: تقديم حاجة الغير على حاجة أنفسهم، فإن أذنتم للشيخ ميان مزمل أياماً؛ لكان في محله، وبعد الفراغ من شغله يرجعُ إليكم ثانياً إن شاء الله العزيزُ، والإخلاصُ الغائبي ينوب مناب الحضور في حصول المأمول لكم، والزيادةُ على ذلك تصديعٌ.

رزقنا الله سبحانه وإياكم الاستقامةَ على متابعة سيد البشر، عليه وعلى آله أتم الصلوات، وأكمل التسليمات، والسلام والإكرام.

المَكتُوبُ الثَّامِنُ وَالتِّسْعُونَ وَالمِائَةُ

إلى خان خانان في بيانِ أنَّ المودَّة بينَ الفقراءِ والأغنياءِ متعسِّرةٌ في هذا الزَّمان جدّاً.

كانت «الفتوحات المكية» مفتاحاً للفتوحات المدنية بحرمة النبي وآله الأمجاد عليهم الصلوات والتسليمات، وصل المكتوبُ المرغوبُ المرسلُ باسم الفقراء، فصار باعثاً على زيادة المحبَّة، بشرى لكم، ثم بشرى لكم.

أيُّها المخدومُ، إنَّ حصولَ المودَّة بين الفقراء والأغنياء متعسِّرٌ جداً في هذا الزمان، فإنَّ الفقراءَ لو اختاروا في المحاورات سلوكَ طريق التَّواضع وحسن الخلق اللذين هما من لوازم الفقر؛ لزعم القاصرون من سوء ظنّهم بهم أنَّهم طامعون محتاجون، فلا جرم أنَّهم يصيرون بزعمهم ذلك مصداقَ ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ [الحج: ١٠]، ويحرمون بركات هؤلاء الأكابر. وإن اختاروا سلوكَ طريق الاستغناء الذي هو أيضاً من لوازم الفقر؛ لظنَّ النَّاقصون - من سوء خلقهم - أنَّهم متكبِّرون وسيئوا الأخلاق، وما أدراهم أنَّ الاستغناءَ أيضاً من لوازم الفقر، فإنَّ الجمع بين الضدين قد خرج من حدِّ الاستحالة في هذا المحلِّ. قال أبو سعيد الخراز: عرفتُ الله تعالى بجمع الأضداد، ولا ضررَ في عدم تصديق أهل النَّظر هذه المقدمة، وعدِّهم إياها محالاً، فإنَّ طورَ الولاية وراءَ طور نظر العقل. وباقي الأحوال يعرضُها مولانا المير بالتَّفصيل، والسلام على من اتبع الهدى.

المَكتُوبُ التَّاسِعُ وَالتِّسْعُونَ وَالمِائَةُ

إلى الـملَّا محمَّدٍ أمينِ الكَابُليِّ في بيانِ قبولِ ما التمَسَه منَ الوِردِ.

وردت الصَّحيفةُ المنبئةُ عن فرط المحبَّة والإخلاص المشعرة بكمال المودَّة والاختصاص، فصارت موجبةً للفرح، عافاك الله سبحانه، وقد أظهرتَ فيها طلب وردٍ من الأوراد، فبناءً على ذلك أرسلتَ الأخ الأرشدَ مولانا محمد صديق ليعلم ذكراً من أذكار هذه الطَّريقة العليّة، فينبغي السعيُ البليغُ في امتثال ما أمر به، فعسى أن يكون مثمراً للنَّتائج، ولَمّا لم يكف في ذلك مجرَّدُ الكتابة، وتوقّف الأمرُ على الحضور في الصُّحبة كنت باعثاً على تصديع الأخ المشار إليه. والسلام.

المكتوب المائتان

إلى الملّا شَكِيبي الأَصْفَهانيِّ في حلِّ بعضِ عباراتِ «النَّفحاتِ» التي طلبَ شرحها منه قدِّس سرُّه.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه الطاهرين أجمعين. أيُّها الأخُ، إنَّكم سألتم أن أشرحَ لكم بعض عبارات «النفحات» الذي فيه إغلاق، فبناءً على ذلك اجترأتُ على تحرير كلماتٍ.

أيُّها المخدومُ، إنَّ عينَ القضاة الهمدانِيّ قدس سره قال في بيان حال جماعةٍ سلكوا طريقاً غير مسلوكٍ من غير دليل: فبعضهم حَفِظَتْه مغلوبيَّتُه في كنف حمايتها، وكان السُّكرُ ظلّاً على رأسه، والذي كان منهم صاحبَ تمييز؛ قطعوا رأسه، يعني: أهلكوه. المرادُ بالطَّريق المسلوك - والله سبحانه أعلم -: طريقٌ مسلوكٌ بطيِّ المقامات العشرة المشهورة بالترتيب والتَّفصيل، وتزكيةُ النَّفس مقدمةٌ في هذا الطَّريق على تصفية القلب، والإنابةُ فيه شرط الولاية والهداية، والطَّريقُ الغيرُ المسلوك عبارةٌ عن طريق الجذبة والمحبَّة، وطريق الاجتباء، وهو غيرُ مشروطٍ بالإنابة، وتقدَّم فيه التصفيةُ على التَّزكية، وهذا الطَّريق هو طريقُ المحبوبين والمرادين، بخلاف الطَّريق الأوّل، فإنَّه طريقُ المحبين والمريدين، والبعضُ الذي كان له قوَّةُ الجذبة منهم، واستيلاءُ المحبة الذي المغلوبيَّةُ والسُّكرُ عبارةٌ عنه؛ بقي محفوظاً من شرّ الشياطين الآفاقيّة والأنفسيّة، ومصوناً من إغوائهم وإضلالهم، فهم وإن لم يتّخذوا دليلاً لأنفسهم، ولكن كان فضلُ الله جلّ سلطانه هادياً لهم إلى الطَّريق، وأوصلهم إلى المطلوب الحقيقيّ.

ومن كان منهم صاحبَ تميُّزٍ - يعني: لم تكن له قوَّةُ الجذبة -، وكان استيلاءُ المحبَّة مفقوداً في حقه، ولم يكن له دليلٌ؛ أضلَّتْه أعداءُ الدين عن الطَّريق وأهلكوه، وأذاقوه شربةَ الموت الأبديّ. وكان من جملة المغلوبين هذان الشَّخصان من التراكمة اللذان حكى عنهما الحسينُ القصاب برمزٍ وإشارةٍ حيث قال: كنت في سفر مع قافلةٍ عظيمةٍ، فخرج اثنان من التّراكمة من بين القافلة، وسلكا طريقاً غيرَ مسلوك... إلى آخر القصة.

المرادُ بالطَّريق الذي سلكه القافلةُ: الطَّريقُ المسلوكُ الذي يحصل بقطع المقامات العشرة المشهورة بالترتيب والتَّفصيل، فإنَّ أكثرَ المشائخ - خصوصاً المتقدمين منهم - وصلوا إلى مقاصدهم من هذا الطَّريق، والمرادُ بالطَّريق الغير المسلوك الذي اختاره هذان الشَّخصان من التراكمة وتبعهما الحسينُ القصابُ في اختيار هذا الطَّريق: هو طريقُ الجذبة والمحبَّة الذي هو أقربُ إلى الوصول من ذاك الطَّريق المسلوك المعهود، ومقدمةُ هذا الطَّريق: الالتذاذُ والسُّكونُ الذي هو سببُ الغيبة عن الحسّ، وباعثٌ على الذُّهول عن الشعور، وكنّى عن هذه الحالة بالليل، ولَمّا كانت هذه الغيبةُ عن الخلق متضمّنةً للحضور والشعُّور بالخالق تعالى وتقدس؛ أشار إلى هذا الحضور والشعور بالبدر، وهذا المقامُ يقتضي بياناً ينبغي أن يسمعه بسمع العقل.

اعلم أنَّ مدبّر الجسد هو الروحُ، ومربّي القالب القلبُ، والقوى الجسمانيَّةُ مكتسبةٌ من القوة الروحانيَّة، والحواسُّ القالبيَّةُ مستفادةٌ من النُّورانية القلبيَّة، فبالضَّرورة يتطرَّقُ الفتورُ في مبادئ الحال التي هي أوان النّقص والضعف إلى تدبير الجسد وتربية القالب حين توجّه القلب والروح إلى جناب قدس الحقّ جلّ شأنه الذي هو لازمُ طريق الجذبة، فيكون ذلك الفتورُ سبباً لتعطُّل الحسّ، والذُّهول عن الإحساس، ويفضي إلى ضعف القوى والجوارح،........

والسُّقوط على الأرض بلا اختيارٍ. وعبّر الشيخُ الأجلُّ محيي الدين ابن العربي قدس سره في «الفتوحات المكية» عن هذه الحالة بالسماع الروحيّ، وقال للسَّماع الذي يكون بالرّقص والحركة الدوريَّة: سماعاً جسدياً، وبالَغ في المنع منه.

فتحقّقَ من هذا البيان: أنَّ هذه الغيبةَ الصُّوريَّةَ متضمِّنةٌ للحضور المعنويّ، وذاك الذهولُ الروحيُّ مشتملٌ على الشعور الروحيّ الذي يناسبه التعبيرُ عنه بالبدر.

ولنرجع إلى أصل الكلام: ينبغي أن يعلم أنَّ استتارَ وجه البدر بالغيم الأسود كنايةٌ عن ظهور الصِّفات البشريَّة التي يحصل الحضورُ والشعورُ للمبتدئين باستتارها، وهذا الاستتارُ يمتدُّ إلى أواسط الأحوال، فإنَّ المتوسطين ليس لهم هذا الاستتارُ، وإن لم يخلو عن نحوٍ من الاستتار، ويمكن أن يكون أنَّه لهذا المعنى قال: ولَمّا كان نصفُ الليل؛ ظَهَرَ البدرُ من الغيم ثانياً، فوجدتُ أثرَ قدم هذين الشَّخصين، فإنَّ الطَّريقَ يتَّضح حالةَ البسط التي هي أوان الحضور والشُّعور، ويكون قطعُ المسافة أزيدَ.

و(لَمّا طلع الفجرُ) يعني: زالت تلك الغيبةُ والذهولُ، وقوي ذلك الحضورُ والشعورُ، واجتمع مع التوجُّه إلى الخلق، وكنّى عن هذا الحضور بطلوع الشمس، والجبلُ عبارةٌ عن وجود البشريَّة الذي ظهر له في ذلك الوقت، فإنَّ تزكيةَ النَّفس إنّما هي بعد تصفية القلب في هذا الطَّريق، ولَمّا كانت بهذين الشَّخصين من التراكمة قوَّةُ الجذب واستيلاءُ المحبَّة؛ فلا جرم وضعا أقدامهما على ذروة الجبل بالسُّرعة والسُّهولة، وطلعا فوقه في ساعةٍ واحدةٍ، وتشرَّفا بنحوٍ من الفناء، ولَمّا لم تكن لحسين القصاب هذه القوَّةُ؛ طلع فوق ذلك الجبل بمحنةٍ كثيرةٍ، وهذا أيضاً إنّما تيسّرَ له ببركة متابعته لهذين الشَّخصين، وإلا؛ لقُطِعَ رأسُه.

والمعسكرُ عبارةٌ عن الأعيان الثَّابتة التي هي جامعةٌ لتعينات الحقائق الإمكانية والتعيّن الوجوبيّ، والخيامُ الغير المتناهية كنايةٌ عن تلك التعينات، والخيمةُ الكبيرةُ فيما بينهما إشارةٌ إلى التعيّن العلميّ الوجوبيّ تعالى وتقدس.

ولذا قيل له: إنَّها خيمةٌ سلطانيةٌ، ولَمّا سمع الحسينُ القصاب أنَّها خيمةٌ سلطانيَّةٌ؛ تخيَّلَ أنَّه قد بلغ المطلبَ، فأراد أن ينزل من مركب السُّكر الذي لا يتيسّر قطعُ مسافة هذا الطَّريق بدون مدده، ورام أن يستريح بالوصول إلى المطلوب، ولَمّا أخرج رجله اليمنى التي هي عبارةٌ عن الروح، فإن السَّيرَ إنّما يكون في هذا الطَّريق الغير المسلوك بقدم الروح والقلب، لا بقدم العلم والعمل، فإنَّه مناسبٌ للطريق المسلوك، وأوّل شيءٍ ينزل من مركب السُّكر هو الروحُ، ثم بعده القلبُ الذي عبّر عنه بالرجل اليسرى من الركاب؛ وصل خطابٌ إلهاميٌّ إلى سمع قلبه: إنَّ السلطان ليس في الخيمة، والحقُّ أنَّه كذلك، ولكن لَمّا لم تكن في الحسين القصاب قوَّةُ الجذب؛ نزل من السُّكر ببشارةٍ قليلةٍ، وأما هذان الشَّخصان؛ فإنَّهما لَمّا كان بهما جذبٌ قويٌّ؛ لم يغترّا بأمثال هذه المبشرات، بل طلعا الفوقَ مثل الشجعان، فإن انتظر الحسين القصاب هناك ألفَ سنةٍ مثلاً لَمَا وجد السلطانَ في الخيمة أصلاً، فإنَّه تعالى وراء الوراء.

قوله: (بل هو قعد يصطاد) يعني: قعد على المجالي والمظاهر الجميلة، وشرع في صيد قلوب العشاق، وهذا النداءُ المتضمِّنُ لهذا المعنى إنّما كان على مقدار استعداد الحسين القصاب، وحوصلة فهمه ودرايته، تكلّموا معه بطريق التنزُّل، وإلا؛ فلا معنى للقعود فيما فيه هو تعالى وتقدس: (شعر)

وَكَـمْ مِـنْ سَـائِـرٍ سَـارُوا وَطَـارُوا   فَـعَـادُوا صِـفْـرَ جَـيْـبٍ وَالْـيَـدَيْـنِ

ويخطر على الخاطر الفاتر من هذه العبارةِ معنىً آخرُ مناسبٌ لمقام التفرُّد والكبرياء، وإن لم يكن هذا المعنى أيضاً لائقاً لجناب قدسه جلّ سلطانه، ولكنَّه أَوْلى وأنسبُ من المعاني الأخر، وهو أنَّه قعد على الوحدة التي هي التعيُّنُ الأوّلُ، وفوق مرتبة الواحديَّة، ولَمّا كان في مرتبة الوحدة اضمحلالُ التعينات العلميَّة والعينيَّة واستهلاكُها، والاصطيادُ سببٌ لهلاك الوحوش والطيور؛ قيل: شرع في الاصطياد لمناسبته لهذا المقام، والشيخُ محمد معشوق الطوسي والأميرُ عبور وصلا إلى محلِّ اصطياد السلطان، وصارا من صيده، وأما المعشوقُ الطوسيُّ؛ فهو أقدمُ وأقربُ، وبقي الحسين القصاب في خيمة الواحديَّة رجاء أن يرجع السلطانُ إليها. والله أعلم بحقيقة المراد، وما فيه من الصواب والسداد.

أيُّها المخدومُ، إنَّ أكابرَ الطَّريقة النقشبنديَّة قدس الله أسرارهم اختاروا هذا الطَّريق الغير المسلوك، وصار هذا الطَّريق عندهم طريقاً مسلوكاً معهوداً، وهم يُوصِلُون خلقَ العالم من هذا الطَّريق إلى المطلب بالتوجُّه والتصرُّف، والوصولُ لازمٌ لهذا الطَّريق إذا رُعِيَ فيه آدابُ الشَّيخ المقتدَى به، والشيخُ والشابُّ متساويان في هذا الطَّريق في الوصول، والنِّسوانُ والصِّبيانُ متساهمان فيه، بل الموتى راجون من هذه الدَّولة، قال حضرة الخواجه بهاء الدين النقشبند قدس سره: طلبتُ من الحقّ سبحانه طريقاً يكون موصلاً أَلبتَّةَ. وأنشد الشيخ علاء الدين العطار قدس سره الذي هو أوَّل خلفائه في هذا المعنى: (شعر) لَوْ مَا خَشِيتُ مَلَالَ قَلْبِ الْخَازِنِ   لَفَتَحْتُ أَقْفَالَ الْعَوَالِمِ كُلِّهَا

ثبّتنا الله سبحانه على طريقة هؤلاء الأكابر، والسلام.

المكتوب الحادي والمائتان

إلى كُوچَكْ بَيْگ الحِصاريِّ في جوابِ استفسارِه.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. قد سأل جناب كوچك بيگ الحصاريّ: إنَّ شخصاً يقول: إنَّ جميعَ العلوم مندرجةٌ في حرفين أو ثلاثة أحرفٍ، فهل يكون هذا الكلامُ صادقاً أم لا؟

فنقول في الجواب: الظَّاهرُ أنَّ هذا الشَّخصَ إنّما قال هذا الكلامَ على وجه العلم والسماع ومطالعة الكتب، وقد صدر أمثالُ هذا الكلام من السَّلف، قال أميرُ المؤمنين عليّ كرم الله وجهه: إنَّ جميعَ العلوم مندرجةٌ في باء ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ [النمل: ٣٠]، بل في نقطة بائه، فإن ادَّعى هذا الشَّخصُ الكشفَ في هذا الكلام لا يخلو حاله من أحد الأمرين، فإن قال: إنَّه قد انكشف لي أنَّ جميعَ العلوم مندرجةٌ في حرفين أو ثلاثة أحرف أعمَّ من أن تكون تلك العلومُ المندرجةُ فيهما أو فيها علوم نفسه أو غيره؛ يحتمل الصدقَ. وإن قال: قد انكشف لي جميعُ العلوم وأنا أطالِعُها في صفحة حرفين أو ثلاثة أحرفٍ؛ فهو مدَّعٍ كذابٌ، لا ينبغي تصديقُ كلامه. والسلامُ على من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى عليه وعلى آله أتم الصلوات وأكمل التسليمات.

المكتوب الثاني والمائتان

إلى الميرزا فتحِ اللهِ الحكيمِ في ذمِّ جماعةٍ دخَلوا في الطَّريقةِ، ثمَّ خرَجوا منها بلا موجبٍ.

ثبتنا الله سبحانه وإياكم على الطَّريقة المستقيمة المرضيَّة المصطفويّة، على صاحبها الصلاة والسلام والتحية. اعلم أنَّه قد جرى يوماً كلامٌ في غيرة المشائخ النَّقشبنديَّة قدس الله تعالى أسرارهم السَّنِيّة، وذكر في أثناء ذلك الكلام أنَّه كيف يكون حالُ جماعةٍ انسلكوا في سلك..

إرادة هؤلاء الأكابر، وجعلوا أنفسهم تابعين لهم، وقَبِلَهم هؤلاءُ الأكابر، ثم انقطعوا عن هؤلاء الأكابر بعد ذلك، وتركوا صحبَتَهم من غير سببٍ موجبٍ لذلك فيما هنالك، وتشبَّثوا بأذيال الآخرين بالظنِّ والتَّخمين؟

وذُكِرَ في ضمن ذلك اسمُكم واسمُ قاضي سنام، ولا أدري امتدَّتْ هذه المذاكرةُ إلى لمحةٍ أو لا، ومع ذلك كانت تلك المذاكرةُ مبنيّةً على سببٍ وسياقِ كلامٍ، وبعد ذلك لا يقدّر الله سبحانه إرادةَ الفقير أذيّةَ مسلمٍ، أو أن يحقدَ عليه في قلبه، فليَطِبْ خاطِرُكم الشَّريفُ من هذه الجهة، وقد صار معلوماً لكم أنَّ طريقَنا ليس طريقَ دعوة الأسماء، بل اختار أكابرُ هذه الطَّريقة الاستهلاكَ في مسمّى هذه الأسماء ابتداءَ توجُّههم إلى الأحدية الصِّرفة، لا يطلبون شيئاً من الاسم والصِّفات غيرَ الذات، فلا جرم اندرج نهايةُ غيرهم في بدايتهم:

(ع) وَقِسْ مِنْ حَالِ بُسْتَانِي رَبِيعِي

ولما عرضت الآن لتلك المذاكرة بسبب تعدُّد النُّقول وتداول الأيدي هيئةٌ أخرى، وصارتْ بحيث ينشأُ من ذلك الجانب توهُّمات أُخَرُ؛ أقدمتُ على تحرير كلماتٍ لدفع ذلك التوهُّم، واعلم أنَّه لا يزيد لنا من مودَّتكم، ولا ينقص عنا شيءٌ من عدم مودَّتكم، وإنَّما الملحوظُ والمنظورُ إرادة الخير لكم، ولكنَّ (الرّاضي بالضَّرر لا يستحقُّ النظرَ) مثلٌ مشهورٌ، وتيقَّنْ أنَّ الفقيرَ لم يُرِدْ ضررَكم ولا يريده إن شاء الله تعالى، وكان ذلك كلاماً على طريق الغيرة التي تكون للدراويش، وقيل ما قيل بمناسبةٍ وسياقِ كلامٍ، فلا يثقلْ على خاطركم.

واعلم ثانياً أنَّ حالَ شخصٍ يرى نفسه أفضل من أبي بكر الصِّدّيق لا يخلو عن أحد الأمرين: إما زنديقٌ محضٌ، أو جاهلٌ صرفٌ، وقد كتب لكم هذا الفقيرُ قبل هذا بسنين مكتوباً في بيان الفرقة النَّاجية الذين هم أهل السُّنّة والجماعة، والعجبُ من تجويزكم أمثالَ هذه الكلمات بعد مطالعة ذلك المكتوب، فإذا كان من يقول بأفضليّة عليّ كرم الله وجهه على أبي بكر الصديق ﷺ خارجاً من دائرة أهل السُّنّة والجماعة؛ فكيف يكون حالُ من رأى نفسَه أفضلَ من الصديق؟ ومن المقرَّر عند هؤلاء القوم: أنَّ السَّالكَ لو رأى نفسه أفضلَ من الكلاب والذباب؛ فهو محرومٌ من كمالات هؤلاء الأكابر، وقد انعقد إجماعُ السَّلَف على أفضليّة الصديق على جميع البشر بعد الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام، فما أشدَّ حماقةَ من يتوهَّمُ خرقَ هذا الإجماع.

وكتب هذا الفقيرُ في كتبه ورسائله: إنَّ الوحشيَّ قاتلَ حمزة ﷺ الذي نال صحبة خير البشر عليه وعلى آله الصلاة والسلام مرّةً واحدةً أفضلُ من أُوَيْس القرنيّ الذي هو خيرُ التّابعين، فتخيُّلُ أمثال هذه الخيالات في حقِّ مثل هذا الشَّخص بعيدٌ عن العقل السَّليم، ينبغي أن ترجعَ إلى العبارة التي اخترع النّاسُ هذا التوهُّم منها؛ تطَّلعُ على حقيقة المعاملة، وأيُّ مناسبةٍ في التَّقليد المجرَّد لأرباب الحَسَد؟ مع أنَّ المشائخَ صدر عنهم وقت غلبة السُّكر كلماتٌ غيرُ مناسبةٍ، مثل قول أبي يزيد البسطاميّ: لوائي أرفعُ من لواء محمدٍ، ولا يجوز أن يذهب الوهمُ من هذه العبارة إلى دعوى الأفضليّة، فإنَّها زندقةٌ، حاشا وكلا أن يذكرَ أمثالُ هذا في عبارة الفقير. والسلام.

المكتوبُ الثَّالثُ والمِائَتَانِ

إلى المـلّا حسينٍ في التَّحريضِ على محبَّة هذه الطَّائفةِ، وبيانِ نبذةٍ من مِدحتِهم.

أحسن الله سبحانه أحوالكم، وأصلح سبحانه أعمالكم. ولَمّا كان المكتوبُ الشَّريفُ مُشْعِراً..........

بمحبَّة الفقراء؛ حصل بوصوله فرحٌ وافرٌ، زاد الله سبحانه محبَّة هذه الطَّائفة العليّة يوماً فيوماً، وجعل التَّواضعَ لهم والالتجاءَ إليهم رأسَ مال العمر، وبحكم «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ» مُحِبُّهم معهم، وهم الذين جليسُهم محفوظٌ من الشَّقاوة، وقد ورد في الحديث النبويّ عليه من الصلوات أتمها ومن التحيات أكملها: «إِنَّ للهِ مَلَائِكَةً سِوَى الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ وَالسِّكَكِ، وَيَطْلُبُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا الذَّاكِرِينَ يُنَادِي بَعْضُهُمْ بَعْضاً: أَنْ هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ، فَيَحُفُّوهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ حَتَّى يَمْلَؤُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السَّمَاءِ، فَإِذَا تَفَرَّقُوا عَرَجُوا إِلَى السَّمَاءِ، فَيَسْأَلُهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ - وَهُوَ أَعْلَمُ بِحَالِ عِبَادِهِ -: كَيْفَ وَجَدْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: إِلَهنَا، جِئْنَاهُمْ يَحْمَدُونَكَ، وَيُثْنُونَ عَلَيْكَ، وَيُكَبِّرُونَكَ، وَيُمَجِّدُونَكَ، وَيُسَبِّحُونَكَ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَهَلْ رَأَوْنِي؟ فَيَقُولُونَ: لا أَيْ رَبِّ، فَيَقُولُ: كَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟ فَيَقُولُون: لَيَحْمَدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ أَكْثَرَ وَأَوْفَرَ، فَيَقُولُ اللهُ: مَا يَطْلُبُونَ مِنِّي؟ فَيَقُولُون: يَطْلُبُونَ مِنْكَ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْا جَنَّتِي؟ فَيَقُولُون: لَا، فَيَقُولُ: كَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟ فَيَقُولُون: يَطْلُبُونَ أَكْثَرَ، وَيَزِيدُ حِرْصُهُمْ. ثُمَّ يَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: يَا رَبِّ، إِنَّ هَذِهِ الطَّائِفَةَ يَخَافُونَ مِنَ النَّارِ وَيَسْتَجِيرُونَكَ مِنْهَا، فَيَقُولُ: هَلْ رَأَوْا نَارِي؟ فَيَقُولُون: لَا، فَيَقُولُ: كَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟ فَيَقُولُون: لَاسْتَجَارُوكَ مِنْهَا كَثِيراً، وَيَخْتَارُونَ طَرِيقَ الْفِرَارِ مِنْهَا أَزْيَدَ، فَيَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ لِلْمَلَائِكَةِ: اشْهَدُوا أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ جَمِيعاً. فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: يَا رَبِّ، إِنَّ فِيهِمْ فُلَاناً لَمْ يَحْضُرْ مَعَهُمْ لِلذِّكْرِ، بَلْ جَاءَ لِحَاجَةٍ دُنْيَاوِيَّةٍ، فَيَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ: هُمُ الْجُلَسَاءُ - يعني: هم جلسائي بحكم: «أَنَا جَلِيسُ مَنْ ذَكَرَنِي»[1] - وَهُمْ قَوْمٌ لَا يَشْقَى جَلِيسُهُمْ».

فتبيَّن من هذا الحديث والحديث السّابق: أنَّ محبّي هذه الطَّائفة يكونون معهم، ومن كان معهم لا يكون شقيّاً. ثبتنا الله سبحانه وإياكم على محبَّة هؤلاء الكرام، بحرمة النبي الأمي الهاشميّ عليه الصلاة والسلام، كلما ذكره الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون.

وما ذكرتم من أحوالكم في مكتوب الشيخ ميان إلهداد؛ فاعلم أنَّ أمثالَ هذه العدمات والشدَّائد كثيرةُ الوقوع على الطَّالبين، ينبغي أن تكون عالي الهمَّة دون أن تقنع بكلِّما يتيسَّرُ:

(شعر) بس بى رنگ است يارِ دلخواه اى دل ... قانع نشوى بـه رنگ نـاگـاه اى دل

(ترجمة): بِخَيَالِكُمْ إِنْ كَانَ غَيْرِي يَكْتَفِي ... فَأَنَا الذِي لَا يَكْتَفِي بِوِصَالِهِ

وصحبة هذه الطَّائفة من جملة ضروريّات الدين، جعلنا الله سبحانه في صحبتهم: (شعر)

إِنْ طُفْتَ حَوْلَ السُّكَارَى نِلْتَ عَرْفَهُمْ ... إِنْ لَمْ تَنَلْهُ فَقَدْ يَكْفِيكَ رُؤْيَتُهُمْ

وعليك بالمداومة على الذي تلقَّنْتَه من حضرة قِبْلتنا - يعني: الشيخ محمد الباقي - بأن تُجْرِي الاسم المبارك (الله) على القلب ملاحظاً معناه بلا مثليّةٍ ولا كيفيّةٍ، بعد التوجُّه إلى القلب بالكليَّة من غير أن تتصوَّره بمعنى الحاضريَّة والناظريَّة، وأن تلاحظَ معه صفةً من الصِّفات أصلاً، بل اللازمُ استحضارُ هذا الاسم المبارك في القلب دائماً بعد التوجُّه المذكور، وإفادةُ بعض الأمور الضّرورية منوطةٌ بالحضور والصُّحبة، فإن تيسّرتْ الملاقاة يذكر إن شاء الله. وينبغي أن تكتب الأحوالَ المتجدِّدةَ إلى زمن الملاقاة، فإنَّ مطالعَتَها تكون باعثةً على التوجُّه الغائبيّ. والسلام.

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٢/ ١٧١) عن كعب.

المكتوب الرابع والمائتان

إلى المِير محمَّدٍ نعمانَ البَدَخْشِيِّ في النَّهي عن التَّأثُّر من تعرُّضاتِ المُعاندينَ والحاسِدين، والتَّحريضِ على الاشتغالِ بما هو مشغولٌ به.

لا يكنْ حضرة المير نعمان متألماً ومتأذياً من كلمات أهل الخسران: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٤]، واللائقُ بحالك أن لا تتعرضَ لهم بالمكافاة والمجازاة، فإنَّه لا نورَ للبهتان والزُّور، وستكون كلماتهم المتناقضةُ باعثةً على كساد سوقهم، ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠] ينبغي لك أن تسعى وتجتهدَ في إجراء الشُّغل الذي أنت مأمور به، ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١] وقد وصل أخونا الشيخُ محمد صادق في أوانه، وقعد عشرَ الاعتكاف بالاتِّفاق، وتشرَّفَ بالفتوحات والواردات المتجدِّدة، والحمدُ لله سبحانه، وأوقاتُ سائر الأحبّة مقرونةٌ بالجمعيَّة والترقِّيات المتوالية، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

المكتوب الخامس والمائتان

إلى الخواجه محمَّدٍ أشرف الكَابُليِّ في بيانِ أنَّ مِلاكَ الأمرِ متابعةُ النَّبيِّ ﷺ.

شرَّفكم الله سبحانه بكمال المتابعة المصطفويَّة، على صاحبها الصلاة والسلام والتحية، فإنَّها ملاكُ الأمر، ومنيةُ الصّدّيقين، وما سوى ذلك؛ فأوهامٌ باطلةٌ، وخيالاتٌ فاسدةٌ، نجّانا الله سبحانه وإياكم عنها، والسلام على من اتّبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات دائماً.

المكتوب السادس والمائتان

إلى المـلَّا عبدِ الغفورِ السَّمَرقَنديِّ في مذمَّة الدُّنيا، وترك الالتفاتِ إلى تنعُّماتها.

اللهم نبِّهنا قبل أن ينبّهنا الموتُ بحرمة سيد المرسلين، عليه وعلى آله أتم الصلوات وأفضل التسليمات. وصل المكتوبُ الشَّريفُ المخصوصُ باسم هذا الحقير المقعد في بادية البُعْد والهجران، وصار وصولُه سبباً للابتهاج والسرور، جزاكم الله عنا خير الجزاء.

أيُّها الأخُ، إنَّ الإنسانَ ما قَدِمَ على الدنيا لأجل اللُّقمة السَّمينة اللذيذة، والألبسة المزيّنة النفيسة، ولم يُخْلَقْ للتّمتُّع والتنعُّم واللهو واللعب، وإنَّما المقصودُ من خلقه: تذلّله وانكساره وعجزه وافتقاره التي هي حقيقةُ العبوديّة، ولكن ينبغي أن يكون ذلك الانكسارُ والافتقارُ مما أذنتْ به الشَّريعةُ المصطفويةُ، على صاحبها الصلاة والسلام والتحية، فإنَّ رياضاتِ أهل الباطن ومجاهداتهم التي لا توافقُ الشَّريعةَ الغراءَ لا يحصل منها شيءٌ غيرَ الخسارة والخذلان، والنَّدامة والحرمان. وبعد التحلّي والتزيُّن بالأحكام الشَّرعيّة عملاً واعتقاداً على وفق رأي علماء أهل السنة والجماعة، شكر الله تعالى سعيهم.

ينبغي تعميرُ الباطن بذكر الله جلّ سلطانه، خصوصاً بتكرار الذكر الذي تلقَّنْتَه في الطَّريقة النقشبنديَّة العليّة قدس الله تعالى أسرارهم السَّنِيّة، فإنَّ في طريق هؤلاء الأكابر اندراجَ النهاية في البداية، ونسبتُهم فوق جميع النِّسَب، يصدق القاصرون هذا الكلام أو لا، والمقصودُ إنّما هو ترغيبُ الأحباب، وتشويقُ الأصحاب، والمخالفون خارجون من المبحث: (شعر)

قَدْ خَابَ مَنْ خَالَ ذَا هُزْواً وَهَذْرَمَةً   وَفَازَ مَنْ كَانَ فِيهِ حِدَّةُ الْبَصَرِ

وبالجملة قد جُعِلَ الفلاحُ الأخرويُّ مربوطاً بالذِّكر الكثير، ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠]

شاهدٌ لهذا المعنى، فينبغي الاشتغالُ بالذِّكر الكثير، وبغضُ كلِّما ينافيه، وعلاجُ الخلاص هو هذا، ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [النور: ٥٤]: (شعر)

أَلَا فَـأَكْـثِـرُوا ذِكْـرَ الْإِلَـهِ فَـإِنَّـهُ جِـلَاءُ صَــدَا قَـلْـبٍ غِـذَاءٌ لِأَرْوَاحِ

﴿أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] نصٌّ قاطعٌ. المسؤولُ من الله سبحانه التوفيقُ لذلك والثباتُ والاستقامةُ على ما هنالك، فإنَّه ملاكُ الأمر. والسلام على من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى عليه وعلى آله أتم الصلوات وأفضل التسليمات.

وأرسلتُ الثوبَ الذي تكرَّر لبسُه في الأوقات الطيِّبة، ينبغي أن تلبسه، جعل الله سبحانه عواقب جميع الأمور خيراً بالنبي وآله الأمجاد، عليه وعليهم الصلاة والسلام.

المكتوب السابع والمائتان

إلى الميرزا حسامِ الدِّين أحمد في بيانِ تأثيرِ القربِ الجسمانيِّ في القُربِ الرُّوحانيِّ، وذمِّ الأحوالِ الغيرِ الموافِقة للشَّرع.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل: ٥٩]. قد مضتْ مدَّةٌ مديدةٌ ولم يصل إلينا أخبارُ السَّلامة من جنابكم وحضرات المخاديم وولدي الميان جمال الدين حسين، وسائر الأعزَّة وخدمةِ العتبة العليّة، خصوصاً الشيخ إله داد والشيخ هداية، ولا أخالُ المانعَ من ذلك سوى نسيانَ النائين المهجورين. نعم، إنَّ لقُرْب الأبدان تأثيراً عظيماً في قُرْب القلوب، ولهذا لن يبلغ وليٌّ من الأوْلياء مرتبةَ الصحابيّ، حتى إنَّ أويساً القرنيّ مع رفعة شأنه ما بلغ مرتبةَ أدنى الصحابة؛ لعدم وصوله إلى صحبة خير البشر عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات. سئل عبد الله بن المبارك ﵁: أيُّهما أفضلُ معاويةُ أم عمر بن عبد العزيز؟ فقال: الغبارُ الذي دخل أنف فرس معاوية مع رسول الله ﷺ خيرٌ من عمر بن عبد العزيز كذا مرّةً. وأحوالُ فقراء هذه الحدود مع اللواحق والتَّوابع مقرونةٌ بالعافية، لله سبحانه المنَّةُ على ذلك، بل على جميع النّعماء والآلاء، خصوصاً على نعمة الإسلام، ومتابعة سيد الأنام، عليه وعلى آله الصلاة والسلام، فإنَّه ملاكُ الأمر، ومدارُ النَّجاة، ومناطُ الفوز بالسّعادات الدنيويّة والأخرويَّة. ثبتنا الله سبحانه وإياكم على ذلك بحرمة سيد المرسلين عليه وعلى آله الصلاة والسلام: (ع) هَذَا هُوَ الْأَمْرُ وَالْبَـاقِي مِنَ الْعَبَـثِ

وماذا يفتح من تُرّهات الصوفيّة؟ وماذا يزيدُ من أحوالهم؟ لا يُشْتَرَى الوجدُ والحالُ هناك بنصف شعرةٍ ما لم يوزن بميزان الشّرع، ولا تساوي الإلهاماتُ نصفَ شعيرةٍ ما لم تُعْرَض لمحكّ الكتاب والسنة، والمقصودُ من سلوك طريق الصوفيَّة: ازديادُ اليقين بالمعتقدات الشَّرعيّة التي هو حقيقةُ الإيمان، وحصولُ اليُسْر أيضاً في أداء الأحكام الفقهيَّة، لا أنَّه أمرٌ آخرُ وراء ذلك، فإنَّ الرؤيةَ الأخرويَّةَ إنّما هي في الآخرة، وليست بواقعةٍ في الدُّنيا ألبتَّة، والمشاهداتُ والتجلِّياتُ التي الصوفيَّةُ مسرورون بها سكونٌ إلى الظلال، واطمئنانٌ بها، وتسلٍّ بالشّبه والمثال، وهو تعالى وراءَ الوراء. ويا عجباً من هذه المعاملة، لو قيل لهم حقيقةُ المشاهدات والتجلِّيات كما هي؛ لَيُخافُ من وقوع الفتور في طلب مبتدئ هذا الطَّريق، وحصول القصور في شوقهم، وإن سكتُّ عنها مع وجود العلم بها؛ يخاف أيضاً من التباس الحقّ بالباطل. يا دليل المتحيرين، دُلّني بحرمةِ من جعلْتَه رحمةً للعالمين عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات. فإن أخبرتم بكيفيَّات الأحوال أحياناً؛ لكان موجباً لازدياد المحبّة. والسلام على من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى عليه وعلى آله أفضل الصلوات، وأكمل التسليمات، وأجزل التحيات.

المَكتُوبُ الثَّامِنُ وَالمِائَتَانِ

إلى الشَّيخ محمَّدٍ صادقٍ -ولدِه الأرشَد- في جوابِ سُؤالِه عن رؤيَة السَّالك نَفسَه أحيانًا في مقاماتِ الأنبياءِ عليهمُ السَّلامُ، وأحيانًا فوقَ ذلك.

قد سأل ولدي: إنَّ بعض سالكي هذا الطَّريق يجدُ نفسَه أحيانـًا في مقامات العُرُوج في مقامات الأنبياء عليهم الصلوات والتسليماتُ، بل يحسُّ في بعض الأوقات أنَّه عَرَجَ إلى ما فوق هذا المقام، فما سرُّ هذا المعنى والحالُ أنَّ من المقرَّرِ والمجمعِ عليه أنَّ الفضلَ للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والأولياءُ إنّما يجدون ما يجدون وإلى كمالات الولاية يصلون بسبب متابعتهم؟

والجوابُ: إنَّ تلك المقاماتِ التي هي للأنبياء عليهم السلام ليستْ هي نهايةَ مقاماتِ عروجاتهم، بل كان عروجُ هؤلاء العظام إلى ما فوق تلك المقامات بمراتبَ، فإنَّ تلك المقاماتِ عباراتٌ عن الأسماء الإلهيّة جلَّ سلطانُه التي هي مبادئ تعيُّناتهم، ووسائلُ فيضان الفيوض من حضرات الذّات تعالتْ وتقدستْ، فإنَّه لا مناسبةَ بين حضرة الذَّات والعالَم بدون توسُّط الأسماء أصلاً، ولا نسبةَ بينهما سوى الاستغناء والاحتياج قطعـًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦] ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد: ٣٨] شاهدٌ لهذا المعنى.

فإذا نزل هؤلاء الأكابرُ من مراتب العروج مقتبسين الأنوار الفوقانيَّةَ إلى هذه الأسماء التي لها شبهٌ بأحيازهم الطبيعيَّة في مراتب العُرُوج على تفاوت درجاتهم، ويتوطَّنون فيها، ولهذا لو طلبهم شخصٌ بعد استقرارهم؛ يَجِدُهم في تلك الأسماء فعّالي الاستعداد المتوجّه نحو حضرة الذّات تعالت وتقدست؛ لا بُدَّ له من أن يصلَ إلى تلك الأسماء وقت العروج وأن يجاوزها إلى ما فوقها، ثم وثم إلى ما شاء الله تعالى. ولكن إذا نزل هذا السَّالكُ من فوق، ووصل إلى الاسم الذي هو مبدأُ تعيُّنِ وجوده؛ يكون ذلك الاسمُ أسفل من الأسامي التي هي مقاماتُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ألبتّة، وههنا يظهر تفاوتُ المقامات التي هي مناطُ الأفضليّة، فكلُّ من كان مقامُه أعلى؛ فهو أفضلُ.

وما لم يرجع السَّالكُ إلى اسمه، ولم يجد اسمَه أسفلَ من أساميهم؛ لا يعرف أفضليّتَهم بطريق الذَّوْق والحال، بل يقول بأفضليّتهم بالتَّقليد، ويحكم بأولويَّتهم باليقين السَّابق، ولكنَّ وجدانَه مكذِّبٌ لحكمه، وفي هذا الوقت يلزم الالتجاءُ والتضرُّعُ إلى الحقّ سبحانه، وإظهار العجز والانكسار له تعالى ليظهرَ له ما هو حقيقةُ الحال، وهذا المقامُ من مزالِّ أقدام السَّالكين.

ولنوضِّح هذا الجوابَ بمثالٍ: قال أربابُ المعقول: إنَّ الدخانَ مركَّبٌ من الأجزاء الأرضيَّة والأجزاء النارية، فإذا صعد الدخانُ تصعدُ الأجزاءُ الأرضيّةُ بمصاحبة الأجزاء النَّارية إلى الجهة الفوقانيَّة، وتعرج من محلِّها بحصول قسرٍ قاسرٍ، قالوا: إذا كان الدخانُ قويـًا؛ يكون عروجُه إلى كرة النار، وتصل الأجزاءُ الأرضيّةُ في هذا الصُّعود إلى مقامات الأجزاء المائيَّة والهوائيَّة التي لها التّفوُّق عليها بالطبع، ثم تعرجُ منها صاعدةً إلى ما فوقها، ففي هذه الصُّورة لا يمكن أن تقول: إنَّ رتبةَ الأجزاء الأرضيَّة أعلى من رتبة الأجزاء الهوائيَّة، فإنَّ ذلك التفوُّقَ والاستعلاءَ إنّما كان باعتبار قسر القاسر، لا باعتبار الذَّات، فإذا هبطتْ تلك الأجزاءُ الأرضيّةُ بعد وصولها إلى كرة النار، واستقرَّت في مركزها الطبيعيّ؛ يكون مقامها أسفلَ من مقام الماء والهواء ألبتّة. ففيما نحن فيه: إنَّ عروجَ هذا السَّالك من تلك المقامات كان باعتبار قسر القاسر، وذلك القاسرُ هو إفراطُ حرارة المحبّة، وقوّةُ جذب العشق، وأما باعتبار الذات؛ فمقامُه تحت تلك المقامات. وهذا الجوابُ الذي ذكرناه مناسبٌ لحال المنتهي، وأما إذا وقع هذا التوهُّمُ في الابتداء، ووجد السَّالكُ نفسه.........................

في مقامات الأكابر؛ فوجهُه: أنَّ لكلِّ مقامٍ ظلّاً ومثالاً في الابتداء والتوسُّط، فإذا وصل المبتدئُ أو المتوسّطُ إلى ظلالها؛ يتخيَّلُ أنه قد وصل إلى حقيقة تلك المقامات، ولا يقدر أن يفرِّقَ بين الظِّلال والحقائق، وكذا الشبهُ والمثالُ، فإذا وجد الأكابرَ في ظلال مقاماتهم؛ يتخيَّلُ له أنَّه قد حصل الشّركةُ مع الأكابر في المقامات، وليس كذلك، بل فيه اشتباهُ ظلّ شيءٍ بنفس الشيء. اللهم أرنا الحقائقَ كما هي، وجنِّبْنا عن الاشتغال بالملاهي، بحرمة سيد الأوّلين والآخرين، عليه وعلى آله أتم الصلوات وأكمل التسليمات.

المَكتُوبُ التَّاسِعُ وَالمِائَتَانِ

إلى المِير محمَّدٍ نعمانَ البَدَخْشِيِّ في حلِّ بعضِ عباراتِ رسالةِ «المَبدأِ والمَعادِ» المُغلقةِ، وبعضِ عباراتٍ أُخرَ جواباً لمكتوبِه، وبياناً لضروريَّات الطَّريقَة.

الحمد لله رب العالمين، والصلاةُ والسلامُ على سيد المرسلين، وآله الطاهرين أجمعين. المطلوبُ: كونُ الأخ الأعزّ السيد محمد نعمان على الجمعيَّة، وأحوالُ هذه الحدود مستوجبةٌ للحمد، وقد كنت سألتَ أنت وأخي الخواجه محمد أشرف وقتَ الوداع في سراية فرخ عن معنى هذه العبارة الواقعة في رسالة «المبدأ والمعاد»، ولَمّا لم تكن في الوقت سعةٌ ومساعدةٌ؛ بقي الجوابُ موقوفاً، والآن قد وقع في الخاطر أن أكتب في حلِّ تلك العبارة شيئاً يكون موجباً لتشفي صدور الأحباب، والعبارةُ هي هذه: وبعد ألف سنة وبضع سنين من رحلة النبي عليه وعلى آله الصلاة والسلام يجيءُ زمانٌ تعرجُ فيه الحقيقةُ المحمديَّةُ عن مقامها، وتتَّحدُ بحقيقة الكعبة، فحينئذٍ يحصل للحقيقة المحمديَّة اسمُ الحقيقة الأحمديَّة، وتصير مظهراً للذَّات الأحد جلّ سلطانه، وكلٌّ من الاسمين المباركين يتحقَّقُ بالمسمى، ويبقى المقامُ السَّابقُ خالياً عن الحقيقة المحمديَّة إلى زمن نزول عيسى على نبينا وعليه الصلاةُ والسلامُ، ويعمل بالشَّريعة المحمديَّة، ففي ذلك الوقت تعرجُ الحقيقةُ العيسويّةُ عن مقامها، وتستقرُّ في مقام الحقيقة المحمديَّة الذي بقي خالياً.اهـ.

ينبغي أن يُعلمَ أنَّ حقيقةَ شخصٍ عبارةٌ عن التّعيُّن الوجوبيّ الذي تعيُّنُ ذلك الشَّخص الإمكانيِّ ظلُّ ذلك التّعيُّن، وذلك التّعيُّنُ الوجوبيُّ اسمٌ من الأسماء الإلهيّة جلّ شأنه، كالعليم والقدير والمريد والمتكلّم وأمثالها، وذلك الاسمُ الإلهيُّ ربُّ ذلك الشَّخص، ومبدأُ فيضان وجوده، وتوابعُ وجوده، ولهذا الاسم بالنِّسبة إلى حضرة الذات مراتبُ شتّى، حيث يُطلقُ هذا الاسمُ في مرتبة الصّفة التي وجودُها زائدٌ عن وجود الذات، ويصدق أيضاً في مرتبة الشّأن الذي زيادتُه عن الذات بمجرَّد الاعتبار، والفرقُ بين الصِّفة والشأن قد ذُكِرَ بالتَّفصيل في المكتوب الذي حُرِّر في بيان السُّلوك والجذبة، فإن كان فيه خفاءٌ واشتباهٌ؛ فليراجع هناك. ولا شكَّ أنَّ حصولَ الشأن ولو كان مجرّد اعتبارٍ، ولكن يقتضي أن يكون فوقَه معنى آخرُ زائدٌ مناسبٌ لهذا الشَّأن يكون مبدأ لوجوده الاعتباريّ، فيحصل لهذا الاسم نصيبٌ من تلك المرتبة أيضاً، وهذا الاحتمالُ جارٍ فوق ذاك المعنى الزّائد أيضاً، ولكنَّ القوَّةَ البشريّةَ عاجزةٌ عن ضبطه، وهذا الفقيرُ قليلُ البضاعة قد تجاوَزَ إلى مرتبةٍ أخرى، ولكن لا نصيبَ له مما فوقها غير الاستهلاك والاضمحلال، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]: (شعر)

هَنِيئاً لِأَرْبَابِ النَّعِيمِ نَعِيمُهَا ... وَلِلْعَاشِقِ الْمِسْكِينِ مَا يَتَجَرَّعُ

وتفاضُلُ أقدام أهل الله بعضها على بعضٍ وتفاوتها إنّما هو باعتبار طيّ هذه المراتب الشتّى على تفاوت الاستعدادات والقابليّات، والواصلون إلى نفس الاسم قليلون من الأولياء، فإنَّ.........................

أكثرهم واصلون إلى ظلّ من ظلال ذلك الاسم بعد أن عرجوا من المراتب الإمكانيّة بأسرها بطريق السّير والسلوك التّفصيليّ، وقد يتوهّمُ الوصولُ إلى ذلك الاسم في طريق الجذبة الصّرفة أيضاً، لكنّه لا يُعتبرُ ولا يعتدُّ به، والذين عرجوا من ذلك الاسم، وقطعوا المراتبَ المتفاوتةَ قلّتْ أو كثُرتْ؛ فهؤلاء أقلُّ قليلٍ منهم.

ولنرجع إلى أصل الكلام، ونقول: كما أنّ حقيقةَ الشّخص تُطلقُ على التعيُّن الوجوبيّ؛ كذلك يطلقُ على تعيُّنه الإمكانيّ، فإذا علمت هذه المقدّمات أقول: إنّ محمداً رسول الله ﷺ مركّبٌ من عالم الخلق وعالم الأمر، كتركُّب كافّة الأنام منهما، والاسمُ الإلهيُّ الذي هو ربّ عالم خلقه شأن (العليم)، والذي يربي عالم أمره المعنى الذي هو مبدأ وجود ذلك الشأن الاعتباريّ كما مرّ، والحقيقةُ المحمديّةُ عبارةٌ عن شأن العليم، والحقيقةُ الأحمديّةُ كنايةٌ عن ذلك المعنى الذي هو مبدأُ ذلك الشأن، وحقيقةُ الكعبة السبحانيّة هي أيضاً عبارةٌ عن ذلك المعنى، والنبوّةُ التي كانت حاصلةً لنبينا قبل خلق آدم عليهما الصلاة والسلام كما أخبر عنها النبي ﷺ حيث قال: «**كُنْتُ نَبِيّاً وَآدَمُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالطِّينِ**»؛ كانت باعتبار الحقيقة الأحمديّة التي لها تعلّقٌ بعالم الأمر، وبهذا الاعتبار بشّر عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام حيث كان كلمةً لله تعالى، وكانت مناسبتُه بعالم الأمر أزيدَ بقدوم نبينا عليه الصلاة والسلام باسم أحمد، حيث قال: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

والنبوّةُ التي لها تعلّقٌ بالنّشـأة العنصـريّة إنّما هي باعتبار الحقيقة المحمديّة، بل باعتبار الحقيقتين، وربّه في هذه المرتبة ذاك الشّـأن ومبدأه، ولهذا كانت دعوةُ هذه المرتبة أتمَّ من المرتبة السّـابقة، فإنّ دعوتَه في تلك المرتبة كانت مخصـوصـةً بعالم أمره، وتربيتُه كانت مقصـورةً على الرُّوحانيين، وفي هذه المرتبة دعوتُه شـاملةٌ للخلق والأمر، وتربيتُه مشتملةٌ على الأرواح والأجسام.

غَايَةُ ما فِي البابِ: إنّ نشأتَه العنصريّةَ كانت في هذه النّشأة غالبةً على نشأته الملكيّة عليه الصلاة والسلام، وذلك لتحصل زيادةُ المناسبة بالخلائق التي هي سببُ الإفادة والاستفادة، فإنّ جانبَ البشريّة غالبٌ فيهم، ولهذا أمر الحقُّ سبحانه حبيبه الأكرم ﷺ بإظهار بشريّته بآكد الوجوه، حيث قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١١٠] الآية، وإتيانُ لفظ ﴿مِثْلُكُمْ﴾ لتأكيد البشريّة. وبعد ارتحاله ﷺ من النّشأة العنصريّة؛ غلب جانبُه الروحانيُّ، وأخذت مناسبتُه البشريّةُ في النُّقصان، وظهر التّفاوتُ في نورانيّة الدعوة.

قال بعضُ الأصحاب الكرام: وجدنا التفاوتَ في قلوبنا ولم نفرغْ بعدُ من دفنه ﷺ[1].

نعم، قد تبدّل الإيمانُ الشُّهوديُّ بالإيمان الغيبيّ، وانجرّت المعاملةُ من العَيَان إلى السّماع، ولَمّا مضَتْ من رحلته ﷺ ألف سنةٍ، وهي مدةٌ مديدةٌ، وأزمنةٌ متطاولةٌ - يعني: ولها تأثيرٌ في تغيُّر الأمور العظام وتبدُّلها - غلب جانبُ روحانيته على نهجٍ جعل جانب بشريّته متلوّناً بلونه بالتمام، وصيّر عالمَ الخلق منصبغاً بصبغ عالم الأمر، فما كان من عالم خلقه ﷺ راجعاً إلى حقيقته - يعني: الحقيقة المحمدية -؛ عرج إلى الحقيقة الأحمديّة، والتحق بها بالضّرورة، واتّحدت الحقيقةُ المحمديّةُ بالحقيقة الأحمديّة، والمراد بالحقيقة الأحمديّة والحقيقة المحمديّة هنا: تعيُّنُه الخلقيُّ والأمريُّ الإمكانيّين، لا الوجوبيّ الذي تعيُّنُه الإمكانيُّ ظلُّه، فإنّه لا معنى لعروج التعيُّن الوجوبيّ، ولا يتعلّقُ الاتحادُ بذلك التعيُّن.

فإذا نزل عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام، واتّبع شريعةَ خاتم الرسل..............................

(١) أخرجه الترمذي (٣٦١٨) من حديث أنس بن مالك ﷺ، وقال: هذا حديث غريب صحيح.

عليه الصلاة والسلام؛ يعرج عن مقام نفسه، ويصل إلى مقام الحقيقة المحمديّة بالتبعيّة، ويقوى دينُه عليه الصلاة والسلام، ومن ههنا ينقل عن شرائع من قبلنا أنّه كلّما تقادَمَ العهدُ برسول من الرسل أولي العزم بأن مضى ألفُ سنةٍ من ارتحاله؛ كان يُبْعَثُ من الأنبياء الكرام والرسل العظام من يقوّي شريعةَ ذلك النبيّ، ويعلي كلمته، فإذا تمّتْ دورةُ دعوته؛ كان يبعثُ غيره من أولي العزم، ويجدّدُ شريعةَ نفسه. ولَمّا كانت شريعةُ خاتم الرسل عليه وعليهم الصلاة والسلام محفوظةً من النَّسخ والتبديل؛ أُعطيَ علماءُ أمته حكمَ الأنبياء، وفوّض إليهم أمرُ تقوية الشّريعة، وتأييد الملّة، ومع ذلك تروجُ شريعته بجعل واحدٍ من الرسل أولي العزم متّبعـًا له، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

اعلم أنَّ الأولياءَ الذين يظهرون من أمته ﷺ بعد مضيّ ألف سنة من ارتحاله ﷺ يكونون أكملَ، وإن كانوا أقلَّ؛ ليحصل تقويةُ الشَّريعة على الوجه الأتمّ، ولهذا يكون مجيء المهديّ الذي بشّر خاتمُ الرسل عليه وعليهم الصلاة والسلام بقدومه المبارك بعد مضيّ ألف سنةٍ، وكذلك عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام ينزل بعد ألف سنةٍ. وبالجملة إنَّ كمالات أولياء هذه الطَّبقة شبيهةٌ بكمالات الأصحاب الكرام عليهم الرضوان، وإن كان الفضلُ بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام للأصحاب الكرام، ولكن يكاد لا يفضلُ أحدهما على الآخر من كمال التّشابه، ولعلّ النبي ﷺ قال لأجل هذا: «[مَثَلُ] أُمَّتِي مَثَلُ الْمَطَرِ، لَا يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ»(١)، ولم يقل: لا أدري أوّلهم خير أم آخرهم؛ لعلمه بحال كلّ من الفريقين، ولهذا قال: «خَيْرُ الْقُرُونِ قَرْنِي»(٢)، ولكن لَمّا كان من كمال التّشابه محلّ تردُّد - يعني: في تفضيل أحدهما على الآخر بالنِّسبة إلى غيره ﷺ - قال: (لا يدرى).

فإن قيل: قد حكم النبي ﷺ بخيريّة قرن التابعين بعد قرن الصحابة، وخيريّة قَرْن تَبَع التابعين بعد قرن التابعين، فتكون خيريّةُ هذين القرنين من هذه الطبقة أيضـًا متيقّنةً، فما يكون تشابهُ هذه الطَّبقة بالأصحاب الكرام في الكمالات؟ أجيب: يمكن أن تكون خيريّةُ هذين القرنين من هذه الطبقة باعتبار كثرة ظهور أولياء الله تعالى، وقلّة وجود أهل البدعة، وندرة أرباب الفسق والمعصية فيهما، وهذا لا ينافي كونَ الأفراد من أولياء هذه الطبقة خيراً من أفراد أولياء ذينك القرنين، كحضرة المهدي مثلاً:

(شعر) لَوْ نَالَ مِنْ فَيْضِ رُوحِ الْقُدْسِ مِنْ مَدَدٍ ... غَيْرُ الْمَسِيحِ لَيَصْنَعْ مِثْلَ مَا صَنَعَا

ولكنَّ قرنَ الأصحاب خيرٌ من جميع الوجوه، والتكلُّمُ فيه من الفضول، فإنَّ السَّابقين سابقون في جنّات النَّعيم، وهم المقرَّبون، لا يبلغ إنفاقُ غيرهم مثل جبلٍ ذهبـًا إنفاقهم مدَّ شعيرٍ(٣)، ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ١٠٥].

ينبغي أن يعلم أنَّه قد اتَّضح من البيان السَّابق معنى عبارة رسالة «المبدأ والمعاد» التي سطرت فيها فوق العبارة المذكورة من أنَّ حقيقةَ الكعبة الربانيَّة صارت مسجوداً إليها للحقيقة المحمديَّة، فإنَّ حقيقةَ الكعبة الربانيَّة هي بعينها الحقيقةُ الأحمديَّةُ التي الحقيقةُ المحمديّةُ ظلُّها في الحقيقة، فتكون مسجوداً إليها للحقيقة المحمديَّة بالضَّرورة.

فإن قيل: إنَّ الكعبةَ قد تذهب لطواف أولياء الأمّة وتتبرَّكُ بهم، فكيف يكون لحقيقتها تقدُّمٌ على الحقيقة المحمديَّة؟ وكيف يجوز هذا المعنى؟ أجيب: إنَّ الحقيقةَ المحمديَّةَ نهايةُ مقامات نزول محمد ﷺ من أَوْج التَّنزيه وذروة التَّقديس، وحقيقةُ الكعبة نهايةُ مقامات عروج الكعبة، وأوَّلُ مرتبةٍ تعرج إليها الحقيقةُ المحمديّةُ من........................

(١) أخرجه الترمذي (٢٨٦٩) واستغربه من حديث أنس ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣) من حديث ابن مسعود ﷺ، بلفظ: «خير الناس».

(٣) أخرج البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ مرفوعـًا: «لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبـًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»، وأخرجه مسلم (٢٥٤٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

مراتب التّنزيه هي حقيقةُ الكعبة[1]، ولا اطّلاعَ على نهاية مراتب عروجها لأحدٍ غير الحقّ سبحانه، وحيث كان لكُمّل أولياء أمته عليه وعلى آله الصلاة والسلام نصيبٌ تامٌّ من عروجاته ﷺ؛ فما العجبُ أن تمنّت الكعبةُ من بركات هؤلاء الأكابر؟

(شعر) عَـلَا فَـوْقَ السَّـمَـاءِ وَلِـيـدُ أَرْضٍ وَخَـلَّـفَ خَـلْـفَـهُ زَمَـنـاً وَأَرْضَـا

وانحلّت أيضاً عبارةٌ أخرى من هذه الرّسالة الواقعة في هذا المقام، وهي هذه: كما أنَّ صورةَ الكعبة مسجودٌ إليها لصُوَر الأشياء؛ كذلك حقيقةُ الكعبة مسجودٌ إليها لحقائق الأشياء، فإنّه قد عُلِمَ من المقدّمات السّابقة: أنَّ حقائقَ الأشياء عباراتٌ عن الأسماء الإلهيّة جلّ سلطانه التي هي مبادئُ فيضان وجودهم، وتوابعُ وجودهم، وحقيقةُ الكعبة فوق تلك الأسماء، فلا جَرَمَ تكون حقيقةُ الكعبة متبوعةً لحقائق الأشياء ألبتّة. نعم، إذا وقع سيرُ كُمّل الأولياء فوق حقيقة الكعبة، ثم نزلوا إلى مراتب حقائقهم الشّبيهة بأحيازهم الطّبيعيّة في مراتب العروج مقتبسين للأنوار الفوقانية؛ تتوقّعُ الكعبةُ منهم البركات كما مرَّ آنفاً. وأيضاً قد حرَّرتُ في رسالة «المبدأ والمعاد» فقراتٍ في بيان أفضليّة الأنبياء أولي العزم صلوات الله وتسليماته تعالى عليهم، ومعنى أفضليّة بعضهم على بعضٍ، ولَمّا كان مبناها على الكشف والإلهام اللذين يفيدان الظنَّ؛ كنت نادماً على كتابتي إياها، والتّفرقة والتحكُّم في التفاضل، ومستغفراً منها، فإنَّ التكلّمَ في هذا الباب بلا دليلٍ قطعيٍّ لا يجوز، أستغفرُ الله وأتوبُ إلى الله من جميع ما كره الله قولاً وفعلاً. وكتبتَ في مكتوبك بأنّي كنت سُئلتُ في سراي فرخ أنَّ تعليم الطّريقة للطالبين، هل هو مرضيٌّ بالنِّسبة إليّ أو لا؟ فقلت في الجواب: لا. اهـ.

ما بقي في خاطر الفقير صدورُ النفي، بل قلت: مشروطٌ بالشّرائط ليس بمرضي مطلقاً، والآن ينبغي أن تعلمها على ذلك الوجه المذكور، وينبغي أن تحتاطَ في رعاية الشُّروط ورعاية الاحتياط دون المساهلة، وما لم يحصل اليقينُ في التّعليم بالاستخارات لا ينبغي الإقدامُ على التعليم. ودُلَّ أخانا ومولانا يار محمد القديم على هذا، وأكِّد عليه في ترك الاستعجال في تعليم الطّريقة، ليس المقصودُ توسيعَ الدكّان، بل ينبغي ملاحظةُ مرضيّ الحقّ سبحانه، وما علينا إلا الإخبار. وأيضاً إنَّك كنت متأذِّياً من مسترشديك، ومنحرفاً عنهم، ينبغي لك التأذِّي والانحرافُ من وضعك وصنعك، فإنَّك تعاشِرُهم على نهجٍ تكون عاقبتها أذيّة ألبتة، وقد قالوا: ينبغي للشيخ أن يتجمَّل للمريد، لا أنَّه يفتح بابَ الاختلاط، ويسلك طريقَ المصاحبة بإيراد الحكايات والقصص. والسلام.

المَكْتُوبُ العَاشِرُ وَالمِائَتَانِ

إلى المـلّا شَكيبي الأصفهانيِّ في حلِّ بعضِ عباراتِ «النَّفحاتِ»، وبعضِ النَّصائحِ الضَّروريَّة التي التَمسَها.

قد تشرَّفتُ بمطالعة المكتوب الشّريف الذي أرسلْتَه إلى هذا الحقير القليل البضاعة على وجه الشّفقة والمرحمة، وصرتُ مبتهجا ومسروراً، عِش بالسلامة ومُتْ بالسلامة وما عِشتَ تَعِشْ على محبَّة الفقراء، وإذا مُتّ تكن محبّتُهم رأسَ مالك وأصلَ بضاعتك، وإذا حشرت؛ تحشرُ على محبتهم، بحرمة من افتخر بالفقر، وآثره على الغنى عليه وعلى آله الصلاة والسلام[2].

ورقمتَ على وجه الكرم أنّه ما حقيقةُ معاملة الحكاية المذكورة في «النفحات» من أنَّ مريد الشيخ ابن سكينة قدس سره دخل يوماً الدجلةَ لأجل الاغتسال، وخاض في الماء، ولما رفع رأسه رأى.........................

---

(١) يعني: فلا محذورَ في تقدُّم آخر مراتب عروج الكعبة، وتفضيله على آخر مراتب نزول محمد ﷺ، فلا وجه للطعن في ذلك. (المعرِّب)

(٢) أخرجه الترمذيُّ (٢٣٤٧) وحسنه من حديث أبي أمامة ﷺ مرفوعاً: «عرض عليَّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً، قلت: لا يا رب، ولكن أشبع يوماً، وأجوع يوماً، فإن جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإن شبعت شكرتك وحمدتك».

نفسَه في النّيل، فخرج من الماء، ودخل مصر، وتزوَّج فيه، وولد له أولادٌ، وأقام بمصر سبع سنين، فدخل يوماً النيلَ اتّفاقاً للاغتسال، وخاض في الماء، فلما رفع رأسه رأى نفسه في الدجلة، ورأى جميع أثوابه التي كان وضعها في أوّل مرةٍ بساحل الدّجلة على حالها، فلبس ثيابه، وجاء منزله، فقالت له امرأته: الطعامُ الذي أمرت بطبخه للضيوف حاضرٌ... إلى آخر القصة.

أيها المخدومُ المكرّمُ، إنَّ إشكالَ هذه الحكاية ليس من جهة حصول أمور سنينَ في ساعةٍ واحدةٍ، فإنَّ أمثالَ هذه المعاملة كثيرةُ الوقوع، ومن جملتها: معراجُ خاتم الرسل صلى الله عليهم وسلم، فإنَّه حين رجع إلى مكانه بعد طيّ معارج العروج، وقطع مسافةَ منازل الوصول الذي يتيسّر في ألوفٍ من السنين - يعني: عادة -؛ رأى[1] أنَّ حرارةَ فراشه باقيةٌ على حالها، ولم يسكن الماء الذي ملأه في الإبريق للوضوء عن حركته. ووجهُه: ما ذكره في «النفحات» من أنّه من قبيل بسط الزمان، وإنَّما إشكالُ هذه الحكاية من جهة كون هذه المدّة: آناً واحداً في بغداد، ويحصل لهذا الآن امتدادٌ بمصر إلى سبع سنين، فإذا كان التَّاريخُ الهجريُّ بالنِّسبة إلى أهل بغداد مثلاً ثلاثمائة وستين سنة في ذلك الوقت؛ ينبغي أن يكون بالنِّسبة إلى أهل مصر في عين ذلك الوقت ثلاثمائة وسبع وستين سنةً، وهذا المعنى مما لا يجوِّزُه العقلُ، ولا يسعه النقلُ، وهذه المعاملةُ وإن كانت مجوّزةً بالنِّسبة إلى شخصٍ أو شخصين، ولكنَّها بالنِّسبة إلى بلادٍ مختلفةٍ وأمكنةٍ متعدّدةٍ محالٌ. وما يخطر في خاطر هذا الحقير الكليل: هو أنَّ هذه الحكاية ما وقعتْ في عالم اليقظة، بل هي من قبيل الرُّؤيا والواقعات، واشتبه الرؤيا بالرؤية للمستمع، والتبس له النومُ باليقظة، وهذا القسمُ من الاشتباه كثيرُ الوقوع، بل من مظانّ الاشتباه: كونُ رؤيته وقصّته على شيخه ومجيئه بأولاده إليه في المنام، والحكايةُ التي نقلها عن الشيخ محيي الدين ابن العربي قدس سره بعد هذه الحكاية هي أيضاً من هذا القبيل. والله سبحانه أعلم بحقيقة الحال، والله أعلم بحقيقة الأمور كلها.

والتمستَ أيضاً شرحَ هذه العبارة: إنَّ مربِّي الجسد هو الروح، ومربِّي القالب هو القلبُ. أيُّها المخدومُ، إنَّ مؤدَّى هاتين العبارتين واحدٌ، وهو بيانُ حصول التَّربية لعالم الخلق الإنسانيّ من عالمه الأمريّ، ولَمّا كان وقوعُ لفظ الجسد مقروناً بلفظ الروح في الإطلاقات والمحاورات، ووقعت المناسبةُ اللفظيّةُ بين القالب والقلب، وقع اختيارُ تعيين العبارة لجمع كلّ بما يناسبه.

وصدر أيضاً طلبُ النصائح. أيُّها المخدومُ، يمنعني الحياءُ من أن أكتب شيئاً من هذا الباب مع وجود جميع هذه الخرابات والتعلّقات والتلوُّثات، وقلّة البضاعة، وعدم الحاصل، وأن أرقم من هذه المقولة حرفاً بالتَّصريح أو بالإشارة، ولكن أخاف من أن أُنْسَبَ إلى الخسّة والدناءة والضنّ والبخل لو أمسكتُ عن القول المعروف، وصُنْتُ نفسي عن ذلك، فبناءً على ذلك أجترئُ على تحرير كلماتٍ.

أيُّها المخدومُ، إنَّ بقاءَ الدنيا قليلٌ جداً، وقد تلف الأكثرُ من هذا القليل أيضاً، وزال وبقي الأقلُّ، ومدّةُ الآخرة باقيةٌ ودائمةٌ، وجعلت معاملةُ الأبد والخلود مربوطة ببقاء أيامٍ معدودةٍ، وبعدها إما تنعُّمٌ أبديٌّ، أو عذابٌ سرمديٌّ، أخبر بذلك المخبرُ الصادقُ، ليس فيه احتمالُ التخلّف، فينبغي استعمالُ العقل المتفكّر.

أيها المخدومُ، قد مضى أشرفُ العمر في الهوى والهوس، وضاع في تحصيل مراضي أعداء الله جل شأنه، وبقي أرذلُ العمر، فإن لم نصرفه اليومَ في مرضيات الحقّ جلّ سلطانه، ولم...

(١) قيل: مجرَّدُ حديث المعراج يكفي لإثبات المدَّعَى، وأما ما ذكر؛ فلم يثبت، قال في «تاريخ الخميس»، وفي «زين القصص» عن عمار: كان ذهابُه ومجيؤه ثلاث ساعاتٍ، وعن وهب بن منبِّه ومحمد بن إسحاق: في أربع ساعاتٍ، وفي كلام السبكيِّ: كان قدرَ لحظةٍ، ولا بدع؛ لأنَّ الله تعالى قد يطيل الزمانَ القصيرَ كما يطوي الطويلَ لمن يشاء. قلت: وهذا الكلامُ مما يثلج الصدرَ، والتقديرُ بالساعة لا يخفى تكلُّفُه وتعسُّفُه. (المعرِّب)

نتلافَ الأشرفَ، ولم نتداركْه ولو بالأرذل، ولم نجعل المحنةَ القليلةَ وسيلةً إلى الراحة الأبديّة، ولم نكفر السيئات الكثيرة بحسناتٍ يسيرةٍ، فبأيّ وجهٍ نذهب غداً عند الله تعالى؟ وبأيّ حيلةٍ نتمسَّكُ؟ وإلى متى يمتدُّ نوم الأرنب؟ وحتى متى يكون قطنُ الغفلة هذه كلّها في الآذان؟

وسترفعُ الغشاوةُ عن أبصار البصيرة ألبتّة، ويزال قطنُ الغفلة عن السَّامعة لا محالةَ، ولكن لا ينفع ذلك هنالك، ولا يكون نَقْدُ الوقت غيرَ الحسرة والنَّدامة على ذلك، فينبغي العملُ لنفسك قبل ورود الموت، والتوسُّد برمسك، ثم الموت قائلاً: واشوقاه.

ولا بدَّ أوّلاً من تصحيح الاعتقاد، وتصديق ما علم من الدين بالضَّرورة، ثم العلم والعمل بما تكفَّل ببيانه علمُ الفقه أيضاً ضروريٌّ، ثم سلوكُ طريق الصوفية أيضاً مطلوبٌ، لا لأجل مشاهدة الصور والأشكال الغيبيَّة، ومعاينة الأنوار والألوان اللاريبيَّة، فإنَّ هذا داخلٌ في اللهو واللعب، وأيُّ نقصان في الصُّور والأنوار الحسية حتى يتركها الإنسانُ، ويشتاق إلى الصور والأنوار الغيبيَّة، ويقصدها بارتكاب الرياضات والمجاهدات؟

وهذه الصورُ والأنوارُ وتلك الصورُ والأنوارُ كلُّها مخلوقةٌ للحقّ سبحانه، وآياتٌ دالّةٌ على صانعيته تعالى، ولنور الشمس والقمر اللذين في عالم الشهادة مزيّةٌ على الأنوار التي تشاهَدُ في عالم المثال، ولكن لَمّا كانت رؤيتهما دائمةً، واشترك فيها الخواصُّ والعوامُّ؛ أسقطوها عن نظر الاعتبار، واشتاقوا إلى ما يرى في عالم الغيب من الأنوار: (شعر)

وَلَا قَدْرَ لِلْمَاءِ الذِي دَامَ جَارِيًا عَلَى بَابِ إِنْسَانٍ وَإِنْ كَانَ كَوْثَرَا

بل المقصودُ من سلوك طريق الصوفيّة: تحصيلُ ازدياد اليقين بالمعتقدات الشَّرعيّة، حتى تخرجَ من مضيق الاستدلال إلى فضاء الكشف، ومن الإجمال إلى التَّفصيل.

مثلاً: إنَّ وجودَ الواجب الوجود تعالى وتقدس ووحدته سبحانه إذا كان أوّلاً معلوماً بطريق الاستدلال أو التَّقليد، وحصل اليقينُ به على مقدارهما، فإذا تيسّر سلوكُ طريق الصوفيَّة؛ يتبدَّلُ ذلك الاستدلالُ والتقليدُ كشفاً وشهوداً، ويحصل اليقينُ الأكملُ، وعلى هذا القياس سائرُ الاعتقاديات، والمقصودُ منه أيضاً: تحصيلُ اليُسْر في أداء الأحكام الفقهيَّة، وإزالة العُسْر الذي يحصل من جهة النَّفس الأمَّارة، ويقينُ هذا الفقير أنَّ طريقَ الصوفيَّة خادمٌ للعلوم الشَّرعيّة، لا أنَّه أمرٌ مباينٌ لها، وقد حقَّقتُ هذا في كتبي ورسائلي، واختيارُ طريق النَّقشبنديّة من بين سائر الطرق لأجل حصول هذا الغرض أَوْلى وأنسبُ، فإنَّ هؤلاء الأكابر التزموا متابعةَ السنَّة، واجتنابَ البدعة، ولهذا تراهم يفرحون ويستبشرون بحصول دولة المتابعة لهم، وإن لم يحصل لهم شيءٌ من الأحوال، وإذا أحسُّوا فتوراً في المتابعة مع وجود الأحوال؛ لا يقبلون تلك الأحوالَ.

قال حضرة الخواجه أحرار قدس سره: لو أعطيتُ جميعَ الأحوال والمواجيد، ولم توافق باعتقاد أهل السنة والجماعة مثلاً؛ لا أرى تلك الأحوالَ غيرَ الشقاوة والخذلان، وإن أعطيت اعتقادَ أهل السنة والجماعة، وحُرِمت الأحوالَ بأسرها؛ فلا نغتمَّ على ذلك. وأيضاً إنَّ في هذا الطَّريق اندراج النّهاية في البداية، فيجد أهلُ هذه الطَّريقة في أوّل قدمٍ ما يجده غيرهم في النهاية، وإن كان بينهما فرقٌ؛ فإنَّما هو بالإجمال والتَّفصيل، والشمول وعدم الشمول، وهذه النِّسبةُ هي نسبةُ الأصحاب الكرام بعينها، فإنَّهم عليهم الرضوان كانوا يجدون في أوَّل صحبة خير البشر ما لا يدرى أنَّه يتيسّرُ لأولياء الأمَّة سواهم في النهاية أولاً، ولهذا لم يصل أويس.........................

القرنيُّ الذي هو أفضلُ التابعين إلى مرتبة وحشيّ قاتل حمزة ﵁؛ لنيله مرّةً واحدةً صحبةَ خير البشر عليه الصلاة والسلام، فإنَّ فضيلةَ الصحبة فوق جميع الفضائل والكمالات، فإنَّ إيمانهم شهوديٌّ، ولم تتيسّر هذه الدَّولةُ لغيرهم أصلاً: (شعر)

هَلِ الْمَسْــمُوعُ يُشَــبَّــهُ قَطُّ بِمَرْئِيِّ

ولهذا كان إنفاقُ مدّ شعيرٍ منهم أفضلَ من إنفاق جبلِ ذهبٍ من غيرهم، وجميعُ الأصحاب متساوون في هذه الفضيلة، فينبغي تعظيمُ جميعهم، وذكرُ كلِّهم بالخير، فإنَّ الصحابةَ كلّهم عدولٌ، وكلَّهم متساوون في قبول روايتهم، وتبليغ الأحكام، لا مزيّةَ لرواية أحدهم على رواية الآخر منهم، وهم حملةُ القرآن المجيد، ومنهم جمعت الآياتُ المتفرقاتُ، من هذا آيتان، ومن هذا ثلاثُ آياتٍ، وأزيد وأنقص اعتماداً على عدالتهم، فمن جَرَحَ واحداً من الأصحاب؛ فذلك الجرحُ راجعٌ إلى القرآن المجيد، فإنَّه يمكن أن يكون حاملُ بعض الآيات ذلك المجروح والمطعون فيه، وينبغي أن يصرف المخالفات والمنازعات الواقعة بين هؤلاء الأكابر إلى محامل صحيحةٍ، وأن يبعدهم وينزِّهَهم عن الهوى والتعصُّب، قال الإمامُ الشافعيُّ رحمه الله تعالى وهو أعلم بأحوال الصَّحابة عليهم الرضوان: تلك دماءٌ طهَّر الله عنها أيدينا، فلنطهِّرْ عنها ألسنتنا، ونُقِلَ مثلُ هذه المقولة أيضاً عن الإمام جعفر الصادق ﵁، والسلامُ أوّلاً وأخراً.

المَكْتُوبُ الحَادِي عَشَرَ وَالمِائَتَانِ

إلى المـلَّا يار محمَّدٍ قديمٍ البَدَخْشِيِّ في جوابِ سُؤالِه، وبيانِ بعضِ لوازمِ مقامِ التَّكميلِ والإرشادِ.

وصل المكتوبُ المرغوبُ من الأخ الأعزّ مولانا يار محمد القديم، وصار موجباً للفرح، بلغ الله سبحانه ذروةَ الكمال والتكميل، بحرمة النبي المختار، وآله الأمجاد والأبرار، عليه وعليهم الصلاة والسلام.

وقد سألتَ عن مقالة المولويّ عليه الرَّحمة حيث قال: إنَّ المليحَ الذي كان بجنبي كان حقّاً، فهل يجوز هذا الكلامُ أم لا؟

اعلم أنَّ أمثالَ هذا الأمر تقع كثيراً في هذا الطَّريق، وتجري على اللِّسان، وهذا النوعُ من المعاملة يقال له: التجلِّي الصوريُّ، ويظنُّ صاحبُ المعاملة تلك الصُّورةَ المتجلّى بها حقّاً تعالى شأنه، والكلامُ إنّما هو ما قال الشيخُ الأجلُّ الإمامُ الربانيُّ حضرة الخواجه يوسف الهمدانيّ قدس سره حيث قال: تلك خيالاتٌ تربّى بها أطفالُ الطَّريقة.

ثم اعلم أنَّه لَمّا صدر لكم نوعُ إجازةِ تعليم الطَّريقة؛ أردت أن أكتب بعض الفوائد في هذا الباب ينبغي استماعُها بأُذُن العقل، والعملُ بها.

اعلم أنه إذا جاء عندك طالبٌ بإرادة الطَّريقة؛ ينبغي لك أن تتأمَّلَ وتتأنَّى كثيراً في تعليم الطَّريقة إياه، خوفاً من أن يراد عليك الاستدراجُ في هذا الأمر، ومن أن يكون المنظورُ فيه خرابيَّتَك، خصوصاً إذا ظهر الفرحُ والسرورُ من مجيء المريد، فينبغي سلوكُ طريق الالتجاء والتضرُّع في هذا الباب والاستخارات المتعدِّدة إلى أن يحصل اليقينُ بكون تعليم الطَّريقة إياه مرضيّاً، وأنَّه لا يراد به الاستدراجُ والإضلالُ؛ لأنَّ التصرُّفَ في عبادة الله تعالى وتضييعَ الوقت في تربيتهم غيرُ مجوّزٍ بلا إذنِ الحقّ سبحانه وفي قوله تعالى: ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [إبراهيم: ١] دلالةٌ على هذا المعنى.

حكي أنَّه لَمّا توفي واحدٌ من الأعزّة جاء الخطابُ بأنَّه أنت الذي لبس الدرعَ في ديني على عبادي؟ قال: بلى، قال: هلا وَكَلْتَ خلقي إليّ، وأقبلتَ بقلبك عليَّ. والإجازةُ التي صدرت لك ولغيرك مشروطةٌ........

بالشروط، ومنوطةٌ بحصول العلم بمرضاه تعالى، فإنَّه ما جاء بعدُ وقتُ الإجازة المطلقة، فينبغي رعايةُ تلك الشروط إلى ورود ذلك الوقت، والشرطُ هو الإخبارُ، وحُرِّرَ هذا المعنى أيضـاً إلى المير نعمان، فينبغي الاستعلامُ أيضـاً من هناك. وبالجملة ينبغي السعيُ حتى يجيء ذلك الوقتُ، ويتيسّر التخلُّصُ من مضائق الشَّرائط. والسلام.

المَكْتُوبُ الثَّانِي عَشَرَ وَالمِائَتَانِ

إلى مولانا محمَّدٍ صدِّيقِ البَدَخْشِيِّ في جوابِ بعضِ أسئِلتِه، وحلِّ واقعةٍ رَآها.

وصل المكتوبان المرغوبان متتابعين، فازداد فرحٌ على فرحٍ، أكرمكم الله سبحانه بترقِّياتٍ غير متناهيةٍ بحرمة سيد المرسلين عليه وعلى آله الصلاة والسلام، وسألت أنَّه هل يقدر الشيخُ صاحبُ التصرُّف أن يوصل المريد المستعد بتصرفه إلى مراتب فوق استعداده أو لا؟ بلى، يقدرُ أن يوصله، ولكن إلى مراتبَ تناسِبُ استعداده، لا إلى مراتبَ تباينُ استعداده. مثلاً: إذا كان في مريدٍ استعدادُ الولاية الموسويَّة، ونهايةُ قوّة استعداده ما يقدرُ الوصولَ بها إلى نصف طريق هذه الولاية، فالشيخُ صاحبُ التصرُّف يستطيع أن يوصله بتصرُّفه إلى أقصى درجات هذه الولاية، وأما أنَّه يخرجه من الولاية الموسويَّة إلى الولاية المحمديَّة، ويمنحه هناك الترقِّيات؛ فهو ليس بمعلومِ الوقوع. وسألت أيضـاً أنَّه أيّ مرتبةٍ يحصل فيها للأخفى الذي هو ألطفُ اللَّطائف الإنسانيَّة حكمُ النَّفس الأمَّارة، وتحصل له المشابهةُ في الخسَّة والدناءة؟ ليعلم الأخُ أنَّ الأخفى وإن كان ألطفَ اللَّطائف، ولكنَّه داخلٌ في دائرة الإمكان، ومتَّسمةٌ بسمة الحدوث، فإذا وضعَ السَّالكُ قدمه في خارج دائرة الإمكان، ووقع سيرُه على مراتب الواجب، وترقَّى من ظلال الوجوب إلى أصولها، وتخلَّص من التَّقيُّد بالصِّفة والشَّأن؛ فلا جَرَمَ يكون الممكنُ حينئذٍ في نظره ذليلاً حقيراً عديمَ الاعتبار، ويرى أخسَّه وألطفَه مساويين فيها، ويتخيَّلُ النَّفسَ والأخفى في هذا المقام كأنَّهما توأمان.

وكتبتَ أيضـاً: إنَّه سمعتُ منك بواسطةٍ أو بلا واسطةٍ: أنَّ عبادةَ الحق سبحانه معتقداً بأنَّه تعالى حاضرٌ وقت العبادة موجِبٌ لتنزُّله تعالى، ينبغي العبادةُ مثل العبيد، فإنَّ العبادةَ له تعالى معتقداً بأنَّه حاضرٌ سوءُ أدبٍ.

أيها المحبُّ، إنَّ صدورَ أمثال هذه المقالة من هذا الفقير ليس بمعلومٍ، ولعلك رأيتَه في محلٍّ آخرَ، والواقعةُ التي رأيْتَها ورأيتَ فيها حضرةَ آدم على نبينا وعليه الصلاة والسلام حسنةٌ جداً وأصيلةٌ، والماءُ كنايةٌ عن العلم، وإدخالُ اليد فيه حصولُ القدرة في العلم، ومشاركةُ آدم على نبينا وعليه الصلاة والسلام مؤكّدةٌ لهذا الحصول، فإنَّ آدم عليه السلام تلميذُ الرحمن، ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

غَايةُ ما فِي البابِ: إنَّ المرادَ بالعلم في هذه الواقعة: علمُ الباطن، بل نوعٌ من علم الباطن له مناسبةٌ لنسبة أهل البيت عليهم الرضوان، والباقي عند التلاقي. والسلام.

المَكْتُوبُ الثَّالِثَ عَشَرَ وَالمِائَتَانِ

إلى السَّيِّد فريدٍ في المَواعظِ والنَّصائح بالتَّرغيبِ في اتِّباع علَماءِ أهلِ السُّنَّة والجماعَة، والتَّحذير عن مُصاحبةِ علماءِ السُّوءِ... إلخ.

عصمكم الله سبحانه عما لا يليق بجنابكم بحرمة جدكم الأمجد، عليه وعلى آله الصلاة والسلام. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَانِ إِلَّا ٱلْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، ولا أدري بأيِّ إحسانٍ أكافئُ إحسانكم، سوى أن أكون رطبَ اللسان بدعاء سلامتكم في الدَّارين في الأوقات الشريفة، الحمد لله سبحانه..............................

والمنَّة أنَّ هذا المعنى ميسَّرٌ من غير اختيارٍ، والإحسانُ الآخرُ الذي تليقُ المكافأةُ به: التذكرةُ والموعظةُ، فيا لها من نعمةٍ إن وقعتْ في معرض القبول.

أيُّها النقيبُ النجيبُ، إنَّ خلاصةَ المواعظ وزبدةَ النَّصائح: الاختلاطُ والانبساطُ مع أصحاب الديانة، وأرباب التشرُّع، وكلٌّ من التديُّن والتشرُّع مربوطٌ بسلوك طريقة أهل السنّة والجماعة الحقَّة الذين هم الفرقةُ النَّاجيةُ من بين سائر الفرق الإسلامية، والنجاةُ بدون متابعة هؤلاء الأكابر محالٌ، والفلاحُ من غير اتِّباع آرائهم ممتنعٌ، والدلائلُ النَّقليةُ والعقليَّةُ والكشفيَّةُ شاهدةٌ لهذا المعنى، لا تحتمل التخلُّفَ أصلاً، فإذا علم خروجُ شخصٍ مقدارَ خردلةٍ من طريق هؤلاء الأكابر الذي هو الصراطُ المستقيمُ؛ ينبغي أن تعتقد أنَّ صحبتَه سمٌّ قاتلٌ، وأن ترى مجالستَه كمجالسة الأفعى، وطلبةُ العلم الذين لا مبالاة فيهم؛ فهم لصوصُ الدين من أيّ فرقةٍ كانوا، والاجتنابُ عن صحبتهم أيضاً من الضّروريَّات، وجميعُ هذه الفتنة والمفسدة الواقعة في الدين من شآمة هؤلاء الجماعة الذين جعلوا آخرتهم هباءً في جمع حطام الدنيا، ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦].

رأى شخصٌ إبليس اللعين قاعداً مستريحاً فارغ البال من الاشتغال بالإغواء والإضلال، فسأله عن سرّ ذلك، فقال اللعينُ: إنَّ علماءَ السُّوء في هذا الوقت قد كفوا أمري، وتكفَّلوا لي بالإغواء والإضلال.

ومولانا عمر موصوف بحسن السيرة والطويَّة من بين الطلبة الموجودين الآن هناك بشرط أن تقووا قلبه، وتعاونوه على إظهار الحقّ، والحافظُ الإمامُ فيه أيضاً جنون الإسلام، ولا بُدَّ من ذاك الجنون في الإسلام، «**لَنْ يُؤْمِنَ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُقَالَ: إِنَّهُ مَجْنُونٌ**» معلومٌ لجنابكم.

وهذا الفقير لم يقصِّرْ في القول والكتابة في التَّحريض على الصحبة الحسنة، ولم أرخِّصْ لنفسي أن تترك المبالغةَ في التحذير عن المصاحبة السوء، وأرى ذلك أصلاً عظيماً، والقبولُ من عندكم، فطوبى لمن جعل مظهراً للخير، وتذكُّرُ إحساناتكم يوردني على هذا القيل والقال، وينسيني ملاحظة التصديع والإملال. والسلام.

المكتوب الرابع عشر والمائتان

إلى خان خانان في بيانِ أنَّ الدُّنيا مزرعةُ الآخرةِ، وفي سرِّ تأبيدِ عذابِ الكفَّار، وتفويضِ واحدٍ من أربابِ الافتقار.

طوبى لمن جعله الله مظهراً للخير، وقد جعل الحقُّ سبحانه الدنيا مزرعةَ الآخرة، فيا شقاوةَ من أكل البذر بالتمام، ولم يزرعْهُ في أرض الاستعداد، ولم يجعل الحبَّةَ الواحدةَ سبعمائة حبةٍ، ولم يهيِّئه ذخيرةً ليوم يفرُّ فيه الأخُ من أخٍ، والأمُّ من ولدٍ، خسارةُ الدنيا والآخرة نقدُ وقته، وحسرةُ الدَّارين وندامتهما في كفّ يده؛ لِمَا كان معرّضاً لغضب ربه ومقته، وأصحابُ الدَّولة هم الذين يغتنمون الفرصةَ في الدنيا، لا بمعنى: أنَّهم يتنعَّمون فيها ويتلذَّذون بها، فإنَّه لا مدارَ على ذلك، ولا ثباتَ لما هنالك، ومع ذلك إنَّها معدّات المحن والعقبات، بل بمعنى: أنَّهم يعملون فيها ويزرعون لآخرتهم، ويحصلون من حبّةٍ واحدةٍ من العمل بحكم ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦١] ثمراتٍ غير متناهيةٍ، ومن ههنا كان جزاءُ الأعمال الصالحة في أيامٍ معدودةٍ تنعُّمات مخلدة، والله ذو الفضل العظيم.

فإن قيل: إنَّ تضاعفَ الأجر إنّما هو في الحسنات دون السيئات، فإنَّ الجزاءَ فيها بالمثل، فكيف يجوز تأبيدُ عذاب الكفار بواسطة سيآت معدودةٍ؟

أجيب: أنَّ مماثلةَ الجزاء للعمل مفوّضةٌ إلى علم الواجب تعالى وتقدس، ....

وعلمُ الممكن قاصرٌ عن إدراكها، ألا ترى أنَّ الحقَّ سبحانه أمر في قذف المحصنات بجلد ثمانين جزاءً مماثلاً، وفي حدّ السرقة بقطع اليمين، وفي حدّ الزنا في البكر مع البكر بمائة جلدةٍ وتغريب عامٍ، وفي الشيخ والشيخة حكم بالرجم؟ وعلمُ سرّ هذه الحدود والتقديرات خارجٌ من طَوْق البشر، ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨] وحيث حَكَمَ اللهُ سبحانه بالعذاب المخلَّد على الكفر المؤقّت جزاءً وفاقاً؛ علم أنَّ الجزاءَ المماثلَ على الكفر المؤقّت هو ذلك العذابُ المخلّدُ، ومن أراد تطبيقَ جميع الأحكام الشَّرعيّة على عقله، وجعلها معقولَ نفسه، وتسويتها بأدلّةٍ عقليّةٍ؛ فهو منكرٌ لطور النبوَّة عليه ما يستحقُّ، والتكلّم معه من عدم العقل: (شعر)

مَنْ لَمْ يُصَـدِّقْ بِالْكِتَابِ وَسُـنَّةٍ ... فَجَوَابُهُ أَنْ لَا تُجِيبَ وَتَسْـكُتَا

وبقيّة المرام: أنَّ رافعَ رقيمة الفقراء الشيخ ميان أحمد ولد المغفور له الشيخ سلطان التهانيسريّ توجَّهَ إلى الخدمة العليّة متوسِّلاً بهذا الفقير، ملاحظاً لألطافكم وإحساناتكم إلى والده الماجد، ومن جملة ألطافكم إليه: أنّه كان موضع في قضاء أندري، وكنتم أكرمتموه بإعطائه إياه، والأمرُ عندكم، بل كلٌّ من عند الله، والسلام عليكم وعلى سائر من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى عليه وعلى آله الصلاة والسلام.

المَكتُوبُ الخَامِسَ عَشَرَ وَالمِائَتَانِ

إلى المِيرزا داراب في مَذمَّة الدُّنيا.

وصل المكتوبُ الشَّريفُ الذي أرسلتَهُ بالتَّواضع التامِّ من حسن نشأة الاستعداد الفطريّ إلى الفقراء معدومي البضاعة، جزاكم الله سبحانه عنا خيرَ الجزاء بحرمة حبيبه عليه وعلى آله الصلاة والسلام.

أيُّها الولدُ إنَّ أربابَ الدُّنيا وأصحابَ الغِنى مبتلون ببلاءٍ عظيم، فإنَّ الدُّنيا مبغوضةُ الحقّ سبحانه، وقد زُيِّنَ في نظرهم أقبحُ جميع النَّجاسات كنجاسةٍ مموَّهةٍ بالذَّهب، وسمّ مغلّف بالسُّكَّر، ومع ذلك لقد اهتدى العقلُ السّليمُ إلى شناعة هذه الدَّنيّة، ودلَّ على قباحة هذه الغير المرضيَّة، ولهذا قال العلماءُ: لو أوصى شخصٌ بماله لأعقل أهل زمانه؛ يعطى للزُّهّاد، فإنَّهم راغبون عن الدنيا، ورغبتُهم عنها من كمال عقلهم، ومع ذلك لم يكتفِ الحقُّ سبحانه من كمال رحمته بشهادة العقل وحده، بل ضَمَّ إليه شاهداً آخر من النَّقل، وأَطْلَعَ على حقيقة ذاك المتاع الكاسد على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام الذين هم رحمةٌ للعالمين، ومنع عن محبّةِ تلك القحبة والتعلُّق بها منعاً بليغاً. ومع وجود هذين الشَّاهدين العَدْلَين إذا أكل شخصٌ السمَّ بطَمَع السُّكَّر الموهوم، واختار النَّجاسة برجاء الذَّهب المتخيَّل؛ فهو سفيهٌ محضٌ، وبليدٌ بالطَّبع، بل هو مُنْكِرٌ لإخبار الرُّسُل عليهم السلام في الحقيقة، وحكمُه حكمُ المنافق الذي فيه صورةُ الإيمان، وهي لا تنفع في الآخرة، ولا نتيجةَ لها غيرُ عصمة الدِّماء والأموال الدنياويَّة. فينبغي رفعُ قُطْن الغفلة اليوم من الأُذُن، وإلا؛ لا يحصل شيءٌ غداً سوى الحسرة والنَّدامة، والشرطُ الإخبار: (شعر)

إِنَّـمَـا هَـذِهِ الـدُّنْـيَـا مَـتَـاعُ ... الْغُرُورِ الْغَرُورُ مَنْ يَصْطَفِيهَا

مَـا مَضَـى فَـاتَ وَالْمُؤَمَّلُ غَيْبٌ ... وَلَـكَ السَّـاعَـةُ الَّتِي أَنْتَ فِـيهَا

المَكتُوبُ السَّادِسَ عَشَرَ وَالمِائَتَانِ

إلى المِيرزا حسام الدِّين في بيانِ سرِّ كثرةِ ظُهورِ الخوارقِ للعاداتِ من بعضِ الأولياءِ، وقلَّة ظهورِها مِن بعضٍ آخرَ، وبيانِ أتمِّيَّة مقامِ التَّكميل والإرشادِ، وما يناسِب ذلك.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وآله الطاهرين أجمعين.

قد يقع في الخاطر الفاتر أنَّه لَمّا حال البُعْدُ الصوريُّ بيني وبين الأحبّة، وصارت الملاقاةُ الظَّاهريّة كعنقاء المغرب؛ كان المناسبُ أن أكتب إليهم بعض العلوم والمعارف أحياناً، فبناءً على ذلك أكتبُ من هذا القسم شيئاً في بعض الأوقات، والمرجوُّ أن لا يكون ذلك منجرّاً إلى الملال.

أيُّها المخدومُ، لَمّا كان مبحثُ الولاية فيما بيننا، ونظرُ عوامّ الخلائق إلى ظهور الخوارق؛ أذكر من هذه المقولة كلماتٍ ينبغي استماعُها.

اعلم أنَّ الولايةَ عبارةٌ عن الفناء والبقاء، والخوارقُ والكشوفُ من لوازمها، قلَّتْ أو كَثُرَتْ، ولكن ليس كلُّ من تكون خوارقُه أكثرَ تكون ولايتُه أتمَّ، وحظُّه أوفرَ، بل كثيراً ما يكون ظهورُ الخوارق قليلاً، وتكون الولايةُ أكملَ. مدارُ كثرة ظهور الخوارق على أمرين: كونُ العروج إلى الفوق أكثرَ في وقت العروج، وكونُ النُّزول إلى السُّفْل أقلَّ في وقت النُّزول، بل الأصلُ العظيمُ في كثرة ظهور الخوارق: هو قلَّةُ النُّزول على أيِّ كيفيَّةٍ كان جانبُ العروج، فإنَّ صاحبَ النُّزول ينزل إلى عالم الأسباب، ويجد وجودَ الأشياء مربوطاً بالأسباب، ويرى فعلَ مسبِّب الأسباب من وراء أستار الأسباب، والذي لم ينزلْ أو نزلَ ولكن لم يَصِلْ بعدُ إلى الأسباب؛ فنظرُه مقصورٌ على فعل مسبِّب الأسباب فقط؛ لأنَّ الأسبابَ قد ارتفعت عن نظره بالتَّمام، وقَصُرَ نظرُه على فعل مسبِّب الأسباب، فلا جرم يعامِلُ الحقُّ سبحانه كلاً منهما معاملةً على حدةٍ بمقتضى ظنِّ كلٍّ منهما، فيَكِلُ أمرَ من يرى الأسبابَ إلى الأسباب، والذي لا يرى الأسبابَ يهيِّئُ أمرَه بدون توسُّط الأسباب، وحديث: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي»[1] شاهدٌ لهذا المعنى، وقد اختلج في الخاطر مدّةً كثيرةً: أنَّه ما الوجهُ في عدم ظهور الخوارق من أحدٍ من كُمَّل أولياء هذه الأمَّة مع كثرتهم فيما مضى؟ مثل ما ظهر من حضرة السيد محيي الدين عبد القادر الجيلانيِّ قدس سره، فأظهر الحقُّ سبحانه آخرَ الأمر سرَّ هذا المعمى.

واعلم أنَّ عروج السيد محيي الدين الجيلاني قدس سره كان أعلى من عروج أكثر الأولياء، ونزل في جانب النُّزول إلى مقام الروح فقط الذي هو فوق عالم الأسباب، وحكايةُ الحسن البصريّ وحبيب العجميّ مناسبةٌ لهذا، يعني: مؤيِّدةٌ ومقوِّيةٌ لما سبق. نقل عن الحسن البصري أنَّه كان يوماً واقفاً بساحل النهر منتظراً لسفينةٍ ليعبر النهرَ، فجاء حبيب العجميُّ في أثناء ذلك، فسأله عن سبب وقوفه، فقال: أنتظر السفينةَ؟ فقال الحبيبُ: ما الحاجةُ إلى سفينةٍ؟ أليس فيك يقينٌ؟ فقال الحسن: أليس لك علمٌ؟ فعَبَرَ الحبيبُ النهرَ - يعني: ماشياً على الماء - بلا استعانةِ سفينةٍ، وبقي الحسنُ واقفاً منتظراً للسَّفينة، وكان الحسنُ البصريُّ قد نزل إلى عالم الأسباب، فعومل بتوسُّط الأسباب، وكان الحبيب العجميُّ قد طرح الأسبابَ وأزاحها عن نظره بالتَّمام، فعومل من غير توسُّط الأسباب، ولكنَّ الفضلَ للحسن؛ لأنَّه صاحبُ العلم، وجَمَعَ بين عين اليقين وعلم اليقين وعِلْمِ الأشياء كما هي، فإنَّ القدرةَ جُعِلَتْ في نفس الأمر مستورةً فيما وراء الحكمة، وحبيبٌ العجميُّ صاحبُ سكرٍ له يقينٌ بالفاعل الحقيقيّ من غير مدخليَّة الأسباب، وهذه الرُّؤيةُ ليستْ بمطابقةٍ لنفس الأمر؛ لأنَّ توسُّطَ الأسباب كائنٌ بحسب الواقع.

وأما معاملةُ التَّكميل والإرشاد؛ فهي على عكس معاملة ظهور الخوارق، فإنَّ في مقام الإرشاد كلَّما كان النُّزولُ أكثرَ؛ يكون الإرشادُ أكملَ وأوفرَ، فإنَّ حصولَ المناسبة بين.......................................

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

المرشد والمسترشد لازمٌ في الإرشاد، وهو مَنُوطٌ بالنُّزول.

واعلم أنَّ التَّفوُّقَ كلَّما كان أكثرَ؛ يكون النُّزولُ أكثرَ في الأغلب، ولهذا كان عروجُ النبيّ ﷺ فوق الكلّ، ونزل وقت النُّزول أسفلَ من الكلّ، ولذا كانت دعوتُه أتمَّ، وكان مرسلاً إلى كافَّة الأنام؛ لأنَّه قد حصلتْ له ﷺ مناسبةٌ بالكلّ بواسطة نهاية النزول، وكان طريقُ إفادته أتمَّ. وكثيراً ما تقع إفادةُ الطَّالبين من متوسِّطي هذا الطَّريق ما لا يتيسّرُ من المنتهيين غير المرجوعين، فإنَّ في المتوسِّطين زيادةَ مناسبةٍ للمبتدئين بالنِّسبة إلى المنتهيين غير المرجوعين، ومن ههنا قال شيخُ الإسلام الهرويّ قدس سره: لو كان الخرقانيُّ ومحمد القصاب في محلٍّ واحدٍ؛ لأرسلتكم إلى محمد القصاب، لا إلى الخرقانيّ، فإنَّه أنفعُ لكم من الخرقانيّ، يعني: كان الخرقانيّ منتهياً، فيكون احتظاظُ المريد منه قليلاً، يعني: منتهياً غيرَ مرجوعٍ، لا منتهياً مطلقاً، فإنَّ عدمَ الإفادة التامَّة غيرُ واقعٍ في حقّه، فإنَّ محمداً رسول الله ﷺ أزيدُ انتهاءً من الكلّ، والحالُ أنَّ إفادته كانت أزيدَ من الكلّ، فكان مدارُ زيادة الإفادة ونقصانها على الرجوع والهبوط، لا على الانتهاء وعدمه.

وههنا دقيقةٌ ينبغي أن يعلم: كما أنَّ في حصول نفس الولاية لا يُشترطُ لصاحبها العلمُ بولاية نفسه كما هو مشهورٌ؛ كذلك لا يشترط العلمُ بوجود خوارقه العادات، بل كثيراً ما ينقلُ الناسُ عنه خوارقَ ولا يكون له على تلك الخوارق اطِّلاعٌ أصلاً، والأولياءُ الذين هم أصحابُ العلم والكشف يجوز أن لا يكون لهم اطِّلاعٌ على خوارقهم، بل تظهر صُوَرُهم المثاليةُ في أمكنةٍ متعدّدةٍ، وتظهر من تلك الصُّور أمورٌ عجيبةٌ وحالاتٌ غريبةٌ في مسافاتٍ بعيدةٍ، ولا اطِّلاعَ لصاحب تلك الصور على ذلك أصلاً:

(ع) وَمَا الْفِعْلُ إِلَّا مِنْهُ وَالْغَيْرُ مَظْهَرُ

قال حضرةُ مخدومي وقبلتي قدس سره - يعني: شيخه -: قال واحدٌ من الأعزّة: يا للعجب، يجيءُ الناسُ من الأطراف والجوانب، فيقول بعضهم: رأيناك في مكّة المعظمة، وكنت حاضراً في موسم الحجّ، وحججنا معاً، ويقول بعضهم: رأيتك في بغداد، ويظهرون المحبَّةَ والمودّةَ، وأنا لم أخرجْ من بيتي أصلاً، ولم أر أمثالَ هؤلاء الناس، فأيُّ تهمةٍ يتهمونني بها؟ والله سبحانه أعلم بحقائق الأمور كلّها، والزيادةُ على ذلك إطنابٌ. فإن كان تعطشُّكُم معلوماً؛ أكتب سريعاً أزيدَ من ذلك إن شاء الله تعالى.

المكتوب السابع عشر والمائتان

إلى الملّا طاهرٍ البَدَخْشِيِّ في بيانِ أنَّ نسبةَ الباطنِ كلَّما تنجرُّ إلى الجهالَة والحَيرةِ تكونُ أحسنَ، وبيانِ سببِ وقوعِ الغلطِ في بعضِ الكشوفِ، والفرقِ بينَ القضاءِ المعلَّقِ والمُبرَمِ، وأنَّ المُعوَّلَ عليه هو الكتابُ والسُّنَّة، وأنَّ إجازةَ تعليمِ الطَّريقةِ لا يدلُّ على الكمالِ والتَّكميلِ مطلقاً.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله الطاهرين أجمعين.

لم تطلعوني على أحوالكم وأوضاعكم من مدّةٍ مديدةٍ، الاستقامةُ مطلوبةٌ على كلّ حالٍ، فعليكم بالسَّعي والاجتهاد لئلا يقع خلافُ الشَّريعة مقدار شعرةٍ اعتقاداً وعملاً، والمحافظةُ على النِّسبة الباطنيَّة من أهمّ المهمات، وكلَّما تنجرُّ النِّسبة إلى جانب الجهالة تكون أحسنَ، وكلَّما تذهب إلى طرف الحيرة تكون أفضلَ، والكشوفاتُ الإلهيّةُ والظهوراتُ الأسمائيّةُ إنّما هي في أثناء الطَّريق. وأما بعد الوصول؛ فكلُّ ذلك يقصرُ هنالك، لا يبقى فيه غيرُ الجهالة وعدم وجدان المطلوب. وماذا أكتب من الكشوف الكونيّة؟ فإنَّ مجالَ..

الخطأ فيها كثيرٌ، ومظنَّةُ الغلط غالبةٌ، فينبغي اعتقادُ أنَّ وجودها وعدمها سيّان.

فإن قيل: ما السببُ في وقوع الغَلَط في بعض الكشوف الكونيَّة التي يصدر عن أولياء الله تعالى، وظهور خلافها، أخبر مثلاً: أنَّ فلاناً يموت بعد شهرٍ، أو يرجع من سفره إلى وطنه، ولَمّا مضى ذلك الشهرُ لم يقع شيءٌ مما أخبر به.

أجيب: أنَّ حصولَ هذا الأمر المكشوف المخبر عن وقوعه كان مشروطاً بشرائط، وصاحبُ الكشف لم يطَّلع على تفاصيلها وقت الإخبار به، فحَكَمَ بحصوله مطلقاً.

أو نقول: إنَّ حكماً من الأحكام المسطورة في اللوح المحفوظ ظهرَ لعارفٍ، وكان ذلك الحكمُ قابلاً في نفسه المحوَ والرفعَ، وكان من قبيل القضاء المعلَّق، ولكن لم يكن للعارف خبرٌ من كونه معلَّقاً وقابليَّته للمحو والرفع، فإذا أخبر في هذه الصُّورة بمقتضى علمه وحكم بوقوعه؛ يكون فيه احتمالُ التخلُّف ألبتَّة. نقل أنَّ جبريل عليه السلام أتى النبيَّ ﷺ، وأخبره بموت شابٍّ على الصباح، فترحَّم النبي ﷺ لحاله، فسأله عما يتمنَّاه من الدُّنيا، فقال: نكاحُ بكرٍ، وأكلُ حلوى، فأمر بإحضارهما حالاً، فبينا الشابُّ قاعدٌ في الليل مع أهله في خلوته، وطبقُ الحلوى بين أيديهما؛ إذ جاء سائلٌ اتِّفاقاً عند الباب، وسأل شيئاً لله، فناوله الشابُّ الحلوى كما هو بطبقه، فلما أصبح النبيُّ ﷺ قعد منتظراً لمجيء خبر فوت الغلام، فلما تأخَّر الخبرُ قال: «**أَخْبِرُونِي عَنْ حَالِ ذَاكَ الْغُلَامِ**»، فأخبروه بأنَّه في سرورٍ وفرحٍ، فبقي متحيِّراً، فجاءه جبريل عليه السلام فقال: إنَّه تصدَّق بالحلوى، فدفع ذلك عنه البلوى، فوجدت تحت وسادته حيَّةٌ عظيمةٌ ميتةٌ، وبطنُها محشوٌّ بالحلوى، وممتلئٌ به بحيث ماتت من كثرته[1]. وأنا لا أقبل هذا النَّقلَ ولا أجوِّزُ الخطأ على جبريل، فإنَّه حامل الوحي القطعيّ، وأرى احتمالَ الخطأ من حامل الوحي مستقبحاً، اللهم إلا أن نقول: إنَّ عصمتَه وعدمَ احتمال الخطأ منه مخصوصةٌ بالوحي الذي هو تبليغٌ من قبل الحقّ سبحانه، وهذا الخبرُ ليس من قسم الوحي، بل هو إخبارٌ من علمٍ مستفادٍ من اللَّوح المحفوظ الذي هو محلُّ المحو والإثبات، فيكون للخطأ مجالٌ في هذا الخبر، بخلاف الوحي الذي هو مجرَّد تبليغٍ فافترقا، كالفرق بين الشَّهادة والإخبار، فإن الأولى معتبرةٌ في الشرع لا الثَّاني.

اعلم - أيَّدك الله تعالى - أنَّ القضاءَ على قسمين: قضاءٌ معلّقٌ، وقضاءٌ مبرمٌ، واحتمالُ التَّبديل والتَّغيير إنّما هو في القضاء المعلَّق، وأما القضاءُ المبرمُ؛ فلا مجال فيه للتَّبديل والتَّغيير، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [ق: ٢٨]، هذا في القضاء المبرم، وقال في القضاء المعلق: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩].

قال حضرةُ قبلتي قدس سره - يعني: شيخَه -: كتب حضرة السيد محيي الدين عبد القادر الجيلانِيّ قدس سره في بعض رسائله: لا مجال لأحدٍ في تبديل القضاء المبرم إلا لي، فإنِّي أتصرَّفُ فيه أيضاً إن أردت ذلك. وكثيراً ما كان يتعجَّبُ من هذا الكلام ويستبعده، وكان هذا النَّقلُ مدَّةً مديدةً في خزانة ذهن هذا الفقير، إلى أن شرَّفني الله سبحانه بهذه الدَّولة العظمى، حيث كنت يوماً في صدد دفع بليَّةٍ متوجِّهةٍ إلى بعض الأحبّة، وكان لي في ذلك الوقت التجاءٌ وتضرُّعٌ وابتهالٌ وخشوعٌ تامٌّ إلى الله تعالى، فظهر أنَّ قضاءَ هذا الأمر ليس بمعلَّقٍ بأمرٍ آخر في اللوح المحفوظ، ولا بمشروطٍ بشرطٍ، فحصل بعد هذا نوعُ يأسٍ وحرمانٍ، فخطر في ذلك الوقت قولُ السيد عبد القادر الجيلانِي قدس سره، فالتجأتُ إليه تعالى، وتضرَّعت مرَّةً ثانيةً، وتوجَّهتُ إليه سالكاً طريقَ إظهار العجز والانكسار، فأظهر الله سبحانه بأنَّ القضاءَ المعلَّقَ على نوعين: قضاءٌ ظهر تعليقُه في اللَّوح المحفوظ، واطَّلع عليه..........................

(١) قال المعرِّب: بل هو من مخترعات الجهلة.

الملائكةُ، وقضاءٌ تعليقُه عند الحقّ سبحانه فقط، وهو على صورة القضاء المبرم في اللّوح المحفوظ، وفي القسم الأخير من القضاء المعلّق احتمالُ التّبديل مثل الأوّل، فصار معلوماً من هناك: أنَّ كلام السيد الجيلانِيّ مصروفٌ إلى القسم الأخير الذي له صورةُ القضاء المبرم، لا إلى قضاءٍ هو مبرمٌ حقيقةً، فإنَّ التّصرُّفَ والتبديلَ فيه محالان شرعاً وعقلاً كما لا يخفى، والحقُّ: إنَّ لأفرادٍ قليلةٍ اطّلاعاً على حقيقة ذلك القضاء، فكيف التصرُّفُ هناك؟

ووجدت البليّة المتوجِّهة إلى الأخ المذكور من القسم الأخير، وصار معلوماً أنَّ الله سبحانه دفعها عنه، والحمد لله سبحانه على ذلك حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه مباركاً عليه كما يحب ربنا ويرضى، والصلاةُ والسلامُ والتحيةُ على سيد الأوّلين الآخرين، وخاتم الأنبياء والمرسلين، الذي أرسله رحمةً للعالمين، وعلى آله وأصحابه وعلى جميع إخوانه من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين والملائكة المقربين أجمعين، اللهم اجعلنا من محبيهم ومتابعي آثارهم ببركة هؤلاء الأكابر، ويرحم الله عبداً قال آمينا.

ولنرجع إلى أصل الكلام ونقول: إنَّ سبب وقوع الخطأ في بعض العلوم الإلهاميَّة في بعض الأوقات: هو أنَّ بعض المقدَّمات المسلَّمة الثَّابتة عند صاحب الإلهام الكاذبة في نفس الأمر تلتبسُ وتختلطُ مع العلوم الإلهاميَّة، بحيث لا يقدر صاحبُ الإلهام على التَّمييز، بل يظنُّ جميعَ تلك العلوم إلهاميَّةً، فلا جرم يقع الخطأُ في المجموع بسبب الخطأ في بعض أجزائها، وأيضاً قد يرى في بعض الأحيان أمورٌ غيبيّةٌ في الكشوف والواقعات، ويخيّل الرأيُ أنَّها محمولةٌ على ظاهرها، ومقصورةٌ على صورتها، فيحكم على مقدار خياله، فيقع الخطأُ، ولا يُدْرَى أنَّ تلك الأمور مصروفةٌ عن ظاهرها، ومحمولةٌ على التَّأويل والتَّعبير، وهذا المقامُ أيضاً من جملة مقامات الأغلاط الكشفيَّة.

وبالجملة إنَّ ما هو القطعيُّ الحقيقيُّ بالاعتماد هو الكتابُ والسنَّةُ، فإنَّهما ثبتا بالوحي القطعيّ، وتقرّرا بنزول المَلَك، وإجماعُ العلماء واجتهادُ المجتهدين - يعني: القياسَ - راجعان إلى هذين الأصلين، وما وراء هذه الأصول الأربعة كائناً ما كان إن كان موافقاً لواحدٍ من هذه الأصول؛ فهو مقبولٌ، وإلا؛ فلا وإن كان من علوم الصوفيَّة ومعارفهم البهيَّة، ومن الإلهام والكشوفات السَنِيّة، فإنَّ الوجدَ والحالَ لا يشترى هناك بنصف شعيرةٍ ما لم يوزنْ بميزان الشَّريعة، والإلهامُ والكشوفُ لا يقبل على نصف دانقٍ ما لم يجرَّب بمحكِّ الكتاب والسنة.

والمقصودُ من سلوك طريق الصوفيَّة: حصولُ ازدياد اليقين بحقيَّة المعتقدات الشَّرعيّة الذي هو حقيقةُ الإيمان، وحصولُ اليسر في أداء الأحكام الشَّرعيّة، لا أمر آخر وراء ذلك، فإنَّ الرُّؤيةَ موعودةٌ في الآخرة، ليست بواقعةٍ في الدنيا، والمشاهداتُ والتجلّياتُ التي الصُّوفيَّةُ مسرورون بها اطمئنانٌ بالظلال، أو تسلٍّ بالشّبه والمثال، وهو تعالى وراء الوراء، فإن كشفت عن حقيقة هذه المشاهدات والتجلّيات كما هي؛ أخافُ من وقوع الفتور في طلب مبتدئي هذا الطَّريق، وتطرُّق القصور إلى شوقهم، وإن سكتُّ عن ذلك مع وجود العلم به؛ أخاف من أن أكون مجوِّزاً لالتباس الحقّ بالباطل، فبالضَّرورة أردت أن أُظْهِرَ هذا القدرَ، وهو أنَّ تجلّيات هذا الطَّريق ومشاهداته ينبغي أن تُعْرَضَ على محكِّ تجلّي كليم الله موسى على نبينا وعليه الصلاة السلام وشهوده، فإن لم تصحّ - يعني: لم تطابقْه -، بل خالفَتْه؛ ينبغي أن يحكم عليها بكونها من جملة التجلّيات الظلاليّة والمثاليّة بالضَّرورة، ولا ....

يجوز أن تصحَّ - يعني: تطابق - ألبتَّة، فإنَّ الدكّ والفكّ مفقودٌ، ولا بُدَّ منه في الدنيا، سواءٌ تجلّى للباطن أو للظاهر، فإنَّه يلزمه الدكُّ والفكُّ ألبتّة. وخاتمُ الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام - لكونه مبرّأ من هذه الوصمة - تيسّرتْ له الرُّؤيةُ في الدُّنيا، ولم يذهب عن مكانه مقدار شعرةٍ، ولا تكون هي بلا حجابِ ظلٍّ من الظِّلال لكُمَّل تابعيه ﷺ من الذين لهم نصيبٌ من هذا المقام، فهمه صاحبُ التجلِّي أو لا، فإذا وقع الصَّعقُ لكليم الله موسى عليه السلام من مشاهدة هذا الحال فقط من غير وقوع التجلِّي له ماذا يقع لغيره؟

ثم اعلم أنَّ المقصودَ من إجازة بعض المخلصين: هو أن يكون ذلك المجازُ دليلاً وهادياً إلى طريق الحقّ جل وعلا لجماعةٍ في مثل هذا الزَّمان الذي فَشَتْ فيه الضَّلالةُ وعمَّتْ، ويشتغل هو أيضاً باتِّفاق هؤلاء الطَّلبة، ويترقَّى ويسعى محافظاً على هذه النِّسبة، ويجتهد لأن يكون المسترشدون أيضاً متشرِّفين بهذه الدَّولة، لا أنَّ الإجازةَ تُوقِعُه في توهُّم الكمال والتَّكميل، وتمنعه من المقصود، ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [النور: ٥٤] والسلام.

المكتوب الثامن عشر والمائتان

إلى الملَّا داودَ في بيانِ لُزوم رعايَة آدابِ شيخِ الطَّريقَة.

وصل المكتوبُ الشَّريفُ من الأخ الأعزّ الملا داود، وصار موجباً للابتهاج، جعل الحقُّ سبحانه ظاهرَه وباطنَه متحلّياً[1] ومتزيّناً بمرضياته بحرمة النبي وآله الأمجاد عليه وعليهم الصلاة والسلام.

المطلوبُ: عدمُ وقوع الفتور في تكرار ذكر القلب، والاستقامةُ على طريقة الأكابر قدّس الله أسرارهم بسبب توجّهاتٍ شتّى، فمتى طرأت الظلمةُ والكدورةُ فرضاً؛ فعلاجُها: الالتجاءُ والتضرّعُ والابتهالُ والانكسارُ إلى جناب قدس الحقّ جل سلطانه، والتوجّه التامّ إلى مربِّيه، فإنَّه هو الوسيلةُ إلى حصول هذه الدَّولة، فينبغي رعايةُ آداب وسائل هذه الدَّولة العظمى كما هو حقُّها في الحضور والغيبة، وأن يجعل رضاءَ هؤلاء الأكابر وسيلةً إلى تحصيل رضاء الحقّ سبحانه، وهذا هو طريقُ النَّجاة والفلاح. والسلام.

المكتوب التاسع عشر والمائتان

إلى المِيرزا أَيْرَج في بيانِ أنَّ اشتِغالَ الإنسانِ بما لا يعنيه وتَركَه ما يَعنيه ويَهمُّه مِن جَهلِه وغفلَتِه.

عصمكم الله سبحانه عما يَصِمكم، وصانكم عما شانكم، بحرمة سيد الأوّلين والآخرين، عليه وعلى آله الصلاةُ والسلامُ.
أيُّها السعيدُ النجيبُ، إنَّ الإنسانَ إذا طرأ عليه مرضٌ من الأمراض الظَّاهرة، أو عرضتْ لعضوٍ من أعضائه آفةٌ؛ يسعى سعياً بليغاً حتى يندفع عنه ذلك المرضُ، وتزول عنه تلك الآفةُ، وقد استولى عليه المرضُ القلبيُّ الذي هو عبارةٌ عن تعلّق القلب بما دون الحقّ جلَّ وعلا على نهجٍ كاد يُوقِعُه في الموت الأبديّ، ويلقيه في العذاب السَّرمديّ، وهو لا يتفكَّرُ بعدُ في إزالته أصلاً، ولا يسعى في دفعه قطعاً، فإن لم يعلم أنَّ هذا التعلّقَ مرضٌ؛ فهو سفيهٌ محضٌ، وإن عَلِمَ ومع ذلك لا يبالي به؛ فهو بليدٌ صِرْفٌ. ولأجل إدراك هذا المرض لا بُدَّ من عقل المعاد، فإنَّ عقلَ المعاش لقصور فكره مقصورٌ على إدراك الظَّاهر، لا يتعدَّاه إلى بواطن الأمور، فكما أنَّ عقلَ المعاش لا يُدْرِكُ المرضَ المعنويَّ أو لا يراه مرضاً بواسطة ابتلائه بالتلذُّذات الفانية وانغماسه فيها؛ كذلك عقلُ المعاد لا يحسُّ الأمراضَ الصوريَّة، ولا يَعُدُّها أمراضاً بسبب رجائه المثوبات الأخرويَّة، عقلُ المعاش قصيرُ النظر........

---
(١) في النسخ: (متحلاً)، والصواب ما أثبتناه.

وعقلُ المعاد حديدُ البصر، عقلُ المعاد نصيبُ الأنبياء والأولياء عليهم الصلاة والسلام، وعقلُ المعاش مرغوبُ الأغنياء وأرباب الدّنيا، شتّان ما بينهما، والأسبابُ المحصِّلةُ لعقل المعاد: ذكرُ الموت، وتذكُّرُ أحوال الآخرة، ومجالسةُ قومٍ تشرَّفوا بدولة فكر الآخرة: (شعر) دَلَلْتُكَ يَا هَذَا عَلَى كَنْزِ مَقْصِدِ فَإِنْ أَنَا لَمْ أَبْلُغْ لَعَلَّكَ تَبْلُغِ

ينبغي أن يُعْلَمَ: كما أنَّ مرضَ الظَّاهر موجبٌ للعسرة والتَّعب في أداء الأحكام الشَّرعيّة؛ كذلك مرضُ الباطن أيضاً مستلزمٌ لذلك، قال الله تبارك وتعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ [البقرة: ٤٥]، والمستلزمُ لذلك العسر في الظَّاهر ضعفُ القوى والجوارح، وفي الباطن ضعفُ اليقين ونقصُ الإيمان، وإلا؛ فليس في التَّكاليف الشَّرعيّة عسرٌ أصلاً، بل فيها كلّها تخفيفٌ وتمامُ اليُسْر والسهولة، وقولُه تعالى: ﴿يُرِيدُ اللّٰهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللّٰهُ اَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْۚ وَخُلِقَ الْاِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨] شاهدان عدلان لهذا المعنى: (شعر)

مَا ضَرَّ شَمْسَ الضُّحَى فِي الْأُفْقِ طَالِعَةً أَنْ لَا يَرَى ضَوْءَهَا مَنْ لَيْسَ ذَا بَصَرِ

فكان فكرُ إزالة هذا المرض لازماً، والالتجاءُ إلى الأطبّاء الحذّاق فرضاً، ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ اِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [النور: ٥٤] والسلام والإكرام.

المكتوب العشرون والمائتان

إلى الشَّيخ حَميدِ البَنْگاليِّ في بيانِ بعضِ أغلاطِ الصُّوفيّة، وبيانِ مَنشأِ غلطاتِهم.

الحمد لله رب العالمين، والصلاةُ والسلامُ على سيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين. اعلم أنَّ أحوالَ فقراء هذا الجانب وأوضاعَهم موجبةٌ لازدياد الشُّكْر يومًا فيوماً، ونتوقَّعُ ذلك في حق الأحباب النائين.

أيُّها العزيزُ، إنَّ مزلَّة أقدام السَّالكين في هذا الطَّريق الذي هو طريقُ غيب الغيب كثيرةٌ، ينبغي للسَّالك أن يعيش محافظاً على حبل الشَّريعة في الاعتقاديّات والعمليَّات، وهذا نصيحتي في الحضور والغيبة على فرض وقوع الغفلة، وها أنا أكتب بعض أغلاط هذا الطَّريق، وأعيِّنُ منشأ الغلط، ينبغي ملاحظته بنظر الاعتبار، ويعمل فيما وراء الجزئيات المذكورة بمقياسها.

اعلم أنَّ بعضاً من أغلاط الصوفيَّة: هو أنَّ السَّالكَ يجد نفسه أحياناً في مقامات العروج فوق قوم ثبتتْ أفضليَّتُهم عليه بإجماع العلماء، ومقامُه دون مقامات هؤلاء الأكابر في الحقيقة يقيناً، بل ربّما يكون هذا الاشتباهُ بالنِّسبة إلى الأنبياء عليهم السلام الذين هم أفضلُ الخلائق قطعاً، عياذاً بالله سبحانه من هذا الاشتباه.

ومنشأُ غلط هؤلاء الجماعة: هو أنَّ نهايةَ عروج الأنبياء والأولياء أوّلاً إلى أسماءٍ إلهيّةٍ هي مبادئُ تعيُّنات وجودهم، وبهذا العروج يتحقَّقُ اسمُ الولاية، ويستحقّه السَّالكُ، والعروجُ ثانياً في تلك الأسماء، ثم من تلك الأسماء إلى ما شاء الله تعالى، ولكن مأوى كلِّ واحدٍ منهم ومرجعُهم ومنزلُهم مع وجود هذا العروج هو ذلك الاسمُ الذي هو مبدأُ تعيّن وجوده، ولهذا إذا طلبهم سالكٌ في مقامات العروج يجدهم في تلك الأسماء، فإنَّ مكانَ هؤلاء الأكابر الطبيعيّ في مراتب العروج هو هذه الأسماءُ، والعروجُ والهبوطُ منها بواسطة العوارض، فالسَّالكُ العالي الفطرة إذا وقع سَيْرُه فوق الأسماء؛ لا جَرَمَ يترقّى على أعلى من الأسماء التي هي مبادئُ تعيّنات الأنبياء وسائر الأولياء الكبار، فحينئذٍ يظهر ذلك التَّوهُّمُ عياذاً بالله سبحانه من أن يُزِيلَ ذلك التَّوهُّمَ اليقينَ السَّابقَ، ويُورِثَ..............................

الاشتباهَ في أفضليّة الأنبياء عليهم السلام وأولويّة الأولياء ، وقد ثبت أفضليّتُهم وأولويَّتُهم بالإجماع، وهذا المقامُ من مزالّ أقدام السَّالكين، ولا يدري السَّالكُ في ذلك الوقت أنَّ هؤلاء الأكابرَ قد عرجوا من تلك الأسماء عروجاتٍ غير متناهيةٍ، وبلغوا محلّاً لا يمكن العروجُ فوقه، ولم يعرف أنّ تلك الأسماءَ أمكنتُهم الطبيعيَّةُ، وله أيضاً مكانٌ طبيعيٌّ هناك أدونُ من تلك الأسماء وأنزلُ، فإنَّ أفضليّةَ كلِّ شخصٍ باعتبار أقدميَّة الاسم الذي كان مبدأً لتعيّنه.

ومن هذا القبيل ما قال بعضُ المشائخ: إنَّ العارفَ لا يجد البرزخيَّةَ الكبرى حائلةً في مقامات العروج أحياناً، ويترقّى من غير وساطتها. قال حضرةُ شيخنا: إنَّ رابعة كانت من هذه الجماعة أيضاً، وهؤلاء الجماعةُ لَمّا تجاوزوا وقت العروج الاسمَ الذي هو مبدأُ تعيّن البرزخيّة الكبرى إلى ما فوقه؛ توهَّموا أنَّ البرزخيَّةَ الكبرى لم تَبْقَ حائلةً في البين، وأرادوا بالبرزخيَّة الكبرى: حقيقةَ خاتم الرسالة عليه وعلى آله الصلاة والسلامُ، وحقيقةُ المعاملة هي أنَّهم قد جاوزوها إلى ما فوقها.

ومنشأُ غلط طائفةٍ أخرى: هو أنَّ سيرَ السَّالك إذا وقع على اسمٍ هو مبدأُ تعيّنه، وذلك الاسمُ جامعٌ لجميع الأسماء على سبيل الإجمال؛ فإنَّ جامعيَّةَ الإنسان إنّما هي بسبب جامعيَّة ذلك الاسم، فبالضَّرورة يقطع في ضمن ذلك الاسم الأسماءَ التي كانت مبادئ تعيّنات مشائخ أخر بالسير الإجماليّ، ويتجاوز كلَّ واحدٍ منها حتى ينتهي سيرُه إلى منتهى ذلك الاسم، فيتوهَّمُ حينئذ تفوُّقَه إياهم، ولا يدري أنَّ ما يراه من مقامات المشائخ التي تعدَّاها إنّما هي أنموذجُ مقاماتهم لا حقيقتها، وحيث إنَّه وجد نفسه جامعاً، وظنَّ الآخرين أجزاءه؛ فلا جرم يُورِثُ ذلك توهُّمَ أولويَّته.

وقال شيخ بسطام في هذا المقام من غلبة السُّكر: لوائي أرفعُ من لواء محمد. ولم يدر أنَّ أرفعيَّةَ لوائه ليس هي بالنِّسبة إلى لواء محمد ﷺ، بل بالنِّسبة إلى أنموذجه الذي صار مشهوداً له في ضمن حقيقة اسمه.

ومن هذا القبيل ما قاله هو أيضاً مخبراً عن وسعة قلبه: إذا أُلقِيَ العرشُ وما فيه في زاوية قلب العارف لا يكون محسوساً أصلاً، وهنا أيضاً اشتباهُ الأنموذج بالحقيقة، وإلا؛ فالعرشُ الذي قال الحقُّ سبحانه في حقه: إنَّه عظيمٌ؛ أيُّ اعتبارٍ وأيُّ مقدارٍ لقلب العارف في جنبه؟ والظُّهورُ الذي في العرش ليس في القلب عُشْرُ عشيره، ولو كان ذلك القلبُ قلبَ عارفٍ.

والرؤيةُ الأخرويَّةُ تتحقّقُ بالظهور العرشيّ - يعني: تكون مثلَه -، وهذا الكلامُ وإن كان اليوم ثقيلاً على بعض الصوفيَّة، ولكنَّه يكون معلوماً لهم في الآخر.

ولنوضِّحْ هذا المبحث بمثالٍ، وهو: أنَّ الإنسانَ جامعٌ لِمَا في عالم العناصر والأفلاك، فإذا وقع نظرُه على جامعيَّة نفسه، ورأى العناصر والأفلاك أجزاءَ نفسه، وغلب عليه هذه الرُّؤيةُ؛ فلا يبعد أن يقول: إنّي أكبرُ من كرة الأرض، وأعظمُ من السّموات، ففي هذا الوقت يفهم العقلاءُ أكبريَّته وأعظميَّته بالنِّسبة إلى أجزاء نفسه، فإنَّ الكلّ أعظمُ من الجزء، وأُكَرُ الأرض والسّموات ليست من أجزائه في الحقيقة، بل جُعلتْ أنموذجاتُه أجزائَه، وأكبريَّتُه إنّما هي بالنَّظَر إلى تلك الأنموذجات التي هي أجزاؤه بالنَّظَر إلى أكر الأرض والسّموات، وبسبب هذا الاشتباه - يعني: اشتباهَ أنموذج شيء بحقيقته - قال صاحبُ «الفتوحات المكية»: إنَّ الجمعَ المحمديَّ أجمعُ من الجمع الإلهيّ، فإنَّ الجمعَ المحمديَّ مشتملٌ على الحقائق الكونيّة والإلهيّة، فيكون أجمعَ. ولم يَدْرِ أنَّ ذلك اشتمالُ ظلٍّ من ظلال مرتبة الألوهيَّة، وأنموذجٌ من أنموذجاتها، لا أنَّه مشتملٌ..

على حقيقة تلك المرتبة المقدسة، فإنَّه لا مقدار للجمع المحمديّ بالنِّسبة إلى تلك المرتبة المقدَّسة التي العظمةُ والكبرياءُ من لوازمها، ما للتراب ورب الأرباب.

وأيضـاً إنَّ في هذا المقام الذي يقع فيه سير السَّالك على اسم هو ربّه يظنُّ أحياناً أنَّ بعض الأكابر الذين هم أفضلُ منه يقيناً، قد وصلوا بتوسُّطه إلى بعض الدَّرجات الفوقانيَّة، وترقَّوا بتوسُّله، وهذا أيضـاً من مزالِّ أقدام السَّالكين عياذاً بالله سبحانه منه، حيث يرى نفسه أفضلَ بهذا الكمال، ويقع في الخسارة، وأيُّ عجبٍ وأيَّةُ فضيلةٍ إذا سار السُّلطانُ عظيم الشّأن تامّ البرهان تحت نصرة واحدٍ من وزرائه الذي هو تحت حكومته وطاعته، ووصل بتوسُّط ذلك الوزير إلى بعض المحلَّات، وفتح بتوسُّله بعضَ البلاد والمواضع؟

غَايةُ ما فِي البابِ: أنَّ هنا احتمال فضلٍ جزئيٍّ، وهو خارجٌ عن المبحث، فإنَّ كلَّ حَجَّامٍ وحائكٍ له فضلٌ من بعض وجوهٍ مخصوصٍ به على عالم ذي فنونٍ وحكيم حاذقٍ، ولكنَّ ذاك الفضلَ خارجٌ من حيّز الاعتبار، والمعتبرُ إنّما هو الفضلُ الكليُّ الذي هو ثابتٌ للعالِمِ والحكيم. وقد وقع لهذا الدَّرويش من هذه الاشتباهات كثيرٌ، ونشأ منها تخيُّلاتٌ كثيرةٌ، وكانت تلك الحالةُ فيه مدَّةً كثيرةً، ومع ذلك كان حفظُ الحقّ سبحانه شاملَ حاله، فلم يطرأْ على يقينه السَّابق مقدارُ شعرة من التَّذبذب، ولم يتطرَّق الفتورُ إلى الاعتقاد المجمع عليه، لله سبحانه المنةُ على ذلك وعلى جميع نعمائه. وما ظهر على خلاف المجمع عليه؛ أسقَطَهُ عن حيّز الاعتبار، وصرفَه إلى محامل حسنةٍ، وعَلِمَ بالعلم الإجماليّ هذا القدرَ أنَّ هذه الزّيادةَ المشهودةَ في الكشف تكون راجعةً – على تقدير صحَّته – إلى الفضل الجزئيّ، وإن تعارض ذلك وسوسةُ أنَّ مدارَ الفضل على القرب الإلهيّ جلَّ سلطانه، وهذه الزِّيادةُ من ذلك القرب، فكيف تكون فضلاً جزئيّاً؟ ولكن صارت هذه الوسوسةُ في جنب اليقين السابق هباءً منثوراً، ولم يَبْقَ لها اعتبارٌ أصلاً، بل التجأ إليه تعالى بالتوبة والاستغفار والإنابة والانكسار، ودعا له سبحانه بالتضرّع والابتهال؛ لئلا يظهر له مثلُ هذه الكشوف، وكيلا ينكشف له ما يخالِفُ معتقدات أهل السنة والجماعة مقدار شعرةٍ. وقد غلب يومـاً خوفُ المؤاخذة بهذه الكشوف والمسؤوليّة عن هذه التوهُّمات، وأزالت غلبةُ هذا الخوف عنّي القرارَ، وأورثتني القلقَ والاضطرارَ، فصار الالتجاءُ والتضرّعُ إلى جناب قدس الحقّ جلّ سلطانه أضعافاً مضاعفةً، وامتدَّتْ تلك الحالةُ إلى مدَّةٍ مديدةٍ، فاتَّفق في ذلك الوقت مروري على قبر واحد من الأعزَّة، فاستمددت به، واستعنتُ في هذه المعاملة، فأدركتني في تلك الأثناء عنايةُ الحقّ جلّ شأنه، وانكشفت حقيقةُ المعاملة كما ينبغي، وحضرتْ في ذلك الوقت روحانيَّةُ خاتم الرسالة عليه وعلى آله الصلاة والسلام الذي هو رحمةٌ للعالمين، فسَلِي الخاطرُ الحزينُ، وصار معلومـاً لي تشريف آن.

نَعَمْ، إنَّ القربَ الإلهيَّ موجبٌ للفضل الكليِّ، ولكنَّ هذا القربَ الذي حصل لك قربُ ظلّ من ظلال مراتب الألوهيّة مخصوصٍ باسم هو ربّك، فلا يكون ذلك القربُ موجباً للفضل الكليّ، وانكشفت صورةُ هذا المقام المثالية على نهجٍ لم يَبْقَ محلٌّ للرّيب، فزال التوهُّمُ بالكلية. وقد كتب هذا الدرويشُ في كتبه ورسائله بعض العلوم التي فيها محلُّ اشتباهٍ، وفيها مجالٌ للتَّأويل والتَّوجيه، فلما صرت مبشَّراً بذلك؛ أردت أن أكتب منشأَ أغلاط تلك العلوم على وفق ما لاح لي بمحض فضل الحقّ جل شأنه وأنشره، ....

فإنَّ الذنبَ المشتهرَ لا بُدَّ له من اشتهار التوبة لئلا يفهم الناسُ من تلك العلوم خلاف الشَّريعة، فيقعوا بالتَّقليد على الضَّلالة، وكيلا يسلكوا مسلكَ التَّضليل والتَّجهيل بالتَّعصُّب والتكلّف، فإنَّ أمثالَ هذه الأزهار تتفتَّقُ كثيراً في هذا الطَّريق الذي هو طريقُ غيب الغيب، فجماعةٌ تؤدِّيهم إلى الهداية، وطائفةٌ تؤدِّيهم إلى الضلالة، وقد سمعتُ والدي الماجد قدس سره يقول: إنَّ منشأ ضلالة أكثر المبتدعين من اثنين وسبعين فرقة، وخروجهم عن الصراط المستقيم: هو أنَّهم دخلوا في طريق الصوفيَّة، ولم يقفوا على حقيقة الأمر، ولم يُتِمُّوا السلوكَ، فغلطوا وضلُّوا. والسلام.

المَكتُوبُ الحَادِي وَالعِشْرُونَ وَالمِائَتَانِ

إلى السَّيِّد حسينِ المَانكپوري في خصائصِ الطَّريقَة النَّقشبَندِيَّة، وأفضليَّتها على سائِر الطُّرقِ، ومدحِ أهلِها، وما يُناسِبه.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وآله الطاهرين أجمعين.

لعلَّ الأخَ الأعزَّ معدن السّيادة المير حسين لم يَنْسَ النَّائين المهجورين، وعساه لم يضيِّعْ رعايةَ آداب هذه الطَّريقة العليّة التي هي ممتازةٌ من بين سائر طُرُق المشائخ الكرام من وجوهٍ، وقد كان مدَّةُ ملاقاتكم وفرصةُ صحبتكم قليلةً جدّاً، فبناءً على ذلك أردتُ أن أحرّرَ بعضَ خصائص هذه الطَّريقة العليّة وكمالاتها في ضمن علومٍ عاليةٍ، ومعارفَ ساميةٍ، وإن كنت أعلمُ أنَّ إدراكَ هذا القسم من العلوم والمعارف بالفعل بعيدٌ عن أذهان المستمعين، ولكنَّ إظهارَ أمثالُ هذه المعارف مبنيٌّ على ملاحظة أمرين: أحدهما: إنَّ في المستمعين استعداداً لهذه العلوم وإن ترى بعيدةً عن شأنهم بالفعل. وثانيتهما: إنَّ المخاطبَ وإن كان واحداً معيناً في الظَّاهر، ولكنَّ المخاطب في الحقيقة شخصٌ هو محرمٌ لهذه المعاملة، (السَّيفُ للضارب) مَثَلٌ مشهورٌ.

أيُّها الأخُ، إنَّ رأسَ سلسلة هذه الطَّريقة السَنِيّة ورئيسَ أهلها: هو الصديقُ الأكبرُ ﷺ الذي هو أفضلُ جميع بني آدم بعد الأنبياء عليهم السلام على التَّحقيق، وبهذا الاعتبار وقع في عبارة أكابر هذه الطَّريقة: إنَّ نسبَتَنا فوق جميع النِّسَب، فإنَّ نسبَتَهم التي هي عبارةٌ عن الحضور والشعور الخاصّ هي بعينها نسبةُ الصديق وحضورُه الذي فوق جميع الحضور، وفي هذا الطَّريق اندراجُ النهاية في البداية، قال الخواجه بهاء الدين النقشبند قدس سره: نحن نُدْرِجُ النِّهايةَ في البداية:

(ع) وَقِسْ مِنْ حَالِ بُسْتَانِي رَبِيعِي

فإن قيل: إذا كانت نهايةُ غيرهم مندرجةً في نهايتهم، فما تكون نهايَتُهم؟ وأيضاً إذا كانت نهايةُ غيرهم الوصولَ إلى الحقّ سبحانه؛ فإلى أين يكون سيرُهم من الحقّ؟ (ليس وراء عَبادان قريةٌ) مثلٌ مشهورٌ.

أجيب: إنَّ نهايةَ هذه الطَّريقة إن تيسّرت: هي الوصلُ العريانُ الذي علامةُ حصوله حصولُ اليأس من حصول المطلوب، فافهم، فإنَّ كلامَنا إشارةٌ لا يدركها إلا الأقلُّ من الخواصّ، بل من أخصّ الخواصّ، وإنَّما ذكرنا علامةَ حصول تلك الدَّولة العظمى، فإنَّ جمعاً من هذه الطَّائفة باحوا بالوصل العريان، وطائفةً أخرى قالوا باليأس من حصول المطلوب، وأذعنوا بالحرمان، ولكن إذا عرض عليهم الجمعُ بين هاتين الدولتين؛ يكادون يظنُّونه جمعاً بين الضِّدَّين، ويعدُّونه من المحالات، والذين يدَّعون الوصلَ يرون اليأس حرماناً، والذين يدَّعون اليأسَ يظنون الوصلَ عينَ الفصل، وهذا كلُّه علامةُ عدم الوصول إلى تلك المنزلة العليا.

غَايَةُ ما فِي البابِ: إنَّه قد أشرق..

https://t.me/kutubumufidatun

على بواطنهم شعاعٌ من ذاك المقام العالي، فظنَّه جمعٌ وصلاً، وجمعٌ آخر يأساً، وهذا التفاوتُ نشأ من جهة استعداد كلٍّ منهم، فإنَّ المناسبَ لاستعداد طائفةٍ وصلٌ، والموافقَ لاستعداد طائفةٍ أخرى يأسٌ، واستعدادُ اليأس أحسنُ عند الفقير من استعداد الوصل، وإن كان كلٌّ من الوصل واليأس هناك ملازماً للآخر.

وجوابُ الاعتراض الثّاني أيضاً صار لائحاً من هذا الجواب، فإنَّ الوصلَ المطلقَ غيرُ الوصل العريان، شتّان ما بينهما، ونعني بالوصل العريان: رفعَ الحجب كلّها، وزوالَ الموانع بأسرها، ولَمّا كان أعظم الحجب وأقواها هي التجلِّيات المتنوعة والظهورات المختلفة لا بُدَّ من أن تنقضي وتتمَّمَ تلك التجلِّيات والظهورات بتمامها، سواءٌ كان التجلِّي والظهورُ في المرايا الإمكانيَّة أو المجالي الوجوبيَّة، فإنَّهما في حصول الحجب بهما سيان، وإن كان بينهما تفاوتٌ بالشرف والرتبة، فإنَّه خارج من نظر الطالب.

فإن قيل: يلزم من هذا البيان أن يكون للتجلِّيات نهايةٌ، وقد صرَّح المشائخُ بأنَّه لا نهايةَ للتجلِّيات.

أجيب: أنَّ عدمَ نهاية التجلِّيات إنّما هو على تقدير وقوع السَّير في الأسماء والصِّفات بالتَّفصيل، وعلى هذا التَّقدير لا يتيسّرُ الوصولُ إلى حضرة الذات تعالت وتقدست، ولا يحصلُ الوصلُ العريانُ، فإنَّ الوصولَ إلى حضرة الذات تعالت وتقدست منوطٌ بطيِّ الأسماء والصِّفات على سبيل الإجمال، فتكون إذاً للتجلِّيات نهايةٌ.

فإن قيل: قد قيل بعدم نهاية التجلِّيات الذاتيّة أيضاً كما صرَّح به مولانا العارفُ الجامي في «شرح اللمعات»، فكيف يستقيم القولُ بنهاية التجلِّيات؟

أجيب: أنَّ تلك التجلِّيات الذاتيّةَ ليست بلا ملاحظة الشؤون والاعتبارات أيضاً، فإنَّ التجلِّي لا يمكن بدون ملاحظتها، وما نحن في صدد بيانه أمرٌ يكون فيما وراء التجلِّيات، صفاتيّةً كانت تلك التجلِّياتُ أو ذاتيّةً، فإنَّ إطلاقَ التجلِّي غيرُ جائزٍ في ذلك الموطن، أيَّ تجلٍّ كان؛ لأنَّ التجلِّي عبارةٌ عن ظهور شيءٍ في مرتبة ثانيةٍ أو ثالثةٍ أو رابعةٍ إلى ما شاء الله تعالى، وقد سقطت المراتبُ هنا بأسرها وطويت المسافةُ بتمامها.

فإن قيل: فبأيِّ اعتبارٍ قيل لتلك التجلِّيات: ذاتيّةٌ؟

أجيب: أنَّ التجلِّيات إن كانت بملاحظة معانٍ زائدةٍ - يعني: على الذات -؛ فهي التجلِّياتُ الصِّفاتيةُ، وإن كانت بملاحظة معانٍ غير زائدةٍ؛ فهي التجلِّياتُ الذاتيّةُ، ولهذا قيل لمرتبة الوحدة التي هي التعيّنُ الأوّل وليست بزائدةٍ على الذات: تجلِّيا ذاتيّا، ومطلبُنا حضرةُ الذات تعالت وتقدست، ولا مجال لملاحظة المعاني في ذلك الموطن أصلاً، سواءٌ كانت المعاني زائدةً أو لا، فإنَّ المعاني قد طويت بالكليَّة بطريق الإجمال، وتيسّر الوصلُ إلى حضرة الذات المقدسة المتعال. ينبغي أن يعلم أنَّ الوصلَ في ذلك الموطن منزَّهٌ عن الكيف والمثال، كالمطلب والاتِّصال الذي يدركه العقلُ ويفهمه خارجٌ عن المبحث، وغيرُ لائقٍ بذلك الجناب المقدس، فإنَّه لا سبيلَ للمثالي إلى المنزَّه عن المثال، لا يحمل عطايا الملك إلا مطاياه، قال في «المثنوي»:

إِنَّ لِـلـرَّحْـمَـنِ مَـعَ أَرْوَاحِ نَـاسٍ اتِّصَـــالاً دُونَ كَـيْـفٍ أَوْ قِـيَـاسِ

ولم يخبر أحدٌ من مشائخ هذه الطَّريقة العليّة عن نهاية طريقه، وقد أخبروا عن ابتداء طريقهم، حيث قالوا: إنَّ فيه اندراجَ النهاية في البداية، فإذا كانت بدايَتُهم ممتزجةً بالنهاية؛ فنهايَتُهم أيضاً ينبغي أن تكون مناسبةً لبدايتهم، وتلك النِّهايةُ هي ما امتاز الفقيرُ بإظهارها: (شعر)

فَـإِذَا أَتَـى بَـابَ الْـعَـجُـوزِ خَـلِـيـفَـةٌ إِيَّـاكَ يَـا صَـاحِ وَنَـتْـفَ سِـبَـالِـكَـا

لله سبحانه وتعالى الحمدُ والمنّةُ على ذلك، أيُّها الأخُ، إنَّ الواصلين إلى هذه النِّهاية من أرباب هذا الطَّريق الذين هم أقلُّ من القليل بالنِّسبة إلى أصحاب طرقٍ أُخَرَ لو عددتَ أفرادهم يكاد المقربُّون يطلبون التَّباعد، ويستبعده المبعدون بالإنكار والتّعاند، وأيُّ استبعادٍ هناك، فإنَّ كلَّ ذلك لكمال الوصول إلى نهاية النِّهاية بتفضُّل حبيبه عليه الصلاة والسلام.

ومن جملة خصائص هذه الطَّريقة العليّة: السَّفَرُ في الوطن الذي هو عبارةٌ عن السَّير الأنفسيّ، والسيرُ الأنفسيُّ وإن كان ثابتـاً في طريق جميع المشائخ، ولكنَّه يتيسّرُ في طريقهم في النِّهاية بعد قطع السَّير الآفاقيّ، بخلاف هذا الطَّريق، فإنَّ الابتداءَ فيه من هذا السَّير، والسَّيرُ الآفاقيُّ إنّما يقطع في ضمنه، ومنشأُ حصول هذا السَّير في الابتداء: هو اندراجُ النِّهاية في البداية.

وخاصَّةٌ أخرى لهذا الطَّريق: الخلوةُ في الجلوة التي هي متفرِّعةٌ على تيسّر السَّفر في الوطن، فيسافر في بيت الخلوة الوطنِيِّ في عين تفرقة الخلوة، ولا يتطرَّقُ تفرقةُ الآفاق إلى حجرة الأنفس، وهذه الخلوةُ وإن كانت متيسّرةً لمنتهى طرقٍ أخر، ولكن لَمّا تيسّرَ في هذا الطَّريق في الابتداء؛ صارتْ من خواصّ هذا الطَّريق. وينبغي أن يعلم أنَّ الخلوةَ في الجلوة إنّما هي على تقدير غلق أبواب بيت الخلوة الوطنِيِّ، وسدّ طاقاته، يعني: لا يلتفت في تفرقة الجلوة إلى أحدٍ، ولا يكون مخاطباً فيها ولا متكلّماً، لا أنَّه يغمض عينيه ويعطِّل بالتكلّف حواسّه، فإنَّ ذلك منافٍ لهذا الطَّريق.

أيُّها الأخُ، إنَّ كلَّ هذا التمحُّل والتكلّف إنّما هو في الابتداء والوسط، وأما في الانتهاء؛ فلا شيءَ يلزم فيه من هذه التمحُّلات، بل فيه جمعيَّةٌ في عين التَّفرقة، وحضورٌ في نفس الغفلة، ولا يتوهَّم أحدٌ من هذا أنَّ التَّفرقةَ وعدمَ التفرقة متساويتان في حقِّ المنتهي مطلقـاً، فإنَّ الأمرَ ليس كذلك، بل المراد: أنَّ التفرقةَ وعدمَ التَّفرقة متساويتان في حصول نفس جمعيَّة الباطن، ومع ذلك لو جمع الظَّاهرَ مع الباطن ودفعت التفرقةُ أيضـاً عن الظَّاهر؛ لكان أولى وأنسبُ، قال الله سبحانه إرشاداً لنبيه ﷺ: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ [المزمل: ٨].

ينبغي أن يعلم: أنَّه لا يكون في بعض الأوقات بُدٌّ من تفرقة الظَّاهر لتؤدّى حقوقُ الخلق، فصارتْ تفرقةُ الظَّاهر مستحسنةً أيضـاً في بعض الأوقات، وأما تفرقةُ الباطن؛ فليستْ بجائزةٍ في وقتٍ من الأوقات أصلاً، فإنَّه خالصٌ للحق سبحانه، فكانت ثلاثةُ حصصٍ من العباد المسلمين للحقّ سبحانه: تمام الباطن، ونصف الظَّاهر، والنصفُ الثّاني منه بقي لأداء حقوق الخلق، ولكن لَمّا كان في أداء تلك الحقوق امتثالَ أوامر الحقّ سبحانه؛ كان ذلك النِّصفُ الآخر أيضـاً راجعـاً إلى الحقّ سبحانه: ﴿إِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣]. وفي هذا الطَّريق تقدُّم الجذبة على السلوك، وابتداءُ السَّير من عالم الأمر، لا من عالم الخلق، بخلاف أكثر طُرُقٍ أخَرَ، وقطعُ منازل السُّلوك مندرجٌ فيه في ضمن طيِّ معارج الجذبة، وسيرُ عالم الخلق ميسَّرٌ في ضمن سير عالم الأمر، فبهذا الاعتبار لو قيل: إنَّ في هذا الطَّريق اندراجَ النهاية في البداية لساغ، فعلم من البيان السَّابق آنفـاً أنَّ سيرَ[١] الابتداء مندرجٌ في هذا الطَّريق في سير الانتهاء، لا أنَّهم ينزلون من سير الابتداء إلى سير الانتهاء، ويسيرون في البداية بعد تمام سير النِّهاية، فبطل زعمُ من قال: إنَّ نهايةَ هذا الطَّريق بدايةَ طُرُق سائر المشائخ.

فإن قيل: قد وقع في عبارة بعض مشائخ هذه الطَّريقة: إنَّ سَيْرَهم في الأسماء والصِّفات يقع بعد تمام نسبتهم، فصحَّ أنَّ نهايَتَهم..

(١) أي: السَّير الذي يقع في الابتداء في سائر الطرق ـ وهو سيرُ عالم الخلق ـ مندرجٌ في سير الانتهاء في تلك الطرق، وهو سير عالم الأمر، فلا يلزم المحذورُ المذكورُ. (المعرِّب)

بدايةَ غيرهم، فإنَّ السَّيرَ في الأسماء والصِّفات في الابتداء بالنِّسبة إلى السَّير في التجلِّيات الذاتيّة.

أجيب: أنَّ السَّيرَ في الأسماء والصِّفات ليس هو بعد السَّير في التجلِّيات الذاتيّة، بل يقع ذاك السَّيرُ - يعني: السَّيرَ في الأسماء والصِّفات - في ضمن هذا السَّير - يعني: السَّيرَ في التجلِّيات الذاتيّة -.

غَايةُ ما فِي البابِ: أنَّ السَّيرَ الأسمائيّ والصِّفاتِي كلَّما ظهر بسبب عروض بعض العوارض؛ يستتر سير التجلِّيات الذاتيّة، ويتخيَّل أنَّه قد تَمَّ وشرع في التجلِّيات الأسمائيَّة والصِّفاتيَّة، وليس كذلك. نعم، قد يقع الرجوعُ إلى العالم بعد تمام السَّير في مدارج الولاية لدعوة الخلق إلى الحقّ جل وعلا، فإن زَعَمَ ذلك الرّجوعَ نهايَتَهم، وتخيَّلَه بدايتَه؛ فليس ذلك ببعيدٍ، ولكنَّه ما يقول في مشائخه، فإنَّ لهم أيضـًا هذا الرُّجوعَ في النهاية.

وأيضـًا إنَّ المراد بالبداية والنهاية: بدايةُ الولاية ونهايتُها، وسيرُ هذا الرجوع لا تعلُّقَ له بالولاية، بل هو نصيبٌ من مرتبة الدَّعوة والتَّبليغ، وهذا الطَّريق أقربُ الطرق وموصلٌ ألبتّة.

قال الخواجه بهاء الدين النقشبند قدس سره: إنَّ طريقَنا أقربُ الطُّرُق، وقال: سألت الحق سبحانه طريقـًا يكون موصلاً ألبتة، وصار سؤاله هذا مقرونـًا بالإجابة كما نقله في «الرشحات» عن الخواجه أحرار قدس سره، وكيف لا يكون أقرب وموصلاً وقد اندرج الانتهاءُ في ابتدائه؟ فيا شقاوة من يدخل في هذا الطَّريق، ثم لا يقدر على الاستقامة عليه، ويبقى بلا نصيبٍ منه: (شعر)

مَا ضَرَّ شَمْسَ الضُّحَى فِي الْأُفْقِ طَالِعَةً أَنْ لَا يَرَى ضَـوْءَها مَنْ لَيْسَ ذَا بَصَـرِ

نعم، إذا وقع الطالبُ في يد النَّاقص؛ فما ذنب الطَّريق؟ وما تقصيرُ الطالب؟ فإنَّ الموصلَ في الحقيقة دليلُ هذا الطَّريق، لا نفسُ هذا الطَّريق، وفي ابتداء هذا الطَّريق حلاوةٌ ووجدانٌ، وفي انتهائه مرارةٌ وفقدانٌ، وهو من لوازم اليأس، بخلاف طرقٍ أخر، فإنَّ في ابتدائها مرارةً وفقدانـًا، وفي انتهائها حلاوةً ووجدانـًا.

وأيضـًا في ابتداء هذا الطَّريق قربٌ وشهودٌ، وفي انتهائه بُعْدٌ وحرمانٌ، بخلاف طُرُق سائر المشائخ الكرام، ينبغي أن يقيس تفاوُتَ الطُّرُق من هنا، وأن يعرف علوَّ هذا الطَّريق العالي؛ لأنَّ القربَ والشُّهودَ والحلاوةَ والوجدانَ كلُّ ذلك يُخبِرُ عن البُعْد والحرمان، بخلاف المرارة والفقدان، فإنَّهما يُنْبآن عن نهاية القرب، فَهِمَ من فهم.

ولنكشف في شرح هذا السرّ هذا القدرَ: وهو أنَّه لا أقربَ إلى أحدٍ من نفسه، ونسبةُ القرب والشُّهود والحلاوة والوجدان مفقودةٌ في حقّ نفسه، وهي موجودةٌ في حقّ غيره، مع أنَّ بينهما مباينةً، والعاقلُ تكفيه الإشارةُ، وأكابر هذه الطَّريقة العليّة جعلوا الأحوالَ والمواجيدَ تابعةً للأحكام الشَّرعيّة، واعتقدوا أنَّ الأذواقَ والمعارفَ خادمةٌ للعلوم، لا يعوِّضون الجواهرَ النَّفيسةَ الشَّرعيّة بجَوْز الوجد وموز الحال مثل الأطفال، ولا يغترُّون بتُرَّهات الصوفيَّة، ولا يقبلون الأحوالَ التي تحصل بارتكاب المحظورات الشَّرعيّة، وخلافِ السنَّة السَنيّة، ولا يريدون. ولهذا لا يجوِّزُون السماعَ والرقصَ، ولا يُقْبلون على ذكر الجهر، حالُهم على الدَّوام، ووقتُهم مستمرٌّ، ومستدام التجلِّي الذاتيّ الذي هو كالبرق لغيرهم دائميٌّ في حقّهم، والحضورُ الذي في قفاه غيبة سَاقِطٌ عن حيز الاعتبار عند هؤلاء الأكابر، بل معاملتُهم فوق الحضور والتجلِّي كما مرّت الإشارةُ إليها.

قال حضرة الخواجه أحرار قدس سره: إنَّ أكابرَ هذه السِّلسلة العليّة لا يقاسون على كلِّ زرّاق ورقاصٍ، فإنَّ معاملتَهم ونسبتَهم

عاليةٌ جداً، والمشيخةُ والمريديّةُ في هذا الطَّريق بتعليم الطَّريقة وتعلُّمها، لا بالكلأ والشّجرة، كما أنَّ ذلك صار رسماً في طُرُق أكثر المشائخ، حتى إنَّ متأخِّريهم جعلوا المشيخةَ والمريديّةَ منحصرةً في الكلأ والشجرة.

ومن ههنا لا يجوِّزُون تعدُّدَ الشَّيخ، ويسمُّون معلِّم الطَّريقة: مرشداً لا شيخاً، ولا يراعون آدابَ المشائخ معه حقَّ رعايتها، وهذا من كمال جهالتهم ونقصان عقولهم، أولا يعلمون أنَّ مشائخهم قالوا لشيخ التَّعليم وشيخ الصحبة أيضاً شيخاً؟ وجوَّزوا تعدُّدَ الشيخ، بل قالوا: إذا رأى الطَّالبُ رشدَه في محلٍّ آخر؛ جاز له أن يختار شيخاً آخر ولو في حياة شيخه الأوّل بلا إنكارٍ عليه.

وقد أخذ الخواجه النقشبند فتوى صحيحاً من علماء بخارى في تجويز هذا المعنى.

نعم، إذا لبس من شيخٍ خرقةَ الإرادة لا يلبسها من غيره، وأما خرقةُ التبرُّك؛ فلا مانعَ من لبسها، ولا يلزم من ذلك أن لا يتَّخذ شيخاً آخرَ أصلاً، بل يجوز أن يلبس خرقةَ الإرادة من شيخٍ وأن يتعلَّم الطَّريقة من آخرَ، وأن يصحبَ ثالثاً، ولكن إن تيسّرت هذه الدولُ الثلاثُ من واحدٍ؛ فهي نعمةٌ عظيمةٌ، ويجوز أن يستفيد التَّعليمَ من مشائخ متعدّدةٍ، وكذلك له أن يصحب مشائخ متعدّدة، وينبغي أن يعلم أنَّ الشيخَ هو من يُرِي المريدَ طريقَ الحقّ سبحانه وتعالى، وهذا المعنى ملحوظٌ وموجودٌ في تعليم الطَّريقة، بل أزيدُ وأوضح، وشيخُ التَّعليم هو أستاذُ الشَّريعة ودليلُ الطَّريقة أيضاً، بخلاف شيخ الخرقة.

فينبغي إذاً رعايةُ آداب شيخ التَّعليم حقَّ رعايتها، وأن يكون هو أحقَّ باسم الشيخوخة.

والرياضاتُ والمجاهداتُ في هذا الطَّريق إنّما هي بإتيان الأحكام الشَّرعيّة، والتزام متابعة السنّة السَنِيّة على صاحبها الصلاة والسلام والتحية، فإنَّ المقصودَ من إرسال الرسل وإنزال الكتب: رفعُ أهواء النَّفس الأمَّارة التي انتصبتْ لمعاداة مولاها جلّ سلطانه، فصار رفعُ أهواء النَّفس مربوطاً بإتيان الأحكام الشَّرعيّة، وكلُّ من كان أرسخَ في إتيان الأحكام الشَّرعيّة؛ يكون أبعدَ عن هواء النَّفس الشَّقيَّة، فإذاً لا يكون شيءٌ أشقَّ على النَّفس الأمَّارة من امتثال الأوامر الشَّرعيّة، واجتناب مناهيها، ولا يُتصوَّرُ انكسارٌ بدون تقليد صاحب الشَّريعة، وما يختارون من الرياضات والمجاهدات وراء تقليد السنَّة؛ فليست هي بمعتبرةٍ، فإنَّ جوكية الهنود وبراهمهم وفلاسفةَ اليونان شركاءُ في ذلك الأمر، ولا تزيدُ الرِّياضاتُ في حقِّهم شيئاً غيرَ الضلالة والخسارة، وتسليكُ الطالب في هذا الطَّريق مربوطٌ بتصرُّف الشيخ المقتدى به، لا يفتح الأمرَ بدون تصرُّفه، فإنَّ اندراجَ النِّهاية في البداية أثرٌ من آثار توجّهه الشَّريف، وحصولُ المعنى المنزَّه عن الكيف والمثال نتيجةُ كمال تصرُّفه المنيف، وكيفيَّةُ الغيبة والذُّهول التي اعتبروها طريقاً مخفياً ليس حصولُها في اختيار المبتدئ، والتوجّهُ العاري عن الجهات الست ليس وجوده في حوصلة الطالب: (شعر)

مَا أَحْسَنَ النَّقْشَبَنْدِيِّينَ سِيرَتَهُمْ   يَمْشُونَ بِالرَّكْبِ مَخْفِيِّينَ لِلْحَرَمِ

وكما أنَّ في هؤلاء الأكابر قدرةً كاملةً على إعطاء النِّسبة، حيث إنَّهم يمنحون الطالبَ الصادقَ بالحضور والشعور في مدّةٍ قليلةٍ؛ كذلك فيهم قدرةٌ تامَّةٌ على سلب تلك النِّسبة، فهم يجعلون صاحبَ النِّسبة مفلساً بتركِ أدبٍ واحدٍ.

نعم، إنَّ الذين يعطون يأخذون، أعاذنا الله سبحانه من غضبه ومن غضب أوليائه. وأكثرُ الإفادة والاستفادة في هذا الطَّريق بالسُّكوت، وقالوا: من لم ينتفع بسكوتنا كيف ينتفع بكلامنا؟ وهذا السُّكوتُ لم يختاروه بالتكلّف، بل هو من لوازم طريقهم، فإنَّ

ابتداءَ توجّه هؤلاء الأكابر إلى الأحديَّة المجرَّدة، لا يريدون بالاسم والصِّفة غيرَ الذَّات، ومعلومٌ أنَّ المناسبَ والملائمَ لهذا المقام هو السُّكوتُ والخرسُ، (من عَرَفَ اللهَ كَلَّ لِسَانُهُ) ومصداقٌ لهذا الكلام. ولنختم هذه المقالةَ بحمد الله سبحانه، وبصلاة حبيبه: الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وآله الطاهرين أجمعين. والسلام.

المَكْتُوبُ الثَّانِي وَالعِشْرُونَ وَالمِائَتَانِ

إلى الخواجه محمَّدٍ أشرف الكَابُليِّ في بيانِ سوءِ الأحوالِ، ورُؤيَة القصورِ في الأعمالِ، واتِّهامِ النِّيَّاتِ في الحسناتِ، وما يناسِبه.

اللهم وفقنا لمرضاتك، وثبتنا على طاعتك، بحرمة سيد المرسلين عليه وعلى آله الصلاة والسلام.

قال واحدٌ من الكبراء: إنَّ المريدَ الصَّادقَ من لا يكتب عليه كاتبُ شمالِه شيئاً مدَّةَ عشرين سنةً، وهذا الفقيرُ المملوءُ بالتَّقصير يجد نفسَه بالذَّوق والوجدان بحيث لا يدري أنَّ كاتبَ يمينه وجد له حسنةً يُدْرِجُها في صحيفة أعماله منذ عشرين سنةً، علم الله سبحانه أنَّه لا يقول هذا الكلامَ بالتَّصنُّع، ويجد بالذَّوق أيضاً أنَّ كفارَ الإفرنج أفضلُ منه بمراتب، فإن سُئِلَ عن لِمِّيَّته؛ لا يعجز عن الجواب، ويرى نفسه أيضاً بطريق الذَّوق محاطاً بالخطيئات، ومشمولاً بالسّيِّئات، وما وُجِدَ فيه من الحسنات؛ يرى أنَّ كاتبَ شماله أحقُّ بكتابته، ويرى أنَّ كاتبَ شماله مشغولٌ أبداً، وكاتبَ يمينه معطَّلٌ وفارغٌ سرمداً، ويعلم أنَّ صحيفةَ يمينه خاليةٌ، وصحيفةَ شماله مملوءةٌ، لا رجاءَ له سوى الرَّحمة، ولا مُمِدَّ له سوى المغفرة. دعاءُ: «**اللَّهُمَّ مَغْفِرَتُكَ أَوْسَعُ مِنْ ذُنُوبِي، وَرَحْمَتُكَ أَرْجَى عِنْدِي مِنْ عَمَلِي**»[1] موافق حاله. والعجبُ أنَّ الفيوضاتِ الإلهيّةَ والوارداتِ الرحمانيَّةَ فائضةٌ على الدَّوام في مدارج الكمال والتَّكميل، وتلك الوارداتُ تؤيِّدُ رؤيةَ القصور المذكورة، وتقوِّي مشاهدةَ العيوب المسطورة، وتزيد مكانَ العجب منقصةً، ومحلَّ التَّرفُّع تواضعاً وتنزُّلاً، ففي آنٍ واحدٍ مشرَّفٌ بكمالات الولاية، وفي ذلك الآن متَّصفٌ أيضاً برؤية القصور والنقصان، وكلَّما يعرج ويتفوّقُ يرى نفسه أسفلَ، بل يكون عروجُه وتفوُّقُه سبباً لرؤية تنزُّله وتسفُّله، يصدِّقُ الظُّرفاءُ ذلك أم لا، فإن اطلعوا على سرّه؛ فلعلهم يصدقون.

فإن قيل: ما سرُّ اجتماع هذين المتنافيين؟ وكيف يكون وجودُ أحد المتنافيين سبباً لوجود الآخر؟

الجوابُ: أنَّ استحالةَ اجتماع المتنافيين مشروطةٌ باتِّحاد المحل، وفيما نحن فيه المحلُّ متعدِّدٌ، فإنَّ الذَّاهبَ إلى فوق لطائفُ عالم الأمر من الإنسان الكامل، والنَّازل إلى تحت لطائفُ عالم الخلق منه، فإنَّه كلَّما يذهب عالمُ الأمر إلى فوق؛ يكون مناسبتُه لعالم الخلق أقلَّ وأنقصَ، وتقلُّل تلك المناسبة وتنقُّصُها يكون سبباً لتنزُّل عالم الخلق، وكلَّما يتنزَّلُ عالمُ الخلق ويتسفَّلُ؛ يجعل السَّالكَ فاقدَ الحلاوة، ويزيدُه رؤيةَ العيوب والنَّقائص، ولهذا يتمنَّى المنتهون الالتذاذَ الذي كان ميسَّراً لهم في الابتداء، ثم زال عنهم في الانتهاء، وعرض مكانَه فقدانُ الالتذاذ وعدمُ الحلاوة، ولهذا أيضاً يرى العارفُ أنَّ كفّار الإفرنج أفضلُ منه؛ لأنَّ في الكافر نورانيَّةً بسبب امتزاج عالَمِ الأمر فيه بعالم الخلق، وهذا الامتزاجُ مفقودٌ في العارف، بل بَقِيَ فيه عالَمُ الخلق الذي يقع لفظ (أنا) من العارف عليه وحده، وهو مملوءٌ من ظلمةٍ وكدورةٍ من الرَّأس إلى القدم، ولطائفُ عالم الأمر منه وإن نزلت إلى تحت بطريق الرُّجوع، لكن لا يكون لها اختلاطٌ وامتزاجٌ بعالم الخلق كما كان ذلك بينهما في الابتداء.

ووصل المكتوبُ المرسلُ صحبةَ أخي الخواجه محمد طاهر، وحصولُ الرَّابطة التي هي مبنيَّةٌ على المناسبة التَّامَّة في زمان

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (١٩٩٤) من حديث جابر ﷺ مرفوعاً.

الغيبة ينبغي أن تَعُدَّها من نِعَمٍ عظيمةٍ، وليُكْتَفَ بقرب القلوب إلى أن ترتفع الموانعُ، ومع وجود هذا القرب ينبغي أن لا يخرج تمنّي قرب الأبدان من القلب، فإنَّ تمامَ النِّعمة مربوطٌ بهذا القرب، ألا ترى أنَّ أويساً القرني - مع وجود قرب القلوب فيه - لم يبلغ مرتبةَ أدنى الجماعة التي حصلت لهم قربُ الأبدان؛ لعدم حصول ذلك له؟ ولهذا لا يساوي إنفاق جبلِ ذهبٍ منه إنفاقَ مُدِّ شعيرٍ منهم، فلا تعدل بالصُّحبة شيئاً كائناً ما كان. والسلام.

المكتوب الثالث والعشرون والمائتان

إلى الخواجه جمالِ الدِّين حسينِ الكولابيِّ في التَّحريضِ على إظهارِ الأحوالِ لشَيخِه.

لم يخبر الأخ الخواجه جمال الدين حسين منذ مدّةٍ عن كيفيَّات أحواله، ألم يسمع أنَّ مشائخ الكبرويَّةَ إذا لم يَعْرِض المريدُ على شيخه أحواله إلى ثلاثة أيامٍ يؤدِّبونه؟ مضى ما مضى فلا يفعل ثانياً كذلك، بل ليكتب كلَّما يظهرُ، وليغتنم قدومَ الأخ الأعزّ، وليجتهد في الخدمة واستمالة خاطره، وليعتقد أنَّ صحبته شيءٌ عزيزٌ:

دَلَلْتُكَ يَا هَـذَا عَلَى كَنْزِ مَقْصِـدِ

المكتوب الرابع والعشرون والمائتان

إلى المِير محمَّدٍ نعمانَ البَدَخْشِيِّ في بيانِ رعايَةِ الآدابِ، ودفعِ التَّوهُّم، والأمرِ بالاحتياطِ في تعليمِ الطَّريقةِ، والتَّحمُّل على شدائدِ الفقرِ، وبعضِ النَّصائحِ والتَّنبيهاتِ المكتوبةِ إلى يار محمَّدٍ القديمِ في ظهرِ هذا المكتوبِ.

وصل مكتوب الأخ الأرشد المير محمد نعمان، واتَّضح مضمونُ المقدَّمات التي رتَّبها، وفحوى التشكيكات التي أظهرها، يقول بعضُ الناس في حقكم: إنَّه أعقلُ أهل زمانه، وما معنى إيراد أمثال هذه الكلمات بينك وبين من لا بُدَّ منه ولا مهربَ عنه، ولا تقدرُ على مقاطعته، ولا يمكنك طلبُ مفارقته؟ وأيُّ مناسبةٍ في ذلك؟ ومع ذلك لا يخيَّلُ لك وصولُ غبارٍ من أمثال هذه الكلمات إلى خاطر هذا الجانب حتى يؤدّي إلى الإيذاء والتأذّي، فضلاً عن أن ينجرَّ الأمرُ إلى التبرّي، فإنَّ محاسنكم منصوبةٌ لدى الأنظار، وزلَّاتكم ساقطةٌ عن حيِّز الاعتبار، فلا تشوِّشْ خاطركَ أصلاً، ولا تتصوَّرْ حصولَ الأذيَّة إلى هذا الجانب قطعاً، فإنَّ الأذيَّةَ غيرُ واقعةٍ بوجهٍ من الوجوه، وكيف تتصوَّرُ الأذيَّةُ مع انتفاء موجب الأذيّة؟ والأمورُ التي تظهر بالسهو والنِّسيان بمقتضى البشريَّة ليست بلائقةٍ للمؤاخذة بها، فأزح توهُّمَ التأذي عن لوح الخاطر، وكن مشغولاً بتعليم الطَّريقة، وإفادة الطلبة من الأكابر والأصاغر، والأمرُ بالاستخارة إنَّما هو لتأكيد هذا الأمر لا لنفيه، فإنَّ العدوَّ اللعينَ والنَّفسَ التي الشرُّ لها قرينٌ لَمّا كان في كمين هذا المسكين دائماً؛ لا بُدَّ من الاحتياط والتَّأكيد لئلا تنقلب علينا الأحوالُ، وكيلا تظهر السيئاتُ لعيوننا في صور الحسنات بالتَّمويهات والتَّسويلات لأجل الإضلال.

قيل: إنَّ الشيطانَ اللَّعينَ إذا جاء من طريق الطَّاعة وصورة النَّصيحة؛ فدفعُه متعسِّرٌ، فينبغي لنا إذاً أن نلتجئ ونتضرّع إلى الحقّ سبحانه دائماً، وأن نطلب منه تعالى بالانكسار والبكاء أن لا يراد من هذه الجهة خذلاننا واستدراجنا، وطريقُ الاستقامة: هو الدِّلالةُ على السعادة الأبديّة.

ثم اعلم أنَّ الفقرَ والفاقةَ جمالُ هذه الطَّائفة العليّة، وفي اختياره اقتداءٌ بسيد الكونين عليه الصلاة والسلام، وقد تكفَّل الحقُّ سبحانه من كمال كرمه برزق عباده، وجعلنا وإياكم فارغين من هذا التَّردُّد، كلَّما تكون النفوسُ أكثرَ يكون وصولُ الأرزاق أوفرَ، فينبغي التوجّهُ إلى مرضيات الحق تعالى وتقدّس، وإحالة غمّ.........

المتعلّقات على كرمه سبحانه. والباقي عند التلاقي. وقد أخبر بعضُ الأصحاب الواردين من هناك أنَّ توهُّم حصول التّأذي متمكّنٌ في خاطر المير إلى الآن، فبناءً على ذلك كتبنا بالمبالغة والتّأكيد في رفع توهُّم الأذيّة، وأيضاً كنا حرَّرنا إلى الملا يار محمد القديم كتاباً مشتملاً على النَّصائح والمواعظ، والظَّاهر أنَّ مضمونَه لم يلائمْ طبيعتَه حيث لم يرسلْ جوابَه، بل لم يسمح بإرسال الدُّعاء، وماذا أصنع إن لم يلائم طبيعته؟ فإن لم أبيِّنْ مظانَّ غَلَطِ جماعةٍ منسوبةٍ إلى هذا الحقير وموادَّ خطئهم، ولم أميِّز الحقَّ من الباطل؛ فكيف أخرج من العهدة؟ وبأيِّ وجهٍ أذهبُ إلى الآخرة؟ (شعر)

وَمَا هُوَ مِنْ شَـرْطِ الْبَلَاغِ أَقُولُـهُ ... فَخُذْ مِنْهُ نُصْـحاً خَالِصـاً أَوْ مَلَالَةً

اعلم أنَّ مقامَ المشيخة والإرشاد، ودعوة الخلق إلى الحقّ، وطريق الرشاد مقامٌ عالٍ جدّاً، ولعلَّكم سمعتم: «**الشَّيْخُ فِي قَوْمِهِ كَالنَّبِيِّ فِي أُمَّتِهِ**»[1]، فأيُّ مناسبةٍ بهذه المنزلة العليّة لكلِّ قاصرٍ وعاجزٍ؟ (شعر)

هَلْ كُلُّ مَنْ خِلْتَ رَجُلاً رَجُلُ مَيْدَانْ ... أَوْ كُلُّ مَنْ صَـارَ ذَا مُلْكٍ سُـلَيْمَانْ

فإنَّ العلمَ بتفاصيل الأحوال والمقامات، ومعرفةَ حقائق المشاهدات والتَّجلِّيات، وحصولَ الكشوف والإلهامات، وظهورَ تعبير الواقعات، كلُّ ذلك من لوازم هذا المقام العالي، وبدونها خَرْط القتاد. **غَايَةُ مَا فِي البَابِ**: أنَّ أكابرَ الطَّريقة قدّس اللهُ أسرارهم يُجيزون بعضَ مريدهم بنوعِ إجازةٍ قبل وصوله إلى مقام المشيخة بملاحظة بعض المصالح، ويجوِّزون في حقّه تعليمَ الطَّريقة للطَّالبين في الجملة؛ ليطَّلع على الأحوال والواقعات، ويلزم الشيخَ المقتدَى به في هذا النوع من التَّجويز أن يأمرَ ذلك المريدَ المجازَ بالاحتياط، وكشفِ موادّ الغلط بالتأكيد، واطِّلاعه على نقصه دائماً، وإظهار عدم تماميَّته وكماله بالمبالغة، فإن تساهَلَ الشيخُ في إظهار الحقّ في هذه الصُّورة؛ يكون خائناً، وإن ساء ذلك المريد؛ يكون مخذولاً.

أمَا يعلم أنَّ رضا الحقّ جل وعلا منوطٌ برضا الشّيخ، وسخطَه تعالى مربوطٌ بسخطه؟ ما هذه المصيبةُ؟ وأيُّ بلاءٍ وقع؟ أمَا فهموا أنَّ الانقطاعَ عنّا إلى أين ينجرُّ؟ فإن ينقطعوا عنا إلى من يتَّصلون؟

فإن تطرَّقَ إلى خاطره - عياذاً بالله سبحانه - شيءٌ من هذا القسم فقل له من غير توقُّفٍ: ليتبْ وليستغفر اللهَ، وليلتجئ وليتضرّعْ إليه سبحانه أن لا يبتليه بهذا الابتلاء العظيم، وأن لا يوقعه في هذا البلاء الخطير، لله سبحانه الحمدُ والمنّةُ لم يقع غبارٌ في خاطر هذا الجانب مع عدم مبالاة الإخوان ذلك واضطراباتهم هذه كلِّها، والمرجوُّ من ذلك أن يُمِرَّ عواقبَ الأمور بالخير.

وباقي الأحوال والأوضاع يذكره الأخ الأرشد مولانا محمد صالح بالتَّفصيل، وبعضُ محالّ الاشتباه يُستعلمُ منه، والسلام على من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى عليه وعلى آله أتم الصلوات وأفضل التسليمات.

المَكْتُوبُ الخَامِسُ وَالعِشْرُونَ وَالمِائَتَانِ

إلى الـملّا طاهرٍ اللّاهوريِّ في بيانِ أنَّ في بدايَة هذا الطَّريق يحصلُ ما يحصلُ في نهايَة سائِر الطُّرق بطَريقِ اندراجِ النِّهاية في البداية... إلخ.

الحمد لله، ونصلي على نبيه، ونسلم عليه وعلى آله الكرام. وصلت المكتوباتُ الشَّريفةُ متواليةً،...........

(١) أخرجه الديلمي في «الفردوس» (٣٦٦٦) من حديث ابن عباس ﷺ، وأخرجه ابن حبان في «المجروحين» (٢/ ٣٩) من حديث ابن عمر ﷺ مرفوعاً بلفظ: «الشيخ في بيته كالنبي في قومه»، وأخرجه ابن عساكر في «معجمه» (٨٧١) من حديث أبي رافع مرفوعاً بلفظ: «الشيخ في أهله كالنبي في أمته».

وقد اندرج فيها بيانُ سعي الطَّالبين واجتهادُهم في الاشتغال، والتذاذُهم به، واجتماعُهم عليه، فزادت فرحاً على فرحٍ.

غَايَةُ ما فِي البابِ: أنَّ هذا الطَّريقَ لَمّا كان فيه اندراج النِّهاية في البداية؛ صار يقعُ ويحصلُ لمبتدئ هذا الطَّريق العالي في الابتداء أحوالٌ شبيهةٌ بأحوال المنتهيين، بحيث لا يمكن التَّمييزُ والتَّفريقُ بين هذين النَّوعين من الأحوال إلا لعارفٍ له حدَّةُ النَّظر، فعلى هذا التَّقدير لا ينبغي إجازةُ تعليم الطَّريقة لأصحاب تلك الأحوال اعتماداً على حصولها، فإنَّ ضررَ أصحاب الأحوال في هذه الصُّورة فوق ضرر مسترشديهم؛ لاحتمال الامتناع عن الترقِّي بتخيُّل البلوغ مرتبة الكمال، بل يمكن أن يُوقِعَه حصولُ الجاه والرياسة الذي هو من لوازم مقام الإرشاد في بلاءٍ عظيمٍ، فإنَّ نفسَه الأمَّارة باقيةٌ على كفرها، لم تحصل لها التَّزكيةُ بعد مضيّ ما مضى. والذين أجزتَهم ينبغي لك أن تفهمهم بالملائمة أنَّ هذا النوعَ من الإجازة ليس مبنيّاً على الكمال، بل أمامهم أمورٌ كثيرةٌ، وأنَّ هذه الأحوالَ الحاصلةَ في الابتداء إنّما هي من قبيل اندراج النِّهاية في البداية، وأن تنصحهم بالنَّصائح المناسبة، وأن تُطْلِعَهم على منقصتهم، وحيث أجزتهم لا تمنعهم من تعليم الطَّريقة، وعساهم يبلغون حقيقةَ مقام الإرشاد ببركة أنفاسكم. ثم إنَّكم حيث شرعتم في هذا الأمر يكون مباركاً، فينبغي السَّعيُ والاهتمامُ والاجتهادُ والاغتنامُ ليكون ذلك باعثاً على سعي الطالبين واجتهادهم وشوقهم. والسلام.

المَكْتُوبُ السَّادِسُ وَالعِشْرُونَ وَالمِائَتَانِ

إلى أخيه الحقيقيِّ الشَّيخ مِيَان محمَّدٍ في بيانِ اغتنامِ الفُرصةِ.

وصل مكتوبُ أخي الأعزّ، فصار موجباً للفرح. أيُّها الأخُ وفَّقنا الله وإياك، إنَّ فرصةَ الحياة قليلةٌ جدّاً، والعذابَ الأبديَّ متفرِّعٌ عليها، يا أسفي على من يصرف هذه الفرصةَ اليسيرةَ في تحصيل أمورٍ لا طائل فيها، ويلتزم الآلامَ المخلَّدة.

أيُّها الأخُ، إنَّ النَّاس من الأجانب يجتمعون من الأطراف والجوانب أمثالَ النمل والجراد تاركين الأسبابَ الدنيويَّة، وأنتم تسعون وتعدون بالذَّوق والحرص في طلب الدنيا الدنيَّة، وتتمنَّون بالشَّوق حصولها جاهلين لقدر دولةٍ كائنةٍ في الدار، «**الْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ**»[1] حديثٌ نبويٌّ، عليه من الصلوات أفضلها ومن التسليمات أكملها.

أيُّها الأخُ، إنَّ هذا النوعَ من اجتماع أهل الله، وهذا القسمَ من الجمعيَّة لله في الله الذي هو اليوم في سرهند لا يدري أيحصل عُشْرُ عُشَيْر هذه الدَّولة عند طوف أطراف العالم أم لا؟ وأنتم ضيَّعتم مثل هذه الدَّولة مجاناً، واستبدلتم الجواهرَ النَّفيسةَ بالجوز والموز مثل الأطفال: (ع) فَـذَا عَـارٌ عَـلَـيْـكُـمْ أَلْـفُ عَـارِ

أيُّها الأخُ، لعلك لا تعطى الفرصةَ في وقتٍ آخر، ولئن أُعطيتَ؛ فلعلَّه لا يبقى هذا الاجتماعُ قائماً، فما العلاجُ إذاً؟ وكيف يمكن التَّداركُ؟ وبأيّ شيءٍ يحصل التلافي؟ غلطتَ وأخطأتَ في الفهم، إياك وأن تفتن بلقمةٍ سمينةٍ لذيذةٍ، وإياك وأن تغترَّ بألبسةٍ مزينةٍ نفيسةٍ، فإنَّها لا نتائجَ لها في الدنيا والآخرة غير الخسارة والندامة، وإلقاء نفسك إلى البلاء، واختيارُ العذاب الأخرويّ بواسطة طلب رضا الأهل والعيال بعيدٌ عن العقل السَّليم المدرك المتفكِّر لعواقب الأمور، رزقكم الله سبحانه العقلَ والتنبُّهَ.

أيُّها الأخُ، إنَّ الدُّنيا يمثَّل بها في عدم الوفاء، وأهلُها مشهورون بالخسَّة والدَّناءة والجفاء، أليس من الخسارة أن تصرفَ عمرك

---

(١) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) من حديث أبي هريرة ﵁.

العزيزَ النَّفيسَ في طلب عديم الوفاء والخسيس؟ ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [النور: ٥٤]. والسلام.

المَكتُوبُ السَّابِعُ وَالعِشْرُونَ وَالمِائَتَانِ

إلى الملَّا طاهرِ اللَّاهُوريِّ في بعضِ النَّصائحِ والمواعظِ التي تَتعلَّق بمقامِ المشيخَة.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. وصل المكتوبُ الشَّريفُ، وصار موجباً للفرح، وقد كتبتم من التذاذ الأصحاب وحصولِ الحلاوة لهم، فزاد ذلك فرحاً على فرحٍ.

أيُّها الأخُ، إنَّ الحقَّ سبحانه حيث أكرمك بهذا المنصب ينبغي لك أداءُ شكرِ هذه النِّعمة على الوجه الأتمّ، والاحترازُ عن صدور أمرٍ يكون باعثاً على نفرة الخلق، فإنَّه وبالٌ عظيمٌ، وتنفيرُ الخلق مناسبٌ لحال الملامتيّ، لا تعلُّقَ له بالمشيخة ومقام الدَّعوة، بل مقام الملامتيّ نقيضُ مقام المشيخة، فإيَّاك والغلطَ في هذين المقامين، أفتتمنّى الملامتيَّةَ في مقام المشيخة وهو ظلمٌ عظيمٌ؟ وينبغي لك أن تجمِّلَ نفسك في نظر المريدين، وأن لا تفرطَ في الاختلاط والمؤانسة بالمسترشدين، فإنَّ ذلك باعثٌ على الاستخفاف المنافي للإفادة والاستفادة، وعليك برعاية حفظ الحدود الشَّرعيّة حقَّ رعايتها، وإيَّاك وتجويزَ العمل بالرخصة مهما أمكن، فإنَّه منافٍ لهذه الطَّريقة العليّة، ومناقضٌ لدعوى متابعة السنَّة السَنِيّة، قال واحدٌ من الأعزّة: رياءُ العارفين خيرٌ من إخلاص المريدين، فإنَّ رياءهم إنّما هو لانجذاب قلوب الطَّالبين إلى جناب قدس الحقّ جل سلطانه، فيكون أفضلَ من إخلاص المريدين بالضَّرورة. وأيضاً إنَّ أعمالَ العارفين أسبابٌ ووسائطُ لتقليد الطَّالبين لهم في إتيان الأعمال، فإن لم يعمل العارفون؛ يبقى الطَّالبون محرومين من العمل، فصدورُ الرِّياء من العارفين إنّما هو ليقتديَ بهم الطَّالبون، وهذا الرِّياءُ عينُ الإخلاص، بل أفضلُ منه؛ لأنَّ نفعَه مقصورٌ على صاحبه، وذاك متَّعدٍ.

ولا يتوهّم المتوهِّمُ من ذلك أنَّ أعمالَ العارفين إنّما هي لمحض تقليد الطَّالبين، وأنَّه لا احتياجَ لهم إلى الأعمال، عياذاً بالله سبحانه من ذلك، فإنَّه عينُ الإلحاد والزَّندقة، بل العارفُ والطالبُ سيّان في لزوم إتيان الأعمال، لا غنىً لأحدٍ عنه.

غَايةُ ما فِي البابِ: أنَّ في أعمال العارفين يكون نفعُ الطَّالبين الذي مربوطٌ بالتَّقليد ملحوظاً أيضاً أحياناً، وبهذا الاعتبار يسمُّونها: رياءً. وبالجملة ينبغي التَّحفُّظُ الكاملُ والتيقُّظُ الشَّاملُ في القول والفعل، فإنَّ أكثرَ الخلق في هذه الأوان في شوق الطَّلب، فلا يقع أمرٌ يكون منافياً لهذا المقام، وباعثاً على طعن الجُهَّال في الأكابر الكرام، وعليك بطلب الاستقامة من الحق سبحانه وتعالى.

وقد كتبت أيضاً حصولَ نسب المشائخ، وقد ذكر وجهُ ذلك لك مكرَّراً بالمشافهة، فلا تفهم وراءَ ذلك شيئاً، فإنَّه مما لا خيرَ فيه، وماذا أكتب أزيد من ذلك؟ والسلام.

المَكتُوبُ الثَّامِنُ وَالعِشْرُونَ وَالمِائَتَانِ

إلى المِير محمَّدٍ نعمانَ في بعضِ النَّصائحِ المتعلِّقةِ بمَقامِ التَّكميلِ وتعليمِ الطَّريقةِ، وما يُناسِبه.

وصل مكتوبُ الأخ معدن السّيادة، وصار موجباً للفرح. أيُّها الأخُ، قد قيل لك مكرَّراً: إنَّ مدارَ هذا الطَّريق على أصلين: الاستقامةُ على الشَّريعة على حدٍّ لا ينبغي أن يرضى بترك أدنى آدابها، ورسوخُ محبَّة شيخ الطَّريقة والثَّباتُ عليها، والإخلاصُ على نهجٍ لا يبقى مجالُ الاعتراض عليه أصلاً، بل يكون جميعُ حركاته وسكناته مستحسنةً ومحبوبةً في نظر المريد، ونعوذ بالله سبحانه من وقوع خللٍ في أمرٍ من الأمور المتعلّقة بهذين الأصلين، فإنَّ هذين الأصلين إذا كانا........

على الاستقامة بعناية الله سبحانه؛ فسعادةُ الدنيا والآخرة نقدُ الوقت.

وقد قرع سمعكم نصائحُ أخرُ ووصايا، فينبغي الاحتياطُ في مراعاتها، وتلافي التّقصيرات بالتضرّع والابتهال، وأن تعتكف في عشر ذي الحجة هذه بنيّة قضاء اعتكاف العشر الأخير من شهر رمضان على تقدير تركه من الشهر المذكور، فبهذه النيَّة تصير عاملاً السُّنَّةَ، وينبغي في هذا الاعتكاف الاعتذارُ إلى الله سبحانه من التّقصيرات بالتضرّع والانكسار، والفقيرُ أيضاً يكون ممدّاً لكم في ذلك إن شاء الله تعالى.

وما المقصودُ من هذه المبالغة والإلحاح كلِّها في تحرير الإجازة وقد صدرتْ لك إجازةُ تعليم الطَّريقة؟ فإن لم تكفِ هي؛ فما نفعُ تحرير الإجازة؟ ولا يلزم السعيُ والاجتهادُ في تحصيل كلّما يقع في الخاطر، وقد يقع أشياء تَرْكُها أَوْلى وأنسبُ، والنَّفسُ اللجوجةُ إذا وَلِعَتْ بأشياء تريد أن تحصِّلها وتتمَّها، ولا تلاحظُ في حقيَّتها وبطلانها.

ولقد حرَّرتُ في حقِّكم كلماتٍ كثيرة نفعك الله سبحانه بها، ينبغي لك أن تكون في فِكْرِ نفسك وتدبير أمرك حتى تذهب بسلامة الإيمان، وماذا تنفع الإجازةُ والمريدون؟ فإذا جاء طالبٌ صادقٌ حين اشتغالك بشأنك؛ فحينئذٍ تعلِّمُه الطَّريقة، لا أنَّك تجعل تعليمَ الطَّريقة أصلَ الأمر ومقصوداً بالذات، وتجعل معاملتك تابعةً له ومقصوداً بالعَرَض، فإنَّ ذلك ضررٌ محضٌ، وخسرانٌ صرفٌ.

المكتوب التاسع والعشرون والمائتان

إلى الميرزا حسامِ الدِّين أحمد في دفعِ توهُّمِ تغييرِ الطَّريقةِ بضربِ المثلِ.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. وصلت المكتوباتُ الشريفةُ المرسلةُ متواليةً، فصارت موجبةً للفرح، وباعثةً على إفراط المحبة، جزاكم الله سبحانه عنا خير الجزاء، وقد اندرج فيها بعضُ الشُّبهات والشُّكوك على سبيل الإجمال.

اعلم أنَّ طريقنا هذا هو طريقُ حضرة شيخنا قدس الله سره الأقدس، والنِّسبةُ هي تلك النِّسبةُ الشريفةُ المختصّةُ بحضرته، أيُّ طريقٍ وأيَّةُ نسبةٍ أَوْلى وأنسبُ من هذا الطَّريق العالي والنِّسبة العليّة حتى يختارهما الإنسانُ؟

غَايةُ ما فِي البابِ: أنَّ تكميلَ الصّناعة وتتميمَ كلِّ نسبةٍ إنّما هو بتلاحُق الأفكار وتعاقب الأنظار؟ ألا ترى أنَّ النحوَ الذي كان في زمن سيبويه قد زاد بتلاحق أفكار المتأخرين به أضعافَ أمثاله، وصار محرَّراً ومنقَّحاً، ومع ذلك هو ذلك النّحو الذي كان في زمن سيبويه لم يَزِدْ فيه تلاحقُ أفكار المتأخرين غيرَ تهذيبه وتنقيحه؟ ألم تسمع مقولةَ الشيخ علاء الدَّولة قدس سره حيث قال: كلَّما كانت الوسائطُ أزيدَ وأكثرَ؛ يكون الطَّريقُ أقربَ وأنورَ؟ وهذا القسمُ من الزِّيادة التي حصلت لهذه النِّسبة العليّة بطريق التَّهذيب والتَّنقيح، وأوردت في معرض القال والتَّصريح؛ أوقعت جماعةً في التَّخيُّلات، وحقيقةُ المعاملة هي هذا من غير تكلّفٍ وتصنُّعٍ، انظروا إلى مكتوبات الفقير ورسائله حيث أثبتُّ فيها أنَّ هذا الطَّريقَ هو طريقُ الأصحاب الكرام عليهم الرضوان، وبرهنتُ كونَ هذه النِّسبة فوق جميع النِّسَب، ومدحتُ هذا الطَّريق العالي وأكابره على نهج لم يوفَّقْ أحدٌ من خلفاء هذه الجماعة العظيمة لإيراد عشر عشيره. وأيضاً إنَّ الفقيرَ أراعي آداب هذا الطَّريق على الوجه الأتمّ في جميع الأوقات، وأيّام الشدائد، ووقت القعود والقيام، ولا أجوِّزُ مخالفتها والإحداثَ فيه مقدار شعرةٍ، والعجبُ أنَّ هذه الصَّنائعَ كلَّها بقيت مستورةً عن النَّظَر، فإن وقع فرضاً كلامٌ غيرُ ملائمٍ في أيام الأذيّة بالنِّسبة إلى بعض الأصحاب أثناء المكالمة والمعاتبة؛ كان ذلك..

منظوراً إليه لديكم، فالعجبُ - بل أعجبُ - تصديقُكم أمثال هذه الكلمات، وانزعاجُكم بمجرَّد سماعها، فإن كان ذلك مبنيّاً على حسن الظنّ؛ فلم تخصِّصُون به تلك الجماعةَ؟ ألست أنا قابلاً لحسن الظنّ؟ وبالجملة لو كان المدارُ على القيل والقال لا يتصوَّرُ الخلاصُ من يد النَّمامين والمفترين، ولا يتوقَّعُ الإخلاصُ، فينبغي تركُ القيل والقال ومجاوزتُه، وعدمُ تذكُّر الأمور الماضية حتى يتصوّر الإخلاصُ، وترتفع الكلفةُ الأولى.

وكتبتم أنَّه قد جاء وقت تربية أولاد حضرة شيخنا، بل كاد أن يفوت، وذكرتم وصيَّةَ حضرة شيخنا قدس سره.

أيُّها المخدومُ المكرّمُ، ما أعظم سعادةَ من يقوم بخدمة مخاديمهم، ولكني عذرتُ نفسي في هذه المدة عن الخدمة الظَّاهرية بواسطة الموانع المعلومة، وأنا منتظرٌ لظهور زمانٍ يمكن فيه إجراءُ الوصية العليّة، فإن علمتم الآن عدمَ المانع، وأنَّ طريق القيل والقال صار مسدوداً؛ فأشيروا به إليّ حتى أذهبَ وأشتغلَ بهذه الخدمة أياماً، ولكن إذا لوحظ في ذلك الأمر حقَّ الملاحظة يعلم أنَّ مباشرتي لذلك الأمر إنّما تلزم بمجرَّد امتثال الأمر، وإلا؛ فتربيتُكم إيّاهم ظاهراً وباطناً كافيةٌ لا احتياجَ إلى آخرَ.

وقد أخبرني أخونا مولانا عبد اللطيف أنَّ الميان محمد قليج أخذ المخدومَ الأكبرَ للتَّعليم والتَّربية الظَّاهرية، وأنَكم جوَّزْتم ذلك أيضاً، فأورثني سماع هذا الخبر تعجُّباً، فإنَّ المذكور وإن تخيّل شيئاً من قصور إدراكه، ولكن كيف تجوِّزُونه ذلك؟ وأنا أخاف من سراية أذيّة محمد قليج إلى محلٍّ آخرَ.

المكتوب الثلاثون والمائتان

إلى الشَّيخ يوسفَ البَركيِّ في علوِّ الهمَّة وعدمِ الاكتِفاءِ بكلِّما يحصلُ، والاجتِهادِ في التَّرقِّي، وما يناسِبه.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. أظهر الميان بابو نبذةً من أحوالكم الكريمة بأمركم، واستفسر عن حقيقتها، فبناءً على ذلك نحرِّرُ كلماتٍ.

أيُّها المخدومُ، إنَّ أمثالَ هذه الأحوال يظهر لمبتدئ هذا الطَّريق كثيراً في أوائل الأقدام، وهم لا يعتبرونها أصلاً، بل ينفونها، وأين الوصلُ؟ وأين النهايةُ؟ (شعر)

كَيْفَ الْوُصُـولُ إِلَى سُـعَادَ [وَ]دُونَهَا   قُـلَـلُ الْـجِـبَـالِ وَدُونَـهُـنَّ حُـيُـوفُ

والله سبحانه منزَّهٌ عن الكيف والمثال، وكلُّما هو داخل تحت الرؤية والإدراك والشُّهود والمكاشفة؛ فهو غيرُه سبحانه، وهو تعالى وراء الوراء، فلا تغترُّوا أصلاً بجوز هذا الطَّريق وموزه مثل الأطفال، ولا تتخيَّلوا الوصولَ إلى النهاية، ولا تُظْهِروا الوقائعَ لشيوخٍ ناقصين، فإنَّهم يستكثرون القليلَ بمقياس وجدانهم، ويزعمون البدايةَ نهايةً، فلا جرم يقع الطَّالبُ المستعدُّ في زعم الكمال، ويتطرَّقُ الفتورُ إلى طلبه، ينبغي للعاقل طلبُ شيخٍ كاملٍ، والتماسُ علاج الأمراض الباطنيَّة منه، وما لم يَلْقَ شيخاً كاملاً؛ ينبغي نفيُ تلك الأحوال بحرف (لا)، وإثباتُ المعبود بالحقّ المنزَّه عن الكيف والمثال، قال الخواجه بهاء الدين النّقشبند قدس سره: كلُّما يكون مرئيّاً أو مسموعاً أو مُدْرَكاً؛ فهو غيرُه تعالى ينبغي نفيُه بحقيقة كلمة (لا)، فعليك نفي ما يظهر في الأكثر، وهو تعالى وراء الوراء، ولا يتخيَّلُ في جانب الإثبات غيرُ التكلّم بكلمة المستثنى أصلاً، وهذا هو طريقُ أكابر هذه الطَّريقة.

والسلام على من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى عليه وعلى آله أتم الصلوات وأكمل التسليمات.

المكتوب الحادي والثلاثون والمائتان

إلى المير محمَّد نعمانَ في بيانِ الفَرقِ بينَ الوصولِ والحصولِ، وأنَّ مبادئَ تعيُّناتِ الأنبياءِ: هل تكونُ مبادئَ تعيُّناتِ الأولياءِ أم لا؟ والفَرقِ بينَ ذِكرِ الجَهرِ وغَيرِه منَ المُحدَثاتِ، حيثُ يمنعُ منَ الأوّلِ دونَ الثّاني.

نحمده، ونصلي ونسلم على نبيه وعلى آله الكرام. وصل المكتوبان الشريفان متعاقبين، المكتوب الأوّل وإن كان منبئاً عن الحزن والاضطراب، ولكنَّ المكتوبَ الثّاني كان في غاية الملائمة، ومشعراً بالشوق والحرارة.

أيُّها المحبُّ، إنَّ المير سعد الدين لَمّا أراد السفرَ؛ طلب الكتابَ، وكنت حينئذٍ مريضاً ومنقبضاً على حدٍّ ما كنت أقدر على الكتابة بخطّي، فأمرت يار محمد القديم بتحرير الكتاب قائلاً: إنَّه إذا اندرج فيه كلمةٌ غيرُ ملائمةٍ وقت المرض أكون معذوراً، مع أنَّه لا ينبغي الانحرافُ وتخريبُ المعاملة بشيءٍ يسيرٍ، لا قدَّر الله سبحانه وقوعَ الأذية بيننا، وأن أكتب شيئاً بقصد الأذية والإعراض، فإن حرّر شيءٌ بإرادة النَّصيحة ينبغي أن تفرح به، وقد جعلني مكتوبك الثّاني مسروراً محظوظاً، الحرارةُ لازمةٌ في كلّ أمرٍ - يعني: الحزمَ -، وليكن الكسلُ والعجزُ نصيبَ الأعداء.

وكتبتم: أنَّه لا يمكن فهمُ الفرق بين الحصول والوصول.

أيها الأخُ، إنَّ الحصولَ متصوَّرٌ مع وجود البعد، والوصول متعذّرٌ، يعني: معه، ألا ترى أنَّ العنقاء نتصوَّرُه بصورته المخصوصة به؟ فيمكن أن نقول: إنَّ العنقاءَ حاصلٌ في مدركتنا، يعني: بوجوده الذهنيّ. وأما الوصولُ إلى العنقاء؛ فليس ذلك بمتحقّق أصلاً؛ لأنَّ الظليَّةَ التي هي عبارةٌ عن ظهور شيءٍ في مرتبةٍ ثانيةٍ ليست بمنافيةٍ لحصول ذلك الشيء، وأما الوصولُ إلى ذلك الشيء؛ فهو لا يجتمع مع الظلية، فافترقا.

وسألت أيضاً: إنَّ الأسماءَ التي هي مبادئ تعيّنات الأنبياء عليهم السلام هل تكون تلك الأسماء بعينها مبادئ تعيّنات الأولياء أم لا؟ فإن كانت فما الفرق بينهما؟

أيها الأخُ المعزّزُ، إنَّ مبادئَ تعيّنات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هي كلياتُ الأسماء، ومبادئُ تعيّنات الأولياء جزئياتُها المندرجةُ تحت تلك الكليات، والمرادُ بجزئيات الأسماء: نفسُ تلك الأسماء المأخوذة بقيدٍ من القيود، كالإرادة المطلقة، والإرادة المقيدة بالشيء، وإذا وقع الترقّي للأولياء بواسطة متابعة الأنبياء عليهم السلام يرتفع القيدُ المذكورُ، ويلتحق المقيّدُ بالمطلق، وقد ذكرت هذا الفرقَ في بعض المكاتيب بالتَّفصيل، فليراجع إليه، وليلاحظ فيه.

وسألت أيضاً: أنَّه ما سبب المنع عن ذكر الجهر بعلّة البدعة مع أنَّه مورثٌ للذَّوق والشَّوق؟ ولم لا يمنع من أمورٍ أخرى لم تكن في زمن النبي ﷺ مثل لبس الفرجيّ والشال والسراويل؟

أيُّها المخدومُ، إنَّ فعلَه ﷺ على نوعين: فعلٌ على سبيل العبادة، وفعلٌ على طريق العرف والعادة، فالفعلُ الذي صدر عنه على سبيل العبادة نعتقد خلافَه بدعةً منكرةً، ونبالغ في المنع عنه؛ لكونه إحداثاً في الدّين، وهو مردودٌ. والفعلُ الذي صدر عنه ﷺ على طريق العرف والعادة لا نعتقد خلافَه بدعةً منكرةً، ولا نبالغ في المنع عنه؛ لعدم تعلّقه بالدين، بل وجودُه وعدمُه مبنيان على العرف والعادة، لا على الدِّين والملَّة، فإنَّ عرف بعض البلاد على خلاف عرف بعض بلادٍ أخرى، وكذلك يقع التَّفاوتُ في العرف في بلدةٍ واحدةٍ بحسب تفاوت الأزمنة. ومع ذلك إذا روعيت السُّنَّةُ العاديةُ تكون مثمرةً للنَّتائج ومنتجةً للسعادات. ثبتنا الله سبحانه وإياكم........................

على متابعة سيد المرسلين عليه وعليهم وعلى تابعي كل من الصلوات أفضلها ومن التسليمات أكملها. والسلام.

المكتوب الثاني والثلاثون والمائتان

إلى خان خانان في بيانِ حقيقةِ الدُّنيا، وقبحِ زخرفاتِها الرَّديَّةِ، وعلاجِ إزالةِ محبَّةِ تلكَ الدَّنيَّة، وما يناسبُ ذلك.

جعل الحقُّ سبحانه وتعالى حقيقةَ الدّنيا الدنيَّة وقبحَ مزخرفاتها ومموَّهاتها الرديَّة منكشفةً في نظر البصيرة، وأجلى حسنَ الآخرة وجمالَها مع طراوة الجنّات وأنهارها ومع زيادة لقاء ربّ العالمين جلَّ سلطانه فيها بحرمة سيد المرسلين عليه وعلى آله من الصلوات أفضلها ومن التسليمات أكملها، حتى تحصل النّفرةُ عن هذه القبيحة سريعة الزَّوال، وعدمُ الرَّغبة فيها، ويتيسّرَ التوجّهُ بالكليَّة إلى عالم البقاء الذي هو محلُّ رضاء المولى المتعال، وما لم يظهرْ قبحُ هذه الدنيَّة؛ فالخلاصُ من أسرها محالٌ، وما لم يحصل الخلاصُ؛ فالفلاحُ والنَّجاةُ الأخرويَّةُ متعسِّرٌ، «**حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ**» قضيةٌ مقرَّرةٌ.

وحيث إنَّ المعالجةَ تكون بالأضداد؛ كان علاجُ إزالة محبَّة هذه الدَّنيَّة منوطًا بالرغبة في أمور الآخرة، وإتيان الأعمال الصَّالحة على وفق أحكام الشَّريعة الغراء، وقد جعل الحقُّ سبحانه الحياةَ الدنيا منحصرةً في خمسة أشياء - بل في أربعة أشياء - حيث قال تعالى: ﴿أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد: ٢٠].

فإذا اشتغل الإنسانُ بالأعمال الصَّالحة يشرع اللّعبُ واللهوُ اللذان هما جزآها الأعظمان في النقصان بالضَّرورة، وإذا حصل الاجتنابُ والاحترازُ عن لبس الحرير واستعمال الذَّهب والفضَّة التي هي عمدةٌ في تحصيل الزينة؛ يشرع جزؤها الثّاني الذي هو الزّينةُ في الزوال، ومتى حصل اليقينُ بأنَّ الفضيلةَ والكرامةَ عند الله عزّ وجل بالورع والتقوى لا بالحسب والنسب؛ يمتنع من التّفاخر ألبتّة، وإذا علم أنَّ الأموالَ والأولاد مانعةٌ عن ذكر الحقّ سبحانه عائقةٌ عن التوجّه إلى جناب قدسه تعالى؛ يختار التَّقاعدَ عن التّكاثر فيها بالضَّرورة، ويعدُّ تزايدها من المعائب. وبالجملة ﴿وَمَآ ءَاتَيكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَيكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧]؛ لئلا يضركم شيءٌ: (شعر)

دَلَلْتُكَ يَا هَذَا عَلَى كَنْزِ مَقْصِدِ ... فَإِنْ أَنَا لَمْ أَبْلُغْ لَعَلَّكَ تَبْلُغِ

وبقيَّةُ المرام: أنَّ الشيخ ميان عبد المؤمن من أولاد الكبار مشغولٌ بسلوك الطَّريقة الصوفيَّة بعد فراغه من تحصيل العلوم، ويشاهد في ضمن سلوكه أحوالاً غريبةً، والضَّرورةُ البشريَّةُ من قِبَل الأهل والعيال تضطرُّه بلا اختيارٍ، وهذا الفقيرُ دَلّلْتُه على جنابكم لدفع هذا الاضطرار، من دقّ باب الكريم يفتح. والسلام.

المكتوب الثالث والثلاثون والمائتان

إلى العالِي الجَنابِ الشَّيخ فريدٍ في بعضِ النَّصائحِ بحسنِ الأداءِ.

ثبتنا الله سبحانه وإياكم على ما جاء به جدُّكم الأمجدُ، عليه وعلى آله وأصحابه من الصلوات أفضلها، ومن التسليمات أكملها. ولما جئتُ دهلي في أيّام عرس حضرة الخواجه قدس سره وقع في الخاطر أن أتشرَّف بحضور المجلس العالي أيضًا، فشاع في أثناء ذلك خبرُ الرحلة، فبالضَّرورة كنت باعثًا على التَّصديع بتحرير كلماتٍ غير مرتبطةٍ بالتوقُّف هنا، والمسؤولُ بجميع الهمّة ....

- سواءٌ كان في الحضور أو في الغيبة - سلامتكم عما لا يليق بكم ولا ينبغي، وتُورِدُني غلبةُ إرادة الخير في بعض الأوقات اختياراً منّي جسارتكم أن أمنعَ وأحميَ عتبتكم العليّة عما لا يليق بها بالتّأكيد والمبالغة، وأن لا أتركَ في المجلس الشّريف من ليس بأهلٍ له، ولكن أعلم أنَّ جميعَ التمنّي لا يتيسّرُ، فبالضّرورة أكون رطبَ اللّسان بالدُّعاء من ظهر الغيب، وعسى أن يقع في معرض القبول.

قال الخواجه أحرار قدس سره: وإن كان جعلُ شخصٍ نفسه عظيماً بحيث يلزم من خرابه خرابُ جميع العالم شركاً وكفراً، ولكن جعلوني عظيماً بلا صنعٍ منّي. ومثلُ هذه العظمة كاد أن يصدق اليوم في حقّكم، فإنَّ في رفاهيتكم رفاهيّةَ الخلائق وبالعكس، ولهذا كان دعاءُ الناس لكم بالخير كطلب المطر في شمول نفعه لعامّة الخلق، فيكون مع تلك العظمة والجلالة بقاءُ مقدار بذرة الخشخاش ومحلّ الأنملة محروماً وبالاً وثقلاً عظيماً على قلوب الأحباب والناصحين، فينبغي التّخفيفُ عنهم على وجه الكرم، وهذا النّاصحُ لم يكتب من هذه المقولة شيئاً من مدّةٍ مديدةٍ خوفاً من كون المبالغة ثقيلةً: (شعر)

وَكُلَّ لَطِيفِ الْجِسْمِ يُؤْذِيهِ كُلَّمَا ... يَمُرُّ بِهِ كَالْوَرْدِ يَطْرَحُهُ الصَّبَا

ولكن أرى اختيارَ التّقاعد والسُّكوت بملاحظة حصول الثِّقَل على الخاطر بعيداً عن المودّة: (شعر)

وَظِيفَتُكَ الدُّعَاءُ فَحَسْبُ صَاحِ ... وَلَيْسَ لَكَ التَّفَكُّرُ فِي قَبُولِهِ

وقد وقعت في الخاطر داعيةُ زيارة الحرمين الشّريفين حرسهما الله عن الآفات منذ أوقاتٍ، والباعثُ على هذا السّفر هو هذه الدّاعيةُ، ولَمّا كان هذا المعنى منوطاً بمشاورتكم واسترضائكم؛ أوقع خبرُ الرّحلة هذه الدّاعيةَ إلى التّسويف، الخيرُ فيما صنع الله سبحانه. والسلام.

المَكْتُوبُ الرَّابِعُ وَالثَّلَاثُونَ وَالمِائَتَانِ

إلى المَخدومِ الأعظمِ الشّيخ محمَّدٍ صادقٍ قدِّس سِرُّه في بيانِ حقيقةِ الواجِب الوُجودِ، وحَقائقِ المُمكِناتِ، ومعنى: مَنْ عرفَ نفسَه، ومعنى التَّجلّي الذّاتيِّ، ومعنى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [النور: ٣٥]، وما يناسبُ ذلك منَ الأسئِلة والأجوبَة.

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد حمد الله المنزَّه عن المثال، وصلاة لنبيه الهادي؛ فليعلم الولدُ الأرشدُ أنَّ حقيقةَ الحقِّ سبحانه وجودٌ صرف لم ينضمَّ إليه شيءٌ غيره أصلاً، وذلك الوجودُ الصِّرفُ الذي هو حقيقةُ الحقّ سبحانه منشأٌ لجميع الخير والكمال، ومبدأٌ لكلِّ حسنٍ وجمالٍ، وجزئيٌّ حقيقيٌّ بسيطٌ لم يتطرَّقْ إليه تركيبٌ أصلاً لا ذهناً ولا خارجاً، وممتنعُ التصوُّر بحسب الحقيقة، ومحمولٌ على الذات تعالت مواطأةً لا اشتقاقاً، وإن لم يكن لنسبة الحمل في ذلك الموطن مجالٌ؛ لأنَّ جميع النِّسب ساقطةٌ هناك، والوجودُ العامّ المشتركُ من ظلال ذلك الوجود الخاصّ، وهذا الوجودُ الظلّيُّ محمولٌ على ذاته تعالى وتقدّس، وعلى سائر الأشياء على سبيل التّشكيك اشتقاقاً لا مواطأةً، والمرادُ بكون هذا الوجود ظلّاً لذاك: ظهورُ حضرة الوجود - يعني: الخاصّ - في مراتب التنزلات، والفردُ الأوّليُّ والأقدمُ والأشرفُ من أفراد ذلك الظلّ محمولٌ على ذاته تعالى اشتقاقاً، ففي مرتبة الأصالة يمكن أن نقول: الله وجودٌ، لا أن نقول: الله موجودٌ، وفي مرتبة الظلّ يصدق: الله موجودٌ، لا: الله وجود. ولَمّا قال الحكماء وطائفةٌ من الصوفيّة بعينيّة الوجود، ولم يطّلعوا على حقيقة هذا الفرق، ولم يميِّزوا الأصلَ من الظلّ؛ أثبتوا كُلّاً من ....

الحمل المواطئ والحمل الاشتقاقيّ في مرتبةٍ واحدةٍ، فاحتاجوا في تصحيح الحمل الاشتقاقيّ إلى تمحُّلٍ وتكلّفٍ. والحقُّ ما حقَّقتُ بإلهام الله سبحانه.

وهذه الأصالةُ والظليّةُ كأصالة سائر الصِّفات الحقيقة وظليّتها، فإنَّ حملَ تلك الصِّفات في مرتبة الأصالة التي هي موطنُ الإجمال وغيب الغيب بطريق المواطأة لا بطريق الاشتقاق، فيمكن أن يقال: الله علمٌ، ولا يمكن أن يقال: الله عالمٌ؛ لأنَّ الحملَ الاشتقاقيَّ لا بُدَّ فيه من حصول المغايرة ولو بالاعتبار، وهي مفقودةٌ في ذلك الموطن رأساً؛ إذ التَّغايرُ لا يكون إلا في مراتب الظليَّة، ولا ظليَّةَ ثمّةَ؛ لأنَّه فوق التعيّن الأوّل بمراحل؛ لأنَّ النسبَ ملحوظةٌ بطريق الإجمال في ذلك التعيّن، ولا ملاحظةَ لشيءٍ من الأشياء بوجهٍ من الوجوه في ذلك الموطن، والحملُ الاشتقاقيُّ صادقٌ في مرتبة الظلّ التي هي تفصيلُ ذلك الإجمال دون الحمل بالمواطأة، ولكنَّ عينيَّةَ تلك الصِّفة في تلك المرتبة فرعُ عينيّة وجوده تعالى الذي هو مبدأُ جميع الخير والكمال، ومنشأُ كلّ حسنٍ وجمالٍ، وكلُّ محلٍّ من كتب هذا الفقير ورسائله فيه نفيُ عينيّة الوجود ينبغي أن يراد به: الوجودُ الظليُّ الذي هو مصحِّحُ الحمل الاشتقاقيّ، وهذا الوجودُ الظليُّ أيضاً مبدأٌ للآثار الخارجيَّة، فالماهيَّاتُ التي تتَّصفُ بذلك الوجود ينبغي أن تكون في كلِّ مرتبةٍ من المراتب موجوداتٍ خارجيّةً، فافهم، فإنَّه ينفعك في كثير من المواضع.

فتكون الصِّفاتُ الحقيقيةُ أيضاً موجوداتٍ خارجيّةً، وتكون الممكناتُ أيضاً موجوداتٍ في الخارج.

أيُّها الولدُ، اسمع سرّاً غامضاً: أنَّ الكمالات الذاتيّةَ في مرتبة حضرة الذات تعالت وتقدست عينُ حضرة الذات، فصفةُ العلم مثلاً في ذلك الموطن عينُ حضرة الذات، وكذلك القدرةُ والإرادةُ وسائرُ الصِّفات.

وأيضاً إنَّ حضرةَ الذات في ذلك الموطن بتمامها علمٌ، وكذلك بتمامها قدرةٌ، لا أنَّ بعضَ حضرة الذَّات علمٌ وبعضاً آخر منها قدرةٌ، فإنَّ التبعُّضَ والتجزِّي محالٌ هناك، وهذه الكمالاتُ كأنَّها منتزعاتٌ من حضرة الذات، وعرض لها التَّفصيلُ في حضرة العلم، وحصل بينها التَّمييزُ مع بقاء حضرة الذات تعالت وتقدست على تلك الصَّرافة الإجماليَّة الوحدانيَّة، ولم يَبْقَ شيءٌ في ذلك الموطن غيرَ داخلٍ في ذلك التَّفصيل وغيرَ مميّزٍ، بل جميعُ الكمالات التي كان كلُّ واحدٍ منها عينَ الذَّات ورد إلى مرتبة العلم، واكتسبتْ هذه الكمالاتُ المفصَّلة في مرتبةٍ ثانيةٍ وجوداً ظليّاً، وسميت باسم الصِّفات، وحصل لها القيامُ بحضرة الذَّات التي هي أصلها، والأعيانُ الثَّابتةُ عند صاحب «الفصوص» عبارةٌ عن تلك الكمالات المفصَّلة التي اكتسبتْ وجوداً علمياً في موطن العلم، وحقائقُ الممكنات عند الفقير العدماتُ التي هي مبادئُ جميع الشرّ والنَّقص مع تلك الكمالات التي انعكست عليها، وهذا الكلامُ يستدعي تفصيلاً ينبغي الاستماعُ له بأذن العقل.

أرشدك الله، إنَّ العدمَ مقابلٌ للوجود، ونقيضٌ له، فيكون منشأَ جميع الشرّ والنَّقص بالذات، بل عينَ جميع الشرّ والفساد، كما أنَّ الوجودَ في مرتبة الإجمال عينُ كلّ خيرٍ وكمالٍ، وكما أنَّ الوجودَ في موطن أصل الأصل غيرُ محمولٍ على الذات بطريق الاشتقاق؛ كذلك العدمُ المقابلُ لذلك الوجود غيرُ محمولٍ على ماهية العدم بطريق الاشتقاق. ولا يمكن أن يقال لتلك الماهية في تلك المرتبة: إنَّها معدومةٌ، بل هي عدمٌ محضٌ، وفي مراتب التَّفصيل العلميّ المتعلّق بتلك الماهية العدميّة تتَّصف جزئياتُ تلك الماهية بالعدم، ويصدق عليها العدمُ بالحمل الاشتقاقيّ، ....

ومفهومُ العدم الذي هو كالمنتزع من الماهية العدميّة الإجماليّة وكالظلّ لها يُحملُ على جميع أفرادها المفصلّة بطريق الاشتقاق كما سيجيءُ. ولَمّا كان ذلك العدمُ في مرتبة الإجمال عينَ كلِّ شرٍ وفسادٍ، وامتاز كلُّ فردٍ من أفراد الشرّ والفساد في علم الله سبحانه عن فردٍ آخر، كما أنَّ في جانب الوجود كان حضرةُ الوجود في مرتبة الإجمال عينَ كلِّ خيرٍ وكمالٍ، وفي مرتبة التَّفصيل العلميّ امتاز كلُّ فردٍ من أفراد الكمال والخير من فردٍ آخر؛ انعكس كلُّ فردٍ من أفراد تلك الكمالات الوجوديّة على كلِّ فردٍ من أفراد تلك النَّقائص العدميّة التي هي في مقابلتها في مرتبة العلم، وامتزجت صورُ كلٍّ منهما العلميَّة بالأخرى، وتلك العدماتُ التي هي عبارةٌ عن الشُّرور والنَّقائص مع تلك الكمالات المنعكسة عليها اللتان حصلا لهما في مرتبة حضرة العلم التَّفصيل العلميّ ماهياتُ الممكنات. **غَايةُ ما فِي البابِ**: إنَّ تلك العدمات كأصول تلك الماهيات وموادِّها، وتلك الكمالاتُ كالصُّور الحالَّة فيها، فالأعيانُ الثَّابتةُ عند هذا الحقير عبارةٌ عن تلك العدمات وتلك الكمالات اللتين امتزجت كلٌّ منهما بالأخرى، والقادرُ المختارُ جلّ سلطانه صبغ تلك الماهيَّةَ العدميّةَ مع لوازمها ومع الكمالات الظلالية الوجوديّة المنعكسة عليها في حضرة العلم المسمّاة بماهية الممكنات بصبغ الوجود الظلي في وقتٍ أراده، وجعلها موجوداتٍ خارجيّةً، ومبدأً للآثار الخارجية. ينبغي أن يعلم أنَّ جعل الصور العلميَّة التي هي عبارةٌ عن الأعيان الثابتة الممكنة وماهياتها منصبغةً - يعني: بالوجود -، لا بمعنى: خروج الصُّور العلميَّة من موطن العلم وحصول الوجود الخارجيّ لها، فإنَّ ذلك محالٌ؛ لاستلزامه الجهل له سبحانه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. بل بمعنى: أنَّ الممكنات عرض لها الوجود في الخارج على طبق تلك الصور العلمية وراء الوجود العلميّ، كما أنَّ النَّجّار يتصوَّرُ في ذهنه صورة السرير، ثم يخترعها في الخارج، ففي هذه الصُّورة لا تخرج تلك الصُّورةُ الذِّهنيةُ السريريَّةُ التي هي بمثابة الماهيَّة للسرير من علم النجار، بل عرض للسرير وجودٌ في الخارج على طبق تلك الصورة الذهنية. فافهم.

اعلم أنَّ كلَّ عدمٍ لَمّا انصبغ بظلٍّ من ظلال الكمالات الوجوديّة المقابلة لها والمنعكسة عليها؛ عرض له وجودٌ وزينةٌ في الخارج، بخلاف العدم الصِّرْف، فإنَّه لم يتأثَّرْ بهذه الظلال، ولم يقبل لونـاً وصبغـاً، وكيف يقبل اللونَ والصبغَ؟ فإنَّه ليس مقابلاً لهذه الظلال، فإن كانت له مقابلةٌ؛ فهي بحضرة الوجود الصِّرْف تعالى وتقدس، فالعارفُ التامُّ المعرفة إذا نزل إلى مقام العدم الصِّرْف بعد ترقِّيه على حضرة الوجود الصرف؛ يحصل لهذا العدم أيضـاً بتوسُّله انصباغٌ بحضرة الوجود، وتزيُّنٌ به وحسنٌ، فحينئذٍ يحصل لجميع مراتب أعدام هذا العارف التي هي في الحقيقة مراتبُه الذاتيّةُ الحسنُ والخيريّةُ إجمالاً وتفصيلاً، ويحصل لها الجمالُ والكمالُ، وهذه الخيريَّةُ الساريةُ في جميع المراتب الذاتيّة مخصوصةٌ بمثل هذا العارف، فإن سرت الخيريّةُ في غيره؛ فهي إما مقصورةٌ على بعض المراتب التَّفصيليّة من أعدامه الذاتيّة، أو ساريةٌ في جميع مراتبها التَّفصيلية على تفاوت الدَّرجات، وهذا القسمُ الأخير أيضـاً نادرُ الوجود. وأما مرتبةُ إجمال العدم الذي هو عينُ كلّ شرٍّ ونقصٍ؛ فلم تحصل فيها رائحةٌ من الخيريَّة لأحد سوى العارف المذكور، ولا نوع من الحسن، فيحصل لشيطان هذا العارف المتصف بالخيرية التامة أيضـاً حسنُ الإسلام، وتصير نفسُه الأمَّارةُ مطمئنّةً وراضيةً عن مولاها.

ومن ههنا قال سيد المرسلين عليه وعليهم الصلوات والتسليمات: «**إِلَّا أَنَّ شَيْطَانِي قَدْ أَسْلَمَ**»(١)، فإذا كان كذلك؛ فلا يسبقه غاز في غزوةٍ أصلاً، ولا يدلُّ مثل الشيطان على الخير أبداً. سبحان الله، إنَّ المعارفَ التي تظهر من هذا الحقير من غير اختيارٍ لو اجتمع الجمّ الغفيرُ واجتهدوا في تصوُّرها لا يدرى يتيسّر أو لا، ويشبه أن يكون الحظُّ الوافرُ من هذه المعارف نصيب حضرة المهدي الموعود عليه الرضوان: (شعر)

وَمَتَى أَتَى بَابَ الْعَجُوزِ خَلِيفَةٌ ... إِيَّاكَ يَا صَاحِ وَنَتْفَ سِبَالِكَا

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، والحمد لله رب العالمين. فتكون ذواتُ الممكنات عدماتٍ انعكست عليها ظلالُ الكمالات الوجوديّة وزيَّنَتْها، فلا جرم تكون الممكناتُ مأوى كلِّ شرٍّ وفسادٍ، وملاذَ كلِّ سوءٍ ونقصٍ وعنادٍ، وما فيها من الخير والكمال؛ فهو عاريةٌ من حضرة الوجود الذي هو خير محض، ومفاضٌ عليها منه، ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَّا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] شاهدٌ لهذا المعنى، فإذا استولت رؤيةُ كونه عاريةً على السَّالك بفضل الله جلّ سلطانه، ورأى كمالاته من ذلك الطرف؛ يجد نفسه شراً محضاً، ونقصاً خالصاً، ولا يشاهد في نفسه كمالاً أصلاً ولو بطريق الانعكاس، ويكون كعريانٍ لبس ثوبَ العارية، واستولت عليه رؤيةُ كونه عاريةً غايةَ الاستيلاء على نهج يعطي الثوب لصاحبه بالكليّة في التخيُّل، فحينئذٍ يجدُ نفسه بالذوق عارياً ألبتَّة وإن كان متلبساً بثوب العارية. وصاحبُ هذه الرؤية مشرَّفٌ بمقام العبديَّة الذي هو فوق جميع كمالات الولاية، واجتماعُ الخير والشرّ والكمال والنَّقْص الذي هو اجتماعُ الوجود والعدم في الحقيقة ليس من قبيل اجتماع النَّقيضين الذي يُعَدُّ محالاً، فإنَّ نقيضَ الوجود الصِّرْف هو العدمُ الصرفُ، وهذه المراتبُ الظليَّةُ كما أنَّها تنزَّلتْ في جانب الوجود من ذروة الأصل إلى حضيض التنزُّلات؛ كذلك ترقَّتْ في جانب العدم من حضيض صرافة العدم، بل اجتماعُها من قبيل اجتماع العناصر المتضادَّة المجتمعة بعد كسر السورة المضادّة من كلٍّ منها، فسبحان من جمع بين الظلمة والنور.

فإن قيل: أنت حكمت فيما سبق بانصباغ العدم الصرف بالوجود الصِّرْف الذي هو نقيضُه، فحصل إذاً اجتماعُ النقيضين.

أقول: إنَّ المحالَ إنّما هو اجتماع النقيضين في محلٍّ واحدٍ، وأما قيامُ أحد النَّقيضين بالآخر واتصافُه به؛ فليس ذلك بمحالٍ كما قال أربابُ المعقول: إنَّ الوجودَ معدومٌ، واتِّصافَ الوجود بالعدم ليس بمحالٍ، فعلى هذا لو كان العدمُ موجوداً ومنصبغاً بالوجود لم يكن محالاً.

فإن قيل: إنَّ العدمَ من المعقولات الثّانية، وهي منافيةٌ للوجود الخارجيّ، فكيف يتَّصفُ العدمُ بالوجود الخارجيّ؟

أقول: إنَّ ما هو من المعقولات الثّانية هو مفهومُ العدم دون مصداقه، فأيُّ فسادٍ في اتصاف فردٍ من أفراد العدم بالوجود؟ كما قال أربابُ المعقول في الوجود بطريق الاستشكال: إنَّ الوجودَ لا ينبغي أن يكون عينَ ذات واجب الوجود تعالى وتقدس؛ لأنَّ الوجودَ من المعقولات الثّانية التي لا وجودَ لها في الخارج، وذاتُ واجب الوجود تعالى موجودةٌ في الخارج، فلا يكون عينها. وقالوا في جوابه: إنَّ ما هو من المعقولات الثّانية هو مفهومُ الوجود لا جزئياتُه، فلا يكون جزئيٌّ من جزئياته منافياً للوجود الخارجيِّ، بل يمكن أن يكون موجوداً في الخارج.

فإن قلت: قد علم من التّحقيق السَّابق: أنَّ وجودَ الصِّفات الحقيقيَّة إنّما هو في مرتبة الظلال، وأما في مرتبة الأصل؛ فلا وجودَ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨١٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: «ما منكم من أحدٍ إلا وقد وكِّل به قرينُه من الجن؟»، قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «وإياي، إلا أنَّ الله أعانني عليه، فأسلم، فلا يأمرني إلا بخيرٍ».

لها فيها، وهذا الكلامُ مخالفٌ لرأي أهل الحقّ شكر الله سعيهم، فإنّهم لا يجوّزون انفكاكَ الصِّفات عن الذات أصلاً، ويقولون بامتناع انفكاكها عنها.

أجيب: لا يلزم من هذا البيان جوازُ الانفكاك، فإنَّ ذلك الظلَّ لازمُ الأصل، فلا انفكاكَ.

غَايةُ ما فِي البابِ: إنَّ العارف الذي قبلةُ توجّهه أحديَّةُ الذات تعالت وتقدست لا يكون له شيءٌ من الأسماء والصِّفات ملحوظاً أصلاً، فيجد الذَّات في ذلك الموطن ألبتَّة، ولا يكون شيءٌ من الصِّفات ملحوظاً له أصلاً، لا أنَّ الصِّفات ليست بحاصلةٍ في ذلك الوقت، فانفكاكُ الصِّفات من حضرة الذَّات إن ثبت؛ ثبت باعتبار ملاحظة العارف، لا باعتبار نفس الأمر حتى يكون مخالفاً لِمَا عليه أهلُ السنة. وقد لاح من هذا البيان معنى: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ**»[1]، فإنَّ الشَّخصَ إذا عرف نفسه بالشرّ والنقص، وعرف أنَّ ما فيه من الخير والكمال والحسن والجمال مستعارٌ من واجب الوجود المقدس المتعال؛ فقد عرف الحقَّ سبحانه بالخير والكمال والحسن والجمال بالضَّرورة، واتَّضح من هذه التَّحقيقات المعنى التأويليّ لقوله تعالى: ﴿**ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ**﴾ [النور: ٣٥]؛ لأنَّه قد تبيَّن أنَّ الممكنات بأسرها عدماتٌ، وبأجمعها شرٌّ وظلماتٌ، وما فيها من الخير والكمال والحسن والجمال مفاضٌ من حضرة الوجود الذي هو عينُ حضرة الذات تعالت وتقدَّست، وعينُ كلّ خيرٍ وكمالٍ، فيكون نورُ السّموات والأرضين هو حضرةَ الوجود الذي هو حقيقة الواجب تعالى وتقدس، ولَمّا كان ذلك النورُ في السّموات والأرض بتوسُّط الظلال؛ أَوْرَدَ تمثيلاً لذلك النور لرفع توهُّم من عسى أن يتوهَّم أنَّه بلا توسُّطٍ، حيث قال تعالى: ﴿**مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ**﴾ [النور: ٣٥] الآية، إيذاناً بثبوت الوسائط. وتفصيلُ تأويل هذه الآية الكريمة يثبتُ إن شاء الله تعالى في محلٍّ آخرَ، فإنَّ المجالَ للكلام كثيرٌ هناك، وهذا المكتوبُ لا يسع تفصيله.

وإنَّما قلنا: المعنى التأويليُّ لقوله تعالى؛ لأنَّ المعنى التَّفسيريَّ مشروطٌ بالنَّقل والسماع، ولعلك سمعت: «**مَنْ فَسَّرَ الْقُرْآنَ بِرَأْيِهِ فَقَدْ كَفَرَ**»[2]، وفي التَّأويل يكفي مجرَّدُ الاحتمال بشرط عدم مخالفته الكتاب والسنَّة، فتقرَّر أنَّ ذوات الممكنات وأصولَها عدماتٌ، وصفاتهم النَّقائصُ والرذائلُ التي هي مقتضياتُ تلك العدمات، وجدتْ بإيجاد القادر المختار جلّ سلطانه، والصِّفاتُ الكاملةُ فيهم مستعارةٌ من ظلال كمالات حضرة الوجود تعالى وتقدس، ظهرتْ فيهم بطريق الانعكاس، ووجدتْ بإيجاد القادر المختار أيضاً. ومصداقُ حسن الأشياء وقبحها: هو أنَّ كلَّما هو ناظرٌ إلى الآخرة ومعدٌّ لها؛ فهو حسنٌ وإن لم يكن مستحسناً في الظَّاهر، وكلَّما هو ناظرٌ إلى الدّنيا ومعدٌّ لأجلها؛ فهو قبيحٌ وإن كان حسناً في الظَّاهر، وظاهراً بالحلاوة والطَّراوة كالمزخرفات الدنياوية، ولهذا منع في الشَّريعة المصطفوية على صاحبها الصلاة والسلام والتحية من النَّظَر والميل إلى حسن المرد والنساء..

---

(١) قال ابنُ السمعاني: هو من كلام يحيى بن معاذ الرازي. انظر: «الدرر المنتثرة»: (ص: ١٨٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٥١) وحسنه، وأبو داود من رواية ابن العبد كما ذكره العراقي، والنسائي في «الكبرى» (٨٠٣١) من حديث ابن عباس ﷺ بلفظ: «فليتبوأ مقعده من النار».

وأخرجه الترمذي (٢٩٥٢) واستغربه من حديث جندب بن عبد الله ﷺ مرفوعاً: «من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ».

وأخرجه الترمذي أيضاً (٢٩٥٠) وحسنه من حديث ابن عباس ﷺ مرفوعاً: «من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار».

الأجنبيات، وتمنّي المزخرفات الدنية، فإنَّ ذلك الحسنَ والطراوةَ من مقتضيات العدم الذي هو مأوى كلِّ شرٍّ وفسادٍ، فلو كان منشأُ هذا الحسن والجمال الكمالات الوجوديّة؛ لما يُمنعُ عنه إلا من جهة كون التوجّه إلى الظلّ مع وجود الأصل مستهجناً ومستقبحاً، وهذا المنعُ منعٌ استحسانيٌ لا وجوبيٌّ، بخلاف المنع السَّابق.

فالحسنُ الظَّاهرُ في المظاهر الجميلة الدنيويَّة ليس هو من ظلال حسنه تعالى، بل هو من لوازم العدم، اكتسبه في الظَّاهر بواسطة مجاورته الحسنَ، وإلا؛ فهو في الحقيقة قبيحٌ ناقصٌ، كسمٍّ مدسوسٍ في السُّكَّر، ونجاسةٍ مطليةٍ بالذَّهب.

وإنّما جُوِّزَ التَّمتُّعُ بالنساء الجميلة المنكوحة والإماء الجميلة المملوكة بواسطة تحصيل الأولاد وإبقاء النَّسْل المطلوب لبقاء نظام العالم، فما ابتلي به بعضُ الصوفيَّة من المظاهر الجميلة والنَّغمات المستحسنة بتخيُّل أنَّ هذا الحسنَ والجمالَ مستعارٌ من كمالات حضرة واجب الوجود تعالى وتقدس ظهر في هذه المظاهر، وزعمهم هذا الابتلاءَ حسناً ومتحسناً، بل تصوُّرَهم إيّاه طريق الوصول؛ ثبت عند هذا الحقير خلافُه كما مرَّت نبذةٌ فيما سبق. والعجبُ أنَّ بعضهم يُورِدُ هذا القولَ: (إيَّاكم والمُرد فإنَّ فيهم لوناً كلون الله) سنداً لمطلبه، وكلمةُ (كلون الله) تُوقِعُهم في الاشتباه، ولا يدرون أنَّ هذا القولَ منافٍ لمطلبهم، ومؤيِّدٌ لمعرفة هذا الدّرويش؛ لأنَّه ورد فيه كلمةُ التَّحذير منعاً عن التَّوجّه إليهم، وبيِّن منشأ الغلط بأنَّ حسنَهم مشابهٌ لحسن الحق وجماله سبحانه، لا حسنه تعالى؛ لئلا يقعوا في الغلط، قال عليه الصلاة والسلام: «**مَا الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ إِلَّا ضَرَّتَانِ، إِنْ رَضِيَتْ إِحْدَاهُمَا سَخِطَتِ الْأُخْرَى**»، وفي الحديث أيضاً تصريحٌ بوجود المباينة والمناقضة بين حسن الآخرة وحسن الدنيا وبين جماليهما، ومن المقرَّر أنَّ الحسنَ الدنيويَّ غيرُ مرضيٍّ، والحسنَ الأخرويَّ مرضيٌّ، فيكون الشرُّ لازمَ الحسن الدنيويّ، والخير لازمَ الحسن الأخرويّ، فبالضَّرورة يكون منشأُ الأوّل عدماً، ومنشأُ الثَّاني وجوداً.

نعم، إنَّ بعضَ الأشياء له وجهٌ إلى الدُّنيا ووجهٌ إلى الآخرة، فهذا قبيحٌ من الوجه الأوّل، وحسنٌ من الوجه الثَّاني، وتمييزُ ما بين هذين الوجهين وفرقُ ما بين حسنه وقبحه مفوَّضٌ إلى علم الشَّريعة، قال الله تعالى: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**﴾ [الحشر: ٧]، وقد ورد في الخبر: «**إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَنْظُرْ إِلَى الدُّنْيَا مُنْذُ خَلَقَهَا**»(١) لكونها مبغوضاً عليها عنده سبحانه، وكلُّ ذلك بواسطة قبحها وشرّها وفسادها التي هي من مقتضيات العدم الذي هو مأوى جميع الفساد، وحسنُ الدنيا وجمالها وحلاوتها وطراوتُها كلّ منها كالمطروح في الطَّريق لا يستحقُّ النظرَ إليه، والمستحقُّ للنَّظَر إنّما هو جمالُ الآخرة، فإنَّه مرضيُّ الحقّ سبحانه، قال الله سبحانه شكايةً من حالهم: ﴿**تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ**﴾ [الأنفال: ٦٧]. اللهم صغِّر الدنيا في أعيننا، وكبِّر الآخرة في قلوبنا، بحرمة من افتخر بالفقر، وتجنب عن الدنيا، عليه وعلى آله أتم الصلوات وأكمل التسليمات.

والشيخُ الأجلُّ محيي الدين ابن العربي قدس سره لَمّا لم يقع نظرُه على حقيقة شرّ الممكنات ونقصها وقبحها؛ جعلَ حقائقَ الممكنات الصورة العلميَّةَ الإلهيّةَ جل وعلا، وقال: إنَّ تلك الصُّورَ انعكستْ على مرآة حضرة الذَّات التي لا يقول بوجود شيءٍ غيرها في الخارج، فحصلت لها بسبب ذلك الانعكاس غور يعني: ظهور خارجي، ولا يرى هذه الصورَ العلميَّةَ غيرَ صور شؤون الواجب وصفاته جلّ سلطانه، فلا جرم حَكَمَ بوحدة الوجود، وقال بعينيَّة وجود الممكنات بوجود الواجب تعالى وتقدس، وقال بنسبيّة الشرّ.........................

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «ذم الدنيا» (ص: ٢٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٣/ ١٠٢) من حديث موسى بن يسار بلاغاً، وعزاه المتقي الهندي للحاكم في «تاريخه». انظر: «كنز العمال»: (٣/ ١٩٠)، وأخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٦٠/ ١٠٣) من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً بلفظ: «إن الله خلق الدنيا منذ خلقها، فلم ينظر إليها بعد إلا مكان المتعبدين منها».

والنقص، ونفى الشرّ المطلق والنقص المحض، ومن ههنا لا يقول بوجود قبيح بالذات، حتى إنَّه يقول: إنَّ قبحَ الكفر والضلالة إنّما هو بالنِّسبة إلى الإيمان والهداية، لا بالنِّسبة إلى ذاتهما، بل يراهما عينَ الخير والصَّلاح، ويحكم باستقامتهما بالنِّسبة إلى أربابهما، ويجعل قوله تعالى: ﴿مَا مِنْ دَآبَّةٍ اِلَّا هُوَ اٰخِذٌ بِنَاصِيَتِهَاۜ اِنَّ رَبّٖى عَلٰى صِرَاطٍ مُسْتَقٖيمٍ﴾ [هود: ٥٦] شاهداً لهذا المعنى.

نعم، إنَّ من يحكم بوحدة الوجود لا يتحاشى من أمثال هذه الكلمات، وما ظهر لهذا الفقير أنَّ ماهيات الممكنات عدماتٌ مع الكمالات الوجوديّة المنعكسة عليها والممتزجة بها كما مرَّ مفصلاً، والله سبحانه يحق الحق وهو يهدي السبيل.

أيُّها الولدُ، إنَّ هذه العلومَ والمعارفَ التي لم يتكلّم بها أحدٌ من أهل الله لا صريحاً ولا إشارةً من أشرف المعارف وأكمل العلوم، برزتْ في منصَّة الظُّهور بعد ألف سنةٍ، وكشفت عن وجه حقيقة الواجب تعالى وتقدس وحقائق الممكنات النِّقابَ كما ينبغي ويحرى، بحيث لا مخالفةَ فيها للكتاب والسنَّة، ولا مباينةَ بينها وبين أقوال أهل الحقّ، وكان المرادُ والمقصودُ من دعاء النبي ﷺ الذي يشبه أن يكون صدوره عنه لتعليم الأمّة حيث قال: «**اللّٰهُمَّ أَرِنَا حَقَائِقَ الْأَشْيَاءِ كَمَا هِيَ**»(١) هو هذه الحقائقَ المبيّنةَ في ضمن هذه العلوم المناسبة لمقام العبوديّة الدالَّة على الذلِّ والانكسار الملائم لحال العبيد، وأيُّ كمالٍ وخيرٍ في رؤية العبد نفسَه عينَ مولاه القادر؟ بل هي تُنْبِئُ عن كمال فقد الأدب.

أيُّها الولدُ، إنَّ هذا الوقت لَوقتٌ كان في الأمم السَّابقة يبعث في مثل هذا الوقت المملوء بالظُّلمة نبيٌّ من الأنبياء أولي العزم؛ لإحياء الشَّريعة وتجديدها، وفي هذه الأمَّة التي هي خيرُ الأمم ونبيّهم خاتم الرسل عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات أعطي العلماءُ مرتبةَ أنبياء بني إسرائيل، واكتفي بوجود العلماء من وجود الأنبياء، ولهذا يتعيّن على رأس كلِّ مائةٍ مجدِّدٌ من علماء هذه الأمّة؛ لإحياء الشَّريعة، وعلى الخصوص بعد مضيّ ألف سنةٍ، فإنَّه وقتُ بعثة نبي من الأنبياء أولي العزم في الأمم السابقة، وما كان يكتفى فيه بأيّ نبيٍّ كان، ففي مثل هذا الوقت يلزم أن يكون عالمٌ عارفٌ تامُّ المعرفة؛ ليكون قائماً مقامَ نبيٍّ من الأنبياء أولي العزم من الأمم السابقة: (شعر)

لَوْ جَاءَ مِنْ فَيْضِ رُوحِ الْقُدْسِ مِنْ مَدَدٍ ... خَلَا الْمَسِيحَ لَيَصْنَعْ مِثْلَ مَا صَنَعَا

أيها الولدُ، إنَّ المقابلَ للوجود الصرف: هو العدمُ الصرفُ، وقد سبق أنَّ الوجودَ الصرفَ حقيقةُ واجب الوجود تعالى وتقدس، وأنَّه عينُ كلِّ خيرٍ وكمالٍ، وإن لم يكن لملاحظة هذه العينيَّة هناك مجالٌ ولو على سبيل الإجمال؛ لوجود شائبة الظليَّة فيها، والعدمُ الصرفُ الذي هو مقابل الوجود الصِّرْف لم يتطرَّقْ إليه شيءٌ من النِّسبة والإضافة، وعين كلِّ شرٍّ ونقصٍ وإن لم يكن لهذه العينيَّة فيه أيضاً مجالٌ لوجود رائحة الإضافة فيها، ومن المعلوم أنَّ ظهورَ الشيء على الوجه الأتمِّ إنّما يتصوَّرُ في مقابلة الحقيقيّ، والأشياءُ إنَّما تتبيَّنُ بضدها، فبالضَّرورة يحصل ظهورُ الوجود على الأتمّ في مرآة العدم الصرف، ومن المقرَّر أنَّ النّزولَ على قدر العروج، فمن تحقّق عروجه بعناية الله سبحانه إلى حضرة الوجود؛ يكون نزولُه بالضَّرورة إلى العدم المقابل له، لكنَّ وقتَ العروج الذي فيه استهلاكُ العارف الجهل لازمٌ له، ووقتَ النُّزول الذي هو متحقّقٌ بالصحو يكون متَّصفاً بالعلم والمعرفة لكونه مقامه، وفي مقام الصّحو يتشرَّفُ بالتجلِّي الذاتِيّ الذي هو مبرَّأ عن شائبة الظليَّة، ومنزَّهٌ عن ملاحظة الشُّؤون والاعتبارات الذاتيّة، ويكون معلوماً له أنَّ جميع التجلِّيات التي قبله كانت في حُجُبِ ظلٍّ من ظلال الأسماء والصِّفات والشؤون..........

(١) قيل: هو لبعض العارفين كما ذكره المعرِّبُ رحمه الله تعالى.

والاعتبارات، وإن اعتقد العارفُ أنَّها بلا ملاحظة الأسماء والصِّفات والشؤون والاعتبارات، وعدَّها تجلِّياتٍ وجوديّةً صرفةً. سبحان الله، إنَّ هذا العدمَ الذي هو مأوى كلّ شرٍّ ونقصٍ قد اكتسب الحسنَ بواسطة ظهور حضرة الوجود فيه ظهوراً تامّاً، ونال ما لم ينله أحدٌ، وصار القبيحُ لذاته بواسطة الحسن العارض مستحسناً، والنَّفسُ الأمَّارةُ الإنسانيّةُ التي هي مائلةٌ بالذات إلى الشرّ فيها مناسبة من بين الكلّ لهذا العدم، ولهذا صارت فائقةً على الكلّ في التجلّي الخاصّ، وسابقةً للكلّ في الترقّي والاختصاص: (ع) أَحَقُّ الْخَلْقِ بِالْكَرَمِ الْعُصَاةُ

ينبغي أن يعلم أنَّ العارفَ التامَّ المعرفة إذا نزل بعد طيِّ مقامات العروج ومراتب النُّزول تفصيلاً إلى مقام العدم الصرف، وحصلت له مرآتيةُ حضرة الوجود؛ يظهر فيه جميعُ الكمالات بالأسمائيَّة والصِّفاتية، ويظهر جميعها تفصيلاً مع لطائف؛ كان مقام الإجمال متضمناً لها، وهذه الدَّولةُ لا تتيسّر لغيره، وتلك المرآتيّةُ لباسٌ فاخرٌ مخيطٌ على مقدار قده، وصورُ هذا التَّفصيل وإن كانت ثابتةً في خزانة الحضرة العلمية، ولكنَّها مرآتيةٌ في حضرة العلم، ومرآتيَّةُ هذا العارف في مرتبة الخارج حيث أظهر جميع الكمالات في الخارج.

فإن قيل: ما معنى كون العدم مرآةً، فإنَّه لا شيء محضٌ، فبأيّ اعتبارٍ قيل له: إنَّه مرآةٌ للوجود؟

أجيب: أنَّ العدمَ باعتبار الخارج لا شيء محضٌ، وأما في العلم؛ فقد عرض له فيه امتيازٌ، بل حصل له وجودٌ علميٌّ أيضاً عند مثبتي الوجود الذهنيّ، وقيل له: مرآةُ الوجود باعتبار أنَّ كلَّما يثبت من الشرّ والنقص في مرتبة العدم يكون مسلوباً عن الوجود الذي هو نقيضُه ألبتّة، وكلُّ كمالٍ يكون مسلوباً عن مرتبة العدم يكون مثبتاً في حضرة الوجود، فلا جرم كان العدم سبباً لظهور الكمالات الوجوديّة، ولا معنى للمرآتية إلا هذا. فافهم فإنه ينفعك، والله سبحانه الملهم.

أيُّها الولدُ، إنَّ هذه المعارفَ المحرَّرةَ نرجو أن تكون من الإلهامات الرحمانيَّة التي لا يكون للوساوس الشيطانيَّة فيها مجالٌ، والدَّليلُ على صدق هذا المعنى: أنّي لَمّا كنت متصدياً لتحرير هذه العلوم ملتجئاً إلى جناب قدسه تعالى؛ رأيتُ كأنَّ الملائكة الكرام على نبينا وعليهم الصلاة والسلام يطردون الشياطينَ ويدفعونهم عن نواحي هذا المقام، ولا يتركونهم يحومون حول هذا المكان، والله سبحانه أعلم بحقيقة الحال.

ولَمّا كان إظهارُ النِّعَم الجزيلة من أعظم المحامد الجميلة؛ تجاسرتُ على إظهار هذه النِّعمة العظمى، والمرجوُّ أن يكون مبرَّأً من مظنَّة العجب، وكيف يكون فيه للعجب مجالٌ والحالُ أن نقصي وقبحي الذاتيّين نصبُ العين في كلِّ وقتٍ بعناية الله سبحانه؟ والكمالات كلّها منسوبةٌ إليه تعالى.

الحمد لله رب العالمين أولاً وآخراً، والصلاة والسلام على رسوله دائماً وسرمداً، وعلى آله الكرام، وأصحابه العظام، والسلام على سائر من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى عليه وعلى آله الصلاة. والسلام.

المكتوب الخامس والثلاثون والمائتان

إلى المـلّا عبدِ الغفورِ السَّمَرقَندِيِّ، وحاجي بيگ الفَرْكَتِيِّ، والخواجه أشرف الكَابُليِّ في بيانِ أنَّ محبَّةَ هذه الطَّائفَة رأسُ كلِّ سعادةٍ دنيويَّةٍ وأُخرويَّةٍ، وما يُناسِبه.

بعد الحمد والصلوات، وتبليغ الدعوات، ليكنْ معلوماً للأحباب الحقيقيين، والمشتاقين التَّحقيقيين: أنَّه قد حصل السُّرورُ والابتهاجُ بوصول المكاتيب الشَّريفة المنبئة عن فرط المحبَّة والاشتياق،...........................

ثبَّتكم الله سبحانه على هذه المحبَّة، وينبغي لكم أن تسألوا اللهَ سبحانه الثباتَ والاستقامةَ عليها، معتقدين بأنَّها رأسُ سعادةٍ دنيويّةٍ وأخرويَّةٍ، والتَّوفيقُ لإتيان الأحكام الشَّرعيّة نتيجةُ هذه المحبَّة، وتحصيلُ جمعيَّة الباطن ثمرةُ هذه المودَّة، ولو صُبَّتْ جميعُ ظلمات العالم وكدوراته في الباطن وهذه المحبَّةُ قائمةٌ؛ ينبغي أن لا يغتمَّ أصلاً، بل ينبغي أن يكون راجياً، ولو أفيضت أمثال الجبال من الأنوار والأحوال على الباطن، وقد زالت مقدارُ شعرةٍ من هذه المحبَّة ينبغي أن لا يعتقد ذلك شيئاً غير الخذلان، وينبغي أن يعدَّه استدراجاً. وعليكم بالتوجّه إلى شغلكم متمسكين بحبل هذه المحبَّة تمسُّكاً شديداً دون أن تضيِّعوا العمرَ العزيزَ بأمورٍ لا طائل فيها: (شعر)

وَإِيَّــاكُــمْ وَالِاغْــتِــرَارَ بِــزُخْــرُفٍ ... سَــرِيعِ انْتِقَالٍ لَنْ تَرَوْا نَفْعَهُ أَصْــلَا

والسلامُ على من اتّبع الهدى، والتزم متابعةَ المصطفى، عليه وعلى آله من الصلوات أفضلها ومن التسليمات أكملها.

المَكْتُوبُ السَّادِسُ وَالثَّلَاثُونَ وَالمِائَتَانِ

إلى المَخدومِ زَادَه الشَّيخ مِيَان محمَّدٍ صادقٍ قدِّس سرُّه في بيانٍ بعضِ الأسرارِ.

بعد الحمد والصلوات، ليكن معلوماً للولد الأرشد أنَّه قد فهم من مكتوبكم المحرَّر في شرح الأحوال أنَّه قد حصلت لكم مناسبةٌ بالولاية الخاصَّة المحمديَّة، على صاحبها الصلاة والسلام والتحية، فشكرتُ الله سبحانه على ذلك حقَّ شكره، وكنت متمنِّياً لحصول هذه الدَّولة لكم من مدَّةٍ مديدةٍ، فحينئذٍ كنت متوجّهاً برجاء جذبكم إلى هذه الدَّولة، وبينا أنا في هذا الطَّلَب؛ إذ وجدتك داخلاً في الولاية الموسوية اتفاقاً، فأدخلتك في الولاية الخاصَّة جاذباً لك من هناك، لله سبحانه الحمد والمنَّةُ على ذلك، وحيث أدخلتُكَ في هذه الولاية قسراً؛ صرتُ أربِّيك أخذاً في كنفي، وقد مرَّ على ذلك أَزْيَدُ من عشرين يوماً، ولعلَّه لم يكن معلوماً لك من ضعف هذه النِّسبة، وحيث حصلت لها الآن قوَّةٌ يرجى أن يكون معلوماً لك أيضاً، وماذا أكتب من إنعامات الحقّ سبحانه الفائضة على التواتر والتوالي في حق هذا العاصي؟ (شعر)

كَأَنِّي رَوْضَــةٌ فِيهَا سَحَابُ الــــ ... رَّبِــيــعِ مُــمْــطِــرٌ مَــاءً زُلَالَا

فَــلَــوْ لِــي أَلْــفُ أَلْسِــنَــةٍ وَأُثْــنِــي ... بِــهَــا مَــا ازْدَدْتُ إِلَّا انْــفِــعَــالَا

ثم إنَّ الولدَ الأعزَّ محمداً سعيداً كان قد أظهر - في مكتوبه، فرأيتها أصيلةً جدّاً، لم - بهذه الخصوصيَّة خلا أناسٍ قليلين من الأصحاب، والمرجوُّ أن يشرِّفَه الحقُّ سبحانه أيضاً بالولاية الخاصَّة.

وولدي محمد معصوم قابلٌ لهذه الدَّولة بالذَّات بفضل الله تعالى، أخرجه الله سبحانه من القوَّة إلى الفعل، بحرمة حبيبه عليه وعلى آله الصلاة والسلام.

المَكْتُوبُ السَّابِعُ وَالثَّلَاثُونَ وَالمِائَتَانِ

إلى المـلَّا محمَّدٍ طالبٍ في التَّرغيبِ في متابعةِ السُّنَّة السَّنيَّة، ومدحِ الطَّريقةِ العليَّة النَّقشبَنديَّة قدَّس اللهُ أَسرارهُم السَّنيَّة.

ثبتنا الله سبحانه على جادة الشَّريعة المصطفوية، على صاحبها الصلاة والسلام، وعلى آله الكرام، وأصحابه العظام.

أيُّها الأخُ الأرشدُ، إنَّ أكابرَ الطَّريقة العليّة النقشبنديَّة قدس الله أسرارهم التزموا متابعةَ السنَّة السَّنِيَّة، واختاروا العملَ بالعزيمة، فإن تشرَّفوا بالأحوال..........

والمواجيد مع هذا الالتزام والاختيار؛ يعدُّونها نعمةً عظيمةً، وإن أُعطوا الأحوالَ والمواجيدَ، ووجدوا في هذا الالتزام والاختيار فتوراً؛ لا يقبلون تلك الأحوالَ، ولا يبغون تلك المواجيدَ، ولا يرون في ذلك الفتور شيئاً سوى الخذلان، فإنَّ براهمةَ الهنود وجوكيَّتَهم وفلاسفةَ اليونان لهم علومٌ كثيرةٌ من قسم التجلِّيات الصوريَّة والمكاشفات المثاليَّة، ولكن ليست لها نتيجةٌ غير الفضيحة والخذلان، وليس لهم من نقد الوقت سوى المقت والحرمان، وحيث دخل ذلك الأخُ بفضل الله سبحانه في سلك إرادة هولاء الأكابر؛ فلا بُدَّ من التزام متابعتهم واجتناب مخالفتهم ولو مقدار شعرةٍ حتى تكون منتفعاً ومستفيداً من كمالاتهم.

فاللازمُ أوَّلاً: تصحيحُ العقائد على وفق معتقدات أهل السنة والجماعة كثَّرهم الله سبحانه، ثم تحصيلُ علم الفرض والواجب والسنَّة والمندوب والحلال والحرام والمكروه والمشتبه مما ذكر في علم الفقه، والعملُ بمقتضى هذه العلوم ثانياً، ثم تصلُ النَّوبةُ إلى علوم التصوُّف ثالثاً، وما لم يصحَّ هذان الجناحان؛ فالطيرانُ إلى عالم القُدْس محالٌ، فإن حصلت الأحوالُ والمواجيدُ بدون حصول هذين الجناحين؛ ينبغي أن تعلم أن هلاكك فيها، وأن تتبرَّأ وتستعيذ منها:

هَـذَا هُـوَ الأَمْرُ وَالْبَـاقِـي خَـيَـالَاتٌ

﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [النور: ٥٤]. وقدم أخي الشيخ ميان داود هناك، ينبغي اغتنامُ صحبته، والانقيادُ له فيما ينصحُ به أو يدلُّ عليه، فإنَّه كثيرُ الصُّحبة بمريدي هؤلاء الأكابر، وتعلَّم طريقتهم وسيرتهم كما ينبغي، وليغتنم الأصحابُ الموجودون هناك الدَّاخلون في هذه الطَّريقة بواسطة المير نعمان صحبةَ المشار إليه، وليكن اجتماعُهم وجلوسُهم في حلقةٍ واحدةٍ فانياً كلُّ واحدٍ في الآخر حتى تحصل الجمعيَّةُ، وترقَّى المعاملةُ. وينبغي أيضاً التزامُ مطالعة المكتوبات، فإنَّها نافعةٌ:

دَلَلْتُـكَ يَـا هَـذَا عَلَى كَنْزِ مَقْصِـدِ

والسلام على من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى، عليه وعلى آله أتم الصلوات وأكمل التسليمات.

المكتوب الثامن والثلاثون والمائتان

إلى المير محمَّد نعمانَ في الحثِّ على تكثيرِ الإخوانِ، والتَّحذيرِ عن العُجبِ من أحوالِ المُريدينَ، وبيانِ ضررَه، وما يُناسِبه.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله الطيبين الطاهرين أجمعين. وصل المكتوبُ الشَّريفُ المرسلُ صحبةَ كس خواجه الرحمي، وصار موجباً لفرحٍ وافرٍ، وحيث اندرج فيه أحوالُ مسترشديكم ومريديكم بالتَّفصيل زاد الفرحُ، فإنَّ في الإكثار من الإخوان بموجب (أكثروا إخوانكم في الدِّين) رجاءً كثيراً، وقوله تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٣٥] مؤيِّدٌ لهذا المعنى أيضاً، ولكن ينبغي أن يكون مطمحُ النَّظر وموقعُه أحوالَ نفسك وأعمالك، والملحوظُ سكونَك وحركتَك؛ لئلا تكون ترقِّياتُ المريدين باعثةً على توقُّف الشُّيوخ، وحرارةُ المسترشدين مورثةً للبرودة في طلب المرشدين، ولهذا ينبغي أن تكون خائفاً ووجلاً من هذا المعنى، وأن ترى أحوالَ المريدين ومقاماتهم كالنَّمِر والأسد، فضلاً عن المفاخرة والمباهاة بها؛ لئلا يفتح من هذا الطَّريق أبوابُ العجب، بل ينبغي أن تكون ترقِّياتُ المريدين بحكم «الْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ» باعثةً على الحياء والخجالة والانفعال، وحرارةُ طلب الطالبين موجبةٌ للغيرة والعبرة وزيادة الاشتغال. وينبغي أيضاً أن يكون رؤيةُ قصور الأعمال واتِّهامُ النِّيَّات لازمَ الوقت، وأن يكون لسانُ الحال مرطوباً من كلمة: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [الذاريات: ٣٠]، وإن كان المتوقَّعُ من أوضاعكم المحمودة المقبولة........

أمثال هذه المعاملات، ولكن صدرَ التَّأكيدُ والمبالغةُ بملاحظة مكيدة أعداء الدين الأمَّارة واللعين، فلا تقع البرودةُ في حرارة التوجّه إلى الطالبين؛ لأنَّ المقصودَ: الجمعُ بين هاتين الدولتين، والاقتصارُ على إحداهما قصورٌ.

وينبغي أن يحضر الخواجه الرحمي والسيد أحمد مجلسكم، وعليكم أيضاً رعاية التوجّه في شأنهما على الوجه الأتمّ، فإن وُفِّقَ المير عبد اللطيف أيضاً للتَّوبة؛ ينبغي أن تمدَّهُ؛ لتحصل له الاستقامةُ.

وكتبتَ أيضاً أنَّ بعضَ الطَّالبين يريدون الطَّريقة القادريَّة، ينبغي أن لا تعلِّم أحداً أصلاً طريقةً غير الطَّريقة النقشبنديَّة حتى لا يكون خلطٌ بين الطَّريقتين، وأما لو طلبوا الكلاءة والشّجرة؛ فلك أخذُ المريد، ولكن مُرْهم بالصحبة. والسلام عليكم وعلى سائر أصحابكم وأحبابكم، وعلى سائر من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى، عليه وعلى آله الصلاة والسلام.

المَكتُوبُ التَّاسِعُ وَالثَّلَاثُونَ وَالمِائَتَانِ

إلى المـلَّا أحمدَ البَركيِّ في جوابِ استِفساراتِه.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وآله وأصحابه الطاهرين أجمعين. قد صرتُ مبتهجاً ومسروراً بمطالعة مضامين الصحيفة الكريمة المرسلة على وجه الشَّفقة والرأفة، وقد كتبت فيها أنَّ عرضَ الأحوال إنّما هي على تقدير حصول الأحوال... إلخ.

أيُّها المخدومُ، إنَّ المقصودَ من حصول الأحوال: التعلّقُ والارتباطُ بمحوِّل الأحوال، فإذا حصل هذا التعلّقُ؛ فلا ضَرَرَ من عدم حصول الأحوال. وكتبت أيضاً أنَّه قد ذكر في الحضور أنِّي أكثرتُ من إلقاء البذور في حقكم... إلخ.

أيُّها المخدومُ، الواقعُ كذلك، لكن حصول الثّمرات منوطٌ بمرور الدهور والأوقات حال الحياة وبعد الممات، أبشر ولا تعجلْ.

وكتبتَ أيضاً من مقالة مولانا محمد صالح، ولم يكن مولانا المذكور حاضراً حتى ينفهم مرادُه، فلا نتعرّضُ لها، ولكنَّه خيرٌ لا يخطر منه شيءٌ في الخاطر.

وكتبت أيضاً من صدور سوء الأدب. زلَّاتُ المخلصين معفوٌّ عنها، لا يقع غبارٌ في الخاطر، وطلبت البحثَ والتَّفتيشَ من أحوالك، لله سبحانه الحمدُ والمنَّةُ قد كنت من المقبولين قبلُ من قبلُ بلا علّةٍ. وكتبتَ أيضاً أنَّه حضر اثنان من أولاد المشائخ لتلقُّن الذكر... إلخ.

أيُّها المخدومُ، إنَّ الاستخارةَ مسنونةٌ في جميع الأمور ومباركةٌ، ولكن لا يلزم أن يظهر بعد الاستخارة شيءٌ في المنام أو في الواقعة أو في اليقظة يدلُّ على الفعل والترك، بل ينبغي الرجوعُ بعد الاستخارة إلى القلب، فإن كان الميلُ والإقبالُ إلى الأمر المطلوب أزيدَ من الأوّل؛ ففيه دلالةٌ على الفعل، وإن كان مثل ما كان سابقاً بلا زيادةٍ ولا نقصانٍ؛ فلا مَنْعَ في هذه الصُّورة أيضاً، وتُكَرَّرُ الاستخارةَ في هذه الصورة إلى أن تفهم الزيادةَ في الإقبال، ونهايةُ تكرار الاستخارة إلى سبع مراتٍ، ومتى فهم النُّقصانُ في الإقبال بعد أداء الاستخارة؛ فهو دليلٌ على المنع، ولا بأس في تكرار الاستخارة في هذه الصورة أيضاً، بل التَّكرارُ أَوْلى وأنسبُ في جميع التقادير، وأحوطُ في الإقدام والإحجام. وسألت عن معنى عبارة رسالة «المبدأ والمعاد» المحرَّرة في بيان الجسد المكتسب من الروح.

أيُّها المخدومُ، إنَّ مباشرةَ الروح للأفعال المناسبة للأجسام إنّما هي بواسطة ذاك الجسد المكتسب من الروح، ومن هذا القبيل الإمداداتُ الصَّادرةُ من روحانيَّة الأكابر قدس الله أسرارهم المناسبة للأجسام كإهلاك الأعداء ونصرة الأحباء بوجوهٍ ...

مختلفةٍ وأنحاء شتّى، وصدر طلبُ الأمان من فتنة الظلمة، قد جعلك الله - بل تلك البقعة - محفوظاً من شرِّ تلك الظّلمة، فكونوا متوجّهين إلى جناب قدسه تعالى وتقدّس بفراغ الخاطر، ونرجو أن لا يكون ذلك الحفظُ مؤقّتاً بوقتٍ، ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]، ولكن ينبغي نصيحةُ أهل تلك الدِّيار وتحذيرُهم عن تغيير وضع الصَّلاح، وإرادة الخير للمسلمين، قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]. والسلام.

المكتوبُ الأربعونَ والمائتانِ

إلى الشَّيخ يوسفَ البَرَكيِّ في بيانِ عدمِ نهايةِ هذا الطَّريقِ، وبعضِ فوائدِ كلمةِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل: ٥٩]. وصلت الرسالة المشتملةُ على أحوالكم الخير، فصارت مطالعَتُها باعثةً على المسرَّة: (ع) وَكَمْ فِي الْعِشْقِ مِنْ عَجَبٍ عَجِيبِ

ولكن ينبغي الترقِّي من الأحوال، والوصولُ إلى محوِّل الأحوال، وهناك كلُّه جهالةٌ ونكارةٌ، فإن تيسّر التشرُّفُ بعد ذلك بالمعرفة؛ فحبَّذت الدَّولةُ، وبالجملة إنَّ كلَّما يدخل تحت الرؤية والخيال؛ فهو قابلٌ للنفي، وإن كان ذلك شهودَ الوحدة في الكثرة، فإنَّ الكثرةَ لا تسع تلك الوحدةَ، والذي يُرَى؛ فهو شَبَحُ تلك الوحدة ومثالُه، لا هي نفسُها، فالمناسبُ لحالكم في هذا الوقت: تكرارُ كلمة (لا إله إلا الله) على وجهٍ لا تترك شيئاً يدخل تحت العلم والإدراك، وينجرُّ الأمرُ إلى الحيرة والجهالة، وتنتهي المعاملةُ إلى حدِّ الفناء، وما لم ينجرَّ الأمرُ إلى الحيرة والجهل؛ لا نصيب من الفناء، وما حَسِبْتَه فناءً؛ فهو معبَّرٌ عنه بالعدم لا الفناء، فإذا تيسّر الوصولُ إلى الجهل، وحصل الفناءُ؛ يوضع القدمُ على هذا الطَّريق، وأين الوصلُ؟ وإلى من الاتِّصالُ؟ (شعر)

كَيْفَ الْوُصُولُ إِلَى سُعَادَ وَدُونَهَا قُلَلُ الْجِبَالِ وَدُونَهُنَّ خُيُوفُ

وأحوالُك صحيحةٌ، ولكنَّ التعدِّي والترقِّي عنها لازمٌ. والسلام على من اتبع الهدى. وبقيَّةُ النصح: الاستقامةُ على الشَّريعة، وتطبيقُ الأحوال على الأصول الشَّرعيّة، فإن ظهر - عياذاً بالله سبحانه - خلافُ الشَّريعة قولاً وفعلاً ينبغي أن تعتقد أنَّ فيه هلاكك، وهذا هو طريقُ أرباب الاستقامة. والسلام.

المكتوبُ الحادي والأربعونَ والمائتانِ

إلى مولانا محمَّدٍ صالح في بيانِ تَرقِّي بعضِ الأصحابِ.

بعد الحمد والصلاة، ليكن معلوماً لأخي الأرشد أنَّ أحوالَ هذه الحدود مستوجبةٌ للحمد، والأصحابُ الموجودون هنا في فرحٍ وسرورٍ، خصوصاً مولانا محمد صديق، فإنَّه تشرَّفَ في هذه الأيَّام بعناية الله سبحانه بالولاية الخاصَّة، والتَّحقّق بالاسم الكلّيّ، مترقِّياً من الاسم الجزئيّ، ونظره مع ذلك إلى فوق، وعساه أن يميل إلى الرُّجوع بعد تحصيل نصيبٍ وافرٍ من هناك، ﴿وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ١٠٥]. وينبغي لك أن تكتب أحوالك وأحوالَ الأصحاب الذين دخلوا في الطَّريقة والذين يدخلون الآن، وأن تقيم هناك أياماً. والسلام.

المكتوبُ الثَّاني والأربعونَ والمائتانِ

إلى المـلَّا بديعِ الدِّينِ في جوابِ أسئِلَته.

وبعد الحمد والصلوات، وتبليغ الدعوات، ليكن معلوماً لأخي الأعزّ أنَّ الدرويش كمال بلّغَ الصحيفةَ الشريفةَ، فصارت موجبةً للفرح، واندرج فيها بيانُ رؤية القصور واتِّهامُ النيات..

في الأعمال، فاتّضح ذلك، والمسؤولُ من الله سبحانه مزيدُ هذه الرُّؤية، والمطلوبُ منه تعالى إتمامُ هذا الاتّهام، فإنَّ كِلَا هذين الأمرين من ملاك الأمور في هذا الطَّريق.

وسألت أيضـًا: أنَّ الاشتغال بذكر اسم الذات إلى متى؟ وكم حُجُبٍ ترتفع من المداومة على هذا الاسم؟ ونهايةُ النفي والإثبات إلى أيِّ حدٍّ؟ وماذا يحصلُ من ثمرات هذه الكلمة؟ وكم حجبٍ ترتفع بها؟ اعلم أنَّ الذكرَ عبارةٌ عن طرد الغفلة، ولَمّا كان الظَّاهرُ لا بُدَّ له من الغفلة في الابتداء والانتهاء؛ كان الظَّاهرُ محتاجًا إلى الذِّكْر في جميع الأوقات بالضَّرورة.

غَايَةُ ما فِي البابِ: أنَّ الأنفعَ في بعض الأوقات: ذكرُ اسم الذات، والأنسبَ في وقت آخر: ذكرُ النفي والإثبات. بقيت معاملةُ الباطن، فهناك أيضـًا لا بُدَّ من الذكر إلى أن ترتفع الغفلةُ بالكلية، والفرقُ بين المبتدي والمنتهي في لزوم الذكر: هو أنَّ هذين الذِّكرين متعيّنان في الابتداء، وأما في التوسُّط والانتهاء؛ فلا، بل إذا حصل طردُ الغفلة بتلاوة القرآن أو أداء الصلاة؛ جاز الاكتفاءُ بهما، ولكنَّ تلاوةَ القرآن مناسبةٌ لحال المتوسطين، وأداءَ صلاة النوافل مناسبٌ لحال المنتهيين، ينبغي أن يعلم أنَّ حضورَ الحقِّ سبحانه إن كان بملاحظة الأسماء والصِّفات؛ فهو داخلٌ في الغفلة عند المتوجّهين إلى الأحديَّة المجرَّدة، وإن كان ذلك الحضورُ دائمـًا؛ فينبغي طَرْدُ هذه الغفلة أيضـًا، والسيرُ إلى ما وراء الوراء: (شعر)

وَلَا تَسْـتَقِـلَّ هَجْرَ الْحَبِيبِ وَإِنْ غَـدَا ... قَلِيلاً وَنِصْـفُ الشَّـعْرِ فِي الْعَيْنِ ضَـائِرُ

وكتبت ما ظهر من الوقائع، وقد كنت كتبتُ قبل هذا أنَّ أمثال ذلك مبشّراتٌ، وما جاء وقت ظهورها بعد فانتظر واشتغل: (شعر) كَيْفَ الْوُصُـولُ إِلَى سُـعَادَ وَدُونَهَا ... قُـلَـلُ الْـجِـبَـالِ وَدُونَـهُـنَّ حُـيُـوفُ

والسلام.

المَكتُوبُ الثَّالِثُ وَالأَربَعُونَ وَالمِائَتَانِ

إلى الـملَّا أيوبَ المحتسِبِ في التَّرغيبِ في الطَّريقَةِ النَّقشبَندِيَّةِ العَلِيَّة.

بعد الحمد والصلوات، وتبليغ الدعوات، ليكن معلومـًا لأخي الأعزّ أنَّك قد طلبت النصائح دفعاتٍ في مكاتيب متعدّدةٍ، ولكن لم يُقْدِمْ هذا الحقيرُ على إجابة ذلك المسؤول نظراً إلى قُبْح أحوال نفسه، وحيث تكرَّر الطلبُ أردتُ أن أكتب بالضَّرورة فقراتٍ غيرَ مرتبطةٍ.

فاستمع واعلم أنَّ اللازم للإنسان الذي لا بُدَّ منه والمكلفَ به: امتثالُ الأوامر، والانتهاءُ عن المناهي، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَانتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧] شاهدٌ لهذا المعنى، وحيث كان مأموراً بالإخلاص كما قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، وهو لا يُتصوَّرُ بدون الفناء والمحبَّة الذاتيّة؛ فلا جرم كان سلوكُ طريق الصوفيَّة المحصِّلة للفناء أيضـًا ضروريّـًا لتتحقّقَ حقيقةُ الإخلاص، وحيث كانت طُرُقُ التَّصوُّف في مراتب الكمال والتَّكميل متفاوتةً؛ كان الأولى والأنسبُ للاختيار طريق يكون ملتزمـًا لمتابعة السنَّة، وأوفق بإتيان الأحكام الشَّرعيّة، وذلك الطَّريقُ هو طريقُ أكابر النقشبنديَّة قدس الله أسرارهم العليّة، فإنَّ هؤلاء الأكابرَ التزموا في هذا الطَّريق السنَّةَ، واجتنبوا البدعةَ، بحيث لا يجوِّزون العملَ بالرخصة مهما أمكن، وإن وجدوها نافعة في الظَّاهر والباطن، ولا يتركون العمل بالعزيمة وإن علموا أنَّها مضرَّةٌ بالصورة في السيرة، وإنَّهم جعلوا الأحوالَ والمواجيدَ تابعةً للأحكام الشَّرعيّة، واعتقدوا الأذواقَ..........................

والمعارفَ خادمةً للعلوم الدينية الأصوليَّة والفرعيَّة، لا يستبدلون الجواهر النفيسة الدينيَّة بجوز الوجد وموز الحال مثل الأطفال، ولا يغترُّون بترهات الصوفيَّة، ولا يفتنون ولا يعدلون من النصوص إلى الفصوص، ولا يلتفتون إلى الفتوحات المكية تاركين للفتوحات المدنية، ومن ههنا كان حالُهم على الدَّوام، ووقتُهم على الاستمرار، وتلاشتْ نقوشُ السِّوَى في لُجّة بواطنهم على نهجٍ لو تكلّفوا في استحضار السوَى ألف سنةٍ لا يتيسّر، والتجلّي الذاتيُّ الذي هو لغيرهم كالبرق دائميٌّ لهؤلاء الكبراء، والحضورُ الذي في قفاه غيبةٌ وغفلةٌ ساقطٌ عندهم عن حيِّز الاعتبار، ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: ٣٧] بيانٌ لحالهم. ومع ذلك كلّه إنَّ طريقَهم أقربُ الطُّرُق وموصلٌ ألبتّة، ونهايةَ غيرهم مندرجةٌ في بدايتهم، ونسبتَهم التي هي منسوبةٌ إلى الصديق رضي الله عنه فوق جميع نسب المشائخ، ولكن لا يُدْرِكُ فهمُ كلّ أحدٍ مذاقَ هؤلاء الأكابر، بل يكاد القاصرون من هذه الطَّريقة العليّة أيضاً ينكرون على بعض كمالاتهم: (شعر)

إنْ عَابَهُمْ قَاصِرٌ طَعْنًا بِهِمْ سَفَهًا ... بَرِئَتْ سَاحَتُهُمْ مِنْ أَفْحَشِ الْكَلِمِ

قال شاعرُ العرب - يعني: الفرزدق -: (شعر)

أولَئِكَ آبَائِي فَجِئْنِي بِمِثْلِهِمْ ... إِذَا جَمَعَتْنَا يَا جَرِيرُ الْمَجَامِعُ

قال الخواجه أحرار قدس سره: إنَّ كبراءَ هذه السِّلسلة العليّة قدس الله أسرارهم لا يُقَاسون على كلِّ زراقٍ ورقاصٍ، فإنَّ معاملتهم عاليةٌ جدّاً: (شعر)

لَسْتُ أَبْغِي شَرْحَهُ لِلْخَلْقِ بَلْ ... حُقَّ أَنْ يَخْفَى كَعِشْقٍ فِي الْمَثَلِ

غَيْرَ أَنِّي صِفْتُهُ كَيْ يَرْغَبُوا ... فِيهِ قَبْلَ الْفَوْتِ كَيْلَا يَحْزَنُوا

فلو حَرَّرْتُ دفاتر في بيان خصائص هؤلاء الكبراء وكمالاتهم؛ لكان لها حكمُ قطرةٍ في جنب بحرٍ لا نهاية له:

(ع) دَلَلْتُكَ يَا هَذَا عَلَى كَنْزِ مَقْصِدِ

والسلام على من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى، عليه وعلى آله من الصلوات أفضلها، ومن التسليمات أكملها.

المَكتُوبُ الرَّابِعُ وَالأَربَعُونَ وَالمِائَتَانِ

إلى المـلّا محمَّدٍ صالحٍ الكُولابيِّ في جوابِ كِتابِه.

وصل المكتوبُ من أخي الأرشد الخواجه محمد صالح، وكتب فيه من خرابية أحواله، المرجوُّ أن تكون الأحوالُ أشدَّ خراباً من ذلك، ونهايةُ تلك الخرابية مندرجةٌ في مكتوبٍ محرَّرٍ باسم ولدي الأرشد في هذه الأيّام، ينبغي الاطِّلاعُ عليها طلباً منه، فإن تبيَّنَ لكم أنَّ إقامتكم هناك أياماً تكون سبباً لجمعيَّة الأصحاب ينبغي مكثُ أيام أخر هناك إن علمتم فيه خيراً أو صلاحاً، وهذا الفقيرُ أيضاً يريد في هذه الأوقات سفر دهلي، والاستخاراتُ والتوجّهاتُ بواعثُ على هذا السفر، وفوّض هذا المحلُّ إلى ولدي الأرشد عنايةً له، وجعل في قبضة ولايته، والفقيرُ قاعدٌ هناك كالمسافر الغريب في ولايته، والأصحابُ الذين دخلوا في الطَّريقة مخصوصون بالدَّعوات المتوافرة، خصوصاً السيد مرتضى ومولانا شكر الله والسيد نظام، ويبلّغُ ولدي الخواجه محمد صادق وسائر الإخوان إيّاكم وسائر الإخوان الدعاءَ.

المَكتُوبُ الخَامِسُ وَالأَربَعُونَ وَالمِائَتَانِ

إلى المـلّا صالحٍ في جوابِ استِفساراتِه.

بعد الحمد والصّلوات، وتبليغ الدعوات. ليعلم الأخُ أنَّ المكتوبَ الشَّريفَ المرسلَ صحبة القاصد..............

وصل، وصار موجباً للفرح، وكتبتَ أنَّ ذكرَ النَّفي والإثبات قد بلغ واحداً وعشرين، ولكن لا تحصل المداومةُ، وربَّما تظهرُ الغيبةُ والاستغراقُ.

أيُّها المحبُ، الظَّاهر أنَّ شرطاً من شرائط الذِّكْر مفقودٌ حيث لم تترتَّب النَّتيجةُ عليه، نستفسر عنه بالمشافهة إن شاء الله تعالى.

واستفسرتَ أيضاً عن معنى هذا القول الذي كتبتَه: قال أبو بكر الصديق ﷺ بعد إتمام أمره: ذكرُ اللسان لقلقةٌ، وذكرُ القلب وسوسةٌ، وذكرُ الروح شركٌ، وذكرُ السرّ كفرٌ. اعلم أنَّ الذكرَ لَمّا كان منبئاً عن الذَّاكر والمذكور، أيّ ذكرٍ كان، والمقصودُ: فناءُ الذَّاكر والذِّكْر في المذكور؛ فلا جرم قال للذكر: لقلقةً ووسوسةً وشركاً وكفراً: (شعر)

دَعْ مَا يَصُدُّكَ عَنْ وَصْلِ الْحَبِيبِ وَمَا يُلْهِيكَ عَنْهُ قَبِيحاً كَانَ أَوْ حَسَنَا

ولكن ينبغي أن يرى عروضُ هذه الأسامي للذِّكْر قبل حصول الفناء والبقاء، فإنَّ وجودَ الذاكر وثبوتَ الذكر له بعد حصول الفناء ليس بمذمومٍ، فإن بقي خفاءٌ في هذا المعنى يستفسرُ عنه في الحضور، فإنَّ حوصلةَ الكتابة ضيقةٌ، فنسبةُ هذا القول إلى الصديق - خصوصاً بعد إتمام أمره - غيرُ مستحسنةٍ.

واستفسرت أيضاً عن معنى ما كتبت: إنَّ الشيخ أبا سعيد أبا الخير طلب من الشيخ أبي علي ابن سينا دليلاً على المقصود، فكتب في جوابه: أن ادْخُلْ في الكفر الحقيقيّ، واخرج من الإسلام المجازيّ، فكتب الشيخُ أبو سعيد إلى عين القضاة: إنِّي لو عبدتُ الله ألفَ سنةٍ لَمَا حصل منها ما حصل من كلمة أبي علي ابن سينا هذه، فكتب عينُ القضاة أن: لو فهموا لكانوا مثلَ ذلك المسكين ملومين مطعوناً فيهم.

ينبغي أن يعلم أنَّ الكفرَ الحقيقيّ عبارةٌ عن رفع الاثنينيَّة واستتارِ الكثرة بالتمام الذي هو مقامُ الفناء، وفوق ذلك الكفر الحقيقيّ مقامُ الإسلام الحقيقيّ الذي هو موطنُ البقاء، وفي الكفر الحقيقيّ منقصةٌ تامَّةٌ بالنِّسبة إلى الإسلام الحقيقيّ، وعدمُ دلالة ابن سينا إلى الإسلام الحقيقيّ من قصور نظره، وفي الحقيقة لم يكن له نصيبٌ من الكفر الحقيقيّ أيضاً، بل قال ما قال وكتب ما كتب على وجه العلم والتَّقليد، بل لم يأخذ هو حظّاً وافراً من الإسلام المجازيّ أيضاً، بل بقي في الخرافات الفلسفيَّة حتى كفَّره الإمامُ الغزاليُّ. والحقُّ: أنَّ أصولَه الفلسفيَّةَ منافيةٌ للأصول الإسلاميَّة. وأيضاً إنَّ زمانَ الشيخ أبي سعيد مقدَّمٌ على زمان عين القضاة بكثير، فكيف يكتب إليه؟ فإن بقيت شائبةُ الاشتباه؛ يستفسر عنه في الحضور. والسلام.

المَكْتُوبُ السَّادِسُ وَالأَرْبَعُونَ وَالمِائَتَانِ

إلى المِير محمَّد نعمانَ في بيانِ حصولِ مَقامٍ كانَ يتوقَّعُه ويَترصَّدُه في بيانِ مراتبِ الكَمالِ والتَّكميلِ، وبيانِ وجهِ فُقدانِ التَّوفيقِ الذي يطرَأُ في بعضِ الأوقاتِ.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاةُ والسلامُ على سيد المرسلين، وآله وأصحابه الطاهرين أجمعين. أورثت الصحائفُ الشَّريفةُ الواصلةُ متواليةً ومتواترةً أفراحاً متوافرةً، ولم يوجدْ من يتوجَّهُ إلى تلك الحدود حتى نكتب جوابَ كلٍّ منها على حدةٍ، فالمرجوُّ مسامحتُكم، وبعد وصول مكتوب صحبة المير داد كنت يوماً قاعداً في حلقةٍ مع الأصحاب بعد صلاة الصُّبح، فظهر توجّهٌ مني إلى جانبكم بلا قصدٍ، وصرتُ في صدد رفع بقايا الآثار التي وقع النظر عليها، وكنت مشتغلاً بكمال الاهتمام بدفع الظلمات والكدورات المحسوسة حتى صار هلالُ........................

كمالكم بدرَ التَّمام، وانعكس على ذلك البدر ما أُودِعَ في شمس الهداية، حتى لم يَبْقَ في جانب الكمال شيءٌ متوقَّعٌ ومنتظرٌ إلا أن تتّسع الأطرافُ بعد ذلك، ويأخذ بقَدْر وسعته شيئـًا فشيئـًا، وأدمتُ النَّظَرَ إلى صورة هذا المعنى المثاليّة زمانـًا طويلاً إلى أن حصل اليقينُ بصدقه، الحمد لله سبحانه على ذلك، وحصولُ هذه الدَّولة هو تأويلُ تلك الواقعة التي رأيْتَها، وسألتَ حصولها بالمبالغة والتأكيد، لله سبحانه الحمدُ والمنّةُ قد حصل مقصودكم بالتمام، ونجز الموعودُ، ووفي بالعهود، ونرجو أن يحصل التَّكميلُ على مقدار هذا الكمال، وينوِّر أطرافُ تلك الحدود من وجودكم الشَّريف. وكتبتَ شكايةً من فقدان التَّوفيق، والظَّاهرُ أنَّ سببَه قبضٌ مفرطٌ، وحيث كان قبضُكم مفرطـًا وطويلَ الذَّيل يكون مسبَّبُه أيضـًا طويلاً على قدر سببه، ومع ذلك ينبغي أن تُكلّفَ نفسك بإتيان الأعمال وأداء العبادات، وأن تكون على ذلك بالتعمُّل.

وقد صدر في هذه السَّنَة علومٌ عاليةٌ ومعارفُ ساميةٌ استصحب مولانا محمد أمين من جملتها مسودتين: إحداهما: في حلّ شرح بعض «رباعيات شيخنا قدس سره»، كتبتُه حين قراءة الأصحاب الفيروزآباديين إيَّاها، واندرج في هذه الرِّسالة علومُ التَّوحيد بمناسبة ما اندرجتْ في تلك الرُّباعيات، وحصل فيها التَّطبيقُ بين ما ذهب إليه العلماءُ، وما حققه الصوفيَّةُ القائلون بوحدة الوجود، وحرَّرت هذه المسألةَ على نهجٍ كان نزاعُ الفريقين راجعـًا إلى نزاعٍ لفظيٍّ.

وثانيتهما من تينك المسودّتين: مكتوبٌ حرِّر إلى ولدي الأرشد بالبسط والإطناب يُعرفُ علوُّ درجة تلك العلوم وقت المطالعة، فإن بقي أمرٌ منه؛ يستفسر عنه.

المَكتُوبُ السَّابِعُ وَالأَربَعُونَ وَالمِائَتَانِ

إلى العارفِ المِيرزا حُسامِ الدِّينِ أحمد في بيانِ أنَّ الدَّليلَ على وجودِ الحقِّ سبحانَه هو عينُ وجودِ الحقِّ سبحانَه لا غيرُ، ومَا يُناسِبه.

عرفتُ ربي بفسخ العزائم، لا بل عرفتُ فسخَ العزائم بربّي جل وعلا، فإنَّه سبحانه الدَّليلُ على ما سواه لا العكس، فإنَّ الدَّليلَ أظهرُ من المدلول، وأيُّ شيءٍ أظهرُ منه سبحانه؟ لأنَّ الأشياءَ إنَّما ظهرت به ومنه سبحانه وتعالى، فهو الدَّليلُ على نفسه وعلى ما سواه، فلا جرم عرفتُ ربّي بربّي، وعرفتُ الأشياءُ به تعالى، فالبرهانُ ههنا لِمّيٌّ.

وزعم الأكثرُ: أنَّه إنّيٌّ، والتفاوتُ بتفاوت النظر، والاختلافُ باختلاف النظر، بل لا مجال للاستدلال والبرهان ثمّة؛ إذ لا خفاءَ في وجوده سبحانه، ولا ريب في ظهوره تعالى، فهو أجلى البديهيات، وما خفي ذلك على أحدٍ إلا لمرضٍ في قلبه، وغشاوةٍ على بصره، والأشياءُ محسوسةٌ بالحواس الظَّاهرة، ومعلومٌ أنَّ وجودها منه تعالى وتقدس، وفقدانُ هذا العلم في البعض بواسطة عروض المرض لا يضرُّ في المطلوب. والسلام عليكم وعلى سائر من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى عليه وعلى آله الصلاة والسلام.

المَكتُوبُ الثَّامِنُ وَالأَربَعُونَ وَالمِائَتَانِ

إلى العالي الجَنابِ المِيرزا حُسامِ الدِّينِ أحمد أيضـًا في بيانِ أنَّ لكمَّلِ أتباعِ الأنبياءِ عليهِمُ السَّلامُ نصيبـًا من جميعِ كمالاتهِم بالتَّبعيَّة، وأنَّه لا يبلغُ وليٌّ قطُّ درَجةَ نبيٍّ منَ الأنبياءِ، وبيانِ معنى قولِهم: إنَّ التَّجلِّي الذَّاتيَّ مخصوصٌ بنبيِّنا عليه وعلَى آلِهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، وغيرِه.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣]،.......

صلوات الله وسلامه سبحانه عليهم وعلى أتباعهم وأعوانهم وخزينة أسرارهم.

اعلم أنَّ كُمَّل أتباع الأنبياء عليهم السلام يجذبون إلى أنفسهم من جهة كمال المتابعة وفرط المحبَّة، بل بمحض العناية والموهبة جميع كمالات أنبيائهم المتبوعين، وينصبغون بلونهم بالكلية حتى لا يبقى فرقٌ بين المتبوع والتابع إلا بالأصالة والتبعيَّة، والأوّلية والآخريَّة، ومع ذلك لا يبلغ تابعُ نبيٍّ قطّ - وإن كان من أتباع أفضل الرُّسل - مرتبةَ نبيٍّ أصلاً ولو كان من أدْوَنِ الأنبياء، ولهذا يكون رأسُ الصّدّيق ﵁ - الذي هو أفضلُ البشر بعد الأنبياء عليهم السلام - تحت قدم نبيٍّ أسفل من جميع الأنبياء دائماً، ومن ههنا كانت مبادئُ تعيّنات الأنبياء وأربابهم من مقام الأصل، ومبادئُ تعيّنات الأمم من الأعالي والأسافل وأربابهم من مقامات ظلال ذلك الأصل على تفاوت الدَّرجات، فكيف تتصوَّرُ المساواةُ بين الأصل والظلّ؟

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣].

وما قيل: إنَّ التجلّي الذاتيّ مخصوصٌ من بين الأنبياء بخاتم الرسل عليه وعليهم الصلاة والسلام، ولكُمَّل أتباعه ﷺ نصيبٌ من ذلك التجلّي، ليس معناه: أنَّ التجلّيَ الذاتيَّ لا نصيبَ منه للأنبياء سواه، وأنَّ منه نصيباً لكُمَّل أتباعه بالتبعية، حاشا وكلا من أن يتصوَّرَ هذا المعنى، فإنَّ فيه إثباتَ المزيَّة للأولياء على الأنبياء عليهم السلام، بل معناه: أنَّ حصولَ التجلّي لغيره ﷺ بتطفُّله وتبعيَّته عليه الصلاة والسلام، فحصولُه للأنبياء بتطفُّله ﷺ، ولكُمَّل أتباعه بتبعيته عليه الصلاة والسلام، فالأنبياءُ جلساؤه عليه وعليهم الصلاة والسلام على خِوَان هذه النِّعمة العظمى المخصوصة به بتطفُّله ﷺ، والأولياءُ خُدَّامه النائلون للحصَّة منها، وشتَّان بين الجلساء المتطفِّلين والخادمين النائلين للحصَّة، وهذا المقامُ من مزالّ الأقدام، وقد ذكرتُ في مكاتيبي ورسائلي في تحقيق هذه الشُّبهة وجوهاً شتّى، والحقُّ ما حقَّقت في هذه المسودَّة بفضل الله وكرمه سبحانه وتعالى.

واعلم أنَّ سائرَ الأنبياء عليهم السلام وإن كان لهم نصيبٌ وافرٌ من هذا التجلّي بتطفله عليه الصلاة والسلام، ولكن يظهر أنَّ هذه الولايةَ الخاصَّةَ لم تَسْرِ إلى أولياء أممهم، ولم يكن لهم حظٌّ وافرٌ من هذا التجلّي، فإنَّ حصولَ هذه الدَّولة لأصولهم إذا كان بطريق التطفل والانعكاس، فماذا يحصل للفروع بطريق عكس العكس؟

ومصداقُ هذا المعنى الكشفُ الصريحُ لا الاستدلالُ العقليُّ، وما ذكر سابقاً من أنَّ كمَّل الأتباع يجذبون كمالات المتبوعين بالتَّمام؛ فالمرادُ به: الكمالاتُ الأصليَّةُ للمتبوعين لا مطلقاً حتى يتحقّق التَّناقضُ، بل هم محتظون من ولايةٍ مخصوصةٍ بنبيّهم بالتبعيَّة، وهذه الأمَّةُ مخصوصةٌ من بين الأمم بهذا التجلّي بالتبعيَّة، ومشرَّفةٌ بهذه الدَّولة العظمى، ولهذا كانت خير الأمم، وكان علماؤها كأنبياء بني إسرائيل، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

وقد أردتُ أن أكتب نبذة من فضائل هذه الولاية الخاصَّة وخصائصها، ولكن لم يساعد الوقتُ ذلك لضيقه، ولم يف الورقُ، ويفاض العلومُ والمعارفُ بعناية الله سبحانه مثلَ مطر الرَّبيع، ويحصِّلُ الاطِّلاعَ على عجائب وغرائب ومحارم هذه الأسرار أولادي الكرام على قدر الاستعداد.

وبقيَّةُ الأصحاب أياماً في الحضور وأياماً في الغيبة، ولذا قيل: الوليُّ وإن كان وليّاً لا يبلغ مرتبةَ صحابيٍّ، وشوقُ نيل الملازمة فوق الحدّ، وقد تشرَّفتُ بورود الصَّحيفة الكريمة المرسلة إلى هذا الحقير.

اعلم أنَّ رؤيةَ القصور في الأعمال من أجلِّ النعم، وأما الاقتصادُ في الأحوال؛ فمحمودٌ في جميع الأمور والأفعال، والإفراطُ كالتَّفريط خارجٌ عن حدّ الاعتدال. والسلام عليكم وعلى سائر من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى عليه وعلى آله الصلاة والسلام.

المكتوب التاسع والأربعون والمائتان

إلى المِيرزا داراب في فضائلِ اتِّباعِ النَّبيِّ ﷺ، وما يترتَّب عليه.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. اعلم أنَّ الخلاصَ الأخرويّ والفلاح السرمديَّ منوطٌ بمتابعة سيد الأوّلين والآخرين عليه وعلى آله أتم الصلوات وأكمل التسليمات، ولذا يوصل بمتابعته إلى مقام المحبوبيَّة للحقّ سبحانه، وبها يتشرَّفُ بالتجلّي الذاتيّ، وبها يمتاز بمرتبة العبديَّة التي هي فوق جميع مراتب الكمال، وحصولُها بعد حصول مقام المحبوبيَّة، وبها جُعِلَ كُمَّل أتباعه مثل أنبياء بني إسرائيل، ويتمنَّى الأنبياءُ أولوا العزم متابعته، لو كان موسى حيّاً في زمنه ما وسعه إلا اتِّباعه[1]، وقصّةُ نزول روح الله ومتابعته حبيب الله معلومةٌ ومشهورةٌ، وصارت أمَّتُه بواسطة متابعته خيرَ الأمم، وأكثرَ أهل الجنة، وبسببِ متابعته يدخلون الجنَّة غداً قبل جميع الأمم، ويتنعَّمون فيها كذا وكذا، ثم كذا وكذا، فعليكم بمتابعته، والتزام سنته، وإتيان شريعته عليه وعلى جميع إخوانه من الصلوات أفضلها، ومن التسليمات أكملها. وبقيَّةُ المرام: إنِّي فوَّضْتُ إليك الشيخ إسماعيل، وهو من أحباب صاحب المعارف الحاج عبد الحق. والسلام.

المكتوب الخمسون والمائتان

إلى الـملّا أحمدَ البَركِيِّ في حلِّ بعضِ استِفساراتِه.

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد الحمد والصّلوات، وتبليغ الدَّعوات، أنهي أنَّ أحوالَ فقراء هذه الحدود وأوضاعَهم مستوجبةٌ للحمد، والمسؤولُ من الله سبحانه عافيَتُكم، والصَّحيفةُ الشَّريفةُ قد وصلت، وكتبتَ فيها أنَّ الذَّوقَ والفرحَ الذي كنت أجده أوَّلاً لا أجده الآن، وأظنُّ ذلك من تنزُّلي وانحطاطي. اعلم أيها الأخ أنَّ الحالةَ الأولى كانت من قبيل حالة أهل الوجد والسَّماع التي للجسد دخلٌ تامٌّ فيها، وأما الحالةُ التي تيسّرت الآن؛ فالجسدُ قليلُ النصيب منها، بل تعلّقُها بالقلب والروح أزيدُ، وبيانُ هذه المعاملة يستدعي تفصيلاً. وبالجملة إنَّ الحالةَ الثّانيةَ فوق الحالة الأولى بمراتب، وعدمُ وجدان الذوق وفقدانُ فرصة الفرح فوق وجدان الذوق والفرح؛ لأنَّ النِّسبة كلَّما تنجرُّ إلى الجهالة، وتنتهي إلى الحيرة، وتتباعد عن الجسد؛ تكون أصيلةً وأقربَ إلى حصول المطلوب، فإنَّه لا مجال في ذلك الموطن لغير العجز والجهل، ويعبَّرُ عن هذا الجهل بالمعرفة، ويسمّى هذا العجزُ إدراكاً. وكتبتَ أيضاً أنَّ تأثيرَ تلك النِّسبة الذي كان أوَّلاً لم يبق الآن. نعم، لم يبق التأثيرُ الجسديُّ، وأما التأثيرُ الروحيُّ؛ فقد زاد، وإن لم يدركه كلُّ أحدٍ، وقد كانت مدَّةُ صحبتكم بهذا الفقير قليلةً جداً، وذكر العلوم والمعارف أيضاً كان قليلاً، فإن كان الله سبحانه أراد ثبوتَ الصحبة؛ تحصل المصاحبةُ أياماً. واستفسرت أيضاً عن فرضيَّة الحجّ والذهاب إلى مكة مع وجود الزَّاد والراحلة في هذا الزمان وعدمه. أيُّها المخدومُ، إنَّ في الروايات الفقهيَّة اختلافات كثيرة في هذا الباب، والمختارُ في هذه المسألة: فتوى الفقيه أبي الليث، حيث قال: فإن كان الغالبُ الأمنَ وعدمَ الهلاك في الطَّريق؛ فالفرضيَّةُ ثابتةٌ، وإلا؛........

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٦٣١)، وأبو يعلى (٢١٣٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١/٣٤٨- ٣٤٩) من حديث جابر ﷺ، ولفظه: «والله لو كان موسى عليه السلام حيّاً ما حل له إلا أن يتبعني».

فلا، ولكن هذا الشّرطَ شرطُ وجوب الأداء، لا شرطُ نفس الوجوب كما هو الصحيحُ، فتكون الوصيّةُ بالإحجاج في هذه الصُّورة واجبةً، ولَمّا لم يساعد الوقتُ جوابَ استفساراتكم الأخرى؛ أخّرناه إلى وقتٍ آخر. والسلام.

المَكتُوبُ الحَادِي وَالخَمسُونَ وَالمِائَتَانِ

إلى مولانا الأشرف في بيانِ فضائلِ الخلفاءِ الرَّاشدينَ، خصوصاً الشَّيخينِ، وتعظيمِ سائرِ الأصحابِ الكرامِ عليهِمُ الرِّضوانُ، والكفِّ عن ذِكرِ مساويهم.

بعد الحمد والصلوات، وتبليغ الدعوات. ليعلم الأخُ الأرشدُ الخواجه أشرف أنّي أريد أن أكتب العلومَ الغريبةَ، والأسرارَ العجيبةَ، والمواهبَ اللطيفةَ، والمعارفَ الشريفةَ على قدر الفهم القاصر، وأكثرُها يتعلّقُ بفضائل الشَّيخين وذي النورين وأبي الحسنين وكمالاتهم رضي الله عنهم أجمعين، ينبغي الاستماعُ والإصغاءُ إليها بسمع العقل.

اعلم أنَّ حضرةَ الصدِّيق وحضرةَ الفاروق رضي الله عنهما مع وجود حصول الكمالات المحمدية فيهما وبلوغهما أقصى درجات الولاية المصطفويَّة فيهما مناسبةٌ في طرف الولاية من بين الأنبياء المتقدمين لسيدنا إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وفي طرف الدَّعوة التي هي مناسبةٌ لمقام النبوَّة بهما مناسبةٌ لسيدنا موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وبذي النُّورين مناسبةٌ في كِلَا الطرفين لسيدنا نوح صلوات الله وتسليماته على نبينا وعليه، وبسيدنا عليٍّ كرم الله وجهه مناسبةٌ في كلا الطَّرفين لسيدنا عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وحيث كان عيسى روحَ الله وكلمتَه؛ كان طرفُ ولايته غالباً على جانب نبوَّته، وطرفُ الولاية غالبٌ أيضاً في عليّ كرم الله وجهه بهذه المناسبة.

ومبادئُ تعيّنات الخلفاء الأربعة صفةُ العلم على اختلاف الجهات إجمالاً وتفصيلاً، وهذه الصِّفةُ باعتبار الإجمال ربّ محمد، وباعتبار التَّفصيل ربّ الخليل، وباعتبار البرزخيَّة بين الإجمال والتَّفصيل ربّ نوحٍ عليهم الصلاة والسلام، كما أنَّ ربّ موسى صفةُ الكلام، وربّ عيسى صفةُ القدرة، وربّ آدم صفةُ التَّكوين عليهم السلام.

ولنرجع إلى أصل الكلام ونقول: إنَّ الصديقَ والفاروقَ هما حاملا ثِقَل النبوَّة المحمديَّة على اختلاف المراتب، وعليّاً كرم الله وجهه بواسطة مناسبته لعيسى وغلبة جانب ولايته حاملُ ثقل الولاية المحمديَّة، وذا النورين باعتبار برزخيَّته، قيل: إنَّه حاملُ كلا الطرفين، ويمكن أن يكون إطلاقُ ذي النورين عليه بهذا الاعتبار أيضاً، وحيث قالوا: إنَّ الشَّيخين حاملَا ثقل النبوَّة تكون مناسبتُهما بموسى عليه السلام أزيدَ؛ لأنَّ مقامَ الدَّعوة التي هي ناشئةٌ من مرتبة النبوَّة أتمّ وأكمل فيه من بين الأنبياء بعد نبينا عليه وعليهم الصلاة والسلام، وكتابَه أفضلُ الكتب المنزلة بعد القرآن المجيد، ولهذا تكون أمَّتُه أكثرَ من يدخلون الجنة من بين الأمم المتقدمين، وإن كانت شريعةُ إبراهيم وملَّتُه أفضلَ من جميع الشَّرائع والملل، ولهذا أُمِرَ أفضلُ الرسل بمتابعة ملته، ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣] شاهدٌ لهذا المعنى، والمهديُّ الموعودُ أيضاً ربّه صفةُ العلم، وبه مناسبةٌ لعيسى مثل عليّ، وكان إحدى قدمي عيسى على رأس عليّ، والأخرى على رأس المهديّ.

اعلم أنَّ ولايةَ موسى وقعت على يمين الولاية المحمديَّة، والولايةَ العيسويّةَ على يسارها، ولما كان عليّ المرتضى حاملَ ثِقَل الولاية؛ ....

كان أكثرُ سلاسل الأولياء منتسباً إليه، وظهرت كمالاتُه لأكثر الأولياء العظام المختصين بكمالات الولاية أزيد وأكثر من كمالات الشيخين، فلولا إجماعُ أهل السُّنَّة على أفضليّة الشيخين؛ لحَكَمَ كشفُ أكثر الأولياء العظام بأفضليّة علي المرتضى؛ لأنَّ كمالات الشيخين تُشْبِهُ كمالاتِ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وإدراكُ أرباب الولاية قاصرٌ عن الوصول إلى ذيل هذه الكمالات، وكشفُ أرباب الكشوف بواسطة عُلُوّ درجاتهم باقٍ في الطَّريق غيرُ واصلٍ إليهم، وكمالاتُ الولاية كالمطروح في الطَّريق في جنب هذه الكمالات إنّما هي مدارجُ ومعارجُ للعروج إلى كمالات النبوَّة، فكيف يكون للمقدَّمات خبرٌ عن المقاصد؟ وماذا يكون شعورُ المبادئ بالمطالب؟

وهذا الكلام وإن كان ثقيلاً على الأكثرين بواسطة بعد عهد النبوَّة، وبعيداً عن القبول، ولكن ماذا نصنع؟ (شعر)

قَدْ أَمْسَــكُونِي وَرَى الْمِرْأَى كَدُرَّتِهِمْ   أَقُولُ مَـا قَـالَ لِي أُسْــتَـاذِيَ الْأَزَلِي

ولكن لله سبحانه الحمدُ والمنّة إنّي متَّفق في هذا القيل والقال مع علماء أهل السنة والجماعة شكر الله تعالى سعيهم، وقولي موافقٌ بإجماعهم، وجعل استدلاليُّهم كشفيّاً لي، وإجماليُّهم تفصيليّاً، وهذا الفقيرُ ما لم يصل إلى كمالات مقام النبوَّة بمتابعة نبيه، ولم يحصلْ له نصيبٌ تامٌّ من تلك الكمالات؛ لم يطَّلع على فضائل الشَّيخين بطريق الكشف، ولم يهتدِ إلى سبيلِ غير التَّقليد، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدٰينَا لِهٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ اَنْ هَدٰينَا اللّٰهُۚ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّۜ﴾ [الأعراف: ٤٣].

قال شخصٌ يوماً: قد كُتِبَ في الكتب: أنَّ اسم عليّ المرتضى مكتوبٌ على باب الجنة، فوقع في الخاطر أنَّه: ماذا يكون لحضرة الشيخين من خصائص ذلك الموطن؟ فظهر بعد التوجّه التامّ أنَّ دخولَ هذه الأمَّة إلى الجنة إنّما يكون بإذن هذين الشَّيخين الجليلين وتجويزهما، وكأنَّ الصديقَ قائمٌ على باب الجنة، ويؤذن للناس بالدُّخول إلى الجنَّة، والفاروقَ يدخلهم الجنة آخذاً بأيديهم، وكان مشهوداً أنَّ الجنَّة بتمامها مملوءةٌ بنور الصديق، وفي نظر هذا الحقير أنَّ للشَّيخين شأناً على حدةٍ فيما بين الأصحاب، ودرجةً ممتازةً منفردةً كأنَّهما لم يشارِكْهُما فيها أحدٌ، وكان الصديقُ في بيتٍ واحدٍ مع النبي ﷺ، فإن كان التَّفاوتُ؛ فإنَّما هو بالعلوّ والسفل، والفاروقُ أيضاً مشرَّفٌ بهذه الدَّولة بتطفُّل الصدِّيق، ونسبةُ سائر الصَّحابة إليه ﷺ نسبةُ المساكنة في خانٍ واحدٍ أو في بلدةٍ واحدةٍ، فما يكون حظُّ سائر أولياء الأمة؟

(ع) حَسْبِي إِذَا جَاءَ مِنْ بَعْدِ صَدَى جَرْسِهِ

فماذا يجد هؤلاء من كمالات الشيخين وكِلَا هذين الشَّيخين معدودان في عداد الأنبياء في العظمة وجلالة القدر، ومحفوفان بفضائل الأنبياء عليهم السلام؟ قال النبي ﷺ: «**لَوْ كَانَ بَعْدِي نَبِيٌّ لَكَانَ عُمَرُ**»(١).

وذكر الإمام الغزاليُّ: أنَّ عبد الله بن عمر قال في أيّام مصيبة الفاروق في محضرٍ من الصحابة رضوان الله عليهم: مات تسعةُ أعشار العلم، ولَمّا أحسَّ من بعض الناس توقُّفاً في فهم معنى هذا الكلام؛ قال: المرادُ بالعلم: العلمُ بالله، لا علمُ الحيض والنفاس. وماذا يقال في الصديق الذي جميعُ حسنات عمر حسنتُه الواحدةُ كما أخبر به المخبرُ الصادقُ؟ ويحسُّ أنَّ انحطاطَ عمر الفاروق من الصّدِّيق أكثرُ وأزيدُ من انحطاط الصدِّيق من النبيّ عليه وعلى آله الصلاةُ والسلامُ، فقِسْ على هذا انحطاطَ الباقين من الصديق. والشَّيخان لم يفارقا النبيَّ ﷺ بعد الموت أيضاً، وسيكون حشرُهما أيضاً معه عليه الصلاة والسلام كما ورد ذلك، فتكون الأفضليّةُ بواسطة الأقربيَّة لهما، وماذا يقول هذا الحقيرُ قليلُ..............

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٦٨٦) وحسنه، وأحمد (١٧٤٠٥) من حديث عقبة بن عامر ﷺ.

البضاعة من كمالاتهم؟ وماذا يبيِّنُ من فضائلهم؟ وأين للذَّرَّة قدرةُ التكلّم من الشَّمس؟ وأين للقطرة مجالُ التَّحدُّث من بحر عُمَان؟ والأولياءُ المرجوعون لدعوة الخلق المحتظون من كِلَا طرفي الولاية والدَّعوة بحظٍّ تامٍّ والعلماءُ المجتهدون من التابعين وتُبَّع التابعين لَمّا أدركوا كمالات الشيخين بنور الكشف الصَّحيح والفراسة الصَّادقة والأخبار المتتابعة في الجملة، ووجدوا نبذةً من فضائلهما؛ حكموا بأفضليّتهما بالضَّرورة، وأجمعوا على ذلك، وما ظهر على خلاف هذا الإجماع من الكشف حملوه على عدم الصِّحَّة، ولم يعتبروه، كيف وقد صحّح في الصدر الأوّل أفضليّتُهما كما روى البخاريُّ عن ابن عمر ﵄ قال: كنّا في زمن النبي ﷺ لا نعدلُ بأبي بكر أحداً، ثم عمر، ثم عثمان، ثم نترك أصحاب النبيّ عليه الصلاة والسلام لا نفاضِلُ بينهم[1]، وفي روايةٍ لأبي داود: كنا نقول ورسول الله ﷺ حيٌّ: أفضلُ أمّة النبي ﷺ بعده أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان ﵃[2].

ومن قال: إنَّ الولايةَ أفضلُ من النبوَّة؛ فهو من أرباب السُّكر، ومن الأولياء غير المرجوعين الذين ليس لهم نصيبٌ وافرٌ من كمالات مقام النبوَّة، ولعلَّ نظرَكم وقع على ما حقَّقه هذا الفقيرُ في بعض رسائله من أنَّ النبوَّةَ أفضلُ من الولاية وإن كانت ولايةَ النبيّ، والحقُّ هو هذا، فمن قال بخلاف ذلك؛ فهو من جهالة كمالات مقام النبوَّة كما مرَّ آنفاً. ومن المعلوم أنَّ سلسلةَ النقشبندية منتسبةٌ من بين سلاسل سائر الأولياء إلى الصديق ﵁، فتكون نسبةُ الصَّحو غالبةً فيهم، وتكون دعوتُهم أتمَّ، وتظهر كمالاتُ الصِّديق لهم أكثرَ وأزيدَ، وتكون نسبتُهم فوق نِسَب سائر السَّلاسل بالضَّرورة، فماذا يُدْرِكُ غيرُهم من كمالاتهم؟ وماذا يحسُّون من حقيقة معاملتهم؟ ولا أقول: إنَّ جميعَ مشائخ النقشبنديَّة سواسيةٌ في هذه المعاملة، كيف بل لو وجد من ألوفٍ على هذه الصِّفة يكون غنيمةً؟ وأظنُّ المهديَّ الموعودَ الذي بأكمليَّة الولاية معهودٌ يكون على هذه النِّسبة، ويُتِمُّ هذه السِّلسلةَ العليّةَ ويكمِّلُها، فإنَّ نسبةَ جميع الولايات دون هذه النِّسبة العليّة؛ لأنَّ سائر الولايات قليلةُ النَّصيب من كمالات مرتبة النبوَّة، وهذه الولايةُ لها حظٌّ وافرٌ منها بواسطة الانتساب إلى الصديق كما مرَّ آنفـاً:

(ع) وَشَـتَّـانَ مَـا بَيْنَ الطَّرِيقَيْنِ يَـا خِلِّي

أيها الأخُ، إنَّ الإمام عليّاً كرم الله وجهه لَمّا كان حاملاً لثقل الولاية المحمديَّة على صاحبها الصلاة والسلام والتحية؛ كان تربيةُ مقام الأقطاب والأوتاد والأبدال الذين هم من أولياء العزلة وغلب فيهم جانبُ كمالات الولاية مفوَّضةً إلى إمداده وإعانته، ورأسُ قطب الأقطاب الذي هو قطبُ المدار تحت قده، ويُجْرِي أمره، ويحصل مُهِمَّه بحمايته ورعايته، ويخرج به عن عهدة مَدَاريَّته، والسيدةُ فاطمةُ وابناها الإمامان ﵃ هم أيضاً شركاؤه في هذا المقام.

واعلم أنَّ أصحابَ النبي عليه وعليهم الصلاة والسلام كلَّهم كبراء عظماء، ينبغي أن يذكر كلُّهم بالتَّعظيم، روى الخطيبُ عن أنس ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ اللهَ اخْتَارَنِي، وَاخْتَارَ لِي أَصْحَابـاً، وَاخْتَارَ لِي مِنْهُمْ أَصْهَاراً وَأَنْصَاراً، فَمَنْ حَفِظَنِي فِيهِمْ حَفِظَهُ اللهُ، وَمَنْ آذَانِي فِيهِمْ آذَاهُ اللهُ»**[3]، وروى الطبرانيُّ عن ابن عبّاس ﵄ أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«مَنْ سَبَّ أَصْحَابِي؛ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْـمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»**[4]، وروى ابنُ عَدِيٍّ عن عائشة ﵂ قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ...**

(١) أخرجه البخاري (٣٦٩٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٢٨).

(٣) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٢/ ٤٥٤)، ورواه الطبراني في «الكبير» (١٧/ ١٤٠) من حديث عويم بن ساعدة ﵁ مرفوعاً نحوه، وآخره: «فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه يوم القيامة صرف ولا عدل».

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢٧٠٩). وأخرجه البزار (٥٧٥٣) من حديث ابن عمر ﵄ بدون قوله: «والملائكة والناس أجمعين»، والطبراني أيضاً في «الكبير» (١٣٥٨٨) بلفظ: «لعن الله من سب أصحابي».

شِرَارَ أُمَّتِي أَجْرَؤُهُمْ عَلَى أَصْحَابِي»[1]. وما وقع بينهم من المنازعات والمحاربات ينبغي صرفُها وحملُها على محامل حسنةٍ، وإبعادُهم عن الهوى والتعصُّب، فإنَّ تلك المخالفات كانت مبنيَّةً على الاجتهاد والتأويل، لا على الهوى والهوس، كما أنَّ جمهورَ أهل السـنة على ذلك، ولكن ينبغي أن يعلم أنَّ مخالفي الإمام عليّ ﷺ كانوا على الخطأ، وكان الحقُّ في جانبه، ولكن لَمّا كان هذا الخطأُ خطأً اجتهاديّاً؛ كان صـاحبُه بعيداً عن الملامة، ومرفوعـاً عنه المؤاخذةُ كما نقل شـارحُ «المواقف» عن الآمديّ: أنَّ وقعةَ الجمل والصفِّين كانت على وجه الاجتهاد، وصرَّح الشيخُ أبو شكور السالميّ في «التمهيد»: أنَّ أهلَ السُّنَّة والجماعة ذاهبون إلى أنَّ معاويةَ مع طائفةٍ من الصَّحابة الذين كانوا معه كانوا على الخطأ، وكان خطؤهم اجتهاديـاً. وقال الشيخ ابنُ حجر في «الصواعق»: إنَّ منازعةَ معاوية لعليّ ﷺ كانت على وجه الاجتهاد، وجعل هذا القولَ من معتقدات أهل السنة، وما قال شارح «المواقف» من أنَّ كثيراً من أصحابنا ذهبوا إلى أنَّ تلك المنازعةَ لم تكن على وجه الاجتهاد؛ فمرادُه من الأصحاب أيّ طائفة هو، فإنَّ أهلَ السُّـنَّة حاكمون بخلاف ذلك كما مرّ، وكتبُ القوم مشـحونةٌ بالقول بالخطأ الاجتهاديّ كما صـرح به الغزاليُّ والقاضي أبو بكر وغيرهما، فلا يجوز تفسيقُ مخالفي الإمام عليّ وتضليلُهم.

قال القاضي في «الشفاء»: قال مالك ﷺ: من شتم أحداً من أصحاب النبي ﷺ أبا بكر وعمر وعثمان أو معاوية أو عَمْرو بن العاص ﷺ، فإن قال: كانوا على ضلالٍ وكفرٍ؛ قُتِلَ، وإن سبَّهم بغير هذا من مشاتمة الناس؛ نُكِّل نكالاً شديداً، فلا يكون محاربو عليٍّ كفرةً كما زعمت الغلاةُ من الرّفضة، ولا فسقةً كما زعم البعضُ، ونسبه شارح «المواقف» إلى كثيرٍ من أصحابه، كيف وقد كانت الصِّدِّيقةُ وطلحةُ والزبيرُ من الصحابة منهم، وقد قتل طلحةُ والزبيرُ في قتال الجمل مع ثلاثة عشر ألفـًا من القتلى قبل خروج معاوية، فتضليلُهم وتفسيقُهم مما لا يجترئُ عليه مسلمٌ إلا أن يكون في قلبه مرضٌ، وفي باطنه خبثٌ.

وما وقع في عبارة بعض[2] الفقهاء من إطلاق لفظ الجَوْر في حقّ معاوية حيث قال: كان معاويةُ إمامـًا جائراً؛ فمرادُه بالجور: عدمُ حقيَّة خلافته في زمن خلافة عليّ، لا الجورُ الذي مآله فسقٌ وضلالةٌ؛ ليكون موافقـًا لأقوال أهل السّنَّة والجماعة، ومع ذلك يجتنب أربابُ الاستقامة إتيانَ الألفاظ الموهمة خلافَ المقصود، ولا يجوز الزِّيادةُ على القول بالخطأ، كيف يكون جائراً وقد صحَّ: أنَّه كان إمامـًا عادلاً في حقوق الله سبحانه وحقوق المسلمين كما في «الصواعق»؟ وقد زاد مولانا عبد الرحمن الجاميّ قدس سره في قوله: خطأً منكراً يعني: زاد على ما عليه الجمهورُ، وكلُّما زاد على لفظ الخطأ؛ فهو خطأٌ، وما قال بعده، فإن كان هو مستحقًّا للعن... إلخ؛ فهو أيضـًا غيرُ مناسبٍ له، أين محلُّ التَّرديد؟ وأين محلُّ الاشتباه؟ فإن قال هذا الكلام في حقِّ يزيدَ؛ فله وجهٌ ومساغٌ، وأما قوله ذلك في حقِّ معاوية؛ فشنيعٌ، وقد ورد في الأحاديث النبوية بأسانيد الثقات: أنَّ النبي ﷺ دعا لمعاوية: «**اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ، وَقِهِ الْعَذَابَ**»[3]، وقال في محلٍّ آخر من دعائه: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ هَادِيـًا مَهْدِيـًّا**»[4]، ودعاؤه عليه الصلاة والسلام مقبولٌ، والظَّاهرُ أنَّ هذا الكلام إنّما صدر عن مولانا بطريق السَّهو والنِّسيان. وأيضـًا إنَّه لم يصرِّحْ باسم أحدٍ في تلك الأبيات، بل قال: (وصحابي آخر)، وهذه العبارةُ أيضـًا تنبئ عن الشَّناعة، ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ..

(١) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٩/ ١٩٩) في ترجمة ابن أبي سبرة.

(٢) هو صاحبُ «الهداية»، وعبارته: فإنَّ الصحابةَ تقلدوا القضاء من معاوية، مع أنَّ الحقَّ كان بيد علي في نوبته. انتهى. وقوله: (في نوبته) قيدٌ لـ(تقلدوا)، ولكنَّ الحقَّ في يد عليٍّ، فيدل على أنَّه على الحقِّ بعد نوبة علي، وإنما كان جَوْرُه في نوبة عليٍّ، فإنَّ الحقَّ لما كان في يد عليٍّ؛ كان بيد مخالفه الجورُ الذي هو ضدُّ الحقِّ، فلا غبار في هذه العبارة، وليس فيه وصفُ معاوية بالجور، بل إنَّما أخذوا ذلك من تعليل قوله: ويجوز تقلُّدُ القضاء من إمام عادلٍ وجائرٍ بقوله: فإنَّ الصحابةَ... إلخ. (المعرِّب)

(٣) أخرجه أحمد (١٧١٥٢)، وابن حبان (٧٢١٠)، والطبراني في «الكبير» (١٨/ ٢٥١)، والبزار في «مسنده» (٤٢٠٢) من حديث العرباض بن سارية ﷺ.

(٤) أخرجه الترمذي (٣٨٤٢) وحسنه من حديث عبد الرحمن بن أبي عميرة ﷺ بزيادة: «واهدِ بِهِ».

أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وما نقل عن الإمام الشعبيّ من ذمّ معاوية، وأنَّه بالغ في مذمَّته، وأوصَلَها إلى ما فوق الفسق؛ لم يبلغ مرتبةَ الثُّبوت، والإمامُ الأعظمُ من تلامذته، فعلى تقدير صدق هذا القول؛ لكان هو أحقّ بنقله، وحكم الإمام مالك الذي هو من تُبَّع التابعين ومعاصره بقتل شاتم معاوية وعمرو بن العاص كما مر آنفاً، فإن كان هو مستحقاً للشتم؛ فلِمَ حكم بقتل شاتمه؟ فعلم أنَّه اعتقد شتمَه من الكبائر، فحكم بقتل شاتمه، وأيضاً إنَّه جعل شتمَه كشتم أبي بكر وعمر وعثمان كما مر سابقاً، فلا يكون معاويةُ مستحقّاً للشَّتم والذمّ.

أَيُّها الأخُ، إنَّ معاويةَ ليس وحده في هذه المعاملة، بل كان نصفُ الأصحاب الكرام تخميناً شريكاً له فيها، فإن كان محاربوا عليٍّ كفرةً أو فسقةً؛ زال الاعتمادُ عن شطر الدين الذي بلغنا من طريق تبليغهم، ولا يجوّز ذلك إلا زنديقٌ مقصودُه إبطالُ الدين.

أَيُّها الأخُ، إنَّ منشأ إثارة هذه الفتنة هو قتلُ عثمان ﷺ، وطلبُ القصاص من قتلته، فإنَّ طلحةَ وزبيراً إنّما خرجا أولاً من المدينة بسبب تأخير القصاص، ووافقتهم الصديقةُ في هذا الأمر، فوقع حربُ الجمل التي قُتِل فيها ثلاثةَ عشر ألفاً من الصَّحابة، وقتل فيها طلحةُ والزُّبير اللّذان هما من العشرة المبشّرة، ثم خرج معاويةُ من الشام، وصار شريكاً لهم، فوقع حربُ الصفين، صرَّح الإمامُ الغزاليُّ: أنَّ تلك المنازعةَ لم تكن لأمر الخلافة، بل كانت لاستيفاء القصاص في بدء خلافة عليّ، وعدَّ ابن حجر هذا القول من معتقدات أهل السنة. وقال الشيخُ أبو شكور السالميّ الذي هو من أكابر علماء الحنفية: إنَّ منازعةَ معاوية لعليٍّ كانت في أمر الخلافة، فإنَّ النبي ﷺ قال لمعاوية: «إِذَا مَلَكْتَ النَّاسَ؛ فَارْفُقْ بِهِمْ»[١]، فحصل لمعاوية الطمعُ في الخلافة من هذا الكلام، ولكن كان هو مخطئاً في هذا الاجتهاد، وعليّ محقٌّ فيه، فإنَّ الوقت كان وقتَ خلافة عليّ. والتَّوفيقُ بين هذين القولين: هو أنَّ منشأ المنازعة يمكن أن يكون أولاً تأخيرَ القصاص، ثم بعد ذلك يقع في طمع الخلافة، وعلى كلٍّ الاجتهادُ واقعٌ في محله، فإن مخطئاً؛ فدرجةٌ واحدةٌ من الثَّواب، وللمحقِّ درجتان، بل عشر درجاتٍ.

أَيُّها الأخُ، إنَّ الطَّريقَ الأسلمَ في هذا الموطن السكوتُ عن ذكر مشاجرات أصحاب النبي صلى الله عليه وعلى آله الصلاة والسلام، والإعراضُ عن ذكر منازعتهم، قال النبي ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَمَا شَجَرَ بَيْنَ أَصْحَابِي»[٢]، وقال أيضاً: «إِذَا ذُكِرَ أَصْحَابِي فَأَمْسِكُوا»[٣]، وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام: «اللهَ اللهَ فِي أَصْحَابِي، لَا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضاً»[٤]، يعني: احذروا الله واتقوه في حقّ أصحابي، ولا تجعلوهم هدفاً لسهم ملامتكم وطعنكم. قال الإمامُ الشافعيُّ - وهو منقولٌ عن عمر بن عبد العزيز أيضاً -: تلك دماءٌ طهَّر الله عنها أيدينا، فلنطهِّرْ عنها ألسنتنا، ويفهم من هذه العبارة أنَّه لا ينبغي إجراءُ خطئهم على اللسان أيضاً، وأن يذكرهم بغير الخير.

هذا، ويزيدُ البعيدُ عن السّعادة من زمرة الفسقة، والتوقُّفُ في لعنه إنّما هو على الأصل المقرَّر عند أهل السنة من أنَّه لا يجوز اللَّعنُ على شخصٍ معينٍ ولو كان كافراً، إلا أن يعلم موتُه على الكفر يقيناً، كأبي لهب الجهنمي وامرأته، لا أنَّه غيرُ مستحقٍّ للعن، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِى الدُّنْيَا وَالْأخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

اعلم أنَّ أكثر الناس في هذه الزَّمان لَمّا اشتغلوا ببحث الإمامة، وجعلوا التكلّمَ في الخلافة ومنازعات الصحابة عليهم الرضوان نصبَ العين دائماً، وصاروا لا يذكرون الأصحابَ الكرامَ بالخير تقليداً لجهلة الرفضة، ومَرَدَة أهل البدعة،.....

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٩٣٣)، وأبو يعلى في «مسنده» (٧٣٨٠) من حديث أبي هريرة ﷺ بلفظ: «يا معاوية، إن وليت أمراً فاتق الله واعدل». قال الهيثمي: وهو مرسل، ورجاله رجال الصحيح. «مجمع الزوائد»: ٥/ ١٨٦.

(٢) ذكره ابن الأثير في «النهاية»: ٢/ ٤٤٦.

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» من حديث ثوبان ﷺ. وأخرجه الطبراني أيضاً (١٠٤٤٨) من حديث ابن مسعود ﷺ. قال الهيثمي: فيه مسهر بن عبد الملك، وثقه ابن حبان وغيره، وفيه خلاف، وبقية رجاله رجال الصحيح. المرجع السابق.

(٤) أخرجه الترمذي (٣٨٦٢) واستغربه من حديث عبد الله بن مغفل ﷺ.

وينسبون إلى جنابهم أموراً غير مناسبةٍ؛ كتبتُ نبذةً مما كان معلوماً لي بالضَّرورة، وأرسلتُها إلى الأحباب، قال عليه وعلى آله الصلاة والسلام: «**إِذَا ظَهَرَ الْفِتَنُ** - أو قال: **الْبِدَعُ - وَسُبَّتْ أَصْحَابِي؛ فَلْيُظْهِرِ الْعَالِمُ عِلْمَهُ، فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ؛ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْـمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللهُ لَهُ صِرْفًا وَلَا عَدْلاً**»(١)، ولكن لله سبحانه الحمد والمنةُ إنَّ سلطانَ الوقت يعدُّ نفسه حنفيَّ المذهب، ومن أهل السنة والجماعة، وإلا؛ فقد كان الأمرُ ضيِّقاً على المسلمين جداً، فينبغي أداءُ شكر هذه النِّعمة العظمى كما ينبغي، وأن يجعل مدار الاعتقاد على معتقدات أهل السُّنَّة والجماعة، وأن لا يصغي إلى أقوال زيد وعمرو، فإنَّ جعلَ مدار الأمر على الخرافات الكاذبة تضييعُ الإنسان نفسه، وتقليدُ الفرقة النَّاجية ضروريٌّ حتى يحصل رجاءُ النجاة، وبدونه خرطُ القتاد. والسلام عليكم وعلى سائر من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى، عليه وعلى آله الصلاة والسلام.

المَكْتُوبُ الثَّانِي وَالخَمْسُونَ وَالمِائَتَانِ

إلى الشَّيخ بديع الدِّين في جوابِ استفساراتِه.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. وصل مكتوبُ الأخ الأرشد، فأورث فرحاً وافراً، واندرج فيه استفساراتٌ. فاعلم أنَّ مبدأَ تعيّن سيدنا نوح وسيدنا إبراهيم عليهما السلام صفةُ العلم، كما أنَّ مبدأَ التعيّن المحمديّ عليه الصلاة والسلام هو هذه الصِّفةُ أيضاً، والتَّفاوتُ إنّما هو بالجهات والاعتبارات، فإنَّ لهذه الصِّفَة وجهاً إلى العالم ووجهاً آخر إلى المعلوم، والوجهُ الأوّلُ مناسبٌ للوحدة، والثّاني للكثرة، ولهذه الصِّفة أيضاً إجمالُ تفصيل، وكلُّ واحدٍ من هذه الاعتبارات كان مبدأَ تعيّن واحدٍ من الكبراء، والمعارفُ التي تتعلّق بتحمُّل ثقل النبوَّة والولاية مندرجةٌ في المكتوب الذي حرِّر إلى الخواجه محمد أشرف تفصيلاً، فلم أكتبها الآن، فتطلب منه، وأردت أن أكتبَ جوابَ الاستفسار عن الفرق بين الغوث والقطب والخليفة، ولكن ما وجدتُ الإذنَ بالكتابة، فأخَّرناه إلى وقتٍ آخر، والسلام.

المَكْتُوبُ الثَّالِثُ وَالخَمْسُونَ وَالمِائَتَانِ

إلى الشَّيخ إدريسَ السَّامانيِّ في بيانِ جوابِ أسئلتِه، وتفصيلِ بعضِ مقاماتِ الطَّريقِ ومَنازِله على طَريقِ الرَّمزِ والإجمالِ.

بعد الحمد والصلوات، وتبليغ الدعوات، أنهي أنَّ أحوال فقراء هذه الحدود وأوضاعَهم مستوجبةٌ للحمد، المسؤولُ من الله سبحانه سلامَتُكم واستقامتُكم على الطَّريقة المرضيَّة المصطفويَّة، على صاحبها الصلاةُ والسلامُ والتحيَّةُ، وبيانُ الأحوال والمواجيد الذي أحيل على مولانا عبد المؤمن واستفسرتَ عنها بيَّنها مولانا كلَّها بالتَّفصيل، وقال: إنَّه يقول: إذا نظرتُ إلى جانب الأرض لا أجدُ الأرضَ، وإذا رميتُ نظري إلى جانب السماء لا أجدها أيضاً، وإذا أتيتُ شخصاً لا أجدُ له وجوداً أيضاً، وكذلك لا أجد للعرش والكرسي والجنَّة والنار أيضاً وجوداً، ولا أرى لنفسي أيضاً وجوداً، ووجودُ الحقّ سبحانه غيرُ متناهٍ، لم يجد أحدٌ له نهايةً، وتكلّم الأكابرُ أيضاً إلى هذا المقام فقط، ومتى وصلوا إليه عجزوا عن السَّير، ولم يقدروا على الزِّيادة على ذلك، فإن كان هذا كمالاً عندكم أيضاً وكنتم في هذا المقام؛ فلأيِّ شيءٍ أحضرُ عندكم؟ ولماذا أَتعبُ وأُتعب؟ وإن كان وراءَ هذا الكمال أمرٌ آخرُ؛ فأَطْلِعوني عليه حتى أذهبَ إلى ديارٍ يكثر فيها ألمُ الطلب، وكان سببُ التَّوقف من المصير إليكم منذ سنين حصولَ هذا التردُّد.

أيُّها المخدومُ، إنَّ هذه الأحوالَ وأمثالها من تلوينات...........................

(١) أخرجه الخلال في «السنة» (٣/ ٤٩٤-٤٩٥)، والآجري في «الشريعة» (ص: ٢٥٦٢)، وابن بطة في «الإبانة» (١/ ٢٠٩)، والخطيب في «الجامع» (٢/ ١١٨) من حديث معاذ بن جبل ﷺ، وأخرجه الآجري في «الشريعة» (ص: ٢٤٩٧) من حديث جابر ﷺ بنحوه.

القلب، ويكون مشهوداً أنَّ صاحبَ هذه الأحوال لم يَطْوِ بعدُ من مقامات القلب أزيدَ من الرُّبُع، فيلزمه طيُّ ثلاثة أرباع أخرى منها حتى يطويَ معاملة القلب بالتمام، وبعد القلب روحٌ، وبعد الروح سرٌّ، وبعد السرّ خفيٌّ، وبعد الخفيّ أخفى، ولكلٍّ واحدةٍ من هذه اللطائف الأربع الباقية أحوالٌ ومواجيدُ على حدةٍ، ويلزم طيُّ كلِّ حدةٍ منها منفردةً منفردةً، والتحلّي بكمالات كلٍّ منها، وبعد مجاوزة هذه الخمسة الأمريَّة وطيِّ أصولها مرتبةً بعد مرتبةٍ، وقطع مدارج ظلال الأسماء والصِّفات التي هي أصولُ تلك الأصول درجةً بعد درجةٍ تجلِّياتُ الأسماء والصِّفات، وظهوراتُ الشُّؤون والاعتبارات، وبعد هذه التجلِّيات تجلِّياتُ الذات تعالت وتقدست، فتقع المعاملةُ حينئذٍ على اطمئنان النَّفس، ويتيسّر حصولُ رضا الحقّ جل وعلا، والكمالاتُ التي تحصل في هذا الموطن حكمُ الكمالات السابقة في جنبها كحكم القطرة في جنب البحر المحيط الذي لا قَعْرَ له، وهنا يتيسّرُ شرحُ الصدر، ويتَّصفُ بالإسلام الحقيقيّ:

(ع) هَـذَا هُـوَ الْأَمْـرُ وَالْـبَـاقِـي خَـيَـالَاتٌ

وما يتوهَّمُ أنَّه من تجلِّيات الأسماء والصِّفات قبل قطع منازل هذه الخمسة الأمريَّة مع الأصول وأصول الأصول؛ فهو ظهوراتُ بعض خواصّ عالم الأمر، وله نصيبٌ من اللامثليّ واللاكيفيّ ومن اللامكانِيّ، وليس بتجلِّيات الأسماء والصِّفات، قال واحدٌ من السَّالكين في هذا المقام: عبدتُ الروحَ ثلاثين سنةً على ظنٍّ أنَّها الحقُّ سبحانه وتعالى، فأين الوصولُ؟ وإلى من السَّيرُ؟ (شعر) كَيْفَ الْوُصُـولُ إِلَى سُـعَـادَ وَدُونَهَا قُـلَـلُ الْـجِـبَـالِ وَدُونَـهُـنَّ خُـيُـوفُ

ولَمّا طلبتم الكشفَ عن حقيقة هذا الطَّريق على وجه الالتفات؛ كتبتُ نبذةً منه على وجه الإجمال، والأمرُ عند الله سبحانه، والسلام عليكم وعلى من لديكم.

المَكْتُوبُ الرَّابِعُ وَالخَمْسُونَ وَالمِائَتَانِ

إلى المـلّا أحمد البَرَكيِّ في جوابِ بعضِ أسئِلته.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩]. قد كتبت أنَّ بعض الأكابر قال: إنَّ الإنسانَ ينبغي له أن يعمل ما يعمله بأمرِ صاحبِ الزَّمان حتى تترتَّب عليه النَّتيجةُ ولو كان أمراً مشروعـاً، فإن كان هذا الكلامُ صحيحـاً؛ نرجو الإذنَ والأمرَ في جميع المشروعات.

أيُّها المخدومُ، إنَّ كلامَ الأكابر صحيحٌ، والإذنَ لك حاصلٌ، وأنت مأذونٌ، ولكن ينبغي أن يعلم أنَّ المرادَ بالنتيجة: نتيجةٌ معتدٌّ بها، لا مطلقـاً. وكتبت أيضـاً أنَّه قد حرّر في رسالةٍ: أنَّ الخواجه أحرار قدس سره قال: إنَّ القرآنَ في الحقيقة من مرتبة عين الجمع، يعني: من أحديَّة الذات تعالت وتقدست، فما يكون معنى ما حرّر في رسالة «المبدأ والمعاد»: أنَّ حقيقةَ الكعبة الربانيَّة فوق الحقيقة القرآنيَّة؟

أيُّها المخدومُ، ليس المرادُ بأحديَّة الذات هناك: الأحديَّةَ المجرَّدةَ التي لا يكون فيها شيءٌ من الصِّفة والشأن ملحوظـاً؛ لأنَّ حقيقةَ القرآن ناشئةٌ من صفة الكلام التي هي إحدى الصِّفات الثَّمانية، وحقيقة الكعبة ناشئةٌ عن مرتبةٍ منزَّهةٍ عن تلوينات الصِّفات والشؤونات، فيكون التفوُّق لها.

وكتبت أيضـاً: أنَّه قد ذكر في بعض التفاسير: لو قال شخصٌ: أنا أسجد للكعبة يكفر، فإنَّ السَّجدةَ ينبغي أن تكون إلى طرف الكعبة لا للكعبة، وذكر في موضع آخر: كانوا في أوَّل الإسلام يقولون في السجدة: لك سجدتُ، ومدلولُ الضمير نفسُ الذات تعالت وتقدست، فما يكون معنى ما حرّر في رسالة «المبدأ والمعاد» من أنَّ صورةَ الكعبة، كما أنَّها مسجودةُ صور الأشياء؛.....

كذلك حقيقةُ الكعبة مسجودةُ حقائق الأشياء؟

أيُّها المخدومُ، إنَّ هذا من مسامحات العبارات، كما يقال: إنَّ آدمَ مسجودُ الملائكة، مع أنَّ السَّجدةَ للخالق جلّ سلطانه، لا لمخلوقه ومصنوعه، أيَّ مخلوقٍ كان. والسلام عليكم وعلى أصحابكم وأحبابكم وعلى الملا بابنده والملا حسن.

المَكْتُوبُ الخَامِسُ والخَمْسُونَ وَالمِائَتَانِ

إلى المـلَّا طاهرِ اللَّاهوريِّ في التَّحريضِ على إحياءِ السُّنَّة السَّنيَّة، ورَفعِ البِدعةِ الغَيرِ المَرضيَّة.

﴿الْحَمْدُ لِلهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩]. وصل المكتوبُ الشَّريفُ المرسلُ مع الحافظ بهاء الدين، وأورث فرحـاً وافراً، حبّذا النِّعمةُ توجُّهُ المحبين والمخلصين بجميع همَّتهم إلى إحياء سُنَّةٍ من السنن المصطفويَّة على صاحبها الصلاة والسلام والتحية، وإرادتهم بكليَّتهم رفعَ بدعةٍ من البدع غير المرضيَّة، فإنَّ كُلّاً من السُّنَّة والبدعة ضدُّ الأخرى، ووجود إحداهما مستلزمٌ لانتفاء الأخرى، فيكون إحياءُ إحداهما مستلزمـاً لإماتة الأخرى، فإحياءُ السُّنَّة موجبٌ لإماتة البدعة وبالعكس، فكيف تصحُّ تسميةُ البدعة حسنةً مع كونها مستلزمةً لرفع السنة؟ إلا أن يراد بالحسن: الحسنُ النسبيُّ، فإنَّه لا مجالَ للحسن المطلق هنا؛ لأنَّ جميعَ السنن مراضي الحقّ سبحانه وتعالى، وأضدادُها مرضيَّاتُ الشيطان، وهذا الكلامُ وإن كان اليوم ثقيلاً على الأكثرين بواسطة شيوع البدعة، ولكنَّهم سيعلمون غداً أنَّنا على الهداية أو إياهم. وورد أنَّ المهديَّ الموعودَ إذا أراد ترويجَ الدين وإحياءَ السُّنَّة في زمان سلطنته يقول عالمُ المدينة الذي اعتاد على العمل بالبدعة وظنَّها حسنةً وأَلْحَقَها بالدين بهذا الظنّ متعجِّباً: إنَّ هذا الرجلَ يريد رفعَ ديننا، وإزالةَ ملَّتنا، فيأمر المهديُّ بقتله، ويرى ما اعتقد أنَّه حسنٌ سيئـاً، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَآءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

والسلام عليكم وعلى سائر من لديكم، وقد غلب النِّسيانُ على الفقير حتى لا أعلم الآن إلى من فوَّضتُ مكتوبكم، فأكتب جواب الاستفسارات، فيرجى مسامحتكم، والشيخ ميان أحمد الغرملي من المحبين، وحيث إنَّه واقع في جواركم ينبغي رعايةُ الالتفات والتوجّه في حقّه.

المَكْتُوبُ السَّادِسُ والخَمْسُونَ وَالمِائَتَانِ

إلى الشَّيخ بديعِ الدِّينِ في جوابِ سُؤالِه عنِ القُطبِ وقُطبِ الأقطابِ والغَوثِ والخليفَة، وما يتعلَّق بذلك.

﴿الْحَمْدُ لِلهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩]. وصل المكتوبُ الشَّريفُ المرسلُ صحبة الدرويش، فأورث فرحـاً وافراً، وسألتَ عن معنى القطب وقطب الأقطاب والغوث والخليفة، وعن خدمة كلٍّ منهم ووظيفته، وأنَّه هل لهم اطِّلاعٌ على خدمتهم أم لا؟ والبشارةُ بقطبية الأقطاب التي تجيءُ من عالم الغيب هل لها أصلٌ أو هي من اختراع الخيال والوهم؟

ينبغي أن يعلم أنَّ كُمَّل أتباع نبيٍّ عليه وعليهم الصلاة والسلام إذا أتمُّوا بالتبعيَّة مقامَ النبوَّة يشرَّفُ بعضهم بمنصب الإمامة، وبعضهم يكتفي بمجرَّد حصول ذلك الكمال، وهذان المعظمان متساويان في نفس حصول ذلك الكمال، وإنَّما التفاوتُ في حصول المنصب وعدمه، وفي أمورٍ تتعلّقُ بذلك المنصب، وإذا أتمَّ الأتباعُ الكمَّلُ كمالات الولاية؛ يشرَّفُ بعضهم بمنصب الخلافة، ويكتفي بعضهم بمجرَّد حصول تلك الكمالات كما مرَّ آنفا، وكلٌّ من هذين المنصبين يتعلّق بالكمالات الأصليَّة، وأما في الكمالات الظليَّة؛ فالمناسبُ لمنصب الإمامة - يعني: لأن يكون حذاءَه وظلَّه - هو منصبُ قطب الإرشاد، والمناسبُ لمنصب الخلافة منصبُ قطب المدار، وكأنَّ هذين المقامين التَّحتانيين.........

ظلال ذينك المقامين الفوقانيين. والغوثُ عند الشيخ محيي الدين ابن العربي قدس سره هو قطبُ المدار المذكور، وليست الغوثيَّةُ عنده منصباً على حدةٍ وممتازةً عن منصب القطبيَّة، وما هو معتقدُ الفقير أنَّ الغوثَ غيرُ قطب المدار، بل هو ممدُّه ومعاونُه في أموره وشؤونه، وقطبُ المدار يستمدُّ منه في بعض الأمور، وفي تعيين مناصب الأبدال ونصبهم له دخلٌ أيضاً، ويقال للقطب باعتبار الأعوان والأنصار: قطبُ الأقطاب أيضاً؛ لأنَّ أعوانَ قطب الأقطاب وأنصارَه حكَّامٌ، ومن هنا قال صاحبُ «الفتوحات المكية»: ما من قريةٍ - مؤمنة كانت أو كافرة - إلا وفيها قطبٌ. واعلم أنَّ صاحبَ المنصب صاحبُ علمِ ألبتَّة، وأما الذي فيه كمالُ ذلك المنصب دون نفس المنصب؛ فلا يلزم كونُه من أرباب العلم، وكونه مطَّلعاً على خدماته، والبشارةُ التي تصل من عالم الغيب هي بشارةُ حصول كمالات ذلك المقام، لا بشارةُ حصول منصب ذلك المقام التي هي منوطةٌ بالعلم. وسألت أيضاً: إنَّه ما المرادُ بالإيمان الواقع في حديث: «**لَوْ وُزِنَ إِيمَانُ أَبِي بَكْرٍ بِإِيمَانِ أُمَّتِي لَرَجَحَ**»[(١)]؟ وما سببُ رجحان الإيمان بواسطة رجحان المؤمن به؟ وحيث كان متعلّقُ إيمان أبي بكر فوق متعلّقات إيمان الأمة يكون راجحاً ألبتَّة.

أيُّها المخدومُ، إنَّ معاملةَ السَّالك قد تبلغ في عروجاته مبلغاً لو تفوق منه مقدارَ نقطةٍ تكون الكمالاتُ التي تحصل بسبب هذا العروج والتفوُّق أزيدَ من جميع الكمالات السابقة؛ لأنَّ تلك النُّقطةَ أزيدُ من جميع ما تحتها، وكذلك حالُ النُّقطة التي فوق هذه النُّقطة، فإنَّ هذه النُّقطةَ حقيرةٌ في جنبها، وعلى هذا القياس، فمن كان متعلّقُ إيمانه كمالَ الفوق وغايتَه يكون راجحاً ألبتّة على جميع ما تحته، ومن هنا قالوا: تبلغ معاملةُ العارف مبلغاً يكتسب في طرفة العين مثل جميع كمالاته المتقدِّمة، وعلى مقياس تحقيق الفقير يحصل في لمحةٍ أزيدُ من جميع الكمالات المتقدمة، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]. وسألت أيضاً: أنَّه ذكر الشيخُ ابن العربيّ وأتباعه: أنَّ الأطفالَ الذين قتلوا بسبب موسى على نبينا وعليهم الصلاة والسلام انتقلت استعداداتُ كلِّهم إلى موسى عليه السلام، فنرجو تحريرَ حقيقة هذا الكلام بالتَّفصيل.

اعلم أنَّ هذا الكلامَ أصيلٌ؛ لأنَّه مكتوبٌ بالتَّحقيق، فكما أنَّ شخصاً واحداً يُجعلُ سبباً لحصول الكمالات لجماعةٍ؛ كذلك تجعل الجماعةُ سبباً لحصول الكمالات لشخصٍ واحدٍ، فإنَّ الشَّيخَ وإن كان سبباً لحصول الكمالات للمريدين، ولكن المريدين أيضاً أسبابٌ لحصول الكمالات للشيخ، وهذا الفقيرُ أحسَّ هذا المعنى في المأكولات والمشروبات التي صارت أجزاء بدنه، بحيث كلَّما تناوله من طعامٍ أو شرابٍ صار ذلك سبباً لجامعيَّة استعداده، وظهرت به قابليَّةٌ أخرى، فإذا قصد في بعض الأوقات تركَ المأكولات اللذيذة؛ منع من ذلك بواسطة تحصيل هذه الجامعيَّة، ولم يؤذنْ له بترك ذلك الطَّعام اللَّذيذ بسبب حصول تلك القابليَّة، وكم من استعدادٍ انتقل من شخصٍ إلى آخر كلاً أو بعضاً، وصار محسوساً أنَّ ذلك الشَّخصَ بقي خالياً، وحصَّل الآخرُ جمعيَّةً. وسألت أيضاً أنَّ الشيخَ[(٢)] نجمَ الدين الكُبرى أرسل واحداً من مريديه عند واحدٍ من الأعزَّة ليستفهم منه أنَّه تحت قدم أيِّ نبيٍّ؟ فقال له الشيخُ المرسَلُ إليه: في أيِّ شغلٍ جهودك؟ ففهم الشيخُ نجم الدين من هذا الكلام أنَّه تحت قدم موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام، بأيِّ وجهٍ يفهم هذا المعنى من هذه العبارة؟

اعلم أنَّ الجهودَ يُطلقُ على اليهود، وهم من أمَّة موسى عليه السلام. وسألت........................

---

(١) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٥/ ٣٣٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً، وأخرجه إسحاق بن راهويه في «مسنده» (٣/ ٦٧١- ٦٧٢)، والبيهقي في «الشعب» (١/ ١٤٣- ١٤٤) من حديث عمر رضي الله عنه موقوفاً عليه.

(٢) نقل أنَّه لما اشتهرت جذبةُ الشيخ مصلح الدين الخجندي أرسل الشيخ نجم الدين الكبري واحداً من مريديه لرؤيته، وقال له: كلّ ما تسمعه منه اعرضْ عليَّ، فلما وصل المريد إليه سأله الشيخ عن بلده، فقال: من خوارزم، فقال الشيخ: آن يهود خوشست، يعني: كيف ذاك اليهوديُّ طيب؟ أراد به: الشيخ نجم الدين الكبرى، فلما رجع المريد إليه وعرض كلام المجذوب عليه فرح فرحاً كثيراً، وطاب وقته، وقال: كنت مدةً مديدةً في التردد، وما كنت أعرف بأني على قدم أيِّ نبيٍّ من الأنبياء، فعلمت من إشارته بأنِّي على قدم موسى عليه السلام. انتهى معرَّباً من سلسلة العارفين لمولانا القاضي محمد أكبر خلفاء الخواجه أحرار. (المعرِّب)

أيضـاً: أنَّه كتب في «النفحات»: أنَّ ولايةَ جميع الأولياء تُسلبُ بعد الموت إلا ولايةَ أربعةٍ منهم.

اعلم أنَّه يمكن أن يكون مرادُه بالولاية: التصرُّفاتِ وظهورَ الكرامات، لا أصلَ الولاية التي هي عبارةٌ عن قربٍ إلهيّ جلّ سلطانه، وأن يكون مرادُه بالسلب أيضـاً: سلبَ كثرة ظهور الكرامات، لا سلبَ أصل الظُّهور، مع أنَّ هذا الكلامَ كشفيٌّ، ومجالُ الخطأ كثيرٌ في الكشف، فلا يدرى ماذا رأى؟ وماذا فهم؟ وطلبتَ ظهورَ بعض كرامات الأولياء، فكن منتظراً، ﴿سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧]. وسألت أنَّه قال في «تفسير النيسابوريّ»: «إنّ شانيك هو الأبتر» بالياء، فما التَّحقيقُ فيه بالياء أو بالهمزة؟ اعلم أنَّه بالهمزة، والذي كتب بالياء يمكن أن يكون قراءةً غير مشهورةٍ. وكتبت أنَّ بعضَ النساء يطلبن الاشتغال بالطَّريقة، فإن كُنَّ محارمَ؛ فما المانع؟ وإلا؛ يقعدنَ وراء الحجاب، ويأخذن الطَّريقةَ. وسألت أنَّ أربابَ الحديث أثبتوا في كلِّ شهرٍ أياماً منهيّةً، ونقلوا الحديثَ في هذا الباب، فماذا نفعل؟

قال والد الفقير قدس سره: إنَّ الشيخ عبد الله والشيخ رحمة الله اللذين كانا من أكابر المحدثين ولقِّبا في الحرمين بالشيخين وردا إلى الهند، وقالا: إنَّ هذا الحديثَ نقله الكرمانيُّ شارح البخاريّ، لكنَّه ضعيفٌ[1]، والحديثُ الصحيحُ في هذا الباب: «**الأَيَّامُ أَيَّامُ اللهِ، وَالعِبَادُ عِبَادُ اللهِ**»[2]، وقالا أيضاً: إنَّ نحوسةَ الأيّام زالتْ وارتفعتْ بولادة مَنْ أُرسلَ رحمةً للعالمين عليه وعلى آله الصلاة والسلام، وكانت نحوسةُ الأيّام بالنِّسبة إلى الأمم الماضية، وعملُ الفقير أيضاً على ذلك، لا أرجِّحُ يوماً على يومٍ أصلاً ما لم يعلم ترجيحُه من الشارع، كيوم الجمعة وأيام رمضان ونحوهما. وكتبت أيضاً بأنّي ما وجدت المعارفَ المتعلّقةَ بتحمِّل ثقل النبوَّة في مكتوب الخواجه محمد أشرف من أين تجده؟ فإنَّه حُرِّر في هذه الأيّام، ولم يبلغك ثقلُه، والمكتوب طويلٌ عريض يزيد على كراسةٍ، وقد أمرتُ بإرسال نقله إليكم، والسلام.

المَكْتُوبُ السَّابِعُ وَالخَمْسُونَ وَالمِائَتَانِ

إلى المِير نعمانَ في بيانِ الطُّرقِ على طريقِ الإجمالِ.

بعد الحمد والصَّلوات، وتبليغ الدَّعوات، أُنْهِي أنَّ المكتوبَ الشَّريفَ المرسلَ صحبة الشيخ أحمد الفرمليّ قد وصل، وأورث بوصوله فرحـاً وافراً، وطلبتَ رسالةً في بيان الطَّريق، قد حَرَّرتُ المسودات فيه، فإذا نُقِلَتْ إلى البياض بتوفيق الله أُرْسِلُها، والآن أكتب فقراتٍ في بيان الطَّريق بطريق الإجمال ينبغي استماعُها بسمع العقل.

أيُّها السيدُ، إنَّ الطَّريقَ الذي اخترناه نحن ابتداءُ مسيره من القلب الذي هو من عالم الأمر، وبعد القلب يقع السَّيرُ في مراتب الرُّوح التي فوقه، وبعد الرُّوح تكون هذه المعاملة بالسرّ الذي فوقها، وهكذا الحال في الخفيِّ والأخفى، وبعد طيِّ منازل هذه اللطائف الخمس، وحصول العلوم المتعلّقة بكلٍّ منها على حدةٍ على حدةٍ، وحصول المعارف كذلك، وبعد تحقُّق الأحوال والمواجيد المخصوصة بكل واحدٍ من هذه الخمس منفردةً منفردةً؛ يقع السَّيرُ في أصول هذه الخمس التي هي في العالم الكبير، فإنَّ كلَّما هو في العالم الصغير أصلُه في العالم الكبير، والمرادُ بالعالم الصغير: الإنسانُ، وبالعالم الكبير: سائرُ الكائنات، وشروعُ السَّير في أصول هذه الخمس من العرش المجيد الذي هو أصلُ قلب الإنسان، وفوقه أصلُ الرُّوح الإنسانيَّة، وفوقه أصلُ السرّ، وفوقه أصلُ الخفيّ، وفوقه أصلُ الأخفى، فإذا طوى سيرَ هذه الأصول الخمسة من العالم الكبير بالتَّفصيل، وانتهى إلى نقطةٍ أخيرةٍ؛ فقد أتمَّ سيرَ دائرة الإمكان، ووضع القدمَ على أوَّل منزلٍ من............

---

(١) أخرج أبو يعلى في «مسنده» (٢٦١٢) عن ابن عباس قال: (يوم الأحد يوم غرس وبناء، ويوم الإثنين يوم السفر، ويوم الثلاثاء يوم الدم، ويوم الأربعاء يوم أخذ ولا عطاء فيه، ويوم الخميس يوم دخول على السلطان، ويوم الجمعة يوم تزويج وباءة)، وأخرج الطبراني في «الأوسط» (٧٩٧) من حديث جابر رضي الله عنه مرفوعاً: «يوم الأربعاء يوم نحس مستمر».

(٢) أخرجه الطيالسي في «مسنده» (١٥٤٣)، والدارقطني في «سننه» (٤٥٠٦) من حديث عائشة رضي الله عنها، وأخرج أبو داود (٣٠٧٦) من حديث عروة: (أشهد أن رسول الله ﷺ قضى أن الأرض أرض الله، والعباد عباد الله)، وأخرجه أحمد (١٤٢٠)، والطبراني في «الكبير» (٢٥٠) من حديث الزبير رضي الله عنه.

منازل الفناء، فإن وقع الترقّي بعد ذلك يكون السَّيرُ في ظلال الأسماء والصِّفات الإلهيّة جلّ سلطانه، وهذه الظِّلالُ كالبرازخ بين الواجب والإمكان، وأصولٌ لتلك الأصول الخمسة التي في العالم الكبير، ويكون السَّيرُ في هذه الظِّلال أيضاً على التَّرتيب المذكور في فروعها، فإن طوى بفضل الله سبحانه المنازلَ المتكثرةَ من هذه الظلال، وانتهى إلى نقطتها الأخيرة؛ يكون شروعٌ في أسماء الواجب وصفاته جلّ سلطانه، وتقع تجلّياتُ الأسماء والصِّفات، وظهوراتُ الشُّؤون والاعتبارات، فعند ذلك يكون قد أتمَّ معاملةَ اللطائف الخمس الأمريَّة، وأدَّى حقَّها، فإن وقع الترقّي بفضل الله سبحانه بعد ذلك من هذا المقام تقع المعاملةُ على اطمئنان النَّفس، ويتيسّرُ حصولُ مقام الرضا الذي هو نهايةُ مقامات السلوك، ويحصل في هذا المقام شرحُ الصدر، ويتشرَّفُ فيه بالإسلام الحقيقيّ، والكمالاتُ التي تحصل في هذا الموطن حكمُ الكمالات المتعلّقة بعالم الأمر في جنبها كحكم القطرة في جنب البحر المحيط، وكلُّ هذه الكمالات المذكورة متعلّقةٌ باسم الظَّاهر، والكمالاتُ المتعلّقةُ باسم الباطن هي غيرها، ولها مناسبةٌ بالاستتار والتبطُّن، فإذا حصلت كمالاتُ هذين الاسمين المباركين بتمامها؛ يتيسّرُ للسالك جناحان للطَّيران ليطير بقوَّتهما إلى عالم القدس، وتحصل له ترقّياتٌ خارجةٌ عن القياس. وتفصيلُ هذه المعاملة محرَّرٌ في المسودات، وولدي الأرشد مجد في جمعه، وينبغي لك أن تجيءَ بنفسك هنا مرةً واحدةً إن تيسّر، لكن بشرط أن لا تتركَ مقامك خالياً حتى لا تضيِّعَ المعاملة، بل تجيء وحدك، وتجعل مقتدى تلك الجماعة من تعلم أنَّه أسبقُ قدماً، ثم تتوجّه إلى هذه الحدود، فإنَّه لا يدرى هل تعطى الفرصةُ في وقتٍ آخر أو لا؟ والسلام.

المَكتُوبُ الثَّامِنُ والخَمْسُونَ وَالمِائَتَانِ

إلى شريف خان في بيانِ أقرَبيَّته تعالى وتقدَّس.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. قد حصل الابتهاجُ والسرورُ بورود الصَّحيفة الشَّريفة المسطورة إلى فقراء هذه الحدود على وجه الكرم، جزاكم الله سبحانه خير الجزاء.

أيُّها المخدومُ، إنَّ أقربيَّة الحقّ سبحانه إلينا منّا وإن كانت ثابتةً بنصٍّ قاطعٍ، ولكن ماذا نصنع؟ إنَّه سبحانه وراء وراء عقولنا وأفهامنا، ووراء وراء علومنا وإدراكاتنا، مع أنَّا نعرف أنَّ هذه الورائيّةَ في جانب القرب، لا في جانب البعد، فإنَّه سبحانه أقربُ من كلِّ قريبٍ، حتى إنَّا نجد أحديَّةَ ذاته سبحانه أقرب من الصِّفات التي نحن من آثار تلك الصِّفات، وهذه المعرفةُ وراء نظر العقل وطَوْره، فإنَّ العقلَ لا يقدر أن يتصوَّر شيئاً أقرب إليه من نفسه، والمثالُ الذي يوضِّحُ هذا المبحث لم يوجد مع كثرة التتبُّع، ومستندُ هذه المعرفة نصٌّ قطعيٌّ وكشفٌ صحيحٌ، وقد تكلم مشائخ الطَّريقة في التَّوحيد والاتحاد، وبيَّنوا القربَ والمعيَّةَ، واختاروا السُّكوتَ في أقربيَّته تعالى، ولم يجد منهم بيانٌ شافٍ في هذا الباب، والعجبُ أنَّ أقربيَّته تعالى صارت سبباً لأبعديَّتنا هذا إلى أن يبلغ الكتاب أجله، فافهم، فإنَّ كلامنا إشاراتٌ وبشاراتٌ. والسلام عليكم وعلى سائر من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى عليه وعلى آله من الصلاة أتمها، ومن التسليمات أكملها.

المَكتُوبُ التَّاسِعُ والخَمْسُونَ وَالمِائَتَانِ

إلى المَخدومِ زادَه الخواجه محمَّد سعيدٍ قدِّس سرُّه في بيانِ فوائدِ إرسالِ الرُّسلِ، وعدمِ استقلالِ العَقلِ في مَعرِفتِه تعالى، وبيانِ الحكمِ الخاصِّ فيمَن نشأَ في شاهقِ الجبَلِ، ومشركي زمنِ الفَترةِ، وأطفالِ مُشركي دارِ الحَربِ، وتحقيقِ بعثَةِ الأنبياءِ في أرضِ الهندِ منَ الهِندِ سابقًا، وما يُناسِبه.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣]، بأيِّ لسانٍ يؤدَّى شكرُ نعمة إرسال الرسل عليهم الصلوات والتسليمات، وبأيِّ قلبٍ يعتقد المنعم بها؟ وأين للجوارح أن تكافئها بالأعمال الحسنة؟ فلولا هؤلاء الكبراء من كان يدلُّ أمثالنا القاصرين على وجود الصانع ووحدته جلّ سلطانه؟

ولم يهتد قدماءُ فلاسفة اليونان إلى وجود الصانع جل شأنه مع وجود الذَّكاوة فيهم حتى نسبوا إيجادَ الكائنات إلى الدَّهر، ولَمّا سطع أنوارُ دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يوماً فيوماً؛ ردَّ متأخِّروهم - ببركة تلك الأنوار - مذهبَ قدمائهم، وقالوا بوجود الصَّانع جلّ شأنه، وأثبتوا وحدانيته تعالى، فعقولُنا بمعزلٍ عن إدراك هذا المطلب العالي بلا تأييدٍ من أنوار النبوَّة، وأفهامُنا بعيدةٌ عن الوصول إلى هذه المعاملة بدون وساطة وجود الأنبياء عليهم الصلوات والتحيات، يا ليت شعري، ماذا أراد أصحابنا الماتريديَّةُ من قولهم باستقلال العقل في بعض الأمور، كإثبات وجود الصانع تعالى ووحدانيته سبحانه؟ فكلَّفوا من نشأ في شاهق الجبل وعَبَد الصنم بهما، وإن لم تبلغه دعوةُ الرسول، وحكموا بترك النَّظَر فيهما بكفره وخلوده في النار، ونحن لا نفهم الحكمَ بالكفر والخلود في النار إلا بعد البلاغ المبين والحجَّةِ البالغةِ المنوطة بإرسال الرسل.

نعم، العقلُ حجَّةٌ من حجج الله تعالى، ولكنَّه ليس بحجَّةٍ بالغةٍ في المحجَّة حتى يترتَّبَ عليه أشدُّ العذاب. فإن قلت: فإن لم يكن من نشأ في شاهق الجبل وعبد الصنم مخلَّداً في النار؛ يكون في الجنة بالضَّرورة، وذا غيرُ جائزٍ، فإنَّ دخول المشركين الجنة حرامٌ، ومأواهم النارُ، قال الله تعالى حاكياً عن عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]، والواسطةُ بين الجنَّة والنار غيرُ ثابتةٍ، وأصحابُ الأعراف يدخلون الجنَّةَ بعد مدَّةٍ، فالخلودُ إما في الجنة وإما في النار.

قلت: إنَّ هذا السُّؤالَ مستصعبٌ جداً، وولدي الأرشد يعرف أنَّه كرَّر هذا السؤالَ إلى هذا الفقير من مدَّةٍ كثيرةٍ، ولم يجد له جواباً شافياً، وما قال صاحبُ «الفتوحات المكية» في حلِّ هذا السُّؤال من إثبات بعثة نبيٍّ يوم القيامة لأجل دعوة هؤلاء القوم، والحكم بدخول الجنَّة والنار على حسب إنكارهم وإقرارهم غيرُ مستحسنٍ عند هذا الفقير؛ لأنَّ الآخرةَ دارُ الجزاء لا دارُ التكليف حتى يبعث فيها نبيٌّ. وبعد مدَّةٍ مديدةٍ كانت عنايةُ الحقّ جل سلطانه دليلاً وهادياً، وانحلَّ هذا المعمّى، وكشف أنَّ تلك الجماعةَ لا يخلدون لا في الجنَّة ولا في النار، بل يعذَّبون ويعاقبون بعد البعث والإحياء في الآخرة على قدر جريمتهم في مقام الحساب، وتستوفى منهم الحقوقُ، ثم يجعلون بعد ذلك معدوماً مطلقاً، ولا شيئاً محضاً، مثل حيواناتٍ غير مكلّفةٍ، فلمن يكون الخلودُ؟ ومن يكون مكلفاً؟ ولَمّا عرضت هذه المعرفةَ الغريبةَ في محضرٍ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام صدَّقها جميعهم وقبلوها، والعلمُ عند الله سبحانه وتعالى، والحكمُ بإخلاد الحق سبحانه وتعالى عبده في النار وتأبيد عذابه بمجرد العقل الذي مجالُ الخطأ والغلط كثيرٌ فيه جدّاً من غير بلاغٍ بيِّنٍ بوساطة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع كمال رأفته ورحمته تعالى يثقل على هذا الفقير جدّاً، كما يثقل الحكمُ بالخلود في الجنة مع وجود الشِّرْك كما يلزم ذلك على مذهب الأشعريّ؛ لعدم القول بالواسطة بين الجنة والنار. فالحقُّ ما أُلهمتُ به من إعدامه بعد استيفاء محاسبة يوم الحشر كما مرّ، وهذا هو حكمُ أطفال مشركي دار الحرب عند الفقير أيضاً، ....

فإنَّ دخولَ الجنَّة منوطٌ بالإيمان: إما بالأصالة، وإما بالتَّبعيَّة، وإن كانت تبعيَّةُ دار الإسلام كما هو في أطفال أهل الذمة، والإيمانُ مفقودٌ في حقِّهم مطلقاً، فلا يتصوَّرُ دخولهم الجنَّة، ودخولُ النار والخلودُ فيها مربوطٌ بالشِّرْك بعد ثبوت التَّكليف، وهذا أيضاً مفقودٌ في حقِّهم، فحكمُهم حكمُ البهائم من الإعدام بعد البعث والنُّشور للحساب واستيفاء الحقوق، وهذا هو الحكمُ أيضاً في مشركي زمن فترة الرُّسل الذين لم تبلغهم دعوةُ نبيٍّ من الأنبياء.

أيُّها الولدُ، إنَّ هذا الفقيرَ كلَّما يلاحِظُ ويجيلُ النَّظرَ لا يجد محلاًّ لم تبلغه دعوةُ نبينا عليه وعلى آله الصلاة والسلام، بل يكون محسوساً أنَّ نورَ دعوته ﷺ بلغ كلَّ محلٍّ مثل نور الشمس، حتى يأجوج ومأجوج الذين حال بينهم السدُّ، وإن ألاحِظُ في الأمم السَّابقة؛ لا أجد بقعةً لم يبعث فيها نبيٌّ حتى في أرض الهند التي تُرى بعيدةً عن هذه المعاملة أجد أنبياءَ كانوا مبعوثين من أهل الهند، ودعوا إلى الحقِّ جلّ شأنه، ويشاهَدُ في بعض بلاد الهند أنوارُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في ظلمات الشّرك كالمشاعل المسرجة، فإن شئت عيَّنت تلك البلاد، وأرى نبيّاً لم يصدِّقْه أحدٌ، ولم يقبل دعوته، ونبيّاً آخر آمن به شخصٌ، وآخر صدقه شخصان، وصدَّق البعضَ ثلاثةٌ، ولا يقع النَّظرُ على أزيدَ من ثلاثةٍ آمنوا بنبيٍّ في الهند، ولا أرى نبيّاً آمن به واتَّبعه أربعةٌ. وما كتبه رؤساءُ كفرة الهنود من وجود الواجب وصفاته ومن تنزيهاته وتقديساته كلُّ ذلك مقتبسٌ من أنوار مشكاة النبوَّة؛ لأنَّه مضى في كلِّ عصرٍ من الأمم السابقة نبيٌّ من الأنبياء، وأخبروا عن وجود الواجب وصفاته الثبوتية، ومن تنزيهاته وتقديساته سبحانه وتعالى، فلولا وجودُ هؤلاء الكبراء كيف كان هؤلاء المخذولون بعقولهم القاصرة العمياء المتلوِّثة بظلمات الكفر والمعاصي مهتدين إلى هذه الدَّولة؟

وعقولُ هؤلاء المخذولين النَّاقصة حاكمةٌ في حدِّ ذاتها بألوهيَّتهم، ولا يُثْبِتون إلهاً سواهم، كما قال فرعون مصر: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، وقال أيضاً: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

ولَمّا علموا بإخبار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أنَّ للعالم صانعاً واجب الوجود؛ اطَّلع بعضُ هؤلاء المخذولين على قبح ادِّعائه، وأثبت الصَّانعَ الواجبَ الوجود بالتَّقليد والتستُّر، وزعم أنَّه سارٍ فيه ومتَّحدٌ به، ودعا الخلقَ إلى عبادته بهذه الحيلة، تعالى اللهُ عما يقول الظالمون علوّاً كبيراً.

ولا يعترض القاصرُ هنا أنَّه لو بُعِثَ الأنبياءُ في أرض الهند؛ لبلغنا خبرُ بعثته ألبتَّة، بل كان ينقل ذلك الخبرُ بالتواتر لتوفُّر الدواعي، وليس فليس؛ لأنَّا نقول: إنَّ دعوةَ هؤلاء الأنبياء لم تكن عامّةً، بل كانت دعوةُ بعضهم مخصوصةً بقومٍ، ودعوةُ بعضهم بقريةٍ أو ببلدةٍ، ويمكن أن يشرِّفَ الله سبحانه شخصاً في قومٍ أو قريةٍ بهذه الدَّولة، فيدعوهم إلى معرفة الصانع، ويمنعهم عن عبادة غيره تعالى، فيكذِّبونه وينسبونه إلى الجهالة والضلالة، فإذا انتهى إنكارُهم وتكذيبُهم إياهم إلى نهايته وغايته؛ يهلكهم الله جل وعلا غيرةً لنبيه، وكذلك يمكن أن يبعث نبيٌّ آخرُ بعد مدَّةٍ إلى قومٍ أو قريةٍ، فيعاملهم كما عامل الأوّلُ قومه، فيفعل بهم كما فعل بأوائلهم، وهكذا إلى ما شاء الله تعالى. وآثارُ هلاك القرى والبلاد كثيرةٌ في أرض الهند، وهؤلاء القوم وإن هلكوا، ولكن كلمة تلك الدَّعوة باقيةٌ فيما بين أقرانهم، ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٨]، وخبرُ نبوة الأنبياء المبعوثة ....

إنّما يبلغنا إذا صدَّقهم جمعٌ كثيرٌ، وقوي أمرُه، وأما إذا جاء شخصٌ ودعا أياماً، فمضى، ولم يقبل دعوتَه أحدٌ، ثم جاء آخر، وفعل مثل ما فعل الأوّل، فصدَّقه شخصٌ واحدٌ، وصدَّق الآخر اثنان أو ثلاثةٌ؛ فمن أين ينتشر الخبر؟ وكان الكفارُ كلُّهم في مقام الإنكار، وكانوا يردُّون على من كان يخالف دين آبائهم، فمن يكون الناقلُ؟ وإلى من ينقل؟

وأيضاً إنَّ ألفاظَ الرسالة والنبوَّة وپيغمبر من لغات العرب والفارس بواسطة اتّحاد دعوة نبينا عليه الصلاة والسلام وعمومها، ولم تكن هذه الألفاظ في لغة الهند حتى يقال للأنبياء المبعوثين من الهند: رسولاً أو نبيّاً أو پيغمبر، أو يذكرون بهذه الأسامي. وأيضاً نقول في جواب هذا السؤال بطريق المعارضة: إنَّه لو لم تبعث الأنبياءُ في الهند، ولم يدعوهم بلسانهم؛ لكان حكمُ هؤلاء القوم حكمَ من نشأ في شاهق الجبل، فلا يدخلون النَّارَ مع وجود التَّمرُّد ودعوى الألوهيَّة، ولا يكون لهم العذابُ المخلَّدُ، وهذا مما لا يرتضيه العقلُ السَّليمُ، ولا يساعده الكشفُ الصَّحيحُ، فإنّا نشاهد بعضَ مَرَدتهم في وسط الجحيم، والله سبحانه أعلم بحقيقة الحال.

المكتوبُ السِّتُّونَ والمائتانِ

إلى المخدوم زادَه الشَّيخ محمَّدٍ صادقٍ قدِّس سرُّه في بيانِ الطَّريقةِ المُختصَّة به، وبَيانِ الولاياتِ الثَّلاثِ: الصُّغرَى والكُبرَى والعُليا، وبيانِ أفضَليَّة النُّبوَّة منَ الولايَة مطلقاً، وبيانِ اللَّطائفِ العَشرِ الإنسانيَّة التي خمسٌ منها من عالَمِ الأمرِ، وخمسٌ من عالَمِ الخَلقِ، مع كمالاتٍ مخصوصةٍ بكلِّ واحدةٍ منها، وبيانِ أفضليَّة عالَمِ الخَلقِ من عالَمِ الأمرِ، مع بيانِ كَمالاتٍ مخصوصَةٍ بعنصرِ التُّرابِ، وبيانِ العُلومِ والمَعارفِ المناسِبةِ لكلِّ مقامٍ، وأمثالِ ذلك.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاةُ والسلامُ على سيد المرسلين، عليه وعليهم وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين.

اعلم أيُّها الولدُ أسعدك الله سبحانه وتعالى أنَّ لطائفَ عالم الأمر الخمس - أعني: القلبَ والروحَ والسرَّ والخفيَّ والأخفى - التي هي من أجزاء العالم الصغير - أعني: الإنسان - أصولُها في العالم الكبير كالعناصر الأربعة التي هي أجزاءُ الإنسان، فإنَّ أصولها في العالم الكبير، وظهورُ أصول الخمس فوق العرش حيث يوصف باللامكانيَّة، ومن ههنا يقال لعالم الأمر: لامكانياً، تتمُّ دائرةُ الإمكان خلقُه وأمرُه وصغيرُه وكبيرُه بالوصول إلى نهاية تلك الأصول، وإلى هذا الموطن ينتهي امتزاجُ العدم بالوجود الذي هو منشأُ الإمكان، فإذا طوى السَّالكُ الرّشيدُ محمديُّ المشرب هذه الخمسَ من عالم الأمر بالتَّرتيب، وشرع في السَّير في أصولها من عالم الكبير، وطوى كلها بالتَّرتيب والتَّفصيل بعلوّ الفطرة، بل بمحض فضل الحق سبحانه، وانتهى إلى النقطة الأخيرة؛ فلا جرمَ يكون قد أتمَّ دائرة الإمكان بالسير إلى الله، وصار مستحقّاً لأن يُطلَقَ عليه اسم الفناء، يعني: لأن يوصف به، وشرع في الولاية الصغرى التي هي ولايةُ الأولياء. فإن وقع السَّيرُ بعد ذلك في ظلال الأسماء والصِّفات الوجوبيَّة التي هي أصلُ الخمسة التي في العالم الكبير في الحقيقة، ولم يتطرَّقْ إليها شائبةُ العدم، وطوى كلَّها بفضل الله سبحانه بطريق السَّير في الله، وبلغ نهايَتَها؛ فقد أتمَّ دائرةَ ظلال الأسماء الواجبيَّة أيضاً، وحصل له الوصولُ إلى مرتبة الأسماء والصِّفات الواجبيَّة، ونهايةُ عروج الولاية الصُّغرى إلى هذا المقام، وفي هذا الموطن يتحقّق الشُّروعُ في حقيقة الفناء، ويوضع القدمُ في بداية الولاية الكبرى التي هي ولايةُ..........................

الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ومما ينبغي أن يعلم أنَّ هذه الدَّائرةَ الظلاليَّةَ متضمِّنةٌ لمبادئ تعيّنات الخلائق سوى الأنبياء الكرام والملائكة العظام عليهم الصلاة والسلام، وظلُّ كلِّ اسمٍ مبدأُ تعيّن شخصٍ من الأشخاص، حتى إنَّ مبدأ تعيّن الصديق الأكبر - الذي هو أفضلُ البشر بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام - النُّقطةُ الفوقانيَّةُ من هذه الدَّائرة. وما قيل: إنَّ السَّالكَ إذا انتهى إلى اسمٍ هو مبدأُ تعيّنه فقد أتمَّ السَّير إلى الله؛ ينبغي أن يكون المرادُ به: ظلَّ الاسم الإلهيّ جلّ شأنه، وجزئيّاً من جزئياته، لا أصله وعينه، وهذه الدَّائرةُ الظلاليَّةُ تفصيلُ مرتبة الأسماء والصِّفات في الحقيقة، فإنَّ العلمَ مثلاً صفةٌ حقيقيّةٌ، ولها جزئيَّاتٌ، وتفصيلُ تلك الجزئيات ظلالُ هذه الصِّفة التي لها مناسبةٌ بالإجمال، وكلُّ جزئيٍّ من تلك الجزئيات مبدأُ تعيّن شخصٍ من الأشخاص غير الأنبياء الكرام والملائكة الفخام عليهم الصلاة والسلام، ومبادئُ تعيّنات الأنبياء والملائكة أصولُ هذه الظلال، يعني: كليات تلك الجزئيات المفصَّلة كصفة العلم مثلاً وصفة القدرة وصفة الإرادة وغيرها، ويشترك الكثيرون من الأشخاص في صفةٍ واحدةٍ كانت مبدأَ تعيّنٍ باعتباراتٍ مختلفةٍ، وذلك أنَّ مبدأَ تعيّن خاتم الرسل مثلاً شأنُ العلم، وهذه الصِّفةُ كانت مبدأَ تعيّن إبراهيم عليه السلام باعتبارٍ آخر، وهي مبدأُ تعيّن نوح عليه السلام أيضاً باعتبارٍ آخر، وتعيّنُ تلك الاعتبارات مذكورٌ في مكتوب الخواجه محمد أشرف.

وما قال بعضُ المشائخ من أنَّ الحقيقةَ المحمديَّةَ هي التعيّنُ الأوّلُ الذي هو حضرة الإجمال ومسمّى بالوحدة؛ فمرادُه به - على ما ظهر لهذا الفقير من عالم الغيب والله سبحانه أعلم -: مركزُ هذه الدَّائرة الظلاليَّة، قد ظنَّ هذه الدَّائرةَ الظلاليَّةَ تعيّناً أوّلاً، وتخيَّل مركزها إجمالاً، وسماه وحدةً، وزعم تفصيلَ ذلك المركز الذي هو محيطُ تلك الدَّائرة واحديَّةً، وتصوَّرَ ما فوق دائرة الظِّلال الذي هو دائرةُ الأسماء والصِّفات ذاتاً منزهةً ومبرأةً عن التعيّن، وليس الأمرُ كذلك، بل أقول: إنَّ مركزَ هذه الدَّائرة الظِّلاليَّة ظلُّ مركز الدَّائرة الفوقانيَّة التي هي أصلُها ومسمَّاةٌ بدائرة الأسماء والصِّفات والشؤون والاعتبارات، والحقيقةُ المحمديَّةُ هي مركزُ هذه الدَّائرة الأصليَّة في الحقيقة التي هي إجمالُ الأسماء والشُّؤونات، وتفصيلُ الأسماء إنّما هو في هذه الدَّائرة التي هي مرتبةُ الواحديَّة، وإطلاقُ الوحدة والأحديَّة على مرتبة ظلال الأسماء مبنيٌّ على اشتباه الظلِّ بالأصل، ومن هذا القبيل إطلاقُ السَّير في الله في ذلك الموطن، فإنَّ السَّيرَ في ذلك الموطن داخلٌ في الحقيقة في السَّير إلى الله. هذا، فإن وقع العروجُ بعد ذلك إلى دائرة الأسماء والصِّفات التي هي أصلُ دائرة الظِّلال بطريق السَّير في الله؛ يكون ذلك شروعاً في كمالات الولاية الكبرى، وهذه الولايةُ الكبرى مخصوصةٌ بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالأصالة، ووصل أصحابُهم الكرام أيضاً إلى هذه الدَّولة بالتبعيَّة، والنصفُ الأسفلُ من هذه الدَّائرة متضمِّنٌ للأسماء والصِّفات الزَّائدة، ونصفُها الأعلى مشتملٌ على الشُّؤون والاعتبارات الذاتيّة، ونهايةُ عروج لطائف عالم الأمر الخمس إلى نهاية هذه الدَّائرة - يعني: دائرة الأسماء والشؤونات -، فإن وقع الترقّي بعد ذلك بمحض فضل الحق جلّ شأنه من مقام الصِّفات والشؤونات يكون السَّيرُ في دائرة أصول تلك الصِّفات والشؤونات، وبعد المجاوزة والعبور عن دائرة تلك الأصول دائرةُ أصول تلك الأصول، وبعد طيِّ هذه الدَّائرة يظهر من الدَّائرة الفوقانيَّة قوسٌ ينبغي قطعُه أيضاً، وحيث لم يظهر من هذه الدَّائرة الفوقانيَّة غيرُ القوس؛ اقتصرنا على ذلك القوس، ولا بُدَّ من أن يكون..........................

هنا سِرٌّ، ولم أطّلع عليه بعدُ.

وهذه الأصولُ الثلاثة المذكورة للأسماء والصِّفات مجرَّدُ اعتباراتٍ في حضرة الذات تعالت وتقدّست كانت مبادئَ الصِّفات والشؤونات، وحصولُ كمالات هذه الأصول الثَّلاثة مخصوصةٌ بالنَّفس المطمئنَّة، ويتيسّرُ حصولُ الاطمئنان لها في ذلك الموطن، وفي هذا المقام يحصل شرحُ الصدر، وفيه يتشرَّفُ السَّالكُ بالإسلام الحقيقيّ، وهذا هو ذاك الموطنُ الذي تجلس المطمئنَّةُ فيه على تخت الصدر، وترتقي في مقام الرضا، وهذا الموطنُ هو نهايةُ الولاية الكبرى التي هي ولايةُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولَمّا انتهى بي السَّيرُ إلى هذا المقام؛ توهَّم لي أنَّ الأمرَ قد تمَّ، فنوديتُ في سرِّي أنَّ كلَّ ذلك كان تفصيلَ الاسم الظَّاهر الذي هو أحد جناحي الطَّيَران، والاسمُ الباطنُ أمامك بعد، وهو الجناحُ الثّاني للطَّيران إلى عالم القدس، فإذا أتمَمْته بالتَّفصيل؛ فقد حصَّلت جناحين للطيران، فلما تمَّ سيرُ الاسم الباطن بعناية الله سبحانه تيسّر الجناحان للطيران، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ اَنْ هَدَٰنَا اللَّهُۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّۖ﴾ [الأعراف: ٤٣].

أيُّها الولدُ، ماذا أكتب من السَّير في الباطن؟ والمناسبُ لحال ذلك السَّير الاستتارُ والتبطُّنُ، ولنكشف نبذاً يسيراً من هذا المقام. إنَّ السَّيرَ في الاسم الظَّاهر سيرٌ في الصِّفات من غير أن يلاحَظَ الذَّاتُ في ضمنها، والسيرُ في الاسم الباطن وإن كان سيراً في الأسماء، ولكنَّ الذَّاتَ ملحوظةٌ في ضمنها، وتلك الأسماءُ كالحجب ساترةٌ لوجه حضرة الذات تعالت وتقدست، فإنَّ الذَّاتَ في صفة العلم مثلاً ليست ملحوظةً أصلاً، وفي اسم العليم الملحوظُ هو الذَّاتُ من وراء حجاب الصِّفات؛ لأنَّ العليمَ ذاتٌ ثبت لها العلمُ، فالسَّيرُ في العلم سيرٌ في الاسم الظَّاهر، والسيرُ في العليم سيرٌ في الاسم الباطن، وقس على هذا سائر الصِّفات والأسماء، وهذه الأسماءُ المتعلّقةُ بالاسم الباطن مبادئُ تعيّنات الملائكة الملأ الأعلى على نبينا وعليهم الصلوات والتحيات، والشروعُ في السَّير في هذه الأسماء وضعُ القدم في الولاية العليا التي هي ولايةُ الملأ الأعلى، والفرقُ المذكورُ بين العلم والعليم عند بيان الاسم الظَّاهر والاسم الباطن لا تتخيَّلْه شيئاً يسيراً، ولا تظنَّ أنَّ من العلم إلى العليم مسافةً قليلةً، لا بل فرقُ ما بين مركز الأرض ومحدّب العرش له بالنِّسبة إلى هذا الفرق حكمُ القطرة بالنِّسبة إلى البحر المحيط، وهو قريبٌ في التكلّم بعيدٌ في الحصول، ومن هذا القبيل ذكرُ المقامات المبيَّنة على سبيل الإجمال كما قلنا مثلاً، فإذا طوى هذه الخمسَ من عالم الأمر، وشرع في السَّير في أصولها؛ فقد أتمَّ دائرةَ الإمكان، فقد ذكر في هذه العبارة السَّيرَ إلى الله بالتَّمام، وقد قدَّروا مدَّةَ حصول هذا السَّير بخمسين ألف سنةٍ، وفي قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَٰٓئِكَةُ وَالرُّوحُ اِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ اَلْفَ سَنَةٍۚ﴾ [المعارج: ٤] رمزٌ إلى هذا المعنى، **غَايةُ ما فِي البابِ**: أنَّ جذبَ عناية الحقّ جلّ سلطانه يكاد ييسِّرُ أمرَ هذه المدة المديدة في طرفة العين:

(ع) لَا عُسْـرَ فِـي أَمْـرٍ مَـعَ الْـكِـرَامِ

وكذلك قلنا: فإذا طوى دائرةَ الأسماء والصِّفات والشؤون والاعتبارات، ووقع السَّيرُ في أصولها... إلخ، طيُّ جميع الأسماء والصِّفات سهلٌ في التلفُّظ، ولكنَّه مشكلٌ عند الطيِّ وأيُّ مشكلٍ، ومن صعوبة هذا الطيِّ قال المشائخ: منازلُ الوصول لا تنقطع أبد الآبدين، ومنعوا تماميَّة السَّير – يعني: انتهاءه في هذه المراتب: (شعر)

وَلَـيْـسَ لِـحُـسْـنِـهِ حَـدٌّ وَغَـايَـهْ وَلَا لِـمَـدِيـحَـةِ السَّـعْـدِي نِـهَـايَـهْ
يَـمُـوتُ مِـنَ الـتَّـعَـطُّشِ مُسْـتَـقِـيـهِ وَيَـبْـقَـى الْـبَـحْـرُ بَـحْـراً كَـالْـبِـدَايَـهْ

ولا تظنن أنَّهم إنّما قالوا بعدم انقطاع مراتب الوصول باعتبار التجلّيات الذاتيّة، لا باعتبار التجلّيات الصِّفاتيَّة، وأرادوا بالحسن: الحسنَ الذاتِيَّ لا الحسنَ الصِّفاتِيَّ؛ لأنّا نقول: إنَّ التجلّياتِ الذاتيّةَ ليست هي بدون ملاحظة الشُّؤون والاعتبارات، ولا ظهورُ الحسن الذاتِيّ من غير احتجابٍ بحجب الصِّفات الجمالية؛ لأنَّه لا مجال للقيل والقال في ذلك الموطن بدون توسُّط الحجب والأستار، من عرف الله كَلَّ لِسَانُه، والتجلّي يستدعي نحواً من الظليَّة، فلا بدَّ في ذلك المقام من ملاحظة الشؤون، فصارت منازلُ الوصول ومراتبُ الحسن داخلةً في دائرة الأسماء والشؤونات، والحالُ أنَّ انقطاعها متعسِّرٌ عندهم، والأمرُ الذي ظهر لهذا الدرويش فهو وراءَ التجلّيات وغير الظهورات، سواءٌ كان تجلّياً ذاتيّاً أو تجلّياً صفاتياً، ووراء الحسن والجمال، سواءٌ كان حسناً ذاتيّاً أو حسناً صفاتياً؟ وبالجملة قد نُظِمَتِ المطالبُ العاليةُ والمقاصدُ السَّاميةُ في سلك عباراتٍ محتقرةٍ مختصرةٍ بطريق الإجمال، وملئت البحارُ العديمةُ النِّهاية في كيزانٍ معدودةٍ، فلا تكن من القاصرين.

ولنرجع إلى أصل الكلام فنقول: إنَّه لَمّا تيسّر الطيرانُ، ووقعت العروجاتُ بعد حصول جناحي الاسم الظَّاهر والباطن؛ علم أنَّ هذه الترقِّيات بالأصالة نصيبُ العنصر النَّاريّ والعنصر الهوائي والعنصر المائي التي للملائكة الكرام على نبينا وعليهم الصلاة والسلام أيضاً نصيبٌ منها، كما ورد: أنَّ بعضَ الملائكة مخلوقٌ من النار والثلج، تسبيحُه: سبحان من جمع بين النار والثلج. وأُريت في الواقعة في أثناء هذا السَّير كأنّي ماشٍ على طريقٍ، وقد حصلت لي غايةُ الإعياء من كثرة المشي، وصرتُ ألتمسُ خشبةً أو عصاً للاتِّكاء رجاءَ حصول قدرةٍ على المشي بمددها، فلم يتيسّر، فصرتُ أتمسَّكُ وأتشبَّثُ بكلِّ حشيشٍ متمنِّياً تقويته على المشي، ولا أجد بُدّاً من المشي، ولَمّا سرتُ مدَّةً بهذا الحال؛ ظهر فِناءُ بلدةٍ، فدخلت البلدةَ بعد طيّ مسافة ذلك الفناء، وأُعلمتُ أنَّ تلك البلدةَ عبارةُ التعيّن الأوّل الذي هو جامعٌ لجميع مراتب الأسماء والصِّفات والشؤون والاعتبارات، وجامعٌ أيضاً لأصول تلك المراتب، ولأصول تلك الأصول، ومنتهى الاعتبارات الذاتيّة التي تمايزها - يعني: تمايز بعضها عن بعض - مناسبٌ للعلم الحصوليّ، فإن وقع السَّيرُ بعد ذلك يكون مناسباً للعلم الحضوريّ.

أيُّها الولدُ، إنَّ إطلاقَ العلم الحصوليّ والحضوريّ في تلك الحضرة إنّما هو باعتبار التَّمثيل والتَّنظير، فإنَّ الصِّفات التي وجودُها زائدٌ على وجود الذات تعالت وتقدست علمُها مناسبٌ بالعلم الحصوليّ، والاعتباراتُ الذاتيّةُ التي لا تتصوَّرُ زيادتُها على الذَّات أصلاً علمُها مناسبٌ بالعلم الحضوريّ، وإلا؛ فليس ثَمَّةَ إلا تعلّق العلم بالمعلوم من غير أن يحصل من المعلوم فيه شيءٌ، فافهم. وهذا التعيّنُ الأوّلُ الذي تلك البلدةُ الجامعةُ كنايةٌ عنه جامعٌ لجميع ولايات الأنبياء الكرام والملائكة العظام عليهم الصلاة والسلام، ومنتهى الولاية العليا التي هي مخصوصةٌ بالملأ الأعلى بالأصالة، ولوحظ في هذا المقام أنَّ هذا التعيّنَ الأوّلَ هل هو الحقيقةُ المحمديَّةُ أو لا؟ ثم تبيَّنَ أنَّ الحقيقةَ المحمديَّةَ هي التي ذكرت فيما سبق، وإطلاقُ التعيّن الأوّل عليها أنَّ ذلك المركزَ ظلُّ هذا التعيّن الأوّل باعتبار جامعيَّته للأسماء والصِّفات والشؤون والاعتبارات، والسيرُ الواقعُ فوق ذلك البلد يكون شروعاً في كمالات النبوَّة، وحصولُ تلك الكمالات مخصوصٌ بالأنبياء عليهم الصلاة ....

والسلام، وناشئ من مقام النبوَّة، ولكُمَّل أتباع الأنبياء أيضاً نصيبٌ من تلك الكملات بالتَّبعية، والحظُّ الوافرُ من تلك الكمالات بالأصالة من بين اللَّطائف الإنسانيَّة للعنصر الترابيّ، وسائرُ الأجزاء الإنسانيَّة - سواءٌ كانت من عالم الأمر أو من عالم الخلق - كلُّها تابعةٌ في هذا المقام لذلك العنصر الترابيّ، ومشرَّفةٌ بهذه الدَّولة بتطفُّله، ولَمّا كان هذا العنصرُ مخصوصاً بالبشر؛ كان خواصُّ البشر أفضلَ من خواصّ الملائكة بالضَّرورة؛ لأنَّه لم يتيسّر لأحدٍ ما تيسّر لهذا العنصر، وبعد الدنوّ يظهر في هذا المقام حقيقةُ التدلّي، وهنا ينكشف سرُّ ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩]، ويرى في هذا السَّير أنَّ كمالات جميع الولايات - سواءٌ كانت صغرى أو كبرى أو عليا - كلَّها ظلالُ كمالات مقام النبوَّة، وأنَّها أشباحٌ وأمثالٌ لحقيقة هذه الكمالات، ويلوح فيه أنَّ النقطةَ التي تقطع في ضمن هذا السَّير أزيدُ من جميع كمالات الولاية، فينبغي أن يتأمَّل أنَّه ماذا يكون على هذا القياس حكمُ الكمالات المتقدمة بالنِّسبة إلى جميع هذه الكمالات؟ وللقطرة نسبةٌ إلى البحر المحيط، وهذه النِّسبةُ مفقودةٌ هاهنا، إلا أنِّي أقول: إنَّ نسبةَ مقام الولاية إلى مقام النبوَّة كنسبة المتناهي إلى غير المتناهي، سبحان الله. وقد يقول الجاهل بهذا السرّ: إنَّ الولايةَ أفضلُ من النبوَّة، ويقول الآخرُ في توجيه هذه العبارة غافلاً عن هذه المعاملة: إنَّ ولايةَ النبيِّ أفضلُ من نبوته، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [الكهف: ٥].

ولَمّا أتممتُ هذا السَّيرَ أيضاً بعناية الله سبحانه، وبركة حبيبه عليه وعلى آله الصلاة والسلام؛ شوهد لي أنَّه لو زدت فرضاً خطوةً واحدةً في السَّير لأقعُ في عدمٍ محضٍ؛ إذ ليس ورائه إلا العدمُ المحضُ.

أيُّها الولدُ، إيّاك والوقوعَ في التوهُّم من هذه المعاملة أنَّ العنقاءَ قد وقع في الشَّرَك، والسَّيمرغ قد تعلّق في الشبكة: (شعر)

هَيْهَاتَ عَنْقَاءَ أَنْ يَصْطَادَهُ أَحَدٌ ... فَاتْرُكْ عَنَاكَ وَكُنْ مِنْ ذَاكَ فِي دَعَةِ

وهو سبحانه وراء الوراء، ثم وراء الوراء: (شعر)

وَذَا إِيوَانُ الاِسْتِعْلَاءِ عَالِ ... فَإِيَّاكُمْ وَطَمَعاً فِي الْوِصَالِ

وهذه الورائيَّةُ ليست باعتبار وجود الحجب؛ لأنَّ الحُجُب صارتْ مرتفعةً بالكليَّة، بل باعتبار ثبوت العظمة والكبرياء المانعة للإدراك المنافية للوجدان، فهو سبحانه أقربُ في الوجود، وأبعدُ عن الوجدان. نعم، قد يكون بعضُ الكُمَّل من المرادين، فيعطون محلاً من سرادقات العظمة والكبرياء، ويجعلون من محارم خيمة الجلال بتطفُّل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فيعامَلُ معهم ما عومل معهم.

أيُّها الولدُ، إنَّ هذه المعاملةَ مخصوصةٌ بالهيئة الوحدانيَّة الإنسانيَّة الناشئة من مجموع عالم الخلق وعالم الأمر، ومع ذلك الرَّئيسُ في هذا الموطن هو العنصرُ الترابيُّ. وإنَّما قلت: ليس وراءَه إلا العدمُ المحضُ؛ لأنَّ بعد تمام مراتب الوجود الخارجيّ والوجود العلميّ ليس إلا حصولَ العدم الذي نقيضُه، وذاتُ الله سبحانه وراءَ هذا الوجود والعدم، وكما أنَّه لا سبيل إليها للعدم؛ كذلك لا مجال فيها للوجود؛ لأنَّ الوجودَ الذي قام العدم بنقاضته كيف يليق بحضرته جلّ سلطانه؟ فلئن أطلقنا الوجودَ في هذه المرتبة لضيق العبارة يراد به وجودٌ لا يكون للعدم مجالُ مناقضته. وما كتب هذا الفقير في بعض مكاتيبه: أنَّ حقيقةَ الحقّ سبحانه وجودٌ محضٌ؛ فهو من عدم الاطِّلاع على حقيقة هذه المعاملة، ومن هذا القبيل بعضُ المعارف التي حرَّرْتُها في التَّوحيد الوجوديّ وغيره، وسرُّه........................

عدمُ الاطِّلاع، ولَمّا كنت واقفاً ومنتبهاً على حقيقة المعاملة كنت متندِّماً على ما كتبته أو قُلْتُه في الابتداء والوسط، وكنت مستغفراً منه، أستغفرُ الله وأتوب إلى الله من جميع ما كره الله سبحانه وتعالى.

ولاح من هذا البيان أنَّ كمالاتِ النبوَّة في مراتب الصعود، وأنَّ الوجهَ في عروجات النبوَّة إلى الحقّ سبحانه، لا كما زعمه الكثيرون من أنَّ الوجهَ في الولاية إلى الحقّ سبحانه وتعالى، وفي النبوَّة إلى الخلق، وأنَّ الولايةَ في مراتب العروج، والنبوَّةَ في مدارج النزول، ومن هنا توهَّموا أنَّ الولايةَ أفضلُ من النبوَّة.

نعم، إنَّ لكلٍّ من الولاية والنبوَّة عروجاً وهبوطاً، وفي العروج الوجهُ إلى الحقّ في كليهما، وفي الهبوط إلى الخلق.

غَايةُ ما فِي البابِ: أنَّ الوجهَ في مرتبة هبوط النبوَّة إلى الخلق بالكليَّة، بخلاف هبوط الولاية، فإنَّ الوجهَ فيها ليس إلى الخلق بالكليَّة، بل باطنُه بالحقّ، وظاهرُه بالخلق، وسرُّه أنَّ صاحبَ الولاية نازلٌ قبل إتمام مقامات العروج، فلا جرم يكون النَّظرُ إلى الفوق منازعه في جميع الأوقات ومانعه من التوجّه بكليَّته إلى الخلق، بخلاف صاحب النبوَّة، فإنَّه هبط بعد إتمام مقامات العروج، ولهذا يكون متوجِّهاً بكليَّته إلى دعوة الخلق إلى الحقّ جل وعلا. فافهم، فإنَّ هذه المعرفةَ الشريفةَ وأمثالها مما لم يتكلّم بها أحدٌ.

ومما ينبغي أن يعلم أنَّ العنصرَ الترابيَّ كما أنَّه يتفوَّقُ على الكلّ في مراتب العروج؛ كذلك ينزل في منازل الهبوط أسفلَ من الكلّ، وكيف لا، فإنَّ مكانَه الطبيعيَّ أسفلُ من الكلّ، فإذا ثبت أنَّه ينزل أسفل من الكلّ تكون دعوةُ صاحبه أتم بالضَّرورة، وإفادتُه أكملَ.

اعلم أيُّها الولدُ أنَّ ابتداءَ السَّير في الطَّريقة النقشبنديَّة لَمّا كان من القلب الذي هو من عالم الأمر؛ افتتحنا الكلامَ بعالم الأمر، بخلاف طرق سائر المشائخ الكرام، فإنَّهم يشرعون أوَّلاً في تزكية النَّفس وتطهير القالب، ثم يشرعون بعد ذلك في عالم الأمر، ويعرجون فيها إلى ما شاء الله، ولهذا اندرجت في بداية هؤلاء الكبراء نهايةُ من سواهم، وصار هذا الطَّريقُ أقربَ الطُّرق؛ لأنَّ حصولَ التَّزكية والتَّطهير ميسَّرٌ في ضمن هذا السَّير على أحسن الوجوه، فقصرت المسافةُ بذلك، فلا جرم اعتقد هؤلاء الأكابرُ سيرَ عالم الخلق قصداً عبثاً، وعدَّوه تعطيلاً، لا، بل تيقَّنوا أنَّه مضرٌّ ومانعٌ عن الوصول إلى المطلب، وذلك لأنَّ سالكي الطَّريق بقدم التَّزكية والرياضات الشاقَّة والمجاهدات الشديدة إذا شرعوا في سير عالم الأمر بعد قطع بوادي صورة عالم الخلق، ووقعوا في الانجذاب القلبيّ والالتذاذ الروحيّ؛ كثيراً ما يقنعون بهذا الانجذاب، ويكتفون بهذا الالتذاذ، ومظنَّةُ لا مكانيَّة عالم الأمر تكون ممدَّة لهم في تلك المعاملة، وشائبةُ لا مِثْلَيَّة هذا العالم تمنعهم عن اللامثليّ الحقيقيّ، حتى قال واحدٌ من السَّالكين في هذا المقام: عبدت الروحَ ثلاثين سنةً معتقداً بأنَّه الحقُّ سبحانه وتعالى.

وقال آخرُ: إنَّ سرَ الاستواء وظهورَ تنزيه ما فوق العرش من المعارف الغامضة، وقد علم من البيان السَّابق: أنَّ ذلك التَّنزيهَ داخلٌ في دائرة الإمكان، بل هو تشبيهٌ في الحقيقة في صورة التَّنزيه، بخلاف أكابر هذه الطَّريقة العليا، فإنَّهم يشرعون من مقام الجذبة، ويترقَّون بمدد الالتذاذ، وهذا الانجذابُ والالتذاذُ في حقِّهم بمثابة الرياضات والمجاهدات في حقّ غيرهم، فما هو مانعٌ عن الوصول لغيرهم ممدٌّ ومعاونٌ لهؤلاء الأكابر، وهم يتصورون لا مكانيَّةَ عالم الأمر عينَ المكانية، فيتوجّهون منه إلى اللامكانيِّ الحقيقيّ، ويعتقدون لا مثليَّةَ ذلك العالم عين.........................

المثليَّة، ويرتقون منه إلى اللامثليّ الحقيقيّ، فلا جرم أنَّهم لا يُفْتَنُون بغرور الوجد والحال، ولا يغبنون بجوز هذا الطَّريق وموز الأشباه والأمثال كالأطفال، ولا يباهون بتُرَّهات الصوفيَّة، ولا يفتخرون بشطحيَّات المشائخ، بل هم متوجّهون إلى الأحديَّة الصِّرفة، لا يبغون من الاسم والصفة غيرَ الذَّات المقدسة.

وينبغي أن يعلم أنَّ هذا العروجَ الذي مرَّ ذكرُه مخصوصٌ بمحمديّ المشرب التامّ الاستعداد، له نصيبٌ كاملٌ من كمالات الجواهر الخمس التي في عالم الأمر صغيره وكبيره، وكذلك له حظٌّ وافرٌ من أصول هذه الخمس – أعني: ظلال الأسماء الواجبيَّة –، وكذلك من أصول هذه الظلال – أعني: مقامَ الأسماء والصِّفات –.

وإنَّما قلت: التامّ الاستعداد؛ لأنَّه كثيراً ما يكون في الظَّاهر محمديَّ المشرب، ويكون له نصيبٌ من كمالات الأخفى الذي هو نهايةُ مراتب عالم الأمر، ولكنَّه لا يُتِمُّ معاملةَ الأخفى، ولا ينتهي إلى نقطته الأخيرة، بل يبقى في ابتدائه أو وسطه، فإذا كان له قصورٌ في الأخفى يكون له قصورٌ في أصوله أيضاً بمقداره، فلا يتمكَّنُ من إتمام معاملته، وكذلك الحكمُ في الأربع الباقية من عالم الأمر، حيث إنَّ تاميَّةَ الاستعداد في كلِّ مرتبةٍ مربوطةٌ بالوصول إلى النُّقطة الأخيرة من تلك المرتبة، والوقوفُ في الابتداء والوسط ينبئُ عن النقصان، ولو كان القصورُ في الوصول إلى النِّهاية مقدارَ شعرةٍ: (شعر)

وَمَـا قَـلَّ هِجْرَانُ الْحَبِيـبِ وَإِنْ غَـدَا　　　قَلِيلاً، وَنِصْفُ الشَّعْرِ فِي الْعَيْنِ ضَائِرُ

ويسري هذا القصورُ إلى الأصول وأصول الأصول، ويكون مانعاً عن الوصول إلى المطلب. وإنَّما قلت: إنَّ هذا العروجَ مخصوصٌ بمحمدي المشرب؛ لأنَّ غيرَ محمديَّ المشرب منهم من يكون كماله مقصوراً على الدَّرجة الأولى من درجات الولاية، والمرادُ بالدَّرجة الأولى: مرتبةُ القلب، ومنهم من يكون كمالُه مقصوراً على الدَّرجة الثّانية من درجات الولاية التي هي مقامُ الروح، ومنهم من تكون نهايةُ عروج كماله إلى الدَّرجة الثّالثة – أعني: مقامَ السرّ –، ومنهم من تكون نهايةُ عروج كماله إلى الدَّرجة الرّابعة – أعني: مقام الخفيّ –، والدَّرجةُ الأولى لها مناسبةٌ بتجلِّي صفات الأفعال، وللدرجة الثّانية بتجلِّي الصِّفات الثبوتيَّة، وللدَّرجة الثّالثة بتجلِّي الشؤون والاعتبارات الذاتيّة، وللدرجة الرّابعة بالصِّفات السَّلبية التي هي مقامُ التَّنزيه والتَّقديس.

وكلُّ درجةٍ من درجات الولاية تحت قدم نبيٍّ من الأنبياء أولي العزم، فالدَّرجةُ الأولى منها تحت قدم آدم على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وربّه صفةُ التَّكوين التي هي منشأُ صدور الأفعال، والدَّرجةُ الثّانيةُ تحت قدم إبراهيم، ويشاركُه في هذا المقام نوحٌ عليهما السلام، وربّهما صفةُ العلم التي هي أجمع الصِّفات الذاتيّة، والدَّرجةُ الثّالثةُ تحت قدم موسى عليه السلام، وربّه من مقامات الشؤونات شأن الكلام، والدَّرجةُ الرّابعةُ تحت قدم عيسى عليه السلام، وربّه من الصِّفات السَّلبية، لا من الثبوتيَّة، فإنَّها موطنُ التَّقديس والتَّنزيه، وأكثرُ الملائكة الكرام يشاركون عيسى على نبينا وعليه السلام في هذا المقام، والشأنُ العظيمُ حاصلٌ لهم في هذا المقام. والدَّرجةُ الخامسةُ تحت قدم خاتم الرسل عليه وعليهم الصلاة والسلام، وربّه ﷺ ربُّ الأرباب الذي هو جامعُ جميع الصِّفات والشؤونات والتقديسات والتنزيهات،.........

ومركزُ دائرة هذه الكمالات، ويناسب التَّعبيرَ عن هذا الشأن الجامع في مرتبة الصِّفات والشؤونات بشأن العلم؛ لكون هذا الشأن عظيمَ الشأن، جامعـاً لجميع الكمالات، وبهذه المناسبة صارت ملَّتُه ﷺ ملَّةَ إبراهيم عليه السلام، وقبلتُه قبلتَه.

ينبغي أنْ يعلم أنَّ تفاضلَ الأقدام في الولاية ليس باعتبار تقدُّم الدَّرجات وتأخُّرها حتى يكون صاحبُ الأخفى أفضل من غيره، وعلى هذا القياس، بل باعتبار القرب من الأصل والبعد عنه، وطيّ منازل درجات الظّلال كثرةً وقلةً، فعلى هذا يجوز أن يكون صاحبُ القلب باعتبار القرب من الأصل أفضلَ من صاحب الأخفى الذي لم يحصل له القربُ من الأصل، كيف وولايةُ النبيّ التي في الدَّرجة الأخيرة من درجات الولاية أفضلُ قطعـاً من ولاية الولي التي في الدَّرجة الفوقانيّة؟ ولا يخفى أنَّ سلوكَ اللطائف بالترتيب المذكور - أعني: الانتقالَ من القلب إلى الروح، ومن الروح إلى السرّ، ومن السرّ إلى الخفيّ، ومن الخفي إلى الأخفى - مخصوصٌ أيضـاً بمحمديّ المشرب، فإنَّه يتمُّ سيرَ هذه الخمس من عالم الأمر بالتَّرتيب، ثم يسير في أصولها، ويتمُّ السلوكَ بعد السَّير في أصول الأصول مراعيـاً لهذا الترتيب، وهذا الطَّريقُ بالتَّرتيب المذكور طريقٌ سلطانِيٌّ للوصول، وصراطٌ مستقيمٌ لمتوجّهي الأحديَّة، بخلاف ولاياتٍ أخر، وكان فيها نُقِبَتْ نقبةٌ من كلِّ درجةٍ، إلى أن يصل إلى المطلوب. مثلاً: نقبت نقبةٌ من مقام القلب إلى أن تصل إلى صفات الأفعال التي هي أصلُ أصله، وكذلك نقبت نقبة من مقام الروح إلى الصِّفات الذاتيّة، وعلى هذا القياس، ولا شكَّ أنَّ أفعاله تعالى وصفاته ليست منفكَّةً عن ذاته تعالى، فإن كان الانفكاكُ؛ فهو في الظِّلال، ففي ذلك الموطن للواصلين إلى الأفعال والصِّفات نصيبٌ من تجلِّيات الذات المنزَّهة عن المثال تعالت وتقدست أيضـاً، كما تتيسّر هذه الدَّولةُ لصاحب الأخفى بعد إتمام الأمر، وإن كان التفاوتُ باعتبار العلوّ والسفل باقيـاً، وادِّعاءُ صاحب القلب المساواةَ لصاحب الأخفى غيرُ موجَّهٍ، ولا تغلطنَّ في هذا المقام.

واعلم أنَّ هذا التَّفاوتَ إنّما هو متصوَّرٌ فيما بين الأولياء؛ لأنَّ صاحبَ الولاية القلبيَّة أدونُ من صاحب الولاية الأخفويَّة بعد وصول كليهما إلى مرتبة الكمال، وأما فيما بين الأولياء والأنبياء؛ فمفقودٌ؛ لأنَّ ولايةَ نبيٍّ ولو كانت ناشئةً من مقام القلب أفضلُ من ولاية وليٍّ ولو كانت ناشئةً من مقام الأخفى، ولو كان ذلك ممن أتمَّ الأمرَ، وسرُّ ذلك: أنَّ صاحبَ الولاية تحت قدم نبيٍّ تلك الولاية دائمـاً، أيَّ ولايةٍ كانت، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۝ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ۝ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣]. نعم، إنَّ هذا التَّفاوتَ فيما بين الأنبياء بعضهم ببعضٍ متصوَّرٌ، وصاحبُ العليا منهم أفضلُ من صاحب السفلى، ولكنَّ هذا التَّفاوتَ فيما بين الأنبياء عليهم السلام أيضـاً إلى آخر دوائر كمالات عالم الأمر، وليس التفاضلُ بعده مربوطـاً بالعلوّ والسفل، بل يمكن أن يكون صاحبُ السفل في ذلك الموطن أفضلَ من صاحب العلوّ كما شاهدنا التَّفاوتَ في ذلك الموطن بين موسى وعيسى على نبينا وعليهما الصلاة والسلام، فإنَّ موسى جسيمٌ ثمّة ذو شأنٍ عظيمٍ، ليس لعيسى فيه تلك الجسامةُ والشأنُ، فعَلِمْنا أنَّ التفاوتَ في ذلك الموطن بأمرٍ آخر وراء ذلك العلو والسفل، وسأبيِّنه بعدُ مفصلاً إن شاء الله تعالى بحسن توفيقه وكمال منّه وكرمه تعالى. وكذلك وجدنا فيه التفاوتَ بين خليل الرحمن وبين سائر الأنبياء غير خاتم الرسل عليهم الصلاة والسلام في الكمالات التي لها تعلّقٌ بحقيقة الكعبة الربانيَّة التي هي فوق جميع الحقائق البشريَّة والملكيَّة، فإنَّ للخليل ثمَّةَ شأنـاً عظيمـاً ومرتبةً رفيعةً لم يتيسّرْ لأحدٍ ذلك الشَّأنُ ....

والرتبةُ، وفي ذلك المقام المناسب لمقام ظهور سرادقات العظمة والكبرياء كمالاتُ مركز ذلك المقام الذي هو مقامُ الإجمال نصيبُ خاتم الرسل، والباقي المفصّل كلُّه مسلَّمٌ للخليل، وكلُّ من سواه من الأنبياء وكمَّل الأولياء طُفَيْلِيُّه هناك، وكان النبيّ ﷺ طَلَبَ تفصيلَ ذلك الإجمال حيث سأل صلاةً وبركةً مشابهتين بصلاة إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام وبركته[1]. وقد ظهر لهذا الفقير أنَّ ذلك التَّفصيلَ قد تيسّر له أيضاً بعد مضيّ ألف سنةٍ، واستجيب مسؤولُه، والحمد لله على ذلك وعلى جميع نعمائه، وكمالاتُ ذلك المقام العالي فوق كمالات الولاية، وفوق كمالات النبوَّة والرسالة، وكيف لا تكون فوقها، فإنَّ تلك الحقيقةَ مسجودٌ إليها للأنبياء الكرام والملائكة العظام عليهم الصلاة والسلام؟ وما كتبه هذا الفقيرُ في رسالة «المبدأ والمعاد»: أنَّ الحقيقةَ المحمديَّةَ عرجتْ من مقامها، وانتهت إلى حقيقة الكعبة التي فوقها، واتَّحدت بها، وعَرَضَ للحقيقة المحمديَّة اسمُ الحقيقة الأحمديَّة؛ كانت تلك الحقيقةُ - أعني: حقيقةَ الكعبة - ظلّاً من ظلال هذه الحقيقة قد ظنَّ قبل ظهور هذه الحقيقة حقيقةً، ويقع هذا الاشتباهُ كثيراً، ويظنُّ الظلُّ قبل ظهور الأصل أصلاً، ويسمى حقيقةً، ومن ههنا يظهر المقامُ الواحدُ مرّاتٍ، وسرُّه أنَّ ظهورات ذلك المقام باعتبار ظلال المقام، وحقيقةُ ذلك المقام في الحقيقة هي ما ظهرتْ في المرتبة الأخيرة.

فإن قيل: من أين يعلم أنَّ هذه المرتبةَ هي المرتبةُ الأخيرة من مراتب ظهوراته حتى يعلم أنَّها هي الحقيقةُ؟

قلت: إنَّ حصولَ العلم بظليَّة الظهورات السَّابقة شاهدُ عدلٍ لآخريَّة هذا الظهور، فإنَّ هذا العلم لم يكن حاصلاً وقت الظهورات السَّابقة، بل كان يرى كلَّ ظهورٍ حقيقةً، وما كان يظنُّ شيءٌ منها ظلّاً أصلاً، وإن لم يعلم أنَّ اختلافَ هذه الحقائق من أين جاء؟ فافهم.

أيُّها الولدُ، قد علم من المعارف السَّابقة أنَّ الكمالاتِ المتعلّقةَ بعالم الأمر مقدِّماتٌ ومعارجُ للكمالات المتعلّقة بعالم الخلق، والكمالاتُ الأولى ليستْ بخاليةٍ عن الظليَّة، ومخصوصةٌ بمقامات الولاية، والكمالاتُ الثّانيةُ مبرّأةٌ عن شائبة الظليَّة المناسبة لظهورات هذه النَّشأة الدنيويَّة، وفيها نصيبٌ كاملٌ من مقامات النبوَّة، فتكون الطَّريقةُ والحقيقةُ اللتان مربوطتان بالولاية خادمتين للشَّريعة التي هي ناشئةٌ من مقام النبوَّة، وتكون الولايةُ سُلَّماً لعروج النبوَّة، فعلم من هذا البيان أنَّ السَّيرَ الذي اختاره الأكابر النقشبنديَّةُ قدس الله أسرارهم العليّة الذي ابتدؤوه من عالم الأمر أَوْلى وأنسبُ؛ لأنَّ التَّرقِّي ينبغي أن يكون من الأدنى الذي هو عالم الأمر إلى الأعلى الذي هو عالم الخلق، لا من الأعلى إلى الأدنى. وما العلاجُ، فإنَّ هذا المعمَّى لم ينكشفْ لكلِّ أحدٍ، بل نظر الأكثرون إلى الصُّورة، وظنُّوا عالمَ الخلق أدنى، فشرعوا في الارتقاء من الأدنى إلى الأعلى الصوريَّيْن، ولم يدروا أنَّ حقيقةَ الحال على عكس هذا المنوال، وأنَّ ما ظنُّوه أدنى في الحقيقة هو الأعلى، وما زعموه أعلى هو أدنى. نعم، إنَّ النُّقطةَ الأخيرةَ التي هي عالمُ الخلق وقعت قريبةً من النقطة الأولى التي هي أصلُ الأصل، وهذا القرب لم يتيسّرْ لنقطةٍ أخرى:

(ع) أَحَقُّ الْخَلْقِ بِالْكَرَمِ الْعُصَاةُ

وهذه المشاهدةُ مقتبسةٌ من مشكاة النبوَّة، وأربابُ الولاية قليلو النَّصيب من هذه المعرفة، وشروعُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كان من عالم الأمر، وإنَّهم وردوا من الحقيقة إلى الشَّريعة، **غَايَةُ ما فِي البابِ**: أنَّ في كُمَّل الأولياء الذين وقع سيرُهم موافقاً لسير الأنبياء في الابتداء صورةَ الشَّريعة، وفي الوسط الطَّريقةَ والحقيقةَ المتعلّقتان بالولاية المناسبتان لعالم الأمر، ....

---

(١) كما ورد في الصلاة المعروفة بالصلاة الإبراهيمية، وهي: (اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم...) أخرج حديثها البخاري (٣٣٧٠)، ومسلم (٤٠٦) من حديث كعب بن عجرة ﷺ، وله طرق أخرى.

وفي النِّهاية حقيقةَ الشَّريعة التي هي ثمرةُ النبوَّة. فتقرَّر من هذا: أنَّ حصولَ الطَّريقة مقدَّمٌ على حصول حقيقة الشَّريعة، فكانت بدايةُ الأولياء الكاملين وبدايةُ الأنبياء المرسلين من الحقيقة، ونهايةُ كلٍّ منهما إلى الشَّريعة، فلا معنى لقول من قال: إنَّ بدايةَ الأولياء نهايةُ الأنبياء، وأراد ببداية الأولياء ونهاية الأنبياء: الشَّريعةَ الغراءَ. نعم، إنَّ هذا المسكين لما لم يطَّلع على حقيقة الحال؛ تكلّم بهذا الشطح، ولم يبالِ. وهذه المعارفُ وإن لم يتكلّم بها أحدٌ، بل ذهب الأكثرون إلى عكسها، واستبعدوها عن الإدراك، ولكن إذا لاحظ منصفٌ جانب عظمة الأنبياء عليهم السلام، واستولت عليه عظمةُ الشَّريعة؛ يحتمل أن يقبل هذه المعارفَ الغامضةَ، ويجعل هذا القبولَ وسيلةً إلى زيادة إيمانه.

أيُّها الولدُ، إنَّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام اقتصروا دعوتهم على عالم الخلق، «**بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ**»(١) الحديث صريحٌ في هذا، ولَمّا كانت مناسبةُ القلب بعالم الخلق أزيدَ؛ دعوه أيضـًا بالتَّصديق، ولم يتكلّموا فيما وراء القلب، بل جعلوه كالمطروح في الطَّريق، ولم يعدُّوه من المقاصد. نعم، ينبغي أن يكون كذلك، فإنَّ تنعُّمات الجنة وآلام النار ودولة الرؤية والحرمان عنها كلَّها مربوطةٌ بعالم الخلق، لا تعلّقَ لشيءٍ منها بعالم الأمر أصلاً. وأيضـًا إنَّ إتيانَ العمل الفرض والواجب والسنَّة متعلّقٌ بالقالب الذي هو من عالم الخلق، وما هو نصيبُ عالم الأمر من الأعمال هو النَّافلة والقرب الذي هو ثمرةُ أداء الأعمال إنّما يكون على مقدار الأعمال التي هي ثمرتُها، فلا جرم يكون القربُ الذي هو ثمرةُ أداء الفرائض نصيبَ عالم الخلق، والقربُ الذي هو ثمرةُ أداء النوافل نصيب عالم الأمر، ولا شكَّ أنَّه لا اعتدادَ بالنفل، ولا اعتبارَ له بالقياس على الفرض، وليت له حكمَ القطرة بالنِّسبة إلى البحر المحيط، بل هذه النِّسبةُ للنفل بالقياس على السنة، وإن كانت نسبةُ ما بين السنة والفرض كنسبة القطرة إلى البحر، فينبغي أن يقيسَ تفاوتَ ما بين القربين على هذا، وأن يعلم مزيَّة عالم الخلق على عالم الأمر من هذا التفاوت، وأكثرُ الخلائق لَمّا لم يكن لهم نصيبٌ من هذا المعنى؛ صاروا يخرِّبون الفرائضَ، ويجتهدون في ترويج النوافل، والصوفيَّةُ الناقصون يعتقدون الذكرَ والفكرَ من أهم المهمات، ويتساهلون في إتيان الفرائض والسنن، ويختارون الأربعينات تاركين للجمع والجماعات، ولا يعلمون أنَّ أداءَ فرضٍ واحدٍ مع الجماعة أفضل من ألوفٍ من أربعيناتهم.

نعم، إنَّ الذكرَ والفكرَ مع مراعاة الآداب الشَّرعيّة أفضلُ وأهمُّ، والعلماء القاصرون أيضـًا يسعون في ترويج النوافل، ويخرِّبون الفرائض، ويضيعونها، ومن ذلك صلاةُ العاشوراء مثلاً، ولم يصحَّ عن النبي ﷺ أنه كان يصليها مع الجماعة والجمعيَّة التامة، والحالُ أنَّهم يعلمون أنَّ الروايات الفقهيَّةَ ناطقةٌ بكراهة الجماعة في النافلة، وهم يتكاسلون في أداء الفرائض على حدٍّ قلَّما يوجد منهم من يؤدِّي الفرضَ في وقته المستحبّ، بل ربّما يفوتونه عن أصل وقته، ولا يتقيَّدون بالجماعة كثيرَ تقيُّدٍ، ويقنعون في الجماعة بشخصٍ أو بشخصين، بل ربّما يكتفون بالانفراد، فإذا كانت معاملةُ مقتدى أهل الإسلام هذه؛ فما تقول في غيرهم من العوام؟ ومِنْ شؤم هذه الأفعال وسوء الأعمال ظهر الضعفُ في الإسلام، ومن ظلمة هذه المعاملة وكدورة الأحوال ظهرت البدعةُ بين الأنام: (شعر)

بَثَثْتُ لَدَيْكُمْ مِنْ هُمُومِي وَخِفْتُ أَنْ ... تَمَلُّوا وَإِلَّا فَالْكَلَامُ كَثِيرُ

---

(١) أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (١٦) من حديث ابن عمر ﷺ.

وأيضاً إنَّ أداءَ النَّوافل إنّما يعطي قُرْب ظلٍّ من الظلال، وأداءُ الفرائض يعطي قربَ الأصل الذي ليس فيه شائبةُ الظليَّة، إلا أنَّ النفل إذا أدِّي لأجل تكميل الفرائض؛ فحينئذٍ يكون ذلك أيضاً ممداً ومعاوناً لحصول قرب الأصل، وملحقاً بالفرائض، فيكون أداءُ الفرائض بالضَّرورة مناسباً لعالم الخلق الذي هو متوجّهٌ وناظرٌ إلى الأصل، وأداءُ النوافل مناسباً لعالم الأمر الذي هو ناظرٌ إلى الظلّ، والفرائضُ وإن كانت كلُّها مورثةً للقرب، ولكنَّ أفضلَها وأكملَها الصلاةُ، ولعلك سمعت أنَّ «**الصَّلَاةُ مِعْرَاجُ الْمُؤْمِنِ**»، و«**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنَ الرَّبِّ فِي الصَّلَاةِ**»[1]، والوقتُ الخاصُّ الذي كان للنبي ﷺ حيث عبر عنه بقوله: «**لِي مَعَ اللهِ وَقْتٌ**» الحديث هو عند الفقير في الصَّلاة، والصلاةُ هي المكفراتُ للسيئات، والصلاةُ هي التي تنهى عن الفحشاء والمنكرات، والصلاةُ هي التي كان النبيُّ ﷺ يطلب راحته فيها حيث كان يقول: «**أَرِحْنِي يَا بِلَالُ**»[2]، والصلاة هي التي عماد الدين، والصلاة هي التي صارت فارقة بين الإسلام والكفر.

ولنرجع إلى أصل الكلام ولنقل من مزيَّة عالم الخلق على عالم الأمر: اعلم أنَّ عالم الأمر قد نال هنا - يعني: في النشأة الدنيا - حظّاً وافراً، وحصل المشاهدةُ، وستقع المعاملةُ غداً في الجنة على عالم الخلق، وتتيسّرُ له رؤيةٌ بلا كيفٍ، ومع ذلك إنَّ متعلّق المشاهدة ظلٌّ من ظلال الوجوب، والمرئيُّ في الآخرة واجبُ الوجود، فالفرقُ الذي بين المشاهدة والرؤية والظليَّة والأصالة هو فرقُ ما بين عالم الخلق وعالم الأمر. واعلم أنَّ المشاهدةَ ثمرةُ الولاية، والرؤيةَ ثمرةُ النبوَّة، وتتيسّرُ لعامَّة أتباع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومن ههنا يعرف التفاوتُ بين الولاية والنبوَّة أيضاً.

تنبيهٌ: كلُّ عارفٍ مناسبتُه لعالم الأمر أزيدُ يكون قدمُه في كمالات الولاية أزيد، والذي مناسبته لعالم الخلق أكثرُ؛ فقَدَمُه في كمالات النبوَّة أوفرُ، ومن ههنا كان لعيسي عليه السلام قدمٌ أزيدُ في الولاية، ولموسى عليه السلام قدمٌ أزيدُ في النبوَّة، فإنَّ جانبَ الأمر غالبٌ في عيسى عليه السلام، ولهذا صار ملحقاً بالروحانيين، وجانبَ الخلق غالبٌ في موسى عليه السلام، ولهذا لم يكتف بالمشاهدة، بل طلب رؤيةَ بصرٍ، وهذا هو سببُ تفاوت أقدام الأنبياء عليهم السلام في كمالات النبوَّة الذي كنت وعدتُ بيانَه فيما تقدّم، لا علوَّ بعض اللطائف وسفله الذي هو معتبرٌ في تفاوت كمالات الولاية. والله سبحانه الملهم للصواب.

أيُّها الولدُ، إنَّ تعلّقَ علوم النبوَّة التي هي الشَّرائعُ والأحكامُ بالقالب لَمّا كان أزيدَ، وكانت مناسبةُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لعالم الخلق أكثرَ وأوفر؛ ظنُّوا من ذلك أنَّ النبوَّةَ عبارةٌ عن النُّزول إلى دعوة الخلق بعد العروج إلى مقامات القرب التي تتعلّقُ بالولاية، ولم يعلموا أنَّ نهايةَ العروج وغايةَ القرب في هذا الموطن والقرب الحاصل فيما سبق كان ظلاً من ظلال هذا القرب الذي يتصوَّرُ بصورة البعد، والعروجُ الذي تيسّر أوَّلاً كان عكساً من عكوس هذا العروج الذي يرى في الظَّاهر نزولاً، ألا ترى أنَّ مركزَ الدائرة أبعد النُّقطة بالنِّسبة إلى محيط الدَّائرة، والحالُ أنَّه لا نقطةَ في الحقيقة أقربُ إلى المحيط من نقطة المركز؛ لأنَّ المحيطَ تفصيلُ تلك النقطة الإجماليَّة، وهذه النِّسبةُ لم تتيسّرْ لنقطةٍ أخرى، والعوامُّ الذين اقتصر نظرُهم على الصُّورة لا يقدرون على وجدان هذا القرب وإدراكه، فيحكمون بأبعديَّة تلك النُّقطة، ويزعمون الحكمَ بأقربيتها جهلاً مركباً، ويحمِّقون الحاكمَ بهذا الحكم ويجهلونه، والله المستعان على ما يصفون.

ينبغي أن يعلم أنَّ المطمئنَّةَ تعرج عن مقامها بعد..

(١) أخرجه مسلم (٤٨٢) من حديث أبي هريرة ﵁، وفيه: (وهو ساجد) بدل: (في الصلاة).

(٢) أخرجه الدارقطني في «العلل» (٤/ ١٢٢) من حديث بلال ﵁ بلفظ: (أرحنا)، وروى أبو داود (٤٩٨٥) عمن لم يسم من الصحابة مرفوعاً: «يا بلال أقم الصلاة، أرحنا بها».

حصول شرح الصَّدْر الذي هو من لوازم كمالات الولاية الكبرى، وترتقي إلى تخت الصَّدر، ويحصل لها هناك التَّمكينُ والسَّلطنةُ، وتستولي على ممالك القلب وتخت الصدر. هذا في الحقيقة فوق جميع مقامات عروج مرتبة الولاية الكبرى، وينفذ نظرُ الصَّاعد إلى هذا التَّخت إلى أبطن البطون، ويسري إلى غيب الغيب. نعم، إنَّ الشَّخصَ إذا صعد إلى أرفع الأمكنة ينفذ بصرُه إلى أبعد الأبعاد، وبعد تمكين هذه المطمئنة يخرج العقلُ أيضاً من مقامه، ويلحق بها، وينضمُّ إليها، ويعرض له حينئذٍ اسمُ: عقل المعاد، وتتوجّه كلاهما بالاتفاق - بل بالاتحاد - إلى شغلهما.

أيُّها الولدُ، إنَّ هذه المطمئنَّةَ لا يبقى فيها إمكانُ المخالفة ومجالُ الطُّغيان، بل هي متوجّهةٌ إلى المطلوب بكليَّتها، ومشغوفةٌ بالمقصود بتماميَّتها، لا همَّةَ لها غيرُ تحصيل رضا ربها، ولا مطلوبَ لها سوى طاعته وعبادته تعالى، سبحان الله، إنَّ الأمَّارةَ التي كانت أولاً شرَّ جميع الخلائق؛ صارت بعد الاطمئنان وحصول رضاء حضرة الرحمن رئيسَ لطائف عالم الأمر، ورأسَ كافة الأقران.

نعم، قد قال المخبر الصادق عليه الصلاة والسلام: «**خِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا**»[1]، فإن وقعت بعد ذلك صورةُ الخلاف والبغي؛ فمنشؤها اختلافُ طبائع العناصر الأربعة التي هي أجزاءُ القالب، فإن كانت قوَّةً غضبيّةً؛ فناشئةٌ من هناك، وإن كانت شهويَّةً؛ فهي أيضاً ثائرةٌ من هناك، وإنْ حرصاً وشرهاً؛ فقائمان من هناك، وإن خِسَّةً ودناءَةً؛ فمنبعثتان من هناك. ألا ترى أنَّ سائرَ الحيوانات ليست فيهنَّ هذه النَّفسُ الأمَّارةُ، ومع ذلك فيهن هذه الأوصافُ الرَّذيلةُ بالوجه الأتمّ والأكمل؟ فيمكن أن يكون المرادُ بالجهاد الأكبر حيث قال النبي ﷺ: «**رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ**»: الجهادِ مع القالب، لا الجهادِ مع النَّفس كما قيل؛ لأنَّ النَّفسَ قد بلغت حدَّ الاطمئنان، وصارت راضيةً مرضيَّةً، فلا تُتصوَّرُ منها صورةُ المخالفة والبغي حتى يحتاج إلى الجهاد، وصورةُ الخلاف والبغي من أجزاء القالب عبارةٌ عن إرادة ترك الأولى، وارتكاب الأمور المرخّصة، وترك العزيمة، لا إرادةُ ارتكاب المحرمات، وتركُ الفرائض والواجبات، فإنَّ هذه الأشياءَ صارت في حقها نصيب الأعداء.

أيُّها الولدُ، إنَّ كمالات العناصر الأربعة وإن كانت فوق كمالات المطمئنة كما مرّ، ولكن بواسطة مناسبتها لمقام الولاية وصيرورتها ملحقةً بعالم الأمر صاحبةُ سكرٍ، وفي مقام الاستغراق، فلا جرم لا يبقى فيها مجالُ المخالفة، وحيث كانت مناسبةُ العناصر بمقام النبوَّة أزيدَ؛ كان الصَّحوُ غالباً فيها، فبالضَّرورة تبقى فيها صورةُ المخالفة لأجل تحصيل بعض المنافع والفوائد المربوطة بها. فافهم.

ينبغي أن يعلم أنَّ منصبَ النبوَّة كان مختوماً بخاتم الرسل عليه وعلى آله الصلاة والسلام، ولكن لأتباعه ﷺ نصيبٌ كاملٌ من كمالات ذلك المنصب بالتَّبعية، وهذه الكملات كانت في طبقة الأصحاب أزيدَ منها في غيرها، وسرتْ هذه الدَّولة أيضاً على سبيل القلَّة إلى التابعين وتُبَّع التابعين، ثم شرعت بعدهم في الاختفاء والاستتار، وانتشرت كمالاتُ الولاية الظليَّة وغلبتْ وشاعتْ، ولكنَّ المرجوَّ أن تتجدَّدَ هذه الدَّولةُ المستترةُ بعد مضيّ الألف، ويحصل لها الغلبةُ والشيوعُ، وأن تظهر الكمالاتُ الأصليّةُ، وتستترَ الظليَّةُ، وأن يكون المهديُّ عليه الرضوان مروِّجَ هذه النِّسبة العليّة.

أيُّها الولدُ، إنَّ التَّابعَ الكاملَ للنبي عليه وعلى آله الصلاة والسلام إذا أتمَّ كمالات مقام النبوَّة بالتبعية، فإن كان من أهل المناصب؛ يشرَّفُ بمنصب الإمامة، وإذا أتمَّ كمالات الولاية الكبرى، فإن كان من أهل المنصب؛ يشرَّفُ ....

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٧٤)، ومسلم (٢٣٧٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

بمنصب الخلافة، والمناسبُ لمنصب الإمامة في مقام الكمالات الظلّيّة منصبُ قطب الإرشاد، والمناسبُ لمنصب الخلافة منصبُ قطب المدار، وكان هذين المقامين التحتانيين ظلَّ ذينك المقامين الفوقانيين، والغوثُ عند الشيخ محيي الدين ابن العربي قدس سره هو عينُ قطب المدار، وليست الغوثيَّةُ عنده منصباً على حدةٍ، وما هو معتقدُ الفقير أنَّ الغوثَ غيرُ قطب المدار، والقطبُ يستمدُّ منه في بعض الأمور، وله دخلٌ أيضاً في نصب مناسب الأبدال، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

تذييلٌ: إنَّ العلومَ والمعارفَ المناسبةَ لمقام النبوَّة وولايتها شرائعُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولَمّا كان في النبوَّة تفاوتُ أقدام الأنبياء؛ ظهر الاختلافُ أيضاً في الشَّرائع بمقدار ذلك التفاوت، والمعارفُ المناسبةُ لمقام ولاية الأولياء شطحيَّاتُ المشائخ، والعلومُ المخبرةُ عن التَّوحيد والاتِّحاد، المنبئةُ عن الإحاطة والسَّريان، المورثةُ لعلامة القرب والمعيَّة، المشعرةُ بالمرآتيَّة والظليَّة، المثبتةُ للشُّهود والمشاهدة. وبالجملة إنَّ معارفَ الأنبياء كتابٌ وسنَّةٌ، ومعارفُ الأولياء فصوصٌ وفتوحاتٌ مكيّةٌ: (ع) وَقِسْ مِنْ حَالِ بُسْتَانِي رَبِيعِي

ولايةُ الأولياء تطلب قربَ الحقّ، وولايةُ الأنبياء تُبْدِي أقربيَّته تعالى، ولايةُ الأولياء تدلُّ على الشُّهود، وولايةُ الأنبياء تُثْبِتُ النِّسبةَ المجهولةَ الكيفيَّة، ولايةُ الأولياء لا تعرف الأقربيَّة أنّها ما هي، ولا تدري الجهالةَ والحيرةَ أنَّها أيُّ شيءٍ هي، وولايةُ الأنبياء - مع وجود الأقربيَّة - ترى القربَ عينَ البعد، وتعدُّ الشُّهود عينَ الغيب:

(ع) يَطُولُ إِذَا مَا قُلْتُ تَفْصِيلُ شَرْحِهِ

أيُّها الولدُ، قد أطنبتُ في بيان كمالات النبوَّة ومزيَّتها على الولاية، والفرق بين الولايات الثلاث - أعني: الصغرى والكبرى والعليا -، وبيان المعارف المناسبة لكلٍّ منها، والمحالّ المتعلّقة بكلٍّ منها، وأدرجتُ في بيان هذا المعنى فقراتٍ مكررةٍ ومتكثِّرةٍ، وأطلتُ في ذلك ذيلَ الكلام رجاءَ أن يخرج عن استبعاد الأفهام من كمال غرابته، وأن يتخلَّص من مظانِّ الإنكار، وهذه العلومُ كشفيَّةٌ ضروريَّةٌ لا استدلاليَّةٌ ونظريةٌ، وذكرُ بعض المقدَّمات إنّما هو للتَّنبيه والتَّقريب إلى أفهام العوامّ، بل للتَّشريح والتَّوضيح لأجل إدراك خواصّ الأنام، هذا هو الطَّريقُ الذي جعل الحقُّ سبحانه وتعالى هذا الحقيرَ ممتازاً به من بدايته إلى نهاية أساسه النِّسبةُ النقشبنديَّةُ المتضمنَّةُ لاندراج النِّهاية في البداية، قد بنيت على هذا الأساس عماراتٌ وقصورٌ، فإن لم يكن هذا الأساسُ؛ لَمَا زادت المعاملةُ، وما انتهت إلى هنا قد أتوا بالبذر الذي أصله من تراب يثرب، وبطحاء من بخارى وسمرقند، وزرعوه في أرض الهند، وسقوه بماء الفضل سنين، وربّوه بتربية الإحسان، فلما أدرك ذلك الزَّرعُ، وبلغ كمالَه؛ أثمر هذه العلومَ والمعارفَ، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وينبغي أن يعلم أنَّ سلوكَ هذا الطَّريق العالي برابطة المحبَّة للشيخ المقتدَى به الذي سار في هذا الطَّريق بالسَّيْر المراديّ، وانصبغ بقوَّة الجذبة بهذه الكمالات، وصاحبُ هذه الكمالات إمامُ الوقت، وخليفةُ الزمان، نظرُه شفاءُ الأمراض القلبيَّة، وتوجّهُه رافعُ العلل المعنويَّة، الأقطابُ والبدلاءُ فرحون بظلال مقاماته، والأوتادُ والنَّجباءُ قانعون بقطرةٍ من بحار كمالاته، نورُ هدايته وإرشاده فائضٌ على جميع الأشخاص كنور الشمس بلا إرادته، فكيف إذا أراد، إن لم تكن إرادته في اختياره، فإنَّه كثيراً ما يطلب الإرادةَ، ولكن لا تحصل له تلك الإرادةُ، ولا يلزم أن يعلم هذا المعنى ويطلع عليه من يهتدون بنوره ويسترشدون بتوسله، بل ربّما لا يعلمون أصلَ هدايتهم ورشدهم أيضاً..........................

كما ينبغي، ومع ذلك يتحقّقون بكمالات الشيخ المقتدى به، ويَهْدُون العالم، فإنَّ العلمَ بالأحوال لا يعطاه كلُّ أحدٍ، ومعرفةُ تفصيل سير المقامات لا يمنحها جميعُ الأشخاص.

نعم، إنَّ الشيخَ الذي نيط بوجوده الشَّريف مدارُ بناء طريقٍ مخصوصٍ من طرق الوصول صاحبُ علمٍ ألبتة، وصاحبُ شعورٍ بتفاصيل السَّير، ويكتفي غيرُه بعلمه، ويصلون بتوسطه إلى مرتبة الكمال والتَّكميل، ويشرفون بالفناء والبقاء: (شعر)

لَـيْـسَ عَـلَـى اللهِ بِـمُـسْـتَـنْـكَـرٍ ... أَنْ يَـجْـمَـعَ الْـعَـالَـمَ فِـي وَاحِـدِ

إفادتنا واستفادتنا انعكاسيَّةٌ وانصباغيَّةٌ، ينصبغ المريد بصبغ الشَّيخ المقتدى به ساعةً فساعةً بواسطة محبَّته له، ويتنوَّرُ بأنواره بطريق الانعكاس، فلأيِّ شيءٍ يحتاج في هذه الصورة إلى العلم بالأحوال في الإفادة والاستفادة، ألا ترى أنَّ الخربزة تدركُ بحرارة الشَّمس ساعةً فساعةً، وتبلغ مرتبةَ الكمال بمرور الأيَّام، فمن أين يلزم أن يكون لها علمٌ بإدراكها؟ ومن أين يلزم للشمس أن تعلم بأنَّها سببُ إدراكها؟ نعم، إنَّ العلم لأجل السُّلوك والتَّسليك الاختياريّ لازمٌ، ولكنَّه مربوطٌ بسلاسل أخر.

وأما في طريقنا التي هي طريقةُ الأصحاب الكرام عليهم الرضوان؛ فالعلمُ بالسلوك والتَّسليك ليس بلازمٍ أصلاً، وإن كان الشيخُ المقتدى به الذي هو راعي هذه الطَّريقة موصوفاً بكمال العلم، ومتحقّقاً بوفور المعرفة، فلا جرم يكون الأحياءُ والأمواتُ والصبيانُ والأشياخُ والشبانُ والكهولُ متساوين في هذا الطَّريق العالي في حق الوصول؛ لأنَّهم يصلون إلى منتهى المقاصد: إما برابطة المحبَّة، أو بتوجّه صاحب دولة، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

ولكن ينبغي أن يعلم أنَّ المنتهي وإن لم يكن صاحبَ علمٍ، ولكن لا بدَّ له من ظهور الخوارق، وربَّما لا يكون له اختيارٌ في ذلك الظُّهور، بل كثيراً ما لا يكون له علمٌ بظهورها، بل يرى النَّاسُ منه الخوارقَ، وليس له اطِّلاعٌ عليها.

وما قلت: إنَّ المنتهي وإن لم يكن صاحب علمٍ، المرادُ بعدم العلم: عدمُ علمٍ بتفصيل الأحوال، لا عدمُ العلم مطلقاً بحيث لا يفهم أحواله أصلاً كما مرت الإشارةُ إليه، ونورُ هدايته المذكور يسري إلى مريديه بلا واسطةٍ أو بواسطةٍ أو بوسائطَ ما لم تلوّث طريقتُه المخصوصةُ بلَوْث التغييرات والتبديلات، ولم تخرب بإلحاق المخترعات والمبتدعات بها، ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

والعجبُ من قومٍ يزعمون هذه التَّبديلات تكميلاتِ هذه الطَّريقة، ويتصورون تلك الإلحاقات تتميماتِ هذه النِّسبة، ولا يعلمون أنَّ تكميل هذا الأمر وتتميمَه ليس لكلِّ قاصرٍ وناقصٍ، والإلحاقُ والاختراعُ ليس في حوصلة كلِّ خالي الظَّرف: (شعر)

هزار نكته باريكتر زمو اينجاست ... نه هر كه سر بتراشد قلندرى داند

قد ستروا نور السنة السَّنِيَّة بظلمات البدع، وضيَّعوا رونق الملَّة المصطفويَّة على صاحبها الصلاة والسلام والتحية بكدورات الأمور المخترعة.

وأعجب من هذا ظنُّ قومٍ هذه المحدثات أموراً مستحسنةً، وزعمهم تلك المبتدعات حسناتٍ مستملحةً، فيطلبون بها تكميلَ الدين، وتتميمَ الملَّة، ويرغبون في إتيان تلك الأمور ترغيباً كثيراً، هداهم الله سبحانه سواءَ الصراط، ألم يعلموا أن الدينَ كان كاملاً قبل هذه المحدثات، وكانت النعمةُ تامَّةً، وكان رضاءُ الحقّ سبحانه حاصلاً كما قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]؟ فطلبُ كمال الدين من هذه المحدثات إنكارٌ في الحقيقة على مقتضى هذه الآية الكريمة: (شعر)

بَثَثْتُ لَدَيْكُمْ مِنْ هُمُومِي وَخِفْتُ أَنْ تَمَلُّوا وَإِلَّا فَالْكَلَامُ كَثِيرٌ

وقد أظهر العلماء المجتهدون أحكامَ الدين، لا أنّهم أحدثوا فيه ما ليس منه، فلا تكون الأحكامُ الاجتهاديَّةُ من الأمور المحدثة، بل من أصول الدين؛ لأنَّ الأصلَ الرّابعَ هو القياسُ.

أيُّها الولدُ، إنِّي قد كنت كتبت المعرفةَ المتعلّقةَ بقطب الإرشاد في باب الإفادة والاستفادة من رسالة «المبدأ والمعاد»، ولكن لَمّا كانت لها مناسبةٌ بهذا المقام ومفيدةً فيه؛ ناسب كتابتُها في هذا المكتوب أيضـاً، فليعتبر من هنا أنَّ قطبَ الإرشاد الذي يكون جامعـاً لكمالات الفرديَّة أيضـاً عزيزُ الوجود جداً، يظهر مثلَ هذا الجوهر بعد قرون كثيرةٍ، وأزمنةٍ متطاولةٍ، وينوّر العالمُ الظلمانيُّ بنور ظهوره ونور هدايته، وإرشادُه شاملٌ لجميع العالم، كلُّ من يحصل له الرشدُ والهدايةُ والإيمان والمعرفة من محيط العرش إلى مركز الفرش إنّما يحصل من طريقه ويستفاد منه، لا تتيسّرُ هذه الدَّولة لأحدٍ بدون توسُّطه، نوره محيطٌ لجميع العالم مثل البحر المحيط مثلاً، وهذا البحر كأنَّه منجمدٌ لا يتحرَّك أصلاً، فالطالبُ الذي متوجه إليه ومخلص له أو هو متوجّهٌ إلى الطالب كأنه تفتح وقت التوجّه رَوْزنةٌ إلى قلب الطالب، فيصير بهذا الطَّريق ريّاناً من ذلك البحر على قدر توجّهه وإخلاصه، وكذلك من كان متوجّهـاً إلى ذكر الله تعالى ومقبلاً عليه، ولم يكن متوجّهـاً إلى ذلك القطب أصلاً لا من جهة الإنكار عليه، بل لعدم معرفته به أصلاً؛ يحصل له مثل هذه الإفادة، لكنَّها في الصورة الأولى أزيد منها في الصورة الثّانية.

وأما من كان منكراً عليه أو هو متأذٍّ منه؛ فهو وإن كان مشغولاً بذكر الله تعالى وتقدس، ولكنَّه محرومٌ من حقيقة الرشد والهداية، وإنكارُه هذا وأذيَّتُه يصير سدّةً في طريق فيضه، وحقيقةُ الهداية مفقودةٌ فيه من غير أن يتوجّه القطبُ العظيمُ الشأن إلى عدم إفادته، ومنع استفادته، وقصد ضرره، بل فيه صورةُ الرشد فقط، والصورةُ الخاليةُ عن المعنى قليلةُ النفع والجدوى، والذين فيهم محبَّةُ ذلك القطب وإخلاصه - وإن خلوا عن التوجّه المذكور وذكر الله تعالى - يصل إليهم نورُ الهداية والرشد بواسطة محبَّتهم فقط، ولتكن هذه المعرفةُ آخرَ المكتوب: (شعر)

أَكْتَفِي إِذْ ذَاكَ يَكْفِي الْأَذْكِيَا صِحْتُ مَرَّاتٍ لِمَنْ أَصْغَى النِّدَا

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم أوَّلاً وآخراً، والصلاةُ والسلامُ على رسوله محمد وآله وصحبه دائماً وسرمداً.

المَكْتُوبُ الحَادِي وَالسِّتُّونَ وَالمِائَتَانِ

إلى المِير نعمانَ في بيانِ فضائلِ الصَّلاةِ، والكمالاتِ المَخصوصةِ بها في ضمنِ معارِفَ عاليةٍ، وحقائقَ ساميَةٍ.

بعد الحمد والصلوات، وتبليغ الدعوات. ليكن معلومَ الأخ الأعزّ - أرشده الله سبحانه - أنَّ الصلاةَ ركنٌ ثانٍ من الأركان الخمسة للإسلام، وجامعة العبادات، وهي وإن كانت جزئيَّةً، ولكن حصلتْ لها حكمُ الكليَّة من الجامعيَّة، وصارت فوق جميع مقرّبات الأعمال، ودولةُ الرُّؤية التي كانت ميسَّرةً لسيد العالمين عليه وعلى آله الصلاة والسلام ليلة المعراج في الجنَّة كانت ميسَّرةً له بعد النزول إلى الدنيا في الصَّلاة مناسبة لهذه النَّشأة، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «**الصَّلَاةُ مِعْرَاجُ الْمُؤْمِنِ**»، وقال أيضاً: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنَ الرَّبِّ فِي الصَّلَاةِ**»، ولكُمَّل أتباعه عليه الصلاة والسلام في هذه النَّشأة حظٌّ وافرٌ من تلك الدَّولة في الصلاة، وإن لم تكن رؤيةً، فإنَّ هذه النَّشأةَ..............................

لا تطيقها، فإن لم يأمر الله سبحانه بالصلاة؛ فمن كان يكشف النقابَ عن وجه المقصود؟ ومن كان يدلُّ الطالبَ نحو المطلوب؟ مورثُ اللَّذَّة للمغمومين هو الصَّلاةُ، وموجبُ الرَّاحة للمرضى - يعني: من ألم البعد والفراق - هو الصَّلاةُ، «أَرِحْنِي يَا بِلَالُ» إشارةٌ إلى هذا المعنى، و«قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»[1] رمزٌ من هذا المتمنّى، وما تيسّر من الأذواق والمواجيد والعلوم والمعارف والأحوال والمقامات والأنوار والألوان والتلوينات والتمكينات والتجلّيات المتكيِّفة وغير المتكيِّفة والظُّهورات المتلوِّنة وغير المتلونة في خارج الصلاة ومن غير شعورٍ بحقيقة الصلاة منشؤها كلُّها ظلالٌ وأمثالٌ، بل ناشئةٌ عن الوهم والخيال، والمصلّي الذي له شعورٌ بحقيقة الصلاة كأنَّه يخرج من هذه النَّشأة الدُّنيا وقت أداء الصلاة، ويدخل في النَّشأة الأخرى، فلا جرم ينال في هذا الوقت نصيباً وافراً من دولةٍ مخصوصةٍ بالآخرة، ويحصِّلُ حظّاً من الأصل بلا شائبةِ الظليَّة؛ لأنَّ النَّشأةَ الدُّنيا مقصورةٌ على الكمالات الظليَّة، والمعاملةُ الخارجةُ الخاليةُ عن الظليَّة مخصوصةٌ بالآخرة، فلا بُدَّ على هذا من المعراج، وهو الصَّلاةُ في حقّ المؤمنين، وهذه الدَّولةُ مخصوصةٌ بهذه الأمَّة، فإنَّهم إنّما شرّفوا بهذه الدَّولة، واستسعدوا بهذه السَّعادة تَبَعاً لنبيّهم عليه وعلى آله الصلاة والسلام، وقد تشرَّف هو بدولة الرُّؤية، حيث خرج من الدُّنيا إلى الآخرة، ودخل الجنَّةَ ليلةَ المعراج، اللهم اجزه عنا ما هو أهلُه، واجزه عنا أفضلَ ما جازيتَ نبياً عن أمته، واجز الأنبياءَ كلَّهم خيراً، فإنَّهم دعاةُ الخلق إلى الحقّ سبحانه، وهداتُهم إلى لقاء الله.

والذين لم يطَّلعوا على حقيقة الصَّلاة من هذه الطَّائفة، ولم يقفوا على الكمالات المخصوصة بها؛ صاروا يطلبون معالجةَ أمراضهم من أمورٍ أُخَرَ، ويلتمسون حصولَ مراداتهم من أشياء شتّى، بل زعمتْ طائفةٌ منهم الصَّلاةَ بعيدةً عن الحال، وجعلوا مبناها على المغايرة والمباينة وغير ذلك من المحال، وزعموا أنَّ الصَّومَ أفضلُ من الصلاة، قال صاحبُ «الفتوحات المكية»: إنَّ في الصوم الذي هو تركُ الأكل والشرب تحقّقاً بصفة الصمدانيَّة، وفي الصلاة خروجٌ إلى المغايرة والمباينة، وإشعارٌ بالعابديّة والمعبوديَّة، وهو - كما ترى - مبنيٌّ على مسألة التَّوحيد الوجوديّ الذي هو من أحوال السّكارى، ومن عدم الشُّعور بحقيقة الصلاة، وفقد الخبر عنه، صار الجمُّ الغفيرُ من هذه الطَّائفة يطلبون تسكينَ اضطرابهم من السَّماع والنَّغمات والوجد والتَّواجد، وطفقوا يطالعون مطلوبهم من وراء حجب النغمات، فلا جرم جعلوا الرَّقصَ والحركةَ دَيْدَنَهم، مع أنَّهم سمعوا حديث: «وَمَا جَعَلَ اللهُ شِفَاءَكُمْ فِيمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ»[2].

نعم، الغريقُ يتعلّق بكلِّ حشيشٍ، و«حُبُّ الشَّيْءِ يُعْمِي وَيُصِمُّ»[3]، فلو انكشفت لهم نبذةٌ من حقيقة الصلاة، ووصلتْ إلى مشامِّ أذواقهم شمَّةٌ منها؛ لَمَا مالوا إلى السَّماع والنغمة أصلاً، ولَمَا ركنوا إلى الوجد والتواجد قطعاً: (شعر)

وَإِذْ لَـمْ يَـهْـتَـدُوا نَـهْـجَ الْـ ... حَـقَـائِـقِ قَـارَفُـوا هُـزُوَا

أيُّها الأخُ، بقدر ما يكون من الفرق بين الصلاة والنغمات تتفاوت الكمالاتُ التي منشؤها الصلاةُ والكمالاتُ التي منشؤها النغماتُ، العاقلُ تكفيه الإشارةُ، وهذا كمالٌ وُجِدَ بعد ألف سنةٍ، وآخريَّةٌ ظهرتْ على صفة الأوّلين ولونهم، ولعلَّ النبيَّ ﷺ لذلك قال: «لَا يُدْرَى أَوَّلُهُمْ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُمْ»، ولم يقل: أم أوسطهم، حيث رأى المناسبةَ بين الآخر والأوّل أزيدَ منها بين الأوسط والأوّل، فصار ذلك محلَّ تردُّدٍ، وقال عليه الصلاة والسلام في حديثٍ........................

(١) أخرجه النسائي (٣٩٣٩) من حديث أنس ﷺ مرفوعاً بلفظ: «حبب إلي من الدنيا: النساء والطيب، وجعل قرة عيني في الصلاة».

(٢) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (١٣٩١)، والبيهقي في «سننه» (١٩٦٧٩، ١٩٦٨٠) واللفظ له من حديث أم سلمة ﷺ، وأخرج مسلم (١٩٨٤) من حديث طارق بن سويد الجعفي أنَّه سأل النبي ﷺ عن الخمر، فنهاه أو كره أن يصنعها، فقال: إنما أصنعها للدواء، فقال: «إنه ليس بدواء، ولكنه داء».

(٣) أخرجه أبو داود (٥١٣٠) من حديث أبي الدرداء ﷺ.

آخر: «**أَفْضَلُ أُمَّتِي أَوَّلُهُمْ وَآخِرُهُمْ، وَبَيْنَهُمَا كَدَرٌ**»[1]. نعم، إنَّ متأخِّري هذه الأمة وإن كان فيهم علوُّ النِّسبة، ولكنَّ أصحابها قليلون، بل أقلُّ، وفي المتوسطين وإن لم تكن النِّسبة بهذا العلوّ، لكنَّ أصحابها كثيرون، بل أكثرُ، ولكلٍّ وجهةٍ كميَّةٌ وكيفيَّةٌ، ولكنَّ أقليَّةَ هذه النِّسبة بلَّغت المتأخِّرين إلى الدَّرجات العلى، وأَوْرَثَتْهم المناسبةَ بالسَّابقين، وجعلتهم المبشَّرين، قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**الْإِسْلَامُ بَدَأَ غَرِيباً، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ**» الحديث، وشروعُ آخريَّة هذه الأمَّة من بداية الألف الثّاني من ارتحال النبيّ ﷺ، فإنَّ لمضيِّ الألف خاصيَّةً عظيمةً في تغيُّر الأمور، وتأثيرٌ قويٌّ في تبدُّل الأشياء، ولَمّا لم يكن في ملَّة هذه الأمة وسيرتها نسخٌ وتبديلٌ؛ ظهرت نسبةُ السابقين بطراوتها القديمة ونضارتها السَّابقة في المتأخرين بالضَّرورة، وحصل تأييدُ الشَّريعة وتجديدُ الملة في الألف الثّاني، والشَّاهدُ العدلُ لصدق هذه الدَّعوى: عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام، والمهديُّ عليه الرضوان، يعني: وجودَهما في هذا الألف: (شعر)

لَوْ جَاءَ مِنْ فَيْضِ رُوحِ الْقُدْسِ مِنْ مَدَدٍ ... لِغَيْرِ عِيسَى لِيَصْنَعْ مِثْلَ مَا صَنَعَا

أيُّها الأخُ، إنَّ هذا الكلامَ وإن كان اليوم ثقيلاً على أكثر الخلائق، وبعيداً عن أفهامهم، ولكنَّهم إذا أنصفوا وقاسوا المعارفَ بعضها ببعضٍ، ولاحظوا صحَّة الأقوال وسقمها بمطابقتها العلوم الشَّرعيّة وعدم مطابقتها إياها، ورأوا أنَّ تعظيمَ الشَّريعة النبويَّة وتوقيرَها في أيّتها أكثرُ؛ لعلَّهم يتخلَّصون عن ورطة الاستبعاد، ألا يرون أنَّ الفقيرَ قد كتب في كتبه ورسائله أنَّ الطَّريقةَ والحقيقةَ خادمتان للشَّريعة، وأنَّ النبوَّةَ أفضلُ من الولاية ولو كانت ولايةَ نبيٍّ؟ وكتب أيضاً أنَّه لا مقدارَ لكمالات الولاية في جنب كمالات النبوَّة أصلاً، وليت لها حكم القطرة بالنِّسبة إلى البحر المحيط، وكتب أمثالَ ذلك كثيراً، خصوصاً في مكتوبٍ كُتِبَ باسم ولدي في بيان الطَّريقة، فليلاحظوا هناك، والمقصودُ من هذا القيل والقال: إظهارُ نعمة الحقّ سبحانه، وترغيبُ طلَّاب هذه الطَّريقة، لا تفضيلُ نفسي على الآخرين، ومعرفةُ الله سبحانه حرامٌ على من يرى نفسه أفضلَ من كفار الإفرنج، فكيف من أكابر الدِّين؟ (شعر)

خَلِيلِي سَيِّدِي أَعْلَى مَقَامِي ... فَفُقْتُ بِهِ نُجُوماً وَالْهِلَالَا

كَأَنِّي رَوْضَةٌ فِيهَا سَحَابُ الـ ... ـرَّبِيعِ مُمْطِرٌ مَاءً زُلَالَا

فَلَوْ لِي أَلْفُ أَلْسِنَةٍ وَأُثْنِي ... بِهَا مَا ازْدَدْتَ إِلَّا الِانْفِعَالَا

فإن ظهر فيكم بعد مطالعة هذا المكتوب شوقُ تعلُّم أسرار الصلاة، وتحصيلِ بعض كمالاتها المخصوصة، وجعلكم هذا الشَّوقُ مضطرباً؛ تتوجّه نحو هذه الحدود بعد الاستخارات، وتصرفُ شطراً من العمر في تعلُّم الصلاة - يعني: أسرارها -. والله سبحانه الهادي إلى سبيل الرشاد، والسلام على من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى، عليه وعلى آله الصلاة والسلام.

المكتوب الثاني والستون والمائتان

إلى مولانا محبِّ عليٍّ في بيانِ أنَّ ارتباطَ النَّقشبنديَّة حبِّيَّة، ونسبتَهمُ انعكاسيَّة، وما يُناسِبه.

﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ**﴾ [النمل: ٥٩].

حصل الابتهاجُ بورود الصَّحيفة الشَّريفة المرقومة على وجه الالتفات، وحيث كانت منبئةً عن فرط المحبَّة وكمال الاختصاص أورثت ازديادَ..

(١) أخرجه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٢/ ٩٢) من حديث أبي الدرداء ﷺ.

الفرح والسُّرور، وقد اندرج فيها الكلامُ عن العهد السابق.

أيُّها المخدومُ، إنَّك على أيِّ وضعٍ كنت من الأوضاع الشَّرعيّة ليس بمحلٍّ للمضايقة، ولا مستحقّاً به للمعاتبة، بشرط أن لا ينقطع حبلُ المحبَّة، بل يتقوّى يوماً فيوماً، وبشرط أن لا تبردَ نائرةُ الاشتياق، بل تزايد ساعةً فساعةً، فإن ارتباطنا حبِّيٌّ، ونسبتَنا انعكاسيَّةٌ وانصباغيَّةٌ، لا تتفاوَتُ بالقرب والبعد إلا بحسب السُّرعة والبطء، والعلمِ ببعض خصوصيات الطَّريق وعدمِ العلم به، وتطلب تحقيق هذا المعنى من خاتمة مكتوبٍ حرَّرْتُه باسم ولدي الأرشد في بيان الطَّريق، وقد جاء أصحابُ أخينا المير محمد نعمان ينقل ذلك المكتوبَ، فتطلبه من هناك، وماذا أطنب زيادةً على ذلك؟ والسلام.

المَكتُوبُ الثَّالِثُ وَالسِّتُّونَ وَالمِائَتَانِ

إلى جنابِ صاحبِ المَعارفِ الشَّيخ تاج الدِّين في بيانِ معارفَ تتعلَّق بالكَعبةِ الرَّبَّانيَّة، وبيانِ الفَضائلِ الصَّلاتيَّة، وما يُناسبُ ذلك.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩].

قد أورث خبرُ القدوم الذي هو للمسرَّة ملزومٌ فرحاً وافراً للمشتاقين، لله سبحانه الحمدُ والمنَّةُ على ذلك: (شعر)

أَنْصِــفْ أَيَا فَلَكُ زَاهٍ مَصَــابِيحُهُ ... وَأَيُّ هَـذَيْـنِ قَـدْ عَـمَّـتْ تَـفَـارِيـحُـهُ

شَـمْسٌ بِهَا عَـالَمٌ تَمَّتْ مَصَــالِحُهُ ... أَمْ بَـدْرِيَ الْبَـادِ مِنْ شَــامٍ لَـوَائِحُـهُ

وحيث التزمت القدومَ؛ فعليك أن تشرِّف بالسُّرعة، فإنَّ المشتاقين تحت ثِقَل الانتظار، يتمنَّوْن سماعَ أخبار بيت الله، وعند الفقير كما أنَّ صورةَ الكعبة الربانيَّة مسجودٌ إليها لصُوَر الخلائق بشراً كانوا أو مَلَكاً؛ كذلك حقيقتُها مسجودٌ إليها لحقائق تلك الصُّور، فلا جَرَمَ كانت تلك الحقيقةُ فوق جميع الحقائق، والكمالاتُ المتعلّقةُ بها صارت فوق الكمالات المتعلّقة بسائر الحقائق، وكأنَّ هذه الحقيقةَ برزخٌ بين الحقائق الكونيَّة والحقائق الإلهيّة.

والمرادُ بالحقائق الإلهيّة: سُرَادقاتُ العظمة والكبرياء التي لم يَصِلْ إلى ذيل قُدْسها لونٌ ولا كيفٌ، ولم يتطرَّقْ إليها ظليَّةٌ أصلاً، ونهايةُ العروجات الدنيويَّة وظهوراتُها إلى منتهى الحقائق الكونيَّة، والنَّصيبُ من الحقائق الإلهيّة مخصوصٌ بالآخرة، لا حَظَّ منها في الدنيا إلا في الصلاة التي هي معراجُ المؤمن، وكأنَّ في هذا المعراج خروجاً من الدنيا إلى الآخرة، ويتيسّرُ فيه حظٌّ مما يتيسّر في الآخرة، وأظنُّ أنَّ حصول هذه الدَّولة في الصَّلاة لتوجّه[1] المصلي فيها إلى جهة الكعبة التي هي موطنُ ظهورات الحقائق الإلهيّة، فالكعبةُ أعجوبةٌ في الدنيا، فإنَّها بصورتها من الدنيا، وبالحقيقة من الآخرة، وأخذت هذه النِّسبةَ الصَّلاةُ أيضاً بتوسُّطها، وصارت بصورتها وحقيقتها جامعةً للدُّنيا والآخرة، وقد بلغ مرتبةَ التَّحقيق: أنَّ الحالةَ المتيسّرةَ في أداء الصَّلاة فوق جميع الكمالات الحاصلة في خارج الصلاة؛ لأنَّ تلك الحالةَ ليست بخارجةٍ من دائرة الظلِّ وإن حصل لها العلوُّ، بخلاف هذه الحالة، فإنَّ لها نصيباً من الأصل، وبقدر الفرق بين الأصل والظلِّ يكون الفرقُ بين تلك الحالة وهذه الحالة، ويشاهَدُ أنَّ الحالةَ التي تحصل عند الموت بعناية الله تعالى تكون فوق حالة الصلاة، فإنَّ الموتَ من مقدَّمات أحوال الآخرة، وكلُّما هو أقربُ إلى الآخرة أتمُّ وأكملُ؛ لأنَّ هنا ظهورَ الصورة، وهناك ظهورَ الحقيقة، شتَّان ما بينهما، وكذلك الحالةُ التي تتيسّر بكرم الله جل سلطانه في البرزخ الصغير تكون........

(١) الذي لا تتحقَّق ماهيةُ الصلاة إلا به، فلا يرد أنه ينبغي أن تحصل هذه الحالةُ لكلِّ من يتوجه إلى الكعبة، سواءٌ كان في الصلاة أو لا. (المعرِّب)

فوق الحالة الحاصلة له وقت الموت، وعلى هذا القياس الحالةُ المتيسّرةُ في البرزخ الكبير الذي هو عَرَصاتُ القيامة بالنِّسبة إلى حالة البرزخ الصغير، فإنَّ المشهودَ هناك أتمُّ وأكملُ، ولمشهود جنات النعيم أتميَّتُه وأكمليَّتُه بالنِّسبة إلى مشهود البرزخ الكبير، وفوق جميع تلك المذكورات موطنٌ أخبر عنه المخبرُ الصادقُ عليه الصلاة والسلام حيث قال: «**إنَّ للهِ جَنَّةً لَيْسَ فِيهَا حُورٌ وَلَا قُصُورٌ، يَتَجَلَّى فِيهَا رَبُّنَا ضَاحِكًا**»(١)، فأدنى جميع مواطن الظُّهورات الدُّنيا وما فيها، وأعلى جميعها تلك الجنَّةُ المذكورةُ، بل الدُّنيا ليست من مواطن الظهور أصلاً، وظهوراتُ الظلال ومرآتيَّةُ المثال التي هي مخصوصةٌ بالدُّنيا معدودةٌ عند الفقير من الأمور الدنيويَّة، وداخلةٌ في الحقيقة في دائرة الإمكان، سواء قيل لتلك الظُّهورات: تجلِّيات الأسماء أو تجلِّيات الصِّفات أو تجلِّيات الذَّات، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. وأنا الفقيرُ متى ألاحظ الدُّنيا بالتمام أَجِدُها خاليةً محضةً، ولا يصل منها إلى مشامّي رائحةُ المطلوب.

غَايةُ ما فِي البابِ: أنَّها مزرعةُ الآخرة، فطلبُ المطلوب فيها إتعاب النَّفس وإهلاكُها على العبث، أو زعمُ غير المطلوب مطلوبـًا، والأكثرون مبتلون بذلك، ومطمئنون بالمنام والخيال، والذي فيه شيءٌ من الأصل، وما يعطي رائحةَ من المطلوب في هذا الموطن الصلاةُ، ودونها خرطُ القتاد.

المَكْتُوبُ الرَّابِعُ وَالسِّتُّونَ وَالمِائَتَانِ

إلى السَّيِّد باقرِ السَّارَنْگ پُورِيِّ في بيانِ لزوم جرِّ المُعاملَة نحوَ الحَيرة والجهالةِ، وعدمِ الاعتِمادِ على الأحوالِ والكُشوفِ، وذكرِ واقِعة بعضِ مشائخ النَّواحي التي كانَ حكاها له، وتَعبيرِها في ضمنِ ذلك.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩].

قد أورثت الصحيفةُ الشَّريفةُ الصَّادرةُ عن فرط المحبَّة وكمال الاشتياق فرحـًا وافراً، وعليكم بالتوجّه والإقبال على الأمر الذي يقتضيه الحالُ، والاشتغالِ بذكر اسم الذَّات من غير ملاحظة الأسماء والصِّفات حتى تنجرَّ المعاملةُ إلى الجهالة، وينتهي الأمرُ إلى الحيرة، فإنَّ ملاحظةَ الأسماء والصِّفات كثيراً ما تكون باعثةً على ظهور الأحوال، وواسطةً للوجد والتَّواجد، ولعلك سمعت أنَّ احتمالَ الخطأ في الأحوال والمواجيد كثيرٌ، واشتباهَ الحقِّ بالباطل في ذلك الموطن وافرٌ، وقد أرسل واحدٌ من مشائخ النَّواحي قاصداً إلى هذا الفقير في هذه الأيّام مظهراً أحواله، وقال: قد بلغ الفناءُ والاضمحلالُ مرتبةً كلّ شيءٍ نظرتُ إليه لا أجده، أنظر إلى السماء والأرض، فلا أجدهما، ولا أجد العرش ولا الكرسي، وألاحظني، فلا أَجِدُ أصلاً، وأذهب عند شخصٍ، فلا أجده، والله سبحانه لا نهايةَ له، وما وجد أحدٌ نهايَتَه، وقد اعتقد المشائخ هذا الحال كمالاً، فإن كنت أنت أيضـًا تعتقدُ كذلك؛ فلأيِّ شيءٍ أجيء عندك لطلب الحق جل وعلا؟ وإن كنت تعرف أمراً كمالاً غيرَه؛ فاكتب لي كتابـًا، فكتبت في جوابه: إنَّ هذه الأحوال من تلوينات القلب، والقلبُ أوَّلُ درجةٍ من درجات هذا الطَّريق، وصاحبُ هذه الأحوال طوى ربعـًا واحداً من أحوال القلب، وينبغي له أن يطوي ثلاثة أرباعه الباقية، وبعد ذلك ينبغي أن يعرج إلى الدَّرجة الثّانية التي هي عبارة عن الروح، ثم إلى ما شاء الله.

وبعد مدَّةٍ من هذه الكتابة قَدِمَ واحدٌ من أصحاب الفقير، وكان متوجّهـًا إلى وطنه بعد أخذ الطَّريقة، ولَمّا بيَّن أحواله صار معلومـًا لي أنَّ حالَه موافقٌ لحال ذلك الشَّيخ المستفسر، بل هو أسبق قدمـًا منه، ولَمّا نظرت إلى حاله وأمعنت النَّظر؛

---

(١) هذا مشهورٌ في كتب الصوفيّة، كما ذكره المعرّب رحمه الله تعالى.

ظهر لي أنَّ فناءه واضمحلالَه في عنصر الهواء الذي هو محيطٌ لجميع ذرَّةٍ من الذرات، وليس المشهودُ غيرَ الهواء، وقد زعمه إلهـاً لا نهايةَ له، تعالى الله سبحانه عن ذلك علوّاً كبيراً، ولَمّا فتَّشتُ عن أحواله مرَّةً ثانيةً؛ أيقنتُ أنَّ ابتلاءه ليس أمراً آخر غير الهواء، فأطلعته أيضـاً على هذا المعنى، ولَمّا رجع هو إلى وجدانه؛ علم أنَّ حاصلَه ليس غير الهواء، فاستغفر من هذه الأحوال، ورفع قدمه فوق هذا الحال.

اعلم أنَّ القلبَ برزخٌ بين عالم الخلق الذي هو عالم العناصر الأربعة وبين عالم الأرواح، وفيه وصفٌ ولونٌ من كِلَا العالمين، فكان نصفُ القلب من عالم الخلق، ونصفُه الآخر من عالم الأرواح، فإذا نصفنا نصفَه الناظر إلى عالم الخلق؛ تقع المعاملةُ على عنصر الهواء، فيكون ربعُ القلب عبارةً عن مقام الهواء الذي تضمَّنه القلبُ، فما ظهر ثانياً موافقٌ للجواب الأوّل، وبيانٌ لكشف حقيقته، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدٰينَا لِهٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ اَنْ هَدٰينَا اللّٰهُۚ لَقَدْ جَٓاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣]. ولم يسع الوقتُ زيادةً على ذلك، والسلام عليكم وعلى من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى، عليه وعلى آله من الصلوات أفضلها، ومن التسليمات أكملها.

المكتوب الخامس والستون والمائتان

إلى الشَّيخ عبدِ الهادي في التَّحذيرِ عن تَضييعِ حُقوقِ المُسلِمينَ بالعُزلَة، وبيانِ الحقوقِ اللّازمةِ رعايتُها، وما يناسبُ ذلك.

بعد الحمد والصلوات، وتبليغ الدعوات، أنهي أنَّ مكتوبَ الأخ الأرشد قد وصل، فأورث فرحـاً وافراً، لله سبحانه الحمدُ والمنَّةُ على ما لم يؤثِّرْ تمادي أيام المفارقة في المحبَّة والإخلاص، والمودَّة والاختصاص، ومع ذلك لو أتى بنفسه؛ لكان أنسبَ، الخيرُ فيما صنعه الله سبحانه، وقد تمنَّى العزلةَ. نعم، إنَّ العزلةَ منية الصديقين، ولك الخيارُ في العزلة والانزواء، ونرجو أن تكون مباركةً، ولكن ينبغي أن لا تضيِّعَ مراعاة حقوق المسلمين، قال النبي عليه وعلى آله الصلاة والسلام: «**حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ خَمْسٌ: رَدُّ السَّلَامِ، وَعِيَادَةُ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعُ الْجَنَائِزِ، وَإِجَابَةُ الدَّعْوَةِ، وَتَشْمِيتُ الْعَاطِسِ**»(١)، ولكن في إجابة الدعوة شرائطُ في «الإحياء»: ويمتنع من الإجابة إن كان الطَّعامُ طعامَ شبهةٍ، وفي الموضع منكرٌ من فرشِ ديباجٍ، وأواني فضَّةٍ، وتماثيل على سقفٍ، أو سماع شيءٍ من المزامير والملاهي، أو التَّشاغل بنوعٍ من اللهو واللعب، وكلُّ ذلك مما يمنع الإجابةَ، ويوجب تحريمَها وكراهتَها، وكذلك إن كان الدَّاعي ظالمـاً أو مبتدعـاً أو فاسقـاً أو شرِّيراً أو متكلِّفـاً طالبـاً للمباهاة والفخر، وفي «شرعة الإسلام»: ولا يجيب إلى طعامِ صُنِعَ رياءً وسمعةً، في «المحيط»: لا ينبغي أن يقعد على مائدةٍ إذا كان عليها لعبٌ وغناءٌ، أو قومٌ يغتابون، أو يشربون الخمر. كذا في «مطالب المؤمنين».

فإن كانت هذه الموانعُ كلُّها مفقودةً؛ لا بُدَّ حينئذٍ من الإجابة، وإن كان فقدانُ هذه الموانع عسيراً في هذا الزَّمان.

وأيضـاً ينبغي أن يعلم أنَّ العزلةَ إنّما تكون من الأغيار، لا من الأحباب، فإنَّ الصُّحبةَ مع محارم الأسرار سنَّةٌ مؤكدةٌ في هذه الطَّريقة العليّة، قال الخواجه النقشبند قدس سره: طريقُنا طريقُ الصُّحبة، فإنَّ في الخلوة شهرةً، وفي الشُّهرة آفةً، والمراد بالصحبة: صحبة أهل الطَّريق، لا صحبة المنكرين والمخالفين؛ لأنَّهم اشترطوا نفيَ كلٍّ من المصاحبين نفسه وفناءه في الآخر، وهذا لا يتيسّر بدون الموافقة.

وعيادةُ المريض سنَّةٌ إن كان للمريض متعهِّدٌ وممرِّضٌ، وإلا؛ فهي واجبةٌ كما ذكر في «حاشية المشكاة». وينبغي أن يحضر صلاة..

(١) أخرجه البخاري (١٢٤٠)، ومسلم (٢١٦٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

الجنازة، وأن يشيِّعَ الجنازةَ ولو خطواتٍ ليؤدّي حق الميت، وحضورُ الجمع والجماعات في الأوقات الخمسة وصلاة العيدين من ضروريات الإسلام لا بُدَّ منها. ثم يصرف بقيَّةَ الأوقات إلى ذكر المولى بالتَّبتُّل والانقطاع، ولكن ينبغي أن يصحِّحَ النيَّة أوّلاً، وأن لا يلوِّثَ العزلة بلوثِ غرضٍ من الأغراض العاجلة أصلاً، وأن لا يكون مقصدٌ غير تحصيل جمعيَّة الباطن بذكر الله جلّ سلطانه، والإعراضُ عن الاشتغال بما لا طائلَ فيه وجميع الملاهي قطعاً، وينبغي أن يحتاط في تصحيح النيَّة غايةَ الاحتياط؛ لئلا يختفيَ ويتكمَّنَ في ضمنها غرضٌ نفسانيٌّ، وأن يلتجئَ ويتضرّعَ إلى الله تعالى في هذا التَّصحيح كثيراً، وأن يكون في مقام العجز والانكسار، فحينئذٍ يحتمل أن تتحقق حقيقة النيَّة.

والحاصلُ ينبغي أن يختار العزلةَ بنيَّةٍ صادقةٍ صحيحةٍ بعد تكرار الاستخارة سبعَ مراتٍ، فيرجى حينئذٍ أن تترتَّب عليه ثمراتٌ عظيمةٌ، وبقيَّةُ الأحوال أخَّرنا خبرها إلى وقت الملاقاة، والسلام.

المكتوب السادس والستون والمائتان

إلى المَخدومَينِ المكرَّمَينِ - أعني: ابنَي شَيخِه الخواجه عبدِ اللهِ والخواجه عُبيدِ اللهِ - في بيانِ بعضِ المسائلِ الكلاميَّةِ على وَفقِ آراءِ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ، وقَد ظهرَتْ له على طريقِ الكشفِ والإلهامِ، لا على وجهِ الظُّنونِ والأوهامِ، والرَّدِّ على الفلاسفَةِ وأتباعِهمُ المُتَفلسِفةِ، وعلى الزَّنادقةِ والملاحدةِ المُتشبِّهينَ بالصُّوفيَّةِ، وبيانِ بعضِ المَسائلِ المُتعلِّقَةِ بالصَّلاةِ، ومدحِ الطَّريقَةِ النَّقشبَنديَّةِ، والمَنعِ من سَماعِ الغِناءِ وحُضورِ مجلسِ الرَّقصِ، وما يُناسبُ ذلك.

بعد الحمد والصلوات، وتبليغ الدعوات.

ليعلم المخاديمُ الكرامُ أنَّ هذا الفقيرَ مستغرقٌ من القدم إلى الرَّأس في إحسان والدكم الماجد، حيث تعلَّمتُ درسَ ألف باء في هذا الطَّريق منه، وأخذتُ عنه سائر تهجِّي حروف هذا الطَّريق، وحصلتْ ببركة صحبته دولةُ اندراج النِّهاية في البداية، وبصدق خدمته وجدتُ السَّفرَ في الوطن، وتوجّهه الشَّريف بلَّغ هذا الفقيرَ عديم القابليَّة إلى النِّسبة النَّقشبنديَّة في مدَّة شهرين ونصف، ومنحه الحضورَ الخاصَّ بهؤلاء الأكابر، وكيف أشرح أم كيف أبيِّنُ تفصيلَ ما حصل في هذه المدَّة القليلة من التجلِّيات والظهورات والأنوار والألوان واللالونيَّة واللاكيفيَّة بتطفُّله؟

ولم يبق بتوجّهه الشَّريف دقيقةٌ من دقائق معارف التَّوحيد والاتحاد والقرب والإحاطة والسريان غيرَ منكشفةٍ لهذا الفقير، وغيرَ مطَّلعٍ هو عليها، وماذا يكون شهودُ الوحدة في الكثرة، ومشاهدةُ الكثرة في الوحدة، فإنَّهما من مقدَّمات هذه المعارف ومبادئها؟

وإجراءُ اسم هذه المعارف على اللسان في جنب نسبة النقشبنديَّة والحضور الخاص بهؤلاء الأكابر، وبيان علامة هذه الشُّهود والمشاهدة، كلُّ ذلك من قصور النَّظر، ومعاملةُ هؤلاء الأكابر عاليةٌ جداً، لا نسبةَ لها بكلِّ زرَّاقٍ ورقاصٍ، فإذا نِلْتُ مثل هذه الدَّولة العظمى من حضرة شيخنا لا يمكن لي أداءُ حقِّ شيءٍ منها ولو مسحتُ رأسي مدَّة عمري على أقدام خُدَّام عتبتكم العليّة، فماذا أعرضُ عليكم من تقصيراتي؟ وماذا أظهر لكم من انفعالاتي؟

ولكن جزى الله سبحانه عنا الخواجه حسام الدين أحمد خير الجزاء حيث كفانا المؤنةَ، وشدَّ نطاقَ الهمَّة في خدمة خدَّام العتبة العليّة، وخلَّص أمثالنا القاصرين من ذلك: (شعر)

فَلَوْ أَنَّ لِي فِي كُلِّ مَنْبَتِ شَعْرَةٍ لِسَانًا يَبُثُّ الشُّكْرَ كُنْتُ مُقَصِّرًا

وقد تشرَّفتُ بتقبيل عتبة شيخنا ثلاث مرات، وقال للفقير في المرة الأخيرة: إنَّه قد غلب الضعفُ على بدني، ورجاءُ الحياة قليلٌ، ينبغي لك الاستخبارُ عن أحوال الأطفال، وأمر بإحضاركم لديه، وكنتم وقتئذٍ في حجور المرضعات، وأمر الفقيرَ بالتوجّه إليكم، فتوجّهتُ إليكم في حضوره امتثالاً لأمره، حتى ظهر أثرُ ذلك التوجّه في الظَّاهر، ثم قال: توجّه إلى والداتهم أيضاً بالتوجّه الغائبيّ، فتوجّهت إليهنَّ أيضاً حسب الأمر، والمرجوُّ أن يكون ذلك التَّوجّهُ مثمراً للنَّتائج ببركة حضوره الشَّريف. ولا تحسبنَّ أنَّه قد وقع الذُّهولُ عن أمره الواجب الامتثال، أو طرأ التَّغافلُ عن وصيته اللَّازمة الإجراء على كلِّ حالٍ، كلا، بل أنتظرُ الإشارةَ والإذنَ، وأردت الآن أن أكتب فقراتٍ بطريق النصيحة، ينبغي استماعها بسمع العقل.

أسعدكم الله سبحانه، إنَّ أول ما افترض على العقلاء تصحيحُ العقائد بموجب آراء أهل السنة والجماعة شكر الله تعالى سعيهم، فإنَّهم هم الفرقةُ النَّاجيةُ، ولنبيِّن بعضَ المسائل الاعتقادية التي فيها نوعُ خفاءٍ.

يجب أن يعلم أن الله تعالى موجودٌ بذاته المقدسة، والأشياءُ كلُّها موجودةٌ بإيجاده تعالى، وأنَّه تعالى واحدٌ في ذاته وصفاته وأفعاله، لا شركةَ لأحدٍ معه تعالى في الحقيقة في أمرٍ من الأمور أصلاً، لا في الوجود ولا في غيره، والمناسبةُ الاسميَّةُ والمشاركةُ اللفظيَّةُ خارجةٌ عن المبحث، وصفاتُه وأفعالُه تعالى منزَّهةٌ عن المثل والكيف كذاته تعالى، لا مناسبةَ بينها وبين صفات الممكنات وأفعالها، فإنَّ صفةَ العلم مثلاً له تعالى صفةٌ قديمةٌ بسيطةٌ حقيقيَّةٌ لم يتطرَّقْ إليها تعدُّدٌ وتكثُّرٌ أصلاً ولو باعتبار تعدُّد التعلّقات؛ لأنَّ هناك انكشاف واحد بسيط انكشفتْ به المعلوماتُ الأزليَّةُ والأبديّةُ، وعلم به جميعَ الأشياء بأحوالها المتناسبة والمتضادة وكلياتها وجزئياتها مع الأوقات المخصوصة بكلِّ واحدٍ منها في آنٍ واحدٍ بسيطٍ على وجهٍ يعلم زيداً مثلاً في ذلك الآن موجوداً ومعدوماً، وجنيناً وصبياً وشاباً وشيخاً، وحياً وميتاً، وقائماً وقاعداً ومستنداً ومضطجعاً، وضاحكاً وباكياً، ومتلذِّذاً ومتألماً، وعزيزاً وذليلاً، وفي البرزخ، وفي الحشر، وفي الجنة، وفي التلذُّذات، فيكون تعدُّدُ التعلّق أيضاً مفقوداً في ذلك الموطن، فإنَّ تعدُّدَ التعلّقات يستدعي تعدُّدَ الآنات وتكثُّرَ الأزمنة، وليس ثمَّة إلا آنٌ واحدٌ بسيطٌ من الأزل إلى الأبد، لا تعدُّدَ فيه أصلاً؛ إذ لا يجري عليه تعالى زمانٌ ولا تقدُّمٌ ولا تأخُّرٌ، فإذا أثبتنا لعلمه تعالى تعلّقاً بالمعلومات؛ يكون ذلك تعلّقٌ واحدٌ، ويصير به متعلّقاً بجميع المعلومات، وذلك التعلّقُ أيضاً مجهولُ الكيفيَّة، ومنزَّهٌ عن المثال والكيف كصفة العلم.

ولندفع استبعاد هذا التَّصوير بضربِ مثلٍ، وأقول: إنَّه يجوز أن يعلم شخصٌ الكلمةَ مع أقسامها المتباينة، وأحوالها المتغايرة، واعتباراتها المتضادة في وقتٍ واحدٍ، فيعلم الكلمةَ في ذلك الوقت اسماً وفعلاً وحرفاً، وثلاثيّاً ورباعيّاً، ومعرباً ومبنياً، ومتمكناً وغيرَ متمكّنٍ، ومنصرفاً وغيرَ منصرفٍ، ومعرفةً ونكرةً، وماضياً ومستقبلاً، وأمراً ونهياً، بل يجوز أن يقول ذلك الشَّخصُ: إنِّي أرى هذه الأقسامَ والاعتباراتِ في مراتب الكلمة في وقتٍ واحدٍ بالتَّفصيل، فإذا كان جمعُ الأضداد متصوَّراً في علم الممكن؛ كيف يكون مستبعداً في علم الواجب؟ ولله المثل الأعلى.

ينبغي أن يعلم أنَّ هنا وإن كان جمع الضدَّين صورةً، ولكنَّ الضدِّيَّةَ مفقودةٌ بينها في الحقيقة، فإنَّه تعالى وإن علم زيداً موجوداً.........................

ومعدوماً في آنٍ واحدٍ، ولكنَّه تعالى عَلِمَ في ذلك الآن أنَّ وقتَ وجوده مثلاً بعد ألف سنةٍ من الهجرة، ووقتَ عدمه السَّابق قبل تلك السَّنَة المعيَّنة، ووقتَ عدمه اللاحق بعد ألف ومائة سنةٍ، فلا تضادَّ بينهما في الحقيقة؛ لتغاير الزمان، وعلى هذا القياس سائرُ الأحوال؛ فافهم.

فاتَّضح من هذا التَّحقيق: أنَّ علمَه تعالى لا يتطرَّقُ إليه شائبةُ التَّغيُّر بتعلّقه بالجزئيات المتغيِّرة، ولا تتوهَّمُ مظنَّةُ الحدوث فيه كما زعمت الفلاسفةُ، فإنَّ التَّغيُّرَ إنّما يتصوَّرُ على تقدير تعلّق علمه تعالى بواحدٍ بعد الآخر، وأما إذا تعلّق علمُه تعالى بالكلِّ في آنٍ واحدٍ؛ فلا يتصوَّرُ فيه التغيُّرُ والحدوثُ، فلا حاجةَ حينئذٍ إلى إثبات تعلّقاتٍ متعدِّدةٍ له حتى يكون التغيُّرُ والحدوثُ راجعاً إلى تلك التعلّقات، لا إلى صفة العلم كما فعله بعض المتكلّمين لدفع شبهة الفلاسفة. نعم، إذا أثبتنا تعدُّدَ التعلّقات في جانب المعلومات؛ فله مساغٌ، وكذلك كلامُه تعالى واحدٌ بسيطٌ، وهو تعالى متكلّمٌ بهذا الكلام الواحد من الأزل إلى الأبد، فإن أمراً؛ فناشٍ من هناك، وإن نهياً؛ فناشٍ أيضاً من هناك، وإنْ إعلاماً؛ فمأخوذٌ أيضاً من هناك، وإن استعلاماً؛ فمن هناك، وإن تمنِّياً؛ فمستفاداً من هناك، وإن ترجِّياً؛ فمن هناك أيضاً، وجميعُ الكتب المنزلة والصحف المرسلة ورقةٌ من ذلك الكلام البسيط، فإن توراةً؛ فهي منتسخةٌ منه، وإن إنجيلاً؛ فمن هناك أخذ صورَ الألفاظ، وإن زبوراً؛ فمن هناك مسطورٌ، وإن قرآناً؛ فمنزلٌ من هناك: (شعر)

لَـكَـلَامُ مَـوْلَانَـا الْإِلَـهِ وَاحِـدٌ ... حَقّـاً، وَلَـكِـنْ فِـي الـنُّـزُولِ تَـعَـدَّدَا

وكذلك فعلُه تعالى واحدٌ، وجميعُ المصنوعات موجودةٌ بهذا الفعل الواحد، وقولُه تعالى: ﴿وَمَآ اَمْرُنَآ اِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠] إشارةٌ إلى هذا المعنى، والإحياءُ والإماتةُ مربوطان بهذا الفعل، والإيلامُ والإنعامُ منوطان أيضاً بهذا الفعل، وكذلك الإيجادُ والإعدامُ ناشئان من هذا الفعل، فلا يثبت تعدُّدُ التعلّقات في فعله تعالى أيضاً، بل المخلوقاتُ الماضيةُ والآتيةُ موجودةٌ في أوقاتها المخصوصة بوجودها بتعلّقٍ واحدٍ، وهذا التعلّقُ أيضاً مجهولُ الكيفيَّة ومعدومُ المثليَّة كنفس فعله تعالى، فإنَّه لا سبيل إلى المنزَّه عن الكيف للمكيّف بالكيفيَّة، لا يحمل عطاياه إلا مطاياه، ولَمّا لم يطَّلع الأشعريُّ على حقيقة فعل الحق جلَّ سلطانه قال بحدوث التَّكوين، وحدوث أفعاله تعالى، ولم يَدْرِ أنَّ هذه الحادثات آثارُ فعله تعالى الأزليّ، لا نفسُ أفعاله، ومن هذا القبيل ما أثبته بعضُ الصوفيَّة من تجلِّي الأفعال، حيث لم يَرَ في ذلك الموطن في مرآة أفعال الممكنات غيرَ فعل الفاعل الحقيقيّ جلَّ سلطانُه، وذلك التجلِّي في الحقيقة تجلِّي آثار فعل الحقّ سبحانه، لا تجلِّي فعله تعالى، فإنَّ فعلَه تعالى الذي هو منزَّهٌ عن المثال والكيف وقديمٌ وقائمٌ بذاته تعالى ويقال له: التَّكوينُ لا تسعه مرايا المحدثات، ولا ظهورَ له في مظاهر الممكنات: (شعر)

در تنگناي صورت معنى چگونه گنجد ... در كلـهٔ گدايان، سلطان چه كـار دارد

وتجلِّي الأفعال والصِّفات بدون تجلِّي الذَّات غيرُ متصوَّرٍ عند الفقير، فإنَّه لا انفكاكَ للأفعال والصِّفات عن حضرة الذات أصلاً حتى يتصوَّرَ تجلِّيها بدون تجلِّي الذات، وما هو منفكٌّ عن الذات تعالت وتقدست ظلالُ الأفعال والصِّفات، فيكون تجلِّي ذلك المنفكِّ تجلِّي ظلال الأفعال والصِّفات، لا تجلِّي الأفعال والصِّفات، ولكن لا يدرك فهمُ كلِّ أحدٍ هذا الكمالَ، ﴿ذٰلِكَ......................................

https://t.me/kutubumutfaatun

فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَآءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]. ولنرجع إلى أصل الكلام، ونقول: إنَّه تعالى لا يحلُّ في شيءٍ، ولا يحلُّ فيه شيءٌ، ولكنَّه تعالى محيطٌ بالأشياء، وله سبحانه قربٌ منها، ومعيَّةٌ بها، وليست تلك الإحاطةُ والقربُ والمعيّةُ التي ندركها بأفهامنا القاصرة، فإنَّها لا تليق بجناب قدسه تعالى، وكلُّ شيء يدرَكُ بالكشف والشُّهود؛ فهو تعالى منزَّهٌ عن ذلك أيضاً، فإنَّه لا نصيبَ للممكن من حقيقة ذاته وصفاته وأفعاله تعالى غير الجهل والحيرة، ينبغي الإيمان بالغيب، ونفيُ ما يكون منكشفاً ومشهوداً بكلمة (لا): (شعر)

هَيْهَاتَ عَنْقَاءُ أَنْ يَصْطَادَهُ أَحَدٌ ... فَدَعْ عَنَاكَ وَكُنْ مِنْ ذَاكَ فِي دَعَةِ

وبيت مثنوي حضرة شيخنا مناسبٌ لهذا المقام حيث قال: (شعر)

وَذَا إِيوَانُ الِاسْتِغْنَاءِ عَالِ ... فَإِيَّاكُمْ وَطَمَعاً فِي الْوِصَالِ

فنؤمن بأنَّه تعالى محيطٌ بالأشياء، وقريبٌ منها، وأنَّه معها، ولكن لا نعرف معنى إحاطته وقربه ومعيَّته أنَّه ما هو، والقولُ بالإحاطة والمعيَّة العلميين من تأويلات المتشابه، ونحن لسنا بقائلين بتأويله. وإنَّه تعالى لا يتَّحد بشيءٍ أصلاً، ولا يتَّحدُ به شيءٌ أصلاً. وما يفهم من عبارات بعض الصوفيَّة من معنى الاتحاد؛ فهو خلافُ مرادهم؛ لأنَّ مرادَهم بهذا الكلام الموهم للاتحاد - أعني: قولهم: إذا تمَّ الفقرُ فهو الله -: هو أنَّ الفقرَ إذا تمَّ وحصل الاضمحلالُ الصرفُ والطمسُ المحضُ؛ لا يبقى إلا اللهُ سبحانه وتعالى، لا أنَّ ذلك الفقيرَ يتَّحدُ بالله، ويصيرُ إلهاً، فإنَّه كفرٌ وزندقةٌ، تعالى الله سبحانه عما يتوهم الظالمون علواً كبيراً.

قال حضرة شيخنا قدس سره: ليس معنى عبارة: أنا الحقُّ بأنِّي حقٌّ، بل معناه: أنا معدومٌ، والموجودُ هو الحقُّ سبحانه، ولا سبيل للتغيُّر والتبدُّل إلى ذاته وصفاته وأفعاله تعالى، فسبحان من لا يتغيَّر بذاته ولا بصفاته ولا بأفعاله بحدوث الأكوان. وما أثبته الصوفيَّةُ الوجوديّةُ من التنزُّلات الخمسة؛ فليست هي من قبيل التبدُّل والتغيُّر في مرتبة الوجوب، فإنَّ القولَ به وإثباتَه كفرٌ وضلالةٌ، بل اعتبروا هذه التنزُّلات في مراتب ظهورات كماله تعالى من غير أن يتطرَّق إلى ذاته وصفاته وأفعاله تعالى تغيُّرٌ وتبدُّلٌ، وأنَّه تعالى غنيٌّ مطلقٌ لا يحتاج إلى شيءٍ أصلاً، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله في أمرٍ من الأمور، فكما أنَّه تعالى غيرُ محتاجٍ في الوجود؛ كذلك هو غيرُ محتاجٍ في الظُّهور. وما يفهم من عبارات بعض الصوفيَّة من أنَّه تعالى محتاجٌ[1] إلينا في ظهور كمالاته الأسمائيَّة والصِّفاتيَّة هذا الكلام ثقيلٌ على الفقير جدّاً، واعتقادي أنَّ المقصودَ من خلق الخلائق وإيجاد الموجودات حصولُ الكمالات لهم، لا حصولُ كمالٍ عائدٍ إلى جناب قدسه تعالى وتقدس، وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] أي: ليعرفون مؤيِّدٌ لهذا المعنى، فالمقصودُ من خلق الجنّ والإنس: حصولُ المعرفة لهم التي هي كمالهم، لا أمرٌ يكون عائداً إلى جناب قدس الحق سبحانه، وما ورد في الحديث القدسي من قوله ﷺ: «**فَخَلَقْتُ الْخَلْقَ لِأُعْرَفَ**»[2]؛ فالمرادُ هنا أيضاً: معرفَتُهم، لا أنَّه يكون الحقُّ سبحانه معروفاً، ويحصل له الكمالُ بمعرفتهم إياه، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً. وأنَّه تعالى منزَّهٌ ومبرَّأٌ عن جميع صفات النقص وسمات الحدوث، ليس بجسمٍ ولا جسمانيٍّ، ولا مكانيٍّ، ولا زمانيٍّ، وله تعالى جميع صفات الكمال، ثمانيةٌ منها وجودُها زائدٌ على وجود الذات تعالت وتقدست، وهي الحياةُ والعلمُ والقدرةُ...

(١) قال في «اليواقيت والجواهر»: ذكر الشيخُ في الباب التاسع والعشرين والمائتين من «الفتوحات»: أنَّه لا يجوز أن يقال: إنَّ الحقَّ تعالى مفتقرٌ في ظهور أسمائه وصفاته إلى وجود العالم؛ لأنَّ له الغنى على الإطلاق. قلت: وهذا ردٌّ صريحٌ على من نسب إلى الشيخ أنَّه يقول: إنَّ الحقَّ تعالى مفتقرٌ في ظهور حضرات أسمائه وصفاته إلى خلقه، ولولا خلقُه ما ظهر ولا عرفه أحدٌ. انتهى. نعم يفهم ما قاله الإمام الربانيُّ من «اللمعات»، ويجيب عنه مولانا الجامي في «شرحه» بنقلٍ من «الفصوص». فليراجع. (المعرِّب)

(٢) قال الملا علي القاري رحمه الله: معناه صحيح مستفادٌ من قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: ليعرفون كما قال ابن عباس رضي الله عنهما. أفاده المعرب رحمه الله تعالى.

والإرادةُ والبصرُ والسمعُ والكلامُ والتَّكوينُ، وهذه الصِّفاتُ الثمان موجودةٌ في الخارج، لا أنَّها موجودةٌ في العلم بوجودٍ زائدٍ على وجود الذات، وفي الخارج عينُها كما ظنَّه بعض الصوفيَّة، وقال: (شعر)

وَصِـفَـاتُ حَقٍّ فِي التَّعَقُّلِ غَيْرُ ذَا ... تِ الْحَقِّ لَكِنْ فِي التَّحَقُّقِ عَيْنُهَا

فإنَّ هذا في الحقيقة نفيُ الصِّفات، فإنَّ نفاةَ الصِّفات - مثل المعتزلة والفلاسفة أيضاً - قائلون بالتغاير العلميّ والاتحاد الخارجيّ، ولم ينكروا التَّغايرَ العلميَّ، ولم يقولوا: إنَّ مفهومَ العلم عينُ مفهوم الذات، أو عينُ مفهوم القدرة والإرادة، بل قالوا بالعينيَّة باعتبار الوجود الخارجيّ، فما لم يعتبروا تغايرَ الوجود الخارجيّ لا يخرجون من زمرة نفاة الصِّفات، والقولُ بالتَّغاير الاعتباريّ - أعني: بحسب المفهوم والتعقُّل - لا يجديهم نفعاً كما عرفتَ.

وأنَّه تعالى قديمٌ أزليٌّ ليس لغيره تعالى قدمٌ ولا أزليَّةٌ، أجمع جميعُ المليين على هذا الحكم، فمن قال بِقِدَم غير الحق سبحانه وأزليَّته؛ فقد كفرَ، ومن هذه الحيثيَّة كفَّر الإمامُ الغزاليُّ رحمه الله ابنَ سينا والفارابيَّ وغيرهما، فإنَّهم قائلون بقدم العقول والنفوس، وقِدَم الهيولى والصورة، وقال أيضاً بقدم السّموات بما فيها.

وقال حضرة شيخنا قدس سره: إنَّ الشَّيخَ محيي الدين ابن العربي قائلٌ بِقِدَم أرواح الكمَّل، فينبغي صرفُ هذا الكلام عن ظاهره، وأن يجعله محمولاً على التأويل؛ لئلا يكون مخالفاً لإجماع أهل الملل. وأنَّه تعالى قادرٌ مختارٌ منزَّهٌ عن شائبة الإيجاب، ومبرَّأٌ عن مظنَّة الاضطرار، والفلاسفةُ الحمقاءُ نفوا الاختيارَ من الواجب تعالى، وأثبتوا الإيجابَ له سبحانه زعماً منهم أنَّ الكمالَ في الإيجاب، وهؤلاء السفهاءُ قد جعلوا الواجب تعالى معطَّلاً ومهملاً، ولم يقولوا بصدور غير مصنوعٍ واحدٍ عن خالق السّموات والأرض، وهو أيضاً صادرٌ عندهم بالإيجاب، ونسبوا وجودَ المحدثات إلى العقل الفعَّال الذي لم يثبتْ وجودُه في غير توهُّمهم، ولا شغلَ لهم ولا تعلّقَ بالحقِّ سبحانه وتعالى في زعمهم الفاسد أصلاً، فيلزمهم بالضَّرورة أن يلتجئوا وقت الاضطرار إلى العقل الفعَّال، وأن لا يرجعوا إلى الحقّ سبحانه وتعالى أصلاً، فإنَّه لا مدخلَ له تعالى في وجود الحوادث على زعمهم، بل القائمُ بإيجاد الحوادث هو العقلُ الفعَّالُ، بل ينبغي أن لا يرجعوا إلى العقل الفعال أيضاً؛ لأنَّه لا اختيار له أيضاً في دفع بليَّاتهم بزعمهم، وهؤلاء الأشقياءُ أسبقُ قدماً في الخبط والبلاهة من جميع الفرق الضالَّة، فإنَّ الكفارَ يلتجئون إلى الله تعالى، ويطلبون منه دفع البليَّة، بخلاف هؤلاء السفهاء، وفيهم شيئان زائدان على ما في فرق الضالة أرباب البلاهة:

أحدهما: كفرُهم بالأحكام المنزلة، وإنكارُهم عليها، ومعاندتُهم ومعاداتُهم للأخبار المرسلة.

وثانيهما: ترتيبُ المقدَّمات الفاسدة، وتلبيسُ الدَّلائل والشَّواهد الباطلة في إثبات مقاصدهم ومطالبهم الواهية.

والخبطُ الذي صدر عنهم في إثبات مقاصدهم لم يصدر من سفيهٍ أصلاً، حيث جعلوا مدارَ الأمر على حركات السّموات والكواكب وأوضاعها مع أنَّها متحيِّراتٌ ومضطرباتٌ في جميع الأوقات، وغمضوا عيونهم عن خالق السّموات وموجد الكواكب ومحرِّكها ومدبِّر أمورهم، واستبعدوا إسنادَ الحوادث إليه تعالى بالذات، وأبوا عنه، ما أبعدهم عن العقل، ما أخذلهم، وما أحرمهم من السَّعادة. وأشدُّ منهم سفهاً وأكثرُ حماقةً من يزعمهم أذكياءَ وأربابَ فطانةٍ، ومن علومهم المنتظمة علمُ الهندسة، وهو لا يغني شيئاً، ولا طائلَ فيه أصلاً، في أيِّ شيءٍ يلزمُ؟ وماذا يفيد مساواةُ الزوايا..........

الثلاث القائمة من الشكل المثلث؟ وأيُّ غرضٍ مربوطٌ بالشكل العروسي والشكل المأمونيّ اللذين هما بمثابة أرواحهم؟ وعلمُ الطب وعلمُ النُّجوم وعلمُ تهذيب الأخلاق التي هي أشرفُ علومهم كلٌّ منها مسروقٌ من كتب الأنبياء المتقدمين على نبينا وعليهم الصلاة والسلام، وجوابُها أباطيلهم كما صرَّح به الإمام الغزاليُّ في «المنقذ عن الضلال»، ولا ضرر أنَّ غلطَ أهل الملَّة وأتباع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الدَّلائل والبراهين؛ لأنَّ مدارَ أمرهم على متابعة الأنبياء عليهم السلام، وإنَّما يُورِدُون البراهينَ والدلائلَ في إثبات مطالبهم العالية على سبيل التبرُّع، وإلا؛ يكفيهم تقليدُهم إيَّاهم، وهؤلاء الأشقياءُ أخرجوا رقابهم عن ربقة التَّقليد وصاروا في صدد الإثبات بالدَّلائل، فضلُّوا وأضلُّوا، ولَمّا وصلتْ دعوةُ عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام إلى أفلاطون وكان هو أكبر هؤلاء الخذلة قال: نحن قوم مهديون، لا حاجةَ بنا إلى من يهدينا، ما أسفهه وما أشقاه حيث أدرك شخصاً يحيي الأموات، ويبرئ الأكمهَ والأبرصَ، كلُّ ذلك خارجٌ عن طَوْر حكمتهم، ومع ذلك أجابه بهذا الجواب من غير رؤيته، وتفطُّن أحواله، وملاحظة سيرته، وذلك من كمال العناد والسفاهة:

(شعر)

الْـفَـلْسَــفَـةُ سَـفَـهٌ أَكْـثَـرُهَـا وَكَـذَا مَـجْـمُـوعُـهَـا إِذْ لِـكُـلِّ حُـكْـمٍ أَكْـثَـرُهْ

نجانا الله سبحانه عن ظلمات معتقداتهم السوء. وقد أتمَّ ولدي محمد معصوم مبحثَ الجواهر من «شرح المواقف» في هذه الأيَّام، واتَّضح قبائح هؤلاء السفهاء في أثناء درسه، وترتَّب على ذلك فوائدُ، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدٰىنَا لِهٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ اَنْ هَدٰىنَا اللّٰهُۚ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣]. وعباراتُ الشَّيخ محيي الدين ابن العربي قدس سره أيضاً ناظرةٌ إلى الإيجاب، وله موافقةٌ للفلاسفة في معنى القدرة، حيث لا يجوِّزُ صحَّةَ التَّرك للقادر المختار، بل يعتقد لزومَ جانب الفعل، والعجبُ أنَّ الشَّيخ يرى في النَّظر - يعني: نظر الكشف - من المقبولين، وأكثرُ علومه التي تخالف آراء أهل الحق تظهر خطأً غيرَ صوابٍ، ولعلَّه كان معذوراً في الخطأ الكشفيِّ، وارتفعت عنه الملامةُ عليه مثل الخطأ الاجتهاديِّ، وهذا اعتقادٌ خاصٌّ بالفقير في حقّ الشَّيخ أعتقدُه من المقبولين، وأرى علومَه المخالفةَ خطأً ومضرَّةً. وقومٌ من هذه الطَّائفة يطعنون في الشَّيخ، ويخطِّئونه في جميع علومه، وجماعةٌ أخرى من هذه الطَّائفة يختارون تقليدَ الشَّيخ، ويعتقدون أنَّه مصيبٌ في جميع علومه، ويثبتون حقيتها بالدَّلائل والشَّواهد. ولا شَكَّ أنَّ كِلَا هذين الفريقين اختاروا جانب التَّفريط والإفراط في حقِّه، وفارقوا توسُّط الأحوال، وبَعُدوا عنه، وكيف يرد الشَّيخ الذي هو من الأولياء المقبولين بسبب الخطأ الكشفيّ؟ وكيف تقبلُ علومُه البعيدةُ عن الصَّواب المخالفة لآراء أهل الحقّ بمحض التَّقليد؟ فالحقُّ هو التوسُّطُ الذي وفَّقني الله سبحانه له بمنه وكرمه. نعم، إنَّ الجمَّ الغفيرَ من هذه الطَّائفة مشاركون للشَّيخ في مسألة وحدة الوجود، وإن كان للشَّيخ في هذه المسألة طرز خاص أيضاً، ولكنَّهم يشاركونه في أصل الكلام، وهذه المسألةُ وإن كانت أيضاً مخالفةً لمعتقدات أهل الحقّ، ولكنَّها قابلةٌ للتَّوجيه، وصالحةٌ للجمع بها، وقد طبَّق هذا الفقيرُ بعناية الله تعالى في «شرح رباعيات حضرة شيخنا» هذه المسألةَ على معتقدات أهل الحقّ، وجمع بينهما، وأعاد نزاعَ الفريقين إلى اللَّفظ، وحلَّ شكوك الطَّرفين وشبهاتهما على نهجٍ لم يَبْقَ فيها محلُّ ريبٍ واشتباهٍ أصلاً كما لا يخفى على النَّاظر فيه.

ينبغي أن يعلم أنَّ الممكنات بأسرها،..

جواهرها وأعراضها وأجسامها، وعقولها ونفوسها، وأفلاكها وعناصرها مستندةٌ إلى إيجاد القادر المختار الذي أخرجها من كتم العدم إلى عَرَصة الوجود، وكما أنَّها محتاجةٌ إليه تعالى في الوجود؛ كذلك هي محتاجةٌ إليه سبحانه في البقاء أيضاً، وإنَّما جعل الله سبحانه وجودَ الأسباب والوسائط نقاباً لوجه فعله، وجعل الحكمةَ قِبَاباً لقدرته، لا بل جعل الأسبابَ دلائلَ لثبوت فعله، والحكمةَ وسيلةً إلى وجود قدرته، فإنَّ أربابَ الفطانة الذين بصائرُهم مكتحلةٌ بكُحْل متابعة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يعلمون أنَّ الأسبابَ والوسائلَ التي هي محتاجةٌ في الوجود إليه تعالى ولها ثبوتٌ وقيامٌ منه ومعه تعالى وتقدس في الحقيقة جماداتٌ محضةٌ، كيف تؤثِّرُ في شيءٍ آخر مثلَها وتحدثُه وتخترعُه؟ بل وراء تلك الأسباب قادرٌ يوجد ذلك الشيءَ، ويعطيه الكمالاتِ اللائقةَ به، ألا ترى أنَّ العقلاءَ إذا رأوا فعلاً من جمادٍ محضٍ مثلاً ينتقل منه ذهنُهم إلى فاعله ومحرِّكه؟ لأنَّهم يعلمون يقيناً أنَّ هذا الفعل ليس في حوصلة حاله، بل وراءه فاعلٌ موجدٌ لهذا الفعل، فلم يكن فعلُ الجماد عند العقلاء نقاباً لوجه فعل الفاعل الحقيقيّ، بل كان ذلك الفعلُ نظراً إلى جماديَّة مصدره دليلاً على وجود الفاعل الحقيقيّ، فكذا هذا.

نعم، إنَّ فعلَ الجماد نقابٌ لوجه فعل الفاعل الحقيقيّ في نظر الأبله، حيث يزعم الجمادَ المحضَ - من كمال غباوته بواسطة صدور ذلك الفعل عنه - صاحبَ قدرةٍ، ويكفر بالفاعل الحقيقيّ، ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًاۚ﴾ [البقرة: ٢٦]، وهذه المعرفةُ مقتبسةٌ من مشكاة النبوَّة، لا يدرِكُها فهمُ كلِّ أحدٍ، ولهذا ترى طائفةً يعتقدون الكمالَ في رفع الأسباب ودفعها، وينسبون الأشياءَ إلى الحقِّ سبحانه ابتداءً من غير توسُّط الأسباب، ولا يدرون أنَّ رفعَ الأسباب رفعُ الحكمة التي في ضمنها مصالحُ لا تحصى، ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا﴾ [آل عمران: ١٩١]، كيف والأنبياءُ عليهم الصلاة والسلام كانوا يراعون الأسباب، ومع تلك المراعاة كانوا يفوِّضون أمورهم إلى الحق سبحانه وتعالى، كما قال يعقوب على نبينا وعليه الصلاة والسلام وصيةً لبنيه ملاحظاً لإصابة العين: ﴿يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍۖ﴾ [يوسف: ٦٧] الآية، ومع وجود هذه المراعاة قال تفويضاً أمره إلى الله تعالى: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَىْءٍۖ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧]، واستصوب سبحانه هذه المعرفةَ منه واستحسنها، ونسبها إلى نفسه، حيث قال بعد ذلك: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ [يوسف: ٦٨] الآية، وأشار الحقُّ سبحانه في القرآن المجيد فيما خاطب به نبينا ﷺ إلى توسُّط الأسباب، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّبِىُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(١) [الأنفال: ٦٤].

بقي الكلامُ في تأثير الأسباب، ويجوز أن يخلق اللهُ سبحانه في بعض الأوقات تأثيراً في الأسباب، فتكون مؤثِّرةً، ويجوز أن لا يخلق التَّأثيرَ فيها في بعض الأوقات، فلا يترتَّبُ عليها أثرٌ أصلاً بالضَّرورة، كما أنَّا نشاهدُ هذا المعنى، فإنَّ بعضَ الأسباب يترتَّبُ عليها وجودُ المسبَّبات أحياناً، وفي بعض الأوقات لا يظهر منها أثرٌ ما أصلاً، فالإنكارُ على تأثير الأسباب مطلقاً مكابرةٌ، ينبغي أن يقول بالتَّأثير، وينبغي أن يعتقد أن وجود ذلك التَّأثير كوجود نفس السَّبب بإيجاد الله سبحانه. هذا هو رأيُ الفقير في هذه المسألة، والله سبحانه أعلم.

فلاح من هذا البيان أنَّ التمسُّكَ بالأسباب ليس بمنافٍ للتوكُّل كما ظنَّ النَّاقصون، بل في التمسُّك بالأسباب كمالُ التَّوكل، فإنَّ يعقوب عليه السلام أطلق التوكُّلَ على مراعاة الأسباب مع تفويض الأمر إلى الحقّ جل وعلا، حيث قال: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧].

وأنَّه تعالى........................

---

(١) وهذا على تقدير كون الموصول مرفوعاً معطوفاً على لفظ الجلالة. (المعرِّب)

مريدُ الخير والشرّ، وخالقُ كلِّ منهما، ولكنّه راضٍ بالخير، وغيرُ راضٍ بالشرِّ، وبين الرضا والإرادة فرقٌ دقيقٌ، هدى الله سبحانه أهل السنَّة إلى هذا الفرق، وبقي سائرُ الفرق في الضَّلالة؛ لعدم اهتدائهم إلى هذا الفرق، ومن ههنا قالت المعتزلةُ: إنَّ العبدَ خالقٌ لأفعاله، ونسبوا إيجادَ الكفر والمعاصي إليه. ويفهم من كلام الشَّيخ محيي الدين وأتباعه: أنَّ الإيمانَ مرضيُّ الاسم (الهادي)، وكذا الأعمالُ الصَّالحةُ، والكفر مرضيُّ الاسم (المضلُّ)، وكذا المعاصي وهذا الكلامُ أيضاً مخالفٌ لِمَا عليه أهل الحقّ، وفيه ميلٌ إلى الإيجاب لكونه منشأً للرضا، كما يقال: الإشراقُ مرضيُّ الشمس، يعني: لازمها. وقد أعطى الحقُّ سبحانه عباده قدرةً وإرادةً يكتسبون بهما الأفعالَ باختيارهم، فخلقُ الأفعال منسوبٌ إلى الله سبحانه، وكسبُها إلى العباد، وعادةُ الله سبحانه جاريةٌ على أنَّ العبدَ إذا قصد فعلَ شيءٍ من أفعاله، وتشبَّثَ بأسبابه؛ يتعلَّقُ بذلك الفعل خلقُه سبحانه وتعالى، فإذا كان صدورُ الفعل من العبد بقصده واختياره يكون متعلَّقَ المدح والذمِّ والثَّواب والعقاب بالضَّرورة. وما قيل: إنَّ اختيارَ العبد ضعيفٌ، فإن كان المرادُ به: أنَّه ضعيفٌ بالنِّسبة إلى إرادة الله تعالى؛ فمسلَّمٌ، وإن كان: أنَّه غيرُ كافٍ في أداء الفعل المأمور به؛ فغيرُ صحيحٍ، فإنَّ الله سبحانه لا يكلِّفُ العبد بما ليس في وسعه، بل يريد اليسرَ ولا يريد العسرَ.

غَايةُ ما فِي البابِ: إنَّ حكمةَ الجزاء المخلَّد على الفعل المؤقَّت مفوَّضةٌ إلى تقدير الحق وعلمه تعالى، وقد قال في حقِّ الجزاء المخلد على الكفر المؤقت: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦]، وجعل التلذُّذات الدَّائمةَ مسبَّبةً من الإيمان المؤقت، ومترتِّبةً عليه، ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦]، ولكن نعرف بتوفيق الله سبحانه أنَّ اختيارَ الكفر بالنِّسبة إلى الحقِّ سبحانه وتعالى الذي هو مولى النعم الظَّاهرة والباطنة وموجد السّموات والأرض وما من عظمةٍ وكمالٍ إلا هو ثابتٌ له تعالى؛ يقتضي أن يكون جزاءَ ذلك الكفر من أشدّ العقوبات، وهو الخلودُ في عذاب النَّار، وكذلك الإيمانُ بالغيب بمثل هذا المنعم العظيم الشَّأن، وتصديقِه مع وجود مزاحمة النَّفس والشَّيطان، وممانعة سائر الأكوان؛ يستدعي أن يكون جزاؤه من أفضل الجزاء، وهو الخلودُ في التنعُّمات والتلذُّذات في الجنان.

قال بعضُ المشائخ: إنَّ دخولَ الجنَّة مربوطٌ في الحقيقة بفضل الحقّ سبحانه، وإنَّما جعل منوطاً بالإيمان بناءً على أنَّ كلَّما يكون جزاءَ الأعمال؛ يكون ألذَّ، وعند الفقير إنَّ دخولَ الجنَّة في الحقيقة مربوطٌ بالإيمان، ولكنَّ الإيمان فضلٌ من المنان، وعطيَّةٌ من ذي الجود والإحسان، ودخولُ النار مربوطٌ بالكفر، والكفرُ ناشٍ من هوى النَّفس والطغيان، ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

ينبغي أن يعلم أنَّ جعل دخول الجنَّة مربوطاً بالإيمان في الحقيقة تعظيمُ الإيمان، بل تعظيمُ المؤمن به، حيث ترتَّبَ عليه مثلُ هذا الأجر العظيم القدر، وكذلك جَعْلُ دخول النار مربوطاً بالكفر تحقيرٌ للكفر، وتنقيصٌ لمن وقع هذا الكفرُ بالنِّسبة إليه، فترتَّبَ مثلُ هذه العقوبة الدَّائمة عليه، بخلاف ما قال به بعضُ المشائخ، فإنَّه خالٍ عن هذه الدَّقيقة، وأيضاً إنَّ هذا الوجهَ لا يتمشَّى في دخول النار الذي هو عديلُه، فإنَّ دخولَ النار في الحقيقة مربوطٌ بالكفر، والله سبحانه الملهم للصواب.

هذا، ويرى المؤمنون الحقَّ سبحانه في الآخرة في الجنَّة من غير جهةٍ، ولا كيفٍ، ولا شبهٍ، ولا مثالٍ، وأنكر على ذلك جميعُ الفرق - مليِّهم وغيرُ مليهم - خلا أهل السُّنَّة، فإنَّهم لا يجوِّزون الرؤية بلا جهةٍ ولا كيفٍ، حتى إنَّ..............

نسخَ الشَّيخ محيي الدين ابن العربي تنزُّل الرؤية الأخرويَّة إلى التجلِّي الصوريّ، ولا يجوِّزُ غيرَ التجلِّي. نقل حضرةُ شيخنا يوماً عن الشَّيخ أنَّه قال: إنَّ المعتزلة لو لم يقيدوا الرُّؤيةَ بمرتبة التَّنزيه، وقالوا بالتشبيه أيضـاً، وتصوَّروا الرؤيةَ عينَ هذا التجلِّي؛ لما أنكروا الرؤيةَ أصلاً، ولَمَا استحالوها، يعني: أنَّ إنكارَهم عليها إنّما هو من حيثيَّة كونها بلا جهةٍ ولا كيفٍ مما هو مخصوصٌ بمرتبة التنزيه، بخلاف هذا التجلِّي، فإنَّ الجهةَ والكيفَ ملحوظان فيه لا يخفى أنَّ تنزيلَ الرؤية الأخرويَّة إلى التجلِّي الصوريّ إنكارٌ عليها في الحقيقة، فإنَّ ذلك التجلِّي الصوريّ - وإن كان مغايراً للتجلِّيات الصوريَّة الدنيويَّة - ليس هو رؤيةَ الحقّ تعالى، نظم:

يَـرَاهُ الْـمُـؤْمِـنُـونَ بِـغَـيْـرِ كَـيْـفٍ ... وَإِدْرَاكٍ وَضَـــرْبٍ مِـنْ مِـثَـالِ

وبعثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام رحمةٌ للعالمين، فلو لم تكن وساطةُ هؤلاء الكبراء من كان يدلُّنا على معرفة ذات واجب الوجود وصفاته؟ ومن كان يميِّزُ لنا مرضيات مولانا جلّ شأنه عن غير مرضياته؟ فإنَّ عقولنا النَّاقصةَ بمعزلٍ عن هذا المعنى بدون تأييدِ نور دعوتهم، وأفهامنا القاصرةُ مخبولةٌ في هذه المعاملة من غير تقليد هؤلاء الأكابر.

نعم، إنَّ العقلَ وإن كان حجَّةً، ولكنَّه غيرُ تامٍّ في الحجيَّة، وغيرُ بالغٍ مرتبة البلوغ، والحجَّةُ البالغةُ إنّما هي بعثةُ الأنبياء عليهم السلام، والعذابُ والثوابُ الأخرويان منوطان بها.

فإن قيل: إذا كان العذابُ الدَّائميُّ الأخرويُّ منوطًا بالبعثة، فبأيِّ معنى تكون البعثةُ رحمةً للعالمين؟

أجيب: أنَّ البعثةَ عينُ الرَّحمة؛ لأنَّها سببٌ لمعرفة ذات واجب الوجود وصفاته تعالى وتقدس، وهي متضمِّنةٌ لسعادةٍ دنيويةٍ وأخرويَّةٍ، وبدولة البعثة امتاز ما هو اللَّائقُ بجناب قدسه تعالى عما هو غيرُ لائقٍ به، فإنَّ عقولنا العرجى العُمْيَ التي هي متَّسمةٌ بسمة الإمكان والحدوث كيف تعرف وكيف تدركُ ما هو مناسبٌ لحضرة الوجوب الذي من لوازمه القِدَم من الأسماء والصِّفات وما لا يناسبه منها حتى يطلق عليه ذاك ويجتنب من هذا؟ بل هو كثيراً ما يزعم من نقصه الكمالَ نقصاناً، والنقصَ كمالاً، وهذا التَّمييزُ عند الفقير فوق جميع النِّعم الظَّاهرة والباطنة، وأشدُّ المحرومين من السعادة: من ينسب إلى جناب قدسه تعالى أموراً غيرَ مناسبةٍ وأشياءَ غير لائقةٍ به تعالى، والذي ميَّز الحقَّ عن الباطل هو البعثةُ، والذي فرَّق بين المستحقِّ للعبادة وبين غير المستحقِّ لها هو البعثةُ، وبواسطتها يدعى العباد إلى طريق الحقّ جل وعلا، وبها يصلون إلى سعادة قرب المولى ووصله جلّ سلطانه، وبسبب البعثة يتيسّر الاطلاعُ على مرضيات المولى جل شأنه كما مرّ، وبها يتميَّزُ جوازُ التَّصرُّف في ملكه تعالى عن عدم جوازه، وأمثالُ هذه الفوائد في البعثة كثيرةٌ. فتقرَّر أنَّ البعثةَ رحمةٌ، ومن كان منقاداً للنفس، وأنكر البعثةَ تبعـاً لحكم الشيطان اللعين، ولم يعمل بمقتضى حكم البعثة؛ فما ذنب البعثة فيه؟ وكيف لا تكون البعثة رحمةً بسبب خذلانه؟

فإن قيل: سلَّمنا أنَّ العقلَ ناقصٌ غيرُ تامٍّ في حدِّ ذاته في حق معرفة الأحكام الإلهيّة جل شأنه، ولكن لم لا يجوز أن يحصل للعقل بعد حصول التَّصفية والتَّزكية له مناسبةٌ واتِّصالٌ بلا كيفٍ بمرتبة الوجوب تعالت وتقدست، فيأخذ الأحكامَ هناك بتلك المناسبة والاتِّصال، فلا يحتاج حينئذٍ إلى البعثة التي هي بواسطة الملك؟

أجيب: إنَّ العقلَ وإن حصل له تلك المناسبةُ والاتِّصالُ، ولكن لا يزول عنه التعلّقُ بهذا.........

الجسم الهيولانيّ بالكليَّة، ولا يحصل له التجرُّدُ التامُّ، فتكون القوَّةُ الوهميَّةُ في عقبه دائماً، ولا تترك القوَّةُ المتخيّلةُ ذيلَ خياله أصلاً، وتكون القوَّةُ الغضبيَّةُ والشهويَّةُ مصاحبتين له في جميع الأزمان، وتكون رذيلةُ الحرص والشَّره نديميه في كلِّ أوانٍ، ولا ينفكُّ عنه السَّهوُ والنِّسيانُ اللَّذان هما من لوازم نوع الإنسان دائماً، ولا يفارقُه الخطأُ والغلطُ اللَّذان هما من خواصّ هذه النَّشأة أبداً، فلا يكون العقلُ إذاً حقيقاً وحَريّاً بالاعتماد، ولا تكون الأحكامُ المأخوذةُ بواسطته مصونةً من سلطان الوهم وتصرُّف الخيال، ولا محفوظةً من شائبة الخطأ ومظنَّة النسيان، بخلاف الملك، فإنَّه منزَّهٌ عن هذه الأوصاف، مبرَّأٌ عن هذه الرذائل، فيكون مستحقّاً للاعتماد، وتكون الأحكامُ المتلقاةُ منه مصونةً من شائبة الوهم والخيال، ومظنَّةِ الخطأ والنسيان، وقد يحسُّ في بعض الأوقات أنَّ الأحكامَ المأخوذةَ بلقاء الروحانيين والمعارف المتلقاة منهم ينضمُّ إليها في أثناء تبليغها بالقوى والحواسّ بعض المقدَّمات المسلَّمة غير الصَّادقة الحاصلة من طريق الوهم والخيال أو غيرهما بلا اختيارٍ بحيث لا يمكن تمييزُها في ذلك الوقت عن تلك الأحكام، وربَّما يحصل ذلك التَّمييزُ في وقتٍ آخر، وربما لا يحصل، فلا جرم يعرضُ لهذه العلوم بواسطة مخالطة تلك المقدَّمات هيئةُ الكذب، فتخرج به عن أن تكون معتمداً عليها. أو نقول: إنَّ حصولَ التَّزكية والتَّصفية منوطٌ بإتيان الأعمال الصَّالحة التي هي مرضيَّاتُ الحقّ سبحانه وتعالى، ومعرفةُ ذلك موقوفةٌ على البعثة كما مرَّ، فلا يتيسّر حصولُ حقيقة التَّصفية والتَّزكية بدون البعثة.

والصَّفاءُ الحاصلُ للكفار والفساق هو صفاءُ النَّفس، لا صفاءُ القلب، وصفاءُ النَّفس لا يزيد شيئاً غيرَ الضَّلالة، ولا يورث شيئاً غيرَ الخسارة، وكشفُ بعض الأمور الغيبيّة الذي يحصل للكفار والفساق وقت صفاء نفوسهم استدراجٌ في حقّهم يقصد به هلاكهم وخسارتهم، نجانا الله سبحانه من هذه البلية، بحرمة سيد المرسلين عليه وعليهم الصلاة والسلام.

واتَّضح من هذا التَّحقيق: أنَّ التَّكاليفَ الشَّرعيّةَ الثابتةَ من طريق البعثة أيضاً رحمةٌ، لا كما زعمه المنكرون عليها من الملاحدة والزنادقة من اعتقادها كلفةً وغيرَ معقولةٍ، حتى قالوا: أيُّ شفقةٍ في تكليف العباد بأمورٍ شاقَّةٍ؟ ثم يقال لهم: مَنْ عمل بمقتضى هذا التكليف يدخل الجنَّة، ومن ارتكب خلافه يدخل النار، كيف لا يكلفون؟ بل يتركون يأكلون وينامون ويمشون على طور عقولهم، ومقتضى طبائعهم، أما يعلم هؤلاء الخبثاء الخائبون أنَّ شكرَ المنعم واجبٌ عقلاً؟.

وهذه التَّكليفاتُ الشَّرعيّةُ بيانُ كيفيَّة أداء ذلك الشُّكر، فيكون التَّكليفُ واجباً بالعقل. وأيضاً إنَّ نظامَ هذا العالم وانتظامَ أمره منوطٌ بهذا التَّكليف، فإنَّه إذا ترك كلُّ أحدٍ على طوره، وخلِّي على طبعه؛ لا يظهر فيه غيرُ الشرّ والفساد، ويعتدي كلُّ مهوسٍ على نفس الآخر وماله، ويتغلَّب عليه بالخبث والفساد، فيضيِّعُ نفسه عند عدم الزواجر الشَّرعيّة وموانعها، ويضيِّع غيره عياذاً بالله سبحانه وتعالى، ﴿وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيٰوةٌ يَٰٓا أُولِى الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٧٩].

لَوْلَا الْأَمِيرُ الَّذِي تُخْشَى بَوَادِرُهُ ... لَقَاءَتِ الزِّنْجُ فِي بُحْبُوحَةِ الْحَرَمِ

أو نقول: إنَّ الله تعالى مالكٌ على الإطلاق، والعبادُ كلُّهم مماليكه سبحانه، فكلُّ حكمٍ وتصرُّفٍ يجريه عليهم؛ فهو عينُ الخير والصَّلاح لهم، وهو منزَّهٌ ومبرأٌ عن شائبة الظلم والفساد في ذلك، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣]: (شعر)

https://t.me/kutubumuridatun

مَنْ ذَا الـذِي فِـي فِـعْـلِـهِ يَـتَـكَـلَّـمُ   دُونَ الرِّضَــا يَـا صَــاحِ وَالتَّسْـلِـيمِ

فإن أدخل الجميعَ إلى النَّار، وعذَّبهم بالعذاب الأبديّ؛ فليس ذلك منه بمحلٍّ للاعتراض، وليس تصرُّفاً في ملك الغير حتى تكون فيه شائبةُ الجور، بخلاف تصرُّفنا في أملاكنا التي كلُّها أملاكُه تعالى في الحقيقة، وجميعُ التصرُّفات منا فيها عينُ الظُّلْم، فإنَّ صاحبَ الشَّرع إنّما نسب هذه الأملاكَ إلينا بسبب بعض المصالح، وإلا؛ فهي في الحقيقة أملاكُه تعالى، فجوازُ تصرُّفنا فيها مقصورٌ على القدر الذي جوَّزه لنا المالكُ على الإطلاق وأباحه، وجميعُ ما أخبر به هؤلاء الأكابر عليهم الصلاة والسلام بإعلام الحقّ جل وعلا، وما بيَّنوا من الأحكام كلِّها صادقةٌ ومطابقةٌ للواقع، وإن جوَّز العلماءُ الخطأَ في أحكامهم الاجتهاديَّة، ولكنَّهم لم يجوِّزوا تقريرَهم على الخطأ، بل قالوا: إنَّهم يُنبَّهون عليه بلا تأخيرٍ، فيتداركونه بالصَّواب، فلا اعتدادَ بذلك الخطأ.

وعذابُ القبر للكافرين ولبعض عصاة المؤمنين حقٌّ قد أخبر به المخبرُ الصادقُ، وسؤالُ منكرٍ ونكيرٍ للمؤمنين والكافرين في القبر أيضاً حقٌّ، والقبرُ برزخٌ بين الدُّنيا والآخرة، وعذابُه أيضاً من وجهٍ مناسبٍ لعذاب الدُّنيا، فيقبل الانقطاعَ، ومن وجهٍ مناسبٌ لعذاب الآخرة، بل هو من عذاب الآخرة في الحقيقة، وقوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّاۚ﴾ [غافر: ٤٦] نزل في عذاب القبر، وكذلك راحةُ القبر لها جهتان، والسعيدُ: من يغفر زلَّاتِه ومعاصيه بكمال الكرم والرَّأفة، ولا يؤاخذُ، فإن يؤاخذْ إنّما يؤاخذْ بآلام الدُّنيا ومِحَنها، ويكون ذلك كفارةً لذنوبه من كمال الرَّحمة، فإن بقيت منها بقيّةٌ؛ تكفَّرُ بضغطة القبر والمِحَن المهيَّأة لذلك الموطن حتى يبعثَ في المحشر طاهراً ومطهراً، ومن لم يعامل به هذه المعاملةُ، بل أُخِّرَتْ مؤاخذتُه إلى الآخرة؛ فهو عينُ العدل، ولكن ويلٌ للعاصين والخاطئين، وأما من كان من أهل الإسلام؛ فمآلُه إلى الرَّحمة، ومحفوظٌ من العذاب الأبديّ، وذلك أيضاً نعمةٌ عظيمةٌ. ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨]، بحرمة سيد المرسلين عليه وعليهم الصلاة والسلام.

ويوم القيامة حقٌّ، وتكون السّمواتُ والكواكبُ والأرضُ والجبالُ والبحارُ والحيواناتُ والنباتاتُ والمعادنُ معدومةً ومتلاشيةً، ويومئذ تنشقُّ السّمواتُ، وتنتثرُ الكواكبُ، وتكون الأرضُ والجبالُ هباءً منثوراً، وهذا الإعدامُ والإفناءُ يتعلّقُ بالنَّفخة الأولى، وبالنَّفخة الثّانية يقوم الخلائقُ من قبورهم، ويذهبون إلى المحشر. والفلاسفةُ لا يجوِّزون إعدامَ السّموات والكواكب والفناءَ والفسادَ لها، ويقولون بأزليَّتها وأبديّتها، ومع ذلك يجعل المتأخِّرون منهم أنفسهم من زمرة أهل الإسلام، ويأتون ببعض أحكام الإسلام - يعني: يعملون بها -، والعجبُ من بعض أهل الإسلام أنَّه كيف يصدِّقُ منهم هذا المعنى، ويعتقدهم مسلمين من غير تحاشٍ؟ وأعجبُ من ذلك أنَّ بعضَ المسلمين يعتقد إسلام بعض من هذه الجماعة كاملاً، ويظنُّ طعنَهم وتشنيعَهم منكراً، والحالُ أنَّهم منكرون على النُّصوص القطعيَّة وإجماع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، قال الله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ١-٢]، وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الإنشقاق: ١-٢]، وقال تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ [النبأ: ١٩] أي: شقّت، وأمثالُ ذلك في القرآن كثيرةٌ. أوَلا يعلمون أنَّ مجرَّد التفوُّه بكلمة الشهادة غيرُ كافٍ في الإسلام، بل لا بُدَّ من تصديق جميع ما علم مجيؤه من الدين بالضَّرورة، والتبرِّي من الكفر ولوازمه أيضاً، حتى يتصوّر

الإسلامُ، وبدونه خرطُ القتاد.

والصراطُ حقٌّ، والميزانُ حقٌّ، والحسابُ حقٌّ، قد أخبر بكلٍّ منها المخبرُ الصادقُ عليه وعلى آله الصلاة والسلام. واستبعادُ بعض الجاهلين بطور النبوَّة وجودَ هذه الأمور ساقطٌ عن حيِّز الاعتبار، فإنَّ طَوْرَ النبوَّة وراء طور العقل، وتطبيقُ جميع أخبار الأنبياء الصَّادقة على نظر العقل والتوفيقُ بينهما إنكارٌ في الحقيقة على طور النبوَّة، والمعاملةُ هناك إنّما هي بالتَّقليد، ألم يعلموا أنَّ طورَ النبوَّة مخالفٌ لطور العقل؟ بل لا يقدر العقلُ أن يهتدي إلى تلك المطالب العالية بدون تأييد تقليد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والمخالفة غير عدم الإدراك، فإنَّ المخالفةَ إنّما تتصوَّرُ بعد الإدراك.

والجنةُ والنارُ موجودتان، تدخل طائفةٌ الجنَّةَ بعد المحاسبة يوم القيامة، وطائفةٌ تدخل النَّارَ، وثوابُ أهل الجنة وعقابُ أهل النار أبديّان لا ينقطعان كما دلَّت عليه النُّصوصُ القطعيَّةُ المؤكّدةُ. قال صاحبُ «الفصوص»: مآلُ الكلّ إلى الرَّحمة، إن رحمتي وسعت كل شيء، ويثبت العذابَ للكفَّار إلى ثلاثة أحقابٍ، ويقول: ثم تصير النارُ في حقهم برداً وسلاماً كما كانت للخليل على نبينا وعليهم الصلاة والسلام، ويجوز الخلفُ في وعيده سبحانه، ويقول: لم يذهب أحدٌ من أرباب القلوب إلى خلود الكفَّار في عذاب النَّار، وهو قد وقع في هذه المسألة أيضاً بعيداً عن الصَّواب، لم يدرِ أنَّ سعةَ الرَّحمة وعمومها في حقِّ المؤمنين والكافرين مخصوصةٌ بالدنيا، وأما في الآخرة؛ فلا تصل رائحةُ الرَّحمة إلى مشامِّ الكفار كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، وقال تعالى بعد قوله سبحانه: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وكأن الشَّيخ قرأ أوَّلَ الآية، وترك آخرها، وليس في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ [إبراهيم: ٤٧] دلالةٌ على خصوصيَّة عدم الجواز بخلف الوعد؛ لأنَّه لا يجوز الاقتصارُ هنا على عدم خلف الوعد، بناءً على أنَّ المرادَ من الوعد هنا: الوعدُ بتصرُّف الرسل وتسلُّطهم على الكفار، وغلبتهم عليهم، وهو متضمِّنٌ للوعد والوعيد جميعاً: وعدٌ للرسل، ووعيدٌ للكفار، فدلَّت هذه الآيةُ على انتفاء خلف الوعد وخلف الوعيد جميعاً، فالآيةُ مستشهدٌ بها عليه لا له. وأيضاً إنَّ الخلفَ في الوعيد كالخلف في الوعد مستلزمٌ للكذب وما لا يليق به سبحانه؛ لأنَّ حقيقةَ هذا القول أنَّ الله تعالى علم في الأزل أنَّه لا يخلد الكفارُ في عذاب النار، ومع ذلك أخبر بخلاف علمه رعايةً لمصلحةٍ، وقال: أعذِّبُهم بالعذاب المخلَّد، وفي تجويز هذا المعنى شناعةٌ تامّةٌ، ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨١]. إجماعُ أرباب القلوب على عدم خلود الكفار في عذاب النار من كشفيَّات الشَّيخ، ومجالُ الخطأ في الكشف كثيرٌ، فلا اعتدادَ به مع كونه مخالفاً لإجماع المسلمين.

والملائكةُ عبادُ الله سبحانه، معصومون من العصيان، ومحفوظون من الخطأ والنِّسيان، ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، لا يأكلون، ولا يشربون، لا يوصفون بذكورةٍ ولا أنوثةٍ، فهم مبرؤون عنهما ومنزَّهون، وتذكيرُ الضَّمائر الرَّاجعة إليهم في القرآن المجيد إنّما هو باعتبار شرف صنف الذُّكور بالنِّسبة إلى صنف الإناث كما أورد الحقُّ سبحانه الضمائرَ الراجعةَ إلى نفسه مذكَّرةً، وقد اصطفى الحقُّ سبحانه بعضهم للرِّسالة كما شرَّف بعضَ الإنسان بهذه الدَّولة، ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]. وجمهورُ علماء أهل الحقّ على أنَّ خواصَّ البشر أفضلُ من ....

خواصّ الملائكة، وقال الإمامُ الغزاليُّ وإمام الحرمين وصاحبُ «الفتوحات المكية» بأفضليّة خواصّ الملائكة من خواص البشر، وما ظهر لهذا الفقير: أنَّ ولايةَ الملك أفضلُ من ولاية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولكن في النبوَّة والرِّسالة درجةٌ للأنبياء لم يبلغها ملكٌ قطُّ، وهذه الدَّرجةُ ناشئةٌ من جهة العنصر الترابيّ الذي هو مخصوصٌ بالبشر، وظهر أيضاً لهذا الفقير أنَّ كمالات الولاية لا اعتدادَ بها بالنِّسبة إلى كمالات النبوَّة، وليت لها حكمَ القطرة بالنِّسبة إلى البحر المحيط، فالمزيَّةُ الناشئةُ من طريق النبوَّة تكون زائدةً بأضعافٍ مضاعفةٍ على المزيّة الناشئة من طريق الولاية، فالأفضليّةُ على الإطلاق ثابتةٌ للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والفضلُ جزئيٌّ للملائكة الكرام عليهم السلام، فالصوابُ ما قاله الجمهورُ من العلماء الأعلام شكر الله سعيهم يوم القيام.

فلاح من هذا التحقيق: أنَّه لا يبلغ وليٌّ قطُّ درجةَ نبيٍّ من الأنبياء عليهم السلام، بل يكون رأسُ الولي تحت قدمِ نبيٍّ على الدَّوام.

ينبغي أن يعلم أنَّه ما من مسألةٍ اختلف فيها العلماءُ والصوفيَّةُ إلا إذا لوحظ فيها حقَّ الملاحظة يوجد الحقُّ فيها في جانب العلماء، وسرُّ ذلك: أنَّ نظرَ العلماء بواسطة متابعة الأنبياء عليهم السلام نافذٌ إلى كمالات النبوَّة وعلومها، ونظرُ الصوفيَّة مقصورٌ على كمالات الولاية ومعارفها، فلا جرم يكون العلمُ المأخوذُ من مشكاة النبوَّة أصوبَ وأصحَّ من العلم المأخوذ من مرتبة الولاية، وتحقيقُ بعض هذه المعارف مندرجٌ في المكتوب المسطور باسم ولدي الأرشد، فإن بقي هنا شيءٌ من الخفاء؛ فليراجع هناك.

والإيمان عبارةٌ عن تصديقٍ قلبيٍّ بما بلغنا من الدين بطريق الضَّرورة والتَّواتر، وقالوا: الإقرارُ اللسانيُّ أيضاً ركنٌ من الإيمان محتملٌ للسُّقوط، وعلامةُ هذا التَّصديق: التبرِّي من الكفر، والتجنُّبُ عن لوازمه وخصائصه، وكلُّما هو من فعل الكفَّار كشدِّ الزُّنَّار وأمثاله، فإن لم يتبرأْ من الكفر - عياذاً بالله سبحانه - مع دعوى التَّصديق؛ ظهر أنَّه متَّسمٌ بسمة الارتداد، وحكمُه في الحقيقة حكمُ المنافق، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. فلا بُدَّ إذاً في تحقق الإيمان من التبرِّي من الكفر، وأدنى هذا التبرِّي قلبيٌّ، وأعلاه التَّبرِّي بحسب القلب والقالَب، والتبرِّي عبارةٌ عن معاداة أعداء الحقِّ جل وعلا، سواءٌ كانت هذه المعاداةُ بالقلب فقط، كما إذا خيف من ضررهم، أو بالقلب والقالب معاً إذا لم يكن ضرر الخوف، وقوله تعالى: ﴿يَآ اَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْۜ﴾ [التحريم: ٩] مؤيِّدٌ لهذا المعنى، فإنَّ محبَّةَ الحقِّ سبحانه ومحبَّةَ رسوله عليه الصلاة والسلام لا تتصوَّرُ بدون معاداة أعداء الله ورسوله:

(ع) وَلَيْسَ مُحِبِّي مَنْ يُحِبُّ أَعَادِيَا

وإجراءُ الشِّيعة الشنيعة هذه القضية في موالاة أهل البيت، وجعلهم التبرِّي من الخلفاء الثلاثة وغيرهم من الصَّحابة شرطاً لها؛ غيرُ مناسبٍ، فإنَّ التبرِّي الذي هو من شرط موالاة الأحباب هو التبرِّي من الأعداء، لا مطلقُ التبرِّي عمن سواهم، لا يجوِّزُ عاقلٌ منصفٌ كونَ أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام أعداءً، فإنَّ هؤلاء الأكابر بذلوا أموالهم وأنفسهم في محبَّته عليه الصلاة والسلام، وتركوا الجاهَ والرياسةَ، فكيف يجوِّزُ نسبةُ عداوة أهل البيت إليهم؟ ولزومُ محبَّة أهل بيته عليه الصلاة والسلام ثابتٌ بالنصِّ القطعيِّ، وجعلت محبَّتُهم أجرةَ الدَّعوة: ﴿قُلْ لَآ اَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ اَجْرًا اِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبٰىۜ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًاۜ﴾ [الشورى: ٢٣]. وإبراهيمُ الخليلُ على نبينا وعليه الصلاة والسلام إنّما نال ما نال من الدَّرجة القصوى، ....

وصار أصلَ شجرة النبوَّة بواسطة تبرِّيه من أعدائه تعالى، قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ[1] لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِى إِبْرٰهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَٰوَةُ وَالْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]، ولا عَمَلَ من الأعمال في نظر هذا الفقير أفضلُ من هذا التبرِّي في حصول رضا الحقّ جل وعلا، وإنَّ للحقّ سبحانه وتعالى عداوةً ذاتيّةً مع الكفر والكفرة والآلهة الباطلة الآفاقيّة مثلَ اللات والعُزّى، وعَبَدَتُها أعداءُ الحقّ سبحانه بالذَّات، والخلودُ في النَّار جزاءُ هذا العمل الشَّنيع، وهذه الحالةُ مفقودةٌ في الآلهة الباطلة الأنفسيّة وسائر الأعمال السيِّئة، فإنَّ العداوةَ والغضبَ بالنِّسبة إلى هذه المذكورات ليست بذاتيّةٍ، فإن كان هناك غضبٌ؛ فهو راجعٌ إلى الصِّفات، وإن كان عقابٌ أو عتابٌ؛ فهو راجعٌ إلى الأفعال، ولهذا لم يكن الخلودُ في النار جزاءَ هذه السيئات، بل جعل الحقُّ سبحانه مغفرتَهم منوطةً بمشيئته. ينبغي أن يعلم أنّه لَمّا تحقّق العداوةُ الذاتيّةُ في حقِّ الكفر والكفار؛ امتنع أن تشمل الرَّحمةُ والرأفةُ اللتان هما من صفات الجمال في الآخرة الكفّارَ، وأن تَرْفَعَ صفةُ الرَّحمة العداوةَ الذاتيّةَ، فإنَّ المتعلّق بالذَّات أقوى وأرفعُ مما هو متعلّقٌ بالصِّفة، فمقتضى الصِّفات لا يقدرُ أن يبدِّل ويغيِّرَ مقتضى الذات، وما ورد في الحديث القدسيّ: «سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي»[2]؛ فالمرادُ بالغضب فيه ينبغي أن يكون الغضبَ الصِّفاتيَّ الذي هو مقصورٌ على عصاة المؤمنين، لا الغضبَ المخصوصَ بالمشركين.

فإن قيل: إنَّ للكفَّار نصيباً من الرَّحمة في الدُّنيا كما حقَّقْتَه فيما سبق، فكيف تكون صفةُ الرَّحمة في الدُّنيا رافعةً للعداوة الذاتيّة؟ أجيب: إنَّ حصولَ الرَّحمة للكافرين في الدُّنيا إنّما هو باعتبار الظَّاهر والصُّورة، وأما في الحقيقة؛ فهو استدراجٌ ومكيدةٌ في حقِّهم، وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۞ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى الْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦] وقوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۞ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٥] شاهدٌ لهذا المعنى، فليفهم.

فائدةٌ جليلةٌ: إنَّ عذابَ النار الأبديّ جزاءُ الكفر.

فإن قيل: إنَّ شخصاً مع وجود الإيمان يجري رسومَ الكفر، ويعظِّمُ مراسمَ أهل الكفر، ويحكم العلماءُ بكفره، ويعدُّونه من أهل الارتداد بفعله، كما أنَّ أكثر مسلمي الهنود مبتلون بهذه البلية، فيلزم أن يكون الشَّخصُ معذَّباً في الآخرة بالعذاب الأبديّ بمقتضى فتوى العلماء، والحالُ أنّه قد ورد في الأخبار الصِّحاح أنَّ من كان في قلبه مثقال ذرةٍ من الإيمان يخرج من النيران[3]، ولا يخلد في العذاب، فما تحقيقُ هذه المسألة عندك؟

أقول: إن كان كافراً محضاً؛ فنصيبُه العذابُ المخلَّدُ أعاذنا الله سبحانه منه، وإن كان فيه مقدار ذرةٍ من الإيمان مع وجود إتيان مراسم الكفر؛ يعذَّبُ في النار، ولكنَّ المرجوَّ خلاصُه من الخلود في النار ببركة تلك الذَّرَّة من الإيمان، ونجاته من دوام الاستقرار في عذاب النيران، وقد ذهبت مرّةً لعيادة شخصٍ قد قرب من الاحتضار، ولما كنت متوجّهاً إلى حاله؛ رأيت قلبَه في ظلماتٍ شديدةٍ، وكلّما كنت متوجّهاً لرفع تلك الظلمات لم ترتفعْ، فعلم بعد توجّهٍ كثيرٍ أنَّ تلك الظلمات ناشئةٌ من صفة الكفر التي هي مكنونة فيه، ومنشأُ تلك الكدورات هو موالاتُه أهل الكفر، وبَانَ لي أنّه لا ينبغي التوجّهُ لدفع تلك الظُّلمات، فإنَّ تنقيتَهُ منها مربوطةٌ بعذاب النار الذي هو جزاءُ الكفر، وعلم أيضاً أنَّ فيه مقدارَ ذرةٍ من الإيمان، وأنّه يتخلَّصُ من الخلود في عذاب النيران ببركة ذلك المقدار من الإيمان، ولَمّا شاهدتُ فيه هذا الحالَ؛ وقع في خاطري أنّه هل يجوز أن يصلّى عليه أو لا؟ فظهر بعد التوجّه أنه ينبغي أن يصلى ......

---

(١) في الأصل: (لقد كان).

(٢) أخرجه البخاري (٧٥٥٣)، ومسلم (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه في حديث الشفاعة الطويل، وفيه: «اذهبوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من نار فأخرجوه»، وأخرج البخاري أيضاً (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣) نحوه من حديث أنس رضي الله عنه، وأخرج الترمذي (٢٥٩٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً: «يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان»، وقال: حسن صحيح.

عليه، فالمسلمون الذين يجرون رسوم أهل الكفر مع وجود الإيمان ويعظِّمون أيامهم ينبغي أن يصلّى عليهم، ولا ينبغي إلحاقُهم بالكفار كما هو عمل اليوم، وينبغي أن يرجى نجاتُهم من العذاب الأبديّ آخر الأمر. فعلم مما ذكرنا أنّه لا عَفْوَ عن أهل الكفر ولا مغفرةَ لهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨]، فإن كان كافراً صرفاً؛ فجزاءُ كفره العذابُ الأبديُّ، وإن كان فيه مع فجوره مقدارُ ذرةٍ من الإيمان أيضاً؛ فجزاؤه العذابُ المؤقتُ، وفي سائر الكبائر إن شاء الله تعالى غفره، وإن شاء عذَّبه، وعند الفقير إنَّ عذابَ النّار مخصوصٌ بالكفر وصفات الكفر، سواءٌ كان ذلك العذابُ مؤقّتاً أو مخلّداً أو مؤبداً كما سيجيء تحقيقُه، وأما أهلُ الكبائر الذين لم يوفَّقوا للتَّوبة؛ فيغفرُ بها ذنوبهم، ولم ينالوا الشَّفاعةَ، ومجرَّد العفو والإحسان، ولم تكفَّر كبائرهم أيضاً بالآلام الدنيويَّة ومحنها، أو بشدائد سكرات الموت، فالمرجوُّ أن يكتفى في تعذيب طائفةٍ منهم بعذاب القبر، وفي أخرى منهم مع وجود مِحَن القبر بأهوال يوم القيامة وشدائدها، وأن لا تبقى ذنوبُهم حتى يحتاج إلى عذاب النار، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ [الأنعام: ٨٢] الآية مؤيِّدٌ لهذا المعنى، فإنَّ المرادَ بالظُّلم هنا: الشِّركُ. والله سبحانه أعلم بحقائق الأمور كلها.

فإن قيل: قد ورد الوعيدُ بعذاب النار في جزاء بعض السيئات غير الكفر، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣]، وورد في الأخبار: «مَنْ قَضَى صَلَاةً وَاحِدَةً مُتَعَمِّداً بَقِيَ فِي النَّارِ حِقَباً»، فلم يكن عذابُ النار مخصوصاً بالكفار. أقول: ما ورد في القاتل؛ فهو مخصوصٌ بمستحلِّ القتل، ومستحلُّ القتل كافرٌ كما ذكره المفسرون، وما ورد في السيئات غير الكفر من الوعيد بعذاب النار؛ فلا تخلو تلك السيئاتُ من شائبة صفة الكفر، مثل استخفاف تلك السَّيِّئة واستصغارها، وعدم المبالاة بإتيانها، واستحقار الأوامر الشَّرعيّة ونواهيها، وقد ورد في الخبر: «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي»[(١)]، وقال في حديث آخر: «أُمَّتِي أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ لَا عَذَابَ عَلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ»[(٢)]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ [الأنعام: ٨٢] الآية مؤيِّدٌ لهذا المعنى كما مرَّ.

وأحوالُ أطفال المشركين ومن نشأ في شاهق الجبل ومشركي زمن الفترة مسطورةٌ في المكتوب الذي كتبته لولدي محمد سعيد بالتَّفصيل، فليراجع هناك.

وفي زيادة الإيمان ونقصانه وعدمهما اختلافٌ بين العلماء، قال الإمام الأعظم أبو حنيفة رضي الله عنه: الإيمانُ لا يزيدُ ولا ينقصُ، وقال الإمامُ الشافعيُّ رضي الله عنه: يزيدُ وينقصُ. ولا شك أنَّ الإيمانَ عبارةٌ عن تصديقٍ ويقينٍ قلبيٍّ، ولا يتصوَّرُ فيه الزِّيادةُ والنقصانُ، والذي يقبل الزيادةَ والنقصانَ؛ فهو داخلٌ في دائرة الظنِّ لا اليقين.

غَايةُ ما فِي البابِ: أنَّ إتيانَ الأعمال الصَّالحة يُورِثُ جلاءَ ذلك اليقين وصفاءَه، وإتيان الأعمال غير المرضيَّة يكدِّرُه، ويظلمُ ضياؤه، فالزيادةُ والنقصانُ بحسب إتيان الأعمال الصَّالحة وضدِّها راجعان إلى جلاء اليقين، لا إلى نفس اليقين، ولَمّا وجد طائفةٌ جلاءً وصفاءً في يقينهم قالوا بزيادته بالنِّسبة إلى يقينٍ ليس فيه ذلك الجلاءُ والصفاءُ، وكأنَّهم لم يروا اليقينَ الذي لا جلاء فيه يقيناً، بل اعتقدوا أنَّ اليقينَ هو اليقينُ الذي له جلاءٌ فقط دون غيره، فقالوا لذاك ناقصاً، وأما الذين فيهم حدّةُ النظر، فلما رأوا أنَّ تلك الزيادةَ والنقصانَ راجعان إلى وصف اليقين لا إلى نفس اليقين؛ لم يقولوا بزيادة اليقين ونقصانه بالضَّرورة، ومثلُ ذلك كمثل المرآتين المتساويتين في الصغر والكبر المتفاوتتين بحسب الجلاء والنورانية، .....

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٣٩)، والترمذي (٢٤٣٥) من حديث أنس رضي الله عنه، قال الترمذي: حسن صحيح غريب، وأخرجه ابن ماجه (٤٣١٠) من حديث جابر رضي الله عنه، وأصله في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٢٧٨) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

فرآهما شخصٌ، وقال للتي جلاؤها أكثرُ: إنَّها أزيدُ وأكبرُ من الأخرى التي ليس فيها ذلك الجلاءُ، وقال شخصٌ آخر: المرآتان متساويتان لا زيادةَ لإحداهما على الأخرى ولا نقصانَ، والتفاوتُ إنّما هو في الجلاء والإراءة اللذين هما من صفات المرآة، فنظر الشَّخص الثّاني صائبٌ ونافذٌ إلى حقيقة الشيء، ونظرُ الأوّل مقصورٌ على الظَّاهر، لم يجاوزْ من الصفة إلى الذات، ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وبهذا التَّحقيق الذي وفِّق هذا الفقير لإظهاره اندفع اعتراضاتُ المخالفين على القول بعدم زيادة الإيمان ونقصانه، ولم يلزم كونُ إيمان عامّة المؤمنين مماثلاً ومساوياً لإيمان الأنبياء عليهم السلام من جميع الوجوه، فإنَّ إيمانَ الأنبياء عليهم السلام له جلاءٌ تامٌّ ونورانيّةٌ، وله ثمراتٌ ونتائجُ زائدةٌ بأضعافٍ مضاعفةٍ على إيمان عامة المؤمنين الذي فيه ظلماتٌ وكدوراتٌ على تفاوت درجاتهم، وكذا ينبغي أن يكون المرادُ بزيادة إيمان أبي بكر ﷺ في الوزن على إيمان هذه الأمة زيادتَهُ باعتبار الجلاء والنورانيَّة بإرجاع الزِّيادة إلى الصِّفة الكاملة، ألا ترى أنَّ الأنبياءَ عليهم السلام وعامَّةَ الناس متساوون في نفس الإنسانية، والكلُّ متَّحدون في الحقيقة والذات، والتفاضلُ فيما بينهم إنّما هو باعتبار الصِّفات الكاملة؟ والذي ليس له صفةٌ كاملةٌ كأنَّه خارجٌ من نوع الإنسان ومحرومٌ من فضائله، ومع وجود هذا التَّفاوت لم تتطرَّق الزِّيادةُ والنُّقصانُ إلى نفس الإنسانيَّة، ولا يصحُّ أن يقال: إنَّ الإنسانيَّةَ في أفراد الإنسان قابلةٌ للزِّيادة والنُّقصان. والله سبحانه الملهم للصواب.

وأيضـاً إنَّهم قالوا: إنَّ التَّصديقَ الإيمانيَّ عند البعض هو التَّصديقُ المنطقيُّ الذي هو شاملٌ للظنّ واليقين، فعلى هذا التَّقدير يمكن الزِّيادةُ والنُّقصانُ في نفس الإيمان، لكنَّ الصَّحيحَ أنَّ المرادَ بالتَّصديق هنا: اليقينُ والإذعانُ القلبيُّ، لا المعنى العامّ الشّامل للظنّ والوهم، قال الإمامُ الأعظم: أنا مؤمنٌ حقّاً، وقال الإمام الشافعيُّ: أنا مؤمنٌ إن شاء الله، ونزاعُهما في الحقيقة لفظيٌّ: مذهبُ الأوّل باعتبار الزّمان الحال، ومذهبُ الثّاني باعتبار المآل وعاقبة الأحوال، ولكن التّحاشي من صورة الاستثناء أَوْلى وأحوطُ كما لا يخفى على المنصف.

وكراماتُ أولياء الله تعالى حقٌّ، ومن كثرة وقوع خوارق العادات منهم صار هذا المعنى عادةً مستمرّةً لهم، ومنكرها منكرٌ على العلم العاديّ والضروريّ، ولا اشتباهَ بينها وبين معجزة النبيّ، فإنَّ معجزةَ النبيِّ مقرونةٌ بدعوى النبوَّة، وكراماتُ الوليّ خاليةٌ عن هذا المعنى، بل هي مقرونةٌ بالإقرار والاعتراف بمتابعة نبيٍّ، فأنّى الاشتباهُ بينهما كما زعمه المنكرون؟

وترتيبُ الأفضليّة بين الخلفاء الراشدين على ترتيب خلافتهم، ولكنَّ أفضليّةَ الشَّيخين ثابتةٌ بإجماع الصَّحابة والتَّابعين كما نقلته جماعةٌ من أكابر أئمَّة الدين أحدُهم الإمامُ الشافعيُّ ﷺ.

قال الشَّيخ الإمام أبو الحسن الأشعريُّ: إنَّ فضلَ أبي بكر ثم عمر على بقيَّة الأمة قطعيٌّ.

قال الذهبيُّ: وقد تواتر عن عليّ في خلافته وكرسي مملكته وبين الجمّ الغفير من شيعته أنَّ أبا بكر وعمر أفضلُ الأمة، ثم قال: ورواه عن عليّ كرم الله وجهه نيّفٌ وثمانون نفساً، وعدَّ منهم جماعةً، ثم قال: فقبَّح الله الروافضَ ما أجهلهم.

وروى البخاريُّ عنه أنّه قال: خيرُ الناس بعد النبي عليه الصلاة والسلام أبو بكر ثم عمر، ثم رجلٌ آخر، فقال ابنه محمد ابن الحنفية: ثم أنت، فقال: إنّما أنا رجلٌ من المسلمين.

وصحَّح الذهبيُّ وغيره عن عليّ أنّه قال: ألا وإنَّه بلغني أنَّ رجالاً يفضلونني عليهما، ومن وجدته يفضلني عليهما؛ فهو مفترٍ، عليه ما على المفتري.

وأمثالُ ذلك منه ومن غيره من الصَّحابة متواترةٌ بحيث لا مجالَ فيها لإنكار أحدٍ، حتى قال عبدُ الرزاق من أكابر الشّيعة: أفضِّلُ الشَّيخين لتفضيل عليٍّ إيَّاهما على نفسه، وإلا؛ لما فضَّلتهما، كفى بي وزراً أن أحبَّه، ثم أخالفَه، كلّ ذلك مستفادٌ من «الصواعق».

وأما تفضيلُ عثمان على عليّ ﷺ؛ فأكثرُ علماء أهل السنة على أنَّ الأفضلَ بعد الشَّيخين عثمان، ثم عليٍّ، ومذهبُ الأئمة الأربعة المجتهدين أيضـًا هو هذا، والتوقُّفُ المنقولُ عن الإمام مالكٍ في أفضليّة عثمان على عليّ؛ فقد قال القاضي عياضٌ: إنَّه رجع عن هذا التوقُّف إلى تفضيل عثمان.

وقال القرطبيُّ: وهو الأصحُّ إن شاء الله تعالى، وكذلك التوقُّفُ المفهومُ من عبارة الإمام الأعظم - أعني: قوله: من علامة أهل السنة والجماعة: تفضيلُ الشَّيخين، ومحبّةُ الختنين -. ولاختياره هذه العبارة عند الفقير محملٌ آخر، وهو أنَّه لَمّا كَثُرَ ظهورُ الفتن والاختلال في أمور الناس في زمن خلافة الختنين، وحدوث الكدورات من هذه الجهة في قلوب الناس؛ اختار الإمامُ لفظَ المحبَّة في حقهما ملاحظـًا لهذا المعنى، وجعل محبَّتَهما من علامات أهل السُّنَّة والجماعة من غير أن يلاحِظَ فيها شائبةَ التَّوقُّف، كيف وكُتُبُ الحنفيّة مشحونةٌ بأنَّ أفضليّتَهم على ترتيب خلافتهم؟

وبالجملة إنَّ أفضليّةَ الشَّيخين يقينيَّةٌ، وأفضليّةَ عثمان دونها، ولكنَّ الأحوطَ أن لا نكفِّر منكرَ أفضليّة عثمان، بل أفضليّة الشَّيخين، بل نقول: إنَّه مبتدعٌ وضالٌّ، فإنَّ للعلماء اختلافـًا في تكفيره، وفي قطعيَّة هذا الإجماع قيلٌ وقالٌ، وذلك المنكرُ قرينُ يَزيد الخائب المخذول، وقد توقَّفوا في لعنه احتياطـًا، والإيذاءُ الذي يصيب النبيَّ ﷺ من جهة إيذاء الخلفاء الراشدين كالإيذاء الذي أصابه ﷺ من جهة إيذاء سبطيه، قال عليه الصلاة والسلام: «**اللهَ اللهَ فِي أَصْحَابِي، لَا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضـًا مِنْ بَعْدِي، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ؛ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ؛ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ، وَمَنْ آذَاهُمْ؛ فَقَدْ آذَانِي، وَمَنْ آذَانِي؛ فَقَدْ آذَى اللهَ، وَمَنْ آذَى اللهَ وَرَسُولَهُ؛ فَيُوشِكُ أَنْ يُؤْخَذَ**»(١)، وقال الله عز وجل: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وما عدَّه مولانا سعد الدين التفتازانيّ في «شرح عقائد النسفيّ» إنصافـًا في هذه الأفضليّة بعيدٌ عن الإنصاف، والتَّرديدُ الذي ذكره فيه لا حاصلَ فيه؛ لأنَّ المقرَّرَ عند العلماء: أنَّ المرادَ بالأفضليّة هنا باعتبار كثرة الثواب عند الله جل وعلا، لا الأفضليّةُ التي هي بمعنى كثرة ظهور المناقب والفضائل، فإنَّه لا اعتبارَ لها عند العقلاء، فإنَّ السَّلفَ من الصَّحابة والتَّابعين قد نقلوا عن عليٍّ من المناقب والفضائل ما لم ينقل مثلُه عن صحابيٍّ غيره، حتى قال الإمام أحمد: ما جاء لأحدٍ من الصَّحابة من الفضائل ما جاء لعليٍّ، ومع ذلك حكم هو بأفضليّة الخلفاء الثلاث، فعلم من هذا أنَّ وجهَ الأفضليّة شيءٌ آخرُ وراء هذه الفضائل والمناقب، والاطِّلاعُ عليها إنّما يتيسّرُ لمن أدركوا زمانَ الوحي وشاهدوه حتى علموها بالتَّصريح أو بالقرائن، وهم أصحابُ النبي عليه وعليهم الصلاة والسلام، فما قال شارحُ «العقائد النسفية»: إنَّه لو كان المرادُ بالأفضليّة كثرةَ الثواب، فللتوقُّف جهةٌ ساقطةٌ عن الاعتبار؛ لأنَّه إنّما يكون للتَّوقُّف مجالٌ لو لم يعلم الأفضليّةُ من قِبَل صاحب الشرع صراحةً أو دلالةً، وحيث عُلِمَ؛ فعلى ما يتوقّفُ؟ وإن لم يعلم؛ فلِمَ يحكم بالأفضليّة؟ والذي يرى الكلَّ متساويةً، ويزعم تفضيلَ أحدهم على الآخر فضولاً؛ فهو فضوليٌّ أيُّ فضوليٍّ، حيث يزعم إجماعَ أهل الحقّ فضولاً، ولعلَّ لفظ الفضل هو الذي أورده في موارد الفضوليّ.

وما قال صاحبُ..

(١) أخرجه الترمذي (٣٨٦٢) واستغربه من حديث عبد الله بن مغفل ﷺ.

«الفتوحات المكية»: إنَّ سببَ ترتيب خلافتهم مدّةُ أعمارهم؛ ليس فيه دلالةٌ على مساواتهم في الفضيلة؛ لأنَّ أمرَ الخلافة غيرُ أمر الأفضليّة، ولو سُلِّمَ؛ فهذا وأمثالُه من شطحياته غيرُ لائقٍ بالتمسُّك، وأكثرُ كشفياته التي تخالِفُ علومَ أهل السنة بعيدةٌ عن الصَّواب، فلا يتابعها أحدٌ إلا مريضُ القلب أو مقلِّدٌ صرفٌ.

وما وقع بين الأصحاب من المنازعات والمشاجرات يجب حملُها على محامل حسنةٍ، وينبغي تبرئتُهم عن الهوى والتعصُّب، قال التفتازانيُّ - مع إفراطه في حبِّ عليّ كرم الله وجهه -: وما وقع من المخالفات والمحاربات لم يكن عن نزاعٍ في الخلافة، بل عن خطأٍ في الاجتهاد، وفي «حاشية الخيالي» عليه: فإنَّ معاوية وأحزابَه بغوا عن طاعته، مع اعترافهم بأنَّه أفضلُ أهل زمانه، وأنَّه الأحقُّ بالإمامة منه بشبهةٍ هي تركُ القصاص عن قتلة عثمان ﷺ، ونقل في «حاشية قره كمال» عن عليّ كرم الله وجهه أنّه قال: إخوانُنا بَغَوْا علينا، وليسوا بكفرةٍ ولا فسقةٍ؛ لِمَا لهم من التَّأويل. ولا شَكَّ أنَّ الخطأَ الاجتهاديَّ بعيدٌ عن الملامة عليه، والطَّعنُ والتَّشنيعُ مرفوعان عن صاحبه. ينبغي أن يذكر جميع الأصحاب الكرام بالخير مراعاةً لحقوق صحبة خير البشر عليه وعلى آله الصلوات والتحيات، وأن يحبَّهم بحبِّ النبي عليه السلام، قال عليه السلام: «**مَنْ أَحَبَّهُمْ؛ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ؛ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ**»، يعني: أنَّ المحبَّةَ التي تتعلّق بأصحابي هي عينُ المحبة التي تتعلّق بي، وكذلك البغضُ الذي يتعلّق بهم عينُ البغض الذي يتعلّق بي، ولا غَرَضَ لنا من محبَّة محاربي عليّ كرم الله وجهه أصلاً، بل يحقُّ لنا أن نتأذَّى منهم، ولكن حيث كانوا أصحابَ النبي ﷺ، وكنا مأمورين بمحبتهم، وممنوعين عن بغضهم وإيذائهم؛ فلا جرم نُحِبُّ كلَّهم بحب النبيِّ ﷺ، ونحترز عن بغضهم وإيذائهم؛ لكونهما منجرَّيْن إليه ﷺ، ولكن نقول للمحقّ محقّاً وللمبطل مبطلاً، كان عليٌّ على الحقّ، ومخالفوه على الخطأ، والزِّيادةُ على ذلك من الفضول. وتحقيقُ هذا المبحث مذكورٌ تفصيلاً في المكتوب الذي كتبته إلى الخواجه محمد أشرف، فإن بقي هنا خفاءٌ؛ فليراجع هناك.

ولا بُدَّ بعد تصحيح العقائد من تعلُّم أحكام الفقه، ولا مندوحةَ من تعلم علم الفرض والواجب، والحلال والحرام، والسنة والمندوب، والمشتبه والمكروه، والعملُ بمقتضى هذا العلم أيضـاً ضروريٌّ، ينبغي أن يعدّ مطالعةُ كتب الفقه من الضروريات، وأن يراعى السعيُ البليغُ في إتيان الأعمال الصالحة، ولنورد هنا شمّةً من فضائل الصلاة وأركانها، فإنَّها عمادُ الدين، فينبغي استماعُها.

لا بُدَّ أوّلاً من إسباغ الوضوء، ومن غسل كلِّ عضوٍ ثلاثـاً ثلاثـاً على وجه التَّمام والكمال ليكون مؤدّىً على وجه السنة، وينبغي الاستيعابُ في مسح الرأس، والاحتياطُ في مسح الأذنين والرقبة، وورد تخليل أصابع الرجل بخنصر يد اليسرى من الأسفل(١)، فينبغي مراعاتُه أيضـاً، ولا ينبغي المساهلةُ في إتيان المستحبّ، فإنَّه محبوبُ الحق سبحانه ومرضيُّه تعالى، فإن علم في جميع الدُّنيا فعلٌ واحدٌ مرضيٌّ ومحبوبٌ عند الحقّ جلّ سلطانه، وتيسّر العملُ بمقتضاه؛ ينبغي أن يغتنمه، وحكمُه كحكم جواهر نفيسةٍ اشتراها شخصٌ بقطعات خزفٍ، أو روحٍ نالها ببذل جمادٍ لا طائلَ فيه.

وبعد الطّهور الكامل وإسباغ الوضوء ينبغي قصدُ الصَّلاة التي هي معراجُ المؤمن، وينبغي الاهتمامُ في أداء الفرض مع الجماعة، بل ينبغي أن لا يترك التَّكبيرةَ مع الإمام، وينبغي أيضـاً أداءُ الصلاة في الوقت المستحبّ، ومراعاةُ القدر المسنون في القراءة، ولا بدَّ من الطّمأنينة في الركوع والسجود، فإنَّها إما فرضٌ أو واجبٌ على القول المختار، وينبغي أن يستوي............

---

(١) أخرج أبو داود (١٤٨)، والترمذي (٤٠) وحسنه، وابن ماجه (٤٤٦) عن المستورد بن شداد ﷺ قال: (رأيت رسول الله ﷺ إذا توضأ يدلك أصابع رجليه بخنصره)، وأخرج الدارقطني في «سننه» (١/ ١٥٠) عن شقيق بن سلمة في صفة وضوء عثمان بن عفان: وخلل أصابع قدميه ثلاثـاً، وقال: (رأيت رسول الله ﷺ فعل كما فعلت)، وأخرج الطبراني في «الكبير» (٢٢/ ٣١) عن وائل بن حجر: (أن النبي ﷺ توضأ، فاستنثر، وخلل أصابعه بأصابعه).

قائماً على الكمال في القومة على نهج يرجع كلُّ عضوٍ إلى محلِّه، ويستقرّ في مقرّه، والطّمأنينةُ لازمةٌ أيضاً بعد الاستواء قائماً، فإنَّها هنا إما فرضٌ أو واجبٌ أو سنةٌ على اختلاف الأقوال، وهكذا في الجلسة التي هي بين السَّجدتين يلزم فيها الطُّمأنينةُ بعد الاستقرار كما في القومة، وأقلُّ تسبيحات الركوع والسجود ثلاثُ مراتٍ، وأكثرُها إلى سبع مراتٍ أو أحد عشر مرة على اختلاف الأقوال، وتسبيحُ الإمام ينبغي أن يكون على قَدْر حال المقتدين، وينبغي أن يستحي الإنسان من اقتصار التسبيحات على أقلّ مرتبتها في حال الانفراد ووقت قوّة الاستطاعة، بل يقولُ خمساً أو سبعاً، ووقت قصد السَّجدة يضع على الأرض أوَّلاً ما هو أقربُ إلى الأرض، فيضع أوَّلاً ركبتيه، ثم يديه، ثم أنفه، ثم جبهته، وينبغي الابتداءُ من اليمين وقت وضع يديه وركبتيه، وحين يرفع رأسه من السَّجدة ينبغي أن يرفع أوَّلاً ما هو أقربُ إلى السماء، فينبغي الابتداءُ برفع الجبين. وينبغي أن ينظر في القيام إلى موضع سجوده، وفي الركوع إلى ظهر قدميه، وفي السُّجود إلى رأس أنفه، وفي القعود إلى يديه، فإنَّه إذا نصب البصرَ على المواضع المذكورة، ومنع النَّظرَ من التفرقة؛ تتيسّر الصلاةُ بالجمعيَّة، ويحصل فيها الخشوعُ كما هو المنقولُ عن النبي ﷺ، وكذلك تفريجُ الأصابع في الركوع وضمُّها في السجود سنّةٌ، فينبغي مراعاتُها، وتفريجُ الأصابع وضمُّها ليسا بلا فائدةٍ، بل فيهما فوائدُ كثيرةٌ أمر الشَّارعُ بإتيانهما بملاحظة تلك الفوائد، وليس لنا فائدةٌ أصلاً تساوي متابعةَ صاحب الشَّريعة عليه وعلى آله الصلاة والتحية، وكلُّ هذه الأحكام مذكورةٌ في كتب الفقه بالتَّفصيل والإيضاح، والمقصودُ هنا التَّرغيبُ في الأعمال بمقتضى علم الفقه.

وفقنا الله سبحانه وإياكم للأعمال الصالحة الموافقة للعلوم الشَّرعيّة بعد أن وفَّقنا لتصحيح العقائد اليقينيَّة بحرمة سيد المرسلين عليه وعليهم وعلى آل كل من الصلوات أفضلها، ومن التسليمات أكملها. فإن وجدتم في أنفسكم شوقاً إلى فضائل الصلاة والاطِّلاع على كمالاتها المخصوصة بها؛ ينبغي المراجعةُ إلى ثلاثة مكاتيب المتَّصل بعضُها ببعضٍ، ومطالعتها: الأوّل مكتوبٌ باسم ولدي محمد صادق، والثّاني باسم المير محمد نعمان، والثّالث باسم الشَّيخ تاج الدين.

وبعد تحصيل جناحي الاعتقاد والعمل إذا كان توفيقُ الحقّ رفيقاً ودليلاً ينبغي سلوكُ طريقة الصوفيَّة العليّة، لا لغرضِ تحصيل شيءٍ زائدٍ على ذلك الاعتقاد والعمل، ونيل أمرٍ جديدٍ سواهما، فإنَّ ذلك من طول الأمل المفضي إلى الزَّلل، بل المقصودُ منها: حصولُ اليقين والاطمئنان في المعتقدات بحيث لا تزول بتشكيكِ مشكِّكٍ، ولا تبطل بإيراد شبهةٍ، فإنَّ قَدَمَ الاستدلال لا ثباتَ لها ولا قرارَ لخزفٍ معمولٍ من طينٍ، والمستدلُّ ليس له تمكينٌ، ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وحصولُ اليسر والسهولة في إتيان الأعمال، وزوال الكسالة والعناد والتعنُّت الناشئة من النَّفس الأمَّارة. وليس المقصودُ من سلوك طريق الصوفيَّة أيضاً: مشاهدةَ الصور والأشكال الغيبيَّة، ومعاينة الألوان والأنوار اللاكيفيَّة، فإنَّ ذلك داخلٌ في اللهو واللعب، وأيُّ نقصانٍ في الأنوار والصور الحسيتين حتى يتركها شخصٌ ويتمنّى الصورَ والأنوارَ الغيبيتين بارتكاب الرياضات والمجاهدات؟ فإنَّ هذه الصورَ والأنوارَ وتلك الصورَ والألوانَ كلَّها مخلوقةُ الحقّ جل وعلا، ومن الآيات الدالّة على وجوده تعالى. واختيارُ الطَّريقة النقشبنديَّة من بين سائر طرق الصوفيَّة أَوْلى وأنسبُ؛ لأنَّ هؤلاء الأكابر قد التزموا متابعة السنة السَّنِيَّة، واجتناب البدعة الشنيعة، ولهذا............

تراهم يفرحون ويستبشرون إذا كان فيهم دولةُ المتابعة، وإن لم يكن لهم شيءٌ من الأحوال، ومتى أحسُّوا فتوراً في المتابعة مع وجود الأحوال لا يقبلون تلك الأحوالَ ولا يبغونها، ومن ههنا لم يجوِّزوا الرقصَ والسماعَ، ولم يقبلوا الأحوالَ المترتبةَ عليه باتِّفاقٍ منهم وإجماعٍ، بل اعتقدوا ذكرَ الجهر بدعةً، ومنعوا أصحابهم عنه، ولم يلتفتوا إلى ثمراتٍ تترتَّبُ عليه. كنت يوماً في مجلس الطعام مع حضرة شيخنا فقال الشَّيخ كمال الذي هو من مخلصي حضرة شيخنا: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ جهراً حين شرع في الأكل، فلم يناسبْ ذلك منه لحضرة شيخنا حتى قال بالزجر البليغ: امنعوه، لا يحضر مجلس طعامنا. وسمعت حضرة شيخنا يقول: إنَّ الخواجه النقشبند قدس سره جمع علماء بخارى، وجاء بهم إلى خانقاه شيخه الأمير كلال ليمنعوهم من ذكر الجهر، فقال العلماء للأمير: إنَّ ذكرَ الجهر بدعةٌ، فلا تفعلوه، فقال في جوابهم: لا أفعل، فإذا صدر من أكابر هذه الطَّريقة مثل هذه المبالغة في المنع عن ذكر الجهر؛ فماذا نقول في السَّماع والرّقص والوجد والتواجد والأحوال والمواجيد التي تترتَّبُ على أسبابٍ غير مشروعةٍ؟ فهي من قبيل الاستدراجات عند الفقير، فإنَّ الأحوالَ والأذواقَ قد تحصل لأهل الاستدراج أيضًا، ويظهر لهم في مرايا صور العالم كشف التَّوحيد والمكاشفة والمعاينة، وفلاسفةُ اليونان وجوكِيَّةُ الهنود وبراهمتُهم شركاءُ في تلك الأمور. وعلامةُ صدق الأحوال: موافقَتُها للعلوم الشَّرعيّة مع الاجتناب من ارتكاب الأمور المحرمة والمشتبهة.

واعلم أنَّ الرقصَ والسماعَ داخلٌ في الحقيقة في اللهو واللعب، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ [لقمان: ٦] الآية نازلٌ في شأن المنع عن الغناء كما قال مجاهدٌ الذي هو تلميذُ ابن عباس ومن كبار التابعين: إنَّ المرادَ بلهو الحديث: الغناءُ، في «المدارك»: لهوُ الحديث: السَّمرُ والغناءُ، وكان ابنُ عبّاس وابنُ مسعودٍ ﷺ يحلفان أنَّه الغناءُ، وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ [الفرقان: ٧٢] أي: لا يحضرون الغناءَ، وحكي عن إمام الهدى أبي منصور الماتريديِّ: من قال لمقرئي زماننا: أحسنتَ عند قراءته يكفرُ، وبانتْ منه امرأتُه، وأحبط اللهُ كلَّ حسناته، وحكي عن أبي نصر الدبوسيّ عن القاضي ظهير الدين الخوارزميِّ: من سمع الغناءَ من المغنّي وغيره، أو يرى فعلاً من الحرام، فيحسِّنُ ذلك باعتقادٍ أو بغير اعتقادٍ؛ يصير مرتدّاً في الحال، بناءً على أنَّه أبطل حكمَ الشَّريعة، ومن أبطل حكم الشَّريعة؛ فلا يكون مؤمنًا عند كلِّ مجتهدٍ، ولا يقبل الله طاعته، وأحبط الله كلَّ حسناته، أعاذنا الله سبحانه من ذلك. الآياتُ والأحاديثُ والرواياتُ الفقهيّةُ في حرمة الغناء كثيرة جداً على حدٍّ يتعذر إحصاؤها، ومع هذه كلِّها لو أورد شخصٌ حديثًا منسوخًا أو روايةً شاذّةً في إباحة الغناء لا ينبغي اعتبارُه منه، فإنه لم يُفْتِ فقيهٌ في وقت من الأوقات بإباحة الغناء، ولم يجوِّز الرقصَ والضربَ بالأرجل كما هو مذكورٌ في «ملتقط الإمام الهمام ضياء الدين الشامي»، وعملُ الصوفيَّة ليس بسندٍ في الحلّ والحرمة، أَمَا يكفيهم أن نَعْذُرَهم ولا نلومهم ونفوّض أمرهم إلى الله تعالى؟ والمعتبرُ هنا قولُ الإمام أبي حنيفة والإمام أبي يوسف والإمام محمد رحمهم الله، لا عملُ الشبليّ وأبي الحسين النوريّ، وقد جعلت الصوفيَّةُ القاصرون اليوم السّماعَ والرقصَ دينَهم وملَّتَهم مستندين إلى عمل مشائخهم، واتَّخذوه طاعتهم وعبادتهم، أولئك الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعبًا، وقد علم من الرواية السَّابقة: أنَّ من استحسن الفعلَ الحرامَ؛ فقد خرج من زمرة.........................

أهل الإسلام، وصار مرتدّاً، فينبغي التأمُّل ماذا يكون شناعةُ تعظيم مجلس السَّماع والرقص، بل اتِّخاذُه طاعةً وعبادةً - ولله سبحانه الحمد والمنة - لم يُبْتَلَ مشائخنا بهذا الأمر، وخلَّصوا أمثالنا المقلدين من تقليد هذا الأمر، وقد نسمع أنَّ المخاديمَ يميلون إلى السَّماع، ويعقدون مجلسَ السَّماع وقراءة القصائد في ليالي الجمعة، وأكثرُ الأصحاب يوافقونهم في ذلك الأمر، والعجبُ ألف عجبٍ أنَّ مريدي السَّلاسل الأُخر إنّما يرتكبون هذا الأمر مستندين إلى عمل مشائخهم، ويدفعون الحرمةَ الشَّرعيّةَ بعملهم، وإن لم يكونوا محقّين في هذا الأمر في الحقيقة، وما معذرةُ أصحابنا في ارتكاب هذا الأمر؟ وفيه ارتكابُ الحرمة الشَّرعيّة من طرفٍ، وارتكابُ مخالفة مشائخ طريقهم من طرفٍ آخر، فلا أهلُ الشَّريعة راضون عن هذا الفعل ولا أهلُ الطَّريقة، فلو لم يكن فيه ارتكابُ الحرمة الشَّرعيّة؛ لكان مجرّدُ إحداث أمرٍ في الطَّريقة شنيعاً، فكيف إذا اجتمع معه ارتكابُ الحرمة الشَّرعيّة؟ واليقينُ أنَّ جناب الميرزا جيو لا يرضى بهذا الأمر، ولكن لا يصرِّحُ بالمنع أيضاً رعايةً للأدب معكم، ولا ينهى الأصحابَ عن هذا الاجتماع أيضاً، والفقيرُ لَمّا أحسستُ توقُّفاً في مجيئي؛ كتبتُ هذه الفقرات، وأرسلتها إليكم، فينبغي قراءتها من أوّلها إلى آخرها عند الميرزا جيو، والسلام.

المكتوب السابع والستون والمائتان

إلى الميرزا حسام الدِّين أحمد في بيانِ أنَّ الأسرارَ والدَّقائقَ التي امتازَ بها لا يمكنُ إظهارُ نبذةٍ منها، بل لا يمكِنُ التَّكلُّم عنها بالرَّمز والإشارةِ، وأنَّها مقتبَسةٌ من مشكاةِ النُّبوَّة، ويشترِكُ فيها الملأُ الأعلى أيضاً، وما يُناسبُه.

بعد الحمد والصلوات، وتبليغ الدعوات، ليعلم أنَّ الصَّحيفةَ الشَّريفةَ التي أرسلْتَها باسم هذا الحقير على وجه الكرم قد وصلتْ، وتشرَّفتُ بمطالعتها جزاكم الله سبحانه خير الجزاء، وماذا أكتب من إنعامات الحقّ جل سلطانه؟ وكيف أؤدّي شكرها؟ وما يفاض من العلوم والمعارف يكتب أكثرُها؟ ويحرَّرُ بتوفيق الله تعالى، ويوصل إلى سمع أهلها، ولكنَّ الأسرارَ والدقائقَ التي كنت ممتازاً بها؛ فلا يمكن إيرادُ نبذةٍ منها في عرصة الظُّهور، بل لا يمكن التكلّمُ من تلك المقولة بالرمز والإشارة، حتى إنَّه لا يورد رمزٌ من هذه الأسرار والدَّقائق بيني وبين ولدي الأعزّ الذي هو مجموعةُ معارفي، ونسخةُ مقامات السُّلوك والجذبة، بل أجتهدُ في سترها منه بالشحِّ التامِّ، مع أنِّي أعلم أنَّه من محارم الأسرار، ومحفوظٌ من الغلط والخطأ، ولكن ماذا أصنع؟ يأخذ دقَّةُ المعاني باللِّسان - يعني: تمنعه -، ويُرْبَطُ من لطافة الأسرار الشَّفتان، فنقدُ الوقت تكرارُ: ﴿يَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ﴾ [الشعراء: ١٣]، وليست تلك الأسرار من قبيل ما لا ينبغي إيرادها في البين، بل لا يسعها نطاقُ البيان: (شعر)

خَلِيلِي مَا هَذَا بِهَزْلٍ وَإِنَّمَا عَجِيبُ الْأَحَادِيثِ غَرِيبُ الْبَدَائِعِ

وهذه الدَّولةُ التي نحن نجتهد في سترها مقتبسةٌ من مشكاة نبوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والملأُ الأعلى شركاءُ في هذه الدَّولة، وكلُّ من يشرَّفُ بها من أتْباع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، قال أبو هريرة ﷺ: أخذتُ عن رسول الله ﷺ وعائين - يعني: من العلم -، أما أحدهما؛ فقد بَثَثْته، وأما الآخرُ؛ فلو بثثْتُه قُطِعَ هذا البلعوم[1]، وذلك العلمُ الآخر هو علمُ الأسرار، ولا يدركه فهمُ كلِّ أحدٍ، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ.........................

(١) أخرجه البخاري (١٢٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

﴿الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]. ثم المعروضُ أنَّ الكتابَ الذي كتبتُه إلى أولاد شيخنا ينبغي أن تطالعَه.

أيُّها المخدومُ المكرّمُ، إنَّ إحداثَ شيءٍ في الطَّريقة ليس هو عند الفقير بأقلَّ من إحداث بدعةٍ في الدين، وبركاتُ الطَّريقة إنّما تفاض وتعود على أهلها ما لم يحدث فيها محدثٌ، فإذا حدث فيه محدثٌ؛ ينسدُّ طريقُ الفيوض والبركات، فحفظُ الطَّريقة من المحدثات من أهمِّ المهمات، والاجتنابُ عن مخالفة الطَّريقة من الضَّروريات، فكلُّ موضعٍ رأيت فيه مخالفةَ الطَّريقة ينبغي زجرُه ومنعُه بالمبالغة، والاجتهاد في ترويج الطَّريقة وتقويتها، والسلام.

المَكْتُوبُ الثَّامِنُ وَالسِّتُّونَ وَالمِائَتَانِ

إلى خان خانان في بيانِ العِلمِ المَوروثِ من الأنبياءِ، وبيانِ المرادِ بالعلماءِ في حديثِ: «عُلَمَاءُ أُمَّتِي كَأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ»، وأنَّ العِلمَ المَوروثَ من الأنبياءِ ليسَ هو الأسرارَ التي تكلَّم بها الأولياءُ منَ التَّوحيدِ الوُجوديِّ والإحاطةِ والسَّرَيانِ وما يُشاكلُها، بل غيرُها.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. **وبعدُ**: فاعلم أنَّ أحوالَ فقراء هذه الحدود وأوضاعهم مستوجبةٌ للحمد، والمسؤولُ من الله سبحانه سلامتُكم وعافيتُكم، وثباتُكم واستقامتُكم، ولَمّا كان مبحثُ علم الوراثة في البين؛ أردت أن أكتب كلماتٍ من تلك المقولة على حسب مقتضى الوقت، وقد ورد في الأخبار: «**العُلَمَاءُ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ**»[1]، والعلمُ الذي بقي من الأنبياء عليهم السلام نوعان: علمُ الأحكام، وعلمُ الأسرار، فالعالمُ الوارثُ: مَنْ يكون له سهمٌ من نوعي العلم، لا من يكون له نصيبٌ من نوعٍ واحدٍ فقط، فإنَّ ذلك منافٍ للوراثة، فإنَّ الوارثَ: من يكون له نصيبٌ من جميع أنواع تركة المورث، لا من بعضٍ دون بعضٍ، والذي له نصيبٌ من البعض المعيَّن؛ فهو داخلٌ في الغرماء، حيث يتعلّق نصيبُه بجنس حقّه، وكذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**عُلَمَاءُ أُمَّتِي كَأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ**»، والمرادُ بالعلماء هنا: علماءُ الوراثة، لا الغرماءُ الذين يأخذون نصيبهم من بعض التركة، فإنَّ الوارثَ يمكن أن يقال له: إنَّه كالمورِّث بواسطة القرب والجنسيَّة، بخلاف الغريم، فإنَّه خالٍ عن هذه العلاقة، فمن لم يكن وارثـاً لا يكون عالمـاً، إلا أن نقيِّدَ علمَه بنوعٍ واحدٍ، ونقول: إنَّه عالمٌ بعلم الأحكام مثلاً، والعالمُ المطلقُ: هو الذي يكون وارثـاً، ويكون له حظٌّ وافرٌ ونصيبٌ تامٌّ من كِلَا نوعي العلم. وقد زعم الأكثرون: أنَّ علمَ الأسرار عبارةٌ عن علوم التَّوحيد الوجوديّ، وشهودِ الوحدة في الكثرة، ومشاهدةِ الكثرة في الوحدة، وأنَّه كنايةٌ عن معارف الإحاطة، وسريان وجوده تعالى، وقربه ومعيَّته سبحانه على النَّهْج الذي صارت منكشفةً ومشهودةً لأرباب الأحوال. حاشا وكلا ثم حاشا وكلا من أن تكون هذه العلومُ والمعارفُ من علم الأسرار، ولائقةً بمرتبة النبوَّة، فإنَّ مبنى تلك المعارف السُّكرُ وغلبةُ الحال التي هي منافيةٌ للصَّحو، وعلمُ الأنبياء كلُّه - سواءٌ كان علمَ الأحكام أو علمَ الأسرار - ناشٍ من غاية الصَّحْو الذي ما امتزجتْ فيه ذرَّةٌ من السُّكر، بل هذه المعارفُ مناسبةٌ لمقام الولاية التي لها قدمٌ راسخٌ في السُّكر، فتكون هذه العلومُ من أسرار الولاية، لا من أسرار النبوَّة، والولايةُ وإن كانت هي أيضـاً ثابتةً، ولكنَّ أحكامَها مغلوبةٌ، وفي جنب أحكام النبوَّة متلاشيةٌ ومضمحلّةٌ: (شعر)

وَمَتَى بَدَتْ أَنْوَارُ بَدْرٍ فِي الدُّجَى ... مَا لِلسُّهَى مِنْ حِيلَةٍ سِوَى الِاخْتِفَا

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣) من حديث أبي الدرداء ﷺ.

وقد كتبت في كتبي ورسائلي وحقَّقتُ أنَّ كمالاتِ النبوَّة لها حكمُ البحر المحيط، وكمالاتِ الولاية في جنبها قطرةٌ محقرةٌ، ولكن ماذا نفعل وقد قال جماعةٌ من عدم إدراكهم لكمالات النبوَّة: إنَّ الولايةَ أفضلُ من النبوَّة؟ وقالت طائفةٌ أخرى في توجيه هذا الكلام: إنَّ المرادَ به: أنَّ ولايةَ نبيٍّ أفضلُ من نبوَّته، وكلٌّ من هذين الفريقين قد حكموا على الغائب من غير علمٍ بحقيقة النبوَّة، وقريبٌ من هذا الحكم الحكمُ بترجيح السُّكر على الصَّحو، فإن عرفوا حقيقةَ الصحو؛ لعرفوا أنَّ السُّكرَ لا نسبةَ له إلى الصَّحو أصلاً:

(ع) مَا نِسْبَةُ الْفَرْشِيِّ بِالْعَرْشِيِّ

وكأنَّهم شبَّهوا صحوَ الخواصِّ بصحو العوامِّ، وزعموا وجودَ المماثلة بينهما، فرجَّحوا السُّكرَ عليه، وليتهم إذ زعموا وجودَ المماثلة بين صحو الخواصّ وصحو العوامّ لم يجترؤوا على هذا الحكم، فإنَّ من المقرّر عند العقلاء: أنَّ الصَّحوَ أفضلُ من السُّكر مطلقاً، وهذا الحكمُ دائميٌّ عندهم، سواءٌ كان السُّكرُ والصَّحوُ مجازيين أو حقيقيين، وتفضيلُ الولاية على النبوَّة وترجيحُ السُّكر على الصحو شبيهٌ بترجيح الكفر على الإسلام وتفضيل الجهل على العلم، فإنَّ كلّاً من الكفر والجهل مناسبٌ لمقام الولاية، وكُلّاً من الإسلام والعلم مناسبٌ لمرتبة النبوَّة، قال الحسينُ بن منصور الحلّاج: (شعر)

كَفَرْتُ بِدِينِ اللهِ وَالْكُفْرُ وَاجِبٌ لَدَيَّ وَعِنْدَ الْمُسْلِمِينَ قَبِيحُ

ومحمد رسول الله ﷺ استعاذ من الكفر، ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٤]، فكما أنَّ الإسلامَ في عالم المجاز أفضلُ من الكفر؛ كذلك ينبغي أن يعتقد أنَّه في الحقيقة أفضلُ من الكفر، فإنَّ المجاز قنطرةُ الحقيقة.

فإن قيل: كما أنَّ الكفرَ والسُّكرَ والجهلَ ثابتٌ في مرتبة الجمع من مقامات الولاية؛ كذلك الإسلامُ والصحوُ والمعرفةُ متحقّقٌ في مرتبة الفرق بعد الجمع منها، فكيف يصحُّ القولُ بمناسبة الكفر والسُّكر والجهل فقط لمقام الولاية؟

أقول: إنَّ إثباتَ الصَّحو وأمثالَه في مرتبة الفرق إنّما هو بالنِّسبة إلى مرتبة الجمع التي ليس فيها غيرُ السُّكر والمحو، وإلا؛ فصحوُ مرتبة الفرق أيضاً ممتزجٌ بالسُّكر، وإسلامُها مختلطٌ بالكفر، ومعرفتُها مشوبةٌ بالجهل، فلو وجدتُ مجالاً للكتابة؛ لذكرتُ أحوالَ مقام الفرق ومعارفَه بالتَّفصيل، وبيَّنتُ امتزاجَ السُّكر وأمثاله فيها بالصَّحو وأمثاله، ولعلَّ أربابَ الفطانة يجدون هذا المعنى بالتفرُّس أيضاً، والعجبُ كلَّ العجب ألم يفهموا أنَّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إنّما نالوا ما نالوا من هذه العظمة والجلالة كلَّها من طريق النبوَّة لا من طريق الولاية؟ وغايةُ شأن الولاية إنّما هي الخادميَّةُ للنُّبوَّة، فلو كانت للولاية مزيَّةٌ على النبوَّة؛ لكان الملائكةُ الذين ولايتُهم أكمل من سائر الولايات أفضلَ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولَمَا قالت طائفةٌ من هؤلاء القوم بأفضليّة الولاية من النبوَّة، ورأوا ولايةَ الملائكة الملأ الأعلى أفضلَ من ولاية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، قالوا بالضَّرورة: إنَّ الملائكةَ أفضلُ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وفارقوا في ذلك جمهورَ أهل السنة والجماعة، وكلُّ ذلك لعدم الاطِّلاع على حقيقة النبوَّة، ولَمّا كانت كمالاتُ النبوَّة حقيرةً في نظر النّاس في جنب كمالات الولاية بواسطة بُعْد عهد النبوَّة بسطنا الكلامَ في هذا الباب بالضَّرورة، وكشفنا شَمّةً من حقيقة المعاملة، ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

وحيث كان أخي الأرشدُ الشَّيخ ميان داود من المتردِّدين في تلك الحدود؛ كان باعثاً على هذا التَّصديع.

المكتوب التاسع والستون والمائتان

إلى مرتَضى خان في التَّرغيبِ في إيصالِ الإهانَةِ إلى أعداءِ الدِّينِ، وتَخريبِ آلِهتِهم الباطلَة وتَوهِينها، وإظهارِ تمنِّيه هذا الأمرَ العَظيمَ القَدرِ، وما يناسبُ ذلك.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. اعلم أنَّ لكلِّ شخصٍ تمنّي أمر من الأمور، وتمنِّي هذا الفقير التَّشديدُ على أعداء الله جل وعلا وأعداءِ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وإيصال الإهانة لهؤلاء الخائبين، واحتقار آلهتهم الباطلة، واعلم يقيناً أن لا عملَ أرضى عند الحق جلّ وعلا من هذا العمل، ولهذا نرغِّبُكم في هذا العمل المرضيّ مكرراً، وأرى إتيانَ هذا العمل من أهمِّ مهمات الإسلام، وحيث وُفِّقْتَ للتَّشريف هناك، وتعيّنتَ لتحقير تلك البقعة الكثيفة وإهانة أهلها؛ ينبغي أوّلاً أداءُ شكر هذه النّعمة، فإنّه كان يذهب جمعٌ كثيرٌ لتعظيم ذلك المقام، وتوقير أهله، لله سبحانه الحمد والمنة على ما لم يبتلنا بهذه البليَّة، وبعد أداء شكر هذه النعمة العظمى ينبغي تقديمُ السعي البليغ في تحقير هؤلاء الخائبين الخاسرين، وتوهين آلهتهم الباطلة، والاجتهاد في تخريب تلك الجماعة سرّاً وجهراً مهما أمكن وتيسّرَ، وإيصال أنواع الإهانة لنَاحِتي الأصنام القاصرين، وعسى أن يُتلافى ويُتدارك بهذا العمل بعضُ المداهنات الواقعة في حقِّهم، ويكون ذلك كفّارةً لتلك. ويمنعني ضعفُ البدن وشدَّةُ البرد من الوصول هناك، وإلا؛ لوصلتُ إلى خدمتكم للتَّرغيب في هذا الأمر، ورميتُ بهذه المناسبة بُزَاقاً على ذلك الحجر، وجعلتُه رأسَ بضاعة السَّعادة، وماذا أبالغ أزيدَ من ذلك؟

المكتوب السبعون والمائتان

إلى الشَّيخ نور محمَّدٍ في بيانِ ترجيحِ بعضِ الصُّحبَة على العُزلَة.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. قد نسي أخي نور محمد النَّائين المهجورين على نهج لا يذكرهم بسلام ولا بكلام، وكان متمنَّاكم العزلةُ والانزواءُ، فقد تيسّر ذلك، ولكنَّ بعضَ الصُّحبة يرجَّحُ ويفضَّلُ على العزلة، وكفى حالُ أويس القرني أن يكون مقياساً، حيث اختار العزلةَ، ولم ينل صحبةَ خير البشر عليه وعلى آله الصلاة والسلام، فلم يجد حظّاً من كمالات الصُّحبة، وصار من التَّابعين، وتأخَّر من الدَّرجة الأولى من درجات الخير إلى الدَّرجة الثّانية، وفي كلِّ يومٍ طرزٌ آخرُ من الصُّحبة بعناية الله تعالى، «مَنِ اسْتَوَى يَوْمَاهُ فَهُوَ مَغْبُونٌ»[1]. والسلامُ عليكم وعلى سائر من اتَّبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى، عليه وعلى آله الصلوات والتحيات.

المكتوب الحادي والسبعون والمائتان

إلى الشَّيخ حسنِ البَركيِّ في حلِّ استِفسارِه عنِ الواقعَة التي رآها.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. وصل مكتوب أخي الأعزّ الشَّيخ حسن أحسن الله حاله، وبلَّغه كماله، واتَّضحت الواقعةُ المسطورةُ التي ظهرت ظهوراً بيِّناً، ينبغي أن تكون راجياً، وأن تجتهد في إتيان ما أنت مأمورٌ به ببذل الروح، وأن لا تجوِّز تجاوزَ الحدود الشَّرعيّة مقدار شعرةٍ، وأن تتحلَّى بمعتقدات أهل السنة والجماعة الحقّة:

(ع) هذا هو الأمر والباقي خيالات

فإن أجاز والدُكم ورضي الإخوانُ ينبغي أن تغتنمَ سير بلاد الهند، والسلام.

المكتوب الثاني والسبعون والمائتان

إلى السَّيِّد محبِّ اللهِ المانكپوريِّ في بيانِ الإيمانِ

(١) أخرجه الديلمي في «الفردوس» (٥٩١٠) من حديث علي رضي الله عنه.

الغَيبيّ والإيمانِ الشُّهوديّ، وبيانِ التَّوحيدِ الوجوديّ والتَّوحيدِ الشُّهوديّ، وأنَّ الضَّروريَّ في تحقُّقِ الفَناءِ هو الشُّهوديُّ، وأنَّ أوَّلَ من أظهَر التَّوحيدَ الوجوديَّ صاحبُ «الفُتوحاتِ المكيَّةِ»، وما يناسبُ ذلك.

بعد الحمد والصلوات، ليعلم الأخُ الأعزُّ المير محب الله أنَّ الإيمانَ بالغيب بوجود الواجب تعالى وسائر صفاته نصيبُ الأنبياء وأصحابهم عليهم الصلاة والسلام، ونصيبُ الأولياء الذين ثبت لهم الرجوعُ بالكليَّة، ونسبَتُهم نسبةُ الأصحاب، وإن كان هؤلاء قليلين، بل أقلّ، ونصيبُ العلماء ونصيبُ عامّة المؤمنين أيضـًا، والإيمانُ الشُّهوديُّ نصيبُ عامة الصوفيَّة، سواءٌ كانوا من أرباب العزلة أو من أصحاب العشرة، فإن أصحاب العشرة وإن كانوا مرجوعين، لكنَّهم ما رجعوا بالكليَّة، بل باطنُهم مستشرفٌ إلى الفوق، ومنجذبٌ إليه دائمـًا، فهم بالظَّاهر مع الخلق، وبالباطن مع الحقّ جل سلطانه، فالإيمانُ الشُّهوديُّ نصيبُهم دائمـًا، والأنبياءُ عليهم السلام لَمّا كانوا مرجوعين بالكليَّة ومتوجّهين ظاهراً وباطناً إلى دعوة الخلق بالحقّ جلّ وعلا؛ كان الإيمانُ الغيبيُّ نصيبَهم بالضَّرورة.

وقد حقَّق هذا الفقيرُ في بعض رسائله: أنَّ التوجّهَ نحو الفوق مع وجود الرجوع من علامة النَّقص، وعدم الوصول إلى نهاية الأمر، والرجوعُ بالكليَّة علامةُ الوصول إلى نهاية النهايات، والصوفيَّةُ زعموا أنَّ الكمالَ إنّما هو في الجمع بين التوجّهين، وعدُّوا الجامعَ بين التَّشبيه والتَّنزيه من الكمَّل:

(ع) وَلِلنَّاسِ فِيمَا يَعْشَقُونَ مَذَاهِبُ

فإذا فرغ الأنبياءُ عليهم الصلاة والسلام من وظيفة الدَّعوة، وتوجّهوا نحو عالم البقاء، وتمَّت مصلحةُ الرُّجوع؛ يكونون متوجّهين بكليَّتهم إلى الحقّ جل شأنه، قائلين بتمام الشوق: الرفيقَ الأعلى، متبخترين في مراتب القُرْب: (شعر)

هَنِيئـًا لِأَرْبَابِ النَّعِيمِ نَعِيمُهَا ... وَلِلعَاشِقِ المِسْكِينِ مَا يَتَجَرَّعُ

والكمالُ عند الفقير: هو أن ترتفع الكثرةُ وقت العروج عن النَّظَر بالكليَّة حتى لا تكون الأسماءُ والصِّفاتُ أيضـًا ملحوظةً، ولا يكون غير الأحديّة المجرَّدة مشهوداً، ثم يعامل معه ما يعامَلُ معه، وأن يقع النَّظَرُ وقت الرُّجوع إلى الكثرة بالتَّمام، ولا يكون مشهودُه كعامَّة المؤمنين غير الخلق، ولا يكون شغلُه غيرَ أداء الطَّاعة ودعوة الخلق إلى الحقّ جل وعلا، فإذا تمَّ أمرُ الدعوة، وودَّعَ العالمَ الفانيَ؛ يتوجّهُ بكليَّته إلى جناب قدسه تعالى، ويحوِّلُ رحله من الغيب إلى الشهادة، ويبدِّلُ معاملةَ المراسلة بمعاملة المعانقة، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

ولا يخيلنَّ النَّاقصُ أنَّ الرجوعَ الكليَّ نقصٌ، ولا يزعمنَّ أنَّ التوجّهَ بالباطن إلى الحقّ جل وعلا أفضلُ من التوجّه إلى الخلق لدعوتهم وتكميلهم، فإنَّ صاحبَ الرُّجوع ما جاء إلى مقام الرجوع باختيار نفسه، بل نزل من أعلى إلى أسفل بإرادة الحقّ جلّ سلطانه، ورضي لنفسه بالهجر عن الوصول، فصاحبُ الرجوع قائمٌ بمراد الحقّ جلّ شأنه، وفانٍ عن مراد نفسه، وصاحبُ التوجّه محظوظٌ بالوصل والشُّهود، ومسرورٌ بالقرب والمعيّة: (شعر)

إِذَا أَرْضَى مِنَّا قَلْبِي بِعَادِي ... فَهَذَا الهَجْرُ أَحْظَى مِنْ وِصَالِي

لِأَنِّي فِي الوِصَالِ عُبَيْدُ نَفْسِي ... وَفِي الهِجْرَانِ مَوْلَىً لِلمَوَالِي

وَشُغْلِي بِالحَبِيبِ بِكُلِّ حَالٍ ... أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ شُغْلِي بِحَالِي

وفضائلُ الرجوع وكمالاته كثيرةٌ، وصاحبُ التوجّه بالنِّسبة إلى صاحب الرجوع قطرةٌ بالنِّسبة إلى البحر المحيط، وهذا الرجوعُ من فضائل النبوَّة، وذاك التوجّهُ من آثار الولاية، شتَّان ما بينهما، ولكن لا يدرك هذا الكمالَ فهمُ كلِّ أحدٍ، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

وقال بعض الجامعين بين التَّشبيه والتَّنزيه: إنَّ الإيمان بالتَّنزيه حاصلٌ لجميع المؤمنين، والعارفُ هو الذي يجمع بينه وبين الإيمان بالتَّشبيه، ويرى الخلقَ ظهورَ الخالق، والكثرةَ كسوةَ الوحدة، ويطالع الصَّانعَ في صنعه. وبالجملة إنَّ التوجّهَ إلى التَّنزيه الصِّرف نقصٌ عندهم، وشهودَ الوحدة بلا ملاحظة الكثرة عيبٌ، وهذه الجماعةُ يعدُّون المتوجّهين إلى الأحديَّة الصِّرفة ناقصين، ويظنُّون ملاحظةَ الوحدة بلا مطالعة الكثرة تحديداً وتقييداً، سبحان الله وبحمده، أَمَا دروا أنَّ دعوةَ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كلَّها إلى تنزيهٍ صرفٍ، والكتبُ السَّماويةُ ناطقةٌ بالإيمان التنزيهيِّ، والأنبياءُ عليهم الصلاة والسلام ينفون الآلهةَ الباطلةَ الآفاقيّةَ والأنفسيّةَ، ويدعون الخلقَ إلى إبطالها، ويدلُّون على وحدة واجب الوجود المنزَّه عن التَّشبيه والتَّكييف؟ هل سمعتَ قطُّ أن نبيّاً دعا إلى الإيمان التشبيهيّ، وقال: إنَّ الخلقَ ظهورُ الخالق؟ وجميعُ الأنبياء متفقون على توحيد واجب الوجود تعالى وتقدس، ونفي أرباب غيره تعالى، قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وهؤلاء الجماعةُ يثبتون أرباباً غيرَ متناهيةٍ، ويتخيَّلون كلَّهم ظهوراتِ رب الأرباب، وما يستشهدون به في إثبات مطالبهم من الكتاب والسنة ليس فيه استشهادٌ أصلاً.

أما الكتابُ؛ فقوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]، ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠].

وأما السنةُ؛ فقوله عليه الصلاة والسلام: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ**»(١)، فإنَّ جميعَ الحصر في هذه العبارات لنفي كمال الوجود عما سواه تعالى بأبلغ الوجوه، لا نفي أصل الوجود، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**لَا صَلَاةَ إِلَّا بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ**»(٢)، وقال أيضاً: «**لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ**»(٣)، وأمثال ذلك في الكتاب والسنة كثيرةٌ.

وهذا التَّوجيهُ ليس من قبيل تأويل النُّصوص كما زعموا، بل هو حَمْلُ النُّصوص على كمال البلاغة، كما أنَّ في العرف إذا وقع الاهتمامُ برسالة شخصٍ ونيابته يقال: إنَّ يدَه يدي، والمقصودُ هنا ليس الحقيقةَ، بل المجازُ الذي هو أبلغُ من الحقيقة، فإذا كان وقوعُ الفعل أكثرَ وأزيدَ بالنَّظَر إلى مقدار قدرة الفاعل الذي هو عبدٌ مملوكٌ لصاحب القدرة الكاملة، وكان التفاتُ ذلك القادر المالك، وتوجّهُه إلى ذلك الفعل مرعيّاً؛ يصحُّ للمالك أن يقول: أنا فعلتُ هذا الفعلَ لا أنت، ولا دلالةَ لهذا الكلام أصلاً على اتِّحاد الفعل ولا على اتِّحاد الذات، معاذ الله من أن يكون فعلُ العبد المملوك عينَ فعل المالك المقتدر، أو يكون ذاتُه عينَ ذاته، ألم تفهم هذه الجماعةُ مذاقَ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟ فإنَّ مدارَ دعوتهم على إثبات الاثنينيَّة، ووجودِ المغايرة - يعني: بين الخلق والخالق -، وتنزيلُ..

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٧٥٦)، ومسلم (٣٩٤) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ بلفظ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب».

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٢٣٨٣)، وأبو يعلى في «مسنده» (٢٨٦٣)، وابن حبان في «صحيحه» (١٩٤) من حديث أنس ﷺ.

عباراتهم على التَّوحيد والاتحاد من التَّكلّفات الباردة، فإن كان الموجودُ واحداً في الحقيقة، وكان ما سواه ظهوراتِه، وكان عبادةُ ما سواه عبادته كما زعم هؤلاء الجماعة؛ لِمَ منع الأنبياءُ عليهم السلام عنها بالمبالغة والتَّأكيد؟ ولِمَ خوَّفوا بالعقوبات الأبديّة على عبادة ما سواه؟ ولِمَ قالوا العابديه أعداء الله؟ ولِمَ لَمْ يُطْلِعوهم على منشأ غلطهم، ولم يزيلوا عنهم رؤيةَ المغايرة الناشئة عن الجهل فيهم، ولم يفهموهم أنَّ عبادةَ ما سواه عينُ عبادته جلّ وعلا؟ قال بعضُ هؤلاء الجماعة: إنَّ الأنبياءَ عليهم الصلاة والسلام إنّما أخفوا أسرار التَّوحيد الوجوديّ عن العوامّ، وبنوا أمرَ الدعوة على إثبات المغايرة، وأخفوا الوحدةَ، ودلُّوا على الكثرة، بسبب قصور فهم العوامّ عن ذلك.

وهذا القولُ غيرُ مسموعٍ منه، كما لا يسمع القولُ بالتُّقاة من الشِّيعة، فإنَّ الأنبياء عليهم السلام أحقُّ بتبليغ ما هو مطابقٌ لنفس الأمر، فإن كان الوجود في نفس الأمر واحداً؛ فلِمَ أخفوه وأظهروا خلاف ما في نفس الأمر، خصوصاً في الأحكام التي تتعلّق بذات واجب الوجود وصفاته وأفعاله تعالى وتقدس، فإنَّهم أحقّاءُ بإعلانها وإظهارها، وإن كان قاصرُ النظر قاصراً عن إدراكها، وعاجزاً عن فهمها، فضلاً عن العوام؟ ألا ترى أنَّ المتشابهات القرآنية وما ورد في الأحاديث النبوية من المتشابهات يعجز الخواصُّ عن فهمها فضلاً عن العوام، ومع ذلك لم يمنعوا ولم يُعقِبْهم توهُّمُ غلط العوام من إبدائها؟ وهؤلاء الجماعةُ يسمون من يقول بتعدد الوجود والموجود ويتنزَّه عن عبادة ما سوى المعبود تعالى وتقدس: مشركاً، ويقولون لمن يقول بوحدة الوجود: موحِّداً ولو كان يعبد ألفَ صنمٍ بتخيُّل أنَّها ظهوراتُ الحق سبحانه، وأنَّ عبادتَها عبادته سبحانه.

ينبغي أن يتأمَّل بالإنصاف أيُّ صنفٍ من هذين الصنفين مشركٌ؟ وأيُّ صنفٍ منهما موحِّدٌ؟ والأنبياءُ عليهم الصلاة والسلام ما دعوا الخلق إلى وحدة الوجود، ولم يقولوا لمن قال بتعدُّد الوجود: مشركاً، بل كانت دعوتُهم إلى وحدة المعبود جلّ سلطانه، وأطلقوا الشِّركَ على عبادة ما سواه تعالى، فإن لم يعرف الصوفيَّةُ الوجوديّةُ ما سواه تعالى بعنوان الغيريَّة؛ لا يتخلَّصون من الشِّرْك، وما سواه تعالى هو ما سواه تعالى، عرفوا ذلك أو لا.

وبعضُ المتأخرين منهم قال: إنَّ العالَمَ ليس عينَ الحقّ جلّ سلطانه، ويتحاشى من القول بالعينيَّة، ويطعنُ في القائلين بها ويشنِّعُهم، وينكر الشَّيخ محيي الدين ابن العربي وأتباعه من هذا الوجه، ويَذْكُرُهم بسوءٍ، ومع ذلك لا يقول بمغايرة العالم للحقّ سبحانه، بل يقول: إنَّه ليس عينَ الحق ولا غيرَ الحقّ سبحانه، وهذا الكلامُ بعيدٌ عن الصواب، فإنَّ (الاثنان متغايران) قضيَّةٌ مقررةٌ، ومنكرُ المغايرة بين الاثنين مصادمٌ لبديهة العقل.

غَايةُ ما فِي البابِ: أنَّ المتكلّمين قالوا في صفات الواجب: إنَّها لا هو ولا غيره، وأرادوا بالغير الغيرَ المصطلحَ، وراعوا جوازَ الانفكاك في المتغايرين، فإنَّ صفات الواجب ليست منفكَّةً عن الذات، وجوازُ الانفكاك بين الذات والصِّفات القديمة غيرُ متصوَّرٍ، فقولُ: لا هو ولا غيره صادقٌ في الصِّفات القديمة، بخلاف العالم، فإنَّ تلك النِّسبةَ مفقودةٌ فيه، «**كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ شَيْءٌ**»، فنفيُ العينيّة والغيريّة معاً من العالم بعيدٌ عن الصِّدق لغةً واصطلاحاً، وهؤلاء الجماعةُ إنّما زعموا العالمَ وتصوَّروه كالصِّفات القديمة، وأثبتوا له الحكمَ المخصوصَ بها من قصورهم وعدم وصولهم، وحيث قالت هؤلاء الجماعةُ بنفي عينيّة العالم؛ كان اللازمُ لهم أن يقولوا بغيريَّته................................

أيضاً حتى يخرجوا من زمرة أرباب التَّوحيد الوجوديّ، ويحكموا بتعدُّد الوجود، وفي التَّوحيد الوجوديّ لا بدَّ من القول بالعينية كما قال بها الشَّيخ محيي الدين ابن العربي وأتباعُه، والقولُ بالعينيّة لا بمعنى: أنَّ العالمَ متَّحدٌ بالصانع، معاذ الله من ذلك، بل بمعنى: أنَّ العالمَ معدومٌ، والموجودُ هو واجبُ الوجود تعالى وتقدس كما حقَّق هذا الفقيرُ هذا المعنى في بعض رسائله.

فإن قيل: إنَّ الصوفيَّةَ الوجوديّةَ إنّما يقولون لمن يقول بتعدُّد الوجود مشركاً باعتبار أنَّه يرى ويشاهد الاثنين، ومشاهدُ الاثنين هو مشركُ الطَّريقة.

أجيب: إنَّ رؤيةَ الاثنين التي هي شركُ الطَّريقة تندفع بالتوحيد الشُّهوديّ، ولا حاجةَ إلى التَّوحيد الوجوديّ في ذلك الموطن، بل ينبغي أن لا يكون مشهود السَّالك وملحوظه غير الذَّات الأحد المقدَّسة حتى يتحقّق الفناءُ، ويندفع شركُ الطَّريقة، كما إذا رأى شخصٌ الشمسَ في النهار وحدها، ولم ير النُّجوم، يندفع رؤيةُ الاثنين، وإن كانت النُّجومُ كلُّها موجودةً في النَّهار، والمقصودُ هو كونُ المشهود هو الشّمسَ وحدها، سواءٌ كانت النُّجومُ موجودةً أو معدومةً. بل أقول: إنَّ كمالَ الفناء إنّما هو في صورة تكون الأشياء موجودةً، ومع ذلك لا يلتفت السَّالكُ - من كمال تعلّقه وشغفه بالمطلوب الحقيقيّ - إلى شيءٍ أصلاً، بل لا يشاهد شيئاً، ولا يقع نظرُ بصيرته إلى شيءٍ قطعاً، فإن لم تكن الأشياءُ موجودةً؛ فمن أيِّ شيءٍ يتحقّقُ الفناءُ؟ وعمَّن يكون فانياً وذاهلاً وناسياً؟ وأوَّلُ من صرَّح بالتَّوحيد الوجوديّ هو الشَّيخُ محيي الدين ابن العربي، وعباراتُ المشائخ المتقدمين وإن كانت مشعرةً بالتَّوحيد، ومنبئةً عن الاتحاد، ولكنَّها قابلةٌ للحمل على التَّوحيد الشُّهوديّ، فإنَّه لَمّا لم ير غيرَ الحقّ سبحانه قال بعضهم: ليس في جبّتي سوى الله، وقال بعضهم: سبحاني، وبعضهم: ليس في الدار غيري، وهذه كلُّها أزهارٌ تفتقَّتْ من غصن رؤية الواحد، لا دلالةَ في واحدٍ منها على التَّوحيد الوجوديّ، والذي بوَّب مسألةَ وحدة الوجود وفصَّلها ودوَّنها تدوينَ النَّحو والصَّرْف هو الشَّيخ محيي الدين ابن العربي، وخصَّص بعضَ المعارف الغامضة بين هذا المبحث بنفسه، حتى قال: إنَّ خاتمَ النبوَّة يأخذ بعض العلوم والمعارف عن خاتم الولاية، وأراد بخاتم: الولايةَ المحمديَّةَ نفسه. وقال الشراحُ في توجيهه: إنَّ السلطانَ إذا أخذ من خازنه شيئاً؛ فأيُّ نقصانٍ فيه؟

وبالجملة لا حاجة في تحصيل الفناء والبقاء وحصول الولاية الصغرى والكبرى إلى التَّوحيد الوجوديّ، بل لا بُدَّ في تحقّق الفناء، وحصول نسيان السِّوَى من التَّوحيد الشُّهوديّ، بل يمكن أن يسير السَّالكُ من البداية إلى النهاية، ولا يظهر له شيءٌ من علوم التَّوحيد الوجوديّ ومعارفها أصلاً، بل يكاد ينكرُ هذه العلومَ، وعند هذا الفقير إنَّ الطَّريقَ الذي يتيسّر سلوكُه بدون ظهور هذه المعارف أقربُ من الطَّريق الذي هو متضمِّنٌ لظهور هذه المعارف.

وأيضاً إنَّ أكثرَ سالكي هذا الطَّريق يصلون إلى المطلوب، وأكثرَ سائري ذاك الطَّريق يبقون في الطَّريق، ويروون من البحر بقطرةٍ، ويبتلُون بتوهُّم اتِّحاد الظلِّ بالأصل، ويحرمون بذلك الوصلَ، وعلمت هذا المعنى بتجاريب متعددةٍ، والله سبحانه الملهم للصواب. وسيرُ الفقير وإن كان من الطَّريق الثّاني، ووجد حظّاً وافراً من ظهورات علوم التَّوحيد الوجوديّ ومعارفه، ولكن لَمّا كانت عنايةُ الحقّ سبحانه شاملةً لحاله، وكان سيرُه السَّيرَ المحبوبيَّ؛ طوى بَوَادي الطَّريق ومفاويزَه بإمداد فضله وعنايته تعالى، وجاوَزَ مراتبَ الظِّلال، ووصل إلى الأصل بتوفيق الله تعالى وعونه، ولَمّا وقعت المعاملةُ على المسترشدين رأى أنَّ الطَّريقَ الآخرَ أقربُ إلى الوصول، وأسهلُ من حيث........

الحصول، ﴿الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى هَدٰينَا لِهٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ اَنْ هَدٰينَا اللّٰهُ لَقَدْ جَٓاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣].

تنبيهٌ: قد علم من التَّحقيق السَّابق: أنَّ الموجوداتِ وإن كانت متعدِّدةً، وما سواه تعالى كان موجوداً؛ جاز أن يتحقّق الفناءُ والبقاءُ، وتحصل الولايةُ الصُّغرى والكبرى، فإنَّ الفناءَ هو نسيانُ السوى لا إعدامُه واستئصالُه، وما هو اللازم فيه أن تكون رؤيةُ السِّوى مفقودةً، لا أن يكون السِّوَى معدوماً، ولا شيئاً محضاً، وهذا الكلامُ - مع ظهوره - قد خفي على أكثر الخواصّ، وماذا نقول من العوامّ؟

وجعلوا معرفةَ وحدة الوجود من شرائط الطَّريق بتخيُّل أنَّ التَّوحيدَ الشُّهوديَّ هو عينُ التَّوحيد الوجوديّ، وزعموا القائلَ بتعدُّد الوجود ضالاًّ ومضلاًّ، حتى تخيَّل الكثيرون منهم أنَّ معرفةَ الحقّ سبحانه منحصرةٌ في معارف التَّوحيد الوجوديّ، وتصوروا أنَّ شهودَ الوحدة في مرايا الكثرة من تمام الأمر، حتى صرَّح بعضهم أنَّ نبينا ﷺ كان بعد حصول كمالات النبوَّة في مقام الشُّهود والوحدة في الكثرة، وأنَّ في قوله تعالى: ﴿اِنَّا اَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَۜ﴾ [الكوثر: ١] إشارةً إلى ذلك المقام، ويؤوِّلُ العبارة هكذا: إنا أعطيناك شهود الوحدة في الكثرة، وكأنَّه فهم هذه الإشارةَ من توسُّط الواو بين حروف الكثر، حاشا مقامَ النبوَّة من أن يليق بمثل هذه المعارف وكلا، فإنَّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إنّما دعوا إلى الله المنزَّه عن المماثلة والمشابهة، والذي يكون له متَّسعٌ في مرايا المثالي ليس له نصيبٌ من اللامثالي، بل هو متَّسمٌ بسمة الكيف والمثال، رزقهم الله سبحانه الإنصافَ، وكأنَّهم يَزِنونُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بميزان كمالاتهم، ويزعمون كمالاتهم مماثلةً لكمالاتهم، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ اَفْوَاهِهِمْۜ﴾ [الكهف: ٥]: (شعر)

وَلَيْسَ لِشَـيْءٍ كَـامِنٍ جَوْفَ صَـخْرَةٍ   سِـوَاهَـا سَـمَوَاتٌ لَـدَيْـهِ وَلَا أَرْضُ

وأحقرُ أمته ﷺ في استغفارٍ وندامةٍ من أمثال هذه المعرفة التي حصلت له في أوائل حاله، وينفي ذلك الشُّهودَ من جناب قدسه تعالى كحلول النصارى، قال الخواجه النقشبند قدس سره: كلُّما يكون مرئياً أو مسموعاً أو متخيلاً أو موهوماً؛ فهو غيرُه تعالى، ينبغي نفيُه بحقيقة كلمة (لا)، فكان شهودُ الوحدة في الكثرة أيضاً مستحقّاً للنَّفي، فهو منتفٍ من جناب قدسه، وكلامُ الخواجه هذا هو الذي أخرجني من هذا الشُّهود، وأنجاني من التَّعلّقات بالمشاهدة والمعاينة، وحوَّل الرَّحلَ من العلم إلى الجهل، ومن المعرفة إلى الحيرة، جزاه الله سبحانه خيرَ الجزاء، وأنا بهذا الكلام الواحد مُريدُ الخواجه بهاء الدين النّقشبند قدس سره، ومُقَرطِقُ الأذن بكلامه.

هذا، والحقُّ أنَّ قليلاً من الأولياء تكلّم بهذه العبارة، ونفى جميعَ المشاهدات والمعاينات على هذا النهج، وقال هو - يعني: الخواجه النقشبند - في هذا المقام الذي هو مقامُ الحقيقة: معرفةُ الحق سبحانه وتعالى حرامٌ على بهاء الدين لو لم تكن بدايتُه نهايةَ أبي يزيد، فإنَّ أبا يزيد - مع عظم شأنه وجلالة قدره - ما جاوَزَ الشُّهودَ والمشاهدةَ، ولم يضع قدمَه خارجَ مضيق: سبحاني، بخلاف الخواجه النقشبند، فإنَّه نفى جميع مشاهداته بكلمةٍ واحدةٍ - يعني: كلمة (لا) -، وجعل الكلَّ غيرَ الحق سبحانه، وتنزيهُ البسطاميّ تشبيهٌ عند الخواجه، ولا مثاليه مثاليٌّ، وكماله نقصٌ، فلا جرم تكون نهايتُه التي لم تتجاوز التَّشبيهَ بدايةَ الخواجه، فإنَّ البدايةَ تكون من التَّشبيه، والنِّهاية تكون إلى التَّنزيه، ولعلَّه حصل الاطِّلاعُ لأبي يزيد في آخر الحال على هذا النَّقص، حيث قال قبيل الاحتضار: إلهي، ما ذَكَرْتُك إلا عن غفلةٍ، ولا خدمتك إلا عن.........

فترةٍ، فعرف في ذلك الحال أنَّ حضورَه السَّابقَ كان غفلةً، فإنَّه ما كان حضورَ الحقّ سبحانه، بل كان حضورَ ظلٍّ من الظِّلال، وظهورٍ من الظُّهورات، فيكون غافلاً عنه تعالى بالضَّرورة، فإنَّه سبحانه غيرُ الظِّلال والظُّهورات، ووراءَ الوراء، والظِّلالُ والظُّهوراتُ إنّما هي مبادٍ ومقدَّماتٌ، ومعارجُ ومعدَّاتٌ، وما قالُ الخواجه قدس سره: نحن نُدْرِجُ النِّهايةَ في البداية مطابقٌ للواقع، فإنَّ ابتداءَ توجّههم إلى الأحدية الصِّرفة، لا يريدون من الاسم والصِّفَة غير الذات، وهذه الحالةُ تحصل للمبتدئين الرَّشيدين من هذه الطَّائفة بطريق الانعكاس من شيخٍ مقتدىً به مشرَّفٍ بهذا الكمال، عرفوا أو لم يعرفوا، فتكون نهاية الكُمَّل مندرجةً في بداية هؤلاء الأكابر.

غَايَةُ ما فِي البابِ: أنَّ هذا التوجّهَ إلى الأحدية لو غلب فيهم، ونمى، وجعل الظَّاهر أيضـاً منصبغـاً بلون الباطن؛ يكون السَّالكُ حينئذٍ متخلِّصـاً من رِقِّيَّة مشاهدة السفلى، وشهود الأدنى الذي يظهرُ في مرايا الممكنات، وهاربـاً من المعارف التَّشبيهيَّة. وإن لم يغلب هذا التوجّهُ، بل كان مقصوراً على الباطن؛ فكثيراً ما يكون الظَّاهرُ ملتذّاً بشهود الوحدة في الكثرة، ومحتظّـاً بالتَّوحيد والاتِّحاد، ولكنَّ هذا الشُّهودَ مقصورٌ في حقِّهم على الظَّاهر، غيرُ سارٍ إلى الباطن، بل باطنُهم متوجّهٌ إلى الأحدية الصرفة، وظاهرُهم مشاهدٌ للوحدة في الكثرة، بل ربّما لا يكون توجّهُ الباطن بواسطة غلبة نسبة الظَّاهر معلومـاً، ولا يكون شيءٌ سوى الشُّهود الظَّاهريّ مفهومـاً كما كان ذلك في أوائل أحوال محرِّر هذه السُّطور، فإنَّه لم يكن له شعورٌ من توجّه الباطن إلى الأحدية الصِّرفة بواسطة غلبة نسبة الظَّاهر، ووجد نفسه متوجّها بالكليَّة إلى شهود الوحدة في الكثرة، ثم رزقه الحقُّ سبحانه بعد مدَّةٍ الاطِّلاعَ على توجّه الباطن، ونصر الباطن على الظَّاهر، وأوصل المعاملةَ إلى هنا، الحمد لله سبحانه على ذلك.

ومن هذا القبيل ما صدر من بعض خلفاء هذه الطَّائفة العليّة من المعارف التوحيديَّة والمشاهدة السفليَّة، لا أنَّهم متوجّهون إلى هذا الشُّهود، ومبتلون بهذه المعرفة ظاهراً وباطنـاً، بخلاف غيرهم، حيث إنَّهم مبتلون بهذا الشُّهود ظاهراً وباطنـاً، ويزعمون هذا الشُّهود جمعـاً بين التَّشبيه والتَّنزيه، ويعدُّونه من الكمال، وإن كان لهم في الباطن إيمانٌ بالتَّنزيه الصِّرْف، فإنَّ الابتلاءَ غيرُ الإيمان، والحالَ غيرُ العلم. وأما الذين لا إيمان لهم بالتَّنزيه الصِّرف، ولا يعتقدون شيئـاً غيرَ المشاهدة السفليَّة؛ فهم الملاحدةُ، وهم خارجون عن المبحث، وشهودُ الحق جلّ وعلا في مرايا الممكنات الذي يعدُّه جماعةٌ من الصوفيَّة كمالاً، ويزعمونه جمعـاً بين التَّشبيه والتَّنزيه ليس هو عند الفقير شهودَ الحقّ جلّ وعلا، وليس المشهودُ فيها غيرَ متخيّلهم ومنحوتهم، ولا ما يرونه في الممكن واجبـاً، ولا ما يجدونه في الحادث قديمـاً، ولا ما يظهر في التشبيه تنزيهـاً، وإياك والافتتان بترهات الصوفيَّة، واعتقاد غير الحقّ حقّـاً، وهذه الجماعةُ وإن كانوا معذورين في خصوصهم بغلبة الحال، ومحفوظين من المؤاخذة بذلك كالمجتهد المخطئ، ولكن لا ندري ماذا تكون المعاملةُ بمقلديهم، ليتهم يكونوا كمقلدي المجتهد المخطئ، وإلا؛ فالأمرُ مشكلٌ، والقياسُ الاجتهاديُّ أصلٌ من الأصول الشَّرعيّة، ونحن مأمورون بتقليده، بخلاف الكشف والإلهام، فإنّا لم نؤمرْ بتقليده، والإلهامُ ليس بحجّةٍ للغير، والحكمُ الاجتهاديُّ حجَّةٌ للغير، فيجب إذاً تقليدُ العلماء المجتهدين، وينبغي طلبُ أصول الدين موافقةً لآرائهم، وما يقوله الصوفيَّةُ أو يفعلونه مخالفـاً لآراء العلماء المجتهدين لا ينبغي تقليدُه.................

بل ينبغي السُّكوتُ عن طعنهم بحسن الظنّ بهم، وأن يعدَّه من شطحياتهم، وأن يصرفه عن ظاهره. والعجبُ أنَّ كثيراً من الصوفيَّة يدلُّون العوام على الإيمان بأمورهم الكشفيَّة كوحدة الوجود مثلاً، ويدعونهم إليه، ويرغبونهم في تقليدهم فيها، ويهدِّدونهم على عدم الإيمان بها، وليتهم يدلُّونهم على عدم الإنكار على هذه الأمور، ويهدِّدون المنكرين، فإنَّ الإيمانَ غيرُ عدم الإنكار، والإيمانُ بهذه الأمور ليس بلازمٍ، ولكن ينبغي الاجتنابُ والاحترازُ عن الإنكار؛ لئلا ينجرَّ إنكارُ هذه الأمور إلى إنكار أربابها، فيؤدِّي إلى بُغْض أولياء الحقّ جلّ وعلا وعداوتهم، فاللازمُ للإنسان العملُ على وفق آراء علماء أهل الحق، والسُّكوتُ عن كشفيات الصوفيَّة بحسن الظنّ، وعدم الجسارة بلا ونعم، هو الحقُّ المتوسِّطُ بين الإفراط والتَّفريط، والله سبحانه الملهم للصواب.

ومن أعجب العجب: أنَّ جماعةً من مدَّعي هذا الطَّريق لا يقنعون بهذا الشُّهود والمشاهدة، بل يزعمون هذا الشُّهودَ تنزُّلاً، ويقولون في أثناء ذلك بالرؤية البصريَّة، ويقولون: نرى ذات واجب الوجود المنزَّه عن المثال، ويقولون: إنَّ هذه الدَّولةَ التي كانت ميسَّرةً للنبيِّ ﷺ مرةً واحدةً في ليلة المعراج تتيسّر لنا في كلّ يومٍ، ويشبِّهون النورَ المرئيَّ لهم بإسفار الصبح، ويزعمون ذلك النورَ المرتبةَ اللاكيفيةَ، ويتخيلون ظهور ذلك النور نهايةَ مراتب العروج، تعالى الله سبحانه عما يقول الظالمون علواً كبيراً. وأيضاً إنَّهم يثبتون المكالمةَ معه تعالى، ويقولون: أمرنا الله سبحانه وتعالى بكذا وكذا، وينقلون عنه سبحانه أحياناً وعيداً في حقّ أعدائهم، ويبشِّرون أحياناً أحبابهم، ويقول بعضهم: كلَّمت الحق سبحانه بقيّة ثلث الليل أو ربعه إلى صلاة الصبح، وسألته عن كلِّ بابٍ، ووجدت منه الجوابَ، ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١]. ويفهم من كلمات هؤلاء الجماعة: أنَّهم يعتقدون ذلك النورَ المرئيَّ عينَ الحقّ سبحانه، وعينَ ذاته تعالى، لا أنَّهم يقولون: إنَّه ظهورٌ من ظهوراته تعالى، وظلٌّ من ظلاله، ولا شكَّ أنَّ اعتقادَ ذلك النور ذاتَ الحق سبحانه افتراءٌ محضٌ، وإلحادٌ صرفٌ، وزندقةٌ خالصةٌ، ومن نهاية تحمُّله سبحانه وتعالى عدمُ استعجاله في عقوبة أمثال هؤلاء المفترين، وتعذيبهم بأنواع العذاب، وعدم استئصالهم، سبحانك على حلمك بعد علمك، سبحانك على عفوك بعد قدرتك. وقد هلك قومُ موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام بمجرَّد طلب الرؤية، وسمع موسى عليه السلام نداء: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣] بعد طلب الرُّؤية، وخرّ صعقاً، وتاب من ذلك الطَّلَب، ومحمدٌ رسول الله ﷺ الذي هو محبوبُ ربّ العالمين وأفضلُ الموجودات وسيدُ الأوّلين والآخرين - مع كونه مشرَّفاً بدولة المعراج البدنِي، وتجاوزه العرش والكرسي، وعلوّه على الزمان والمكان، يعني: خلوّه وخروجه منهما - للعلماء اختلافٌ في رؤيته عليه الصلاة والسلام مع وجود الإشارة القرآنية إليها، وأكثرهم قائلون بعدمها، قال الإمامُ الغزاليُّ: الأصحُّ: أنَّه عليه الصلاة والسلام ما رأى ربه ليلة المعراج، وهؤلاء القاصرون يرون الله سبحانه كلَّ يومٍ بزعمهم الباطل مع وجود القيل والقال بين العلماء في رؤية محمد رسول الله ﷺ مرّةً واحدةً، فقبَّحهم الله سبحانه ما أجهلهم.

وأيضاً يعلم من كلمات هؤلاء الجماعة: أنَّ نسبةَ الكلام الذي يسمعونه إلى الله سبحانه عندهم كنسبة الكلام إلى المتكلّم، وهذا عين الإلحاد، معاذ الله..

سبحانه من أن يصدر عنه كلامٌ بطريق تكلُّمٍ فيه ترتيبُ الحروف والتقدُّم والتأخُّر، فإنَّ ذلك من علامات الحدوث، والذي أوقعهم في الأغلوطات هو كلماتُ المشائخ الكبار، فإنَّهم أيضاً أثبتوا له سبحانه الكلامَ والمكالمةَ، ولكن ينبغي أن يعلم أنَّ المشائخ لا يقولون: إنَّ نسبةَ الكلام إليه تعالى كنسبته إلى المتكلّم، بل يقولون: إنَّه كنسبة المخلوق إلى الخالق يقيناً، ولا محذورَ في ذلك أصلاً، فإنَّ موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام سمع من الشجرة كلام الحق سبحانه وتعالى، ونسبةُ هذا الكلام إلى الحقّ سبحانه كنسبة المخلوق إلى الخالق، لا كنسبة الكلام إلى المتكلّم، وكذلك الكلامُ الذي كان يسمعه من جبريل عليه السلام نسبتُه إلى الحقّ كنسبة المخلوق إلى الخالق، **غَايةُ ما فِي البابِ**: أنَّ ذلك الكلامَ أيضاً كلامُ الحقّ سبحانه، ومنكرُه كافرٌ وزنديقٌ، وكأنَّ كلامَ الحقّ مشتركٌ بين الكلام النَّفسي والكلام اللفظيّ الذي يُوجِدُه الحقُّ سبحانه من غير توسُّطِ أمرٍ ما، فيكون الكلامُ اللفظيُّ أيضاً في الحقيقة كلامَ الحقّ سبحانه وتعالى، فيكون منكرُه كافراً بالضَّرورة. فافهم، فإنَّ هذا التَّحقيقَ ينفعك في كثيرٍ من المواضع، والله سبحانه الموفّق.

ينبغي أن يعلم أنَّ الوجودَ الذي نُثْبِتُه في الممكنات هو وجودٌ ضعيفٌ كسائر صفات الممكنات، وما مقدارُ علم الممكن في جنب علم الواجب تعالى؟ وأيُّ اعتبارٍ للقدرة الحادثة في جنب القدرة القديمة؟ وكذلك وجودُ الممكن في جنب وجود الواجب لا شيءٌ محضٌ، فكيف يقع النَّاظرُ في الشكِّ من تفاوت مراتب هذين الوجودين أنَّ إطلاقَ الوجود على هذين الفردين هل هو بطريق الحقيقة أو على أحدهما بطريق الحقيقة وعلى الآخر بطريق المجاز؟

ألا ترى أنَّ الجمَّ الغفيرَ من الصوفيَّة تيقَّنوا بالشقّ الثّاني، وقالوا: إنَّ إطلاقَ الوجود على وجود الممكن إنّما هو بطريق المجاز، ولا يثبت الوجودَ للممكنات إلا العوامّ وأخصّ الخواص.

والمرادُ بأخصّ الخواصّ: الأنبياءُ عليهم الصلاة والسلام ومن كان مشرَّفاً بولايتهم الأصلية من أممهم، وطوى دائرةَ الظلال بالتمام.

فأما العوامُّ؛ فنظرُهم مقصورٌ على الظَّاهر، فيزعمون أنَّ وجودَ الواجب ووجودَ الممكن قسمان من الوجود المطلق، ويظنون كليهما موجودين.

وأما أخصُّ الخواصّ؛ فأبصارُهم حديدةٌ، فيجدون كِلَا الوجودين من أفراد الوجود المطلق، ويعدُّون تفاوت مراتب أفراد الوجود المطلق راجعاً إلى صفات الوجود واعتباراته، لا إلى حقيقته وذاته حتى يكون في أحدهما حقيقةً وفي الآخر مجازاً.

وأما المتوسطون الذين وضعوا أقدامهم فوق رتبة العوام، وقَصُرُوا عن إدراك كمالات أخصّ الخواصّ؛ فعسيرٌ عليهم أن يقولوا بوجود الممكنات، وأن يطلقوا لفظَ الوجود على وجود الممكن بطريق الحقيقة ومشكلٌ، ومن ههنا قالوا: إنَّ الممكنَ إنّما يقال له موجوداً بعلاقة أنَّ له نسبةً إلى الوجود، كما يقال: ماء الشمس، لا أنَّ الوجودَ قائمٌ به حتى يكون موجوداً حقيقةً، وبعضُ هؤلاء الجماعة ساكتٌ عن وجود الممكن، غيرُ مصرِّحٍ بنفيه وإثباته، وبعضهم ينفي الوجودَ عن الممكن، ولا يرى موجوداً غير الواجب تعالى، وبعضهم لا يقول بغيريَّة وجود الممكن لوجود الواجب كما لا يقول بعينيَّته له، ويصرِّحُ بعضهم أنَّ الممكنَ موجودٌ بعين الوجود الذي به الواجب تعالى موجودٌ، وهذه العبارةُ أيضاً تنفي الوجود عن الممكن.

وبالجملة يحتاج في إثبات وجود الممكن إلى حدَّة النَّظَر حتى يمكن رؤيتُه حين تشعشع أنوار وجود الواجب تعالى، كما أنَّ مَن لهم حِدَّةُ البصر يرون النُّجوم في النهار........................

مع وجود تشعشع نور الشمس، والذين ليس لهم حدَّةُ البصر لا يقدرون رؤيتها؟ فوجودُ الممكنات في جنب وجود الواجب كوجود الكواكب في النَّهار: من كان فيه حدَّةُ البصر يقدر رؤيته، ومن هو ضعيف البصر لا يقدرها، وليس له منها نصيبٌ ولا سهمٌ.

فإن قيل: كيف يرى العوام وجودَ الممكنات مع وجود ضعف البصر وعمي البصيرة فيهم والحالُ أنَّ تشعشع أنوار وجود الواجب مانعٌ عن رؤيته - يعني: الضعاف البصر -؟

أجيب: إنَّ العوام أربابُ العلم، لا أربابُ الرؤية، وكلامنا في أرباب الرؤية، لا في أرباب العلم، فإنَّهم خارجون عن المبحث، فكان ظهورُ أنوار الواجب تعالى مفقوداً في حقِّهم، فلا يكون مانعاً عن رؤية وجود الممكنات في حقّهم. أو نقول: إنَّ ظهورَ أنوار الواجب إنّما هو مانعٌ عن شهود وجود الممكنات، لا إنَّه مانعٌ عن العلم بوجود الممكنات، فإنَّ العلمَ كثيراً ما يحصل بالسَّماع والتَّقليد والنَّظَر والاستدلال، كما أنَّ العلمَ بوجود الكواكب في النَّهار حاصلٌ لضعاف البصر أيضاً مع وجود ظهور الشّمس، وفي العوامِّ العلمُ بوجود الممكنات لا شهوده، فإنَّ الشُّهودَ من صفة البصيرة، وبصيرةُ العوامِّ مطموسةٌ، سواء كان المشهودُ مُلْكاً أو ملكوتاً، أو جبروتاً أو لاهوتاً.

أيُّها الأخُ الأعزُّ، إنَّ العوامَّ كما أنَّهم مشاركون لأخصّ الخواصّ في هذا المبحث؛ كذلك لهم مشاركةٌ في مواضع أخر، ومن ههنا كانت معاملةُ الأنبياء ومعاشهم عليهم الصلاة والسلام في كثير من الأحكام كمعاملة العوامّ ومعائشهم ومعاشرتهم مع أهلهم وعيالهم، وكان خيرُ البشر ﷺ يعامل أهله وعياله مثل معاملتهم، وحسن معاشرته ﷺ مشهورٌ، نقل أن النبي ﷺ قبّل يوماً الحسن والحسين رضي الله عنهما، وأظهر لهما تمامَ الانبساط، فقال شخصٌ من الحاضرين: إنَّ لي أحد عشر ابناً، ولم أقبّل واحداً منهم أصلاً، فقال النبي ﷺ: «**إِنَّ هَذَا لَرَحْمَةٌ أَعْطَاهَا اللهُ سُبْحَانَهُ لِعِبَادِهِ مِنْ رَحْمَتِهِ**»(١)، وحيث كانت لأخصّ الخواصّ مشاركةٌ مع العوامّ في بعض الأوصاف وإن كانت صورةً؛ كان العوامُّ محرومين من أكثر كمالاتهم بسبب نقصانهم، وقصور إدراكهم، وتخيُّلهم إياهم كأنفسهم، والذين فارقوهم في الأوصاف والخصال تراهم يعظمونهم ويوقرونهم، ولهذا يفضِّلون أوصافَ الأولياء وأخلاقهم على ما سواها من الأوصاف التي تشابه أوصافهم وأخلاقهم؛ لكونها مغايرةً لأوصافهم وأخلاقهم، وإن كانت تلك الأخلاقُ موجودةً في الأنبياء عليهم السلام.

نقل عن المخدوم الشَّيخ فريد گنج شكر أنَّه لما توفّي واحد من أولاده وبلغه خبر وفاته لم يطرأ عليه تغيُّرٌ أصلاً، وقال: مات جروُ الكلب، فأخرجوه، ولَمّا توفي ولد سيد البشر إبراهيم عليه السلام بكى عليه النبي ﷺ وحزن وقال: «**إِنَّا بِفِرَاقِكَ لَمَحْزُونُونَ**»(٢)، وبيّن حزنه بالتأكيد مبالغةً، فانظر أيُّهما أفضلُ: الشَّيخ فريد گنج شكر أم سيد البشر ﷺ؟

وعند العوامّ الذين هم كالأنعام بل أضلّ معاملةُ الأوّل أَوْلى وأفضلُ، فإنَّهم يعدُّونها من عدم التعلّق بالسوى، ويزعمون الثّاني عينَ التعلّق بالفاني، أعاذنا الله سبحانه من معتقداتهم السُّوء، وحيث إنَّ هذه الدارَ دارُ امتحانٍ وابتلاءٍ؛ فإلقاءُ العوامّ في الاشتباه والشبهة عينُ الحكمة والمصلحة، اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتِّباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، بحرمة سيد البشر عليه وعلى آله الصلاة والسلام.

ولنرجع إلى أصل الكلام، ونقول: إنَّ إيمانَ الأنبياء عليهم السلام وأصحابه الكرام والأولياء الملحقين..........

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩٧)، ومسلم (٢٣١٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «من لا يَرْحم لا يُرْحم».

(٢) أخرجه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥) من حديث أنس رضي الله عنه.

بالأصحاب العظام بعد الشُّهود قد تقرَّر كونُه بالغيب بواسطة الرُّجوع إلى الدعوة، كما أنَّ شخصـاً رأى الشمسَ في النهار ووجد فيه الإيمانَ الشُّهوديَّ بوجود الشمس، فإذا جاء الليلُ يتبدَّلُ إيمانه الشُّهوديّ بالإيمان الغيبيّ، وإيمانُ العلماء وإن كان غيباً، ولكنَّ غيبَهم عرض له حكمُ الحدس بواسطة نور متابعة الأنبياء عليهم السلام، وخرج من كونه نظريّاً واستدلاليّاً، والمرادُ بالعلماء هنا: علماءُ الآخرة، فإنَّ علماءَ الدنيا داخلون في عامة المؤمنين، وأفضلُ أقسام الإيمان الغيبيّ المنسوب إلى عامة المؤمنين إيمانٌ مربوطٌ بتقليد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومنوطٌ بقال الله وقال رسول الله ﷺ.

فإن قيل: قال العلماء: إنَّ الإيمانَ الاستدلاليَّ أفضلُ من الإيمان التقليديّ، حتى إنَّ كثيراً من العلماء عدُّوا الاستدلالَ من شرائط الإيمان، ولم يعتبروا الإيمان التَّقليديَّ، وأنت تقول: إنَّ الإيمانَ التقليديَّ أفضلُ.

أجيب: إنَّ الإيمانَ الحاصلَ بتقليد الأنبياء عليهم السلام إيمانٌ استدلاليٌّ، فإنَّ صاحبَ التقليد يعرفُ بالدليل أنَّ الأنبياءَ عليهم الصلاة والسلام صادقون في تبليغ الرِّسالة من الله تعالى، فإنَّ الشَّخصَ الذي صدَّقه الله سبحانه بالمعجزة صادقٌ ألبتَّة، والأنبياءُ عليهم السلام كلُّهم مؤيدون بالمعجزات، فيكون كلُّهم صادقين، والتَّقليدُ الغيرُ المعتبر هو تقليدُ الآباء في الإيمان فقط، ولا يكون صدقُ الأنبياء عليهم السلام وحقيّةُ تبليغهم منظوراً إليه أصلاً، وهذا الإيمانُ غيرُ معتبرٍ عند كثيرٍ من العلماء، بقي الإيمانُ الاستدلاليُّ الحاصلُ من ترتيب مقدَّمات أرباب النظر من الصغرى والكبرى، فهو استدلالٌ قريبٌ من الإمكان، بعيدٌ عن الوقوع، ولا يعلم مضيّ أحدٍ من أرباب النظر في مقام الاستدلال على إثبات الواجب مثل مولانا جلال الدين الدواني، فإنَّه محقِّق ومتأخِّر الزَّمان، وقد سعى هو في إثبات الواجب سعياً بليغاً، ومع ذلك لا يوجد مقدمةٌ من مقدّمات استدلالاته مسلّمة من النَّقْض والمعارضة والمنع والدَّخْل الموجَّه التي أوردها محشو رسالته، ويلٌ لصاحب استدلالٍ يحصل الإيمانَ بمجرَّد الاستدلال، ولا يكون تقليدُ الأنبياء مستنده ومعتمده، ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣].

المكتوب الثالث والسبعون والمائتان

إلى الميرزا حسام الدِّين أحمدَ في بيانِ أنَّه ينبغي للسَّالكِ أن يكونَ ثابتـاً ومستقيمـاً على طريقِ شَيخِه، غيرَ مُلتفتٍ إلى طرقٍ أُخرَ، وأن لا يَعتبرَ الوقائعَ التي تظهر على خلافِه، فإنَّها منَ الشَّيطانِ العدوِّ، وما يناسبُ ذلك.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا اللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣]، عليهم من الصلوات أتمُّها، ومن التسليمات أكملُها.

قد حصل السرورُ والابتهاجُ بوصول صحيفة الالتفات المرسلة باسم هذا الحقير على وجه الكرم، جزاكم الله سبحانه خيرَ الجزاء، وقد اندرج فيها أنَّه لو كانت المبالغةُ في منع السَّماع متضمنةً للمنع عن سماع المولد الذي هو عبارةٌ عن قراءة القصائد النَّعتية والأشعار غير النّعتيَّة؛ يعسُرُ تركُ استماع المولد على الأخ الأعزّ المير محمد نعمان وبعض الأصحاب الموجودين هنا؛ لأنَّهم رأوا النبيَّ ﷺ في الواقعة، وهو ﷺ راضٍ عن مجلس المولد جداً، ويصعب عليهم تركُ ذلك جداً.

أيُّها المخدومُ، لو كان للوقائع اعتبارٌ، وعلى المنامات اعتمادٌ، لا يحتاج المريدون إلى الشيوخ، ويكون اختيارُ طريقٍ من الطرق عبثاً، فإنَّ كلَّ مريدٍ يعمل حينئذٍ بما يوافق وقائعَهُ، ويطابق لمناماته، سواءٌ كانت تلك الوقائعُ والمناماتُ موافقةً لطريقة شيخه أو لا، وسواءٌ كانت مرضيَّةً ....

عنده أو لا، فعلى هذا التَّقدير تبطل سلسلةُ الشَّيخوخة والمريديَّة، وكلُّ ذي هوسٍ يستقلُّ بوضعه، ويستبدُّ بطوره، والمريدُ الصَّادقُ لا يكون عنده لألف واقعةٍ صادقةٍ مقدارُ نصف شعيرةٍ من الاعتبار مع وجود شيخه، وتكون المناماتُ عند الطَّالب الرشيد مع دولة حضور المرشد معدودةً من أضغاث أحلامٍ، ولا يلتفت إلى شيءٍ منها أصلاً. الشيطانُ عدوٌّ قويٌّ لا يأمن المنتهون من كيده، ولا يزالون خائفين وجلين من مكره، فماذا نقول في حقّ المبتدئين والمتوسطين؟ **غَايةُ ما فِي البابِ**: أنَّ المنتهيين محفوظون، ومن سلطان الشيطان مصونون، بخلاف المبتدئين والمتوسطين، فلا تكون وقائعُهم مستحقَّةً للاعتماد، ومحفوظةً عن مكر عدوٍّ شديدِ العناد.

فإن قيل: إنَّ الواقعةَ التي يرى فيها النبيُّ ﷺ صادقةٌ ومحفوظةٌ من كيد الشيطان ومكره، فإنَّ الشيطانَ لا يتمثَّلُ بصورته كما ورد(١)، فتكون وقائعُ ما نحن فيه صادقةً ومحفوظةً من مكر الشيطان.

أجيب: إنَّ صاحبَ «الفتوحات المكية» جعل عدمَ تمثُّل الشَّيطان مخصوصاً بصورته ﷺ الخاصَّة به المدفونة في المدينة، ولا يجوز الحكمُ بعدم تمثُّله مطلقاً على أيِّ صورةٍ كان، ولا شكَّ أنَّ تشخيصَ تلك الصُّورة على صاحبها الصلاة والسلام خصوصاً في المنام متعسِّرٌ جداً، فكيف تكون مستحقَّةً للاعتماد؟ فإن لم نجعل عدم تمثُّل الشَّيطان مخصوصاً بصورته ﷺ الخاصة به، وجوَّزنا عدمَ تمثُّله به على أيِّ صورةٍ كان كما ذهب إليه كثيرٌ من العلماء، ومناسبٌ أيضاً لرفعة شأنه ﷺ نقول: إنَّ أخذَ الأحكام عن تلك الصورة، وإدراكَ المرضيّ وغير المرضيّ له من المشكلات، فإنَّه يمكن أن يكون العدوُّ اللعينُ متوسطاً في البين، ومرئياً لخلاف الواقع واقعيّاً، وموقعاً للرائي في الاشتباه والالتباس بتلبيس عبارته وإشارته بعبارة رسول الله ﷺ وإشارته، كما روي أنَّ سيدَ البشر عليه وعلى آله الصلاة والسلام كان يوماً جالساً وكان عنده صناديد قريش ورؤساء أهل الكفر وكثيرٌ من الأصحاب أيضاً، فقرأ النبي ﷺ عليهم سورة النجم، ولما بلغ ذكرَ آلهتهم الباطلةَ ضمَّ الشيطانُ اللعين كلماتٍ في مدح آلهتهم الباطلة إلى قراءته ﷺ على نهجٍ ظنَّها الحاضرون من قراءته عليه الصلاة والسلام، ولم يجدوا إلى تمييزه سبيلاً أصلاً، ففرح الكافرون، وقالوا: إنَّ محمداً صالَحَنا، ومَدَحَ آلهتنا، وتحيَّر منه الحاضرون من أهل الإسلام أيضاً، ولم يطَّلع النبيُّ ﷺ على كلام الشَّيطان اللعين هذا، فقال النبيُّ ﷺ: «**مَا الوَاقِعَةُ؟**»، فعرض الأصحابُ الكرامُ عليه ﷺ أنَّ هذه الفقراتِ قد ظهرت في أثناء كلامك، فحزن النبي ﷺ على ذلك، فجاء جبريلُ عليه السلام بالوحي لبيان أنَّ ذلك الكلامَ كان إلقاءً شيطانيّاً(٢)، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢] الآيات الأربع، فإذا ألقى الشيطانُ كلامه الباطل في أثناء قراءته ﷺ في زمان حياته وفي حالة يقظته وفي محضر الصحابة بحيث لا يمتاز من قراءته ﷺ؛ فمن أين يدرى أنَّ تلك الواقعةَ محفوظةٌ من تصرُّف الشيطان ومصونةٌ من تلبيسه مع كونها بعد وفاته ﷺ وفي حالة المنام التي هي حالة تعطيل الحواس، ومحلّ الاشتباه والالتباس، ووجود انفراد الرأي عن سائر الناس؟

أو نقول: إنَّ كونه ﷺ راضياً بهذا العمل كما يرضى...

---

(١) أخرج البخاري (١١٠)، ومسلم (٢٢٦٦) من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «من رآني في المنام فقد رآني، فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي».

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٨٣١٦) مرسلاً.

وأخرجه الطبراني أيضاً (١٢٤٥٠)، والبزار في «مسنده» (٥٠٩٦) من حديث سعيد بن جبير قال: لا أعلمه إلا عن ابن عباس. قال الهيثمي: رجالهما رجال الصحيح. «مجمع الزوائد»: ٧/ ١١٥.

الممدوحُ عن المادحين لَمَّا كان متمكّناً في أذهان قارئ القصائد وسامعها ومنتقشاً في متخيلاتهم؛ جاز أن تكون تلك الصورةُ المرئيّةُ في الواقعة هي الصُّورةَ المنتقشةَ في متخيَّلاتهم من غير أن تكون لتلك الواقعة حقيقةٌ، وتمثّل شيطانيّ، وأيضاً إنَّ الواقعاتِ والرؤيا قد تكون محمولةً على ظاهرها وحقيقتها، وهي التي يراها الرائي بعينها، كما إذا رأى مثلاً صورةَ زيدٍ في المنام، وكان المرادُ بها هو عينَ حقيقة زيدٍ، وقد تصرف عن الظَّاهر، وتُحْمَلُ على التَّأويل والتَّعبير، كما إذا رأى صورةَ زيدٍ مثلاً في المنام، وأريد بها عمرو مثلاً بعلاقة المناسبة بينهما، فمن أين يعلم أنَّ واقعةَ الأصحاب محمولة على الظَّاهر غير مصروفةٍ عنه؟ ولِمَ لا يجوز أن يكون المرادُ بها الوقائعَ المحتاجةَ إلى التعبير؟ وأن تكون كنايةً عن أمور أخرى من غير أن يكون لتمثُّل الشيطان فيها مجالٌ؟

وبالجملة: ينبغي أن لا يكون مدارُ الاعتبار على الواقعة، فإنَّ الأشياءَ موجودةٌ في الخارج، فينبغي السَّعيُ حتى ترى الأشياءَ في الخارج، فإنَّ ذلك هو اللَّائقُ بالاعتماد، وليس فيه مجالُ التَّعبير، وما يرى في الخيال فهو منامٌ وخيالٌ.

وأصحابنا هناك يعاملون بوضعهم ورأيهم من مدّةٍ مديدةٍ، وزمامُ الاختيار بأيديهم، وأما المير محمد نعمان؛ فما المخلصُ له غيرَ الانقياد، فإن توقَّفوا عن الامتناع فرضاً لمحةً بعد المنع عياذاً بالله سبحانه؛ فننظر إلى من يفرون؟ وبمن يلوذون؟ ومبالغةُ الفقير إنّما هي بسبب مخالفة طريقته، سواءٌ كانت المخالفةُ بالسماع والرقص أو بقراءة الموالد وإنشاء القصائد، ولكلِّ طريقٍ وصولٌ إلى مطلبٍ خاصٍّ به، والوصولُ إلى المطلب الخاصّ بهذا الطَّريق المتوسِّط منوطٌ بترك هذه الأمور، فكلُّ من فيه طلبُ مطلب هذا الطَّريق ينبغي أن يجتنب عن مخالفة هذا الطَّريق، وأن لا تكون مطالب طرقٍ أخرَ منظورةً في نظره.

قال الخواجه بهاء الدين النقشبند قدس سره: (ما نه اين كار ميكينم ونه إنكار ميكنيم)؛ يعني: نحن ما نفعل هذا الأمر؛ لكونه مخالفاً للطَّريق الخاصّ بنا، ولا ننكره أيضاً؛ لكونه معمولاً عند مشائخ أخر، ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة: ١٤٨]، فإذا حدث أمرٌ مخالفٌ لهذه الطَّريقة العليّة في فيروز آباد الذي هو ملجأٌ وملاذٌ لأمثالنا الفقراء، ومقرُّ قدوة أرباب المتابعة الضعفاء؛ لا جرم يكون موجباً لاضطراب أمثالنا الفقراء ألبتّة، والمخاديمُ الكرامُ أحقّاءُ بالقيام بحفظ طريق والدهم الماجد، كما أنّ أولادَ الخواجه أحرار قدس سره قاموا بحفظ الطَّريق الأصل بعد عروض التغيُّر لطريق والدهم الماجد بعد وفاته، وجادلوا المغيرين كما أنّه واصل إلى سمعكم الشَّريف أيضاً إن شاء الله.

وكتبتم شيئاً من مشرب شيخنا القوي العذب.

نعم، إنّه تساهَلَ في أوائل حاله في بعض الأمور ميلاً منه إلى مذهب الملامتيّ، واختياراً له، وارتكب تركَ العزيمة في بعض الأشياء ترجيحاً لذلك المذهب، ولكنَّه اجتنبَ عن هذه الأمور في الآخر، ولم يذكر الملامتيَّة أصلاً لينظروا بنظر الإنصاف، وليتفكَّروا أنَّ شيخنا إذا كان فرضاً حيّاً في الدُّنيا في هذه الأوان، وانعقد هذا المجلسُ والاجتماعُ؛ هل يحسبون أنّه يرضى عن هذا الأمر ويستحسنُ هذا الاجتماعَ أو لا؟

ويقينُ الفقير أنّه ما كان ليجوِّزَ هذا المعنى، بل ينكره، وكان مقصودُ الفقير الإعلامَ، تقبلون أو لا تقبلون، لا مضايقةَ أصلاً ولا مجالَ للمشاجرة قطعاً، فلئن استمرَّ المخاديمُ والأصحابُ الموجودون هناك على ذلك الوضع واستداموا؛ فلا نصيبَ لنا غيرُ الحرمان من صحبتهم، وماذا أكتب أزيد من ذلك؟ ....

والسلامُ أولاً وآخراً.

المكتوب الرابع والسبعون والمائتان

إلى الشَّيخ يوسفَ البَركِيِّ في الحثِّ على علوِّ الهمَّة، وعدمِ الالتِفاتِ إلى الشُّهوداتِ السُّفليَّة المتعلِّقةِ بمَرايا الكَثرَةِ، وما يناسبُ ذلك.

بعد الحمد والصلوات وتبليغ الدعوات، ليعلم أنَّ رسائلكم الثلاثَ المرسلةَ قد وصلتْ، واتَّضح ما اندرج فيها من بيان وقائع الأحوال والكرامات، والحالُ الذي بيَّنْتَه في آخر شهود الوحدة في الكثرة بهذه العبارة، والانتهاءُ الثَّاني هو أن يكون على الحال الأوّل، وأن يغيب الغيبةَ، يعني: أنا عبدٌ وخلقٌ ومن أمّة محمد المصطفى ﷺ، فهذا الحالُ أصيلٌ وفوق الأحوال المذكورة، ولكنَّ الانتهاءَ غيرُه، والنهايةُ بعيدةٌ عنه بمراحل: (شعر)

وَذَا إِيـوَانُ الاِسْـتِـغْـنَـاءِ عَـالِ   فَـهَـيْـهَـاتَ التَّـفَـكُّـرُ فِـي الْـوِصَـالِ

وكان المقصودُ من تكرار الكلمة الطيِّبة - حيث كنت أمرتك به في المكتوب السابق - هو نفيَ هذا الشُّهود المتعلّق بالكثرة، لله سبحانه الحمد والمنّة قد زال ذلك الشُّهودُ عنك ببركة تكرار هذه الكلمة الطيِّبة، ينبغي أن تكون عالي الهمّة، وأن لا تكتفي بجَوْز هذا الطَّريق وموزه، فإنَّ الله سبحانه يحبُّ معالي الهمم، ولقد تخلَّصتَ من سكة التَّوحيد الوجوديِّ الضيّقة إلى الطَّريق السلطانيِّ، فيا لها من نعمةٍ، لو لم تتذكَّر الأحوال السابقةَ، ولم تتفكَّرْ لذات شهود الوحدة في الكثرة، وصرف العمر بالاستقامة في السعي والاجتهاد في هذا الطَّريق.

ولقد رأينا كثيراً من الخشخاشيين تركوا شربَ الخشخاش، واطَّلعوا على قبحه، واستمرُّوا على ذلك مدّةً، ثم جرَّهم تذكُّرُ الأحوال المترتبة على شرب الخشخاش وتفكُّر لذات تلك الأحوال اتّفاقاً إلى الحالة القديمة.

أيُّها المخدومُ، إنَّ الشُّهودَ الذي يتعلّق بمرايا الكثرة موجبٌ للذة، والشُّهودُ التنزيهيُّ الذي هو ناظرٌ إلى الجهل الالتذاذ به متعسِّرٌ بعيدٌ، والسيرُ إليه من غير إمدادِ شيخٍ مقتدىً به متعذِّرٌ، ألا ترى أن أخانا الأعزّ مولانا أحمد البركي يعدُّه العوامُّ من علماء الظَّاهر وهو بنفسه أيضاً لا يعلم أحواله وأحوال أصحابه؟ وسرُّ ذلك: أنَّ باطنه متوجِّهٌ إلى الشُّهود التنزيهيِّ الذي هو موطنُ الجهل، وإيمانُه مثلُ العلماء إيمان بالغيب، وباطنُه من علوّ الفطرة غيرُ ملتفتٍ إلى شهودٍ ممتزجٍ بالكثرة، وظاهرُه غيرُ مفتونٍ وغير مغرورٍ بترهات الصوفيَّة، ووجودُه الشَّريفُ مغتنمٌ في تلك النواحي، وهذه الحالةُ التي أخبرتَ بحصولها قد اتَّصف بها مولانا المذكورُ، وتحقّق من منذ أزمان علم أو لم يعلم، وعند الفقير أنَّ مدارَ تلك البقعة على وجود مولانا، والعجب كيف خفي هذا المعنى على أهل الكشف في تلك النواحي؟ وجلالةُ قدر مولانا ظاهرةٌ وباهرةٌ في علم الفقير كوجود الشمس، وماذا أزيد على ذلك؟ والمأمول الدعاءُ، والسلامُ.

المكتوب الخامس والسبعون والمائتان

إلى المـلَّا أحمدَ البَركِيِّ في جوابِ استِفساراتِه، والتَّحريضِ على تَعليمِ العُلومِ الشَّرعيَّة، ونَشرِ الأحكامِ الفقهيَّة، وما يناسبُ ذلك.

وبعد الحمد والصلوات وتبليغ الدعوات، أنهي أنَّه قد وصلت الصحيفتان المرسلتان صحبة الشَّيخ حسن وغيره، وأورثتا فرحاً وافراً، وقد بيَّنْتَ في إحداهما أحوالَ الخواجه ويس،...

واستفسرتَ في الأخرى عن قبولك، فتوجّهتُ في تلك الأثناء إلى حالك، فرأيتُ أنّ سكّانَ تلك النواحي يعدون إلى جانبك، ويلتجؤون إليك، فعلم من هذا أنّك قد جُعِلْتَ مدارَ تلك البقعة، وجعلتُ أناسَ تلك الحدود مربوطة بك، لله سبحانه الحمدُ والمنّةُ على ذلك، ولا تظنن أنَّ هذه المعاملةَ من جملة الواقعات التي هي مظانُّ الريب والاشتباه، بل عُدَّها من المحسوسات والمشهودات، والعمدةُ لك في تحصيل هذه الدَّولة تعليمُ العلوم الشّرعيّة، ونشرُ الأحكام الفقهيَّة في مواضع تمكَّنَ فيها الجهلُ، ورسخت البدعةُ، ومحبّتُك لأولياء الله سبحانه وإخلاصُك لهم، وقد منحكهما الله تعالى بمحض فضله، فعليكم بتعليم العلوم الدينيَّة ونشر الأحكام الفقهيَّة ما استطعتم، فإنَّها ملاكُ الأمر، ومناطُ الارتقاء، ومدارُ النجاة، وعليكم شدّ نِطاق الهمّة وإحكامه لأن تكونوا في عداد العلماء، ودلالة الخلق إلى طريق الحقّ سبحانه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [المدثر: ١٩]. والذكرُ القلبيُّ الذي أُجِزْتُم به أيضاً مؤيّدٌ لإتيان الأحكام الشّرعيّة، ودافعٌ لعناد النَّفس الأمّارة، فينبغي إجراءُ هذا الطَّريق أيضاً، وأن لا تحزن على عدم الاطّلاع على أحوالك وأحوال أصحابك، وأن لا تجعله دليلاً على عدم الحاصل فيك، وأحوالُ الأصحاب كافيةٌ للمرآتيّة لكمالاتك، وما ظهر في الأصحاب إنّما هو أحوالُك ظهرتْ فيهم بطريق الانعكاس، والشَّيخ حسن أحدُ أركان دولتك وممدٌّ ومعاونٌ لك في معاملتك، فإن وقع في خاطرك إرادةُ سفر ما وراء النهر أو ممالك الهند فرضاً؛ فالنّائبُ منابك هناك هو الشَّيخ حسن، فينبغي أن تراعي الالتفاتَ والتوجّهَ في حقّه والاجتهادَ البليغ ليتفرَّغ من تعلم العلوم الدينيَّة الضروريّة سريعاً، وكان سفرُه هذا إلى الهند مغتنماً في حقّه وحقّك أيضاً، رزقنا الله سبحانه وإياكم الاستقامةَ على ملّة الإسلام على صاحبها الصلاة والسلام.

وكتبتَ أيضاً أنَّ واحداً من الأصحاب حصل له ترقٍّ من مدّة ستةِ أشهرٍ، وما كان يظهر له في حالة الغيبة وعدم الشعور من الأرواح الطيبات يراه الآن في حالة الإفاقة.

أيُّها المخدومُ، لا دلالةَ في هذه الرُّؤية على الترقّي، سواءٌ كانت في الشُّعور أو في غيره، والقدمُ الأوّلُ في هذا الطَّريق: أن لا يرى غيرَ الحقّ سبحانه أصلاً، وأن لا يبقى في فكرته ما سواه تعالى قطعاً، لا بمعنى: أنَّه لا يرى الأشياء غيرَ الحقّ سبحانه ولا يعلمها بعنوان السِّوى، فإنَّ هذا عينُ رؤية الكثرة، بل لا يرى غيرَ الحقّ سبحانه أصلاً، ولا يحسّ به قطعاً، وهذه الحالةُ معبَّرٌ عنها بالفناء، والمنزلُ الأوّلُ من منازل هذا الطَّريق، ودونه خرطُ القتاد: (شعر)

وَمَنْ لَمْ يَكُنْ فِي حُبِّ مَوْلَاهُ فَانِياً فَلَيْسَ لَهُ فِي كِبْرِيَاهُ سَبِيلُ

والمكتوباتُ المسطورةُ في هذه الأيّام عزيزةُ الوجود جدّاً، وقد اندرجت فيها فوائدُ كثيرةٌ، وقد أخذ الشَّيخ حسن نقلها معه، فينبغي مطالعتها بكمال الملاحظة.

وقد التمستَ الدُّعاء لوالدتك المرحومة، فأجبناه، وقَبلناه. وبقيَّةُ أحوال هذه الحدود يبيِّنها الشَّيخ حسن بالتَّفصيل، والسلامُ على من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى، عليه وعلى آله الصلاة والسلام، والفقيرُ وأولاده يلتمس الدعاء بحسن الخاتمة، والسلام.

المكتوبُ السَّادسُ والسَّبعُونَ والمِائَتَانِ

إلى الشَّيخ بديع الدِّينِ في بيانِ مُحكَماتِ القُرآنِ ومُتَشابِهاتِه، وبَيانِ العُلَماءِ وكمالاتِهم، وما يناسبُ ذلك.

الحمد لله رب العالمين، والصلاةُ والسلامُ على سيد المرسلين، وعليهم وعلى آله وأصحابه الطيبين.........

الطاهرين أجمعين.

جعلنا الله سبحانه وإياكم من الراسخين في العلم.

أيُّها الأخُ، إنَّ الله سبحانه قسم كتابه المجيد على قسمين: محكماتٌ ومتشابهاتٌ، فالقسمُ الأوّلُ منشأٌ لعلم الشَّرائع والأحكام، والقسمُ الثّاني مخزنُ علم الحقائق والأسرار، وما ورد في القرآن أو في الحديث من اليد والوجه والقدم والأصابع والأنامل كلُّها من المتشابهات، وكذا مقطَّعاتُ الحروف الواردة في أوائل السُّور القرآنية أيضاً من المتشابهات التي لم يطَّلعْ عليها إلا العلماءُ الراسخونُ، ولا تتخيَّل أنَّ التَّأويلَ عبارةٌ عن القدرة التي عُبِّرَتْ عنها باليد، وعن الذَّات التي عبّر عنها بالوجه، بل تأويلُها من الأسرار الغامضة التي انكشفت لأخصّ الخواصِّ، وماذا أكتب من الحروف المقطعات القرآنية، فإنَّ كلَّ حرفٍ منها بحرٌ مواج من الأسرار الخفيَّة بين العاشق والمعشوق، ورمزٌ غامضٌ من الرموز الدقيقة بين المحب والمحبوب؟

والمحكماتُ وإن كنّ أمّهات الكتاب، ولكنَّ نتائجهنَّ وثمراتهنَّ التي هي المتشابهاتُ من مقاصد الكتاب، وليست الأمهاتُ إلا وسائلَ لحصول النتائج، قلبُ الكتاب هو المتشابهاتُ، وقشرُ ذلك اللبّ محكماتُ الكتاب، والمتشابهاتُ هي التي تبيِّن الأصلَ بالرمز والإشارة، وتنبئُ عن حقيقة معاملة تلك المرتبة العالية الشأن، بخلاف المحكمات، والمتشابهاتُ هي الحقائقُ، والمحكماتُ بالنِّسبة إلى المتشابهات صورُ تلك الحقائق، والعالِمُ الرَّاسخُ هو الذي يقدر على الجمع بين اللبّ والقشر، والحقيقة والصورة، علماءُ القشر مسرورون بالقشر ومكتفون بالمحكمات، والعلماءُ الراسخون يحصِّلون المحكمات، وينالون حظّاً وافراً من تأويل المتشابهات، ويجمعون بين الحقيقة والصُّورة - أعني: المتشابهَ والمحكمَ -، وأما مَنْ طلب تأويل المتشابهات من غير علم المحكمات ومن غير عملٍ بمقتضاها، وترك الصورةَ، وسلك طريقَ فكر الحقيقة؛ فهو جاهلٌ، وليس له خبرٌ عن جهله، وضالٌّ وليس له شعورٌ بضلالته، ولم يدر أنَّ هذه النَّشأةَ مركَّبةٌ من الصورة والحقيقة، وما دامت هذه النشأةُ موجودةً لا تنفكُّ الحقيقةُ عن الصورة أصلاً، قال الله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] أي: الموت كما قال المفسِّرون، جعل الله تعالى غايةَ العبادة ونهايتها زمانَ حلول الموت الذي هو منتهى هذه النشأة؛ لأنَّ من مات فقد قامت قيامتُه، وإنَّما يحصل انفكاكُ الصور من الحقائق في النشأة الأخرويَّة التي هي محلُّ ظهور الحقائق، فكلٌّ من النَّشأتين لها حكمٌ على حدةٍ، لا يختلط حكم إحداهما بالأخرى إلا جاهلٌ أو زنديقٌ مقصودُه إبطال الشَّرائع، فإنَّ كلَّ حكمٍ شرعيٍّ ثابتٍ للمبتدئ؛ فهو ثابتٌ أيضاً للمنتهي، وعامَّةُ المؤمنين وأخصُّ الخواصّ من العارفين سواسيةٌ في هذا المعنى، ومتساويةُ الأقدام فيه، لا فرق بين شخصٍ وشخصٍ، والمتصوفةُ القاصرون والملاحدةُ الخائبون في صدد إخراج رقابهم من ربقة الشَّريعة، متخيلين بأنَّ الأحكامَ الشَّرعيّةَ مخصوصةٌ بالعوامّ، وأما الخواصُّ؛ فهم مكلَّفون بالمعرفة فقط، كما أنَّهم يعتقدون من جهلهم أنَّ الأمراءَ والسلاطين ليسوا مكلَّفين بغير العدل والإنصاف، ويقولون: إنَّ المقصودَ من إتيان الشَّريعة: حصولُ المعرفة، فإذا حصلت المعرفةُ؛ سقطت التكاليفُ الشَّرعيّةُ، ويستشهدون في إثبات مدَّعاهم بقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] أي: بالله كما قال سهلٌ التستريُّ، يعني: انتهاءُ العبادة حصولُ معرفة الحقّ سبحانه، والظَّاهرُ أنَّ مراد من فسَّر اليقينَ بكونه بالله هو كونُ انتهاء الكلفة في العبادة حصول معرفة الحق جلّ ....

وعلا، لا انتهاء نفس العبادة، فإنَّ ذلك مفضٍ إلى الإلحاد والزندقة، وهم يزعمون أيضاً أنَّ عبادةَ العارفين ريائيَّةٌ، فإنَّهم يعملون ما يعملون من الطَّاعة والعبادة؛ ليقتدي بهم في ذلك المبتدؤون وأتباعهم، لا لكونهم محتاجين إليها، وينقلون في تأييد هذا القول أقوالاً عن المشائخ، حيث قالوا: ما لم يكن الشَّيخُ منافقاً ومرائياً لا ينتفع به المريدُ، خذلهم الله سبحانه ما أجهلهم، واحتياجُ العارفين إلى العبادة على نهجٍ ليس في المريدين عشرُه، فإنَّ عروجاتهم مربوطةٌ بالعبادة وترقِّياتهم منوطةٌ بإتيان الأحكام الشَّرعيّة، وما يتوقّع للعلوم غداً من ثمرات العبادة فهو حاصلٌ للعارفين اليوم، فهم إذاً أحقَّاءُ بالعبادة، وأحوجُ إلى إتيان الأحكام الشَّرعيّة من غيرهم.

ينبغي أن يعلم أنَّ الشَّريعةَ عبارةٌ عن مجموع الصورة والحقيقة، فالصورةُ ظاهرُ الشَّريعة، والحقيقةُ باطنُ الشَّريعة، فالقشرُ واللبُّ كلاهما من أجزاء الشَّريعة، والمحكمُ والمتشابهُ من أفرادهما، وعلماءُ الظَّاهر اكتفوا بقشرها، والعلماءُ الراسخون جمعوا بين اللبّ والقشر، ونالوا حظّاً وافراً من مجموع الصورة والحقيقة، فينبغي أن يتصوّر الشَّريعة كشخصٍ مركَّبٍ من الصورة والحقيقة، وقد تعلّق جماعةٌ بصورتها، وشغفوا بها، وأنكروا حقيقتها، ولم يعرفوا لهم شيخاً يقتدون به غير «الهداية» والبزدوي، وهؤلاء الجماعةُ هم علماءُ القشر، وجماعةٌ أخرى افتتنوا بحقيقتها، ولكن لم يعتقدوها حقيقةَ الشَّريعة، بل زعموا الشَّريعةَ مقصورةً على الصُّورة والقشر، وتصوَّروا اللبَّ والحقيقةَ وراءها، ومع ذلك لم يمتنعوا من إتيان الأحكام الشَّرعيّة، ولم يتخلَّفوا عنها مقدارَ شعرةٍ، ولم يضيِّعوا الصورةَ، وعدُّوا تاركَ حكمٍ من أحكام الشَّريعة بطّالاً وضالاً، وهؤلاء أولياءُ الله جلّ سلطانه، وقد انقطعوا عما سوى الله تعالى بمحبَّته سبحانه، ودون هؤلاء جماعةٌ أخرى، وهم الذين اعتقدوا الشَّريعة مركبةً من الصورة والحقيقة، وتيقَّنوا أنَّها مجموعُ القشر واللبّ، وحصولُ صورة الشَّريعة بدون تحصيل الحقيقة ساقطٌ عندهم عن حيّز الاعتبار، وحصولُ حقيقتها بدون إثبات الصورة ناقصٌ غير تامٍّ، بل لا يعدُّون حصولَ الصورة بدون ثبوت الحقيقة من الإسلام الموجب للنجاة كما هو حال علماء الظَّاهر وعامّة المؤمنين، ويتصورون حصولَ الحقيقة بدون ثبوت الصورة من جملة المحالات، ويسمون القائلَ به زنديقاً وضالاً.

وبالجملة إنَّ الكمالاتِ الصوريَّةَ والمعنويَّةَ منحصرةٌ عند هؤلاء الأكابر في الكمالات الشَّرعيّة، والعلوم والمعارف اليقينيَّة، مقصورةٌ على العقائد الكلاميَّة الثابتة بآراء أهل السنة والجماعة، لا يستوي عندهم ألوفٌ من الشُّهود والمشاهدة مسألةً واحدةً من المسائل الكلامية في تنزيهات الحق جل وعلا، ولا يشترون الأحوالَ والمواجيدَ والتجلِّياتِ والظهوراتِ المخالفةَ لحكمٍ من الأحكام الشَّرعيّة بنصف شعيرةٍ، بل يعدُّون ظهورَ أمثال هذه المذكورات من مظانّ الاستدراج، ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وهم العلماءُ الراسخون، وهم المنعمُ عليهم الاطّلاع على حقيقة المعاملة، والموصل بهم بسبب رعايتهم الآداب الشَّرعيّة إلى حقيقة الشَّريعة، بخلاف الفرقة الثّانية، فإنَّهم وإن كانوا متوجّهين إلى الحقيقة ومفتونين بها، ولم يجاوزوا الحدَّ في إتيان الأحكام الشَّرعيّة مقدار شعرةٍ مهما أمكن، ولكنَّهم لَمّا اعتقدوا تلك الحقيقةَ وراء الشَّريعة، وتصوَّروا الشَّريعة قشرها؛ تنزَّلوا بالضَّرورة إلى ظلٍّ من ظلال تلك الحقيقة، ولم يجدوا للوصول إلى حقيقة تلك المعاملة سبيلاً.........................

فلا جرم كان ولايتهم ظليّةً، وقربَهم صفاتيّاً، بخلاف العلماء الراسخين، فإنَّ ولايتهم أصليّةٌ، وإنَّهم وجدوا للوصول إلى الأصول سبيلاً، وجاوزوا حجبَ الظلال بالتمام، فلا جرم كانت ولايتُهم ولايةَ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وولايةُ هؤلاء الأولياء ظلُّ ولاية الأنبياء.

وكان هذا الفقير متوقِّفاً في تأويل المتشابهات، ومفوِّضاً إياه إلى علم الحقّ سبحانه مدّةً مديدةً، ولم أجد للعلماء الراسخين نصيباً منها غيرَ الإيمان بها، والتأويلاتُ التي بيَّنها علماء الصوفيَّة لم أرها لائقةً ومناسبةً بشأن تلك المتشابهات، ولم أر للأسرار القابلة للاستتار تأويلاتٍ كما قال عينُ القضاة في تأويل بعض المتشابهات مثلاً في ﴿الٓمٓ﴾ [البقرة: ١] أراد به: الألَمَ اللازمَ للعشق والمحبّة وأمثالها، ولَمّا أظهر لي الله سبحانه - بمحض فضله - شمّةً من تأويل المتشابهات، وفتح جدولاً من ذاك البحر المحيط، ومدَّه إلى أرض استعداد هذا المسكين؛ علمتُ أنَّ للعلماء الراسخين أيضاً نصيباً وافراً من تأويلات المتشابهات، ﴿الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى هَدٰينَا لِهٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ اَنْ هَدٰينَا اللّٰهُۚ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وأحلنا تعبيرات الوقائع المطلوبة المسطورة على الحضور، ولم نكتب من تلك المقولة شيئاً، ماذا أفعل قد جرى القلمُ بمعارف أخر؟ واستقبلت معاملةٌ غيرها هي بالتَّسطير أحرى، والمسؤولُ مسامحتكم، والسلامُ عليكم وعلى سائر من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى، عليه وعلى آله وعلى إخوانه الصلوات والتسليمات العلى.

المكتوب السابع والسبعون والمائتان

إلى الـملّا عبدِ الحيِّ في بيانِ علمِ اليقينِ وعينِ اليَقينِ وحقِّ اليَقينِ، وهذا منَ العُلومِ المُناسبةِ لوَسطِ الحالِ، ونهايَة الشُّهودِ هنا: هو الشُّهود الأنفسيُّ، بل شُهود ما وَراءَ الأنفسِ، بل نفسُ الشُّهود ليسَ بشَيءٍ بالنِّسبةِ إلى الوُصولِ كما يلوحُ ذلك من سائرِ مكتوباتِه ورَسائلِه.

اعلم - أرشدك الله - أنَّ علمَ اليقين بذات الحقّ سبحانه عبارةٌ عن شهود الآيات الدالَّة على قدرته تعالى وتقدّس، ويقال لذلك الشُّهود: سيراً آفاقيّاً، وأما الشُّهودُ والحضورُ الذاتيّين؛ فليس شيءٌ منهما بمنصورٍ في غير السَّير الأنفسيّ، وهو لا يكون في غير نفس السَّالك: (شعر)

فَلَسَــوْفَ تَعْلَمُ أَنَّ سَــيْرَكَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا إِلَـيْـكَ إِذَا بَـلَـغْـتَ الْـمَـنْـزِلَا

وما يشاهده في خارجه؛ فهو من قبيل مشاهدة الآثار والدَّلائل على ذاته تعالى، لا مشاهدته عزّ سلطانه، قال قطبُ المحققين سيدُ العارفين ناصرُ الدين الخواجه عبيد الله قدس سره: إنَّ السَّير على نوعين: سيرٌ مستطيلٌ، وسيرٌ مستديرٌ، فالسيرُ المستطيلُ: بعدٌ في بعدٍ، والسيرُ المستديرُ: قربٌ في قربٍ، والسيرُ المستطيلُ: طلبُ المقصود من خارج دائرة نفسه، والسيرُ المستديرُ: الدَّورانُ حول قلبه، وطلبُ المقصود من نفسه، فالتجلّياتُ الكائنةُ في الصور الحسيَّة والمثاليَّة، وكذلك التجلّياتُ الكائنةُ في حجب الأنوار داخلةٌ في علم اليقين أيّ صورةٍ كانت، وأيّ نورٍ كان، وسواءٌ كان النورُ مكيَّفاً وملوَّناً أو متناهياً أو لا، محيطاً كان بالكائنات أو لا، قال مولانا المخدوم عبد الرحمن الجامي قدس الله سره السامي في «شرح اللمعات» عند بيان معنى هذا البيت: (شعر)

يَـا مَـنْ طَـلَـبْـتُـهُ مِـنْ جَـمِـيعِ مَكَـانِ وَسَــأَلْـتُ عَـنْـهُ أَقَـاصِــيـَـا وَأَدَانِي

إنَّ هذا إشارةٌ إلى المشاهدة الآفاقيّة التي تفيد علمَ اليقين، وحيث إنَّها لا تخبر عن المقصود، ولا تعطي حضوره؛ لا جرم تكون كشهود الدخان والحرارة الدالَّين على ذات النار، فلا يخرج........................

ذلك الشُّهودُ من دائرة العلم، ولا يكون مفيداً لعين اليقين، ومفنياً لوجود السَّالك. وعينُ اليقين عبارةٌ عن شهود الحقّ سبحانه بعد أن كان معلوماً بالعلم اليقينِيّ، وهذا الشُّهودُ مستلزمٌ لفناء السَّالك، وعند غلبة هذا الشُّهود يكون تعيّنُه متلاشياً بالكلية، ولا يبقى أثرٌ منه في عين شهوده، ويكون فانياً ومستهلكاً في الشُّهود، وهذا الشُّهودُ معبَّرٌ عنه عند هذه الطَّائفة العليّة قدس الله أسرارهم بالإدراك البسيط، ويقال له أيضاً: معرفةٌ، والعوامُّ يشاركون الخواصَّ في هذا الإدراك، ولكن الفرقُ بينهما: هو أنَّ شهودَ الخلق لا يكون مزاحماً في الخواصّ لشهود الحقّ جل وعلا، بل ليس المشهودُ بعيون شهودهم غيرَ الحقّ سبحانه، وأما العوامُّ؛ فهو مزاحمٌ له فيهم، ولهذا فيهم ذهولٌ تامٌّ عن هذا الشُّهود، وليس لهم خبرٌ عن هذا الإدراك.

وعينُ اليقين هذا حجابُ علم اليقين، كما أنَّ علمَ اليقين حجابُه، وعند تحقّق هذا الشُّهود لا يدرك شيءٌ غير الحيرة والجهالة، لا مجالَ للعلم في ذلك الموطن أصلاً، قال بعض الكبراء قدس الله تعالى سره: علمُ اليقين حجابُ عين اليقين، وعينُ اليقين حجابُ علم اليقين، وقال أيضاً: وعلامةُ من عرف حقّ المعرفة: أن يطَّلع على سرّه، فلا يجد علماً به، فذلك الكاملُ في المعرفة التي لا معرفةَ وراءها، وقال بعضهم أيضاً قدس الله أسرارهم العليّة: أعرفهم بالله أشدُّهُم تحيُّراً فيه، وحقُّ اليقين عبارةٌ عن شهوده سبحانه بعد ارتفاع التعيّن، واضمحلال المتعيّن، وشهوده هذا للحقّ بالحق سبحانه، لا به، لا يحمل عطايا الملك إلا مطاياه، وذلك يتصوَّرُ في البقاء بالله الذي هو مقامُ (بي يسمع وبي يبصر)، الذي يهب الحقّ سبحانه فيه للسالك وجوداً من عنده بمحض عنايته بعد تحقّقه بالفناء المطلق الذي هو الفناء في ذاته وصفاته سبحانه وتعالى، ويخرجه من السُّكر والغيبة إلى الصحو والإفاقة، ويقال لهذا الوجود: الوجودَ الموهوبَ الحقانِيّ، وفي ذلك الموطن لا يكون العلمُ حجاباً للعين، ولا العينُ حجاباً للعلم، بل يكون في عين الشُّهود عالماً، وفي عين العلم مشاهداً، وهذا التعيّنُ هو الذي يجده العارفُ في ذلك الموطن عينَ الحقّ سبحانه، لا التعيّن الكونِيّ، فإنَّه لم يبقَ منه أثرٌ في نظر شهوده، ولأنَّه من التجلِّيات الصورية التي هي أن يجد السَّالكُ التعيّنات والصورَ عينَ الحقّ سبحانه، وهي تعيّناتٌ كونيةٌ لم يتطرَّقْ إليها الفناءُ أصلاً، فأين أحدهما عن الآخر؟ ما للتراب ورب الأرباب.

وظاهرُ العبارة وإن كان عند العوامّ موهماً لعدم الفرق بين التجلِّي الصوريّ الذي هو وجدانُ السَّالك نفسَه عين الحقّ وبين حقّ اليقين الذي هو أيضاً وجدانُه نفسه عينَ الحقّ، لكن في الحقيقة فرقٌ بينهما، وهو أنَّ التَّعبيرَ بـ(أنا) في التجلِّي الصوريّ يقع على الصُّورة في حقّ اليقين على الحقيقة، وأيضاً إنَّ السَّالكَ يرى الحقَّ سبحانه في التجلِّي الصوريّ بنفسه، وفي هذا الموطن يرى الحقَّ بالحقِّ سبحانه لا بنفسه، فإنَّه لا يمكنه فيه رؤيةُ نفسه، فإطلاقُ الشُّهود في التجلِّي الصوريّ على سبيل التجوُّز، فإنَّه لا يمكن رؤيةُ الحقّ بغير الحقّ سبحانه، وهي في مرتبة حقِّ اليقين التي تتحقّق فيها حقيقةُ الشُّهود. وبعضُ شيوخ الزمان لَمّا لم يطَّلع على هذا الفرق، ولم يعلم تعيّناً سوى التعيّن الكوني؛ أطالَ لسانَ الطعن في الأكابر قدس الله تعالى أسرارهم في تفسيرهم حقّ اليقين على النهج الذي قرَّرْتُه، وزعم أنَّ هذا اليقين قد يحصل في التجلِّي الصوريّ الذي هو أوَّلُ القدم في السلوك، وهم فسَّروا به حقَّ اليقين الذي هو نهايةُ الأقدام، فكيف يستقيم؟ بل حكم أنَّ الحقَّ اليقينَ الذي حصل لهم في النهاية يحصل لنا في التجلِّي........................

الصوريّ الذي هو أوّل أقدامنا، ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣]. والسلام.

المَكْتُوبُ الثَّامِنُ وَالسَّبْعُونَ وَالمِائَتَانِ

إلى الملّا عبدِ الكريمِ السّنامِيِّ في بيانِ أنّه لا بدَّ لكلِّ إنسانٍ بعدَ تصحيحِ العَقائدِ، والعَملِ بمُقتَضى الأحكامِ الشّرعيّة؛ تَحصيلُ سَلامةِ القَلبِ عمَّا دونَ الحقِّ جلَّ وعلا، ومَدحِ الطَّريقةِ النَّقشبَندِيَّةِ العَليَّة، وفي التَّحريضِ على إمدادِ المَوتَى وإعانتِهم، وما يناسبُه.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل: ٥٩].

وصل مكتوبُ الأخ، وصار موجباً للفرح، والنَّصيحةُ التي لا زلتُ أنصح بها الأصحابَ، ولا أزال أنصحهم بها إلى انقضاء عمري بعد تصحيح العقائد على وفق ما بُيِّن في الكتب الكلامية المخصوصة بأهل السنة والجماعة شكر الله سعيهم، وبعد إتيان الأحكام الفقهيَّة من الفرض والواجب والسنة والمندوب والحلال والحرام والمكروه والمشتبه امتثالاً وانتهاءً: تحصيل سلامة القلب عن التعلّق بما سوى الحقّ سبحانه، وهي إنّما تتيسّرُ إذا لم يخطرْ في القلب ما سواه تعالى، بحيث لو تيسّرت حياةُ ألف سنةٍ فرضاً لا يخطر في القلب غيرُ الحقّ سبحانه وتعالى، لا بمعنى: أنَّ الأشياءَ تخطر في البال، ولكن لا يعرفها صاحبه بعنوانِ غيرِ الحقّ جلّ وعلا، فإنَّ هذا المعنى ميسَّرٌ أيضاً في بداية مراقبي التَّوحيد، بل بمعنى: أنَّ الأشياءَ لا تخطر في القلب أصلاً، ومبنى هذا ومدارُه على نسيان القلب ما دون الحقّ سبحانه على نهجٍ لو ذُكِّرَ بالأشياء بالتَّكليف لا يتذكَّرُ، وهذه الحالةُ معبَّرٌ عنها بالفناء القلبيّ، وأوَّلُ قدمٍ في هذا الطَّريق، وسائرُ كمالات الولاية متفرِّعةٌ على هذه الدَّولة:

(شعر)

وَمَنْ لَمْ يَكُنْ فِي حُبِّ مَوْلَاهُ فَانِيـاً ... فَلَيْسَ لَـهُ فِي كِبْرِيَاهُ سَـبِيـلُ

وأقربُ الطُّرق لأجل الوصول إلى هذه الدَّولة العظمى هو الطَّريقةُ العليّةُ النقشبنديَّةُ قدس الله أسرار أربابها، فإنَّ هؤلاء الأكابر اختاروا الابتداءَ من عالم الأمر، وطلبوا من القلب طريقاً إلى مقلِّب القلب، ولهم - عوضاً عن رياضات الآخرين ومجاهداتهم - التزامُ السنَّة، واجتنابُ البدعة، قال الخواجه بهاء الدين النقشبند قدس سره: طريقُنا أقربُ الطرق، ولكنَّ التزامَ السنَّة أمرٌ مشكلٌ جداً، فطوبى لمن توسَّل بهم، واقتدى بهم، لمولانا الجامي قدس سره أشعار:

مَـا أَحْسَـنَ النَّقْشـبَنْدِيِّينَ إِنَّهُمْ ... يَمْشُـونَ بِـالرَّكْـبِ مَخْفِيِّينَ لِلْحَرَمِ

تُزِيلُ وَسْـوَسَـةَ الْخَلْوَاتِ صُـحْبَتُهُمْ ... عَنْ قَلْـبِ صَـحْبِهِم يَـا نِعْمَ مُغْتَنَمِ

لَوْ عَابَهُمْ قَاصِـرٌ طَعْنـاً بِهِمْ سَـفَهـاً ... بَرِئَـتْ سَـاحَتُهُمْ عَنْ أَفْحَشِ الْكَلِمِ

هَلْ يَقْطَعُ الثَّعْلَبُ الْمُحْتَالُ سِـلْسِـلَةً ... قُيِّدَتْ بِهَـا أُسْـدُ الـدُّنْيَا بِـأَسْـرِهِمِ

والمعروضُ ثانياً أنَّ صحيفة محبّنا القاضي محمد شريف قد وصلت، وحيث كانت منبئةً عن محبَّة الفقراء صارت موجبةً للفرح، فبلِّغْه دعاءَ الفقير.

وثالثاً قد وصل مكتوبُ أخينا الشَّيخ حبيب الله، وقد كتب خبر فوت والده المرحوم، إنا لله وإنا إليه راجعون، فالمرجوُّ تبليغُ الدعاء من جانب الفقير، وأداءُ مراسم التعزية، وليمدَّ والده المرحوم بالدعاء، وليُعِنْه بقراءة الفاتحة والصدقات والاستغفار، فإنَّ الميتَ كالغريق ينتظر دعوةً تلحقه من ولد أو أبٍ أو أخٍ أو صديقٍ. ورابعاً: إنَّ..........

المكشوفَ أنَّ الشَّيخ أحمد اختارَ طريقةَ هؤلاء الأكابر، وتأثَّر منها، رزقه الله سبحانه وتعالى الاستقامةَ عليها، وحيث كان المشارُ إليه قريبَ عهدٍ بالإسلام، ينبغي أن تُعَلِّمَه العقائدَ الكلاميَّةَ المذكورةَ في الكتب الفارسيَّة، والأحكامَ الفقهيةَ كذلك، حتى يعرف الفرضَ والواجبَ، والسنةَ والمندوبَ، والحلالَ والحرامَ، والمكروهَ والمشتبهَ، ويعمل بمقتضاها، وتعلم كتاب گلستان وبستان، وتعليمُهما داخلٌ فيما لا يعني. والسلام.

المَكتُوبُ التَّاسِعُ وَالسَّبْعُونَ وَالمِائَتَانِ

إلى المـلَّا حسنٍ الكَشميريِّ في أداءِ شكرِ نعمةِ دِلالتِه إيَّاه على الطَّريقَة النَّقشبَنديَّة العليَّة، وما يناسِب ذلك.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩].

بلّغنا مهدي على صحيفتكم الشّريفة الصّادرة باسم هذا الفقير على وجه الكرم والالتفات، فصارت موجبةً للفرح الوافر، سلَّمكم الله سبحانه. وقد وقع الاستفسارُ عن عبارة الشَّيخ محيي الدين ابن العربي قدس سره هذه: إنَّ سببَ ترتيب خلافة الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم مدّة أعمارهم إنَّها في أيّ كتابٍ وقعت من مصنفاته؟

أيها المخدومُ، إنّي كنت رأيتُ هذه العبارة في «الفتوحات المكية»، ولم يتيسّر الآن تعيينُ الموضع مع كمال التفحُّص، فإن وقع النظرُ عليها مرَّةً ثانيةً؛ نخبر به إن شاء الله تعالى. والمعروضُ أنَّ الفقيرَ معترفٌ بالقصور في أداء شكر نعمة دلالتكم، ومقرٌّ بالعجز في مكافأة إحسانكم، وكيف لا فإنَّ هذه الأمورَ كلَّها مبنيةٌ على تلك النعمة، وهذه الأحوالَ بأسرها مربوطةٌ بذلك الإحسان، وقد أعطيتُ - بحسن وساطتكم - ما لم يره إلا القليلون، ومُنحتُ - بيمن وسيلتكم - ما لم يذقه إلا الأقلون، أعطيتُ من خواصّ العطايا ما لم يتيسّر للأكثرين من علوم تلك العطايا، وجعلتْ لي الأحوالُ والمقاماتُ والأذواقُ والمواجيدُ والعلومُ والمعارفُ والتجلّياتُ والظهوراتُ كلُّها معارجَ العروج، فوصلتُ منها بعنايته سبحانه إلى مدارج القرب ومنازل الوصول، واختيارُ لفظ القرب والوصول إنّما هو من ضيق ميدان العبارة، ولا فلا قربَ ثمّةَ، ولا وصولَ، ولا عبارةَ، ولا إشارةَ، ولا شهودَ، ولا مشاهدةَ، ولا حلولَ، ولا اتحادَ، ولا كيفَ، ولا أينَ، ولا زمانَ، ولا مكانَ، ولا إحاطةَ، ولا سريانَ، ولا علمَ، ولا معرفةَ، ولا جهلَ، ولا حيرةَ: (شعر)

وَمَا أُبْدِيكَ مِنْ طَيْرِي عَلَامَهْ ... وَقَدْ أَضْحَى كَعَنْقَاءَ وَهَامَهْ
وَلِلْعَنْقَاءِ بَيْنَ النَّاسِ اسْمٌ ... وَلَيْسَتْ لِاسْمِ طَيْرِي اسْتِدَامَهْ

ولما كان إظهارُ إحسان الله تعالى وإنعامه بهذه النِّعم التي ظهورُها مترتِّبٌ في عالم الأسباب على نعمتكم المذكورة متضمِّنـًا لشكرها؛ أدرجتها في ضمن فقراتٍ، وقيَّدتها بقيد الكتابة رجاءَ أن يؤدّى بذلك نبذةٌ من شكر نعمتكم المسطورة. والسلام عليكم وعلى سائر من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى، عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات.

المَكتُوبُ الثَّمانُونَ وَالمِائَتَانِ

إلى الحافظِ محمودٍ في بيانِ أنَّ محبَّةَ هذه الطَّائفَة رأسُ مالِ السَّعادةِ، وما يناسِب ذلك.

بعد الحمد والصلوات، وتبليغ الدعوات، ليعلم أنَّ المكتوبَ الشَّريفَ المصحوبَ بجناب مولانا مهدي علي قد وصل، وصار موجبـًا للفرح، لله سبحانه الحمدُ على رسوخ محبَّة الفقراء التي.........................

هي رأسُ مال السعادة الدنيوية والأخرويَّة رسوخـاً تامّـاً، بحيث لم يؤثِّرْ فيها تمادي أيام المفارقة.

واعلم أنَّ المحافظة على شيئين والثباتَ عليهما من اللوازم: متابعةُ صاحب الشَّريعة عليه وعلى آله الصلاة والسلام والتحيَّة، ومحبَّةُ الشَّيخ المقتدى به مع الإخلاص له، وكلُّ شيءٍ يحصل مع وجود هذين الشيئين فهو نعمة زائدةٌ، وإن لم يحصل شيءٌ مع وجود هذين الشيئين؛ فلا غمَّ أصلاً، فإنَّه سيحصل غيرهما فيما بعدُ، وإن تطرَّق - عياذاً بالله سبحانه - خللٌ على واحدٍ من هذين، وبقيت الأحوالُ والأذواقُ على حالها؛ ينبغي أن يعتقد ذلك من الاستدراج، وأن يعدَّه من الخذلان، وهذا هو طريقُ الاستقامة، والله سبحانه الموفق.

المَكْتُوبُ الحَادِي وَالثَّمَانُونَ وَالمِائَتَانِ

إلى المِير محمَّد نعمانَ في بيانِ شكرِ نعمةِ الانتِسابِ إلى سِلسِلةِ الطَّريقةِ النَّقشبَنديَّةِ العليَّة، وبيانِ بعضِ خصائصِ هذا الطَّريقِ، وما يلزَمُ فيه منَ الآدابِ.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩].

بأيِّ لسانٍ نؤدي شكرَ هذه النعمة العظمى، حيث شرَّفنا الله سبحانه وتعالى بعد تصحيح العقائد بموجب آراء أهل السنة والجماعة شكر الله سعيهم بسلوك الطَّريقة النقشبنديَّة العليّة، وجعلنا من مريدي هذه الطَّائفة العظيمة الشأن ومنتسبيهم، وعند الفقير أنَّ الخطوةَ الواحدةَ في هذا الطَّريق أفضلُ من سبع خطواتٍ في طرقٍ أخرَ، والطَّريقُ الذي يفتح ويوصلُ إلى كمالات النبوَّة بطريق التبعيَّة والوراثة مخصوصٌ بهذا الطَّريق العالي، ومنتهى طرقٍ أخرَ إلى حصول كمالات الولاية لم يفتحْ منها طريقٌ موصلٌ إلى كمالات النبوَّة، ومن ههنا كتبتُ في كتبي ورسائلي أنَّ طريق هؤلاء الأكابر طريقُ الأصحاب الكرام عليهم الرضوان، وكما أنَّ الأصحابَ نالوا من تلك الكمالات بطريق الوراثة حظّـاً وافراً؛ كذلك منتهيو هذا الطَّريق يجدون منها نصيبـاً كاملاً بطريق التبعية، والمبتدؤون والمتوسطون الملتزمون لهذا الطَّريق المتَّصفون بكمال محبَّة المنتهيين من أهل هذا الطَّريق؛ فهم أيضـاً راجون ذلك، «المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ» بشارةٌ للمهجورين، والخائبُ في هذا الطَّريق والخاسرُ فيه شخصٌ يدخل فيه ولا يراعي آدابه، ويخترعُ فيه أموراً محدثةً، ويعتمد على مناماته ووقائعه المخالفة لهذا الطَّريق، فما ذنبُ الطَّريق على هذا التقدير، بل هو ماشٍ على مقتضى مناماته وواقعاته، متوجّهٌ إلى طرف تركستان، منحرفًا عن طريق الكعبة باختياره: (شعر)

أَلَا هَلْ يَبْلُغَنْ أَمَّ الْقُرَى مَنْ غَدَا ... يَمْشِي إِلَى صَوْبِ الْعِرَاقِ

ولا أستحسن أن أشوِّش طريقكم هذا هناك مع وجود جمعيَّة الأصحاب واجتهاد الطالبين، فإن وقعت الإشارةُ بالسفر إلى هذه الحدود قبل هذا؛ كان ذلك مشروطـاً بشروطٍ، والآن أيضـاً مشروطٌ بالشروط، فإن تتوجَّهْ إلى هذه الحدود بعد استخارةٍ مكرّرةٍ، وانشراحِ صدرٍ بلا تردُّدٍ وشبهةٍ، وإجلاسِ شخصٍ مكانك على نهجٍ لا يتطرَّقُ فتورٌ أصلاً إلى الوضع السابق؛ فلك ذلك، وبدون هذه الشرائط لا ينبغي تضييعُ المعاملة هناك، وإيقاعُ الفتور في جمعيَّة الطالبين، وماذا أبالغ أزيد من ذلك؟ والسلام.

المَكْتُوبُ الثَّانِي وَالثَّمَانُونَ وَالمِائَتَانِ

إلى المـلَّا بديعٍ في بيانِ ملاقاةِ الخَضرِ وإلياسَ عليهما السَّلامُ، وبيانِ نبذةٍ من أحوالِهما.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩].

قد مضت مدَّةٌ من استفسار الأصحاب عن أحوال الخضر على نبينا وعليه الصلاة والسلام، ولَمّا لم يكن للفقير اطّلاعٌ على أحواله كما ينبغي؛ كنت متوقِّفاً في الجواب، فرأيتُ اليوم في حلقة الصبح أنَّ إلياس والخضرَ عليهما السلام حضرا في صورة الروحانيين، فقال الخضرُ بالإلقاء الروحانِيّ: نحن من عالم الأرواح، قد أعطى الحقُّ سبحانه أرواحنا قدرةً كاملةً بحيث تتشكَّلُ وتتمثَّلُ بصور الأجسام، ويصدر عنها ما يصدر عن الأجسام من الحركات والسَّكنات الجسمانيَّة، والطاعات والعبادات الجسديَّة، فقلت له في تلك الأثناء: أنتم تصلون الصلاةَ بمذهب الإمام الشافعيّ، فقال: نحن لسنا مكلَّفين بالشَّرائع، ولكن لَمّا كانت كفايةُ مهمات قطب المدار مربوطةً بنا، وهو على مذهب الإمام الشافعيّ؛ نصلي نحن أيضاً وراءه بمذهب الإمام الشافعيّ ﷺ، فعلم في ذلك الوقت أنَّه لا يترتَّبُ الجزاءُ على طاعتهم، بل تصدرُ عنهم الطَّاعةُ والعبادةُ موافقةً لأهل الطاعة، ومراعاةً لصورة العبادة، وعلم أيضاً أنَّ كمالات الولاية موافقةٌ لفقه الشافعيّ، ولكمالات النبوَّة موافقةٌ لفقه الحنفي، فعلم في ذلك الوقت حقيقةُ كلام الخواجه محمد پارسا قدس سره حيث ذكر في «الفصول الستة» نقلاً أنّ عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام يعمل بعد نزوله بمذهب الإمام أبي حنيفة ﷺ، فوقع في الخاطر في ذلك الوقت أن نستمدَّ بهما، وأن نطلب منهما الدعاءَ، فقال: إذا كانت عنايةُ الحقّ سبحانه شاملةً لحال شخصٍ؛ فلا مدخلَ لنا هناك، وكأنَّهم أخذوا أنفسهم من البين. وأما إلياسُ على نبينا وعليه الصلاة والسلام؛ فلم يتكلّم في ذلك الوقت أصلاً. والسلام.

المَكْتُوبُ الثَّالِثُ وَالثَّمَانُونَ وَالمِائَتَانِ

إلى صُوفِي قُربان في بيانِ أنَّ رؤيةَ النَّبيِّ ﷺ ربَّه ليلةَ المِعراجِ كانت في مَوطنِ الآخرَةِ، لا في مَوطنِ الدُّنيا.

قد سألت أنَّ إجماعَ أهل السنة والجماعة منعقدٌ على أنَّ الرؤيةَ غيرُ واقعةٍ في الدُّنيا، حتى منع أكثرُ علماء أهل السنة رؤيةَ خاتم الرسل والرسالة عليه وعلى آله الصلاة والسلام ليلةَ المعراج، قال حجّةُ الإسلام: والأصحُّ: أنَّه عليه الصلاة والسلام ما رأى ربه ليلة المعراج، وقد اعترفتَ أنت في رسائلك بوقوع رؤيته ﷺ ربَّه في الدنيا، فما يكون وجهُ ذلك؟

أجيب: إنَّ رؤيته ﷺ ربَّه ليلةَ المعراج ما وقعت في الدنيا، بل وقعت في الآخرة، فإنَّه ﷺ لَمّا خرج ليلةَ المعراج من دائرة المكان والزَّمان، وتخلَّصَ عن مضيق الإمكان وجد الأزل والأبد آناً واحداً، ورأى البدايةَ والنهايةَ نقطةً واحدةً، ورأى أهلَ الجنة الذين يدخلونها بعد ألوفٍ من السنين في الجنَّة، حتى إنَّ عبد الرحمن بن عوف ﷺ الذي يدخل الجنة بعد خمسمائة سنةٍ من فقراء الأصحاب رضوان الله عليهم أجمعين رآه قد دخل الجنَّة بعد مضي تلك المدَّة، وسأله عن سرّ توقُّفه، فالرُّؤيةُ الواقعةُ في ذلك الموطن تكون داخلةً في الرؤية الأخرويَّة، فلا تكون منافيةً؛ للإجماع على عدم وقوعها، وإطلاق الرُّؤية الدنيويَّة عليها محمولٌ على التَّجوُّز، ومبنيٌّ على الظَّاهر. والله سبحانه أعلم بحقائق الأمور كلّها.

المَكْتُوبُ الرَّابِعُ وَالثَّمَانُونَ وَالمِائَتَانِ

إلى الـملّا عبدِ القادرِ الأَنْـبَالِيِّ في بيانِ أنَّ الأحوالَ والمواجيدَ نصيبُ عالمِ الأمرِ، والعِلمَ بالأحوالِ نصيبُ عالَمِ الخَلقِ، وهذه المعرفَة منَ المَعارفِ السَّابقةِ، وحقيقةُ المعاملةِ هيَ التي حرِّرت في مَكتوبٍ صدر للمخدومِ الأكبرِ عليه الرَّحمة في بيانِ الطَّريقِ.

اعلم أنَّ الإنسانَ مركَّبٌ من عالم الخلق الذي هو ظاهرُه، وعالم الأمر الذي هو باطنُه، فالأحوالُ والمواجيدُ والمشاهداتُ والتجلِّياتُ التي تظهر في الابتداء والوسط نصيبُ عالم الأمر الذي هو باطنُ الإنسان، وكذلك الحيرةُ والجهالةُ والعجزُ واليأسُ التي تحصل في الانتهاء أيضاً نصيبُ عالم الأمر الذي هو باطن الإنسان، وللظاهر بحكم:

(ع) وَلِلْأَرْضِ مِنْ كَـأْسِ الْكِرَامِ نَصِـيـبُ

أيضاً نصيبٌ من تلك المعاملة عند وجود القوَّة فيه، وإن لم يكن له ثباتٌ واستقامةٌ، ولكن يكتسب نوعاً من الانصباغ، والأمرُ الذي يتعلَّق بالظَّاهر بالأصالة هو العلمُ بتلك الأحوال، فإنَّ الباطنَ له حصولُ الأحوال، لا العلمُ بها، فإن لم يكن الظَّاهرُ لما يُفتح طريقُ العلم والتَّمييز وظهور الصور المثالية، ومعارجُ المقامات إنَّما هو لإدراك الظَّاهر، فالحالُ للباطن، والعلمُ بالحال للظاهر، فعلم من هذا البيان أنَّ الأولياءَ الذين هم أصحابُ العلم والذين لا نصيبَ لهم من العلم -يعني: بالأحوال -لا فرقَ بينهم في نفس حصول الأحوال، فإن كان الفرقُ؛ فإنَّما هو من جهة العلم بتلك الأحوال وعدم العلم بها، كما إذا طرأت على شخصٍ مثلاً حالةُ الجوع، وشوَّشت أحواله، وهو يعلم أنَّ هذه الحالةَ يسمونها جوعاً، وشخصٌ آخرَ طرأ عليه تلك الحالةُ أيضاً، ولكنه لا يعلم أنَّ هذه الحالةَ معبَّرٌ عنها بالجوع، فكلٌّ من هذين الشَّخصين مساوٍ للآخر في نفس تلك الحالة، ولا فرق إلا بحسب العلم وعدم العلم.

ينبغي أن يعلم أنَّ الجماعةَ الذين لا علم لهم بالأحوال على قسمين: فطائفةٌ منهم ليس لهم علمٌ بنفس حصول الأحوال، ولا وقوفَ لهم على تلويناتها أصلاً، وطائفةٌ أخرى منهم لهم خبرٌ عن تلوينات الأحوال، ولكنَّهم لا يقدرون على تشخيص الأحوال، وهذه الطَّائفةُ داخلون في أرباب العلم، وإن لم يقدروا على تشخيص الأحوال، ومستحقُّون للمشيخة، وتشخيصُ الأحوال ليس هو وظيفة كلِّ شيخٍ، بل تظهر هذه الدَّولةُ بعد أزمنةٍ متطاولةٍ حتى يتشرَّف بها واحدٌ، ويحال الآخرون على علمه، ويجعلون من متطفليه، كما أنَّ الأنبياءَ أولي العزم صلوات الله وتسليماته عليهم كانوا يبعثون بعد مدَّةٍ مديدةٍ، وكان كلٌّ منهم يختصُّ بأحكامٍ متمايزةٍ، وكان بقيّةُ الأنبياء يؤمرون باتِّباعهم، ويكتفون بالدعوة بتلك الأحكام:

(شعر) لَـيْـسَ عَـلَـى اللهِ بِـمُـسْـتَـنْـكَـرٍ ... أَنْ يَـجْـمَـعَ الْـعَـالَـمَ فِـي وَاحِـدِ

والسلام.

المَكْتُوبُ الخَامِسُ وَالثَّمَانُونَ وَالمِائَتَانِ

إلى السَّيِّد محبِّ اللهِ المانكپُوريِّ في بيانِ أحكامِ السَّماعِ والوجدِ والرَّقصِ، وبعضِ المعارفِ المتعلِّقةِ بالرُّوح.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. اعلم - أرشدك الله إلى طريق السداد، وألهمك سبيل الرشاد - أنَّ السماعَ والوجدَ نافعٌ لجماعةٍ متَّصفون بتقلب الأحوال، ومتَّسمون بتبدُّل الأوقات، ففي وقتٍ حاضرون، وفي وقتٍ غائبون، وأحياناً واجدون، وأحياناً فاقدون، وهم أربابُ القلوب، ينتقلون في مقام التجلِّيات الصِّفاتية عن صفةٍ إلى صفةٍ، ويتحوَّلون.........................

من اسمٍ إلى اسمٍ، تلوُّنُ الأحوال نقدُ وقتهم، وتشتُّتُ الآمال حاصلُ مقامهم، ودوامُ الحال محالٌ في حقِّهم، واستمرارُ الوقت ممتنعٌ في شأنهم، فزماناً في القبض، وزماناً في البسط، فهم أبناءُ الوقت ومغلوبه، فمرَّةً يعرجون، ومرَّةً يهبطون. وأما أربابُ التجلِّيات الذاتيّة الذين تخلَّصوا من مقام القلب بالتمام، واتَّصلوا بمقلِّب القلب، ورجعوا بكليَّتهم من رقِّيَّة الأحوال إلى محوِّل الأحوال؛ فهم ليسوا محتاجين إلى الوجد والسماع، فإنَّ وقتهم دائميٌّ، وحالهم سرمديٌّ، بل لا وقتَ لهم ولا حالَ، فهم آباءُ الوقت، وأربابُ التمكين، وهم الواصلون الذين لا رجوع لهم أصلاً، ولا فقدَ لهم قطعاً، فمن لا فقدَ له لا وجدَ له. نعم، إنَّ طائفةً من المنتهيين ينفعهم السَّماعُ أيضاً مع وجود استمرار الوقت، وسيحرَّرُ بيانه بالتَّفصيل في آخر هذا المبحث إن شاء الله تعالى.

فإن قيل: قال خاتمُ الرسل والرسالة عليه وعلى آله الصلاة والتحية: «**لِي مَعَ اللهِ وَقْتٌ لَا يَسَعُنِي فِيهِ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ**»، فيفهم من هذا الحديث: أنَّ الوقتَ لا يكون دائماً.

أجيب - بعد تسليم صحّة هذا الحديث -: أنَّ بعض المشائخ قد أراد بالوقت الواقع في الحديث وقتاً مستمرّاً، أي: لي مع الله وقتٌ مستمرٌّ، فلا إشكال.

وثانياً: إنَّ الوقتَ المستمرَّ قد تَعْرِضُ فيه أحياناً كيفيّةٌ خاصَّةٌ، فيمكن أن يكون المرادُ بالوقت: الوقتَ النادرَ، ويكون المراد به هذه الكيفيَّةَ النَّادرةَ، فعلى هذا يرتفع الإشكالُ أيضاً.

فإن قيل: يمكن أن يكون لاستماع النَّغمة مدخلٌ في تحصيل تلك الكيفية النادرة، فصار المنتهي أيضاً محتاجاً إلى السَّماع في تحصيل تلك الكيفيَّة؟

أجيب: أنَّ تحقُّقَ تلك الكيفيَّة غالباً في حين أداء الصلاة، فإن ظهرت في خارج الصلاة أحياناً؛ فهو أيضاً من نتائجها وثمراتها، ويمكن أن يكون في حديث: «**وَقُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**» إشارةً إلى هذه الكيفيَّة النَّادرة، وورد أيضاً في الخبر: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنَ الرَّبِّ فِي الصَّلَاةِ**»، وقال الله تعالى: ﴿**وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ**﴾ [العلق: ١٩]، ولا شكَّ أنَّ كلَّ وقتٍ يكون القربُ الإلهيُّ فيه أزيدَ؛ يكون مجالُ الغير فيه أشدَّ انتفاءً، ففهم من هذا الحديث وهذه الآية أيضاً أنَّ ذلك الوقتَ في الصَّلاة، والدَّليلُ على استمرار الوقت ودوام الوصل اتِّفاقُ المشائخ، قال ذو النون المصريّ: ما رجع من رجع إلا من الطَّريق، ومن وصل لا يرجع. وكون (ياد داشت) عبارةً عن دوام الحضور مع جناب قدس الحقّ سبحانه أمرٌ مقرَّرٌ في طريقة خواجگان قدس الله أرواحهم، وبالجملة إنَّ الإنكارَ على دوام الوقت علامةُ عدم الوصول، وما قاله شرذمةٌ قليلةٌ من المشائخ - كابن عطاء وأمثاله - من جواز رجوع الواصل إلى الصِّفات البشرية، فيفهم منه عدمُ دوام الوقت؛ فهو خلافٌ في جواز الرجوع، لا في الوقوع، فإنَّ الرجوعَ غيرُ واقعٍ ألبتة كما لا يخفى على أربابه، فثبت إجماعُ المشائخ على عدم رجوع الواصل، وكان خلافُ البعض راجعاً إلى جواز الرجوع.

هذا، وطائفةٌ من المنتهيين تحصل لهم برودةٌ قويَّةٌ في الوصول إلى مشاهدة الجمال اللايزاليّ بعد وصولهم إلى درجةٍ من درجات الكمالات، وتحصل لهم نسبةٌ تامَّةٌ تمنعهم عن العروج إلى منازل الوصول، وأمامهم درجاتُ منازل الوصول لم يقطعوها بعدُ، ولم تنقطع مدارجُ القرب بالانتهاء إلى غايته، وفيهم مع وجود البرودة ميلٌ إلى العروج، وتمنّي كمال القرب، فالسماعُ مفيدٌ في حقِّهم على تقدير هذه الصورة، وموجبٌ للحرارة، ويتيسّر لهم في كلِّ وقتٍ بمدد السماع العروجُ إلى منازل القرب، وبعد التَّسكين يهبطون من تلك المنازل، ولكنَّهم يستصحبون معهم لوناً ووصفاً من مقامات ذلك العروج، وينصبغون به، وهذا الوجدُ ليس هو بعدَ الفقد، فإنَّ الفقدَ مفقودٌ في حقِّهم، بل هو لأجل..............

الترقِّي إلى منازل الوصول مع وجود دوام الوصل، ومن هذا القبيل سماعُ المنتهيين والواصلين ووجدُهم.

نعم، إنَّهم وإن منحوا الجذبةَ بعد الفناء والبقاء، ولكن لَمّا عرضت لهم برودةٌ قويّةٌ؛ لم يكتفوا بها في تحصيل الترقّيات إلى منازل الوصول والعروج، واحتاجوا إلى السماع، وطائفةٌ من المشائخ قدس الله أسرارهم تهبط نفوسهم إلى مقام العبوديَّة بعد وصولهم إلى درجة الولاية، وأرواحهم متوجّهةٌ إلى جناب القدس في مقامها الأصليّ بلا مزاحمة النفوس، وكلَّما يصل إلى الروح مددٌ من مقام النَّفس المطمئنة التي صارت متمكنةً وراسخةً في مقام العبودية تحصل للروح بواسطة ذلك الإمداد مناسبةٌ خاصَّةٌ بالمطلوب، واطمئنانُ هؤلاء الأكابر في العبادة، وتسكينهم في أداء حقوق العبوديَّة والطاعة، وميلُ العروج مفقودٌ في طباعهم، وشوقُ الصعود قليلٌ في بواطنهم، جبينُهم لامعٌ بنور متابعة الملَّة، وعيونُ بصيرتهم مكتحلةٌ بكحل اتِّباع السنة، فلا جرم كانت أبصارُهم حديدةً، يبصرون من بعد ما يعجز الأقربون عن رؤيته، وإن كان عروجهم قليلاً، ولكنهم نورانيون ومنورون بنور الأصل، ولهم في ذلك المقام شأنٌ عظيمٌ، وجلالة القدر، فلا احتياج لهم إلى السماع والوجد، بل تعطيهم العبادةُ ما للسماع، وتكفيهم نورانيَّتُهم بنور الأصل عن العروج، والجماعةُ المقلدون من أهل السماع والوجد الذين لا وقوفَ لهم على عظم شأن هؤلاء الأكابر يحسبون أنفسهم عشاقاً، ويسمونهم زهاداً، وكأنَّهم يزعمون أنَّ العشقَ والمحبَّةَ منحصران في الرقص والوجد، ومن المنتهيين طائفةٌ يمنحون بعد قطع مسالك السَّير إلى الله والتحقّق بالبقاء بالله جذبًا قويّا، فينجرون بسلسلة الجذبة جرّاً جرّاً، وسرايةُ البرودة ممنوعةٌ هناك، والتسليةُ غيرُ جائزةٍ لا يحتاجون في العروج إلى أمورٍ غريبةٍ، وليس للسماع والرقص إلى مضيق خلوتهم سبيلُ الدخول، ولا الوجدُ والتواجدُ عندهم شيءٌ مقبولٌ، بل يصلون بهذا العروج الانجذابيّ إلى نهاية المرتبة الممكنة الوصول، وينالون بواسطة متابعة النبي ﷺ نصيباً من مقامه المخصوص به، وهذا النوعُ من الوصول مخصوصٌ بطائفة الأفراد، لا نصيبَ من هذا المقام للأقطاب أيضـاً، فإن أرجع الواصلُ إلى نهاية النهاية بهذا النوع من الوصول بمحض فضل الحقّ سبحانه إلى العالم، وأحيل عليه تربيةُ المستعدين؛ تهبط نفسه إلى مقام العبودية، وروحُه متوجّهةٌ إلى جناب المقدس بلا نفسٍ، وهو الجامعُ للكمالات الفرديَّة، والحاوي للتكميلات القطبيَّة، وأعني بالقطب ههنا: قطبَ الإرشاد، لا قطبَ الأوتاد، وعلومُ المقامات الظليَّة ومعارفُ المدارج الأصليَّة ميسَّرةٌ له، بل لا ظِلَّ في المقام الذي هو فيه ولا أصلَ، فإنَّه قد جاوز الظلَّ والأصلَ، ومثلُ هذا الكامل المكمّل عزيزُ الوجود جداً، حتى إنَّه لو ظهر بعد قرونٍ متطاولةٍ وأزمنةٍ متباعدةٍ؛ فهو أيضـاً مغتنمٌ ينوّر به العالمُ، نظره شفاءُ الأمراض القلبيَّة، وتوجّهُه دافعُ الأخلاق الرديَّة الغير المرضيَّة، وهو الذي أتمَّ مدارج العروج، ونزل إلى مقام العبوديَّة، واطمأنَّ بالعبادة، وأنس بها، وينتخب بعضَ هذه الطَّائفة لمقام العبديَّة الذي لا مقام فوقه من مقامات الولاية، ويشرف به، وقابليَّةُ منصب المحبوبيَّة أيضـاً مسلَّمةٌ إليه، فهو جامعٌ لجميع كمالات مرتبة الولاية، وحاوٍ لتمام مقامات درجة الدعوة، ومحتظٍ من الولاية الخاصَّة بمقام النبوَّة.

وبالجملة إنَّ هذا المصراع صادقٌ في حقِّه:

(ع) قَـدِ اجْتَمَعَـتْ فِيـهِ الْمَحَـاسِـنُ كُلُّهَا

هذا، والسَّماعُ والوجدُ مضرٌّ للمبتدئ، ومنافٍ لعروجه، وإن وقع بالشرائط، وسيحرَّر نبذةٌ من شرائط..........

السماع في آخر هذه الرسالة إن شاء الله تعالى. ووجدُ المبتدي معلولٌ، وحالُه وبالٌ، وحركتُه طبيعيّةٌ، وتحرُّكُه مشوبٌ بالهوى النَّفسانيّ، وأعني بالمبتدئ: من ليس من أرباب القلوب، وأربابُ القلوب متوسِّطون بين المبتدئ والمنتهي، والمنتهي هو الفاني في الله، والباقي بالله، وهو الواصلُ الكاملُ، وللانتهاء درجاتٌ بعضها فوق بعض، وللوصول مراتبُ لا يمكن قطعُها أبد الآبدين، وبالجملة إنَّ السماعَ نافعٌ للمتوسطين وطائفة من المنتهيين أيضـاً كما مرَّ آنفا، ولكن ينبغي أن يعلم أنَّ السماعَ لا يحتاج إليه أربابُ القلوب أيضـاً مطلقـاً، بل جماعةٌ منهم لم يشرَّفوا بعدُ بدولة الجذبة، ويريدون قطع المسافة بالرياضات والمجاهدات الشاقَّة، فالسماعُ والوجدُ ممدٌّ ومعاونٌ لهؤلاء الجماعة في هذه الصورة، وأما إذا كان أربابُ القلوب من المجذوبين؛ فقطع مسالك سيرهم بمدد الجذبة، وليسوا محتاجين إلى السماع، وينبغي أيضـاً أن يعلم أنَّ نفعَ السماع لأرباب القلوب الغير المجذوبين ليس على إطلاقه، بل الانتفاعُ به مشروطٌ بالشرائط، وبدونها خرطُ القتاد، فمن جملة الشرائط: عدمُ الاعتقاد لكمال نفسه، فلو كان معتقداً لتماميّة نفسه؛ فهو محبوسٌ. نعم، قد يورثه السّماعُ أيضـاً من العروج، ولكنَّه يهبط من مقامٍ عرج إليه وقت السماع بعد التسكين، والشرائطُ المبيّنةُ في كتب الأكابر مستقيمي الأحوال كـ«عوارف المعارف» أكثرها مفقودةٌ في سماع أبناء هذا الزَّمان، بل مثلُ هذا السَّماع الذي شاع في هذا الزمان، وهذا الاجتماعُ الذي صار متعارفـاً في هذه الأوان؛ لا شكَّ في أنَّه مضرٌّ محضٌ ومنافٍ صرفٌ، لا طمعَ للعروج فيه، ولا يتصوَّرُ الصعودُ والترقِّي به، وإمدادُ السماع مفقودٌ في هذا المحلّ، والمضرَّةُ موجودةٌ في ذلك المحفل.

تنبيهٌ: إنَّ السَّماعَ وإن كان مفيداً بالنِّسبة إلى بعض المنتهيين، ولكن لَمّا كان أمامهم مراتب العروج؛ فهم من الأوساط، وما لم تُطْوَ مراتبُ العروج الممكنة الحصول بالتمام؛ فحقيقةُ الانتهاء مفقودةٌ فيهم، وإطلاقُ النِّهاية إنّما هو باعتبار نهاية السَّير إلى الله، وهذا السَّيرُ إلى اسمٍ إلهيّ كان السَّالكُ مظهرَه، والسيرُ بعد ذلك يكون في ذلك الاسم وما يتعلّق به، فإذا جاوَزَه وما يتعلّق مما ينكشف لأربابه، ووصل إلى المسمى الحقيقيّ، وحصل له هناك فناءٌ وبقاءٌ؛ فهو حينئذٍ يكون منتهيـاً حقيقيّـاً، ونهايةُ السَّير إلى الله في الحقيقة يتحقّقُ في ذلك المحلّ، وقد عدُّوا النهايةَ الأولى التي هي انتهاءُ السَّير إلى الاسم من نهاية السَّير إلى الله، واعتبروها منها أيضـاً، وباعتبار حصول الفناء والبقاء في تلك المرتبة أطلقوا اسمَ الولاية أيضـاً. وما قيل من أن لا نهايةَ للسير في الله، فهذا السَّيرُ في حين البقاء، وبعد طيّ منازل العروج، ومعنى عدم نهاية ذلك السَّير: هو أن السَّيرَ إذا وقع في ذلك الاسم بالتَّفصيل، وتخلّق بالشؤونات المندرجة فيه لا يصلُ إلى نهايته أصلاً، فإنَّ كلَّ اسمٍ مشتملٌ على شؤونات غيرِ متناهيةٍ، وأما إذا أريد ترقِّيه من ذلك الاسم وقت العروج؛ فيمكن أن يطوي ذلك بقدمٍ واحدٍ، ويصل إلى نهاية النهاية، ثم إن استهلكَ هناك فيا لها من شرافةٍ، وإن أُرْجِعَ لتربية الخلق؛ فيا لها من فضيلةٍ وكرامةٍ. ولا تظنن أنَّ الوصولَ إلى ذلك الاسم أمرٌ سهلٌ، بل لا بدَّ من بذل الروح حتى يشرف بتلك الدَّولة، ومن ذا الذي يختصُّ بهذه النِّعمة القصوى من بين أقرانه، ويمتاز بها؟

وما تتخيَّله تنزيهـاً وتقديسـاً ربّما يكون عينَ التَّشبيه والتَّنقيص، بل أكثرُ المراتب الذي تتخيَّله تنزيهـاً أسفلُ وأدونُ من مقام الروح، والتَّنزيهُ الذي يخيَّلُ لك فوق العرش؛ فهو أيضـاً داخلٌ في دائرة التشبيه، وذلك المكشوفُ المنزَّهُ من عالم الأرواح، ....

فإنَّ العرشَ محدِّدُ الجهات، ومنتهي الأبعاد، وعالمُ الأرواح وراء عالم الجهات والأبعاد، فإنَّ الروحَ لا مكانيةٌ، لا يسعها المكانُ، وإثباتُ الروح فيما وراء العرش لا يوهمنَّك أنَّها بعيدةٌ عنك، والمسافةُ بينك وبينها طويلةٌ، فإنَّ الأمرَ ليس كذلك؛ لأنَّ نسبةَ الروح مع وجودٍ لإمكانيتها مساويةٌ إلى جميع الأزمنة، والقولُ بأنها وراء العرش له معنى آخر لا تعرفه حتى تبلغ هناك. وطائفةٌ من الصوفيَّة لَمّا وصلوا إلى التَّنزيه الروحيّ، ووجدوها فوق العرش؛ تخيَّلوه تنزيهـًا إلهيًّا جلّ شأنه، وظنُّوا علوم ذلك المقام ومعارفه من غوامض العلوم، وحلوا أسرار الاستواء في هذا المقام، والحقُّ أنَّ ذلك النورَ نورُ الروح، وقد عرض للفقير أيضـًا مثلُ هذا الاشتباه عند حصول ذلك المقام، ولكن لَمّا أدركتني عنايةُ الحق سبحانه، ورقَّتني من تلك الورطة؛ عَلِمْتُ أنَّ ذلك النّورَ كان نورَ الروح، لا النورَ الإلهيَّ، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وحيث كانت الروحُ لا مكانيّةً ومخلوقةً على صورةٍ لا مثاليةٍ؛ فلا جرم تكون محلَّ اشتباهٍ، والله يحق الحق وهو يهدي السبيل.

وجماعةٌ منهم ينزلون آخذين ذلك النورَ - يعني: نورَ الروح التي فوق العرش -، ويحصل لهم البقاءُ به، فيظنون أنفسهم جامعين بين التَّشبيه والتَّنزيه، فإن وجدوا ذلك النورَ منفكـًّا عنهم؛ يتصورون ذلك مقام الفرق بعد الجمع، وأمثالُ هذه المغالطات فيما بين الصوفيَّة كثيرةٌ، وهو سبحانه العاصمُ عن مظانّ الأغلاط، ومحال الاحتياط. ينبغي أن يعلم أنَّ الروح وإن كانت بالنِّسبة إلى العالم لا مثليّةً، ولكنَّها بالنِّسبة إلى اللامثليّ الحقيقيّ داخلةٌ في دائرة المثليّ، وكأنَّها برزخٌ بين العالم المثليّ وبين جناب القدس الحقيقيّ، ففيها وصفُ الطرفين، وكلا الاعتبارين صحيحٌ فيها، بخلاف اللامثليّ الحقيقيّ، فإنه لا سبيل للمثليّ إليه أصلاً، فما لم يعرج السَّالكُ من جميع مقامات الروح لا يصل إلى ذلك الاسم، فينبغي أوّلاً أن يتجاوز جميعَ طبقات السّموات حتى العرش، والخروج من لوازم المكان بالتمام، ثم يلزم ثانيـًا طيُّ مراتب لا مكانيّة عالم الأرواح، فيصل في ذلك الوقت إلى ذلك الاسم: (شعر)

وَيَظُنُّ مَوْلَانَا بِأَنَّهُ وَاصِلٌ ... مَا إِنْ لَهُ غَيْرَ الظُّنُونِ حَاصِلُ

فهو سبحانه وراء الوراء، فإنَّ وراء عالم الخلق هذا عالمُ الأمر، ووراءُ عالم الأمر مراتبُ الأسماء والشؤونات ظلاًّ وأصالةً، وإجمالاً وتفصيلاً، فينبغي طلبُ المطلوب الحقيقيّ فيما وراء هذه المراتب الظليَّة والأصليَّة والكونيَّة والإلهيّة والإجماليَّة والتَّفصيلية، فمن ذا الذي ينعم به عليه؟ وأيُّ صاحب دولةٍ يشرّفُ بهذه الدَّولة؟ ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

ينبغي للعاقل أن يكون عالي الهمة، وأن لا يقنع بكلِّما يتيسّر في الطَّريق، وأن يطلب المطلوبَ فيما وراء الوراء: (شعر)

كَيْفَ الْوُصُولُ إِلَى سُعَادَ وَدُونَهَا ... قُلَلُ الْجِبَالِ وَدُونَهُنَّ حُيُوفُ

تنبيهٌ آخرُ: اعلم أنَّ دوامَ الوقت واستمرارَه مسلَّمٌ لشخصٍ تشرَّفَ بالبقاء بالله بعد تحقّقه بالفناء المطلق، وتبدّل علمه الحصولي حضوريّـًا، ولنوضِّحْ هذا المبحث ببيانٍ: اعلم أنَّ كلَّ علمٍ يحصل للعالم من وراء ذاته؛ فطريقُ حصوله له هو حصولُ صورة المعلوم في ذهن العالم، وكلُّ علمٍ لا يحتاج في حصوله إلى حصول الصورة - وهو علمُ الإنسان بذاته -؛ فهو علمٌ حضوريٌّ، فإنَّ الذاتَ حاضرةٌ عند العالم بنفسها، وما دامت صورةُ المعلوم حاصلةً في العلم الحصوليّ؛ فهو معلومٌ في ذهن المتوجّه، فإذا زالت الصورةُ عن الذهن؛ زال ذلك التوجّهُ الذهنيُّ؛ فدوامُ........

التوجّه في العلم الحصوليّ محالٌ عاديٌّ، بخلافه في العلم الحضوريّ، فإنَّ الغفلةَ عن المعلوم غيرُ متصوَّرةٍ هناك، فإنَّ منشأ تحقّق ذلك العلم حضورُ ذات العالم، وحيث كان ذلك الحضورُ دائميّاً؛ فالعلمُ بالذات أيضـاً يكون دائميّاً، وزوالُ التوجّه إلى ذاته غير ممكنٍ، وفي البقاء بالله علمٌ حضوريٌّ لا يتصورُ زوالُه، ولا تظنن أنَّ البقاءَ بالله عبارةٌ عن أن يجد السَّالكُ نفسه عينَ الحقّ كما عبَّر البعضُ من هذه الطَّائفة عن حقّ اليقين بهذه العبارة، فإنَّه ليس كذلك، فإنَّ البقاء بالله الذي تيسّر بعد الفناء المطلق لا يناسبه أمثالُ هذه العلوم، وحقُّ اليقين الذي قاله البعض مناسبٌ لبقاء يحصل في الجذبة، والبقاءُ الذي هو مقصودُنا غير ذلك: (شعر)

فَـوَاللهِ لَا تَـدْرِي لِـذِي الْـخَـمْـرِ لَـذَّةً   وَلَا نَشْـوَةً حَتَّـى تَـذُوقَ وَتَسْـكَـرَا

فاستمرارُ التوجّه ودوامُ الحضور إنّما ثبتا في البقاء بالله، ولا إمكانَ لدوام التوجّه قبل التحقّق بالبقاء بالله، وإن توهّم ذلك المعنى لكثيرين قبل الوصول إلى هذا المقام خصوصـاً في الطَّريقة العليّة النقشبنديَّة قدس الله أسرار أهلها، والحقُّ ما حقَّقْتُ، والصوابُ ما ألهمتُ، والله سبحانه أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

الحمد لله رب العالمين أولاً وآخراً، والصلاة والسلام على رسوله دائمـاً وسرمداً.

المَكْتُوبُ السَّادِسُ وَالثَّمَانُونَ وَالمِائَتَانِ

إلى مولانا أمانِ اللهِ الفَقيهِ في بيانِ أنَّ الاعتقادَ الصَّحيحَ هو المأخوذُ منَ الكتابِ والسُّنَّة على وَفقِ آراءِ أهلِ السُّنَّة والجماعةِ، وفي ردٍّ من يستَنبِطُ منَ الكتابِ والسُّنَّة خلافَ معتقَداتِ أهلِ السُّنَّة والجَماعةِ، أو أدركوا بالكَشفِ خلافَ ما عليه أهل الحقِّ.

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم - أرشدك الله وألهمك سواء الصراط - أنَّ من جملة ضروريات الطَّريق للسالك الاعتقادُ الصحيحُ الذي استنبطه علماءُ أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وآثار السلف، وحملُ الكتاب والسنة على المعاني التي فهمها جمهور أهل الحقّ - يعني: علماء أهل السنة والجماعة - منهما أيضـاً ضروريٌّ، فإن ظهر فرضـاً بطريق الكشف والإلهام ما يخالفُ تلك المعاني المفهومة؛ ينبغي أن لا يعتبره، وأن يستعيذ منه، مثل الآيات والأحاديث التي يفهم من ظواهرها التَّوحيدُ الوجوديُّ، وكذلك الإحاطةُ والسريانُ والقربُ والمعيةُ الذاتيّةُ، ولم يفهم علماءُ أهل الحقّ من تلك الآيات والأحاديث هذه المعاني، فإذا انكشف للسالك في أثناء الطَّريق هذه المعاني، بأن لا يرى غيرَ موجودٍ واحدٍ، أو بأن يدرك أنَّ الله تعالى محيطٌ بالذات، أو وجده قريبـاً بالذات؛ فهو وإن كان معذوراً في ذلك بسبب غلبة الحال وسكر الوقت فيما هنالك، ولكن ينبغي له أن يكون ملتجئـاً إلى الله تعالى، ومتضرّعا إليه دائمـاً لأن يخلِّصَه من هذه الورطة، وأن يكشف له أموراً مطابقةً لآراء علماء أهل الحقّ، وأن لا يظهرَ له ما يخالف معتقداتهم الحقَّة ولو مقدار شعرةٍ.

وبالجملة ينبغي أن يجعل المعاني التي كانت مفهومةً لعلماء أهل الحق مصداقَ الكشف، وأن لا يجعل محكَّ الإلهام غيرها، فإنَّ المعاني المخالفةَ للمعاني المفهومة لهم ساقطةٌ عن حيِّز الاعتبار؛ لأنَّ كلَّ مبتدعٍ ضالٍّ يزعم أنَّ مقتدى معتقداته ومأخذها الكتابُ والسنَّةُ، فإنَّه يفهمُ منهما بحسب أفهامه الرَّكيكة معاني غير مطابقةٍ، ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًاۚ﴾ [البقرة: ٢٦].

وإنَّما قلت: إنَّ المعتبرَ هو المعاني المفهومة لعلماء أهل الحقّ، وإنَّ ما سواها مما يخالفها غيرُ معتبرةٍ بناءً على أنَّهم أخذوا تلك المعاني من تتبُّع آثار الصحابة والسلف الصالحين رضوان الله تعالى عليهم..........

أجمعين، واقتبسوها من أنوار نجوم هدايتهم، ولهذا صارت النجاةُ الأبديّةُ مخصوصةً بهم، والفلاحُ السَّرمديُّ نصيباً لهم، ﴿أُولَٰٓئِكَ حِزْبُ اللهِۚ اَلَآ اِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]. فإن تداهَنَ بعضُ العلماء في الفرعيات، وارتكبوا التَّقصيرات في العمليات مع وجود حقيَّة الاعتقاد؛ لا ينبغي بسبب ذلك أن ينكر العلماءُ مطلقاً، وأن يطعن فيهم كليّاً، فإنَّ ذلك محضُ عدم الإنصاف، وصِرْفُ المكابرة، بل إنكارُ أكثر ضروريات الدين، فإنَّ ناقلي تلك الضروريات هم العلماء، وناقدي جَيِّدها عن رديئها هم العلماءُ، فلولا نورُ هدايتهم لَمَا اهتدينا، ولولا تمييزُهم الصوابَ عن الخطأ لغَوَيْنا، وهم الذين بذلوا جهدهم في إعلاء كلمة الدين القويم، وسلكوا بأناسٍ كثيرةٍ إلى صراطٍ مستقيمٍ، فمن تابعهم نَجَا وأفلح، ومن خالفهم ضلَّ وأضلّ من الطَّريق الأوضح.

ينبغي أن يعلم أنَّ معتقدات الصوفيَّة بالأخرى - أعني: بعد تمام منازل السلوك والوصول إلى أقصى درجات الولاية - هي عينُ معتقدات أهل الحقّ؛ فهي للعلماء بالنقل والاستدلال، وللصوفيَّة بالكشف والإلهام، وإن ظهر لبعض الصوفيَّة في أثناء الطَّريق بواسطة السُّكر وغلبة الحال ما يخالف تلك المعتقدات، ولكن إذا جاوَزَ تلك المقاماتِ وبلغ نهايةَ الأمر تكون تلك المخالفةُ هباءً منثوراً، وإلا؛ فيبقى على تلك المخالفة، ولكنَّ المرجوَّ أن لا يؤاخَذَ بها، فإنَّ حكمَه حكمُ المجتهد المخطئ، والمجتهدُ مخطئٌ في الاستنباط، وهو في الكشف.

ومن جملة مخالفات هذه الطَّائفة: الحكمُ بوحدة الوجود والإحاطةِ والقُرْب والمعيَّة الذاتيّات كما مرَّ، وكذلك إنكارُهم وجودَ الصِّفات السَّبعة أو الثَّمانية في الخارج بوجودٍ زائدٍ على ذات الحقّ جل شأنه، فإنَّ علماءَ أهل السُّنَّة ذاهبون إلى وجودها في الخارج بوجودٍ زائدٍ على وجود الذات، ومنشأُ إنكارهم هو أنَّ مشهودَهم في ذلك الوقت هو الذَّاتُ في مرآة الصِّفات، ومعلومٌ أنَّ المرآةَ تكون مختفيةً من نظر الرائي، فحكموا بعدم وجودها في الخارج بواسطة ذلك الاختفاء، وظنُّوا أنَّها لو كانت موجودةً؛ لكانت مشهودةً، وحيث لا شهودَ؛ فلا وجودَ، وطعنوا في العلماء بسبب حكمهم بوجود الصِّفات، بل حكموا بالكفر والثّنويّة، أعاذنا الله سبحانه من الجرأة على الطَّعْن، فإن تيسّرَ لهم التَّرقّي من هذا المقام، وخرج شهودهم من هذا الحجاب، وزال حكمُ المراتب؛ لرأوا الصِّفات مغايرةً للذَّات، ولَمَا أنكروها، ولَمَا انجرَّ أمرهم إلى طعن أكابر العلماء.

ومن جملة مخالفاتهم: حكمُهم ببعض أمور يستلزم كونه تعالى فاعلاً بالإيجاب، فإنَّهم وإن لم يطلقوا لفظ الإيجاب، وأثبتوا الإرادةَ، لكنَّهم ينفون الإرادةَ في الحقيقة، وهم يخالفون جميعَ أهل الملل في هذا الحكم، فمن جملة هذه الأمور: حكمُهم بأنَّ الله تعالى قادرٌ بقدرةٍ، بمعنى: إن شاء فعل، وإن لم يشأ لم يفعل، ويقولون بأنَّ الشرطيةَ الأولى واجبةُ الصدق، والثّانيةَ ممتنعةُ الصدق، وهذا قولٌ بالإيجاب، بل إنكارُ القدرة بالمعنى المقرَّر عند أهل الملل، فإنَّ القدرةَ عندهم بمعنى صحَّة الفعل والتَّرك، واللازمُ لقولهم وجوبُ الفعل وامتناعُ الترك، فأين أحدهما من الآخر؟ ومذهبهم في هذه المسألة هو بعينه مذهب الفلاسفة، وإثبات الإرادة مع القول بوجوب صدق الأولى، وامتناع صدق الثّانية، وامتيازهم عن الفلاسفة بهذا الإثبات غيرُ نافعٍ، فإنَّ الإرادةَ هي تخصيصُ أحد المتساويين، فحيث لا تساوي لا إرادةَ، وههنا التساوي معدومٌ للوجوب والامتناع. فافهم.

ومن جملة تلك الأمور: بيانُهم في مسألة القضاء والقدر على نهجٍ ظاهرُه إثباتُ الإيجاب، فمن جملة عباراتهم في هذا المبحث هذه العبارةُ: الحاكمُ محكومٌ، والمحكومُ حاكمٌ، وجعل الحقّ سبحانه........................

محكوم أحدٍ، وإثباتُ حاكمٍ عليه مع قطع النَّظر عن إثبات الإيجاب مستقبحٌ جدّاً، ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ [المجادلة: ٢]، وأمثالُ ذلك من المخالفات كثيرةٌ، كمقولهم بعدم إمكان رؤية الحقّ سبحانه إلا بالتجلّي الصوريّ، وهذا القولُ مستلزمٌ لإنكار رؤية الحقّ سبحانه، والرؤيةُ التي جوَّزوها بالتجلّي الصوريّ ليست هي في الحقيقة رؤيةَ الحقّ سبحانه، بل هي ضربٌ من الشبه والمثال، (نظم):

يَـرَاهُ الْـمُـؤْمِـنُـونَ بِـغَـيْـرِ كَـيْـفٍ وَإِدْرَاكٍ وَضَــرْبٍ مِـنْ مِـثَــالِ

وكقولهم بقدم أرواح الكُمَّل وأزليَّتها، وهذا القولُ أيضاً مخالفٌ لِمَا عليه أهلُ الإسلام، فإنَّ عندهم العالم بجميع أجزائه محدثٌ، والأرواحُ من جملة العالم؛ لأنَّ العالمَ اسمٌ لجميع ما سوى الله تعالى. فافهم.

فينبغي للسَّالك قبل بلوغه كُنْهَ الأمر وحقيقته أن يعدَّ تقليدَ علماء أهل الحق لازماً لنفسه مع وجود مخالفة كشفه وإلهامه، وأن يعتقد العلماءَ محقِّين ونفسه مخطئاً؛ لأنَّ مستندَ العلماء تقليدُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام المؤيَّدين بالوحي القطعيّ المعصومين عن الخطأ والغلط، وكشفُه وإلهامُه على تقدير مخالفته للأحكام الثابتة خطأٌ وغلطٌ، فتقديمُ الكشف على أقوال العلماء تقديمٌ له في الحقيقة على الأحكام القطعيَّة المنزلة، وهو عينُ الضَّلالة، ومحضُ الخسارة، وكما أنَّ الاعتقادَ بموجب الكتاب والسنة ضروريٌّ؛ كذلك العملُ بمقتضاهما على نهجٍ استنبطه الأئمَّةُ المجتهدون منهما، واستخرجوا الأحكامَ عنهما من الحلال والحرام والفرض والواجب والسنة والمستحب والمكروه والمشتبه، والعلمُ بهذه الأحكام أيضاً ضروريٌّ، ولا يجوز للمقلِّد أخذُ الأحكام من الكتاب والسنة على خلاف رأي المجتهد، وأن يعمل بها، وينبغي أن يختار في العمل القول المختار في مذهب مجتهده الذي قلَّده وتبعه، وأن يعمل بالعزيمة مجتنباً عن البدعة، وأن يسعى في جمع أقوال المجتهدين مهما أمكن؛ ليقع العملُ على القول المتَّفق عليه، مثلاً: إنَّ الإمامَ الشافعيَّ اشترط النيَّةَ في الوضوء، فلا يتوضَّأ بلا نيَّةٍ، وكذلك قال بفرضية الترتيب في غسل الأعضاء، فيلتزم الترتيبَ، وافترض الإمامُ مالك الدَّلكَ في غسل الأعضاء، فيدلك ألبتَّةَ، وكذلك قالوا: ينقضُ الوضوءُ بمسّ النساء والذَّكر، فيجدِّدُ الوضوءَ إن مسَّ أحدهما، وعلى هذا القياس في سائر الأحكام الخلافية.

وبعد حصول هذين الجناحين الاعتقاديّ والعمليّ يكون متوجّهاً نحو العروج إلى مدارج القرب الإلهيّ جلّ سلطانه، وطالباً لقطع المنازل الظلمانيّة والمسالك النورانيَّة، ولكن ينبغي أن يعلم أنَّ ذلك العروجَ وقطعَ المنازل مربوطٌ بتوجّه شيخٍ كاملٍ مكمّلٍ عالمٍ بالطَّريق بصيرٍ به هادٍ إليه، نظرُه شفاءُ الأمراض القلبيَّة، وتوجّهُه دافعُ الأخلاق الرديَّة الغير المرضيَّة، فليطلبْ أوَّلاً الشَّيخَ، فإن عرفه بمحض فضل الحقّ سبحانه؛ فليلازِمْه معتقداً أنَّ معرفتَه إياه نعمةٌ عظمى، وليكن منقاداً له في تصرُّفاته بكليته، قال شيخ الإسلام الهرويُّ: إلهي، ما هذا الذي جعلتَ أولياءك بحيث من عرفهم وجدك، وما لم يجدك لم يعرفهم، ويفني اختيارَهُ في اختيار شيخه بالكليَّة، ويخلِّي نفسه عن جميع المرادات، ويشدُّ نطاقَ الهمَّة في خدمته، ويسعى سعياً بليغاً في امتثال جميع ما يأمر به شيخه، معتقداً بأنَّ رأسَ مال سعادته فيه، فإن رأى الشَّيخُ المقتدى به أنَّ المناسبَ لاستعداده الذكرُ يأمره به، وإن رأى أنَّ المناسبَ التوجّهُ والمراقبةُ يشير بهما أيضاً فيما هنالك، وإن علم الكفايةَ بمجرَّد الصحبة يأمره أيضاً بذلك.

وبالجملة إنَّ...

الاحتياجَ إلى الذِّكْر مع وجود صحبة الشَّيخ ليس شرطاً من شرائط الطَّريق أصلاً، بل يأمر الشَّيخُ بكلِّما يراه مناسباً لحال الطالب، فإن وقع منه تقصيرٌ في بعض شرائط الطَّريق؛ يتلافاه بصحبة الشَّيخ، فيكون توجّهُه جابراً لنقصانه، ومن لم يُشَرَّفْ بصحبة مثل هذا الشَّيخ، فإن كان من المرادين يجذبه الحقُّ سبحانه، ويجتبيه إليه، ويكفيه أمره بمحض عنايته التي لا غايةَ لها ولا نهايةَ، ويعلِّمُه كلَّ شرطٍ وأدبٍ لازمٍ له، ويجعل روحانيَّةَ بعض الأكابر وسائلَ طريقه ودليله في قطع منازل السلوك، فإنَّ توسُّطَ روحانيات المشائخ في قطع طريق السلوك لازمٌ بطريق جري عادة الله سبحانه. وإن كان من المريدين؛ فأمرُه من غير توسُّطِ شيخٍ مقتدىً به مشكلٌ، فينبغي أن يلتجئَ إلى الله سبحانه دائماً إلى أن يصل إلى شيخٍ مقتدىً به.

وينبغي أيضاً أن يعدَّ رعايةَ شرائط الطَّريق لازمةً، وقد بُيِّنَتْ تلك الشرائطُ في كتب المشائخ تفصيلاً، فينبغي مراجعتها وملاحظةُ ما فيها، ورعايتها بعد ذلك، ومعظمُ شرائط الطَّريق مخالفةُ النَّفس، وهي موقوفةٌ على رعاية مقام الورع والتقوى الذي هو الانتهاءُ عن المحارم، والانتهاءُ عن المحارم لا يتصوَّرُ إلا بعد الاجتناب من فضول المباحات، فإنَّ إرخاءَ العنان في ارتكاب المباحات يفضي إلى ارتكاب المشتبهات، والمشتبهُ قريبٌ من المحرّم، واحتمالُ الوقوع فيه أقوى، و«**مَنْ حَامَ حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ**»، فاجتنابُ المحرمات كان موقوفاً على اجتناب فضول المباحات؛ فلا بُدَّ في تحقّق الورع من اجتناب فضول المباحات، ولا بد للترقِّي والعروج من تحقّق الورع، فإنَّه مربوطٌ به. وبيانُه أنَّ للأعمال جزأين: امتثالُ الأوامر، والانتهاءُ عن المناهي، والامتثالُ يشارك فيه القدسيون، فإن وقع الترقِّي بالامتثال فقط؛ لوقع للقدسيين أيضاً، والانتهاءُ عن المناهي خاصٌّ بالأنسيين ليس هو في القدسيين، فإنَّهم معصومون بالذَّات ليس فيهم مجالُ المخالفة حتى ينهون عنها، فلزم كونُ الترقِّي مربوطاً بهذا الجزء، وهذا الاجتنابُ هو عينُ مخالفة النَّفس، فإنَّ الشَّريعةَ إنَّما وردت لرفع الأهواء النَّفسانيَّة، ودفع الرسوم الظلمانيّة، فإنَّ مقتضى طبيعة النَّفس: إما ارتكابُ المحرم، أو ارتكابُ الفضول المفضي أخيراً للمحرّم، فاجتنابُ الفضول هو عينُ مخالفة النَّفس.

فإن قيل: إنَّ في امتثال الأوامر أيضاً مخالفةَ النَّفس، فإنَّ النَّفسَ لا تريد الاشتغالَ بالعبادة، فيكون الامتثالُ أيضاً مستلزماً للترقِّي، وفي الملائكة لَمّا كانت مخالفةُ الامتثال مفقودةً؛ لم يكن سبباً لترقِّيهم، فالقياسُ مع الفارق.

قلت: إنَّ عدمَ إرادة النَّفس العبادةَ وعدمَ رضاها بها إنّما هو بسبب كونها طالبةً لفراغها، بحيث لا تريد أن تكون مقيَّدةً ومشغولةً بشيءٍ، وهذا الفراغُ وعدمُ الاشتغال أيضاً داخلان في المحرّم أو الفضول، فجاءت مخالفةُ النَّفس في امتثال الأوامر من طريق اجتناب المحرَّم والفضول، لا من طريق أداء الأوامر - يعني: المأمورات فقط - حتى يقال: إنَّه موجودٌ في الملائكة أيضاً، فالقياسُ صحيحٌ، فكلُّ طريقٍ مخالفةُ النَّفس فيه أكثرُ؛ فهو أقربُ الطرق، ولا شَكَّ أنَّ رعايةَ مخالفة النَّفس في طريقة النقشبنديَّة أكثرُ منها في سائر الطرق، فإنَّ هؤلاءَ الأكابر اختاروا العملَ بالعزيمة، والاجتنابَ عن الرخصة، ومن المعلوم أنَّ كُلّاً من اجتناب المحرم والفضول موجودٌ في العزيمة، ومرعيٌّ فيها، بخلاف الرخصة، فإنَّ فيها اجتنابَ المحرم فقط.

فإن قيل: يمكن أن يكون المختارُ عند أرباب سائر الطرق أيضاً العزيمةَ.

قلت: إنَّ في أكثر الطرق سماعاً ورقصاً، ويبلغ الأمر فيه حدَّ الرخصة بعد تمحُّلٍ كثيرٍ، وأين فيه المجالُ للعزيمة بعدُ؟ وكذلك ذكرُ الجهر لا يُتصوَّرُ فيه ما فوق الرُّخصة، ....

وقد أحدث مشائخ سائر الطرق أموراً محدثةً في طرقهم لبعض نيّاتٍ صحيحةٍ، نهايةُ التَّصحيح في تلك الأمور الحكمُ بالرُّخصة، بخلاف أكابر هذه السِّلسلة العليّة، فإنَّهم لا يجوِّزون مقدارَ شعرةٍ من مخالفة السنَّة، فتكون مخالفةُ النَّفس في هذا الطَّريق أتمَّ، فيكون أقربَ الطُّرُق، فيكون اختيارُ هذا الطَّريق للطَّالب أَوْلى وأنسبَ؛ لأنَّ الطَّريقَ في نهاية الأقربيّة، والمطلبَ في كمال الرِّفعة.

وقد ترك جماعةٌ من متأخِّري خلفائهم أوضاع هؤلاء الأكابر، وأحدثوا في هذا الطَّريق بعضَ الأمور، واختاروا السَّماعَ والرقصَ والجهرَ، ومنشأُ ذلك عدمُ الوصول إلى حقيقة نيات أكابر هذه الطَّريقة العليّة، فخالوا أنَّهم يكمِّلون ويتمِّمون هذه الطَّريقةَ بهذه المحدثات والمبتدعات، ولم يدروا أنَّهم يسعون بها في تخريبها، ويجتهدون في إضاعتها، والله يحق الحق وهو يهدي السبيل.

المَكْتُوبُ السَّابِعُ وَالثَّمَانُونَ وَالمِائَتَانِ

إلى أخيه الحقيقيِّ منبعِ الحقائقِ مِيَان غلام محمَّدٍ في بيانِ الجذبَة والسُّلوكِ، وبيانِ المعارفِ المُناسبةِ لهذَينِ المَقامَين.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا اللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وختمهم بأفضلهم وأكملهم محمد الذي جاء بالصِّدْق، صلوات الله سبحانه وبركاته عليه وعليهم وعلى من تابعهم أجمعين إلى يوم الدين، آمين.

ولقد رأيتُ الطالبين ينزِّلون المسلكَ الطويلَ والمطلبَ الرفيعَ بواسطة دناءة الهمَّة، وخسَّة الفطرة، وعدمِ وجدان صحبة الشَّيخ الكامل المكمّل، إلى منزلة طريقٍ قصيرٍ، ومقصدٍ وضيعٍ، ويقنعون بكلَّما يتيسّر لهم في الطَّريق من حقيرٍ وخطيرٍ، ويظنون ذلك مقصداً، ويزعمون أنفسهم بحصوله كَمَلَةً وأربابَ نهايةٍ، ويطبِّقون - من خسَّة الفطرة واستيلاء قواهم المتخيَّلة - أحوالهم النَّاقصةَ على الأحوال الكاملة التي بيَّنها الكملةُ الواصلون من تمام أمرهم، ونهاية سيرهم كما قيل:

(ع) وَصَارَ الْفَارُ فِي رُؤْيَاهُ نَاقَةْ

ويكتفون من البحر المحيط بقطرةٍ، بل بصورة قطرةٍ، ومن بحر عمان برشحةٍ، بل بصورة رشحةٍ، ويتصوَّرون المثاليَّ غيرَ المثاليّ، ويسكنون عن غير المكيَّف بالمكيَّف، ويتخيَّلون المثليَّ لا مثليّاً، وينخدعون عن اللامثليّ بالمثليّ، وأحوالُ جماعةٍ آمنوا باللامثلي بالتَّقليد واعتقدوه أفضل من أحوال هؤلاء الطالبين الذين لم يتمَّ سلوكهم، والظامئين القانعين بالسراب بمراتب، فإنَّه فرقٌ كثيرٌ بين المحقّ والمبطل، والمصيب والمخطئ، فويلٌ للطالبين القاصرين المنقطعين عن المطلب الذين يظنون المحدث قديماً، ويزعمون المثاليَّ لا مثالياً، إن لم يكونوا معذورين بالخطأ في الكشف، ويؤاخذون بهذا الخطأ والغلط، ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِنْ نَسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وهذا كما إذا كان شخصٌ مثلاً طالبَ كعبةٍ، وتوجّه إليها بكمال الشوق، فاستقبله في أثناء الطَّريق اتفاقاً بيتٌ شبيهٌ بالكعبة، ولو بحسب الصورة، فخاله كعبةً، وصار معتكفاً هناك، وشخصٌ آخر له علمٌ بخواصّ الكعبة بالأخذ عن الواصلين إليها، وصدَّق بوجودها بحسب علمه، فهذا الشَّخصُ وإن لم يخطُ خطوةً في طلب الكعبة، ولكنَّه لم يعتقد غيرَ الكعبة كعبةً، ومحقٌّ في تصديقه، فحالُه أفضلُ من حال الطالب المذكور المخطئ. نعم، إذا لم يعتقد الطالبُ الغير الواصل إلى المطلب غيرَ المطلب مطلباً؛ فحالُه أفضلُ من حال مقلِّدٍ محقٍّ لم يضع قدمه في طريق المطلب، فإنَّه مع وجود حقيَّة تصديقه بالمطلوب قاطعٌ لمسافة طريق المطلوب ولو في الجملة، فله........

تتحققُ المزيّةُ. وطائفةٌ منهم أيضاً جعلوا أنفسهم بهذا الكمال والخيال والوصال الوهميّ في مسند المشيخة ودعوة الخلق، وضيّعوا بعِلّة منقصتهم استعدادَ كثيرٍ من المستعدين للكمالات، وأزالوا بشؤم برودة صحبتهم حرارةَ طلب الطالبين، ضَلُّوا فأضلوا، ضاعوا فأضاعوا، وتخيُّلُ هذه الكمالات وتوهُّمُ الوصال في المجذوبين غير السَّالكين أكثرُ منه في السَّالكين المجذوبين الغير الواصلين، فإنَّ المبتدئَ والمنتهيَ متشابهان في صورة الجذبة، ومتساويان في العشق والمحبَّة في الظَّاهر، وإن لم يكن بينهما مناسبةٌ في الحقيقة، وكانت أحوالُ كلِّ منهما مغايرةً لأحوال الآخر، وممتازةً عنها:

(ع) مَـا نِسْـبَـةُ الفَـرْشِـيِّ بِـالعَـرْشِـيِّ

فإنَّ كلَّ شيءٍ يوجد في البداية؛ فهو معلولٌ، وإلى غرضٍ ما محمولٌ، وحيث كان ما في الانتهاء بالحقّ فهو للحقِّ، وسيذكر تفصيلُ هذا الكلام عن قريبٍ إن شاء الله تعالى. وتكون هذه المشابهةُ الصوريةُ والمناسبةُ الضروريَّةُ باعثةً على ذلك التَّخيُّل، وحيث كانت الجذبةُ مقدمةً على السلوك في طريقة النقشبنديَّة العليّة كَثُرَ هذا القسمُ من التخيُّل والتوهُّم في مجاذيب هذا الطَّريق الذين لم يشرّفوا بعدُ بدولة السلوك، وقد يحصل لجماعةٍ منهم تقلُّباتٌ في مقام الجذبة، وتنقلاتٌ عن حالٍ إلى حالٍ، فيظنون ذلك قطعَ منازل السُّلوك، وطيَّ مسالك السَّير إلى الله، ويزعمون أنفسهم بتلك التقلبات من المجذوبين السَّالكين، فتقرَّر في الخاطر الفاتر أن أكتبَ فقراتٍ في بيان حقيقة السلوك والجذبة، وبيان فرق ما بين هذين المقامين، مع ذكر بعض خواصّ مميزةٍ لكلِّ واحدٍ منهما عن الآخر، وبيان الفرق بين جذبة المبتدئ وجذبة المنتهي، وحقيقة مقام التكميل والإرشاد، وعلوم آخر مناسبة لذلك المقام ليحق الحقّ ويبطل الباطل ولو كره المجرمون، فشرعتُ فيه بحسن توفيقه سبحانه، وهو سبحانه يهدي السبيل، وهو نعم المولى ونعم الوكيل.

وهذا المكتوبُ مشتملٌ على مقصدين وخاتمةٍ.

المقصدُ الأوّلُ: في بيان معارفَ متعلّقةٍ بمقام الجذبة.

والمقصدُ الثّاني: في بيان ما يتعلّق بالسلوك.

والخاتمةُ: في بعض العلوم والمعارف التي عِلْمُها كثيرُ المنفعة للطالبين.

المقصدُ الأوّلُ: اعلم أنَّ المجذوبَ غيرُ تامِّ السلوك، وإن كان له جذبٌ قويٌّ داخلٌ في زمرة أرباب القلوب من أيِّ طريقٍ كان منجذباً، فإنَّه لا يمكن له تجاوُزُ مقام القلب، والاتِّصال بمقلِّب القلب من غير سلوكٍ وتزكيةِ نفسٍ، فإنَّ انجذابهم قلبيٌّ، وحبَّهم عرضيٌّ لا ذاتيٌّ ولا أصليٌّ، فإنَّ النَّفسَ ممتزجةٌ بالروح في هذا المقام، والظلمةَ مختلطةٌ بالنور في هذه المعاملة، ولا يتصوَّرُ الخروجُ عن مضيق مقام القلب بالكلية، والاتِّصال بمقلِّب القلب، وحصول الانجذاب الروحيّ نحو المطلوب بدون تخلُّص الروح من النَّفس لأجل التوجّه إلى المطلوب، وانفكاك النَّفس عن الروح، ونزولها إلى مقام العبوديَّة، وما دام هذان مجتمعين في الحقيقة لا يتصوَّرُ الانجذابُ الروحيُّ الخالصُ، فإنَّ الحقيقةَ الجامعةَ القلبيَّةَ قائمةٌ مستحكمةٌ، وتخلُّصُ الروح عن النَّفس إنّما يتصوَّرُ بعد قطع منازل السُّلوك، وطيِّ مسالك السَّير إلى الله، وتحقّق السَّير في الله، بل بعد حصول مقام الفرق بعد الجمع الذي يتعلّق بالسير عن الله بالله: (شعر)

هَـلْ كُـلُّ ذِي ذكرٍ يَـحْـوِيـهِ مُـعْـتَـرَكٌ ... أَوْ كُـلُّ مَنْ نَـالَ مِنْ مُلْـكِ سُـلَيْمَـانُ

فظهر الفرقُ بين جذب المنتهي وجذب المبتدئ، وشهودُ المجذوبين أرباب القلوب من وراء حجاب الكثرة، عَلِمُوا هذا المعنى أو لا، وليس مشهودُهم إلا عالمَ الأرواح الذي هو شبيهٌ في........

اللَّطافة والإحاطة والسَّريان بموجده صورةً، فإنَّ الله خلق آدم على صورته، وبهذه المناسبة يزعمون شهودَ الروح شهودَ الحقِّ تعالى وتقدس، وعلى هذا القياس الإحاطةُ والسريانُ، والقربُ والمعيَّةُ، فإنَّ نظر السَّالك لا ينفذُ إلا إلى المقام الفوق، لا إلى مقام فوق الفوق، والمقامُ الذي فوق مقامهم هو مقامُ الروح، فلا ينفذ نظرُهم إلى ما فوق مقام الروح، ولا يكون مشهودُهم شيئاً غيرَ الروح، والنظرُ إلى ما فوق مقام الروح موقوفٌ على الوصول إلى مقام الروح، وحالُ المحبَّة والانجذاب أيضاً كحال الشُّهود، وشهودُ الحقّ سبحانه - بل محبَّتُه والانجذابُ إليه تعالى - مربوطٌ بحصول الفناء المعبَّر عنه بنهاية السَّير إلى الله: (شعر)

وَمَنْ لَمْ يَكُنْ فِي حُبِّ مَوْلَاهُ فَانِياً ... فَلَيْسَ لَهُ فِي كِبْرِيَاهُ سَبِيلُ

وإطلاقُ الشُّهود في هذا المقام من ضيق ميدان العبارة، وإلا؛ معاملةُ هؤلاء الأكابر متعارفةٌ بما وراء وراء الشُّهود، وكما أنَّ مقصدهم لا مثليٌّ ولا كيفيٌّ؛ كذلك اتِّصالُهم أيضاً لا مثليٌّ ولا كيفيٌّ، لا سبيل للمثاليّ إلى اللا مثاليّ، لا يحمل عطايا الملك إلا مطاياه: (شعر)

إِنَّ لِلرَّحْمَنِ مَعَ أَرْوَاحِ نَاسِ ... اتِّصَالاً دُونَ كَيْفٍ وَقِيَاسِ

وإحاطتُه تعالى وسريانُه وقربُه ومعيَّتُه عند المحققين أرباب السلوك الواصلين إلى نهاية الأمر كلُّها علميَّةٌ، وهم موافقون لعلماء أهل الحقّ شكر الله سعيهم، والحكمُ بالقرب الذاتيّ وأمثاله عندهم من عدم الحاصل والبعد، والمقربون لا يحكمون بالقرب، قال واحدٌ من الكبراء: من قال: أنا قريبٌ فهو بعيدٌ، ومن قال: أنا بعيدٌ فهو قريبٌ، وهذا هو التصوُّفُ. والعلمُ المتعلّقُ بالتوحيد الوجوديِّ منشؤه المحبَّةُ والانجذابُ القلبيُّ، وأربابُ القلوب الذين لا جذبةَ لهم، بل يقطعون المنازلَ بطريق السلوك؛ لا مناسبة لهذا العلم بهم، وكذلك المجذوبون المتوجّهون بالسلوك من القلب إلى مقلِّب القلب بالكليَّة يتبرؤون من هذه العلوم، ويستغفرون منها. وبعضُ المجذوبين وإن سلكوا طريقَ السلوك وطووا المنازل، ولكن لا ينقطع نظرُهم عن المقام المألوف، ولا يقدرون التوجّهَ إلى الفوق، فلا يترك أمثالُ هذه العلوم أذيالهم، ولا يقدرون الخروجَ من هذه الورطة، والتخلُّصَ منها، ولهذا يكون فيهم ضعفٌ وعَرَجٌ في العروج إلى مدارج القرب، والصُّعودِ إلى معارج القدس، ﴿رَبَّنَآ اَخْرِجْنَا مِنْ هٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ اَهْلُهَاۚ وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّاۚ وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًاۜ﴾ [النساء: ٧٥]، وعلامةُ الوصول إلى نهاية المطلب: التَّبرُّؤُ من هذه العلوم، فإنَّه كلّما تحصلُ زيادةُ المناسبة بالتنزيه؛ يوجد عدمُ مناسبة العالَم بالصَّانع أزيدُ، ولا معنى حينئذٍ في اعتقاد أنَّ العالمَ عينُ الصانع، أو في ظنِّ أنَّ الصَّانعَ محيطٌ بالعالم بالذَّات، ما للتُّراب وربّ الأرباب.

معرفة: قال الخواجه بهاء الدين النّقشبند قدس الله تعالى سره الأقدس: نحن نُدْرِجُ النِّهايةَ في البداية، ومعنى هذه العبارة: هو أنَّ الانجذابَ والمحبَّةَ اللذين يتيسّران للمنتهيين في الانتهاء مندرجان في هذا الطَّريق في الانجذاب والمحبَّة اللذين يحصلان في الابتداء، فإنَّ انجذابَ المنتهي روحيٌّ، وفي المبتدئ جذبٌ قلبيٌّ، ومن حيث إنَّ القلبَ برزخٌ بين الروح والنَّفس يحصل في ضمن الجذب القلبيّ الجذبُ الروحيُّ أيضاً، وتخصيصُ هذا الاندراج بهذا الطَّريق - مع أنَّه حاصلٌ في جميع الجذبات بهذا المعنى - مبنيٌّ على أنَّ أكابرَ هذه الطَّريقة وضعوا طريقاً خاصّاً لحصول هذا المعنى، وعيَّنوا مسلكاً مخصوصاً للوصول إلى هذا المطلب، ويحصل هذا........................

المعنى لغيرهم على سبيل الاتفاق، وليس لهم في ذلك ضابطة. وأيضاً إنَّ لهؤلاء الأكابر شأناً خاصّاً في مقام الجذبة ليس هو لغيرهم، فإن كان؛ فنادرٌ، ولهذا يحصل لبعضهم في هذا المقام من غير قطع منازل السلوك فناءٌ وبقاءٌ شبيهان بفناء أرباب السُّلوك وبقائهم، ويتيسّرُ لهم شربٌ من مقام التّكميل شبيهٌ بمقام السَّير عن الله بالله يَرْبُون به المستعدين، وسيجيء تحقيقُ هذا المبحث عن قريبٍ إن شاء الله تعالى.

وههنا دقيقةٌ: ينبغي أن يُعْلَمَ أنَّ الرُّوحَ كان لها قبل تعلّقها بالبدن نحوٌ من التوجّه إلى المقصود، فلما تعلّقت بالبدن؛ زال عنها ذلك التوجّهُ، وأكابرُ هذه السّلسلة العليّة وضعوا طريقاً لظهور ذلك التوجّه، ولكن لَمّا كانت الروحُ متعلّقةً بالبدن؛ انتقل ذلك التوجّهُ إلى القلب، فيحصل لهم فيه توجّهٌ قلبيٌّ جامعٌ لتوجّه النَّفس والروح، ولا شكَّ أنَّ التوجّهَ الروحيَّ مندرجٌ في التوجّه القلبيّ، وأما التوجّهُ الروحيُّ في المنتهيين؛ فهو بعد فناء الروح وبقائه بالوجود الحقانِيّ المعبَّر عنه بالبقاء بالله، والتوجّهُ الروحيُّ الذي هو في ضمن التوجّه القلبيّ - بل توجّهُ الروح الذي كان قبل تعلّقها بالبدن -؛ فهو توجّهٌ مع وجود وجود الرُّوح، لم يتطرَّق الفناءُ إليها أصلاً، والفرقُ بين توجّه الروح مع وجود وجودها وبين توجّهها مع فنائها كثيرٌ، فإطلاقُ النِّهاية على ذلك التوجّه الروحيّ المندرج إنّما هو باعتبار توجّهها الذي يبقى في النّهاية هو فقط، فالمرادُ باندراج النهاية في البداية: اندراجُ صورة النهاية في البداية لا حقيقتُها، فإنَّ اندراجها في البداية محالٌ. ويمكن أن يكون عدمُ إتيان لفظ الصورة لأجل التَّرغيب في طلب هذا الطَّريق، والحقُّ ما حقَّقتُ بعون الله تعالى.

والسابقون الذين انجذابهم من غير تعمُّلٍ وكسبٍ، بل بتوجّهٍ وحضورٍ؛ فذلك الانجذابُ أيضاً قلبيٌّ، وأثرٌ من توجّه الروح السابق، فإنّه لم يَزُلْ بالكلية بواسطة تعلّقها بالبدن، والكسبُ والتعمُّلُ لظهور التوجّه السابق إنّما هو لجماعةٍ نسوا التوجّهَ السابقَ بواسطة ذلك التعلّق، وكأنَّ الكسبَ لأجل التَّنبيه على التوجّه السابق، والتَّذكير لتلك الدَّولة الغائبة الضائعة، ولكنَّ استعدادَ الناسين للتوجّه السَّابق ألطفُ من استعداد السابقين المذكورين، فإنَّ نسيانَ التوجّه السابق بالكليَّة يخبر عن التوجّه الكليّ إلى المتوجّه إليه بالفعل وعن الفناء فيه، بخلاف عدم نسيان التوجّه السابق، فإنّه ليس كذلك.

غَايةُ ما فِي البابِ: أنَّ السَّابقين يحصل لهم ذلك التوجّهُ على سبيل الشُّمول لكليتهم والسريان فيها، ويأخذ بدنُهم أيضاً حكمَ روحهم كما هو شأنُ المحبوبين المرادين، والفرقُ بين شمول المحبِّين وشمول السَّابقين كالفرق بين حقيقة الشَّيء وصورته كما هو الظَّاهرُ لأربابه. نعم، إنَّ هذا النوعَ من الشمول متحقّقٌ أيضاً في المحبين والواصلين والمريدين الكاملين، ولكنَّه كالبرق فيهم ليس بدائميٍّ، والتوجّهُ الدائميُّ إنّما هو من خاصَّة المحبوبين.

معرفةٌ: إنَّ المجذوبينَ أربابَ القلوب إذا حصل لهم تمكُّنٌ ورسوخٌ في مقام القلب، وتيسّرَ لهم معرفةٌ وصحوٌ مناسبٌ لذلك المقام؛ يقدرون على إيصال الفائدة إلى الطالبين، ويحصلُ للطالبين في صحبتهم انجذابٌ ومحبَّةٌ قلبيةٌ، وإن لم يبلغوا من جهتهم مرتبة الكمال، فإنّهم لم يبلغوا بعدُ بأنفسهم حدَّ الكمال، فلا يقدرون على أن يكونوا واسطةً لحصول الكمال لغيرهم، ومشهورٌ أنَّ النَّاقصَ لا يجيء منه كاملٌ، وإفادتهم على كلِّ حالٍ أزيدُ من إفادة أرباب السلوك، وإن بلغوا نهايةَ السلوك، وحصل لهم جذبُ المنتهيين، ولكنَّهم لم ينزلوا إلى مقام القلب بطريق السَّير.........

عن الله بالله، فإنَّ المنتهي غيرَ المرجوع ليس له مرتبةُ التكميل والإفادة؛ لأنَّه لم يبقَ فيه مناسبةٌ بالعالم، وتوجّهٌ إليه، حتى يقدر على الإفادة، وإطلاقُ البرزخ على الشَّيخ المقتدى به إنّما هو باعتبار نزوله إلى مقام البرزخيَّة الذي هو مقامُ القلب، وأخذه من كِلَا جهتي الروح والنَّفس حظّاً وافراً، فمن جهة الروح يستفيد من الفوق، ومن جهة النَّفس يفيد من دونه؛ لأنَّه اجتمع فيه التوجّه إلى الحقّ سبحانه بالتوجّه إلى الخلق، بحيث لا يكون أحدهما حجاباً للآخر، فالإفادةُ والاستفادةُ حاصلتان له معاً. وبعضُ المشائخ أراد ببرزخية الشَّيخ: برزخيّتَه بين الحقّ والخلق، وقال للشيخ البرزخ جامعاً بين التَّشبيه والتَّنزيه، ولا يخفى أنَّ مثلَ هذه البرزخيَّة التي مبناها على السُّكر غيرُ لائقةٍ بمقام المشيخة الذي مبناه على الصَّحو، فإنَّ نفوسهم في هذا المقام مندرجةٌ في غلبات أنوار الروح، وذلك الاندراجُ هو الذي صار منشأً للسكر، وفي مقام برزخيَّة القلب يفترق كلٌّ من النَّفس والروح، ويمتاز عن الآخر، فلا يكون فيه مجالٌ للسكر بالضَّرورة، بل فيه كلّه صحوٌ، فإنَّه هو المناسب لمقام الدعوة هذا. فإذا نزل الشَّيخُ الكاملُ إلى مقام القلب؛ تحصلُ له المناسبةُ بالعالم بواسطة البرزخيَّة، ويكون واسطةً لحصول الكمالات لمستعدي الكمالات، وحيث كان المجذوبُ المتمكّنُ أيضاً في مقام القلب له مناسبة بالعالم لا يبخلُ بالتوجّه إلى أهل العالم، وقد اكتسب نصيباً من الانجذاب، وحصَّل المحبَّة وإن كانا قلبيين، فلا جرم انكشفَ له طريقُ الإفادة، بل أقول: إنَّ كميَّةَ إفادة المجذوب المتمكّن أزيدُ من كمية إفادة المنتهي المرجوع، وكيفيةُ إفادة المنتهي المرجوع أزيدُ من كيفية إفادة المجذوب، فإنَّ المنتهي المرجوعَ وإن حصلت له المناسبةُ بالعالم، لكنَّها في الصورة فقط، وفي الحقيقة هو مفارقُه، ومنصبغٌ بلون الأصل، وباقٍ به، ومناسبةُ هذا المجذوب بالعالم في الحقيقة، وهو من جملة أفراد العالم، وباقٍ بالبقاء الذي به بقاءُ العالم، فبواسطة المناسبة الحقيقيَّة تكون استفادةُ الطالبين منه أكثرَ بالضَّرورة، ومن المنتهي المرجوع أقلَّ، ولكنَّ إفادةَ كمال مراتب الولاية مخصوصةٌ بالمنتهي، فلا جرمَ يكون المنتهي في كيفية الإفادة أرجحَ. وأيضاً ليس في المنتهي همَّةٌ وتوجّهٌ في الحقيقة، والمجذوبُ صاحبُ همَّةٍ وتوجّهٍ، فيقدّم أمورَ الطالبين، ويرقّيهم بالهمَّة والتوجّه، وإن لم يبلّغْهم حدَّ الكمال. وأيضاً إنَّ نهايةَ التوجّه الذي يحصل للطَّالبين من المجذوبين هي ذلك التوجّهُ السابقُ للروح الذي نسوه، فيتذكرونه في صحبتهم، ويحصل ثانياً بطريق الاندراج في التوجّه القلبيّ، بخلاف التوجّه الحاصل في صحبة المنتهيين، فإنَّه توجّهٌ حادثٌ لم يكن موجوداً قبل ذلك أصلاً، وكان موقوفاً على فناء الروح، بل على بقائها بالوجود الحقانِيّ، فلا بُدَّ وأن يكون التوجّهُ الأوّلُ سهلَ الحصول، والتوجّه الثّاني متعسِّرَ الوجود، وكلّما هو أسهلُ فهو أزيدُ، وكلّما هو متعسِّرٌ فهو أقلُّ، ومن هنا قالوا: إنَّ الشَّيخَ المقتدى به ليس بواسطةٍ في تحصيل جهة الجذبة، فإنَّ تلك النِّسبةَ كانت حاصلةً له أولاً، وصار محتاجاً إلى التَّنبيه والتَّعليم بواسطةٍ، ولهذا يقال لمثل هذا الشَّيخ: شيخ التعليم، لا شيخ التَّربية، وفي جهة السلوك لا بُدَّ من شيخٍ مقتدىً به لقطع منازل السلوك، وتربيتُه ضروريّةٌ فيها، لا يجوز لشيخٍ مقتدىً به أن يأذن لمثل هذا المجذوب المتمكن بالإجازة العامَّة، وأن يجلسه في مقام التَّكميل والمشيخة، فإنَّ بعضَ الطالبين يكون استعدادُهم عالياً جداً، وتكون قابليّتُهم للكمال والتكميل على الوجه الأتمّ، فإن وقع مثلُ هذا الطالب في صحبة ....

ذلك المجذوب؛ يحتمل أن يضيع ذلك الاستعدادُ فيها، وأن تزول عنه تلك القابليَّةُ، كما إذا كانت للأرض مثلاً قابليَّةٌ تامّةٌ لزراعة البرِّ فيها، فإن زرعوا فيها بذراً جيداً من الحنطة تنبت زرعـاً جيداً على قدر استعدادها، وإن زرعوا فيها بذر قمحٍ رديءٍ أو بذر حمّصٍ؛ تكون مسلوبَ القابليَّة، فضلاً عن الإنبات. فإن رأى الشَّيخُ المقتدى به فرضـاً مصلحةً في رخصته وإجازته، ووجد فيه صلاحيّةَ الإفادة؛ ينبغي أن يقيِّدَ إفادته وإجازته ببعض القيود، مثل ظهور مناسبة الطالب لطريق إفادته، وعدم إضاعة استعداده في صحبته، وعدم طغيان نفسه بتلك الرياسة، واقتداء الناس به، فإنَّ هوى النَّفس ما زال عنه بعدُ؛ لعدم تزكية النَّفس فيه، فإذا علم أنَّ الطالبَ قد بلغ نهاية الاستفادة منه، وغاية إفادته إياه، وفي استعداد الطالب قابليَّةٌ للترقِّي؛ ينبغي أن يظهر له هذا المعنى، وأن يأذن له ليتمَّ أمره من شيخٍ آخر، ولا يظهر له أنَّه منتهٍ؛ لئلا يكون قاطعـاً لطريق الناس بهذه الحيلة.

والحاصلُ: يذكر له من أمثال هذه الشرائط ما يعلم أنَّه مناسبٌ لوقته وحاله، ويأذن له بعد وصيَّةٍ تامةٍ بها. وأما المنتهي المرجوعُ؛ فلا يحتاج في إفادته وتكميله إلى أمثال هذه القيود، فإنَّ له بواسطة جامعيته مناسبةً بجميع الطرق والاستعدادات، يمكن أن يستفيد منه كلُّ شخصٍ على قدر استعداده ومناسبته، وإن كان التفاوتُ بالسرعة والبطء بواسطة قوة المناسبة وضعفها متصوّراً في صحبة الشيوخ المقتدى بهم أيضـاً، ولكنَّهم متساوو الأقدام في أصل الإفادة، والالتجاءُ إلى جناب الحقّ سبحانه والاعتصامُ بحبله المتين لازمٌ للشيخ المقتدى به حين إفادة الطالب خوفـاً من مَكْرِه سبحانه في ضمن هذا الاشتهار، بل ينبغي له أن لا ينفكَّ عن هذا الالتجاء في جميع الأمور التي يمنحه الله سبحانه إياها في وقت من الأوقات، وفي جميع الأحوال والأفعال، فضلاً عن هذا الأمر، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

المقصدُ الثّاني: فِي بَيَانِ ما يتعلّقُ بالسُّلوك.

اعلم أنَّ الطَّالبَ إذا كان متوجّهـاً إلى فوق بطريق السُّلوك، فمتى بلغ اسمـاً هو ربّه، وصار فانيـاً ومستهلكـاً فيه؛ يصحُّ إطلاقُ الفناء عليه، وبعد البقاء بهذا الاسم يسلَّمُ إطلاقُ البقاء عليه، وبهذا الفناء والبقاء يشرَّفُ بأوّل مرتبةٍ من مراتب الولاية، ولكن ههنا تفصيلٌ، وبسطُ الكلام فيه ضروريٌّ.

تمهيدٌ: إنَّ الفيضَ الواردَ من ذات الحق سبحانه وتعالى وتقدس على نوعين: نوعٌ يتعلّق بالإيجاد والإبقاء والتخليق والترزيق والإحياء والإماتة وأمثالها، ونوعٌ آخر يتعلّق بالإيمان والمعرفة وسائر كمالات الولاية والنبوّة، والنّوعُ الأوّلُ من الفيض بتوسُّط الصِّفات فقط، والنَّوعُ الثّاني فعلى البعض بتوسُّط الصِّفات، وعلى البعض الآخر بتوسُّط الشؤونات، والفرقُ بين الصِّفات والشؤونات دقيقٌ جدّاً لا يظهر إلا على آحادٍ من الأولياء المحمديّ المشرب، ولم يعلم أنّه تكلّمَ به أحدٌ.

وبالجملة إنَّ الصِّفات موجودةٌ في الخارج بوجودٍ زائدٍ على وجود الذات، والشؤوناتُ مجرّدُ اعتباراتٍ في الذات.

ولنوضِّحْ هذا المبحث بمثالٍ، وهو أنَّ الماءَ مثلاً ينزل من فوق إلى تحت بالطبع، وهذا الفعلُ الطبيعيُّ يوهم اعتبارَ الحياة والعلم والقدرة والإرادة فيه، فإنَّ أربابَ العلم ينزلون من أعلى إلى أسفل بواسطة ثقلهم، وبمقتضى علمهم، ولا يتوجّهون إلى جهة الفوق، والعلمُ تابعٌ للحياة، والإرادةُ تابعٌ للعلم، والقدرةُ أيضـاً ثابتةٌ، فإنَّ الإرادةَ: تخصيصُ أحد المقدورين، وهذه الاعتباراتُ......................................

المثبتةُ - يعني: الموهومة - في ذات الماء بمنزلة الشُّؤونات، فلو أُثبتتْ صفاتٌ زائدةٌ لذات الماء مع وجود هذه الاعتبارات لكانت بمنزلة الصِّفات الموجودة بوجودٍ زائدٍ. ولا يصحُّ أن يقال للماء بالاعتبار الأوّل: إنَّه حيٌّ عالمٌ قادرٌ مريدٌ، بل لا بُدَّ لصحَّة إطلاق هذه الأسامي من ثبوت صفاتٍ زائدةٍ، فما وقع في عبارة بعض المشائخ من إطلاق الأسامي المذكورة على الماء مبنيٌّ على عدم الفرق بين الشؤون والصِّفات، وكذلك الحكمُ بنفي وجود تلك الصِّفات أيضـًا محمولٌ على عدم ذلك الفرق. والفرقُ الآخرُ بين الشؤون والصِّفات: هو أنَّ مقامَ الشؤون مواجهٌ لذي الشأن، ومقامُ الصِّفات ليس كذلك، ومحمدٌ رسول الله ﷺ والأولياءُ الذين على قدمه رضوان الله عليهم أجمعين وصولُ الفيض الثّاني إليهم بواسطة الشؤونات، وسائرُ الأنبياء عليهم السلام والأولياء الذين على أقدامهم وصولُ هذا الفيض - بل الفيض الأوّل أيضـًا - إليهم بواسطة الصِّفات.

فأقول: إنَّ الاسمَ الذي هو ربه ﷺ، وواسطةُ وصول الفيض الثّاني إليه ظلُّ شأن العلم، وهذا الشأنُ جامعٌ لجميع الشؤون الإجماليَّة، وظلُّه عبارةٌ عن قابليَّة الذات تعالت وتقدست لذلك الشأن، بل لجميع الشؤون الإجماليَّة والتَّفصيليَّة، ولكن باعتبار شمول شأن العلم لها، يعني: لا بالذات -، ينبغي أن يعلم أنَّ هذه القابليَّةَ وإن كانت برزخـًا بين الذَّات وبين شأن العلم، ولكن لَمّا كانت إحدى جهتيها لا لونيَّةً، وهي جهةُ الذات، لا يظهر لونُها في البرزخ، فذلك البرزخُ منصبغٌ بلون جهةٍ أخرى، وهي جهةُ شأن العلم؛ فلا جرم قلنا: إنَّها ظلُّ ذلك الشأن. وأيضـًا إنَّ ظلَّ الشَّيء عبارةٌ عن ظهور الشيء ولو شِبْهـًا ومثالاً في مرتبةٍ ثانيةٍ، وحيث كان حصولُ البرزخ بعد حصول الطرفين؛ لا جرم ينكشف هذا البرزخُ وقت المكاشفة تحت ذلك الشأن، فناسب إطلاقُ الظلِّ باعتبار هذا الظهور بالضَّرورة، والأسماءُ التي هي أربابُ طائفةٍ من الأولياء الذين على قَدَمه ﷺ في وصول الفيض الثّاني ظلالُ تلك القابليَّة الجامعة، وكالتفاصيل لذلك الظلّ المجمل، وأربابُ سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وواسطة وصول الفيض الأوّل والثّاني إليهم قابلياتُ اتصاف الذات بالصِّفات الموجودة الزائدة، وأربابُ طائفةٍ من الأولياء الذين على أقدامهم في حق وصول الفيض الأوّل والثّاني صفاتٌ، وواسطةُ وصول الفيض الأوّل إليه ﷺ قابليَّةُ اتِّصاف الذات بجميع الصِّفات، وكأنَّ القابليات التي هي وسائلُ فيضان الفيوض لسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ظلالُ هذه القابليَّة الجامعة، وكالتفاصيل لذلك الجامع المجمل، ووسائطُ وصول الفيض الأوّل إلى طائفةٍ هم على قَدَمه ﷺ أيضـًا على حدةٍ، فإنَّها صفاتٌ، فكأنَّ وسائلَ وصول الفيض الأوّل في محمديّ المشارب مغايرةٌ لوسائط وصول الفيض الثّاني، بخلاف غيرهم، فإنَّها واحدةٌ فيهم. وبعضُ المشائخ قدس الله أسرارهم جعل ربه ﷺ منحصراً في قابليَّة الاتصاف، ومنشؤه عدمُ الفرق بين الشؤون والصِّفات، بل عدمُ العلم بمقام الشؤون، والله يحق الحق وهو يهدي السبيل.

فتحقّق أنَّ ربّه ﷺ ربُّ الأرباب في مقام الشؤون، وفي موطن الصِّفات، وواسطةٌ لوصول كِلَا الفيضين، وعُلِمَ أيضـًا أنَّ وصولَ فيض مراتب كمالات ولايته عليه الصلاة والسلام من الذات، من غير توسُّطِ أمرٍ زائدٍ؛ لأنَّ الشُّؤونَ عينُ .....

الذات، واعتبارُ الزِّيادة فيها من منتزعات العقل، ولهذا كان التجلِّي الذاتِيُّ مخصوصـاً به ﷺ، ولَمّا أخذ كُمَّل تابعيه الفيضَ من طريقه؛ حصل لهم أيضـاً شربٌ من هذا المقام، والآخرون لَمّا كانت في وصول الفيض إليهم وساطةُ الصِّفات في البين، والصِّفاتُ موجودةٌ بوجودٍ زائدٍ؛ وقع في البين حاجزٌ حصينٌ، وكان التجلِّي الصِّفاتِيُّ متعيِّناً لهم.

ينبغي أن يعلم أنَّ قابليَّةَ الاتصاف وإن كانت اعتباريَّةً، وليس لها وجودٌ زائدٌ، والصِّفات موجودةٌ دون قابلياتها، ولكن لَمّا كانت القابلياتُ كالبرازخ بين الذات والصِّفات، بل بين الشؤون والصِّفات، ومن شأن البرزخ أن يأخذ لونَ طرفيه؛ أخذت القابلياتُ أيضـاً لونَ الصِّفات، وحصلت الحائليَّةُ: (شعر)

وَمَـا قَـلَّ هِجْرَانُ الْحَبِيـبِ وَإِنْ غَـدَا　　　قَلِيلاً، وَنِصْفُ الشَّعْرِ فِي العَيْنِ ضَائِرُ

فلاح من هذا البيان: أنَّ ظهورَ الذَّات تعالت وتقدست من غير حجابٍ ليس بمنافٍ للتجلِّي الشُّهوديّ، ولكنَّه منافٍ للتجلِّي الوجوديّ، ولهذا لم يكن في جانب وصول فيض كمالات الولاية إليه ﷺ حائلٌ، وفي جانب وصول الفيض الوجوديّ حصل الحائلُ في البين، وهو قابليَّةُ الاتِّصاف كما مرَّ.

لا يقال: لَمّا كانت الشُّؤونُ وقابلياتُها من الاعتبارات العقليَّة ثبت لها الوجودُ الذهنيُّ، فلزم منه الحجابُ العلميُّ، **غَايةُ ما فِي البابِ**: أنَّ حجبَ الصِّفات خارجيَّةٌ، وحجبَ الشُّؤون علميَّة؛ لأنّا نقول: إنَّ الموجودَ الذهنيَّ لا يكون حجاباً بين الموجودين الخارجيَّيْن، فإنَّ حجابَ الموجود الخارجيّ لا يكون إلا موجوداً خارجياً، ولو سُلِّمَ؛ فالحجابُ العلميُّ يمكن ارتفاعُه من البين بحصول بعض المعارف، بخلاف الخارجيّ، فإنَّه لا يمكن زواله.

فإذا علمت هذه المقدَّمات؛ فاعلم أنَّ السَّالك إذا كان محمديَّ المشرب؛ فمنتهى سيره المسمى بالسير إلى الله إلى ظلِّ الشأن الذي هو اسمه - يعني: ربه -، وبعد الفناء في ذلك الاسم يشرَّفُ بالفناء في الله، وإذا صار باقياً به تيسّر له البقاءُ بالله أيضـاً، وبهذا الفناء والبقاء يكون داخلاً في أوَّل مرتبةٍ من الولاية الخاصة المحمديَّة على صاحبها الصلاة والسلام والتحية، فإن لم يكن محمديَّ المشرب؛ يصل إلى قابليَّة صفةٍ أو نفس صفةٍ هي ربّه، فإذا كان فانياً في هذا الاسم - يعني: الصفة - أو القابليَّة التي وصل إليها لا يطلقُ عليها: الفاني في الله، وكذلك لا يكون باقياً بالله على تقدير بقائه بها، فإنَّ اسمَ الله عبارةٌ عن مرتبةٍ جامعةٍ لجميع الشُّؤون والصِّفات، وحيث كانت الزِّيادةُ في جهة الشُّؤون اعتباريَّةً؛ كانت الشُّؤونُ عينَ الذات، وبعضها عينَ البعض الآخر، فالفناءُ في اعتبارٍ واحدٍ فناءٌ في جميع الاعتبارات، بل فناءٌ في الذَّات، وكذلك البقاءُ باعتبارٍ واحدٍ بقاءٌ بجميع الاعتبارات، فإطلاقُ الفاني في الله والباقي بالله يصحُّ في هذه الصورة، بخلافها في جانب الصِّفات، فإنَّها موجودةٌ بوجودٍ زائدٍ على الذات، ومغايرتُها للذات ومغايرةُ بعضها للبعض الآخر تحقيقيَّةٌ، فالفناءُ في صفةٍ واحدةٍ لا يستلزم الفناء في جميعها، وهكذا الحالُ في البقاء، فلا جرم لا يقال لهذا الفاني: فانياً في الله، وللباقي: باقياً بالله، بل يصحُّ أن يقال له الفاني والباقي مطلقـاً أو مقيداً بصفةٍ، يعني: الفاني في صفة العلم، والباقي بتلك الصفة، فيكون فناءُ المحمديين أتمَّ بالضَّرورة، وبقاؤهم أكملَ. وأيضـاً لَمّا كان عروجُ المحمديّ إلى جانب الشؤون، ولا مناسبةَ بين الشؤون والعالم أصلاً؛ لأنَّ العالمَ ظلُّ الصِّفات، لا ظلّ الشؤون؛ لزم أن يكون فناءُ السَّالك في شأن مستلزمـاً للفناء........................

المطلق على نهجٍ لا يبقى من وجود السَّالك ولا من أثره شيءٌ أصلاً، وهكذا على تقدير البقاء يكون باقياً بتمامه، وكليّته بذلك الشأن، بخلاف الفاني في الصِّفات، فإنَّه لا ينخلع عن نفسه بالتَّمام، ولا يزول أثرُه؛ لأنَّ وجودَ السَّالك أثرُ تلك الصفة وظلُّها، فظهورُ الأصل لا يكون ماحياً لوجود الظلّ بالكليَّة، والبقاءُ على مقدار الفناء، فالمحمديُّ يكون أميناً عن الرُّجوع إلى الصِّفات البشريَّة، ومحفوظاً من خوف الردّ إلى مرتبة البهيميَّة؛ لأنَّه منخلعٌ عن نفسه بالكلية، وصار باقياً به سبحانه، فيكون العودُ ممنوعاً على هذا التَّقدير، بخلافه في صورة الفناء الصِّفاتِيِّ، فإنَّ العودَ هناك ممكنٌ لبقاء أثر وجود السَّالك، ويمكن أن يكون وقوعُ الاختلاف بين المشائخ في جواز رجوع الواصل وعدم جوازه من هذه الجهة، والحقُّ هو أنَّه إن كان محمديّاً؛ فمحفوظٌ من العود، وإلا؛ ففي الخطر، وكذلك الاختلافُ الواقعُ في زوال أثر وجود السَّالك بعد فنائه، حيث قال بعضهم بزوال العين والأثر، والبعضُ الآخر لم يجوِّز زوالَ الأثر، والحقُّ في هذا الباب أيضاً تفصيلٌ، فإن كان محمديّاً؛ يزول عنه العينُ والأثرُ كلاهما، وإلا؛ فلا يزول عنه الأثرُ؛ لأنَّ أصلَ الصفة التي هي أصله باقٍ، فلا يمكن زوالُ ظلّه رأساً.

وههنا دقيقةٌ: ينبغي أن يعلم أنَّ المرادَ بزوال العين والأثر: الزوالُ الشُّهوديُّ لا الوجوديُّ، فإنَّ القولَ بالزوال الوجوديّ مستلزمٌ للإلحاد والزندقة، وجماعةٌ من هذه الطَّائفة تصوَّروا الزَّوالَ زوالاً وجوديّاً، فهربوا من زوال أثر الممكن، وتيقنوا أنَّ القولَ به إلحادٌ وزندقةٌ، والحقُّ ما حقَّقتُ بإعلامه سبحانه، والعجبُ أنَّهم - مع قولهم بالزوال الوجوديّ - قالوا بزوال العين، ألم تعلموا أنَّ القولَ بزوال عين الوجود كالحكم بزوال الأثر مستلزمٌ للإلحاد والزندقة؟ وبالجملة إنَّ الزوالَ الوجوديَّ محالٌ في العين والأثر، والشُّهوديّ ممكنٌ في كليهما، بل واقعٌ، ولكنَّه مخصوصٌ بمحمديّ المشرب، فالمحمديون ينخلعون عن القلب بالتمام، ويتَّصلون بمقلِّب القلب، وهم متخلِّصون عن تقلُّب الأحوال، ومحرَّرون عن رقِّيَّة السِّوى بالكلية، ولَمّا كان وجودُ الآثار لازماً لغيرهم، وتقلب الأحوال نقدَ وقتهم؛ ليس لهم مخلصٌ من مقام القلب؛ لأنَّ تقلُّبَ الأحوال ووجود الآثار من شعب الحقيقة الجامعة القلبيَّة، فيكون شهودُ غيرهم في الحجاب دائماً، فإنَّ حجابَ المطلوب إنّما يكون على مقدار ثبوت بقايا وجود السَّالك، وحيث كان الأثرُ باقياً؛ فالحجابُ هو ذلك الأثرُ.

معرفةٌ: إذا وصل السَّالكُ من طريق سلوكٍ غير متعارفٍ إلى مرتبةٍ من مراتب فوق اسم هو ربه، وصار فانياً ومستهلكاً في تلك المرتبة من غير أن يصل إلى ذلك الاسم؛ فإطلاقُ الفناء في الله في هذه الصورة أيضاً جائزٌ، وكذلك البقاءُ بتلك المرتبة، فتخصيصُ الفناء في الله بذلك الاسم اعتباريٌّ؛ لكونه أوَّلَ مرتبةٍ من مراتب الفناء.

معرفةٌ: إنَّ السلوكَ على أنواعٍ: فسلوكُ البعض من غير تقدُّم الجذبة، وفي البعض الجذبةُ مقدمةٌ على سلوكهم، وجماعةٌ تحصل لهم الجذبةُ في أثناء قطع منازل السلوك، وطائفةٌ يتيسّرُ لهم طيُّ منازل السلوك، ولكنَّهم لا يصلون إلى حدِّ الجذبة، فتقدُّمُ الجذبة للمحبوبين، وباقي الأقسام متعلّقةٌ بالمحبين، وسلوكُ المحبين عبارةٌ عن طيّ المقامات العشرة المشهورة بالترتيب والتَّفصيل، وفي سلوك المحبوبين تحصل خلاصةُ المقامات العشرة، لا حاجةَ لهم إلى الترتيب والتَّفصيل، والعلمُ بوحدة الوجود من الإحاطة والسريان والمعية الذاتيّة كلُّ ذلك مربوطةٌ بالجذبة المتقدمة أو المتوسطة، وليس للسلوك الخاصّ، وجذبةٌ..................................

المنتهيين مناسبةٌ بأمثال هذه العلوم، ولا مناسبةَ أيضـاً بين حقّ اليقين المخصوص بالمنتهيين وبين العلوم المناسبة بالتوحيد الوجوديّ، ففي كلِّ موضعٍ بُيِّنَ فيه حقُّ اليقين المخصوص بمقام المجذوبين مناسباً لمقام أرباب التَّوحيد الوجوديّ؛ فهو حقُّ اليقين المخصوص بالمجذوب المبتدئ أو المتوسط.

معرفةٌ: قال بعضُ المشائخ: إذا بلغ شغلُ الطالب الجذبةَ؛ فدليلُه بعد ذلك هو تلك الجذبةُ فحسبُ، يعني: أنَّه لا يحتاج إلى توسُّط دليلٍ آخرَ، بل تلك الجذبةُ كافيةٌ له، فإن أراد بهذه الجذبة: جذبةَ السَّير في الله؛ فنَعَم، إنَّها كافيةٌ، ولكنَّ لفظَ الدَّليل منافٍ لهذه الإرادة؛ لأنَّه لا مسافةَ بعد السَّير في الله حتى يحتاج في قطعها إلى دليل، وكذلك الجذبةُ المتقدمةُ - يعني: على السلوك - أيضـاً ليست بمرادةٍ هنا كما هو معلومٌ من العبارة، فيكون المرادُ بها بالضَّرورة: جذبةَ المتوسط، وكفايتُها في الوصول إلى المطلوب ليس بمعلوم، فإنَّ كثيراً من المتوسطين قد توقَّفوا وتقاعدوا من العروج إلى فوق عند حصول هذه الجذبة، وزعموا تلك الجذبةَ جذبةَ النهاية، فإن كانت كافيةً؛ لَمَا كانت تتركهم في أثناء الطَّريق. نعم، إذا كانت الجذبةُ المتقدمةُ المتعلّقةُ بالمحبوبين كافيةً؛ فلها مجالٌ يمكن أن تجرَّ المحبوبين بسلسلة العناية، ولا تتركهم في أثناء الطَّريق، ولكنَّ كونَ هذه الكفاية في حقِّ جميع الجذبات المتقدمة ممنوعٌ أيضـاً، بل الجذبةُ إذا آل أمرها إلى السلوك فكفايةٌ، وإلا؛ فمجذوبٌ أبترُ، وليس من المحبوبين.

الخاتمةُ: قالت طائفةٌ من المشائخ قدس الله أسرارهم: إنَّ التجلِّي الذاتِيَّ مزيلٌ للشعور، ومعطِّلٌ للحسّ، وقد أخبر بعضهم عن حاله بأنَّه سقط، ووقع على الأرض عند ظهور هذا التجلِّي الذاتِيّ، وبقي مدّةً مديدةً من غير حسٍّ وحركةٍ، حتى ظنَّ الناسُ أنَّه قد مات، وبعضهم منع الكلامَ، وغيره في التجلِّي الذاتِيّ، وحقيقةُ هذا الكلام: أنَّ التجلِّي هو في حجاب اسمٍ من الأسماء، وبقاءُ الحجاب بواسطة بقايا أثر وجود صاحب التجلِّي - يعني: المتجلّى له -، وعدمُ الشعور أيضـاً بواسطة تلك البقية، فإن كان فانياً بالتمام، وشرّف بالبقاء بالله؛ لا يسلب التجلِّي عنه الشعورَ أصلاً: (شعر)

يُحْرَقُ بِالنَّارِ مَنْ يُمَسُّ بِهَا ... وَمَنْ هُوَ النَّارُ كَيْفَ يَحْتَرِقُ

بل أقول: إنَّ التجلِّي الذي في الحجاب ليس هو تجلِّياً ذاتِيّاً، بل داخلٌ في التجلِّي الصِّفاتِيّ، والتجلِّي المخصوصُ به ﷺ بلا حجابٍ، وعلامةُ وجود الحجاب فقدانُ الشعور، وفقدانُ الشعور من البُعْد، وعلامةُ عدم الحجاب وجودُ الشعور، والشعورُ في كمال الحضور، وقد أخبر واحدٌ من الأكابر عليه الرَّحمة والغفران عن حال صاحب هذا التجلِّي بالأصالة والاستقلال حيث قال: (شعر)

وَأُغْمِيَ مُوسَى مِنْ تَجَلِّي صِفَاتِهِ ... وَأَنْتَ تَرَى ذَاتَ الْإِلَهِ وَتَبْسُمُ

وهذا التجلِّي الذاتِيُّ الذي لا حجابَ فيه دائميٌّ للمحبوبين، وبرقيٌّ للمحبِّين، فإنَّ أبدان المحبوبين أخذت حكمَ أرواحهم، وسَرَتْ تلك النِّسبةُ في كليَّتهم، وهذه السِّرايةُ في المحبين على سبيل الندرة، وما وقع في الحديث النبوي من قوله عليه الصلاة والسلام: «لِي مَعَ اللهِ وَقْتٌ» ليس المرادُ بالوقت هذا التجلِّي البرقيّ، فإنَّ هذا التجلِّي في حقّه عليه الصلاة والسلام الذي هو رئيسُ المرادين دائميٌّ، بل هو نوعٌ من خصوصيات هذا التجلِّي الدائميّ واقعٌ على سبيل الندرة والقلة كما لا يخفى على أربابه.

معرفةٌ: إنَّ المشائخ قدس الله أسرارهم في حديث: «لِي مَعَ اللهِ وَقْتٌ لَا يَسَعُنِي فِيهِ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ» على قسمين: فطائفةٌ أرادوا بالوقت: الوقتَ المستمرَّ، وطائفةٌ أخرى..

قالوا بندرة الوقت، والحقُّ: أنَّ الوقتَ النادرَ مع وجود استمرار الوقت متحقّقٌ أيضـًا كما مرَّت الإشارة إليه آنفـًا، وتحقّق هذا الوقت النادر عند هذا الحقير هو في حين أداء الصلاة، وكأنَّ النبي ﷺ أشار بقوله: «**وَقُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**» إلى ذلك، وأيضـًا قال ﷺ: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنَ الرَّبِّ فِي الصَّلَاةِ**»، وقال تبارك وتعالى: ﴿**وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ**﴾ [العلق: ١٩]، وكلُّ وقتٍ فيه القربُ الإلهيُّ أزيدُ؛ فمجالُ الغير فيه أشدُّ انتفاءً. وما قال بعض المشائخ قدس الله أسرارهم مخبراً عن حاله ووقته واستمراره: (حالي في الصلاة كحالي قبل الصلاة) ينافي الأحاديثَ المذكورةَ، بل النصُّ المذكورُ ينفي المساواةَ والاستمرارَ، ينبغي أن يعلم أنَّ استمرارَ الوقت متحقّقٌ، والكلامُ إنّما هو في أنَّ الحالةَ النادرةَ مع وجود استمرار الوقت هل هي متحقّقةٌ أو لا؟ والذين لم يطَّلعوا على ندرة الوقت قالوا بنفيها، والذين لهم حَظٌّ من ذلك المقام اعترفوا بها، والحقُّ أنَّ الذين أُعْطُوا الجمعيَّةَ في الصلاة بتبعيته عليه الصلاة والسلام واحتظوا بدولة قرب ذلك الشرب أقلُّ قليلٍ، رزقنا الله سبحانه بكمال كرمه نصيبـًا من هذا المقام بحرمة محمد عليه وعلى آله الصلاة والسلام.

معرفةٌ: إنَّ المنتهيين من أرباب الصِّفات قريبون من المجذوبين في العلوم والمعارف، وكلا الطائفتين على وصفٍ واحدٍ في الشُّهود، فإنَّ كليهما من أرباب القلوب. **غَايةُ ما فِي الباب**: أنَّ أربابَ الصِّفات مطَّلعون على التفاصيل بخلاف المجذوبين. وأيضـًا إنَّ أربابَ الصِّفات فيهم بواسطة السلوك والعروج إلى فوق زيادةُ قربٍ بالنِّسبة إلى المجذوبين الذين لا عروجَ لهم، ولكنَّ محبَّةَ الأصل آخذةٌ بيد المجذوبين، وإن كان في البين حجبٌ، ولا عجب لو اعتبر في المجذوبين بحكم «**الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**» قربُ الأصل ومعيَّتُه، فالمجذوبون لهم مناسبةٌ بالمحبوبين في المحبَّة، فإنَّ الحبَّ الذاتِيَّ - ولو مع الحجب - متحقّقٌ في المجذوبين أيضـًا.

معرفةٌ: قد وقع في عبارة البعض من هذه الطَّائفة: إنَّ للأقطاب تجلِّي الصِّفات، وللأفراد تجلِّي الذات، وفي هذا الكلام مجالٌ للتأمُّل، فإنَّ القطبَ محمدي المشرب، والمحمديون لهم التجلِّي الذاتيُّ. نعم، إنَّ في هذا التجلِّي أيضـًا تفاوتـًا كثيراً، فإنَّ القربَ الذي للأفراد ليس للأقطاب، ولكن لكليهما نصيبٌ من التجلِّي الذاتِيِّ، إلا أن نقول: إنَّه يمكن أن يكون مراده من القطب: قطبَ الأوتاد الذي هو على قدم إسرافيل عليه السلام، لا على قدم محمد ﷺ.

معرفةٌ: «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ**»، واللهُ تعالى منزَّهٌ عن الشّبه والمثال، وخلق روح آدم التي هي خلاصته على صورةٍ لا شبهيةٍ ولا مثليةٍ، فكما أنَّ الحقَّ سبحانه لا مكانِيٌّ؛ كانت الروحُ أيضـًا لا مكانيةً، ونسبةُ الروح إلى البدن كنسبته تعالى وتقدس إلى العالم لا داخلة فيه ولا خارجة عنه، ولا متّصلة به ولا منفصلة عنه، لا نفهم فيها نسبةً سوى القيوميَّة، ومقوّم كلِّ ذرةٍ من ذرات البدن هو الروحُ، كما أنَّ الله تبارك وتعالى قيُّومُ العالم، وقيوميَّتُه تعالى للبدن بواسطة الروح، وكلُّ فيضٍ يردُ منه سبحانه على البدن؛ فمحلُّ وروده ابتداءً هو الروحُ، ثم يصلُ ذلك الفيضُ بواسطة الروح إلى البدن، ولَمّا كانت الروحُ مخلوقةً على صورةٍ لا شبهيَّةٍ ولا مثليّةٍ لا جرم كان فيها مجالٌ للا شبهي واللا مثاليّ الحقيقيّ، «**لَا يَسَعُنِي أَرْضِي وَلَا سَمَائِي، وَلَكِنْ يَسَعُنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ**»، فإنَّ الأرضَ والسماءَ لَمّا كانا مع وجود الوسعة فيهما داخلين في دائرة المكان، ومتَّسمين بسمة الشبه والمثال؛ ليس فيهما مجالُ اللا مكانِيّ المقدس عن الشبه والمثال، فإن اللا مكانِيّ لا يسعه المكانِيُّ، واللا مثاليّ لا يتمكَّنُ في المثاليِّ، فلا جرم تحقّق السعةُ..............

والمجالُ في قلب عبده المؤمن الذي هو لا مكانيّ، ومنزّه عن الشبه والمثال، والتخصيصُ بقلب المؤمن مبنيٌّ على أنَّ قلبَ غير المؤمن هابطٌ عن أوج اللا مكانيّ، ومأسورٌ للشبهيّ والمثاليّ، وآخذٌ حكمه، ولَمّا كان داخلاً في دائرة المكانيّ بسبب ذلك النزول والأسر واكتسب المثاليَّة؛ ضيّع تلك القابليَّة، ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وكلُّ من أخبر عن وسعة قلبه من المشائخ؛ فمراده لا مكانيّةُ القلب، فإنَّ المكانيّ - وإن كان وسيعاً - ضيقٌ، ألا ترى أنَّ العرشَ مع وجود عظمته ووسعته لما كان مكانيّاً كان حكمُه في جنب اللا مكانيّ الذي هو الروح كحكم الخردلة، بل أقلّ؟ بل أقول: إنَّ هذا القلبَ لَمّا كان محلَّ تجلّي أنوار القدم، بل وجد بقاءً بالقدم لو وقع فيه العرشُ وما فيه لصار مضمحلاً ومتلاشياً، بحيث لا يبقى منه أثرٌ، كما قال سيد الطّائفة في هذا المقام: إنَّ المُحْدَثَ إذا قورن بالقديم لم يبق له أثرٌ، وهذا لباسٌ متفرِّدٌ مخيطٌ على قدر قدّ الروح خاصّة، وليست هذه الخصوصيةُ للملائكة أيضاً، فإنَّهم داخلون في دائرة المكانيّ، ومتصفون بالمثاليّ، فلا جرم كان الإنسانُ خليفةَ الرحمن، ولا عجب فيه، فإنَّ صورةَ الشيء خليفةُ الشيء، وما لم يخلق على صورة شيءٍ لا يليق بخلافة الشيء، وما لم يكن لائقاً بالخلافة لا يقدر أن يتحمَّل ثقل أمانة أصله، لا يحمل عطايا الملك إلا مطاياه، قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، كثير الظلم على نفسه، بحيث لا يبقي من وجوده ولا من توابع وجوده أثراً ولا حكماً، كثير الجهل حتى لا يكون له إدراكٌ يتعلّق بالمقصود، ولا علمَ له نسبةً إلى المطلوب، بل العجزُ عن الإدراك في ذلك الموطن إدراكٌ، والاعترافُ بالجهل معرفةٌ، أكثرهم معرفةً بالله أكثرُهم تحيراً فيه.

تنبيهٌ: فإن وقع في بعض العبارات لفظٌ موهمٌ بالظرفيَّة والمظروفيَّة في شأنه تعالى وتقدس؛ ينبغي أن يحمله على ضيق ميدان العبارة، وأن يجعل المرادَ والمقصودَ من الكلام مطابقاً لآراء أهل السنة.

معرفةٌ: إنَّ العالمَ صغيرَه وكبيرَه مظاهرُ الأسماء والصِّفات الإلهيّة جلّ شأنه، ومرايا الشؤونات والكمالات الذاتيّة، وهو سبحانه كان كنزاً مكنوناً، وسرّاً مخزوناً، فأراد أن يعرض نفسه من الخلاء إلى الملأ، وأن يورد الإجمالَ على التَّفصيل، فخلق العالمَ؛ ليدلَّ على أصله، وليكون علامة لحقيقته، ولا نسبةَ بين العالم والصانع سوى أنَّ العالمَ مخلوقُه ودليلٌ على كمالاته المخزونة تعالى وتقدّس، وكلُّ حكمٍ وراء ذلك من جنس الاتِّحاد والعينيَّة والإحاطة والمعيَّة من السُّكرِ وغلبة الحال، والأكابرُ المستقيمو الأحوال الذين ذاقوا شراباً من قدح الصَّحْو والوصال يتبرؤون من هذه العلوم، ويستغفرون من مثل هذا الحال، وإن حصل لبعضهم هذه العلومُ في أثناء الطَّريق، ولكنَّهم يجاوزونها بالأُخرى، ويمنحون علوماً أزليّةً مطابقةً لعلوم الشَّريعة، ولنبيِّنْ لتحقيق هذا المبحث مثالاً: إنَّ العالمَ النِّحريرَ ذا فنونٍ مثلاً أراد أن يبرزَ كمالاته المخزونةَ إلى عرصة الظهور، وأن يجلّي فنونَه المكنونةَ إلى الملأ، فأوجد الحروفَ والأصواتَ ليظهر في حُجُب تلك الحروف والأصوات كمالاتُه المخزونةُ، وفنونُه المكنونةُ، ففي هذه الصُّورة لا مناسبةَ بين تلك الحروف والأصوات وبين المعاني المخزونة - بل بين العالم الموجد لها أصلاً - إلا أنَّ العالمَ موجدُها، وهي دالَّةٌ على كمالاته المخزونة، ولا معنى في القول بأنَّ تلك الحروفَ والأصواتِ عينُ ذلك العالم الموجد، أو عين تلك المعاني، وكذلك الحكمُ بالإحاطة والمعية غيرُ واقعٍ في تلك الحادثة، بل المعاني على صرافتها المخزونة. نعم، حيث تحقّق بين المعاني وصاحبها وبين الحروف والأصوات مناسبةُ الدالية والمدلوليَّة ربّما يحدث في التخيُّل..............

https://t.me/kutubtinnurfidatun

بعضُ المعاني الزَّائدة، والأوهام الغير الواقعة، والعالمُ ومعانيه المخزونةُ منزَّهان ومبرآن بالحقيقة عن تلك النِّسبة الزَّائدة، وهذه الحروفُ والأصواتُ موجودةٌ في الخارج، لا أنَّ العالمَ والمعاني موجودٌ فقط، والحروفَ والأصواتَ أوهامٌ وخيالاتٌ، فكذلك العالَمُ الذي هو عبارةٌ عما سواه تعالى موجودٌ في الخارج بالوجود الظليِّ والكون الطبعيِّ، لا أنّه أوهامٌ وخيالاتٌ، فإنَّ هذا المذهبَ هو عينُ مذهب السوفسطائيِّ، حيث يقولون: إنَّ العالَمَ أوهامٌ وخيالاتٌ، وإثباتُ الحقيقة للعالَم لا يخرجه عن أن يكون أوهاماً وخيالاتٍ، بل تكون الحقيقةُ موجودةً لا العالم، فإنَّ العالَمَ وراء تلك الحقيقة المفروضة.

تنبيهٌ: إنَّ المرادَ بمظهرية العالم ومرآتيّته للأسماء والصِّفات: كونُه مظهراً ومرآةً لصور الأسماء والصِّفات، لا لأعيان الأسماء والصِّفات، فإنَّ الاسمَ كالمسمى لا يكون محاطًا بالمرآة أصلاً، والصفةُ كالموصوف لا تكون مقيَّدةً بمظهرٍ قطعًا:

(شعر) كَذَا وَصْفُهُ مِنْ أَنْ يُحَاطَا بِمَظْهَرِ ... وَجَلَّ اسْمُهُ سُبْحَانَهُ مِثْلَ ذَاتِهِ

معرفةٌ: إنَّ كُمَّل أتباعه ﷺ وإن كان لهم بواسطة أتباعه ﷺ نصيبٌ من التجلِّي الذاتيِّ الذي هو من خصائصه ﷺ بالأصالة ولسائر الأنبياء عليهم السلام تجلِّي الصِّفات، وتجلِّي الذات أشرفُ من تجلِّي الصِّفات، ولكن ينبغي أن يعلم أنَّ للأنبياء عليهم الصلاة والسلام في تجلِّي الصِّفات من مراتب القُرْب ما ليس لكُمَّل التَّابعين من هذه الأمَّة مع وجود تجلِّي الذَّات بطريق التبعيَّة، وهذا كما أنَّ شخصًا مثلاً إذا وصل إلى الشَّمْس بطيِّ مدراج العروج محبَّةً لجمالها حتى لم يبقَ بينه وبين الشمس غيرُ حائلٍ رقيقٍ، وشخصٌ آخر مع وجود محبته لذات الشمس عاجزٌ عن العروج إلى تلك المراتب، وإن لم يكن بينه وبين الشمس حائلٌ أصلاً؛ فلا شك أنَّ الشَّخصَ الأوّلَ أقربُ إلى الشمس، وأعلمُ بكمالاتها الدَّقيقة، فكلُّ من فيه القربُ أزيدُ ومعرفتُه أكثرُ؛ فهو أفضلُ وكمالُه أوفرُ، فلا يبلغ وليٌّ من أولياء هذه الأمة التي هي خيرُ الأمم مع وجود أفضليّة نبيهم مرتبةَ نبيٍّ من الأنبياء، وإن حصل بمتابعة نبيه نصيبٌ من مقام به الأفضليّة، والفضلُ الكليُّ إنّما هو للأنبياء عليهم السلام والأولياء طفيليون، وليكن هذا آخر الكلام.

والحمد لله سبحانه على ذلك وعلى جميع نعمائه، والصلاةُ والسلامُ على أفضل أنبيائه، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، والملائكة المقربين، وعلى الصديقين والشهداء والصالحين.

المكتوبُ الثامنُ والثمانونَ والمائتانِ

إلى السَّيِّد أنبيا السَّارَنْكپُورِيِّ في المنع عن أداءِ صلاةِ النَّفلِ بالجماعةِ، كصلاةِ ليلةِ العاشوراءِ والبراءةِ وغيرِها، وما يناسب ذلك.

الحمد لله الذي شرَّفنا بمتابعة سيّد المرسلين، وجنَّبنا عن ارتكاب المبتدعات في الدِّين، والصلاةُ والسلامُ على من قمع بنيان الضَّلالة، ورفع أعلامَ الهداية، وعلى آله الأبرار، وصحبه الأخيار.

ينبغي أن يعلم أن لأكثر الناس في هذا الزمان من الخواصّ والعوامّ اهتمامًا تامّاً في أداء النوافل، ولكنَّهم يتساهلون في أداء المكتوبات، ولا يراعون فيها السُّنن والمستحبَّات إلا قليلاً، يرون النوافلَ عزيزةً، والفرائضَ حقيرةً وذليلةً، قلَّما يؤدُّون الفرائضَ في أوقاتها المستحبة، لا يهتمون لإدراك تكبير التَّحريمة مع الجماعة، بل لا يبالون بفوت نفس الجماعة أيضًا، وإنَّما يغتنمون أداءَ نفس الفرائض بالتَّكاسل والتَّساهل، ويؤدُّون النَّوافلَ بالجمعيَّة التامَّة، ورعاية كمال الاهتمام...

في يوم عاشوراء وليلة البراءة والليلة السابعة والعشرين من رجب وليلة أوّل جمعةٍ منه، وهي التي يسمونها: ليلةَ الرغائب، ويظنُّون فعلهم هذا حسناً ومستحسناً، ولا يدرون أنّه من تسويلات الشيطان الذي يري السيئات في صورة الحسنات، قال شيخُ الإسلام مولانا عصام الدين الهرويُّ[1] في «حاشية شرح الوقاية»: إنَّ التَّطوُّعَ بالجماعة وتركَ الفرض بالجماعة من تسويلات الشَّيطان، ينبغي أن يعلم أنَّ أداءَ النَّوافل بالجماعة من البِدَع المذمومة والمكروهة، ومن جملة البدع التي قال خاتمُ الرسالة عليه الصلاة والسلام في شأنها: «مَنْ أَحْدَثَ فِي دِينِنَا هَذَا فَهُوَ رَدٌّ»، واعلم أنَّ أداءَ النَّوافل بالجماعة مكروهٌ مطلقاً في بعض الرّوايات الفقهيَّة، وفي بعضٍ آخرَ الكراهةُ مشروطةٌ بالتَّداعي والجمعيَّة، فعلى هذا لو صلَّى اثنان النفلَ في ناحية المسجد من غير تداعٍ يجوز بلا كراهةٍ، وفي الثَّلاثة اختلافُ المشائخ، والأربعةُ مكروهةٌ بالاتِّفاق في بعض الرِّوايات، وفي البعض الآخر: الأصحُّ، أنَّها مكروهةٌ.

في «الفتاوى السراجية»: كره التَّطوُّعُ بالجماعة بخلاف التَّراويح وصلاة الكسوف.

وفي «الفتاوى الغياثيَّة»: قال الشَّيخُ الإمامُ السرخسيُّ رحمه الله: التطوُّعُ بجماعةٍ خارج رمضان إنَّما يكره إذا كان على سبيل التَّداعي، أما إذا اقتدى واحدٌ أو اثنان لا يكره، وفي الثلاث اختلافٌ، وفي الأربع يكره بلا خلافٍ.

وذكر في «الخلاصة»: أنَّ التَّطوُّعَ بجماعةٍ إذا كان على سبيل التَّداعي يكره، وأما إذا صلُّوا بجماعةٍ بغير أذانٍ وإقامةٍ في ناحية المسجد لا يكره.

وقال شمسُ الأئمّة الحلوانيُّ: إذا كان سوى الإمام ثلاثةٌ لا يكره بالاتفاق، وفي الأربع اختلافٌ، والأصحُّ أنّه يكره.

وفي «الفتاوى الشافية»: ولا يصلى التطوُّعُ بالجماعة إلا في شهر رمضان، وذلك إنَّما يكره إذا كان على سبيل التداعي - يعني: بأذانٍ وإقامةٍ -، أما لو اقتدى واحدٌ أو اثنان لا على سبيل التَّداعي؛ فلا يكره، وإذا اقتدى ثلاثةٌ اختلف المشائخ رحمهم الله تعالى، وإن اقتدى أربعةٌ كره اتفاقاً.

وأمثالُ هذه الرِّوايات كثيرةٌ، والكتبُ الفقهيَّةُ بها مملوءةٌ، فإن وجدت روايةٌ مجوِّزةٌ لأداء النفل بالجماعة مطلقاً ساكتةٌ عن ذكر العدد؛ ينبغي حَمْلُها على المقيَّد الواقع في روايةٍ أخرى، وأن يراد بالمطلق المقيَّدُ، وأن يقصر الجوازَ على اثنين أو ثلاث؛ لأنَّ العلماءَ الحنفيَّةَ وإن كانوا يُجْرُون المطلقَ على إطلاقه في الأصول، ولا يحملونه على المقيَّد، ولكنَّهم جوَّزوا حملَ المطلق على المقيد في الروايات، بل عدُّوه لازماً، فإن لم يحمل على طريق فرض المحال، ويجرى على إطلاقه؛ لكان هذا المطلقُ معارضاً على ذلك المقيَّد إذا تساويا في القوَّة، والمساواةُ في القوَّة ممنوعةٌ، فإنَّ روايةَ الكراهة مع وجود كثرتها مختارةٌ ومفتىً بها، بخلاف رواية الإباحة. ولو سُلِّمَ مساواتها أقول: إنَّ الترجيحَ - على تقدير تعارض أدلَّة الكراهة وأدلَّة الإباحة - في جانب الكراهة، فإنَّ فيه رعايةَ الاحتياط كما هو مقرَّرٌ عند أهل أصول الفقه، فالذين يصلُّون صلاةَ النفل يوم عاشوراء وليلة البراءة وليلة الرغائب بجماعةٍ عظيمةٍ بحيث يجتمع في المساجد مائتان أو ثلاثمائة رجلٍ، ويستحسنون تلك الصلاةَ بمثل ذلك الاجتماع، والجماعةُ مرتكبون أمراً مكروهاً باتِّفاق الفقهاء، واستحسانُ القبائح من أعظم القبائح، فإنَّ اعتقادَ الحرام مباحاً منجرٌّ إلى الكفر، وظنُّ المكروه حسناً أقلُّ منه بمرتبةٍ واحدةٍ، فينبغي ملاحظةُ شناعة هذا الفعل كمالَ الملاحظة، واعتمادهم في دفع الكراهة على عدم التداعي. نعم، إنَّ عدم التَّداعي يدفع الكراهةَ على بعض الروايات، ولكنَّه مخصوصٌ بمقتد واحدٍ ....

(١) هذا الذي ذكره كلُّه بدعةٌ مستحدثةٌ باتفاق المحققين، وإن ذكره المشاهيرُ في كتبهم، كصاحب «القوت» والغزالي وغيرهما. (المعرِّب)

واثنين، وهو أيضاً مشروطٌ بكونه في ناحية المسجد، وبدونه خرطُ القتاد، مع أنَّ التَّداعي عبارةٌ عن إعلام بعضٍ بعضاً آخر لأداء صلاة النفل، وهذا المعنى متحقّقٌ في تلك الجماعة، فإنَّهم يعلمون بعضهم بعضاً قبيلةً قبيلةً في يوم عاشوراء وغيره، ويقولون: ينبغي أن نذهب إلى مسجد الشَّيخ الفلاني أو العالم الفلانِيّ، وأن نؤدِّي الصلاةَ هناك بالجمعيَّة، وهم قد اعتبروا هذا الفعلَ، فمثل هذا الإعلام أبلغُ من الأذان والإقامة، فثبت التَّداعي أيضاً.

وإذا جعلنا التَّداعي مخصوصاً بالأذان والإقامة كما وقع في بعض الروايات، وأردنا بهما حقيقةَ الأذان والإقامة؛ فالجوابُ هو ما مرَّ آنفاً من أنَّ عدم الكراهة مخصوصٌ بواحدٍ واثنين، مع شرطٍ آخر على ما مرَّ ذكره.

ينبغي أن يعلم أنَّ بناءَ أداء النفل على الإخفاء والستر لكونه مظنَّةَ رياءٍ وسمعةٍ، والجماعةُ منافيةٌ له، والمطلوبُ في أداء الفرض الإظهارُ والإعلانُ؛ لأنَّه مبرَّأٌ عن شائبة الرياء والسُّمعة، فيكون المناسب أن يؤدَّى بالجماعة.

أو نقول: إنَّ كثرةَ الاجتماع مظنَّةُ حدوث الفتنة، ولهذا اشترطوا في أداء صلاة الجمعة حضورَ السلطان أو نائبه حتى يتحقّق الأمنُ من حدوث الفتنة، وفي تلك الجماعات المكروهات احتمالُ إيقاظ الفتنة القوية أيضاً، فلا يكون هذا الاجتماعُ معروفاً، بل يكون منكراً، وفي الحديث النبويّ عليه الصلاة والسلام: «**الفِتْنَةُ نَائِمَةٌ، لَعَنَ اللهُ مَنْ أَيْقَظَهَا**»[1]، فاللازمُ لولاة الأمور وقضاة الإسلام وأهل الاحتساب منعُ هذا الاجتماع، ومراعاةُ الزجر بأبلغ الوجوه في هذا الباب، حتى يتحقّق استئصالُ هذه البدعة المنجرة إلى الفتنة، والله يحق الحق وهو يهدي السبيل.

المكتوب التاسع والثمانون والمائتان

إلى مولانا بدرِ الدِّينِ في بيانِ أسرارِ القضاءِ والقدرِ، وما يناسبُ ذلك.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي كشف سرَّ القضاء والقدر على الخواصِّ من عباده، وستر عن العوامّ لمكان الضلال عن سواء السبيل واقتصاده، والصلاةُ والسلامُ على من أكمل به الحجَّةَ البالغةَ، وقطع به أعذارَ العصاة الهالكة، وعلى آله وأصحابه البررة الأتقياء، الذين آمنوا بالقدر، ورضوا بالقضاء والقدر.

مما قد كثر فيه الحيرةُ والضلالُ غلب على أكثر ناظريها باطلُ الوهم والخيال، حتى قال بعضهم بمحض الجبر فيما يصدر عن العبد بالاختيار، ونفى بعضهم نسبته إلى الواحد القهار، وأخذ طائفةٌ بطرف الاقتصاد في الاعتقاد الذي هو الصراطُ المستقيمُ، والمنهجُ القويمُ، ولقد وُفِّقَ لهذا الطَّريق الفرقةُ النَّاجيةُ الذين هم أهل السنَّة والجماعة رحمهم الله وعن أسلافهم وأخلافهم، فتركوا الإفراطَ والتفريطَ، واختاروا الوسطَ والبينَ، روي عن أبي حنيفة رضي الله عنه: أنه سأل جعفراً الصادق رضي الله عنه فقال: يا ابن رسول الله، هل فوَّض اللهُ الأمرَ إلى العباد؟ فقال: اللهُ تعالى أجلُّ من أن يفوِّض الربوبيَّةَ إلى العباد، فقال له: هل جبرهم على ذلك؟ فقال: اللهُ تعالى أعدلُ من أن يجبرهم على ذلك، ثم يعذِّبَهم، فقال: وكيف ذلك؟ فقال: بَيْنَ بَيْنَ، لا جبرَ ولا تفويضَ، ولا كرهَ ولا تسليطَ.

لهذا قال أهلُ السُّنَّة: إنَّ الأفعالَ الاختياريَّةَ للعباد مقدورةُ الله تعالى من حيث الخلق والإيجاد، ومقدورةُ العباد على وجهٍ آخر من تعلُّقٍ يعبَّرُ عنه بالاكتساب، فحركةُ العبد باعتبار نسبتها إلى قدرته تعالى تسمّى: خَلْقاً، وباعتبار نسبتها إلى قدرة العبد: كسباً له، غير أنَّ الأشعريَّ منهم ذهب..........................

(١) عزاه السيوطي للرافعي عن أنس. انظر: «الجامع الصغير»: ٢/ ٢٦٥.

إلى أن لا مدخلَ لاختيار العباد في أفعالهم أصلاً، إلا أنَّ اللهَ سبحانه أَوْجَدَ الأشياءَ عقيب اختيارهم بطريق جري العادة؛ إذ لا تأثيرَ للقدرة الحادثة عنده، وهذا المذهبُ مائلٌ إلى الجبر، ولهذا يسمَّى بالجبر المتوسط.

قال الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني بتأثير القدرة الحادثة في أصل الفعل، وحصول الفعل بمجموع القدرتين، وقد جوَّز اجتماع المؤثِّرين على أثرٍ واحدٍ بجهتين مختلفتين، وقال القاضي أبو بكر الباقلانيُّ بتأثير القدرة الحادثة في وصف الفعل، بأن تجعل الفعلَ موصوفاً بمثل كونه طاعةً ومعصيةً.

والمختارُ عند العبد الضّعيف: تأثيرُ القدرة الحادثة في أصل الفعل وفي وصفه معاً؛ إذ لا معنى للتأثير في الوصف بدون التأثير في الأصل؛ إذ الوصفُ أثرُه المتفرِّعُ عليه، لكنَّه محتاجٌ إلى تأثيرٍ زائدٍ على تأثير أصل الفعل؛ إذ وجودُ الوصف زائدٌ على وجود الأصل، ولا محذورَ في القول بالتأثير، وإن كَبُرَ ذلك على الأشعريِّ؛ إذ التَّأثيرُ في القدرة أيضاً بإيجاد الله سبحانه، كما أنَّ نفسَ القدرة بإيجاده تعالى، والقولُ بتأثير القدرة هو الأقربُ إلى الصواب. ومذهبُ الأشعريِّ داخلٌ في دائرة الجبر في الحقيقة؛ إذ لا اختيارَ عنده حقيقةً، ولا تأثير للقدرة الحادثة عنده أصلاً، إلا أنَّ الفعلَ الاختياريَّ عند الجبريَّة لا ينسب إلى الفاعل حقيقةً بل مجازاً، وعند الأشعريِّ ينسب إلى الفاعل حقيقةً، وإن لم يكن الاختيارُ ثابتاً له حقيقةً؛ لأنَّ الفعلَ يُنْسَبُ إلى قدرة العبد حقيقةً، سواء كانت القدرةُ مؤثِّرةً ولو في الجملة كما هو مذهبُ غير الأشعريِّ من أهل السنة، أو مداراً محضاً كما هو مذهبه، وبهذا يتميَّزُ مذهبُ أهل الحقِّ عن مذهب أهل الباطل، ونفيُ الفعل عن الفاعل حقيقةً وإثباتُه له مجازاً - كما هو مذهب الجبرية - كفرٌ محضٌ، وإنكارٌ على الضروريِّ.

قال صاحبُ «التمهيد»: ومن الجبريَّة من قال بأنَّ الفعلَ من العبد ظاهراً ومجازاً، أما في الحقيقة لا استطاعةَ له، والعبدُ كالشجرة إذا حرَّكَتْها الريحُ تحرَّكت، فكذلك العبدُ مجبورٌ كالشجرة، وهذا كفرٌ، ومن اعتقد هذا يصير كافراً. وقال أيضاً في مذهب الجبريَّة: قولهم: إنَّ ليس للعباد أفعالٌ على الحقيقة، لا في الخير ولا في الشر، وما يفعله العبدُ؛ فالفاعلُ هو اللهُ سبحانه، وهذا كفرٌ.

فإن قلت: إذا لم يكن لقدرة العبد تأثيرٌ في الأفعال، ولم يكن الاختيارُ له حقيقةً، فما معنى نسبة الأفعال إلى العبد حقيقةً عند الأشعريّ؟

قلت: إنَّ القدرةَ وإن لم يكن لها تأثيرٌ في الأفعال، إلا أنَّه سبحانه جعلها مداراً لوجود الأفعال، بأن يخلق اللهُ تعالى الأفعالَ عقب صرف قدرتهم واختيارهم إلى الأفعال بطريق جري العادة، وكأنَّ القدرةَ علَّةٌ عاديَّةٌ لوجود الأفعال، فيكون للقدرة مدخلٌ في صدور الأفعال عادةً؛ لأنَّها لم توجد بدونها عادةً، وإن لم يكن لها تأثيرٌ في الأفعال، فباعتبار العلَّة العاديَّة تنسب إلى العباد أفعالهم حقيقةً. هذا هو النِّهايةُ في تصحيح مذهب الأشعريِّ، والكلامُ بعد محلُّ تأمُّلٍ.

اعلم أنَّ أهلَ السنة والجماعة آمنوا بالقدر بأنَّ القدرَ خيره وشره وحُلْوَه ومرَّه من الله سبحانه؛ لأنَّ معنى القدر: هو الإحداثُ والإيجادُ، ومعلومٌ أن لا محدثَ ولا موجدَ إلا الله سبحانه، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

والمعتزلةُ والقدريةُ أنكروا القضاءَ والقدرَ، وزعموا أنَّ أفعالَ العباد حاصلةٌ بقدرة العبد وحدها، قالوا: لو قضى اللهُ الشرَّ، ثم عذَّبهم على ذلك؛ لكان ذلك جَوْراً منه سبحانه، وهذا جهلٌ منهم؛ لأنَّ القضاءَ لا يسلب القدرةَ والاختيارَ عن العبد؛ لأنَّه قضى بأنَّ العبدَ يفعله أو يتركه باختياره، **غَايَةُ مَا فِي البَابِ**: أنَّه يوجب الاختيارَ، وهو محقِّقٌ.........

للاختيار، لا منافٍ له، وأيضاً إنَّه منقوضٌ بأفعال الباري تعالى؛ لأنَّ فعلَه سبحانه بالنظر إلى القضاء إما واجبٌ أو ممتنعٌ؛ لأنَّه إن تعلّق القضاءُ بالوجود؛ فيجب، أو بالعدم؛ فيمتنع، فإن كان وجوبُ الفعل بالاختيار منافياً له؛ لم يكن الباري تعالى مختاراً، وهذا كفرٌ، ولا يخفى أنَّ القولَ باستقلال قدرة العبد في إيجاد أفعاله مع كمال ضعفه في غاية السَّخافة، ومنشأُ نهاية السَّفاهة، ولهذا بالَغَ مشائخ ما وراء النهر - شكر الله تعالى سعيهم - في تضليلهم في هذه المسألة، حتى قالوا: إنَّ المجوسَ أسعدُ حالاً منهم، حيث لم يثبتوا إلا شريكاً واحداً، والمعتزلةُ أثبتوا شركاء لا تحصى. وزعمت الجبريَّةُ أنَّه لا فعل للعبد أصلاً، وأنَّ حركاتِه بمنزلة حركات الجمادات، لا قدرةَ لهم أصلاً ولا اختيارَ، وزعموا أنَّ العبادَ لا يثابون بالخير، ولا يعاقبون بالشر، والكفارَ والعصاةَ معذورون غيرُ مسؤولين؛ لأنَّ الأفعالَ كلَّها من الله تعالى، والعبدُ مجبورٌ في ذلك، وهذا كفرٌ، وهؤلاء المرجئةُ الملعونون الذين يقولون بأنَّ المعصية لا تضرُّ، والعاصي لا يعاقب، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «**لُعِنَتِ المُرْجِئَةُ عَلَى لِسَانِ سَبْعِينَ نَبِيًّا**»(١)، ومذهبُهم باطلٌ بالضَّرورة؛ للفرق الظَّاهر بين حركة البطش وحركة الارتعاش، ونعلم قطعاً أنَّ الأوّل باختياره دون الثّاني، والنُّصوصُ القطعيَّةُ تنفي هذا المذهبَ أيضاً، كقوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الواقعة: ٢٤]، وقوله سبحانه: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، إلى غير ذلك.

واعلم أنَّ كثيراً من الناس - لضعف هممهم، وقصور نيَّاتهم - يطلبون الاعتذارَ ودفعَ السؤال عن أنفسهم، فيميلون إلى مذهب الأشعريِّ، بل إلى مذهب الجبريِّ، فتارةً يقولون بأن لا اختيارَ للعبد حقيقةً، ونسبةُ الفعل إليه مجازٌ، وتارةً يقولون بضعف الاختيار المستلزم للإجبار، ومع ذلك يسمعون كلامَ بعض الصوفيَّة في هذا المقام من أنَّ الفاعلَ واحدٌ ليس إلا هو، وأن لا تأثيرَ لقدرة العبد في الأفعال أصلاً، وأنَّ حركاتِه بمنزلة حركات الجمادات، بل وجودُ العبد ذاتاً وصفةً ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ [النور: ٣٥]، وأمثالُ هذا الكلام زادهم جراءةً على المداهنة والمساهلة في الأقوال والأفعال.

فنقول في تحقيق هذا الكلام، والله سبحانه أعلم بحقيقة المرام: إنَّ الاختيارَ لو لم يكن ثابتاً للعبد حقيقةً كما هو مذهب الأشعريّ؛ لَمَا نسب اللهُ تعالى الظلمَ إلى العباد؛ إذ لا اختيارَ لهم، ولا تأثيرَ لقدرتهم، وإنَّما هي مدارٌ محضٌ عنده، وقد نسب الله سبحانه الظلمَ إليهم في غير موضع من كتابه المجيد، ومجرَّدُ المداريَّة بدون التَّأثير ولو في الجملة لا يوجب الظلمَ منهم. نعم، إنَّ الإيلامَ والتعذيبَ للعباد منه تعالى من غير أن يكون الاختيارُ ثابتاً لهم ليس بظلم أصلاً؛ إذ هو سبحانه مالكٌ على الإطلاق، يتصرَّفُ في ملكه كيف يشاء، أما نسبةُ الظلم إليهم؛ فمستلزمٌ لثبوت الاختيار لهم، واحتمالُ المجاز في هذه النِّسبة خلافُ المتبادر، فلا يرتكب من غير ضرورةٍ، وأما القولُ بضعف الاختيار؛ فلا يخلو إما أن يراد به: الضعفُ بالنِّسبة إلى اختياره تعالى، فمسلَّمٌ، ولا نزاعَ فيه لأحدٍ، وكذا الضعفُ بمعنى: عدم الاستقلال في صدور الأفعال أيضاً مسلَّمٌ، وأما الضعفُ بمعنى: عدم المدخليَّة للاختيار في الأفعال؛ فممنوعٌ، وهو أوَّلُ المسألة، وسندُ المنع قد مرَّ مفصلاً.

ينبغي أن يعلم أنَّ الله تعالى كلَّف عباده بقدر طاقتهم واستطاعتهم، وخفَّف في التَّكليف لضعف خلقهم، قال الله تبارك وتعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، كيف وهو سبحانه حكيمٌ رؤوفٌ رحيمٌ، ولا يليق بالرَّحمة والرأفة........................

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٠/ ١١٧) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

والحكمة تكليفُ ما لا يستطيع له العبد؟ فلم يكلف برفع الصخرة العظيمة التي لا يقدر على رفعها العبدُ، بل كلَّف بما هو يسيرٌ على العبد من الصَّلاة المشتملة على القيام والركوع والسجود والقراءة الميسرة، وكلُّ ذلك يسيرٌ غاية اليسر، وكذا الصوم مثلاً في نهاية السهولة، والزكاة أيضاً كذلك؛ إذ قدَّر بربع العشر، ولم يقدِّر بالكلّ والنصف مثلاً؛ لئلا يثقلَ على العباد، ومن كمال الرأفة: جعل للمأمور به خَلَفاً إن تعسَّرَ الأصلُ، فجعل للوضوء خلفاً هو التيممُ، وكذا لذا حَكَمَ بأن من لم يقدر على القيام صلى قاعداً، وإن لم يقدرْ على القعود صلَّى مضطجعاً، وكذا من لم يقدر على الرُّكوع والسُّجود صلى مومياً، إلى غير ذلك مما لا يخفى على الناظر في الأحكام الشَّرعيّة بنظر الاعتبار والإنصاف، فيجد تمامَ التكليفات الشَّرعيّة في غاية اليسر ونهاية السهولة، ويطالِعُ كمالَ الرَّحمة منه سبحانه بالعباد في صفحات التَّكليفات، ومصداقُ تخفيف التكليفات تمنِّي العوامِّ في زيادة التكليف من المأمورات، فإنَّ بعضهم يتمنَّى الزِّيادةَ في الصوم المفروض، وبعضهم في الصلوات المفروضات، وعلى هذا القياس، وما هذا التمني إلا لكمال التخفيف. وعدمُ وجدان اليسر في أداء الأحكام للبعض مبنيٌّ على وجود ظلماتٍ نفسانيةٍ، وكدوراتٍ طبيعيّةٍ ناشئةٍ عن هوى النَّفس الأمَّارة المنتصبة لمعاداة الله سبحانه، قال الله سبحانه: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، فكما أنَّ مرضَ الظَّاهر موجبُ العسر في أداء الأحكام؛ كذلك مرضُ الباطن أيضاً موجبٌ لذلك العسر، وقد ورد الشرعُ الشَّريفُ لإبطال رسوم النَّفس الأمَّارة، ورفع هواجسها، فهوى النَّفس ومتابعةُ الشَّريعة على طرفي نقيض، فلا جرم يكون وجود ذلك العسر دليلَ وجود هوى النَّفس، فيقدَّرُ وجودُ الهوى بقدر العسر، فإذا انتفى الهوى كليَّةً؛ انتفى العسر رأساً. وأما كلامُ بعض الصوفيَّة المذكور سابقاً في نفي الاختيار وضعفه؛ فاعلم أنَّ كلامهم إن لم يكن مطابقاً لأحكام الشَّريعة؛ فلا اعتبارَ له أصلاً، فكيف يصلح للحجَّة والتقليد؟ وإنَّما الصالحُ للحجَّة والتَّقليد أقوالُ العلماء من أهل السنة، فما وافق أقوالَهم من كلام الصوفيَّة يقبلُ، وما خالفهم لا يقبلُ، على أنَّا نقول: إنَّ الصوفيَّةَ المستقيمةَ الأحوال لا يتجاوزون الشَّريعة أصلاً، لا في الأحوال، ولا في الأعمال، ولا في الأقوال، ولا في العلوم، ولا في المعارف، ويعلمون أنَّ بقيَّةَ الخلاف مع الشَّريعة ناشئةٌ عن سقم في الحال، وخللٍ فيه، ولو صدق الحالُ؛ ما خالفَ الشَّريعةَ الحقَّةَ.

وبالجملة خلافُ الشَّريعة دليلُ الزندقة، وعلامةُ الإلحاد.

غايةُ ما في البابِ: أنَّ الصوفيَّ لو تكلّم بكلامٍ مخالفٍ للشريعة ناشٍ عن الكشف في غلبة الحال وسكر الوقت؛ فهو معذورٌ، وكشفُه غيرُ صحيحٍ، وغيرُ صالحٍ للتَّقليد، بل ينبغي أن يحمل كلامه، ويصرف عن ظاهره، فإنَّ كلامَ السُّكارى يحمل ويصرف عن الظَّاهر. هذا ما تيسّر لي في هذا المقام بعون الله سبحانه وحسن توفيقه تعالى.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل: ٥٩].

المكتوب التسعون والمائتان

إلى المـلّا محمَّدٍ هاشمٍ في بيانِ الطَّريقِ الذي خصَّه الله سبحانه به في أوائلِ حالِه، ووفَّقه لتَسليكِ الطَّالبينَ إليه، وبيانِ الطَّريقَة النَّقشبَنديَّة العليَّة، وبَيانِ اندراجِ النِّهاية في البداية، وبيانِ الحضورِ المُعتبرِ عِندَ أكابرِ هذا الطَّريقِ المعبَّرِ عنه بالنِّسبةِ النَّقشبَنديَّة، مع ذكرِ بعضِ الأحوالِ والأذواقِ والمعارفِ الحاصِلة له في الطَّريقَة النَّقشبَنديَّة

وغيرِها، وبيانِ جذَباتِ هؤلاءِ الأكابر، وما ينَاسِبه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاةُ والسلامُ على سيد المرسلين، وآله وأصحابه الطيبين الطاهرين.

اعلم أنَّ الطَّريقَ الذي هو أقربُ وأسبقُ وأوفقُ وأوثقُ وأسلمُ وأحكمُ وأصدقُ وأدلُّ وأعلى وأجلُّ وأرفعُ وأكملُ هو الطَّريقةُ النقشبنديَّةُ العليّةُ قدس الله أرواح أهاليها وأسرار مواليها، وكلُّ عظمة هذا الطَّريق وعلوّ شأن هؤلاء الأكابر بواسطة التزام متابعة السنة السَنِيّة على صاحبها الصلاة والسلام والتحية، واجتناب البدعة الغير المرضيَّة، وهم الذين اندرجتْ نهايةُ الأمر في بدايتهم كالأصحاب الكرام عليهم الرضوان من الملك المنان، وكان شعورُهم وحضورُهم على سبيل الدوام، وصار فوق شعور الآخرين بعد الوصول إلى درجة الكمال.

أيُّها الأخُ أرشدك الله إلى سواء الطَّريق، لَمّا ظهر في هذا الدرويش هَوَسُ هذا الطَّريق، وصارتْ عنايةُ الحقّ جلّ وعلا هادَيَته، وأَوْصَلَتْه إلى صاحب الولاية، ومعدن الحقيقة، هادي طريق اندراج النهاية في البداية، وإلى السَّبيل الموصل إلى درجات الولاية، مؤيّد الدين الرضيّ شيخنا وإمامنا محمد الباقي قدس الله سره، أحد كبار خلفاء طائفة حضرات الأكابر النقشبنديَّة قدس الله أسرارهم، فعلَّم هذا الدرويشَ ذكرَ اسم الذَّات، وتوجّه بالطَّريق المعهود، حتى ظهر في التذاذٍ تامٍّ، وعرض لي البكاءُ من كمال الشَّوق، ثم ظهر بعد يومٍ واحدٍ كيفيةُ الذهول وعدم الشعور المعتبرة عند هؤلاء الأكابر المسماة بالغيبة، فرأيت في تلك الغيبة بحراً محيطاً، ووجدت صُوَرَ العالم وأشكالَه كالظلِّ في ذلك البحر، واستولت هذه الغيبةُ شيئاً فشيئاً، وامتدَّتْ، وصارت تمتدُّ أحياناً إلى ساعتين من نهارٍ، وأحياناً إلى أربع ساعاتٍ، وكانت في بعض الأوقات تستوعبُ الليلَ، ولَمّا عرضتُ هذه الواقعة على حضرة الشَّيخ قال: قد حصل نحوٌ من الفناء، ومنع عن الذِّكر، وأمر بحفظ ذلك الحضور، وبعد يومين حصل لي الفناءُ المصطلحُ، فعَرَضْتُه على حضرة الشَّيخ، فقال: عليك بالاشتغال بشأنك، ثم بعد ذلك حصل فناءُ الفناء، فعرضته عليه، فقال: هل تجدُ تمامَ العالم في محلٍّ واحدٍ ومتَّصلاً بعضه ببعضٍ؟ قلت: نعم، فقال: إنَّ المعتبرَ في حصول فناء الفناء: هو حصولُ عدم الشُّعور مع وجود رؤية هذا الاتِّصال، فحصل في تلك الليلة فناءُ الفناء بتلك الصفة، فعرضته عليه، وعرضتُ ما حصل بعد الفناء من الحالة، وقلت: إنِّي أجد علمي بالنِّسبة إلى الحقّ سبحانه حضوريّاً، وأجد الأوصافَ التي كانت منسوبةً إليّ منسوبةً إلى الحقّ سبحانه، ثم بعد ذلك ظهر نورٌ محيطٌ بجميع الأشياء، فظننته الحقَّ سبحانه وتعالى، وكان لونُ ذلك النُّور سواداً، فعَرَضْتُه عليه، فقال: الحقُّ جلّ وعلا مشهودٌ، ولكنَّ ذلك الشُّهودَ في حجاب النور، وقال: إنَّ هذا الانبساطَ الذي يُرَى في ذلك النور هو في العلم، وإنَّما يرى منبسطاً كذلك بواسطة تعلّق ذات الحقّ جلّ وعلا بالأشياء المتعددة الواقعة أعلى وأدنى، فينبغي نفيُ الانبساط. ثم شرع ذلك النورُ الأسودُ المنبسطُ في الانقباض والتضايق حتى صار كنقطةٍ، فقال: ينبغي نفيُ تلك النُّقطة أيضاً حتى ينجرَّ الأمرُ إلى الحيرة، ففعلتُ كذلك حتى زالت تلك النقطةُ الموهومةُ أيضاً من البين، وانجرَّ الأمرُ إلى الحيرة التي هناك شهودُ الحقّ سبحانه لنفسه بنفسه، فلما عَرَضْتُه عليه، قال: هذا الحضورُ هو الحضورُ المعتبرُعند النقشبنديَّة، ونسبتُهم عبارةٌ عن هذا الحضور، ويقال لهذا الحضور: حضوراً بلا غيبةٍ.........

أيضاً، واندراجُ النِّهاية في البداية يُتصوَّرُ في ذلك الموطن، وحصولُ هذه النِّسبة للطَّالب في هذا الطَّريق كأخذ الطَّالب في سلاسل أخر الأذكارَ والأورادَ من شيخه ليعمل بها، ويصل إلى مقصوده:

(ع) وَقِسْ مِنْ حَالِ بُسْتَانِي رَبِيعِي

وكان حصولُ هذه النِّسبة العزيزة الوجود لهذا الدَّرويش بعد مُضِيّ شهرين وبضعة أيامٍ من ابتداء تعليم الذِّكْر، وبعد تحقّق هذه النِّسبة حصل فناءٌ آخر يقال له: الفناءُ الحقيقيُّ، وحصل للقلب من الوسعة ما ليس لتمام العالم من العرش إلى مركز الفرش قدرٌ في جنبه مقدار خردلةٍ، وبعد ذلك رأيت نفسي وكلَّ فرد من أفراد العالم - بل كلّ ذرةٍ منه - الحقّ جل وعلا، وبعد ذلك رأيتُ كلَّ ذرةٍ فرادى فرادى عينَ نفسي، ورأيت نفسي عينَ جميع الذَّرَّات، حتى وجدت تمامَ العالم مضمحلاً في ذرةٍ واحدةٍ، ثم بعد ذلك رأيت نفسي - بل جميع ذرةٍ - منبسطاً ووسيعاً بحيث يسع تمامَ العالم وأضعافه، بل وجدت نفسي وكلَّ ذرَّةٍ نوراً منبسطاً سارياً في كلِّ ذرةٍ، وصورُ العالم وأشكالُه مضمحلٌّ في ذلك النور ومتلاشٍ فيه، بل وجدت كلَّ ذرَّةٍ مقوِّماً لتمام العالم، ولَمّا عرضتُ ذلك قال: إنَّ مرتبةَ حقِّ اليقين في التَّوحيد هي هذا، وجمعُ الجمع عبارة عن هذا المقام، ثم وجدت صور العالم وأشكاله التي كنت وجدتها أوّلاً عينَ الحقّ سبحانه موهومةً في ذلك الوقت، وما كنت وجدته من الذرات عين الحقِّ سبحانه وجدت جميعها من غير تفاوتٍ وتمييزٍ موهومةً، فعرضتْ لي حينئذٍ غايةُ الحيرة، فتذكَّرتُ في ذلك الوقت عبارةَ «الفصوص» التي كنت سَمِعْتُها من والدي الماجد عليه الرَّحمة حيث قال: إن شئت قلتَ: إنَّه - أي: العالم - حقٌّ، وإن شئت قلت: إنَّه خلقٌ، وإن شئت قلت: إنَّه من وجه حقٌّ ومن وجه خلقٌ، وإن شئت قلت بالحيرة؛ لعدم تمييزٍ بينهما، فصارت هذه العبارةُ مسكِّنةً لذلك الاضطراب في الجملة، وبعد ذلك أتيت ملازمة شيخنا، وعرضت عليه حالي، فقال: ما كان حضورُك صافياً بعدُ، عليك بالاشتغال بأمرك حتى يظهر تميُّزُ الموجود من الموهوم، فقرأت عليه عبارةَ «الفصوص» المشعرة بعدم التَّمييز، فقال: إنَّ الشَّيخ ما بين حال الكامل وعدم التمييز أيضاً ثابتٌ بالنِّسبة إلى البعض، فكنت مشغولاً حسب الأمر، فأظهر الحقُّ سبحانه وتعالى بعد يومين بمحض توجّه حضرة شيخنا تمييزاً بين الموجود والموهوم، حتى وجدت الموجودَ الحقيقيَّ ممتازاً من الموهوم المتخيّل، ورأيت الصِّفات والأفعالَ والآثارَ التي تُرَى من الموهوم صادرةً عن الحقِّ سبحانه، ووجدت تلك الصِّفات والأفعالَ أيضاً موهومةً، ولم أرَ في الخارج موجوداً غيرَ ذاتٍ واحدةٍ، ولَمّا عرضتُ ذلك قال: هذا هو مرتبةُ الفرق بعد الجمع، ونهايةُ السعي إلى هنا، وبعد ذلك يظهر ما استودع في قابليَّة كلِّ شخصٍ واستعداده، وقال مشائخ الطَّريقة لهذه المرتبة: مقامَ التكميل.

ينبغي أن يعلم أنَّ هذا الدرويش لَمّا نظرت إلى كلِّ ذرَّةٍ من ذراتي بعدما أُخرجتُ في المرة الأولى من السُّكر إلى الصحو، وبعدما شرِّفتُ بعد الفناء بالبقاء؛ لم أجدْ غيرَ الحقّ، ووجدت جميعَ الذرات مرآةً لشهوده سبحانه، ثم أُخرجتُ من ذلك المقام إلى الحيرة، ولما رجعت إلى نفسي - يعني: صحوتُ من الحيرة -؛ وجدت الحقَّ سبحانه مع كلِّ ذرةٍ من ذرات وجودي، لا فيها، وكان المقامُ السابقُ في النَّظر أسفلَ وأدنى من هذا المقام الثّاني، ثم أخرجت إلى الحيرة، ولما أَفَقْتُ وجدتُ الحقَّ سبحانه في تلك المرة لا متَّصلاً بالعالم، ولا منفصلاً عنه، ولا داخلَ العالم ولا خارجَه،........................

وصارت نسبةُ المعيَّة والإحاطة والسريان على نهجٍ كنت وجدتها أوَّلاً منتفيةً بالكلية، ومع ذلك كان مشهوداً بتلك الكيفيَّة، بل كأنَّه محسوسٌ، وكان العالمُ أيضاً مشهوداً في ذلك الوقت، ولكن لم يكن للحقِّ سبحانه شيءٌ من تلك النِّسَب المذكورة، ثم وقعتُ في الحيرة، ولَمّا أُخرجتُ إلى الصحو صار معلوماً أنَّ للحقّ سبحانه نسبةً بالعالم وراء النسب المذكورة، وهذه النِّسبةُ مجهولةُ الكيفية، وكان تعالى مشهوداً بالنِّسبة المجهولة الكيفيَّة، ثم أخرجت إلى الحيرة، وعرض لي في تلك المرتبة نحوٌ من القبض، ولما رجعت إلى نفسي صار الحقُّ سبحانه مشهوداً بغير تلك النِّسبة المجهولة الكيفية على طورٍ لا نسبةَ له بالعالم أصلاً، لا معلومةَ الكيفية ولا مجهولةَ الكيفية، وكان العالمُ مشهوداً في ذلك الوقت بتلك الخصوصيَّة، وحصل لي في ذلك الوقت علمٌ خاصٌّ عنايةً من الله سبحانه، وبسبب هذا العلم لم يَبْقَ بين الحقّ سبحانه والخلق مناسبةٌ أصلاً مع وجود كِلَا الشُّهودين، وصار معلوماً في ذلك الوقت أنَّ هذا المشهودَ مع هذه الصفة ومع هذا التَّنزيه ليس هو ذات الحقّ سبحانه وتعالى عن ذلك، بل هو صورةٌ مثاليةٌ لتعلّق تكوينه تعالى الذي هو وراء التعلّقات الكونية، سواءٌ كان ذلك التعلّقُ معلومَ الكيفية أو مجهولَ الكيفية، هيهات هيهات: (شعر)

كَيْفَ الْوُصُـولُ إِلَى سُـعَادَ وَدُونَهَا ... قُـلَـلُ الْـجِبَـالِ وَدُونَـهُـنَّ حُـيُـوفُ

أيُّها الأخُ الأعزُّ، إنِّي إن أجريتُ القلمَ في تفصيل الأحوال وتبيين المعارف لانجرَّ إلى التَّطويل والإطناب، وعلى الخصوص لو بيَّنْتُ معارف التَّوحيد الوجوديّ، وعلومَ ظليَّة الأشياء؛ لعَلِم الذين مضى عمرهم في التَّوحيد الوجوديّ أنَّهم لم ينالوا قطرةً من ذلك البحر الذي لا نهايةَ له، والعجبُ أنَّ تلك الجماعةَ لا يظنُّون هذا الدَّرويشَ من أرباب التَّوحيد الوجوديّ، بل يعدُّونه من العلماء المنكرين للتوحيد الوجوديّ، ويزعمون - من قصور النظر - أنَّ الإصرارَ على المعارف التوحيدية من الكمال، والترقِّي من ذلك المقام نقصٌ أو محالٌ: (شعر)

كَـمْ مِنْ بَلِيـدٍ غَـفُـولٍ عَـنْ مَـعَـائِبِـهِ ... يَسْـتَحْسِـنُ العَيْبَ زَعْمـاً أَنَّهُ حَسَـنُ

ومستشهدُ هؤلاء الجماعة في هذا الأمر أقوالُ المشائخ المتقدمين التي صدرت في التَّوحيد الوجوديّ رزقهم الله سبحانه الإنصافَ، من أين علموا أنَّ هؤلاءَ المشائخ لم يحصل لهم ترقٍّ من ذلك المقام، وبقوا محبوسين فيه؟ وليس الكلامُ في حصول المعارف التوحيديَّة، فإنَّه واقعٌ ألبتة، وإنَّما الكلامُ في الترقِّي من ذلك المقام. فإن قالوا لصاحب الترقِّي منكراً للتَّوحيد، واصطلحوا على ذلك، فلا مناقشةَ فيه.

ولنرجع إلى أصل الكلام، ونقول: إنَّه لَمّا كان في القليل دلالة على الكثير، وفي القطرة إشارة إلى البحر الغزير؛ اكتفيتُ بالقطرة، واقتصرت على القليل.

أيُّها الأخُ، إنَّ شيخنا لَمّا حكم لي بالكمال والتكميل أجاز لي بتعليم الطَّريقة، وأحال عليَّ جماعةً من الطَّالبين، كان لي في ذلك الوقت تردُّدٌ في كمالي وتكميلي، فقال: ليس هذا محلّ التردُّد، فإنَّ المشائخ العظامَ قالوا لهذا المقام: مقامَ الكمال والتَّكميل، فلو جاز تردُّدٌ في هذا المقام يلزمُه تردُّدٌ في كمالية هؤلاء المشائخ الكرام، فشرعتُ في تعليم الطَّريقة حسب الأمر، وراعَيْتُ التوجّهات في أحوال الطَّالبين، فصارت الآثارُ العظامُ محسوسةً في المسترشدين، حتى تقرَّر على السَّاعات أمرُ السنين، واشتغلتُ بهذا الأشغال.........................

أوقاتـاً، ثم ظهر آخرَ الأمر العلمُ بنقصي، وظهر لي أنَّ التَّجلِّي البرقيَّ الذي قال المشائخ فيه: إنَّه نهايةُ الأمر لم يظهرْ لي في هذا الطَّريق أصلاً، ولم يعلم السَّيرُ إلى الله والسيرُ في الله أيضـاً إنَّهما ما هما، ولا بُدَّ من تحصيل هذه الكمالات، وصار العلمُ بنقصي مبرهنـاً في ذلك الوقت، فجمعت الطَّالبين الذين حوالي، وحدَّثْتُهم حديثَ نقصي، وودَّعت جميعهم، ولكنَّ الطالبين حملوا هذا المعنى على التَّواضع وهضم النَّفس، ولم يرجعوا عما هم كانوا عليه، فرزق الحقُّ سبحانه الأحوالَ المنتظرةَ بحرمة حبيبه عليه وعلى آله الصلاة والسلام.

اعلم أنَّ حاصلَ طريقة حضرة خواجگان قدس الله أسرارهم اعتقادُ أهل السُّنَّة والجماعة، واتِّباعُ السنة السَنِيّة المصطفويَّة على صاحبها الصلاة والسلام والتحية، واجتنابُ البدعة الرديئة، والأهواء النَّفسانية، والعملُ بالعزيمة مهما أمكن، والاحترازُ عن العمل بالرخصة، والاستهلاكُ والاضمحلالُ أولاً في جهة الجذبة، وعبَّروا عن هذا الاستهلاك بالعدم، والبقاءُ الذي يحصل في هذه الجهة بعد الاستهلاك معبَّرٌ عنه بوجود العدم، يعني: وجودٌ وبقاءٌ مترتِّبٌ على العدم الذي هو الاستهلاكُ، وهذا الاستهلاكُ والاضمحلالُ ليس هو عبارةً عن الغيبة عن الحسّ، بل قد تتفق الغيبةُ عن الحسّ للبعض مع هذا الاستهلاك، وقد لا تقع للبعض الآخر، وصاحبُ هذا البقاء يمكن أن يرجع إلى الصِّفات البشرية، وأن يعود إلى الأخلاق النَّفسانيَّة، بخلاف البقاء الذي هو مترتِّبٌ على الفناء، فإنَّ العودَ منه غيرُ جائزٍ، يمكن أن يكون هذا معنى ما قال الخواجه النّقشبند قدس الله تعالى سره الأقدس: إنَّ وجودَ العدم يعود إلى وجود البشريَّة، وأما وجودُ الفناء؛ فلا يعود إلى وجود البشريَّة أصلاً، فإن الباقي بالبقاء الأوّل هو في الطَّريق بعد، والرجوعُ عن الطَّريق ممكنٌ، والثّاني واصلٌ منتهٍ، ولا رجوعَ للواصل، قال واحدٌ من الأكابر: ما رجع من رجع إلا من الطَّريق، ومن وصل لا يرجع.

ينبغي أن يعلم أنَّ صاحبَ وجود العدم وإن كان في الطَّريق، ولكن له بحكم اندراج النِّهاية في البداية شعورٌ بنهاية الأمر، وما هو ميسّرٌ للمنتهي في الآخر حاصلٌ له خلاصته من هذه الجهة إجمالاً، وهذه النِّسبةُ لَمّا كانت في المنتهي بطريق الشمول وعموم السريان صارت حاصلة في روحانيته وجسمانيته ألبتَّة، وفي صاحب وجود العدم مقصورٌ على خلاصة القلب ولو في الجملة وعلى سبيل الإجمال، فلا جرم كان المنتهي صاحبَ تفصيلٍ، ورجوعُه إلى صفات الجسمانيَّة ممتنعـاً، فإنَّ سريانَ تلك النِّسبة في مراتب جسمانيته خَلَعَه عن صفاتها، وجعله فانيـاً، وهذا الفناءُ موهبةٌ محضةٌ، والرُّجوعُ عن الموهبة المحضة لا يليق بجناب قدسه تعالى وتقدَّس، بخلاف صاحب وجود العدم، فإنَّ تلك السِّرايةَ مفقودةٌ في حقّه.

غَايةُ ما فِي البابِ: أنَّ هذه المراتبَ لَمّا كانت تابعةً للقلب؛ كانت تلك النِّسبةُ أيضـاً ساريةً فيها، وكسرت سَوْرَتَها، وجعلتها مغلوبةً، ولكنَّها ما بلغت حدَّ الفناء والزوال، فيمكن الرجوعُ عنه؛ إذ المغلوبُ قد يغلب بعروض بعض العوارض، ولحوق بعض الموانع، والزائلُ لا يعود كما مرَّ. واعلم أنَّ بعضَ المشائخ من هذه السِّلسلة العليّة قدس الله أرواحهم قد أطلقوا الفناءَ والبقاءَ على الاستهلاك والاضمحلال المذكور، والبقاء الذي يترتَّب عليه، وأثبتوا التجلِّي والشُّهود الذاتيّين أيضـاً في تلك المرتبة، وقالوا لهذا الباقي واصلاً، وقالوا بتحقّق (ياد داشت) الذي هو عبارةٌ عن دوام الحضور مع جناب الحق سبحانه في هذا المقام أيضـاً، وكلُّ ذلك باعتبار اندراج النِّهاية في البداية، وإلا؛ فالفناءُ والبقاءُ.................

لا يكونان إلا للمنتهي الذي هو الواصلُ، والتجلّي الذي مخصوصٌ به، ودوامُ الحضور مع الله سبحانه لا يكون إلا للمنتهي الواصل؛ إذ هو الذي لا رجوعَ له أصلاً، وأما الإطلاقُ الأوّلُ؛ فهو أيضـاً صحيحٌ بالاعتبار المذكور، ومبتنٍ على وجهٍ وجيهٍ، ومن هذا القبيل ما وقع في كتاب «الفقرات» لحضرة الخواجه عبيد الله الأحرار قدس الله سره الأقدس من إطلاق الفناء والبقاء والتجلّي والشُّهود الذاتيّين والوصل ودوام الحضور، قال واحدٌ من الأعزّة: إنَّ مبنى ذلك الكتاب الذي عبارةٌ عن مكتوبات ورسائل مرسلةٍ إلى بعض مخلصيه على دراية مَن أرسلت إليه ومعرفته، و«**كَلِّمُوا النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ**»[1] مرعيٌّ فيه، ومن هذا القبيل أيضـاً رسالةُ سلسلة الأحرار الواقعة على طريق كلام حضرة الخواجه أحرار، والرباعياتُ المشروحةُ التي كتبها حضرة شيخنا مؤيد الدين الرضي مولانا محمد الباقي سلمه الله تعالى، وهذا البقاءُ - بل جميعُ ما هو واقعٌ في طرف الجذبة - ناظرٌ إلى توحيد الوجود، ولهذا بيَّن بعضُ المشائخ حقَّ اليقين على نهجٍ مآلُه إلى التَّوحيد الوجوديّ، وهذا البيانُ أوقع البعضَ في اشتباه أنَّ حقَّ اليقين الذي هو منسوبٌ إليهم ومختصٌّ بهم عبارة عن التجلّي الصوريّ، وانجرَّ ذلك إلى الطعن والتشنيع، والحقُّ أنَّ هذا حقُّ اليقين المنسوب إليهم الذي بيَّنه بعضُ المشائخ حاصلٌ في جهة الجذبة، وهذه المعرفةُ مناسبةٌ لهذا المقام، والتجلّي الصوريُّ شيءٌ آخرَ كما لا يخفى على أربابه، وأطلقوا دوامَ الحضور على مرتبة شهود الوحدة في مرآة الكثرة على نهجٍ تكون المرآةُ مختفيةً بالتمام، ولا يبقى المشهودُ غيرَ الوجه الباقي أصلاً لرؤيتهم هذا المقام مناسباً ل-(يادداشت) - يعني: دوام الحضور -، ويقولون لهذا الشُّهود: تجلّياً ذاتيّاً أيضـاً، وشهوداً ذاتيّاً، ويقال لهذا المقام: مقامَ الإحسان، وعبَّروا عن ذلك الاستهلاك والاضمحلال بالوصل:

(ع) أَنْت غِـبْ فِيـهِ وَذَا عَيْنُ الْوِصَـالِ

وهذا الاصطلاحُ مخصوصٌ بحضرة ناصر الدين الخواجه عبيد الله الأحرار قدس سره، ولم يتكلَّمْ بهذا الاصطلاح أحدٌ من المشائخ المتقدمين من هذه السِّلسلة:

(ع) وَجَمِيعُ مَا فَعَلَ الْمَلِيحُ مَلِيحُ

ومن كلماته القدسية: إنَّ اللسانَ مرآةُ القلب، والقلبُ مرآةُ الروح، والروحُ مرآةُ الحقيقة الإنسانيَّة، والحقيقةُ الإنسانيَّةُ مرآةُ الحقّ سبحانه، والحقائقُ الغيبيَّةُ تصل إلى اللسان من غيب الذات بقطع هذه المسافة البعيدة، ومنه: تقبلُ صورةُ اللفظ، وتصل إلى مسامع المستعدين للحقائق، وقال أيضـاً: كنت في ملازمة بعض الأكابر مدّةً، فأنعم عليّ بشيئين: أحدهما: أنّ كلّما أكتبه يكون جديداً لا قديماً، وثانيهما: أنّ كلّما أقول يكون مقبولاً لا مردوداً، ويفهم من كلماته القدسية هذه جلالةُ شأنه، وعلوُّ منزلة معارفه، واتَّضح أيضـاً أنَّه ليس في البين في هذه الكلمات يعني لا مدخل له في صدورها عنه، وإنَّما ظهرت منه بطريق الانعكاس، وليس وظيفتُه ودخلُه فيها غير المرآتية لها. والله سبحانه أعلم بحقيقة الحال. وما عنده من علوّ درجة ومنزلة الكمال، وأنشد هذه «المثنويات»: (شعر)

كَـانَ كُـلَّ النَّـاسِ أَصْـحَـابِي عَلَـى ظَـنِّـهِـمْ وَالْـقَـلْـبُ بِـالسِّـرِّ اخْـتَـلَـى
لَـمْ يَـكُـنْ سِـرِّي بَـعِـيداً مِـنْ أَنِينِي وَلَـكِـنْ أَيْـنَ فَـهْـمٌ لِـلـدُّنَـى

وسيكتب هذا الحقيرُ نبذةً من حقيقة علومه ومعارفه في آخر هذا المكتوب على مقدار فهمه القاصر، والأمرُ عند الله سبحانه. وإذا شرَّف الحقُّ سبحانه بكمال عنايته بعد حصول الجذبة، وتمام تلك الجهة بنعمة السلوك؛ يمكن أن يقطع بمدد الجذبة المسافةَ البعيدةَ التي..

---

(١) أخرجه الديلمي في «الفردوس» (١٦١١) من حديث ابن عباس ﷺ بلفظ: «أمرت أن نكلم الناس على قدر عقولهم».

قدَّروها بخمسين ألف سنةٍ - وفي قوله: ﴿تَعْرُجُ الْمَلٰٓئِكَةُ وَالرُّوحُ اِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ اَلْفَ سَنَةٍۚ﴾ [المعارج: ٤] رمزٌ إلى هذا التقدير - في مدّةٍ قليلةٍ، وأن يصل إلى حقيقة الفناء في الله والبقاء بالله، ومنتهى السلوك وصولُ السَّالك إلى نهاية السَّير إلى الله الذي هو معبَّرٌ عنه بالفناء المطلق، وبعد ذلك أيضاً مقامُ الجذبة الذي عبَّروا عنه بالسَّيْر في الله والبقاء بالله، والسيرُ إلى الله عبارةٌ عن السَّير إلى الاسم الذي السَّالكُ مظهرُه، والسيرُ في الله سيرٌ في ذلك الاسم، فإنَّ كلَّ اسمٍ جامعٌ لأسماء غير متناهيةٍ، فيكون السَّيرُ فيه أيضاً غيرَ متناهٍ، ولهذا الدَّرويش في هذا المقام معرفةٌ خاصَّةٌ، وستُذكرُ إن شاء الله تعالى عن قريبٍ. وهذا الاسمُ في مراتب العروج فوق العين الثَّابتة، فإنَّ العينَ الثَّابتةَ للسَّالك ظلُّ ذلك الاسم، وصورتُه العلميَّةُ، والجماعةُ المخصوصةُ بفضل الحقّ سبحانه يعرجون من هذا الاسم أيضاً، ويترقَّون إلى ما شاء الله بلا نهايةٍ: (شعر)

وَمِنْ بَعْدِ هَذَا مَا يَدِقُّ بَيَانُهُ ... وَمَا كَتْمُهُ أَحْظَى لَدَيَّ وَأَجْمَلُ

والواصلون من سائر أرباب السلوك وإن كانوا مشاركين لهم في الجهة الثّانية، ومتحقّقون بالفناء في الله والبقاء بالله، ولكنَّ المسافةَ التي يقطعها أربابُ السلوك بالرياضات والمجاهدات، ويصلون إلى منتهاها في أزمنةٍ طويلةٍ؛ يقطعها أكابرُ هذه السِّلسلة العليّة بالتذاذ دولة الشُّهود وذوق وجدان المقصود في أزمنةٍ قليلةٍ، ويصلون إلى كعبة المطلوب. ثم بعد الوصول يحصل لهم ترقِّيات غيرُ متناهيةٍ، والمنتهون من أرباب السلوك قليلو النَّصيب من ذلك الترقِّي والقرب، فإن تقدُّم الجذبة على السلوك يستدعي نحواً من المحبوبيَّة، فإنَّه ما لم يكن مراداً لا يحصل له جذبٌ، فإذا انجذب يقع أقربَ ألبتةَ، ويحصل له زيادةُ القرب، والفرقُ بين المراد وغير المراد كثيرٌ، ﴿ذٰلِكَ فَضْلُ اللّٰهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَٓاءُ وَاللّٰهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]، «مثنوي»:

عِشْقُ مَعْشُوقٍ خَفِيٌّ وَسِتِّيرْ ... عِشْقُ عُشَّاقٍ بِطَبْلٍ وَنَفِيرْ

غَيْرَ أَنَّ الثَّانِيَ مُضْنٍ لِلْبَدَنْ ... عِشْقُ مَعْشُوقٍ مُزِيدٍ فِي السِّمَنْ

فإن قيل: إنَّ المرادين من سائر السَّلاسل أيضاً شركاءُ لهم في هذا الترقِّي والقرب، فإنَّ الجذبةَ مقدمةٌ على سلوكهم، فما يكون مزيَّةُ هذا الطَّريق على غيره من الطُّرُق؟ ولأيِّ شيءٍ يقال له: إنَّه أقرب الطرق؟

أجيب: إنَّ سائرَ الطرق ليست بموضوعةٍ لحصول هذا المعنى، بل تحصل هذه الدَّولةُ لبعضهم على سبيل الاتفاق، وهذا الطَّريقُ موضوعٌ لحصول هذا المعنى، و(ياد داشت) الذي يقع في عبارات أكابر هذه السِّلسلة العليّة يتصوَّرُ بعد تحقّق كلا جهتي الجذبة والسُّلوك، وإطلاقُ النهاية عليه باعتبار نهاية مراتب الشُّهود والحضور، وإلا؛ فالنِّهايةُ المطلقةُ وراء الوراء، وتفصيلُه: إنَّ الشُّهودَ إما في مرآة الصُّورة، أو في مرآة المعنى، أو فيما وراء الصُّورة والمعنى، وقالوا لهذا الشُّهود العاري عن الحجاب - يعني: حجاب الصّورة والمعنى -: برقيّاً، يعني: أنَّ حصولَ هذا الشُّهود كالبرق، ثم يكون في الحجاب، فإذا حصل لهذا الشُّهود بمحض فضل الحقّ سبحانه دوامٌ، وخرج عن مضيق الحُجُب بالتَّمام؛ يعبِّرون عنه حينئذٍ بـ(ياد داشت) الذي هو حضورٌ بلا غيبةٍ، فإنَّ الشُّهودَ ما دام يحتجب، ولم يحصل له دوام عدم الاحتجاب؛ لا يطلق عليه اسمُ (ياد داشت).

وههنا دقيقةٌ: ينبغي أن يعلم أنَّ كلَّ واصلٍ لا رجوعَ له حضورُه دائميٌّ، ولكنَّ سريانَ تلك النِّسبة في.............

كليَّته كالبرق، بخلاف المحبوبين الذين جَذْبَتُهم مقدمةٌ على سلوكهم، فإنَّ هذا السريانَ دائميٌّ فيهم، وكليَّتُهم آخذةٌ لحكم السرّ، وعاملةٌ عمل السرّ كما مرت الإشارةُ إليه، لانت أجسادُهم كما لانت أرواحُهم، حتى صارت ظواهرهم بواطنَهم، وبواطنُهم ظواهرَهم، فلا جرم لا يكون في حضورهم للغيبة مجالٌ، فتكون هذه النِّسبةُ فوق جميع النِّسب على كلِّ حالٍ، وهذه العبارةُ شائعةٌ في كتبهم ورسائلهم لهذا المعنى، فإنَّ النِّسبةَ عبارةٌ عن الحضور، ونهايةُ مراتب الحضور: هي أن يكون الحضورُ بلا حجابٍ ودائماً، وتخصيصُ مشائخ هذه الطَّريقة هذه النِّسبةَ بأنفسهم باعتبار وَضْعِ الطَّريق لحصول هذه الدَّولة كما مرَّ، وإلا فإن تيسّرت لبعض أكابر طرق أخر أيضاً فجائزٌ، بل واقعٌ، وقد أظهر قدوةُ أكابر أهل الله الشَّيخ أبو سعيد أبو الخير قدّس الله سره رمزاً من هذا الحضور، وطلب تحقيقه من أستاذه حيث سأله: هل يكون هذا الحديثُ دائميّاً؟ فقال الأستاذ في جوابه: لا يكون، فأعاد الشَّيخُ المسألةَ ثانياً، ووجد الجوابَ الأوّلَ، ثم كرَّر السؤالَ ثالثاً، فقال أستاذه في جوابه: فإن كان فنادرٌ، فرقص الشَّيخُ، وقال: هذا من تلك النَّوادر. وما قلتُ من أنَّ النِّهايةَ المطلقةَ وراء الوراء؛ فبيانه أنّه إذا وقع العروجُ بعد تحقّق هذا الحضور يقع السَّالكُ في لُجَّة الحيرة، ويخلِّفُ هذا الحضورَ وراء ظهره كسائر مراتب العروج، وهذه الحيرةُ هي المسماةُ بالحيرة الكبرى المخصوصة بالأكابر كما وقع في كتب القوم، قال واحدٌ من الأكابر في هذا المقام:

(شعر) حُسنِ تو مرا كرد چنان زير و زَبَر | كز خال و خط و زلفِ تو ام نيت خبر

(مضمونُه): نَسِيتُ اليَوْمَ مِنْ عِشْقِي صَلَاتِي | فَلَا أَدْرِي غَدَائِي مِنْ عَشَائِي

وقال الآخر: (شعر)

تَعَالَى الْعِشْقُ عَنْ كُفْرٍ وَدِينِ | كَذَاكَ عَنِ التَّشَكُّكِ وَالْيَقِينِ
رَأَيْتُ الْعَقْلَ مَقْرُوناً بِكُفْرٍ | وَذِي دِينٍ وَشَكٍّ وَالْيَقِينِ
فَجُزْتُ عَوَالِماً مِنْ غَيْرِ عَقْلٍ | فَلَمْ أَرَ بَعْدُ مِنْ كُفْرٍ وَدِينِ
وَكُلَّ الْكَوْنِ سَدُّكَ فِي طَرِيقٍ | أَرَى ذَا سَدَّ يَأْجُوجٍ بِعَيْنِ

وقال الآخر من الأعزّة: (شعر)

وَقَدْ سَارُوا وَطَارُوا نَحْوَ أَوْجٍ | فَعَادُوا صِفْرَ جَيْبٍ وَالْيَدَيْنِ

وبعد حصول هذه الحيرة مقامُ المعرفة، ومن ذا يشرَّفُ بهذه الدَّولة؟ ومن ذا يحتظ بالإيمان الحقيقي بعد الكفر الحقيقيّ الذي هو مقامُ الحيرة؟ ونهايةُ مطلوب المحققين في هذا الإيمان، ومقامُ الدعوة، وكمال متابعة سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام على وفق قوله تعالى: ﴿اَدْعُوٓا اِلَى اللّٰهِ عَلٰى بَصِيرَةٍ اَنَا۠ وَمَنِ اتَّبَعَنِىۜ﴾ [يوسف: ١٠٨] في هذا المقام، وكان ﷺ يطلب هذا الإيمانَ حيث قال في دعائه: «**اللَّهُمَّ أَعْطِنِي إِيمَانًا صَادِقًا، وَيَقِينًا لَيْسَ بَعْدَهُ كُفْرٌ**»[(١)]، وكان يستعيذ من الكفر الحقيقي الذي هو مقام الحيرة حيث قال: «**أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفَقْرِ**»[(٢)]، وهذه المرتبةُ نهايةُ مراتب حقّ اليقين، وههنا ليس العلمُ والعينُ بعضهما حجاباً عن بعضٍ: (شعر)

هَنِيئاً لِأَرْبَابِ النَّعِيمِ نَعِيمُهَا | وَلِلعَاشِقِ المِسْكِينِ مَا يَتَجَرَّعُ

واعلم - أرشدك الله - أنَّ جذبةَ هؤلاء الأعزة على نوعين: النوعُ الأوّلُ: واصلٌ من الصديق......................

(١) أخرجه الترمذي (٣٤١٩) واستغربه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ضمن حديث طويل.

(٢) أخرجه أبو داود (٥٠٩٠)، والنسائي (١٤٣٧) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

https://t.me/kutubumufidatun

الأكبر ﷺ، وبهذا الاعتبار ينسب طريقهم إليه ﷺ، وحصولُ هذا النوع بالتوجّه إلى الوجه الخاصّ الذي هو قيُّومُ جميع الموجودات، والاستهلاك والاضمحلال فيه.

والنوعُ الثّانِي: مبدأُ ظهوره في هذا الطَّريق حضرة الخواجه بهاء الدين النّقشبند، وهو ينبعث من طريق المعية الذاتيّة، ووصلت تلك الجذبةُ من حضرة الخواجه إلى أوّل خلفائه الخواجه علاء الدين، ولَمّا كان هو قطبَ الإرشاد في وقته؛ وضع طريقاً أيضاً لحصول هذه الجذبة، وذلك الطَّريقُ مشهورٌ فيما بين خلفاء هذه السِّلسلة بالعلائيّ، وربّما يقع في عباراتهم: أنَّ أقربَ الطُّرُق الطَّريقة العلائيّة، وأصلُ هذه الجذبة وإن كان من الخواجه النقشبند، ولكنَّ وضعَ الطَّريق لتحصيلها مخصوصٌ بالخواجه علاء الدين قدس الله أسرارهما، والحقُّ أنَّ هذا الطَّريقَ كثيرُ البركة، وقليلُه أنفعُ من كثير طرق الآخرين، وخلفاءُ مشائخ العلائيَّة والأحراريَّة مشرَّفون ومحتظون بهذه الدَّولة العظمى، ويُرَبُّون الطَّالبين بهذا الطَّريق، نال الخواجه أحرار هذه الدَّولةَ العظمى من مولانا يعقوب الچرخي عليهما الرضوان، وهو من خلفاء الخواجه علاء الدين. والنوعُ الأوّلُ من الجذبة الذي هو منسوبٌ إلى الصديق الأكبر ﷺ وضع لحصوله طريقٌ على حدةٍ، وذلك الطَّريق هو الوقوفُ العدديُّ، والسلوكُ الذي يتحقّق بعد هذه الجذبة أيضاً على نوعين - بل على أنواع -: نوعٌ بلغ الصديقُ ﷺ مقصودَه من هذا الطَّريق، وخاتم الرسالة عليه الصلاة والسلام أيضاً وصل من موطن الجذبة بهذا الطَّريق، ولَمّا كان الصديقُ ﷺ متخلِّقاً بكمال الأخلاق الذي كان فيه ﷺ وفانياً فيه؛ خُصَّ من بين سائر الأصحاب رضوان الله تعالى عليهم أجمعين بخصوصيَّة هذا الطَّريق، وهذه النِّسبةُ - أعني: نسبةَ الجذبة والسلوك المذكورين الآن - وصلت إلى الإمام جعفر الصادق بهذه الخصوصيَّة، ولما كانت والدةُ الإمام من بنات أولاد الصديق ﷺ قال الإمامُ بملاحظة كلا الاعتبارين: ولدني أبو بكر مرَّتين، وحيث كان الإمامُ أخذ نسبةً على حدةٍ من آبائه الكرام؛ صار جامعاً كِلَا هذين الطرفين، وجمع تلك الجذبةَ مع سلوكهم، ووصل إلى المقصود بهذا السُّلوك. والفرقُ بين هذين السُّلوكين: هو أنَّ سلوكَ الإمام عليّ يُقْطَعُ بالسَّيْر الآفاقيِّ، وسلوكَ الصِّديق لا يتعلّق بالآفاق كثيراً، ويشبه بنقبِ نقبةٍ من موطن الجذبة إلى أن تصل إلى المقصود، وفي السلوك الأوّل تحصيلُ المعارف، وفي الثّاني غلبةُ المحبَّة، فلا جرم كان الإمامُ عليّ باب مدينة العلم، وكان للصديق قابليَّةُ خلَّته عليه الصلاة والسلام، قال عليه الصلاة والسلام: «**لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً خَلِيلاً؛ لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً**»[1]، وحصَّل الإمامُ - باعتبار جامعيَّته للجذبة التي مبناها المحبّةُ وجهة السلوك الآفاقيّ الذي هو منشأُ العلوم والمعارف - نصيباً وافراً من المحبة والمعرفة، ثم فوَّض الإمامُ هذه النِّسبة المركَّبة بطريق الوديعة إلى سلطان العارفين، وكأنه حمل ثقل هذه الأمانة على ظهره ليسلمها إلى أهلها بالتدريج، ووجَّه عنان توجّهه إلى جانبٍ آخر لم تكن له مناسبةٌ بتلك النِّسبة قبل تحمُّل تلك الأمانة، وفي هذا التَّحميل أيضاً حكمٌ كثيرة، وإن كان نصيبُ الحاملين منها قليلاً، ولكن لها نصيبٌ وافرٌ من أنوار هؤلاء الأكابر، كما أنَّ نوعاً من السُّكر مثلاً الذي هو مندمجٌ وممتزجٌ فيها من آثار أنوار سلطان.........................

(١) أخرجه البخاري (٤٦٦) من حديث أبي سعيد ﷺ.

العارفين، وهذا السُّكرُ يجعل المبتدئَ غائباً عن الحسّ، ويورثه عدم الشعور، ثم يستتر بعد ذلك بالتدريج، وباعتبار غلبة الصحو تكون هذه النِّسبةُ مندمجةً في مراتب الصحو، ففي الظَّاهر صحوٌ، وفي الباطن سكرٌ، وهذا البيت في بيان حالهم: (شعر) بِقَلْبِكَ صَاحِبْنَا وَجَانِبْ بِظَاهِرِ وَذَا السَّيْرُ فِي الدُّنْيَا قَلِيلُ النَّظَائِرِ

وعلى هذا القياس أخذتْ من كلِّ واحدٍ من الأكابر نوراً، ووصلتْ إلى أهلها، وهو العارفُ الربانيُّ الخواجه عبد الخالق الغجدوانيُّ رأس حلقة سلسلة خواجكان قدس الله أسرارهم، ففي ذلك الوقت حصلت لتلك النِّسبة طراوةٌ كليَّةٌ، وبرزت في عَرَصَة الظّهور، ثم صار جانبُ السُّلوك الآفاقيِّ مختفياً بعده في هذه السِّلسلة، وصاروا يسلكون طرقاً أخر بعد حصول الجذبة، ويعرجون منها. ولَمّا جاء حضرة الخواجه بهاء الدين النقشبند قدس الله سره الأقدس إلى عالم الظهور؛ ظهرت تلك النِّسبةُ ثانياً بتلك الجذبة والسُّلوك الآفاقي، وصار هو بهذين الجهتين جامعاً لكمال المعرفة والمحبَّة، ومع وجود ذلك القسم الواحد من الجذبة أعطي قسماً آخر منها أيضاً منبعثاً من طريق المعيَّة كما مرَّ، وحصل من كمالاته نصيبٌ وافرٌ لنائب منابه - أعني: حضرة الخواجه علاء الحق والدين -، وتشرَّف بدولة كلا الجذبتين والسلوك الآفاقيّ، وبلغ مقام قطبيَّة الإرشاد، وكذلك الخواجه محمد پارسا قدس سره حاز حظّاً وافراً من كمالاته، قال حضرةُ الخواجه في آخر حياته في حقّه: من أراد أن ينظر إليّ؛ فلينظر إلى محمد، ونقل عنه أيضاً أنه قال: المقصودُ من وجود بهاء الدين وجودُ محمد. ومع وجود هذه الكمالات في خواجه پارسا منحه الخواجه عارف الديك كرانيّ في آخر حياته نسبةَ الفرديَّة، وهذه النِّسبةُ صارت مانعةً له من المشيخة وتكميل الطلبة، وإلا؛ كان له في الكمال والتّكميل درجةٌ عليا، قال حضرة الخواجه في شأنه: لو ربّى هو المريدين لينوَّرُ العالم منه، ووجد مولانا عارف هذه النِّسبة - أعني: نسبةَ الفردية - من والد زوجته مولانا بهاء الدين - يعني: القشلاقي -.

ينبغي أن يعلم أنَّ وجهَ الفردية إلى الحق سبحانه بالتمام لا تعلّق له بالمشيخة والتكميل والدعوة، فإن اجتمعت تلك النِّسبةُ مع نسبة قطبيَّة الإرشاد التي هي مقامُ دعوة الخلق وتكميلهم؛ ينبغي أن ينظرَ، فإن كانت نسبةُ الفردية غالبةً؛ فطرفُ الإرشاد والتكميل ضعيفٌ ومغلوبٌ على هذا التّقدير، وإلا؛ فصاحبُ هاتين النسبتين في حدِّ الاعتدال، ظاهرُه مع الخلق بالتمام، وباطنُه مع الحق تعالى وتقدس بالكليَّة، والدَّرجةُ العليا في مقام دعوة الخلق لصاحب هاتين النسبتين، ونسبةُ قطبية الإرشاد وإن كانت وحدها كافيةً في الدَّعوة، ولكن لهؤلاء الأكابر في هذا المقام مرتبةٌ على حدةٍ، نظرُهم شفاءُ الأمراض القلبيَّة، وصحبتُهم دافعةٌ للأخلاق الغير المرضيَّة، وكان سيد الطَّائفة جنيد مستسعداً بهذه الدَّولة، ومشرَّفاً بهذه المنزلة، حصلت له نسبةُ القطبية من شيخه السري السقطيّ، ونسبةُ الفرديَّة من الشّيخ محمد القصاب، ومن كلماته القدسية: إنَّ الناسَ يزعمونني مريد السريّ، أنا مريد محمد القصاب، جعل نسبةَ الفردية غالبةً، ونسي نسبةَ القطبيَّة، ورآها معدومةً في جنبها. وبعد خلفاء الخواجه النقشبند كان سراجُ هذه الطَّائفة العليّة حضرة الخواجه عبيد الله أحرار قدس سره توجّه إلى السَّير الآفاقي بعد إتمام جذبة خواجگان قدس الله أسرارهم، وأوصل السَّير إلى الاسم، وحصل له الاستهلاكُ والفناءُ فيه قبل دخوله إلى الاسم،..

ثم عاد إلى موطن الجذبة، وحصل له في تلك الجهة استهلاكٌ واضمحلالٌ خاصٌ، ووجد البقاءَ أيضـاً في تلك الجهة، وبالجملة كان له شأنٌ عظيمٌ في تلك الجهة، وما يتيسّرُ من العلوم والمعارف من الفناء والبقاء تيسّرَ له في هذا المقام، وإن كان في العلوم تفاوتٌ بواسطة تغاير الجهتين، ومن التفاوت إثباتُ توحيد الوجود وعدمه، وكذلك إثباتُ أمورٍ مناسبةٍ للتَّوحيد المذكور من الإحاطة والسَّريان والمعيَّة الذاتيّات، وشهود الوحدة في الكثرة مع اكتفاء الكثرة بالكليَّة بحيث لا يرجع كلمةُ (أنا) إلى السَّالك أصلاً، وأمثال ذلك، بخلاف العلوم التي تترتَّبُ على البقاء الذي بعد الفناء المطلق، فإنَّها ليست كذلك، بل هي مطابقةٌ لعلوم الشَّريعة حقيقةً غيرُ محتاجةٍ إلى التمحلات والتكلّفات والأسئلة والأجوبة. وبالجملة إنَّ البقاءَ في جهة الجذبة - أيّ جذبةٍ كانت - لا يخرج السَّالكَ من السُّكر، ولا يدخله في الصَّحو، ولهذا لا يرجع (أنا) إلى السَّالك الباقي مع وجود البقاء، ولا تقع الإشارةُ عليه؛ لأنَّ في الجذبة غلبةَ المحبَّة، وغلبةُ المحبَّة يلزمها السُّكرُ، لا ينفكُّ عنها بوجهٍ من الوجوه، ولهذا تكون علومها ممتزجةً بالسُّكر - يعني: بالمعارف السُّكرية -، كالقول بوحدة الوجود، فإنَّ مبناها على السُّكر وغلبة المحبَّة، بحيث لا يبقى في نظر المحبّ سوى المحبوب، فيحكم بنفي ما سواه، فإن خرج من السُّكر إلى الصحو لا يكون شهودُ المحبوب مانعـاً عن شهود ما سواه، فلا يحكم بوحدة الوجود، والبقاء الذي بعد الفناء المطلق ونهاية السلوك؛ فهو منشأُ الصحو، ومبدأُ المعرفة، لا مدخلَ للسكر في ذلك الموطن، وما غاب عن السَّالك في حالة الفناء يرجع إليه كلّه، ولكن منصبغاً بصبغ الأصل، وهو المعنى بالبقاء بالله، فبالضَّرورة لا يكون للسكر مجالٌ في علوم أرباب هذا البقاء، فتكون علومهم مطابقةً لعلوم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وأيضـاً إنِّي سمعت واحداً من الأعزة يقول: إنَّ حضرة الخواجه أحرار قدس سره حصَّل أيضـاً نسبةً من آبائه وأجداده من طرف أمّه، وقد كانوا أصحاب أحوال غريبةٍ، وجذبات قويةٍ، وكان لحضرة الخواجه أحرار نصيبٌ وافرٌ من مقام الأقطاب الاثنا عشر الذين تأييد الدين كان مربوطـاً بهم، ولهم شأنٌ عظيمٌ في المحبة، وحصل له تأييدُ الشَّريعة ونصرة الدين من هذه الجهة، وقد ذكرت شمّةً من أحواله فيما سبق. ثم تحقّق إحياء طريقة هؤلاء الأكابر وإشاعةُ آداب هؤلاء الأعزة بعده خصوصـاً في ممالك الهند التي كان أهلها محرومين من كمالاتهم بظهور معدن الإرشاد ومنبع المعارف مؤيد الدين الرضي شيخنا ومولانا محمد الباقي سلمه الله، وقد أردت أن أذكرَ نبذةً من كمالاته أيضـاً في هذا المكتوب، ولكن لما لم يُفهم رضاؤه في هذا الباب تركت الجراءةَ عليه.

المَكتُوبُ الحَادِي وَالتِّسعُونَ وَالمِائتَانِ

إلى مولانا عبدِ الحيِّ في بيانِ مراتبِ التَّوحيدِ الوُجوديِّ والشُّهوديِّ، وما يتعلّق بهما منَ المَعارف.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاةُ والسلامُ على سيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

اعلم - أرشدك الله تعالى - أنَّ منشأَ التَّوحيد الوجوديّ في جماعة كثرة ممارسته مراقبات التَّوحيد، وملاحظةُ معنى: (لا إله إلا الله) بـ(لا موجود إلا الله)، وتعقّله كذلك، وظهورُ هذا القسم من التَّوحيد بعد التَّمحُّل والتأمُّل والتخيُّل بواسطة استيلاء سلطان الخيال، فإنَّ من كثرة مزاولة معنى التَّوحيد تنتقشُ هذه المعرفةُ في المتخيلة، وحيث..............

كانت مجعولةً بجعل الجاعل تكون معلومةً ألبتّة، وليس صاحبُ هذا التَّوحيد من أرباب الأحوال، فإنَّ أربابَ الأحوال أربابُ القلوب، ولا خبرَ له في ذلك الوقت عن مقام القلب، بل هو علميٌّ لا غير، بل للعلم درجاتٌ بعضها فوق بعضٍ.

ومنشأُ التَّوحيد الوجوديّ في جماعةٍ أخرى الانجذابُ والمحبَّةُ القلبيَّةُ، حيث اشتغلوا ابتداءً بالأذكار والمراقبات خاليةً عن تخيُّل معنى التَّوحيد، وبلغوا بالجدّ والجهد أو بمجرَّد سبق العناية مقامَ القلب، وحصَّلوا الجذبَ، فإن ظهر لهم في هذا المقام جمالُ التَّوحيد الوجوديّ؛ فسببُه ينبغي أن يكون غلبة محبَّة المجذوب، فإنَّها جعلت ما سوى المحبوب مختفياً عن نظرهم ومستوراً، فإذا لم يروا ما سوى المحبوب ولم يجدوه؛ فلا جرم لا يعلمون موجوداً غير المحبوب، وهذا القسمُ من التَّوحيد من الأحوال، ومنزَّهٌ ومبرَّأٌ عن علَّة التخيُّل، وشائبة التوهُّم والانتقاش في الخيال، فإن رجعت هذه الجماعةُ الذين هم من أرباب القلوب من ذلك المقام إلى العالَم يشاهِدُون محبوبَهم في كل ذرَّةٍ من ذرات العالَم، ويرون الموجودات مرايا حسن المحبوب، ومجالي جماله، فإن توجّهوا بمحض فضل الحقّ جلّ سلطانه من مقام القلب إلى جناب قدس مقلِّب القلب؛ تشرعُ هذه المعرفةُ التوحيديَّةُ الحاصلةُ في مقام القلب في الزَّوال، وكلَّما صعدوا في معارج العروج يجدون أنفسهم غيرَ مناسبٍ لتلك المعرفة، حتى تبلغ جماعةٌ منهم حدَّ الإنكار والطَّعن في أرباب تلك المعرفة، مثل الشيخ ركن الدين أبو المكارم علاء الدَّولة السُّمنانيِّ، ولا يبقى لبعضٍ آخر شغلٌ بنفي تلك المعرفة وإثباتها، وكاتبُ هذه السُّطور يتحاشى من إنكار أرباب هذه المعرفة، ويبعد نفسه عن طعنهم، فإنَّه إنّما يكون للإنكار والطعن مجالٌ إذا كان لأرباب ذلك الحال حين ظهوره قصدٌ واختيارٌ، وهذا المعنى ظهر فيهم من غير إرادةٍ وصنعٍ منهم، فهم مغلوبون لذلك الحال، فيكونون معذورين ألبتّة، ولا رَدّ ولا طعنَ للمضطرّ المعذور، ولكنِّي أعلم أنَّ فوق هذه المعرفة معرفةٌ أخرى.

ووراء هذا الحال حالةٌ أخرى، والمحبوسون في هذا المقام ممنوعون عن كمالاتٍ كثيرةٍ، ومحرومون من مقاماتٍ عديدةٍ، وقد فتح لهذا الفقير قليل البضاعة بابُ هذه المعرفة من غير ممارسةِ معنى التَّوحيد في ضمن المراقبات والأذكار، بل من غير جدٍّ وجهدٍ بفضل الحقّ سبحانه في ملازمة منبع الهداية والإفاضة، ومعدن الحقائق والمعارف المستفاضة، مؤيّد الدين الرضي شيخنا ومولانا محمد الباقي قدس الله تعالى سره الأقدس بعد تعليم الذِّكْر وتوجّهه والتفاته، وإيصاله إلى مقام القلب، وأعطيت في هذا المقام علوماً غزيرةً، ومعارفَ كثيرةً، وانكشفت دقائقُ هذه المعارف، وبقيت مدّةً مديدةً في هذا المقام، ثم أُخرجتُ آخرَ الأمر من مقام القلب بيُمْن عنايته لعبده، وتوجّهت هذه المعارفُ في ضمن ذلك نحو الزَّوال حتى صارت بالتدريج معدومةً، والمقصودُ من إظهار الأحوال ليعلم أنَّ ما هو المسطورُ والمرقومُ محرَّرٌ على وجه الذَّوق والكشف، لا على وجه الظنّ والتقليد.

وما ظهر من بعض أولياء الله تعالى من المعارف التَّوحيديَّة لعلها ظهرت منهم في ابتداء أحوالهم من مقام القلب، فلا يلحقهم حينئذٍ نقصٌ من هذه الجهة أصلاً، وقد كتب هذا الفقير أيضاً رسائل في المعارف التوحيديَّة، ولما نشر بعضُ الأصحاب تلك الرَّسائل تعسَّر جمعُها، فتُرِكَت على حالها، وإنَّما يلزم النقصُ إذا لم يجاوزوا هذا المقامَ. وطائفةٌ أخرى من أرباب التَّوحيد...

الذين حصل لهم الاستهلاكُ والاضمحلالُ في مشهودهم على الوجه الأتمّ، وجُلُّ همَّتهم أن يكونوا مضمحلِّين ومعدومين في مشهودهم دائماً، وأن لا يرى أثرٌ من لوازم وجودهم، ويرون رجوع (أنا) إلى أنفسهم كفراً، ونهايةُ الأمر عندهم الفناءُ والانعدامُ، حتى يرون المشاهدةَ أيضاً تعلّقاً، قال بعضهم: أشتهي عدماً لا أعود أبداً، وهم قتلى المحبَّة، وحديث: «مَن قتلته محبَّتي فأنا ديتهم» صادقٌ في حقّهم، ومتحقّقٌ في شأنهم، وهم تحت ثِقَل الوجود ليلاً ونهاراً، لا يستريحون لمحةً، فإنَّ الرَّاحةَ في الغفلة، ولا مجال للغفلة على تقدير دوام الاستهلاك، قال شيخُ الإسلام الهرويّ: من أغفلني عن الحقّ سبحانه ساعةً أرجو أن يغفر له جميع ذنوبه، والغفلةُ لازمةٌ للوجود البشريّة، وجعل الحقّ سبحانه وتعالى ظاهرَ كلٍّ منهم - من كمال كرمه - مشغولاً بأمور مستلزمةٍ للغفلة على قدر استعداده ليخفَّ عنهم أثقالُ الوجود في الجملة، أَلِفَ جماعةً منهم السَّماعَ والرَّقصَ، وجعل طائفةً مشغولةً بتصنيف الكتب، وتحرير العلوم والمعارف، وشغل بعضهم بأمورٍ مباحةٍ، كان الشَّيخُ عبد الله الإصطخريّ[1] يذهب إلى الصّحراء ومعه كلابٌ يصطاد بهم، فسأل شخصٌ واحداً من الأعزّة عن سره، فقال: ليتخلَّص عن ثقل الوجود لحظةً، وروّح بعضَهم بعلوم التَّوحيد الوجوديّ، وشهود الوحدة في الكثرة؛ ليستريح من تلك الأثقال ساعةً، ومن هذا القبيل ما ظهر من بعض أكابر مشائخ النقشبنديَّة قدس الله أسرارهم العليّة من المعارف التوحيديَّة، فإنَّ نسبَتَهم تجرُّ إلى التَّنزيه الصِّرْف، لا تعلُّقَ لها بالعالم وشهود العالم، وما كتبه معدنُ الإرشاد ومنبعُ الحقائق والمعارف ناصر الدين الخواجه عبيد الله أحرار من المعارف المناسبة بعلوم التَّوحيد الوجوديّ وشهود الوحدة في الكثرة من القسم الأخير من التَّوحيد، وكتاب «الفقرات» له مشتملٌ على بعض علوم التَّوحيد وغيرها، منشأُ علوم ذلك الكتاب والمقصودُ من تلك المعارف استئناسُه وألفته بالعالم، وكذلك معارفُ شيخنا المحرّرة في بعض الرَّسائل على طِبْق كلام كتاب «الفقرات»، وليس منشأُ هذه العلوم التوحيديَّة الجذبةَ، ولا غلبةَ المحبَّة، ولا نسبةَ لمشهودهم بالعالم، وما يُرَى لهم في مرآة العالم إنّما هو شَبَهُ مشهودهم ومثالُه، لا مشهودُهم الحقيقيُّ، كما أنَّ شخصاً إذا كان عاشقاً لجمال الشمس، ومن كمال المحبة أفنى نفسه في الشمس بحيث لم يترك من نفسه اسماً ولا رسماً، فإذا أريد تسليتُه وأنسه وألفته بما سوى الشمس ليتنفس من غلبة تشعشع أنوارها لمحةً، ويستريح منها لحظةً؛ يُرَى له الشمسُ في مجالي هذا العالَم، ويحصل له بتلك العلاقة أنسٌ وألفةٌ بهذا العالم، ويقال له أحياناً: إنَّ هذا العالمَ عينُ الشمس، ولا موجود غيرُها أصلاً، وأحياناً يرى له جمالُ الشمس في مرآة ذرات العالم.

لا يقال: إنَّ العالمَ إذا لم يكن عينَ الشمس في نفس الأمر يكون الإخبارُ بأنّه عينُ الشمس خلافَ الواقع؛ لأنّا نقول: إنَّ لبعض أفراد العالم مع بعضٍ آخر اشتراكاً في بعض الأمور، وامتيازاً في بعضٍ آخر، والحقُّ سبحانه بكمال قدرته يُخْفِي عن نظر هؤلاء الأكابر الأمورَ الباعثةَ على الامتياز بواسطة بعض الحِكَم والمصالح، ويبقي الأجزاءَ المشتركةَ فقط مشهودةً، فيحكمون باتِّحاد بعضها لبعضٍ بالضَّرورة، فتجد الشمسُ فيما نحن فيه بهذه العلاقة عينَ العالم، وكذلك الحقُّ سبحانه، وإن لم يكن له مناسبةٌ بالعالم في الحقيقة أصلاً، ولكنَّ المشابهةَ الاسميَّةَ قد تصير مصحِّحةً لهذا الاتحاد، فإنَّ الحقَّ سبحانه مثلاً موجودٌ، والعالمَ أيضاً موجودٌ، وإن لم يكن بين الوجودين في الحقيقة مناسبةٌ أصلاً،.................

(١) كذا في نسخ «المكتوبات»، وفي نسخ «النفحات»: عبد الرحيم، والله أعلم بالصواب. (المعرِّب)

وكذلك هو تعالى عالمٌ وسميعٌ وبصيرٌ وحيٌّ وقادرٌ ومريدٌ، وبعضُ أفراد العالم أيضاً متَّصفٌ بهذه الصِّفات، وإن كان صفاتُ كلٍّ منهما مغايرةً لصفات الآخر، ولكن لَمّا كانت خصوصيّةُ الوجود الإمكانِيّ ونقائص المحدثات مستورةً عن نظرهم؛ ساغ لهم أو حكموا بالاتحاد، وهذا القسمُ الأخيرُ من التَّوحيد أعلى أقسام التَّوحيد، بل ليس أربابُ هذه المعرفة في الحقيقة مغلوبي هذا الوارد، ولم يكن الباعثُ على هذه المعرفة سكرَهم، بل أورد عليهم هذا الواردُ لأجل مصلحةٍ ما، وأريد إخراجُهم من السُّكر إلى الصَّحْو بسبب هذه المعرفة وتسليتهم بها، كما تتسلّى جماعةٌ بالسماع والرقص، وطائفةٌ بالاشتغال ببعض أمورٍ مباحةٍ.

ينبغي أن يعلم أنَّ هؤلاء المذكورين من هذه الطوائف يشتغلون ببعض أمورٍ مغايرةٍ لمشهودهم، ويتسلَّون بها على ما عرفتَ، بخلاف هؤلاء الأكابر، فإنَّهم لا يلتفتون إلى أمرٍ مغايرٍ لمشهودهم، ولا يتسلون به، فلا جرم قد يرى لهم العالمُ عينَ مشهودهم، أو يظهر لهم مشهودُهم في مرآة العالم ليخفَّ عنهم ذلك الثقلُ ساعةً، ومنشأُ هذا القسم الأخير من التَّوحيد لم يكن معلوماً لهذا الحقير بطريق الكشف والذوق، بل المعلومُ هو الجهتان السابقتان، وهذا القسمُ ظنِّي، ولهذا لم أكتب في كتبي ورسائلي إلا هاتين الجهتين، بل الجهةَ الثّانيةَ فقط، وجعلت التَّوحيدَ الوجوديَّ منحصراً فيها، ولكن لَمّا وقع المرورُ ببلدة دهلي المحروسة بعد رحلة مرشدي وقبلتي بنيّة زيارة قبره الشَّريف اتِّفاقاً، وذهبتُ لزيارة قبره الشَّريف يوم عيدٍ؛ ظهر في أثناء التوجّه إلى مزاره المتبرّك من روحانيَّته المقدسة التفاتٌ تامٌّ، ومنحني من كمال ألطافه وإشفاقه للغرباء نسبته الخاصّةَ المنسوبةَ إلى الخواجه أحرار قدس سره، ولَمّا وجدت تلك النِّسبة في نفسي؛ وجدتُ حقيقةَ تلك العلوم والمعارف بطريق الذَّوْق بالضَّرورة، وعلمت أنَّ منشأَ التَّوحيد الوجوديّ فيهما ليس هو الانجذابَ القلبيَّ وغلبةَ المحبَّة، بل المقصودُ من تلك المعرفة: تخفيفُ تلك المحبَّة، ولم أر إظهارَ هذا المعنى مناسباً إلى مدَّةٍ مديدةٍ، ولكن لَمّا كان ذلك الوجهان السابقان مذكورين في بعض الرسائل؛ وقع من ذلك أناسٌ قليلو الدراية في توهّم أنَّه يلزم من هذا البيان تنقيصُ هذين الشَّيخين الجليلين بأنَّ طريقهما طريقُ أربابِ التَّوحيد، وأطالوا بهذا السبب لسانَ الفتنة، حتى صار ذلك التوهُّمُ في بعض الطلاب القليلي الإخلاص واليقين باعثاً على فتور أحوالهم، فرأيت المصلحةَ في إظهار هذا القسم من التَّوحيد بالضَّرورة، ورأيت المناسبَ ذكرَ تلك الواقعة للاستشهاد، فحرَّرْتُها لذلك.

نقل درويش من مخلصي شيخنا عنه أنه قال: إنَّ الناسَ يزعمون بأنا نكتسب النِّسبة من مطالعة كتب أرباب التَّوحيد، وليس كذلك، بل المقصودُ: أن نغفل أنفسنا ساعةً، وهذا الكلامُ مؤيِّدٌ للكلام السابق. ونقل معدنُ الفضيلة الشَّيخ عبد الحق الذي هو من مخلصي شيخنا عنه أنّه قال قبيل أيام رحلته: قد صار معلوماً لنا بيقين يقينٍ أنَّ التَّوحيدَ الوجوديَّ سكَّةٌ ضعيفةٌ، والطَّريق السلطانِيَّ غيرُه، وإن كنت أعلم ذلك قبل ذلك، ولكن الآن قد ظهر هذا القسم من اليقين به، ويفهم من هذا الكلام أيضاً: أنّه لم يكن لمشربه مناسبةٌ بالتوحيد الوجوديّ في آخر الأمر، وإن كان قد ظهر مثل هذا التَّوحيد في ابتداء الحال، فليس ذلك بضائرٍ، بل قد ظهر مثلُ هذا التَّوحيد لكثيرٍ من المشائخ في ابتداء أمرهم، ثم انقلعوا عنه في الآخر. وأيضاً إنَّ بين طريق الخواجه النقشبند وطريق الخواجه أحرار........

فرقًا ومغايرةً بعد الوصول إلى مقام الجذبة النقشبنديَّة، وكذلك بين علومهما ومعارفهما أيضًا فرقٌ، وغالبُ توجّه الخواجه أحرار بعد ذلك إلى نسبة أجداده من طرف أمّه، وكانوا كبراء بطنًا بعد بطنٍ، وهذا الفناءُ والانعدامُ الذي ذُكِرَ فيما سبق من لوازم نسبة هؤلاء الأكابر، وهذا الفقيرُ اختار لتربية الطَّالبين طريقَ حضرة الخواجه النَّقشبند لمصلحة أبناء هذا الوقت، ورأيتُ المناسبَ ظهورَ علوم هذا الطَّريق ومعارفه التي هي أكثرُ مناسبةً بعلوم الشَّريعة في مثل هذا الزمان الفاسد الذي ظهر فيه ضعفٌ تامٌّ في أركان الشَّريعة، فعيَّنتُ هذا الطَّريق لإفادة الطالبين، فلو أراد الحقُّ سبحانه ترويج الطَّريقة الأحرارية بواسطة هذا الحقير؛ لنوَّرَ العالمَ بأنوارها، فإنِّي قد أُعطيتُ أنوارَ كلٍّ من هذين الشَّيخين المعظَّمين على وجه الكمال، وكُشِفَ عن طريق تكميل كلٍّ منهما ﴿اَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّٰهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَٓاءُۜ وَاللّٰهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾: (شعر)

مَلِيكٌ مِنْ عِنَايَتِهِ ولُطْفِهِ لَأَعْطَى لِلفَقِيرِ العَالَمِينَا

آخر: فإِذَا أَتَى بَابَ العَجُوزِ خَلِيفَةٌ إِيَّاكَ يَا صَاحِ ونَتْفَ سِبَالِكَا

وقد أوردت بعض الأسرار الخفية بحكم: ﴿وَاَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] في معرض الظُّهور، نفع الحقُّ سبحانه الطالبين بها، وإنِّي وإن كنت أعلم أنَّها لا تزيد المنكرين غير الإنكار، ولكنَّ المقصودَ إفادةُ الطالبين، والمنكرون خارجون عن المبحث، ومبعدون عن مطمح النظر ﴿يُضِلُّ بِه۪ كَث۪يرًا وَيَهْد۪ي بِه۪ كَث۪يرًاۜ﴾ [البقرة: ٢٦]. ولا يخفى على أرباب البصيرة أنَّ اختيارَ طريقٍ من الطرق لأجل مصلحةٍ لا يستلزم أفضليّة هذا الطَّريق على طريق آخر، ولا يلزم منه تنقيصُه: (شعر)

وَيُمْكِنُ غَلْقُ أَبْوَابُ الحُصُونِ وَلَكِنْ لَا نَجَاةَ مِنَ الكَلَامِ

المكتوب الثاني والتسعون والمائتان

إلى الشَّيخ حَميدِ البَنْگالِيِّ في بيانِ الآدابِ الضَّروريَّة للمرِيدين، ودفعِ بعضِ الشُّبه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أدَّبنا بالآداب النبويَّة، وهذَّبنا بالأخلاق المصطفويَّة، عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام وأزكى التحية. اعلم أنَّ سالكي هذا الطَّريق لا يخلون عن أحد الحالين: إما أن يكونوا مريدين، وإما أن يكونوا مرادين، فإن كانوا مرادين؛ فطوبى لهم يوصل بهم إلى المطلب الأعلى من طريق الانجذاب والمحبَّة من غير اختيارٍ، ويعلَّمون كلَّ أدبٍ لازمٍ بواسطةٍ أو بلا واسطةٍ، فإن صدرتْ عنهم زلّةٌ؛ ينبَّهون عليها سريعًا، ولا يؤاخذون بها، فإن احتاجوا إلى شيخٍ ظاهرٍ يهتدون إليه من غير سعيٍ منهم. وبالجملة إنَّ العنايةَ الأزليَّةَ متكفِّلةٌ لحال هؤلاء الأكابر، ولا بُدَّ من حصول أمرهم بسببٍ أو بلا سببٍ، و﴿اَللّٰهُ يَجْتَب۪ٓي اِلَيْهِ مَنْ يَشَٓاءُ﴾ [الشورى: ١٣]. وإن كانوا مريدين؛ فأمرهم من غير شيخٍ كاملٍ مكملٍ عسيرٌ، والشَّيخُ ينبغي أن يكون مشرَّفًا بدولة الجذبة والسلوك، ومستسعداً بسعادة الفناء والبقاء، وأن يكون قد أتم السَّيرَ إلى الله، والسيرَ في الله، والسيرَ عن الله بالله، والسيرَ في الأشياء بالله. فإن كانت جذبتُه مقدمةً على سلوكه، وتربَّى بتربية المرادين؛ فهو كبريتٌ أحمرُ، كلامُه دواءٌ، ونظرُه شفاءٌ، إحياءُ القلوب الميتة منوطٌ بتوجّهه الشَّريف، وتزكيةُ النفوس العاتية مربوطةٌ بالتفاته اللطيف، فإن لم يوجد..

صاحبُ دولةٍ مثل ذلك؛ فالسَّالكُ المجذوبُ أيضـاً مغتنمٌ يحصل منه تربية الناقصين، ويصلون بوساطته إلى دولة الفناء والبقاء: (شعر) مَتَى قِسْنَـا السَّـمَا بِالعَرْشِ يَنْحَطُّ وَمَـا أَعْـلَاهُ إِنْ قِسْـنَـا بِـأَرْضٍ

فإن اهتدى الطالبُ بعناية الحقّ جل سلطانه إلى مثل هذا الشَّيخ الكامل المكمّل، ووصل إليه؛ ينبغي أن يغتنم وجوده، وأن يفوِّض نفسه إليه بالتمام، وأن يعتقد سعادته في مرضياته وشقاوته في خلاف مرضيَّاته. وبالجملة ينبغي أن يجعل هواه تابعاً لرضاه، وفي الخبر النبوي عليه الصلاة والسلام: «**لَنْ يُؤْمِنَ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَابِعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ**»[1].

اعلم أنَّ رعايةَ آداب الصُّحبة ومراعاةَ شرائطها من ضروريَّات هذا الطَّريق، حتى يكون طريق الإفادة والاستفادة مفتوحاً، وبدونها لا نتيجةَ للصُّحبة، ولا ثمرة للمجالسة، ولنورد بعض الآداب والشرائط الضروريَّة في معرض البيان، ينبغي استماعها بسمع العقل.

اعلم أنَّه ينبغي للطالب أن يعرضَ بقلبه عن جميع الجهات، وأن يتوجّه به إلى شيخه، وأن لا يشتغل بالنوافل والأذكار مع وجود الشَّيخ بلا إذنه، ولا يلتفت في حضوره إلى غيره، بل يجلس لديه متوجّهاً بكليَّته إليه، حتى لا يشتغل عنده بالذِّكْر أيضـاً إلا أن يأمره به، ولا يصلي في حضوره غيرَ الفرائض والسنن، ونقل عن سلطان هذا الوقت: أنَّ وزيره كان قائماً عنده، فالتفت الوزيرُ في ذلك الوقت اتِّفاقاً إلى ثوبه، وأصلح أزراره بيده، فوقع نظرُ السُّلطان عليه في هذا الحال، فرآه متوجّهاً إلى غيره، فقال له بلسان العتاب: أنا لا أقدر أن أهضم هذا الفعلَ، تكون وزيري، وتلتفت في حضوري إلى غيري، وتشتغل بإصلاح أزرار ثوبك. فينبغي التأمُّل، إذا كانت رعايةُ الآداب الدَّقيقة لازمةً في وسائل الدنيا الدنيَّة؛ تكون رعايةُ الآداب لازمةً على الوجه الأتمّ في وسائل الوصول إلى الله، ومهما أمكن لا يقوم في محلٍّ يقع ظلُّه على ثوب شيخه أو على ظلِّه، ولا يضع رِجلَه في مصلاه، ولا يتوضَّأ في متوضاه، ولا يستعمل ظروفَه الخاصَّةَ به، ولا يشرب ماءً، ولا يأكل طعاماً، ولا يكلّم أحداً في حضوره، بل لا يكون متوجّهاً إلى أحدٍ، ولا يمدُّ رجلَه عند غيبة شيخه إلى جانبٍ هو فيه، ولا يرمي بزاقه إلى ذلك الجانب، وكلُّ شيءٍ يصدر عن شيخه يعتقده صواباً، وإن لم ير صواباً في الظَّاهر، فإنَّه يفعل ما يفعله بطريق الإلهام والإذن، فلا يكون للاعتراض مجالٌ على هذا التَّقدير، وإن تطرَّق الخطأُ إلى إلهامه في بعض الصُّور؛ فإنَّ الخطأَ الإلهاميَّ كالخطأ الاجتهاديّ لا يجوز فيه الملامةُ والاعتراضُ. وأيضـاً إنَّ المريدَ لا بُدَّ من أن يحصل له محبَّةُ الشَّيخ، وكلَّما يصدر عن المحبوب يكون محبوباً في نظر المحبّ، فلا يكون للاعتراض مجالٌ. وليقتد بشيخه في الكليّ والجزئيّ، سواءٌ كان في الأكل والشرب أو اللبس أو النوم أو الطاعة، وينبغي أن يصلي الصلاة على طرز صلاته، وأن يأخذ الفقهَ من عمله: (شعر)

مَنْ كَانَ فِي قَصْـرِهِ الحَسْـنَاءُ قَدْ فَرَغَا مِنَ التَّـنَـزُّهِ فِي البُسْـتَـانِ والـمَرْجِ

ولا يترك في نفسه مجالاً للاعتراض على حركاته وسكناته أصلاً، وإن كان الاعتراضُ مقدار حبَّة خردلةٍ؛ فإنَّه لا نتيجةَ للاعتراض غير الحرمان، وأشقى جميع الخلائق وأبعدُهم عن السعادة: الذين يرون عيوب هذه الطَّائفة، نجّانا الله سبحانه من هذا البلاء العظيم.

ولا يطلب من شيخه الكرامات وخوارقَ العادات، وإن كان هذا الطَّلبُ بطريق الخواطر والوساوس، فهل.........

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ١٢)، والخطيب في «تاريخه» (٦/ ٢٠)، والبغوي في «شرح السنة» (١/ ٢١٢- ٢١٣) من حديث عبد الله بن عمرو ﵄. قال الحافظ ابن حجر: أخرجه الحسن بن سفيان وغيره، ورجاله ثقات، وقد صححه النووي في آخر الأربعين. «فتح الباري»: (١٣/ ٢٨٩).

سمعت قطُ أنَّ مؤمناً طلب من نبيه معجزةً؟ وإنَّما طلبها الكفارُ وأهلُ الإنكار: (شعر)

الـمُـعْـجِـزَاتُ مُـفِـيـدَةٌ قَـهْـرَ الـعِـدَا ... ونَـتِـيـجَـةُ الـتَّـقْـلِـيـدِ ذَاكَ الِاقْـتِـدَا

مَـا الـمُـعْـجِزَاتُ مُـفِـيـدَةُ الإِيـمَـانِ بَـلْ ... قَـدْ يَـجْـذِبُ التَّـقْـلِـيـدُ نَـحْـوَ الِاهْـتِـدَا

فإن عرضتْ لخاطره شبهةٌ؛ يعرضها على شيخه من غير توقُّفٍ، فإن لم تنحلَّ؛ فلير التَّقصيرَ من نفسه، ولا يجوز عودُ منقصةٍ أصلاً إلى جانب شيخه، فإن وقعت عليه واقعةٌ لا يكتمها عن شيخه، ويطلب تعبيرَ الوقائع منه، ويعرض عليه أيضاً ما انكشف له من التَّعبير، ويطلب منه تمييزَ صوابه عن خطائه، ولا يعتمد على كشوفه أصلاً، فإنَّ الحقَّ ممتزجٌ بالباطل في هذه الدَّار، والصَّوابَ مختلطٌ بالخطأ، ولا يفارقه بلا ضرورةٍ ولا إذنٍ منه، فإن اختيارَ الغير وتفضيلَه عليه منافٍ للإرادة، ولا يرفع صوته فوق صوته، ولا يتكلّم معه برفع صوته، فإنَّه سوءُ أدبٍ، وكلُّ فيضٍ وفتوحٍ يردُ عليه؛ فليعتقد أنَّه بواسطة شيخه، فإن رأى في الواقعة أنَّ الفيضَ يرد عليه من مشائخ أخرَ؛ فليره أيضاً من شيخه. وليعلم أنَّ الشَّيخَ لما كان جامعاً للكمالات والفيوضات وصل إليه منه فيضٌ خاصٌّ مناسبٌ لاستعداده الخاصّ الملائم لكمال شيخٍ من الشيوخ، أعني: الذي ظهرت منه صورة الإفاضة، وأنَّ لطيفةً من لطائف شيخه لها مناسبةٌ بذلك الفيض ظهرت في صورة ذلك الشَّيخ، فتخيَّلَ المريدُ تلك اللطيفةَ بواسطة الابتلاء شيخاً، وظنَّ أنَّ الفيضَ منه، وهذه مغلطةٌ عظيمةٌ. حفظنا الله من زلَّة الأقدام، ورزقنا الاستقامةَ على اعتقاد الشَّيخ ومحبَّته، بحرمة سيد البشر عليه وعلى آله الصلاة والسلام.

وبالجملة: (الطَّريقُ كلُّه آدابٌ) مثلٌ مشهورٌ، لا يصل العاري عن الآداب إلى الله تعالى، فإن رأى المريدُ نفسه مقصِّراً في رعاية بعض الآداب، ولم يبلغ حدّ أدائها كما ينبغي، ولم يقدر أن يخرج عن عهدتها بالسَّعْي؛ فهو معفوٌّ عنه، ولكن لا بُدَّ من الاعتراف بالتَّقصير، فإن لم يراعِ الآدابَ - عياذاً بالله سبحانه -، ولم ير نفسه مقصّراً؛ فهو محرومٌ من بركات هؤلاء الأكابر: (شعر)

مَنْ لَمْ يَكُنْ نَحْوَ السَّـعَادَةِ مُقْبِلاً ... فشُـهُـودُهُ وَجْهَ النَّبِيِّ لَا يَـنْـفَـعُـهْ

نعم، إذا وصل المريدُ ببركة توجّه الشَّيخ وهمَّته إلى مرتبة الفناء والبقاء، وظهر له طريقُ الإلهام والفراسة، وسلَّم له الشَّيخ ذلك وصدَّقه، وشهد له بالكمال والإكمال؛ فحينئذٍ يسوغُ لمثل هذا المريد أن يخالف شيخه في بعض الأمور الإلهاميَّة، وأن يعمل بمقتضى إلهامه، وإن تحقّق عند الشَّيخ خلافُه، فإنَّ المريدَ قد خرج حينئذٍ عن ربقة التَّقليد، والتَّقليدُ خطأٌ في حقّه، ألا ترى أنَّ الأصحابَ الكرامَ خالفوا رأيَ النبيّ ﷺ في الأمور الاجتهاديَّة والأحكام الغير المنزلة، وظهر الصوابُ في بعض الأوقات في جانب الأصحاب، كما لا يخفى على أرباب العلم أولي الألباب. فعلم أنَّ مخالفةَ الشَّيخ بعد الوصول إلى مرتبة الكمال والإكمال مجوَّزٌ، وعن سوء الأدب مبرَّأٌ، بل الأدبُ هنا هو هذه المخالفةُ، وإلا فأصحابُ النبيّ ﷺ كانوا مؤدبين بكمال الأدب، لم يفعلوا شيئاً بلا تقليدٍ، وتقليدُ أبي يوسف أبا حنيفة رحمهما الله تعالى بعد بلوغه مرتبة الاجتهاد خطأٌ، والصوابُ إنّما هو متابعةُ رأيه، لا رأي أبي حنيفة، وقد اشتهر عن الإمام أبي يوسف رحمه الله أنه قال: نازعتُ أبا حنيفة في مسألة خلق القرآن ستةَ أشهرٍ، ولعلك سمعت أنَّ تكميل الصناعة بتلاحق الأفكار، فإنَّها لو بقيت على فكرٍ واحدٍ؛ لَمَا حصلت فيها.........................

الزيادةُ، ألا ترى أنَّ النحوَ الذي كان في زمن سيبويه حصل له اليوم باختلاف الآراء وتلاحق الأفكار والأنظار زيادةُ مائة أمثاله، وبلغ نهايةَ كماله؟ ولكن لَمّا كان هو واضعَ بنائه ومؤسِّسَ أساسه كان الفضلُ له، الفضلُ للمتقدمين، ولكنَّ الكمالَ لهؤلاء المتأخرين، «**مَثَلُ أُمَّتِي مَثَلُ الْمَطَرِ، لَا يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ**» حديثٌ نبويٌّ، عليه وعلى آله الصلاة والسلام.

تنبيهٌ لرفع شبهة بعض المريدين: اعلم أنَّهم قالوا: الشَّيخ يحيي ويميتُ، الإحياءُ والإماتةُ من لوازم مقام المشيخة، والمرادُ بالإحياء: الإحياءُ الروحيُّ لا الجسميُّ، وكذلك المرادُ بالإماتة الروحيَّة لا الجسميَّة، والمرادُ بالحياة والموت: الفناءُ والبقاءُ اللذان يوصلان إلى مقام الولاية والكمال، والشَّيخُ المقتدى به متكفِّلٌ بهذين الأمرين بإذن الله سبحانه، فلا بُدَّ إذاً للشَّيخ من هذين، فمعنى: يحيي ويميت: يبقي ويفني، ولا دخل للإحياء والإماتة في مقام المشيخة، وحكمُ الشَّيخ المقتدى به كحكم كهرباء، كلُّ من له مناسبةٌ به يعدو من ورائه، وينجذب إليه، كالحشيش بالنِّسبة إلى كهرباء، وينال منه نصيبه مستوفىً، وليست الكراماتُ وخوارقُ العادات لجذب المريدين، فإنَّ المريدين ينجذبون إليه بالمناسبة المعنويَّة، وأما الذين لا مناسبةَ لهم بهؤلاء الأكابر؛ فهم محرومون من نِعَم كمالاتهم، وإن شاهدوا ألوفاً من كراماتهم، ينبغي أن يستشهد لهذا المعنى بأبي جهل وأبي لهب، قال الله سبحانه في حق الكفار: ﴿**وَاِنْ يَرَوْا كُلَّ اٰيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَاۜ حَتّٰى اِذَا جَٓاؤُ۫كَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذ۪ينَ كَفَرُوٓا اِنْ هٰذَٓا اِلَّٓا اَسَاط۪يرُ الْاَوَّل۪ينَ**﴾ [الأنعام: ٢٥]. والسلام.

المكتوب الثالث والتسعون والمائتان

إلى الشَّيخ محمَّدٍ الچتْريِّ في جوابِ سُؤالِه عن قولِه عليه الصَّلاة والسَّلام: «لِي مَعَ اللهِ وَقْتٌ»، وقالَه أَبُو ذرٍّ الغِفاريُّ أيضاً، وعن قولِ الشَّيخِ عبدِ القادرِ الجَيلانِيِّ قدَّس سرُّه: قَدَمي هذه على رقبَةِ كلِّ وليٍّ. وقالَه غيرُه أيضاً، وهلِ المُراد بكلِّ وليٍّ أولياءُ عَصرِه، أو مُطلقاً؟ وما يناسِبه.

﴿**اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ وَسَلَامٌ عَلٰى عِبَادِهِ الَّذ۪ينَ اصْطَفٰىۜ**﴾ [النمل: ٥٩].

قد صرت مبتهجاً ومسروراً بورود الصحيفة الشريفة التي أرسلتها، يا لها من نعمةٍ يذكر أولياءُ الله تعالى المنقطعين المهجورين، وقد اندرج فيها أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لِي مَعَ اللهِ وَقْتٌ**»، وقال أبو ذر الغفاريُّ ﵁ أيضاً مثلَ ذلك، وقال الشَّيخ محيي الدين عبد القادر الجيلانيّ قدس سره: قدمي هذه على رقبةِ كلِّ وليٍّ. وقال آخرُ مثل ذلك، وقد تكون في هذين الكلامين منازعةٌ في بعض الأحيان، فنرجو من عنايتكم كتابةَ ما انطوى في هذين الكلامين من المعنى، والفرق بينهما، وإرساله إلينا، ولتكن الكتابةُ بالتوجّه التامّ مشتملةً ما لها وما عليها من الكلام، وواضحةً لتكون قريبةً من فهم هذا الغريب.

أيُّها المخدومُ، إنَّ هذا الفقيرَ قد كتب في رسائله: أنَّ رسول الله ﷺ كان له وقتٌ نادرٌ مع وجود استمرار الوقت، وأنَّ ذلك الوقتَ النادرَ كان في حين أداء الصلاة، ولعلك سمعت: «**الصَّلَاةُ مِعْرَاجُ الْمُؤْمِنِ**»، و«**أَرِحْنِي يَا بِلَالُ**» شاهدُ عدلٍ في إثبات هذا المطلب، ويمكن أن يكون أبو ذر الغفاريُّ أيضاً مشرّفاً بهذه الدَّولة بطريق الوراثة والتبعيّة، فإنَّ لكُمَّل تابعيه عليه الصلاة والسلام نصيباً وافراً وحظّاً كاملاً من جميع كمالاته ﷺ بطريق الوراثة.

وأما ما قال حضرة الشَّيخ عبد القادر الجيلانيّ قدس سره: قدمي هذه على رقبة.........

كلّ وليٍّ لله أو جميع الأولياء؟ فقد جعل صاحبُ «العوارف» الذي هو مريدُ الشَّيخ أبي النجيب السهروردي ومربَّاه وكان من محارم الشَّيخ عبد القادر ومصاحبيه: هذه الكلمةُ من الكلمات التي صدرت عن المشائخ في بداية الأحوال بواسطة بقايا السُّكر، ونقل في «النفحات» عن الشَّيخ حمَّاد الذي هو من شيوخ حضرة الشَّيخ عبد القادر الجيلانِيّ أنه قال بطريق الفراسة: إنَّ لهذا العجميّ قَدَماً تكون في وقته على رَقَبَة جميع الأولياء، ويكون مأموراً ألبتّة بأن يقول: قدمي هذه على رقبة كلّ وليّ لله، ويقول ذلك ألبتّة، ويضع الأولياءُ جميعُهم رقابَهم - يعني: تواضعاً وتخضّعاً -، وعلى كلّ حالٍ إنَّ حضرة الشَّيخ محقٌّ في هذا الكلام، سواءٌ صدر عنه من بقايا السُّكر أو حالة الصحو، وسواءٌ كان مأموراً بإظهاره أو لا، فإنَّ قدمه كانت على رقاب جميع الأولياء في ذلك الوقت، وكان أولياءُ ذلك الوقت جميعهم تحت قدمه، ولكن ينبغي أن يعلم أنَّ هذا الحكمَ مخصوصٌ بأولياء ذلك الوقت دون الأولياء المتقدمين عليه والمتأخرين عنه، فإنَّهم خارجون عن هذا الحكم كما يفهم من كلام الشَّيخ حمَّاد: أنَّ قدمه تكون في وقته على رقبة جميع الأولياء.

وأيضاً إنَّه كان في بغداد غوثٌ، فذهب الشَّيخ عبد القادر وابن السقا وعبد الله[1] لزيارته، فقال ذلك الغوثُ بطريق الفراسة في حقّ الشَّيخ: كأنّي أراك تصعد المنبرَ في بغداد، وتقول: قدمي هذه على رقبةِ كلِّ وليّ لله، وأرى أولياء وقتك يضعون رقابهم ويخفضونها إجلالاً لك وإكراماً، ويفهم من كلام هذا الغوث أيضاً: أنَّ هذا الحكمَ كان مخصوصاً بأولياء ذلك الوقت، فإذا أعطى الحقّ سبحانه في هذا الوقت أيضاً شخصاً بصراً بصيراً يرى مثل ما رأى ذلك الغوث أنَّ رقابَ أولياء ذلك الوقت تحت قدمه، وأنَّ هذا الحكمَ لا يتجاوز إلى غير أولياء ذلك الوقت، وكيف يجوز هذا الحكمُ في الأولياء المتقدمين، فإنَّ فيهم الأصحاب الكرام عليهم الرضوان، وهم أفضلُ من حضرة الشَّيخ بيقينٍ؟ وكيف يتمشَّى أيضاً في المتأخرين، فإنَّ فيهم المهديَّ الذي بشَّر النبيُّ عليه الصلاة والسلام بقدومه ووجوده، وقال: إنَّه خليفةُ الله[2]، وكذلك عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام الذي هو من الأنبياء أولي العزم من السابقين، وملحقٌ بأصحاب خاتم الرسل بمتابعة شريعته عليه الصلاة والسلام؟

ولعلّ وجهَ ما قاله النبي ﷺ: **«لَا يُدْرَى أَوَّلُهُمْ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُمْ»** هو جلالةُ شأن متأخري هذه الأمة.

وبالجملة إنَّ لحضرة الشَّيخ عبد القادر في الولاية شأناً عظيماً، ودرجةً عليا أوصل الولايةَ الخاصّةَ المحمديَّةَ من طريق السرِّ إلى النقطة الأخيرة، وصار رأسَ حلقة تلك الدائرة. لا يتوهَّم هنا أنَّ الشَّيخ إذا كان رأسَ حلقة دائرة الولاية المحمدية ينبغي أن يكون أفضلَ من جميع الأولياء، فإنَّ الولايةَ المحمديَّةَ فوق جميع ولايات الأنبياء على نبينا وعليهم الصلاة والسلام؛ لأنّا نقول: إنَّه رأسُ حلقة الولاية المحمديَّة الحاصلة من طريق السرّ كما مرّ، لا رأسُ حلقة تلك الولاية مطلقاً حتى يلزم الأفضليّةُ. أو نقول: إنَّ كونَ رأس حلقة الولاية المحمديَّة مطلقاً ليس بمستلزمٍ للأفضليّة؛ لأنَّه يمكن أن يكون غيرُه أسبقَ قدماً منه في كمالات النبوَّة المحمديَّة بطريق التبعيَّة والوراثة، فتثبت الأفضليّةُ له من جهة تلك الكمالات، وفي جماعةٍ من مريدي حضرة الشَّيخ عبد القادر غلوٌّ كثيرٌ في حقّه، وتجاوزٌ إلى جانب الإفراط في المحبّة، مثل محبي علي كرم الله وجهه المفرطين فيه، ويفهم من فحوى كلام هؤلاء الجماعة وكلماتهم: أنَّهم يعتقدون الشَّيخَ أفضل من جميع الأولياء المتقدمين والمتأخرين، ولا يعلم أنَّهم يفضِّلون عليه أحداً غير الأنبياء عليهم..........................

(١) وهو أبو سعيد عبد الله ابن أبي عصرون إمام الشافعية في وقته، وهو الذي نقل هذه الحكاية بطولها على ما في «الفتاوى الحديثية» لابن حجر. (المعرِّب)

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٠٨٤) من حديث ثوبان ﷺ، قال البوصيري: (هذا إسناد صحيح رجاله ثقات). «مصباح الزجاجة»: (٤/ ٢٠٤).

الصلاة والسلام، وهذا من إفراط المحبّة.

فإن قيل: إنَّ الكراماتِ وخوارقَ العادات التي ظهرت من حضرة الشَّيخ لم تظهر من وليٍّ أصلاً، فيكون الفضلُ له.

قلت: إنَّ كثرةَ ظهور الخوارق لا دلالةَ فيها على الأفضليّة، بل يمكن أن يكون الذي لم يظهر منه خارقٌ أصلاً أفضلُ من الذي ظهرت منه خوارقُ وكراماتٌ، قال شيخُ الشيوخ في «العوارف» بعد ذكر الكرامات وخوارق المشائخ للعادات: وكلُّ هذه مواهبُ الله تعالى، وقد يكاشَفُ بها قومٌ ويعطى، وقد يكون فوق هؤلاء من لا يكون له شيءٌ من هذا؛ لأنَّ هذه كلَّها تقويةُ اليقين، ومن مُنِحَ صِرْفَ اليقين؛ لا حاجةَ له إلى شيءٍ من هذا، فكلُّ هذه الكرامات دون ما ذكرناه من تجوهر الذِّكْر في القلب، وجعلُ كثرة ظهور الخوارق دليلاً على الأفضليّة كجعل كثرة فضائل علي كرم الله وجهه ومناقبه دليلاً على أفضليّته على الصِّدِّيق ﷺ، فإنَّه لم يظهر منه هذا القدرُ من الفضائل والمناقب.

اسمع أيها الأخُ، إنَّ خوارقَ العادات على نوعين:

النوعُ الأوّلُ: العلومُ والمعارفُ الإلهيّةُ التي تتعلّق بذات الواجب جلّ وعلا وصفاته وأفعاله، وراءَ طَوْر نظر العقل، وخلاف المتعارف المعتاد، وجعل الحقُّ سبحانه عباده الخاصَّةَ ممتازين بها.

والنوعُ الثَّانِي: كشفُ صُوَر المخلوقات، والإخبارُ عن المغيبات التي تتعلّق بالعالم. والنوعُ الأوّلُ مخصوصٌ بأهل الحقّ وأرباب المعرفة، والنوعُ الثّاني شاملٌ للمحقّ والمبطل، فإنَّه حاصلٌ لأهل الاستدراج أيضـًا، والنوعُ الأوّلُ له شرافةٌ واعتبارٌ عند الحق جلّ وعلا؛ لكونه مخصوصـًا بأوليائه، وعدم مشاركة أعدائه فيه، والنوعُ الثّاني معتبرٌ عند عوامّ الخلائق، ومعزَّزٌ ومكرّمٌ عند أنظارهم، حتى لو ظهر ذلك من أهل الاستدراج يكادون، يعبدونه من جهلهم، ويطيعونه وينقادون له فيما يأمرهم به من رطب ويابسٍ وينهاهم، بل المحجوبون لا يعدُّون النوعَ الأوّلَ من الخوارق والكرامات، والخوارقُ منحصرةٌ عندهم في النوع الثّاني، والكراماتُ مخصوصةٌ عندهم بكشف صور المخلوقات والإخبار عن المغيبات، ما أبعدهم عن العقل، أيُّ شرافةٍ وأيُّ كرامةٍ في علمٍ يتعلّق بأحوال المخلوقات حاضرةً كانت أو غائبةً؟ بل الأليقُ والأنسبُ أن يبدَّل مثلُ هذا العلم جهلاً ليحصل نسيانُ المخلوقات وأحوالها، واللائقُ بالشرافة والكرامة هو معرفةُ الحقّ تعالى وتقدس، وهي المستحقّةُ للإعزاز والاحترام:

(شعر) وَمَلِيحَةٍ مَهْجُورَةٌ ودَمِيمَةٍ مَقْبُولَةٌ ... مِنْ أَجْلِ ذَا عَقْلِي عَطِلُ

غيره: وَرُبَّ مَلِيحٍ لَا يُحَبُّ وَضِدُّهُ ... يُقَبَّلُ مِنْهُ العَيْنُ والخَدُّ والفَمُ

وقريبٌ مما ذكرنا ما قال شيخُ الإسلام الهرويُّ والإمامُ الأنصاريُّ في «منازل السائرين» وشارحه: والذي ثبت عندي بالتَّجربة: أنَّ فراسةَ أهل المعرفة إنّما هي في تميّزهم من يصلح لحضرة الله جلّ وعلا ممن لا يصلحُ، ويعرفون أهلَ الاستعداد الذين اشتغلوا بالله سبحانه، ووصلوا إلى حضرة الجمع، وهذه فراسةُ أهل المعرفة، وأما فراسةُ أهل الرِّياضة بالجوع والخَلْوة وتصفية الباطن من غير وصلةٍ إلى جانب الحقّ تعالى؛ فلهم فراسةُ كشف الصُّوَر، والإخبار بالمغيَّبات المختصَّة بالخلق، فإنَّهم لا يخبرون إلا عن الخلق؛ لأنَّهم محجوبون عن الحق سبحانه، وأما أهلُ المعرفة؛ فلاشتغالهم بما يرد عليهم من معارف الحقّ تعالى لا يكون إخبارهم........

إلا عن الحقّ تعالى، ولَمّا كان العالمُ أكثرُهم أهلَ انقطاعٍ عن الله سبحانه، واشتغالٍ بالدنيا؛ مالتْ قلوبُهم إلى أهل كشف الصور والإخبار عما غاب من أحوال المخلوقات، فعظَّموهم، واعتقدوا أنَّهم أهلُ الله وخاصَّتُه، وأعرضوا عن كشف أهل الحقيقة، واتَّهموهم فيما يخبرون عن الله سبحانه، وقالوا: لو كان هؤلاء أهلَ الحقّ - كما يزعمون -؛ لأخبرونا عن أحوالنا وأحوال المخلوقات، وإذا كانوا لا يقدرون على كشف أحوال المخلوقات؛ فكيف يقدرون على كشف أمورٍ أعلى من هذه؟ وكذَّبوهم بهذا القياس الفاسد، وعميت عليهم الأنباءُ الصحيحةُ، ولم يعلموا أنَّ اللهَ تعالى قد حمى هؤلاء عن ملاحظة الخلق، وخصَّهم وشغلهم عما سواه حمايةً لهم، وغيرةً عليهم، ولو كانوا ممن يتعرَّضُ لأحوال الخلق ما صلحوا للحقّ سبحانه، وقد رأينا أهلَ الحقّ إذا التفتوا أدنى التفاتٍ إلى كشف الصور أدركوا منها ما لا يقدر غيرهم على إدراكه بالفراسة التي يُثبِتُها أهل المعرفة، وهي الفراسةُ فيما يتعلّق بالحقّ سبحانه وما يقرب منه، وأما فراسةُ أهل الصفاء الخارجين المتعلّقين بالخلق؛ فلا يتعلّق بجناب الحقّ سبحانه، ولا ما يقرب منه، ويشترك المسلمون والنصارى واليهودُ وسائرُ الطوائف فيها؛ لأنَّها ليست شريفةً عند الله سبحانه، فيختصُّ بها أهله.

المَكتُوبُ الرَّابِعُ وَالتِّسعُونَ وَالمِائَتَانِ

إلى المخدومِ جامعِ العلومِ الظَّاهريَّةِ والأسرارِ الباطنيَّةِ، مَجدِ الدِّين الخواجه محمَّد معصومٍ سلَّمه اللهُ تعالى في بيانِ ما يتعلَّق بصفاتِ الحقِّ سُبحانَه الثَّمانِ، وفي تحقيقِ مبادئِ تعيُّناتِ الأنبياءِ عليهمُ السَّلام، ومبادئِ تعيُّناتِ سائرِ الخلائقِ، وما يتعلَّق بذلك، وفي الفرقِ بينَ تَجلِّياتِ الأنبياءِ والأولياءِ وشهودِهم، وتحقيقِ الوصلِ العُريانِ لكُمَّلِ الأتباعِ معَ وجودِ وساطةِ الأنبياءِ عليهمُ السَّلام، وفي تحقيقِ ألفاظِ المحوِ والاضمِحلالِ الواقِعةِ في عبارةِ المشائخ قدَّس الله أسرارَهُم، وما يُناسِب ذلك.

اعلم أنَّ صفاتِ واجب الوجود تعالى وتقدّس الثمان الحقيقيَّةَ التي أوَّلها الحياةُ وآخرها التَّكوينُ على ثلاثة أقسام: قسمٌ تعلّقُه بالعالم أغلبُ، وإضافتُه إلى الخلق أكثرُ، كالتكوين، ومن ههنا أنكر جماعةٌ من أهل السنة والجماعة وجودها، وقالوا: إنَّها من الصِّفات الإضافيَّة، والحقُّ: أنَّها من الصِّفات الحقيقية الغالبة عليها الإضافةُ، وقسمٌ آخرُ: ما فيه الإضافةُ، ولكنَّها أقلُّ بالنِّسبة إلى القسم السابق، كالعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام، والقسمُ الثّالثُ هو أعلى الاقسام الثلاثة لا تعلّق له بالعالم بوجهٍ من الوجوه، وليس فيه رائحةٌ من الإضافة، كالحياة، وهذه الصفةُ أجمعُ الصِّفات، وأصلُ الكلّ وأسبقُها، وأقربُ إليها صفةُ العلم التي هي مبدأُ تعيّن خاتم الرسل عليه وعليهم الصلاة والسلام، وبقيَّةُ الصِّفات مبادئُ تعيّنات خلائق أخرَ، ولَمّا كان لكلِّ صفةٍ باعتبار تعلّقاتٍ متعدِّدةٍ جزئياتٌ؛ فإنَّ التَّكوينَ مثلاً له باعتبار تعلّقات شتّى جزئيات، وهي التَّخليقُ والترزيقُ والإحياءُ والإماتةُ؛ كانت تلك الجزئياتُ مثلَ كلياتها مبادئَ تعيّنات الخلائق، وكلُّ من كان مبدأُ تعيّنه كليّاً؛ تكون أربابُ تعيّنات مبادئها جزئياتِ ذلك الكليّ أتباعاً لذلك الشَّخص، ومعاشرين تحت قدمه، ومن ههنا تسمعهم يقولون: إنَّ فلاناً تحت قدم محمد، وفلاناً تحت قدم موسى، وفلاناً تحت قدم عيسى عليهم الصلاة والسلام. فإذا حصل لتلك الجزئيات ترقٍّ بطريق السُّلوك؛ تكون ملحقةً بكلياتها، ويكون شهودُ........

الجزئيات شهودَ الكليات، ويكون الفرقُ بالأصالة والتبعيَّة، والامتيازُ بوجود التوسُّط وعدمه، فإنَّ ما يجده التَّابعُ ويراه لا يمكن أن يكون بدون توسُّط الأصل، وربَّما لا يعلم التابعُ من قصوره الأصلَ متوسطاً، ولكنَّ الأصلَ حائلٌ في الحقيقة بين التابع ومشهوده، لا أنَّه حائلٌ مانعٌ عن الشُّهود، بل هو باعثٌ على الشُّهود كالمنظر الصافي، ولا يجوز أن يترقّى جزئياتُ كليٍّ إلى غيره، بأن تخرج منه، وتدخل تحت كليٍّ آخر، ويكون مشهودها مشهودَ ذلك الكليّ الآخر، مثل: أن ينتقل الذين كانوا تحت قدم موسى مثلاً إلى تحت قدم عيسى، ولكن يمكن أن يدخلوا تحت قدم محمد، بل هم تحت قدمه ﷺ دائماً، فإنّ ربّ محمد رب الأرباب، وأصلُ جميع تلك الكليات، فيكون بالنِّسبة على تلك الجزئيات أصلَ الأصل، وكأنَّ هذا الترقِّي إلى أصل الأصل، لا إلى أصلٍ مباينٍ لأصلها، والفرقُ حينئذٍ بين الجزئيات وبين كلياتها: هو أنَّ للجزئيِّ حائلين: أحدهما: أصلُه الذي هو كليٌّ له، وثانيهما: أصلُ الأصل، والكليُّ الذي هو أصلُ ذلك الجزئيّ، حجابُه أصلُ الأصل فقط. فعلم من هذا أنَّ شهودَ محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله بلا حجاب التعيّنات، وشهودَ غيره في حجب التعيّنات، ولا أقلَّ من أن يكون في حجاب التعيّن المحمديّ، ومن ههنا قالوا: إنَّ تجلِّي الذَّات من خاصة محمد رسول الله ﷺ، وتجلِّي غيره في حجب الصِّفات، ولا أقلَّ من أن يكون في حجاب رب الأرباب، فإنَّ ربّ محمد فوق جميع الأسماء والصِّفات سوى صفة الحياة.

فإن قيل: يلزم على هذا البيان أنَّ شهودَ سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في حجاب مبدأ التعيّن المحمديّ الذي هو ربّه، وشهودَ أولياء أمته الذين هم تحت قدمه ﷺ بالأصالة أيضاً في حجاب رب الأرباب كشهود سائر الأنبياء، فما الفرقُ بين شهود سائر الأنبياء وبين شهود أولياء أمته عليه الصلاة والسلام؟

قلت: إنَّ للأنبياء عليهم السلام شهوداً آخر غيرَ هذا الشُّهود الذي هو في حجاب الحقيقة المحمديَّة، حصل لهم ذلك الشُّهودُ من طريق مبادئ تعيّناتهم، يشاهدون منه غيبَ الغيب بالأصالة، واضعين مناظرهم المخصوصةَ بهم على أبصار بصائرهم، ينبغي أن يعلم أنَّ حصولَ هذين الشُّهودين ليس هو بمعنى: أنَّهما يتحقّقان معاً، بل بمعنى: أنَّ الترقِّي إذا بلغ أصلَ الأصل؛ فشهودُه في حجاب الحقيقة المحمديَّة كعيسى على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام، حيث إنَّه يشرَّفُ بهذه الدَّولة بعد نزوله، وهذا الترقِّي متعسِّرٌ جداً، بل قريبٌ من الاستحالة، لا بُدَّ من الفضل العظيم من طرف الله تعالى، وفي عالم الأسباب لا بدَّ من شفقة الشَّيخ المحمدي المشرب، فإن لم يترقَّ من أصله، ولم ينفكَّ من حقيقته، ولم يصل إلى حقيقة الحقائق؛ فشهودُه إنّما هو في حقيقته المخصوصة به.

اعلم وتنبَّه كما أنَّ إلى حضرة ذات الحق تعالى وتقدس طريقاً من حقيقة الحقائق يوصل منه إليه تعالى بعد منازل كثيرةٍ؛ كذلك من سائر الحقائق الكليات أيضاً طريقٌ إليها يحصل الوصولُ منه إليه تعالى وتقدس بعد طيِّ مراحلَ متكثرةٍ.

غَايةُ ما فِي البابِ: أنَّ في طريق حقيقة الحقائق الوصل العريان، وفي سائر الطُّرق - وإن تيسّر وصلُ الذات - ولكنَّ الحجابَ الرقيقَ كالغلالة من منتهى أصول حقيقة الحقائق العالية التي هي الحقيقة المحمديَّة حائلٌ في البين، وهو وإن لم يكن حاجزاً حصيناً ومانعاً متيناً، ولكن صارت حاجزيَّتُه مانعةً عن إطلاق التجلِّي الذاتيّ، وإلا؛ فلسائر الأنبياء عليهم السلام أيضاً نصيبٌ من الذات تعالت وتقدست بالأصالة، ولكُمَّل أممهم أيضاً بتبعيتهم.

فإن قيل: إذا كانت صفةُ الحياة فوق صفة العلم كان تعيّنُ صفة الحياة في طريق حقيقة الحقائق أيضاً................

حائلاً، فكيف يكون فيه الوصلُ العريانُ؟ وكيف يكون فيه التجلّي الذاتيُّ؟

أجيبُ: إنَّ ذلك التعيّنَ كَلا تعيّنٍ؛ لأنَّه يصير ممحوّاً ومتلاشياً في المرتبة الفوقانيَّة، ولا يبقى له اعتبارٌ في مرتبة الذات أصلاً، وسائرُ الصِّفات وإن لم يكن لها أيضاً اعتبارٌ في مرتبة الذات، ولكنَّها قبل وصولها إلى مرتبة الذات تتلاشى بنوعٍ ما، بخلاف صفة الحياة، فإنَّها تصل إلى مرتبة الذات، ثم تتلاشى فيها، ولهذا كان تعيّنُ الحقيقة المحمديَّة وسائر تعيّنات الخلائق دائماً، وصار زوالها في مرتبةٍ من المراتب محالاً. نعم، إنَّ الوصولَ إلى شيءٍ غير الاضمحلال فيه. وما وقع في عبارة بعض المشائخ قدس الله أسرارهم من لفظ المحو والاضمحلال؛ فالمرادُ به: المحوُ النظريُّ، لا المحوُ العينيُّ، يعني: يرتفع تعيّنُ السَّالك عن نظره، لا أنَّه يصير ممحوّاً في نفس الأمر، فإنَّه إلحادٌ وزندقةٌ. وحمل بعض ناقصي أرباب هذا الطَّريق هذه الألفاظَ الموهمةَ على المحو والاضمحلال العينيّ، ووصلوا به إلى الزندقة، وأنكروا الثوابَ والعذابَ الأخرويين، وتخيَّلوا أنَّهم يعودون من الكثرة إلى الوحدة مرةً أخرى، كما وردوا من الوحدة إلى الكثرة أوَّل مرةٍ، وزعموا أنَّ تلك الكثرةَ تصير مضمحلَّةً في الوحدة، وخالَ بعض هؤلاء الزنادقة ذلك الانمحاءَ والاضمحلالَ قيامةً كبرى، وأنكر الحشرَ والنشرَ والحسابَ والصراطَ والميزان، ضلُّوا فأضلوا كثيراً من الناس. ورأيتُ شخصاً من هؤلاء الجماعة يستشهد لمطلبه بشعر مولانا عبد الرحمن الجامي قدس سره هذا:

(شعر) جامى معاد و مبدأ ما وحدت است و بس ما در ميانه كثرتِ موهوم، والسلام والسلام.

(ترجمة): مَا مَبْدَأٌ ولَا مَعَادٌ صَاحِ إِلَّا وَحْدَةٌ مَا نَحْنُ فِي ذَا البَيْنِ إِلَّا كَثْرَةٌ مَوْهُومَةٌ

ولم يعلموا أنَّ مرادَ مولانا الجامي بهذا البيت: العودُ والرجوعُ إلى الوحدة باعتبار النَّظَر والشُّهود، يعني: لا يبقى المشهودُ غيرَ الذات الأحد، وتختفي الكثرةُ عن النظر بالتمام، لا الرجوعُ العينيُّ والعودُ الوجوديُّ، ولعل بهم عمىً. أما يرون أنَّه لم يزل العجزُ والنقصُ والاحتياجُ عن كاملٍ أصلاً؟ فما يكون معنى الرجوع الوجوديّ إلى الوحدة؟ فإن تخيَّلوا أنَّ هذا الرُّجوعَ إنّما يكون بعد الموت؛ فهم كفارٌ وزنادقةٌ، حيث ينكرون العذابَ الأخرويَّ، ويبطلون دعوةَ الأنبياء عليهم السلام.

فإن قيل: أنت قد كتبت في بعض رسائلك: أنَّ فناءَ الأخفى مخصوصٌ بالولاية المحمديَّة، فما معنى هذا الكلام؟

أجيب: قد علم من التحقيق السابق: أنَّ الوصلَ العريانَ مخصوصٌ بالولاية المحمديَّة، وأنَّ ما سواها وإن ارتفعت فيها الحجبُ، ولكن لا بُدَّ من حيلولة حجابٍ رقيقٍ كالغلالة حاصل من توسُّط الحقيقة المحمديَّة كما مر، فالأخفى الذي هو نهايةُ المراتب الإنسانيَّة في العلوِّ تبقى منه بقيَّةٌ على قدر تلك الحيلولة، فلا يجوز إطلاقُ الفناء المطلق فيه بملاحظة تلك البقية، ومن الذي يجدُ بقاءَ تلك البقية غير المحمديّ المشرب؟ بل إن حصلتْ حدَّةُ النَّظْر هذه لواحدٍ من ألوفٍ من المحمدي المشرب؛ فهو أيضاً مغتنمٌ، فإنَّ مشائخ الطبقات تكلّم أكثرُهم إلى الرُّوح والسرّ، لا يدرى هل تكلّم أحدٌ عن الخفي أو لا؟ فكيف عن الأخفى؟ والذي خاض في بحر الأخفى، وأدرك كلَّ ذرَّةٍ من ذراته، واطَّلع عليها؛ فهو كبريتٌ أحمرُ ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

فإن قيل: إنَّ اعتقادَك هو أنَّ كلَّما يحصل للنبي عليه وعلى آله الصلاة والسلام من الكمالات يكون منها............

نصيبٌ لكُمَّل أتباعه أيضـاً بطريق التبعية، فيلزم منه أن يكون من الوصل العريان نصيبٌ لهم أيضاً، والحالُ أنَّ النبي ﷺ حائلٌ في البين.

أجيب: إنَّ حيلولةَ النبيّ لا تضرُّ في الوصل العريان، فإنَّ ذلك الوصلَ بالتبعيَّة لا بالأصالة، فالحيلولةُ تكون مؤكِّدةً للتبعية لا منافيةً لها، فإنَّ معنى التبعيَّة تحقّقُ المتوسط لا ارتفاعُه، فإنَّه مناسبٌ للأصالة، فتثبت الحيلولةُ، ويحصل الوصلُ العريانُ أيضـاً بالتبعيَّة. فافهم.

فإن قيل: ما وجهُ إطلاق الوصل العريان والتجلِّي الذاتِيّ في مادّة كُمَّل أتباعه ﷺ، وعدم تجويز هذا الإطلاق في حق سائر الأنبياء عليهم السلام؟ وما الفرقُ بينهما مع أنَّ حيلولة نبينا ﷺ حاصلةٌ في كلا المادتين؟

أجيب: إنَّ تجويزَ هذا الإطلاق في موادّ كُمَّل الأتباع باعتبار التبعيَّة، فإنَّ توسُّطَ نبيٍّ ليس بمنافٍ لهذا الإطلاق كما مرّ، بخلاف سائر الأنبياء عليهم السلام، فإنَّه لو جُوِّزَ هذا الإطلاقُ في حقهم؛ يكون باعتبار الأصالة، فإنَّ هؤلاء الأكابر قطعوا المنازل بالأصالة، ووصلوا إلى حضرة الذات تعالت وتقدست، ولا شكَّ أنَّ حصول المتوسِّط وتحقّقَه في صورة الأصالة يكون منافياً لذلك الإطلاق، فصار الفرقُ واضحاً.

ينبغي أن يعلم أنَّ فرق الأصالة والتبعيَّة فيما بين الأنبياء المتقدمين وكُمَّل أولياء هذه الأمة موجبٌ لأفضليّة الأنبياء عليهم السلام، فإنَّ الأصلَ مقصوديٌّ، والتابعَ طفيليٌّ، وإن صحَّ إطلاقُ الوصل العريان والتجلِّي الذاتِيّ في مادَّة الأتباع، ولم يصحَّ ذلك الإطلاقُ في المتبوعين - يعني: الأنبياء عليهم السلام -، ولكن ما قدرُ طفيليٍّ في جنب المقصوديّ حتى يدَّعى التساوي له؟ وكيف يتصور المساواةُ؟ فإنَّ تلك الدَّولة في الأصل على الوجه الأتمّ والأكمل، وفي التابع على وجه الاسم والرسم، ولكنَّ هذه المناسبةَ تصحِّحُ النِّسبةَ، وتجعل التابع كالمتبوع، ولهذا قال خاتم الرسل عليه وعليهم الصلاة والسلام: «**عُلَمَاءُ أُمَّتِي كَأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ**». فلاح من هذا البيان واتضح: أنَّ حصول التجلِّي الذاتِيّ لأولياء هذه الأمَّة لا يكون موهمـاً لفضلهم على الأنبياء الذين ليس فيهم التجلِّي الذاتيُّ. فافهم، فإنَّه من مزلة الأقدام، وأنصِفْ، فإنَّ هذه العلوم مما استأثر الله سبحانه هذا العبدَ بها بحرمة حبيبه محمد عليه وعلى آله الصلاة والسلام.

فإن قيل: المقرَّرُ أنَّ المقصودَ من خلق العالم: هو خاتمُ الرسل عليه وعليهم الصلاة والسلام، وغيرُه طفيليٌّ في نفس الوجود، وفي حصول الكمالات، ويصلون إلى الدَّرجات العلى بتبعيته، ولهذا يكون آدمُ ومن دونه تحت لوائه، وأنت تقول: إنَّ دولة الوصول لسائر الأنبياء عليهم السلام بطريق الأصالة، لا بطريق التبعية، فما وجه ذلك؟

قلت: كما أنَّ لمحمد رسول الله ﷺ طريقـاً من حقيقته إلى حضرة الذات تعالت وتقدست؛ كذلك لسائر الأنبياء عليهم السلام أيضـاً من حقائقهم طرقٌ إلى حضرة الذات تعالى شأنها لا تبعيَّةَ فيهم في هذا الوصول، بخلاف الأمم، فإنَّهم يصلون إلى المطلب بتبعية الأنبياء من طريق حقائقهم المناسب لاستعداد كلٍّ منهم، والأصالةُ مفقودةٌ في حقِّهم.

غَايَةُ مَا فِي البَابِ: أنَّ وصول سائر الأنبياء عليهم السلام وإن كان بالأصالة، ولكنَّه ليس بوصلٍ عريانٍ، فإنَّ حقيقةَ خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام صارت حجاباً رقيقـاً عن المطلوب، فكلُّ فيضٍ واردٌ يتَّصل بهذه الحقيقة أوّلاً بالضَّرورة، ثم يصل بتوسُّطها إلى الآخرين، ومعنى التبعيَّة: حصولُ هذا التوسُّط، فتلك الأصالةُ لا تنافِي........

لهذه التبعيَّة. ينبغي حسنُ التأمُّل: أنَّ التبعيَّة التي ثبتت في حقهم وراء تلك التبعية، فإنَّها منافيةٌ للأصالة كما مر غير مرةٍ، فافترقا.

فإن قيل: هل في مراتب العروج نصيبٌ للكُمَّل من مرتبة صفة الحياة أو لا؟

قلت: نعم.

فإن قيل: قد مر: أنَّ نهايةَ هذه الصفة اضمحلالٌ وتلاشٍ في حضرة الذات تعالت وتقدست، فما يكون نصيبُ الكمل من مقام المحو والتلاش، وقد قلت فيما سبق: إنَّ تعيّنات الحقائق ليس لها اضمحلالٌ عينيٌّ، فإن كان؛ فنظريٌّ، فإن القولَ بالاضمحلال العينِيّ مفضٍ إلى الزندقة؟

قلت: من أين يلزم في حصول النصيب منها الاضمحلالُ العينيُّ، بل الاضمحلالُ النظريُّ كافٍ فيه، وإن كانت المراتبُ متفاوتةً في ذلك الاضمحلال. فافهم. والله سبحانه أعلم بحقيقة الحال.

والسلام على من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى عليه، وعلى آله من الصلوات أتمها، ومن التسليمات أكملها.

المَكْتُوبُ الخَامِسُ وَالتِّسْعُونَ وَالمِائَتَانِ

إلى الحاجِّ يوسفَ الكَشميرِيِّ في بيانِ النَّظرِ على القَدمِ، وهوش دَردَم، والسَّفرِ في الوطنِ، والخلوَةِ في الجلوةِ التي هيَ أصولُ الطَّريقةِ النَّقشِبَنديَّةِ العَليَّة قدَّس اللهُ أسرارَ أهالِيها.

ينبغي أن يعلم أنَّ واحداً من الأصول المقررة في الطَّريقة النقشبنديَّة قدس الله أسرار مشائخها النَّظرُ على القدم، وليس المرادُ بالنظر على القدم: أنَّه لا ينبغي أن يتجاوز النظرُ القدمَ، وأن يميل إلى الفوق قبل القدم، فإنَّه خلاف الواقع، فإن النَّظر يتفوّق القدمَ، ويتقدَّم عليه دائماً، ويجعل القدمَ رديفه، فإنَّ العروج على مدارج العلى يكون أوَّلاً بالنظر، ثم يصعد بعد ذلك بالقدم، فإذا وصلت القدمُ إلى مرتبة النَّظَر يتفوَّقُ النَّظرُ منها إلى درجةٍ فوقانيةٍ، وتصعد القدمُ أيضاً بتبعيته، ثم يترقَّى النظرُ بعد ذلك من ذلك المقام، ثم تتبعه القدمُ، وعلى هذا القياس. فإن كان المرادُ به: أنَّه لا ينبغي أن يترقَّى النظرُ إلى مقامٍ لا يكون للقدم فيه مجالٌ؛ فهو أيضاً غيرُ واقعٍ، فإنَّه لو لم ينفرد النظرُ بعد تمام السَّير القدميّ يفوت كثيرٌ من مراتب الكمال. بيانه: أنَّ نهايةَ القدم إلى نهاية استعداد السَّالك، بل إلى نهاية استعداد نبي السَّالك على قدمه، لكنَّ القدمَ الأوّلَ بالأصالة، والقدمَ الثّاني بالتبعيَّة، ولا قَدَمَ له فوق مراتب ذلك الاستعداد، ولكن له فيه نظرٌ، فإن حصلت الحدَّةُ لذلك النظر؛ فمنتهاه نهايةُ مراتب نظر ذلك النبي الذي السَّالكُ على قدمه، فإنَّ لكُمَّل أتباع نبيٍّ نصيباً من جميع كمالاته، ولكنَّ القدمَ والنظرَ يتوافقان إلى نهاية مراتب استعداد السَّالك بالأصالة وبالتبعيَّة، وبعد ذلك يعجز القدمُ، ويصعد النظرُ وحده، ويترقَّى إلى نهاية مراتب نظر ذلك النبيّ. فعُلِمَ أنَّ نظرَ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أيضاً يصعد فوق أقدامهم، وأنَّ لكُمَّل أتباعهم أيضاً نصيباً من مقامات أنظارهم، كما أنَّ لهم نصيباً من مقامات أقدامهم. وفوق قدم خاتم الرسل عليه وعليهم الصلاة والسلام مقامُ الرؤية التي هي موعودةٌ لغيره في الآخرة، فما هو نسيئةٌ لغيره نقدٌ له، ولكُمَّل أتباعه من هذا المقام نصيبٌ وإن لم يكن رؤيةٌ: (شعر)

خَلِيلَيَّ مَا هَذَا بِهَزْلٍ وإنَّمَا عَجِيبُ الْأَحَادِيثِ بَدِيعُ الغَرَائِبِ

ولنرجع إلى أصل الكلام ونقول: فإن كان المرادُ به: أنَّه ينبغي أن يتخلَّف القدمُ عن النظر على وجهٍ لا تصل إلى مقام النظر في وقت من الأوقات؛ فحسنٌ، فإنَّ هذا المعنى ليس بمانعٍ للترقِّي، وكذلك إذا كان المرادُ بالنظر والقدم النظرَ والقدمَ الظَّاهريان؛ فله مجالٌ، فإنَّ النظرَ تحصل له التفرقةُ وقت........................

المشي، ويتشتَّتُ بالوقوع على محسوساتٍ متلونةٍ، فإن نُصِبَ النَّظرُ إلى القدم يكون أقربَ إلى الجمعيَّة، وهذا المرادُ مناسبٌ لمعنى كلمة هي قرينه، وهي هذه (هوش دردم) يعني: العقل في النَّفس.

غايةُ ما فِي البابِ: أنَّ الكلمةَ الأولى لدفع تفرقةٍ منبعثةٍ عن الآفاق، والكلمةَ الثّانيةَ لدفع التفرقة الأنفسيّة، والكلمةَ الثّالثةَ التي هي قرينُ هاتين الكلمتين كلمةُ: السَّفر في الوطن، وهي عبارةٌ عن السَّير في الأنفس الذي هو منشأُ حصول اندراج النهاية في البداية الذي هو مخصوصٌ بهذه الطَّريقة العليّة، والسيرُ في الأنفس وإن كان في جميع الطرق، ولكنَّه في سائر الطرق بعد حصول السَّير الآفاقيّ، بخلاف هذا الطَّريق، فإنَّ فيه الشُّروعَ من هذا السَّير، والسيرُ الآفاقيُّ مندرجٌ في ضمنه. فلو قلنا: إنَّ في هذا الطَّريق اندراجَ البداية في النهاية بهذا الاعتبار أيضـاً؛ لساغ.

والكلمةُ الرّابعةُ التي هي قرين هذه الكلمات الثلاث: كلمةُ الخلوةُ في الجلوة، ومتى تيسّر السفرُ في الوطن يسافر في خلوة الوطن أيضـاً في نفس الجلوة، ولا تتطرَّقُ تفرقةُ الآفاق إلى حجرة الأنفس، وهذا أيضـاً على تقدير غلق أبواب الحجرة وسدّ جميع روزنتها وكُوَّتها، فينبغي أن لا يكون في جلوة التَّفرقة متكلّماً ولا مخاطباً ولا ملتفتاً إلى أحدٍ، وكلُّ هذه التَّمحُّلات والتكلّفات في البداية والوسط، وأما في النِّهاية؛ فلا شيءَ يلزم منها أصلاً، فإنَّ المنتهي متَّصفٌ بالجمعيَّة في نفس التَّفرقة، وبالحضور في عين الغفلة، ولا يظنُّ من هنا أنَّ التَّفرقةَ وعدم التَّفرقة متساويان في حق جمعيَّة المنتهي مطلقـاً، فإنَّه ليس كذلك، بل المرادُ: أنَّهما متساويان في جمعيَّة الباطن، ومع ذلك لو جمع ظاهره مع باطنه، ودفع التفرقةَ عن ظاهره أيضـاً؛ يكون أولى وأنسبَ، قال الله سبحانه وتعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ [المزمل: ٨].

ينبغي أن يعلم أنَّه لا بدَّ في بعض الأوقات من تفرقة الظَّاهر لأداء حقوق الحقّ، فتكون تفرقةُ الظَّاهر في بعض الأوقات مستحسنةً أيضـاً، وأما تفرقةُ الباطن؛ فليست بمستحسنةٍ في وقت من الأوقات، فإنَّه خالصُ حقّ الله سبحانه، فيكون ثلاث حصصٍ من العبد المسلم لأجل الحقّ سبحانه: تمامُ الباطن، ونصفُ الظَّاهر، وبقي النصفُ الآخرُ من الظَّاهر لأداء حقوق الخلق، ولما كان في أداء تلك الحقوق امتثال أوامر الحق سبحانه؛ صار ذلك النصفُ أيضـاً راجعـاً إلى الحق سبحانه وتعالى، ﴿إِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ﴾ [هود: ١٢٣].

المكتوب السادس والتسعون والمائتان

إلى المَخدومِ الخواجه محمَّد سعيدٍ قدِّس سرُّه في بساطَة صفاتِ الحقِّ جلَّ وعلا، ونفيِ تعدُّدِ تعلُّقها بالأشياءِ.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وآله الطاهرين أجمعين. اعلم أنَّ صفاتِ الواجب تعالى وتقدس كذاته تعالى منزَّهةٌ عن الشّبه والمثال، وبسائطُ حقيقيّةٌ. مثلاً: إنَّ صفةَ العلم انكشافٌ واحدٌ بسيطٌ تنكشف المعلوماتُ الأزليَّةُ والأبديّةُ بهذا الانكشاف الواحد، وكذلك قدرةٌ واحدةٌ كاملةٌ بسيطةٌ توجد المقدرواتُ الأزليَّةُ والأبديّةُ بواسطتها، وكذلك كلامٌ واحدٌ بسيطٌ، وهو سبحانه متكلّمٌ بهذا الكلام من الأزل إلى الأبد، وعلى هذا القياس في سائر الصِّفات الحقيقية، والتعدُّدُ الحاصلُ من تعلّق العلم والقدرة بالمعلومات والمقدروات أيضـاً مفقودٌ في تلك المرتبة، والأشياءُ معلومةُ الحقّ سبحانه ومقدورتُه، ولكن لا تعلّقَ لصفة العلم والقدرة بها أصلاً، وهذه المعرفةُ........

وراء طَوْر نظر العقل، وأربابُ العقول لا يجوِّزُون مثل هذا المعنى أصلاً، ويعدُّون عدم تعلّق العلم والقدرة بالأشياء مع كونها معلومةَ الحقّ سبحانه ومقدورتَه محالاً، ألم يعلموا أنَّ الأزلَ والأبدَ حاضرٌ في تلك المرتبة، بل لا مجال للآن فيها أيضاً سوى التعبير به؛ لكونه أقرب الشيء وأوفقه بها؟ ومعلوماتُ الأزل والأبد حاضرةٌ في ذلك الآن، وفي ذلك الآن الحاضر يعلم الحقُّ سبحانه زيداً مثلاً معدوماً وموجوداً، وجنيناً وصبياً وشاباً وشيخاً، وحياً وميتاً، وكائناً في البرزخ والحشر، والنار والجنة، ومعلومٌ أنَّه لا تعلّقَ لذلك الآن بهذه الأطوار أصلاً، فإنَّه لو حصل له تعلّقٌ؛ لخرج عن كونه آناً، ويسمى: زماناً، ويصير ماضياً ومستقبلاً، فهذه الأطوارُ ثابتةٌ في ذلك الآن وغيرُ ثابتةٍ، فعلى هذا لو ثبت انكشافٌ بسيطٌ حقيقيٌّ لا يكون له تعلّقٌ بواحدٍ من المعلومات، ويكون جميعُ المعلومات منكشفةً بهذا الانكشاف الواحد، فأيُّ عجبٍ فيه؟ فإنَّ استحالةَ جمع الضدين مفقودةٌ في ذلك الموطن، فإنَّها مشروطةٌ باتِّحاد الزمان والجهة، ولا مجالَ هنا للزمان؛ إذ لا يجري عليه سبحانه زمانٌ، واتحادُ الجهة أيضاً مفقودٌ؛ للفرق بالإجمال والتَّفصيل، وهذا كمن يقول: أنا أرى الاسمَ والفعلَ والحرفَ التي كلُّ واحد منها قسيمٌ للآخر متَّحداً بعضها ببعضٍ في مرتبة الكلمة في آنٍ واحدٍ، وأجد المنصرفَ غيرَ منصرفٍ، والمبنيَّ عينَ معربٍ، ويقول: ومع وجود هذه الجامعية لا تعلّقَ للكلمة بواحدٍ من هذه الأقسام، ومستغنية عنها بالتمام. لا ينكر أحدٌ من العقلاء على هذا الشَّخص، ولا يستبعدون كلامه، فلِمَ يستبعدون ما نحن فيه، ويتوقفون عن قبوله؟ ولله المثل الأعلى.

فإن قيل: لم يقل أحدٌ مثل هذا الكلام.

قلتُ: ما الضررُ فيه، فإنَّه وإن لم يقل به أحدٌ، ولكنَّه ليس بمخالفٍ لكلام الآخرين، وليس أيضاً مما لا يناسب لمرتبة الوجوب تعالت وتقدست: (ع) كُلْ أَنْتَ خِرْبَزَةً وَالْغَيْرُ فَالُوذَجَا

والمثالُ الذي يمكن إيرادُه في المخلوقات لتوضيح هذه المعرفة هو أنَّهم قالوا: إنَّ العلمَ بالعلَّة مستلزمٌ للعلم بالمعلول، والمدركةُ متوجّهةٌ في هذه الصُّورة بالأصالة إلى العلَّة، ومتعلّقةٌ بها، ويحصل العلم بالمعلول بتبعية العلم بالعلَّة من غير تجدُّدِ تعلّقٍ آخر به، ولكنَّ أربابَ المعقول لا يجوِّزون معلوميةَ المعلول في هذه الصورة أيضاً من غير تعلّق العلم بالمعلول في مرتبةٍ ثانيةٍ، وإن لم يكن ذلك التعلّقُ بالأصالة، ولكن لا يعلم وجودُ مثالٍ أقرب من هذا المثال، والمقصودُ التوضيحُ، لا الإثباتُ. والله تعالى أعلم بحقائق الأمور كلها. والسلام على من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى، عليه وعلى آله الصلوات والتحيات المباركات.

المكتوب السابع والتسعون والمائتان

إلى مولانا بدرِ الدِّينِ في تَحقيقِ إحاطةِ الحقِّ وسرَيانِه سبحانَه وتعالى، وتوضيحِ ذلك بأمثلةٍ، وبيانِ رِعاية حِفظِ المراتِب الوُجوبيَّة والإمكانيَّة.

اعلم أنَّ إحاطةَ الحقّ سبحانه بالأشياء وسريانه فيها كإحاطة المجمل بالمفصَّل وسريانه فيه، كالكلمة مثلاً ساريةٌ في جميع أقسامها من الاسم والفعل والحرف، وكذا في أقسام الأقسام من الماضي والمضارع، والأمر والنَّهي، والمصدر واسم الفاعل واسم المفعول، والمستثنى المنقطع والمتَّصل، والحال والتمييز، والثلاثي والرباعي والخماسي، والحروف الجارة والناصبة، والحروف المختصة بالأفعال والحروف المختصة بالأسماء، والحروف الداخلة عليهما، إلى غير .....

ذلك من الأسماء الحاصلة من التقسيمات الغير المتناهية، فهذه الأقسامُ كلُّها ليست غيرَ الكلمة، بل هذه اعتباراتٌ مندرجةٌ تحت الكلمة، ما زاد في تفصيلها وتمييزها عن الكلمة وتمييز بعضها عن بعضٍ شيءٌ إلا اعتبار العقل، وفي الخارج ليست إلا الكلمة، ولهذا صحَّ الحملُ، ولكن لكلِّ مرتبةٍ من المراتب اسمٌ يختصُّ هو بها، وأحكامٌ لا توجد في غيرها. مثلاً: الدالُّ على المعنى بالاستقلال مع الاقتران بالزمان فعلٌ، وبغير الاقتران اسمٌ، وغيرُ الدالّ على المعنى بالاستقلال حرفٌ، وكذا المقترن بالزمان الماضي فعلٌ ماضٍ، وبالزمان الحال والاستقبال مضارعٌ، وما وجد فيه علتان من العلل التسعة المشهورة فغيرُ منصرفٍ، وإلا فمنصرفٌ، وحروفٌ عملُها الجرُّ جارةٌ، وحروف عملها النصب ناصبةٌ، فإطلاقُ اسم مرتبةٍ على مرتبةٍ أخرى، وإجراءُ أحكام إحداهما على الأخرى، كإطلاق الفعل الماضي على المضارع، والمنصرف على غير المنصرف، والجارة على الناصبة، مع كون المراتب كلّها ليست إلا الكلمة؛ ضلالةٌ وخروجٌ عن الصّراط السويّ.

فنقول - والله سبحانه أعلم -: إنَّ لكلّ مرتبةٍ من مراتب تنزُّل الوجود اسماً مختصّاً بها، وأحكاماً لا توجد إلا فيها، فالوجوبُ الذاتِيُّ والاستغناءُ الذاتِيُّ مختصان بمرتبة الجمع والألوهيّة، والإمكانُ الذاتِيُّ والافتقارُ الذاتِيُّ مختصان بمرتبة الكون والفرق، والمرتبةُ الأولى مرتبةُ الربوبيّة والخالقية، والمرتبةُ الثّانيةُ مرتبةُ العبودية والمخلوقية، فلو أطلق أسامي إحداهما على الأخرى، وأجري الأحكامُ المختصّةُ بمرتبةٍ على مرتبةٍ أخرى؛ لكان زندقةً وكفراً محضاً. والعجبُ من بعض الملاحدة والزنادقة: أنّهم كيف يخلطون المراتب، ويجرون أحكام مرتبةٍ على مرتبةٍ أخرى، فيصفون الممكن بصفات الواجب، والواجبَ بصفات الممكن، مع علمهم بتمايز صفات الممكن الذي هو مرتبةٌ واحدةٌ بعضها عن بعضٍ، واختلاف أحكامهم وعلمهم بعدم زوال تمايزهم، واختلاف أحكامهم أصلاً مع اتحادهم في المرتبة الكونية؟ فإنّهم يعلمون بالبداهة مثلاً أنَّ الحرارةَ والإشراقَ من صفات النار المختصة بها ليست واحدةٌ منها في الماء، ولا يوصف بها الماءُ، وكذا البرودةُ التي اختصت بالماء ليست في النار، وكذا يميزون بالضّرورة بين أزواجهم وأمهاتهم، ويحكمون بتفرقة أحكامهنّ. والله سبحانه الهادي إلى سبيل الرشاد، والسلام على من اتبع الهدى.

المَكتُوبُ الثَّامِنُ وَالتِّسعُونَ وَالمِائَتَانِ

إلى السَّيِّد محبِّ اللهِ المانكپُورِيِّ في بيانِ الوصولِ إلى نهايَة الأمرِ بطَرِيقِ الإشارةِ، ولطيفِ العِبارةِ، ولم يطَّلع على سرِّ هذا المعمَّى أحدٌ غيرُ المَخدومِ الأكبرِ عليه الرَّحمَة والرِّضوان.

اعلم - أرشدك الله - لَمّا كان السَّيرُ مدّةً مديدةً في الظِّلال؛ وجدت الوصولَ إلى الظلّ عينَ الحصول، والآن لَمّا تيسّر الوصولُ إلى الأصل ليس الحصولُ غيرَ الظلّ، كالمرآة الكائنة في يد شخصٍ الواصلة إليه لا نصيبَ له من الشَّخص إلا ظلُّه. فافهم. فإنَّ كلامنا إشارةٌ.

واعلم أنَّ العبارةَ المناسبةَ لبيان الطَّريق التي حُرِّرت بطريق الرمز والإشارة رَأَيتُها مناسبةً لهذا المقام، وجعلتها مندرجةً في هذا المكتوب أيضاً، ينبغي أن يفهما ذكر كثير مأخوذ من شيخ صاحب عرفان المداومة عليه الرجوع إلى فضل الرحمن الوصل العريان والباقي كلهم حسبان. والسلامُ على من اتّبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى، عليه وعلى آله من الصلوات أتمها، ومن التسليمات أكملها.

المكتوبُ التاسعُ والتسعونَ والمائتانِ

إلى الشَّيخ فريدِ الرَّانْهُونيِّ في التَّعزيةِ، والدِّلالةِ على الرِّضا بالقَضاءِ، وبيانِ فضيلةِ المَوتِ بالطَّاعونَ، وأنَّ الفرارَ منه كبيرةٌ كالفرارِ يومَ الزَّحفِ.

بعد الحمد والصلوات، وتبليغ الدَّعوات، ليعلم أنَّ المكتوبَ الشَّريفَ قد وصل، وقد بيّن فيه المصيباتُ، إنا لله وإنا إليه راجعون، ينبغي الصَّبرُ والتحمُّلُ والرضاءُ بالقدر: (شعر)

إنْ كُنْتَ تُؤذِيني فلَسْتُ بِمُعْرِضٍ ... وقَدِ اسْتَطَبْتُ مِنَ الأَعِزَّة ذِلَّتِي

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، وقد هلك في هذا الوباء من شؤم أعمالنا البقراتُ لكثرة اختلاطها بنا، وماتت النساءُ أكثرَ من الرجال، فإنّ تعلّقَ بقاء نوع الإنسان بوجودهنَّ أكثرُ، والذي فَرَّ من الموت في هذا الوباء وسلم؛ فالترابُ على حياته، والذي لم يهربْ ومات؛ فطوبى له، وبشرى له بالشهادة، وقد جزم شيخُ الإسلام ابن الحجر في كتاب «بذل الماعون في فضل الطاعون» بأنَّ الميتَ بالطعن لا يُسْأل؛ لأنّه نظيرُ المقتول في المعركة، وبأنّ الصابرَ في الطاعون محتسباً يعلم أنّه ما يصيبه إلا ما كُتِبَ له، إذا مات فيه بغير الطعن لا يفتن أيضاً؛ لأنه نظيرُ المرابط. كذا ذكره الشَّيخ الأجلُّ السيوطيُّ في كتاب «شرح الصدور بشرح أحوال الموتى والقبور»، وقال: وهو حجّةٌ جداً. والذي لم يهرب ولم يمت من جملة الغزاة والمجاهدين، ومن زمرة الصَّابرين والمبتلين، ولكلّ شخصٍ أجلٌ مسمّىً، لا تقديمَ فيه ولا تأخيرَ، وسلامةُ أكثر الهاربين إنّما هي لعدم مجيء أجلهم، لا أنَّ الفرارَ نجّاهم من الموت، وهلاكُ أكثر الصَّابرين إنّما هو لبلوغ أجلهم، فليس الفرارُ ينجِّي، ولا الاستقرارُ يهلك، وهذا الفرارُ كالفرار يوم الزحف معصيةٌ كبيرةٌ، ومن مكر الله سبحانه حيث يسلم الهاربين، ويهلك الصابرين، ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦]. وقد سمعنا صبركم وتحمُّلكم وإمدادكم وإعانتكم للمسلمين جزاكم الله سبحانه خيراً، ولا يضيقنَّ قلبكم في تربية الأطفال وتحمُّل أذاهم، فإنّ المرجوَّ ترتب أجرٍ جزيلٍ عليه، وماذا أكتب أزيد من ذلك؟ والسلام.

المكتوبُ الثلاثمائة

إلى المخدوم زادَه جامعِ العلومِ العقليّةِ والنّقليّة مجدِ الدِّينِ محمَّد مَعصومٍ سلَّمه اللهُ تعالى، في بيانِ الأسرارِ الغامضةِ والمعارفِ الغريبةِ بلسانِ الرَّمزِ والإشارةِ، واندرجَ فيه أيضاً إيماءٌ من ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]. إذا حصل للإنسان الكامل اسمُ الجامعيّة بعد ما طوى مراتبَ الأسماء والصِّفات بالسَّير التَّفصيليّ، وصار مرآةً لكمالات الأسماء والصِّفات الإلهيّة جلّ سلطانه، واختفى عدمه الذاتيُّ الذي هو مرآةٌ تلك الكمالات بالتمام، ولم يكن فيه شيءٌ غير تلك الكمالات ظاهراً؛ ففي هذا الزمان يتشرَّفُ بالبقاء الخاصّ الذي هو منوطٌ بتلك الكمالات بعد حصول الفناء التامّ الذي هو مربوطٌ باختفاء عدمه، ويصدق عليه اسمُ الولاية، وبعد ذلك إذا كانت العنايةُ الأزليةُ شاملةً لحاله؛ يمكن أن تنعكس تلك الكمالاتُ التي كان العارف باقياً بها مرّةً ثانيةً في مرآة حضرة الذات، وأن تظهر فيها، وفي هذا الوقت يظهر سرُّ ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ [النجم: ٩].

ينبغي أن يعلم أنَّ ظهورَ شيءٍ فيها في هذا الموطن كنايةٌ عن حصول نسبةٍ مجهولةٍ للشيء بتلك المرآة، لا أنَّ فيه حقيقةَ المرآة، وحصول الشيء فيها، ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ ....

﴿الْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]. فإذا صارت تلك الكمالاتُ التي كان العارفُ باقياً بها منعكسةً في مرآة جناب القدس بطريق الحقيقة والأصالة، وظهرتْ فيها، وحصلتْ لها فيها النِّسبةُ المجهولةُ الكيفية؛ فلا جرم يطلق حينئذٍ عليها (أنا) الذي كان متعلّقاً بالعارف، وترى نفسها عين تلك الكمالات الظَّاهرة، ونهايةُ عروج (أنا) في مقام ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ إلى هنا.

اسمع أيها الولد، إنَّ مرآةَ الصورة التي ينعكس فيها الحسنُ والجمالُ لو حصل لها فرضاً الحياةُ والعلمُ، يعني: لو أدركت ظهور الحسن والجمال فيها؛ لكانت بالضَّرورة متلذذةً به، ومحتظةً بحظٍّ أوفرَ، وفي مرآة الحقيقة وإن كانت اللذةُ والألمُ مفقودين لكونهما من صفات الإمكان، ولكنَّ الأمرَ اللائقَ بتلك المرتبة العليا المبرأ عن سمات النقص والحدوث كائنٌ وثابتٌ فيها: (شعر)

خَلِيلَيَّ مَا هَذَا بِهَزْلٍ وَإِنَّمَا حَدِيثٌ عَجِيبٌ مِنْ غَرِيبِ البَدَائِعِ

وهذه الكمالاتُ الظَّاهرةُ التي حصلتْ لها في تلك المرتبة النِّسبةُ المجهولةُ الكيفية حكمُها كحكم عالم الخلق الإنسانيِّ بالنِّسبة إلى عالم الأمر، وسرّ «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ» موجودٌ وحاصلٌ هنا، ولَمّا حصلت لهذه الكمالات الظَّاهرة التي هي تفصيلُ إجمال حضرة الذات تعالت وتقدست نسبةٌ مجهولةُ الكيفية بحضرة الإجمال، وتيسّر لها اتِّصالٌ بلا كيفٍ، وصارت مرآةً لحضرة الإجمال؛ ظهر في حضرة الإجمال التَّفصيلُ أيضاً بالضَّرورة بمجرَّد الاعتبار، وبمحض التوهُّم، وصار سبباً لعروج (أنا) العارف، وهذا الكمالُ مربوطٌ بمقام ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾:

(ع) بَلَغَ اليَرَاعُ إِلَى هُنَا فتَكَسَّرَا

وهذا هو بيانُ نهاية النِّهاية وغاية الغاية الذي فهمُه بعيدٌ عن إدراك الخواصّ بمراحل، فماذا تقول من العوامّ؟ والذي اهتدى إلى هذه الدَّولة والمعرفة من أخصّ الخواص أيضاً أقلُّ قليل: (شعر)

وإِذَا أَتَى بَابَ العَجُوزِ خَلِيفَةٌ إِيَّاكَ يَا صَاحِ ونَتْفَ سِبَالِكَا

وهذه النهايةُ باعتبار الظُّهورات والتجلِّيات لا يتصوَّرُ بعد ذلك تجلٍّ ولا ظهور: (شعر)

ومِنْ بَعْدِ هَذَا مَا يَدِقُّ صِفَاتُهُ ومَا كَتْمُهُ أَحْظَى لَدَيَّ وأَجْمَلُ

والسلام على من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى، عليه وعلى آله وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، وعلى آل كلّ والملائكة المقربين، من الصلوات أتمها وأولاها، ومن التسليمات أكملها وأعلاها، ومن التحيات أدومها وأبقاها، ومن البركات أعمها وأشملها.

المكتوب الحادي والثلاثمائة

إلى مولانا أمانِ اللهِ في بيانِ قُربِ النُّبوَّة، وقُربِ الولايةِ، والطُّرقِ الموصلَة إلى قُربِ النُّبوَّة.

بعد الحمد والصلوات، ليعلم ولدي أمان الله أنَّ النبوَّةَ عبارةٌ عن القرب الإلهيّ جلّ سلطانه الذي ليس فيه شائبةُ الظليَّة، وعروجُه ناظرٌ ومتوجّهٌ إلى الحقّ، ونزولُه إلى الخلق، وهذا القربُ نصيبُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالأصالة، وهذا المنصبُ مخصوصٌ بهؤلاء الأكابر عليهم السلام، وخاتمُ هذا المنصب سيدُ البشر ﷺ، ويكون عيسى عليه السلام بعد نزوله تابعاً لشريعة خاتم الرسل.

غايةُ ما في البابِ: أنَّ للأتباع والخُدَّام نصيباً من دولة المتبوعين والمخاديم وحصّتهم، فيكون لكُمَّل الأتباع أيضاً نصيبٌ من قرب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ويكون من علوم ذلك المقام ومعارفه وكمالاته أيضاً نصيبٌ............

لهم بطريق الوراثة:

(ع) وَلِلأَرْضِ مِنْ كَـأْسِ الْكِرَامِ نَصِـيـبُ

فحصولُ كمالات النبوَّة للأتباع بطريق التبعيَّة والوراثة بعد بعثة خاتم الرسل عليه وعليهم الصلاة والسلام ليس بمنافٍ لخاتميَّته ﷺ، فلا تكن من الممترين.

اعلم - أسعدك الله - أنَّ الطَّريقَ الموصلَ إلى كمالات النبوَّة اثنان:

طريقٌ مربوطٌ بطيّ كمالات مقام الولاية مفصَّلةً، ومنوطٌ بحصول التجلِّيات الظليَّة والمعارف السُّكريَّة التي هي مناسبةٌ بقرب الولاية، وبعد طيّ هذه الكمالات وحصول التجلِّيات؛ يوضعُ القدمُ في كمالات النبوَّة، وفي هذا المقام وصولٌ بالأصل، والالتفاتُ إلى الظل ذنبٌ.

والطَّريقُ الثَّانِي: هو الذي يتيسّرُ فيه الوصولُ إلى كمالات النبوَّة بدون توسُّط حصول كمالات الولاية. وهذا الطَّريقُ الثّاني طريقٌ سلطانيٌّ، وأقربُ إلى الوصول، وكلُّ من وصل إلى كمالات النبوَّة - إلا ما شاء الله - وَصَلَ من هذا الطَّريق من الأنبياء العظام والصحابة الكرام بتبعيَّتهم ووراثتهم، والطَّريقُ الأوّلُ بعيدٌ وطويلٌ وعسيرُ الحصول، ومتعذِّرُ الوصول، وقد تخيَّل طائفةٌ من الأولياء في مقام الولاية الذين تشرفوا بشرف النزول أنَّ الكمالات التي تتعلّق بمقام النزول هي كمالاتُ النبوَّة، وظنُّوا التوجّهَ إلى الخلق الذي هو مناسبٌ لمقام الدَّعوة أنَّه من خصائص مقام النبوَّة، وليس كذلك، بل هذا النزولُ كالعروج من مقام الولاية، وفوق مقام الولاية عروجٌ ونزولٌ غير ذينك يتعلّقان بالنبوَّة، وهذا التوجّهُ إلى الخلق غيرُ ذاك التوجّه إلى الخلق الذي هو مناسبٌ لمقام النبوَّة، وهذه الدَّعوةُ غيرُ تلك الدَّعوة التي عدُّوها من كمالات النبوَّة، وماذا يصنعون، فإنَّهم لم يضعوا أقدامهم في خارج دائرة الولاية، ولم يُدْرِكوا حقيقةَ كمالات النبوَّة، وظنُّوا نصفَ الولاية الذي هو جانبُ العروج تمامَ الولاية، وزعموا نصفَها الآخر الذي هو جانبُ النزول مقامَ النبوَّة: (شعر)

وَلَيْسَ لِشَـيْءٍ كَـامِنٍ جَوْفَ صَـخْرَةٍ سِـوَاهَـا سَـمَوَاتٌ لَـدَيْـهِ وَلَا أَرْضُ

ويمكن أن يتيسّر الوصولُ لشخصٍ بالطَّريق الأوّل، ويجمع كمالات الولاية والنبوَّة المفصَّلة، ويحصل له تمييزُ ما بين كمالات هذين المقامين كما ينبغي، ويفرّقُ بين عروج كلٍّ منهما ونزولهما، ويحكم أنَّ نبوّةَ نبيٍّ أفضلُ من ولايته.

ينبغي أن يعلم أنَّ كمالاتِ مقام الولاية المفصلة وإن لم تكن حاصلةً بعد الوصول بالطَّريق الثّاني، ولكنَّ زبدةَ الولاية وخلاصَتَها ميسَّرةٌ بأحسن الوجوه، بحيث يمكن أن يقال: إنَّ أهلَ الولاية حصلوا من كمالات الولاية قشرَها، وهذا الواصلُ حاز لُبَّها. نعم، إنَّ هذا الواصلَ قليلُ النصيب من بعض العلوم السُّكرية والظهورات الظليَّة التي حاصلةٌ لأرباب الولاية، وهذا المعنى ليس بموجبٍ للمزيّة، بل هذه العلومُ والظهوراتُ عيبٌ وعارٌ على ذلك الواصل، بل تليق بأن تعدّها ذنباً وسوءَ أدبٍ. نعم، إنَّ واصلَ الأصل منقبضٌ ومستغفرٌ من ظلال ذلك الأصل، والتعلّقُ بالظل إنّما هو حين عدم الوصول إلى أصل ذلك الظلّ، والتعلّقُ به بعد الوصول إلى أصله من عدم الحاصل والتوجّه إليه سوءُ الأدب.

أيها الولدُ، إنَّ حصولَ كمالات النبوَّة مربوطٌ بموهبةٍ محضةٍ، ومنوطٌ بتكرمةٍ صرفةٍ، لا مدخلَ للتمحُّل وتجشُّم الكسب فيه أصلاً، أيُّ عملٍ وأيُّ كسبٍ يكون منتجاً لهذه الدَّولة العظمى؟ وأيُّ رياضةٍ وأيَّةُ مجاهدةٍ تكون مثمرةً لهذه النّعمة الأسنى؟ بخلاف كمالات الولاية، فإنَّ مبادئها ومقدّماتها كسبيةٌ، وحصولها مربوطٌ بالرياضة والمجاهدة،.........

وإن جاز أن يكون بعضُ الأشخاص مشرَّفاً بهذه الدَّولة أيضاً من غير تجشُّم كسبٍ ومباشرةِ عملٍ، والفناءُ والبقاءُ اللذان الولايةُ عبارةٌ عنهما أيضاً من الموهبة يشرّفُ بهما بعد كسب المقدَّمات بالفضل والكرم كلُّ من أريد له ذلك، ورياضاتُ رسول الله ﷺ ومجاهداتُه قبل البعثة وبعدها لم تكن لتحصيل هذه الدَّولة، بل كان المنظورُ منافعَ وفوائدَ أخر، مثل: قلّة الحساب، وكفارة الزلات البشرية، وارتفاع الدَّرجات، ومراعاة صحبة الملك المرسل الذي هو بريءٌ من الأكل والشرب، وكثرة ظهور الخوارق المناسبة لمقام النبوَّة.

ينبغي أن يعلم أنَّ حصول هذه الموهبة في حق الأنبياء عليهم السلام بلا توسُّطٍ، وفي حق أصحابهم الذين تشرفوا بهذه الدَّولة بالتبعية والوراثة إنّما هو بتوسُّط الأنبياء عليهم السلام، وبعد الأنبياء وأصحابهم قَلَّ من تشرَّف بهذه الدَّولة، وإن كان تشرُّفُهم بها جائزاً: (شعر)

لَوْ جَاءَ مِنْ فَيْضِ رُوحِ القُدْسِ مِنْ مَدَدٍ   غَيْرَ المَسِيحِ لَيَصْنَعْ مِثْلَ مَا صَنَعَا

وأظنُّ أنَّ هذه الدَّولةَ ألقت الظلَّ في كبار التابعين وأكابر تُبَّع التابعين أيضاً، ثم استترتْ بعد ذلك، حتى إذا بلغت النَّوبةُ الألفَ الثّاني من بعثته عليه الصلاة والسلام برزت هذه الدَّولةُ في هذا الوقت أيضاً بالتبعيَّة والوراثة، وجعلت الآخرَ مشابهاً بالأوّل: (شعر)

فَإِذَا أَتَى بَابَ العَجُوزِ خَلِيفَةٌ   إِيَّاكَ يَا صَاحِ وَنَتْفَ سِبَالِكَا

والسلامُ على من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى، عليه، وعلى آله أتم الصلوات، وأكمل التحيات.

المكتوب الثاني والثلاثمائة

إلى المَخدومِ زادَه جامعِ العُلومِ الظَّاهريَّة والباطنيَّة مجدِ الدِّينِ محمَّدٍ معصوم سلَّمه اللهُ تعالى، في بيانِ فَرقِ الولاياتِ الثَّلاثِ، وأنَّ النُّبوَّة أفضلُ منَ الولايةِ، وبعضِ خصائصِ مقامِ النُّبوَّة، وما يُناسب ذلك.

اعلم - أرشدك الله تعالى - أنَّ الولايةَ عبارةٌ عن قربٍ إلهيٍّ لا يتصوَّرُ بلا شائبة الظليَّة، ولا يحصل بدون حيلولة الحجب، فإن كانت ولاية الأولياء؛ فمتسمَّةٌ بسمة الظليّة ألبتَّةَ، وولايةُ الأنبياء وإن كانت خارجةً عن الظليَّة، ولكنَّها غيرُ متحقّقةٍ بدون حيلولة حجب الأسماء والصِّفات، وولايةُ الملأ الأعلى وإن كانت فوق حجب الأسماء والصِّفات، ولكنَّها لا بُدَّ لها من حجب الشؤون والاعتبارات، والتي لم يتطرَّقْ عليها شائبةُ الظليَّة، وتركتْ حجبَ الأسماء والصِّفات في الطَّريق؛ إنّما هي النبوَّةُ والرسالةُ، فتكون النبوَّةُ أفضل من الولاية بالضَّرورة، ويكون قربُ النبوَّة ذاتيّاً وأصليّاً، ومن لم يطَّلع على حقيقتهما؛ حكم بالعكس، وجزم بالقلب، فيكون الوصولُ في مرتبة النبوَّة، والحصولُ في مقام الولاية، فإنَّ الحصولَ لا يتصوَّرُ بدون ملاحظة الظليَّة، بخلاف الوصول. وأيضاً إنَّ في كمال الحصول رفع الاثنينيَّة، وفي كمال الوصول بقاءُ الاثنينية، فرفعُ الاثنينيّة يكون مناسباً لمقام الولاية، وبقاءُ الاثنينية ملائماً لمرتبة النبوَّة، فإذا كان رفعُ الاثنينيّة مناسباً لمقام الولاية يكون السُّكرُ في جميع الوقت لازماً لمقام الولاية بالضَّرورة، وحيث كان في مرتبة النبوَّة بقاءُ الاثنينية يكون الصحوُ من خواصِّ تلك المرتبة. وأيضاً إنَّ......................

حصولَ التجلّيات - سواءٌ كان في كسوة الصور والأشكال، أو في حجب الألوان والأنوار - كلّه في مقامات الولاية، وفي طيّ مقدّماتها ومبادئها، بخلاف مرتبة النبوَّة، فإنَّ في ذلك الموطن وصولاً إلى الأصل، واستغناءً عن التجلّيات والظهورات التي كلُّها ظلالُ ذلك الأصل، وكذلك الاحتياجُ إلى تلك التجلِّيات وقت طيّ مقدَّمات تلك المرتبة ومبادئها، إلا أن يقع العروجُ من طريق الولاية، فحينئذٍ حصول تلك التجلِّيات بواسطة الولاية، لا بواسطة طيّ مسافة طريق الوصول إلى كمالات النبوَّة. وبالجملة إنَّ التجلِّياتِ والظهوراتِ تنبئُ عن الظلال، والذي تخلَّصَ عن التعلّق بالظلال تخلَّصَ عن التجلِّيات، ينبغي أن يطلب سرّ: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ [النجم: ١٧] من ههنا.

أيُّها الولدُ، إنَّ اضطرابَ العشق، وطنطنةَ المحبَّة، والنياحَ المهيجة للشوق والصياح الممتزجة بالتألم والذوق، والوجد والرقص كلَّها في مقامات الظلال، وفي أوان الظهورات والتجلِّيات الظليَّة، وبعد الوصول إلى الأصل لا يتصوَّرُ حصولُ هذه الأمور، والمحبَّةُ في ذلك الموطن بمعنى إرادة الطاعة كما قال العلماءُ، لا أنَّها معنىً زائدٌ عليها منشأ للشوق والذَّوق كما ظنّ بعضُ الصوفيَّة. اسمع أيُّها الولدُ، وحيث كان رفعُ الاثنينيّة مطلوبـاً في مقام الولاية؛ يسعى الأولياءُ في إزالة الإرادة بالضَّرورة، قال الشَّيخ البسطام: أريد أن لا أريد، وحيث كان رفعُ الاثنينيّة غيرَ منظورٍ في مرتبة النبوَّة؛ لم يكن زوال نفس الإرادة مطلوبـاً، وكيف يكون مطلوبـاً، فإنَّ الإرادةَ صفةٌ كاملةٌ في حدّ ذاتها؟ فإن تطرّق النقصُ إليها؛ فإنَّما هو بواسطة خبثِ متعلّقاتها، فينبغي أن لا يكون متعلّقها أمراً خبيثاً وغيرَ مرضيٍّ، بل يكون جميعُ المرادات مرضيَّ الحقّ سبحانه، وكذلك يجتهدون في مقام الولاية في نفي جميع الصِّفات البشرية، والمطلوبُ في مرتبة النبوَّة نفيُ المتعلّقات السُّوء لهذه الصِّفات، لا نفيُ أصل هذه الصِّفات، فإنَّها كاملةٌ في حدّ ذاتها. مثلاً: إنَّ صفةَ العلم من الصِّفات الكاملة، فإن تطرّق إليها نقصٌ؛ فإنما هو من جهة سوء متعلّقها، فكان الضروريُّ نفيَ سوء المتعلّق، لا نفيَ أصلها، وعلى هذا القياس، فالذي وصل إلى مقام النبوَّة من طريق الولاية لا بُدَّ له من نفي أصل الصِّفات في أثناء الطَّريق، والذي وصل إليه بدون توسُّط الولاية لا حاجةَ له إلى نفي أصل الصِّفات، بل ينبغي له نفيُ المتعلّقات السوء لهذه الصِّفات.

ينبغي أن يعلم أنَّ المراد بهذه الولاية المذكورة: الولايةُ الظليَّةُ التي يعبَّرُ عنها بالولاية الصغرى، وولاية الأولياء، وأما ولايةُ الأنبياء التي جاوزت الظلّ؛ فهي غيرُها، والمطلوبُ فيها نفيُ المتعلّقات السوء للصفات البشريَّة، لا نفيُ أصل تلك الصِّفات، فإذا حصل نفيُ متعلّقات السوء للصفات؛ حصلت ولايةُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإن وقع العروجُ بعد ذلك؛ يكون متعلّقـاً بكمالات النبوَّة. فلاح من هذا البيان أنَّه لا بد للنبوَّة من أصل الولاية، فإنَّ الولايةَ من مبادئها ومقدّماتها، وأما الولايةُ الظليّةُ؛ فلا حاجةَ إليها في الوصول إلى كمالات النبوَّة، بل تتَّفق للبعض، ولا يقع العبورُ عليها للبعض الآخر. فافهم.

ولا شكَّ أنَّ نفيَ أصل الصِّفات متعسِّرٌ بالنِّسبة إلى متعلّقاتها السوء، فيكون حصولُ كمالات النبوَّة أهونَ وأيسرَ وأقربَ بالنِّسبة إلى حصول كمالات الولاية، وهذا التَّفاوتُ بالسير والقرب جارٍ في كلّ أمرٍ له وصولٌ إلى الأصل بالنِّسبة إلى أمورٍ مفارقةٍ للأصل، ألا ترى أنَّ كيمياءَ الأصل ميسَّرٌ بسهولة العمل، وحاصلٌ بأقرب.........

الطُّرُق، والذي فارَقَ أصله في محنةٍ وتعبٍ بحيث يفني عمرَه في تحصيله، ومع ذلك لا حاصلَ له غير الحرمان، وما حصله بعد اللّتيّا والتي له شباهةٌ بالأصل، وكثيراً ما تزول عنه تلك الشباهةُ العارضةُ، ويعود إلى أصله، ويؤول إلى الدَّناءة والخباثة، بخلاف واصل أصله، فإنَّه مع وجود سهولة العمل وقرب الطَّريق أمينٌ من خوف الزيوفة والخباثة. ولما وصل جماعةٌ من سلاك هذا الطَّريق بالرياضة الشاقَّة والمجاهدة الشديدة إلى ظلٍّ من الظلال؛ ظنُّوا أنَّ الوصولَ إلى المطلب منوطٌ بالرياضات الشاقة والمجاهدات الشديدة، ولم يعلموا أنَّ له طريقاً آخر أقرب من هذا الطَّريق، وموصل إلى نهاية النهاية، وهو طريقُ الاجتباء الذي هو منوطٌ بمجرد الفضل والكرم، والطَّريقُ الذي اختاره هؤلاء الجماعة هو طريقُ الإنابة مربوطٌ بالمجاهدة، والواصلون من هذا الطَّريق أقلُّ قليل، والواصلون من طريق الاجتباء جمٌّ غفيرٌ، الأنبياء عليهم السلام كلُّهم ساروا على طريق الاجتباء، وأصحابهم رضوان الله عليهم أجمعين أيضاً وصلوا من طريق الاجتباء بالتبعية والوراثة، ورياضاتُ أرباب الاجتباء إنّما هي لأداء شكر نعمة الوصول، قال عليه الصلاة والسلام في جواب السائل عن وجه رياضاته الشديدة مع كون ذنوبه المتقدمة والمتأخرة مغفورةً: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً؟**»[1]، ومجاهداتُ أهل الإنابة لأجل حصول الوصول، شتّان ما بينهما، وطريقُ الاجتباء الحملُ والجذبُ على الطَّريق، وطريقُ الإنابة السَّيرُ على الطَّريق، وبين الجذب والسير فرقٌ عظيمٌ، يجذب سريعاً، ويوصل به بعيداً، والسائرُ يسير بطيئاً، وربما يبقى في الطَّريق. قال حضرة الخواجه بهاء الدين النقشبند قدس سره: نحن المفضّلون. نعم، لولا الفضلُ كيف يمكن أن تكون نهايةُ غيرهم مندرجةً في بدايتهم؟ ﴿**ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾ [الحديد: ٢١].

ولنرجع إلى أصل الكلام ونقول: إنَّ هذا الفقيرَ قد كتب فيما كتب إلى شيخه المعظّم من العرائض أنّه قد ارتفعت جميعُ المرادات، ولكن نفس الإرادة باقيةٌ على حالها، ثم كتب بعد مدَّةٍ أنَّ الإرادةَ أيضاً صارت مرتفعةً مثل المرادات، ولَمّا شرَّفه الحقُّ سبحانه بوراثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ علم أنَّه كان ارتفاع المتعلّق بالسوء لتلك الإرادة وزواله، لا ارتفاع نفس الإرادة، فإنَّه لا يلزم ارتفاعُ أصل الإرادة في حصول ارتفاع المتعلّق السوء على الوجه الأتمّ والأكمل، بل الشيءُ كثيراً ما يتيسّرُ بمجرَّد الفضل، ولا يتيسّر عُشْرُ عشيره بالتعمُّل والتكلّف.

أيُّها الولدُ، ينبغي في مقام الولاية اليأسُ والإعراضُ الكليُّ عن الدنيا والآخرة، وأن يعدَّ التعلّقَ بالآخرة كالتعلّق بالدنيا، وأن يرى شوقَ الآخرة كشوق الدُّنيا غيرَ محمود.

قال الإمام داود الطائيُّ: إن أردت السلامةَ؛ سَلِّم على الدنيا، وإن أردت الكرامةَ؛ كَبِّرْ على الآخرة.

وقال غيره من هذه الطَّائفة: إنَّ في قوله تعالى: ﴿**مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ**﴾ [آل عمران: ١٥٢] الآية شكايةً من الفريقين.

وبالجملة إنَّ الفناءَ الذي هو عبارةٌ عن نسيان ما سوى الحقّ سبحانه شاملٌ للدنيا والآخرة، والفناءُ والبقاءُ كلاهما من أجزاء الولاية، فلا بُدَّ إذاً في الولاية من نسيان الآخرة، والتعلّقُ بالآخرة إنّما هو محمودٌ في كمالات النبوَّة، وشوقُ الآخرة إنّما هو مرضيٌّ فيها، بل الشَّوقُ والخوفُ في ذلك الموطن هو شوقُ الآخرة وخوفُه والتعلّق بالآخرة، قوله تعالى: ﴿**يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا**﴾ [السجدة: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿**وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ**﴾ عذابه[2] [الرعد: ٢١]، وقوله تعالى: و﴿**الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم**﴾..........

---

(١) أخرجه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩) من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ.

(٢) الآية هكذا: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾.

بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٩] أوصافُ أرباب هذا المقام، بكاؤهم وأنينهم من تذكُّر أحوال الآخرة، وألمُهم وحزنُهم من خوف أهوال يوم القيامة، يستعيذون من فتنة القبر على الدوام، ويخافون من عذاب النار، ويلتجئون منه إلى الملك الجبار بالتضرّع التامّ، شوقُ الحق جل وعلا عندهم هو شوقُ الآخرة، ومحبّتُهم محبّةُ الآخرة، فإنَّ اللقاءَ موعودٌ في الآخرة، وكمالَ الرضا أيضاً موقوفٌ على الآخرة، الدنيا مبغوضةُ الحقّ جل وعلا، والآخرةُ مرضيّته، ولا يمكن جعلُ المرضيَّة مساويةً للمبغوضة في وقتٍ من الأوقات، فإنَّ المبغوضةَ لائقةٌ بالإعراض، والمرضيَّةَ مستحقّةٌ للإقبال، والإعراضُ عن المرضيَّة عينُ السُّكر، وخلاف مدعوّه تعالى المرضيّ، وقوله تعالى: ﴿وَاللّٰهُ يَدْعُوا اِلٰى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥] شاهدٌ لهذا المعنى، والله سبحانه يرغِّب في الآخرة بالمبالغة والتأكيد، فالإعراضُ عن الآخرة معارضةُ الحقّ سبحانه في الحقيقة، وسعيٌ في رفع مرضيّه، وحيث كان لداود الطائيّ قدمٌ راسخٌ في الولاية قال - مع جلالة شأنه - في حق ترك الآخرة: إنَّه كرامةٌ، ألم يعلم أنَّ الأصحاب الكرام عليهم الرضوان كلَّهم كانوا مبتلين بفكر الآخرة، وخائفين وجلين من عذابها؟

مرَّ عمر رضي الله عنه بدار إنسانٍ، فسمع قارئاً يقرأ قوله تعالى: ﴿اِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ [الطور: ٧-٨]، فسقط من سماع هذه الآية من دابته على الأرض مغشياً عليه، فحملوه إلى بيته، فبقي من ألم ذلك مريضاً إلى مدةٍ مديدةٍ، حتى كان الناس يعودونه.

نعم، يتيسّرُ نسيان الدنيا والآخرة في أواسط الأحوال في مقام الفناء، ويرى فيه التعلّق بالآخرة كالتعلّق بالدنيا، وأما إذا تيسّرَ التشرُّفُ بالبقاء، وبلغ الأمرُ نهايتَه، وألقت كمالاتُ النبوَّة ظلَّها؛ فحينئذٍ كلُّ الهمّ همُّ الآخرة، والاستعاذةُ من النار، وتمنّي الجنة، لا مناسبةَ لأشجار الجنة وأنهارها وحورها وغلمانها بالأشياء الدنيويَّة، بل هؤلاء في طرفي النَّقيض، مثل نقاضة الغضب والرضا، وأشجارُ الجنة وأنهارُها وجميعُ ما فيها نتائج الأعمال الصَّالحة وثمراتها، قال رسول ﷺ: «**إنَّ الجَنَّةَ قِيعَانٌ، وإنَّ غِرَاسَهَا قَوْلُكَ: سُبْحَانَ اللهِ والحَمْدُ للهِ ولَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ واللهُ أَكْبَرُ**»[(١)]، وقال: «**مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ وبِحَمْدِهِ غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الجَنَّةِ**»[(٢)]، فصارت شجرةُ الجنة نتيجةَ التسبيح، وكما أنَّ الكمالات التَّنزيهيَّة في هذه الكلمة مندرجةٌ في كسوة الحروف والأصوات؛ كذلك في الجنة تعبأُ تلك الكمالات في كسوة الأشجار، على هذا القياس جميعُ ما في الجنة من نتائج الأعمال الصالحة، وما اندرج في ضمن كسوة صلاح قوليٍّ أو فعليٍّ من الكمالات الوجوديّة تعالت وتقدست يظهر في الجنة في حجب اللذات والتنعمات، فيكون ذلك التلذُّذُ والتنعُّمُ مقبولاً ومرضيّاً بالضَّرورة، ووسيلةً للقاء والوصول، فإن كانت رابعةُ المسكينة واقفةً على هذا السرّ؛ لَمَا خطر في قلبها فكرُ إحراق الجنة، ولَمَا ترى التعلّقَ بها غيرَ التعلّق بالحقّ سبحانه، بخلاف التلذُّذ والتنعُّم الدنيويّ، فإنَّ منشأه الخبثُ، ونتيجتَه الحرمانُ في الآخرة، أعاذنا الله سبحانه منه، فإن كان التلذُّذُ الدنيويُّ مباحاً شرعياً؛ فالمحاسبةُ أمامنا، فويلٌ ألف ويلٍ إن لم تأخذ الرَّحمةُ الإلهيّةُ بأيدينا، وإن لم يكن مباحاً شرعياً؛ فهو موردُ الوعيد الشديد، ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا اَنْفُسَنَا وَاِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]. فكيف يكون لهذا التلذُّذ مناسبةٌ بذلك التلذُّذ؟ فإنَّ هذا سمٌّ قاتلٌ، وذاك ترياقٌ نافعٌ، فهمُّ الآخرة: إما نصيبُ عوامّ المؤمنين، وإما نصيب أخصّ الخواص، وأما الخواصُّ؛ فهم يتبرؤون من هذا الهمّ. ....

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٦٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وقال: (حديث حسن غريب).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٤٦٤) من حديث جابر رضي الله عنه، وقال: (حديث حسن صحيح غريب).

ويرون الكرامة في خلافه:
(ع) وَلِلنَّاسِ فِيمَا يَعْشَقُونَ مَذَاهِبُ

المَكتُوبُ الثَّالِثُ وَالثَّلاثمِائَة

إلى الحاجِّ يوسُفَ الكَشْميريِّ في بَيانِ مَعاني كَلماتِ الأذانِ.

بعد الحمد والصلوات. ينبغي أن يعلم أنَّ كلمات الأذان سبعةٌ: (الله أكبر) أي: الله أكبر أن يكون له حاجةٌ إلى عبادة عابدٍ، كررت هذه الكلمةُ أربع مراتٍ؛ لتأكيد هذا المعنى المهمّ. (أشهد أن لا إله إلا الله) أي: أشهد أنّه مع كبريائه واستغنائه عن العبادة ليس المستحقّ للعبادة إلا هو سبحانه. (أشهد أن محمداً رسول الله) أي: أشهد أنّه عليه الصلاة والسلام رسولُه سبحانه، ومبلّغ عنه تعالى طريق العبادة، فلا تكون العبادةُ اللائقةُ بجناب قدسه تعالى إلا ما هي مأخوذةٌ من جهة تبليغه ورسالته عليه وعلى آله الصلاة والتحية. (حي على الصلاة حي على الفلاح) كلمتان لطلب المصلي إلى أداء الصلاة المؤدية إلى الفلاح. (الله أكبر) أي: أكبرُ من أن يليق بجناب قدسه تعالى عبادةُ أحدٍ. (لا إله إلا الله) أي: إنَّه تعالى لا محالةَ هو المستحقُّ للعبادة، وإن لم تصدر العبادةُ من أحدٍ ما لائقةً بجناب قدسه تعالى. ينبغي إدراكُ عظمة شأن الصلاة من عظمة شأن هذه الكلمات الموضوعة للإعلام بوقت الصلاة:

(ع) وَعَامُ الرُّخْصِ يُعْلَمُ مِنْ رَبِيعِ

اللهم اجعلني من المصلِّين المفلحين، بحرمة سيد المرسلين، عليه وعليهم أتم الصلوات، وأكمل التحيات.

المَكتُوبُ الرَّابعُ وَالثَّلاثمِائَة

إلى مَولانا عبدِ الحيِّ في بَيانِ الأعمالِ الصَّالِحةِ التي نِيطَ بها وعدُ دخولِ الجنَّة في أكثرِ الآياتِ القرآنيَّة، وفي بيانِ أداءِ الشُّكر، وبيانِ بعضِ معاني الصَّلاة وأسرارِها.

بعد الحمد والصَّلوات. اعلم – أسعدك الله تعالى – أنّه كان لي تردُّدٌ من مدَّةٍ مديدةٍ في أنَّ المرادَ بالأعمال الصالحة التي جعل الله سبحانه وتعالى وعدَ دخول الجنة مربوطاً بها في أكثر الآيات القرآنية هل هو جميع الأعمال الصالحة أو بعضها؟ فإن كان الجميع؛ فذلك متعسِّرٌ، فإنَّه قَلَّ من يكون موفَّقاً لإتيان الجميع، وإن كان البعض؛ فمجهولٌ غير متعيِّنٍ، فأفيض في الخاطر أخيراً بمحض فضل الحق سبحانه أنَّه لعلّ المراد بتلك الأعمال الصالحة: أركانُ الإسلام الخمسة التي بني الإسلامُ عليها، فإذا أُدِّيت هذه الأصولُ الخمسةُ على وجه الكمال؛ فالمرجوُّ أن تكون النجاةُ والفلاحُ نقدَ الوقت، فإنَّ هذه الخمسةَ في حدِّ ذاتها أعمالٌ صالحةٌ، وموانعُ للسيئات والمنكرات، قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلٰوةَ تَنْهٰى عَنِ الْفَحْشَاۤءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] شاهدٌ لهذا المعنى، وإذا تيسّر إتيانُ هذه الخمسة يرجى حصولُ أداء الشُّكر، فإذا حصل أداءُ الشُّكر؛ حصلت النَّجاةُ من العذاب، ﴿مَا يَفْعَلُ اللّٰهُ بِعَذَابِكُمْ اِنْ شَكَرْتُمْ وَاٰمَنْتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧]، فينبغي للإنسان أن يجتهد في إتيان هذه الخمسة غايةَ الاجتهاد، خصوصاً في إقامة الصَّلاة التي هي عمادُ الدين، وأن لا يرضى بترك أدنى أدبٍ من آدابها مهما أمكن، فمن أتمَّ الصلاةَ؛ فقد حصّل أصلاً عظيماً من أصول الإسلام، وحاز ونال حبلاً متيناً لأجل الخلاص وفاز. والله سبحانه الموفق.

اعلم أنَّ التَّكبيرةَ الأولى في الصَّلاة إشارةٌ إلى استغنائه وكبريائه تعالى من عبادة العابدين، وصلاة المصلين، وسائرُ التكبيرات التي بعد كلِّ ركنٍ من الأركان إشاراتٌ ورموزٌ إلى عدم لياقة أداء كلّ ركنٍ لأن يكون عبادةً لجناب قدسه تعالى، وحيث كان معنى التَّكبير ملحوظاً في تسبيح الركوع؛ لم يشرع التكبيرُ بعد الركوع، بخلاف السَّجدتين، فإنَّهما مع وجود التَّسبيحات فيهما ....

شُرِعَ التَّكبيرُ في أوَّلهما وآخرهما، وذلك لئلا يتوهَّم أحدٌ أنَّ السُّجودَ لَمّا كان نهايةَ الانحطاط وغايةَ الانخفاض وكمالَ التذلُّل والانكسار قد أدَّى فيه حقَّ العبادة، ولأجل دفع هذا التوهُّم أيضاً اختير في تسبيح السجود لفظ (أعلى)، وسُنَّ تكرارُ التَّكبير. ولَمّا كانت الصلاةُ معراجَ المؤمن؛ شرع في آخرها قراءةُ كلماتٍ شرّف بها رسول الله ﷺ ليلة المعراج، فينبغي للمصلي أن يجعل صلاته معراجه، وأن يطلب فيها غايةَ القرب، قال عليه وعلى آله الصلاة والسلام: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنَ الرَّبِّ فِي الصَّلَاةِ**»، ولما كان المصلّي مناجي ربّه ومشاهد عظمته وجلاله؛ حُقَّ أن يظهر فيه رعبٌ وهيبةٌ وقت أداء الصلاة، فلأجل تسليته شُرِعَ ختمُ الصَّلاة بالتسليمتين، وما ورد عن النبي ﷺ من التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل مائة مرَّةٍ بعد أداء صلاة الفرض؛ سرُّه في علم الفقير أن يتلافى بالتَّسبيح والتَّكبير ما وقع في أداء الصلاة من القصور والتَّقصير، والاعتراف بعدم لياقة تلك العبادة، وعدم تماميَّتها، وحيث كان أداءُ العبادة ميسَّراً بتوفيق الله تعالى؛ لزم أداءُ شكر تلك النِّعمة بالتَّحميد، وأن لا يرى مستحقَّ العبادة غيره سبحانه وتعالى، فإذا كان أداءُ الصلاة مقروناً بالشرائط والآداب، وحصل بعد ذلك تلافي التَّقصيرات، وشكرُ نعمة التَّوفيق، ونفيُ استحقاق العبادة عن غيره تعالى من صميم القلب بهذه الكلمات الطيِّبة؛ فالمرجوُّ أن تكون هذه الصَّلاةُ لائقةً بقبوله تبارك وتعالى، وأن يكون صاحبُها مصلّياً مفلحاً. اللهم اجعلني من المصلين المفلحين، بحرمة سيد المرسلين، عليه وعليهم وعلى آله الصلوات والتسليمات.

المكتوب الخامس والثلاثمائة

إلى المير مُحِبِّ الله المانكپُورِيِّ في بيانِ أسرارِ الصَّلاة، والفَرقِ بينَ صَلاة المُبتدئِ والعاميِّ وبينِ صَلاةِ المُنتَهي.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩].

اعلم - أرشدك الله تعالى - أنَّ تماميَّةَ الصلاة وكمالَها عند الفقير عبارةٌ عن إتيان فرائضها وواجباتها وسننها ومستحباتها التي كلُّها مبيَّنةٌ في الكتب الفقهية بالتَّفصيل، وليس وراء هذه الأمور الأربعة أمرٌ آخرُ له مدخلٌ في تماميَّة الصلاة، فإنَّ الخشوعَ في الصلاة مندرجٌ أيضاً في هذه الأربعة، وخضوعُ القلب أيضاً منوطٌ بها، واكتفى جماعةٌ بعلم هذه الأمور، واختاروا المساهلةَ والمداهنةَ في العمل بها، فلا جرم قَلَّ نصيبُهم من كمالات الصلاة، واهتمَّ جماعةٌ بحضور القلب مع الحق سبحانه، وقلَّ التفاتُهم إلى آداب أعمال الجوارح، واقتصروا على الفرائض والسنن، وهذه الجماعةُ أيضاً لم يتنبَّهوا على حقيقة الصَّلاة، ولم يعرفوها، وطلبوا كمالَ الصَّلاة من غيرها، ولم يعدُّوا[1] حضورَ القلب من جملة أحكام الصلاة، وما ورد في الخبر من أنَّه «لا صلاةَ إلا بحضور القلب» يمكن أن يكون المرادُ بالحضور: حضورَ القلب مع هذه الأمور الأربعة؛ لئلا يقع فتورٌ في إتيان أمرٍ من هذه الأمور، ولا يقع في ذهن الفقير حضورٌ وراء هذا الحضور.

فإن قيل: إذا كان تماميَّةُ الصَّلاة وكمالُها مربوطاً بهذه الأمور الأربعة، ولم يكن أمراً آخرَ وراءه ملحوظاً في كمالها، ماذا يكون الفرقُ بين صلاة المبتدئ وبين صلاة المنتهي، بل بين صلاة العاميّ التي تكون مقرونةً بإتيان هذه الأمور؟

قلت: إنَّ الفرقَ من جهة العامل لا من جهة العمل، فإنَّ أجرَ عملٍ واحدٍ يتفاوت بواسطة تفاوت عاملين، بحيث يكون أجرُه إذا وقع من عاملٍ مقبولٍ محبوبٍ أضعاف مضاعف ذلك الأجر إذا وقع من غيره؛.........

(١) قوله: (ولم يعدوا... إلخ) هكذا هو في نسخٍ متعددةٍ، ولهذا أبقيناه على حاله، وإلا ينبغي أن يكون: وعدوا حضور القلب... إلخ؛ لأنَّه لو لم يكن حضورُ القلب عندهم من جملة الصلاة؛ لَمَا صحَّ تعليلُه وردُّه عليهم، ولما صدق قوله: (ولا يقع في ذهن الفقير... إلخ)؛ لأنَّه صريحٌ في أنه لا يقول بوجود حضور في الصلاة غير ما ذكر كما قال به هؤلاء. (المعرِّب)

لأنَّ العاملَ كلَّما يكون عظيمَ القدر يكون عملُه جزيلَ الأجر، ومن ههنا قالوا: إنَّ العملَ المقرونَ بالرياء من العارف أفضلُ من عمل المريد بالإخلاص، فكيف إذا كان عملُ العارف مقرونـاً بالإخلاص؟ ولهذا كان الصِّدِّيقُ الأكبرُ ﵁ يطلب سهوَ النبيّ ﷺ معتقداً أنَّ سهوه أفضلُ من صوابه وعمده، حيث قال: يا ليتني كنتُ سهوَ محمد، متمنياً أن يكون بكليَّته سهوَه عليه الصلاة والسلام، ومعتقداً أنَّ أعمالَه التَّامةَ وأحواله الكاملةَ أنقصُ من سهوه ﷺ في العمل، فسأل بتمام التمنِّي أن تكون درجةُ تماميّة حسناته كدرجة سهوه عليه الصلاة والسلام، وسهوُه ﷺ مثلُ سلامه على رأس ركعتين من رباعي الفرض بطريق السهو كما روي، فصلاةُ المنتهي مع وجود النتائج والثمرات الدنيوية فيها يترتَّبُ عليها أجرٌ جزيلٌ في الآخرة، بخلاف صلاة المبتدئ والعاميّ:

(ع) مَـا نِسْـبَـةُ الـفَـرْشِـيِّ بِـالـعَـرْشِـيِّ

ولنذكر نبذةً من خصائص صلاة المنتهي ليقاس عليها غيرها: إنَّ المنتهي يَجِدُ لسانه أحيانـاً عند قراءة القرآن وإتيان التسليمات والتكبيرات كشجرةٍ موسويةٍ، ولا يرى قواه وجوارحه غيرَ الآلات والوسائط، ويجد أحيانـاً أنَّ تعلُّقَ باطنه وحقيقته قد انقطع عن ظاهره وصورته بالتَّمام، وصار ملحقـاً بعالم الغيب، وحصل نسبةٌ بالغيب مجهولةُ الكيفيَّة، وإذا فرغ من الصَّلاة يرجع ثانيـاً.

أو نقول في جواب أصل السؤال: إنَّ إتيانَ الأمور الأربعة المذكورة على وجه الكمال إنّما هو نصيبُ المنتهي، والمبتدئُ والعاميُّ بعيدان عن أن يكونا موفَّقين لإتيانها على وجه الكمال، وإن كان ممكنـاً، فإنّها لكبيرةٌ إلا على الخاشعين. والسلام على من اتبع الهدى.

المكتوب السادس والثلاثمائة

إلى مولانَا صالحٍ في ذكرِ بعضِ مَناقبِ المَخدومِ زَادَه الأكبَرِ، الخواجه محمَّدٍ صادقٍ عليه الرَّحمة والغُفرانُ وكمالاتِه، والمَخدُومَينِ الأصغَرينِ الخواجه محمَّدٍ فَرْخٍ ومحمَّدٍ عيسَى رحِمَهمُ الله، وبيانِ فَناءِ أربابِ الولايَة، وعدَمِ الاحتياجِ إليهِ في قُربِ النُّبوَّة، وما يناسِبُ ذلك.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]، ولعل أخانا ملا صالح سمع واقعات أهل سرهند، وقد اختار ولدي الأعظم ﵀ مع أخويه الأصغرين محمد فرخ ومحمد عيسى أيضـاً سفرَ الآخرة، إنّا لله وإنا إليه راجعون، حمداً لله سبحانه أوّلاً على ما أعطى الباقين القوةَ والصبرَ، وثانيـاً على ما جعل في البليّة سرّاً، ونِعْمَ ما قيل، (شعر)

إِنْ كُنْتَ تُؤْذِينِي فَلَسْـتُ بِمُعْرِضٍ وَقَدِ اسْـتَطَبْتُ مِنَ الأَعِزَّةِ ذِلَّتِي

كان ولدي المرحوم آيةً من آيات الله، ورحمةً من رحمات رب العالمين، وقد نال في سنّ أربع وعشرين ما لم ينله إلا الأقلُّون، وبلغ رتبةَ المولويَّة، وملكةَ تدريس العلوم العقليَّة والنقليَّة حدَّ الكمال، حتى إنَّ تلامذتَه يشتغلون بدرس البيضاويّ و«شرح المواقف» وأمثالهما بالقدرة التامَّة، وحكاياتُ معرفته وعرفانه، وقصصُ شهوده وكشوفه مستغنيةٌ عن البيان، ومعلومكم أنَّه في سنّ ثمانٍ كان مغلوبَ الحال على نهج عالجه حضرةُ شيخنا قدس سره لتسكين حاله بطعام السُّوق الذي هو مشكوكٌ فيه ومشتبهٌ، وقال: إنَّ محبَّتي لمحمد صادق ليست هي لأحدٍ، وكذلك محبَّتُه لنا ليست هي لأحدٍ غيرنا؛ ليعلمَ جلالةَ شأنه من هذا الكلام، وقد بلغ الولايةَ الموسويَّةَ إلى النُّقطة الأخيرة، وكان يبيِّنُ عجائبَ تلك الولاية وغرائبها، وكان دائمـاً خاضعـاً وخاشعـاً، وملتجئـاً ومتضرّعـاً، ومتذللاً ومنكسراً، وكان يقول: إنَّ كُلّاً من أولياء الله تعالى طلب شيئـاً من الحق سبحانه وتعالى، ....

وأنا طلبت الالتجاءَ والتضرّعَ. وما أكتب من محمد فرخ؟ قد كان ابن إحدى عشرة سنةً، وكان مشغولاً بطلب العلم، وكان يقرأ «الكافية» بالشُّعور، وكان مشفقًا من عذاب الآخرة على الدَّوام، وكان يدعو بأن يفارق الدنيا الدنيَّة في سنّ الطفوليَّة ليتخلَّصَ من عذاب الآخرة، وشاهَدَ منه بعضُ الأصحاب الذين كانوا يمرضونه في مرض موته غرائب وعجائب. وما أكتب من خوارق محمد عيسى وكراماته التي رآها الناسُ قبل بلوغه ثماني سنوات؟

وبالجملة كانوا جواهر نفيسةً مفوضةً إليّ على سبيل الوديعة، لله سبحانه الحمدُ والمنَّةُ سلَّمتُ الأمانةَ إلى أهلها بلا كرهٍ ولا إكراه. اللهم لا تحرمنا أجرهم، ولا تفتنا بعدهم، بحرمة سيد المرسلين عليه وعليهم الصلاة والتسليمات:

(ع) وَأَحْسَـــنُ مَـا يُمْلَى حَـدِيـثُ الأَجِبَّـةِ

اعلم أنَّ المقصودَ من الفناء الذي هو عبارةٌ عن نسيان ما سوى الحق تعالى: هو زوالُ تعلّق المحبَّة بما دون الحقّ سبحانه، فإنَّه إذا زالتْ ذواتُ الأشياء وصفاتُها وأفعالُها عن النَّظَر والإدراك؛ يزول تعلّقُ المحبَّة بها بالضَّرورة، ولا بُدَّ في طريق الولاية من نسيان السِّوَى؛ ليزول التعلّقُ بما دون الحقِّ جلّ وعلا، وفي مدراج قرب النبوَّة لا حاجةَ في زوال التعلّق بالأشياء إلى نسيان الأشياء أصلاً، فإنَّ في قرب النبوَّة لا يبقى التعلّقُ بالأصل الذي هو حسنٌ وجميلٌ في حدِّ ذاته اسماً ولا رسماً عن التعلّق بالأشياء التي هي قبيحةٌ لا حُسْنَ فيها في نفسها، سواءٌ نسيت الأشياءُ أو لا، فإنَّ صفةَ الذمِّ إنّما عرضت للعلم بالأشياء بواسطة قبح التعلّق بها؛ لكونه مستلزمًا للإعراض عن جناب قدسه تعالى، فإذا زال التعلّقُ بالأشياء؛ زالت صفةُ الذمّ عن العلم بها، فلم يبق مذمومًا، وكيف يكون العلمُ بالأشياء مذمومًا، فإنَّ الأشياءَ كلَّها معلوماتُ الحقّ جل سلطانه وعلمه بها من صفاته الكاملة؟

فإن قيل: إذا لم يكن العلمُ بما دون الحقّ جل وعلا زائلاً، فكيف يجتمع العلمُ بالحقّ تعالى مع العلم بما سواه سبحانه في وقتٍ واحدٍ؟ فلا مندوحةَ إذاً من نسيان ما سواه تعالى.

قلت: إنَّ العلمَ المتعلّقَ بالأشياء من قبيل العلم الحصوليّ، والعلمَ المتعلّقَ بحضرة الحقّ سبحانه وتعالى مشابهٌ بالعلم الحضوريّ، فكِلَا العلمين يجتمعان في وقتٍ واحدٍ، ولا يلزم منه محذورٌ أصلاً، وإنَّما يلزم المحذورُ إذا كان كِلَا العلمين حصوليَّين.

وإنَّما قلنا: من قبيل العلم الحصوليّ ومشابهٌ بالعلم الحضوريّ، فإنَّه ليس هناك حقيقةُ الحصول، ولا مجالَ للحضور، وعلمُه تعالى المتعلّقُ بالأشياء ليس حصوليًّا، فإنَّه لا حلولَ للحوادث في ذاته تعالى وصفاته ولا حصولَ، وعلمُ مثل هذا العارف ظلٌّ من ذلك العلم، والعلمُ المتعلّقُ بحضرة الحقّ سبحانه لا يمكن أن يقال: إنَّه حضوريٌّ، فإنَّه تعالى أقربُ إلى المدركة من نفس المدركة أيضًا، والعلمُ الحضوريُّ بالنِّسبة إلى ذلك العلم كالعلم الحصوليّ بالنِّسبة إلى العلم الحضوريّ، وهذه المعرفةُ وراءَ طَوْر العقل والفكر، من لم يَذُقْ لم يَدْرِ. فتقرَّر أنَّ العلمَ بالأشياء ليس بمنافٍ للعلم بالحقّ، فلا يكون نسيانُ الأشياء لازمًا أصلاً، بخلاف طريق الولاية، فإنَّ زوالَ علاقة الأشياء هناك غيرُ متصوَّرٍ بدون نسيان الأشياء، فإنَّ في الولاية تعلّقًا بالظلال، وليس في ذلك التعلّق قدرةُ إزالة التعلّق بالأشياء مع وجود العلم بها، فلا بُدَّ فيها أوّلاً من نسيان الأشياء حتى تزول التعلّقاتُ بها، وهذه معرفةٌ مخصوصةٌ بهذا الدرويش لم يتكلّم بها أحدٌ. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣].

المكتوب السابع والثلاثمائة

إلى مولانا عبدِ الواحِد اللَّاهوريِّ في بيانِ معنَى الكلمَة الطيِّبة:

(سُبحانَ اللهِ وبحَمدِه)، وما يُناسِبُ ذلك.

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد الحمد والصلاة. ينبغي أن يعلم أن ما يجده العابدُ وقت العبادة من الحسن والكمال في عبادته كلُّ ذلك راجعٌ إلى توفيق الله جلّ سلطانه، ومن حُسْن تربيته وإحسانه تعالى، وما يجده من النُّقصان والقصور في العبادة كلُّ ذلك عائدٌ إلى نفس العابد، ناشٍ من خبثها الجِبِلِّيِّ، ولا شيءَ منها راجعٌ إلى جناب قدسه تعالى أصلاً، بل هناك محضُ الخير والكمال، وكذلك كلُّما يقع في العالم حسنُه وكمالُه راجعٌ إلى جناب قدسه تعالى، وشرُّه ونقصُه عائدٌ إلى دائرة الممكنات التي لها قَدَمٌ راسخٌ في العدم الذي هو منشأُ جميع الشَّرِّ والنَّقص، والكلمةُ الطيِّبةُ (سبحان الله وبحمده) مبيِّنةٌ لهذين الأمرين بأبلغ الوجوه، ومنزِّهةٌ له سبحانه ومقدِّسةٌ إياه تعالى عما لا يليق بجناب قدسه تعالى من الشُّرور والنَّقائص كمال التَّنزيه والتَّقديس، وبعبارة الحمد الواقعة فيها يؤدَّى الشُّكرُ على صفاته الحميدة، وأفعاله الجميلة، وعلى إنعاماته العديدة، وإحساناته الجزيلة؛ لكونه رأسَ كلِّ شكرٍ، ولهذا ورد في الحديث النبويّ: أنّ من قال هذه الكلمةَ الطيِّبةَ في يوم أو ليلةٍ مائة مرةٍ لا يساويه أحدٌ في العمل في ذلك اليوم أو الليلة إلا من قال هذه الكلمةَ الطيِّبةَ مثلَه[1]، وكيف يساويه، فإنَّ كلَّ عملٍ وعبادةٍ أداءُ شكرٍ من شكره تعالى؟ وقد أدِّي بجزءٍ واحدٍ من هذه الكلمة، وبقي الجزءُ الأخيرُ منها الذي هو لبيان تنزيهه وتقديسه سبحانه زائداً عليه، فعليكم بإتيان هذه الكلمة كلَّ يومٍ وليلةٍ مائة مرةٍ. والله سبحانه الموفِّق.

فإن قيل: قد ورد في الحديث النبويّ ﷺ: «**سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَاءَ نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ**»[2]، وورد أيضاً: «**سُبْحَانَ اللهِ مِلْءَ الْمِيزَانِ**»[3]، وورد أيضاً: «**أَضْعَاف مَا حَمِدَهُ جَمِيعُ خَلْقِهِ**»، ولم يقل القائلُ غيرَ مرَّةٍ واحدةٍ، ولم يقع العددُ غيرَ فردٍ واحدٍ، فبأيِّ اعتبارٍ يقال: «عدد خلقه»؟ وما يكون معنى رضاء نفسه؟ وكيف يكون زنةَ عرشه؟ وكيف يصحُّ أن يقال: (مداد كلماته)؟ وكيف يملأ به الميزان؟ وبأيِّ معنى يقال: إنَّه أضعافُ ما حمده جميع خلقه؟

قلت: إنَّ الإنسانَ جامعُ عالم الخلق وعالم الأمر، وكلُّما هو في عالم الخلق والأمر؛ فهو في الإنسان مع شيءٍ زائدٍ عليه، وهو هيأتُه الوحدانيَّةُ التي نشأت من تركُّب الخلق والأمر، وهذه الهيئةُ الوحدانيَّةُ لم تتيسّرْ لشيءٍ غيره، وهي أعجوبةٌ غريبةٌ، وأنموذجةٌ بديعةٌ، فالحمدُ الذي يقع من الإنسان يكون أضعافَ حمدِ جميع الخلائق، وعلى هذا القياس سائرُ الأسئلة، فينبغي أن يكون المرادُ بجميع الخلق: ما سوى الإنسان. ولئن أدخلنا فيه الإنسانَ أيضاً نقول: إنَّ الإنسانَ الكاملَ كما أنَّه يجد جميع أفرادَ العالم أجزاءَ نفسه؛ كذلك يجد أفرادَ الإنسان أيضاً أجزاءَ نفسه، ويرى نفسَه كُلّاً للكلّ، فعلى هذا التَّقدير يجد حَمْدَ نفسه أضعافَ حمد نفسه، وأضعافَ حمد جميع أفراد الإنسان أيضاً. والسلامُ على من اتبع الهدى، والتزم متابعة المصطفى، عليه وعلى آله أفضل الصلوات، وأكمل التحيات.

المكتوب الثامن والثلاثمائة

إلى مولانا فيضِ الله الپَانِي پَتي في بيانِ معنَى قوله ﷺ: «كلِمَتانِ خفِيفتانِ على اللِّسانِ، ثقِيلَتانِ في الميزَانِ، حبيبتانِ إلى الرَّحمَن: سُبحانَ اللهِ وبحَمدِه، سُبحانَ اللهِ العظيم» اهـ.

اعلم - أرشدك الله تعالى - قال عليه وعلى آله الصلاة والسلام: «**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ**»[4]، وجهُ..................

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٢٦) من حديث ابن عباس عن جويرية رضي الله عنها.

(٣) عزاه المتقي الهندي للديلمي عن علي رضي الله عنه. «كنز العمال»: (٢/ ٦٣٥).

(٤) أخرجه البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

https://t.me/kutubiumdatun

خفَّتهما على اللسان ظاهرٌ لقلَّة الحروف، وأما وجهُ ثقلتهما في الميزان وكونهما حبيبتين إلى الرَّحمن؛ فلأنَّ الجزءَ الأوّلَ من الكلمة الأولى يفيد تنزيهَه تعالى وتقديسَه سبحانه عما لا يليق بجناب قدسه عزّ وجلّ، وإبعادَ جناب كبريائه عن صفات النَّقص، وسمات الحدوث والزَّوال، والجزءُ الثّاني من تلك الكلمة يفيد إثباتَ صفات الكمال وشؤونات الجمال له تعالى، سواءٌ كانت الصِّفاتُ والشؤوناتُ من الفضائل أو من الفواضل. وجعلُ الإضافة للاستغراق في الجزأين يفيد ثبوتَ جميع التَّنزيهات والتَّقديسات، وثبوتَ جميع صفات الكمال والجمال له تعالى، فحاصلُ الجزأين من الكلمة الأولى إرجاعُ جميع التَّنزيهات والتَّقديسات لله سبحانه، وإثباتُ جميع صفات الكمال والجمال له عزَّ وجل، وحاصلُ جزأي الكلمة الثّانية إثباتُ جميع التَّنزيهات والتَّقديسات له تعالى مع إثبات العظمة والكبرياء له عزّ وجلّ، وفيها إشارةٌ إلى أنَّ سلبَ النَّقائص عنه تعالى ليس إلا لأجل عظمته وكبريائه سبحانه، فلا جرم تكون الكلمتان ثقيلتين في الميزان حبيبتين إلى الرحمن.

وأيضـًا إنَّ التَّسبيحَ مفتاحُ التوبة، بل زبدةُ التوبة وخلاصَتُها كما حقَّقت في بعض المكاتيب، فيكون التسبيحُ وسيلةً إلى محو الذُّنوب وعفو السّيِّئات، فلا جرم يكون ثقيلاً في الميزان، ومرجِّحـًا لكفَّة الحسنات، وحبيبـًا إلى الرحمن؛ لأنَّه سبحانه يحبُّ العفوَ.

وأيضـًا إنَّ المسبِّحَ الحامدَ لَمّا نزَّه جناب قدسه عما لا يليق به، وأثبت صفات الكمال والجمال له تعالى؛ فالمرجوُّ من الكريم الوهاب جلَّ شأنه أن ينزِّه المسبِّحَ عما لا يليق به، ويوجد في الحامد صفةَ الكمال، كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ الْاِحْسَانِ اِلَّا الْاِحْسَانُۚ﴾ [الرحمن: ٦٠]، فلا جرم تكون الكلمتان ثقيلتين في الميزان لمحو السّيِّئات بتكرارهما، وحبيبتين إلى الرحمن لوجود الأخلاق الحميدة بواسطتهما. والسلام.

المَكتُوبُ التَّاسِعُ وَالثَّلاثُمِائَة

إلى مولانَا الحاجِّ محمَّدٍ الفَرْكَتِيِّ في بَيانِ المُحاسَبةِ اليَوميَّة واللَّيليَّة كما ورَدَ: «حاسِبُوا... إلخ».

بعد الحمد والصلوات، وتبليغ الدعوات، أنهيكم أنَّ جماعةً من المشائخ الكرام قدس الله تعالى أسرارهم اختاروا طريق المحاسبة، وكانوا في كلِّ ليلةٍ يطالعون قبيل النوم دفترَ أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم اليومية، ويدركون حقيقةَ كلٍّ منها بالتَّفصيل، ويتداركون تقصيراتهم وسيئاتهم بالتوبة والاستغفار والالتجاء والتضرّع إلى العزيز الغفار، ويشتغلون بحمد الله تعالى وشكره على أعمالهم الصالحة، ويرجعون بها إلى توفيقه تعالى. كان صاحب «الفتوحات المكية» قدس سره من المحاسبين، وقال: أنا زِدْتُ في محاسبتي على مشائخ أُخَر، حتى حاسبتُ خطراتي ونيَّاتي. وللتَّسبيح والتَّحميد والتَّكبير مائة مرةٍ قبيل النوم[1] على نهجٍ ثبت عن المخبر الصادق عليه وعلى آله الصلاة والسلام حكمُ المحاسبة عند الفقير، وكأنَّ المسبّحَ يعتذرُ من تقصيراته وسيئاته بتكرار كلمة التَّسبيح التي هي مفتاحُ التَّوبة، وينزّهُ جناب قدسه تعالى ويقدِّسه عما عاد إليه من ارتكابه السّيّئات، فإنَّ مرتكبَ السيئات إذا كان عظمةُ جناب قدس الآمر والنَّاهي وكبريائه ملحوظةً ومنظورةً إليه؛ ما كان يبادِرُ إلى ترك امتثال أمره تعالى، ولَمّا بادَرَ عَلِمَ أنَّه لا اعتدادَ ولا اعتبارَ عنده لأمره ونهيه تعالى، أعاذنا الله سبحانه من ذلك. فبتكرار كلمة التَّنزيه يتلافى هذا التَّقصير.

ينبغي أن يعلم أنَّ في الاستغفار طلبَ ستر الذَّنب، وفي تكرار كلمة التَّنزيه طلبَ استئصال الذنب، أين هذا من ذاك؟ سبحان الله كلمةٌ عجيبةٌ، ألفاظُها في غاية..

(١) أخرج مسلم (٢٧٢٧) من حديث علي ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال له ولفاطمة ﷺ عند أخذهما مضجعهما: «أن تكبرا الله أربعـًا وثلاثين، وتسبحاه ثلاثـًا وثلاثين، وتحمداه ثلاثـًا وثلاثين». وروى الترمذي (٣٤١٠) وصححه من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ مرفوعـًا: «خلتان لا يحصيهما رجل مسلم إلا دخل الجنة... وإذا أخذت مضجعك تسبحه وتكبره وتحمده مائة، فتلك مائة باللسان، وألف في الميزان».

القلّة، ومعانيها ومنافعُها في غاية الكثرة، وبتكرار كلمة التَّحميد يؤدي شكر نعمة توفيقه وسائر نعمه تعالى، وتكرارُ كلمة التَّكبير إشارةٌ إلى أنَّ جناب قدسه تعالى أعلى وأجلُّ من أن يكون هذا الاعتذارُ والشكرُ لائقاً بحضرته سبحانه، فإنَّ اعتذارَ العبد واستغفارَه محتاجٌ إلى اعتذاراتٍ واستغفاراتٍ كثيرة، وحمدَه راجعٌ إليه ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۞ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۞ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢]. المحاسبون يكتفون بالاستغفار والشُّكر، وبهذه الكلمات القدسيَّة يحصل أمرُ الاستغفار، ويؤدَّى الشُّكرُ، ويتيسّر الإيماءُ إلى نقص الاستغفار والشكر، ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه الطاهرين وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين.

المكتوب العاشر والثلاثمائة

إلى مولانا محمَّد هاشِمٍ في بَيانِ جامِعيَّة الإنسَانِ، مع بَعضِ الأسرَارِ الغامِضَة المتعلِّقة بهذا المقامِ، وما يُناسِب ذلك.

بعد الحمد والصلوات، ليعلم أنَّ جميعَ ما في الإنسان من الكمالات مستفادةٌ من مرتبة الوجوب تعالت وتقدَّست، فإنْ عِلْماً؛ فمستفادٌ من علم تلك المرتبة، وإن قدرةً؛ فمأخوذةٌ من قدرة تلك المرتبة، وعلى هذا القياس، وأما كمالُ كلِّ مرتبةٍ؛ فعلى مقدار تلك المرتبة، فحكمُ علم الإنسان في جنب علم الواجب كحكم الميّت الذي هو لا شيء محضٌ بالنِّسبة إلى حيٍّ بحياةٍ أبديّةٍ، وكذلك قدرةُ العبد في جنب قدرة الواجب تعالى وتقدس لها حكمُ قدرة العنكبوت الذي ينسجُ بيتَه بالنِّسبة إلى قدرة شخصٍ تصير السّمواتُ والأرضون والجبالُ والبحارُ دكّاً دكّاً وهباءً منثوراً بنفخته الواحدة، ينبغي أن يقيس الكمالات الأُخَر على ذلك، وهذا التَّفاوتُ إنّما يقال من ضيق العبارة، وإلا فما النِّسبةُ بينهما؟

(ع) مَا نِسْـبَـةُ الفَرْشِـيِّ بِالعَرْشِـيِّ

فصارت كمالاتُ الإنسان في صورة كمالات مرتبة الوجوب تعالت وتقدست، ولم يحصل لهذه الكمالات من كمالات تلك المرتبة غيرُ المشاركة في الاسم، ومن ههنا ورد: «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ**»، ومعنى: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ**» يلوح من هذا البيان، فإنَّ جميعَ ما في نفس الإنسان – وإن كان صورةً – هو الذي حقيقتُه حاصلةٌ في مرتبة الوجوب تعالت وتقدست، ومن ههنا يعرف سرُّ خلافة الإنسان، فإنَّ صورةَ الشيء خليفةُ الشيء، وفي هذا المقام ظنَّت الزنادقةُ والمجسِّمةُ أنَّ الله عزَّ وجلَّ في صورة الإنسان، وأثبتوا القوى والجوارحَ الإنسانيَّةَ في حضرته جلَّ سلطانه من عدم العقل، ضلُّوا فأضلوا، ولم يعلموا أنَّ إطلاقَ الصورة وأمثالَها في تلك الحضرة من قبيل التَّشبيه والتَّمثيل، لا على سبيل التَّحقيق والتَّثبيت، فإنَّ حقيقةَ الصُّورة تقتضي التَّبعُّضَ والتركُّبَ والتجزُّؤ، وكلُّ ذلك منافٍ للوجوب، ومانعٌ للقدم، والمتشابهاتُ القرآنيةُ أيضاً مصروفاتٌ عن الظَّواهر، ومحمولاتٌ على التَّأويل، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]، يعني: لا يعلم تأويل المتشابه إلا الله. فعلم من هذا أنَّ المتشابهَ محمولٌ على التَّأويل عند الله تعالى أيضاً، ومصروفٌ عن الظَّاهر، وأنَّه تعالى يعطي العلماءَ الراسخينَ أيضاً نصيباً من علم هذا التَّأويل، كما أنَّه سبحانه يُطْلِعُ خواصَّ رسله على علم الغيب الذي هو مخصوصٌ به تعالى. وإياك والتَّخيُّلَ أنَّ هذا التَّأويلَ كتأويل اليد بالقدرة، والوجه بالذات، حاشا وكلا، بل إنَّ هذا التَّأويلَ من الأسرار التي يمنح الله علمها أخصّ الخواصّ.

وينبغي أن يعلم أنَّ صاحبَ «الفتوحات المكية» وأتباعه يقولون: إنَّ صفات الواجب تعالى وتقدس كما أنَّها عينُ الذات؛ كذلك بعضها عينُ البعض الآخر، مثلاً: العلمُ، كما أنَّه عينُ الذات؛ كذلك هو عينُ القدرة، وعينُ الإرادة،.......

وعينُ السمع، وعينُ البصر، وعلى هذا القياس سائرُ الصِّفات.

وهذا الكلامُ عند الفقير بعيدٌ عن الصواب، فإنَّ هذا الكلامَ مبنيٌّ على نفي وجود الصِّفات الزَّائدة، وهو خلافُ مذهب أهل السُّنَّة والجماعة، فإنَّ الصِّفات الثَّمان أو السبع على وفق آراء هؤلاء الأكابر موجودةٌ في الخارج، ولعلَّ توهُّمَ عينيَّة الذَّات والصِّفات الواجبيَّة نشأ فيهم من تخيُّلهم تغايُرَ ما في ذاك الموطن وتباينَه كتغاير ما في هذا الموطن وتباينه، ولَمَّا لم يجدوا في ذاك الموطن تغايراً وتبايناً كتغاير هذا الموطن وتباينه الذي هو بين ذواتنا وصفاتنا، ولم يروا هناك تمايزاً مشابهاً لتمايز هذا الموطن؛ لا جرم حكموا بنفي التَّغاير والتَّمايز، وقالوا بعينيَّة بعضها بعضاً، ولم يدروا أنَّ تمايزَ ذلك الموطن وتغايرَه مثل ذات الواجب وصفاته تعالى، لا كيفيٌّ ولا مثليٌّ، ولا مناسبةَ بين ذاك التَّمايز وبين هذا التَّمايز إلا بحسب الصُّورة والاسم، فيكون التَّمايزُ والتباينُ متحقّقاً في ذلك الموطن، ونحن عاجزون عن إدراكه، لا أنَّا ننفي كلَّما لا ندركُه، ونخالف بذلك أهل التَّحقيق. والله سبحانه الملهم للصواب.

المكتوبُ الحادي عشَر والثلاثمائة

إلى المخدومِ زادَه الخواجه محمَّدٍ سعيدٍ في بيانِ الأسرَارِ الغامِضَة، والحقائِق النَّادرَة المتعلِّقة بالحُروفِ المُقطَّعاتِ التي هيَ منَ المُتشابِهاتِ القُرآنيَّة التي للعُلماءِ الرَّاسخينَ اطِّلاعٌ عليها بطَريقِ الرَّمزِ والإشارَة.

اللهم: (شعر)

« ها » يِ دو چشمى است مُربّي ما — همچو « الف » ربِّ حبيبِ خدا

« لام » مربّى خليل الله است — « ميم » ز تدبيرِ كليم آگه است

مبدأُ أمر الكليم على نبينا وعليه الصلاة والسلام حقيقةُ الألف، ومبدأُ معاملة هذا الحقير أيضاً بتبعيَّته ووراثته حقيقةُ الألف، ولكنَّ رجوعَ الكليم عليهم السلام إلى حقيقة الميم، ورجوعَ الحقير إلى حقيقة الهاء ذات عينين، ومرجعي وملاذي الآن هو حقيقةُ الهاء، وهذه الحقيقةُ هي التي يعبَّرُ عنها بغيب الهويَّة، وهذه الحقيقةُ خزينةُ الرَّحمة، ومستقرُّ الرَّحمة الواحدة التي وسعت كلَّ شيءٍ في الدُّنيا، ومستودعُ التِّسعة والتِّسعين رحمةً التي ادُّخرت للعقبى كلّها هو هذه الحقيقة، فكأنَّ إحدى عينيها مخزنُ رحمة الدنيا، والأخرى خزينةُ رحمة الأخرى، وصفةُ (أرحم الراحمين) تتشعَّبُ من هذه الحقيقة، وفي ذلك الموطن ظهورُ جمالٍ صرفٍ لم يتطرَّقْ إليه شائبةٌ من الجلال، وجميعُ ما يصيب الأولياءَ في الدنيا من المحنة والغمّ والحزن تربيةٌ جماليةٌ ظاهرةٌ في صورة الجلال، وكلُّما أعطي الأعداءُ من جنس النِّعمة والفرح والسُّرور في الدُّنيا ظهور جلالٍ مورى بالجمال، هذا هو المكرُ الإلهيُّ جلَّ سلطانه، ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًاۚ﴾ [البقرة: ٢٦].

ومبدأُ أمر خاتم الرسل عليه وعليهم الصلاة والسلام حقيقةٌ فوق حقيقة الألف، وكذلك مبدأُ أمر الخليل أيضاً هو هذه الحقيقةُ الفوقانيَّةُ.

غَايةُ ما فِي البابِ: أنَّ حقيقةَ مبدأ خاتم الرسل إجمالُ تلك الحقيقة، وحقيقةَ مبدأ الخليل تفصيلُها، ومرجعُ خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام حقيقةُ الألف، ومرجعُ الخليل عليه السلام حقيقةُ اللام، وذلك لأنَّ مناسبةَ الإجمال للوحدة أكثرُ، فلا جرم تيسّرُ الرجوع إلى الألف الذي هو قريبٌ من الوحدة، ومناسبةُ التَّفصيل للكثرة أزيدُ، فبالضَّرورة كان رجوعُه إلى اللَّام الذي هو قريبٌ من الكثرة، فإبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام كان كثيرَ البركة في المبدأ وفي المعاد والمرجع، ومن ههنا سأل النبيُّ ﷺ صلاةً وبركةً مماثلتين لصلاة الخليل وبركته..............................

عليه السلام، ورَبّ خاتم الرُّسل في أسماء الله الحسنى التي رتبتُها فوق رتبة الصِّفات الاسمُ المباركُ (الله) تعالى شأنُه، وربّ هذا الحقير الاسمُ المباركُ (الرحمن) جلّ وعلا، وحيث كان لهذا الحقير مناسبةٌ للكليم في المبدأ؛ وصل منه إليه بركاتٌ كثيرةٌ، وإن لم تكن ولايةُ هذا الحقير ولايةَ موسويَّةَ، ولكنَّه مملوءٌ من بركات تلك الولاية، وحصل له ترقِّياتٌ كثيرةٌ من هذا الطَّريق، والاستفادةُ التي حصلت لهذا الحقير من تلك الولاية من طريق إجمال تلك الولاية، واستفادةُ ولدي الأعظم عليه الرَّحمة من طريق تفصيلها، وولايةُ هذا الفقير المستفادةُ من الولاية الموسويَّة شبيهةٌ بولاية رجلٍ مؤمنٍ من آل فرعون، وولايةُ ولدي الأعظم شبيهةٌ بولاية سحرة فرعون الذين آمنوا.

المكتوب الثاني عشر والثلاثمائة

إلى المِير محمَّدٍ نُعمانَ في أجوبَة أسئِلتِه، مِنْ جُملتِها السُّؤال عن تَحقيقِ الإشارَةِ في التَّشهُّد عند الحنَفيَّة.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين، والملائكة المقربين، وعباد الله الصالحين.

وصلت الصَّحيفةُ الشريفةُ المرسلةُ مع ملا محمود، فأورثت فرحًا وافراً، وسألت أنَّ العلماءَ يقولون: إنَّ بقعة الرَّوضة[1] المتبركة المدنيَّة على صاحبها الصلاة والسلام والتحية أعظمُ - يعني: قدراً - من مكَّة المعظَّمة، وكيف تكون بقعةُ الرَّوضة المتبركة أعظمَ منها مع كون صورة الكعبة وحقيقتها مسجوداً إليهما للصُّورة والحقيقة المحمديَّتين عليه الصلاة والتحيَّة؟

أيُّها المخدومُ، إنَّ ما ثبت عند الفقير: هو أنَّ خيرَ البقاع: الكعبةُ المعظَّمةُ، ثم بعدها الروضةُ المقدّسةُ النبويّةُ المدنيةُ على صاحبها الصلاة والتحية، ثم بعدها أرضُ الحرم المكي حرسها الله تعالى عن الآفات. فإن قال العلماءُ بأفضليّة الروضة المتبركة على مكَّة المعظمة؛ ينبغي أن يكون مرادهم بذلك: ما سوى أرض الكعبة المقدَّسة.

وسألت: أنَّ ملازمي مولانا المرحوم أعلم الله كتبوا رسالةً في مادة تجويز الإشارة بالسَّبَّابة، وقد أرسلتُ الرسالةَ المذكورةَ، فبِمَ تشير في هذا الباب؟

أيُّها المخدومُ، إنَّ الأحاديثَ النبويَّةَ في باب تجويز الإشارة بالسبابة كثيرةٌ جداً، وورد بعضُ الرِّوايات الفقهيَّة الحنفيَّة أيضـًا في هذا الباب كما أوردها مولانا في رسالته، وإذا لوحظت الكتبُ الفقهيَّةُ الحنفيَّةُ ملاحظةً جيدةً؛ يعلم أنَّ روايات جواز الإشارة غيرُ روايات الأصول، وغيرُ ظاهر المذهب.

وما قال الإمامُ محمد الشيبانيُّ رحمه الله: كان رسول الله ﷺ يشيرُ، ونصنع كما يصنعُ رسول الله ﷺ، ثم قال: وهذا قولي وقولُ أبي حنيفة ﵁؛ من روايات النَّوادر، لا من روايات الأصول، في «الفتاوى الغرائب»: في «المحيط»: هل يشير بأصبعه السَّبَّابة ....

(١) هذا مبنيٌّ على عدم التَّفرقة بين الروضة وبين القبر النبوي ﷺ، وإلا فلا يقول أحدٌ من العلماء بأفضلية الروضة فقط على مكَّة، وإنَّما قال مالكٌ بأفضلية المدينة على مكة، والجمهورُ على خلافه، ولكن قالوا بأفضلية البقعة التي ضمت أعظمه ﷺ على مكة حتى على الكعبة والعرش. (المعرِّب)

https://t.me/kutubumufidatun

من يده اليمنى؟ لم يذكر محمدٌ هذه المسألةَ في الأصل، وقد اختلف المشائخ فيها، فمنهم من قال: لا يشير، ومنهم من قال: يشير، وذكر محمدٌ في غير الأصول حديثاً عن النبي ﷺ: أنَّه كان يشير، ثم قال: هذا قولي وقول أبي حنيفة ، وقد قيل: إنَّه سنةٌ، وقيل: مستحبٌّ، ثم قال فيها: هذا ما ذكروا، والصحيحُ: أنَّ الإشارةَ حرامٌ، وفي «السراجية»: ويكره أن يشير بالسَّبَّابة في الصلاة عند قوله: (أشهد أن لا إله إلا الله)، هو المختارُ، وفي «الكبرى»: وعليه الفتوى؛ لأنَّ مبنى الصلاة على السكون والوقار، وفي «الغياثية» من الفتاوى: لا يشير بالسبابة عند التشهد هو المختارُ، وعليه الفتوى، وفي «جامع الرموز»: لا يشيرُ، ولا يعقدُ، وهو ظاهرُ[1] أصول أصحابنا كما في الزاهديّ، وعليه الفتوى كما في «المضمرات» والولوالجي و«الخلاصة» وغيرها، وعن أصحابنا جميعاً: إنَّه سنةٌ، في «خزانة الروايات» من «التتارخانية»: ثم إذا أخذ في التشهُّد وانتهى إلى قوله: (أشهد أن لا إله إلا الله) هل يشير بأصبعه السبابة من اليد اليمنى؟ لم يذكره محمدٌ في الأصل، فقد اختلف المشائخ فيه، منهم من قال: لا يشير، وفي «الكبرى»: وعليه الفتوى، ومنهم من قال: يشير، وفي «الغياثية»: ولا يشير بالسبابة عند التشهُّد هو المختارُ. انتهى. وحيث ذكرت حرمةُ الإشارة في الروايات[2] المعتبرة، وأفتوا بكراهتها، ونهوا عنها، وقالوا: إنَّها ظاهرُ أصول أصحابنا؛ لا يجوز لأمثالنا المقلدين الجراءةُ على الإشارة عملاً بمقتضى الأحاديث، وارتكابُ أمرٍ محرمٍ أو مكروهٍ أو منهيٍّ عنه بفتاوى كثيرٍ من العلماء المجتهدين، ومرتكبُ هذا الأمر من الحنفيَّة لا يخلو من أحد الحالين: إما أن لا يُثْبِتَ للعلماء المجتهدين علمَ الأحاديث المعروفة الواردة في جواز الإشارة، وإما أن يقول بعدم عمل هؤلاء الأكابر بمقتضى هذه الأحاديث مع علمهم بورودها وثبوتها عندهم، ويظنُّ أنَّهم حكموا بالحرمة والكراهة على خلاف الأحاديث بمقتضى آرائهم، وكلٌّ من هذين الشِّقَّين فاسدٌ لا يجوِّزهما إلا سفيهٌ أو معاندٌ.

وما قال في ترغيب الصلاة: إنَّ رفع أصبع الشَّهادة في التشهُّد سنَّةُ العلماء المتقدمين، وأما العلماءُ المتأخرون؛ فقد نهوا عنها، وذلك لأنَّهم لما رأوا غلوَّ الروافض فيها؛ تركوها خوفاً من تهمة السنيّ بالرفض؛ مخالفٌ لروايات الكتب المعتبرة، فإنَّ ظاهرَ أصول أصحابنا عدمُ الإشارة وعدمُ العقد، فكان عدمُ الإشارة سنةَ العلماء المتقدمين، ولم يكن وجهُ الترك نفيَ التُّهمة، وحسنُ ظنِّنا بهؤلاء الأكابر هو أنَّهم إن لم يظهر لهم في هذا الباب دليلُ الحرمة والكراهة لَمَا حكموا بهما، وحيث قالوا بعدم ذكر سنيَّة الإشارة واستحبابيتها هذا ما ذكروا، والصحيحُ: أنَّ الإشارةَ حرامٌ؛ علم أنَّ أدلة سنيَّة الإشارة واستحبابيَّتها لم تبلغْ عند هؤلاء الأكابر مرتبةَ الصحَّة، بل صحَّت خلافها.

غَايَةُ ما فِي البابِ: أنَّه لا دليلَ لنا على ذلك، وهذا لا يستلزم القدحَ في هؤلاء الأكابر.

فإن قيل: إنَّ لنا دليلاً على خلاف ذلك. قلنا: إنَّ علمَ المقلِّد غيرُ معتبرٍ في إثبات الحلّ والحرمة، وإنَّما المعتبرُ في هذا الباب هو ظنُّ المجتهد، والقولُ في حقّ أدلَّة المجتهد أنَّها أوهنُ من بيت العنكبوت جراءةٌ عظميةٌ، وترجيحٌ لعلمه على علم هؤلاء الأكابر، وإبطالٌ لظاهر أصول أصحابنا الحنفيَّة، وتخريبٌ للروايات المفتى بها، وهؤلاءُ الأكابر حكموا بشذوذ هذه الأحاديث، فإنَّهم - لقرب عهدهم، ووفور علمهم، ....

(١) توهم البعضُ من هذا القول: أنَّ عدمَ الإشارة مذكورٌ في الأصل وظاهر المذهب، وهو توهُّمٌ باطلٌ، فإنَّ الأصلَ وظاهرَ المذهب ليس فيه ذكر الإشارة لا نفياً ولا إثباتاً كما مرَّ، بل لا وجود لعدم الإشارة في النوادر أيضاً كما مرَّ، وإنما معناه: أنَّه مستنبط من ظاهر أصولهم وقواعدهم، أعني قولهم: مبنى الصلاة على السكون، وهذا الاستنباطُ إنَّما يصح إذا لم توجد الروايةُ في النوادر أيضاً، وحيث وجدت لا يصحُّ استنباطهم. (المعرّب)

(٢) لا يخفى أنَّ هذه الروايات ليست بمعتبرةٍ، بل هي ليست راوياتٌ عن المشائخ كما مر، بل هي أقوالُ هؤلاء المشائخ، وهم ليسوا من أرباب الترجيح والفتاوى عندنا كما لا يخفى على من له ممارسةٌ بقواعد مذهبنا أيها الحنفية. (المعرّب).

وحصول الورع والتقوى لهم - أعلمُ بها من أمثالنا العاجزين، وأعرف منا بصحَّتها وسقمها، ونسخها وعدم نسخها، ولهم في ترك العمل بمقتضى هذه الأحاديث وجهٌ موجَّهٌ ألبتَّة، ومبلغُ علم أمثالنا قاصري الفهم أنَّ بين رواة الأحاديث اختلافًا كثيراً في كيفية الإشارة والعقد، وكثرة اختلافهم هذه أورثت اضطراباً في نفس الإشارة، فمن بعض الروايات يفهم ثبوتُ الإشارة بلا عقدٍ(1)، ومن قال بالإشارة مع العقد، ففي بعض الراويات جعل العقد ثلاثةً وخمسين(2)، وفي بعضها عقد ثلاثة وعشرين(3)، وبعضهم روى بقبض الخنصر والبنصر، وحلق الإبهام والوسطى، والإشارة بالسبابة(4)، وفي روايةٍ بمجرد وضع الإبهام على الوسطى(5)، وورد في بعض الروايات: أنَّه يشير بوضع اليد اليمنى على الفخذ اليسرى، واليد اليسرى على الفخذ اليمنى، وفي رواية أخرى: أنَّه يشير واضعاً يده اليمنى على ظهر يده اليسرى، والرسغَ على الرسغ، والساعدَ على الساعد(6)، وفي بعض الروايات: أنَّه يشير بقبض جميع الأصابع(7)، وفي بعض الرواية: أنَّها من غير تحريك السبابة(8)، وفي بعض الروايات بإثبات التَّحريك(9)، والواقعُ في بعض الرواية: أنَّها وقت قراءة التشهد من غير تعيينٍ، وفي بعضها: أنَّها وقتَ التكلّم بكلمة الشهادة، وفي بعض الرواية مقيَّدةٌ بوقت الدعاء(10)، أعني: يا مقلب القلوب ثبِّتْ قلبي على دينك، ولَمّا رأى العلماءُ الحنفيَّةُ اضطرابَ الرواة في كيفية الإشارة؛ لم يثبتوا فعلاً زائداً في الصلاة على خلاف القياس، وهو أنَّ بناءَ الصَّلاة على السُّكون والوقار. وأيضـًا إنَّ توجيه الأصابع نحو القبلة مهما أمكن سنّةٌ، كما قال عليه الصلاة والسلام: **«وَلْيُوَجِّهْ مِنْ أَعْضَائِهِ الْقِبْلَةَ مَا اسْتَطَاعَ»**(11).

فإن قيل: إنَّ كثرةَ الاختلاف إنّما يورث الاضطرابَ إذا لم يمكن التَّوفيقُ بين الروايات، والتوفيقُ فيما نحن فيه ممكنٌ، فإنه يمكن أن يفعل جميعُ ما ورد في جميع الروايات في أوقاتٍ مختلفةٍ. قلنا: قد وقع في أكثر الروايات لفظ (كان)، وهو عند غير المنطقيين من الأدوات الكليَّة، فلا يمكن التَّوفيقُ، وما نقل عن الإمام الأعظم من قوله: إذا وجدتم حديثًا مخالفًا لقولي فاتركوا قولي، واعملوا بالحديث؛ فالمرادُ بهذا الحديث: حديثٌ لم يبلغ الإمامَ وحكم بخلافه بناءً على عدم علمه به، وأحاديثُ الإشارة ليست من هذا القبيل، فإنَّها أحاديث معروفةٌ ليس فيها احتمالُ عدم العلم(12). فإن قيل: إنَّ العلماءَ الحنفيَّةَ قد أفتوا بجواز الإشارة أيضـًا، فينبغي أن يجوز العملُ بكلٍّ منهما على مقتضى الفتاوى المتعارضة. قلنا: إذا وقع التَّعارضُ بين الجواز وعدم الجواز، وبين الحلّ والحرمة؛ فالتَّرجيحُ في جانب عدم الجواز وعدم الحرمة، وأيضـًا قال الشَّيخ ابن الهمام في أحاديث رفع اليدين: إنَّها معارضةٌ لأحاديث عدم الرَّفع، فترجَّحَ أحاديثُ عدم الرفع بالقياس، فإنَّ مبنى الصَّلاة على السُّكون والخشوع الذي هو مطلوبٌ ومرغوبٌ فيه بالإجماع. والعجبُ من الشَّيخ ابن الهمام أنَّه قال: وعن كثير من المشائخ عدم الإشارة، وهو خلافُ الرواية والدراية، كيف نسب الجهلَ إلى العلماء المجتهدين المتمسكين بالقياس الذي هو الأصلُ الرّابعُ من أدلَّة الشرع، وهو ظاهرُ المذهب، وظاهرُ الرواية عن أبي حنيفة؟ وهذا الشَّيخُ قد ضعَّف حديث القلتين بالاضطراب الحاصل من كثرة اختلاف الرواية. ويكتب ولدي الأرشد محمد سعيد رسالةً في هذا الباب(13)، فإذا نقلت إلى البياض؛ نرسلها إن شاء الله تعالى. وكتبت: أنَّ من طالبي الطَّريقة جماعةً في كلِّ طرفٍ، ولم أتجاسر على إجازة أحدٍ منهم بتعليم الطَّريقة في محلٍّ أصلاً، ....

(1) أخرج مسلم (٥٨٠) عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ كان إذا جلس في الصلاة؛ وضع يديه على ركبتيه، ورفع أصبعه اليمنى التي تلي الإبهام، فدعا بها، ويده اليسرى على ركبتيه باسطها عليها.

(2) أخرجه مسلم (٥٨٠) من حديث ابن عمر ﵄.

(3) وهي ما عبَّر عنه الحديث الذي أخرجه مسلم (٥٧٩) من حديث عبد الله بن الزبير ﵄ بقوله: (ووضع إبهامه على إصبعه الوسطى).

(4) أخرجه أبو داود (٧٢٦)، والنسائي (١٢٦٥)، وابن ماجه (٩١٢) من حديث وائل بن حجر ﵁.

(5) أخرجه مسلم (٥٧٩) من حديث عبد الله بن الزبير ﵄، وفيه: (ووضع إبهامه على إصبعه الوسطى).

(6) أخرجه أبو داود (٧٢٧) من حديث وائل بن حجر ﵁ ولفظه: (ثم وضع يده اليمنى على ظهر كفه اليسرى والرسغِ والساعدِ).

(7) أخرجه الترمذي (٣٥٨٧) واستغربه من حديث عاصم بن كليب عن أبيه عن جده.

(8) أخرجه أبو داود (٩٨٩) من حديث عبد الله بن الزبير ﵄، وصححه النووي. «خلاصة الأحكام»: (ص: ٤٢٨).

(9) أخرجه البيهقي في «الكبرى» (٢٧٨٧) من حديث وائل بن حجر ﵁، قال بعده: فيحتمل أن يكون المراد بالتحريك: الإشارة بها، لا تكرير تحريكها، فيكون موافقاً لرواية ابن الزبير. وصحح الحديث ابن الملقن. «البدر المنير»: ٤/ ١١.

(10) أخرجه الترمذي (٣٥٨٧) واستغربه من حديث عاصم بن كليب عن أبيه عن جده.

(11) أخرجه البخاري (٨٢٨) من حديث أبي حميد ﵁ بلفظ: (واستقبل بأطراف أصابع رجليه القبلة)، وأخرج النسائي (١١٥٨) من حديث ابن عمر ﵄ قال: (من السنة أن تنصب القدم اليمنى، واستقباله بأصابعها القبلة، والجلوس على اليسرى). وأما لفظُ الإمام؛ فغريبٌ كما قال الزيلعي. انظر: «نصب الراية»: (١/ ٣٨٧).

(12) ولذا قال الإمام محمد: إنَّ الإشارةَ قولي وقولُ أبي حنيفة، وكذلك نقل عن الثاني في الأمالي. (المعرِّب)

(13) قلت: إنَّه صنف تلك الرسالة، وصنف أخوه الأصغر مولانا الشيخ محمد يحيى رسالة ردّاً على ما ذكره مشائخنا قدس الله أسرارهم، ولم أرهما، وقد علمتَ أنَّ الراجح هو سنيةُ الإشارة. (المعرِّب)

فننظر بما تكون الإشارةُ. فاعلم أنَّ كلَّ من ترونه مناسبًا يكون رئيسَ حلقة جماعةٍ، وهذا الأمرُ مفوَّضٌ إلى رأيكم، وليصدر الأمرُ بعد الاستخارة والتوجّه، والسلام عليكم وعلى من لديكم.

المَكتُوبُ الثَّالِثَ عَشَرَ وَالثَّلاثُمِائَة

إلى الخواجه محمَّدٍ هاشِمٍ في حلِّ أسئِلةٍ كتبَها، وهيَ سبعةٌ، وأمرِ خَتمِ هذا المجلَّدِ منَ المَكتوباتِ بهذا المكتوبِ؛ لموَافقَة عددِها لعَددِ الأنبياءِ المُرسَلينَ، وعَددِ أصحابِ بدرٍ، وأمرَ بكِتابَة عرائِضِ المَخدُومِ زَادَه الأعظَمِ عليه الرَّحمَة في آخر هذه المَكتوباتِ؛ ليَذكرَه النَّاظرونَ بالدُّعاءِ وقِراءةِ الفاتِحَة لرُوحِه.

بعد الحمد والصلوات وتبليغ الدعوات. ليعلم أخونا الخواجه محمد هاشم أن الأسئلة التي اندرجت في مكتوب المير محب الله وطلبت حلَّها نكتب في جوابها ما هو معلوم لنا ونرسله:

حاصل السؤال الأوّل: أن القربَ الإلهي جل سلطانه بحسب الفناء والبقاء وطي جميع مقامات الجذبة والسلوك، والأصحاب الكرام قد فضلوا على جميع أولياء الأمة بصحبة خير الأنام عليه وعليهم الصلاة والسلام مرة واحدة، فهل هذا السَّير والسلوك والفناء والبقاء حصلت لهم في تلك الصحبة الواحدة وكانت أفضل من جميع السَّير والسلوك والفناء والبقاء؟ وأيضًا هل حصل لهم الفناء والبقاء بتوجّهه وتصرفه عليه الصلاة والسلام؟ أو بمجرد دخولهم في الإسلام؟ وأيضًا هل كان لهم علمٌ بالسلوك والجذبة حالاً ومقامًا أو لا؟ فإن كان، فبأي اسم سموه؟ وإن لم يكن لهم طريق السلوك والجذبة فيمكن أن نقول لهذه بدعة حسنة؟

اعلم أن حلَّ هذا المشكل منوطٌ بالصحبة، وموقوفٌ على الخدمة فإن الكلام الذي لم يتكلّم به أحد في هذه المدة كيف يكون مفهومًا ومعقولاً لكم بكتابة واحدة؟! ولكن لمَّا سألتم لا بدَّ من الجواب ومن حله على وجه الإجمال بالضَّرورة؛ فينبغي الإصغاء إليه.

اعلم أن القرب الذي هو منوطٌ بالفناء والبقاء والسلوك والجذبة؛ هو قرب الولاية الذي تشرف به أولياء الأمة، والقرب الذي تيسّر للأصحاب الكرام في صحبة خير الأنام عليه وعليهم الصلاة والسلام؛ هو قرب النبوَّة، حصل لهم بطريق التبعية والوراثة، ولا فناء في هذا القرب ولا بقاء ولا جذبة ولا سلوك، وهذا القرب أفضل من قرب الولاية وأعلى منه بمراتب، فإن هذا القرب قرب الأصل، وذلك القرب قرب الظلال... شتان ما بينهما، ولكن لا يدرك فهمُ كلِّ أحدٍ مذاقَ هذه المعرفة، كاد الخواص أن يشاركوا العوام في عدم فهم هذه المعرفة: (شعر)

گر بـوعلـى نـواى قلـندر نــواخـتـى   صوفى بُدى هر آنكه به عالم قلندر است

نعم، إذا وقع العروج إلى ذروة كمالات قرب النبوَّة من طريق الولاية فلا مندوحة حينئذ من الفناء والبقاء والجذبة والسلوك، فإن هذه مبادٍ ومعدَّات لذلك القرب، وأمَّا إذا لم يكن السَّير من هذا الطَّريق بل وقع الاختيار على الطَّريق السلطاني لقرب النبوَّة فلا حاجة حينئذ إلى الفناء والبقاء والجذبة والسلوك، وسير الأصحاب الكرام من طريق قرب النبوَّة السلطاني، فلم يحتاجوا إلى الجذبة والسلوك والفناء والبقاء، وليُطلب بيان هذه المعرفة من المكتوب المحرر باسم أمان الله، وما كتبه الفقير في مواضع من مكتوباته ورسائله من أن معاملتي فيما وراء السلوك والجذبة ووراء الظهورات والتجلِّيات المراد به: هو هذا القرب، فإنِّي حين كنت في ملازمة حضرة شيخنا قدس سره أخذتْ هذه الدَّولة في الظهور، فعرضتها عليه بهذه العبارة: قد ظهر لي أمر السَّير الأنفسي بالنِّسبة إلى هذا الأمر كالسير الآفاقي بالنِّسبة إلى السَّير الأنفسي، ولم أجد حينئذٍ في نفسي قدرة التعبير عن هذه الدَّولة بأزيد من هذه العبارة، ولمَّا صارت هذه..............

https://t.me/kutubumm...

المعاملة العجيبة بعد سنين منقّحة ومحرَّرةً؛ حرَّرتُها بعبارة مجملة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣].

فتكون عباراتُ الفناء والبقاء والجذبة والسلوك مُحدثة ومن مخترعات المشائخ. ذكر المولوي الجامي في النفحات: أن أول من تكلّم عن الفناء والبقاء أبو سعيد الخراز قدس سره.

وحاصل السؤال الثاني: أن في الطَّريقة النقشبنديَّة العليّة التزام اتباع السنة السَنِيّة النبوية، والحال أنه عليه الصلاة والسلام والتحية صدر عنه رياضات عجيبةٍ، ومجاهدات شديدة، كالجوع الشديد، وفي هذا الطَّريق يمنعون عن الرياضة، بل يرونها بواسطة ظهور الكشوفات الصورية بها مضرة، والعجب أنه كيف يُتَصوَّر احتمال الضَّرر في اتباع السنة.

أيها المحب: مَن قال: إن الرياضةَ ممنوعةٌ في هذا الطَّريق؟ ومن أين سمع أنَّهم يرون الرياضةَ مُضِرَّة؟ وفي هذا الطَّريق دوام المحافظة على اتباع السنَّة السَنِيّة على صاحبها الصلاة والسلام والتحية، والسعي في ستر الأحوال، واختيار توسط الحال، ورعاية حد الاعتدال في المطاعم والملابس وسائر الأفعال، كل ذلك من الرِّياضات الشاقَّة، والمجاهدات الشَّديدة.

غَايةُ ما فِي البابِ: أن العوامَ كالأنعام لا يعدُّون هذه الأمور من الرِّياضات، ولا يرونها من المجاهدات، بل الرياضة والمجاهدة منحصرةٌ عندهم: في الجوع، وكثرة الجوع عظيمُ القَدْرِ فِي نَظَرِهم، فإنَّ الأكل عند هؤلاء المُتَّصِفين بصفات البهائم من أهمِّ المهام، وأعظم المقاصد، فلا جرم يكون تركه من الرياضة الشاقة، والمجاهدة الشديدة عندهم؛ بخلاف المحافظة على السنة، والتزام متابعتها وأمثالها، فإن هذه الأمور لا قَدْر لها عند العوامِّ، ولا اعتداد بها، حتى يرون تركَها من المنكرات، وتحصلَيها من الرياضات، فاللازمُ لأكابر هذه الطَّريقة أن يجتهدوا في ستر الأحوال، وترك الرياضة؛ التي هي عظيمة القدر عند العوام، وباعثةٌ على قبول الأنام، ومستلزمةٌ للشهرة المتضمِّنة على الآفات العظام.

قال عليه الصلاة والسلام: «**بِحَسبِ امْرِئٍ مِنَ الشرِّ - إِلَّا مَن عَصَمهُ اللهُ - أنْ يُشِيرَ الناسُ إِلَيْهِ بِالأَصَابعِ فِي دِينِه وَدُنيَاهُ**»، وعند الفقير الجوع الكثير أسهل وأيسر جداً من مراعاة حد الاعتدال في المأكولات، ورياضة رعاية توسط الحال مستحقةٌ لأن تكون أزيد وأفضل من رياضة كثرة الجوع.

قال حضرة والدي الماجد قدس سره: رأيت في علم السلوك رسالةً، ورأيت فيها: أن رعاية حد الاعتدال في المأكولات، والمحافظةَ على الحدِّ الوسط فيها كافيةٌ في الوصول إلى المطلوب، لاحاجة مع هذه المراعاة إلى الذكر والفكر، والحق: أن توسَّطَ الحال في المطاعم والملابس بل جميع الأمور حسنةٌ وجميلةٌ جداً: (شعر)

إِيَّـاكَ وَالْأَكْـلَ حتَّى يَـحْـدُثَ الثِّـقَـلُ وَلَا تَـجُـوعَنَّ إِلَـى أَنْ يَضْـعُفَ الْبَـدَنُ

وقد أعطى الحقُّ سبحانه نبيَّنا عليه الصلاة والسلام قوةَ أربعين رجلاً، فكان ﷺ يتحمَّل بهذه القوة ثِقَل الجوع، والأصحابُ الكرام رضوان الله عليهم أجمعين، كانوا يتحمَّلون هذا الثِّقل ببركة صحبة خير البشر عليه وعليهم الصلاة والسلام، ولم يقع فتورٌ وخللٌ في أعمالهم وأفعالهم أصلاً، وكانت قدرتهم على محاربة الأعداء مع وجود الجوع على نهج لا تبلغ قدرة أهل الشّبَعِ عُشْرها، ومن ههنا غلب العشرون من الصابرين على مائتين من الكفار، ومائة منهم على ألف منهم، وأهل الجوع من غير الصحابة، يكادون يعجزون عن إتيان الآداب والسنن، بل ربّما يخرجون عن عهدة الفرائض بالتكلّف، فتقليد الصحابة في هذا الأمر بلا قدرةٍ تعرُّضٌ للعجز عن إتيان السنن والفرائض.

نقل عن الصديق الأكبر..

ﷺ: أنه اختار صوم الوصال تقليداً للنبي ﷺ، فسقط من الضعف وعدم القوة على الأرض من غير اختيار، فقال عليه الصلاة والسلام على سبيل الاعتراض: «إِنِّي لَسْتُ كَأَحَدِكُمْ، أَبِيتُ عِنْدَ رَبِّي يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي»، فلم يستحسن التقليد بلا قدرة. وأيضاً أن الأصحاب الكرام كانوا محفوظين ومأمونين من المضرَّات المتولِّدة من كثرة الجوع، ببركة صحبة خير الأنام عليه وعليهم الصلاة والسلام، وليس ذلك ميسَّراً لغيرهم.

بيانه: أن كثرةَ الجوع مورثةٌ للصفاء ألبتة، تُورِثُ طائفةً صفاءَ القلب، وجماعةً صفاءَ النَّفس، وصفاءُ القلب يزيد الهداية، ويُورثُ النُّور، وصفاءُ النَّفس يستتبع الضَّلالة ويزيد الظلمة؛ ألا ترى أن فلاسفة اليونان، وبراهمة الهنود وجُوكيَّتهم أورثت الرياضةُ كلّهم صفاءَ النَّفس، ودلَّتهم بذلك على طريق الضلالة، وجرَّتهم إلى الخسارة؛ حتى اعتمد أفلاطون الأحمق على صفاء نفسه، وجعل الصُّور الكشفيَّة الخياليَّة مقتداه، فأُعجب بنفسه، ولم يصدق عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وكان مبعوثاً في زمنه، وقال: نحن قوم مهديُّون، لا حاجة بنا إلى من يهدينا.

فإن لم يكن فيه هذا الصفاء الموجب لزيادة الظلمة؛ لما كانت الصُّور الكشفيَّة الخياليَّة سُدَّةً في طريقه، ومانعةً له عن الوصول إلى المطلب، وقد وجد هو نفسه بسبب هذا الصفاء نورانيّاً، ولم يعلم أنَّ ذلك الصفاء لم يجاوز القشر الرقيق من نفسه الأمَّارة، وأنَّها على خبثها ونجاستها، ولم يزد فيها شيئاً سوى أن تكون كنجاسةٍ مغلَّظةٍ مُغلَّفة بغلاف رقيقٍ من السُّكر.

والقلبُ الذي هو نورانِيٌّ في حدِّ ذاته وطاهرٌ، وإنما قعد على وجهه غبارٌ من مجاورته النَّفسَ الظُّلمانيّة؛ يرجع إلى حاله الأصلي بقليلٍ من التَّصفية، ويصير نورانياً، بخلاف النَّفس؛ فإنها خبيثةٌ في حدِّ ذاتها، والظلمة من صفاتها الذاتيّة، وما لم تزك ولم تطهر بسياسة القلب، بل باتباع السُّنَّة، والتزام الشَّريعة على صاحبها الصلاة والسلام والتحية، بل بمحض فضل الله سبحانه، لا يزول عنها خبثها الذاتِيُّ، ولا يُتَصوَّر عنها الفلاح والخير، وأفلاطون قد ظنَّ صفاءَه الذي تعلّق بنفسه الأمَّارة، كصفاء القلب العِيسَوِيِّ، فتخيَّل نفسَه بالضَّرورة مهذَّباً ومُطهَّراً مثله، وحرم من دولة متابعته عليه السلام، وصار مُتَّسِماً بسِمَة الخسارة الأبديّة، أعاذنا الله سبحانه من هذا البلاء، ولما كانت هذه المضرَّة مُضمرةً ومكمونةً في طبيعة الجوع؛ ترك أكابر هذه الطَّريقة قدس الله أسرارهم رياضةَ الجوع، واختاروا رياضةَ الاعتدال في المطعومات، ومجاهدةَ رعاية الاقتصاد في سائر الحالات، وتركوا منافعَ الجوع؛ لاحتمال الضرر العظيم، وترتُّب الآفات، والآخرون لاحظوا منافعَه، وأغمضوا عن مضارِّه فرغبوا فيه، ومن المقرَّر عند العقلاء، أنه يُترَكُ المنافعُ الكثيرةُ لاحتمال المضرة اليسيرة.

وقريب من هذه المقالة، ما قاله العلماء شكر الله سعيهم: إنَّ الأمرَ إذا دار بين السُّنة والبدعة؛ الأفضلُ تركُ هذا الأمر؛ لاحتمال كونه بدعة، دون إتيانه بسبب احتمال كونه سنة، يعني: أن في احتمال كونه بدعةً؛ احتمال الضرر، وفي احتمال كونه سنَّةً؛ توقعُ المنافع، فينبغي تركه ترجيحاً لاحتمال الضرر على توقع المنافع، فلا عجب لو عرض الضَّررُ في إتيان السنة من طريق آخر، وحقيقة هذا الكلام هي: أن هذه السنة كأنها كانت مؤقتةً بذلك القرن، ولما لم يجد جماعة كونها مؤقتةً بواسطة الدِّقة والخفاء، بادروا على فعلها بالتقليد، وجماعة لما وجدوها مؤقتةً، تركوا التقليد فيها، والله سبحانه أعلم بحقيقة الحال.

والسؤال الثّالث: قد ذُكِر في كتب أكابر هذه الطَّريقة: أن نسبتنا منسوبة إلى الصديق ﷺ بخلاف سائر الطرق، فإن قال مُدَّعٍ: إن أكثرَ الطرق واصلٌ إلى الإمام جعفر الصادق، وهو..

منسوب إلى الصديق، فلم لا ينسب بقية الطرق أيضاً إلى الصديق؟

الجواب: أن للإمام نسبةً من الصديق، ونسبة من عليٍّ رضي الله تعالى عنهما، وكمالات كلٍّ واحدة من هاتين النسبتين مع وجود اجتماعهما في الإمام على حدة على حدة، ومتميزٌ بعضها عن بعض، فأخذت طائفة عنه النِّسبة الصِّديقيَّة بواسطة المناسبة الصِّديقيَّة، وانتسبوا إلى الصِّدِّيق، وأخذت جماعةٌ عنه أيضاً النِّسبة العلويَّة بالمناسبة العلويَّة، وانتسبوا إلى علي كرم الله وجهه.

وقد كنت ذهبت بلدة بنارس لحاجة ما، وهناك يجتمع نهر كنك مع نهر جمن، ومع هذا الاجتماع يُشاهَدُ أن نهر كنك غيرُ مختلطٍ بنهر جمن، بل متمايزٌ عنه، بحيث يُتوهَّمُ أن بينهما برزخاً يمنع اختلاط أحدهما بالآخر، والذين هم في طرف نهر كنك يشربون من نهر كنك، والذين هم على طرف نهر جمن يشربون من ماء نهر جمن، فإن قيل: إن الخواجه محمد پارسا قدس سره قد حقق في رسالته القدسية أن الإمام علياً كرم الله وجهه كما أنه وجد التربية من خاتم الرسالة عليه وعلى آله الصلاة والسلام والتحية كذلك وجد التربية من الصديق ﵁، فتكون نسبة عليٍّ عين نسبة الصديق، فماذا يكون الفرق بينهما؟

قلنا: إن خصوصيات المحال مع وجود اتحاد النِّسبة باقية على حالها، وقد يعرض لماء واحد بواسطة تعدد المحال خصوصيات متميزة، فيجوز أن ينسب إلى كلٍّ منهما طريق بالنظر إلى خصوصية كل منهما.

وحاصل السؤال الرّابع هو: أنه قد حرر في مكتوب ملّا محمد صديق: أنه إذا كان لشخصٍ استعداد الولاية الموسوية، لا يدري أن صاحب تصرف هل يقدر على إخراجه إلى الولاية المحمدية أو لا؟ وحُرِّر في مكتوب المخدوم زاده الأكبر قدس سره: بأنِّي أخرجتك من الولاية الموسوية إلى الولاية المحمدية، فما وجه التوفيق؟

الجواب: أن الواقع في مكتوب ملا محمد صديق هو: أن الإخراج من الولاية الموسوية إلى الولاية المحمدية ليس بمعلوم الوقوع، ولم يكن في ذلك الوقت علمٌ بوقوع هذا الأمر، ولمَّا صار معلوماً بعد ذلك وحصلت قدرة التغيير والتبديل؛ كتبت بأنِّي أخرجتك من هذه الولاية إلى تلك الولاية، فلم يوجد اتِّحاد الزمان حتى يُتصوَّرَ التناقض.

وحاصل السؤال الخامس: أن الصوفيَّة هنا يلبسون قميصاً مشقوقَ الجيب على الصدر، ويقولون: إن السُّنَّة هي هذا، وأصحاب المير يلبسون قميصاً مدوَّرَ الجيب، فما تحقيق ذلك؟

اعلم أنا نحن أيضاً في التردد في هذا الباب، فإن العرب يلبسونه مشقوقَ الجيب على الصدر، ويرونَه سنةً، ويُفهم من بعض الكتب الحنفية: أنه لا ينبغي للرجال لبس قميص مشقوق الصدر؛ لكونه لباس النساء، روى الإمام أحمد وأبو داود عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**لُعِنَ رَجُلٌ يَلْبَسُ لُبْسَ الْمَرْأَةِ، وَلُعِنَتِ امْرَأَةٌ تَلْبَسُ لُبْسَ الرَّجُلِ**»، وفي «مطالب المؤمنين»: ولا تتشبَّه المرأة بالرجال، ولا يتشبَّه الرجل بالنساء، فإن كلا الفريقين ملعونٌ، بل يفهم أن القميص المشقوقَ الصدرِ، ليس من لباس أهل الدين وأهل العلم، ولهذا جوَّزوه لأهل الذمة في «جامع الرموز» نقلاً عن «المحيط»: فلا يلبس أي: الذميُّ ما يختصُّ بأهل الدِّين والعلم: كالرداء والعمامة؛ بل قميصاً خشِناً من الكرباس، جيبه على صدره كالنساء، وأيضاً: إن مشقوق الجيب على الصدر ليس قميصاً على قول بعض العلماء؛ بل هو دِرع، وإنَّما القميص عندهم: ما يكون مشقوقَ الجيب على المنكبين في «جامع الرموز» في بيان كفن المرأة، وفي «الهداية»: بدل القميص الدرع، وفرق بينهما: أن شقَّه إلى الصدر، والقميص إلى المنكب، وقالوا: بالترادف.

والصواب عند الفقير هو: أنه لما كان الرجال ممنوعين عن التشبُّه بالنساء؛ توقف الحكم على معرفة..............

عادة النساء، فننظر: إذا كان في محلٍّ تلبس فيه النساء قميصاً شقه على الصدر؛ ينبغي أن يترك الرجال لبسه؛ لئلا يتشبهوا بالنساء، وأن يلبسوا قميصاً شقه على المنكب، وإذا كان في محلٍّ تلبس فيه النساء قميصاً شقه على المنكب يختار الرجال قميصاً شقه على الصدر، ففي بلاد العرب: تلبس النساءُ قميصاً مدوَّر الجيب، فيلبس الرجال ما شقه على الصدر بالضَّرورة، وفي ما وراء النهر والهند: تلبس النساء قميصاً شقه على الصدر فيختار الرجال قميصاً شقه على المنكب بالضَّرورة.

قال الشَّيخ ميان عبد الحق: كنت في مكة فرأيت واحداً من مريدي الشَّيخ نظام النارنولي يطوف بالبيت، لابساً قميصاً مدوَّر الجيب، وصار جمع من العرب يتعجَّبون من قميصه قائلين: إنه لبس قميص النساء، فباعتبار العرف والعادة: يكون عمل كل من العرب والهند وأهل ما وراء النهر صواباً، ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة: ١٤٨].

فلو ثَبتت سُنِّية لبس القميص المشقوق على الصدر؛ لما جوَّز علماء الحنفية لبسه لأهل الذمة، ولما جعلوا خلافه مخصوصاً بأهل العلم والدين، ولما كانت النساء أقدم وأسبق في هذا اللباس من الرجال، جعلوا لباس الرجال هنا تابعاً للباس النساء.

وحاصل السؤال السادس هو: أنَّ توجّه الطالب في هذا الطَّريق لما كان إلى الأحدية الصرفة من ابتداء الأمر؛ كان اللازم أن لا يجتمع هذا التوجّه مع النفي والإثبات، فإن التوجّه وقت النفي إلى الغير.

الجواب: إن التوجّه إلى الغير إنّما هو لتقوية التوجّه إلى الأحدية وتربيته، والمقصود من نفي الغير: حصول دوام ذلك التوجّه من غير مزاحمة الأغيار، فالتوجّه إلى نفس الغير ليس بمنافٍ للتوجّه إلى الأحدية، وإنما المنافي له: التوجّه إلى الغير، لا التوجّه إلى نفي الغير، شتَّان ما بينهما.

وحاصل السؤال السابع هو: إن كلَّ ذكرٍ يُستعمل باللسان يستعمله المبتدؤون في هذه الطَّريقة بالقلب، فالنفي والإثبات هل يستعمل جميعه بالقلب أو لا؟ بل بعضه بالقلب وبعضه بغيره؟ فإن كان المستعمل بالقلب جميعه؛ فكيف يستقيم مد (لا) إلى فوق؟ وصرفُه إلى يمين؟

الجواب: ما النقصان إن كان المستعمل بالقلب جميعه فإن (لا) يمد بالقلب إلى فوق ويصرف (إله) إلى يمين ويجر (إلا الله) نحوه؛ أي: القلب مع أن النفي والإثبات في هذا الطَّريق بالتخيل لا دخل فيه للسان والحنك أصلاً حتى يشترط مواطأة القلب والقول وهذان السؤلان الأخيران من قبيل تشكيكات الفخر الرازي فلئن تأملتم فيهما تأملاً جيداً لاندفعا، بقية المرام أن بعض الأصحاب الموجودين هناك قد كتب مكرراً أن المير قليل الالتفات إلى أحوال الطالبين في هذه الأيّام ومشغول بالعمارة ويصرف مبلغ الفتوح في خرج العمارة ويبقى الفقراء محرومين وكتبوا هذه المقدَّمات على نهج يفهم منه شائبة الاعتراض وتفوح رائحة الإنكار فليعلموا أن إنكار هذه الطَّائفة سم قاتل والاعتراض على أفعال هؤلاء الأكابر وأقوالهم سم الأفعى يؤدي إلى الموت الأبديّ ويفضي إلى الهلاك السرمدي فكيف إذا كان هذا الإنكار والاعتراض راجعاً إلى الشَّيخ وكان سبباً لإيذائه ومنكر هذه الطَّائفة محروم من بركاتهم والمعترض عليهم خائب وخاسر في جميع الأوقات وما لم يكن جميع حركات الشَّيخ وسكناته مستحسنة في نظر المريد لا ينال نصيباً من كمالاته فإن نال يكون استدراجاً ويكون عاقبته هلاكاً وبواراً وفضيحة ودماراً فإن وجد المريد في نفسه مجال الاعتراض على الشَّيخ مقدار شعرة مع وجود كمال محبته وإخلاصه له فليوقن أن ذلك ليس إلا خيبته وخسارته وحرمانه من كمالات الشَّيخ أو رزالته فإن خطر في قلب المريد فرضاً شبهة في فعل من أفعال الشَّيخ ولم تندفع بالدفع فليستفسره ....

عنه على نهج يكون خالياً عن شائبة الاعتراض ومبرأ عن مظنة الإنكار وحيث كان المحق والمبطل ممتزجان وملتبسان في هذا الزمان فلو ظهر من الشَّيخ أمر مخالف للشريعة أحياناً ينبغي للمريدين أن لا يقلدوه فيه بل يطلبون له محملاً بحسن الظن مهما أمكن ويبتغون وجه صحته فإن لم يظهر وجه الصحة ينبغي أن يلتجئوا ويتضرّعوا إلى الحق سبحانه في دفع هذا الابتلاء عنهم ويطلبوا منه تعالى سلامة الشَّيخ وعافيته بالبكاء والابتهال فإن عرض للمريد شبهة في حق الشَّيخ لارتكابه الأمر المباح لا تعتبر تلك الشبهة ولا يعبأ بها فإنه إذا لم يمنع مالك الأمور جل سلطانه عن إتيان المباح ولم يعترض على فاعله كيف يسوغ لغيره سبحانه أن يعترض عليه من قبل نفسه وكم من مواضع يكون فيه ترك الأولى أولى من إتيانه وقد ورد في الحديث: «**إنَّ اللهَ تعالى يُحبُّ أن تُؤتَى رُخصُه كما يُحبُّ أن تُؤتَى عَزائِمه**» وحيث كان في الشَّيخ المير قبض مفرط كيف يسوغ الاعتراض عليه إن لم يلتفت إلى أحوال المريد، ولم يشتغل بهم وطلب تسليه من بعض الأمور المباحة وكان عبد الله الاصطخري يذهب إلى الصحراء مع كلاب الصيد لتسلية نفسه وبعض المشائخ كانوا يطلبون تسليهم في السماع وأصوات النغمة والسلام على من اتبع الهدى والتزم متابعة المصطفى عليه وعلى آله أتم الصلوات وأكمل التسليمات.

العريضة الأولى من العرائض التي كَتَبَها المخدوم زاده الأعظم عليه الرَّحمة والغفران: عريضة أقل العبيد محمد صادق أنهي إلى العرض الأشرف أن أحوال هذه الحدود وأوضاعها على الجمعيَّة الصورية والمعنوية بيمن التوجّهات العليّة وقد كان الخاطر متفرقاً ومتشتتاً منذ مدة من طرف خدمة الحضرة فقدم الميان بدر الدين يوم تحرير العريضة وبلغ خبر العافية الكاملة فحصل فرح غير محدود وسرور غير محصور الحمد لله على ذلك حمداً كثيراً ويا قبلتي أن الحافظ بهاء الدين ختم القرآن المجيد في الليلة الثّالثة عشرة وشرع الحافظ موسى في الليلة الرّابعة عشرة وقرأ في كل ليلة خمسة أجزاء خمسة أجزاء ويختم الليلة الآتية التي هي التاسعة عشرة وتقرر الحافظ بهاء الدين للختم في العشر الأخير المقصود سلامة الحضرة وبينما الحافظ يقرأ القرآن ليلة في التراويح ظهر مقام وسيع كثير النورانية كأنه كان مقام الحقيقة القرآنية وإن لم يمكن الجراءة على ادعاء ذلك وصار معلوماً أن الحقيقة المحمدية على صاحبها الصلاة والسلام والتحية إجمال هذا المقام وكأنها بحر كبير مليئ في كوز وفي هذا المقام تفصيل الحقيقة المحمدية ولأكثر الأنبياء وكمل الأولياء نصيب من بعض هذا المقام على قدر استعداداتهم ولا يدرى حصول نصيب من تمام ذلك لغير نبينا عليه الصلاة والسلام وهذا الحقير أيضاً نال منه نصيباً رزقنا الله سبحانه نصيباً كاملاً منه ببركة التوجّه العالي وذلك المقام لم يتضح إلى الآن كما ينبغي وبقية الأحوال على الجمعيَّة ويفهم في هذا الشهر حصول بركة كثيرة وأوضاع أخي محمد سعيد طيبة أوقاته مصروفة بالجمعيَّة والذكر وأهل البلد أيضاً يحضرون بالذوق التام وقد حفظ الفقير إلى الآن أربعة أجزاء وشيئاً فوقها ويحفظ إلى يوم العيد خمسة أجزاء تخميناً، والعبودية، العريضة الثّانية عريضة أقل العبيد محمد صادق أنهي إلى ذروة العرض أن أحوال هذه الحدود وأوضاعها مستوجبة للشكر والمطلوب والمسؤول خيرية ذلك الجناب مع جميع الخدام والأصحاب وقد حصل الابتهاج بمطالعة النميقة الأنيقة والصحيفة الشريفة المرسلة مع إسماعيل مد الله سبحانه ظلال عطوفة حضرة القبلة على كافة أهل........................

الإسلام وأبقاها بحرمة النبي وآله الأمجاد عليه وعليهم الصلاة والسلام ويا قبلتي ماذا أكتب من سوء الأحوال لا بضاعة لي غير الحسرة والندامة على صدور سوء الأعمال وتضييع الأحوال الحاصلة في الماضي والحال والمتمنى أن لا تفوت لحظة ولا ساعة في خلاف رضائه تعالى وهو لا يتيسّر إلا أن يمد خدام ذلك الجناب ويأخذوا بيدي:

(ع) لَا عُسْــرَ فِـي أَمْـرٍ مَـعَ الْـكِـرَامِ

لله الحمد والمنة على نعمة الاستقامة إلى الآن على طريق أمرتم به ولم يتطرق إليه فتور بيمن التوجّه الشَّريف بل نرجو الترقِّي والتزايد يوماً فيوماً وتنعقد الصحبة بعد الفجر والظهر والحافظ بهاء الدين إذا فرغ من الترددات ووجد الفرصة يشتغل بقراءة القرآن والفقير مقبوض مرة ومبسوط أخرى والقبض والبسط والتوجّه والذوق والسكون وغيرها تتعلّق بالبدن فقط لا تتجاوزه إلى غيره واللطائف الستة ليست بمتوجّهة ولا غافلة فإن كانت متوجّهة فتوجّهها مثل العلم الحضوري عينه وأرى التوجّه والذوق وأمثالهما داخلة في الظلال لا أجدها مجاوزها وكانت اللطائف أولاً مختلطة بالبدن ولم يكن أمر سوى البدن مفهوماً في نظر البصيرة كما كنت عرضته في الحضور الموفور السرور والآن أجدها ممتازة عن البدن وأرى ذلك المقام مقام البقاء وبعد البقاء عرض أيضاً نوع من الفناء للطائف وفهم أن الأمر لا يتم بدون هذا الفناء الذي يكون بعد البقاء وأنا الآن مقبوض منذ أيام ومعاملة السرور قليلة ننظر ماذا يظهر بعد ذلك وإلى الآن لم يحصل التوجّه إلى العالم وحيث كان عرض الأحوال ضروريّاً تجاسرنا بتحرير كلمات ويا قبلتي أرى الحضرة في المنام في كل ليلة إلا ما شاء الله وماذا أكتب أزيد من ذلك فإن الزيادة داخلة في التكلّفات الرسمية والسلام، والعبودية، العريضة الثّالثة عريضة أقل العبيد محمد صادق أنهي إلى موقف العرض أن هذا الحقير كان مقبوضاً ومغموماً من مدة فأدركت العناية الإلهيّة آخر الأمر بمحض التوجّه الأقدس وحصل بسط عظيم وصار معلوماً في ذلك البسط أن الذكر والتوجّه مثلاً كانا أولاً من جانب هذا الشَّخص والآن كل شيء من جانبه تعالى وتقدس ولا أجد في نفسي غير قابليَّة لقبول ما يرد من جانبه تعالى كمرآة تطلع عليها الشمس فاحترق بذلك الطلوع كل ظلمة وكدورة في البدن واللطائف وحصل لها كل نور وبركة كما ينبغي فانشرح الصدر واتسع القلب وصار البدن كالنور مضيئاً أَلْطَفَ من الروح والسر اللذين كانا قبل ذلك ووجدت التجلِّي الأكمل من بين اللطائف للقلب فلما نظرت إلى القلب ظهر أن في القلب قلباً آخر والتجلِّي له فلما نظرت إلى قلب القلب ظهر أن في ذلك القلب قلباً آخر وهكذا إلى غير النهاية فلم يظهر قلب بسيط إلا وفيه قلب آخر ولكن يتوهم الآن أنه انتهى إلى قلب بسيط وليس ذلك بمتيقن وعلم أن الحالات المتقدمة على هذه الحالة بالنِّسبة إليها كانت كلها تكلّفات صرفة وقد كان خطر لي اسم هذا المقام ولكن ما كتبته تحامياً عن سوء الأدب فيا قبلتي أن هذه كلها أثر يسير من آثار التوجّه الأطهر: (شعر) فَلَوْ أَنَّ لِي فِي كُـلِّ مَنْبَـتِ شَـعْرَةٍ لِسَـانـاً يَبُثُّ الشُّـكْرَ كُنْتُ مُقَصِّـرَا

والمرجو سلامة الحضرة وكيف أكتب تمني نيل ملازمة خدام الجناب وكيف أشرحه والتصور ليلاً ونهاراً بل في كل ساعة أنه في أي وقت مسعود وفي أي ساعة سعيد حصل المطلب الأعلى والمقصد الأعز ولا تمني لي غير هذا التمني يسر الله سبحانه هذه الدَّولة العظمى بأحسن الوجوه وأوفق الطرق بحرمة النبي وآله الأمجاد عليه وعليهم من الصلوات أتمها وأكملها في العبودية.

قد تم الجزء الأول من معرب المكتوبات ويليه الجزء الثاني للشيخ المذكور نفع الله به.

الفهرس

https://t.me/mufidatun

المكتوبات للإمام الرباني

فهرس المحتويات

https://t.me/kutubumuficetup

https://t.me/kutubnmutidatun

https://t.me/kutubtumhudat

https://t.me/kutubhumulataun

https://t.me/kutubumufidatun

https://t.me/kutubumufidatun

https://t.me/kutubumuftiatun

https://t.me/kutubumm...

الفهرس

https://t.me/kutubnuslatun

https://t.me/kutubmumtaz